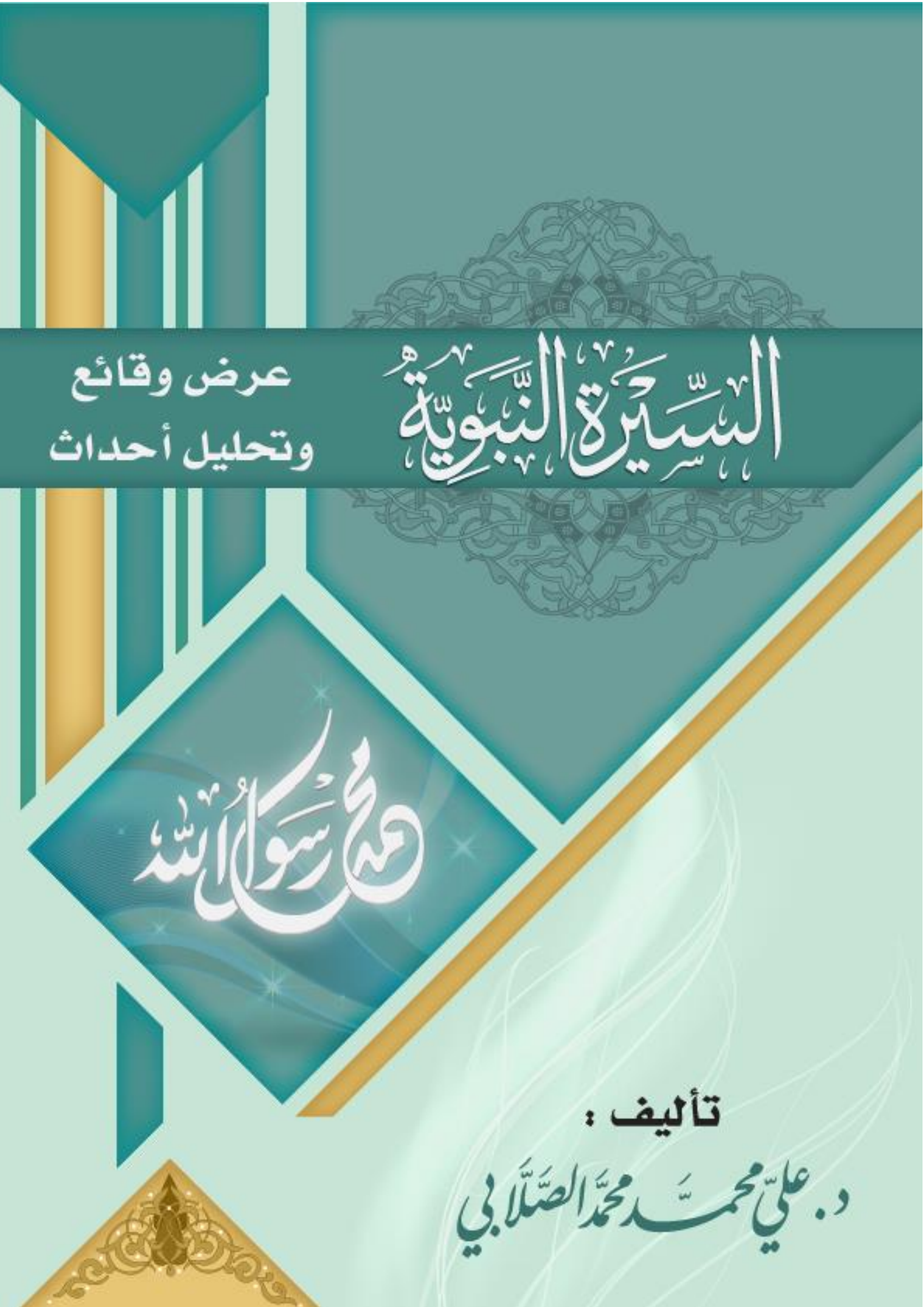


السيرة النبوية
عرض وقائع
وتحليل أحداث
محمد رسول الله
تأليف :
د. علي محمد محمد الصلابي

السيرة النبوية

الطبعة الأولى

1425 هـ 2004 م

السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

(دروس وعبر)

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصلابي



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:1]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 70 – 71] .

يا ربِّ! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك. لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرِّضا.

أمَّا بعد:

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهمِّيَّتها لكلِّ مسلمٍ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ؛ من أهمِّها: الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيَّته صلى الله عليه وسلم ، وأعماله، وأقواله، وتقريراته، وتكسب المسلم محبَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وتُنمِّيها، وتُباركها، وتعرفه بحياة الصَّحابة الكرام، الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدعوه تلك الدِّراسة لمحبَّتهم، والسَّير على نهجهم، واتباع سبيلهم، كما أنَّ السِّيرة النَّبويَّة توضح للمسلم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بدقائقها، وتفاصيلها منذ ولادته؛ وحتى موته، مروراً بطفولته، وشبابه، ودعوته، وجهاده، وصبره، وانتصاره على عدوّه وتُظهِر بوضوحٍ: أنَّه كان زَوْجاً، وأباً، وقائداً، ومحارباً، وحاكماً، وسياسيا، ومُربِّياً، وداعيةً، وزاهداً، وقاضياً، وعلى هذا فكلُّ مسلم يجد بُغيته فيها[1].

فالدَّاعية يجد له في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أساليب الدَّعوة، ومراحلها المتسلسلة، ويتعرَّف على الوسائل المناسبة لكلِّ مرحلةٍ من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله

[1] انظر: السِّيرة النبويَّة دراسة وتحليل ، د. محمد أبو فارس ، ص (50).

بالنَّاس، ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الَّذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التَّصرُّف أمام العوائق، والعقبات، والصعوبات، وما هو الموقف الصَّحيح أمام الشَّدائد، والفتن.

ويجد المربِّي في سيرته صلى الله عليه وسلم دروساً نبويَّةً في التَّربية، والتأثير على النَّاس بشكلٍ عامٍّ، وعلى أصحابه الَّذين ربَّاهم على يده، وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنياً فريداً، وكوَّن منهم أمَّةً هي خير أمةٍ أخرجت للنَّاس؛ تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولةً نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها.

ويجد القائد المحارب في سيرته صلى الله عليه وسلم نظاماً محكماً، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش، والقبائل، والشعوب، والأمَّة، فيجد نماذج في التخطيط واضحةً، ودقَّة في التنفيذ بيِّنةً، وحرصاً على تجسيد مبادىء العدل، وإقامة قواعد الشُّورى بين الجند والأمراء، والرَّاعي والرَّعيَّة.

ويتعلَّم منها السِّياسيُّ كيف كان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أشدِّ خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبيِّ بن سلول، الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر، والبغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان يحيك المؤامرات، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لإضعافه، وتنفير النَّاس منه، وكيف عامله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصبر عليه، وعلى حقده، حتَّى ظهرت حقيقته للناس؛ فنبذوه جميعاً، حتى أقرب الناس إليه، وكرهوه، والتفُّوا حول قيادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى؛ لأنَّها هي المفسِّرة للقرآن الكريم في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول، وتفسيرٌ لكثير من الآيات، فتعينهم على فهمها، والاستنباط منها، ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشَّرعيَّة، وأصول السِّياسة الشَّرعيَّة، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ، والمنسوخ، وغير ذلك من العلوم، وبذلك يتذوَّقون روح الإسلام، ومقاصده السامية. ويجد فيها الزُّهاد معاني الزُّهد، وحقيقته، ومقصده، ويستقي منها التُّجار مقاصد التجارة، وأنظمتها، وطرقها، ويتعلَّم منها المبتلوْن أسمى درجات الصَّبر والثَّبات، فتقوى عزائمهم على السير في طريق

دعوة الإسلام، وتعظم ثقتهم بالله – عزَّ وجل – ويوقنون بأنَّ العاقبة لِلمتَّقين[1].

وتتعلَّم منها الأمَّة الآداب الرَّفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السَّليمة، والعبادة الصحيحة، وسموَّ الرُّوح، وطهارة القلب، وحبَّ الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهاد في سبيله، ولهذا قال عليُّ بن الحسن: «كنا نُعَلَّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نُعَلَّم السُّورة من القرآن»، وقال الواقديُّ: سمعت محمَّد بن عبد الله يقول: سمعت عمِّي الزُّهريَّ يقول: «في علم المغازي علم الآخرة والدُّنيا».

وقال إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعدُّها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم، فلا تضيِّعوا ذكرها»[2].

إنَّ دراسة الهدي النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزِّ الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السُّقوط، ويتعرَّفون على فقه النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدَّولة، فيرى المسلم حركة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الدَّعوة، والمراحل الَّتي مرَّ بها، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة، وتخطيطه الدَّقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدَّعوة، وعرضه لها على القبائل في المواسم، وتدرجه في دعوة الأنصار، ثمَّ هجرته المباركة إلى المدينة.

إنَّ من تأمَّل حادثة الهجرة، ورأى دقَّة التَّخطيط، ودقَّة التنفيذ، من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أنَّ التخطيط المسدَّد بالوحي في حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم قائمٌ، وأن التخطيط جزء من السُّنَّة، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كلِّ ما طولب به المسْلمُ.

إنَّ المسلم يتعلَّم من المنهاج النبويِّ كلَّ فنون إدارة الصِّراع، والبراعة في إدارة كل مرحلة، وفي الانتقال من مستوى إلى آخر، وكيف واجه القوى المضادَّة من اليهود، والمنافقين، والكفار، والنَّصارى، وكيف تغلَّب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى، والالتزام بشروط النَّصر، وأسبابه، الَّتي أرشد إليها المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم.

---

[1] انظر: مدخل لدراسة السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، ص (14).

[2] انظر: البداية والنهاية (242/2).

إنَّ قناعتي راســخةٌ في أن التمكين لهذه الأمَّة، وإعادة مجدها، وعزَّها، وتحكيم شــرع ربِّها منوطٌ بمتابعة الهدي النَّبويِّ. قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور: 54] .

فقد بيَّنت الآية الكريمة: أنَّ طريق التَّمكين في متابعة النبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، فقد جاءت الآيات الَّتي بعدها تتحدَّث عن التمكين، وتوضِّح شروطه قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 55، 56] .

وقد قام رســول الله صــلى الله عليه وســلم ، وأصــحابه بتحقيق شــروط التمكين، فحقَّقوا الإيمان بكلِّ معانيه، وجميع أركانه، ومارسـوا العمل الصَّـالح بكلِّ أنواعه، وحرصـوا على كلِّ أنواع الخير، وصــنوف البرِّ، وعبدوا الله عبوديةً شــاملةً في كلِّ شــؤون حياتهم، وحاربوا الشِّــرك بكلِّ أشــكاله، وأنواعه، وخفاياه، وأخذوا بأســباب التمكين المادِّيَّة والمعنوية على مســتوى الأفراد والجماعة، حتى أقاموا دولتهم في المدينة، ومن ثَمَّ نشروا دين الله بين الشُّعوب والأمم.

إنَّ تأخر المسلمين اليــوم عن القيــادة العالمية لشعوب الأرض نتيجةٌ منطقيَّــةٌ لقومٍ نَسوا رسالتهم، وحطُّوا من مكانتها، وشــابوا معدنهـا بركامٍ هائلٍ من الأوهام في مجال العلم، والعمل على حدٍّ سواءٍ، وأهملوا السُّنن الرَّبَّانيَّة، وظنُّوا أنَّ التَّمكين قد يكون بالأماني، والأحلام.

إنَّ هذا الضـعف الإيماني، والجفاف الروحي، والتخبُّط الفكري، والقلق النَّفسـي، والشَّـتات الذِّهني، والانحطاط الخلقي؛ الَّذي أصـاب المسـلمين سببه تلك الفجوة الكبيرة الَّتي حدثت بين الأمَّة، والقرآن الكريم، والهدي النبويِّ الشــريف، وعصــر الخلفاء الراشــدين، والنقاط المشــرقة المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدِّثين باسم الإسلام، وهم بعيدون كلَّ البعد عن القرآن الكريم، والهدي النبويِّ، وســيرة الخلفاء الرَّاشــدين، وأدخلوا في خطابهم مصــطلحات جديدة، ومفاهيم مائعة؛ نتيجة الهزيمة النفســيَّة أمام الحضــارة الغربيَّة، وأصــبحوا يتلاعبون بالألفاظ، ويَلوونها، ويتحدَّثون السَّــاعات الطوال، ويدبِّجون المقالات، ويكتبون الكتب في فلســفة الحياة،

والكون، والإنسان، ومناهج التغيير، ولا نكاد نلمس في حديثهم، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التَّمكين، وسنن الله في تغيير الشعوب، وبناء الدول، من خلال القرآن الكريم، والمنهاج النبويّ الشَّريف، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم، أو تقصِّياً لتاريخنا المجيد، فيخرجون لنا عوامل النُّهوض عند نور الدِّين محمود، أو صلاح الدِّين، أو يوسف بن تاشفين، أو محمود الغزنوي، أو محمَّد الفاتح، ممن ساروا على الهدي النبويِّ في تربية الأمة، وإقامة الدَّولة، بل يستدلُّون ببعض الساسة، أو المفكرين، والمثقفين من الشرق أو الغرب ممَّن هم أبعد الناس عن الوحي السَّماوي، والمنهج الرَّبانيّ.

وأنا لست ممَّن يعارض الاستفادة من تجارب الشُّعوب والأمم؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن، فهو أحق بها أنَّى وجدها، ولكنِّي ضدُّ الَّذين يجهلون، أو يتجاهلون المنهاج الرَّبانيَّ، وينسون ذاكرة الأمَّة التَّاريخيَّة المليئة بالدُّروس، والعبر، والعظات، ثمَّ بعد ذلك يحرصون على أن يتصدَّروا قيادة المسلمين بأهوائهم، وآرائهم البعيدة عن نور القرآن الكريم، والهدي النَّبويِّ الشَّريف.

وما أجمل ما قاله ابنُ القيِّم رحمه الله:

والله ما خوفي الذُّنوب فإنَّها ... لعلَى طريقِ العَفْوِ والغُفْرانِ
لكنَّما أخشى انسلاخ القَلْبِ ... تحكيم هذا الوَحْي والقرآن
ورضاً بآراء الرِّجال وَخَرْصِهَا ... لا كان ذاك بمنَّةِ الرَّحمنِ

إنَّنا في أشدِّ الحاجة لمعرفة المنهاج النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة، ومعرفة سنن الله في الشُّعوب، والأمم، والدُّول، وكيف تعامل معها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس، حتَّى نتلمَّس من هديه صلى الله عليه وسلم الطريق الصَّحيح في دعوتنا، والتمكين لديننا، ونقيم بنياننا على منهجيَّةٍ سليمةٍ، مستمدَّةٍ أصولها وفروعها من كتاب ربنا وسنَّة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخر وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: 21] .

لقد كان فقه النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة شاملاً، ومتكاملاً، ومتوازناً، وخاضعاً لسنن الله في المجتمعات، وإحياء الشعوب، وبناء الدُّول، فتعامل صلى الله عليه وسلم مع هذه السُّنن في غاية الحكمة، وقمَّة الذَّكاء، كسنَّة التَّدرُّج، والتَّدافع، والابتلاء، والأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس.

وغرسَ صــلى الله عليه وســلم في نفوس أصــحابه المنهج الرَّبَّانيَّ، وما يحمله من مفاهيم، وقيم، وعقائد وتصوُّراتٍ صحيحةٍ عن الله، والإنسان، والكون، والحياة، والجنَّة، والنَّار، والقضاء، والقدر، وكان الصَّــحابة رضــي الله عنهم يتأثَّرون بمنهجه في التربية غاية التأثُّر، ويحرصــون كلَّ الحرص على الالتزام بتوجيهاته، فكان الغائب إذا حضر من غيبته؛ يسأل أصحابه عمَّا رأوا من أحوال النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، وعن تعليمه، وإرشــاده، وعمَّا نزل من الوحي حال غيبته، وكانوا يتَّبعون خُطَى الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم ، في كلِّ صـغيرةٍ وكبيرةٍ، ولم يكونوا يقصـرون هذا الاستقصاء على أنفسهم، بل كانوا يلقِّنونه أبناءهم، ومن حولهم.

ففي هذا الكتاب تقصٍّ لأحداث السِّــيرة، فيتحدَّث الباحث عن أحوال العالم قبل البعثة، والحضـارات السَّـائدة، والأحوال السياسية، والاقتصـاديَّة، والاجتماعيَّة، والخلقيَّة في زمن البعثة، وعن الأحداث المهمَّة قبل المولد النَّبويِّ، وعن نزول الوحي، ومراحل الدَّعوة، والبناء التَّصــوُّريِّ، والأخلاقيِّ، والتَّعبُّديِّ في العهد المكِّيِّ، وعن أســاليب المشــركين في محاربة الدَّعوة، وعن الهجرة إلى الحبشــة، ومحنة الطَّائف، ومنحة الإســراء والمعراج، والطَّواف على القبائل، ومواكب الخير، وطلائع النُّور من أهل يثرب، والهجرة النبوية، ويقف الكتاب بالقارئ على الأحداث، مستخرجاً منها الدُّروس، والعبر، والفوائد؛ لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر. وتحدَّث الباحث عن حياة النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، منذ دخوله المدينة إلى وفاته، وبَيَّن فقه النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم في إرســاء دعائم المجتمع، وتربيته، ووســائله في بناء الدَّولة، ومحاربة أعدائها في الدَّاخل، والخارج، فيقف الباحث على فقه النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم في ســياســة المجتمع، ومعاهدته مع أهل الكتاب التي سُــجِّلت في الوثيقة، وحركته الجهادية، ومعالجته الاقتصــادية، والارتقاء بالمسـلم نحو مفاهيم هذا الدِّين؛ الَّذي جاء لإنقاذ البشـرية من دياجير الظَّلام، وعبادة الأوثان، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال.

وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السِّيرة النَّبويَّة في أذهان الكثير من أبناء الأمَّة، ففي العقود الماضية ظهرت دراساتٌ رائعةٌ في مجال السيرة النَّبوية، وكتب الله لها قبولاً، وانتشـاراً، كالرَّحيق المختوم، لصـفي الدِّين المباركفوري، وفقه السِّـيرة للغزالي، وفقه السـيرة النبوية للبوطي، والسِّيرة النبويَّة لأبي الحسن النَّدوي، وكانت هذه الدراسـات مختصـرةً، ولم تكن شـاملةً لأحداث السِّــيرة، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب، وظنَّ بعض طلاَّبها: أنَّ من اســتوعب هذه

الكتب فقد أحاط بالسِّيرة النَّبويَّة، وهذا خطأٌ فادحٌ، وخطيرٌ في حقِّ السِّيرة النَّبويَّة المشرَّفة، وقد تسرَّب هذا الأمر إلى بعض أئمَّة المساجد، وبعض قيادات الحركات الإسلاميَّة، وانعكس ذلك على الأتباع، فحدث تصوُّرٌ ناقصٌ للسِّيرة عند كثيرٍ من الناس، وقد حذَّر الشَّيخ محمَّدُ الغزاليُّ من خطورة هذا التصوُّر في نهاية كتابه (فقه السِّيرة)، فقال: قد تظنُّ: أنَّك درست حياة محمَّد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأٌ بالغٌ. إنَّك لن تفقه السِّيرة حقّاً إلا إذا درست القرآن الكريم، والسُّنَّة المطهَّرة، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيِّ الإسلام صلى الله عليه وسلم [1] .

ففي هذه الدِّراسة يجد القارئ تسليط الأضواء على البعد القرآنيّ، الَّذي له علاقةٌ بالسِّيرة النبويَّة، كغزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني النَّضير، وصلح الحديبية، وغزوة تبوك، فبيَّن الباحث الدُّروس، والعبر، وسنن الله في النَّصر، والهزيمة، وكيف عالج القرآن الكريم أمراض النُّفوس من خلال الأحداث والوقائع.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة تُعطي كلَّ جيلٍ ما يفيده في مسيرة الحياة، وهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ، ومكانٍ، ومُصلحةٌ كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القرآن الكريم، والسِّيرة النَّبويَّة، فكانت من أفضل أيَّام حياتي، فنسيت أثناء البحث غربتي، وهجرتي، وتفاعلت مع الدُّرر، والكنوز، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر، فعملت على جمعها، وترتيبها، وتنسيقها وتنظيمها، حتى تكون في متناول أبناء أُمَّتي العظيمة، وقد لاحظت التَّفاوت في ذكر الدُّروس، والعبر، والفوائد، والأحداث بين كُتَّاب السِّيرة قديماً، وحديثاً، فأحياناً يذكر ابن هشام ما لم يذكره الذَّهبيُّ، ويذكر ابن كثيرٍ ما لم يذكره أصحاب السُّنن، هذا قديماً.

أمَّا حديثاً، فقد ذكر السِّباعي ما لم يذكره الغزاليُّ، وذكر البوطيُّ ما لم يذكره الغضبان، وهكذا وجدت في التَّفسير، وشروح الحديث، كفتح الباري، وشرح النَّوويِّ، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كُتَّابُ السِّيرة قديماً، ولا حديثاً، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدُّروس، والعبر، والفوائد، ونَظَمْتُها في عِقْدٍ جميلٍ يسهل الاطِّلاع عليه، ويساعد القارئ على تناول تلك الثِّمار اليانعة بكلِّ سهولةٍ.

---

[1] انظر: فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص (476).

إنَّ في هذا الكتاب حصيلةً علميَّةً، وأفكاراً عمليَّة جُمِعت من مئات المراجع، والمصادر، وقد أســـهم في إخراج هذا الجهد إخوةٌ كثيرون من ليبيا، واليمن، والعراق، ومصـــر، والسُّـــودان، والسُّعودية، والإمارات، وقطر، وبلاد الشام بالحوار، والنقاش، والنَّدوات، فأفاد بعضهم بالإشارة إلى بعض المراجع، والمصادر النَّادرة، وعمل على توفيرها، والبعض الآخر أرشد إلى ضرورة التَّركيز على السُّــنن، والقوانين الَّتي تعامل معها النَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم في حركته المباركة كقانون الفرصة في فتح خيبر، وفتح مكَّة، وأشار البعض إلى أهمِّيَّة ربط السِّيرة التَّاريخية بالسِّيرة السُّلوكيَّة، والسِّـيرة المعبَّر عنها بحديثٍ شـريفٍ، أو فعلٍ نبويّ، والسِّـيرة كما يقرِّرها القرآن الكريم ببعضـها، ومزجها في منهجيَّةٍ متناسـقةٍ تمدُّ أبناء الجيل بعلمٍ غزيرٍ، وفقهٍ عميقٍ، وعاطفةٍ جيَّاشــــةٍ، فهي غذاءٌ للرُّوح، وتثقيفٌ للعقول، وحياةٌ للقلوب، وصفاء للنُّفوس.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في كلِّ جانبٍ من الجوانب التي تحتاج إليها مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة، فالنَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم لم يلتحق بالرَّفيق الأعلى إلا بعد أن ترك ســوابق كثيرةً لمن يريد أن يقتدي به في الدَّعوة، والتَّربية، والثَّقافة، والتَّعليم، والجهاد، وكلِّ شؤون الحياة، كما أنَّ التعمُّق في سيرة الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم يسـاعد القارئ على التَّعرُّف على الرَّصـيد الخلقيِّ الكبير؛ الذي تميَّزَ به رسـول الله صــلى الله عليه وســلم عن كلِّ البشــر، والتَّعرُّف على صـفاته الحميدة صلى الله عليه وسلم الَّتي عاش بها في دنيا النَّاس، فيرى من خلال سيرته مصداق قول الشَّاعر:

وَأَجْمَـلُ مِنْـكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وَ أَفْضَــلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَــاءُ
خُلِقْـتَ مُبَرَّأً مِنْ كُـلِّ عَيْـبِ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَــاءُ

هذا ولا أدَّعي أنِّي أتيت بما لم تســتطعه الأوائل، فشــأن رســول الله صــلى الله عليه وســلم كبيرٌ، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفسٍ أرقَّ، وفقــهٍ أدقَّ، وذكاءٍ أكبر، وإيمانٍ أعمق، كما أنَّني لا أدَّعي لعملي هذا العصـمة، أو الكمال، فهذا شـأن الرُّسـل، والأنبياء، ومن ظنَّ أنَّه قد أحاط بالعلم؛ فقد جهل نفســه، وصــدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] .

فالعلم بحرٌ لا شاطئ له، وما أصدقَ الشَّاعرَ؛ إذ يقول:

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَــفَةً ... حفِظْتَ شَيئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

يقول الثَّعاليُّ: لا يكتب أحد كتاباً فيبيت عنده ليلةً إلا أحبَّ في غيرها أن يزيد فيه، أو ينقص منه، هذا في ليلةٍ، فكيف في سنين معدودةٍ؟!

وقال العماد الأصبهانيُّ: إنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا؛ لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا؛ لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا؛ لكان أفضل، ولو ترك هذا؛ لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جملة البشر.

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصاً، ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني؛ الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب. قال الشاعر:

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ القَوْمِ ذَا عَرَجٍ ... مؤمِّلاً جَبْرَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا ... فَكَمْ لربِّ السَّمَا في النَّاسِ مِنْ
وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأرضِ مُنْقَطِعاً ... فَمَا عَلَى عَرج فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

(سبحانك اللّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك)

الفقير إلى عفو ربِّه، ومغفرته، ورضوانه

عليّ محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

1422 هـ 2001 م

الفصل الأوَّل

أهمُّ الأحداث التَّاريخيَّة من قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

المبحث الأوَّل

الحضارات السَّائدة قبل البعثة ودياناتها

أوَّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة[1]:

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وكانت تحكم هذه البلاد: اليونان، والبلقان، وآسيا، وسورية، وفلسطين، وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر، وكلَّ إفريقيا الشَّمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضَّرائب، وكثرت الاضطرابات، والثَّورات، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو، واللَّعب، والطَّرب، والتَّرف.

أمَّا مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ، والاستبداد السِّياسيِّ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً، يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأمَّا سورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم، والرَّقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشَّعب إلا على القوَّة، والقهر الشَّديد، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة، وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة، ولا يشعر بأيِّ عطفٍ على الشَّعب المحكوم، وكثيراً ما كان السُّوريون يبيعون أبناءهم؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[2].

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض، والاضطراب، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالآتي:

---

(1) ينظر الشكل (1) في الصفحة (737).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويّ، ص 31.

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رســخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة، وشـاعت في طول البلاد وعرضـها، وأصـبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشــاغل بها، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصــين أشــدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع اللَّهو، واللعب، والطَّرب، والتَّرف، فقد كانت هناك ميادينُ رياضــيَّةٌ واسـعةٌ تتَّسـع لجلوس ثمانين ألفَ شـخصٍ، يتفرَّجون فيها على مصـارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضر، لقد كانوا يحبُّون الجمال، ويعشقون العنف، والهمجيَّة، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشـعر منها الجلود، وكانت حياة سـادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون، والتَّرف، والمؤامرات، والمجاملات الزَّائدة، والقبائح، والعادات السَّيئة»[1].

ثانياً: الإمبراطوريَّة الفارسيَّة:

كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسيَّة، أو الكِسرويَّة، وهي أكبر، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّــرقيَّة، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة؛ كالزرادشــتية، والمانيَّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شــيءٍ، ممَّا أدَّى إلى انتشــار ثورات الفلاحين، وتزايد النَّهابين للقصور، فكانوا يقبضون، أو يأسرون النِّساء، ويستولون على الأملاك، والعقارات، فأصبحت الأرض، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضـعون أنفسـهم فوق بني آدم؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسـهم من نسل الآلهة، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك، يتصرَّفون فيها ببذخٍ لا يُتصوَّر، ويعيشون عيش البهائم، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم، أو دخلوا الأديرة، والمعابد فراراً من الضَّرائب، والخدمة العســكريَّة، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت ســنين طوالاً بين الفرس والرُّوم، لا مصــلحة للشُّــعوب فيها إلا تنفيذ نزوات، ورغبات الملوك[2].

---

(1) المصدر السَّابق، ص 31.

(2) انظر: السِّيرة النبويَّة، للنَّدويّ، ص 32، 33.

ثالثاً: الهند:

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً، وخُلقاً، واجتماعاً، وسياسةً ذلك العهد الَّذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السَّادس الميلادي، فانتشرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصبحت مقدسةً!! وكانت المرأة لاقيمة لها، ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّعب، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ، وأصبح هو القانون العامَّ في المجتمع، ودستور حياتهم، وكانت الهند في حالة فوضى، وتمزُّقٍ، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطَّاحنة، وكانت بعيدةً عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضحةٍ، يسيطر عليها التزمُّت، والتَّطرُّف في العادات، والتقاليد، والتفاوت الطَّبقيُّ، والتَّعصب الدَّمويُّ، والسُّلاليُّ.

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ - أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند - عن عصرٍ سابق لدخول الإسلام في الهند، فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيهم الجمود، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط، والتَّدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ، والتَّصوير، والفنون الجميلة الأخرى»[1].

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ، وأسرةٍ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام، والشراب، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون - مضطرين - خارج بلدهم، ومدينتهم»[2].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

1 - طبقة الكهنة، ورجال الدِّين، وهم «البراهمة».

2 - رجال الحرب، والجنديَّة، وهم «شترى».

3 - رجال الفلاحة، والتجارة، وهم «ويش».

4 - رجال الخدمة، وهم «شودر»وهم أحطُّ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون - كما

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويّ، ص 38.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 39.

يعتقدون – من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث، وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً، ومكانةً لا يشـــاركهم فيها أحدٌ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه، وأعماله، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه، ولا يعاقب بالقتل في حالٍ من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدَّخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمياً، أو يمسُّوه بيدهم، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[1].

رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّدية:

كانت الإنســـانية قبل بزوغ فجر الإســـلام العظيم، تعيش مرحلةً من أحطِّ مراحل التَّاريخ البشريِّ في شؤونها الدِّينيَّة، والاقتصاديَّة، والسياسية، والاجتماعيَّة، وتعاني فوضى عامَّةً في جميع شـؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهليُّ على العقائد، والأفكار، والتصـوُّرات، والنُّفوس، وأصـبح الجهـل، والهوى، والانحلال، والفجور، والتجبُّر، والتعسُّـــف من أبرز ملامح المنهج الجـاهليِّ المهيمن على دنيا النَّاس[2].

وضـاع تأثير الدِّيانات السَّـماوية على الحياة – أو كاد – بسـبب ما أصـابها من التَّبديل، والتَّحريف، والتَّغيير، الَّذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رســالة الله إلى خلقه، وانشــغل أهلها بالصِّراعات العقديَّة النَّظريَّة التي كان سببها دخول الأفكار البشـريَّة، والتَّصوُّرات الفاسـدة على هذه الأديان، حتَّى أدَّى إلى الحروب الطَّاحنة بينهم، ومَنْ بقي منهم لم يحرِّف، ولم يبدِّل قليلٌ نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس، ودخل في حياة الخلوة، والعزلة طمعاً في النَّجاة بنفسـه يأسـاً من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف، والأجناس البشريَّة، ودخل في جميع المجالات بلا اســـتثناء، ففي الجانب الدِّينيّ تجد النَّاس إمَّا أنَّهم ارتدُّوا عن الدِّين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الدِّيانات السَّماوية، وتبديلها. وأمَّا في الجانب التَّشريعي، فإنَّ النَّاس نبذوا شـريعة الله وراءهم ظهريّاً، واخترعوا من عند أنفسـهم قوانين، وشـرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل، وتخالف الفطرة.

وتزعَّم هذا الفسـاد زعماءُ الشُّـعوب، والأمم من القادة، والرُّهبان، والقسـاوسـة والدَّهاقين، والملوك، وأصبح العالم في ظلامٍ دامسٍ، وليلٍ بهيمٍ، وانحرافٍ عظيمٍ عن منهج الله سبحانه وتعالى.

---

[1] راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (1 . 2 . 8 . 9 . 10) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويّ ، ص 38.

[2] انظر: الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة ، ص 57.

فاليهودية: أصـــبحت مجموعةً من الطُّقوس، والتَّقاليد لا روح فيها، ولا حياة، وتأثَّرت بعقائد الأمم الَّتي جاورتها، واحتكَّت بها، والَّتي وقعت تحت سيطرتها، فأخذت كثيراً من عاداتها، وتقاليدها الوثنيَّة الجاهليَّة، وقد اعترف بذلك مؤرِّخو اليهود[1]؛ فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إنَّ سخط الأنبياء، وغضبهم على عبادة الأوثان تدلُّ على أنَّ عبادة الأوثان، والآلهة كانت قد تسرَّبت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيَّام رجوعهم من الجلاء، والنَّفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقداتٍ خرافيَّة، وشركيَّة. إنَّ التُّلمود أيضاً يشهد بأنَّ الوثنيَّة كانت فيها جاذبيةٌ خاصَّةٌ لليهود»[2].

إنَّ المجتمع اليهوديَّ قبل البعثة المحمَّدية، قد وصـــل إلى الانحطاط العقليِّ، وفســـاد الذَّوق الدِّينيِّ، فإذا طالعت تلمود بابل؛ الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السَّادس المسيحيِّ؛ فستجد فيه نماذج غريبةً من خفَّة العقل، وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتَّلاعب بالدِّين، والعقل[3].

أمَّا المســـيحيَّة: فقد امتُحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، واختفى نور التَّوحيد، وإخلاص العبادة لله وراء السُّـــحب الكثيفة[4]، واندلعت الحروب بين النَّصـــارى في الشَّـــام، والعراق، وبين نصـــارى مصـــر حول حقيقة المســـيح، وطبيعته، وتحوَّلت البيوت، والمدارس، والكنائس إلى معسكراتٍ متنافسةٍ، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحيِّ في مظاهر مختلفةٍ، وألوانٍ شتَّى، فقد جاء في تاريخ المسيحيَّة في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنيَّة، ولكنَّها لم تلق إبادةً كاملةً، بل إنَّها تغلغلت في النُّفوس، واســـتمرَّ كلُّ شيءٍ فيها باسم المسيحيَّة، وفي ستارها؛ فالَّذين تجرَّدوا عن آلهتهم، وأبطالهم، وتخلَّوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم، ولقَّبوه بأوصاف الآلهة، ثمَّ صنعوا له تمثالاً، وهكذا انتقل هذا الشِّرك، وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشُّهداء المحلِّيين، ولم ينته هذا القرن حتَّى عمَّت فيه عبادة الشُّهداء، والأولياء، وتكوَّنت عقيدةٌ جديدةٌ، وهي: أنَّ الأولياء يحملون صفات الألوهيَّة، وصـــار هؤلاء الأولياء والقدِّيسون خلقاً وسيطاً بين الله، والإنسان، يحمل صفة الألوهيَّة على أساس عقائد

---

[1] انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص 20.

[2] انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص 20.

[3] المصدر السَّابق نفسه ، ص 21.

[4] المصدر السابق نفسه.

الأريسيين، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى، وورعها وطُهرها، وغُيِّرت أسماء الأعياد الوثنيَّة بأسماء جديدةٍ، حتَّى تحوَّل في عام 400 ميلادي عيد الشَّمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»[1].

وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكيَّة الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركَّبٌ من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحيّ، وفكره منذ ربع القرن الرَّابع الأخير، ودامت كعقيدةٍ رسميَّةٍ مُسَلَّمةٍ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيّ، ولم يُرفع السِّتار عن تطوُّر عقيدة التَّثليث، وسرِّها إلا في المنتصف الثَّاني للقرن التَّاسع عشر الميلادي»[2].

لقد اندلعت الحروب بين النَّصارى، وكفَّر بعضُهم بعضاً، وقتل بعضُهم بعضاً، وانشغل النَّصارى ببعضهم عن محاربة الفساد، وإصلاح الحال، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشريَّة[3].

وأمَّا **المجوس**: فقد عُرفوا من قديم الزَّمان بعبادة العناصر الطَّبيعيَّة، وأعظمها النَّار، وانتشرت بيوت النَّار في طول البلاد وعرضها، وعكفوا على عبادتها، وبنوا لها معابد، وهياكل، وكانت لها آداب، وشرائع دقيقةٌ داخل المعابد، أمَّا خارجها؛ فكان أتباعها أحراراً يسيرون على هواهم، لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرِّخ الدَّنماركيُّ طبقة رؤساء الدِّين، ووظائفهم عند المجوس في كتابه: «إيران في عهد السَّاسانيِّين» فيقول: «كان واجباً على هؤلاء الموظَّفين أن يعبدوا الشَّمس أربع مرَّات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر، والنَّار، والماء، وكانوا مكلَّفين بأدعيةٍ خاصَّةٍ، عند النَّوم، والانتباه، والاغتسال، ولبس الزنَّار، والأكل، والعطس، وحلق الشَّعر، وتقليم الأظفار، وقضاء الحاجة، وإيقاد السُّرج، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النَّار تنطفئ، وألا تمسَّ النَّار، والماء بعضها بعضاً، وألا يَدَعوا المعدن يصدأ؛ لأنَّ المعادن عندهم مقدَّسةٌ»[4].

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النَّار، وقد حلف «يزدجرد» – آخر ملوك السّاسانيين – بالشَّمس مرَّةً، وقال: «أحلف بالشَّمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثَّنويَّة في كلِّ عصرٍ، وأصبح ذلك شعاراً لهم، فآمنوا بإلهين اثنين: أحدهما: النُّور، أو إله الخير،

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص 23.

(2) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، مقال التثليث (395/14).

(3) انظر: فتح العرب لمصر ، تعريب محمَّد أبو حديد ، ص 37 ، 38 ، 48.

(4) إيران في عهد السَّاسانيِّين ، ص 155 ، نقلاً عن السِّيرة النبوية ، للنَّدوي ، ص 27.

والثاني: الظَّلام، أو إله الشَّرّ[1].

أمَّا **البوذيَّة**: في الهند وآسيا الوسطى: فقد تحوَّلت إلى وثنيةٍ تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت، ونزلت[2].

أمَّا **البرهميَّة**: دين الهند الأصليُّ، فقد امتازت بكثرة المعبودات، والالهة، وقد بلغت أوْجها في القرن السَّادس الميلاديّ، ولاشكَّ: أنَّ الديانة الهندوكيَّة، والبوذيَّة وثنيتان سواءٌ بسواءٍ.

لقد كانت الدُّنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقةً في الوثنيَّة، وكأنما كانت المسيحيَّة، واليهوديَّة، والبوذيَّة، والبرهميَّة، تتسابق في تعظيم الأوثان، وتقديسها، وكانت كخيل رهانٍ تجري في حلبةٍ واحدةٍ.

وقد أشار النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى عموم هذا الفساد، لجميع الأجناس، وجميع المجالات بلا استثناء، فقد قال صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ في خطبته: «ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علَّمني يومي هذا؛ كلُّ مالٍ نَحَلْتُه[3] عبداً حلالٌ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء[4] كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم[5]، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لمْ أُنْزِلْ به سلطاناً، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم، وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[6].

والحديث يشير إلى انحراف البشريَّة في جوانب متعددةٍ، كالشِّرك بالله، ونبذ شريعته، وفساد المصلحين من حملة الأديان السَّماويَّة، وممالأتهم للقوم على ضلالهم[7].

* * *

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي الحسن النَّدويِّ، ص 27.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 28.

(3) نحلته: أعطيته. (النِّهاية في غريب الحديث: 29/5).

(4) حنفاء: مائلين عن الشِّرك إلى التَّوحيد. (النِّهاية: 451/1).

(5) اجتالتهم: ذهبت بهم. (النِّهاية: 316/1).

(6) مسلمٌ، كتاب الجنَّة، باب الصِّفات الَّتي يعرف بها في الدُّنيا أهل الجنَّة وأهل النَّار، رقم (2865).

(7) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص 59.

المبحث الثَّاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسَّم المؤرِّخون أصول العرب ثلاثة أقسامٍ، بحسب السُّلالات الَّتي انحدروا[1] منها:

1 - العرب البائدة:

وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وأُمَيْم، وجُرهم وحضرموت، ومن يتَّصل بهم، وهذه دَرَسَتْ معالمها، واضمحلَّت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوكٌ امتدَّ ملكهم إلى الشَّام، ومصر[2].

2 - العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان، وتسمَّى بالعرب القحطانيَّة[3]، ويعرفون بعرب الجنوب[4]، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحِمْيَر[5].

3 - العرب العدنانيَّة:

نسبة إلى عدنان، الَّذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما الصَّلاة والسَّلام - وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الَّذين دخل عليهم دمٌ ليس عربياً، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدَّم وبين العرب، وأصبحت اللُّغة العربيَّة لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكَّة، وهم: إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة هم الذين تعلَّم منهم إسماعيل عليه السلام العربيَّة، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً مثلهم، ومن أهم ذرِّيَّة إسماعيل (عدنان) جدُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب، وبطونها، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدٌّ، ثمَّ نزار، ثمَّ جاء بعده ولداه مُضَر، وربيعة.

---

[1] انظر: فقه السِّيرة النبويَّة ، للغضبان ، ص 45. وينظر الشكل (2) في الصفحة (738).

[2] انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (46/1).

[3] فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص 45.

[4] مدخل لفهم السِّيرة ، ص 98.

[5] السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (47/1).

أمَّا ربيعة بن نزار؛ فقد نزل مَنِ انحدر مِنْ صـــلبه شـــرقاً، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تَغْلب الفرات، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة[1].

أمَّا فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكَّة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذُبيان، وعبس من تيماء إلى حوران[2]. وتقســـيم العرب إلى عدنانية، وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب، وغيرهم من العلماء، ومن العلماء مَنْ يرى: أنَّ العرب: عدنانيَّة، وقحطانيَّة، ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام[3].

وقد ترجم البخاريُّ في صحيحه لذلك، فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتناضلون بالسِّـــهام، فقال: «ارموا، بني إسماعيل، وأنا مع بني فلان» - لأحد الفريقين - فأمســـكوا بأيديهم، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: كيف نرمي؛ وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا، وأنا معكم كلِّكم» [البخاري (3507)]. وفي بعض الرِّوايات: «ارموا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان رامياً» [البخاري (2899) وأحمد (50/4) وابن حبان (4693)] .

قال البخاريُّ: وأسلمُ بن أَفْصَى بن حارثةَ بن عمرو بن عامر من خُزَاعَةَ، يعني: أنَّ خزاعة فرقةٌ ممَّن كان تمزَّقَ من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم[4].

وَوُلِدَ الرَّسول صلى الله عليه وسلم من مُضَرَ، وقد أخرج البخاريُّ عن كليب بن وائل قال: حدَّثتني ربيبة النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم زينب بنت أبي سـلمة، قال: «قلت لها: أرأيت النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم أكان من مضـر؟ فقالت: فممَّن كان إلا مِنْ مُضَـرَ؟ من بني النَّضـر بن كنانة» [البخاري (3491)].

وكـانـت قريش قـد انحـدرت من كـنـانـة، وهـم أولاد فهـر بن مـالـك بن النَّضـــر بن كـنـانـة، وانقســـمت قريش إلى قبائل شـتَّى، من أشـــهرها: جمح، وســـهم، وعديٌّ، ومخزوم، وتيم، وزهرة،

---

(1) مدخل لفهم السيرة ، ص 98 ، 99.

(2) انظر: الطريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، ص 40.

(3) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (48/1).

(4) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (48/1).

وبطون قصيّ بن كلابٍ، وهي عبد الدَّار بن قصيٍّ، وأسد بن عبد العزَّى بن قصيٍّ، وعبد مناف بن قصيٍّ، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطَّلب، وهاشم. وبيت هاشم هو الَّذي اصطفى الله منه سيِّدنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم [(1)].

قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (2276) والترمذي (3605 و3606) وأحمد (107/4)] .

ثانياً: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزَّمان ببلاد العرب حضاراتٌ أصيلةٌ، ومدنيَّاتٌ عريقةٌ، من أشهرها:

1 – حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار، والسُّيول التي كانت تضيع في الرِّمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزَّانات، والسُّدود بطرقٍ هندسيَّة متطوّرةٍ، وأشهر هذه السُّدود (سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزُّروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزَّكيَّة، والثِّمار الشَّهيَّة، قال عزَّ شأنه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾[سبأ: 15 - 17] ودلَّ القرآن الكريم على وجود قرىً متصلةٍ في الزَّمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأنَّ قوافل التِّجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشَّام، فلا يعدمون ظلاًّ، ولا ماءً، ولا طعاماً. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِكُلِّ صَبَّارٍ

[(1)] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص 47.

شَكُورٍ﴾ [سبأ: 18 – 19] .

2 – حضارة عاد بالأحقاف:

وكانت في شمال حضـرموت، وهم الذين أرسـل الله إليهم نبيَّه هوداً عليه السـلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيَّدةٍ، ومصانع متعدِّدةٍ، وجناتٍ، وزروعٍ، وعيون[1] قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: 123 – 134] .

3 – حضارة ثمود بالحجاز:

دلَّ القرآن الكريم على وجود حضـارة في بلاد الحِجْر، وأشـار إلى ما كانوا يتمتَّعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيونٍ وبسـاتين، وزروعٍ[2] قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: 141 - 150]. وقال فيهم أيضـاً: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74].

لقد زال كلُّ ذلك من زمنٍ طويلٍ، ولم يبقَ إلا آثار ورسومٌ وأطلالٌ، فقد اضمحلَّت القرى، والمدن، وخربت الدُّور، والقصـور، ونضـبت العيون، وجفَّت الأشـجار، وأصـبحت البسـاتين والزُّروع أرضاً جُرُزاً[3].

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (50/1).

[2] انظر السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (50/1).

[3] المصدر السابق نفسه ، (51/1).

المبحث الثَّالث

الأحوال الدِّينيَّة والسياسية والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، والأخلاقيَّة عند العرب

أوَّلاً: الحالة الدِّينيَّة[1]:

ابتليت الأمَّة العربيَّة بتخلُّفٍ دينيٍّ شديدٍ، ووثنيَّةٍ سخيفةٍ لا مثيل لها، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ، واجتماعيَّةٍ، وفوضى سياسية، وتشريعيَّةٍ، وَمِنْ ثَمَّ قلَّ شأنهم، وصاروا يعيشون على هامش التَّاريخ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدَّولة الفارسيَّة أو الرُّومانيَّة، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء، والأجداد، واتِّباع ما كانوا عليه، مهما يكن فيه من الزَّيغ، والانحراف، والضَّلال، ومن ثَمَّ عبدوا الأصنام، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع، ولكلب: وَدٌّ، ولمذحج: يَغوث، ولخيوان: يَعوق، ولحمير: نَسْر، وكانت خزاعة، وقريش تعبدان إسافاً، ونائلة، وكانت مناةُ على ساحل البحر، تعظِّمها العرب كافَّةً، والأوس، والخزرج خاصَّةً، وكانت الَّلات في ثقيف، وكانت العُزَّى فوق ذات عِرْقٍ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[2].

وإلى جانب هذه الأصنام الرَّئيسة، يوجد عددٌ لا يحصى كثرةً من الأصنام الصَّغيرة، والَّتي يسهل نقلها في أسفارهم، ووضعها في بيوتهم.

روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي رجاء العُطَارِدِيِّ قال: «كُنَّا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً؛ جمعنا جُثْوَةً من ترابٍ، ثمَّ جئنا بالشَّاة، فحلبناه عليه، ثم طفنا به!!!» [البخاري (4376)] .

وقد حالت هذه الوثنية السَّخيفة بين العرب ومعرفة الله تعالى، وتعظيمه، وتوقيره، والإيمان

---

(1) ينظر الشكل (3) في الصفحة (739).

(2) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص 60.

به، وباليوم الآخر، وإن زعموا أنَّها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه آلهة المزعومة على قلوبهم، وأعمالهم، وتصرُّفاتهم، وجميع جوانب حياتهم، وضَعُف توقيرُ الله في نفوسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] .

أمَّا البقيَّة الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التَّحريف، والتَّغيير، والتَّبديل، فصار الحجُّ موسماً للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفيَّة عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات، والأساطير الشَّيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء، الَّذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلَّق بها من الأحكام، والنَّحائر، وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة، والدَّم، وكان يقول:

أربَّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ؟ أدينٌ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ؟
عَزَلْتُ الَّلاتَ والْعزَّى جميعاً كذلكَ يفعلُ الجلْدُ الصَّبورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ولا صَنَمي بني عَمْرٍو أزُورُ
ولا غنماً أدينُ وكان ربَّاً لنا في الدَّهر، إذْ حُلْمي يسيرُ
ولكنْ أعبدُ الرَّحْمنَ ربِّي ليَغْفِرَ ذَنْبي الرَّبُّ الغَفُورُ[1]

وممَّن كان يدين بشريعة إبراهيم، وإسماعيل - عليهما الصَّلاة والسَّلام - قَسُّ بن ساعدة الإياديُّ: فقد كان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهةٌ، وفضلٌ، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بَشَّر بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أبو نُعَيْمٍ في دلائل النُّبوَّة [(104/1 - 105 برقم 55)] عن ابن عباسٍ قال: «إنَّ قسَّ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عُكَاظ) فقال في خطبته: سَيُعلَمُ حَقٌّ من هذا الوجه - وأشار بيده إلى مكَّة - قالوا: وما هذا الحقُّ؟ قال: رجلٌ من ولد لؤيِّ بن غالبٍ

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (163/1).

يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيمٍ لا ينفد، فإن دعاكم؛ فأجيبوه، ولو علمتُ أنِّي أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أوَّلَ من يسعى إليه»، وقد أدرك النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، ومات قبل البعثة[1].

وممَّا كان ينشده من شعره:

في الـــــذَّاهبينَ الأوَّليـــــنَ ... مِـــنَ الْقُـــرونِ لنـــا بصـــائرْ
لـــمَّا رأيـــتُ مـــوارداً ... لِلْمَـــوْتِ لـــيس لهـــا مَصَـــادِرْ
ورأيـــتُ قـــومي نحوَهـــا ... يمضـــي الأصَـــاغرُ والأكـــابِرْ
لا يَرْجِـــعُ الماضـــي إلـــيَّ ... وَلا مِـــنَ البـــاقينَ غـــابِرْ
أيقنـــتُ أنِّي لا محالـــةَ ... حيـــثُ صـــارَ القـــومُ صـــائرْ[2]

كان بعضُ العرب قد تنصَّـــر، وبعضـــهم دخل في اليهوديَّة، أمَّا الأغلبيَّة؛ فكانت تعبد الأوثان، والأصنام.

ثانياً: الحالة السياسية[3]:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدوٍ، وحضر، وكان النِّظام السَّائد بينهم هو النظامَ القبليَّ، حتَّى في الممالك المتحضِّـــرة الَّتي نشـــأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشَّمال الشَّرقيِّ، ومملكة الغساسنة في الشَّمال الغربيِّ، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ، وإنَّما ظلَّت القبائل وحداتٍ متماسكةً.

والقبيلة العربيَّة مجموعةٌ من الناس، تربط بينها وحدة الدَّم (النَّســب)، ووحدة الجماعة، وفي ظلِّ هذه الرابطة نشأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساسٍ من التَّضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفيُّ كانت تتمسَّـــك به القبيلة في نظامها السِّياسيِّ، والاجتماعي[4].

---

[1] السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة؛ لأبي شهبة (80/1).
[2] المصدر السابق نفسه ، (81/1).
[3] ينظر الشكل (4) في الصفحة (740).
[4] المصدر السابق نفسه ، (60/1).

وزعيم القبيلة ترشِّحه للقيادة منزلته القبلية، وصفاته، وخصائصه من شجاعةٍ ومروءةٍ، وكرمٍ، ونحو ذلك، ولرئيس القبيلة حقوقٌ أدبيَّةٌ، وماديَّةٌ، فالأدبيَّة أهمُّها احترامه، وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنُّزول على حكمه، وقضائه، وأمَّا المادِّيَّة؛ فقد كان له في كل غنيمةٍ تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصَّفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، (والنَّشيطة) وهي ما أصيب من مال العدوِّ قبل اللِّقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربيُّ ذلك بقوله:

لـك المرباعُ فينـا، والصَّـفـايا ... وحكمُك، والنَّشيطةُ، والفُضولُ[1]

ومقابل هذه الحقوق واجباتٌ ومسؤوليَّاتٌ، فهو في السِّلم جوادٌ كريمٌ، وفي الحرب يتقدَّم الصُّفوف، ويعقد الصُّلح، والمعاهدات.

والنِّظام القبليُّ تسود فيه الحرِّيَّة، فقد نشأ العربيُّ في جوٍّ طليقٍ، وفي بيئةٍ طليقةٍ، ومن ثَمَّ كانت الحرية من أخصِّ خصائص العرب، يعشقونها، ويأبون الضَّيم والذُّلَّ، وكلُّ فردٍ في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيَّامها، وينتصر لكلِّ أفرادها مُحقاً، أو مُبطلاً، حتَّى صار من مبادئهم: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» [البخاري (2443 و2444 و6952) وأحمد (3/99 و201)]. وكان شاعرهم يقول:

لا يسْـأَلُونَ أَخَـاهُمْ حِيْنَ يَنْـدُبُهُمْ ... في النَّـائبـاتِ عَلَى مـا قَـالَ بُرْهَـانا

والفرد في القبيلة تبعٌ للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة:

وَهَـلْ أَنَا إِلا مِنْ غَزِيَّـةَ إِنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإِنْ تَرْشُـدْ غَزِيَّةُ أَرْشُـدِ[2]

وكانت كلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيَّة لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشَّخصيَّة كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشَّخصيَّة أيضاً كانت تشنُّ الحرب عليها، ولعلَّ من

[1] انظر: مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 31.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (61/1).

أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربيَّة، حلف الفضول (حلف المطيّبين)[1].

وكانت الحروب بين القبائل على قدمٍ وساقٍ، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[2]، وكانت - عدا هذه الحروب الكبرى - تقع إغاراتٌ فرديَّةٌ بين القبائل، تكون أسبابها شخصيَّةً أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى؛ إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعةٍ من ليلٍ، أو نهارٍ؛ لتسلب أنعامها، ومؤنها، وتدع ديارها خاويةً كأن لم تُسكنْ بالأمس[3].

ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة:

يغلب على الجزيرة العربيَّة الصَّحاري الواسعة الممتدَّة، وهذا ما جعلها تخلو من الزِّراعة، إلا في أطرافها، وخاصَّةً اليمن، والشَّام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وكان يغلب على البادية رعي الإبل، والغنم، وكانت تنتقل القبائل بحثاً عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلاّ في مضارب خيامهم.

وأمَّا الصِّناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم، والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ استعانوا برجلٍ قبطيٍّ نجا من السَّفينة التي غرقت بجُدَّة، ثمَّ أصبح مقيماً في مكَّة[4].

وإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حُرمت من نِعْمَتَيِ الزِّراعة، والصِّناعة؛ فإنَّ موقعها الاستراتيجيَّ بين إفريقية وشرق آسيا جعلها مؤهَّلةً لأن تحتلَّ مركزاً متقدِّماً في التِّجارة الدَّوليَّة آنذاك.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيَّما أهل مكَّة، فقد كان لهم مركزٌ متميِّزٌ في التِّجارة، وكان لهم - بحكم كونهم أهل الحرم - منزلةٌ في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوءٍ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن الكريم:

---

[1] انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم . د. محمد قلعجي ، ص 31.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 33 ، 34 ، 35.

[3] المصدر السَّابق نفسه ، ص 35.

[4] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص 60.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: 67]، وكان لقريشٍ رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشَّام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يُتَخطَّفون من حولهم، هذا عدا الرِّحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام. قال تعالى: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ﴾ [قريش: 1 – 4] .

وكانت القوافل تحمل الطِّيب، والبَخُور، والصَّمغ، واللُّبان، والتَّوابل والتُّمور، والرَّوائح العطريَّة، والأخشاب، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنيَّة، والأنسجة الحريريَّة، والأسلحة وغيرها ممَّا يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشَّام وغيرها، ثُمَّ تعود محمَّلةً بالقمح، والحبوب، والزَّبيب، والزَّيتون، والمنسوجات الشَّاميَّة، وغيرها.

واشتهر اليمنيُّون بالتِّجارة، وكان نشاطهم في البرِّ، وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقية، وإلى الهند، وإندونيسيا، وسومطرة، وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي، أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضلٌ كبيرٌ بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة، ولعلَّ هذا الدَّاء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[1]، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم، وكانت نسبة الرِّبا في بعض الأحيان إلى أكثر من مئةٍ في المئة[2].

وكان للعرب أسواقٌ مشهورةٌ: هي عُكَاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلِّفين في أخبار مكَّة: أنَّ العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثمَّ يذهبون منه إلى مجنَّة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة؛ ذهبوا إلى ذي المجاز، فلبثوا فيها ثمانيَ ليالٍ، ثمَّ يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة، ولا أيَّام منى، حتى جاء الإسلام،

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (98/1 إلى 101).

(2) انظر: دراسةٌ تحليليةٌ لشخصيَّة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 19.

فأباح لهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 198] .

وقد استمرَّت هذه الأسواق في الإسلام إلى حينٍ من الدَّهر ثمَّ دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقاً للأدب، والشِّعر، والخَطَابة، يجتمع فيها فحول الشُّعراء، ومصاقع[1] الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروةً كبرى لِلُّغة والأدب، إلى جانب كونها ثروةً تجاريَّةً[2].

رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة:

هيمنت التَّقاليد، والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب، والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها، والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي:

1 – الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولـمَّا جاء الإسلام قضى على ذلك، وبيَّن لهم: أنَّ التفاضل إنَّما هو بالتَّقوى، والعمل الصالح.

2 – الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيَّما الشِّعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سِجلَّ مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع، والشُّعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيءٍ فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة.

---

[1] المصقَعُ: البليغ يتفنَّن في مذاهب القول.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (102/1).

3 – المرأة في المجتمع العربيّ:

كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَــقَط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضُلها عن النِّكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوَّج امرأة أبيه[1]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء: 22] .

وكانت العرب تُحرِّم نكاح الأصــول كالأمَّهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطَّبقة الأولى من فروع الجد كالخالات، والعمَّات[2].

وكانوا لا يورِّثون البنات، ولا النســاء، ولا الصِّــبيان، ولا يورِّثون إلا من حاز الغنيمة، وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النِّساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم، إلى أن تُوفي أوس بن ثابت – في عهد رســول الله صــلى الله عليه وســلم – وترك بنتين كانت بهما دمامةٌ، وابناً صــــغيراً، فجاء ابنا عمِّه: – وهما عصـــــبته – فأخذا ميراثه كلَّه، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما فأتت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فقالت: يا رسـول الله ! تُوفِّي أوس، وترك ابناً صغيراً، وابنتين، فجاء ابنا عمِّه: سويد، وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا. فقال صـلى الله عليه وسـلم : «لا تُحَرِّكَا من الميراث شـيئاً» [الدر المنثور؛ للسيوطي (439/2)] ونزل قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: 7][3].

وكان العرب يعيِّرون بالبنات؛ لأنَّ البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضــــة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شـــأن الرِّجال، وإذا ما سُـــبيت اتُّخذت للوطء، تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أُكْرِهَتْ على احتراف البغاء؛ ليضـمَّ سـيدها ما يصـير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيح ذلك، وقد كان هذا يورث الهمَّ، والحزن، والخجل للأب عندما

---

[1] انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (87/1).

[2] دراسة تحليلية لشخصيَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص 22 ، 23 ، 24.

[3] تفسير القرطبي (45/5).

تولد له بنتٌ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58 – 59] .

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التُّراب، ووأدها حيَّةً، ولا ذنب لها إلا أنَّها أنثى(1)، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشَّنيعة. قال تعالى:﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: -9].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر، أو خشية الفقر، فجاء الإسلام، وحرَّم ذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31] .

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشَّنعاء، كزيد بن عمرو بن نفيل(2).

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة، وتأخذ رأيها في الزَّواج، وكانت المرأة العربيَّة الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها، وحليلها، وكانت تتَّسم بالشَّجاعة، وتتبع المحاربين وتشجِّعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضَّرورة، وكانت المرأة البدويَّة العربيَّة تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصوُّن والتعفُّف(3).

4 – النكاح:

تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا

(1) انظر: دراسة تحليليَّة لشخصية الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 25، 26.
(2) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة (92/1).
(3) المصدر السابق نفسه (88/1).

السَّـيدة عائشــة رضــي الله عنها ذلك، فقالت: «إنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّتَه، أو ابنته، فيُصْدِقها، ثم يَنْكِحُها.

ونكـاحٌ آخر: كـان الرَّجـل يقول لامرأتـه إذا طَهُرَتْ من طَمْثِهـا[1]: أرســـلي إلى فلانٍ فاســتبضــعي[2] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسُّــها أبداً، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي تستبضـعُ منه، فإذا تبيَّن حملُها؛ أصـابها زوجها إذا أحبَّ، وإنَّما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ آخر: يجتمع الرَّهط[3] ما دون العشـرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصـيبها[4]، فإذا حملت، ووضعت، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتَّى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان! تسمِّي من أحبَّت باسمه، فيُلحق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرَّجل.

والنِّكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنعُ من جاءها[5]، وهنَّ البغايا كنَّ ينصــبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً، فمن أرادهنَّ؛ دخل عليهنَّ، فإذا حملت إحداهنَّ، ووضـعت حملها جُمِعوا لها، وَدَعوا لهم القافــــةَ[6]، ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطته[7] به، ودُعي ابنَه، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعث محمَّد صــلى الله عليه وســلم بالحقِّ؛ هدم نكاح الجاهليَّة كلَّه، إلا نكاحَ الناس اليوم» [البخاري (5127) وأبو داود (2272)] .

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشــة رضـي الله عنها؛ كنكاح الخِدْن، وهو في

---

(1) الطَّمث: الحيض.

(2) استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.

(3) الرَّهط: الجماعة دون العشرة.

(4) يصيبها: يجامعها.

(5) جاءها: دخل عليها.

(6) القافة: جمع القائف ، وهو الذي يعرف شَبه الولد بالوالد.

(7) فالتاطته: استلحقته به ، وأصل اللوط بفتح اللام: اللصوق.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: 25] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزِّنى أقرب منه إلى النِّكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرَّجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك[1].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار، وهو أن يزوِّج الرَّجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداقٌ[2].

وكانوا يُحلُّون الجمع بين الأختين في النِّكاح، وكانوا يبيحون للرَّجل أن يجمع في عصمته من الزَّوجات ما شاء دون التقيُّد بعددٍ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدُّ[3]، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النِّساء، والأكثر، والأقلُّ، فقصر ذلك على أربع؛ إنْ علم أنَّه يستطيع الإنفاق عليهنَّ، والعدل بينهنَّ، فإن خاف عدم العدل؛ فليكتفِ بواحدةٍ، وما كانوا في الجاهليَّة يلتزمون العدل بين الزَّوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهنَّ حتى جاء الإسلام، فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهنَّ في العشرة، وقرَّر لهنَّ حقوقاً كنَّ يَحْلُمْنَ بها[4].

5 – الطَّلاق:

كانوا يمارسون الطَّلاق، ولم يكن للطَّلقات عندهم عددٌ محدَّد، فكان الرَّجل يطلق امرأته، ثمَّ يراجعها، ثُمَّ يطلِّقها، ثم يراجعها هكذا أبداً، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[5]، إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ

---

(1) فتح الباري (150/9).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (90/1).

(3) انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 24، 25.

(4) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة (88/1).

(5) دراسةٌ تحليليَّة لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 25.

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229] .

فقيَّد الإسلام عدد الطَّلقات، وأعطى للزَّوج فرصةً ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرَّتين، فإن طلق الثَّالثة؛ فقد انقطعت عروة النِّكاح، ولا تحلُّ لـــــه إلا بعد نكاح زوجٍ آخر، ففي الكتاب الكريم: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 230] .

وممَّا كان يُلْحَق بالطَّلاق في التَّحريم الظِّهارُ، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، وكان تحريماً مؤبداً حتَّى جاء الإسلام، فوسمه بأنَّه منكرٌ من القول وزورٌ، وجعل للزَّوج مخرجاً منه، وذلك بالكفارة[1] قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّـــا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِـــيَامُ شَـهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 2 – 4] .

6 – الحروب، والسَّطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشنِّ الحروب، وإزهاق الأرواح في سبيل الدِّفاع عن المثل الاجتماعيَّة، التي تعارفوا عليها، وإن كانت لا تستحقُّ التَّقدير.

وقد روى لنا التَّاريخ سلسلةً من أيَّام العرب في الجاهليَّة، ممَّا يدلُّ على تمكُّن الروح الحربيَّة من نفوس العرب، وغلبتها على التعقُّل والتفكير؛ فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُوس، وقد قامت الحروب فيه بين بكرٍ، وتغلب بسبب ناقةٍ للجَرْميِّ، وهو جارٌ للبَسُوس بنت منقذ خالة جَسَّاس بن مُرَّة، وقد كان كُلَيْبٌ سيِّد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصّاً به، فرأى فيه هذه النَّاقة،

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (91/1).

فرماها، فجزع الجَرْميُّ، وجزعت البَسُوس، فلما رأى ذلك جسَّاسٌ تحيَّن الفرصة لقتل كليب، فقتله، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدَّة أربعين سنةً[1].

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس، وهو فرسٌ لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجلٍ ليقف في الوادي، فإن رأى داحساً قد سبق يردُّه، وقد فعل ذلك، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء، فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل، والأخذ بالثأر، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس، وذُبيان[2].

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس، والخزرج في الجاهليَّة، وهم أبناء عمٍّ؛ حيث إنَّ الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزديِّ، واستمرَّت الحروب بينهم، وكان آخر أيَّامهم (بُعاث) وذلك: أنَّ حلفاء الأوس من اليهود، جدَّدوا عهودهم معهم على النُّصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يُذْكِيْهَا اليهود، حتى يُضعفوا القبيلتين، فتكون لهم السِّيادة الدَّائمة، واستعان كلُّ فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس[3].

وكانت بعض القبائل تسطو، وتغير بغية نهب الأموال، وسبي الأحرار، وبيعهم، كزيد بن حارثة فقد كان عربيّاً حرّاً، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيّاً حرّاً، وقد قضى الإسلام على ذلك، حتَّى كانت تسير المرأة، والرَّجل من صنعاء إلى حضرموت، لا يخافان إلا الله، والذئب على أغنامهما[4].

7 – العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ، وعلمٍ كاليهود، والنَّصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل، والأميَّة، والتَّقليد، والجمود على القديم وإن كان باطلاً، وكانت أمَّة العرب لا تكتب، ولا

---

[1] الكامل في التاريخ، لابن الأثير (312/1).
[2] المصدر السابق نفسه (343/1).
[3] التَّاريخ الإسلاميُّ، د. عبد العزيز الحميديُّ (55/1).
[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (93/1).

تحســـب، وهذه هي الصِّـــفة التي كانت غالبةً عليها، وكان فيهم قليل ممَّن يكتب، ويقرأ، ومع أمِّيَّتهم، وعدم اتِّساع معارفهم؛ فقد كانوا يشتهرون بالذَّكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحسِّ، وحسن الاستعداد، والتهيُّؤ لقبول العلم والمعرفة، والتَّوجيه الرَّشيد؛ ولذلك لـــمَّا جاء الإسـلام؛ صـاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمِّيَّة، وأصـبح العلم، والمعرفة من أخصِّ خصـــائصـــهم، وكان فيهم مَنْ مهر في علم قصِّ الأثر، وهو القِيَافَةُ، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبُّهم مَبْنِيّاً على التَّجارِب؛ التي اكتسبوها من الحياة، والبيئة[1].

خامساً: الحالة الأخلاقيَّة:

كانت أخلاق العرب قد سـاءت، وأولعوا بالخمر، والقمار، وشـاعت فيهم الغارات، وقطع الطريق على القوافل، والعصـبيَّة، والظُّلم، وسـفك الدِّماء، والأخذ بالثأر، واغتصــاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالرِّبا، والسَّـــرقة، والزِّنى، وممَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ الزِّنى إنما كان في الإماء، وأصـــحاب الرَّايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدلّ على هذا من أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لما أخذ البيعة على النِّساء بعد الفتح: «علـى ألاَّ يشركن بالله شيئـاً، ولا يسـرقن، ولا يزنين» قالت السـيِّدة هند بنت عتبة زوجة أبي سـفيان: «أوَ تَزني الحرَّة؟!!»[2] [البخاري (4894) ومسلم (1709)] .

وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا، لا، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يســـفكون الدِّماء، ولا يظلمون، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا[3] وكانت فيهم سماتٌ، وخصالٌ من الخير كثيرةٌ، أهَّلتْهُم لحمل راية الإسلام،

ومن تلك الخصال، والسِّمات:

1 – الذَّكاء، والفطنة:

فقد كانت قلوبُهم صـافيةً لم تدخلها تلك الفلسـفات، والأسـاطير، والخرافات، التي يصعب

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (94/1).

(3) المصدر السابق نفسه ، (94/1).

إزالتها، كما في الشُّعوب الهنديَّة، والرومانيَّة، واليونانيَّة، والفارسيَّة، فكأنَّ قلوبهم كانت تعدُّ لحمل أعظم رسالة في الوجود، وهي دعوة الإسلام الخالدة، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن، وقد وجَّه الإسلام قريحة الحفظ والذَّكاء، إلى حفظ الدِّين، وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطريَّة مذخورةً فيهم، لم تستهلك في فلسفاتٍ خياليَّةٍ، وجدالٍ بيزنطيٍّ عقيمٍ، ومذاهب كلاميَّةٍ معقَّدةٍ[1].

واتِّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم، وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً، وللثَّعلب مئتان، وللأسد خمسُمِئَةٍ، فإنَّ للجمل ألفاً، وكذا السَّيف، وللدَّاهية نحو أربعة آلاف اسمٍ، ولا شكَّ: أنَّ استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرةٍ قويَّةٍ، حاضرةٍ، وقَّادةٍ[2].

وقد بلغ بهم الذَّكاء، والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ[3].

2 – الكرم والسَّخاء:

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقته، فيأتيه الضَّيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يُطعم الوحش، والطَّير، وكرم حاتمٍ الطَّائيِّ سارت به الرُّكبان، وضُرِبت به الأمثال[4].

3 – الشَّجاعة، والمروءة، والنَّجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش. قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يُقْتَلْ؛ فقد قُتِل أبوه، وأخوه، وعمُّه، إنا – والله – لا نموت حتفاً، ولكن قطعاً بأطراف الرِّماح، وموتاً تحت ظلال السُّيوف:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلاَ طُلَّ منَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ

---

[1] انظر: السِّيرة، للنَّدوي، ص 12.

[2] بلوغ الأرب (1/39، 40).

[3] انظر: مدخل لفقه السيرة، ص 79، 80.

[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (1/95).

تَسِـيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُـنَا وَلَيْسَـتْ على غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِـيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئاً على العزَّة، وصيانة العِرْضواسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم، قال عنترة:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الحُتوفَ كـأَنَّني أَصْـبَحْتُ عَنْ غرضِ الحتوف

فَـأَجَبْتُهَـا إنَّ المنيَّـةَ مَنْهَـلٌ لا بُدَّ أَنْ أُسْـقَى بكأسِ المِنْهَلِ

فَأقْنِي حَيَاءَكِ لا أبا لكِ وَاعْلَمِي أنِّي امْرُؤٌ سَـأَموتُ إنْ لَمْ أُقتلِ[1]

وقال أيضاً:

لا تَسْـقِنِي مَـاءَ الحياةِ بـذلَّـةٍ بَلْ فاسْـقِنِي بالْعِزِّ كَـأْسَ

مَـاءُ الْحيـاةِ بـذلَّـةٍ كـجهنَّمٍ وَجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ مَنْزِلِ[2]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامةٍ، ومروءةٍ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضَّعيف، أو العاجز، أو المرأة، أو الشَّـيخ، وكانوا إذا اسـتنجد بهم أحدٌ؛ أنجدوه، ويرون من النَّذالة التَّخلِّي عمَّن لجأ إليهم.

4 – عشقهم للحُرِّيَّة، وإباؤهم للضَّيْم والذُّلِّ:

كان العربيُّ بفطرته يعشـق الحرِّيَّة يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشـأ طليقاً، لا سـلطان لأحدٍ عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يُمَسَّ في شـرفه، وعرضـه؛ ولو كلَّفه ذلك حياته[3]، فقد كانوا يأنفون من الذُّلِّ، ويأبون الضَّيْمَ، والاستصغار، والاحتقار، وإليك مثالاً على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه، وسـألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه خدمة أمِّي؟ قالوا: نعم، أمَّ عمرو بن كلثوم الشَّاعر الصُّعلوك.

فدعا الملك عَمْرَو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمَّه لتزور أمَّه، وقد اتَّفق الملك مع أمِّه أن تقول لأمِّ عَمْرِو بن كلثوم بعد الطَّعام: ناوليني الطَّبق الذي بجانبك، فلـمَّا جاءت؛ قالت لها ذلك،

---

(1) ديوان عنترة ، ص 252.

(2) ديوان عنترة ، د. فاروق الطباع ، ص 82.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (95/1).

فقالت: لِتَقُمْ صـــاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرَّة وألحَّت، فصـــاحت ليلى أم عَمْرِو بن كلثوم: واذُلَّاه! يا لتَغْلب! فسمعها ابنُها فاشتدَّ به الغضب، فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرُّواق، فتناوله، وضـــرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا ما في الرُّواق، ونظم قصيدةً يخاطب بها الملك قائلاً:

بأَيِّ مَشِـــيئَـةٍ عَـمْرَو بْنَ هِنْـدٍ	نكُونُ لِقَيْلِكُمْ[1] فيهـا قَطِينـا[2]
بِأَيِّ مَشِـــيئَـةٍ عَـمْرَو بْن هِنْـدٍ	تُطِيْعُ بنـا الوُشَـــاةَ وتَزْدَرِيْنَـا[3]
تُهَـــدِّدُنَا وتُـــوعِـــدُنَا رُوَيْـداً	مَتَى كُنَّـا لأُمِّـك مقْـتَوِينَـا[4]
إذا ما الْمَلْكُ سَـامَ الناسَ خَسْـفاً	أبينـا أن نُقِرَّ الـذُّلَ فينـا[5]

5 – الوفاءُ بالعهد وحبُّهم للصَّراحة، والوضوح، والصِّدق:

كانوا يأنفون من الكذب، ويعيبونه، وكانوا أهل وفاءٍ، ولهذا كانت الشَّـهادة باللِّسـان كافيةً للدُّخول في الإسـلام. ويدلُّ على أنفتهم من الكذب، قصَّـة أبي سـفيان مع هرقل لما سـأله عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وكانت الحروبُ بينهم قائمةً، قال: «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً؛ لكذبت عنه» [البخاري (7) ومسلم (1773)] .

أمَّا وفاؤهم؛ فقد قال النُّعمان بن المنذر لكســـرى في وفاء العرب: «وإنَّ أحدهم يلحظ اللَّحظة، ويومئ الإيماء، فهي وَلْثٌ، وعقدةٌ لا يحلُّها إلا خروج نفســـه. وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض، فيكون رهناً بدينه، فلا يُغْلَق رهنه، ولا تخفر ذمَّته. وإنَّ أحدهم ليبلغه أنَّ رجلاً استجار به، وعسـى أن يكون نائياً عن داره، فيصـاب، فلا يرضـى حتَّى يفني تلك القبيلة التي أصـــابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المحْدِثُ من غير معرفةٍ ولا

---

[1] القَيل هو: الملك دون الملك الأعظم.
[2] القطين هم: الخدم والمماليك.
[3] تزدرينا: تحتقرنا.
[4] مقتوينا: خدمة الملوك.
[5] انظر: شرح المعلَّقات ، للحسين الزّوزني ، ص 196 ، 204.

قرابةٍ، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله»[1].

والوفاء خلقٌ متأصِّلٌ بالعرب، فجاء الإسلام، ووجَّهه الوجهة السَّليمة، فغلَّظَ على من آوى مُحْدِثاً، مهما كانت منزلته، وقرابته. قال صلى الله عليه وسلم : «لعن اللهُ من آوى محدِثاً» [مسلم (1978) والنسائي (232/7)]، ومن القصص الدَّالة على وفائهم[2]: «أنَّ الحارث بن عباد قاد قبائل بكرٍ لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب»[3] في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال: دلَّني على مهلهل بن ربيعة، وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجزَّ ناصيته، وتركه». وهذا وفاءٌ نادرٌ، ورجولةٌ تستحقُّ الإكبار[4].

ومن وفائهم: أنَّ النُّعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته، فأودع أسلحته، وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشَّيبانيّ، ورحل إلى كسرى، فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النُّعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله، فجمع هانئ قومه آل بكرٍ، وخطب فيهم، فقال: «يا معشرَ بكر! هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرور، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر، المنيَّة ولا الدَّنيَّة، استقبال الموت خير من استدباره، الطَّعن في ثغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز، والظُّهور، يا آل بكر! قاتلوا فما من المنايا بُدٌّ»[5]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرَّجل الذي احتقر حياة الصَّغار، والمهانة، ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

6 – الصَّبر على المكاره، وقوَّة الاحتمال، والرِّضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل، ويقولون: البِطْنَة تُذْهِبُ الفِطْنَة، ويعيبون الرَّجل الأكول الجشع .

قال شاعرهم:

---

[1] بلوغ الأرب (150/1).

[2] انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص 90.

[3] معناه: كن كفأ لشسع نعليه ، وباء الرجل بصاحبه: إذا قتل. انظر: لسان العرب لابن منظور.

[4] انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص 91.

[5] تاريخ الطَّبريِّ عن يوم ذي قار (207/2).

إذا مُـدَّتِ الأيـدِي إِلى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ   بِأَعْـجَـلِـهِـمْ إِذْ أَجْشَـــعُ الْـقـومِ

وكانت لهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل المكاره، والصَّـبر في الشَّـدائد، وربما اكتسـبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصَّـحراويَّة الجافَّة، قليلة الزَّرع، والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسَّير في حرِّ الظَّهيرة، ولم يتأثَّروا بالحرِّ، ولا بالبرد، ولا وعورة الطَّريق، ولا بُعد المسـافة، ولا الجوع، ولا الظَّمأ، ولــــمَّا دخلوا الإسلام؛ ضربوا أمثلةً رائعة في الصَّبر، والتَّحمُّل، وكانوا يرضـون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمراتٍ يقيم بها صلبه، وقطراتٍ من ماء يرطِّب بها كبده[2].

7 – قوَّة البدن، وعظمة النَّفس:

واشتهروا بقوَّة أجسادهم مع عظمة النَّفس، وقوَّة الرُّوح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيَّة صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

8 – العفو عند المقدرة، وحماية الجار:

وكانوا ينازلون أقرانهم، وخصـــومهم، حتَّى إذا تمكَّنوا منهم عفوا عنهم، وتركوهم، ويأبون أن يُجهِزُوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيَّما رعاية النِّساء، والمحافظة على العرض. قال شاعرهم:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَـدَتْ لي جَـارَتي   حَـتَّى يُـوَارِي جَـارتي مَـأْواهَـا

وكانوا إذا اسـتجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه، وربما ضـحَّوا بالنَّفس، والولد، والمال في سـبيل ذلك.

كانت هذه الفضـائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضـخماً في نفوس العرب، فجاء الإسـلام، فنمَّاها، وقوَّاها، ووجَّهها وجهةَ الخير، والحقِّ، فلا عجب إذا كانوا قد انطلقوا من الصَّـــحارى، كما تنطلق الملائكة الأطهار، ففتحوا الأرض، وملؤوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمَّتها الرَّذائل، وخيراً بعد أن طفحت شراً[3].

---

(1) بلوغ الأرب (377/1).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (96/1 ، 97).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (97/1).

هذه بعض أخلاق المجتمع الَّذي نشأ فيه الإنسان العربيُّ، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختير له هذا المجتمع العربيُّ، وهذه البيئة النَّادرة وهذا الوسط الرَّفيع، مقارنةً بالفرس، والرُّوم، والهنود، واليونان، فلم يُخْتَرْ من الفرس على سعة علومهم، ومعارفهم، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرُّومان على تفنُّنهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريَّتهم، وخيالهم، وإنَّما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأنَّ هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه، وما هم فيه من علوم، ومعارف، إلا أنَّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرِّيَّة الضَّمير، وسموِّ الرُّوح[1].

---

[1] انظر: نظرات في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، ص 14.

المبحث الرَّابع

أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشريَّة ويكرم الإنسانيَّة، فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب صلى الله عليه وسلم . وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم، ونشأته العزيزة، ورعاية الله – عزَّ وجلَّ – له قبل نزول الوحي عليه، وسيرته العطرة قبل البعثة، نريد أن نتحدَّث عن الآيات العظيمة، والأحداث الجليلة؛ الَّتي سبقت ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح.

إنَّ من سنن الله في الكون: أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة، والضِّياء يكون بعد الظَّلام، واليُسر بعد العُسر[1].

ومن أهمِّ هذه الأحداث:

أولاً: قصَّة حفر عبد المطَّلب جدِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لزمزم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيِّم (صحيح السيرة النَّبويَّة)، روايةً صحيحةً في قصَّة حفر عبد المطَّلب لزمزم من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: «قال عبد المطَّلب: إنِّي لنائمٌ في الحِجْر، إذْ أتاني آتٍ، فقال لي: احفر طَيِّبة[2]. قلت: وما طَيْبة؟ قال: ثمَّ ذهب عني.

قال: فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مَضْجعي، فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر بَرَّة[3]، قال: قلت: وما بَرَّة؟ قال: ثمَّ ذهب عنِّي.

فلمَّا كان الغدُ؛ رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر المضنونة[4]. قال:

---

(1) انظر: هذا الحبيب محمَّد صلى الله عليه وسلم يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص 51.

(2) طيبة: مشتقة من الطِّيب ، وبه سمِّيت المدينة.

(3) برَّة: مشتقة من البرِّ ، والبرُّ: هو الخير والطَّهارة.

(4) المضنونة: الغالية النَّفيسة التي يضنُّ بمثلها؛ أي: يُبخل.

قلت: وما المضـــنونة؟ قال: ثمَّ ذهب. فلـــــمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضـــجعي، فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِفُ أبداً، ولا تُذَمُّ[1]، تســـقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفَرْث والدَّم، عند نقرة الغراب الأعصم[2]، عند قرية النَّمل[3].

قال ابن إسحاق: فلـــمَّا بُيِّن له شأنُها، ودُلَّ على موضعها، وعَرَف أنَّه قد صُدِق؛ غدا بمِعْوَلِه[4] ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذٍ ولدٌ غيره، فحفر فيها، فلـــمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[5]؛ كبَّر، فعرفت قريش: أنَّه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب! إنَّها بئر أبينا إسماعيل، وإنَّ لنا فيها حقًّا، فأشـــركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعلٍ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم، وأُعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا، فإنَّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعدٍ بن هُذَيم. قال: نعم، وكانت بأطراف الشَّام.

فركب عبد المطَّلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريش نفرٌ، فخرجوا؛ والأرض إذ ذاك مفاوز؛ حتَّى إذا كانوا ببعضـــــها نفد ماء عبد المطلب، وأصحابه، فعطشوا حتَّى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا مَنْ كانوا معهم، فأبوا عليهم، وقالوا: إنَّا بمفازة[6] وإنَّا نخشـــى على أنفســـنا مثل ما أصـــابكم. فقال عبد المطَّلب: إنِّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوَّة، فكلَّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته، ثم وَارَوْه؛ حتَّى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فَضَيْعةُ رجلٍ واحدٍ أيسر من ضيعة ركبٍ جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كلُّ رجلٍ لنفســـه حفرةً، ثمَّ قعدوا ينتظرون الموت عطشـــاً، ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال

---

[1] لا تنزف: أي: لا يفرغ ماؤها ، ولا يُلحق قعرُها.

[2] الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.

[3] قرية النَّمل: المكان الذي يجتمع فيه النَّمل.

[4] المِعْوَل: الفأس.

[5] الطيُّ: حافة البئر.

[6] المفازة: الصَّحراء ، والجمع: مفاوز.

لأصـــحابه: والله إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضـــرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفســـنا لَعَجْزٌ، فعســـى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد، ارتَحلوا. فارتحلوا؛ حتَّى إذا بعث[1] عبد المطَّلب راحلته انفجرت من تحت خفِّها عين ماءٍ عذبٍ، فكبَّر عبد المطلب، وكبَّر أصـــحابه، ثمَّ نزل، فشرب، وشرب أصحابه، واستسقوا حتَّى ملؤوا أسقيتهم، ثمَّ دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال - فقال: هَلُمُّوا إلى الماء ؛ فقد سـقانا الله ، فجاؤوا ، فشـربوا ، واسـتقوا كلُّهم، ثمَّ قالوا: قد - والله - قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إنَّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الَّذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع، ورجعوا معه، ولم يصِلوا إلى الكاهنة، وخَلُّوا بينه وبين زمزم».

قال ابن إســـحاق: فهذا ما بلغني عن عليّ بن أبي طالبٍ في زمزم [البيهقي في الدلائل (93/1 - 94) وابن هشام (151/1 - 153)] وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرةٌ، فمنها: ما رواه مسلمٌ في صحيحه في قصَّة إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّها مباركةٌ، إنَّها طعامُ طُعْمٍ» [مسلم(2) (2473)] .

وروى الدَّارقطنيُّ [(2713)] والحاكم [(473/1)] وصـــحَّحه عن ابن عباسٍ رضـــي الله عنهما عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : «ماء زمزم لما شُرِبَ له: إنْ شـربته لتستشـفي، شـفاك الله! وإن شربته لشبعك، أشبعك الله! وإن شربته لقطع ظمئك، قطعه الله! وهي هزمة[3] جبريل، وسقيا الله إسماعيل» قال الشَّيخ محمَّد أبو شهبة - رحمه الله! -[4]: ومهما يكن من شيءٍ فقـد صـحَّح الحافظ الدِّمياطيُّ - وهو من الحفَّاظ المتأخرين المتقنين - حديث: «ماء زمزم لما شُـرِبَ له» وأقرَّه الحافظ العراقيُّ[5].

[1] بعث راحلته: أقامها من بروكها.
[2] طعام طعم: أي: تشبع شاربها.
[3] هزمة ، أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه ، أو جناحه.
[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (158/1).
[5] مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقيِّ ، ص 13.

ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل[1]:

هذه الحادثة ثابتةٌ بالقرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة، وأتت تفاصيلها في كتب السِّير والتَّاريخ، وذكرها المفسِّرون في كتبهم: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل] .

أمَّا إشارات الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى الحادث؛ فمنها:

أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لـمَّا خرج زمن الحديبية، سار حتى إذا كان بالثَّنيَّة الَّتي يهبط عليهم منها، بركت بها راحلته ؛ فقال الناس : حَلْ حَلْ[2]. فَأَلَحَّتْ[3]، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلق، ولكن حبسها حابسُ الفيل» [البخاري (2731) وأحمد (323/4)] .

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم ما يلي: «كان من شأن الفيل: أنَّ ملكاً كان باليمن غلب عليها، وكان أصله من الحبشة، يقال له: أبرهة، بنى كنيسة بصنعاء، فسمَّاها القُلَّيْس، وزعم: أنَّه يصرف إليها حَجَّ العرب، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها، فخرج ملكٌ من ملوك حِمير فيمن أطاعه من قومه يُقال له ذو نفر، فقاتله؛ فهزمه أبرهة، وأخذه، فلـمَّا أتى به؛ قال له ذو نفر: أيها الملك! لا تقتلني؛ فإن استبقائي خيرٌ لك من قتلي، فاستبقاه، وأوثقه، ثمَّ خرج سائراً يريد الكعبة، حتَّى إذا دنا من بلاد خَثْعَم؛ خرج إليه النُّفَيْل بن حبيب الخثعميُّ ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه، فهزمهم، وأخذ النُّفَيْل، فقال النُّفيل: أيها الملك! إنِّي عالم بأرض العرب، فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع، والطَّاعة، فاستبقاه، وخرج معه يَدلُّه، حتَّى إذا بلغ الطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال ثقيف، فقال: أيُّها الملك! نحن

---

[1] ينظر الشكل (5) في الصفحة (741).

[2] كلمةٌ تقال للنَّاقة إذا تركت السَّير. (فتح الباري: 335/5).

[3] ألحّت: أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح. فتح الباري (335/5).

عبيدٌ لك، ليس لك عندنا خلافٌ، وليس بيننا وبينك الَّذي تريد - يعنون الَّلات - إنَّما تريد البيت الذي بمكَّة، نحن نبعث معك من يدلُّك عليه.

فبعثوا معه مولى لهم، يُقال له: أبو رِغال، فخرج معهم حتَّى إذا كان بالمغَمَّسِ[1] مات أبو رِغال، وهو الذي رُجِمَ قبره، وبعث أبرهة من المغَمَّسِ رجلاً، يقال له: الأسود بن مقصود على مقدِّمة خيله، فجمع إليه أهل الحرم، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير بالأرك، ثمَّ بعث أبرهة حُنَاطة الحميريَّ إلى أهل مكَّة، فقال: سل عن شريفها، ثمَّ أبلغه: أنِيّ لم آتِ لقتال، إنَّما جئت لأهدم هذا البيت.

فانطلق حُنَاطة حتَّى دخل مكَّة، فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إنَّ الملك أرسلني إليك؛ ليخبرك: أنَّه لم يأتِ لقتالٍ، إلا أن تقاتلوه، إنَّما جاء لهدم هذا البيت، ثمَّ الانصراف عنكم. فقال عبد المطَّلب: ما عندنا له قتالٌ، سنخلِّي بينه وبين البيت، فإن خلَّى اللهُ بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ. قال: فانطلق معي إليه. قال: فخرج معه؛ حتَّى قدم المعسكر، وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نفر! هل عندكم من غناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن من أن يقتل بُكرةً، أو عشيَّةً، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فامره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خيرٍ، ويُعظم خطرك، ومنزلتك عنده. قال: فأرسل إلى أنيس، فأتاه، فقال: إنَّ هذا سيِّد قريش، صاحب عير مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل، والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه؛ فانفعه؛ فإنَّه صديقٌ لي.

فدخل أنيس على أبرهة، فقال: أيُّها الملك! هذا سيِّد قريشٍ، وصاحب عِيْرِ مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل، والوحوش في الجبال، يستأذن عليك، وإنَّه أحبَّ أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصبٍ لك، ولا مخالفٍ عليك. فأذن له، وكان عبد المطَّلب رجلاً عظيماً، جسيماً، وسيماً، فلمَّا رآه أبرهة، عظَّمه، وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره، وأن يجلس تحته، فهبط

[1] المغمَّس: مكانٌ قرب مكَّة في طريق الطَّائف مات فيه أبو رِغال.

إلى البســـاط، فجلس عليه معه، فقال له عبد المطلب: أيها الملك! إنَّك قد أصـــبت لي مالاً عظيماً، فاردده عليَّ. فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتُك، ولقد زهدت فيك. قال: ولِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو دينُك ودينُ آبائك، وعصـــمتُكم، ومنعتُكم؛ لأهدمَه، فلم تُكلِّمْني فيه، وتكلِّمُني في مئتي بعيرٍ لك! قال: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربٌّ ســـيمنعه. قال: ما كان ليمنعه منّي. قال: فأنت وذاك! قال: فأمر بإبله، فرُدَّت عليه، ثمَّ خرج عبد المطَّلب، وأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب.

وأصـبح أبرهة بالمغَمَّس قد تهيَّأ للدُّخول، وعبَّأ جيشــه، وقرَّب فيله، وتحمَّل عليه ما أراد أن يحمل، وهو قائم، فلمَّا حرَّكه: وقف، وكاد أن يرزم إلى الأرض، فيبرك، فضربوه بالمعول في رأسه، فأبى، فأدخلوا محاجنه تحت أقرانه، ومرافقه، فأبى، فوجَّهوه إلى اليمن، فهرول، فصرفوه إلى الحرم، فوقف، ولحق الفيل بجبلٍ من تلك الجبال، فأرسل الله الطَّير من البحر كالبلسان[1]، مع كلِّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، وتحمل أمثال الحِمَّصِ والعدس من الحجارة، فإذا غشـيت القوم أرسـلتها عليهم، فلم تُصــب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل القوم أصـيب، فذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْـحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل] .

وبعث الله على أبرهة داءً في جسـده، ورجعوا سـراعاً يتسـاقطون في كلِّ بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله، كلَّما سقطت أُنملة؛ أتبعتها مِدَّة من قيحٍ، ودمٍ، فانتهى إلى اليمن، وهـــو مثل فرخ الطَّير فيمن بقي من أصحابه، ثمَّ مات»[2].

وذكر ابن إسـحاق - رحمه الله! - في سـيرته، كما نقله ابن هشـامٍ عنه في السِّـير: أنَّ عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفرٌ من قريش، يدعون الله، ويسـتنصـرونه على أبرهة

---

[1] البَلَسَانُ: نوعٌ من الطَّير (الزرازير).

[2] السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستيّ، ص 34. 39، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (30/1. 37).

وجنده، فقال عبد المطلب وهو اخذٌ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ[1] إنَّ العَبْدَ يَمْـــــــــــ ـــــــــــنعُ رَحْلَه فَامْنَعْ حلالَكْ
لا يَـغْـلِـبَنَّ صَــــلِـيـبُـهُـمْ وَمِحَــالُهُــمْ غَــدْواً مِحَــالَــكْ
إنْ كُنْتَ تَارِكُهمْ وقِــــــــــــ ـــــــــــبْــلتَنا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

ثمَّ أرسل عبد المطَّلب حَلْقَة باب الكعبة، وانطلق هو، ومن معه من قريشٍ إلى شَعَفِ الجبال[2]، فتحرَّزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكَّة إذا دخلها، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاكٍ لأبرهة، وجيشه[3].

دروسٌ وعبرٌ وفوائدُ من حادثة الفيل:

1 - بيان شرف الكعبة أوَّل بيتٍ وُضع للنَّاس، وكيف أنَّ مشركي العرب كانوا يعظِّمونه، ويقدِّسونه، ولا يقدِّمون عليه شيئاً. وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم، وإسماعيل، عليهما الصَّلاة والسَّلام.

2 - حسد النَّصارى، وحقدهم على مكَّة، وعلى العرب الَّذين يعظِّمون هذا البيت، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيْس، وعلى الرَّغم من استعماله أساليب التَّرغيب، والتَّرهيب إلا أنَّ العرب امتنعوا، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيْسِ أحدُ الأعراب، قال الرَّازي - رحمه الله تعالى! - في قوله تعالى: : اعلم أنَّ الكيد هو إرادة مضرَّةٍ بالغير على الخفية. (إن قيل): لِمَ سمَّاه ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، وأمره كان ظاهراً؟ فإنَّه كان يُصرِّح أن يهدم البيت. (قلنا): نعم؛ لكن الذي كان في قلبه شرّاً ممَّا أظهر؛ لأنَّه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشَّرف الحاصل لهم بسبب الكعبة عنهم، وعن بلدهم إلى نفسه، وإلى بلدته[4].

---

[1] لا هُمَّ: أصلها اللَّهُمَّ، والعرب تحذف الألف واللام منها، وتكتفي بما بقي.
[2] شَعَف الجبال: أعالي الجبال، أو رؤوس الجبال.
[3] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام مع شرح أبي ذرٍّ الخُشني (1/84. 91).
[4] انظر: تفسير الرَّازي (94/32).

3 – التَّضحية في سبيل المقدَّسات:

قام ملكٌ من ملوك حِميرَ في وجه جيش أبرهة، ووقع الملك أسيراً، وقام النُّفَيْلُ ابن حبيبٍ الخثعميُّ ومن اجتمع معه من قبائل اليمن، فقاتلوا أبرهة، إلا أنَّهم انهزموا أمام الجيش الْعَرَمْرَم، وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدَّساتهم.

إنَّ الدِّفاع عن المقدَّسات والتَّضحية في سبيلها، شيءٌ غريزيٌّ في فطرة الإنسان.

4 – خَوَنة الأمَّة مخذولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة، وصاروا عيوناً له، وجواسيس، وأرشدوه إلى بيت الله العتيق؛ ليهدمه لعنوا في الدُّنيا والآخرة، لعنهم النَّاس، ولعنهم الله – سبحانه وتعالى – وأصبح قبر أبي رِغال رمزاً للخيانة والعمالة، وصار ذاك الرَّجل مبغوضاً في قلوب النَّاس، وكلَّما مرَّ أحد على قبره؛ رجمه.

5 – حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مكَّة: «سنخلِّي بينه وبين البيت؛ فإن خلَّى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ» وهذا تقريرٌ دقيقٌ لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوَّة العدوِّ وحشوده؛ فإنَّها لا تستطيع الوقوف لحظةً واحدةً أمام قدرة الله وبطشه، ونِقْمته؛ فهو سبحانه واهب الحياة، وسالبُها في أيِّ وقتٍ شاء[1].

قال القاسميُّ – رحمه الله! –: قال القاشانيُّ – رحمه الله ! – قصَّة أصحاب الفيل مشهورةٌ، وواقعتهم قريبة من عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثرٌ من سخطه على مَنِ اجترأ عليه بهتك حُرَمِهِ[2].

6 – تعظيم النَّاس للبيت، وأهله:

ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام، الَّذي تكفَّل بحفظه، وحمايته من عبث المفسدين، وكيد

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 112.

(2) انظر: محاسن التَّفسير ، للقاسمي (262/17).

الكائدين[1]، وأعظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم العدوَّ، وكان ذلك آيةً من الله تعالى، ومقدِّمةً لبعثة نبيٍّ يبعث من مكَّة، ويطهِّر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعةٍ، وشأن[2].

7 – قصَّة الفيل من دلائل النُّبوَّة:

قال بعض العلماء: إنَّ حادثة الفيل من شــواهد النُّبوَّة، ودلالاتها، ومن هؤلاء: الماورديُّ – رحمه الله! – حيث يقول: آيات الملك باهرةٌ، وشــواهد النُّبوَّة ظاهرةٌ، تشــهد مباديها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصــدقٍ، ولا منتحلٌ بحقٍّ، وبحســب قوَّتها، وانتشــارها تكون بشــائرها، وإنذارها، ولـــمَّا دنا مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاطرت آيات نبوَّته، وظهرت آيات بركتـــه، فكان من أعظمها شأناً، وأشهرهـــا عياناً، وبياناً أصحاب الفيل... إلى أن قال: وآية الرَّسول صلى الله عليه وسلم في قصَّة الفيل: أنَّه كان في زمانه حَمْلاً في بطن أمِّه بمكَّة؛ لأنَّه ولد بعد خمسـين يوماً من الفيل، وبعد موت أبيه، في يوم الإثنين الثاني عشـر من شـهر ربيع الأوَّل، فكانت آيةً في ذلك من وَجْهَيْن:

أحدهما: أنَّهم لو ظفروا؛ لسبوا، واسترقوا، فأهلكهم الله – تعالى – لصيانة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجري عليه السَّبيُ حَمْلاً، ووليداً.

والثَّاني: أنَّه لم يكن لقريش من التألُّه ما يســتحقُّون به رفع أصــحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنَّهم كانوا بين عابد صــنمٍ، أو متديِّن وثنٍ، أو قائلٍ بالزَّندقة، أو مانعٍ من الرَّجعة، ولكن لـــمَّا أراد الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيساً للنُّبوَّة، وتعظيماً للكعبة. ولـــمَّا انتشر في العرب ما صـــنع الله تعالى في جيش الفيل، تهيَّبوا الحرم، وأعظموه، وزادت حرمته في النُّفوس، ودانت لقريش بالطَّاعة، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم كيدَ عدوِّهم، فزادوهم تشـــريفاً، وتعظيماً، وقامت قريش لهم بالوفادة، والسِّدانة، والسِّقاية (والوفادة مالٌ تخرجه قريش في كلِّ عامٍ

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص 92.

من أموالهم، يصــنعون به طعاماً للنَّاس أيام منى)، فصـــاروا أئمَّةً دَيَّانين، وقادةً متبوعين، وصـــار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[1].

وقال ابن تيميَّة – رحمه الله! –: «وكان ذلك عام مولد النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ، وكان جيران البيت مشـركين يعبدون الأوثان، ودين النَّصـارى خيرٌ منهم، فعُلِمَ بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ الَّذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأيُّ ذلك كان؛ فهو من دلائل نبوَّته»[2].

وقـال ابن كثيرٍ – رحمه الله! – عندما تحدَّث عن حـادثة الفيـل: «كـان هـذا من باب الإرهاص، والتَّوطئة لمبعث رســول الله صــلى الله عليه وســلم ، فإنَّه في ذلك العام ولد – على أشـهر الأقوال – ولسـان حال القدرة يقول: لم ينصـركم يا معشـر قريش! على الحبشـة لخيرتكم عليهم، ولكن صـيانةً للبيت العتيق؛ الَّذي سـنشـرِّفه، ونوقِّره ببعثة النَّبيِّ الأميِّ محمَّدٍ – صـلوات الله، وسلامه عليه – خاتم الأنبياء»[3].

8 – حفظ الله للبيت العتيق:

وهي: أنَّ الله لم يقدِّر لأهل الكتاب(أبرهة وجنوده)، أن يدمِّروا البيت الحرام، أو يسيطـــروا على الأرض المقدَّســة، حتَّى والشِّرك يُدنِّســه، والمشركون هم سدنته؛ ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلِّطين، مصوناً من كيد الكائدين، وليحفظ لهذه الأرض حرِّيتهـــا، حتَّى تنبت فيها العقيدة الجديدة حُرَّةً طليقـــةً، لا يهيمن عليها سلطانٌ، ولا يطغى فيها طاغيةٌ، ولا يهيمن على هذا الدِّين الذي جاء ليهيمن على الأديان، وعلى العباد، ويقود البشـــريَّة، ولا يقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته، ولدينه، قبل أن يعلم أحدٌ: أنَّ نبيَّ هذا الدِّين قد ولد في هذا العام[4].

ونحن نســـتبشـــر بإيحاء هذه الدَّلالة اليوم، ونطمئنَّ إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرةٍ ماكرةٍ،

---

(1) انظر: أعلام النُّبوَّة ، للماورديِّ ، ص 185 . 189.
(2) انظر: الجواب الصَّحيح (122/4).
(3) انظر: تفسير ابن كثير (548/4 ، 549).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 113.

ترف حول الأماكن المقدَّسة من قبل الصَّليبيَّة العالميَّة، والصهيونيَّة العالمية، ولا تني، أو تهدأ في التمهيد الخفيِّ اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة، فالله الَّذي حمى بيته من أهل الكتاب، وسدنتُه مشركون، سيحفظه – إن شاء الله – ويحفظ مدينة رسوله صلى الله عليه وسلم من كيد الكائدين، ومكر الماكرين[1].

9 – جَعْلُ الحادثة تاريخاً للعرب:

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأَرَّخُوا به، وقالوا: وقع هذا عامَ الفيل، ووُلد فلانٌ عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السِّنين، وعام الفيل صادف عام 570م[2].

---

[1] في ظلال القرآن (3980/6).

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص 93.

المبحث الخامس

من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم :

إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أشرف الناس نسباً، وأكملهم خَلْقاً، وخُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه صلى الله عليه وسلم أحاديث صحاح؛ منها: ما رواه مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [سبق تخريجه] .

وقد ذكر الإمام البخاريُّ - رحمه الله! - نسب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال: «هو أبو القاسم، محمَّد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصَيِّ، بن كلاب، بن مُرَّةَ، بن كعب، بن لُؤَيِّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النَّضر، بن كِنانة، بن خُزيمة، بن مُدْرِكة، بن إلياس، بن مضر، بن نِزارٍ، بن مَعَدِّ، بن عدنان» [البخاري تعليقاً (7/205 - 206)] .

وقال البغويُّ في شرح السُّنَّة [(13/193)] بعد ذكر النَّسب إلى عدنان: «ولا يصحُّ حفظ النَّسب فوق عدنان».

وقال ابن القيِّم بعد ذكر النَّسب إلى عدنان أيضاً: «إلى هنا معلوم الصحَّة، متَّفقٌ عليه بين النَّسَّابين، ولا خلاف ألبتةَ، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، ولا خلاف بينهم: أنَّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»[1].

وقد جاء عن ابن سعدٍ في طبقاته: «الأمر عندنا الإمساك عمَّا وراء عدنان إلى إسماعيل»[2].

وعن عروةَ بن الزُّبير: أنَّه قال: «ما وجدنا مَنْ يعرف وراء عدنان، ولا قحطان إلا

---

[1] زاد المعاد (1/71).

[2] ابن سعد (1/58).

تخرُّصاً»[1].

(1) المصدر السابق نفسه.

قال الذَّهبيُّ – رحمه الله –: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السَّـــلام – بإجماع النَّاس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء»[1].

لقد كان – وما زال – شرف النَّسب له المكانة في النُّفوس؛ لأنَّ ذا النَّسب الرَّفيع لا تُنْكَرُ عليه الصَّـــدارة، نبوَّةً كانت، أو مُلكاً، وينكر ذلك على وضـــيع النَّســـب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولـــمَّا كان محمَّد صلى الله عليه وسلم يُعَدُّ للنُّبوَّة، هيَّأ الله تعالى له شرف النَّسب؛ ليكون مساعداً له على التفاف النَّاس حوله[2].

إنَّ معدن النَّبيِّ صـــلى الله عليه وســـلم طيِّبٌ، ونفيسٌ، فهو من نسْـــل إسماعيل الذَّبيح، وإبراهيم خليل الله، واستجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام، وبشارةُ أخيه عيسى عليه السلام، كما حَدَّث هو عن نفســه، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشـارة أخي عيســى» [أحمد (127/4) والحاكم (600/2) ومجمع الزوائد (222/8)].

وطيب المعدن، والنَّســب الرَّفيع يرفع صـاحبه عن سـفاسـف الأمور، ويجعله يهتمُّ بعاليها، وفضـائلها. والرُّسل، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسـابهم، وطهر أصـلابهم، ويعرفون عند النَّاس بذلك، فيحمدونهم، ويثقون بهم[3].

وممَّا تبيَّن يتَّضح لنا من نسبه الشَّريف، دلالة واضحةً على أنَّ الله – سبحانه وتعالى – ميَّز العرب على سـائر النَّاس، وفضَّـل قريشـاً على سـائر القبائل الأخرى، ومقتضـى محبَّة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم محبَّة القوم الذين ظهر فيهم، والقبيلة التي ولد فيها، لا مِنْ حيث الأفراد والجنس؛ بل من حيث الحقيقة المجرَّدة، ذلك؛ لأنَّ الحقيقة العربيَّة القرشـيَّة قد شـرف كلٌّ منها – ولا ريب – بانتساب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوءٍ، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب، أو القرشـيِّين عن صـراط الله – عزَّ وجلَّ – وانحطَّ عن مسـتوى الكرامة الإسـلاميَّة التي اختارها الله لعباده؛ لأنَّ هذا الانحراف، أو الانحطاط من شـأنه أن يُودِيَ بما كان من نسبةٍ بينه وبين الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ويلغيها من الاعتبار[4].

---

[1] السِّيرة النَّبويَّة ، للذَّهبي ، ص 1.

[2] انظر: دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ص 96.

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 102.

[4] انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص 45.

ثانياً:زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهبٍ، ورؤيا آمنة أمّ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه، ولـمَّا نجا من الذَّبح، وفداه عبد المطلب بمئةٍ من الإبل، زوَّجه من أشرف نساء مكَّة نسباً، وهي آمنة بنت وهبٍ ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب[1].

ولم يلبث أبوه أن توفِّي بعد أن حملت به صلى الله عليه وسلم آمنة، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عديّ بن النَّجار»، فإنَّه كان قد ذهب بتجارةٍ إلى الشَّام، فأدركته منيَّته بالمدينة وهو راجعٌ، وترك هذه النَّسَمَةَ المباركة، وكأنَّ القدر يقول له: قد انتهت مهمَّتك في الحياة، وهذا الجنين الطَّاهر يتولَّى الله - عزَّ وجلَّ - بحكمته ورحمته تربيته، وتأديبه، وإعداده؛ لإخراج البشريَّة من الظُّلمات إلى النُّور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النَّبيّ صلى الله عليه وسلم . قيل للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : ما أوَّل بدء أمرك؟[2] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» [أحمد (262/5) والمعجم الكبير (7729) ومجمع الزوائد (221/8)] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129] .

وبشرى عيسى عليه السلام كما أشار إليه قوله - عزَّ وجل - حاكياً عن المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَـمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[الصف: 6] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : «ورأت أمِّي كأنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام». قال ابن رجب: «وخروجُ هذا النُّور عند وضعه إشارةٌ إلى ما يجيء به من النُّور؛ الَّذي اهتدى به

---

[1] انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة ، لأحمد فريد ، ص 46.

[2] المصدر السابق نفسه.

أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشِّـــرك منها، كما قال الله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15 – 16] .

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشَّام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه، وثبوته ببلاد الشَّام، ولهذا تكون الشَّام في آخر الزَّمان معقلاً للإسلام، وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشـق بالمنارة الشَّـرقية البيضـاء منها، ولهذا جاء في الصَّـحيحين: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضـــرُّهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم، حتَّى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاريِّ: «وهم بالشَّام» [البخاري (3641) ومسلم (1923/م)] .

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم :

ولد الحبيب المصـطفى صـلى الله عليه وسـلم يوم الإثنين بلا خلافٍ، والأكثرون على أنَّه لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول[1].

والمجمع عليه: أنَّه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل[2]، وكانت ولادته في دار أبي طالبٍ، بشعب بني هاشم[3].

قال أحمد شوقي – رحمه الله! – في مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم :

وُلِدَ الهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِـيـاءُ ... وَفَمُ الزَّمَـانِ تبسُّـمٌ وَثَنَـاءُ
الرُّوحُ، والملأُ الملائـكُ حَوْلَهُ ... للدِّينِ وَالدُّنْيَا بِـهِ بُشَـرَاءُ[4]
وَالْعَرْشُ يَزْهُو، والحَظِيرةُ تَزْدَهِي ... والمُنْتَهَى والسِّـدْرَةُ الْعَصْمَاءُ
بِكَ بَشَّـرَ اللهُ السَّـمَاءَ فَزُيِّنَتْ ... وَتَضَـوَّعَتْ مِسْـكاً بِكَ الْغَبْرَاءُ
يَوْمٌ يَتِيهُ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ ... وَمَسَـاؤُهُ بمحمَّـدٍ وَضَّـاءُ
ذُعِرَتْ عروشُ الظَّالمينَ فَزُلْزِلَتْ ... وعَلَتْ عَلى تِيجَانِهِمْ أَصْـدَاءُ
والنَّارُ خَاوِيةُ الجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ ... خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الماءُ
والآيُ تَـتْرَى، والخَـوارِقُ جَمَّـةٌ ... جِـبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا غَـدَّاءُ[5]

[1] انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي ، ص47. وينظر الشكلان (6 و7) في الصفحتين (742 و743).
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (203/1).
[3] انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص 47.
[4] بُشراء: جمع بشير.
[5] انظر: ديوان شوقي (34/1 ، 35).

وقد قال الشَّاعر الأديب اللِّيبي، الأستاذ محمد بشير المغيربي، في ذكرى مولد الرَّسول صلى الله عليه وسلم عام 1947 م، في جريدة الوطن الصَّادرة في بنغازي:

بَلَغَ الزَّمَـانُ مِنَ الحيـاةِ عتيًّـا ... لَـكِنَّ يـومـاً لا يَـزَالُ فَـتِـيًّـا
يمشي على الأحقابِ مشيَةَ فَاتِح ... في موكبٍ جَعَلَ السِّـنين مَطِيًّا
تَخِـذَتْ لَـهُ الأعْوَامُ في أيَّامِهَـا ... عَرْشـاً فأصْـبَحَ تَاجَهَا الأَبْدِيَّا
ومَضَتْ بِهِ الأجْيَالُ خُطْوَاتٍ مَنْ ... بَلَغَ الرَّشَـادَ وَكَانَ قَبْلُ صَـبِيًّا
أعْظِمْ بِيَوْمٍ جَـاءَ يَحْمِـلُ «رَحْمَـةً ... لِـلْـعَـالَـمِـيْنَ» وعِـزَّةً ورُقِـيًّـا
وُلِـدَتْ بِـهِ للكَـائِنـاتِ حَقيقـةٌ ... أضْـحَى بِهَا سِـرُّ الحياة جَلِيًّا
وَأَنَارَ في الأُولَى الطَّرِيقَ إلى الْوَرَى ... لِيَسِـيرَ للأخرى الأنَامُ تَقِيًّـا
كَادَتْ بِه الدُّنْيَا تَقولُ لِشَمْسِهَا ... عَنّي فَقَدْ رَجَعَ الضِّـيَاءُ إلِيَّا[1]

وقال أيضاً في نادي طرابلس الغرب الثَّقافي في القاهرة في عام 1949 م:

مَـالي وَمَـا بي مِـنْ شُمُـولْ ... أَشْـدُو عَلَـى رَغْـمِ العَـذُولْ
إني أُطَـالِعُ في السَّـماءِ ... كَأَنَّهَـا سِـفْرٌ جليـلْ
وأرَى النُّجُـومَ تَمَثَّلَـتْ لي ... كالملائـك في مُثُـولْ
وَالْبَـدْرُ خِلْـتُ شُـعَاعه ... وَحْـيَ الرِّسَـالةِ في نُـزولْ
وَإذَا بِصَـوْتٍ مِـنْ ضَمِيـر ... الْكَـوْن مُبْتَهجـاً يَقُـولْ
في مثـل هَـذي اللَّيلـةِ الْـغَرَّاء قَـدْ وَلِـدَ
وَأَشَـعَّ نُـورُ مُحَمَّـدٍ ... فَـوْقَ الـرَّوابي والسُّـهُولْ
مَـلأَ الزَّمَـانَ وَكَـانَ قَبْـلُ يَهِـيمُ في لَيْـل

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام:

كانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أُمُّ أيمن بركة الحبشيَّة أمَةَ أبيه، وأول من أرضعته ثُوَيْبَةُ أمَةُ عمِّه أبي لهب[3]. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة، أنَّ أمَّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنَّها قالت: يا رسول الله! انْكِحْ أختي بنت أبي سفيان، فقال: «أوَتحبِّين ذلك؟» فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحَبُّ من شاركني في خيرٍ أختي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلت: فإنَّا نُحَدَّثُ أنَّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سلمة. قال: «بنت أمِّ

---

[1] جريدة (الوطن) بنغازي 1947 م.
[2] سمعتُها مشافهةً من الشَّاعر.
[3] انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبوية ، ص 48.

سلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنَّها لم تكن ربيبتي في حجري، ما حَلَّت لي، إنَّها لابنة أخي من الرَّضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبةُ، فلا تعرضنَ عليَّ بناتكنَّ، ولا أخَواتِكنَّ» [البخاري (5101) ومسلم (1449)].

وكان من شـأن أمّ أيمن، أمّ أسـامة بن زيد: أنَّها كانت وصـيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلمَّا ولدت آمنةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، بعدما تُوفي أبوه، فكانت أمُّ أيمن تحضنه، حتَّى كَبِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقها، ثمَّ أنْكَحَهَا زيدَ ابن حارثة، ثم تُوفيت بعدما تُوفي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهرٍ. [البخاري (2630) ومسلم (1771)]

1. حليمة السَّعديَّة مرضعته في بني سعد[1]:

وهذه حليمة السَّعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ التي لمستها في نفسها، وولدها، ورعيها، وبيتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: لـمَّا وُلد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ قدمت حليمة بنت الحارث، في نسـوةٍ من بني سـعد بن بكر يلتمسـن الرُّضـعاء بمكَّة. قالت حليمة: فخرجت في أوائل النِّسوة على أتانٍ لي، قمراء[2]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزَّى، أحد بني سعد بن بكر، ثمَّ أحد بني ناضرة، قد أدمت[3] أتاننا، ومعي بالرَّكب شارفٌ[4] والله ما تَبِضُّ[5] بقطرة لبنٍ! في سنةٍ شهباء[6]، قد جاع النَّاس حتَّى خلص إليهم الجَهْد، ومعي ابنٌ لي، والله ما ينام ليلنا! وما أجد في يدي شيئاً أعلِّله به، إلا أنا نرجو الغيث، وكانت لنا غنمٌ، فنحن نرجوها.

فلـمَّا قدمنا مكَّة، فما بقي منَّا أحدٌ إلا عُرض عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فكرهته، فقلنا: إنَّه يتيم، وإنَّما يُكرِمِ الظِّئر، ويُحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أُمُّه، أو عمُّه، أو جدُّه، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعاً، فلمَّا لم أجد غيره؛ رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لآخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد

---

[1] ينظر الشكل (8) في الصفحة (744).

[2] قمراء: القُمرة: بالضمّ لونٌ يميل للخضرة ، أو بياضٌ فيه سمرةٌ ، أو كدرة.

[3] أدمت: حدثت في ركبها جروحٌ داميةٌ؛ لاصطكاكها ، وذلك لطول مسافة السَّير.

[4] الشَّارف: الناقة المسنَّة.

[5] لا تبضُّ بقطرة لبن: لا ترشح قطرة لبن.

[6] شهباء: سنةٌ مجدبةٌ لا خضرة فيها ، ولا مطر.

المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت!.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فو الله! ما هو إلا أن أتيتُ به الرَّحْلَ، فأمسيتُ؛ أقبل ثدياي باللَّبن، حتَّى أرويتُه، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافلٌ[1]، فحلبها، فأرواني، وروي، فقال: ياحليمة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَةً[2] مباركةً، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً، وكنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا.

ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء، فحملته معي، فو الذي نفس حليمة بيده؛ لقطعت الرَّكْبَ[3]! حتَّى إنَّ النِّسوة ليقلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كلِّ يومٍ خيراً، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سِنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثمَّ يريحون، فتروح أغنام بني سعدٍ جياعاً، وتروح غنمي بطاناً[4]، حُفَّلاً[5]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى، وغنم حليمة تروح شباعاً حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً، كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب السنة، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّة، أنا وأبوه، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه، قلنا: والله! ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء[6] مكَّة، وأسقامها، فدعيه نرجع به حتَّى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهراً ثلاثةً، أو أربعةً، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا[7]؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره)، فقال: إنَّ أخي القرشيَّ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأخذاه، وأضجعاه،

---

[1] حافل: كثير اللبن.

[2] نسمة: نفس.

[3] قطعت الرَّكْبَ: سبقت الركب.

[4] بطاناً: الممتلئة البطون.

[5] حفَّلاً: كثيرات اللَّبن.

[6] الوباء: المرض.

[7] البهم: صغار الضَّأن والماعز.

فشقَّا بطنه، فخرجت أنا، وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه [1]، فلــــمَّا رآنا؛ أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضــمَمْناه إلينا: ما لك بأبي وأمِّي؟ فقال: أتاني رجلان، وأضــجعاني، فشـقَّا بطني، ووضـعا به شـيئاً، ثمَّ ردَّاه كما هو، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا وقد أصـــيب، الحقي بأهله، فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوَّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمِّه، فلــمَّا رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنْ قضى الله الرَّضاعة، وسَرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبُّون أحبُّ إلينا.

قال: فقالت: إنَّ لكما شـأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتَّى أخبرناها، فقالت: كلا والله! لا يصنع الله ذلك به، إنَّ لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره، إنِّي حملت به، فو الله! ما حملت حملاً قطُّ، كان أخفَّ عليَّ منه، ولا أيسـر منه، ثُمَّ أُريت حين حملته خرج منِّي نورٌ أضـاء منه أعناق الإبل بِبُصْـرى - أو قالت: قصـور بُصـرى - ثمَّ وضعتُه حين وضعته، فو الله! ما وقع كما يقع الصِّبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض، رافعاً رأسه إلى السَّماء، فدعاه عنكما! فقَبَضَتْهُ، وانطلقنـا» [أبو يعلى (7163) وابن حبان (6335) والمعجم الكبير (212/24 - 215) ومجمع الزوائد (220/8 - 221) ودلائل البيهقي (133/1 - 136)] .

1 - دروسٌ وعبرٌ:

أ - بركة النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم على السَّيدة حليمة:

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السَّعدية في كلِّ شيءٍ، ظهرت في إدرار ثدييها، وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في ســـكون الطِّفل ولدها، وقد كان كثير البكاء، مزعجاً لأمِّه، يؤرِّقها، ويمنعها من النَّوم، وإذا هو شبعان ساكنٌ جعل أمَّه تنام، وتستريح. وظهرت بركته في شياههم العجفاوات، الَّتي لا تدرُّ شيئاً، وإذا بها تفيض من اللَّبن الكثير الَّذي لم يُعهد.

ب - كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له:

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السَّعدية التي تشـرَّفت بإرضـاعه، وليس من ذلك غرابةٌ، ولا عجبٌ[2]، فخَلْفَ ذلك حكمةٌ أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطِّفل، ويحنوا عليه،

---

[1] انتقع لونه: تغير.

[2] فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 44.

ويحسنوا في معاملته، ورعايته، وحضانته، وهكذا كان، فقد كانوا أحرص عليه، وأرحم به من أولادهم[1].

ج – خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

اختار الله لحليمة هذا الطِّفل اليتيم، وأخذته على مضضٍ؛ لأنَّها لم تجد غيره، فكان الخير كلَّ الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه، وهذا درسٌ لكلِّ مسلمٍ بأن يطمئنَّ قلبه إلى قدر الله، واختياره، والرِّضا به، ولا يندم على ما مضى، وما لم يقدِّره الله تعالى.

د – أثر البادية في صحَّة الأبدان، وصفاء النُّفوس، وذكاء العقول:

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي – رحمه الله –: وتنشئة الأولاد في البادية؛ ليمرحوا في كنف الطَّبيعة، ويستمتعوا بجوِّها الطَّلق، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء، والمشاعر، وإطلاق الأفكار، والعواطف.

إنَّها لتعاسةٌ أن يعيش أولادنا في شقق ضيِّقةٍ، من بيوتٍ متلاصقةٍ، كأنَّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها، وحرَمتْهم لذَّة التَّنفُّس العميق، والهواء المنعش.

ولا شكَّ: أنَّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة، يعود – فيما يعود – إلى البعد عن الطَّبيعة، والإغراق في التصنُّع. ونحن نقدِّر لأهل مكَّة اتِّجاههم إلى البادية؛ لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثيرٌ من علماء التَّربية يودُّ لو تكون الطَّبيعة هي المعهد الأوَّل للطِّفل، حتَّى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الَّذي وجد فيه، ويبدو أنَّ هذا حلمٌ عسير التَّحقيق[2].

وتعلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعدٍ اللِّسان العربيَّ الفصيح، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد[3]؟!».

2 – ما يستفاد من حادثة شقِّ الصَّدر:

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصَّدر الَّتي حصلت له صلى الله عليه وسلم أثناء وجوده في مضارب بني

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 105.
(2) انظر: فقه السِّيرة، ص 60، 61.
(3) الرَّوض الأنف، للسُّهيلي (188/1).

سعدٍ، من إرهاصات النُّبوَّة، ودلائل اختيار الله إيَّاه لأمرٍ جليل[1].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصَّدر في صغره، فعن أنس بن مالكٍ: «أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل؛ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشقَّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك، ثمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثمَّ لأَمَهُ[2]، ثمَّ أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه – يعني: ظِئْرَهُ – فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتل، فاستقبلوه؛ وهو مُنْتَقِعُ اللون. قال أنسٌ رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[مسلم (261/162) وأحمد (149/3) والبيهقي في الدلائل (5/2)] .

ولا شكَّ: أنَّ التَّطهير من حظِّ الشيطان هو إرهاصٌ مبكِّرٌ للنُّبوَّة، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ، وعبادة غير الله، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوحيد الخالص، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك، فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنمٍ[3] برغم انتشار ذلك في قريش[4].

وتحدَّث الدُّكتور البوطي عن الحكمة في ذلك، فقال: يبدو: أنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وتهيؤه للعصمة، والوحي منذ صغره بوسائل مادِّيَّةٍ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاس به، وتصديقهم برسالته. إنَّها – إذاً – عملية تطهيرٍ معنويٍّ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع النَّاس، وأبصارهم[5]. إنَّ إخراج العلقة منه تطهيرٌ للرَّسول صلى الله عليه وسلم من حالات الصِّبَا اللاهية العابثة المستهترة، واتِّصافه بصفات الجدِّ، والحزم، والاتزان، وغيرها من صفات الرُّجولة الصَّادقة، كما تدلُّنا على عناية الله به، وحفظه له، وأنَّه ليس للشَّيطان عليه سبيل[6].

خامساً: وفاة أمِّه، وكفالة جدِّه، ثمَّ عمِّه:

توفِّيت أمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة،

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 47.

(2) أي: جمعه ، وضمَّ بعضه إلى بعضٍ. (شرح النَّوويِّ على مسلم 216/2).

(3) .[177]زعم المستشرق نيكلسون: أنَّ حديث شقِّ الصَّدر أسطورةٌ نشأت عن تفسير الاية {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ *} وأنَّه كان لها أصل؛ فعلينا أن نخمِّن أنَّها تشير إلى نوع من الصَّرع ، وهذا الذي زعمه نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتَّهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون ، فنفى الله عنه ذلك ، فقال: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ *} [التكوير: 22].

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (104/1).

(5) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 47.

(6) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 106 ، 107.

وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديّ بن النَّجار تُريه إيَّاهم، فماتت، وهي راجعةٌ به إلى مكَّة[1]، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطَّلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه، أي: أعمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقد كان جدُّه مهيباً، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له، وكان أعمامه يتهيَّبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس على الفراش، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجدُّ بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ[2]، وكان جدُّه يحبُّه حباً عظيماً، وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبلٍ، فاحتبس عليه[3]، فطاف بالبيت، وهو يرتجل، يقول:

رَبِّ ردَّ راكبي ... رُدَّه لي وَاصْنَعْ عِنْدي يَدا

فلمَّا رجع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وجاء بالإبل، قال له: يا بني! لقد حزنتُ عليك كالمرأة، حزناً لا يفارقني أبداً. [البيهقي في الدلائل (20/2 – 21) والحاكم (603/2 – 604)] .

ثُمَّ توفِّي عبد المطلب والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في الثَّامنة من عمره[4]، فأوصى جدُّه به عمَّه أبا طالبٍ، فكفله عمُّه، وحنَّ عليه، ورعاه[5].

أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسولُه صلى الله عليه وسلم يتيماً، تتولاَّه عناية الله وحدها، بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتَّى لا تميل به نفسه إلى مجد المال، والجاه، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من معنى الصَّدارة، والزَّعامة، فيلتبس على النَّاس قداسة النُّبوَّة بجاه الدُّنيا، وحتَّى لا يحسبوه يصطنع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثَّاني[6]، وكانت المصائب الَّتي أصابت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم منذ طفولته؛ كموت أمِّه، ثمَّ جدِّه بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرَّةً بعد مرَّةٍ، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النُّفوس وتخلِّصها من أدران القسوة، والكِبْر، والغرور، وتجعلها أكثر

---

(1) ابن هشام في السِّيرة (168/1) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 101.
(3) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص 56.
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 101.
(5) انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، لليحيى ، ص 119.
(6) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 46.

رقَّةً، وتواضعاً.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزَالهما، وضعف بُنيتهما، فلم يكن محمَّد صلى الله عليه وسلم سليل أبوين سقيمين، وإنَّما توفَّاهما الله بعد أن قاما بالمهمَّة الَّتي وُجدا من أجلها؛ ليتأسَّى بمحمَّد صلى الله عليه وسلم كلُّ مَنْ فقد والديه، أو أحدَهما وهو صغير، وليكون أدبه، وخلقه مع يُتمه دليلاً على أنَّ الله تعالى تولَّى رعايته، وتأديبه؛ وحتَّى ينشأ قويَّ الإرادة، ماضي العزيمة، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه، وحتَّى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته[1]؛ وحتَّى لا تتدخَّل يدٌ بشريةٌ في تربيته، وتوجيهه، فيكون الله – سبحانه وتعالى – هو الَّذي يتولَّى تربيته، ولا يتلقَّى، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية، وأعرافها شيئاً، إنَّما يتلقَّى من لدن الحكيم الخبير، فالله – سبحانه وتعالى – آواه، وسخَّر له جدَّه، وعمَّه لتهيئة الجانب المادِّيِّ، بينما كانت التَّربية النَّفسية، والخُلقيَّة، والفكريَّة تعهُّداً ربَّانياً، ورعايةً إلهيَّةً[2].

سادساً: عمله صلى الله عليه وسلم في الرَّعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فلقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ، وأخذ حقَّه عن رعيه، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بعث الله نبياً إلا رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة» [البخاري (2262) وابن ماجه (2149)][3].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر، والحلم، والأناة، والرَّأفة، والرَّحمة[4].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه صلى الله عليه وسلم ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان

---

[1] انظر: رسائل الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (20/3).
[2] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص 84 ، 85.
[3] القيراط: جزءٌ من الدِّينار ، أو الدِّرهم.
[4] انظر: محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد الصادق عرجون (177/1).

للحيوانات[1]، فكان رعي الغنم للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم دربةً، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

1 - **الصَّبر**: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبر، والتَّحمُّل، وكذا تربية البشر[2].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ، ولا في ترفٍ، وسرفٍ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام، وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية، ويألفها، ويصبر عليها[3].

2 - **التَّواضع**: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم، والإشرافُ على ولادتها، والقيام بحراستها، والنَّوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيءٌ من روثها، فلا يتضجَّر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يَبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع[4].

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر: بطرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس» **[مسلم (91) والترمذي (1999) والحاكم (26/1)]**.

3 - **الشَّجاعة**: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة، تؤهِّله للقضاء على الوحوش، ومنعها من افتراس أغنامه[5].

4 - **الرَّحمة، والعطف**: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم؛ إن هي مرضت، أم كُسرت، أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتَّخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (106/1).
[2] انظر: مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص 124.
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 114، 115.
[4] المصدر السابق نفسه.
[5] المصدر السابق نفسه.

وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده، وإنقاذه من النَّار، وإسعاده في الدَّارين[1].

5 – حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً صـلى الله عليه وسـلم عن رعي الغنم، ولكن هذه تربيةٌ له، ولأمَّته للأكل من كسب اليد، وعرق الجبين، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد، إنَّ صـاحب الدَّعوة يجب أن يسـتغني عمَّا في أيدي الناس، ولا يعتمد عليهم، فبذلك تبقى قيمته، وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشُّبه، والتَّشـكيك فيه، ويتجرَّد عمله لله تعالى، ويردُّ شـبهة الكفرة الظَّلمة، الَّذين يصـوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم[2] ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78] .

هكذا يقول فرعون لموسـى، ونظراً لسـيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون: أنَّ أيَّ تفكيرٍ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا، ولهذا قال الأنبياء – عليهم الـسَّـلام – لأقوامهم، مبينين اسـتغناءهم عنهم: ﴿وَيَاقَوْمِ لاَ أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29] .

روى البخاريُّ عن المقدام رضـي الله عنه، عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [البخاري (2072)] .

ولا شـكَّ: أنَّ الاعتماد على الكسـب الحلال يكسـب الإنسـان الحرِّيَّة التَّامَّة، والقدرة على قول كلمة الحقِّ، والصَّـدْع بها[3]، وكم من الناس يطأطئون رؤوسـهـم للطُّغاة، ويسـكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم![4].

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس، إذا ما كان كسبه، ورزقه من وراء دعوته، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس، وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشـته على جهده الشَّـخصـيِّ، أو موردٍ شـريفٍ لا اسـتجداء فيه؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ، أو فضـلٌ في دنياه، فيعوقه ذلك من أن يصـدع بكلمة

---

[1] انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص 127.
[2] انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص (137).
[3] المرجع السابق نفسه ، ص (128).
[4] انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص (93).

الحقِّ في وجهه، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة، والرِّسالة الإلهيَّة، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة، ويوضح: أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيٍّ، فيما بعد البعثة[1].

إنَّ إقبال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة؛ منها: الذوق الرَّفيع، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّه صلى الله عليه وسلم . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة، وكان له في الحنوِّ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق، ولكنَّه صلى الله عليه وسلم ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع، وبرٍّ في المعاملة، وبذلٍ للوسع[2].

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيئ للنَّبيِّ (ﷺ) – وهو في صدر حياته – من أسباب الرَّفاهية، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم: أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[3].

سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة:

إنَّ الله تعالى صان نبيَّه صلى الله عليه وسلم عن شرك الجاهليَّة، وعبادة الأصنام. روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: حدَّثني جارٌ لخديجة: أنَّه سمع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً» [أحمد

---

[1] انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 50.

[2] المصدر السَّابق نفسه.

[3] المصدر السَّابق نفسه.

(222/4) و(362/5)] . قال: وهي أصنامهم الَّتي كانوا يعبدون، ثمَّ يضطجعون[1]. وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[2].

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشَّباب، ودواعيه البريئة، الَّتي تنزع إليها الشُّبوبيَّة بطبعها، ولكنَّها لا تلائم وقار الهداة، وجلال المرشدين[3]. فعن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما هممت بقبيح ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به، إلا مرَّتين من الدَّهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكَّة، سمعت غناءً، وضرب دفوفٍ، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة - لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ - فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس، ثمَّ رجعت إلى صاحبي، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة، حتَّى أكرمني الله بنبوَّته» [أبو نعيم في الدلائل (128) والبيهقي في السنن الكبرى (2/33 - 34) والبزار (2403) ومجمع الزوائد (226/8)] .

وهذا الحديثُ يوضّح لنا حقيقتين كلاً منهما على جانبٍ كبيرٍ من الأهمّيَّة:

1 - إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً بخصائص البشريَّة كلِّها، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية، الَّتي اقتضت حكمة الله أن يجبل النَّاس عليها، فكان يُحِسُّ بمعنى السَّمر واللَّهو، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ، وتحدِّثه نفسه: لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك، كما يتمتَّع الآخرون.

2 - إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كلِّ ما لا

---

[1] انظر: وقفات تربويَّة ، لأحمد فريد ، ص 51.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد الصادق عرجون (51/1).

يتَّفق مع مقتضيات الدَّعوة الَّتي هيَّأه الله لها[1].

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول صلى الله عليه وسلم وهو غلامٌ:

خرج أبو طالبٍ إلى الشَّـام، وخرج معه النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم في أشـياخٍ من قريشٍ، فلـمَّا أشرفوا[2] على الرَّاهب[3]، هبطوا، فحَلُّوا رحالهم[4]، فخرج إليهم الرَّاهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلُّون رحالهم؛ جعل الرَّاهب يتخلَّلهم[5]، حتَّى جاء، فأخذ بيد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ، فقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشـياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشـرفتم من العقبة، لم يبق شـجرٌ، ولا حجرٌ إلا خرَّ[6] سـاجداً، ولا يسـجدان إلا لنبيٍّ، وإنِّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسـفل من غضـروف[7] كتفه مثل التُّفاحة.

ثمَّ رجع، فصنع لهم طعاماً، فلــمَّا أتاهم به، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رعية الإبل[8]، قال: أرسلوا إليه، فأقبل، وعليه غمامةٌ[9] تظلُّه، فلـمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة، فلــمَّا جلس مال فيءُ الشَّجرة[10] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائمٌ عليهم، وهو يناشـدهم[11] ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإن الرُّوم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا:

---

[1] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 50 ، 51.

[2] أشرفوا: اطلعوا من فوق.

[3] الرَّاهب: زاهد النَّصارى.

[4] حَلُّوا رحالهم: أي: أنزلوها ، وفتحوها.

[5] يتخلَّلهم: يمشي بينهم.

[6] خرَّ: سقط.

[7] الغضروف: رأس لوح الكتف.

[8] رعية الإبل: رعايتها.

[9] غمامة: السَّحابة.

[10] مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.

[11] يناشدهم: يقسم عليهم.

جاءنا أنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشَّـــهر، فلم يبقَ طريقٌ إلا بُعث إليه بأناسٍ، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟

قالوا: إنَّما اخترنا خيره لك لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه، وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيُّكم وليُّه[1]؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتَّى ردَّه أبو طالب.

[البيهقي في الدلائل (2/24 – 25) والترمذي (3620) والحاكم (2/615) وأبو نعيم في دلائله (109)] .

وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ؛ منها:

1 – أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب، يعلمون: أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم هو الرَّسول للبشريَّة، وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

2 – إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشَّجرة عليه.

3 – أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم استفاد من سفره، وتجواله مع عمِّه، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلع على تجارِب الآخرين، وخبرتهم، واستفاد من آرائهم، فهم أصحاب خبرةٍ، ودرايةٍ، وتجربةٍ لم يمرَّ بها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في سِنِّه تلك.

4 – حذَّر بَحِيرا من النَّصارى، وبيَّن أنَّهم إذا علموا بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فإنَّهم سيقتلونه، وناشد عمَّه، وأشياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإنَّ الروم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه. لقد كان الرُّومان على علمٍ بأنَّ مجيء هذا الرَّسول سيقضي على نفوذهم الاستعماريِّ في المنطقة، ومن ثَمَّ فهو العدوُّ الَّذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرُّومان.

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومَنْ معهم من كنانة، وبين هوازن، وسببها: أن عُروةَ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن هوازن أجار لطيمةً[2] للنُّعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق كلِّه. فخرج بها عروة، وخرج البرَّاض يطلب

---

[1] أيكم وليُّه: قريبه.

[2] اللَّطيمة: الجمال التي تحمل الطِّيب والثِّياب والتِّجارة ، وما أشبه ذلك.

غفلته حتَّى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا؛ وهوازن لا تشعر بهم، ثمَّ بلغهم الخبر، فاتَّبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتَّى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، وعاونت قريش كنانة[1]وشهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم بعض أيَّامهم، أخرجه أعمامه معهم. وسُمِّيت يوم الفِجَارِ بسبب ما استُحلَّ فيه من حرمات مكَّة؛ التي كانت مقدَّسةً عند العرب[2].

وقد قال صلى الله عليه وسلم عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي»، أي أردُّ عليهم نبل عدوِّهم إذا رموهم بها [ابن هشام (198/1) والسيرة الحلبية (127/1 – 129)] .

وكان صلى الله عليه وسلم حينئذٍ ابن أربع عشرة، أو خمس عشرة سنة، وقيل: ابن عشرين، ويُرَجِّحُ الأوَّل: أنَّه كان يجمع النِّبال، ويناولها لأعمامه؛ ممَّا يدلُّ على حداثة سِنِّهِ.

وبذلك اكتسب الجرأة، والشَّجاعة، والإقدام، وتمرَّن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب التي تبدؤها، حتَّى ألَّف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضَّلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[3].

عاشراً: حِلْفُ الفُضُول:

كان حِلْفُ الفُضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه: أنَّ رجلاً من زبيد[4] قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقَّه، فاستعدى عليه الزَّبيديُّ أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهرٍ وأهل المروءة، ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهرٍ لِمَظْلومٍ بضاعَته ... ببَطْنِ مَكَّة نَائِي الدَّارِ والنَّفر
وَمُحْرِمٍ أشعثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يا للرِّجالِ وبَيْنَ الحِجْرِ والحَجَرِ
إنَّ الحرام لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... ولا حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ[5]

فقام الزُّبير بن عبد المطلب، فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزُهرة، وبنو تَيْم بن مرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهرٍ حرامٍ، وهو ذو القعدة،

---

[1] قريش فرع من كنانة.
[2] وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص 53.
[3] انظر: وقفات تربويَّة ، ص 53.
[4] زبيد: بلد باليمن.
[5] انظر: الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (155/1 ، 156).

فتعاقدوا، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظَّالم، حتَّى يُردَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صُوفةً، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[1].

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيديِّ، فدفعوها إليه.

وسمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزُّبير بن عبد المطلب:

إنَّ الفُضُــــولَ تَعَــاقَــدُوا ... ألاَّ يُقيمَ ببطْنِ مكَّــةَ ظَــالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وتَوَاثَقُوا ... فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ[2] فِيهِمْ ســالِمُ

قد حضر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم، ورفعوا به منار الحقِّ، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإنسان[3]، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «شهدت حلف المطيّبين مع عمومتي؛ وأنا غلام، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه» [أحمد (190/1) والبخاري في الأدب المفرد (567) وأبو يعلى (844 و845 و846)] .

وقال أيضاً: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» [البيهقي في السنن الكبرى (367/3) وابن هشام (141/1 – 142] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

1 – إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ، وليست نسبيَّة، وإنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابيَّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليَّة[4].

2 – كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليَّة، وفيه دلالةٌ بيّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان، والمظالم، والأخلاق الذَّميمة، كالظُّلم، والزِّنى، والرِّبا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ، ومروءة، يكرهون الظُّلم، ولا يقرُّونه، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم؛ التي لا تُحَكِّمُ الإسلامَ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام[5].

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (213/1).
[2] المعتر: الزَّائر من غير البلاد.
[3] انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (214/1).
[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (112/1).
[5] انظر: فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص 110.

3 – إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صـورةٍ، ولا يشـترط الوقوف ضـدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ الناس[1]. إنَّ الإسـلام يحارب الظُّلم، ويقف بجانب المظلوم، دون النَّظر إلى لونه، ودينه، ووطنه، وجنسه[2].

4 – جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير؛ فهو من قبيل التَّعاون المأمور به في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: 2]

ويجوز للمسـلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنَّه تأكيدٌ لشـيءٍ مطلوبٍ شـرعاً، على ألا يكون ذلك شـبيهاً بمسـجد الضِّـرار، بحيث يتحوَّل التعاقد إلى نوعٍ من الحزبيَّة الموجَّهة ضد مسـلمين آخرين ظلماً، وبغياً، وأمَّا تعاقد المسـلمين مع غيرهم على دفع ظلمٍ، أو في مواجهة ظالمٍ؛ فذلك جائزٌ لهم، على أن تُلحظ في ذلك مصـلحة الإسـلام والمسـلمين في الحاضـر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليلٌ، والدَّليل فيه قوله صلى الله عليه وسلم : «ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْر النَّعَم» [سبق تخريجه] ؛ لما يحقِّق من عدلٍ، ويمنع من ظلمٍ، أو النكث به مقابل حمر النَّعم، وقوله صلى الله عليه وسلم : «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» [سبق تخريجه]، ما دام أنَّه يردع الظَّالم عن ظلمه، وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[3].

5 – على المسـلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم محطَّ أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 121.

(3) انظر: الأساس في السُّنَّة (172/4).

احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[1].

* * *

[1] انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص 110 ، 111.

المبحث السَّادس

تجارته لخديجة وزواجه منها وأهمُّ الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة، وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضـي الله عنها أرملةً[1] ذات شـرفٍ، ومالٍ، تستأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها، فلـمَّا بلغها عن محمَّد صلى الله عليه وسلم صدق حديثه، وعظم أمانته، وكَرَم أخلاقه، عرضـت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّـام تاجراً، وتعطيه أفضـل ما تعطي غيره من التُّجار، فقبل، وسـافر معه غلامها ميسـرةُ، وقدما الشَّـام، وباع محمَّد صـلى الله عليه وسـلم سلعته الَّتي خرج بها، واشترى ما أراد من السِّلع، فلـمَّا رجع إلى مكَّة، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

وقد حصـل الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم في هذه الرِّحلة على فوائد عظيمة بالإضـافة إلى الأجر الَّذي ناله؛ إذ مرَّ بالمدينة الَّتي هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزاً لدعوته، وبالبلاد التي فتحها، ونشـر فيها دينه، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة، بعد أن حدَّثها ميسرة عن سماحته، وصـدقه، وكريم أخلاقه[2]، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشـمائله الكريمة، ووجدت ضـالَّتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسـها إلى صـديقتها نفيسة بنت منبِّه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[3]، فرضـي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب، فخطبها إليه، وتزوَّجها رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بَكرةً، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى ماتت رضـي الله عنها[4]، وقد وَلَدَتْ لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم غلامين، وأربع بنات. وابناه هما: القاسـم، وبه كان صـلى الله عليه وسـلم يُكنى، وعبد الله، ويلقَّب بالطَّاهر، والطَّيِّب.

---

[1] تزوجها عتيق بن عائذ ، ثمَّ مات عنها ، فتزوَّجها أبو هالة ، ومات عنها أيضاً.

[2] انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (27/3).

[3] انظر: مواقف تربويَّة ، ص 56.

[4] انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص 122.

وقد مات القاســـم بعد أن بلغ ســـناً تمكنه من ركوب الدَّابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة. أمَّا بناته فهنَّ: زينب، ورقيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة. وقد أســـلمن، وهاجرن إلى المدينة، وتزوجن رضي الله عنهن[1]. هذا وقد كان عُمرُ الرَّسول صلى الله عليه وسلم حين تزوَّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً، وكان عمرها أربعين سنةً[2].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

1 - إنَّ الأمانة، والصِّـدق أهمُّ مواصـفات التَّاجر النَّاجح، وصـفة الأمانة، والصِّـدق في التِّجارة في شـخصـية النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ، هي الَّتي رغَّبت السَّـيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسـافر به إلى الشَّـام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

2 - إنَّ التِّجارة موردٌ من موارد الرِّزق الَّتي سـخَّرها الله لرسـوله صـلى الله عليه وسـلم قبل البعثة، وقد تدرَّب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على فنونها، وقد بيَّن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : أنَّ التَّاجر الصَّدوق الأمين في هذا الدِّين يُحشر مع النَّبيِّين، والصدِّيقين، والشُّهـداء، وهذه المهنة مهمَّـــة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم؛ فهو ليس بحاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه، وبحاجةٍ إلى خبرته، وأمانته، وعفَّته.

3 - كان زواج الحبيب المصطفى صـلى الله عليه وسـلم للسَّـيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله - سـبحانه وتعالى - لنبيِّه زوجةً تناسـبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصـيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه[3].

قال الشَّـيخ محمَّد الغزالي - رحمه الله! -: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصـحاب الرِّسـالات يحملون قلوباً شـديدة الحسـاسـية، ويلقون غبْناً بالغاً من الواقع الَّذي يريدون تغييره، ويقاسـون جهاداً كبيراً في سـبيل الخير الَّذي يريدون فرضـه، وهم أحوج ما

---

[1] انظر: رسالة الأنبياء (28/3).
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 122.
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (122/1 ، 123).

يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّـــة بالإيناس، والتَّرفيه، وكانت خديجة ســـبَّاقةً إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أثرٌ كريم[1].

4 – إنَّ النَّبيّ صـــلى الله عليه وســـلم ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شـــاء الله – وله الحكمة البالغة – ألا يعيش له صـــلى الله عليه وســـلم أحدٌ من الذُّكور، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم، وادِّعائهم لهم النُّبوَّة، فأعطاه الذُّكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاءً لحاجات النَّفس الإنسانيَّة، ولئلا يتنقَّص النَّبيَّ في كمال رجولته شانئ، أو يتقوَّل عليه متقوِّلٌ، ثمَّ أخذهم في الصِّغر، وأيضاً ليكون ذلك عزاءً، وسلوى لِلَّذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقون ثمَّ يموتون، كما أنَّه لونٌ من ألوان الابتلاء، وأشـــدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء [الترمذي (2398) وابن ماجه (4023)] ، وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ صـــلى الله عليه وســـلم أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسـوسـون الشُّـعوب لا يجنحون إلى الجبروت، إلا إذا كانت نفوسـهم قد طبعت على القسـوة، والأثرة، وعاشـت في أفراحٍ لا يخامرها كدر، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الآلام؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين، ومداواة المجروحين[2].

5 – يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من السَّيدة خديجة، عدم اهتمـــام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بأسباب المتعة الجسديَّـــة، ومكمِّلاتها، فلو كان مهتماً بذلـــــك – كبقيَّة الشَّباب – لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً، أو فيمن لا تفوقه في العمر، وإنَّما رغب النَّبيُّ صـــلى الله عليه وســـلم لشـــرفها، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة.

6 – في زواج النَّبيِّ صـــلى الله عليه وســـلم من السَّـــيدة خديجة ما يلجم ألســـنة وأقلام الحاقدين على الإسلام، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوَّروا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم

---

(1) انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص 75.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 78.

في صـورة الرَّجل الشَّـهوانيِّ الغارق في لذَّاته، وشـهواته، فنجد: أنَّ النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئةٍ جاهليَّةٍ عفيف النَّفس، دون أن ينساق في شـيءٍ من التَّــيَّـــارات الفاسدة؛ الَّتي تموج حوله، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شيءٍ ممَّا حوله، وإنَّ ما حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثر من سـبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشَّـباب، ثمَّ الكهولة، ويدخل في سـن الشُّـيوخ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفِّيت خديجة رضـي الله عنها عن خمسـةٍ وسـتين عاماً، وقد ناهز النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم الخمسـين من العمر، دون أن يفكِّر خلالها بالزَّواج بأيِّ امرأةٍ أخرى، وما بين العشـرين والخمسـين من عمر الإنسـان هو الزَّمن الَّذي تتحرَّك فيه رغبة الاسـتزادة من النِّسـاء، والميل إلى تعدُّد الزَّوجات للدَّوافع الشَّـهوانية؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفكر في هذه الفترة في أن يضـــمَّ إلى خديجة مثلها من النِّســـاء، زوجةً، أو أمَةً، ولو أراد؛ لكان الكثير من النِّساء، والإماء طوعَ بنانه.

أمَّا زواجه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من السَّيدة عائشـة، وغيرها من أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن، فإنَّ لكلٍّ منهن قصَّةً، ولكلِّ زواج حكمةً وسبباً، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ورفعة شأنه، وكمال أخلاقه[1].

ثانياً: اشتراكه صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة الشَّريفة:

لـــمَّا بلغ محمَّد صلى الله عليه وسلم خمسـاً وثلاثين سـنةً، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصـابها من حريق، وسـيلٍ جارفٍ؛ صـدَّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السـلام رَضـماً[2] فوق القامة، فأرادوا هدمها؛ ليرفعوها، ويسـقفوها، ولكنَّهم هابوا هدمها، وخـافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هـدمها، فأخذ المعول، ثمَّ قام عليها، وهو يقول: اللَّهمَّ لم نزغ! ولا نريد إلا الخير.

---

[1] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 53 ، 54.

[2] الرَّضم: حجارةٌ منضودةٌ بعضها على بعضٍ من غير طين.

وهدم من ناحية الرُّكنين؛ فتربَّص النَّاس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب؛ لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيءٌ؛ فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارةٍ خُضْر كالأَسْنمة[1] اخذٌ بعضها ببعضٍ.

وكانوا قد جزَّؤوا العمل وخصُّوا كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ، واشترك سادة قريش، وشيوخها في نقل الحجارة، ورفعها، وقد شارك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وعمُّه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة، فقال العباس للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض[2]، وطمحت عيناه إلى السَّماء، ثمَّ آفاق، فقال: «إزاري! إزاري!»، فشدَّ عليه إزاره [البخاري (1582) ومسلم (340)] .

فلمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أنَّ أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل مَنْ يدخل من باب المسجد. فلمَّا توافقوا على ذلك؛ دخل محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا. فلمَّا أخبروه الخبر، قال: «هلمُّوا ثوباً»، فأتوه به، فوضع الرُّكن فيه بيديه، ثمَّ قال: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب، ثمَّ ارفعوا جميعاً» فرفعوه، حتَّى إذا بلغوا موضعه، وضعه بيده، ثمَّ بنى عليه. [الحاكم (458/1 – 459) وعبد الرزاق (100/5 – 101) والبيهقي في الدلائل (56/2 – 57)] .

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخلَ إليها كلُّ أحد، فيُدخلوا من شاؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها، لأنَّهم شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةٌ طيِّبةٌ، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ، ولا بيع رباً، ولا مظلمةُ أحدٍ

---

[1] الأسنمة: جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير.

[2] ففعل ذلك ، فوقع.

من النَّاس[1].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - أهمِيَّة الكعبة، وقداستها عند قريش، ويكفي أن باشر تأسيسها، ورفع قواعدها إبراهيم، وابنه إسماعيل - عليهما الصَّلاة والسَّلام - بأمرٍ من الله تعالى؛ لتكون أوَّل بيتٍ لعبادة الله وحدَه.

2 - بُنِيت الكعبة خلال الدَّهر كلِّه أربع مرَّات على يقينٍ؛ فأمَّا المرَّة الأولى منها، فهي الَّتي قام بأمر البناء فيها إبراهيم - عليه الصَّلاة والسلام - يعينه ابنه إسماعيل - عليه الصَّلاة والسَّلام -، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة، واشترك في بنائها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، والثالثة: عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية، بفعل الحصار الَّذي ضربه الحُصين السُّكوني على ابن الزُّبير حتَّى يستسلم، فأعاد ابن الزُّبير بناءها، وأمَّا المرَّة الرَّابعة ففي زمن عبد الملك بن مروان بعدما قُتِل ابن الزُّبير، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم [2]؛ لأنَّ ابن الزُّبير باشر في رفع بناء البيت، وزاد فيه الأذرع السِّتَّة التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السَّماء عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يُدخل منه، والآخر يُخرج منه، وإنَّما جرَّأه على إدخال هذه الزِّيادة حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا عائشة! لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ؛ لأمرت بالبيت، فهُدم؛ فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغتُ به أساس إبراهيم» [البخاري (1586) ومسلم (1333/401)].

3 - طريقة فضِّ التنازع كانت موفَّقةً، وعادلةً، ورضي بها الجميع، وحقنت دماءً كثيرةً، وأوقفت حروباً طاحنةً، وكان مِنْ عدل حكمه صلى الله عليه وسلم أن رضيت به جميع القبائل، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الصَّفا

---

[1] انظر: وقفات تربويَّة ، ص 57 ، وانظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (3/29 ، 30).

[2] السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 57 ، 58.

كان قَدَراً من الله لحلِّ هـــذه الأزمة المستعصية، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضـيه محمَّد صـلى الله عليه وسـلم ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي، ولا يفسد، وهو الأمين على البيت، والأرواح، والدِّماء[1].

4 - إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ[2]، وحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هـذه الحادثـة شرفان: شرف فصـــل الخصومة، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه، ووضعُه في مكانه من البيت[3].

5 - إنَّ المســـلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهيِّ، وكمال التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يلاحظ كيف أنَّ الله أكرم رسوله صلى الله عليه وسـلم بهذه القدرة الهائلة على حلِّ المشـكلات بأقرب طريقٍ، وأسـهله، وذلك ما تراه في حياته كلِّها صلى الله عليه وسلم ، وذلك معلَمٌ من معالم رسالته، فرسالتُه إيصالٌ للحقائق بأقرب طريقٍ، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوبٍ، وأكمله[4].

6 - من حفظ الله لنبيِّه صـلى الله عليه وسـلم في شـبيبته، عن أقذار الجاهليَّة، وأدرانها، ومعائبها، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر، أثناء بناء الكعبة، ورفع إزاره على رقبته، فخرَّ إلى الأرض، وطَمَحَتْ عينُه إلى السَّـماء، ثمَّ آفاق يقول: إزاري! إزاري! فشـد عليه إزاره، فما رُئِيَ بعد ذلك عُرْياناً صلى الله عليه وسلم [البخاري (1582) ومسلم (340)] .

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 125.
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (116/1).
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 125 ، 126.
[4] انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها . السِّيرة النَّبويَّة (175/1).

ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم :

شاءت حكمة الله تعالى، أن يُعدَّ الناس لاستقبال نبوَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم بأمورٍ؛ منها:

1 – بشارات الأنبياء بمحمَّد صلى الله عليه وسلم :

دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمَّداً إجابةً لدعوته.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتك وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129] ، وذكر القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد صلى الله عليه وسلم، في الكتب السَّماوية المنزلة على الأنبياء السَّابقين، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

وبشَّر به عيسى عليه السلام، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6].

وأعلمَ اللّهُ تعالى جميع الأنبياء ببعثته، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به، واتّباعه؛ إن هم أدركوه[1]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

---

[1] انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرّسول صلى الله عليه وسلم ، ص 101 ، 102.

وقد وقع التَّحريف في نسخ التَّوراة، والإنجيل، وحُذِف منهما التَّصريح باسم محمَّد صلى الله عليه وسلم، إلا توراة (السَّامرة)، وإنجيل (برنابا) الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيَّدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرِّحة باسم النَّبيِّ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه، ونصُّ العبارة: «29 - فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس. 30 - فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»[1].

قال ابن تيميَّة: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم عندهم في الكتب المتقدمة متواترةٌ عنهم» ثمَّ قال: «ثمَّ العلم بأنَّ الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب، ممَّن أسلم، وممَّن لم يسلم، بما وجدوه من ذكره بها؛ وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار: أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنَّه رسولُ الله، وأنَّه موجودٌ عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لـمَّا دعاهم إلى الإسلام، حتَّى آمن الأنصار به، وبايعوه»[2].

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وكان من أصحاب بدرٍ، قال: «كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بيسيرٍ، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذٍ أَحْدَثُ مَنْ فيه سناً، عليَّ بردةٌ مضطجعاً فيها بفناء أهلي، فذكر البعث، والقيامة، والحساب، والميزان، والجنَّة، والنَّار، فقال ذلك لقومٍ؛ وكانوا أهل شركٍ، وأصحاب أوثان، لا يرون: أنَّ بعثاً كائنٌ بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً: أنَّ النَّاس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنَّةٌ،

---

[1] انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة ، للعمري (118/1).

[2] انظر: الجواب الصَّحيح ، لابن تيميَّة (340/1).

ونارٌ، ويُجزون فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُحلف به! ولودَّ: أنَّ له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ[1] في الدُّنيا يحمونه، ثمَّ يدخلونه إيَّاه، فيطبق به عليه[2] وأن ينجو من تلك النَّار غداً.

قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكَّة، واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ – وأنا من أحدثهم سناً – فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمرَه؛ يدركه.

قال سلمة: «فو الله! ما ذهب الليل والنَّهار، حتَّى بعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنَّا به، وكفر به بغياً وحسداً؛ فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالَّذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به» **[أحمد (467/3) والبيهقي في الدلائل (78/2 – 79) وابن هشام (225/1 – 226)]**.

وقد قال ابن تيميَّة – رحمه الله! –: «قد رأيت أنا من نُسَخِ الزَّبور ما فيه تصريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم باسمه، ورأيت نسخةً أخرى بالزَّبور فلم أرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسخ من صفات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ما ليس في أخرى»[3].

وقد ذكر عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التَّوراة، فقال: «والله! إنه لموصوف في التَّوراة بصفته في القرآن: يا أيها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرزاً للأمِّيِّين[4]، أنت عبدي، ورسولي، سمَّيتك المتوكِّل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواق[5]، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة، ولكن يعفو، ويصفح، ولن يقبضه الله

---

[1] التنُّور: الفرن.
[2] يطبق عليه ، يغلق عليه.
[3] الجواب الصَّحيح (340/1).
[4] حرزاً للأمِّيِّين: حفاظاً لهم.
[5] السَّخب: رفع الصَّوت بالخصام.

حتَّى يقيم به الملَّة العوجاء[1]؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صـــماً، وقلوباً غلفاً» [البخاري (2125 و4838) وأحمد (174/2) والبيهقي في الدلائل (/374 – 375)] .

ومن حديث كعب الأحبار، قال: «إِنِّي أجد في التَّوراة مكتوباً: محمَّدٌ رســول الله، لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سَـخَّابٌ في الأسـواق، ولا يجزي السَّـيئة بالسَّيئة، ولكن يعفو، ويصـفح، أمَّته الحمَّادون، يحمدون الله في كلِّ منزلةٍ، ويكبِّرونه على كل نجدٍ، يأتزرون إلى أنصــافهم، ويوضِّـئون أطرافهم، صَـفُّهم في الصَّـلاة وصَـفُّهم في القتال سـواءٌ، مناديهم ينادي في جوِّ السَّـماء، لهم في جوف اللَّيل دويٌّ كدويِّ النَّحل، مولده بمكَّة، ومهجره بطابة، وملكه بالشَّـــام» [البيهقي في الدلائل (376/1 – 377)].

2 – بشارات علماء أهل الكتاب بنبوَّته صلى الله عليه وسلم :

أخبر سـلمان الفارسيُّ رضـي الله عنه في قصَّـة إسـلامه المشـهورة، عن راهب عَمُّورية حين حضـرته المنيَّة، قال لسـلمان: «إنَّه قد أظلَّ زمان نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مُهـاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين، بينهمـا نخـلٌ، بـه علامـاتٌ لا تخفى، يأكـل الهـديَّة، ولا يأكـل الصَّدقة، بين كتفيه خَاتم النُّبوَّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد؛ فافعل».

ثمَّ قصَّ سـلمان خبر قدومه إلى المدينة، واسـترقاقه، ولقائه برسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حين الهجرة، وإهدائه له طعاماً على أنَّه صدقة، فلم يأكل منه الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ إهدائه له طعاماً على أنَّه هدية، وأكله منه، ثمَّ رؤيته خاتم النُّبوَّة بين كتفيه، وإســـلامه على إثر ذلك» [أحمد (441/5 – 444) والحاكم (599/3 – 602) والبيهقي في الدلائل (83/2 – 97) وأبو نعيم في دلائله (199) وابن هشـام (228/1 – 234)] .

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه – عليه الصَّلاة والسَّلام – ومن ذلك قصَّـة أبي التَّـــيِّهان، الَّذي خرج من بلاد الشَّـام، ونزل في بني قريظة، ثمَّ توفي قبل البعثة النَّبويَّة بســنتين، فإنَّه لما حضــرته الوفاة؛ قال لبني قريظة: يا معشــر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض

---

[1] الملَّة العوجاء: ملَّة إبراهيم التي غيَّرتها العرب عن استقامتها.

الخَمر، والخمير – الشَّام – إلى أرض البؤس والجوع – يعني: الحجاز –؟ قالوا: أنت أعلم. قال: إنِّي قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ – أنتظر – خروج نبيٍّ قد أظلَّ زمانه، وكنت أرجو أن يبعث، فأتَّبعه.

وقد شاع حديث ذلك، وانتشر بين اليهود، وغيرهم، حتَّى بلغ درجة القطع عندهم، وبناءً عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنوَّرة: إنَّه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[1]، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجالٍ من الأنصار، وقد قالوا: «إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى، وهداه؛ لما كنَّا نسمع من رجال اليهود، وكُنَّا أهلَ شركٍ، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتابٍ، عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون؛ قالوا لنا: إنَّه تقارب زمان نبيٍّ يبعث الان، نقتلكم معه قتل عادٍ، وإرم»[2].

وقد قال هرقل ملك الرُّوم عندما تسلَّم رسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : «وقد كنت أعلم: أنَّه خارجٌ، ولم أكن أظنُّ: أنَّه منكم» [البخاري (7) ومسلم (1773)] .

3 – الحالة العامَّة الَّتي وصل إليها النَّاس:

لخَّص الأستاذ النَّدوي الحال الَّتي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدَّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السَّادس المسيحيِّ أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون، ومعلِّمون من أفراد النَّاس، فلم تكن القضيَّة قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد، أو إزالة عادةٍ من العادات، أو قبول عبادةٍ من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصرٌ، ولا مصرٌ.

ولكنَّ القضيَّة كانت قضية إزالة أنقاض الجاهليَّة، ووثنيَّةٍ تخريبيَّةٍ، تراكمت عبر القرون، والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء، والمرسلين، وجهود المصلحين، والمعلمين، وإقامة بناءٍ

---

[1] انظر: دراسة تحليليَّة ، د. محمَّد قلعجي ، ص 107.

[2] ابن هشامٍ بإسنادٍ حسن (231/1).

شامخٍ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كلَّه، ويؤوي الأمم كلَّها، قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ، كأنَّه ولد من جديد أو عاش من جديد. قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122] .

قضية اقتلاع جرثومة الفساد، واستئصال شأفة الوثنيَّة، واجتثاثها من جذورها؛ بحيث لا يبقى لها عينٌ، ولا أثرٌ، وترسيخ عقيدة التَّوحيد في أعماق النَّفس الإنسانيَّة ترسيخاً لا يتصوَّر فوقه، وغرس ميلٍ إلى إرضاء الله، وعبادته، وخدمة الإنسانيَّة، والانتصار للحقِّ يتغلَّب على كلِّ رغبةٍ، ويقهر كلَّ شهوةٍ، ويجرف كلَّ مقاومة وبالجملة الأخذ بِحُجَزِ الإنسانيَّة المنتحرة؛ الَّتي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدُّنيا والآخرة، والسُّلوك بها على طريقٍ أوَّلها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنَّة الخلد؛ الَّتي وُعِد المتَّقون، ولا تصوير أبلغ، وأصدق من قوله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمَّد صلى الله عليه وسلم [1]: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

4 – إرهاصات نبوَّته صلى الله عليه وسلم :

ومن إرهاصات نبوَّته صلى الله عليه وسلم تسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة، فعن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنِّي لأعرف حجراً بمكَّة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث، إنِّي لأعرفه الآن» [أحمد (89/5) ومسلم (2277) والترمذي (3624)] ومنها: الرُّؤيا الصَّادقة، وهي أول ما بدئ له من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح [البخاري (3) ومسلم (160)] وحُبِّب إليه صلى الله عليه وسلم العزلة، والتَّحنُّث «التعبد»، فكان يخلو في غار حراء – وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّماليِّ الغربيِّ من مكَّة – ويتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارةً عشرة، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر، ثمَّ يعود إلى بيته، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ

---

[1] انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها. السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (180/1 ، 181).

لخلوةٍ أخرى، ويعود إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[1].

[1] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 60.

الفصل الثَّاني

نزول الوحي والدَّعوة السِّرِّيَّة

المبحث الأوَّل

نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون، وخالقه، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته، فتزوَّد لليالٍ أخرى[1]، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار حراء[2]، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح، وكتب السُّنن، والمسانيد، وكتب التاريخ»، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أوَّلُ ما بُدِئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان يخلو بغار حراء، فَيَتَحَنَّثُ فيه - وهو التَّعبُّد - الليالي ذواتِ العددِ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ، فجاءه المِلكُ، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني، فغطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 1 – 5]» .

فرجع بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زَمِّلُوني، زَمِّلوني، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ

---

[1] انظر: صحيح السِّيرة ، للعلي ، ص 67.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (125/1).

على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ[1]، وتُكسبُ المعدومَ[2]، وتقري الضَّيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ[3]. فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانِيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس[4] الَّذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[5]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[6]، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوحي[7]» [سبق تخريجه] .

عندما نتأمل في حديث السَّيدة عائشة؛ يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمَّة تتعلَّق بسيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن أهمِّها:

أولاً: الرُّؤيا الصَّالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ أوَّل ما بُدئ به محمَّد صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة، وتسمَّى أحياناً بالرُّؤيا الصَّادقة، والمراد بها هنا رؤى طيبةٌ ينشرح لها الصَّدر، وتزكو بها الرُّوح[8]. ولعلَّ الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي بالمنام: أنَّه لو لم يبتدئه بالرُّؤيا، وأتاه الملك فجأةً، ولم يسبق له أن رأى مَلَكاً من قبل، فقد يصيبه شيءٌ من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقَّى منه شيئاً؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أوَّلاً في المنام ليتدرب عليه، ويعتاده[9]. والرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة جزءٌ من ستةٍ

---

[1] تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف ، واليتيم ، والعيال ، والكلُّ أصله: الثِّقل ، والإعياء.
[2] وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.
[3] نوائب الحقِّ: الكوارث ، والحوادث.
[4] النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.
[5] جَذعاً: شاباً قوياً.
[6] مؤزَّراً: قوياً بالغاً.
[7] فتر الوحي: تأخَّر نزوله.
[8] انظر: طريق النُّبوَّة والرِّسالة ، لحسين مؤنس ، ص 21.
[9] انظر: منامات الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، لعبد القادر الشيخ إبراهيم ، ص 57.

وأربعين جزءاً من النُّبوَّة – كما ورد في الحديث الشَّـــريف – [البخاري (6983) وأحمد (126/3) وابن ماجه (3893)] وقد قال العلماء: «وكانت مدَّة الرُّؤيا الصَّالحة ستَّة أشهرٍ» ذكره البيهقيُّ، ولم ينزل عليه شيءٌ من القرآن في النَّوم؛ بل نزل كلُّه يقظةً.

والرُّؤيا الصَّالحة من البشرى في الحياة الدُّنيا، فقد ورد عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قوله: «أيها النَّاسُ! إنَّه لم يبقَ من مبشِّـرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا الصَّـالحة، يراها المسـلم، أو تُرَى له» [أحمد (219/1) ومسلم (479) وأبو داود (876) والنسائي (189/2) وابن ماجه (3899)] .

فكان صلى الله عليه وسلم قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة، فيصــحو منشــرحَ الصَّــدر، متفتِّح النَّفس لكلِّ ما في الحياة من جمال[1]. لقد أجمعت الرِّوايات من حديث (بدء الوحي) أنَّ أول ما بدئ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة، يراها في النَّوم فتجيء في اليقظة كاملةً، واضحةً كما رآها في النَّوم، لا يغيب عليــه منها شيءٌ، كأنَّما نقشت في قلبــه، وعقلــه، وقد شَبَّهت السَّيدة عائشة رضي الله عنها – وهي من أفصح العرب – ظهور رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ بها من كمال وضوحها، بظهور ضوء الصُّبح ينفلق عنه غبش الظَّلام، وهو تصويرٌ بيانيٌّ لا تنفلق دنيا العرب في ذُرَا فصاحتهم عن أبلغ منه[2].

ثانياً: ثمَّ حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه:

وقبيل النُّبوَّة حُبِّب إلى نفس النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الخلوة؛ ليتفرغ قلبه، وعقله، وروحه إلى ما سَــيُلقى إليه من أعلام النُّبوَّة، فاتَّخذ من غار حراء مُتَعَبَّداً؛ لينقطع عن مشــاغل الحياة ومخالطة الخلق، استجماعاً لقواه الفكريَّة، ومشاعره الرُّوحية، وإحساساته النَّفسيَّة، ومداركه العقليَّة، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون، وخالق الوجود[3]. والغار الذي كان يتردَّد عليه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يبعث على التأمُّل، والتفكُّر، تنظر إلى منتهى الطَّرْف فلا ترى إلا جبالاً كأنَّها ســاجدةٌ متطامنةٌ لعظمة الله، وإلا سماءً صــافيةَ الأديم، وقد يرى مَنْ يكون فيه مكَّة إذا كان حادَّ البصر[4].

---

[1] انظر: طريق النَّبوة والرِّسالة ، ص 22.

[2] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد الصادق عرجون (254/1).

[3] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد الصادق عرجون (254/1).

[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (256/1).

كانت هذه الخلوة الَّتي حُببت إلى نفس النَّبيِّ صـــلى الله عليه وســـلم لوناً من الإعداد الخاصِّ، وتصـــفية النَّفس من علائق المادِّيَّة البشـــريَّة، إلى جانب تعهُّده الخاص بالتَّربية الإلهيَّة، والتَّأديب الرَّبَّانيِّ في جميع أحواله، وكان تعبُّده صلى الله عليه وسلم قبل النُّبوَّة بالتفكُّر في بديع ملكوت السَّـــموات، والنَّظر في آياته الكونيَّة الدَّالة على بديع صـــنعه، وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه[1].

وقد أخذ بعض أهل السُّلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذِّكر والعبادة في مرحلة من مراحل السُّلوك؛ لتنوير قلبه، وإزالة ظلمته، وإخراجه من غفلته، شـهوته، وهفوته، ومن سـنن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سنَّة الاعتكاف في رمضان[2]، وهي مهمَّةٌ لكلِّ مسلمٍ سواءً كان حاكماً، أو عالماً، أو قائداً، أو تاجراً؛ لتنقية الشَّـوائب الَّتي تعلق بالنُّفوس والقلوب، ونصـحِّح واقعنا على ضوء الكتاب والسُّنَّة، ونُحاسِب أنفسنا قبل أن نُحاسَب[3].

ويمكن لأهل فقه الدَّعوة أن يعطوا لأنفســهم فترةً من الوقت للمراجعة الشَّـاملة، والتَّوبة، والتأمُّل في واقع الدَّعوة وما هي عليه من قوَّةٍ، أو ضعفٍ، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشرِّه. ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشا الفساد، وأصبحت الدُّنيا مؤثرةً، ومتابعة الهوى مطلباً، ولابدَّ أن تكون إيجابيةً وليســت سـلبية، وليتابع الطَّريق بعدها بما يحمله من الحقِّ[4].

وفي قول السَّـيدة عائشـة رضـي الله عنها: «فيتحنَّث الليالي ذوات العدد»، يقول الشـيخ محمَّد عبد الله دراز: «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصـــل إلى نهاية القلَّة، ولا إلى نهاية الكثرة، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قبل البعثة من التوسُّط، والاقتصاد في الأعمال، شعاراً للملَّة الإسلامية، ورمزاً للهدي النَّبويِّ الكريم، بعد أن أرسله الله رحمةً للعالمين»[5].

---

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد الصادق عرجون (469/1).

[2] انظر: الأساس في السنَّة وفقهها. السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (195/1).

[3] انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان.

[4] انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمَّد العبده.

[5] المختار من كنوز السُّنَّة ، (ص 19) ، ط2 1978 دار الأنصار ، القاهرة.

ثالثاً: حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء:

جاء الملك، فقال: اقرأ، قال: «قلت: ما أنا بقارئ... فأخذني فغطّني الثّالثة، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: 1 – 4]» .

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أوَّل شيءٍ نزل من القرآن الكريم، وفيها التَّنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقةٍ، وإنَّ من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة. والعلم تارةً يكون في الأذهان، وتارةً يكون في اللِّسان، وتارةً يكون بالكتابة بالبنان[1]، وبهذه الآيات كانت بداية نبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، لقد كان هذا الحادث ضخماً، ولقد عبَّر عنه سيِّد قطب – رحمه الله – في ظلاله، فقال: «إنَّه حادثٌ ضخمٌ جداً، ضخمٌ إلى غير حدٍّ، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا! إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته، وضخمٌ بدلالته، وضخمٌ بآثاره في حياة البشريَّة جميعاً، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ – بغير مبالغةٍ – أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل.

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟حقيقته: أنَّ الله – جلَّ جلاله، العظيم، الجبَّار، القهَّار، المتكبِّر، مالك الملك كلِّه – قد تكرَّم – في عليائه – فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسمَّاة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون، لا يكاد يُرى، هذا الرُّكن الَّذي يُسمَّى الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثّل قدره الَّذي يريده – سبحانه – لهذه الخليقة»[2].

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم، وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشُّعوب، والأمم، وفيها إشارةٌ واضحةٌ بأنَّ من أخصِّ خصائص الإنسان العلمَ والمعرفة[3].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة، ومنزلة العلم في الإسلام، فأوَّل كلمةٍ في النُّبوَّة تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأمر بالقراءة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: 1].

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (528/4).

[2] في ظلال القرآن (3936/6).

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (260/1).

وما زال الإســـلام يحثُّ على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميِّزهم على غيرهم. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّـحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَـحُوا يَفْسَـحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُـــزُوا فَانْشُـــزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11] وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 9] .

إنَّ مصـدر العلم النافع من الله – عزَّ وجلَّ – فهو الَّذي علَّم بالقلم، وعلَّم الإنسـان ما لم يعلم، ومتى حادت البشـريَّة عن هذا المنهج، وانفصـل علمها عن التقيُّد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها، وسبباً في إبادتها[1].

رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ووصفُ ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مراراً حتَّى أجهده، وأتعبه، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من الوحي شـدَّةً، وتعباً، وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَـنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل: 5] كان في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ؛ لعلَّ منها: بيان أهمية هذا الدِّين، وعظمته، وشدَّة الاهتمام به، وبيانٌ للأمَّة أنَّ دينها الَّذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدَّةٍ، وكرب[2].

إنَّ ظاهرة الوحي معجزةٌ خارقةٌ للسُّنن، والقوانين الطَّبيعيَّة، حيث تلقَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كلام الله «القرآن» بواسطة الملك جبريل عليه السلام، وبالتَّالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام، أو التأمُّل الباطنيِّ، أو الاسـتشـعار الدَّاخلي، بل إنَّ الوحي يتمُّ من خارج ذات النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ، وتنحصـر وظيفته بحفظ الموحى، وتبليغه، وأمَّا بيانه، وتفسـيره فيتمُّ بأسلوب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كما يظهر في أحاديثه، وأقواله صلى الله عليه وسلم [3] .

إنَّ حقيقة الوحي هي الأساس الَّذي تترتَّب عليه جميع حقائق الدِّين، بعقائده، وتشريعاته، وأخلاقه؛ ولذلـك اهتمَّ المستشرقون – والملاحدة من قبلهم – بالطَّعن والتَّشكيك في حقيقة الوحي، وحاولوا أن يُـؤوِّلوا ظاهرة الوحي، ويحرِّفوها عن حقيقتها، عمَّا جاءنا في صحاح السُّنَّة

---

[1] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص 34.
[2] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص 30 ، 31).
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (129/1).

الشَّريفة، وحدَّثنا به المؤرِّخون الثِّقات، فقائل يقول: إنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم تعلَّم القرآن، ومبادئ الإسلام من بحيرا الرَّاهب، وبعضهم قال: بأنَّ محمَّداً كان رجلاً عصبياً، أو مصاباً بداء الصَّرع[1].

والحقيقة تقول: إنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء فوجئ بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتَّى يتبيَّن: أنَّ ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مَرَدُّهُ إلى حديث النَّفس المجرَّد؛ وإنَّما هو استقبالٌ وتلقٍّ لحقيقةٍ خارجيَّةٍ لا علاقة لها بالنَّفس، وداخل الذات. وضمُّ الملك إيَّاه، ثمَّ إرساله ثلاث مرَّات قائلاً في كلِّ مرَّة: اقرأ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقِّي الخارجيِّ، ومبالغةً في نفي ما قد يتصوَّر، من أنَّ الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

ولقد أصيب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالرُّعب، والخوف ممَّا سمع، ورأى، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن متشوِّقاً للرِّسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للنَّاس[2]، وقد قال الله تعالى تأكيداً لهذا المعنى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: 52 – 53] وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقرآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: 15 – 16] .

لقد تساقطت آراء المشكِّكين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصَّحيح الَّذي حدَّثتنا به السَّيدة عائشة رضي الله عنها، وقد استمرَّ الوحي بعد ذلك يحمل الدَّلالة نفسها على حقيقة الوحي؛ وأنَّه ليس كما أراد المشكِّكون. وقد أجمل الدُّكتور البوطي هذه الدَّلالة فيما يلي:

1 – التمييز الواضح بين القرآن، والحديث؛ إذ كان يأمر بتسجيل الأوَّل فوراً، على حين يكتفي بأن يستودع الثَّاني ذاكرة أصحابه؛ لا لأنَّ الحديث كلام من عنده لا علاقة للنُّبوَّة به؛ بل لأنَّ القرآن موحى به إليه بألفاظه، وحروفه بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث؛ فمعناه

---

[1] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 64.

[2] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 64.

وحي من الله – عزَّ وجلَّ – ولكن لفظه، وتركيبه من عنده صلى الله عليه وسلم ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله – عزَّ وجلَّ – الَّذي يتلقَّاه من جبريل بكلامه هو صلى الله عليه وسلم .

2 – كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُسأل عن بعض الأمور، فلا يُجيب عنها، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويلٌ، حتَّى تنزل آية من القرآن في شأن سؤاله. وربما تصرَّف الرَّسول صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور على وجهٍ معين، فتتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما انطوت على عَتْبٍ، أو لومٍ له.

3 – كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النَّفسيَّة حقائق تاريخيَّةً، كقصَّة يوسف عليه السلام، وأمِّ موسى حينما ألقت وليدها في اليمِّ، وقصَّة فرعون، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه صلى الله عليه وسلم أمياً. يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: 48].

4 – إنَّ صدق النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أربعين سنةً مع قومه، واشتهاره فيهم بذلك يستدعي أن يكون صلى الله عليه وسلم من قبل ذلك صادقاً مع نفسه، ولذا فلابدَّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أيِّ شكٍّ يخايل لعينيه، أو فكره، وكأنَّ هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: 94] .

ولهذا روي: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشكُّ، ولا أسأل» [عبد الرزاق (10211) والسيوطي في الدر المنثور (389/4)] .

خامساً: أنواع الوحي:

تحدَّث العلماء عن أنواع الوحي، فذكروا منها:

1 – الرُّؤيا الصَّادقة:

وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»، وقال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: ﴿يَابُنَيَّ

إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102] .

2 – الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في رُوْعِهِ – أي: قلبه – من غير أن يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ روح القدس نَفَثَ في رُوْعي» أي: إنَّ جبريل عليه السلام نفخ في قلبي، «أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها، وأجلها؛ فاتَّقوا الله، وأجْمِلُوا في الطَّلب» [البغوي في شرح السنة (304/13) برقم (4112) وابن عبد البر في التمهيد (284/1)].

3 – أن يأتيه مثل صلصلة الجرس:

أي مثل صوته في القوَّة، وهو أشَدُّهُ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً، فيكلِّمني، فأعي ما يقول» [البخاري (2) ومسلم (87/2333)] .

4 – ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة مَلَكٍ:

كما كلَّم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتةٌ لموسى قطعاً بنصِّ القرآن، وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء[1].

5 – أنَّه يرى المَلَك في صورته الَّتي خلق عليها:

فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

6 – أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يتمثَّل له المَلَكُ رجلاً:

فيخاطبه حتَّى يَعِيَ عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصَّحابة أحياناً[2].

هذا ما قاله ابن القيِّم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بداية عهدٍ جديدٍ في حياة الإنسانيَّة، بعدما انقطع، وتاهت البشرية في دياجير الظَّلام.

---

[1] انظر: الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعية ، لأسامة عبد القادر ، ص 108.

[2] انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (1/33 . 34).

وكان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم -كما هو واضحٌ من النَّصِّ - بالرَّغم من أنَّه كان أشجع النَّاس، وأقواهم قلباً، كما دلَّت على ذلك الأحداث خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً؛ وذلك؛ لأنَّ الأمر ليس مخاطبة بشرٍ لبشر، ولكنَّه كان مخاطبة عظيم الملائكة، وهو يحمل كلام الله تعالى؛ ليستقبله من اصطفاه الله - جلَّ وعلا - لحمل هذا الكلام وإبلاغه لجميع البشر.

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤوليَّةً عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرِّسالة، وتبليغها[1].

وممَّا يُصَوِّر رهبة هذا الموقف، ما جاء في هذه الرِّواية، من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد خشيت على نفسي»، وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: «فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، قال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع».

وممَّا يبيِّن شدَّة نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أخرجه الإمام البخاريُّ، ومسلمٌ - رحمهما الله! - من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته - تعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم - ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد، فيَفصم عنه، وإنَّ جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً» [البخاري (2) ومسلم (86/2333)] وحديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم إذا أُنزل عليه الوحي؛ كُرِبَ لذلك، وتَرَبَّد وجهُه» [مسلم (2334) وأحمد (317/5)].

سادساً: أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة:

«فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فؤادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحقِّ» [البخاري (3) ومسلم (160)] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدلُّ على قوَّة قلبها؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر،

---

[1] انظر: التاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر ، للحميدي (60/1).

واستقبلت الأمر بهدوءٍ، وسكينةٍ، ولا أدلَّ على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضها الأمر عليه[1].

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدلُّ على سعة إدراكها؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأدركت: أنَّ من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً، فقد وصفته بأنَّه يصل الرَّحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليلٌ على استعداده النَّفسيِّ لبذل الخير، والإحسان إلى النَّاس؛ فإنَّ أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروفٍ؛ كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من النَّاس[2].

كانت أمُّ المؤمنين السَّيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطريِّ، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم من رصيد الأخلاق، وفضائل الشَّمائل، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثله في حياته الطَّبيعيَّة الَّتي يعيش بها مع النَّاس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربَّانيَّةالَّتي شهدت آياتها؛ من حفاوة الله تعالى بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، في مواقف لم تكن من مواقف النُّبوَّة والرِّسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنَّها كانت من مواقف الفضائل الإنسانيَّة السَّارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصَّة البشر[3].

كانت موقنةً بأنَّ زوجها فيه من خصال الجبلَّة الكماليَّة، ومحاسن الأخلاق الرَّصينة، وفضائل الشِّيم المرضيَّة، وأشرف الشَّمائل العليَّة، وأكمل النَّحائز[4] الإنسانيَّة، ما يضمن له الفوز ويحقِّق له النَّجاح، والفلاح، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة على الكمال المحمَّديِّ[5]، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتِّصاف محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بتلك الصِّفات: أنَّه لن يتعرَّض في حياته للخزي أبداً؛ لأنَّ الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي (61/1).

[2] المصدر السابق نفسه ، (64/1).

[3] انظر: محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد الصادق عرجون (307/1).

[4] النحائز: جمع النَّحيزة ، وهي الطبيعة ، يقال: هو كريم النَّحيزة.

[5] انظر: محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (307/1 ، 308).

ولم تعرف الحياة في ســـنن الكون الاجتماعيَّة: أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته، ومحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بلغ من المكارم ذروتها، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل، ولا تُسَامَى[1].

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على نبوَّته؛ بل ذهبت إلى ابن عمِّها العالم الجليل ورقة بن نوفل - رحمه الله! - الَّذي كان ينتظر ظهور نبيٍّ آخر الزَّمان، لما عرفه من علماء أهل الكتاب من دنوِّ زمانه، واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثرٌ طيِّبٌ في تثبيت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه، وقد أخْبَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بأنَّ الذي خاطبه هو صاحب السِّرِّ الأعظم، الَّذي يكون سفيراً بين الله تعالى، وأنبيائه - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قوله:

لَجَجْتُ وكنتُ في الذِّكْرى لَجُوجَا ... لِهَمّ طَالَما بَعَثَ النَّشِيجَا
وَوَصْفٍ من خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يا خَدِيجَا
بِبَطْنِ المكَّتَيْنِ[2] عَلَى رَجَائِي ... حَدِيْثَكِ أن أرَى مِنْهُ خُرُوجا
بِما خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسّ ... مِنَ الرُّهْبَانِ أكْرهُ أن يَعُوجا
بأنَّ مُحمَّداً سَيَسُودُ فِينَا ... ويَخْصِمُ مَنْ يكُونُ له حَجِيجا[3]

النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، وشهد له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالجنَّة، فقد جاء في روايةٍ أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبُّوا ورقة، فإنِّي رأيت له جنَّةً، أو جنَّتين» [الحاكم (609/2) والبزار (2750 و2751) ومجمع الزوائد (416/9)] .

وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً، فأحسبه لو كان من أهل النَّار لم يكن عليه ثياب بيض». قال الهيثميُّ: وروى أبو يعلى بسندٍ حسنٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ورقة بن نوفل، فقال: «أبصرته في

---

[1] انظر: محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (232/1).
[2] بطن المكَّتين: جانبي مكَّة ، أو بطاحها ، وظواهرها.
[3] سيرة ابن هشام (194/1).

بُطْنان[1] الجنَّة وعليه السُّندس» [أبو يعلى (2047) ومجمع الزوائد (416/9)] .

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدورٍ مهمٍّ في حياة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لما لها من شخصيةٍ في مجتمع قومها، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النَّفسيَّة، الَّتي تقوم على الأخلاق العالية؛ من الرَّحمة، والحلم، والحكمة، والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. والرَّسول صلى الله عليه وسلم قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزَّوجة المثاليَّة؛ لأنَّه قدوةٌ للعالمين، وخاصَّةً الدُّعاة إلى الله، فقيام خديجة بذلك الدَّور الكبير إعلامٌ من الله تعالى لجميع حملة الدَّعوة الإسلاميَّة بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال، من التأسِّي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتَّى يتحقَّق لهم بلوغ المقاصد العالية الَّتي يسعون لتحقيقها[2].

إنَّ السيدة خديجة رضي الله عنها مثالٌ حسنٌ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدُّعاة، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرِّجال الَّذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيءٍ؛ إنَّه صاحب هَمٍّ، ورسالةٍ، هَمٍّ على ضياع أمَّته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهَمٍّ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض، ومغاربها، من مؤامراتٍ، وظلمٍ، وجوعٍ، وإذلالٍ، وما يصيب الدُّعاة منهم من تشريدٍ، وتضييقٍ، وتنكيلٍ، وبعد ذلك هو صاحب رسالة؛ واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه، وراحته، وأوقات زوجته، وأبنائه، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت، والدُّنيا بأسرها، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق، والتَّقوى، والجمال، والحسب ما أوتيت، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة، وأهمِّيتها، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج، وما يتحمَّله من أعباء، وما يعانيه من مشاقّ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقاً، وشوكةً في طريقه[3].

إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ، ولا شكَّ: أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس، وإنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى هي أعظم

---

[1] بُطنان: البُطنان من الشَّيء: وسطُه.

[2] انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (69/1).

[3] انظر: وقفات تربوية من السِّيرة النبوية ، للبلالي ، ص 40.

أمر يتحمَّله البشـــر، فإذا وُفِّق الدَّاعية لزوجةٍ صـــالحةٍ ذات كفاءةٍ، فإنَّ ذلك من أهمِّ أســـباب نجاحه مع الآخرين[1]، وصـدق رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إذ يقول: «الدُّنيا متاعٌ، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ» [أحمد (168/2) ومسلم (1467) والنسائي في السنن الكبرى (5325) وابن ماجه (1855)] .

سابعاً: وفاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم للسَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مثالاً عالياً للوفاء، وردِّ الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها، وبعد مماتها، وقد بشَّرها صلى الله عليه وسلم ببيتٍ في الجنَّة في حياتها، وأبلغها سلام الله - جلَّ وعلا - وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريلُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك، معها إناءٌ فيه إدامٌ - أو طعامٌ، أو شـــرابٌ - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّـــلام من ربِّها - عزَّ وجلَّ - ومني، وبشِّـــرها ببيت في الجنَّة من قَصَـــبٍ[2]لا صَـــخَبَ فيه، ولا نَصَـــبَ» [البخاري (3820) ومسلم (2432)].

وتذكر عائشـة رضـي الله عنها وفاء النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرتُ على أحدٍ من نسـاء النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكنْ كان النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم يُكْثِرُ ذكرها، وربما ذبح الشَّـاة، ثمَّ يُقطِّعُها أعضـاء، ثمَّ يبعثها في صـــدائق خديجة، فربما قلت له: كأنَّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلا خديجةُ؟ فيقول: إنَّها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد» [البخاري (3818) ومسلم (2435) واللفظ للبخاري] .

وأظهر صلى الله عليه وسلم البشاشة، والسُّرور لأخت خديجة، لـمَّا استأذنت عليه لتذكُّره خديجة، فعن عائشـة رضـي الله عنها قالت: «اسـتأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرف استئذان خديجة[3] فارتاح لذلك، فقال: اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ! فغِرْت، فقلت: وما تَذْكُرُ من عجوزٍ من عجائز قريش، حمراء الشِّـــدْقَيْنِ[4] هلكت في الدَّهر؛ فأبدلك الله خيراً منها» [البخاري (3821) ومســلم (2437)] . وأظهر صـــلى الله عليه وســـلم

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي: (68/1).

[2] يعني من لؤلؤ ، أو ذهب.

[3] يعني: لتشابه صوتيهما.

[4] يعني: لا أسنان لها من الكبر.

الحفاوة بامرأةٍ كانت تأتيهم زمن خديجة، وبيَّن: أن حفظ العهد من الإيمان[1].

ثامناً: سنَّة تكذيب المرسلين:

«يا ليتني فيها جَذَعاً! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أوَ مخرجيَّ هم؟!» قال: نعم؛ لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركْني يومك؛ أنصرْك نصراً مؤزراً» [البخاري (3) ومسلم (160)]، فقد بيَّن الحديثُ سنَّةً من سنن الأمم مع مَنْ يدعوهم إلى الله – عزَّ وجل – وهي التَّكذيب، والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: 56] .

وكما قال قوم شعيبٍ: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف: 88].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: 13].

تاسعاً: قوله: (وفتر الوحي):

تحدَّث علماء السِّيرة قديماً، وحديثاً عن فترة الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدَّةً من الزَّمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الرَّوع، وليحصل له التَّشَوُّف[2] إلى العود[3].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريّ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدِّث عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي؛ إذ سمعت صوتاً من السَّماء، فرفعت بصري، فإذا الْمَلَكُ الَّذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السَّماء، والأرض، فَرُعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني! فأنزل الله تعالى: فَحَمِي ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، وتتابع» [البخاري (4) ومسلم (161)] .

وقال صفيُّ الرَّحمن المباركفوري: «أمَّا مدَّة فترة الوحي؛ فروى ابن سعدٍ عن ابن عبَّاسٍ ما

---

[1] انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (71/1).
[2] التَّشَوُّف: التطلُّع.
[3] فتح الباري (36/1).

يفيد: أنَّها كانت أياماً، وهذا الذي يترجَّح؛ بل يتعيَّن بعد إدارة النظر في جميع الجوانب، وأمَّا ما اشتهر من أنَّها دامت طيلة ثلاث سنين، أو سنتين ونصف؛ فلا يصحُّ بحالٍ، وليس هذا موضع التفصيل في ردِّه. وقد بقي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في أيام الفترة كئيباً محزوناً تعتريه الحيرة، والدَّهشة»[1].

ولقد ذكر البخاريُّ في صحيحه: أنَّه صلى الله عليه وسلم حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلَّما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي منه نفسه؛ تَبَدَّى لَه جبريل، فقَال: يا محمد! إنَّك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقرُّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل؛ تبدَّى له جبريل، فقالَ له مثل ذلك **[البخاري (6982) وابن حبان (33) والبيهقي في الدلائل (138/2)]** .

* * *

---

[1] انظر: الرَّحيق المختوم، ص 79، 80.

المبحث الثَّاني

الدَّعوة السِّرِّيَّة

أولاً: الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة:

عرف النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم معرفة اليقين: أنَّه أصـبح نبياً لله الرَّحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه الســلام للمرَّة الثَّانية، وأنزل الله على نبيِّه قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:1 – 4].

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذاناً للرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم بأنَّ الماضـي قد انتهى بمنامه، وهدوئه، وأنَّه أمامه عملٌ عظيمٌ، يسـتدعي اليقظة، والتَّشْـمير، والإنذار، والإعذار، فليحمل الرِّسالة، وليوجِّه النَّاس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه؛ فإنَّه مصدر رسالته، ومدد دعوته[1].

وتعدُّ هذه الآيات أوَّل أمرٍ بتبليغ الدَّعوة، والقيام بالتَّبعة، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصـة الدَّعوة المحمَّدية، والحقائق الإسـلاميَّة؛ الَّتي بُني عليها الإسـلام كلُّه، وهي: الوحدانيَّة، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النُّفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النَّفع[2].

كانت هذه الآيات تهييجاً لعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسـالات ربِّه، فيمضـي قُدُماً بدعوته، لا يبالي العقبات، والحواجز. كان هذا النِّداء مُتلطِّفاً إيذاناً بشـحذ ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وتوديعاً لأوقات النَّوم، والرَّاحة، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنُّهوض في عزيمةٍ ﴿قُمْ﴾، وقوَّةٍ حازمةٍ، تتحرَّك في اتجاه تحقيق واجب التَّبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التَّبشـير. في أوَّل خطابٍ وُجِّه إلى النَّبيِّ صـلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي - إيذانٌ بأنَّ رسالته تعتمد على الكفاح الصَّبور، والجهاد المرير، ثمَّ زادت الآيات في تقوية عزيمة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وشدِّ أزره، وحَضِّه على المضيِّ قُدُماً إلى غاية ما أُمر به، غير عابئ بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شـأنها، فقيل له: أي: لا تعظم شـيئاً من أمور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شـيءٌ، فلا تتهيَّب فعلاً من أفعالهم ، ولا

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص 90.

(2) انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، د. كامل سلامة ، ص 181.

تخشَ أحداً منهم ، ولا تعظِّم إلا ربَّك، الَّذي تعهَّدك وأنت في أصلاب الاباء، وأرحام الأمَّهات، فربَّاك على موائد فضـله، ورعاك بإحسـانه وجوده حتَّى أخرجك للنَّاس نبياً، ورسـولاً، بعد أن أعدَّك خلْقاً وخُلُقاً؛ لتحمل أمانة أعظم رسـالاته : فكلُّ تعظيمٍ وتكبيرٍ وإجلال حقٌّ لله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾، لا يشاركه فيه أحد، أو شيءٌ من مخلوقاته[1].

وفي قوله تعالى: فكأنَّه قيل له ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيَّتك، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوَّته؛ ليعدَّك بها ليومك هذا – أحوج إلى أن تزداد في تطهُّرك النَّفسـيِّ، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرِّسالة في كمال الخُلق الاجتماعيِّ؛ صبراً، وحلماً، وعفواً، وإحساناً، ودأباً على الجدِّ في تبليغ الدَّعوة إلى الله تعالى، ولا يثنيك إيذاءٌ ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[2].

وفي قوله تعالى: فكأنَّه قيل له ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ : ليكن قصـدك، ونيَّتك في تركك ما تركت فطرةً، وطبعاً؛ هجره تكليفاً، وتعبُّداً؛ لتكون قدوة أمَّتك، وعنوان تطهُّرها بهداية رسالتك[3].

ثانياً: بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة:

بعد نزول آيات المدثر، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، وإلى الإسلام سراً، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب النَّاس إليه.

1 – إسلام السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أوَّل من آمن بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من النِّسـاء، بل أوَّل من آمن به على الإطلاق، السَّـيدة خديجة رضـي الله عنها، فكانت أوَّل من اسـتمع إلى الوحي الإلهي من فم الرَّسـول الكريم صـلى الله عليه وسـلم ، وكانت أوَّل من تلا القرآن بعد أن سمعته من صـوت الرَّسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، وكانت كذلك أوَّل من تعلَّم الصَّلاة من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فبيتُها هو أوَّل مكان تُلي فيه أوَّل وحيٍ نزل به جبريل على قلب المصـطفى

---

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمد الصادق عرجون (589/1 . 591) بتصرفٍ كبير.
[2] المصدر السابق نفسه ، ص 592.
[3] المصدر السابق نفسه ، ص 593.

الكريم بعد غار حراء[1].

كان أوَّل شيءٍ فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتَّوحيد، إقامة الصَّلاة، وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرَّسول صلى الله عليه وسلم زوجه خديجة الوضوء، والصَّلاة، حين افتُرِضت على رسول الله: أتاه جبريل وهو بأعلى مكَّة، فهمز له بعَقبِهِ في ناحية الوادي، فانفجرت منه عينٌ، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينظر ليُرِيَه كيفية الطُّهور للصَّلاة، ثمَّ توضَّأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضَّأ، ثمَّ قام جبريل عليه السلام فصلَّى به، وصلَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثمَّ انصرف جبريل عليه السلام، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها، فتوضَّأ لها يريها كيف الطُّهور للصَّلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضَّأت كما توضَّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ صلَّى بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، كما صلَّى به جبريل عليه السلام، فصلَّت بصلاته. [ابن هشام (260/1 – 261)] .

2 – إسلام عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:

وبعد إيمان السَّيدة خديجة، دخل عليُّ بن أبي طالب في الإسلام، وكان أوَّل من آمن من الصِّبيان، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وهو قول الطَّبريِّ، وابن إسحاق[2]، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربَّى في حجر رسوله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، حيث أخذه من عمِّه أبي طالب وضمَّه إليه[3]، وكان عليٌّ رضي الله عنه ثالث من أقام الصَّلاة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد خديجة رضي الله عنها[4].

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصَّلاة؛ خرج إلى شعاب مكَّة، وخرج معه عليُّ بن أبي طالبٍ مستخفياً من أبيه، ومن جميع أعمامه، وسائر قومه، فيصلِّيان الصَّلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا ليضمَّهما ذلك البيت الطَّاهر التَّقيُّ بالإيمان، المفعم بصدق الوفاء، وكرم الْمَنْبِتِ[5].

---

[1] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، ص 36.
[2] السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (284/1).
[3] ابن هشام (246/1).
[4] عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (115/1).
[5] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ. د. عصمة الدِّين ، ص 42.

3 – إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه:

هو أوَّل من آمن بالدَّعوة من الموالي[1]، حِبُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ومولاه، ومُتَبنَّاه: زيد ابن حارثة الكلبيُّ، الَّذي آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم على والده، وأهله؛ عندما جاؤوا إلى مكَّة لشرائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر لزيدٍ، فقال زيدٌ لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، وأنت منّي بمنزلة الأب، والعمِّ، فقال له والده، وعمُّه: ويحك! تختار العبوديَّة على الحرِّيَّة، وعلى أبيك، وعمِّك، وأهل بيتك! قال: نعم! وإِنِّي رأيت من هذا الرَّجل شيئاً ما أنا بالَّذي أختار عليه أحداً أبداً[2].

4 – بنات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم :

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، كلٌّ من: زينب، وأمِّ كلثوم، وفاطمة، ورقيَّة، فقد تأثَّرْنَ قبل البعثة بوالدهنَّ صلى الله عليه وسلم في الاستقامة، وحسن السِّيرة، والتَّنزُّه عمَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة، من عبادة الأصنام، والوقوع في الآثام، وقد تأثَّرن بوالدتهنَّ؛ فأسرعن إلى الإيمان[3]. وبذلك أصبح بيت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أوَّل أسرةٍ مؤمنةٍ بالله تعالى، منقادةٍ لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النَّبويّ الأوَّل مكانةٌ عظمى في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ لما حباه الله به من مزايا، وخصَّه بشرف الأسبقية في الإيمان، وتلاوة القرآن، وإقام الصَّلاة؛ فهو:

* أوَّل مكانٍ تلي فيه وحي السَّماء بعد غار حراء.

* وأوَّل بيتٍ ضمَّ المؤمنة الأولى سابقة السَّبق إلى الإسلام.

* وأوَّل بيت أقيمت فيه الصَّلاة.

* وأول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثَّلاثة السَّابقون إلى الإسلام: خديجة، وعليٌّ، وزيد بن حارثة.

* وأوَّل بيت تعهَّد بالنُّصرة، ولم يتقاعس فيه فردٌ من أفراده – كباراً، أو صغاراً – عن

---

[1] يطلق المولى على السَّيد ، وعلى المملوك الذي أُعتق ، وهو المراد هنا.

[2] انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، د. محمَّد قلعجي ، ص 191.

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (284/1).

مساندة الدَّعوة[1].

يحقُّ لهذا البيت أن يكون قدوةً، ويحقُّ لربَّته أن تكون مثالاً، ونموذَجاً حيّاً لبيوت المسلمين، ولنسائهم، ورجال المؤمنين كافَّةً؛ فالزَّوجة فيه طاهرةٌ، مؤمنةٌ، مخلصةٌ، وزيرة الصِّدق، والأمان، وابن العمّ المحضون، والمكفول مستجيبٌ، ومعضِّد، ورفيقٌ، والْمُتَبَنَّى مؤمنٌ، صادقٌ، مساعدٌ، ومعينٌ، والبنات مصدِّقاتٌ، مستجيباتٌ، مؤمناتٌ، ممتثلات[2].

لقد اكتسى هذا البيت بأبهى حُلل الإيمان، وأضاء أركانَه قبسُ نور التَّصديق، فكان بين الزَّوجين التَّجاوب، والتَّكافل، وتمَّ بذلك تجسيد معنى قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189] .

وفيه أيضاً تجسيد ما رُوي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في مجال التَّربية في قوله: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه» [البخاري (1358) ومسلم (2658)] ومن استقامة التَّربية كان بناته رضي الله عنهن من السَّابقات إلى التَّصديق، والإيمان، وهكذا كان للبيت النَّبويِّ مكانته الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا، والأنموذج الَّذي نسير على هديه، في المعاشرة، ومثاليَّة السُّلوك بالصِّدق، والتَّصديق، في الاستجابة، والعمل لكلِّ من آمن بالله رباً، وبمحمَّدٍ نبياً، ورسولاً[3]. إنَّ الحقيقة البارزة في المنهج الرَّبانيِّ تشير إلى أهميَّة بناء الفرد الصَّالح، والأسرة الصَّالحة كأوَّل حلقةٍ من حلقات الإصلاح، والبناء، ثمَّ المجتمع الصَّالح، ولقد تجلَّت عناية الإسلام بالفرد المسلم، وتكوينه، ووجوب أن يسبق أيَّ عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزَّاوية في أي بناءٍ اجتماعيٍّ، ولهذا كانت الأسرة هي التي تستقبل الفرد منذ ولادته، وتستمرُّ معه مدَّةً طويلةً من حياته، بل هي الَّتي تحيط به طوال حياته، هي المحضن المتقدِّم الَّذي تتحدَّد به معالم الشَّخصيَّة، وخصائصها، وصفاتها، كما أنَّها الوسيط بين الفرد، والمجتمع، فإذا كان هذا الوسيط سليماً قويّاً؛ أمدَّ طرفيه - الفرد والمجتمع - بالسَّلامة، والقوَّة[4].

ولهذا اهتمَّ الإسلام بالأسرة، واتَّجه إليها، يضع لها الأسس الَّتي تكفل قيامها، ونموَّها نمواً

---

[1] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدين ، ص 43.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 45.

[3] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص 46.

[4] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة ، ص 208.

سليماً، ويوجِّهها الوجهة الرَّبَّانيَّة؛ لتكون حلقةً قويَّةً في بناء المجتمع الإسلاميِّ، والدَّولة الإسلاميَّة الَّتي تسعى لصناعة الحضارة الرَّبَّانيَّة في دنيا النَّاس[1].

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من حركة الدَّعوة الإسلاميَّة منذ ساعتها الأولى؛ إذ كان من قدر الله تعالى أن يكون أوَّل السَّابقين إلى الإسلام امرأةٌ (خديجة رضي الله عنها)، إشادةً بمنزلة المرأة في الإسلام، وأنَّه يرسي قواعده على الأسرة، وصبيٌّ (علي رضي الله عنه)، إشارةً لحاجة الدَّعوة إلى البراعم الجديدة، واهتمامها بالجيل النَّاشئ؛ لتسير في مراحلها الصَّحيحة لبناء المجتمع، ثمَّ الدَّولة، ثمَّ الحضارة[2].

وإنَّ التَّأمُّل في نقطة البدء بهذه الدَّعوة الَّتي توجَّهت إلى امرأةٍ كخديجة رضي الله عنها، ومولىً كزيد بن حارثة، وصبيّ كعليّ بن أبي طالبٍ، وبقيَّة أسرة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، ليدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة موجهةٌ لكلِّ النَّاس - صغيرهم، وكبيرهم، ذكرهم، وأنثاهم، وسيِّدهم، ومولاهم - فلكلِّ هذه الشَّرائح الاجتماعيَّة من الرِّجال والنِّساء، والأطفال، والموالي دوره المنتظر في البناء الاجتماعيِّ، وإقامة الدَّولة، وانتشار الحضارة[3].

5 - إسلام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه أوَّل مَنْ آمن بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من الرِّجال الأحرار، والأشراف، فهو من أخصِّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، وفيه قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ، وتردُّدٌ، ونَظَرٌ، إلا أبا بكر، ما عَكَمَ[4] حين دعوته، ولا تردَّد فيه» [البيهقي في الدلائل (164/2)] ، فأبو بكرٍ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حسنةٌ من حسناته صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يكن إسلامه إسلام رجلٍ، بل كان إسلامه إسلام أمَّةٍ، فهو في قريشٍ - كما ذكر ابن إسحاق - في موقع العين منها:

. كان رجلاً مَأْلَفاً[5] لقومه، محبباً، سهلاً.

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة المسلمة ، لمحمود الجوهري ، ص 7.

[3] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التَّمكين ، ص 208.

[4] ما تلبَّث ، بل سارع.

[5] مألفاً لقومه أي: محبباً فيهم.

ـ وكان أنسب قريش لقريشٍ، وأعلم قريشٍ بها، وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ.

ـ وكان رجلاً تاجراً، ذا خلقٍ، ومعروفٍ.

ـ وكان رجال قومه يأتونه و يألفونه لغير واحدٍ من الأمر؛ لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته[1].

لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادَّخره الله تعالى لنبيِّه صـــلى الله عليه وســـلم ، وكان من أحبِّ قريشٍ لقريشٍ، فذلك الخُلُق السَّـــمح الَّذي وهبه الله تعالى إيَّاه جعله من الموطَّئين أكنافاً، من الذين يألفون، ويؤلفون، والخُلُق السَّمح وحدَه عنصرٌ كاف لألفة القوم، وهو الَّذي قال فيه صـلى الله عليه وسـلم : «أَرْحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكرٍ» [أحمد (184/3 – 281) والترمذي (3790 و3791) وابن ماجه (154)] وعِلْمُ الأنســـــاب عند العرب وعلم التَّاريخ هما أهمُّ العلوم عندهم، ولدى أبي بكرٍ الصِّـدِّيق رضـي الله عنه النَّصـيب الأوفر منهما، وقريشٌ تعترف للصِّـدِّيق بأنَّه أعلمها بأنسـابها، وأعلمها بتاريخها، وما فيه من خيرٍ وشرٍّ، فالطبقة المثقَّفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارةً، ووفرةً، وســعةً، ومن أجل هذا كان الشَّــباب النَّابهون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلســـه دائماً، إنَّهم الصَّـــفوة الفكريَّة المثقَّفة الَّتي تودُّ أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانبٌ آخر من جوانب عظمته. وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكَّة، هي كذلك من روَّاد مجلس الصِّـــدِّيق، فهو إن لم يكن التَّاجر الأوَّل في مكَّة، فهو من أشـــهر تجَّارها، فأرباب المصالح هم كذلك قُصَّاده. ولطيبته، وحسن خلقه تلقى عوامَّ النَّاس يرتادون بيته، فهو المضياف الدَّمث الخُلُق؛ الَّذي يفرح بضـــيوفه، ويأنس بهم، فكلُّ طبقات المجتمع المكيِّ تجد حظَّها عند الصِّـــدِّيق، رضـــوان الله عليه[2] كان رصـــيده الأدبيُّ، والعلميُّ، والاجتماعيُّ في المجتمع المكيِّ عظيماً، ولذلك عندما تحرَّك في دعوته للإسلام استجاب له صفوةٌ من خيرة الخلق، وهم:

ـ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، في الرَّابعة والثلاثين من عمره.

ـ وعبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه، في الثَّلاثين من عمره.

ـ وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، وكان في السَّابعة عشرة من عمره.

ـ والزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه، وكان في الثانية عشرة من عمره.

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (371/1).

[2] انظر: التربية القياديَّة ، للغضبان (115/1).

. وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وكان في الثالثة عشرة من عمره[1].

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أوّل ثمرةٍ من ثمار الصِّدِّيق أبي بكرٍ رضي الله عنه، دعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدِّعامات الأولى؛ الَّتي قام عليها صرح الدَّعوة، وكانوا العدَّة الأولى في تقوية جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهم أعزَّه الله وأيَّده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، رجالاً، ونساءً، وكان كلٌّ من هؤلاء الطلائع داعيةً إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السَّابقين، الواحد، والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلَّة عددهم كتيبة الدَّعوة، وحصن الرِّسالة، لم يسبقهم سابقٌ، ولا يلحق بهم لاحقٌ في تاريخ الإسلام[2].

إنَّ تحرُّك أبي بكر رضي الله عنه في الدَّعوة إلى الله تعالى يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدِّين، والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ صورة المؤمن الَّذي لا يقرُّ له قرارٌ، ولا يهدأ له بالٌ، حتَّى يحقِّق في دنيا النَّاس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعةً عاطفيَّةً مؤقَّتةً سرعان ما تخمد، وتذبل، وتزول، وقد بقي نشاط أبي بكرٍ، وحماسه إلى أن توفَّاه الله – جلَّ وعلا – لم يفتر، أو يضعف، أو يملَّ، أو يعجز.

ونلاحظ: أنَّ أصحاب الجاه لهم أثرٌ كبيرٌ في كسب أنصارٍ للدَّعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكرٍ رضي الله عنه في الإسلام أكثرَ من غيره[3].بعد أن كانت صحبة الصِّدِّيق لرسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيةً على مجرَّد الاستئناس النفسيِّ؛ والخلقيِّ؛ صارت الأنسة بالإيمان بالله وحدَه، وبالمؤازرة في الشَّدائد، واتَّخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانة أبي بكر، وأُنْسِ النَّاس به، ومكانته عندهم قوةً لدعوة الحقِّ فوق ما كان له صلى الله عليه وسلم من قوَّة نفسٍ، ومكانةٍ عند الله، وعند النَّاس[4].

ومضت الدَّعوة سرِّيَّةً، وفرديَّةً على الاصطفاء، والاختيار للعناصر؛ الَّتي تصلح أن تتكوَّن منها الجماعة المؤمنة، الَّتي ستسعى لإقامة دولة الإسلام، ودعوة الخلق إلى دين ربِّ العباد، والَّتي ستقيم حضارةً ربّانيَّةً ليس لها مثيلٌ.

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (116/1).

[2] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعرجون (533/1).

[3] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص 62.

[4] انظر: خاتم النَّبيين ، لأبي زهرة ، ص 398.

6 – الدُّفْعة الثَّانية:

جاء دور الدُّفعة الثَّانية بعد إســـلام الدُّفعة الأولى، فأوَّل من أســـلم من هذه الدُّفعة: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرَّة ابن عمَّة رسول الله صلى الله عليه وســـلم (برَّة بنت عبد المطلب)، وأخوه من الرَّضـــاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميُّ، وعثمان بن مظعون الجمحيُّ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسـعيد بن زيد بن عمرو بن نفيلٍ، وقُدامة وعبد الله ابنا مظعونٍ، وفاطمة بنت الخطَّاب بن نفيل، أخت عمر بن الخطَّاب وزوجة سـعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصِّـدِّيق، وعائشـة بنت أبي بكرٍ الصـدِّيق، وخباب بن الأرتِّ حليف بني زُهرة[1].

7 – الدُّفعة الثالثة:

أسـلم عمير بن أبي وقَّاص أخو سـعد بن أبي وقَّاصٍ، وعبد الله بن مسـعودٍ، ومسـعود بن القاري، وهو مسـعود بن ربيعة بن عمرٍو، وسـليط بن عمرٍو، وأخوه حاطب بن عمرٍو، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سـلامة، وخُنَيس بن حُذافة السَّـهميُّ، وعامر بن ربيعة حليف ال الخطَّاب، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل، وأخوه حطَّاب بن الحارث، وامرأته فُكَيهة بنت يســـار، وأخوهما معمَر بن الحارث، والسَّـــائب بن عثمان بن مظعون، والمطَّلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنَّحَّام بن عبد الله بن أُسَـــيْد، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكرٍ، وفهيرة: أمُّه، وكان عبداً للطُّفيل بن الحارث بن سَـخْبَرَة، فاشـتراه الصِّـدِّيق، وأعتقه، وخالد بن سـعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصـيّ، وامرأته أمينة بنت خلف، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالدٌ، وعامرٌ، وعاقلٌ، وإياسٌ بنو البُكَيْر بن عبد يا ليل، وعمَّار بن ياسرٍ حليف بني مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عَنْسيٌّ من مَذْحج.وصُهيب بن سنان، هو (سابق الرُّوم).

ومن السَّابقين إلى الإسلام: أبو ذرٍّ الغفاريِّ، وأخوه أُنَيْس، وأمُّه[2].

ومن أوائل السَّابقين: بلال بن رباح الحبشيُّ.

---

[1] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، من التكوين إلى التمكين ، ص 212.

[2] انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (287/1).

وهؤلاء السَّابقون: من جميع بطون قريش، عدَّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً[1].

وقال ابن إسحاق: ثمَّ دخل النَّاس في الإسلام أرسالاً من الرِّجال، والنِّساء، حتى فشا ذكر الإسلام في مكَّة، وتُحدِّث به[2].

ويتَّضح من عرض الأسماء السَّابقة: أنَّ السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا - كما يحبُّ أعداء الإسلام أن يصوِّروا للنَّاس - من حثالة النَّاس، أو من الأرقَّاء؛ الَّذين أرادوا استعادة حرِّيَّتهم، أو ما شابه ذلك. وجانب الصَّوابَ بعضُ كُتَّاب السِّيرة لدى حديثهم عن السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام، فكان من كتابة بعضهم: «وتُحَدِّثنا السِّيرة: أنَّ الَّذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمُهم خليطاً من الفقراء، والضُّعفاء، والأرقَّاء، فما الحكمة في ذلك؟»[3]، وكذلك قولهم:

«كان رصيد هذه الدَّعوة بعد سنواتٍ ثلاثٍ من بدايتها أربعين رجلاً وامرأةً، عامَّتهم من الفقراء، والمستضعفين، والموالي، والأرقَّاء، وفي مقدِّمتهم أخلاطٌ من مختلف الأعاجم: صهيبٌ الرُّوميُّ، وبلالٌ الحبشيُّ»[4]. وقولهم: «فامن به ناسٌ من ضعفاء الرِّجال، والنِّساء، والموالي»[5].

إنَّ البحث الدَّقيق يثبت: أنَّ مجموع من أشير إليهم بالفقراء، والمستضعفين، والموالي والأرقَّاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من العدد الكلِّيِّ من الدَّاخلين في الإسلام لا يقال عليه: «أكثرهم»، ولا «معظمهم»، ولا «عامَّتهم».

إنَّ الَّذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافعٌ دنيويٌّ؛ وإنَّما هو إيمانهم بالحقِّ الَّذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، يشترك في ذلك الشَّريف، والرَّقيق، والغنيُّ، والفقير، ويتساوى في هذا أبو بكرٍ، وبلالٌ، وعثمان، وصهيبٌ رضي الله عنهم[6].

يقول الأستاذ صالح الشَّامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضُّعفاء، والأرقَّاء؛ ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبيَّة؛ لأنَّ هذا مخالفٌ للحقائق الثَّابتة، ولو كانوا كذلك؛ لكانت دعوةً طبقيَّةً يقوم فيها الضُّعفاء، والأرقَّاء ضدَّ الأقوياء وأصحاب السُّلطة، والنُّفوذ، ككلِّ الحركات الَّتي

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام (245/1 إلى 262).

(2) المصدر السابق نفسه ، (262/1).

(3) فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 77.

(4) فقه السيرة للبوطي ، ص 79.

(5) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، لابن الرَّبيع (301/1).

(6) انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص 40.

تقاد من خلال البُطون. إنَّ هذا لم يَدُرْ بِخَلَدِ أيٍّ من المسلمين وهو يعلن إسلامه، إنَّهم يدخلون في هذا الدِّين على اعتبارهم إخوةً في ظلِّ هذه العقيدة، عباداً لله، وإنَّه لمن القوَّة لهذه الدَّعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذَّات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحمَّلوا أصنافاً من الهوان، ما سبق لهم أن عانوها، أو فكَّروا فيها[1].

لقد كان الإسلام ينساب إلى النُّفوس الطَّيبة، والعقول النَّيِّرة، والقلوب الطَّاهرة الَّتي هيَّأها الله لهذا الأمر، ولقد كان في الأوائل: خديجة، وأبو بكر، وعليٌّ، وعثمان، والزُّبير، وعبد الرَّحمن، وطلحة، وأبو عبيدة، وأبو سلمة، والأرقم، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن جحش، وجعفر، وسعد بن أبي وقَّاص، وفاطمة بنت الخطَّاب، وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة، وغيرهم رضي الله عنهم، وهم من سادة القوم، وأشرافهم[2].

هؤلاء هم السَّابقون الأوَّلون، الَّذين سارعوا إلى الإيمان والتَّصديق بدعوة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً: استمرار النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الدَّعوة:

استمرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في دعوته السِّرِّيَّة يستقطب عدداً من الأتباع، والأنصار من أقاربه، وأصدقائه، وخاصَّة الَّذين يتمكَّن من ضمِّهم في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسَّند للرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ لتوسيع دائرة الدَّعوة في نطاق السِّرِّيَّة، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ظهرت فيها الصُّعوبة والمشقَّة في تحرُّك الرَّسول صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه بالدَّعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شرِّه، ويثقون به، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة خطواتها بطيئةٌ، وحذرةٌ، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقِّي مطالب الدَّعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها؛ إذ كان الدَّاخل في هذا الدِّين ملزماً منذ البداية بالصَّلاة، ودراسة ما تيسَّر من القرآن – مثلاً – ولم يكن يستطيع أن يصلِّي بين ظَهْرَانَيْ قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يتخفَّون في الشِّعاب، والأودية؛ إذا أرادوا الصَّلاة[3].

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص 40.

(3) انظر: الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة.

1 – الحسُّ الأمنيُّ:

إنَّ من معالم هذه المرحلة الكتمان، والسِّــرِّيَّة، حتَّى عن أقرب النَّاس، وكانت الأوامر النَّبويَّة على وجوب المحافظة على السِّــرِّيَّة واضحةً، وصــارمةً، وكان صــلى الله عليه وســلم يكوِّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا)، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعدادٍ، وتدريبٍ، لا اختفاء جبنٍ، وهروبٍ، حســب ما تقتضيــه الخطَّة الرَّبَّانيَّة، فبدأ الرَّســول صــلى الله عليه وســلم ينظِّم أصحابه من أسرٍ وخلايا صغيرةٍ، فكان الرَّجل يجمع الرَّجل والرَّجلين؛ إذا أسلما عند الرَّجل به قوَّةٌ، وســعةٌ من المال، فيكونان معه، ويصــيبان منه فضــل طعامه، ويجعل منهم حلقاتٍ، فمن حفظ شــيئاً من القرآن؛ علَّم مَنْ لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أســـر أخُوَّة، وحلقات تعليم.

إنَّ المنهج الَّذي ســار عليه رســول الله صــلى الله عليه وســلم في تربية أتباعه هو القرآن الكريم، وكان النَّبيُّ صــلى الله عليه وسـلم يربِّي أصـحابه تربيةً شـاملةً؛ في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والحسِّ الأمنيِّ، وغيرها، ولذلك نجد في القرآن الكريم آيات كريمةً تَحَدَّثَتْ عن الأخذ بالحسِّ الأمنيِّ؛ لأنَّ مِنْ أهمِّ عوامـل نهوض الأمَّـة أن ينشـــأ الحسُّ الأمنيُّ في جميع أفرادهـا، وخصـوصـاً في الصَّـفِّ المنظَّم الَّذي يدافع عن الإسـلام، ويسعى لتمكينه في دنيا النَّاس، ولذلك نجد النَّواة الأولى للتَّربية الأمنيَّة كانت في مكَّة، وتوسَّـعت مع توسُّـع الدَّعوة، ووصـولها إلى دولة، ومن الآيات المكِّيَّة التي أشـارت إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: 87] .

ووجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسَّسوا، ويبحثوا عن يوســـف، وأخيه، وفي هذا إقرارٌ من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصـر الأسـاسـية في علم الاسـتخبارات، ويؤكِّد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا﴾[1].

ولا شكَّ: أن الصَّحابــة كانوا يجمعــون المعلومات عمَّن يريدون دعوتــه للإسلام، وكانت القيادة تشــرف على ذلك، ولذلك قام النَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم بترتيب جهازٍ أمنيٍّ رفيعٍ،

(1) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام، لعبدالله علي، ص 105 .

يشرف على الاتِّصال المنظَّم بين القيادة والقواعد؛ ليضمن تحقيق مبدأ السِّرِّيَّة.

وفي القرآن المكي نجد قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص 11، 12].

ونلحظ في الآيتين الآتي:

1 – استخدام أمِّ موسى مبدأ جمع المعلومات، والحصول عليها في حفاظها على ابنها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: 11] والقَصُّ إنَّما هو تتبُّع الأثر، وجمع المعلومات.

2 – اختيار العنصر الأمين، والحريص في جمع المعلومات؛ لتكون صحيحةً، وموثَّقةً، وأمينة، وقبل ذلك حريصةً على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: 11]، فأمُّ موسى لم تختر غير أخته؛ لأنَّ الأخت تعتبر من الحريصين، والأمناء على تلك المصلحة، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات، وتحصيل الأخبار، فمن الأهمِّيَّة بمكانٍ أن يكون العنصر المرسَل في عملية الاستخبارات مندفعاً من ذاته، حريصاً على المصلحة المرسل إليها.

3 – القَصُّ، والتَّتبُّع بدون إشارةٍ، أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: 11] إذ نفهم من كلمة ﴿قُصِّيهِ﴾، وعدم آثارة الأنظار، ودليل ذلك: أنَّها بصرت به دون أن يشعروا بها.

4 – دقة الملاحظة، وقوَّة الفراسة في أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: 11] .

5 – استعملت أختُ موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصريَّة، وهو التَّخريب الفكري، فبعد أن نظرت إليهنَّ وهنَّ غير قادرات على إرضاعه؛ قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص: 12].

6 – محاولة تحقيق الهدف في أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمَّها بمكانه، وإنما هي قصَّت الأخبار، وتوصَّلت إلى مكانه، وحاولت إعادته إلى أمِّه، وقد نجحت في هذا[1].

إنَّ هذه الآيات الكريمة تربِّي في حسِّ الصَّحابة الحسَّ الأمنيَّ، وأخذ الحيطة في مسيرتهم الدَّعويَّة.

---

[1] انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام، ص 111، 112.

إنَّ السِّـــيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في أبعادها الأمنيَّة منذ تربية الأفراد، وحتَّى بعد قيام الدَّولة، وتظهر الحاجة للحركات الإســلاميَّة والدُّول المســلمة لإيجاد أجهزةٍ أمنيَّةٍ متطوِّرةٍ (في زمننا المعاصـــر)؛ تحمي الإســلام، والمسـلمين من أعدائها – اليهود، والنَّصـارى، والملاحدة – وتعمل على حماية الصفِّ المسلم في الدَّاخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين، والمحاربين للإســلام، حتَّى تسـتفيد القيادة من المعلومات الَّتي تقدِّمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنيَّة، ولابدَّ أن تؤسَّــس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم، والسُّــنَّة النَّبويَّة، وتكون أخلاق رجالها قمَّةً رفيعةً تمثِّل صفات رجال الأمن المسلمين.

إنَّ اهتمام المســـلمين بهذا الأمر يجنِّبهم المفاجات العدوانيَّة؛ «إذا عرفت العدوَّ ، وعرفت نفســك، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركةٍ، وإذا عرفت نفســك، ولم تعرف العدوَّ فإنك ستواجه الهزيمة في كلِّ معركة»[1].

إن بناء الأجهزة الأمنيَّة، ومكاتب المعلومات الَّتي تقدِّم للقيادة التَّقارير لوضـــع الخطط المناســـبة على إثرها ليس أمراً جديداً، بل هو موغلٌ في تاريخ الإنســـانيَّة، وكذلك في تاريخ المسلمين؛ منذ عصر النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة حتَّى يومنا هذا.

إنَّ من أســباب التَّمكين المهمَّة إعطاء هذا الأمر حقَّه من الاهتمام، والارتقاء به، وتطويره بما يناسب أحوال العصر الَّذي نحن فيه[2]. كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يشرف بنفسه على تربية أصــحابه في شــتَّى الجوانب، ووزَّعهم في أســرٍ؛ فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد – وهو ابن عمِّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم – كانوا في أسرةٍ واحدةٍ مع نُعَيم بن عبد الله النَّحَّام بن عديٍّ، وكان معلِّمهم خبَّاب بن الأرت، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصر على تجويد تلاوته، وضبط مخارج حروفه، ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته؛ بل كان همُّهم دراسته، وفهمَه، ومعرفة أمره، ونهيه، والعمل به[3].

كان النَّبيُّ صـــلى الله عليه وســـلم يهتمُّ بالتَّخطيط الدَّقيق المنظَّم، ويحســـب لكلِّ خطوةٍ حســـابها، وكان مدركاً تماماً: أنَّه ســـيأتي اليوم الذي يُؤمر فيه بالدَّعوة علناً، وجهراً، وأنَّ هذه المرحلة سـيكون لها شـدَّتها، وقوَّتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظَّمة تقتضـي أن يلتقي الرَّسـول

---

(1) انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص 111 ، 112.

(2) انظر: فقه التمكين في القران ، لعلي الصَّلابي ، ص 311.

(3) انظر: الدَّعوة الإسلاميَّة ، د. عبد الغفار محمَّد عزيز ، ص 96.

المربِّي مع أصحابه، فكان لابدَّ من مقرٍّ لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتَّسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرَّسول صلى الله عليه وسلم : أنَّ الأمر يحتاج إلى الدِّقَّة المتناهية في السِّرِّيَّة، والتَّنظيم، ووجوب التقاء القائد المربِّي بأتباعه في مكانٍ آمنٍ بعيدٍ عن الأنظار؛ ذلك: أنَّ استمرار اللِّقاءات الدَّوريَّة المنظَّمة بين القائد، وجنوده هو خير وسيلةٍ للتَّربية العمليَّة، والنَّظرية، وبناء الشَّخصيَّة القياديَّة الدَّعويَّة.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان يعدُّ أتباعه؛ ليكونوا بناة الدَّولة، وحملة الدَّعوة، وقادة الأمم حرصُه الشَّديد على هذا التَّنظيم السِّرِّيِّ الدَّقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كلِّ هذا.

ولو كان يريد مجرَّد إبلاغ الدَّعوة للنَّاس؛ لكان خير مكانٍ في الكعبة؛ حيث منتدى قريشٍ كلِّها، ولكن الأمر غير ذلك؛ فلابدَّ من السِّرِّيَّة التَّامَّة في التَّنظيم، وفي المكان الَّذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطَّريقة الَّتي يحضرون بها إلى مكان اللِّقاء[1].

2 - دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقرُّ القيادة):

تَذْكُرُ كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مَقَراً لقيادة الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان بعد المواجهة الأولى الَّتي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب، فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعْبٍ من شِعاب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون، فناكَرُوهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحي[2] بعيرٍ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أُريق في الإسلام» [ابن هشام (281/1 - 282)] .

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون، ويتلقَّون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلَّ جديدٍ من الوحي، ويستمعون له صلى الله عليه وسلم وهو يذكِّرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كلَّ ما في نفوسهم وواقعهم؛ فيربيهم صلى الله عليه

---

[1] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 218.

[2] اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللِّحية ، ومن الحيوان العظم الذي على الفخذ.

وسلم على عينه كما تربَّى هو على عين الله – عزَّ وجلَّ – وأصبح هذا الجمع هو قرَّة عين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم [1] .

رابعاً: أهمُّ خصــائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رســول الله صــلى الله عليه وسلم :

كانت الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد برزت فيها خصائص مهمَّة؛ جعلتها تتقدَّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشَّخصية المسلمة، الَّتي تقيم الدَّولة المؤمنة، وتصنع الحضارة الرَّائعة، ومن أبرز هذه الخصائص:

1 – الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التَّقديم بين يديه:

إنَّ العلم، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد، والشَّرائع، والآداب وغيرها، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل – قرآناً وســنَّةً – وذلك بالعلم بالله، وأسمائه، وصــفاته، وأفعاله، ومعرفة ما يجب له، وما ينزَّه عنه – سبحانه وتعالى – والعلم بالملائكة، والكتاب، والنَّبيّين، والعلم بالآخرة، والجنَّة، والنَّار، والعلم بالشَّـرائع المجملة والمفصَّـلة، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين، والعلم بالمســلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا، في القصد والغنى، في الأمن والخوف، في الخير والشَّـــرِّ، في الهدنة والفتنة، والتزام الدَّليل الشَّـــرعيِّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّـحيح[2]. قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 181] .

لقد كان الصَّـحابة رضـي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعاً بالدَّليل والوحي، وتسـليماً له؛ لأسبابٍ عديدةٍ؛ منها:

أ – نزاهة قلوبهم، وخلوُّها من كلِّ ميلٍ أو هوًى غير ما جاءت به النُّصــوص، واســتعدادها التَّامُّ لقبول ما جاء عن الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والإذعان، والانقياد له انقياداً مطلقاً دون حرجٍ، ولا تردُّدٍ، ولا إحجامٍ.

ب – معاصرتهم لوقت التَّشريع، ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كانوا أعلم النَّاس بملابسـات الأحوال الَّتي نزلت النُّصوص فيها، والعلم بملابسات الواقعة

---

[1] انظر: التربية القياديَّة (198/1).

[2] انظر: صفة الغرباء ، لسلمان العودة ، ص 83.

أو النَّصِّ من أعظم أسباب فقهه، وفهمه، وإدراك مغزاه.

ج – وكانت النُّصوص – قرآناً وسنَّةً – تأتي في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بهم – بصورةٍ فرديَّةٍ، أو جماعيَّةٍ – فتخاطبهم خطاباً مباشراً، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنَّها تعالج أحداثاً واقعيَّةً، وتعقب في حينها، حيث تكون النُّفوس مشحونةً بأسباب التأثُّر، متهيِّئةً لتلقِّي الأمر، والاستجابة له.

د – قد أعفاهم قرب عهدهم بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من الجهد الَّذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النُّصوص، وتصحيحها، فلم يحتاجوا – في غالب أحوالهم – إلى سلسلة الإسناد، ولا معرفة الرِّجال، والعلل، وغيرها، ولم يختلط عليهم الصَّحيح بغيره، ومن ثمَّ لم يقع عندهم التردُّد في ثبوت النَّص الَّذي وقع عند كثيرٍ ممَّن جاء بعدهم – خاصَّةً من أصحاب النُّفوس المريضة، أو من الجهلة الَّذين لم يدرسوا السُّنَّة، ويفقهوها روايةً، ودرايةً[1] – فكانوا إذا سمعوا أحداً يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارُهم، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[2].

2 – التَّأثُّر الوجدانيُّ العميق بالوحي والإيمان:

كان الصَّحابة يتعاملون مع العلم الصَّحيح، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحسب، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب، والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله – محبَّته، والتألُّه إليه، والشَّوق إلى لقائه، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه، والحذر من بأسه، وعقابه، وبطشه، ونقمته، وأورثهم رجاء ما عنده، والطَّمع في جنَّته، ورضوانه، وحسن الظَّنِّ به، فاكتملت لديهم – بذلك – آثار العلم بالله، والإيمان به، وهي الحبُّ، والخوف، والرَّجاء.

وأورثهم العلم بالجنَّة، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديِّ السَّرمديِّ، والخوف من مقاساة العذاب الرَّهيب، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه، وتخشى فوته، وعذابٍ تحذره، وتخشى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالآخرة – فكرةً، وخوفاً، ورجاءً – حتَّى كأنَّهم يرون البعث، والقيامة، والميزان، والصِّراط، والجنَّة، والنَّار رأيَ العين. وأورثهم علمهم بالقدر، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه – التَّوكُّل على الله، وعدم

[1] انظر: صفة الغرباء، ص 92. 93.
[2] المصدر السابق نفسه، ص 94.

التَّوكلِ على الأسباب، وعدم الفرح بما أوتوا، ولا الأسَى على ما مُنعوا، والإجمال في الطَّلب؛ إذ لن يفوت المرء ما قدِّر له، ولن يأتيه ما لم يقدَّر، كما غرس في نفوسهم الشَّجاعة، والإقدام. وأورثهم علمُهم بالموت، وإيمانُهم به – العزوفَ عن الدُّنيا، والإقبال على الآخرة، والدَّوام على العمل الصَّالح؛ إذ لا يدري المرء متى يموت، والموت منه قريب. وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ، بل هو ضررٌ في العاجل، والاجل[1].

ولقد كان للصَّحابة رضي الله عنهم من هذه المعاني الوجدانيَّة أعظم نصيبٍ؛ لأنَّ إيمانهم كان أعمق، وأكمل من إيمان غيرهم، ولقد تلقَّوه غضَّاً طريَّاً من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لم يَعْلَقْ بغبرة الأهواء، والغفلان[2].

وكان الصَّحابة فرساناً بالنَّهار، ورهباناً باللَّيل، لا يمنعهم علمُهم، وإيمانُهم الحقُّ وخشوعُهم للهِ من القيام بشؤونهم الدُّنيويَّة؛ من بيعٍ، وشراءٍ، وحرثٍ، ونكاحٍ، وقيامٍ على الأهل، والأولاد، وغيرهم فيما يحتاجون إليه، وكانوا بعيدين كلَّ البعد عن الإعجاب بالنَّفس، الَّذي أصيب به بعض المتعبِّدين ممَّن جاء بعدهم، فترتَّب عليه ازدراؤهم، واحتقارهم لأعمال الآخرين، واستهانةٌ بمجهوداتهم في سبيل الدِّين، وحطٌّ من قدرهم، فأصبحوا في الحقيقة متعبِّدين في محراب (الذَّات)، معظِّمين لأنفسهم، وهذا مصدر كلِّ رذيلةٍ خلقيَّةٍ، وسببٌ لمحق كلِّ عملٍ صالحٍ.والَّذين يصابون بهذه البليَّة المردية يشعرون بأنَّهم – وحدهم – الأوصياء على الدِّين، ويغلقون عقولهم، وأعينهم عن رؤية فضائل الآخرين، فلا يرون إلا العيوب والمساوئ؛ بل تصبح الفضائل عندهم عيوباً، ومساوئ[3].

خامساً: شخصيَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسةٍ للتَّربيَة والتَّعليم عرفتها البشريَّة، كيف لا، وأستاذها هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أستاذ البشريَّة كلِّها، وتلاميذها هم الدُّعاة والهداة، والقادة الرَّبانيُّون الَّذين حرَّروا البشرية من رقِّ العبودية، وأخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّور، بعد

---

(1) انظر: صفة الغرباء، ص 97.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 102.
(3) انظر: صفة الغرباء، ص 103. 104.

أن ربَّاهم الله تعالى على عينه تربيةً غير مسبوقةٍ، ولا ملحوقةٍ؟![1].

في دار الأرقم وفَّق الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى تكوين الجماعة الأولى من الصَّحابة، الَّذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان، وأصبحوا جميعاً من عظماء الرِّجال ومشاهير العالم، وصنَّاع التَّاريخ البشريِّ، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشريَّة.

إنَّ خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة، والجهاد، والدَّولة، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعمرَ بن الخطَّاب، وعثمان بن عفَّان، وعليِّ بن أبي طالبٍ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

لقد استطاع الرَّسول المربِّي الأعظم صلى الله عليه وسلم أن يربِّي في تلك المرحلة السرِّيَّة، وفي دار الأرقم، أفذاذ الرِّجال الَّذين حملوا راية التَّوحيد والجهاد والدَّعوة؛ فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فائقةً في اختيار العناصر الأولى للدَّعوة، في خلال السَّنوات الثَّلاث الأولى من عمر الدَّعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصّاً ليؤهِّلهم لتسلُّم القيادة، وحمل الرِّسالة، فالرِّسالات الكبرى، والأهداف الإنسانيَّة العظمى، لا يحملها إلا أفذاذ الرِّجال، وكبار القادة، وعمالقة الدُّعاة. كانت دار الأرقم مدرسةً من أعظم مدارس الدُّنيا، وجامعات العالم، التقى فيها الرَّسول المربِّي صلى الله عليه وسلم بالصَّفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّابقين الأوَّلين)، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسة على مفهوم الجنديَّة، والسَّمع، والطَّاعة، والقيادة، وآدابها، وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثِّقة بالله، والعزيمة، والإصرار، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب، والتَّربية، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشحذ العزائم، ويقوِّي الهمم، ويدفع إلى البذل، والتَّضحية، والإيثار[2].

كانت نقطة البدء في حركة التَّربية الرَّبانيَّة الأولى لقاء المدعو بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيحدث للمدعو تحوُّلٌ غريب واهتداءٌ مفاجئ بمجرَّد اتِّصاله بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيخرج المدعو من دائرة الظَّلام إلى دائرةِ النُّور، ويكتسب الإيمان، ويطرح الكفر، ويقوى على تحمل الشَّدائد، والمصائب في سبيل دينه الجديد، وعقيدته السَّمحة.

---

[1] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 219.

[2] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 220.

كانت شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم المحرِّك الأوَّل للإسلام؛ فشخصيته صلى الله عليه وسلم تملك قوى الجذب، والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض، والعظمة دائماً تُحَبُّ، وتحاط من النَّاس بالإعجاب، ويلتفُّ حولها المعجبون، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يضاف إلى عظمته تلك: أنَّه رسول الله، مُتلقِّي الوحي من الله، ومبلِّغه إلى الناس، وذلك بُعْدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه؛ فهو لا يحبُّه لذاته فقط، كما يُحبُّ العظماء من النَّاس، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الرَّبَّانيَّة الَّتي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهيِّ المكرَّم؛ ومن ثَمَّ يلتقي في شخص الرَّسول صلى الله عليه وسلم البشر العظيم، والرَّسول العظيم، ثمَّ يصبحان شيئاً واحداً في النِّهاية، غير متميِّز البداية، ولا النِّهاية، حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر، أو للبشر الرَّسول، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره نقطة ارتكاز المشاعر كلِّها، ومحور الحركة الشُّعورية، والسُّلوكية كلِّها، كذلك كان هذا الحبُّ الَّذي حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة هو مفتاح التَّربية الإسلاميَّة، ونقطة ارتكازها، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه[1].

سادساً: المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدراسية الَّتي قام بتدريسها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، القرآن الكريمَ، فهو مصدر التَّلقِّي الوحيد، فقد حَرَصَ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم على توحيد مصدر التَّلقِّي، وتفرُّده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القُدُس ينزل بالآيات غضَّةً طريَّةً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرةً، فَتُشْكَب في قلوبهم، وتتسرَّب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم، وكانت قلوبهم، وأرواحهم تتفاعل مع القرآن، وتنفعل به، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنسانٍ جديدٍ؛ بقيمه، ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه، وتطلُّعاته. لقد حرص الرَّسول صلى الله عليه وسلم حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادَّة الدراسية، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه

---

[1] انظر: منهج التَّربيَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب ، ص 34 . 35.

نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القرآن[1].

في دار الأرقم تعلَّموا: أنَّ القرآن الكريم، وتوجيهات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، هما الدُّستور الأعلى؛ للدَّعوة، والحياة، والدَّولة، والحضارة. كان القرآن الكريم المادَّة الدراسية الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فهو المصدر الوحيد للتلقِّي، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة، فهو كتاب هذه الأمَّة الحيُّ، ورائدها النَّاصح، وهو مدرستها الَّتي تتلقَّى فيها دروس حياتها.

لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القرآن الكريم بجدِّيَّةٍ، ووعيٍ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاته، والعمل بها بدقَّةٍ تامَّةٍ، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم الواقعيَّة، والمستقبليَّة.

نشأ الرَّعيل الأوَّل على توجيهات القرآن الكريم، وجاؤوا صورةً عمليَّةً لهذه التَّوجيهات الرَّبَّانيَّة، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهيَّة، الَّتي تخرَّج منها الدُّعاة، والقادة الرَّبَّانيُّون، ذلك الجيل الَّذي لم تعرف له البشريَّة مثيلاً من قبلُ، ومن بعدُ. لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لينشئ به أمَّةً، ويقيم به دولةً، وينظِّم به مجتمعاً؛ وليربِّيَ به ضمائر، وأخلاقاً، وعقولاً، ويبني به عقيدةً، وتصوُّراً، وأخلاقاً ومشاعر، فخرَّج الجماعة المسلمة الأولى الَّتي تفوَّقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقديَّة، والرُّوحيَّة، والخلقيَّة، والاجتماعيَّة، والسياسية، والحربيَّة[2].

سابعاً: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها:

1 - أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بداره.

2 - أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء الحرب ضدَّ بني هاشم، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه، ولن يخطر في البال أن يكون اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

---

(1) انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 225.

(2) انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 335.

3 – أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السَّادسة عشرة من عمره، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ بل يتَّجه نظرها، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه صلى الله عليه وسلم .

قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التَّجمُّع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكرٍ رضي الله عنه، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أنَّ اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من النَّاحية الأمنيَّة، ولم نسمع أبداً: أنَّ قريشاً داهمت ذات يومٍ هذا المركز، وكشفت مكان اللِّقاء[1].

ثامناً: من صفات الرَّعيل الأوَّل:

كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة، والفرديَّة، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً، ومنظَّماً، وسياسية محكماً، فما كان اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح، ومواعظ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة، ومدرسةً للتَّعليم، والتَّربية، والإعداد، والتَّأهيل للدَّعوة، والقيادة، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة، وتعهُّد بعض العناصر، والتَّركيز عليها تركيزاً خاصَّاً؛ لتأهيلها لأعباء الدَّعوة، والقيادة، فكأنَّ الرَّسول المربِّي صلى الله عليه وسلم قد حدَّد لكلِّ فردٍ من هؤلاء عمله بدقَّةٍ، وتنظيمٍ حكيمٍ، فالكلُّ يعرف دوره المنوط به، والكلُّ يدرك طبيعة الدَّعوة، والمرحلة الَّتي تمرُّ بها، والكلُّ ملتزمٌ جانب الحيطة، والحذر، والسِّرِّيَّة والانضباط التَّامِّ[2].

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكِّيَّة يتمُّ بكلِّ هدوءٍ وتدرُّجٍ وسرِّيَّةٍ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى – عزَّ وجلَّ – المتمثِّل في قوله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف: 28].

إنَّ الآية الكريمة تأمر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على تقصير، وأخطاء المستجيبين

---

(1) انظر: المنهاج الحركي ، للغضبان (49/1).

(2) انظر: دولة الرسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 237.

لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصَّةً إن كانت خطأً، وأن يصبر على تردُّدهم في قبول التَّوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدَّعوة، وأن يوضِّح لهم طبيعة طريق الدَّعوة، وأنَّها شاقَّةٌ، وألا يغرِّر به مغرِّرٌ ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم منتقِصاً، وألا يطيع فيهم متكبِّراً أغفل اللهُ قلبَه عن حقيقة الأمور، وجوهرها[1].

إنَّ الآية الكريمة السَّابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى، والَّتي من أهمِّها:

أ - الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

إنَّ كلمة الصَّبر تتردَّد في القرآن الكريم، وفي أحاديث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويوصي النَّاس بها بعضُهم بعضاً، وتبلغ أهمِّيَّتُها أن تصير صفةً من أربعٍ للفئة النَّاجية من الخسران، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر] ؛ فحكم المولى - عزَّ وجلَّ - على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

1 - الإيمان بالله.

2 - العمل الصَّالح.

3 - التَّواصي بالحقِّ.

4 - التَّواصي بالصَّبر.

لأنَّ نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان، والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنُّصح، والإرشاد، فيكون قد جمع بين حقِّ الله، وحقِّ العباد، والتواصي بالصَّبر ضرورةٌ؛ لأنَّ القيام على الإيمان، والعمل الصَّالح، وحراسة الحقِّ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد، والجماعة، ولا بدَّ من الصَّبر على جهاد النَّفس، وجهاد الغير، والصَّبر على الأذى والمشقَّة، والصَّبر على تبجُّح الباطل، والصَّبر على طول الطَّريق، وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعْدِ النِّهاية[2].

ب - كثرة الدُّعاء والإلحاح على الله:

---

[1] انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين ، لحسين بن محسن ، ص 170.

[2] انظر: الظِّلال (3968/6).

وهذا يظهر في قوله تعالى:؛ فالدُّعاء بابٌ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، فإذا فتح للعبد؛ تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بدَّ من تربية الأفراد الَّذين يُعَدُّون لحمل الرِّسالة، وأداء الأمانة، على حسن الصِّلة بالله، وكثرة الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من أعظم، وأقوى عوامل النَّصر[1].

ج – الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى:؛ فلا بدَّ عند إعداد الأفراد إعداداً ربَّانيّاً أن يتربَّى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كلُّه، لوجه الله، وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته من غير نظرٍ إلى مغنمٍ، أو جاهٍ، أو لقبٍ، أو تقدُّمٍ، أو تأخر، وحتَّى يصبح جنديّاً من أجل العقيدة والمنهج الرَّبانيّ، ولسان حاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162 – 163] .

إنَّ الإخلاص ركنٌ من أركان قبول العمل، ومعلومٌ: أنَّ العمل عند الله لا يُقبل إلا بالإخلاص، وتصحيح النِّيَّة، وبموافقة السُّنَّة، والشَّرع.

د – الثَّبات:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28].

وهذا الثبات المذكور فرعٌ عن ثباتٍ أعمَّ ينبغي أن يتَّسم به الدَّاعية الرَّبانيُّ، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 23].

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفاتٍ: إيمانٌ، ورجولةٌ، وصدقٌ. وهذه العناصر مهمَّةٌ للثَّبات على المنهج الحقِّ؛ لأنَّ الإيمان يبعث على التمسُّك بالقيم الرَّفيعة، والتشبُّث بها، ويبعث على التَّضحية بالنَّفس؛ ليبقى المبدأ الرَّفيع. والرُّجولة محرِّكةٌ للنَّفس نحو هذا الهدف، غير مهتمةٍ بالصَّغائر، والصَّغار، وإنَّما دائماً دافعةٌ نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرَّفيع. والصِّدق يحول دون التحوُّل، أو التغيير، أو التبديل، ومن ثَمَّ يورث هذا كلُّه الثبات الذي لا يتلوَّن معه الإنسان،

---

[1] انظر: فقه التمكين في القران الكريم ، ص221.

وإن رأى شعاع السَّيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى دنيا يصيبها، أو امرأةً ينكحها.

ولا شكَّ: أنَّ اللَّبنات الَّتي تعدُّ لحمل الدَّعوة، وإقامة الدَّولة، وصناعة الحضارة، تحتاج إلى الثَّبات الَّذي يعين على تحقيق الأهداف السَّامية، والغايات الجميلة، والقيم الرَّفيعة[1].

هذه من أهمِّ الصِّفات الَّتي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعاً: انتشار الدَّعوة في بطون قريش، وعالميَّتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السِّرِّيَّة، في سائر فروع قريش بصورةٍ متوازنةٍ ، دون أن يكون ثقلٌ كبيرٌ لأيِّ قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفةٌ لطبيعة الحياة القبليَّة آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبليِّ، والعصبية لحماية الدَّعوة الجديدة، ونشرها، فإنَّها في الوقت نفسه لم تؤلِّب عليه العشائر الأخرى؛ بحجَّة: أنَّ الدَّعوة تحقِّق مصالح العشيرة الَّتي انتمت إليها، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعلَّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشيَّة العديدة دون تحفُّظاتٍ متَّصلةٍ بالعصبيَّة.

فأبو بكر الصِّدِّيق من «تَيْم»، وعثمان بن عفان من «بني أميَّة»، والزُّبير بن العوَّام من «بني أسد»، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدَّار»، وعليُّ بن أبي طالب من «بني هاشم»، وعبد الرَّحمن بن عوف من «بني زُهرة»، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ»، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح»؛ بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش؛ فعبد الله بن مسعودٍ من هُذَيل، وعتبة بن غزوان من مازنٍ، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمَّار بن ياسر من عنس من مَذْحِج، وزيد بن حارثة من كلب، والطُّفيل بن عمرو من دَوْسٍ، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النَّمَري من بني النَّمِر بن قاسِط. لقد كان واضحاً: أنَّ الإسلام لم يكن خاصّاً بمكَّة[2].

لقد شقَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم طريقه بكلِّ تخطيطٍ ودقَّةٍ، وأخذ بالأسباب مع التوكُّل على الله تعالى؛ فاهتمَّ بالتَّربية العميقة، والتَّكوين الدَّقيق، والتَّعليم الواسع، والاحتياط الأمني،

---

(1) انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين ، د. علي جريشة ، ص 91 . 92.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (133/1).

والانسياب الطَّبيعي في المجتمع، والإعداد الشَّامل للمرحلة التي بعد السِّرِّيَّة؛ لأنَّه – عليه الصَّلاة والسَّـلام – يعلم: أنَّ الدَّعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوةً سـرِّيَّةً، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجَّة على العالمين، وإنقاذ من شـــاء الله إنقاذه من النَّاس، من ظلمات الشِّـــركِ، والجاهليَّة إلى نور الإسلام والتَّوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدَّعوة، وميدانها، منذ خطواتها الأولى؛ حيث إنَّ القرآن المكيَّ بيَّن شمول الدَّعوة، وعالميتها:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: 87] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: 52] .

إنَّ الدَّعوة جاءت لتخاطب البشر، كلَّ البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة جاءت ومن خصـائصـها الإعلان، والصَّـدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتَحمُّل ما يترتَّب على هذا من التَّكذيب، والإيذاء، والقتل.

إن استسرار النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم في دعوته أوَّل الأمر إنَّما هو حالٌ استثنائيٌّ لظروفٍ وملابساتٍ خاصَّة، وهي ظروف بداية الدَّعوة، وضعفها، وغربتها، وينبغي أن يُفهم ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاسـتسـرار سـياسـةً مصـلحيَّةً في كثيرٍ من أمور الإسـلام في الحرب، والسَّـلام؛ فهو كذلك في موضـوع الدَّعوة؛ فالاسـتسـرار بها كان لضـرورة فرضـها الواقع، وإلا فالأصـل هو بيان دين الله، وشـرعه، وحكمه لكلِّ النَّاس، أمَّا الاسـتسـرار بما سـوى ذلك من الوسـائل، والخطط، والتَّفصـيلات؛ فهو أمرٌ مصـلحيٌّ خاضـعٌ للنَّظر، والاجتهاد البشـريّ؛ إذ لا يترتَّب عليه كتمانٌ للدِّين، ولا ســـكوتٌ عن حقٍّ، ولا يتعلَّق به بيانٌ، ولا بلاغٌ، ومن ذلك – مثلاً – معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدَّعوة، فهذا أمرٌ مصلحيٌّ لا يخلُّ بقضية البلاغ، والنذارة، الَّتي نزلت الكتب، وبعثت الرُّسل من أجلها، فيمكن أن يظلَّ سرّاً متى كانت المصلحة في ذلك، مع القيام بأمر الدَّعوة، والتبليغ، ولهذا فإنَّ النَّبِيَّ صـــلى الله عليه وســـلم حتَّى بعد أن صـــدع بدعوته، وأنذر النَّاس، وأعلن النُّبوَّة ظلَّ يخفي أشـــياء كثيرةً لا تؤثِّر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم، وما هي الخطط الَّتي يتَّخذونها إزاء الكيد الجاهليِّ[1].

---

[1] انظر: الغرباء الأوَّلون، ص 124، 125، 126.

* * *

المبحث الثَّالث

البناء العقديُّ في العهد المكِّيِّ

أولاً: فقه النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في التَّعامل مع السُّنن:

إنَّ بناء الدُّول، وتربية الأمم، والنُّهوض بها يخضع لقوانين، وسنن، ونواميس، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشُّعوب، والأمم والدُّول، وعند التأمُّل في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم نراه قد تعامل مع السُّنن، والقوانين بحكمةٍ، وقدرةٍ فائقةٍ.

إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة، هي أحكام الله تعالى الثَّابتة في الكون على الإنسان في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، وهي كثيرةٌ جدّاً، والَّذي يهمُّنا منها في هذا الكتاب هو ما يتعلَّق بحركة النُّهوض تعلُّقاً وثيقاً.

«ولقد شاء الله ربُّ العالمين أن يجري أمر هذا الدِّين، بل أمر هذا الكون على السُّنن الجارية، لا على السُّنن الخارقة، وذلك حتَّى لا يأتي جيلٌ من أجيال المسلمين، فيتقاعس، ويقول: لقد نُصِر الأوَّلون بالخوارق، ولم تَعُد الخوارق تنزل بعد ختم الرِّسالة، وانقطاع النُّبوَّات»[1].

إنَّ المتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلةً بالحديث عن سُنن الله تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر، ويجد عنايةً ملحوظةً بإبراز تلك السُّنن، وتوجيه النَّظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.

والقرآن الكريم حينما يوجِّه أنظار المسلمين إلى سُنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول الَّتي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنَّواميس الَّتي تحكم الكون، والشعوب، والأمم، والدُّول، والأفراد جاريةٌ لا تتخلَّف، والأمور لا تمضي جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ وإنَّما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السُّنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيَّنت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنُّوا إلى ثبات النِّظام الَّذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النِّظام، واستشرفوا

---

[1] انظر: واقعنا المعاصر، لمحمَّد قطب، ص 414.

خطَّ السَّير على ضوء ما كان في ماضي الطَّريق، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين؛ لينالوا النَّصر، والتَّمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدِّية إليه[1].

«والسُّنن الَّتي تحكم الحياة واحدةٌ؛ فما وقع منها من زمانٍ مضى سيقع في كلِّ زمان»[2].

وهذه السُّنن هي الَّتي يُجْرِي الله – تعالى – عليها فَلَكَ الحياة، ويُسيِّرُ عليها حركَتَها، فليس هناك شيءٌ واحدٌ في حياة البشر يحدُث اعتباطاً، وإنَّما يجري كلُّ شيءٍ في هذه الحياة حسب سُنن اللهِ تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل، ولا تتخلَّف، ولا تحابي أحداً من الخلق، ولا تستجيب لأهواء البشر[3].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربِّهم المبرزة لهم في كتاب الله، وفي سنة رسول صلى الله عليه وسلم ، حتَّى يصلوا إلى ما يرجون من عزَّةٍ وتمكينٍ؛ «فإنَّ التَّمكين لا يأتي عفواً، ولا ينزل اعتباطاً، ولا يخبط خَبْطَ عشواء، بل إنَّ له قوانينه الَّتي سجَّلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة»[4].

إنَّ أوَّل شروط التعامل المنهجيِّ السليم مع السُّنن الإلهيَّة، والقوانين الكونيَّة في الأفراد، والمجتمعات، والأمم، هو أن نفهم، بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُّنن، وكيف تعمل ضمن النَّاموس الإلهيِّ، أو ما نعبر عنه بـــ «فقه السُّنن»، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعيَّة، والمعادلات الحضاريَّة[5].

يقول الأستاذ البنا – رحمه الله – في منهجيَّة التَّعامل مع السُّنن: «لا تصادموا نواميس الكون؛ فإنَّها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوِّلوا تيَّارها، واستعينوا ببعضها على بعضٍ، وترقَّبوا ساعة النَّصر، وما هي منكم ببعيد»[6].

ونلاحظ في هذا الكلام عدَّة أمورٍ مهمَّةٍ:

1 – عدم المصادمة.

2 – المغالبة.

---

(1) انظر: في ظلال القران (478/1).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السَّيد ، ص 208.

(4) انظر: جيل النَّصر المنشود ، للقرضاوي ، ص 15.

(5) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة . قراءة في فكر البنا ، ص 58.

(6) انظر: رسالة المؤتمر الخامس ، ص 127.

3. الاستخدام.

4 – التَّحويل.

5 – الاستعانة ببعضها على بعضٍ.

6 – ترقُّب ساعة النَّصر[1].

إنَّ ما وصل إليه الأستاذ البنَّا يدلُّ على دراسته العميقة للسِّيرة النَّبويَّة، والتَّاريخ الإسلاميِّ، وتجارب الشُّعوب، والأمم، ومعرفةٍ صحيحةٍ للواقع الَّذي يعيشه، وتوصيفٍ سليمٍ للدَّاء، والدَّواء.

إنَّ حركة الإسلام الأولى؛ الَّتي قادها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في تنظيم جهود الدَّعوة، وإقامة الدَّولة، وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيِّ الحضاريِّ خضعت لسنن، وقوانين قد ذكر بعضها بنوعٍ من الإيجاز؛ كأهمِّيَّة القيادة في صناعة الحضارات، وأهمِّيَّة الجماعة المؤمنة المنظَّمة في مقاومة الباطل، وأهمِّية المنهج الَّذي تستمدُّ منه العقائد، والأخلاق، والعبادات، والقيم، والتَّصوُّرات. ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنَّة التَّدرُّج، وهي من سنن الله تعالى في خلقه، وكونه، وهي من السُّنن المهمَّة الَّتي يجب على الأمَّة أن تراعيها، وهي تعمل للنُّهوض، والتَّمكين لدين الله عزَّ وجلَّ.

ومنطلق هذه السُّنَّة: أنَّ الطَّريق طويلٌ – لا سيَّما في هذا العصر الَّذي سيطرت فيه الجاهليَّة، وأخذت أُهْبَتَها، واستعدادها – كما أنَّ الشرَّ، والفساد قد تَجَذَّر في الشُّعوب، واستئصاله يحتاج إلى تدرُّج.

بدأت الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى متدرجةً، تسير بالنَّاس سيراً دقيقاً، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء، والتَّأسيس، ثمَّ مرحلة المواجهة والمقاومة، ثمَّ مرحلة النَّصر والتَّمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقتٍ واحدٍ، وإلا كانت المشقَّة، والعجز، وما كان يمكن كذلك أن تقدم واحدةٌ منها على الأخرى، وإلا كان الخلل، والإرباك[2].

إنَّ اعتبار هذه السُّنَّة في غاية الأهمِّيَّة؛ «ذلك أنَّ بعض العاملين في حقل الدَّعوة الإسلاميَّة يحسبون أنَّ التَّمكين يمكن أن يتحقَّق بين عشيةٍ وضحاها، ويريدون أن يغيِّروا الواقع الَّذي تحياه الأمَّة الإسلاميَّة في طرفة عينٍ، دون النَّظر في العواقب، ودون فهمٍ للظُّروف، والملابسات المحيطة

---

(1) انظر: المشروع الإسلاميُّ لنهضة الأمَّة ، ص 58.

(2) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 227.

بهذا الواقع، ودون إعدادٍ جيّدٍ للمقدِّمات، أو للأســاليب، والوســائل»[1]، وقد وجَّه الله تعالى أنظارنا إلى هذه السُّنَّة في أكثر من موقع، فالله - تعالى - خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيام، يعلمها سبحانه، ويعلم مقدارها، وكان - جلَّ شأنُه - قادراً على خلقها في أقلَّ مِنْ لمح البصر، وكذلك بالنســبة لأطوار خلق الإنســان، والحيوان، والنَّبات، كلُّها تتدرَّج في مراحل حتَّى تبلغ نماءها، وكمالها، ونضجها، وَفْقَ سنَّة الله - تعالى - الحكيمة.

وسنَّة التَّدرُّج مقررةٌ في التَّشريع الإسلاميِّ بصورةٍ واضحةٍ ملموسةٍ، وهذا من تيسير الإسلام على البشر؛ حيث إنَّه راعى معهم سنَّة التَّدرُّج فيما شرعه لهم إيجاباً، وتحريماً، فنجده حين فرض الفرائض؛ كالصَّـلاة، والصِّـيام، والزَّكاة فرضـها على مراحل، ودرجاتٍ؛ حتَّى انتهت إلى الصُّـورة الأخيرة الَّتي استقرَّت عليها[2].

«ولعلَّ رعاية الإســـلام للتدرُّج هي الَّتي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرِّقِّ الذي كان نظاماً ســائداً في العالم كلِّه عند ظهور الإســلام، وكانت محاولة إلغائه تؤدِّي إلى زلزلةٍ في الحياة الاجتماعيَّة، والاقتصـاديَّة، فكانت الحكمة في تضـييق روافده؛ بل ردمها كلِّها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حدٍّ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرِّق بطريق التَّدرُّج»[3].

«إننا إذا درسـنا القرآن الكريم، والسُّـنَّة المطهَّرة، دراسـةً عميقةً؛ علمنا كيف؛ وبأيِّ تدرُّج، وانسـجامٍ تمَّ التَّغيير الإسـلاميُّ في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كلِّه على يد النَّبيِّ صـلى الله عليه وسلم .. فلقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً حسب مجراها الطبيعيِّ؛ حتَّى تستقرَّ في مستقرِّها الَّذي أراده الله ربُّ العالمين»[4].

«وهذه السُّـنَّة الرَّبَّانيَّة في رعاية التَّدرُّج ينبغي أن تُتَّبع في سياسـة النَّاس، وعندما يُراد تطبيق الإسـلام في الحياة، واستئناف حياةٍ إسـلاميَّةٍ متكاملةٍ؛ يكون التَّمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقيّاً؛ فلا نتوهَّم: أنَّ ذلك يمكن أن يتحقَّق بقرارٍ يصدر من رئيسٍ، أو ملكٍ، أو من مجلسٍ قيـاديٍّ، أو برلمـانيٍّ، وإنَّمـا يتحقَّق ذلـك بطريق التَّـدرُّج؛ أي: بالإعـداد، والتَّهيئـة الفكريَّة، والنَّفسيَّة، والاجتماعيَّة.

---

(1) انظر: افات على الطَّريق (57/1) وما بعدها.

(2) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 227.

(3) انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاوي ، ص 166 وما بعدها.

(4) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، نقلاً عن المودودي ، ص 229.

وذلك هو المنهج الَّذي سلطه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لتغيير الحياة الجاهليَّة إلى الحياة الإسلاميَّة، فقد ظلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة، كانت مهمَّته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدَّعوة، وتكاليف الجهاد؛ لحمايتها، ونشرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكِّيَّة مرحلة تشريعٍ بقدر ما كانت مرحلة تربيةٍ، وتكوينٍ»[1].

ثانياً: سنة التَّغيير وعلاقتها بالبناء العقديِّ:

من السُّنن المهمَّة على طريق النُّهوض: السُّنَّة الَّتي يقرِّرها قول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: 11] .

وارتباط هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة بالتَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة واضحٌ غاية الوضوح؛ ذلك: أنَّ التَّمكين لا يمكن أن يتأتَّى في ظلِّ الوضع الحالي للأمَّة الإسلاميَّة، فلا بدَّ من التَّغيير، كما أنَّ التَّمكين لن يتحقَّق لأمَّةٍ ارتضت لنفسها حياة المذلَّة، والتخلُّف، ولم تحاول أن تغيِّر ما حلَّ بها من واقعٍ، وأن تتحرَّر من أسره[2].

«والإسلام يوم جاء أوَّل مرَّةٍ، وقف في وجهه واقعٌ ضخمٌ، واقع الجزيرة العربيَّة، وواقع الكرة الأرضيَّة، ووقفت في وجهه عقائد وتصوُّرات، ووقفت في وجهه قيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمةٌ، وأوضاعٌ، ووقفت في وجهه مصالح، وعصبياتٌ.

كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع النَّاس في الجزيرة العربيَّة، وفي الأرض كافَّةً، مسافةً هائلةً، وكانت النُّقلة الَّتي يريدهم عليها بعيدةً بعيدةً، وكانت تساند الواقع أحقابٌ من التَّاريخ، وأشتاتٌ من المصالح، وألوانٌ من القوى، وقفت كلُّها سدّاً في وجه هذا الدِّين الجديد، الَّذي لا يكتفي بتغيير العقائد، والتَّصوُّرات، والقيم، والموازين، والعادات، والتَّقاليد، والأخلاق، والمشاعر؛ إنَّما يريد كذلك أن يغيِّر الأنظمة، والأوضاع، والشَّرائع، والقوانين، كما يريد انتزاع قيادة البشريَّة من يد الطَّاغوت، والجاهليَّة؛ ليردَّها إلى الله، وإلى الإسلام»[3].

«ولا شكَّ: أنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى، فقد حدث ما حدث وَفْقَ سنَّةٍ

---

[1] انظر: الخصائص العامَّة للإسلام، ص 168 بتصرف يسير.

[2] انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص210.

[3] انظر: هذا الدِّين، لسيد قطب، ص 51، 52.

جاريةٍ، لا وفق معجزاتٍ خارقةٍ، وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدَّخرة لكلِّ من يستنفد هذا الرَّصيد، ويجمعه، ويطلقه في اتِّجاهه الصَّحيح»[1].

إنَّ التَّغيير الَّذي قاده النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بمنهج الله تعالى بدأ بالنَّفس البشريَّة، وصنع منها الرِّجال العظماء، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التَّخلُّف إلى التَّقدُّم، وأنشأ بهم أروع حضارةٍ عرفتها الحياة[2].

لقد قام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم - بمنهجه القرآنيِّ - بتغيير في العقائد، والأفكار، والتَّصوُّر، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه؛ فتغيَّر ما حوله في دنيا النَّاس، فتغيَّرت المدينة، ثمَّ مكَّة، ثمَّ الجزيرة، ثمَّ بلاد فارس، والرُّوم في حركةٍ عالميَّةٍ تسبِّح، وتذكر خالقها بالغدوِّ، والاصال.

كان اهتمام المنهج القرآنيِّ في العهد المكيِّ بجانب العقيدة، فكان يعرضها بشتَّى الأساليب؛ فغمرت قلوبهم معاني الإيمان، وحدث لهم تحوُّل عظيمٌ، قال الله تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 122].

حقّاً إنَّه تصويرٌ رائعٌ عجيبٌ تقف الأقلام حائرةً في وصفه! وكذلك الأسلوب القرآنيُّ في كلِّ حينٍ تنهل منه الألباب، وتصدر عنه الأساليب، وتعجز عن إيفائه حقَّه من التَّعبير؛ من الموت إلى الحياة، ومن الظُّلمات إلى النُّور، هل يستويان مثلاً؟! مسافةٌ هائلةٌ! ونقلةٌ عظيمةٌ لا يعرف عظمتها، ويدرك مقدارها إلا مَنْ تفرَّس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآنيِّ المعجز[3].

ثالثاً: تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة:

كان تصورُ الصَّحابة رضي الله عنهم لله قبل البعثة تصوراً فيه قصورٌ، ونقصٌ، فهم ينحرفون عن الحقِّ في أسمائه، وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 180]، فينكرون بعض صفاته، ويسمُّونه بأسماء لا توفيق

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 65.

(2) انظر: نفوس ودروس في إطار التَّصوير القراني ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص 367.

(3) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، للزَّهراني (1/25 ، 26).

فيها، أو بما يوهم معنىً فاسداً، وينسبون إليه النَّقائص، كالولد، والحاجة، فزعموا: أنَّ الملائكة بنات الله، وجعلوا الجنَّ شركاء له سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: 57] .

فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصَّحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وإيضاحها للنَّاس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء، والصِّفات، والإيمان بكلِّ ما أخبر الله به من الملائكة، والكتاب، والنَّبيِّين، والقدر خيره وشرِّه، واليوم الآخر، وإثبات الرِّسالة للرُّسل - عليهم السَّلام - والإيمان بكلِّ ما أخبروا به[1].

فقد عَرَّف القرآن المكيُّ الناسَ مَنْ هو الإله الَّذي يجب أن يعبدوه، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يربِّيهم على تلك الآيات العظيمة؛ فقد حرص صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأوَّل على أن يعطي النَّاس التَّصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم، وعن حقِّه عليهم مدركاً: أنَّ هذا التَّصوُّر سيورث التَّصديق، واليقين عند مَنْ صفت نفوسهم، واستقامت فطرتهم. ولقد كان تركيز النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في هذا التَّصوُّر المستمدِّ من القرآن الكريم قائماً على عدَّة جوانب، منها:

1 - أنَّ الله منزَّهٌ عن النَّقائص، موصوفٌ بالكمالات الَّتي لا تتناهى؛ فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له، لم يتَّخذ صاحبةً، ولا ولداً.

2 - وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ، ومالكه، ومدبِّر أمره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54] .

3 - وأنَّه تعالى مصدر كلِّ نعمةٍ - دقَّت أو عظمت، ظهرت أو خفيت - في هذا الوجود ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: 53] .

4 - وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض، ولا في السَّماء، ولا ما يُخفي الإنسان، وما يُعلن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12] .

5 - وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتابٍ لا يترك صغيرةً

---

[1] انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة، لعلي العلياني، ص 47.

ولا كبيرةً إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللّحظة المناسبة، والوقت المناسب: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] .

6 – وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون، وما يَهوون؛ ليعرف النَّاسُ معادنَهم، ومن منهم يرضى بقضاء الله، وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة، والإمامة، والسيادة، ومن منهم يغضب، ويسخط، فيكون جزاؤه غضبَ الله، وعدمَ إسناد شيءٍ إليه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: 2]، وذلك مع علمه بالشَّيء قبل وقوعه.

7 – وأنَّه سبحانه يوفِّق، ويؤيِّد، وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي، وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196] .

8 – وأنَّه – سبحانه وتعالى – حقُّه على العباد أن يعبدوه، ويوحِّدوه، فلا يشركوا به شيئاً: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: 66] .

9 – وأنَّه – سبحانه – حدَّد مضمون هذه العبوديَّة، وهذا التَّوحيد في القرآن العظيم[1].

وتربَّى الرَّعيل الأوَّل رضي الله عنهم، على فهم صفات الله، وأسمائه الحسنى، وعبدوه بمقتضاها؛ فَعَظُمَ الله في نفوسهم، وأصبح رضاه سبحانه غايةَ مقصدهم، وسعيهم، واستشعروا مراقبته لهم في كلِّ الأوقات، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزلَّ؛ والله مطَّلعٌ عليها، وتطهَّر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشِّرك بجميع أنواعه، سواءٌ من اعتقاد متصرِّف مع الله – عزَّ وجلَّ – في أيِّ شيءٍ، من تدبير الكون؛ من إيجادٍ، أو إعدامٍ، أو إحياءٍ، أو إماتةٍ، أو طلب خير، أو دفع شرٍّ بغير إذنٍ من الله سبحانه، أو اعتقاد منازعٍ له في شيءٍ من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، وكالعظمة، والكبرياء، وكالحاكميَّة المطلقة، وكالطَّاعة المطلقة، ونحو ذلك[2].

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة للأفراد على التَّوحيد هي الأساس الَّذي قام عليه البناء الإسلاميُّ، وهي المنهجيَّة الصَّحيحة الَّتي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل، فكلُّ رسولٍ دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة. قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

---

[1] انظر: منهج الرَّسول صلى الله عليه وسلم في غرس الرُّوح الجهاديَّة، ص 10 . 16.

[2] انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة، ص 53.

مُبِينٌ *أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 25 – 26] ، وقال عن هودٍ عليه الســـلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: 50]، وقال عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: 61]، وقال عن شعيبٍ عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُــوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ [هود: 84]، وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: 51].

وبالجملة: فالرُّسـل – عليهم الصَّـلاة والسَّـلام – كلُّهم دعوا لتوحيد الألوهيَّة، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، واجتناب الطَّاغوت، والأصـنام. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُــولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّــلاَلَةُ فَسِــيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36].

وقد ربَّى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم صـحابته على تجريد التَّوحيد بأنواعه كلِّها، وكان هو صــلى الله عليه وســلم مثالاً حيَّاً للمؤمن الموحِّد غاية التَّوحيد: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ دِيناً قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ *قُلْ إِنَّ صَـلاَتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَـرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْـلِمِينَ *قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَــيْءٍ وَلاَ تَكْسِــبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: 161 – 164].

وقد آتت تربية الرَّسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ثمارها المباركة؛ فتطهَّر الصَّحابة في الجملة ممَّا يضـادُّ توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّـفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتَّبعوا أحداً على غير مرضـاة الله، ولم يحبُّوا غير الله كحب الله، ولم يخشــوا إلا الله، ولم يتوكَّلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسـألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يذبحوا إلا لله، ولم ينذروا إلا لله، ولم يسـتغيثوا إلا بالله، ولم يسـتعينوا – فيما لا يقدر عليه إلا الله – إلا بالله وحده، ولم يركعوا، أو يسـجدوا، أو يَحُجُّوا، أو يطوفوا، أو يتعبَّدوا إلا لله وحـــده، ولم يُشَـبِّهُوا الله لا بالمخلوقات، ولا بالمعدومات؛ بل نزَّهوه غاية التَّنزيه،

وأثبتوا له ما أثبته لنفســـه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريفٍ، أو تعطيلٍ، أو تأويلٍ، ولم يخافوا خوف السِّرِّ إلا من الله وحده، ولم يصـرفوا الطَّاعة المطلقة إلا لله وحده، ولم يشـركوا أحداً من خلقه في خاصِّـيَّةٍ من خصــائص ربوبيَّته؛ كالإحياء، والإماتة، والرِّزق، والعلم المحيط، والقدرة الباهرة، والقيُّوميَّــة، والبقاء المطلق، والتَّحليل، والتَّحريم، ونحو ذلــك؛ جعلنا الله ممَّن يحقِّق التَّوحيد قولاً، وعملاً، واعتقاداً، إنَّه وليُّ ذلك، والقادر عليه[1].

وقد جاء القرآن المكِّيُّ موضِّـحاً عقيدة التَّوحيد، ومثبِّتاً لرسـالة محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم إلى الإنس، والجنِّ كافةً. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَــلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِــيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ 28] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُــولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: 158]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَـرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقرآن فَلَــمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَــمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ *قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَــى مُصَــدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْــتَقِيمٍ *يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: 29 – 31] وغير هذه الآيات في القرآن الكريم كثيرٌ، والَّتي تثبت رســالة محمَّدٍ صــلى الله عليه وسلم للإنس والجنِّ كافَّةً[2].

وكما رسَّــخ القرآن المكِّيُّ في قلوب الصَّــحابة رضـــي الله عنهم العقيدة الصَّــحيحة حول التَّوحيد بأنواعه، وحول الرَّسول صلى الله عليه وسلم والرِّسالة؛ صحَّح عقيدتهم حول الملائكة، وأنَّهم خلقٌ من خلقه، يسجدون له، ولا يستكبرون عن عبادته، وليس لهم شركٌ في السَّماء ولا في الأرض، وأنَّهم لا يضـــرُّون ولا ينفعون أحداً إلا بأمره ســـبحانه: ﴿وَيُسَــبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِـلُ الصَّـوَاعِقَ فَيُصِـيبُ بِهَا مَنْ يَشَـاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَـدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: 13]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْـتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: 49] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُـلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَــاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: 1] ،

---

[1] انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص 54 ، 55.

[2] انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص 56.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: 22] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: 206] .

وكذلك سائر أركان الإيمان الأخرى، غرسها القرآن المكِّيُّ في قلوب المؤمنين بأسلوب القرآن المعجز، ووضَّحها للنَّاس كافَّةً؛ فبيَّن كيفيَّة إنزال القرآن على الرَّسول صلى الله عليه وسلم : ﴿وقرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء: 106] ، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: 23]، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: 91] .

وبيَّن سبحانه: أنَّ له كتباً غير القرآن الكريم: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾[الإسراء: 55]، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾[آل عمران: 3]، وبيَّن سبحانه: أنَّه بعث كثيراً من الأنبياء: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ﴾[الزخرف: 6]، فبعضهم ذكرهم القرآن، وبعضهم لم يذكرهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[غافر: 78].

رابعاً: وصف الجنَّة في القرآن الكريم، وأثره على الصَّحابة:

ركَّز القرآن المكِّيُّ على اليوم الآخر غاية التَّركيز، فقلَّ أن توجد سورةٌ مكِّيَّةٌ لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة، وأحوال المنعَّمين، وأحوال المعذَّبين، وكيفية حشر النَّاس ومحاسبتهم، حتَّى لكأنَّ الإنسان يرى يوم القيامة رأيَ العين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ

يُظْلَمُونَ *وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ *وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيات رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ *قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ *وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ *وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 67 – 75] .

وقد جاءت الآيات الكريمة مبيِّنةً، واصفةً للجنَّة، فأثَّر ذلك في نفوس الصَّحابة أيَّما تأثير؛ فممَّا جاء في وصف الجنَّة: أنَّها لا مثيل لها، وأنَّ لها أبواباً، وفيها درجاتٌ، وتجري من تحتها الأنهار، وفيها عيونٌ، وقصورٌ، وخيامٌ، وفيها أشجارٌ متنوعةٌ، كسدرة المنتهى، وشجرة طوبى، وتحدَّث القرآن الكريم عن نعيم أهلها، وطعامهم، وشرابهم، وخمرهم، وانيتهم، ولباسهم، وحليِّهم، وفرشهم، وخدمهم، وأحاديثهم، ونسائهم، وعن أفضل ما يُعْطاه أهلها، وعن آخر دعواهم؛ بحيث أصبح الوصف القرآنيُّ للجنَّة مهيمناً على جوارح، وأحاسيس، وأذهان، وقلوب المسلمين، ونذكر بعض ما جاء من وصفها من خلال القرآن الكريم:

1 – الجنَّة لا مثيل لها:

إنَّ نعيم الجنَّة شيءٌ أعدَّه الله لعباده المتَّقين، نابعٌ من كرم الله، وجوده، وفضله، ووصف لنا المولى – عزَّ وجلَّ – شيئاً من نعيمها، إلا أنَّ ما أخفاه الله عنَّا من نعيمٍ شيءٌ عظيم، لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كُنْهِهِ الأفكار، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء، وهو ما وفَّقهم إليه من أعمالٍ عظيمةٍ؛ من قيام ليلٍ، وإنفاقٍ في سبيله. قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16 – 17] .

2 – درجات الجنَّة:

إنَّ أهل الجنَّة متفاوتون فيما بينهم على قدر أعمالهم، وتوفيق الله لهم، وكذلك درجاتهم في

الآخرة، بعضـــها فوق بعض. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّـــالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ [طه: 75].

وأولياء الله المؤمنون في تلك الدَّرجات بحســـب إيمانهم، وتقواهم، قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخرةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: 21]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: 21]،

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: 20].

3 – أنهار الجنَّة:

ذكر القرآن الكريم في آيات عديدةٍ أنهار الجنَّة. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِـــنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّـــارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: 15] .

4 – عيون الجنَّة:

في الجنَّة عيونٌ كثيرةٌ، مختلفة الطُّعوم، والمشـــارب. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: 45]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسـلات: 41]، وقال في وصـــف الجنَّتين اللَّتين أعدَّهما لمن خاف ربه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن: 50]، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: 66] .

وفي الجنَّة عينان يشـرب المقرَّبون ماءهما صِـرْفاً غير مخلوطٍ، ويشـرب منهما الأبرار الشَّـراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره:

العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْـــرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *عَيْناً يَشْـــرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسـان: 5 – 6]. فقد أخبر: أنَّ الأبرار يشـــربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التَّســـنيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ *يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْـكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

الْمُتَنَافِسُونَ *وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: 22 – 28].

ومن عيون الجنَّة عينٌ تسمَّى السَّلسبيل. قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾[الإنسان: 17 – 18].

5 – وصف بعض شجر الجنَّة:

أ – سدرة المنتهى:

وهذه الشَّجرة ذكرها المولى – عزَّ وجلَّ – في كتابه العزيز، وأخبر – سبحانه –: أنَّ رسولنا (ﷺ) رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها، وأنَّ هذه الشجرة عندها جنَّة المأوى، وهذه السِّدرة يغشاها ما لا يعلمه إلا الله. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾[النجم: 13 – 17].

ب – شجرة طوبى:

وهذه الشَّجرة عظيمةٌ كبيرةٌ، تصنع منها ثياب أهل الجنَّة، فعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «طوبى شجرةٌ في الجنَّة مسيرة مئة عامٍ، ثياب أهل الجنَّة تخرج من أكمامها» [أحمد (71/3) وأبو يعلى (1374) ومجمع الزوائد (67/10)] .

الشَّجرة الَّتي يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة عام، هذه الشَّجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الَّذي خلقها، وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم عِظَمَ هذه الشَّجرة، بأنْ أخبر: أنَّ الرَّاكب لفرس من الخيل الَّتي تعدُّ للسِّباق، يحتاج إلى مئة عامٍ حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه، ففي صحيح البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة سنةٍ، واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ [30]» [البخاري (3252) ومسلم (2826)] .

وهذا يدلُّ على خَلْقٍ بديعٍ، وقدرةِ الصَّانع، سبحانه وتعالى.

6 – طعام أهل الجنَّة وشرابهم:

ذكر الله – سبحانه وتعالى –: أنَّ في الجنَّة ما تشتهيه الأنفس من المآكل، والمشارب فقال:

﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ [الواقعة: 20]، وقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: 71].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها، وألوان طعامها، وشرابها ما يشتهون، فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: 24] .

7 – خمر أهل الجنَّة:

من الشَّـــراب الَّذي يتفضَّـــل اللهُ به على أهل الجنَّة الخمر، وخمر الجنَّة خالٍ من العيوب، والافات الَّتي تتَّصـــف بها خمر الدُّنيا، فخمر الدُّنيا تذهب العقول، وتُصـــدِّع الرؤوس، وتوجع البطون، وتمرض الأبدان، وتجلب الأسقام، وقد تكون معيبةً في صنعها، أو لونها، أو غير ذلك، أمَّا خمر الجنَّة؛ فإنَّها خاليةٌ من ذلك كلِّه، وجميلةٌ، صـــافيةٌ، رائعةٌ[1]. قال الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ *لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ ﴾

[الصافات: 45 – 47]. فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء)، ثمَّ بين: أنَّها يلتذُّ بها شاربُها، لا يملُّ من شـربها. وقال في موضـع آخر يصـف خمر الجنَّة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ ﴾ [الواقعة: 17 – 19] .

وقال تعالى في موضـع آخر: ﴿يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْـكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُـونَ﴾ [المطففين: 25 – 26]، والرَّحيق هو الخمر، ووصـف هذا الخمر بوصـفين: الأوَّل: أنه مختومٌ؛ أي: موضـوعٌ عليه خاتم الأمر. الثاني: أنَّهم إذا شـربوه؛ وجدوا في ختام شـرابهم له رائحة المسك[2].

8 – طعام أهل الجنَّة وشرابهم لا دنس معه:

الجنَّة دارٌ خالصةٌ من الأذى، وأهلها مطهَّرون من أوساخ أهل الدُّنيا. قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: «أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة من أمَّتي على صـورة القمر ليلة البدر، ثمَّ الذين يلونهم على أشـــدِّ نجم في السَّـــماء إضـــاءةً، ثمَّ هم بعد ذلك منازلُ، لا يتغوَّطُون، ولا يبولون، ولا

---

[1] انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار، لعمر الأشقر، ص 23.

[2] انظر: تفسير ابن كثير (514/6).

يَمْتَخِطُونَ، ولا يَبْزُقُون» [البخاري (3327) ومسلم (2834)].

فالَّذي يتفاوت فيه أهل الجنَّة ممَّا نُصَّ عليه في الحديث قوَّة نور كلٍّ منهم، أمَّا خلوصهم من الأذى؛ فإنَّهم يشـــتركون فيه جميعاً، فهم لا يتغوَّطون، ولا يبولون، ولا يتفلون، ولا يَبْزُقُون، ولا يَمْتَخِطُونَ، وفضلات الطَّعام والشَّراب تتحوَّل إلى رشح كرشح المسك، يفيض من أجسادهم، كما يتحوَّل بعضٌ منه إلى جشاءٍ، ولكنَّه جشاء تنبعث منه روائح طيِّبةٌ عبقةٌ عطرةٌ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها، ويشربون، لا يَتْفُلُون، ولا يَبُولُون، ولا يَتَغَوَّطُون، ولا يَمْتَخِطُونَ». قالوا: فما بالُ الطَّعام؟ قال: «جُشَاءٌ، ورَشْحٌ كَرَشْحِ المسك» [مسلم (2835) وأبو داود (4741)] .

9 – لباس أهل الجنَّة، وحليُّهم، ومباخرهم:

أهل الجنَّة يلبسون فيها الفاخر من اللِّباس، ويتزيَّنون فيها بأنواع الحليِّ من الذَّهب، والفضَّة، واللؤلؤ؛ فمن لباسهم الحرير، ومن حليِّهم أساور الذَّهب، والفضَّة، واللؤلؤ. قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَـــاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُـــهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: 33]، ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] . وملابســهم ذات ألوان، ومن ألوان الثِّياب الَّتي يلبســون الخضــر من السُّــندس والإســتبرق: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31]. وقد أخبر الرَّسول صلى الله عليه وسلم : أنَّ لأهل الجنَّة أمشاطاً من الذَّهب، والفضَّــة، وأنَّهم يتبخَّرون بعود الطِّيب، مع أنَّ رائحة المســك تفوح من أبدانهم الزَّكيَّة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انيتُهم الذَّهبُ، والفضَّةُ، وأمشاطُهم الذَّهب، وَوَقُودُ مَجامِرِهم الأَلُوَّةُ – عود الطِّيب – ورَشْحُهم الْمِسْك» [البخاري (3246) ومسلم (17/2834)] .

وثياب أهل الجنَّة، وحليُّهم لا تبلى، ولا تفنى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يدخلُ الجنة ينعمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يفنى شبابُه» [مسلم (2836) وأحمد (369/2 – 370 و407 و416 و462) والدارمي (2861) وأبو نعيم في صفة الجنة (97)] .

10 – اجتماع أهل الجنَّة، وأحاديثهم:

أهل الجنَّة يزور بعضهم بعضاً، ويجتمعون في مجالس طيبة، يتحدَّثون ويذكرون ما كان منهم في الدُّنيا، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان. قال الله تعالى في وصف اجتماع أهل الجنَّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: 47].

وحدَّثنا القرآن عن أصناف الأحاديث الَّتي يتكلَّمون بها في اجتماعهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ *فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ *إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾[الطور: 25 – 28]. ومن ذلك تذكُّرهم أهل الشرِّ الَّذين كانوا يشكِّكون أهل الإيمان، ويدعونهم إلى الكفران: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ *يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ *أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ *قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ *فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ *قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ *وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ *أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ *إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: 50 – 61].

11 – نساء أهل الجنَّة:

زوجة المؤمن في الدُّنيا هي زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنةً. قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: 23]، وهم في الجنَّات منعَّمون مع الأزواج، يتّكِئون في ظلال الجنَّة مسرورين فرحين: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس: 56]، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: 70] .

12 – الحور العين:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان: 54]، والحور: جمع حوراء، وهي الَّتي يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السَّواد، والعين: جمع عيناء، والعيناء هي واسعة العين، وقد وصف الله في القرآن الحور العين بأنهنَّ كواعب أتراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا *وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: 31 – 33]. والكاعب: المرأة الجميلة الَّتي برز ثديها، والأتراب: المتقاربات في السنِّ، والحور العين من خلق الله في الجنَّة، أنشأهنَّ الله إنشاءً فجعلهن أبكاراً، عرباً أتراباً: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾

[الواقعة: 35 – 37]. وكونهنَّ أبكاراً يقضـي أنَّه لم ينكحهنَّ قبلهم أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: 56] ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن جمال نساء أهل الجنة، فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ *كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: 22 – 23] والمراد بالمكنون: الخفيُّ المصون، الَّذي لم يغيِّر صفاء لونه ضوءُ الشَّمس، ولا عبثُ الأيدي، وشبَّههنَّ في موضع آخر بالياقوت والمرجان: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: 56 – 58] . والياقوت والمرجان: حجران كريمان فيهما جمالٌ، ولهما منظرٌ حسنٌ بديعٌ، وقد وصف الحور بأنهنَّ قاصرات الطَّرف، وهنَّ اللَّواتي قصَرْنَ بصرهنَّ على أزواجهنَّ، فلم تطمح أنظارهنَّ لغير أزواجهنَّ، وقد شهد الله لحور الجنَّة بالحسن، والجمال، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 70 – 71]. ونساء الجنَّة لَسْنَ كنساء الدُّنيا، فإنهنَّ مطهراتٌ من الحيض والنِّفاس، والبصاق، والمخاط، والبول، والغائط[1].

وقد تحدَّث الرَّسول صلى الله عليه وسلم عن جمال رجال، ونساء أهل الجنَّة، فقال: «أوَّل زمرةٍ تلج الجنَّة صورهُم على صورة القمر ليلةَ البدر، لا يَبْصُقُون فيها، ولا يَمْتَخِطُونَ، ولا يتغوَّطُون، وانيتُهم فيها الذَّهبُ، أمشاطُهم من الذَّهب والفضة، ومجامِرُهم الألُوَّةُ، ورَشْحُهم المسكُ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ، يُرى مُخُّ سُوقهما من وراء اللَّحم من الحُسْنِ» [البخاري (3245) ومسلم (2834/17)] .

وانظر إلى هذا الجمال الَّذي حدَّث به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه، هل تجد له نظيراً ممَّا تعرف؟! «ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنَّة اطَّلعت إلى أهل الأرض؛ لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» [البخاري (2796) وأحمد (141/3) والترمذي (1651) وابن حبان (7399)].

13 – أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول اللهُ تبارك تعالى: تريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهنَا؟! ألم تُدْخِلْنا الجنة، وتُنَجِّنا من النار؟! قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربهم تبارك وتعالى»، وجاء في

[1] انظر: الوسطية في القران الكريم ، ص 433.

روايةٍ أخرى: ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26] [أحمد (332/4 – 333) ومسلم (181) والترمذي (2555) وابن ماجه (187)] .

وأمَّا عن رضوان الله الَّذي يعطى لأهل الجنَّة؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا، وسَعْدَيْكَ، والخير كلُّه في يَدَيْكَ! فيقول: هل رَضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [البخاري (6549) ومسلم (2829)] .

14. آخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين:

يمرُّ المؤمنون في الموقف العظيم بأهوالٍ عظام، ثمَّ يمرُّون على الصِّراط، فيشاهدون هولاً، ورعباً، ثمَّ يدخلهم الله جنَّات النَّعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن، فيرون ما أعدَّ الله لهم فيها من خيراتٍ عظام، فترتفع ألسنتهم تسبّح ربَّهم وتقدِّسه؛ فقد أذهب عنهم الحزن، وصدَقَهم وعده، وأورثهم الجنَّة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 33 – 34].

وآخر دعواهم في جنَّات النَّعيم الحمد لله رب العالمين: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وآخر دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10].

إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يربِّي أصحابه على السَّعي لمرضاة الله تعالى حتى يدخلهم جنَّاته العظيمة، فكان يصف لهم الجنَّات من خلال المنهج القرآنيّ، حتَّى لكأنَّ الصَّحابي يرى الجنَّة معروضةً أمامه في تلك اللحظة، وينفعل بها كأنَّه يراها في عالم العيان بالفعل، وليست أمراً يتصوَّر حدوثه في المستقبل، وهذا من الإعجاز البياني في التعبير القرآني إلى حدِّ تصبح الآخرة – التي لم تأت بعد – كأنَّها الحاضر الَّذي يعيشه الإنسان، ويصبح الحاضر الَّذي يعيشه بالفعل كأنَّه ماضٍ سحيقٌ تفصله عن الإنسان امادٌ، وأبعاد[1].

إنَّ التَّصوُّر البديع للجنان، والاعتقاد الجازم بها، مهمٌّ في نهضة أمَّتنا، فعندما تُحْيَا صورة

---

[1] انظر: دراسات قرآنيَّة، لمحمَّد قطب، ص 81.

الجنان في نفوس أفراد الأمَّة، فإنَّهم سيندفعون لمرضاة الله تعالى، ويُقدِّمون الغالي، والنَّفيس، ويتخلَّصون من الوَهَن، وكراهة الموت، وتتفجَّر في نفوسهم طاقاتٌ هائلةٌ تمدُّهم بعزيمةٍ، وإصرارٍ، ومثابرةٍ على إعزاز دين الله، وقد لاحظت في المعارك الفاصلة، والانتصارات العظيمة؛ التي حقَّقتها الأمَّة في تاريخها المجيد من أسبابها الواضحة حبُّ القادة، والجنود المقاتلين للشَّهادة في سبيل الله، والشَّوق لجنانه، وتعبُّدهم لله بفريضة الجهاد، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ، كمعركة الزلاَّقة الَّتي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على النَّصارى في الأندلس، وكمعركة حطِّين بقيادة صلاح الدِّين، وعين جالوت بقيادة قطز، وكفتح القسطنطينية بقيادة محمَّد الفاتح.

خامساً: وصف النَّار في القرآن الكريم، وأثره في نفوس الصَّحابة:

كان الصَّحابة يخافون الله تعالى، ويخشونه، ويرجونه، وكان لتربية الرَّسول صلى الله عليه وسلم أثرٌ في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآنيُّ الَّذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل الأفاعيل في نفوس الصَّحابة؛ لأنَّ القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة، ومعالمها من قبض الأرض ودكِّها، وطيِّ السَّماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار، وتسجيرها، ومَوْرِ السماء، وانفطارها، وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النُّجوم، وصوَّر القرآن الكريم حال الكفَّار، وذلَّتهم، وهوانهم، وحسرتهم، ويأسهم، وإحباط أعمالهم، وتخاصم العابدين والمعبودين، وتخاصم الأتباع وقادة الضَّلالة، وتخاصم الضعفاء والسَّادة، وتخاصم الكافر وقرينه الشَّيطان، ومخاصمة الكافر أعضاءه، وتخاصم الرُّوح والجسد، وتحدَّث القرآن الكريم عن الشَّفاعة، وبيَّن شروطها، والمقبول منها، والمرفوض، والمراد بالحساب والجزاء، وعن مشهد الحساب، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟

وتحدَّث القرآن الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة، وبين المولى - عزَّ وجلَّ - في القرآن الكريم عظم شأن الدِّماء، وبين: أنَّ هناك يوم القيامة توضع الموازين الَّتي توزن بها الأعمال، وأخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الحوض، ومَنِ الَّذين يردون على الحوض، والَّذين يُذادون عنه، وتحدَّث القرآن الكريم عن حشر الكفَّار إلى النَّار، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصِّراط، وخلاص المؤمنين وحدهم[1].

---

[1] انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص 402.

وقد كان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصَّحابة، وصوَّر القرآن الكريم ألوان العذاب في النَّار، فأصبح الرَّعيل الأوَّل يراها رأيَ العين، ومن حديث القرآن عن النَّار بيانه لكلٍّ من:

1 – طعام أهل النَّار وشرابهم ولباسهم:

أ – بيَّن القرآن الكريم: أنَّ من طعام أهل النَّار الضَّريع، والزقُّوم، وأنَّ شرابهم الحميم، والغسلين، والغسَّاق، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ *لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: 6 – 7]، وأكلهم لهذا الطَّعام هو نوعٌ من أنواع العذاب؛ فهم لا يتلذَّذون به، ولا تنتفع به أجسادهم.

أمَّا الزَّقُّوم؛ فقال تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ *طَعَامُ الأَثِيمِ *كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ *كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: 43 – 46] . وقد وصف الله شجرة الزَّقوم في موضعٍ آخر، فقال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ *إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ *إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ *طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: 62 – 65] وقال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقرآنِ﴾ [الإسراء: 60].

وقال في موضعٍ آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ *لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ *فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ *فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ [الواقعة: 51 – 55]، ويؤخذ من هذه الآيات: أنَّ هذه الشَّجرة شجرةٌ خبيثةٌ، جذورها تضرب في قعر النَّار، وفروعها تمتدُّ في أرجائها، وثمر هذه الشَّجرة قبيح المنظر: لذلك شبِّه برؤوس الشَّياطين، وقد استقرَّ في النُّفوس قبح رؤوسهم – وإن كانوا لا يروهم – ومع خبث هذه الشَّجرة، وخبث طلعها إلا أنَّ أهل النَّار يُلقَى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرّاً من الأكل منها، إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم؛ أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي عكر الزَّيت، فيجدون لذلك الاماً مبرحةً، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ؛ اندفعوا إلى الحميم – وهو الماء الحارُّ الَّذي تناهى حرُّه – فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب، وتشرب، ولا تروى لمرضٍ أصابها، وعند ذلك يقطِّع الحميمُ أمعاءهم: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: 15] هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم[1].

وإذا أكل أهل النَّار هذا الطَّعام الخبيث من الضَّريع، والزَّقُّوم؛ غَصُّوا به؛ لقبحه، وخبثه،

---

[1] انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص 88.

وفساده: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: 12 – 13].

ومن طعام أهل النَّـار الغسلينُ، قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ *وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ﴾ [الحاقة: 35 – 37]، وقـال الله تعالـى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّـاقٌ ﴾ [ص: 57]، والغسـلين، والغسَّـاق بمعنىً واحدٍ، وهو ما سـال من جلود أهل النَّار من القيح والصَّـديد، وقيل: هو ما يسـيل من فروج النِّسـاء الزَّواني، ومن نتن لحوم الكفرة، وجلودهم وقال القرطبيُّ: «هو عصارة أهل النَّار»(1).

ب – أمَّا شرابهم فهو الحميم، والغسَّاق، والمهل، والصديد. قال الله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾، [محمد: 15].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: 29].

وقال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْـقَى مِنْ مَاءٍ صَـدِيدٍ *يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِـيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: 16 – 17]

وقال: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: 57].

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شـــراب أهل النَّار، هي: الحميم، وهو الماء الحار؛ الَّذي تناهى حرُّه؛ والغسَّـــاق، وقد مضـــى الحديث عنه، فإنَّه يذكر في مأكول أهل النَّار ومشـروبهم؛ والصَّـديد، وهو ما يسـيل من لحم الكافر، وجلده؛ والمهل، وهو كعكر الزَّيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه(2).

ج – لباس أهل النَّار:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْـفَادِ *سَـرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَـى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: 49 – 50]، والقطران هو النُّحاس المذاب.

2 – صور من عذاب أهل النَّار:

أ – تفاوت عذاب أهل النَّار:

(1) يقظة أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار ، لصديق حسن ، ص 86.

(2) اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، ص 90.

قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46] .

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88] .

وقد حدَّث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن أخفِّ الناس عذاباً، فقال فيه: «إن أهون أهل النَّار عذاباً يوم القيامة، لَرجلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرةٌ يغلي منها دِماغُه» [البخاري (6561 و6562) ومسلم (213)].

ب – حشرهم على وجوههم، ولفح النَّار لهم:

ومن إهانة الله لأهل النَّار: أنَّهم يُحشرون في يوم القيامة على وجوههم، عُمْياً، وصُمّاً وبُكماً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[الإسراء: 97].

ويلقون في النَّار على وجوههم: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 90].

ثمَّ إنَّ النَّار تلفح وجوههم، وتغشاها أبداً، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: 104] .

ج – السَّحْب:

ومن أنواع العذاب الأليم، سحب الكفار في النَّار على وجوههم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ *يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 47 – 48]، ويزيد في الامهم – حال سحبهم في النَّار – أنَّهم مقيَّدون بالقيود، والأغلال، والسَّلاسل: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ *فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: 70 – 72].

د – تسويد الوجوه:

يســـوّدِ الله في الدّار الآخرة وجوهَ أهل النار بســـوادٍ شـــديدٍ، كأنّما حلّت ظلمة الليل في وجوههم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 27] .

هـ إحاطة النّار بالكفّار:

لــمَّا كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السِّوار بالْمِعْصَم، وكان الجزاء من جنس العمل، فإنَّ النار تحيط بالكفار من كلِّ جهةٍ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: 41]، والمهاد: ما يكون من تحتهم، والغواش: جمع غاشية، وهي الَّتي تغشاهم من فوقهم، والمراد: أنَّ النِّيران تحيط بهم من فوقهم، ومن تحتهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: 55] .

وقال في موضـــعٍ آخر: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: 16] .

وقد صــرَّح بالإحاطة في موضــعٍ آخر، وذلك أنَّ للنَّار سُـوراً يحيط بالكفَّار، فلا يســتطيع الكفار مغادرتها، أو الخروج منها، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُـرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْـتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْـوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّـرَابُ وَسَـاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف: 29]، وســرادق النَّار: ســورها، وحائطها الَّذي يحيط بها[1].

و – اطِّلاع النَّار على الأفئدة:

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: 4 – 7].

ز – قيود أهل النَّار، وأغلالهم، وسلاسلهم:

أعدَّ الله لأهل النَّار ســـلاســـلَ وقيوداً ومطارقَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَـــلاَسِـــلَ وَأَغْلاَلاً

---

[1] انظر: اليوم الاخر في الجنّة والنّار ، ص 102.

وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4]، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: 12 – 13]، وهذه الأغلال تُوضع في الأعناق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 33]، ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: 71]، والأنكال: هي القيود، وقد سمِّيت أنكالاً؛ لأنَّه يعذبهم، ويُنكِّل بهم بها ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا ﴾ [المزمل: 12]، والسَّلاسل نوعٌ آخر من ألوان العذاب الَّتي يُقيَّد بها المجرمون، كما يُقيَّد المجرمون في الدُّنيا.

وانظر إلى هذه الصُّورة الَّتي أخبر بها الكتاب الكريم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[الحاقة: 30 – 32] .

ح – قَرْنُ معبوداتهم وشياطينهم في النَّار:

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ *لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: 98 – 99].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ *وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: 36 – 39] .

خ – حسرتهم، وندمهم، ودعاؤهم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: 54] .

وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره، وشركه الَّذي يؤهِّله للخلود في النَّار؛ فإنَّه يدعو على نفسه بالثُّبور، والهلاك: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا *وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ [الإنشقاق: 10 – 12]، ويتكرَّر دعاؤهم بالويل، والهلاك عندما يُلقَوْن في النار، ويَصْلَوْن حرَّها: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: 13 – 14].

وهناك يعلو صــراخهم، ويشــتدُّ عويلهم، ويدعون ربَّهم املين أن يخرجهم من النَّار: ﴿وَهُمْ يَصْــطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أخرجنا نَعْمَلْ صَــالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[فاطر: 37] .

وسيعترفون في ذلك الوقت بضلالهم، وكفرهم، وقلَّة عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: 10]، ولكن طلبهم يرفض بشــــدَّة، ويجابون بما يستحقُّ أن تجاب به الأنعام: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ *رَبَّنَا أخرجنا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ *قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: 106، 108].

لقد حقَّ عليهم القول، وصــاروا إلى المصــير الَّذي لا ينفع معه دعاءٌ، ولا يُقبل فيه رجاءٌ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ *وَلَوْ شِــئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *فَذُوقُوا بِمَا نَسِــيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِــينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 12 – 14].

ويتوجَّه أهل النَّار بعد ذلك النِّداء إلى خزنة النَّار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم؛ كي يخفف الله عنهم شــيئاً ممَّا يعانونه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ *قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر: 49 – 50] .

وعند ذلك ينادون مالكاً، طالبين منه أن يقبض الله أرواحهم، فيريحهم من العذاب: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ *لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف: 77 – 78] .

لقد خســر هؤلاء الظَّالمون أنفســهم، وأهليهم عندما اسـتحبُّوا الكفر على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِــرِينَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَــهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْــرَانُ الْمُبِينُ ﴾[الزمر: 15] .

كان القرآن المكيُّ يربِّي المسلم على الخوف من عقاب الله، ويبيِّن للصَّحابة: أنَّ العذاب في الآخرة حسِّــيٌّ ومعنويٌّ، وفي خطاب القرآن، وتوضـيح النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم للصَّـحابة حقيقةَ النَّار ما يجعل الصَّحابيَّ يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه، فكان الصَّحابي يستحضر

في مخيّلته صورة الجنان، والنِّيران، ويستعدُّ للموت الَّذي هو اتٍ لا محالة، وأنَّه سوف يُسأل في وَحْدَته لا محالة، وأنَّ القبر إمَّا روضةٌ من رياض الجنَّة، أو حفرةٌ من حفر النِّيران، فالصَّحابي حين يستحضر في نفسه كلَّ هذا؛ فإنَّ قلبه يستشعر خوف الله – عزَّ وجلَّ – ومراقبته في السِّرِّ والعلن بل يندفع بكلِّيته إلى العمل الصَّالح من دعوةٍ وجهادٍ، والسَّعي لإقامة دولةٍ تحكم بشرع الله – عزَّ وجلَّ – وصناعة حضارةٍ تنقذ البشرية من ضياعها، وانحرافها عن شرع الله تعالى، ويدعو الله في خلواته، وفي سرِّه، وجهره أن يكرمه الله برفقة النَّبيين والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

إنَّ هذا التَّصوُّر والفهم العميق لحقيقة الآخرة وحقيقة الجنَّة والنَّار، له أثره على العاملين لنهضة الأمَّة، واستعادة مجدها، وعزَّتها، وكرامتها، وهو أصلٌ عظيمٌ في بناء التَّصوُّر العقديّ لأفراد الأمَّة، سار على نهجه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك لابدَّ لنا من السَّير على الطَّريق نفسه.

سادساً: مفهوم القضاء والقدر، وأثره في تربية الصَّحابة رضي الله عنهم:

اهتمَّ القرآن الكريم في الفترة المكِّيَّة بقضية القضاء والقدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] ، وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: 2]، وكان صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس الصَّحابة مفهوم القضاء والقدر، ويُبيِّن لهم مراتبه من خلال القرآن الكريم، وهي:

المرتبة الأولى: علم الله المحيط بكلِّ شيءٍ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قرآن وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس: 61] .

المرتبة الثَّانية: كتابة كلِّ شيءٍ كائن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس: 12] .

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النَّافذة، وقدرته التَّامَّة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ

وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: 44] .

المرتبة الرابعة: خَلْقُ الله لكلِّ شـــيءٍ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَـــيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: 102] .

كان للفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلوب الصَّحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمارٌ نافعةٌ ومفيدةٌ، عادت عليهم بخيرات الدُّنيا والآخرة؛ فمن تلك الثمرات:

1 – أداء عبادة الله عزَّ وجلَّ؛ فالقدر ممَّا تَعَبَّدَ الله – سبحانه وتعالى – الأمَّة بالإيمان به.

2ـــ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشِّرْك؛ لأنَّ المؤمن يعتقد: أنَّ النَّافع والضَّار، والمعزَّ، والمذلَّ، والرافع، والخافض، هو الله وحده سبحانه وتعالى.

3 – الشَّجاعة والإقدام: فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون: أنَّ الاجال بيد الله تعالى، وأنَّ لكل نفسٍ كتاباً.

4 – الصَّبر والاحتساب، ومواجهة الصِّعاب.

5 – ســـكون القلب، وطُمَأْنِينَـــــةُ النَّفس، وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدفٌ منشودٌ، فكلُّ مَنْ على وجه البسيطة يبتغيها، ويبحث عنها، فقد كان عن الصَّـــحابة من ســـكون القلب، وطُمأْنِينَة النَّفس ما لا يخطر على بالٍ، ولا يدور حول ما يشبهه خيالٌ، فلهم في ذلك الشَّأن القِدْحُ المعَلَّى (النَّصيب الوافر) والنَّصيب الأوفى.

6 – عزَّة النَّفس والقناعة والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين: فالمؤمن بالقدر يعلم: أنَّ رزقه بيد الله، ويدرك أنَّ الله كافيه وحســـبه ورازقه، وأنَّه لن يموت حتَّى يســـتوفي رزقه، وأنَّ العباد مهما حاولوا إيصال الرِّزق له، أو منعه عنه؛ فلن يستطيعوا إلا بشيءٍ قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة، وعزَّة النَّفس، والإجمال في الطَّلب، وترك التكالب على الدُّنيا، والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين، وقطع الطَّمع ممَّا في أيديهم، والتوجُّه بالقلب إلى ربِّ العالمين.

إنَّ ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرةٌ، وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرَّسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان السِّتَّة المتقدِّمة؛ بل صـحَّح عندهم كثيراً من المفاهيم والتَّصـوُّرات، والاعتقادات عن الإنسـان، والحياة، والكون، والعلاقة بينهما؛ ليسير المسلم على نورٍ من الله، ويدرك هدف وجوده في الحياة، ويحقِّق

ما أراد الله منه غاية التَّحقيق، ويتحرَّر من الوهم والخرافات[1].

سابعاً: معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان:

إنَّ القرآن الكريم عرَّف الإنســان بنفســه، بعد أن عرَّفه بربِّه، وباليوم الآخر، وأجاب على تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كلِّ إنسان سَوِيٍّ، وتلحُّ في طلب الجواب[2].

وبيَّن القرآن الكريم للصَّحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانيَّة، وأصولهم الَّتي يرجعون إليها، وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وما هو مصيرهم بعد الموت؟

تعرَّف الصَّحابة بواسطة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ومنهجه القرآني على الأصل الإنسانيِّ الَّذي هو الماء والتُّراب – أي: الطِّين – وبسلالته الَّتي هي الماء المهين، أو النطفة، كما عرَّفه بمكانته، وكرامته عند ربِّه؛ حيث أسجد له الملائكة، وأعلى كرامتَه، وتفضيلَه على كثيرٍ من الخلق؛ ليقف الإنسان وسطاً بين هذين الحدَّين: الأدنى، والأعلى، فبمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزاً، وبأصله وسلالته يتواضع مُعَظِّمَاً شأنَ من أنشأه من ذلك الأصل، وأوصله إلى تلك المكانة العالية، فينجو بذلك من العُجْبِ والكبر، والغرور، كما يمنعه عزُّه وكرامته من التذلُّل لغير الله تعالى، والإنسان لو تركه الإله دون هدىً؛ لعانى الكثير من سوء الفهم للنَّفس، بل إنَّ عدداً من النَّاس قد يعانون ذلك لسببٍ ما؛ كالإفراط في الثِّقة بنظرتهم الخاصَّة إلى أنفسهم؛ الَّتي قد تؤدِّي إلى الغرور، والتَّعالي، وإمَّا إلى الهوان والتَّدنِّي[3].

إنَّ نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثِّرات في تربيته، وما زال الإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه، يميل إلى جانب الإفراط حيناً؛ فيرى أنَّه أكبر، وأعظم كائنٍ في العالم، فينادي بذلك وقد امتلأ أنانيةً، وغطرسةً، وكبرياء كما نادى قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: 15] وكما نادى فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى

---

(1) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة الإسلامية ، ص 59.

(2) انظر: منهج التَّربية الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب (54/2).

(3) أساليب التشويق في القران ، د. الحسين جلو ، ص 134.

﴾ [النازعات: 24]، ويربأ بنفسه – أي: الإنسان – أن يعتقد أنَّه مسؤولٌ أمام أحدٍ، ويتحوَّل إلى متألِّهٍ، ويميل حيناً آخر إلى جانبٍ معاكسٍ هو التَّفريط؛ فيظن أنَّه أدنى، أو أرذل كائنٍ في العالم، فَيُطَأْطِىء رأسه أمام شجرٍ، أو حجرٍ، أو نهرٍ، أو جبلٍ، أو أمام حيوان؛ بحيث لا يرى السَّلامة إلا أن يسجد للشَّمس أو للقمر[1].

وقد بيَّن القرآن الكريم بوضوحٍ: أنَّ «حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد، وهو الخلقة الأولى من طينٍ، حين سوَّاه، ونفخ فيه الرُّوح، والأصل القريب المستمرُّ، وهو خلقه من نطفةٍ»[2]، وقال الله تعالى في ذلك عن نفسه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ *ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 7 – 9]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

وتحدَّث القرآن الكريم عن تكريم الله تعالى للإنسان، وكان لذلك الحديث أثره في نفوس، وعقول، وقلوب الرَّعيل الأوَّل؛ فقد بَيَّن لهم القرآن الكريم صوراً عديدةً لتكريم الإنسان؛ منها:

1 – اختصَّ الله الإنسان بأن خلقه بيديه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: 71 – 75]

فبيَّن لهم علوَّ مكانة الرُّوح الَّتي حلَّت في الإنسان، وأنَّ لها منزلةً ساميةً، وكرَّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الَّذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق – جلَّ شأنه – تكريم هذا الإنسان بقوله عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11].

2 – الصُّورة الحسنة، والقامة المعتدلة:

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: 4]، وقال – عزَّ وجل –: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الإنفطار: 7] .

---

[1] انظر: أصول التَّربية للنَّحلاوي، ص 31.

[2] انظر: أساليب التَّشويق والتَّعزير، ص 134.

3 – ومنحه العقل، والنطق، والتمييز:

قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَانُ *عَلَّمَ الْقرآن *خَلَقَ الإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: 1 – 4].

4 – وسخَّر الله تعالى للإنسان مافي السَّماء والأرض:

بعد أن خلق الله تعالى الإنسان، أكرمه بالنِّعم العظيمة التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: 34].

لقد سخَّر الله – عزَّ وجل – للإنسان – تكريماً له – ملكوتَ السَّموات؛ بما تشتمل عليه من نجومٍ، وشموسٍ، وأقمار، وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان؛ من تعاقب اللَّيل والنَّهار، واختلافٍ في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: 12] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 13] .

5 – وكرَّم الله تعالى الإنسان بتفضيله على كثيرٍ من خلقه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدم وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: 70].

6 – وكرَّم الله تعالى الإنسان بإرسال الرُّسل إليه:

ومن أجلِّ مظاهر التكريم من المولى سبحانه للإنسان أن أرسل الرُّسل لهداية الخلق،ودعاهم لما يحييهم، وضمن لهم الفوز في الدُّنيا والآخرة، فكان من أعظم النِّعم الَّتي أنعم الله بها على الإنسان تكريماً له نعمةُ الإسلامِ، ونعمةُ الإيمان، ونعمةُ الإحسان، وأنْ هدانا الله إليها، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ [طه: 123]، وقال: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: 158].

ومن مظاهر هذا التَّكريم الَّذي شعر به الصَّحابة رضي الله عنهم، حصرُ مظاهر شرف الإنسان في العبوديَّةِ لله وحده، وتحريره من عبادة الأصنام، والأوثان، والبشر: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36].

7 – حبُّ الله للإنسان، وذكره في الملأ الأعلى:

من أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان أنْ جعله أهلاً لحبِّه ورضاه، وأرشده في القرآن الكريم إلى ما يجعله خليقاً بهذا الحبِّ، وأوَّل ذلك اتِّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما دعا النَّاس إليه؛ كي يحيوا حياةً طيِّبةً في الدُّنيا، ويظفروا بالنَّعيم المقيم في الآخرة، وقد أشار المولى – عزَّ وجلَّ – إلى ثمرة هذا الاتِّباع، وما أحلاها من ثمرة! ألا وهي التَّمتُّع بخيري الدُّنيا والآخرة! قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] .

8 – حفظ الإنسان ورعايته:

ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله – عزَّ وجلَّ – وحفظه من السُّوء.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الإنفطار: 10]، وسخَّر له الملائكة لحفظه: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4]، وصورُ التَّكريم للإنسان كثيرةٌ في القرآن الكريم[1].

ثامناً: تصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لقصَّة الشَّيطان مع آدم عليه السلام:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنهج القرآنيّ، يحدثهم عن قصَّة الشَّيطان مع آدم، ويشرح لهم حقيقة الصِّراع بين الإنسان مع عدوِّه اللَّدود، الَّذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام من خلال الآيات الكريمة؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدم لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أخرج أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ *ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 14 – 17].

---

[1] انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم (1136/4 ، 1142).

كان الشَّـيطان يتجسَّـم في حسِّ الرَّعيل الأوَّل مرئيّاً مشـهوداً، يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، يوسـوس لهم بالمعصـية، ويسـتثير فيهم كوامن الشَّـهوات، فكانوا يحاولون أن يكونوا دائماً منتبهين من عدوِّهم، وكانوا يسـارعون في الخيرات؛ ليضـيِّقوا مسالك الشَّيطان ويسدُّوها، فلا يجد له مسلكاً إليهم: حتَّى فيما هو أخفى من دبيب النَّمل[1]، وقد تعلَّموا ذلك بعد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقرآن فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الرَّجِيمِ *إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُـلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *إِنَّمَا سُـلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 98 – 100].

جاءت قصَّـة آدم – عليه السَّـلام – مع الشَّـيطان في القرآن الكريم في أكثر من موضـع؛ فأحياناً تجيء بكلِّ تفصيلاتها – كما في سورة الأعراف – وأحياناً تجيء ببعض التَّفصيلات – كما في سورة الحِجْر، والإسراء، وطه، وص – وأحياناً تجيء في صورة إشارةٍ عابرةٍ، وهذا كثيرٌ جدّاً في القرآن، وتنفرد سـورة إبراهيم بذكر موقف الشَّـيطان يوم القيامة من بني آدم، الَّذين استجابوا له في الدُّنيا، وتنصُّله الكامل من تبعتهم – كما في الآية الثانية والعشرين –[2].

قال الله تعالى في سـورة الأعراف: ﴿وَيَاآدم اسْـكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِـحِينَ *فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَـمَّا ذَاقَا الشَّـجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *يَابَنِي آدم قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًـا يُوَارِي سَـوْآتِكُمْ وَرِيشًـا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيات اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ *يَابَنِي آدم لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أخرج أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 19 – 27] .

---

(1) انظر: واقعنا المعاصر، ص 46.

(2) انظر: دراسات قرانيَّة، ص 112.

إنَّ ممَّا يهمُّ الإنسان أن يعرف تاريخه؛ ليعتبر به، لا ليتسلَّى، وقصَّة آدم مع الشَّيطان قصةٌ لها دَلالاتها الخاصَّة بين القصص القرآنيّ كله، فهي تحدِّد للبشر، مبدأهم ومنتهاهم، ودورهم في الأرض، وخطَّة سيرهم فيها، والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم، وطريقة تجنُّب هذه العقبات وتخطِّيها[1].

كانت الآيات الكريمة الَّتي تحدَّثت عن قصَّة آدم، وصراعه مع الشَّيطان قد علَّمت الرَّعيل الأوَّل قضايا مهمَّةً في مجال التَّصوُّر والاعتقاد، والأخلاق؛ ومنها:

1 – إنَّ آدم هو أصل البشر:

إنَّ آدم عليه السلام هو أصل البشر؛ فقد خلقه الله تعالى من طينٍ على صورته البشريَّة الكاملة الَّتي لم تأتِ عن طريق التدرُّج عن نوعٍ من أنواع المخلوقات، أو عن صورةٍ أو هيئةٍ أخرى، فالله تعالى خلق آدم من طينٍ، ثمَّ نفخ فيه الرُّوح، فصار بشراً سوياً من لحمٍ، ودمٍ بكامل هيئته، وصورته الإنسانيَّة.

2 – جوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله تعالى:

أمر الله تعالى الملائكة بالسُّجود لآدم، فسجدوا له سجود تحيَّةٍ، وتكريمٍ، وتعظيمٍ، واعترافٍ بفضله، وطاعةً لله ربِّ العالمين دون تردُّدٍ، ولا اعتراضٍ، مع أنَّهم في الملأ الأعلى، وهم في حال تسبيحٍ، وتقديسٍ، وعبادةٍ مستمرَّةٍ لله ربِّ العالمين، وقبل أن يصدر من آدم أي نوعٍ من العبادة ترجح على عبادتهم، وإنَّما كانت مبادرة الملائكة إلى السُّجود لآدم، والحال كما وصفنا؛ لأنَّ الأمر لهم بالسُّجود لآدم صادر من الله ربِّ العالمين، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً بدون تردُّدٍ، ولا اعتراضٍ، ولا توقفٍ في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر، وهذا هو جوهر الإسلام، وهذا هو شأن المسلم: يسارع إلى طاعة ربِّه، والامتثال لأمره بدون تردُّدٍ، ولا اعتراضٍ، ولا تعليقٍ لهذه الطَّاعة على شيءٍ آخر من معرفة سبب الأمر، أو معرفة حكمته، أو موافقته لعقله، وهواه.

3 – قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة:

تعلَّم الصَّحابة من قصَّة وقوع آدم في الخطيئة: أنَّ الإنسان له قابليةٌ للوقوع في المعصية، وأنَّ هذه القابلية متأتِّيةٌ من طبيعة الإنسان، فقد خلقه الله تعالى على طبيعةٍ تجعل وقوعه في الخطيئة

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 114.

أمراً ممكناً؛ لما في طبيعته، وما جبله الله عليه من ميولٍ ورغباتٍ، وغرائز – هي جوانب الضَّعف في الإنسان – والَّتي من خلالها ينفذ الشَّيطان بوساوسه إليه، ويزيّن له الوقوع في الخطيئة، فمن غرائز الإنسان الكامنة فيه: أنَّه يحبُّ أن يكون خالداً لا يموت، أو معمِّراً أجلاً طويلاً كالخلود، يحبُّ أن يكون له ملكٌ غير محدَّدٍ بالعمر القصير[1]، فجاء إبليس إلى آدم عليه السلام من هذه الغريزة، فقال له، ولزوجته: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: 20]، وأكَّد لهما ادِّعاءه بالحلف بالله بأنَّه لهما لمن النَّاصحين.

وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول، والرَّغبات، بل لابدَّ للمسلم من أن يضبطها، ويكبح جماحها، ويجعلها تابعةً لأحكام الشَّرع الحنيف، وهذه الميول، والغرائز، والرَّغبات هي ما تهواه النَّفس، وغالباً ما تكون منفلتةً، ومتجاوزةً حدودها، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشَّرع، ولذلك يأتي ذمُّ (الهوى)، ويراد به ما تهواه النفس من أمرٍ مذمومٍ. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: 40 – 41]، فقد أطلق الهوى، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى؛ لأنَّه ينصرف عند الإطلاق إلى ما هو مذموم[2].

4 – خطيئةُ آدم تُعلِّم المسلمَ ضرورة التَّوكُّل على ربِّه:

إنَّ خطيئة آدم عليه السلام تظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة، وتثير الخوف، والفزع في النُّفوس، وبالتالي تزيد من تَوَكُّل المسلم على ربِّه، واعتماده عليه؛ ليكفيه شرَّ الشَّيطان الرَّجيم، وبيان ذلك: أنَّ الله تعالى أَسْجَدَ الملائكة لآدم إظهاراً لفضله، وعلوِّ منزلته عند ربِّه، وطَرَد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السُّجود له، وأسكنه وزوجه في الجنَّة، وأمره بالأمر الصَّريح بعدم الاقتراب من شجرةٍ معيَّنةٍ وأباح له ما عداها من نعيم الجنَّة، وثمارها، قال تعالى: ﴿وَيَاآدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

وحذَّرهما من الشَّيطان، ومن خداعه وكيده؛ لئلا يخرجهما من الجنَّة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى *فَقُلْنَا ياآدم إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: 116 – 117] ومع هذا كلِّه فإنَّ الشَّيطان استزلَّهما، وغرَّهما،

---

[1] انظر: في ظلال القران (1269/3).

[2] انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة ، د. عبد الكريم زيدان (28/1).

فأكلا من الشَّجرة، ووقعا في المعصية فأخرجهما ممَّا كانا فيه.

إنَّ خطيئة آدم عليه السلام آثارت في نفوس الصَّحابة الكرام الخوف، والفزع من هذا العدوِّ الخبيث، وهذا الخوف من الشَّيطان، وإغوائه دفعهم إلى الالتجاء الدَّائم إلى الله تعالى، والتَّوكُّل عليه، والاستعانة به على هذا الشَّيطان الرَّجيم، الَّذي لا همَّ له إلا إغواءُ الإنسان، وجرُّه إلى الخطيئة، وهذا هو الَّذي فهموه من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 65]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 99]؛ فلا تأثير، ولا قدرة للشَّيطان على إغواء الَّذين امنوا بالله إيماناً عميقاً؛ لأنَّ الله تعالى قد وجَّهَ قلوبهم إليه سبحانه، وحرَّكَ جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشَّيطان على هؤلاء من سلطانٍ، فهم يحاربون أمانيه الباطلة، ويهدمون ما يُلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النُّور الكاشف عن مكره، والتَّوكُّل عليه يفيدهم التقوية بالله؛ فيضعف الشَّيطان، وينخذل أمام قوَّة الإيمان بالله والتَّوكُّل عليه[1].

5 – ضرورة التَّوبة والاستغفار:

تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من هذه القصَّة ضرورة التَّوبة، والاستغفار عند الوقوع في الذَّنب أو المعصية، فقد سارع آدم وزوجه إلى المغفرة وطلب الرَّحمة من ربِّهم الكريم عندما وقعوا في المعصية: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف: 22 – 23] فهذا اعترافٌ بالذَّنب سريعٌ، مقرونٌ بندمٍ شديدٍ، فندمٌ من قوله تعالى: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، وتوبةٌ خالصةٌ مقرونةٌ برجاء قبولها؛ لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين، وهذا يفهم من قولهما: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التَّوبة، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوِّ منزلتهما؛ فغيرهما أولى بذلك[2].

6 – الاحتراز من الحسد، والكِبْر:

إنَّ إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد، والكِبْر، فكان بدء الذُّنوب الكِبْر، استكبر

---

[1] انظر: المستفاد من قصص القران (71/1).

[2] المصدر السابق نفسه ، (30/1).

إبليس أن يمتثل لأمر ربّه بالسُّجود لآدم، ولهذا جاء التَّحذير من الكِبْر، والوعيد للمُتكبّرين، قال صلى الله عليه وسلم : «لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ» [أحمد (399/1 و451) ومسلم (91) وأبو داود (4091) والترمذي (1999) وابن ماجه (59)] .

وحقيقة الكبر: بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس.

وبطر الحقّ: ردُّه ودفعه، وعدم الخضـوع له، وعدم الانقياد له؛ استـخفافاً به، وترفُّعاً عليه، وعناداً له.

وغمط النَّاس: احتقارهم، والازدراء بهم[1].

ومن أعظم مظاهر بطر الحقِّ رفضُ أوامر الله، والتَّمرُّد عليها؛ لأنَّ ما يأمر به الله هو الحقُّ، فالتَّمرُّد على هذا الحقِّ، ودفعه يمثِّل حقيقة الكِبْر، فكان الصَّحابة رضي الله عنهم أبْعَدَ خلق الله تعالى عن جراثيم الحسـد والكِبْر، والابتعاد عن الحديث عن النَّفس وتزكيتها، وقد شـعروا بخطورة ذلك من قوله تعالى:؛ لأنَّ فيها معنى ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، والله قـال لهم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: 32]، وتعلَّموا: أنَّه لا فخر بالأصل والنَّسب؛ وإنَّما بالتَّقوى، والطَّاعات والخيرات؛ ابتغاء ربِّ الأرض والسَّموات؛ لأنَّ إبليس افتخر بسبب أصله ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: 12] .

7 – إبليس هو العدوُّ لآدم وزوجه وذريتهما:

تعلَّم الصَّحابة من القرآن المكِّيِّ: أنَّ إبليس هو عدوُّهم الأوَّل؛ لأنَّه بسـبب امتناعه عن السُّـجود لأبيهم آدم طرده الله من رحمته، ولعنه، فأصـبح عدوّاً لآدم، وزوجه وذرِّيَّته قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 43]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ آخرتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 62].

وقد أعلن إبليس عزمه وتصـميمه على إضـلال بني آدم، وإغوائهم، وطلب من الله تعالى إمهاله، وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم، وصـمَّم عليه، ممَّا يدلُّ على شـدَّة عداوته لآدم، وبنيه.

قال تعالى حكاية عن قول إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

---

(1) المستفاد من قصص القران (33/1).

الْمُنْظَرِينَ *إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: 36 – 40].

لقد أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال المنهج القرآنيّ: أنَّ طبيعة علاقة الشَّيطان بالبشر هي العداوة، ولا يمكن تبديلها، ولا تغييرها، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما لإزالة هذه العداوة؛ لأنَّ الشَّيطان لا همَّ له، ولا عمل، ولا غرض في حياته، سوى إضلال الإنسان، ودفعه إلى معصية الله، بواسطة تزيين الذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 43].

وقال تعالى حكايةً عمَّا قاله الهدهد لسليمان عليه السلام بشأن ملكة سبأ: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: 24] وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم: أي: حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عن طريق التَّوحيد[1]، ومن هذا الباب، وبهذا الأسلوب – أسلوب التَّزيين – يزيّن الشَّيطان البدع في الدِّين في أعين المبتدعين[2].

ولذلك جعل الصَّحابةُ إبليسَ عدوَّهم الأكبر، وامتثلوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 6] فعادوه، ولم يطيعوه، واحترزوا منه، وحذَّروا منه النَّاس.

8 – التَّخاطب بأحسن الكلام بين الصَّحابة الكرام:

من الوسائل التي استخدمها الصَّحابة الكرام لمحاربة الشَّيطان امتثالُهم قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ [الإسراء: 53]، لقد أمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، أن يأمر المؤمنين بأن يقولوا في مخاطباتهم، ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطَّيِّبة؛ لأنَّهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم؛ أي: أفسد فيما بينهم، وهيَّج الشَّرَّ، والمِراء؛ لتقع بينهم العداوة والبغضاء: أي: شديد العداوة للإنسان؛ ولذلك فهو ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً ﴾ يريد إلا الشَّرَّ لهم، والعداوة فيما بينهم.

---

(1) تفسير القرطبي (185/12).

(2) انظر: المستفاد من قصص القران (51/1).

وقد تربَّى الصَّحابة الكرام على خُلُقٍ رفيعٍ وأسلوبٍ جميلٍ في معاملة النَّاس من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ *وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ *وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: 96 – 98]، وقوله تعالى: أي: بالخَلَّة الَّتي هي أحسن الخِلال؛ أي: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ومكارم الأخلاق، ادفع إساءة من يسيء إليك، فبهذا تعود عداوته صداقة، وبغضه محبَّة[1]، وقوله تعالى: أي: أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشُّرور ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾، والصَّدِّ عن الحق؛ لأنَّ الشَّياطين لا ينفع معهم شيءٌ، ولا ينقادون بالمعروف[2]، أي: أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأنٍ من شؤوني أو في شيءٍ من ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾، ولهذا أمر الشَّرع بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطرد الشَّيطان.

وقال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 34 – 36]، وقوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: مَنْ أساء إليك فادفعه عنك إليه.

وقوله تعالى: كأنَّه وليٌّ؛ أي: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾، أو قريب. (حميم): أي: شديد الولاء. ومعنى ذلك: أنَّك إذا أحسنت إلى مَنْ أساء إليك؛ قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك، ومحبَّتك، والحنوِّ عليك؛ حتَّى يصير كأنَّه وليٌّ لك، حميمٌ؛ أي: قريب إليك من الشَّفقة عليك والإحسان إليك.

ثمَّ قال تعالى: أي: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ يقبل هذه الوصيَّة – وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها – إلا مَنْ صبر على ذلك، فإنَّه يشق على النُّفوس، وما يقبل هذه الوصية أي: ذو نصيبٍ وافرٍ من السَّعادة في الدُّنيا والآخرة

وقال تعالى: أي: وإما يُلْقِيَنَّ الشَّيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، والانتقام منه، فاستعذ بالله من وساوس هذا الشَّيطان ونزغه، وشرِّه، فإنه يسمع استعاذتك، ويعلم حالك، فالشَّيطان

---

[1] تفسير القاسمي (100/12).

[2] انظر: المستفاد من قصص القران (85/1).

لا تنفع معه مداراةٌ، ولا مقابلة إساءته بإحسانٍ؛ لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصـية الله، ولا يقبل منك غير هذا أبداً، أمَّا عدوُّ الإنسـان فقد ينفع معه إحسـانُك إليه، وعدم مقابلة إسـاءته بإسـاءةٍ مثلها، ولذلك حثَّنا الشَّرع على مقابلة إسـاءة المسيء من الإنس بالإحسـان إليه، أمَّا بالنِّسبة لنزغ الشَّيطان وتحرُّشه بالإنسان؛ فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلِّصك من شرِّه(1).

إنَّ المنهج القرآنيَّ الكريم وضَّح حقيقة العلاقة بين الإنسان والشَّيطان، وبيَّن سُبُلَ علاجها، ووسـائل الشَّـيطان لإغواء بني آدم، ومضـى القرآن يتحدَّث عن الشَّـيطان، وهو في جهنم، وقد تبرَّأ ممَّن أغواهم، وأضلَّهم من بني الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّـعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ *وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَـمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْـرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 21 – 22].

هذه صورةٌ موجزةٌ عن حقيقة إبليس، وتصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لهذا العدوِّ اللَّعين.

تاسعاً: نظرة الصَّحابة إلى الكون، والحياة، وبعض المخلوقات:

ظلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلِّم الصَّحابة كتاب الله تعالى، ويربِّيهم على التَّصوُّر الصَّحيح في قضـايا العقائد، والنَّظر السـليم للكون والحياة، من خلال الآيات القرآنيَّة الكريمة، فبيَّن بدء الكون ومصيره.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ *وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِـيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَـوَاءً لِلسَّـائِلِينَ * ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ *فَقَضَـاهُنَّ سَـبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّـمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 9-12].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (100/4، 101).

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاث حقائق كونيَّة:

1 - خلق الأرض، وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيَّامٍ قبل الاستواء إلى السماء؛ وهيَ دخانٌ.

2 - أصل الكون المادِّيِّ من الدُّخان.

3 - الدَّورات التَّكوينيَّة للأرض، والسَّماء مجموعها ستَّة أيَّامٍ[1].

وقد بيَّنَ القرآن الكريم حقيقةً مهمَّةً، وهي استحالة تحديد الحالة الأوَّلية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النُّجوم، والكواكب، والمجرَّات، ولن يستطيع الناس معرفة ذلك، إلا ظنّاً، وتخميناً، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: 51] .

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحَّد، وساق حقائق كونيَّةً في غاية الوضوح. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30] .

لقد فهم الصَّحابة من الآيات - الَّتي في سورة فصِّلت -: أنَّ الله تعالى خلق الأرض، ووضع البركة فيها وقدَّر أقواتها في أربعة أيَّام، كلُّ ذلك قبل تشكيل السَّماء وجعلها سبع سمواتٍ، وهذه الحقيقة وصل إليها الصَّحابة من طريق الوحي، من خالق السَّموات والأرض[2].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وَخَلَق الأرض في يومين، ثمَّ خَلَقَ السَّماء، ثمَّ استوى إلى السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين آخرين، ثمَّ دحا الأرض، ودَحْوُها أنْ أخرج منها الماء والمرعى، وخلقَ الجبالَ، والرِّمالَ، والجمادَ، والاكامَ، وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾. فجُعِلَتِ الأرضُ وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام، وخُلِقَتِ السَّمواتُ في يومين. [البخاري تعليقاً (8/714)] .

وبيَّن لهم القرآن الكريم في آيات عظيمة: أنَّ الله هو الَّذي خلق السَّموات وألقى في الأرض رواسيَ، وتحدَّث عن حقائق في الكون، وعن الشَّمس، والقمر، والنُّجوم، وفصَّل في الجبال،

---

[1] انظر: المستفاد من قصص القران (86/1).

[2] انظر: مباحث في إعجاز القران ، لمصطفى مسلم ، ص 177.

وبيَّن فوائدها، وضــرب بها الأمثال، ودعا إلى التأمُّل فيها، وأخبر أنَّه ســوف ينســفها نســفاً، وتحدَّث القرآن الكريم عن البحار، وما فيها من السُّــفن، والأرزاق، وتكلَّم القرآن الكريم عن الظَّواهر الجوِّيَّة، كالرِّياح، والسُّــحب، والمطر، والرَّعد، والبرق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: 48]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: 22].

وقرَّر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان، لا تقلُّ في الأهمِّيَّة، والدِّقَّة عن الحقائق الَّتي قرَّرها في كلِّ جوانب الكون، والحياة، فهو يلفت النَّظر تارةً إلى المنافع التي يحصــل عليها الإنســان من تســخير هذه الدَّوابِّ ركوباً، وحملاً، ولباســاً، وطعاماً، وشــراباً، وزينة، فهي مســخَّرةٌ للإنســان، مذلَّلةٌ له منقادةٌ، كان الرَّعيل الأوَّل قبل البعثة؛ ينظر إلى الكون والحياة، والمخلوقات من شمسٍ، وقمرٍ، ونجومٍ، نظرةً مضــطربةً غير واضــحةٍ في معالمها التَّصــوُّريَّة، والعقديَّة، ولا يســتشــعرون بالمنظومة التي خلقها الله، وأنَّها تســبِّح للهِ، وله حكمة من خلقها، فأرشــدهم القرآن الكريم إلى التأمُّل، والتدبُّر في هذا الكون، وما فيه من مخلوقات، وبيَّن لهم حقيقة أنَّ مخلوقاته العظيمة تسبِّح له - سبحانه وتعالى - ولكن لا يفقهون تسبيحهم، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء: 44] .

وحدَّثهم القرآن الكريم عن ظاهرة تذليل، وانقياد الحيوان للإنســـان، وبيَّن لهم: أنَّها ظاهرةٌ تستدعي شكر المنعم؛ الَّذي جعل فيها هذه الطَّبائع، ولولا وجود هذا الطَّبع فيها؛ لما استطاع الإنســان التغلُّب عليها ســبيلاً[1]. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾[يس: 71 - 73] .

ولفت القرآن الكريم الأنظار إلى مسألة رزق الحيوان، وأنَّ الإنســان يعقل ويفكِّر، ويخطِّط، ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه، وإذا حصل على الكسب بطريقةٍ ما؛ فكَّر في ادِّخاره، وتخزينه للمستقبل، أمَّا الحيوان؛ فليســت عنده القدرة على التَّفكير والتَّخطيط، وليس من طبعه

---

[1] انظر: مباحث في إعجاز القران ، لمصطفى مسلم ، ص 177 إلى 179.

ذلك، ولكنَّ قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكلِّ شــــيءٍ قد تكفلت بأرزاقها، وتوفير ســــبل البقاء أمامها. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّــــمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 60] .

هكذا شــــأن الألوهيَّة في المخلوقات: العلم، والإحاطة بالمكان، والتَّكفُّل بالرزق في جميع الظُّروف، فالحيوان مرزوقٌ في كلِّ مكانٍ، في أعماق البحار، والمحيطات، وفي الصَّــــحراء المحرقة، والأصقاع المتجمِّدة، تحت الصُّخور الصَّمَّاء، وفي أجواء الفضاء، كلَّ ذلك في كتابٍ لا يضلُّ ربِّي، ولا ينســــى، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْــــتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6].

وقد لفت القرآن الكريم النَّظر إلى أنَّ هذه المخلوقات - من الدَّواب والحشــرات المتباينة في الأشـكال والحجوم وطريقة الحركة، والسَّـير - أممٌ، وفصــائلُ أمثال النَّاس[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38] .

وهكـذا نَظَّمَ القرآن الكريم أفكـار، وتصــــوُّرات الرَّعيـل الأوَّل عن الكون، ومـا فيـه من مخلوقاتٍ، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية، واستمرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في غرس حقيقة المصـير، وسـبيل النَّجاة في نفوس أصـحابه، موقناً: أنَّ مَنْ عرف منهم عاقبته، وسـبيل النَّجاة، والفوز سـيسـعى بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ ووسـيلةٍ لسـلوك السَّـبيل، حتَّى يظفر غداً بهذه النَّجاة، وذلك الفوز، وركَّز صلى الله عليه وسلم في هذا البيان على الجوانب التَّالية:

إنَّ هذه الحياة الدُّنيا مهما طالت؛ فهي إلى زوالٍ، وإنَّ متاعها مهما عظم؛ فإنَّه قليلٌ حقيرٌ، ووضَّــحَ لهم ذلك الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّــمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24] .

إنَّ الآية الكريمة السَّـابقة فيها عشـر جملٍ وقع التَّركيب من مجموعها، بحيث لو سـقط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيه؛ إذ المقصود تشبيه حال الدُّنيا في سرعة تقضِّيها، وانقراض نعيمها، واغترار

---

[1] انظر: مباحث في إعجاز القران ، ص 214.

النَّاس بها، بحال ماءٍ نزل من السَّماء، وأنبت أنواع العشب، وزيَّن بزخرفه وجهَ الأرض، كالعروس إذا أخذت الثِّياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها، وظنُّوا أنها مُسَلَّمَةٌ من الجوائح؛ أتاها بأس الله فجأةً، فكأنَّها لم تكن بالأمس[1].

وأخبرهم الرَّسول صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45] أي: واضرب يا محمَّد للنَّاس في ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وفنائها، وانقضائها أي: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فيها من الحبِّ، فشبَّ، ونما، وحسن، وعلاه الزَّهر، والنَّضرة، ثمَّ بعد هذا كلِّه ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي: يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين، وذات الشِّمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أي: هو قادر على الإنشاء والإفناء.

وقال تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20] يقول تعالى مُوَهِّنَاً أمر الحياة الدُّنيا، ومحقِّراً لها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي: تفريح نفسٍ، ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل، ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: منظرٌ جميلٌ ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي: بالحسب والنَّسب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي: يعجب الزُّرَّاع نبات ذلك الزَّرع؛ الَّذي نبت بالغيث، وكما يُعجب الزُّرَّاع ذلك، كذلك تُعجب الحياة الدُّنيا الكفار، فإنَّهم أحرص النَّاس عليها، وأميل النَّاس إليها ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: ثمَّ يجفُّ بعد خضرته، ونضرته، فتراه مصفرّاً؛ أي: من اليبس ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، ثم يكون بعد ذلك كلِّه حطاماً؛ أي: هشيماً منكسراً وكذلك الدُّنيا لا تبقى، كما لا يبقى النَّبات الَّذي وصفناه، ولـمَّا كان هذه المثل دالاً على زوال الدُّنيا، وانقضائها لا محالة، وأنَّ الآخرة كائنةٌ، واتيةٌ لا محالة، حذَّرنا الله تعالى من أمرها، ورغَّبنا فيما فيها من الخير، فقال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية إلا: إمَّا هذا، وإما هذا؛ أي: إمَّا عذابٌ شديدٌ، وإمَّا مغفرةٌ من الله، ورضوانٌ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي:

---

[1] انظر: مباحث في إعجاز القران ، ص 216.

هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ، ويخدع مَنْ يركن إليها، وإلى متاعها، فيغترُّ بها، وتعجب مَنْ يعتقد: أنَّه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، مع أنَّها حقيرةٌ، قليلة المتاع بالنسبة إلى الدَّار الآخرة[1].

إنَّ هذه الحقيقة الَّتي أشارت إليها الآيات الكريمة، هي حقيقة الدُّنيا بكلِّ متاعها، وزينتها، وما تشتهيه النَّفس منها، وإنَّ كلَّ ذلك بالنِّسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافهٌ، وقليلٌ وزائلٌ، هكذا فهم الرَّعيل الأوَّل حقيقة الدُّنيا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصِّرهم، ويذكِّرهم بدورهم، ورسالتهم في الأرض، ومكانتهم عند الله، وظلَّ صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التَّبصير والتَّذكير حتَّى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله، وما دورهم وما رسالتهم في الأرض، وتأثُّراً بتربيته الحميدة تولَّد الحماس، والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين باللَّيل والنَّهار بكلِّ ما في وسعهم، وما في طاقتهم دون فتورٍ، أو توانٍ، ودون كسلٍ، أو مللٍ، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا من الله، ودون طمع في مغنمٍ أو جاهٍ إلا أداء هذا الدَّور وهذه الرِّسالة؛ لتحقيق السَّعادة في الدُّنيا، والفوز، والنَّجاة في الآخرة[2].

إنَّ كثيراً من العاملين في مجال الدَّعوة بهتت في نفوسهم هذه الحقيقة؛ لأنَّهم انغمسوا في هذه الحياة الدُّنيا، ومتاعها وشغفتهم حبّاً، فهم يلهثون وراءها، وكلَّما حصلوا على شيءٍ من متاعها؛ طلبوا المزيد، فهم لا يشبعون، ولا يقنعون؛ بسبب التصاقهم بالدُّنيا، وإنَّها لكارثةٌ عظيمةٌ على الدَّعوة، والنُّهوض بالأمَّة، أمَّا التمتُّع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشَّرع، واتِّخاذها مطيَّةً للآخرة فذلك فعلٌ محمودٌ.

---

[1] انظر: الإتقان، للسيوطي (70/2).

[2] انظر: تفسير القاسمي (49/11).

المبحث الرَّابع

البناء التعبُّدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 85]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: 72]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: 9]، وقد رَبَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم؛ ومن أهمِّها:

1ـ التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق، وحكمته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: 54].

2 – التأمُّل في علم الله الشَّامل، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح، والقلب بعظمة الله، ويطهِّر النَّفس من الشكوك، والأمراض. قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *وَهُوَ الَّذِي يَتَوفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 59 – 60] .

3 – عبادة الله – عزَّ وجلَّ – وهي من أعظم الوسائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّل لله سبحانه، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، والعبادات الَّتي تسمو بالرُّوح وتطهِّر النفس نوعان:

أ – النَّوع الأوَّل: العبادات المفروضة كالطَّهارة، والصَّلاة، والصِّيام، والزَّكاة، والحجِّ وغيرها.

ب – النوع الثَّاني: العبادات بمعناها الواسع، الَّذي يشمل كلَّ عملٍ يعمله الإنسان، أو يتركه، بل كلّ شعورٍ يُقبِل عليه الإنسان تقرُّباً به إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كلُّ شعورٍ يطرده الإنسان من نفسه تقرُّباً به إلى الله تعالى، ما دامت نيَّة المتعبِّد بهذا العمل هي إرضاء الله سبحانه وتعالى، فكلُّ الأمور مع نيَّة التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى عبادةٌ يُثاب صاحبها، وتربِّي روحه تربيةً حسنةً[1].

إنَّ تزكية الرُّوح بالصَّلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتَّسبيح له سبحانه أمرٌ مهمٌّ في الإسلام؛ فإنَّ النَّفس البشريَّة إذا لم تتطهَّر من أدرانها، وتتَّصل بخالقها فلن تقوم بالتَّكاليف الشَّرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها، تعطي الرُّوح وقوداً وزاداً، ودافعاً قويّاً إلى القيام بما تؤمر به، ويدلُّ على هذا أمر الله الرَّسول صلى الله عليه وسلم في ثالث سورةٍ نزلت عليه بالصَّلاة والذِّكر، وترتيل القرآن.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقرآن تَرْتِيلاً *إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً *وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل: 1 – 8].

إنَّ الاستعداد للأمر الثَّقيل، والتَّكاليف الشَّاقَّة يكون بقيام اللَّيل والمداومة على الذِّكر والتِّلاوة، وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوجيهٍ من ربِّه – عزَّ وجلَّ – على تربية الصَّحابة من أوَّل إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة[2].

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب، واستخفَوا بصلاتهم[3]. ولـمَّا خاف صلى الله عليه وسلم في بداية الإسلام على أصحابه، وعرف: أنَّ الكفار لا يتركونهم يمارسون الصَّلاة، وقراءة القرآن علناً، دخل بهم دار الأرقم، وصار يصلِّي بهم، ويعلِّمهم كتاب الله – عزَّ وجلَّ – ولولا أهمِّية تزكية الرُّوح بالعبادة، والصَّلاة، والتِّلاوة؛ لأمرهم بتركها عند الخوف، حتَّى إنَّه بعد أن اكتشفت قريش المكان الَّذي يصلِّي فيه الرَّسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه لم يترك الرَّسول صلى الله عليه وسلم الصَّلاة، والتِّلاوة لأجل الخوف[4].

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (312/4 . 313).

[2] انظر: منهج الرَّسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية ، ص 19 إلى 34.

[3] فقه الدَّعوة ، لعبد الحليم محمود (471/1 ، 472).

[4] انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص 69.

وقد حضَّ الله تعالى في القرآن المكِّيِّ على إقامة الصَّــــلاة، وأثنى على الَّذين يخشـــعون في صلاتهم، والَّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله، وعلى الذين يدعون الله ويســبِّحونه، ويذكرونه، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَــلاَتِهِمْ خَاشِـعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: 1 – 4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُـجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْـتَكْبِرُونَ *تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 15 – 17].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود: 114] .

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقرآن الْفَجْرِ إِنَّ قرآن الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾

[الإسراء: 78 – 79] .

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّـمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَـبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَـى *وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: 130 – 132] .

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ *وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق: 39 – 40] .

وهذه الآيات الأخيرةُ تدلُّ على أنَّ العُدَّةَ في حال الضيق والشدَّة هي الإكثار من الصَّلاة، والذِّكر، وتلاوة القرآن، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده، والإكثار من الدُّعاء[1].

إنَّ الصَّـلاة تأتي في مقدِّمة العبادات الَّتي لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية روح المسـلم، ولعلَّ من أبرز آثارها الَّتي أصابت الرَّعيل الأوَّل:

---

[1] انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (404/2).

1 – الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين استجابوا لأمره، فقال عزَّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: 38] .

ولا تتحقَّق معاني العبودية الصَّادقة لله سبحانه وتعالى، إلا إذا اقترنت بصدق التوجُّه إليه، والإخلاص له سبحانه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162 – 163] .

وكان الرَّعيل الأوَّل يرى: أنَّ لكل عملٍ من أعمال الصَّلاةِ عبوديةً خاصةً، وتأثيراً في النَّفس، وتزكيةً للرُّوح؛ فقراءة سورة الفاتحة مع التدبُّر تشعرهم بعبوديَّتهم لله تعالى، فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يثبت كلَّ كمال لله – سبحانه وتعالى – ويحمده على ما وفَّقه إليه من الطَّاعة، وما أنعم عليه من النِّعم، ويثني عليه بصفاته، وأسمائه الحسنى[1].

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقرُّ بالتَّوحيد والاستعانة بالله وحده، فالله هو المعبود، وهو المستعان، وكلُّ استعانةٍ بغير الله فهي خذلانٌ وذلٌّ.

وعندما يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو إقرارٌ من العبد بأنَّه مفتقرٌ إلى الهداية، والثَّبات على طريق الحقِّ، وأنَّه محتاجٌ إلى ثمار الهداية، والاستزادة منها، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم، والضَّالِّين[2].

وعندما ينحني للرُّكوع يكبِّر ربَّه معظماً له، ناطقاً بتسبيحه، فيجتمع في هذا الرُّكن خضوع الجوارح، وخضوع القلب، ثمَّ يأتي السُّجود، فيجعل العبدُ أشرف أعضائه، وأعزَّها متذللاً لله سبحانه، ويتبع هذا انكسارُ القلب، وتواضعُه، فيسجد القلب لربِّه كما سجد الجسد[3]، وحَرِيٌّ به في هذهِ الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربِّه، وكلَّما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربِّه في

---

[1] انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، ص 70.

[2] انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة إلى الله، ص 72.

[3] انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس، د. أنس أحمد كرزون (221/1).

سجوده، ازداد منه قرباً، كما في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق: 19].

وفي الحديث النَّبويّ الشـــريف: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه وهو ســـاجدٌ؛ فأكثروا الدُّعاءَ»[1].

وعندما يعتدل جالســاً، يتمثَّل جاثياً بين يدي ربِّه، ملقياً نفســه بين يديه، معتذراً إليه ممَّا جناه، راغباً إليه أن يغفر له، ويرحمه، وهكذا تتجلَّى في كلِّ أفعال الصَّلاة العبودية لله سبحانه، وإقبالُ العبد على ربِّه، وتوحيده، وتقوية الإيمان به الَّذي هو أساس التَّزكية، وهذه أعظم ثمرةٍ من ثمرات الصَّلاة، وهي الَّتي تنير للعبد طريق حياته، وتمنحه طهارة القلب، وطمأنينة النَّفس[2].

2 – مناجاة العبد لربِّه:

وقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً من مشاهد هذه المناجاة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال: مجَّدني عبدي، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل». [أحمد (241/2 – 242) ومسلم (395) وأبو داود (821) والترمذي (2953) وابن ماجه (3784)].

لقد تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من النَّبيّ صلى الله عليه وسلم : أنَّ هذه المناجاة، من أعظم أســباب تزكية النَّفس، وتقوية الإيمان، إذا هيَّأ العبد نفســه لها، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوِّق للوقوف بين يدي ربِّه، الوافد عليه، المنتظر لرحمته، وفضله؛ يستمدُّ العون منه سبحانه في كلِّ أموره وأعماله.

3 – طمأنينة النَّفس، وراحتها:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَه أمرٌ؛ صلَّى [أبو داود (1319) وأحمد (388/5)]، وقد جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة [أحمد (128/3 و199 و285) والنسائي (61/7) والحاكم (160/2)]، وقد علَّم الرَّسول صلى الله عليه وسلم الصَّحابة كثيراً من السُّنن والنَّوافل ليزدادوا صلةً بربِّهم، وتأمن بها نفوسهم، وتصبح الصَّلاة سلاحاً مهمَّاً لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

---

[1] الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصَّلاة والقران ، لابن قيِّم الجوزيَّة ، ص 35 . 40.

[2] المصدر السابق نفسه ، (ص 43 . 46) ، وانظر: الخشوع في الصَّلاة ، لابن رجب ، ص 20 . 22.

4. الصَّلاة حاجزٌ عن المعاصي:

قال الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّـــلاَةَ إِنَّ الصَّـــلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 45] .

كان الصَّحابة رضي الله عنهم عندما يؤدُّون صلاتهم، تستريح بها نفوسُهم، وتمدُّهم بقوَّةٍ دافعةٍ لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في نفوســـهم مراقبة الله – عزَّ وجلَّ – ورعاية حدوده، والتَّغلُّب على نوازع الهوى، ومجاهدة النَّفس، فكانت لهم ســـياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي [1]، كما أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ الصَّلاة تكفِّر السَّيئات، وترفع الدَّرجات. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود: 114].

وغير ذلك من الآثار التَّربويَّة، والنَّفسيَّة الطَّيبة؛ الَّتي تتضافر، فيغنمها العبد المصلِّي، فتؤدِّي الصَّــلاة دورها في تزكية النَّفس، وطهارتها، ويتحقَّق قول رســول الله صــلى الله عليه وســلم : «والصَّــلاة نورٌ»؛ [مسلم (223) والترمذي (3517) والنسائي (5/5 – 6) وابن ماجه (280) وأحمد (5/342 و343و344)]؛ فهي نورٌ تضيء لصاحبها طريق الهداية، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصَّالح، وهي نورٌ في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان، ولذَّة المناجاة لربِّه، وهي نورٌ بما تمنح النَّفس من تزكيةٍ، وطمأنينةٍ، وراحةٍ، وبما تمدُّ من أمنٍ، وســـكينةٍ، وهي نورٌ ظاهرٌ على وجه المقيم لها في الدُّنيا، تتجلَّى بها وَضَاءَةُ الوجه وبهاؤه؛ بخلاف تارك الصَّلاة [2]، وهي نورٌ له يوم القيامة[3].

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: 12].

كان الصَّحابة يكثرون من الذِّكر، والدُّعاء، وتلاوة القرآن الكريم، والاستماع إليه، واغتنام السَّاعات الفاضلة في قيام اللَّيل، ومجاهدة النَّفس على الخشوع والتدبُّر وحضور القلب، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى، وله آثار عظيمةٌ في تزكية النَّفس، وسموِّ الرُّوح، وترقيتها إلى مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصَّحابة من آثار الذِّكر، والدُّعاء، والتِّلاوة مناجاةُ الله، وتحقيقهم مقامات العبوديَّة التي تُعلي مكانتهم عند الله تعالى.

---

[1] مسلمٌ، كتاب الصَّلاة، باب ما يقال في الرُّكوع والسُّجود، رقم (482).

[2] انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (1/222).

[3] انظر منهج الإسلام في تزكية النفس (1/227).

قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «يقول الله – عزَّ وجلَّ – أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني؛ إن ذكرني في نفسه؛ ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ؛ ذكرته في ملأٍ هم خيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ مني شـبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلَةً» [البخاري (7405) ومسلم (2675)].

ومن أعظم أنواع الذِّكر الَّتي مارسـها الصَّـحابة الكرام رضـي الله عنهم تلاوة القرآن الكريم، فقد عظمت محبَّة الله في قلوبهم، وازدادت خشـيتهم له – سـبحانه وتعالى – فقد شـفى القرآن نفوسَـهم من أمراضـها، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقرآن مَا هُوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82] .

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قرآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آياتهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: 44] .

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28] . وكان للصَّـحابة مع الدُّعاء شـأنٌ عظيمٌ، فقد علَّمهم النَّبيُّ صـلى الله عليه وسلم : أنَّه مِنْ أجلى مظاهر العبودية، والمناجاة لله سـبحانه وتعالى، قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «الدُّعاء هو العبادة» [أبو داود (1479) والترمذي (3372) وابن ماجه (3828) وابن حبان (887) والحاكم (491/1)]، ولقد أمر سـبحانه وتعالى عباده بالدُّعاء، وتوعَّد من يسـتكبر، فيترك الدُّعاء؛ وكأنه مستغنٍ عن ربه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَآخرين ﴾ [غافر: 60] .

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يستكبرون عن عبادتي؛ أي: عن دعائي، وتوحيدي»[1].

كان النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم يبيّن لهم حاجة القلب إلى غذاءٍ دائمٍ؛ من ذكرٍ، ودعاءٍ، وتلاوة قرآن؛ ليكون ذلك تحصيناً لهم من الأمراض، والافات، وبيَّن لهم ما يستحبُّ للمسلم من الأدعية، والأذكار في الصَّباح والمساء، وعند دخول المنزل، أو الخروج منه، وعند دخول السُّوق،

---

[1] انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (233/1).

أو الأكل، أو اللبس، وغير ذلك من الأعمال اليوميَّة؛ حتى يبقى في وقايةٍ دائمةٍ من كلِّ مرضٍ، فإذا أصـــيب بمرض عارضٍ، كالقلق، والكابة، والاضـــطراب العصـــبيّ، أو غيرها، كانت تلك الأذكار والدَّعوات البلســـم الشَّـــافي؛ الَّذي تطمئنُّ به القلوب، وتحيا به النُّفوس، ومن بين تلك الأذكار والدَّعوات المأثورة الَّتي علَّمها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، دعاء الشِّدَّة، والكرب؛ الَّذي يقول فيه: «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا اللهُ ربُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم». [البخاري (6345) ومسلم (2730)] .

إنَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عَلَّمَ أصـحابه كيف يلجؤون إلى الله سـبحانه وقت الضِّـــيق؛ ليجدوا المأمن، والسَّـــكينة، فلا يفزعوا، ولا يقلقوا، وهم موقنون بأنَّ الله معهم، وأنَّه ناصرهم، ومتولِّي أمرهم، ومؤيِّدهم، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين[1].

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: 62] .

إنَّ الذِّكر والدُّعاء، وتلاوة القرآن، وقيام اللَّيل، والنَّوافل بأنواعها، لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية النفس، وسموِّ الرُّوح، ومهما كتبنا في هذا الموضوع؛ فلا يمكن أن نحيط به في صفحاتٍ أو كتبٍ؛ وإنَّما هذا جزءٌ من كلٍّ وغيضٌ من فيضٍ.

ثانياً: التزكية العقلية:

كانت تربية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه شاملةً؛ لأنَّها مستمدةٌ من القرآن الكريم، الَّذي خاطب الإنســـان ككلٍّ يتكون من الرُّوح، والجســـد، والعقل، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّـــحابي على تنمية قدرته في النَّظر، والتأمُّل، والتفكُّر، والتدبُّر؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله، وهذا مطلبٌ قرآنيٌّ، أرشـد إليه ربنا – سـبحانه وتعالى – في محكم تنزيله.قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيات وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخرةَ

---

[1] أشار إلى هذا المعنى النَّوويُّ في شرحه على مسلم (100/3) ، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، ص 190.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 20].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29] .

وقال جلَّ شأنُه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ *أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا *ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا *فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً *وَحَدَائِقَ غُلْبًا *وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: 24 32].

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمَّة، وقد جعله المولى – عزَّ وجلَّ – مناط التَّكليف، فمن حُرِم العقل لجنونٍ أو غيره، فهو غير مكلَّفٍ، ويسقط عنه التَّكليف قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36] .

إنَّ العقل نعمةٌ من الله على الإنسان يتمكَّن بها من قبول العلم، واستيعابه؛ ولذلك وضع القرآن الكريم منهجاً لتربية العقل، سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه؛ ومن أهمّ نقاط هذا المنهج:

1 – تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتَّخمين، أو التبعيَّة والتقليد، فقد حذَّر القرآن الكريم من ذلك في الآية الكريمة التَّالية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: 28] .

2 – إلزام العقل بالتَّحرِّي والتَّثبُّت، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6].

3 – دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون . قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: 85].

4 – دعوة العقل إلى التأمُّل في حكمة ما شرع الله لعباده من عباداتٍ، ومعاملاتٍ، وأخلاقٍ، وآداب، وأسلوب حياةٍ كاملٍ في السِّلم والحرب، في الإقامة والسَّفر؛ لأنَّ ذلك يُنْضِجُ العقل، وينمّيه، وبتعرُّفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص، ليطبق الشَّرع الرَّبانيَّ في حياته، ولا يبغي عنه حولاً؛ لما فيه من السَّكينة، والطمأنينة، والسَّعادة للبشريَّة، ولأنَّ الله – سبحانه وتعالى – إنَّما شرع ما شرع لذلك.

قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119] .

5 – دعوة العقل إلى النَّظر إلى سنَّة الله في النَّاس عبر التَّاريخ البشريّ؛ ليتَّعظ النَّاظر في تاريخ الاباء، والأجداد، والأسلاف، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم، والشُّعوب، والدُّول. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخرينَ﴾ [الأنعام: 6] .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ *ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس 13ـ 14] .

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: 9] .

كانت هذه الآيات الكريمة ترشد الصَّحابة إلى استخدام عقولهم وفق المنظور الرَّبانيّ؛ لكي لا تضلَّ عقولهم في التيه؛ الَّذي ضلَّ فيه كثيرٌ من الفلاسفة، الَّذين قدَّسوا العقل، وأعطوه أكثر ممَّا يستحقُّ(1)، وقد كان لهذه التَّربية القرآنيَّة آثار عمليَّة عظيمةٌ.

ثالثاً: التَّربية الجسديَّة:

حَرَصَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على تربية أصحابه جسديّاً، واستمدَّ أصول تلك التَّربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدِّي الجسم وظيفته، الَّتي خلق لها، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ، ودون محاباةٍ لطاقة من طاقاته على حساب طاقةٍ أخرى.

إنَّ الله أرشد عباده في القرآن الكريم، إلى ما أحلَّه من الطَّيبات، وما حرَّمه من الخبائث، وأنكر على أولئك الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم الطَّيبات، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرج لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ

(1) تفسير ابن كثير (86/4).

نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 32].

ولاشكَّ: أنَّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله، واستخلافٍ في الأرض، وإعمارها، وتعارفٍ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين؛ ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشريِّ على النَّحو التَّالي:

1 – ضَبَطَ حاجته إلى الطَّعام، والشَّراب بقوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31].

2 – ضَبَطَ حاجته إلى الملبس، بأن أوجب من اللِّباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من عاديات الحرِّ والبرد، وندب ما يكون زينةً عند الذَّهاب إلى المسجد. قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31].

3 – ضَبَطَ الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[النحل: 80].

4 – ضَبَطَ حاجته إلى الزَّواج والأسرة بإباحة النِّكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزِّنى، والمخادنة، واللِّواط، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[المؤمنون: 5 – 7].

5 – ضَبَطَ حاجته إلى التَّملُّك والسِّيادة، وأباح التَّملُّك للمال، والعقار، وَفْقَ ضوابط شرعيَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: 7].

6 – ضَبَطَ الإسلام السِّيادة بتحريم الظُّلم، والعدوان، والبغي. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: 21] ، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: 37]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل 90].

7 – ضَبَطَ حاجته إلى العمل، والنَّجاح؛ بأن جعل من اللاَّزم أن يكون العمل مشروعاً،

وغير مضــــرٍّ بأحدٍ من النَّاس، ونادى المســـــلمين أن يعملوا في هذه الدُّنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدَّعوة والدِّين، وما يدَّخرون عند الله ســـبحانه، قال تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَـــى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْـتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 129].

وربط العلم بالإيمان في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، وشـــرط في العمل أن يكون صــالحاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: 30]، وطالب بالإحســـان في العمل، فقال ســبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَـانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

8 – وحذَّر سبحانه من الدَّعة والبطر، والاغترار بالنِّعمة، فقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: 58].

هذه بعض الأســس الَّتي قامت عليها التربية النَّبويَّة للأجســام، حتى تســتطيع أن تتحمَّل أثقال الجهاد، وهموم الدَّعوة، وصعوبة الحياة.

لقد ربَّى النَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم صــحابته على المنهج الكريم، منهج تزكية الأرواح، وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد، وتقويتها؛ لإعداد الشَّخصيَّة الإسلاميَّة الرَّبَّانيَّة المتوازنة، ولقد نجحت تربيته صلى الله عليه وسلم في تحقيق أهدافها المرسومة.

رابعاً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرَّذائل:

إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّــــحيحة لا تكون بغير خلقٍ، وقد ربَّى رسولُ الله صـلى الله عليه وسـلم صـحابته على مكارم الأخلاق، بأسـاليب متنوعةٍ، وكان صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم ما ينزل من قرآن، فإذا سمعوه، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتـدبِّر للقرآن المكِّيِّ يجـده مليئـاً بالحـثِّ على مكـارم الأخلاق، وعلى تنقيـة الرُّوح، وتصـفيتها، من كلِّ ما يعوق سـيرها إلى الله تعالى، ورسـول الهدى صـلى الله عليه وسـلم القدوة الكـاملة، والمربِّي النَّـاصـــح للأمَّة كـان على خلقٍ عظيمٍ[1]؛ قـال تعـالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: 4] ومعنى الآية واضـــحٌ، أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله،

---

(1) منهج الإسلام في تزكية النَّفس (1/331).

والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي اثرك الله به في القرآن[1].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن » [مسلم (746) وأحمد (54/6) وأبو داود (1342)] . وقد جمع الله تعالى لنبيّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199] .

قال مجاهد في معنى الآية: يعني : خذ العفو من أخلاق النَّاس ، وأعمالهم من غير تخسيسٍ ، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتَّفتيش عن حقائق بواطنهم[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: وهو كلُّ ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، وأعْرَفُهُ التَّوحيدُ، ثُمَّ حقوق العبوديَّة، وحقوق العبيد[3]، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾، يعني: إذا سفه عليك الجاهل، فلا تقابله بالسَّفه، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ [الفرقان: 63]، وهكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم ؛ «كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أحسنَ النَّاس خُلُقاً» [البخاري (6203) ومسلم (659)].

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يربِّي أصحابه على حسن الخُلُق، ويحثُّهم عليه، فعن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخُلُق، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِض الفاحشَ البذيءَ» [أبو داود (4799) والترمذي (2002) وابن حبان (476)].

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسنُ الخلق»، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ النارَ؟ فقال: «الفمُ، والفرجُ» [أحمد (392/2) والترمذي (2004) وابن ماجه (4246) وابن حبان (476) والبخاري في الأدب الفرد (289 و294)]، وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم لأصحابه عظم ثواب حُسْنِ الخُلُق، فقال: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني يوم القيامة، الثَّرْثارون، والمتشدِّقونَ، والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله! قد علمنا (الثرثارون، والمتشدِّقون)، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبِّرون» [الترمذي (2018)].

---

[1] انظر: فقه التَّمكين في القران الكريم ، للصلاَّبي ، (ص 354).
[2] انظر: أهمية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص 64 ، 65.
[3] انظر: تهذيب مدارج السَّالكين (653/2).

الثَّرثار: هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيَّةٍ. والمتشـدِّق: المتكلِّم بملء فيه تفاصـحاً وتعاظماً، وتطاولاً، وإظهاراً لفضـله على غيره، والمتفيهق: هو الَّذي يتوسَّـع في الكلام، ويفتح به فاهه، وأصله: من الْفَهْقِ، وهو الامتلاء[1].

لقد سـار النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم على المنهج القرآنيّ في تربية أصـحابه على الأخلاق الكريمة، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة، والعقائد في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضـحةٌ في كتاب الله تعالى، وقد بيَّن سـبحانه لرسـوله صـلى الله عليه وسـلم ، وللمسـلمين، الأخلاقيات الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـــ (لا إله إلا الله)، والأخلاقيات الجاهليَّة الَّتي ينبغي أن ينبذها المؤمنون، والحقيقة: أنَّ التَّنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللَّحظة الأولى، مع التنديد بفساد تصوُّراتهم الاعتقاديَّة، واستمرَّ معه حتَّى النِّهاية.

إنَّ الأخلاق ليسـت شـيئاً ثانوياً في هذا الدِّين، وليسـت محصـورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريِّ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريِّ كلِّه، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد، والإيمان الصَّحيح؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسبٍ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السُّلوك العمليَّ، أو حين نرى عكسه أن نتساءل: أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّل إلى سلوكٍ[2]؟!

ولـذلـك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيـدة ربطاً قويّاً، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ؛ منها:

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلاَتِهِمْ خَاشِـعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُـونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: 1 – 11] ؛ فالسـورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التَّوكيد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، ثُمَّ تصف هؤلاء المؤمنين بذلك الوصف المطوَّل المفصَّل، الذي

[1] المصدر السابق نفسه ، (655/2).
[2] المصدر السابق نفسه.

يُعْنَى بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين، موحياً إيحاءً واضـــحاً أنَّ هذه الأخلاقيات – من جهةٍ – هي ثمرة الإيمان، وأنَّ الإيمان – من جهةٍ أخرى – هو سلوكٌ ملموسٌ يُترجِم عن العقيدة المكنونة.

إنَّهم بادئ ذي بدء خاشعون في صلاتهم، فذلك أوَّل مظهرٍ للمؤمن الصَّادق: أن تكون صلاتُه – وهي اللَّحظة التي يقف فيها متعبِّداً لربِّه، ذاكراً له في قلبه، متَّصلاً به بروحه – صلاةً خاشعةً بما ينبئ عن صدق الصِّلة باللهِ؛ الَّتي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصَّلاة، ثمَّ تثنِّي السُّورة بصفة سلوكيَّة أخرى ذات دَلالةٍ، هي: أنَّهم عن اللغو معرضون؛ فاللَّغو لا ينبئ عن نفسٍ جادَّةٍ، والإيمان الصَّـــحيح يورث النَّفس الجدَّ بما يشـــعرها من ثقل التَّكاليف، وجدِّيتها، والجدُّ ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً، ولكنَّ اللَّغو – من جانبٍ آخر – لا يستقيم مع جدِّية الشُّعور بعظم الأمانة؛ التي يحملها الإنســـان أمام خالقه، ثمَّ إنَّ هؤلاء المؤمنين لابدَّ أن تكون في قلوبهم الحساسية لحقِّ الله في أموالهم، وهو الزَّكاة.

ولابدَّ أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس؛ فلا يتعدَّون حدود الله، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعيَّة؛ فيحفظون الأمانة، ويرعون العهد، وبهذا نفهم فَهْم الصَّـــحابة للأخلاق، فهي ثمرةٌ طبيعيَّةٌ للعقيدة الصَّحيحة، وكذلك العبادة الحيَّة الخاشعة لله، هكذا تعلَّموا من القرآن الكريم، ومن هدي حبيبهم الصَّادق الأمين صلى الله عليه وسلم .

لقد رسم القرآن الكريم لهم صورةً تفصيليَّةً للشَّخصيَّة المؤمنة، فكانت العبادة أوَّل مَعْلَمٍ واضح فيها؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين أول وصفٍ لهم الخشوعَ في الصَّلاة، وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزَّكاة، وهي عبادةٌ، مع الفضائل الخلقيَّة الأخرى.

إنَّ القرآن الكريم يبرز جانب العبادة أحياناً، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى؛ لمناســـباتٍ واعتباراتٍ توجب هذا الإبراز، ففي ســـورة الذَّاريات كانت العناية بالعبادة في وصـــف المتقين: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِـــنِينَ *كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ *وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: 16 – 19] .

وفي سورة الرَّعد كانت العناية بالجانب الأخلاقيِّ في وصف أصحاب العقول، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ *وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: 19 – 22].

ومع أنَّ معظم الأوصاف هنا أخلاقيَّةٌ – لمناسبة أولي الألباب – مثل الوفاء والصِّلة، والصَّبر، والإنفاق؛ لكنَّ الملحوظ فيها أنَّها ليست مجرَّد أخلاقٍ (مدنيَّة)، وإنَّما هي أخلاقٌ ربَّانيَّة، أخلاقٌ فيها معنى العبادة، والتَّقوى، فهم إنَّما يوفون (بعهد الله)، وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهم إنَّما يفعلون ويتركون؛ لأنَّهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾، وهم إنَّما يصبرون؛ فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، ويرجون اليوم الآخر[1].

لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق؛ لأنَّها من باب الوفاء لله، والشُّكر للنِّعمة، والاعتراف بالجميل، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير، والتَّعظيم، وكلُّها من مكارم الأخلاق[2]، كانت أخلاقُ الصَّحابة ربَّانيَّة، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرَّجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله، ومثوبته، فكانوا يصدقون في الحديث، ويؤدُّون الأمانة، ويوفون بالعهود، ويصبرون في البأساء والضَّرَّاء، وحين البأس، ويغيثون الملهوف، ويرحمون الصَّغير، ويوقِّرون الكبير، ويرعون الفضيلة في سلوكهم؛ كلُّ ذلك ابتغاء وجه الله، وطلباً لما عنده تعالى؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: 11 – 12].

إنَّ أخلاق المؤمن عبادةٌ؛ لأنَّ مقياسه في الفضيلة، والرَّذيلة، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع، هو أمر الله ونهيه؛ بالضَّمير وحدَه ليس بمعصومٍ، وكم من أفرادٍ وجماعاتٍ رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال![3].

والعقل وحده ليس بمأمونٍ؛ لأنَّه محدودٌ بالبيئة والظُّروف، ومتأثِّرٌ بالأهواء والنِّزاعات، وفي الاختلاف الشَّاسع للفلاسفة الأخلاقيِّين في مقياس الحكم الخلقيِّ، دليلٌ واضحٌ على ذلك، والعرف لا ثبات له، ولا عموم؛ لأنَّه يتغيَّر من جيلٍ إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلدٍ إلى بلدٍ، وفي البلد الواحد من إقليمٍ إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الَّذي

---

(1) تهذيب مدارج السَّالكين (657/2).

(2) انظر: دراساتٌ قرانيَّةٌ، لمحمَّد قطب، ص 130.

(3) انظر: العبادة في الإسلام، للقرضاوي، ص 123.

لا يضلُّ، ولا ينسى، ولا يتأثَّر، ولا يجور[1].

إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان، وكلَّ أحاسيسه، ومشاعره، وتفكيره؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله، وحرماته، والتَّعامل مع الآخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار – أي: ردُّ العدوان – وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكيّفه، ولا شيءٌ واحدٌ ليست له دَلالةٌ أخلاقيَّةٌ مصاحبةٌ.

هذا أمر، والأمر الآخر – وهو الأهمُّ – أنَّ الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله، وليست للبشر، ولا لأحدٍ غير الله؛ فالصِّدق لله، والوفاء بالعهد للهِ، واتِّقاء المحرَّمات في علاقات الجنس لله، والعفو، والصَّفح لله، والانتصار من الظُّلم لله، وإتقان العمل لله، كلُّها عبادةٌ لله، تُقَدَّمُ لله وحدَه؛ خشيةً لله، وتقوى، وتطلُّعاً إلى رضاه، إنَّها ليست صفقةً بشريَّةً للكسب، والخسارة، إنَّما هي صفقةٌ تُعقد مع الله[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151 – 153]. ذلك هو الميثاق الأخلاقيُّ الشَّامل الَّذي التزم به الصَّحابة، ومَنْ سار على هديهم؛ اتِّباعاً لصراط الله المستقيم، فهو – إذاً – من العقيدة مرتبطٌ بها ارتباطاً أساسية، لا ينفصل عنها بحالٍ.

إنَّ الأعمال الخلقيَّة تدخل في جميع الجوانب، ويرتقي بها الوحي الإلهيُّ إلى ذروةٍ متفرّدة

---

[1] انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص 591.

[2] انظر: الإيمان والحياة ، للقرضاوي ، ص 256.

حين يجعلها ديناً، وعبادةً ومحلاً لثواب الله تعالى، أو عقابه الأليم عند المخالفة[1]، وإذا تأمَّلنا في الآيات السَّابقة من سورة الأنعام، نجدها قد اشتملت على العناية بالضَّروريات الخمس، وهي: «ما لابدَّ منها في قيام مصالح الدِّين، والدُّنيا؛ حيث إنَّها إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدُّنيا على استقامةٍ، بل على فسادٍ، وتهارجٍ وفوت حياةٍ، وفي الأخرى فوت النَّجاة والنَّعيم، والرُّجوع بالخسران المبين»[2] إنَّ دعوة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم من أهدافها إرجاع النَّاس إلى مقاصد الشَّريعة، والَّتي من ضمنها المحافظة على الضَّروريات الخمس، فقد اشتملت الآيات الكريمة السَّابقة على العناية بالضَّروريات، وهي:

أ – حفظ الدِّين: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وفي قوله تعالى: لأنَّه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يستقيم دينٌ مع الشِّرك بالله تعالى، فأمَرَ سبحانه عباده أن يوحِّدوه بالعبادة، وأن يتَّبعوا صراطه المستقيم، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ونهاهم عن اتِّباع سُبُل الشيطان؛ فإنَّها غيٌّ وضلالٌ، وفي سلوكها إعراضٌ عن دين الحقّ، واتّباعٌ لأهواء النفوس، ووسواس الشَّيطان[3]، وقد قام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على الدِّين من خلال العمل به، والجهاد من أجله، والدَّعوة إليه، والحكم به، وردِّ كلِّ ما يخالفه[4].

ب – حفظ النَّفس: في قوله تعالى: وقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ﴾ وقد وضعت الشَّريعة الوسائلَ الكفيلة ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ بإذن اللهَّ – بحفظ النَّفس من التَّعدِّي عليها، ومن هذه الوسائل[5]: تحريمُ الاعتداء عليها، وسدُّ الذَّرائع المؤدِّية إلى القتل، كالقِصاص، وضرورةُ إقامة البيِّنة في قتل النَّفس، وضمان النَّفس، وتأخير تنفيذ القِصاص؛ بحيث إذا خشيَ مِنْ قَتْلِ غير القاتل؛ وجب عليه العفو، وكذلك إباحة المحظورات حالَ الضَّرورة[6].

ج – حفظ النَّسل: في قوله تعالى: ومن أعظم الفواحش الزِّنى؛ الَّذي وصفه الله تعالى في ايةٍ أخرى بأنَّه ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا

---

[1] انظر: الوسطية في القران ، ص 592.
[2] انظر: دراساتٌ قرانية ، ص 139.
[3] انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص 594.
[4] الموافقات ، للشَّاطبي (8/2).
[5] مقاصد الشَّريعة ، د. محمد اليوبي ، ص 188.
[6] المصدر السابق نفسه ، ص 194.

الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 32] .

إنَّ حفظ النَّسل من الركائز الأساسية في الحياة، ومن أسباب عمارة الأرض، وفيه تكمن قوّة الأمَّة، وبه تكون مرهوبة الجانب، عزيزة القدر، تحمي دينها، وتحفظ نفسها، وتصون عرضها، ومالها؛ ولذلك عُنِيَت الشَّريعة بحماية النَّسل، ومنع كلّ ما من شأنه أن يقف في طريق سلامته، ووضعت ضوابط، وأصولاً شرعيَّةً مهمَّةً في هذا الباب[1].

د – حفظ المال: في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ﴾ وقوله: . ومن وسائل حفظ المال في الشَّريعة: تحريم الاعتداء ﴿أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وتحريم إضاعة المال، وما شُرِعَ من الحدود في العهد المدنيّ؛ كحدِّ السَّرقة، وحدِّ الحرابة، وضمان المتلفات، ومشروعيَّة الدِّفاع عن المال، وتوثيق الدُّيون والإشهاد عليها، وتعريف اللُّقَطَة، وما يتبعه[2].

هـ حفظ العقل: وأمَّا حفظ العقل، فمطلوب أيضاً؛ لأنَّ التَّكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله، ولا يقوم بها فاسد العقل، وفي قوله تعالى: إشارةٌ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، والله أعلم[3]، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما من شأنه إفساد العقل، وإدخال الخَلَل عليه[4].

وهكذا القرآن الكريم يعلم، ويربِّي الصَّحابة على العقائد، والعبادة، والأخلاق، ومقاصد الشَّريعة في وقتٍ واحدٍ، إنَّ الأخلاق الرَّبَّانيَّة تصدر من القرآن الكريم بتقرير التَّوحيد، والعبودية لله تعالى، وهذا بدوره تأكيدٌ أساسيٌّ على حقائق وأصول هذا المنهج القرآنِيّ، الَّتي تتبع جميعها هذا المدخل التَّأسيسي، وبذلك يتقرَّر:

1 – أنَّ الله تعالى هو وحده مصدر الشَّرائع جميعاً، وهو شارع القيم، والمعايير الأخلاقية؛ الَّتي تنسجم مع الفطرة، وتوافق العقل السَّليم.

2 – أنَّ الأخلاق دينٌ ملتزمٌ به، بل هي أصلٌ من أصول المنهج الرَّبانِيّ، وليست مجرَّد فضائل فرديَّةٍ، أو آداب اجتماعيَّةٍ، أو أذواقٍ حضاريَّةٍ.

3 – أنَّ الأخلاق قيمٌ أساسية في حياة البشر، ينبغي أن تحظى بالثَّبات والاستقرار،

---

(1) الموافقات (27/4).

(2) مقاصد الشَّريعة ، ص 212.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص 257.

(4) المصدر السابق نفسه ، ص 287.

وبالتَّالي يمنع الطَّواغيت من التلاعب بها، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء[1].

وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذَّة، الَّتي تعطي أسمى التَّوجيهات في باب الفضائل، والآداب الفرديَّة، والاجتماعيَّة، ففي سورة الإسراء جاءت آيات كريمةٌ هي من أجمع الآيات؛ للحثِّ على الخُلُق المحمود، والتَّنفير من الخُلُق المذموم.

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا *وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا *رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا *وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا *إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا *وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا *وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا *إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا *وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً *وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً *كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: 23 – 38].

إنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد جعل التَّوحيد – أي: إفراد الله بالعبادة – على رأس هذا المنهج الخُلقيّ؛ الَّذي رسمته الآيات مدحاً، وذماً؛ لأنَّ التَّوحيد له في الحقيقة جانبٌ أخلاقي أصيل؛ إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل، والإنصاف، والصِّدق مع النَّفس، كما أنَّ الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأوَّل، مثل الكِبْر، عن قبول الحقّ، والاستكبار عن اتّباع الرُّسل غروراً، وأَنَفَةً، أو الولوع بالمراء والجدل بالباطل مغالبةً، وتطلُّعاً للظُّهور، أو تقليداً وجموداً على الإلف، والعرف مع ضلاله وبهتانه، وكلُّها – وأمثالها –

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 189.

أخلاق سوء تُهلك أصحابها، وتصدُّهم عن الحقِّ بعدما تبيَّن، وعن سعادة الدَّارين، مع استيقان أنفسهم بأنَّ طريق الرُّسل هو السَّبيل إليها.

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطاً خُلُقيَّةً متعدِّدة الجوانب في شؤون الأسرة؛ مثل برِّ الوالدين، وما جاء فيه من وصـايا غايةً في السُّـموِّ، والإحسـان، والوفاء بالجميل، ومثل برِّ الأقارب، والضعفاء، وفي شؤون المال، والإنفاق بالنَّهي عن التبذير، والأمر بالاعتدال بين الشُّحِّ المطْبق، والبسط المستغرق، وقد نفَّر الله تعالى من التَّبذير بإضافته إلى شرِّ الخلق: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 27]. ونفَّر من الحرص، والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثالٍ: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾

وتأمر الآيات الكريمة بخلقٍ جميلٍ غايةً في السُّـموِّ، وهو الحرص على الكلمة الطَّيبة، إذا لم يجد الإنسان من المال ما يَسَعُ به النَّاس: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ﴾ وهي وصيَّـةٌ ذات أثرٍ بالغٍ في إحسان العلائق بين ﴿رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا ﴾، بل ربَّما فضَّلوها على العطاء المادِّيِّ؛ خاصَّةً إذا اقترن بالمنِّ، والأذى، ثمَّ تتحدَّث الآيات عن سوء الخلق بالبغي والاستطاعة، وقساوة القلب، وجفافه من الرَّحمة، وجمود العاطفة الكريمة، ويتمثَّل ذلك في مظهره الجنائيِّ، وهو القتل، وخاصَّةً قتل الابنة الصَّغيرة.

نعم، القتل جريمةٌ جنائيَّةٌ تسلك في قانون العقوبات القصاصيَّة، ولكنَّها هنا تُعالَج من زاويتها الأخلاقيَّة؛ التي تستهدف الوقاية، وتعمل على تغيير الإرادة، وتوجيهها وجهةً صالحةً لتحريم الفعل، وتجريمه، وإصلاح عقيدة صاحبه: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وبهدم القيم الاجتماعيَّة الجائرة الَّتي صنعت هذا المنكر، وسوَّغته بلا نكيرٍ، وتنهى الآيات عن الزِّنى، وهو بالمقياس نفسه جريمةٌ خلقيَّةٌ أساسها البغي، والاستطالة على الأعراض، والحرمات، وإهدار العفاف، والشَّرف، والاستهانة بكلِّ كريمٍ من القيم الإنسانيَّة العليا، وتأمر الآيات، وتنهى عن أمورٍ مردُّها إلى خلق الأمانة أو الخيانة، والجدِّ أو العبث، والتَّواضع العزيز أو الكبر، والغرور؛ فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتَّى يبلغ أشـدَّه، والوفاء بالعهد، وتوفية الكيل والميزان، والخيانة أضدادها، ومن الجدِّ اشتغال الإنسان بما ينفعه، وعدم تتبُّعه ما ليس به شأنٌ، ولا علمٌ: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36] والعبث كلُّ العبث اشتغال الإنسان بما نُهِيَ عنه، ومن التَّواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده،

ومعرفتُه قدر نفســه، فيضــعها في مواضــعها الصَّــحيحة، ومن الكبر والغرور ذلك التَّطاول المبنيُّ على الجهـل، والطيش، والحماقة ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: 37] .

ولأنَّ هذه الوصــايا جامعةٌ لك ما يصــلح شــأن الإنســان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر﴾ [الإسراء: 39].

فســمَّاها حكمةً، وختمها بالدَّعوة إلى التوحيد، والنَّهي عن الشِّـرك كما بدأها؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى مِفْتَاحُ كلِّ خيرٍ، وحافظُه، وحارسُه، والكفر به مفتاحُ كلِّ شرٍّ وباعثُه[1].

هكذا كانت تربية القرآن الكريم للصَّــف المؤمن، فقد كانت قائمةً على التخلُّق بمحاســن الأخلاق، ونَبْذِ سيِّئها.

خامساً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآنيّ:

إنَّ القصــص القرآنيَّ غنيٌّ بالمواعظ، والحكم، والأصــول العقديَّة، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة، والأساليب التَّربويَّة، والاعتبار بالأمم والشُّعوب، والقصص القرآنيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين، وإنَّما هو أعلى، وأشرف، وأفضل من ذلك، فالقصص القرآنيُّ مليءٌ بالتَّوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقليَّة، والتَّبصرة، والتَّذكرة، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصَّة يوسف عليه السلام، متأمِّلاً في جانب الأخلاق الَّتي عُرضت في مشــاهدها الرَّائعة، قال علماء الأخلاق، والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمَّة إلا بمصــلحين، ورجال أعمالٍ قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروطٌ معلومةٌ، وأخلاقٌ معهودةٌ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً؛ فله أربعون خَصْـلَةً ذكروها، كلُّها آداب، وفضــائل بها يســوسُ أمتَه، وإن كان رئيساً فاضلاً، اكتفوا من الشُّروط الأربعين ببعضها، وسيِّدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسـلين، وجمال النَّبيِّين، ولقد جاء في سـيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدياً لاختيار الأكفاء في مهامِّ الأعمال؛ إذ قد حاز الملك، والنبوة! ونحن لا قِبَل لنا بالنُّبوة لانقطاعها، وإنَّما نذكر ما يليق بمقام رئاسـة المدينة الفاضـلة، ولنذكر منها اثنتي عَشْـرَةَ خَصْـلَةً هي أهمُّ خصـال رئيس المدينة الفاضــلة لتكون ذكرى لمن يتفكَّر في القرآن، وتنبيهاً للمتعلِّمين السَّــاعين

---

[1] مقاصد الشريعة ، ص236.

للفضائل»[1].

أهمُّ ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

1 – العفَّة عن الشَّهوات؛ ليضبط نفسه، وتتوافر قوَّته النَّفسيَّة: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24].

2 – الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: 77].

3 – وضع اللِّين في موضعه، والشِّدَّة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ *فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف: 59 – 60] فبداية الآية لينٌ، ونهايتها شدَّةٌ.

4 – ثقته بنفسه بالاعتماد على ربِّه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 55].

5 – قوَّة الذَّاكرة ليمكنه تذكر ما غاب، ومضى له سنون؛ ليضبط السِّياسات، ويعرف للنَّاس أعمالهم: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [يوسف: 58].

6 – جودة المصوِّرَة والقوَّة المخيِّلة؛ حتَّى تأتي بالأشياء تامَّة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: 4].

7 – استعداده للعلم، وحبُّه له، وتمكُّنه منه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: 38]، و ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخرةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: 101].

8 – شفقته على الضُّعفاء، وتواضعه مع جلال قدره، وعلوِّ منصبه، فقد خاطب الفتيين المسجونين بالتَّواضع، فقال: ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: 39]، وحادثهما في أمور دينهما، ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: 37]، و ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخرةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

[1] انظر: المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع، لعبد الستار فتح الله سعيد، (ص 425 . 433).

[يوسف: 37]، وشَهِدَا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36] .

9 – العفو عند المقدرة: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92] .

10 – إكرام العشيرة: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93] .

11 – قوّة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا المِلك واقتداره على الأخذ بأفئدة الرّاعي والرَّعيَّة والسُّوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنيَّة على الحكمة، والعلم: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: 54] .

12 – حسن التَّدبير: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47] تالله! ما أجملَ القرآن! وما أبهج العلم!

لاشكَّ أنَّ العلاقة بين القصص القرآنيِّ والأخلاق متينةٌ؛ لأنَّ من أهداف القصص القرآنيِّ التذكير بالأخلاق الرَّفيعة؛ الَّتي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة، والدَّولة، والأمَّة، والحضارة، كما أنَّ من أهداف القصص القرآنيِّ التنفير من الأخلاق الذَّميمة؛ الَّتي تكون سبباً في هلاك الأمم والشُّعوب، ولقد استفاد الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لهم، ومن المنهج الَّذي سار عليه، فهذا جزءٌ من الأخلاق القرآنيَّة النَّبويَّة أردت به التمثيل وليس الاستقصاء، وفي سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه مزيدٌ من التَّفصيل والبيان، وإنَّ المنهج النَّبويَّ القرآنيَّ الرَّبانيَّ في الأخلاق نمطٌ فريدٌ، وعجيبٌ، ليس له مقاربٌ، ولا نظيرٌ؛ لأنه من ربِّ العالمين، وقد تفرَّد بأمورٍ وخصائص، زاد من قوَّتها واكتمالها وجودُها مجتمعةً على هذا الوجه المحْكَم، ومنها:

1 – وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرَّبانيِّ متمثِّلاً في الكتاب والسُّنَّة، وقد حدَّدا ما يُحْمَدُ، أو يُذمُّ.

2 – وجود ما يضبط السُّلوك ويبعث على العلم، وهو رجاء الله والدَّار الآخرة.

3 – وجود القدوة العمليَّة، وهي من أسس التَّربية الخلقيَّة، وقد تمثَّل ذلك بأوفى معانيه في

رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

لقد أولى المنهاج النبويُّ الكريم – المستمدُّ من كتاب ربِّ العالمين – الأخلاق أهمِّيَّةً كبيرةً، وحثَّ على التمسُّك بفضائلها بمختلف الأساليب، وحذَّر من ارتكاب مرذولها بشتَّى الطُّرق، ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقةٌ من نظرته إلى الكون والحياة، والإنسان، فإذا كانت العقائد تشكِّل أركان الصَّرح الإسلاميّ؛ فإنَّ التَّشريعات تكوِّن تقسيمات حُجراته، وممرَّاته، ومداخله، والأخلاق تُضفي البهاء، والرَّونق، والجمال على الصَّرح المكتمل، وتصبغه الصِّبغة الربَّانيَّة المتميِّزة، وإذا كانت العقيدة الإسلاميَّة تشكِّل جذور الدَّوحة الإسلاميَّة، وجذعها، فإنَّ الشَّريعة تمثِّل أغصانها، وتشعُّباتها، والأخلاق تكوِّن ثمارها اليانعة، وظلالها الوارفة، ومنظرها البهيج النَّضِر [2].

لقد استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة، والالتزام في تربيته للصَّحابة؛ لكي يحوَّل الخلق من دائرة النَّظريات، إلى صميم الواقع التَّنفيذيّ، والعمل التَّطبيقيّ، سواءٌ كانت اعتقاديَّةً، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النَّفس، ومع تطوُّر الدَّعوة الإسلاميَّة، ووصولها إلى الدَّولة أصبحت هناك حوافز إلزاميَّةٌ تأتي من خارج النفس، متمثلةً في:

أ – التَّشريع:

الَّذي وُضع لحماية القيم الخلقيَّة، كشرائع الحدود، والقِصاص؛ الَّتي تحمي الفرد، والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل، أو السَّرقة)، أو انتهاك الأعراض: (بالزِّنى والقذف) أو البغي على النَّفس، وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

ب – سلطة المجتمع:

الَّتي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والتَّناصح بين المؤمنين، ومسؤوليَّة بعضهم على بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤوليَّة قرينة الزَّكاة، والصَّلاة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

[1] انظر: المنهاج القرآنيُّ للتَّشريع، ص 433.

[2] انظر: تفسير القاسمي (310/9).

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 71].

بل جعلها المقوِّم الأصـــليَّ لخيريَّة هذه الأمَّة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أخرجت لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْـلُ الْكِتَـابِ لَكَـانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110] .

وقد ظهرت هذه السُّلطة، وأثرها في الفترة المدنيَّة:

ج – سلطة الدَّولة:

الَّتي وجب قيامها، وأقيمت على أســـس أخلاقيَّةٍ وطيدةٍ، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق، وبثِّها في سائر أفرادها ومؤسَّساتها، وتجعلها من مهامِّ وجودها ومبرراته[1].

وبذلك اجتمع للخلق الإســـلاميّ أطراف الكمال كلِّه، وأصـبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائديّ والرُّوحيّ والأخلاقيّ في الفترة المكِّيَّة ، ولقد اتت هذه التَّربية أُكُلَها، فقد كان ما يزيد على العشـرين من الصَّـحابة الكرام من الخمسـين الأوائل السَّـابقين إلى الإسـلام، يمارسـون مسـؤولياتٍ قياديَّةً بعد توسع الدَّعوة، وانطلاقها في عهد النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم وبعد وفاته، وأصـبحوا القادة الكبار للأمَّة، وعشـرون آخرون معظمهم اسـتشـهدوا، أو ماتوا على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم؛ فكان في الرَّعيل الأول أعظم شـخصـيات الأمَّة على الإطلاق، كان فيه تسـعةٌ من العشـرة المبشَّـرين بالجنَّة، وهم أفضـل الأمَّة بعد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، ومنهم نماذج أسـهمت في صـناعة الحضـارة العظيمة بتضـحياتهم الجسيمة، كعمَّار بن ياسـر، وعبد الله بن مسعودٍ، وأبي ذرٍّ، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم رضـي الله عنهم، وكان من هذا الرَّعيل أعظم نسـاء الأمَّة خديجة رضـي الله عنها، ونماذج عاليةٌ أخرى، مثل أمِّ الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النِّطاقين، وأسماء بنت عُمَيس، وغيرهنَّ.

لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة، والرُّوحيَّة، والعقليَّة، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشـريَّة الأعظم محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فكانوا هم حداة الرَّكب، وهداةُ الأمَّة[2]،

---

[1] انظر: الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص 603.

[2] انظر: المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص 425.

فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يزكِّيهم، ويربِّيهم وينقِّيهم من أوضار الجاهليَّة، فإذا كان السَّعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو مرَّةً واحدةً في حياته، وامن به، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له، ويتلقَّى منه، ويعبق من نوره، ويتغذَّى من كلامه، ويتربَّى على عينه[1]؟!!

* * *

[1] المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص 433.

الفصل الثَّالث

الجهر بالدَّعوة، وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأوَّل

الجهر بالدَّعوة

بعد الإعداد العظيم الَّذي قام به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظَّمة الأولى على أسسٍ عقديَّةٍ، وتعبُّديَّةٍ، وخلقيَّةٍ رفيعة المستوى حان موعدُ إعلان الدَّعوة، بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: 214 – 216] .

فجمع قبيلته صلى الله عليه وسلم ، وعشيرته، ودعاهم علانيةً إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ، وخوَّفهم من العذاب الشَّديد؛ إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النَّار، وبيَّن لهم مسؤولية كلِّ إنسانٍ عن نفسه[1].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت صَعِدَ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ صلى الله عليه وسلم على الصَّفا، فجعل ينادي: يا بني فِهْر! يا بني عَديٍّ – لبُطونِ قريش – حتَّى اجتمعوا، فجعل الرَّجل إذا لم يستطعْ أن يَخرج؛ أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ، وقريشٌ، فقال: أرأيتَكم لو أخبرتُكم: أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم! ما جَرَّبْنا عليك إلا صِدقاً، قال: فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد: 1 – 2] [البخاري (4971) ومسلم (208)] وفي روايةٍ: ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكلِّ بطن: «أنقذوا أنفسكم من النَّار......»، ثمَّ قال: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا» [البخاري (4771) ومسلم (204)] كان

---

[1] رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (46/3).

القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين، فلـمَّا رأوا محمَّداً صلى الله عليه وسلم ، – وهو الصَّادق الأمين – قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم، وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة، وتحقَّقت شهادة المستمعين؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شـديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبوَّة، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة، والعلوم الوهبيَّة، وموعظةً، وإنذاراً، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات، والنُّبوَّات، فلم تكن طريقٌ أقصـر من هذه الطَّريق، ولا أسـلوب أوضـح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[1]، ولكنَّ أبا لهب قال: تبّاً لك سـائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد وضع للأمَّة أسس الإعلام؛ فقد اختار مكاناً عالياً – وهو الجبل – ليقف عليه، وينادي على جميع النَّاس، فيصـل صـوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسـال في عصـرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشـار الإذاعيِّ، ثمَّ اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصِّدق، وبهذا يكون صلى الله عليه وسلم قد علَّم رجال الإعلام والدَّعوة: أنَّ الاتصـال بالنَّاس بهدف إعلامهم، أو دعوتهم يجب أن يعتمد – وبصـفةٍ أساسية – على الثِّقة التَّامَّة بين المرسِل، والمستقبِل، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه[2].

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرَّسول صلى الله عليه وسلم دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة، فبدء الدَّعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثرٌ خاصٌّ؛ لما لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ، فَجَلْبُهَا إلى حظيرة الإسـلام لابدَّ أن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقيَّة القبائل؛ لأنَّ الإسـلام – كمـا يتجلَّى من القرآن الكريم – اتَّخـذ الـدَّعوة في قريشٍ خطوةً أولى لتحقيق رسـالتـه العالمية»[(487)]، فقد جاءت الآيات المكِّيَّة تبيِّن عالمية الدَّعوة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِـيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، ص 138.

(2) انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص 121.

النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28].

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم، وبلدانهم، ويتبع النَّاس في أنديتهم، ومجامعهم، ومحافلهم، وفي المواســـم، ومواقف الحجِّ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ، وعبدٍ، وقويٍّ، وضـــعيفٍ، وغنيٍّ، وفقير[1]؛ حين نزول قوله تعالى: ﴿فَاصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْـرِكِينَ *إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْـتَهْزِئِينَ *الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: 94 – 97] .

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ، والإعراض، والسُّخرية، والإيذاء، والتَّكذيب، والكيد المدبَّر المدروس، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّـراع في كلِّ مكانٍ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسـباً عظيماً للدَّعوة، سـاهم فيه فأشـدُّ، وألدُّ أعدائها، ممَّن كان يشـيع في القبائل قالة السُّوء عنها، فليس كلُّ الناس يسلِّمون بدعاوى زعماء الكفر، والشِّرك.

كانت الوسـيلة الإعلاميَّة في ذلك العصـر، تناقل النَّاس للأخبار مشـافهةً، وسمع القاصـي، والدَّاني بنبوَّة الرَّســول صــلى الله عليه وســلم ، وصــار هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في المجالس، ونوادي القبائل، وفي بيوت النَّاس[2].

أهم اعتراضات المشركين:

كانت أهمُّ اعتراضـات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم الذي أُنزل عليه من ربِّ العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والردّ عليها:

أولاً: الإشراك بالله:

لم يكن كفارُ مكَّةَ ينكرون: أنَّ الله خلقهم، وخلق كلَّ شـيءٍ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: 25]،

[1] انظر: دراسة في السيرة ، لعماد الدين خليل ، ص 66.
[2] انظر: الغرباء الأولون، ص 167.

لكنَّهم كانوا يعبدون الأصـنام، ويزعمون: أنَّها تقرّبهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[1] إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفارٌ ﴾ [الزمر: 3].

وقد انتقلت عبادة الأصـــنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدَّعوة إلى التَّوحيد بأعظم إنكارٍ، وأشـدِّ اسـتغرابٍ[2]. قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَـاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَـيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُـوا وَاصْـبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَـيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخرةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾[3] [ص: 4 – 7] ولم يكن تصوُّرهم لله تعالى، ولعلاقته بخلقه صحيحاً؛ إذ كانوا يزعمون: أنَّ لله تعالى صاحبةً من الجنّ، وأنَّها ولدت الملائكة، وأنَّ الملائكة بناتُ الله!

كانت الآيات تنزل مُبيِّنةً: أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – خلق الجنَّ، والملائكة، كما خلق الإنس، وأنَّه لم يتَّخذ ولداً، ولم تكن له صاحبةٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا[4] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: 100 – 101]، ومبينةً: أنَّ الجنَّ يُقرُّون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسـب: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: 158].

ومُطالِبةً المشـــركين باتّباع الحقِّ، وعدم القول بالظُّنون، والأوهام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 27 – 28]، ومُوضِّحةً أنَّه لا يُعْقَلُ أن يَمْنَحَ اللهُ المشركين البنين، ويخصَّ نفسـه بالبنات، وهنَّ أدنى قيمةً – في رأيهم – من البنين: ﴿أَفَأَصْـفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40] .

ومُحَمِّلةً المشركين مسؤوليَّة أقوالهم الَّتي لا تقوم على دليلٍ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ

---

[1] زُلْفَى: قُربَى

[2] انظر: رسالة الأنبياء (52/3).

[3] احتجُّوا بما عليه النَّصارى من الشِّرك والتَّثليث.

[4] اختلقوا.

الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19] .

ثانياً: كفرهم بالآخرة:

أمَّا دعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسُّخرية والتَّكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: 7 – 8]؛ فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]، ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلَّظة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: 38-39]، وكانوا يظنُّون أنَّه لا توجد حياةٌ في غير الدُّنيا، ويطلبون إحياء ابائهم؛ ليصدقوا بالآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتنا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: 24 – 27].

وفاتهُم: أنَّ الذي خلقهم أوَّل مرَّةٍ، قادرٌ على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد، وغيره: جاء أُبَيُّ بنُ خلف[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتِّته، ويذروه في الهواء؛ وهو يقول: يا محمد! أتزعم: أنَّ الله يبعث هذا؟ قال صلى الله عليه وسلم : «نعم، يميتك الله تعالى، ثمَّ يبعثك، ثمَّ يحشرك إلى النار»، ونزلت هذه الآيات[2]:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ *وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 77 – 79] ، [الدر المنثور (7/75 – 76)] .

---

[1] وفي رواية عن ابن عباسٍ أنَّه العاص بن وائل.

[2] تفسير ابن كثير (3/581).

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع النَّاس بالبعث تعتمد على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكَّر الله عباده: أنَّ حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء، والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرُّسل، وأنزل الكتب؛ لبيان الطَّريق الَّذي به يعبدونه، ويطيعونه، ويتبعون أمره، ويجتنبون نهيه، فمن العباد مَنْ رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى، وبغى، أفليس من العدل بعد ذلك أن يموت الطَّالح والصَّالح، ثمَّ يُجزي اللهُ المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ *إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ [القلم: 35 – 38] .

إنَّ الملاحدة الَّذين ظلموا أنفسهم هم الَّذين يظنُّون: أنَّ الكون خُلِق عبثاً، وباطلاً، لا لحكمة، وأنَّه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح، والكافر المفسد، ولا بين التَّقيّ والفاجر[1]. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ *أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: 27 – 28] .

وضرب القرآن الكريم للنَّاس الأمثلة في إحياء الأرض بالنَّبات، وأنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثار رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: 50] .

وذكر الله – سبحانه وتعالى – في كتابه، أمثلةً من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدُّنيا، فأخبر النَّاسَ في كتابه عن أصحاب الكهف، بأنَّه ضُرب على اذانهم في الكهف ثلاثمئةٍ وتسع سنين، ثمَّ قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: 12]، ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 19]، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف: 25]، وغير ذلك من الأدلَّة

---

[1] المصدر السابق نفسه ، (124/2).

والبراهين؛ التي استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مناظراته مع زعماء الكفر، والشِّرك.

ثالثاً: اعتراضهم على الرَّسول صلى الله عليه وسلم :

اعترضوا على شخص الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يتصوَّرون: أنَّ الرَّسول لا يكون بشراً مثلهم، وأنَّه ينبغي أن يكون مَلَكاً، أو مصحوباً بالملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 94]، ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ *وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: 8 – 9]، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة؛ لجعلناه على هيئة رجلٍ، حتَّى يمكنهم مخاطبته، والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالْتَبَس عليهم الأمر كما هم يلبِّسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[1]. وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطَّعام، ولا يمشي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا *أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان: 7 – 8]، وكأنَّهم لم يسمعوا بأنَّ الرُّسل جميعاً كانوا يأكلون، ويسعون، ويعملون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً[2] أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[الفرقان: 20] .

ويريدون أن يكون الرَّسولُ كثيرَ المال، كبيراً في أعينهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقرآن عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31] .

ويقصدون بـ : ﴿رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ بن المغيرة بمكَّة، أو عروة بن مسعود الثَّقفي بالطَّائف[3].

ونسبوا الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى الجنون: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ *لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الحجر: 6 – 7]، ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ *ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ [الدخان: 13 – 14] .

---

[1] انظر: الوسطية في القران الكريم ، ص 402.

[2] اختبرنا بعضكم ببعض.

[3] تفسير ابن كثير (126/4 . 127).

وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: 2] .

كما نسبوه إلى الكهانة، والشعر: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ *أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: 29 – 30] .

هذا مع أنَّهم كانوا يعلمون: أنَّه لا يَنْظِمُ الشِّعر، وأنَّه راجح العقل، وأنَّ ما يقوله بعيدٌ عن سجع الكُهَّان، وقول السَّحرة[1].

ونسبوه (ﷺ)إلى السِّحر، والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: 4]، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا *انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 47 – 48].

وكانت الآيات تتنزَّلُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم تفنِّد مزاعم المشركين، وتبيِّن له أنَّ الرُّسل السَّابقين استهزئ بهم، وأنَّ العذاب عاقبة المستهزئين: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام: 10]، وتُعَلِّمُهُ أنَّ المشركين لا يُكذِّبون شخصه، ولكنَّهم يعاندون الحقَّ، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل[2]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33] .

رابعاً: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدِّقوا: أنَّ القرآن الكريم منزلٌ من عند الله، واعتبروه ضرباً من الشِّعر، الَّذي كان ينظمه الشُّعراء، مع أنَّ كلَّ من قارن بين القرآن، وأشعار العرب يعلم أنَّه مختلفٌ عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقرآن مُبِينٌ *لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: 69 – 70] وكيف يكون القرآن شعراً وقد نزل فيه ذمٌّ للشعراء الَّذين يُضِلُّون الناس ويقولون خلاف الحقيقة؟![3] قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[4] *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ *وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ [5] [الشعراء: 224 – 226] ؛ فهو كلام الله المنزل على

---

(1) انظر: رسالة الأنبياء (57/3).
(2) انظر: رسالة الأنبياء (58/3).
(3) المصدر السابق نفسه (59/3).
(4) يعني: الضَّالُّون.
(5) انظر: رسالة الأنبياء (59/3).

رسوله صلى الله عليه وسلم وليس شبيهاً بقول الشعراء، ولا بقول الكهّان: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ *وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة: 40 – 43] .

وقد أدرك الشُّعراء قبل غيرهم: أنَّ القرآن الكريم ليس شعراً[1]، ومن فرط تكذيبهم، وعنادهم قالوا: إنَّ محمَّداً يتعلَّم القرآن من رجلٍ أعجميٍّ[2]، كان غلاماً لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصَّفا، وربَّما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس إليه، ويكلِّمه بعض الشيء، وذاك كان أعجميَّ اللِّسان لا يعرف من العربيَّة إلا اليسير، بقدر ما يردُّ جواب الخطاب فيما لابدَّ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: 103] أي: فكيف يتعلَّم مَنْ جاء بهذا القرآن في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التَّامَّة الشَّاملة من رجلٍ أعجميٍّ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكةٍ من العقل[3].

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملةً واحدةً، مع أنَّ نزوله مفرَّقاً أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به، وتيسير فهمه، وحفظه، وامتثاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾[الفرقان: 32] .

فلمَّا اعترض المشركون على القرآن، وعلى من أُنزل عليه بهذه الاعتراضات؛ تحدَّاهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنس والجنّ مجتمعين عن ذلك: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88] .

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سورٍ مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: 13 – 14] .وحتَّى السُّورة الواحدة هم عاجزون عن أن يأتوا بمثلها: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقرآن أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

---

[1] المصدر السابق نفسه ، (59/3).
[2] انظر: تهذيب السِّيرة (74/1 ، 90).
[3] انظر: تفسير ابن كثير (586/2).

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: 37 – 38] .

فعجزُهم – مع أنَّ الفصاحة كانت من سجاياهم، وكانت أشعارهم ومعلَّقاتهم في قمَّة البيان – دليلٌ على أنَّ القرآن كلام الله الَّذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[1].

خامساً: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ:

تحدَّث بعض الباحثين[2] عن دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ، فذكروا منها:

1 – ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

كان العرب الَّذين بُعِثَ فيهم النبي صلى الله عليه وسلم بعيدين عن الدِّيانات السَّماويَّة، فلم يكونوا يدينون بدينٍ؛ ولم ينشغلوا بدراسة كتابٍ سماويٍّ – كما كانت تفعل اليهود، والنَّصارى – ولهذا احتجَّ الله عليهم ببعثة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ *أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: 155 – 157] .

وكان لتغلغل المعتقدات الوثنيَّة في حياتهم، وعقولهم، وسيطرتها على تفكيرهم أثرٌ عظيم في تصلُّبهم أمام الحقِّ، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته، هذا فضلاً عن أنَّ طبيعة النَّفس البشريَّة حين لا تدين بدينٍ سماويٍّ، فإنَّها تبتعد عن التجرُّد والصَّفاء العقديِّ، وتميل إلى التَّجسيم المادِّيِّ الحسِّيِّ، ولذلك أقدم عُبَّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم، وأبنائهم دونها، وهم يشاهدون مصارع إخوانهم، وما حلَّ بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبّاً لها، وتعظيماً، ويوصي بعضهم بعضاً بالصَّبر عليها، وتحمُّل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها، وهم يسمعون أخبار الأمم الَّتي فُتنت بعبادتها، وما حلَّ بهم من عاجل العقوبات[3].

2 – العصبيَّة لتراث الاباء، والأجداد:

---

[1] انظر: رسالة الأنبياء (66/3).

[2] مثل: سلمان العودة ، ومحمد العبدة ، وعبد الرحمن الملاَّحي.

[3] انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن القيم (225/2).

كان أكبر طاغوتٍ تحارَب به دعوات الرُّسـل والأنبياء – عليهم الصَّـلاة والسَّـلام – هو طاغوت التَّقليد، والعادة المتبعة، وهي من أكبر العوامل في الصَّـدِّ عن دين الله، ومن الصَّـعب على الإنسـان الخروج من مألوفاته، وإنَّ ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها؛ إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها، وقد أشار القرآن الكريم إلى مرض تقليد الاباء في الباطل في الأمم السَّابقة[1]؛ فهذا إبراهيم – عليه السلام – يخاطب قومه قائلاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ *قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ *قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ *أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: 70 – 74] .

وهذا المنهج هو دأب المشركين، والمعارضين لدين الله على مرِّ الأجيال، وإذا استنكر عليهم الدُّعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشَّهوات، وانهماكهم في الفواحش، وساءلوهم عن ذلك، قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 28] .

ما ذلك إلا لفقدان الدَّليل، وانقطاع الحجَّة؛ إذ إنَّهم لا يعتمدون على عقلٍ يرشـدهم، ولا كتابٍ يؤيِّدهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان: 20 – 21] .

وإنَّما أوقع الكفارَ في هذا التَّقليد المنحرف استدراجُ الشَّيطان لهم من خلال فطرة مركوزةٍ في الإنسان أصلاً، تدعوه إلى الوفاء للاباء، والأجداد، وتربطه بتاريخه وتراثه، وهذا من أعظم وسائل الشـيطان في الكيد: أن يأتي الإنسـانَ من قبل غريزةٍ مطبوعةٍ فيه؛ من حبِّ الشَّـهوة، والوطن، والمال، وغيرها، قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «إنَّ الشَّـيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسْلِمُ، وتذر دينك، ودين ابائك، واباء أبيك؟ فعصاه، فأسلم، ثمَّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر، وتدع أرضـك، وسماءك؟! وإنَّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل![2] فعصـاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد؟! فهو جهد النَّفس،

---

[1] انظر: الطريق إلى المدينة ، لمحمد العبدة ، ص 43.

[2] الطِّوَل: هو الحبل.

والمال، فتقاتل، فتقتل، فتُنكح المرأة! ويُقسم المال! فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فمن فعل ذلك كان حقّاً على الله – عزَّ وجلَّ – أن يدخله الجنَّة، ومن قتل كان حقّاً على الله – عزَّ وجلَّ – أن يدخله الجنَّة، وإن غرق كان حقّاً على الله أن يدخله الجنَّة، أو وَقَصَتْهُ[1] دابته كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة» [النسائي (21/6 – 22) وأحمد (483/3) وابن حبان (4593)] .

فلما بُعث النبيُّ (ﷺ) ، كان من التُّهم الَّتي وُجِّهت إليه: أنَّه كان يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه الآباء والأجداد، وبذلك نفَّروا منه العامَّة والدَّهماء، وفرضـوا على الدَّعوة نوعاً من الحصار المؤقت[2].

3 – موقف أهل الكتاب المساند للوثنيَّة:

كانت بيئة العرب الوثنيَّة مسـتعدَّةً لمواجهة دعوة التَّوحيد، ومحاربتها، ووجدت في موقف أهل الكتاب الرَّافض للدَّعوة مسـتنداً قويّاً لهذه المعارضـة، فهاهم أهل التَّوراة، والإنجيل، وورثة الكتب السَّـماوية، ينكرون دعوة محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ويردُّونها، ويكذِّبونها، وهم أدرى منَّا بالدِّين، وهذا كان مصـدر دعمٍ، وتقويةٍ، وتثبيتٍ لموقف المشـركين: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ *مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخرةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ﴾ [ص: 6 – 7] .

فمن عوامل الصَّبر على الالهة في مواجهة الدَّعوة الجديدة: أنهم لم يسمعوا بما جاء به صلى الله عليه وسلم في الملَّة الآخرة، وهي النَّصـرانيَّة، قاله ابن عباس، والسُّـدِّيُّ، ومحمَّد بن كعب القرظيُّ، وقتادة، ومجاهد[3]، وهذا مبنيٌّ على شهادة أهل الكتاب للمشركين ضدَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا فما كان للعرب من علمٍ بالكتب السَّـماوية، وما فيهامن الحقائق والأخبار[4].

4 – سيطرة الأعراف، والعوائد القبليَّة:

كان الصِّـراع القبليُّ، والتَّنافس على الرِّياسـة، والشَّـرف، والسُّـؤدد، ذا جذورٍ في الأعراف،

---

[1] أي: سقط عنها ، فاندقَّت عنقه ، فمات.
[2] انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص 83.
[3] تفسير الطَّبريّ (126/23) ، والدرُّ المنثور (146/7).
[4] انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص 86.

والعوائد القبليَّة، ولذلك تجد المعارضين للدَّعوة المنتسبين للبطن الَّذي ينتسب إليه الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، يحتجُّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنَّه ليس شيخاً ذا رياسةٍ، وتقدُّمٍ فيهم، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الإسلام خوفاً على مناصبهم، ومكانتهم، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظاً على مراكز قبائلهم، وتكبُّراً على اتِّباع فردٍ من قبيلةٍ أخرى، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «إنَّ أوَّل يومٍ عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كنت أنا، وأبو جهل بن هشام في بعض أزقَّة مكَّة؛ إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل: يا أبا الحكم! هَلُمَّ إلى الله، وإلى رسوله، إنِّي أدعوك إلى الله، فقال أبو جهل: يا محمد! هل أنت مُنتهٍ عن سبِّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله! لو أنِّي أعلم أنَّ ما تقول حقاً ما تبعتك! فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليَّ، فقال: والله! إنِّي لأعلم أنَّ ما يقوله حقٌّ، ولكن بني قصيٍّ قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا النَّدوة، قلنا: نعم، قالوا: فينا اللِّواء، قلنا: نعم، قالوا: فينا السِّقاية، قلنا: نعم. ثم أطعموا، وأطعمنا حتَّى إذا تحاكَّت الرُّكب؛ قالوا: منا نبيٌّ! فلا والله لا أفعل» [البيهقي في دلائل النبوة (2/207)] .

5 – حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب:

فقد كانوا يريدون أن تبقى لهم منزلتهم المرموقة، وأمجادهم العريقة، ويريدون أن تبقى لمكَّة قداستها عند القبائل العربيَّة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الإسلام سيسلبها هذه الميزة، ويجعل العرب يغزونها، ويمتنعون عن جلب الرِّزق إلى أسواقها، وينسون: أنَّ الله هو المنعم عليهم بالأمن والرِّزق[1]: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: 57] .

إنَّ قريشاً كانت تظنُّ: أن العرب الَّذين يقدِّسون الأصنام، عندما يعلمون: أنَّ قريشاً ستعتنق ديناً جديداً، وستترك دين ابائهم؛ فإنَّهم سينقضُّون عليها، ويتخطَّفون أهلها؛ جزاءَ ما فعلوا، بل ويمتنعون عن جلب الرِّزق إليهم في مواسم الحجِّ، لكن هيهات! فإنَّ الله غالبٌ على أمره، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: 67]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ

---

[1] المصدر السابق ، ص 96. 106.

*إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ *وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: 171 – 173].

المبحث الثَّاني

سنَّة الابتلاء

الابتلاء – بصفةٍ عامَّةٍ – سنَّة الله في خلقه، وهذا واضحٌ في تقريرات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 165]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف: 7]، وقال جلَّ شأنهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: 2] .

الابتلاء مرتبطٌ بالتَّمكين ارتباطاً وثيقاً؛ فلقد جرت سنَّة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمَّةٍ إلا بعد أن تمرَّ بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطَّيِّب، وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأمَّة الإسلاميَّة لا تتخلَّف، فقد شاء الله – تعالى – أن يبلي المؤمنين، ويختبرهم؛ ليمحِّص إيمانهم، ثمَّ يكون لهم التَّمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشَّافعيِّ رضي الله عنه حين سأله رجلٌ: أيُّهما أفضل للمرء، أنَّ يُمكَّن، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشَّافعيُّ: لا يُمكَّن حتَّى يبتلى، فإنَّ الله – تعالى – ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّداً – صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين – فلمَّا صبروا مكَّنهم؛ فلا يظنُّ أحدٌ أن يخلص من الألم ألبتَّة[1].

وابتلاء المؤمنين قبل التَّمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التَّمحيص؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكُّنٍ ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرَّحمة، لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار، لا مجرَّد الاختبار[2].

إنَّ طريق الابتلاء سنَّة الله في الدَّعوات، كما أنَّه الطريق إلى الجنَّة، وقد «حُفَّت الجنَّةُ بالْمكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات» [مسلم (2822) وأحمد (153/3) والترمذي (2559)] .

---

[1] الفوائد ، لابن القيِّم ، ص 283.

[2] انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السيد محمَّد يوسف ، ص 235.

حكمة الابتلاء، وفوائده: للابتلاء حِكَمٌ كثيرة؛ من أهمِّها:

1 – تصفية النُّفوس:

جعل الله الابتلاء وسيلةً لتصفية نفوس النَّاس، ومعرفة المؤمن الصَّادق من المنافق الكاذب؛ وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرَّخاء، لكن يتبيَّن في الشِّدَّة. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2] .

2 – تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيِّد قطب – رحمه الله –: «ثمَّ إنَّه الطَّريق الَّذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة الَّتي تحمل هذه الدَّعوة، وتنهض بتكاليفها؛ طريق التربية لهذه الجماعة، وآخراج مكنوناتها من الخير، والقوَّة، والاحتمال، وهو طريق المزاولة العمليَّة للتَّكاليف، والمعرفة الواقعيَّة لحقيقة النَّاس، وحقيقة الحياة؛ ذلك ليثبت على هذه الدَّعوة أصلبُ أصحابها عوداً، فهؤلاء هم الَّذين يصلحون لحملها – إذاً – بالصَّبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»[1].

3 – الكشف عن خبايا النُّفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله، مغيَّبٌ عن علم البشر، فيحاسب النَّاس – إذاً – على ما يقع من عملهم، لا على مجرَّد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضلٌ من الله من جانبٍ، وعدلٌ من جانبٍ، وتربيةٌ للنَّاس من جانبٍ، فلا يأخذون أحداً إلا بما استعلن من أمره، وبما حقَّقه فعله؛ فليسوا بأعلمَ من الله بحقيقة قلبه»[2].

4 – الإعداد الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وما بالله – حاشا للهِ – أن يعذِّب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنَّه الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة، فهي في حاجةٍ إلى إعدادٍ

---

[1] في ظلال القران (180/2).

[2] المصدر السابق نفسه ، (387/6).

خاصٍ، لا يتمُّ إلا بالمعاناة العمليَّة للمشاقِّ، وإلا بالاستعلاء الحقيقيِّ على الشَّهوات، وإلا بالصَّبر الحقيقيِّ على الالام، وإلا بالثِّقة الحقيقيَّة في نصر الله وثوابه، على الرَّغم من طول الفتنة، وشدَّة الابتلاء. والنَّفس تصهرها الشَّدائد، فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتتجمَّع، وتطرقها بعنف وشدَّةٍ، فيشتدُّ عودها، ويصلب ويُصقل، وكذلك تفعل الشَّدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً، وأقواها طبيعةً، وأشدُّها اتِّصالاً بالله، وثقةً فيما عنده من الحُسْنَيَيْن: النَّصر أو الشَّهادة، وهؤلاء هم الَّذي يُسلَّمون الرَّاية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[1].

5 – معرفة حقيقة النَّفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدَّعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة، والجهاد مزاولةً عمليَّةً واقعيَّةً، ويعرفوا حقيقة النَّفس البشرَّية وخباياها، حقيقة الجماعات، والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشَّهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشَّيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطَّريق ومسارب الضَّلال»[2].

6 – معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي تعزَّ هذه الدَّعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من جهدٍ وبلاءٍ، وبقدر ما يضحُّون في سبيلها من عزيزٍ، وغالٍ، فلا يفرِّطون فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»[3].

7 – الدِّعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوةٌ صامتةٌ لهذا الدِّين، وهي الَّتي تُدخِل النَّاس في دين الله، ولو وهنوا، أو استكانوا؛ لِما استجاب لهم أحدٌ، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النَّبيِّ صلى الله

---

(1) في ظلال القران (389/6).

(2) المصدر السابق نفسه ، (181/2).

(3) المصدر السابق نفسه ، (180/2).

عليه وسلم ، ثمَّ يأتيه أمر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم، وأذاهم، ويتابع طريقه؛ حتَّى يعود بقومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]، وسنرى ذلك في الصَّفحات القآدمة، إن شاء الله.

8 – جذب بعض العناصر القويَّة إليها:

أمام صمود المسلمين وتضحياتهم تتوق النُّفوس القويَّة إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصَّلابة الإيمانيَّة تكبر عند هذه الشَّخصيات الدَّعوة، وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردُّدٍ، وأعظم الشَّخصيات الَّتي يعتزُّ بها الإسلام دخلت إلى هذا الدِّين من خلال هذا الطريق[2].

9 – رفع المنزلة والدَّرجة عند الله، وتكفير السَّيِّئات:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما يصيب المؤمنَ من شوكةٍ فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجةً، أو حَطَّ عنه بها خطيئةً» [البخاري (6540) ومسلم (2572)]، فقد يكون للعبد درجةٌ عند الله تعالى لا يبلغها بعمله، فيبتليه الله تعالى حتَّى يرفَعه إليها، كما أنَّ الابتلاء طريقٌ لتكفير سيِّئات المسلم[3].

كما أنَّ للابتلاء فوائدَ عظيمةً؛ منها: معرفة عزِّ الرُّبوبية، وقهرها، ومعرفة ذلِّ العبودية، وكسرها، والإخلاص، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتَّضرُّع، والدُّعاء، والحلم عمَّن صدرت عنه المصيبة، والعفو عن صاحبها، والصَّبر عليها، والفرح بها لأجل فوائدها، والشُّكر عليها، ورحمة أهل البلاء، ومساعدتهم على بلواهم، ومعرفة قدر نعمة العافية، والشُّكر عليها، وما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد، ومن أراد التوسُّع فليراجع كتاب فقه الابتلاء[4].

---

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 192 ، 193.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 193 ، 194.

(3) انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 224 ، وانظر: فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص 8 إلى 11.

(4) انظر: فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص 15 إلى 28.

وقد تعرَّض النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأشكالٍ وأنواعٍ، وأصنافٍ متعدِّدةٍ من الابتلاء، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشويه الدَّعوة، وإيذائه صلى الله عليه وسلم ، وإيذاء أصحابه، وعرض المغريات، والمساومات لترك الدَّعوة، ومطالبته بجعل الصَّفا ذهباً، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدِّعاية الإعلاميَّة في المواسم ضدَّ الدَّعوة، وشخص الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، والحصار الاقتصاديِّ الَّذي تعرَّض له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنو هاشم، وبنو المطَّلب من قِبَل كفار مكَّة، والإيذاء الجسديِّ، وغير ذلك من أنواع الابتلاء، وسنبين في الصَّفحات القآدمة - بإذن الله تعالى - أساليب المشركين في محاربة الإسلام، وكيف تصدَّى لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكيف دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدَرَ سنَّة الابتلاء، بسنَّة الأسباب، وكيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سنَّة الأخذ بالأسباب، حتَّى أقام دولة الإسلام في المدينة.

المبحث الثَّالث

أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة

أجمع المشـــركون على محاربة الدَّعوة الَّتي عرَّت واقعهم الجاهليَّ، وعابت الهتهم، وســفَّهت أحلامهم - أي: اراءهم، وأفكارهم - وتصـوُّراتهم عن الله، والحياة، والإنسـان، والكون؛ فاتَّخذوا العديد من الوسـائل والمحاولات لإيقاف الدَّعوة، وإسـكات صـوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصــرة، وحماية رســول الله صــلى الله عليه وسلم :

جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قد اذانا في نادينا، ومســـجدنا؛ فانه عنَّا، فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ بني عمِّك هؤلاء زعموا: أنك تؤذيهم في ناديهم، ومسجدهم، فانْتَهِ عن أذاهم، فحلَّق رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السَّماء، فقال: «ترون هذه الشَّمس؟» قالوا: نعم! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعَلوا منها بشعلةٍ» وفي روايةٍ: «والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعَل أحدٌ من هذه الشَّمس شعلةً من نارٍ» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قطُّ، فارجعوا راشــــدين» [البخاري في التاريخ الكبير (51/1/4) والبيهقي في دلائل النبوة (187/2)][(1)] وحاولت قريش مرَّاتٍ عديدةً الضَّغط على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة عائلته، ولكنَّها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه، وتصميمه على مناصرته، وعدم خذلانه، فاشتدَّ ذلك على قريش غمّاً، وحســداً، ومكراً، فمشـــوا إليه بعُمَارَةَ بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب! هذا عُمَارةُ بنُ الوليد، أنهدُ فتًى في قريشٍ، وأجملُها، فخذه، فلك عَقْلُه[(2)] ونصرُه، واتَّخذه

[(1)] صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص 78.

[(2)] فلك عَقْلُه: أي: ديته إذا قتل.

ولداً، فهو لك، وأسْـلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك، ودين ابائك، وفرَّق جماعة قومك، وسـفَّه أحلامنا، فنقتله، فإنَّما هو رجلٌ برجلٍ» قال: «والله لبئس ما تسـومونني![1] أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً!». [السـيرة النبوية لابن هشام (285/1) وابن كثير في البداية والنهاية (48/3)] .

وإنَّ المرء ليسمع عجباً، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالبٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمَّد صلى الله عليه وسلم ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشـم أن ضـمَّ بني هاشـم، وبني المطلب إليه في حلفٍ واحدٍ، على الحياة والموت؛ تأييداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسلمهم، ومشركهم على السَّواء[2]، وأجار ابن أخيه محمَّداً إجارةً مفتوحةً لا تقبل التردُّد، أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهليَّة، والتَّقاليد العربيَّة تُسَخَّر من قبل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم، وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهبٍ عدوِّ الله اللَّعين.

ولـمَّا رأى أبو طالبٍ من قومه ما سرَّه من جهدهم معه، وحَدَبِهِم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، ومكانه منهم؛ ليشدَّ لهم رأيهم، وليَحْدَبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجْتَمَعتْ يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِـرُّها وصَـمِيمُها
وإنْ حُصِّلتْ أشْرافُ عَبْدِ مَنَافِها ... فَفِي هَاشِـمٍ أَشْـرَافُها وقَدِيْمُهَا
وإنْ فَخَرَتْ يومـاً فـإنَّ مُحَمَّـداً ... هُوَ المصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا
تَـداعَـتْ قريشٌ غَثُّهَـا وثَمِيْنُهـا ... علينـا فَلَمْ تَظْفَرْ وطَـاشَـتْ
وكُنَّـا قَـديمـاً لا نُقِرُّ ظُلاَمَـةً ... إذا ما ثَـنَـوْا صُعْرَ الخُدُوْدِ

وحين حاول أبو جهل أن يَخْفِر جوارَ أبي طالبٍ، تصـدَّى له حمزةُ، فَشَـجَّه بقوسـه، وقال له: تشتم محمَّداً وأنا على دينه! فَرُدَّ ذلك؛ إن استطعت.

إنَّها ظاهرةٌ فذَّةٌ أن تقوم الجاهليَّة بحماية مَنْ يسـبُّ الهتها، ويعيب دينها، ويسفِّه أحلامها،

---

[1] تسومونني: تُبادِلُونني.

[2] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 184.

[3] السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (269/1).

وباسم هذه القيم يقدِّمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يُمَسُّ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بسوءٍ.

ولـمَّا خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكَّة، وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنَّه غيرُ مُسْلِمٍ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تاركه لشيءٍ أبداً حتَّى يهلك دونه؛ فقال:

ولـمَّا رأيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيْهِمُ ... وقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائِلِ
وقَدْ صارَحُونَا بالعَداوَةِ والأَذَى ... وقَدْ طاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المزَايلِ
وقد حالفوا قوماً عَلَيْنَا أَظِنَّةً ... يَعضُّون غَيظاً خَلْفَنا بالأنامِلِ
صَبَرْتُ لهمْ نَفْسِي بحَمْرَاءَ[1] سَمْحةٍ ... وأَبْيَضَ عَضْب[2]مِنْ تُرَاثِ
وأحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي ... وأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِه

وتعوَّذ بالبيت، وبكلِّ المقدَّسات الَّتي فيه، وأقسم بالبيت بأنَّه لن يُسْلِمَ محمَّداً ولو سالت الدِّماء أنهاراً، واشتدَّت المعارك مع بطون قريشٍ:

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ الله نُبْزَى مُحمَّداً ... ولـمَّا نُطَاعِنْ دُوْنَهُ ونُنَاضِلِ
ونُسْلِمه حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ[4] ... ونُذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا والحَلائِلِ[5]
ويَنْهضُ قَوْمٌ في الحَدِيْدِ إِلَيْكُمُ ... نُهُوْضَ الرَّوَايا[6] تَحْتَ ذَاتِ

وقَرَّع زعماءَ بني عبد منافٍ بأسمائهم لخذلانهم إيَّاه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فَعُتْبَةُ لاَ تَسْمَعْ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍ ... حَسُوْدٍ كَذُوبٍ مُبْغِض ذِيْ

ولأبي سفيان بن حربٍ يقول:

ومَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّيَ مُعْرِضاً ... كَمَا مرَّ قَيْلٌ[8] مِنْ عِظَامِ

---

(1) حمراء: كناية عن الرُّمح.

(2) أبيض عضب: كناية عن السيف.

(3) السيرة النبوية ، لابن هشام (273/1).

(4) ونسلمه حتى نصرع حوله: أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.

(5) الحلائل: الزوجات.

(6) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.

(7) الدغاول: الدواهي.

(8) قيْل: الرَّئيس الكبير في اليمن.

يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِ   ويَزْعُمُ أنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ[1]

وللمُطْعم بن عديّ سيّد بني نوفل يقول:

أمُطعِمُ لَمْ أخْذُلْكَ في يَوْمِ نَجْدَةٍ   وَلاَ مُعْظِمٍ عِنْدَ الأمُوْرِ الجَلاَئِلِ
أمُطْعِمُ إنَّ الْقَوْمَ سَامُوْكَ خُطَّةً   وإنِّي مَتَى أُوكَلَ فَلَسْتُ بِوَائلِ[2]
جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ ونَوْفَلاً   عُقُوبةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ اجلِ[3]

لقد كان كسب النَّبيّ صلى الله عليه وسلم لعمّه، وجذبه إلى صفّه للدِّفاع عنه، نصراً عظيماً، وقد استفاد صلى الله عليه وسلم من العُرْف القبليّ، فتمتَّع بحماية العشيرة، ومُنِع من أيّ اعتداء يقع عليه، وأعطي حرِّيَّة التَّحرُّك والتَّفكير، وهذا يدلُّ على فهم النَّبيّ صلى الله عليه وسلم للواقع الَّذي يتحرَّك فيه، وفي ذلك درسٌ بالغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى للتَّعامل مع بيئتهم، ومجتمعاتهم، والاستفادة من القوانين، والأعراف، والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم :

قام مشركو مكَّة بتشويه دعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك نظَّمت قريش حرباً إعلاميَّةً ضدَّه لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة؛ حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر موسم الحجِّ، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيُكذِّب بعضكم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضُه بعضاً.

ـ فقالوا: فأنت أبا عبد شمس! فقلْ، وأقِمْ لنا رأياً نقول به.

ـ قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

ـ فقالوا: نقول: كاهنٌ.

ـ فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكُهَّانَ، فما هو بزمزمة[4] الكاهن، ولا سَجْعه.

---

[1] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 212.
[2] بوائل: بناج.
[3] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 212.
[4] الزَّمزمة: كلام خفيٌّ لا يسمع.

ـ فقالوا: نقول: مجنونٌ.

ـ فقال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنونَ، وعرفناه، فما هو بخَنْقِه، ولا تخالُجِه، ولا وَسْوَسَتِه.

ـ فقالوا: نقول: شاعرٌ.

ـــ فقال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشِّعر برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشِّعر.

ـ قالوا: فنقول ساحرٌ.

ـ قال: ما هو ساحر، لقد رأينا السُّحَّار، فما هو بِنَفْثِهِمْ، ولا عَقْدِهِمْ.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!

ـ قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوةً، وإن أصله لعَذقٌ[1]، وإن فرعه لجَنَاةٌ[2]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنَّه باطلٌ، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحرٌ، فقولوا: ساحرٌ يفرِّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته[3].

وأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا *[4] وَبَنِينَ شُهُودًا *وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا *ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ *كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا[5] *إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[6] *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[7] *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ[8] *إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ *سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: 11 – 26] .

ويتَّضح من هذه القصَّة: أنَّ الحرب النَّفسيَّة المضادَّة للرَّسول صلى الله عليه وسلم لم تكن

---

(1) العذق: النَّخلة.

(2) الجناة: ما يجنى من الثَّمر.

(3) السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص 150 ، 151 ، وتهذيب السِّيرة (64/1 ، 65) ، والبيهقي في دلائل النبوة (200/2) ، وابن هشام في السيرة النبوية (288/1 . 289).

(4) واسعاً.

(5) أي: سأصليه عذاباً شديداً.

(6) أي: تروَّى ماذا يقول في القران.

(7) أي: قبض بين عينيه ، وكلَّح ، وقطَّب.

(8) أي: هذا سحرٌ ينقله محمَّد عن غيره ممَّن قبله ، ويحكيه عنهم.

توجَّه اعتباطاً، وإنَّما كانت تعدُّ بإحكام ودقَّةٍ بين زعماء الكفَّار، وحسب قواعد معيَّنةٍ، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النَّفسيَّة في العصر الحديث؛ كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمُّع النَّاس في موسم الحج، والاتِّفاق وعدم التَّناقض، وغير ذلك من هذه الأسُس حتَّى تكون حملتهم منظَّمةً، وبالتَّالي لها تأثيرٌ على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوَّة منها، ومع اختيارهم للزَّمان المناسب، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتَّى تصل جميع الوفود القآدمة إلى مكَّة[1].

ويتَّضح من هذا الخبر، عظمة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقوَّته في التَّأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبُّر، والتَّعاظم، فإنَّه قد تأثَّر بالقرآن، ورقَّ له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك الوصف البليغ[2]، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلاميَّة المنظَّمة أن تحاصر دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل استطاع محمَّد صلى الله عليه وسلم أن يخترق حصار الأعداء، الَّذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكَّة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشويه سمعته عندهم؛ بل صاروا يتلقَّون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثُّر بدعوته، فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عظيمَ النَّجاح في دعوته، بليغاً في التأثير فيمن خاطبه، حيث يؤثِّر على من جالسه بهيئته، وسَمْتِه، ووقاره قبل أن يتكلَّم، ثمَّ إذا تحدَّث أسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ، المتمثِّل في العقل السَّليم، والعاطفة الجيَّاشة بالحبِّ والصَّفاء، والنِّيَّة الخالصة في هداية الأمَّة بوحي الله تعالى[(554)]. ومن أبرز الأمثلة على قوَّته في التأثير بالكلمة المعبِّرة، والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديديِّ، الَّذي حاول زعماء مكَّة ضربه عليه، ما كان من موقفه مع ضماد الأزديِّ، وعمرو بن الطُّفيل الدَّوسيِّ، وأبي ذرٍّ، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم، وهَاكَ التفصيلَ:

1 - إسلام ضِماد الأزديِّ رضي الله عنه:

وفَدَ ضِمادُ الأزديُّ إلى مكَّة، وتأثَّر بدعاوى المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتَّى استقرَّ في نفسه: أنَّه مصاب بالجنون - كما يتَّهمه بذلك زعماء مكَّة - وكان ضماد من

---

[1] انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص 103.

[2] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (123/1).

أزد شنوءة، وكان يعالِجُ من الجنون، فلـــمَّا سمع سفهاء مكَّة يقولون: إنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم مجنونٌ، فقال: لو أني رأيت هذا الرَّجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ.

قال: فلقيه، فقال: يا محمد! إنِّي أرقي من هذه الرِّيح، وإنَّ الله يشـفي على يديَّ من شـاء؛ فهل لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضـلَّ له، ومن يُضـلل فلا هادي له، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأنَّ محمَّداً عبده، ورسوله، أما بعدُ».

فقال: أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاء ! فأعادهنَّ عليه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ثلاث مرَّاتٍ. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السَّـــحرة، وقول الشُّـــعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ[1]، فقال لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : هات يدك أبايعْك على الإســلام، قال: فبايعه، فقال رســول الله صــلى الله عليه وســلم : «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإســـلام في المدينة، وكانت ســـرايا رســـولِ الله تُبعث؛ مرُّوا على قوم ضـــماد، فقال صـــاحب السَّـــريَّة للجيش: هل أصــبتم من هؤلاء شـــيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطْهَرَةً، فقال: ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء قومُ ضمادٍ. [مسلم (868) وأحمد (302/1) والنسائي (89/6 – 90) وابن ماجه (1893)] .

دروسٌ وفوائد:

1 – دعاية قريش، وتشـويه شـخص الرَّسـول صـلى الله عليه وسلم ، واتِّهامه بالجنون؛ حمل ضـماداً على السَّـير للرَّسول صلى الله عليه وسلم من أجل رقيتـــــه، فكانت الحرب الإعلاميَّة المكيَّة ضدَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم سبباً في إسلامه، وإسلام قومه.

2 – تتَّضح صفتا الصَّبر والحلم في شخص النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقد عرض ضماد على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، معالجته من مرض الجنون، وهذا موقفٌ يثير الغضـب، ولكنَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم اسـتقبل الأمر بحلمٍ، وهدوءٍ، ممَّا آثار إعجاب ضـمادٍ واحترامه لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (127/1 . 137).

3 – أهمِّية هذه المقدِّمة الَّتي يستفتح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض خطبه، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يجعلها بين يدي خطبه، ومواعظه.

4 – تأثُّر ضماد بفصاحة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وقوَّة بيانه؛ لأنَّ حديث الرَّسول صلى الله عليه وسلم انبعث من قلب مُلئ إيماناً، ويقيناً، وحكمةً، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب، ويجذبها إلى الإيمان.

5 – في سرعة إسلام ضماد دليلٌ على أنَّ الإسلام دين الفطرة، وأنَّ النفوس إذا تجرَّدت من الضُّغوط الدَّاخليَّة والخارجيَّة؛ فإنَّها غالباً تتأثَّر وتستجيب، إمَّا بسماع قول مؤثِّرٍ، أو الإعجاب بسلوكٍ قويم.

6 – حرص الرَّسول على انتشار دعوته؛ حيث رأى في ضماد صدق إيمانه، وحماسته للإسلام، وقوَّة اقتناعه به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

7 – وفي هذا بيانٌ واضح لأهمِّيَّة الدَّعوة إلى الله تعالى؛ حيث جعلها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قرينة الالتزام الشَّخصيِّ، فقد بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الالتزام بالدِّين، فلم يكتف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بذلك؛ بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

8 – حفظ المعروف والودّ لأهل السَّابقة، والفضل: «ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء من قوم ضماد»[1].

9 – في الحديث بعض الوسائل التَّربويَّة التي استعملها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع ضماد، كالتأنِّي في الحديث، وأسلوب الحوار، والتَّوجيه المباشر، وتظهر بعض الصِّفات في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم كمربٍّ؛ كالحلم، والصبر، والتَّشجيع على الإكثار من الخيرات.

2 – إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

[1] ناعُوسُ البحر: معناه: وسطه ، أو لجَّته ، أو قعره الأقصى.

قال عَمْرُو بن عَبَسَـــةَ السُّــلَمِيُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أَظُنُّ أنَّ النَّاس على ضــلالةٍ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ؛ وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً، جُرَاءُ عليه قومُه، فَتَلَطَّفْتُ حتَّى دخلت عليه بمكَّة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ» فقلت: وما نبيٌّ؟ قال: «أرســلني الله»، فقلت: وبأي شـيءٍ أرسـلك؟ قال: «أرسـلني بصـلة الأرحام، وكسـر الأوثان، وأن يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْــرَكُ به شـــيءٌ» فقلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ، وعبدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر، وبلالٌ ممَّن امن به، فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا، ألا ترى حالي وحالَ النَّاس؟ ولكن ارجعْ إلى أهلك، فإذا سمعتَ بي قد ظَهَرْتُ فائتني».

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رســول الله صــلى الله عليه وســلم المدينة، وكنت في أهلي، فجعلتُ أتَخَبَّرُ الأخبارُ، وأســـأل النَّاس حين قدم المدينة، حتَّى قدم عليَّ نفرٌ من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرَّجلُ الَّذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناسُ إليه سِـــراعٌ، وقد أراد قومُه قتله، فلم يســتطيعوا ذلك، فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رســول الله! أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الَّذي لقيتني بمكَّة».

وذكر بقيَّة الحديث، وفيه: أنَّه سـأله عن الصَّـلاة، والوضـوء. [مسلم (832) وأحمد (112/4) وأبو داود (1277) والنسائي (279/1 – 280) وابن ماجه (1251)] .

دروس وعبر:

1 – عَمْرُو بنُ عَبَسَةَ كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهليَّة.

2 – كانت الحروب الإعلاميَّة الضَّـروس الَّتي شـنَّتها قريشٌ على رسـول الله صـلى الله عليه وسلم سبباً في تتبُّع عمرو بن عبسة لأخبار الرَّسول صلى الله عليه وسلم .

3 – جرأة، وشدَّة قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفياً وقومه جُرَاءُ عليه.

4 – الأدب في الدُّخول على أهل الفضــل والمنزلة، قال عمرو بن عبســة: «فتلطَّفت حتَّى دخلت عليه».

5 – الرِّســالة المحمَّدية تقوم على ركيزتين: حقِّ الله، وحقِّ الخلق. قال صـلى الله عليه وسـلم

: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان» وفي هذا دليلٌ على أهمِّيَّة صلة الأرحام؛ حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدَّعوة إلى التَّوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوَّة، مع أنَّها كانت أقدس شيءٍ عند العرب، وفي هذا دلالةٌ على أهمِّيَّة إزالة معالم الجاهليَّة، وأنَّ دعوة التَّوحيد لا تستقرُّ ولا تنتشر، إلا بزوال هذه المعالم.

6 - وفي اهتمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم المبكِّر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالةٌ على أنَّ أمور الدِّين لا يجوز تأخير بيانها للنَّاس، بحجَّة عدم القدرة على تطبيقها، فالَّذين يبيِّنون للنَّاس من أمور الدِّين ما يستطيعون تطبيقه بسهولةٍ، وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدِّين الَّتي يحتاج تطبيقها إلى شيءٍ من المواجهة والجهاد هؤلاء دعوتهم ناقصةٌ، ولم يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي واجه الجاهليَّة وطغاتها وهو في قلَّةٍ من أنصاره، والسِّيادة في بلده لأعدائه[1].

7 - حِرْصُ الرَّسول صلى الله عليه وسلم على صحابته، وتوفير الجوِّ الامن لهم، والسَّير بهم إلى برِّ الأمان، وإبعادهم عن التَّعرُّض للمضايقات، فقد قال لعَمْرِو بنِ عَبَسَةَ: «إنك لا تستطيع يومك هذا».

8 - تذكُّر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحوال أصحابه، وعدم نسيان مواقفهم، قال: «أنت الذي لقيتني بمكَّة».

9 - لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي كلَّ مَنْ أسلم قائمةً بأسماء أتباعه، فهذا ليس للسَّائل منه مصلحةٌ، ولا يتعلَّق به بلاغ، ولذلك لـمَّا سأله عمرو بن عبسة عمَّن تبعه؛ قال: «حرٌّ، وعبدٌ» وهذه تورية - كما قال ابن كثير - بأن هذا اسم جنس فَهِمَ منه عمرو: أنَّه اسم عين[2].

10 - في قوله: «ارجع إلى أهلك، فإذا سمعتَ بي ظَهَرْتُ؛ فائتني»، نأخذ منه درساً في الدَّعوة: أنَّ تكديس المريدين، والأعضاء حيث المحنة، والإيذاء، ليس هو الأصل؛ فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجِّه نحو الرُّجوع إلى الأقوام، وأمر - كما سنرى - بالهجرتين إلى

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (132/1، 133)، وانظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص 111 . 113).

[2] انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (109/1).

الحبشـة، فذلك تخفيفٌ عن المسـلمين، وإبعادٌ عن مواطن الخطر، وسـترٌ لقوَّة المسـلمين، وإعطاء فرصـةٍ للقائد حتَّى لا ينشغل، وضـمانٌ للسِرِّيَّة، وإفادةٌ للمكان المرسـل إليه، وإعدادٌ للمستقبل، وملاحظةٌ لضمان الاستمرار، وتجنُّب الاستئصال[1].

وممَّن أسلم بسبب الحرب الإعلاميَّة ضـدَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيُّ، وجاءت قصَّته مفصَّلةً في كتب السِّيرة، ويرى الدُّكتور أكرم ضياء العمري: أنَّه لم يثبت منها إلا أنَّه دعا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم للالتجاء إلى حصن دوسٍ المنيع، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك [مسلم (116) وأحمد (371/3)]، وأشارت روايةٌ صحيحةٌ إلى أنَّ الطُّفيل دعا قومه إلى الإسـلام، ولقي منهم صـدوداً، حتَّى طلب الطُّفيل من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن يدعو عليهم، لكن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم دعا لهم بالهداية [البخاري (2937) ومسلم (2524)] وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ائذٍ بالمدينة المنوَّرة[2]..

3 – إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنهما:

جاءت قريش إلى الحصـــين – وكانت تعظِّمه – فقالوا له: كَلِّمْ لنا هذا الرَّجل، فإنَّه يذكر الهتنا، ويسـبُّها، فجاؤوا معه حتَّى جلسـوا قريباً من باب النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ، فقال: «أوسعوا للشَّيخ»، وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك، أنك تشتم الهتنا، وتذكرها، وقد كان أبوك حصينةً[3]، وخيراً؟ فقال: «يا حُصَيْنُ! إنَّ أبي وأباك في النَّار، يا حُصَيْنُ! كم تعبد من إله؟» قال: سبعاً في الأرض، وواحداً في السَّماء. فقال: «فإذا أصابك الضـرُّ مَنْ تدعو؟» قال: الَّذي في السَّـماء. قال: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو؟» قال: الَّذي في السَّماء، قال: «فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه؟ أرضيته في الشُّكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدةً من هاتين. قال: وعلمت أنِّي لم أكلم مثله، قال: «يا حصين! أسلِمْ تسلَمْ». قال: إنَّ لي قوماً، وعشيرةً، فماذا أقول؟ قال: «قل: اللَّهم أستهديك لأرشد أمري، وزدني علماً ينفعني»، فقالها حصين، فلم يَقُمْ؛ حتَّى أسلم. فقام إليه عِمْرانُ فقبَّل رأسه، ويديه، ورجليه، فلـمَّا رأى ذلك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ بكى، وقال: «بكيت من صنيع

---

[1] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص 106 إلى 109.
[2] انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى ، (126/1).
[3] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (76/2) ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للدُّكتور العمري (146/1).

عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلـــمَّا أسلم قضى حقَّه، فدخلني من ذلك الرِّقَّة»، فلـــمَّا أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه إلى منزله» فلمَّا خرج من سُدَّةِ الباب؛ رأته قريشٌ، فقالوا: صبأ!! وتفرَّقوا عنه»[1].

ولعلَّ الَّذي حدا بالحصـين والد عمران أن يسـلم بهذه السُّـرعة سـلامة فطرته، وحسـن اسـتعداده من ناحيةٍ، وقوَّة حجَّة الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم وسـلامة منطقه من ناحية أخرى[2]، ونلاحظ: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم أسلوب الحوار مع الحصين؛ لغرس معاني التوحيد في نفسه، ونسف العقائد الباطلة الَّتي كان يعتقدها.

4 - إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه:

كان أبو ذرٍّ رضـــي الله عنه مُنْكِراً لحال الجاهليَّة، ويأبى عبادة الأصـــنام، وينكر على مَنْ يشـرك بالله، وكان يصـلِّي لله قبل إسـلامه بثلاث سـنوات، دون أن يخصَّ قبلة بعينها بالتوجُّه، ويظهر أنَّه كان على نهج الأحناف، ولـــمَّا سمع بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قدم إلى مكَّة، وكره أن يســـأل عنه حتى أدركه اللَّيل، فاضـــطجع فراه عليٌّ رضـــي الله عنه، فعرف: أنَّه غريب، فاستضافه، ولم يسأله عن شيءٍ، ثمَّ غادره صباحاً إلى المسجد الحرام، فمكث حتَّى أمسى، فراه عليٌّ فاستضافه لِلَيلة ثانية، وحدث مثل ذلك في اللَّيلة الثَّالثة، ثمَّ سأله عن سبب قدومه، فلـــمَّا استوثق منه أبو ذرٍّ؛ أخبره بأنَّه يريد مقابلة الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم ، فقال له عليٌّ: فإنَّه حقٌّ، وهو رسـول الله، فإذا أصـبحت؛ فاتَّبعْني، فإنِّي إن رأيتُ شـيئاً أخاف عليك؛ قمت كأنِّي أريق الماء، فإن مضيت، فاتَّبعني، فتبعه، وقابل الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، واستمع إلى قوله فأسـلم، فقال له النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم : «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتَّى يأتيك أمري»، فقال: والَّذي نفسي بيده، لأصرخنَّ بها بين ظَهْرَانيْهم، فخرج حتَّى أتى المسجد، فنادى بأعلى صـوته: أشـهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسـول الله، وثار القوم حتَّى أضـجعوه، فأتى العبَّاس بن عبد المطَّلب، فحذَّرهم من انتقام غفار، والتَّعرُّض لتجارتهم الَّتي تمرُّ بديارهم إلى الشَّـــام،

---

[1] حصينة: يعني عاقلاً متحصِّناً بدين ابائه وأجداده ، ومعتقداتهم. انظر: النهاية (234/1).

[2] الإصابة في تمييز الصَّحابة ، لابن حجر ، (337/1) وعنه نقل الشَّيخ محمد يوسف الكاندهلوي في: حياة الصحابة (75/1 ، 76) ، وبنحوه مختصراً رواه الترمذي (3483).

فأنقذه منهم[1]، وكان أبو ذرٍّ قبل مجيئه قد أرسل أخاه؛ ليعلم له علم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ويسمع من قوله، ثمَّ يأتيه، فانطلق الأخ حتَّى قدم إليه، وسمع من قوله، ثمَّ رجع إلى أبي ذرٍّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشِّعر، فقال: ما شفيتني[2] ممَّا أردت[3]، وعزم على الذَّهاب بنفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أخوه له: «وكُن على حذرٍ من أهل مكَّة فإنَّهم قد شَنِفُوا له، وتجهَّمُوا» [البخاري (3861) ومسلم (2474)][4] .

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - شيوع ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبائل، واكثر مَنْ ساهم في ذلك مشركو قريش، بما اتَّخذوه من منهج التَّحذير والتَّشويه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء به، حتَّى وصل ذكره قبيلة غِفار.

2 - تميُّزُ أبي ذرٍّ رضي الله عنه بأنَّه رجلٌ مستقلٌّ في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزُّه الدِّعايات، فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعيداً عن التَّأثيرات الإعلاميَّة.

3 - شدَّة اهتمام أبي ذرٍّ بأمر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يكتف بالمعلومات العامَّة التَّي جاء بها أخوه أُنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إنَّ مجال البحث ليس عن رجلٍ يأمر بالخير فحسب؛ وإنما عن رجلٍ يَذكر أنَّه نبيٌّ؛ ولذلك تحمَّل المشاقَّ، والمتاعب، وشظف العيش، والغربة عن الأهل، والوطن في سبيل الحقّ، فأبو ذرٍّ ترك أهله، واكتفى من الزاد بجرابٍ، وارتحل إلى مكَّة لمعرفة أمر النُّبوَّة[5].

4 - التَّأنِّي والتَّريُّث في الحصول على المعلومة؛ حيث تأنَّى أبو ذرٍّ رضي الله عنه؛ لما يعرفه من كراهية قريشٍ لكلِّ مَنْ يخاطب الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا التَّأنِّي تصرُّفٌ أمنيٌّ تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه؛ لعلمت به قريش، وبالتَّالي قد يتعرَّض للأذى والطَّرد،

---

[1] انظر: فقه الدعوة الفردية ، د. السيد محمد نوح ، ص 104.
[2] مسلمٌ ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل أبي ذرٍّ ، رقم (2474) ، والبخاريُّ رقم (3861) ، و(3522).
[3] ما شفيتني ممَّا أردت: ما بلغتني غرضي ، وأزلت عنِّي همَّ كشفِ هذا الأمر.
[4] صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص 83.
[5] شَنِفُوا له أي: أبغضوه ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (145/1).

ويخسر الوصول إلى هدفه، الَّذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمَّل في سبيله مصاعب، ومشاقَّ السَّفر.

5 – الاحتياط والحذر قبل النُّطق بالمعلومة: حين سأل عليٌّ رضي الله عنه أبا ذرٍّ رضي الله عنه عن أمره، وسبب مجيئه إلى مكَّة، لم يخبره بالرَّغم من أنَّه استضافه ثلاثة أيَّامٍ؛ إمعاناً في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غايةٌ في الاحتياط، وتمَّ ما أراده.

6 – التَّغطية الأمنيَّة للتَّحرُّك: تمَّ الاتفاق بين عليٍّ وأبي ذرٍّ رضي الله عنه على إشارةٍ، أو حركةٍ معيَّنةٍ، كأنَّه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى عليٌّ رضي الله عنه من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطيةٌ أمنيةٌ لتحرُّكهم تجاه المقرِّ (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أنَّ أبا ذرٍّ كان يسير على مسافةٍ من عليٍّ، فيُعدُّ هذا الموقف احتياطاً، وتحسُّباً لكلِّ طارئ، قد يحدث في أثناء التَّحرُّك.

7 – هذه الإشارات الأمنيَّة العابرة، تدلُّ على تفوُّق الصَّحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنيَّة، وعلى مدى توافر الحسِّ الأمنيِّ لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتَّى أصبح سمةً مميِّزةً لكلِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتهم الخاصَّة والعامَّة، فأتت تحرُّكاتهم منظَّمةً ومدروسةً، فما أحوجنا لمثل هذا الحسِّ، الَّذي كان عند الصَّحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمِّيةٌ بالغةٌ في زوال واستمرار الحضارات[1]، وأصبحت له مدارسه الخاصَّة، وتقنياته المتقدِّمة، وأساليبه، ووسائله المتطوِّرة، وأجهزته المستقلَّة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامَّةً، والمعلومات الأمنيَّة خاصَّةً تباع بأغلى الأثمان، ويُضَحَّى في سبيل الحصول عليها بالنَّفس إذا لزم الأمر!.

وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالنَّاحية الأمنية؛ حتَّى لا تصبح قضايانا مستباحةً للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم[2].

8 – صدق أبي ذرٍّ رضي الله عنه في البحث عن الحقِّ، ورجاحة عقله، وقوَّة فهمه، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

---

[1] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص 91 . 93).

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي، ص 58، 59.

9 – حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم واهتمامه بأمن أصحابه، وسلامتهم؛ حيث أمر أبا ذرٍّ بالرُّجوع إلى أهله، وكتمان أمره حتَّى يظهره الله.

10 – شجاعة أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وقوَّته في الحقِّ فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش، ومجتمعاتهم، تحدِّياً لهم وإظهاراً للحقِّ[1]، وكأنَّه فهم: أنَّ أمر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم له بالكتمان، ليس على الإيجاب؛ بل على سبيل الشَّفقة عليه، فأعلمه بأنَّ به قوَّةً على ذلك؛ ولهذا أقرَّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحقِّ عند من يخشى منه الأذيَّة لمن قاله – وإن كان السُّكوت جائزاً – والتَّحقيق: أنَّ ذلك مختلفٌ باختلاف الأحوال والمقاصد، وبحسب ذلك يترتَّب وجود الأجر، وعدمه[2].

11 – كان موقف أبي ذرٍّ رضي الله عنه مفيداً للدَّعوة، ومساهماً في مقاومة الحرب النَّفسيَّة الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت ضربةً معنويَّةً أصابت كفار مكَّة في الصَّميم، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذرٍّ رضي الله عنه وقدرته على التحمُّل، فقد سالت الدِّماء من جسده، ثمَّ عاد مرَّةً أخرى للصَّدع بالشَّهادة.

12 – مدافعة العبَّاس عن المسلمين، وسعيه لتخليص أبي ذرٍّ من أذى قريش، دليلٌ على تعاطفه مع المسلمين، وكان أسلوبه في ردِّ الاعتداء يدلُّ على خبرته بنفوس كفار مكَّة؛ حيث حذَّرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم، عندما تمرُّ بديار غِفار[3].

13 – امتثل أبو ذرٍّ للترتيبات الأمنيَّة، الَّتي اتَّخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكَّة، فمع تعلُّق أبي ذرٍّ بالرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وحبِّه له، وحرصه على لقائه، إلا أنَّه امتثل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مغادرة مكَّة إلى قومه، واهتمَّ بصلاح، وهداية الأهل، ودعوتهم للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمِّه وقومه.

14 – أثرُ أبي ذرٍّ الدَّعويُّ على قومه وقدرته على هدايتهم، وإقناعهم بالإسلام، ومع ذلك فإنَّه لا يصلح للإمارة، روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍّ، قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على مَنْكِبِي، ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيف، وإنَّها أمانةٌ،وإنَّها

---

[1] انظر: دروس في الكتمان ، لمحمود شيت خطَّاب ، ص 9.

[2] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص 95.

[3] فتح الباري ، شرح حديث رقم (3861).

يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ، إلا من أخذها بحقِّها، وأدَّى الَّذي عليه فيها» [مسلم (1825) وأحمد (5/173، 267)]، فلكلِّ شــخصٍ مجاله الَّذي ســخَّره الله فيه، وميدانه الَّذي يقوم بواجبه فيه، فليس معنى: أنَّه نجح في الدَّعوة، وإقناع النَّاس: أنَّه يصلح لكلِّ شيءٍ.

15 – تفويض أبي ذرٍّ الإمامة إلى سـيِّد غفار (أيماء بن رَحضــة) – مع تقدُّم أبي ذرٍّ عليه في الإسـلام وعلوِّ منزلته – يدلُّ على مهارةٍ إداريَّةٍ، وهي عدم جمع كلِّ الأعمال في يده، وتقدير النَّاس، وإنزالهم منازلهم[1].

16 – نجاح أبي ذرٍّ الباهر في الدَّعوة؛ حيث أسـلمت نصـف غفار، وأسـلم نصـفها الثَّاني بعد الهجرة[2].

لقد فشــــلت محاولات التَّشــــويه، والحرب الإعلاميَّة، والحجر الفكري الَّذي كان الكفار يمارسـونه على الدَّعوة الإسـلاميَّة في بداية عهدها؛ لأنَّ صـوت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التَّبليغ كانت أبلغ من وسـائلهم، وثباته على مبدئه السَّـامي كان أعلى بكثيرٍ ممَّا كان يتوقَّعه أعداؤه؛ فالرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم لم يجلس في بيته، ولم ينزوِ في زاويةٍ من زوايا المســجد الحرام؛ ليســتخفي بدعوته، وليقي نفســه من ســهام أعدائه المسـمومة؛ بل إنَّه غامر بنفسـه صـلى الله عليه وسـلم ، فكان يخرج إلى مضـارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكَّة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المســجد الحرام؛ ليســمع من كان في قلبه بقيَّة من حياةٍ، وآثارةٍ من حرّيَّةٍ وإباءٍ، فيتســرَّب نور الهدى إلى مجامع لبِّه، وســويداء قلبه[3]، وكان من هؤلاء ضماد الأزديُّ، وعمْرُو بن عَبَسَةَ، وأبو ذرٍّ الغفاري، والطُّفيل بن عمرو الدَّوسي، وحصين والد عمران بن الحصـين رضـي الله عنهم، وهذا دليلٌ قاطعٌ، وبرهانٌ سـاطعٌ، على فشـل حملات التَّشـويه الَّتي شـنَّتها قريشٌ ضـدَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فعلينا أن نعتبر، ونسـتفيد من الدُّروس، والعبر.

ثالثاً: ما تعرَّض له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الأذى والتَّعذيب:

---

[1] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة (ص 94 ، 95).

[2] انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص 100.

[3] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (1/45).

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدلُّ على ذلك - مبلغ هذا الأذى - تلك الآيات الكثيرة الَّتي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصَّبر، وتدلُّه على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلةً من واقع إخوانه المرسلين؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ [المزمل: 10]، و ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: 24]، و ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: 70]، و ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: 43].

وهذه أمثلةٌ تدلُّ على ما تعرَّض له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الإيذاء:

1 - قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهَه[1] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاَّتِ والعُزَّى! لئن رأيتُهُ يفعل ذلك؛ لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفِّرَنَّ وجهه في التُّراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلِّي، زعم لِيَطَأَ على رقبته، قال: فما فَجِئَهُمْ[2] منه إلا وهو يَنْكُصُ على عقبيه[3] ويتّقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهَولاً، وأجنحةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» [مسلم (2797)] .

وفي حديث ابن عباسٍ قال: «كان النَّبيُّ يُصلِّي، فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟! ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فزبره[4]، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ *سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: 17 - 18] قال ابن عباس: لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله» [الترمذي (3349)] .

2 - وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكم

---

[1] التاريخ الإسلامي ، للحميدي (144/1).

[2] فجئَهم: بغتهم.

[3] عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.

[4] زبره: نهره.

يقوم إلى جزور ال فلان، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها، ودمها، وسلاها، فيجيءُ به، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلـمَّا سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وضعه بين كتفيه، وثبت النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ساجداً، فضحكوا حتَّى مال بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحك، فانطلق مُنطِلقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ – وهي جُوَيرِيةٌـ فأقبلت تسعى، وثبت النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسُبُّهم، فلـمَّا قضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصَّلاة، قال: اللَّهم عليك بقريش! اللَّهمَّ عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! ثمَّ سَمَّى: اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميَّة بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وعُمارةَ بن الوليد، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ، ثمَّ سحبوا إلى القَلِيب[1] – قليب بدرٍ – ثمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيبِ لعنةً» [البخاري (520) ومسلم (1794)] .

وقد بيَّنت الرِّوآيات الصَّحيحة الأخرى: أنَّ الَّذي رمى الرَّفث عليه هو عقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وأنَّ الَّذي حرَّضه هو أبو جهل [مسلم (1794)]، وأنَّ المشركين تأثَّروا بدعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم عليهم، وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنَّهم يرون أنَّ الدَّعوة بمكَّة مستجابةٌ[2].

3 – اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرَّسول صلى الله عليه وسلم : اجتمع أشراف قريشٍ يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّهَ أحلامنا، وسبَّ الهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم! فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا وثبة رجلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون: أنت الَّذي تقول كذا وكذا – لما كان يقول من عيب الهتهم ودينهم – فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثمَّ أخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّيَ الله؟! [البخاري (3687 و3856 و4815) والبيهقي في دلائل النبوة (274/2)](3).

4 – كان أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من أشدِّ النَّاس عداوةً له، وكذلك كانت

---

[1] القَلَيب: البئر المفتوحة.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمريِّ (149/1) ، وانظر كذلك المصدر السَّابق.

[3] صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي من طرقٍ أخرى ، ص 96.

امرأته أمُّ جميلٍ، من أشدِّ النَّاس عداوةً للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاس بالنَّميمة، وتضع الشَّوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد: 1 – 5]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن؛ أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصدِّيق، وفي يدها فهرٌ من حجارةٍ؛ فلمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنَّه يهجوني، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثمَّ انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عنِّي، وكانت تنشد: مذمَّمٌ أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح؛ لأن المشركين يسبُّون مذمَّماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنِّي شتم قريش، ولعنهم، يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمَّد» [البخاري (3533)].

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنَّه كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسواق، والمجامع، ومواسم الحج ويكذِّبه[1].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذيَّة المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكِّيَّة[2]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما لاقاه من أذى قريشٍ قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه، يقول: «لقد أُخِفْتُ في الله – عزَّ وجلَّ – وما يُخاف أحدٌ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلة، وما لي، ولا لبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال» [الترمذي (2472) وابن ماجه (151)] .

ومع ما له صلى الله عليه وسلم من عظيم القدر، ومنتهى الشَّرف، إلا أنَّه قد حظي من البلاء بالحمل الثَّقيل، والعناء الطَّويل، منذ أوَّل يومٍ صدع فيه بالدَّعوة، ولقد لقي النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من سفهاء قريش أذىً كثيراً، فكان إذا مرَّ على مجالسهم بمكَّة استهزؤوا به، وقالوا

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (293/1).

[2] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (153/1).

سآخرين: هذا ابن أبي كبشة[1]، يُكلَّم من السَّماء! وكان أحدهم يمرُّ على الرَّسول صلى الله عليه وسلم فيقول له سآخراً: أما كُلِّمْتَ اليوم من السَّماء؟![2].

ولم يقتصر الأمر على مجرَّد السُّخرية، والاستهزاء، والإيذاء النَّفسيِّ، بل تعدَّاه إلى الإيذاء البدنيِّ، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدوُّ الله أميَّة بن خلف في وجه النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم [3]، وحتَّى بعد هجرته – عليه السَّلام – إلى المدينة، لم تتوقف حدَّة الابتلاء والأذى، بل أخذت خطّاً جديداً، بظهور أعداءٍ جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكَّة؛ صار له صلى الله عليه وسلم أعداءٌ من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود، والفرس، والرُّوم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكَّة شتماً، وسخريةً، وحصاراً، وضرباً، صار مواجهةً عسكريَّة مسلَّحةً، حامية الوطيس، فيها كرٌّ، وفرٌّ، وضربٌ، وطعنٌ؛ فكان ذلك بلاءٌ في الأموال، والأنفس على السَّواء[4]، وهكذا كانت فترة رسالته صلى الله عليه وسلم وحياته، سلسلةً متَّصلةً من المحن، والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتَّى لقي ربَّه[5].

لقد واجه الرَّسول صلى الله عليه وسلم من الفتن، والأذى، والمحن مالا يخطر على بالٍ، في مواقف متعدِّدةٍ، وكان ذلك على قدر الرِّسالة الَّتي حُمِّلها، ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرَّفيعة عند ربِّه، وقد صبر على ما أصابه؛ إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأمم الماضية من العذاب؛ وليكون قدوةً للدُّعاة، والمصلحين[6]، فإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد هناك أحدٌ أكبر من الابتلاء، والمحنة، وتلك سنّة الله في الدَّعوات؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله! أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟

---

[1] والد الرَّسول صلى الله عليه وسلم من الرَّضاعة.

[2] انظر: الرَّوض الأنف (33/2) وما بعدها.

[3] المصدر السابق نفسه ، (48/2).

[4] انظر: زاد اليقين ، لأبي شنب ، ص 137.

[5] انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 243.

[6] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، د. سليمان السُّويكت ، ص 197.

قال: «الأنبياء، ثمُّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً؛ اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتَّى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة» [ابن ماجه (4024) عن أبي سعيد الخدري، ورواه الترمذي (2398)، وأحمد (172/1)، وابن ماجه (4023) عن سعد بن أبي وقاص] .

رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى والتَّعذيب:

1 - ما لاقاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

تحمَّل الصَّحابة رضي الله عنهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يَسْلَمْ أشرافُ المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أُوذي أبو بكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه التُّراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنِّعال حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وحُمِل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت[1]، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أنَّه لـمَّا اجتمع أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظُّهور، فقال: «يا أبا بكر! إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحُّ حتَّى ظهر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كلُّ رجلٍ في عشيرته، وقام أبو بكر في النَّاس خطيباً ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ، فكان أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئَ أبو بكر، وضُرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسقُ عتبةُ بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكرٍ رضي الله عنه، حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تَيْمٍ يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكرٍ، وحمَلتْ بنو تيم أبا بكرٍ في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكُّون في موته، ثمَّ رجعت بنو تيمٍ، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تَيْم يكلِّمون أبا بكر حتَّى أجاب، فتكلَّم آخر النَّهار، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم، وعذلوه، وقالوا لأمِّه أمِّ الخير: انظري أن

---

[1] انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 243.

تطعميه شيئاً، أو تسقيه إيَّاه، فلمَّا خلت به؛ ألحَّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أمِّ جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل؛ فقالت: إنَّ أبا بكرٍ يسألك عن محمَّد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكرٍ، ولا محمَّد بن عبد الله، وإن كنت تحبّين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها؛ حتَّى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً، فدنت أمُّ جميل، وأعلنت بالصِّياح، وقالت: والله! إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فِسْقٍ وكفرٍ، إنَّني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: هذه أمُّك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالمٌ، صالحٌ، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإنَّ لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو اتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأمهلتاه؛ حتَّى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتَّى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: فأكبَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقَّةً شديدة، فقال أبو بكر: بأبي، وأمي يا رسول الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها، وأنت مباركٌ فادعها إلى الله، وادعُ الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النَّار. قال: فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها إلى الله فأسلمت[1].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - حِرْصُ أبي بكرٍ رضي الله عنه على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفَّار، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه، وشجاعته، وقد تحمَّل الأذى العظيم، حتَّى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته.

2 - مدى الحبِّ الَّذي كان يُكنُّه أبو بكرٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حيث إنَّه وهو في تلك الحال الحرجة، يسأل عنه، ويُلحُّ إلحاحاً عجيباً في السُّؤال، ثمَّ يحلف ألاَّ يأكل، ولا يشرب حتَّى يراه، كيف يتمُّ ذلك، وهو لا يستطيع المشي، بل النُّهوض؟ ولكنَّه الحبُّ الَّذي في الله، والعزائم التي تقهر الصِّعاب، وكلُّ مصابٍ في سبيل الله؛ ومن أجل رسوله صلى الله عليه وسلم هيِّنٌ، ويسيرٌ.

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (439/1 . 441) ، والبداية والنِّهاية (30/3).

3 – إنَّ العصـــبيَّة القبليَّة، كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث والتَّعامل مع الأفراد، حتَّى مع اختلاف العقيدة؛ فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدِّد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكر[1].

4 – الحسُّ الأمنيُّ لأمِّ جميلٍ رضي الله عنها، فقد برز في عدَّة تصرُّفاتٍ؛ لعلَّ من أهمها:

إخفاء الشَّخصيَّة، والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سـألت أمُّ الخير أمَّ جميل، عن مكان الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم ، أنكرت أنَّها تعرف أبا بكر، ومحمَّد بن عبد الله، فهذا تصـرُّفٌ حذِرٌ سـليم؛ إذ لم تكن أمُّ الخير سـاعتئذٍ مسـلمةً، وأمُّ جميل كانت تخفي إسـلامها، ولا تودُّ أن تعلم به أمُّ الخير، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ مخافةَ أن تكون عيناً لقريشٍ[2].

استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأمُّ جميلٍ أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكرٍ رضي الله عنه، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأمِّ الخير؛ إمعاناً في السِّـرِّيَّة، والكتمان، فاسـتغلَّت الموقف لصـالحها قائلةً: «إن كنتِ تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك؛ فعلت»، وقد عرضت عليها هذا الطَّلب بطريقةٍ تنم عن الذَّكاء وحسن التَّصرُّف، فقولها: «إن كنت تحبِّين – وهي أمُّه –» وقولها: «إلى ابنك»، ولم تقل لها: إلى أبي بكرٍ، كلُّ ذلك يحرِّك في أمِّ الخير عاطفة الأمومة، فغالباً ما ترضـخ لهذا الطَّلب، هذا ما تم بالفعل؛ حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتَّالي نجحت أمُّ جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

استغلال الموقف في كسب عطف أمِّ أبي بكر:

يبدو أنَّ أمَّ جميل حاولت أن تكسـب عطف أمِّ الخير، فاستغلَّت وضـع أبي بكرٍ رضـي الله عنه، الَّذي يظهر فيه صـريعاً دَنِفاً، فأعلنت بالصِّـياح، وسَـبَّتْ مَنْ قام بهذا الفعل بقولها: «إنَّ قوماً نالوا هذا منكَ لأهلُ فسـقٍ، وكفرٍ»؛ فلا شـك أنَّ هذا الموقف من أمِّ جميلٍ يشـفي بعض غليل أمِّ الخير من الَّذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنُّ شـيئاً من الحبِّ لأمِّ جميل، وبهذا تكون أمُّ جميل كسبت عطف أمِّ الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهِّل مهمَّة أمِّ جميل في إيصـال المعلومة إلى

---

[1] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 79.

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 50.

أبي بكرٍ رضي الله عنه[1].

الاحتياط والتأنِّي قبل النُّطق بالمعلومة:

لقد كانت أمُّ جميل في غاية الحيطة، والحذر، من أن تتسرَّب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدَّعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أمِّ الخير؛ لأنَّها ما زالت مشركةً آنذاك، وبالتَّالي لم تأمن جانبها، لذا تردَّدت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنها عن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له: هذه أمُّك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم سالمٌ صالحٌ[2]، وزيادةً في الحيطة، والحذر، والتكتُّم لم تخبره بمكانه، إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

تخيُّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمَّة:

حين طلب أبو بكرٍ رضي الله عنه الذَّهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أمُّ جميل على الفور؛ بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن النَّاس؛ خرجت به ومعها أمُّه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتَّحرُّك، وتنفيذ هذه المهمَّة، حيث تنعدم الرَّقابة من قِبَلِ أعداء الدَّعوة، ممَّا يقلِّل من فرص كشفها، وقد نُفِّذت المهمَّةُ بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتَّى دخلت أمُّ جميل، وأمُّ الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكِّد: أنَّ الوقت المختار كان أنسب الأوقات[3].

5 – قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أمُّ الخير أمُّ أبي بكر، بسبب رغبة الصِّدِّيق في إدخال أمِّه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرَّسول صلى الله عليه وسلم الدُّعاء لها؛ لِمَا رأى من برِّها به، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على هداية الناس الآخرين فكيف بأقرب الناس إليه؟![4].

6 – إنَّ من أكثر الصَّحابة الَّذين تعرَّضوا لمحنة الأذى، والفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ نظراً لصحبته الخاصَّة له، والتصاقه به في المواطن التي

---

[1] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة في جوانب الحذر والحماية ، ص 50.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 51.

[3] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة . قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 50 ، 51 ، 52 ، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدُّروس الأمنيَّة.

[4] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 79.

كان يتعرَّض فيها للأذى من قومه، فينبري الصِّدِّيق مدافعاً عنه، وفادياً إيَّاه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفههم، هذا مع أنَّ الصِّدِّيق يُعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل، والإحسان[1].

2 - بلالٌ رضيَ الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأصحابه؛ حتَّى وصل إلى ذروة العنف وخاصَّةً في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكَّلت بهم؛ لتفتنهم عن عقيدتهم، وإسلامهم؛ ولتجعلهم عِبرةً لغيرهم، ولتنفِّس عن حقدها، وغضبها، بما تصبُّه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أوَّل من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكرٍ، وعمَّارٌ، وأمُّه سميَّة، وصهيبٌ، وبلالٌ، والمقداد؛ فأمَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنعه الله بعمِّه أبي طالبٍ، وأمَّا أبو بكر؛ فمنعه الله بقومه، وأمَّا سائرهم؛ فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشَّمس، فما منهم إنسانٌ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدانَ، وأخذوا يطوفون به شعاب مكَّة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ» [أحمد (404/1) وابن ماجه (150) والبيهقي في دلائل النبوة (281/2 - 282)] . لم يكن لبلال رضي الله عنه ظَهْرٌ يسنده، ولا عشيرةٌ تحميه، ولا سيوفٌ تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ يعادل رقماً من الأرقام، فليس له دورٌ في الحياة إلا أن يخدم، ويطيع، ويُباع، ويُشْترى كالسَّائمة، أمَّا أن يكون له رأيٌ، أو يكون صاحبَ فكرٍ، أو صاحب دعوةٍ، أو صاحب قضيَّةٍ، فهذه جريمةٌ شنعاءُ في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ، تهزُّ أركانه، وتزلزل أقدامه، ولكنَّ الدَّعوة الجديدة؛ الَّتي سارع لها الفتيان؛ وهم يتحدَّون تقاليد، وأعراف آبائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرميِّ المنسيِّ، فأخرجته إنساناً جديداً على الوجود[2]، فقد تفجَّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن امن بهذا الدِّين، وانضمَّ إلى محمَّدٍ صلى

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 75.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 75.

الله عليه وسلم وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وها هو الآن يتعرَّض للتَّعذيب من أجل عقيدته، ودينه، فقصد وزيرُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الصِّديقُ موقعَ التَّعذيب، وفاوض أميَّةَ بن خلف، وقال له: «ألا تتَّقي الله في هذا المسكين؟ حتَّى متَّى؟! قال: أنت الَّذي أفسدته، فأنقذه ممَّا ترى! فقال أبوبكر: أفعل، عندي غلامٌ أسود أجلد منه، وأقوى على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه غلامه ذلك، وأخذه، فأعتقه»[1]. وفي روايةٍ: اشتراه بسبع أواقٍ، أو بأربعين أوقيَّةٍ ذهباً[2].

ما أصبر بلالاً، وما أصلبه رضي الله عنه! فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صَلُبَ ولم تَلِنْ قناتُه أمام التَّحدِّيات، وأمام صنوف من العذاب، وكان صبره، وثباته ممَّا يغيظهم، ويزيد حنقهم، خاصَّةً: أنَّه كان الرَّجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الَّذي ثبت على الإسلام، فلم يواتِ الكفار فيما يريدون، مردِّداً كلمة التَّوحيد بتحدٍّ صارخٍ، وهانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه[3].

وبعد كلِّ محنةٍ منحةٌ؛ فقد تخلَّص بلالٌ من العذاب والنَّكال، وتخلَّص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيَّة حياته ملازماً له، ومات راضياً عنه مبشّراً إيَّاه بالجنَّة، فقد قال صلى الله عليه وسلم لبلال: «... فإنِّي سمعت الليلةَ خَشْفَ نعليك بين يديَّ في الجنة» [البخاري (1149) ومسلم (2458)]. وأمَّا مقامه عند الصَّحابة، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيِّدنا» يعني: بلالاً[4].

وأصبح منهج الصِّدِّيق في فكِّ رقاب المستضعفين ضمن الخطَّة الَّتي تبنَّتها القيادة الإسلامية لمقاومة التَّعذيب الَّذي نزل بالمستضعفين، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمِّين إلى هذا الدِّين الجديد من الرِّقِّ.

«ثمَّ أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقابٍ؛ بلالٌ سابعهم: عامر بن فهيرة شهد بدراً، وأحداً، وقُتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمُّ عُبيس، وزِنِّيرة، وأُصيب بصرُها حتى

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (136/1).
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (394/1).
[3] انظر: التَّربية القيادية (140/1).
[4] انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، ص 92.

أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات، والعزَّى. فقالت: كذبوا وبيت الله، ما تضرُّ اللات والعزَّى، وما تنفعان، فردَّ الله بصرها[1]. وأعتق النَّهدية، وبنتها، وكانتا لامرأةٍ من بني عبد الدَّار، فمرَّ بهما، وقد بعثتهما سـيِّدتهما بطَحينٍ لها، وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً! فقال أبو بكر رضـي الله عنه: حِلٌّ[2] يا أمَّ فلان! فقالت: حِلٌّ، أنت أفسـدتهما، فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا، وكذا. قال: قد أخذتُهما، وهما حرَّتان، أَرْجعا إليها طَحينها. قالتا: أوَ نَفْرَغُ منه يا أبا بكر! ثمَّ نردُّه إليها؟ قال: وذلك؛ إن شئتما»[3].

وهنا وقفة تأمُّل ترينا كيف سوَّى الإسـلام بين الصِّـدِّيق والجاريتين حتَّى خاطبتاه، خطابَ النِّدِّ للندِّ، لا خطاب المسـود للسَّـيِّد، وتقبَّل الصِّـدِّيق - على شـرفه، وجلالته في الجاهليَّة، والإسـلام - منهما ذلك، مع أنَّ له يداً عليهما بالعتق، وكيف صـقل الإسـلام الجاريتين حتَّى تخلَّقتا بهذا الخلق الكريم، وكان يمكنهما، وقد أُعتقتا، وتحرَّرتا من الظُّلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراجَ الرِّياح، أو يأكله الحيوان، والطَّير، ولكنَّهما أبتا - تفضُّـلاً - إلا أن تفرغا منه، وتردَّاه إليها[4].

ومرَّ الصِّدِّيق بجارية بني مُؤَمَّل - حيٌّ من بني عديٍّ بن كعب - وكانت مسلمةً، وعُمر بن الخطَّاب يُعذِّبها لتترك الإسـلام، وهو يومئذٍ مشـركٌ، وهو يضـربها، حتَّى إذا ملَّ؛ قال: إني أعتذر إليك، إنِّي لم أتركك إلا عن ملالةٍ، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكرٍ، فأعتقها[5].

هكذا كان واهب الحرِّيَّات، ومحرِّر العبيد، شيخ الإسـلام الوقور؛ الَّذي عُرف بين قومه بأنَّه يكسـب المعدوم، ويصـل الرَّحم، ويحمل الكلَّ، ويُقري الضَّـيف، ويعين على نوائب الحقِّ، لم ينغمس في إثمٍ في جاهليته، أليفٌ مألوفٌ، يسـيل قلبه رقَّةً ورحمةً على الضُّـعفاء، والأرقَّاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شـراء العبيد، وأعتقهم لله، وفي الله قبل أن تنزل التَّشـريعات الإسـلاميَّة المحبِّبة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثَّواب[6].

---

[1] انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (232/3)، ورجاله ثقات.

[2] حلٌّ: تحلَّلي من يمينك.

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (393/1).

[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (346/1).

[5] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (393/1).

[6] انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (345/1).

كان المجتمع المكيُّ يتندَّر بأبي بكرٍ رضـــي الله عنه؛ الَّذي يبذل هذا المال كلَّه لهؤلاء المستضعفين، أمَّا في نظر الصديق؛ فهؤلاء إخوانه في الدِّين الجديد، فكلُّ مشركي الأرض، وطغاتها لا يساوون عنده واحداً من هؤلاء، وبهذه العناصر، وغيرها تُبنَى دولةُ التَّوحيد، وتصنع حضارة الإسلام الرَّائدة، والرَّائعة[1]. ولم يكن الصدِّيق يقصد بعمله هذا محمدةً، ولا جاهاً، ولا دنيا، وإنَّما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، ولقد قال له أبوه ذات يومٍ: «يا بنيَّ، إنِّي أراك تعتق رقاباً ضـــعافاً، فلو أنَّك إذ فعلت ما فعلت؛ أعتقت رجالاً أجْلاداً يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضـــي الله عنه: يا أبت! إنِّي إنَّما أريد ما أريد لله عزَّ وجلَّ». فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصِّدِّيق قرآناً يتلى إلى يوم الدِّين.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى *إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى *وَإِنَّ لَنَا لَلآخرةَ وَالأُولَى *فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لأِحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾[2] [الليل 5 21] .

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلاميَّة الأولى قِمَّةً من قِمَمِ الخير، والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيدُ بالإسلام أصحابَ عقيدةٍ، وفكرةٍ، يناقشون بها، وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على شرائهم، ثمَّ إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدِّين، ومدى تغلغله في نفسية الصِّدِّيق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحْيُوا هذا المثل الرَّفيع، والمشاعر السَّامية؛ ليتم التَّلاحم والتَّعايش، والتَّعاضد بين أبناء الأمة؛ الَّتي يتعرض أبناؤها للإبادة الشَّاملة من قِبَلِ أعداء العقيدة، والدِّين!

3 – عمَّار بن ياسرٍ، وأبوه، وأمُّه رضي الله عنه:

كان والد عمَّار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكَّة، وأخواه: الحارثُ، ومالكٌ يطلبون أخاً لهم، فرجع الحارث، ومالكٌ إلى اليمن، وأقام ياسرٌ بمكَّة، وحالف أبا حذيفة

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (342/1).

[2] انظر: سيرة ابن هشام (319/1) ، وتفسير الالوسي (152/30).

بن المغيرة المخزوميَّ[1]، فزوَّجه أبو حذيفة أَمَةً له، يقال لها: سُمَيَّة بنت خيَّاط، فولدت له عَمَّاراً، فأعتقه أبو حذيفة الَّذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر، وسميَّة، وعمَّار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً، وصبُّوا عليهم العذاب صبّاً، فكانوا يُخْرِجونهم إذا حميت الظَّهيرة، فيعذِّبونهم برمضاء مكَّة[2]، ويقلِّبونهم ظهراً لبطنٍ[3] ، فيمرُّ عليهم الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ وهم يعذَّبون، فيقول: «صبراً آل ياسر! فإنَّ موعدكم الجنة» [الحاكم (383/3) والحلية (140/1) والمطالب العالية (4034)][4]. وجاء أبو جهل إلى سميَّة، فقال لها: ما امنت بمحمَّد إلا لأنكِ عشقتِه لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العِفَّة، فقتلها، فهي أوَّل شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[5]، وبذلك سطَّرت بهذا الموقف الشُّجاع أعلى، وأغلى ما تقدِّمه امرأةٌ في سبيل الله؛ لتبقى كلُّ امرأةٍ مسلمةٍ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيءٍ في سبيل الله بعد أن جادت سميَّة بنت خيَّاط بدمها في سبيل الله[6].

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذاً بيده نتمشَّى بالبطحاء، حتَّى أتى على ال عمَّار بن ياسر، فقال أبو عمَّار: يا رسول الله! الدَّهر هكذا؟ فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : اصبر، ثمَّ قال: اللَّهمَّ اغفر لال ياسرٍ، وقد فعلتَ» [أحمد (62/1)][7].، ثمَّ لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

لم يكن في وسع النَّبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقدمَ شيئاً لآل ياسر، رموز الفداء، والتضحية، فليسوا بأرقاء حتَّى يشتريهم، ويعتقهم، وليست لديه القوَّة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكلُّ ما يستطيعه صلى الله عليه وسلم أن يزفَّ لهم البشرى بالمغفرة، والجنَّة، ويحثَّهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوةً للأجيال المتلاحقة، ويشهد الموكب المستمرُّ على

---

[1] انظر: أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ (100/1 ، 157).
[2] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (68/2).
[3] بهجة المحافل ، للعامريِّ (92/1).
[4] صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص 97 ، 98.
[5] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 99.
[6] التَّربية القياديَّة (217/1).
[7] صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 98.

مدار التَّاريخ هذه الظَّاهرة: «صبراً ال ياسر! فإنَّ موعدكم الجنَّة» [سبق تخريجه][1] .

أمَّا عمَّارٌ رضــي الله عنه، فقد عاش بعد أهله زمناً يكابد من صـنوف العذاب ألواناً، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الَّذين لا عشائر لهم بمكَّة تحميهم، وليست لهم منعةٌ، ولا قوَّةٌ، فكانت قريش تعذِّبهم في الرَّمضـــاء بمكَّة في منتصـــف النَّهار؛ ليرجعوا عن دينهم، وكان عمَّار يُعذَّب حتَّى لا يدري ما يقول[2]. ولـمَّا أخذه المشركون ليعذبوه؛ لم يتركوه حتَّى سبَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر آلهتهم بخيرٍ، فلــمَّا أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما وراءك؟» قال: شـــرٌّ، والله ما تركني المشـــركون حتى نلت منك! وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنّاً بالإيمان، قال: « فإن عادوا؛ فعد » [الحاكم (357/2) والزيلعي في نصــب الرايـــة (158/4)][3] . ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمَّار. قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: 106] وقـد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] .

وفي حـادثتي بلالٍ، وعمَّارٍ فقهٌ عظيمٌ يتراوح بين العزيمة، والرُّخصـــة، يحتاج الدُّعـاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصَّحيح، وفي معاييره الدَّقيقة دون إفراطٍ، أو تفريطٍ.

4 – سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه:

تعرَّض للفتنـــة من قِبَـــلِ والدته الكافرة، فقد امتنعت عن الطَّعام، والشَّراب حتَّى يعود إلى دينها. روى الطَّبرانيُّ: أن سـعداً قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْـرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾[العنكبوت: 8].

قال: كنت رجلاً بارّاً بأمِّي، فلـــمَّا أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدِّين الَّذي أراك قد أحدثت؟! لتدعنَّ دينك هذا، أو لا اكل، ولا أشـــرب حتَّى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتلَ أمه! فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه؛ فإنِّي لا أدع ديني لشيء، فمكثتْ يوماً وليلةً لم تأكل، فأصبحتْ؛

---

[1] التَّربية القياديَّة (217/1 ، 218).
[2] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيّ ، ص 100.
[3] انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليّ ، ص 103.
[4] المصدر السابق نفسه.

وقد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت وقد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلةً أخرى لا تأكل، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها، فلمَّا رأيت ذلك؛ قلت: يا أُمَّه، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفسٍ، فخرجت نفساً نفساً؛ ما تركت ديني هذا لشيءٍ، فإن شئت؛ فكلي، وإن شئت؛ لا تأكلي! فأكلتْ[1].

وروى مسلمٌ: أنَّ أمَّ سعدٍ حلفت ألاَّ تكلِّمه أبداً؛ حتَّى يكفر بدينه، ولا تأكل، ولا تشرب، قالت: زعمْتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمُّك، وأنا امرك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثاً حتَّى غُشي عليها من الجهد، فقال ابنٌ لها - يقال له عُمَارَةَ - فسقاها، فجعلت تدعو على سعدٍ، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾؛ وفيها: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها؛ شجروا فاها بعصاً، ثمَّ أَوْجَرُوها [مسلم (1748) والترمذي (3189)][2]. فمحنة سعدٍ محنةٌ عظيمةٌ، وموقفه موقف فَذٌّ، يدلُّ على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنَّه لا يقبل فيه مساومةً مهما كانت النَّتيجة[3].

ومن خلال تتبُّع القرآن المكيِّ، نجد: أنَّه برغم قطع الولاء، سواءٌ في الحبِّ، أو النُّصرة بين المسلم وأقاربه الكفَّار، فإنَّ القرآن أمر بعدم قطع صلتهم، وببرِّهم، والإحسان إليهم، ومع ذلك فلا ولاء بينهم؛ لأنَّ الولاء للهِ ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، لدينه، وللمؤمنين[4].

5 - مصعب بن عُمَير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير أنعمَ غلامٍ بمكَّة، وأجودَها حلَّةً، وكان أبواه يحبِّانه، وكانت أمُّه مليئةً كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثِّياب، وأرقَّه، وكان أعطرَ أهل مكَّة، يلبس الحضرميَّ، من النِّعال[5]، وبلغ من شدَّة كلف أمِّه به: أنَّه كان يبيت وقعْبُ الحَيْس[6] عند رأسه، فإذا

---

[1] تفسير ابن كثير (446/3).
[2] [(شجروا فاها ثم أوجروها): أي فتحوا فمها ، وصبُّوا فيه الطَّعام.
[3] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 106.
[4] انظر: الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، (ص 174 ، 175).
[5] الطَّبقات الكبرى (116/3).
[6] القعب: القدح الغليظ ، والحيس: تمر ، وأقط ، وسمن تخلط ، وتعجن.

استيقظ من نومه؛ أكل[1]، ولمَّا علم: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ دخل عليه، فأسلم، وصدَّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمِّه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّاً، فبصر به عثمان بن طلحة[2] يصلِّي، فأخبر أمَّه وقومه، فأخذوه، وحبسوه، فلم يزل محبوساً حتَّى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[3].

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: لقد رأيته وقد جَهِدَ في الإسلام جهداً شديداً، حتَّى لقد رأيت جلده يتحشَّف - أي: يتطاير - تحشُّف جلد الحيَّة عنها، حتَّى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله ممَّا به من الجهد[4]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلَّما ذكره، قال: «ما رأيت بمكَّة أحداً أحسن لِمَّةً، ولا أرقَّ حلَّةً، ولا أنعم نعمةً، من مصعب بن عمير» [الحاكم (200/3)][5]، ومع كلِّ ما أصابه رضي الله عنه من بلاءٍ ومحنةٍ، ووهنٍ في الجسم، والقوَّة، وجفاءٍ من أقرب النَّاس إليه لم يقصِّر عن شيءٍ ممَّا بلغه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتَّى أكرمه الله تعالى بالشَّهادة يوم أحدٍ[6].

يُعَدُّ مصعبٌ رضي الله عنه أنموذجاً من تربية الإسلام للمترفين الشَّباب، للمنعمين من أبناء الطَّبقات الغنيَّة المرفَّهة، لأبناء القصور، والمال، والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنُّقهم، السَّاعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيَّرت، ووقف بعد إسلامه قويّاً لا يضعف، ولا يتكاسل، ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه، وشهواته؛ فيسقط في جحيم النَّعيم الخادع[7].

لقد ودَّع ماضيه بكلِّ ما فيه من راحةٍ ولذَّةٍ، وهناءةٍ، يوم دخل هذا الدِّين، وبايع تلك البيعة، وكان لابدَّ له من المرور في درب المحنة؛ لكي يصقل إيمانه، ويتعمَّق يقينه، وكان مصعب مطمئناً راضياً برغم ما حوله من جبروتٍ، ومخاوف، وبرغم ما نزل به من البؤس، والفقر،

---

[1] الرَّوض الأنف (195/2).
[2] سير أعلام النبلاء ، للذَّهبي (10/3 . 12).
[3] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 107.
[4] السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص193.
[5] الطَّبقات الكبرى (116/3).
[6] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 108.
[7] انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد ، لمحمد بريغش ، ص 105.

والعذاب، وبرغم ما فقده من مظاهر النَّعيم والرَّاحة[1]، فقد تعرَّض لمحنة الفقر، ومحنة فَقْدِ الوجاهة، والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشـــيرة، ومحنة الجوع والتَّعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كلِّ تلك المحن منتصراً بدينه وإيمانه، مطمئنـــاً أعمـــق الاطمئنان، ثابتاً أقوى الثبات[2]، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

6 - خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خبَّاب رضـي الله عنه قَيْناً[3] بمكَّة، وأراد الله له الهداية مبكِّراً، فدخل في الإسـلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[4]، فكان من المســتضـعفين الَّذين عُذبوا بمكَّة لكي يرتدَّ عن دينه، ووصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحمَّاة حتَّى ذهب ماء مَتْنه[5].

وكان الرَّسول صلى الله عليه وسلم يألف خباباً، ويتردَّد عليه بعد أن أسلم، فلـــمَّا علمت مولاته بذلك، وهي أمُّ أنمار الخزاعيَّة، أخذت حديدةً قد أحمتها، فوضـعتها على رأسـه، فشـكا خبابٌ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : «اللَّهمَّ انصر خباباً!» فاشـتكت مولاتُه رأسَـها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خبَّابٍ ليكويها، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأســها، وإن في ذلك لعبرةً لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله، ونصـــره من عباده المؤمنين الصـــابرين! فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويَ رأسَها[6].

ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين، ولقوا منهم شدَّةً؛ جاء خبَّابٌ إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو مُتَوَسِّـدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، فقال له: «ألا تسـتنصـرُ لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟!» فقعد الرَّسول صلى الله عليه وسلم وهو محمرٌّ وجهه، قال: «كان الرَّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشـار، فيوضـع على رأسـه، فيُشـق باثنتين، وما

---

(1) المصدر السَّابق نفسه ، (ص 105 ، 107).

(2) انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد ، ص 126.

(3) قيناً: حداداً.

(4) سير أعلام النبلاء (479/2).

(5) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 95.

(6) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، ص 96.

يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عَصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله! لَيَتمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [البخاري (3612) وأحمد (109/5 و111) وأبو داود (2649) والنسائي (204/8)] .

وللشيخ سلمان العودة – حفظه الله – تعليقٌ لطيفٌ على هذا الحديث، هو: يا سبحان الله! ماذا جرى حتى احمرَّ وجه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقعد من ضجعته، وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القويِّ المؤثِّر، ثمَّ عاتبهم على الاستعجال؛ لأنهم طلبوا الدُّعاء منه صلى الله عليه وسلم ؟ كلا، حاشاه من ذلك، وهو الرَّؤوف الرَّحيم بأمَّته.

إنَّ أسلوب الطَّلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنَّه صادر من قلوبٍ أضناها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدَّتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النَّصر، فتستدعيه، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم: أنَّ الأمور مرهونةٌ بأوقاتها، وأسبابها، وأنَّ قبل النَّصر البلاءُ، فالرُّسل تُبتلى، ثمَّ تكون لها العاقبة، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: 110] .

ويلمس – عليه السَّلام – من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، بَرَمهم بالعذاب الذي يلاقون، حتَّى يُفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التَّعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء – بمجرَّد قـراءة النَّصِّ – حقيقة الحال التي كانوا عليها، حين طلبوا منه – عليه الصَّلاة والسَّلام – الدُّعاء، والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات الَّتي كانت تثور في نفوسهم، إلا أن يعيش حالاً قريباً من حالهم، ويعاني – في سبيل الله – بعضَ ما عانوا.

لقد كان صلى الله عليه وسلم يربِّيهم على:

أ – التأسِّي بالسَّابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، في تحمُّل الأذى في سبيل الله، ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب – التَّعلُّق بما أعدَّه الله في الجنة للمؤمنين الصَّابرين من النَّعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدُّنيا.

ج – التَّطلُّع للمستقبل، الَّذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدُّنيا، ويذلُّ فيه أهل الكفر، والعصيان.

وثمَّة أمرٌ آخر كبيرٌ، ألا وهو: أنَّه صلى الله عليه وسلم مع هذه الأشياء كلِّها كان يخطِّط، ويستفيد من الأسباب المادِّيَّة المتعدِّدة لرفع الأذى والظُّلم عن أتباعه، وكفِّ المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدَّولة الَّتي تجاهد في سبيل الدِّين، وتتيح الفرصة لكلِّ مسلمٍ أن يعبد ربَّه حيث شاء، وتزيل الحواجز، والعقبات الَّتي تعترض طريق الدَّعوة إلى الله[1].

وقد تحدَّث خبابٌ رضي الله عنه عن بعض ما كانوا يلقونه من المشركين، من عنتٍ، وسوء معاملة، ومساومةٍ على الحقوق، حتَّى يعودوا إلى الكفر، فقال: كنت رجلاً قَيْناً[2]، وكان لي على العاص بن وائل دَيْنٌ، فأتيته لأقتضيه، فقال لي: لن أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد، فقلت: لن أكفر حتَّى تموت، وتبعث، قال: وإنِّي لمبعوث بعد الموت؟ فإن كان ذلك؛ فلسوف أقضيك؛ إذا رجعت إلى مالي وولدي، فنزلت فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 77 – 80] [البخاري (2091) ومسلم (2795)] .

وذُكِرَ: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبَّاباً عمَّا لقي في ذات الله تعالى، فكشف خبابٌ عن ظهره، فإذا هو قد برص، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، فقال خباب: يا أميرَ المؤمنين، لقد أوْقَدُوا لي ناراً، ثمَّ سلقوني فيها، ثمَّ وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري، فما اتَّقيت الأرض – أو قال: برد الأرض – إلا بظهري، وما أطفأ تلك النَّار إلا شحمي[3].

7 – عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه:

كان منهج رسول الله (ﷺ) في معاملته للنَّاس حكيماً، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطفٍ وترفُّقٍ، وكذلك الصِّبيان الصِّغار؛ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدِّثنا عن لقائه اللَّطيف برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقْبة بن أبي مُعَيْط، فمرَّ بي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكرٍ، فقال: يا غلام! هل من لبنٍ؟ قلت: نعم، ولكني مؤتمنٌ، قال: فهل من شاةٍ لم يَنْزُ عليها فحلٌ؟ فأتيته بشاةٍ، فمسح ضرعها، فنزل

---

[1] انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص 145 ، 146.
[2] القَيْنُ: الحداد ، والجمع: قُيُون.
[3] الرَّوض الأنف (98/2).

لبنٌّ فحلبه في إناءٍ، فشرب، وسَقَى أبا بكرٍ، ثمَّ قال للضَّرع: اقلص، فقلص، قال: ثمَّ أتيته بعد هذا فقلت: يا رسولَ الله! علِّمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي، وقال: «يرحمك الله! فإنَّك غُلَيِّم معلَّمٌ» [أحمد (379/1 و462) وأبو يعلى (4985) والطيالسي (353) والحلية (125/1)][1].

وهكذا كان مِفْتَاحُ إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه: «إنِّي مؤتمن»، والثانية: كانت من الصادق المصدوق، حيث قال له: «إنك غُلَيِّم معلَّم».

ولقد كان لهاتين الكلمتين دورٌ عظيمٌ في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضي الله عنهم، ودخل عبد الله في ركب الإيمان، وهو يمخر بحار الشِّرك في قلعة الأصنام، فكان واحداً من أولئك السَّابقين؛ الَّذين مدحهم الله في قرآنه العظيم[2]، وقد قال عنه ابن حجر: «أحد السَّابقين الأوَّلين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، والمشاهد بعدها، ولازم النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وكان صاحب نعليه»[3].

أوَّل من جهر بالقرآن الكريم:

بالرَّغم من أنَّ ابن مسعودٍ رضي الله عنه كان حليفاً، وليس له عشيرةٌ تحميه، ومع أنَّه كان ضئيل الجسم، دقيق السَّاقين، فإنَّ ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته، وقوَّة نفسه رضي الله عنه وله مواقف رائعةٌ في ذلك؛ منها ذلك المشهد المثير في مكَّة، وإبَّان الدَّعوة، وشدَّة وطأة قريشٍ عليها، فلقد وقف على مَلَئِهم، وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة، وقلوبهم المغلَّقة[4]، فكان أوَّل من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكَّة.

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: والله! ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطُّ، فَمَنْ رجلٌ يُسْمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعودٍ: أنا! قالوا: إنَّا نخشاهم عليك، إنَّما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم؛ إن أرادوه! قال: دعوني؛ فإنَّ الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعودٍ حتَّى أتى المقام في الضُّحى؛ وقريشٌ في أنديتها؛ حتَّى قام عند المقام، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ – رافعاً بها صوته – ﴿الرَّحْمَانُ *عَلَّمَ الْقرآن﴾، قال: ثمَّ

---

[1] البداية والنّهاية (32/3) ، وسير أعلام النُّبلاء (465/1).
[2] انظر: عبد الله بن مسعود ، لعبد الستار الشّيخ ، ص43.
[3] الإصابة (214/6).
[4] انظر: عبد الله بن مسعود ، ص45.

اســتقبلها يقرؤها، قال: فتأمَّلوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟ قال: ثمَّ قالوا: إنَّه ليتلو بعض ما جاء به محمَّدٌ! فقاموا إليه، فجعلوا يضـــربون في وجهه، وجعل يقرأ حتَّى بلغ منها ما شـاء الله أن يبلغ، ثمَّ انصـرف إلى أصـحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشـينا عليك! فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليَّ منهم الان، ولئن شـئتم لأغادينَّهم بمثلها غداً! قالوا: لا! حسبُك، قد أسمعتهم ما يكرهون[1].

وبهذا كان عبد الله بن مسـعود أوَّل مَنْ جهر بالقرآن بمكَّة بعد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، ولا غرو: أنَّ هذا العمل الَّذي قام به عبد الله يعتبر تحدِّياً عملياً لقريشٍ؛ التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التَّجربة على الرَّغم ممَّا أصـابه من أذى[2].

8 – خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالدٍ قديماً؛ لرؤيا راها عند أوَّل ظهور النَّبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ رأى كأنَّه وقف على شفير النَّار، وهناك مَنْ يدفعه فيها، والرَّسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقداً: أنَّ هذه الرؤيا حقٌّ، فقصَّـها على أبي بكرٍ الصِّـدِّيق، فقال له: أُرِيدَ بك خيراً، هذا رسـول الله صلى الله عليه وسلم فاتَّبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفاً من أبيه، لكنَّ أباه علم لـــمَّا رأى كثرة تغيُّبه عنه، فبعث إخوته الَّذين لم يكونوا قد أسـلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنَّبه، وضـربه بمقرعةٍ، أو عصـاً كانت في يده، حتى كسـرها على رأسـه، ثمَّ حبسـه بمكَّة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذَّرهم من عمله، ثمَّ ضيق عليه الخناق؛ فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيَّامٍ، وهو صابرٌ محتسبٌ، ثمَّ قال له أبوه: والله لأمنعنَّك القوت! فقال خالد: إن منعتني فإنَّ الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكرمه، ويكون معه، ثمَّ رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرَّة الثَّانية[3].

9 – عثمان بن مظعونٍ رضي الله عنه:

لـــمَّا أسلم عَدَا عليه قومُه بنو جمح، فاذوه، وكان أشـدَّهم عليه وأكثرهم إيذاءً له أميةُ بن

---

(1) انظر: ابن هشام (314/1. 315) ، وأسد الغابة (385/3. 386).

(2) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّي ، ص 88.

(3) انظر: سير أعلام النُّبلاء (260/1).

خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه[1]:

أأخرجتنى مِنْ بطن مكَّـةَ آثمـاً وأَسْكَنْتَنى في صَرْحٍ بَيْضَاءَ تُقْدَعُ
تَرِيْشُ نِبَالاً لاَ يُواتِيْكَ رِيْشُـــهَا وَتَبْرِي نِبَالاً رِيْشُـــهَا لَكَ أَجْمَعُ
وحَـارَبْـتَ أَقْوامـاً كِرَامـاً أَعِزَّةً وأهْلَكْـتَ أَقْوَاماً بِهِمْ كُنْتَ تَفْزَعُ
سَـــتَعْلَمُ إِنْ نَابَتْكَ يَوْمَاً مُلِمَّةٌ وأَسْلَمَكَ الأَوْبَاشُ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ

وبقي عثمان بن مظعون فترةً في الحبشة، لكنَّه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرَّة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكَّة إلا بجوارٍ من الوليد بن المغيرة، حيث ظلَّ يغدو في جواره امناً مطمئناً، فلمَّا رأى ما يصيب أصحاب النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم من البلاء، وما هو فيه من العافية، أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله! إنَّ غُدوِّي، ورَواحي امناً بجوار رجلٍ من أهل الشِّرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني؛ لنقصٌ كبير في نفسي[2]، فذهب إلى الوليد بن المغيرة، وقال له: يا أبا عبد شمس! وفت ذمَّتك، وقد ردَدت إليك جوارك! فقال: لِمَ يابن أخي؟ فلعلَّك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا! ولكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلِقْ إلى المسجد فارددْ عليَّ جواري علانيةً، كما أجرتك علانيةً، فانطلقا إلى المسجد فردَّ عليه جواره أمام النَّاس، ثمَّ انصرف عثمان إلى مجلسٍ من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة[3] الشَّاعر ينشدهم، فقال لبيد: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ». فقال عثمان: صدقت، واستمرَّ لبيد في إنشاده، فقال: «وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل»، فقال: عثمان: كذبت، نعيم الجنَّة لا يزول! قال لبيد: يا معشر قريش! والله ما كان يُؤْذَى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيهٌ في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله، فردَّ عليه عثمان حتَّى شَرِيَ[4] أمرُهما، فقام إليه ذلك الرَّجل، فلطم عينه فاخْضرَّت، والوليد بن المغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يابن أخي! إن عينك لغنيةٌ عمَّا أصابها، ولقد كنت في ذمَّةٍ منيعةٍ، فقال عثمان: والله! إنَّ عيني الصَّحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنِّي لفي جوار من هو أعزُّ منك، وأقدر يا أبا عبد

---

[1] السِّيرة النَّبوية ، للذَّهبيِّ ، ص 112.
[2] السِّيرة النَّبوية لابن هشام (120/2).
[3] انظر: طبقات الشُّعراء ، لابن سلام ، (ص 48 ، 49).
[4] شَرِيَ: عظم.

شمس! ثمَّ عرض عليه الوليد الجوار مرَّةً أخرى، فرفض[1].

وهذا يدلُّ على مدى قوَّة إيمانه رضـــي الله عنه، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله؛ ولذلك لـــمَّا مات، رأت أمُّ العلاء الأنصاريَّة - وكان عثمان ممَّن وقع في سهمها عندما اقترع الأنصار على سكنى المهاجرين - في المنام: أنَّ له عيناً تجري، فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: «ذلك عملُه» [البخاري (7004)] .

وغير هؤلاء من الصَّحابة الكرام تعرَّض للتَّعذيب، وهكذا نرى أولئك الرَّهط من الشَّباب القرشيِّ، قد أقبلوا على دعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، واستجابوا لها، والتفُّوا حول صاحبها؛ على الرَّغم من مواقف آبائهم ، وذويهم ، وأقربائهم المتشدِّدة تجاههم، فضحُّوا بكل ما كانوا يتمتَّعون به من امتيازاتٍ قبل دخولهم في الإسلام، وتعرَّضوا للفتنة؛ رغبةً فيما عند الله تعالى من الأجر، والثَّواب، وتحمَّلوا أذىً كثيراً، وهذا فعل الإيمان في النفوس عندما يخالطها، فتستهين بكلِّ ما يصيبها من عنتٍ، وحرمانٍ؛ إذا كان ذلك يؤدِّي إلى الفوز برضا الله تعالى، وجنَّته.

هذا، ولم يكن التَّعذيب والأذى مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنَّما طال النِّساء أيضاً قسطٌ كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنَّ، كسميَّة بنت خياط، وفاطمة بنت الخطَّاب، ولبيبة جارية بني المؤمِّل، وزِنِّيرة الرُّوميَّة، والنَّهْدية، وابنتها، وأمِّ عُبَيْسٍ، وحمامة أمِّ بلال، وغيرهنَّ[2].

خامساً: حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدِّفاع عن أنفسهم، ويبدو: أنَّ الموقف السِّلمي أغاظ بعضهم، وخاصَّةً الشَّباب منه، وقد أتى عبدُ الرحمن بن عوف وأصحابُه رضي الله عنهم إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بمكَّة، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزَّةٍ ونحن مشركون، فلـمَّا امنَّا؛ صرنا أذلَّةً! قال: «إِنِّي أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم» [النسائي (3/6) والبيهقي في السنن الكبرى (11/9) والحاكم (2/66 - 67

---

[1] السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، (ص 178 . 180).
[2] انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، (ص 116 ، 117).

و307)][1].

وتعرَّض بعض الباحثين للحكمة الرَّبَّانيَّة في عدم فرضية القتال في مكَّة، ومن هؤلاء الأستاذ سيِّد قطب – رحمه الله تعالى – فقد قال: لا نجزم بما نتوصَّل إليه؛ لأنَّنا حينئذٍ نتألَّى على الله ما لم يبيِّن لنا من حكمةٍ، ونفرض أسـباباً، وعللاً قد لا تكون هي الأسـباب، والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك: أنَّ شـأن المؤمن أمام أيِّ تكليفٍ، أو أيِّ حكمٍ من أحكام الشَّـريعة هو التَّسـليم المطلق؛ لأنَّ الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنَّما نقول هذه الحكم، والأسباب من باب الاجتهاد، وعلى أنَّه مجرَّد احتمال؛ لأنَّه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحدِّدها هو لنا، ويطلعنا عليها بنصٍّ صريح[2]، ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجازٍ:

1 – أنَّ الكفَّ عن القتال في مكَّة ربما لأنَّ الفترة المكِّيَّة كانت فترة تربيةٍ، وإعدادٍ، في بيئةٍ معيَّنةٍ، لقومٍ معيَّنين، وسـط ظروفٍ معيَّنةٍ، ومن أهداف التَّربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربيِّ على الصَّبر، على ما لا يصبر عليه عادة من الضَّيم حين يقع عليه، أو على من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرَّد من ذاته، فلا يندفع لأوَّل مؤثِّر، ولا يهيج لأوَّل مهيجٍ؛ ومن ثمَّ يتمُّ الاعتدال في طبيعته، وحركته، ثمَّ تربيته على أن يتَّبع نظام المجتمع الجديد، بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرَّف إلا وفق ما تأمره – مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته – وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصيَّة العربيِّ المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

2 – وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدَّعوة السِّلميَّة أشدُّ أثراً وأنفذُ في مثل بيئة قريش، ذات العنجهيَّة والشَّـرف، والَّتي قد يدفعها القتال معها – في مثل هذه الفترة – إلى زيادة العناد، ونشـأة ثاراتٍ دمويةٍ جديدةٍ، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس، والغبراء، وحرب البسـوس، وحينئذٍ يتحوَّل الإسلام من دعوةٍ، إلى ثاراتٍ تُنسى معها فكرتُه الأساسية.

3 – وربَّما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشـاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كلِّ بيت، فلم تكن هناك سـلطةٌ نظاميَّةٌ عامَّةٌ هي التي تعذِّب المؤمنين، وإنَّما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كلِّ فردٍ، ومعنى

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (158/1).
[2] الظلال (714/2).

الإذن بالقتال – في مثل هذه البيئة – أن تقع معركةٌ، ومقتلةٌ في كلِّ بيتٍ، ثمَّ يقال: هذا هو الإســـلام!! ولقد قيلت حتَّى والإســـلام يأمر بالكفِّ عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواســم: أنَّ محمداً يفرِّق بين الوالد، وولده، فوق تفريقه لقومه، وعشـيرته؛ فكيف لو كان يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟!

4 – وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لما يعلمه الله من أنَّ كثيراً من المعاندين، الَّذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذِّبونهم، سيكونون من جند الإسلام المخلصين؛ بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطَّاب من بين هؤلاء؟!

5 – وربَّما كان ذلك أيضـــاً؛ لأنَّ النَّخوة العربيَّة في بيئةٍ قبليَّةٍ، من عادتها أن تثور للمظلوم الَّذي يتحمَّل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصَّـــةٍ إذا كان الأذى واقعاً على كرام النَّاس فيهم؛ وقد وقعت ظواهر كثيرةٌ تثبت صـــحَّة هذه النَّظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغنَّة[1] لم يرضَ أن يترك أبا بكر – وهو رجلٌ كريم – يهاجرُ ويخرج من مكَّة ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره، وحمايته، وآخر هذه الظَّواهر، نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شِعْب أبي طالب.

6 – وربَّما كان ذلك أيضـاً لقلَّة عدد المسـلمين حينئذٍ، وانحصـارهم في مكَّة؛ حيث لم تبلغ الدَّعوة إلى بقيَّة الجزيرة، أو بلغت، ولكن بصـورةٍ متناثرةٍ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركةٍ داخليَّةٍ بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصـــير الموقف؛ ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسـلمة القليلة – حتَّى ولو قتلوا هم أضـعاف من سيقتل منهم – ويبقى الشِّرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظامٌ، ولا يوجد له كيانٌ واقعيٌّ، وهو دينٌ جاء ليكون منهج حياةٍ ونظام دنيا وآخرة.

7 – أنَّه لم تكن هناك ضـــرورةٌ قاهرةٌ ملحَّةٌ لتجاوز هذه الاعتبارات كلِّها، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأنَّ الأمر الأســـاســـيَّ في هذه الدَّعوة كان قائماً، ومحقَّقاً، وهو (وجود الدَّعوة)، ووجودها في شخص الدَّاعية محمَّد صلى الله عليه وسلم ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتدُّ إليه يدٌ إلا وهي مهدَّدة بالقطع؛ ولذلك لا يجرؤ أحدٌ على منعه من إبلاغ الدَّعوة، وإعلانها في ندوات قريشٍ حول الكعبة، ومِنْ فوق جبل الصـــفا، وفي الاجتماعات العامَّة، ولا

[1] ابن الدُّغنَّة: رجلٌ جاهليٌّ أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه ، وأراد الهجرة إلى الحبشة ، انظر: الإصابة (344/2).

يجرؤ أحدٌ على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله.

إنَّ هذه الاعتبارات كلَّها – فيما نحسب – كانت بعض ما اقتضت حكمةُ الله معه أن يأمر المسلمين بكفِّ أيديهم، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة؛ لتتمَّ تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب، وليُخرجوا أنفسهم من المسألة كلِّها، فلا يكون لذواتهم فيها حظٌّ؛ لتكون خالصةً، وفي سبيل الله[1].

وقد تعلَّم الصَّحابة من القرآن الكريم فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التَّعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **[الأنعام: 108]** .

وهكذا تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ المصلحة إنْ أدَّت إلى مفسدةٍ أعظمَ؛ تُتْرَكْ[2]، وفي هذا تهذيبٌ أخلاقيٌّ، وسموٌّ إيمانيٌّ، وترفُّعٌ عن مجاراة السُّفهاء الَّذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء: أنَّ الحكم باقٍ في الأمَّة على كلِّ حالٍ، فمتى كان الكافر في منعةٍ، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيفة أن يُسبَّ الإسلامُ، أو النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أو اللهُ – عزَّ وجلَّ – فلا يحلُّ لمسلمٍ أن يسبَّ صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا أن يتعرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك؛ لأنَّه فعلٌ بمنزلة التَّحريض على المعصية، وهذا نوعٌ من الموادعة، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدِّ الذَّرائع[3].

والنَّاظر في الفترة المكِّيَّة – والَّتي كانت ثلاثة عشر عاماً، كلُّها في تربيةٍ، وإعدادٍ وغرسٍ لمفاهيم (لا إله إلا الله) – يدرك ما لأهمِّيَّة هذه العقيدة من شأنٍ في عدم الاستعجال واستباق الزَّمن ، فالعقيدة بحاجةٍ إلى غرسٍ يُتَعَهَّد بالرِّعاية، والعناية، والمداومة؛ بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيبٌ، وما أجدرَ الدُّعاةَ إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى صلى الله عليه وسلم لأصحابه على هذه العقيدة وقفةً طويلةً، فيأخذوا منها العبرة والأسوة؛ لأنَّه لا يقف في وجه الجاهليَّة – أيّاً كانت قديمةً، أو حديثةً، أو مستقبلةً – إلا رجالٌ اختلطت قلوبهم ببشاشة

---

[1] الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، لخَّص نقاطاً من الظلال ، ص 169 ، 170 ، 171 ، وفي ظلال القران (714/2 ، 715) ، وفي (معالم في الطَّريق) (ص 69 . 71).

[2] انظر: التفسير المنير ، للزُّحَيلي (325/7).

[3] المصدر السَّابق نفسه ، (326/7).

العقيدة الرَّبَّانيَّة، وتعَمَّقت جذور شجرة التَّوحيد في نفوسهم[1].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أصحابه بضبط النَّفس والتَّحلِّي بالصَّبر، وكان يربِّي أصحـــحابه على عينه، ويوجِّههم نحو توثيق الصِّـــلة بالله، والتَّقرُّب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكِّيَّة: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقرآن تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: 1 – 4]، فقد أرشـدت سـورة المزمِّل الصَّـحابة إلى حاجة الدُّعاة إلى قيام الليل، والدَّوام على الذِّكر، والتَّوكُّل على الله في جميع الأمور، وضرورة الصَّبر، ومع الصَّبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصَّالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزَّمِّل، تأمر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يخصِّص شطراً من اللَّيل للصَّـلاة، وقد خيَّره الله تعالى أن يقوم للصَّـلاة نصـف اللَّيل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأصحابُه معه قريباً من عامٍ، حتَّى ورمت أقدامهم، فنزل التَّخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربُّهم، فخفَّف عنهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُـــوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقرآن عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخرونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخرونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾[المزمل: 20].

كان امتحانهم في الفُرُشِ، ومقاومة النَّوم، ومألوفات النَّفس؛ لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضـــوع لأهواء النفس تمهيداً لحمل زمام القيادة، والتَّوجيه في عالمهم؛ إذ لابدَّ من إعدادٍ روحيٍّ عالٍ لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتَّخذ منهم شهداء على النَّاس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التَّاريخية، كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة النَّاس إلى التَّوحيد، وتخليصهم من الشِّرك، وهي مهمَّةٌ عظيمةٌ يقدر على تنفيذها أولئك الذين ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

(1) انظر: الولاء والبراء، ص 171.

وقد وصــف الله قيام اللَّيل، والصَّــلاة فيه، وقراءة القرآن ترتيلاً – أي: مع البيان والتُّؤدة – بقوله:؛ فهو أثبت أثراً في النَّفس مع ﴿إِنَّ نَاشِــئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَــدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ اللَّيل، وهدأة الخلق، حيث تخلو من شـواغلها وتفرغ للذِّكر والمناجاة بعيداً عن علائق الدُّنيا، وشـواغل النَّهار، وبذلك يتحقَّق الاســـتعداد اللازم لتلقِّي الوحي الإلهيّ: والقول الثَّقيل هو القرآن ﴿إِنَّا سَــنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدَّقيق للمســلمين الأوائل، في قدرتهم على تحمُّل أعباء الجهاد وإنشاء الدَّولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا النَّاس، ونشره بين العالمين[1].

لقد كان النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم مهتمّاً بجبهته الدَّاخلية، وحريصـاً على تعبئة أصـحابه بالعقيدة القويَّة، التي لا تتزعزع، ولا تلين، وكان هذا مبعثاً لروح معنويَّةٍ مرتفعةٍ، وقويَّةٍ للدِّفاع وتحمُّل العذاب والأذى في سـبيل الدَّعوة، وأصـبحت الجماعة الأولى وَحْدَةً متماسـكةً، لا تؤثِّر فيها حملات العدوِّ النَّفســـيَّة، ولا تجد لها مكاناً في هـذه الجماعة، عن طريق المؤاخاة بين المســلمين، فقد أصــبحت رابطة الأخوَّة في الله تزيد على رابطة الدَّم، والنَّســب، وتفضــلها في الدِّين الإسلاميّ.

وتعايش الرَّعيل الأوَّل بمعاني الأخوَّة الرَّفيعـة، القائمة على الحبِّ، والمودَّة، والإيثـار، وكانت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان صلى الله عليه وسـلم يحثُّ المسـلمين على الأخوَّة، والتَّرابط، والتَّعاون وتفريج الكرب، لا لشـيءٍ إلا لرضـا الله سـبحانه، لا نظير خدمةٍ مقابلةٍ، أو نحو ذلك، وإنَّما يفعل المســلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادىء هي سـرُّ اسـتمرار الأخوَّة الإسـلاميَّة، وتماسـك المجتمع الإسـلاميّ[2]، وبيَّن لهم الرَّســول صــلى الله عليه وســلم في الحديث القدســيّ؛ الذي يرويه عن ربِّه ســبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النَّبيُّون والشُّهداء» **[الترمذي (2390) وأحمد (239/5)]** .

وهكذا أصبحت الأخوَّة الصَّادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبَّة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدَّرجات عند الله، وحذَّر الرَّسول صلى الله عليه وسلم المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرَّابطة، ووضــع لهم أســاس الحفاظ عليها، فقال لهم: «لا تباغضــوا، ولا

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (160/1).

[2] انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص 128.

تحاسـدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسـلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ» [البخاري (6076) ومسلم (2559)] .

واســتعان النَّبيُّ (ﷺ) في ربط المجتمع الدَّاخليّ، وتوحيد جبهته؛ لتكون قويَّة في مواجهة الحرب النَّفسيَّة الموجَّهة ضدَّها بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة، وإعطائهم الحرِّيَّة، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرِّيَّة ، ثمَّ كانت لهم في داخله حرِّيَّة الرأي وحرِّيَّة التعبير، والمشـــورة، فقد أتى محمَّدٌ (ﷺ) بمبدأ المســاواة بين جميع النَّاس، الحاكم والمحكوم، والغنيُّ والفقير، وبين جميع الطَّبقات، وقد كان لهذا المبدأ العظيم أكبر الأثر في نفوس أتباع النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، وجعلهم يتحابُّون ويتماسكون، ويفتدون بأرواحهم، ويدافعون عنه بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ وعزيمةٍ؛ فهو صلى الله عليه وسلم لم يقرَّ تفاوتاً بين البشر بسبب مولدٍ، أو أصلٍ، أو حسبٍ أو نسبٍ، أو وراثةٍ، أو لونٍ، والاختلاف في الأنســاب والأجناس، والألوان لا يؤدِّي إلى اختلافٍ في الحقوق، والواجبات أو العبادات؛ فالكلُّ أمام الله ســوآســيا، وعندما طلب أشــراف مكَّة من رســول الله صــلى الله عليه وســلم أن يجعل لهم مجلســاً غير مجلس العبيد والضُّـعفاء، حتَّى لا يضـمَّهم وإيَّاهم مجلسٌ واحد؛ بيَّن الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم أنَّ جميع النَّاس متسـاوون في تلقِّي الوحي، والهداية.

ورفض كفَّار مكَّة، وسـاداتُها في ذلك الوقت أن يجلسـوا مع العبيد، ومَنْ يعتبرونهم ضـعفاء أذلاَّء من أتباع محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَاصْـبِرْ نَفْسَـكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[الكهف: 28]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَـيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[الأنعام: 52ـ53]، بل إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لــمَّا أعرض عن ابن أمِّ مكتومٍ الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف؛ عاتبه الله أشــــدَّ العتاب، كما في الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ *فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [عبس: 12.1].

وكان من أكبر أساليب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في ربطه المجتمع الإسلاميَّ، وتوحيده، وتقويته للجبهة الدَّاخلية، وجعلها قويَّة البنيان متماسكةً ما دعا إليه صلى الله عليه وسلم من التَّكافل المادِّيِّ والمعنويِّ بين المسلمين؛ ليعين منهم القويُّ الضَّعيف، وليعطف الغنيُّ على الفقير، ولم يترك صلى الله عليه وسلم ثغرةً واحدةً تنفذ منها الحرب النفسيَّة إلى هذا الصَّفِّ الإسلاميِّ الأوَّل، وأصبحت الجماعة الأولى صخرةً عظيمةً تحطَّمت عليها كلُّ الجهود والخطط؛ الَّتي بذلها زعماء مكَّة للقضاء على الدَّعوة[1].

سادساً: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصَّحابة:

كان للقرآن الكريم أثرٌ عظيم في شدِّ أزر المؤمنين من جانبٍ، وتوعُّده الكفار بالعذاب من جانبٍ آخر، ممَّا كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصَّحابة يتمثَّل في نقطتين:

الأولى: حثُّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم على رعايتهم، وحسن مجالستهم، واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف الَّتي ترك فيها بعض الصَّحابة؛ لانشغاله بأمر الدَّعوة أيضاً.

الثانيـــــة: التَّخفيف عن الصَّحابة، بضرب الأمثلة والقصص لهم، من الأمم السَّابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا مِنْ قومهم الأذى والعذاب؛ ليصبروا، ويستخفُّوا بما يلاقون، وأيضاً بمدح بعض تصرُّفاتهم، ثمَّ بوعدهم بالثَّواب، والنَّعيم المقيم في الجنَّة، وكذلك بالتَّنديد بأعدائهم الَّذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى[2].

أما النُّقطة الأولى: حينما كان النَّبي صلى الله عليه وسلم يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه؛ مثل: خبَّاب، وعمَّار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أميَّة، وصهيب، وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، ويقول بعضهم لبعضٍ: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثمَّ يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحقِّ، لو كان ما جاء به محمَّدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصَّهم الله به دوننا[3].

---

[1] انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام، (ص 125 ـ 140).

[2] انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، ص 269.

[3] المرجع السابق نفسه، ص 270، 271.

وردَّ الله – سبحانه وتعالى – على استهزاء هؤلاء الكفَّار، مبيّناً لهم: أنَّ رضا الله على عباده، لا يتوقَّف على منزلتهم، ولا مكانتهم بين النَّاس في الدنيا، كما يؤكِّد لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا المفهوم، حتَّى لا يتأثَّر بما يقوله الكفَّار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصَّحابة، ومبيّناً له أيضاً مكانتهم، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ *وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 52 – 54] .

وهكذا بيَّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم، ومنزلتهم الَّتي يجهلها، أو يتجاهلها الكفَّار، ويحاولون أن ينالوا منها؛ بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيَّتهم، ويأمره أيضاً أن يبشِّرهم بأنَّ الله سبحانه قد وعدهم بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الرُّوح المعنويَّة لهؤلاء؟! وكيف يجدون الأذى من الكفَّار بعد ذلك؟! إنَّهم سيفرحون بهذا الأذى؛ الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة[1].

ثمَّ نرى عتاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجلٍ فقير أعمى من الصَّحابة، أعرض عنه الرَّسول صلى الله عليه وسلم مرَّةً واحدةً، ولم يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكَّة[2].

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: 1 – 10] .

إنَّه لا مجال للامتيازات في دعوة الحقِّ، بسبب الحسب، والنَّسب، أو المال والجاه، فهي إنَّما

---

[1] انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ، ص 270 ، 271.

[2] الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص 271.

جاءت لتأصيل النَّظرة إلى الإنسان، وبيان وحدة الأصل، وما تقتضيه من المساواة، والتكافؤ، ومن هنا يمكن تعليل شدَّة أسلوب العتاب الَّذي وجَّهه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، للاهتمام الكبير الَّذي أظهره لأُبيّ بن خلف، على حساب استقباله لابن أمّ مكتوم الضعيف رضي الله عنه، فابن أمّ مكتوم يرجح في ميزان الحقّ على البلايين من أمثال أُبيّ بن خلف[1] لعنه الله!

وكانت لهذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ، استفاد منها الرَّعيل الأوَّل ومَنْ جاء بعدهم من المسلمين، وَمِنْ أهمّ هذه الدُّروس الإقبال على المؤمنين؛ فإنَّ على الدُّعاة البلاغ، وليس عليهم الهداية، ففي قصَّة الأعمى دليلٌ على نبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فلو لم يكن نبيُّنا محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم رسولَ الله؛ لكتم هذه الحادثة، ولم يخبر النَّاس بها؛ لما فيها من عتابٍ له صلى الله عليه وسلم ، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الآيات، وآيات قصَّة زيدٍ، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما[2]، فعلى الدُّعاة تقديم أهل الخير، والإيمان[3].

أما النقطة الثَّانية في دفاع القرآن الكريم عن الصَّحابة، فقد كانت بالتَّخفيف عنهم، وكان أهمَّ وسائل التَّخفيف إظهارُ: أنَّ هذا الأذى الَّذي يلقونه لم يكن فريداً من نوعه؛ وإنَّما حدث قبل ذلك مثله، وأشدُّ منه، كان القصص الَّذي يتحدَّث عن حياة الرُّسل في القرآن الكريم من لدن نوحٍ، وإبراهيم، وموسى وعيسى – عليهم السَّلام – تثبيتاً للمسلمين، ولروح التَّضحية، والصَّبر فيهم من أجل الدِّين، وبيَّن لهم القدوة الحسنة الَّتي كانت في العصور القديمة؛ فالقصص القرآنيُّ يحوي الكثير من العبر، والحكم، والأمثال.

كان أيضاً من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصَّحابة، والدِّفاع عنهم أسلوبه في مدحهم، ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرؤها النَّاس إلى أن يرث الله الأرض، ومَنْ عليها؛ كما حدث مع الصِّدِّيق لـمَّا أعتق سبع رقابٍ من الصَّحابة؛ لينقذهم من الأذى، والتَّعذيب، وفي الوقت نفسه يندِّد بأميَّة بن خلف، الَّذي كان يعذِّب بلال بن أبي رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي قد قدَّم قواعد الثَّواب، والعقاب، وشجَّع المؤمنين، وحذَّر المخالفين، وحمل هذا الأسلوب مغزًى

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (167/1) مع تصرُّف في العدد بدل مئة: بلايين.

[2] تفسير ابن عطيَّة (316/15) ، والقاسمي (54/17).

[3] انظر: المستفاد من قصص القران ، لعبد الكريم زيدان (89/2).

عميقاً، فقد أنار الطريق للصَّحابة، وكان غمَّةً وكرباً على نفوس الكفار المتردِّدين؛ إذ جاء قول الله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل: 14 – 21] .

وكذلك خلَّد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام، برغم استهزاء الكفَّار، ومحاولاتهم لصدِّهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرّخين[1]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ *وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ *أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: 52 – 55] .

وكانت الآيات بعد ذلك تبشِّر الصَّحابة بالثَّواب العظيم، وبالنَّعيم المقيم في الجنَّة، جزاءً بما صبروا، وما تحمَّلوا من الأذى، وتشجيعاً لهم على الاستمرار في طريق الدَّعوة غير مبالين بما يسمعونه، وما يلاقونه، فالنَّصر، والغلبة لهم في النِّهاية، كما بيَّن لهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في أحاديثه، وكما بيَّن لهم القرآن، كما بيَّن القرآن الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم، كفَّار مكَّة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: 51 – 52]، وبيَّن فضل تمسُّكهم بالقرآن وإيمانهم به. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ *لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29 – 30] .

وبيَّن – سبحانه – فضل التَّمسُّك بعبادته برغم الأذى، والتعذيب، وبيَّن جزاء الصَّبر على ذلك، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (4/2).

حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 9 – 10] .

وهكذا كان القرآن الكريم يخفِّف عن الصَّحابة، ويدافع عنهم، ويحصِّنهم ضدَّ الحرب النَّفسيَّة، وبذلك لم تؤثِّر تلك الحملات، ووسائل التَّعذيب على قلوب الصَّحابة بفضل المنهج القرآنيّ، والأساليب النَّبويَّة الحكيمة، فلقد تحطَّمت كلُّ أساليب المشركين في محاربة الرَّسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أمام العقيدة الصَّحيحة، والمنهج السَّليم؛ الَّذي تَشَرَّبهُ الرَّعيل الأوَّل.

سابعاً: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسِّحر، والكهانة، والشِّعر، فليأت هذا الرَّجل الَّذي فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعاب ديننا؛ فليكلِّمه، ولينظر ماذا يردُّ عليه ؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبةَ بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد! فأتاه عتبة، فقال: يا محمد! أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: فإن كنت تزعم: أنَّ هؤلاء خيرٌ منك؛ فقد عبدوا الالهة الَّتي عبت، وإن كنت تزعم: أنَّك خيرٌ منهم، فتكلَّم؛ حتَّى نسمع قولك، إنَّا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك! فرَّقت جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب؛ حتَّى لقد طار فيهم: أنَّ في قريش ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى! أن يقوم بعضنا إلى بعضٍ بالسيُّوف حتَّى نتفانى.

أيُّها الرَّجل! إن كان إنَّما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنَّما بك الباءة فاختر أيَّ نساء قريش شئت؛ فلنزوِّجك عشراً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فرغت؟» قال: نعم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿حم *تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياتهُ قرآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 1 – 3] إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: 13]، فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريشٍ، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنَّكم تكلِّمونه إلا كلَّمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم [ابن هشام (313/1 – 314) والبيهقي في الكبرى

[(2/203 – 204)][1] .

وفي روايـة ابن إسحاق: فلـمَّا جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟! قال: ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ ! والله ما هو بالشــعر ! ولا بالسِّــحر، ولا بالكهانة.. يا معشر قريش! أطيعوني، واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيــه، فاعتزلــوه، فوالله ليكونَّن لقوله الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبْه العرب ؛ فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يَظْهَـر على العرب ، فملكه مُلْككم ، وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسـعدَ النَّاس به، قالوا: سَــحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم[2].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 – لم يدخل الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم في معركةٍ جانبيَّةٍ حول أفضـليته على أبيه، وجدِّه، أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقُضِيَ الأمرُ دون أن يسمع عتبة شيئاً.

2 – لم يخضْ صلى الله عليه وسلم معركة جانبيَّةً حول العُروض المغرية، وغضبه الشَّخصيّ لهذا الاتِّهام؛ إنَّما ترك ذلك كله لهدفٍ أبعد، وترك عتبة يعرض كلَّ ما عنده، وبلغ من أدبه صلى الله عليه وسلم أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟!» فقال: نعم[3].

3 – كان جواب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم حاسماً، وإنَّ اختياره لهذه الآيات لدليلٌ على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضــايا رئيســيةً كان منها: أنَّ هذا القرآن تنزيلٌ من الله، وبيان موقف الكافرين، وإعراضهم، وبيان مهمَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وأنَّه بشرٌ، وبيان: أنَّ الخالق واحدٌ هو الله، وأنَّه خالق السَّـموات والأرض، وبيان تكذيب الأمم السَّــابقة، وما أصابها، وإنذار قريشٍ صاعقةً مثل صاعقة عادٍ، وثمود[4].

4 – خطورة المال، والجاه، والنِّســاء على الدُّعاة، فكم من الدُّعاة ســقط في الطَّريق تحت بريق المال! وكم عُرِضــت الالاف من الأموال على الدُّعاة ليكفُّوا عن دعوتهم! والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ، وخطورة الجاه واضـحةٌ؛ لأنَّ الشَّـيطان في

---

[1] البداية والنِّهاية ، لابن كثير (3/68 . 69).
[2] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (1/294).
[3] انظر: التَّحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص 33.
[4] انظر: معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص 75.

هذا المجال يزيّن، ويغوي بطرقٍ أكبر، وأمكر، وأفجر، والدَّاعية الرَّبَّانيُّ هو الَّذي يتأسَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم في حركته، وأقواله، وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي يعيش ويموت من أجله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162 – 163] .

وأمَّا النِّساء؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساءِ» [البخاري (5096) ومسلم (2740)]، سواءٌ كانت زوجةً تثبِّط الهمَّة عن الدَّعوة، والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه لِيُسْقِطْنَه في شباكهنَّ، أو في تهيئة أجواء البغي، والإثم، والمجون ليرتادها، أيّاً كانت، فإنَّها فتنةٌ عظيمةٌ في الدِّين، فهاهي قريش تعرض على رسول الله (ﷺ) نساءها، يختار عشراً منها، أجملهنَّ وأحسنهنَّ يكنَّ زوجاتٍ له؛ إن أرادهنَّ. إنَّ خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشدُّ من خطر السَّيف المصْلَت على الرِّقاب[1]، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بسيِّد الخلق صلى الله عليه وسلم ، ويتذكَّروا دائماً قول يوسف – عليه السَّلام –: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: 33 – 34].

5 – تأثُّر عتبة من موقف النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا التأثير واضحاً لدرجة أنَّ أصحابه أقسموا على ذلك التَّأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدوُّ ينوي القضاء على الدَّعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلِّيَ بين محمَّد صلى الله عليه وسلم، وما يريد[2].

6 – استمع الصَّحابة لما حدث بين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعتبة، وكيف رفض حبيبهم صلى الله عليه وسلم كلَّ عروضه المغرية، فكان ذلك درساً تربويّاً خالط أحشاءهم، تعلَّموا منه الثَّبات على المبدأ، والتَّمسُّك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدامهم.

7 – تعلَّم الصَّحابة من الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم الحلم، ورحابة الصَّدر، فقد استمع صلى الله عليه وسلم إلى تُرَّهات عتبة بن ربيعة، ونيله منه، وقوله عنه: «إنَّ في قريشٍ

---

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص 169.

(2) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 87.

ساحراً» و: «إنَّ في قريشٍ كاهناً»، و: «ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك»، و: «إن كان الذي يأتيك رَئِيّاً من الجنّ»، فقد أعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، وأغضَّ عن هذا السِّباب، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته، وتبليغه إيَّاها لسيد بني عبد شمس، فقد كانت كلُّ كلمةٍ تصدر من سيّد الخلق صلى الله عليه وسلم مبدأً يُحتذى، وكلُّ تصرفٍ دِيناً يُتَّبع، وكلُّ إغضاءٍ خُلُقاً يُتأسَّى به[1].

وذكرت بعض كتب السِّيرة: أنَّ قيادات مكَّة دخلوا في مفاوضاتٍ بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشريَّة، ممَّن أراد الدُّنيا وطمع في مغانمها، إلا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم اتَّخذ موقفاً حاسماً في وجه الباطل، دون مراوغة، أو مداهنةٍ، أو دخولٍ في دهاءٍ سياسيٍّ، أو محاولة وجود رابطة استعطافٍ، أو استلطافٍ مع زعماء قريش[2]؛ لأنَّ قضية العقيدة تقوم على الوضوح، والصَّراحة، والبيان، بعيدةً عن المداهنة، والتَّنازل؛ ولذلك ردَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشَّرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا، والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبر لأمر الله حتَّى يحكم الله بيني وبينكم» **[ابن هشام (316/1)]**[3].

بهذا الموقف الإيمانيّ الثَّابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضيَّةٌ من أخطر قضايا العقيدة الإسلاميَّة، وهي خلوص العقيدة من أيِّ شائبةٍ غريبةٍ عنها، سواءٌ في جوهرها، أو في الوسيلة الموصلة إليها[4].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ولـمَّا رأى المشركون صلابة المسلمين، واستمساكهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كلِّ باطلٍ؛ بدأت خطوط اليأس في نفوسهم؛ من أنَّ المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ فسلكوا مهزلةً أخرى من مهازلهم الدَّالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (304/1).

[2] انظر: الوفود في العهد المكي، لعلي الأسطل، ص 37.

[3] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (197/1)، والتَّربيَّة القياديَّة (305/1).

[4] تاريخ صدر الإسلام، لعبد الرحمن الشُّجاع، ص 39.

الحمقاء، فأرسلوا إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: يا محمد! هلمَّ، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً ممَّا نعبد؛ كنَّا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً ممَّا تعبد؛ كنت قد أخذت بحظِّك منه، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 1 – 6][1].

ومثل هذه السُّورة آيات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر، وأهله؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 41] .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ *قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: 56 – 57].

ولقد بيَّنت سورة (الكافرون): أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ لا عوج فيه، ولا فجاج له، إنَّه العبادة الخالصة لله وحده ربِّ العالمين، فنزلت هذه السُّورة على الرَّسول صلى الله عليه وسلم للمفاصلة الحاسمة بين عبادةٍ، وعبادة، ومنهجٍ، ومنهج، وتصوُّرٍ، وتصور، وطريقٍ، وطريق. نعم نزلت نفياً بعد نفي، وجزماً بعد جزم، وتوكيداً بعد توكيدٍ بأنَّه لا لقاء بين الحقِّ والباطل، ولا اجتماع بين النُّور والظلام، فالاختلاف جوهريٌّ كاملٌ، يستحيل معه اللِّقاء على شيء في منتصف الطَّريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنةٍ، أو مراوغةٍ، نعم فالأمر هنا ليس مصلحةً ذاتيَّةً، ولا رغبةً عابرةً، ولاسُمَّاً في عسلٍ، وليس «الدِّين لله، والوطن للجميع» كما تزعم الجاهليَّة المعاصرة، ويدَّعي المنافقون، والمستغربون الَّذين يتَّبعون الضَّالِّين، والمغضوب عليهم، والملحدين أعداء الله سبحانه في كلِّ مكان.

كان الردُّ حاسماً على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسطاً، ولا ترضياتٍ شخصيَّةً؛ فإنَّ الجاهليَّة جاهليَّةٌ، والإسلام إسلامٌ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والفارق

---

[1] ابن هشام (362/1).

بينهم كبير، كالفرق بين التِّبْرِ[1] والتُّراب، والسَّـــبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهليَّة بجملتها إلى الإسلام بجملته، عبادةً وحكماً، وإلا فهي البراءة التَّامَّة، والمفاصلة الكاملة، والحسم الصَّريح بين الحقِّ، والباطل في كلِّ زمانٍ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]

وجاء وفدٌ آخر بعد فشـــل الوفد السَّـــابق، يتكوَّن من: عبد الله بن أبي أميَّة، والوليد بن المغيرة، ومُكْرَز بن حفصٍ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ، والعاص بن عامرٍ[3]؛ جاء ليقدِّم عرضاً آخر للتَّنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذمِّ آلهتهم، فأنزل الله لهم جواباً حاسماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقرآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15].

وهذه الوفود، والمفاوضات تبيِّن مدى الفشل الَّذي أصاب زعماء قريشٍ في عدم حصولهم على التَّنازل الكلِّيِّ عن الإسلام، الأمر الَّذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيءٍ من التَّنازل، ويلاحظ: أنَّ التنازل الَّذي طلبوه في المرة الأولى أكبر ممَّا طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدلُّ على تدرُّجهم في التَّنازل من الأكبر إلى الأصـــغر؛ لعلَّهم يجدون اذاناً صـــاغيةً لدى قائد الدَّعوة، كما أنَّهم كانوا يغيِّرون الأشخاص المتفاوضين، فالَّذين تفاوضوا مع الرَّسول صلى الله عليه وسلم في المرَّة الأولى، غير الَّذين تفاوضـــوا معه في المرَّة الثَّانية، ما خلا الوليد بن المغيرة؛ وذلك حتَّى لا تتكرَّر الوجوه، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات، والعقول المفاوضـــة، فربَّما أثَّر ذلك في نظرهم بعض الشَّـيء، وفي هذا درسٌ للدُّعاة إلى يوم القيامة، ألا تنازل عن الإسـلام – ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً – فالإسلام دعوةٌ ربَّانيَّة، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً، مهما كانت الأســـباب، والدَّوافع، والمبررات، «وعلى الدُّعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض، والإغراءات المادِّيَّة، الَّتي قد لا تُعرض بطريقٍ مباشـرٍ، فقد تأخذ شـكلاً غير مباشـرٍ، في شـكل وظائف عُليا، أو عقود عملٍ مجزيةٍ، أو صـفقاتٍ تجاريَّةٍ مربحةٍ، وهذا ما تخطِّط له المؤسَّـســات العالميَّة المشـبوهة؛ لصـرف الدُّعاة عن دعوتهم، وبخاصَّـةٍ القياديون منهم، وهناك تعاونٌ تامٌّ في

---

[1] التِّبْرُ: فُتَاتُ الذَّهب أو الفضَّة قبل أن يُصاغا.

[2] انظر: في ظلال القران (3991/6) بتصرفٍ كبير.

[3] أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص 200 ، ونور اليقين ، للخضريِّ ، ص 61 بتصرف.

تبادل المعلومات، بين هذه المؤسَّسات الَّتي تعمل من مواقع متعدِّدة لتدمير العالم الإسلامي»[1] ولقد جاء في التَّقرير الَّذي قدَّمه «ريتشارد ب. ميشيل»، أحد كبار العاملين في الشَّرق الأوسط، لرصد الصَّحوة الإسلاميَّة، وتقديم معلوماتٍ، وتقارير عنها، جاء في هذا التَّقرير، وضع تصور لخطةٍ جديدةٍ يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلاميَّة، فكان من بين فقرات هذا التَّقرير فقرةٌ خاصَّةٌ بإغراء قيادات الدَّعوة، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء ما يلي:

1 – تعيين مَنْ يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا؛ حيث يتمُّ شغلهم بالمشروعات الإسلاميَّة فارغة المضمون، وغيرها من الأعمال الَّتي تستنفد جهدهم، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيّاً ومادِّياً، وتقديم تسهيلاتٍ كبيرةٍ لذويهم، وبذلك يتمُّ استهلاكهم محلِّياً، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيريَّة.

2 – العمل على جذب ذوي الميول التِّجاريَّة والاقتصاديَّة، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة، الَّتي تقام في المنطقة العربيَّة لصالح أعدائها.

3 – العمل على إيجاد فرص عملٍ، وعقودٍ مجزيةٍ في البلاد العربيَّة الغنيَّة، الأمر الَّذي يؤدِّي إلى بُعدهم عن النَّشاط الإسلاميِّ[2].

فالمتدبِّر في النُّقاط الثلاث السَّابقة، يلاحظ: أنَّها إغراءاتٌ مادِّيَّةٌ غير مباشرةٍ، وبنظرةٍ فاحصةٍ للعالم الإسلاميِّ اليوم نلاحظ: أن هذه النُّقاط تنفَّذ بِكلِّ هدوء، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدَّعاة، واستهلكت بعض الدُّول العربيَّة الغنية جمّاً غفيراً من الدُّعاة، وألهت التِّجارة بعضهم[3].

ثامناً: أسلوب المجادلة، ومحاولة التَّعجيز:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد أقام الحجج، والبراهين، والأدلَّة على صحَّة دعوته، وكان صلى الله عليه وسلم يتقن اختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويتصدَّى للردِّ على الشُّبهات مهما كان نوعها، وقد استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرةً، استنبطها

[1] في السِّيرة النَّبويَّة . قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 89.
[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة . قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 89.
[3] المصدر السابق نفسه ، ص 91.

من كتاب الله تعالى في إقامة الحجَّة العقليَّة، واستخدام الأقيسة المنطقيَّة، واستحضار التَّفكير، والتأمُّل، ومن الأساليب الَّتي استخدمها صلى الله عليه وسلم مع كفَّار مكَّة:

1 – أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب التَّرغيب فيه، والآخر هو الشَّرُّ المطلوب التَّرهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكُّر في كلا الأمرين، وعاقبتهما، ثمَّ الوصول – بعد المقارنة – إلى تفضيل الخير، واتِّباعه.

قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122] .

قال ابن كثيرٌ في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الَّذي كان ميتاً؛ أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له، ووفَّقه لاتِّباع رسله»[1].

2 – أسلوب التَّقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقليَّة إلى الإقرار بالمطلوب، الَّذي هو مضمون الدَّعوة، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ *أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيطِرُونَ *أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ *أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ *أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ *أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ *أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ *فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: 35 – 45] .

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الرُّبوبية، وتوحيد الألوهيَّة، فقال تعالى: أي: أَوُجِدُوا من غير مُوجدٍ؟ أم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أوْجَدُوا أنفسهم؟ أي: لا هذا، ولا هذا؛ بل الله هو الَّذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»[2].

---

[1] تفسير ابن كثير (172/2).

[2] تفسير ابن كثير (244/4).

وهذه الآية في غاية القوّة من حيث الحجّة العقليّة؛ لأنّ «وجودهم هكذا من غير شيءٍ أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثيرٍ، أو قليل، أمّا أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم؛ فأمرٌ لم يدّعوه، ولا يدّعيه مخلوقٌ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة؛ فإنّه لا يبقى سوى الحقيقة الّتي يقولها القرآن، وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الّذي لا يشاركه أحدٌ»[1] والتّعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرّر بداهةً في العقل.

وتأمّلْ هذا الإلزام بالإقرار بربوبيّة الله وألوهيته، فيما ذكره السّعديُّ في تفسيره، حيث قال: «وهذا استدلالٌ عليهم، بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلا التّسليم للحقِّ، أو الخروج عن موجب العقل والدِّين، وبيان ذلك: أنّهم منكرون لتوحيد الله، مكذِّبون لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك مُستَلزِمٌ لإنكار: أنّ الله خلقهم، وقد تقرّر في العقل مع الشّرع: أنّ ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمورٍ: إمّا أنّهم خلقوا من غير شيءٍ، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجادٍ، ولا موجد، وهذا عين المحال، أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محالٌ؛ فإنّه لا يُتصوّر أن يوجد أحدٌ نفسه، فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعيّن القسم الثّالث، وهو أنّ الله هو الّذي خلقهم، وإذا تعيّن ذلك عُلم: أنّ الله هو المعبود وحده، الّذي لا تنبغي العبادة، ولا تصلح إلا له تعالى»[2].

3 - أسلوب الإمرار، والإبطال:

وهو أسلوبٌ قويٌّ في إفحام المعاندين أصحاب الغرور، والصّلَف[3] بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة؛ منعاً للجدل، والنِّزاع، خلوصاً إلى حجّةٍ قاطعةٍ تدمغهم، وتبطل بها حجّتهم تلك، فتبطل الأولى بالتّبع، وفي قصّة موسى - عليه السّلام - مع فرعون، نموذجٌ مطوّلٌ لهذا الأسلوب؛ حيث أعرض موسى عن كلِّ اعتراضٍ وشبهةٍ أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون، من خلال إقامة الحجّة العقليّة الظّاهرة على ربوبيّة الله، وألوهيّته[4]، وذلك في الآيات من سورة الشُّعراء، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ

---

[1] في ظلال القران (3399/6).

[2] تفسير السّعدي (195/7 ، 196).

[3] الصّلَف: التّكبُّر والتّفاخر.

[4] انظر: مقومات الدّاعية النّاجح ، د. علي بادحدح ، ص 59 إلى 69 ، والأساليب السّابقة من هذا الكتاب.

الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْـتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائكم الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُـولَكُمُ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء: 23 – 29].

وهكذا كانت الأسـاليب القرآنيَّة الكريمة، هي الرَّكيزة، في مجادلة رسـول الله صـلى الله عليه وسلم للمشركين، ولـــمَّا احتار المشركون في أمر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكونوا على استعدادٍ في تصـديقه: أنَّه رسـولٌ من عند الله، ليس لأنَّهم يكذِّبونه، وإنَّما عناداً وكفراً، كما قال تعـالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيات اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]، هداهم تفكيرُهم المعوَجُّ إلى أن يطلبوا من الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم مطالب ليس الغرض منها التَّأكد من صـدق النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ولكن غرضـهم منها التعنُّت والتَّعجيز، وهذا ما طلبوه من الرَّسول صلى الله عليه وسلم:

1 – أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً؛ أي: يُجري لهم الماء عيوناً جاريةً.

2 – أو تكون له جنَّة من نخيل وعنبٍ يفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً؛ أي: تكون له حديقة فيها النَّخل والعنب، والأنهار تُفَجَّرُ بداخلها.

3 – أو يسقط السَّماء كسفاً عليهم؛ أي: يسقط السَّماء قطعاً كما سيكون يوم القيامة.

4 – أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

5 – أو يكون له بيتٌ من زُخْرُفٍ؛ أي: ذهب.

6 – أو يرقى في السَّماء؛ أي: يتَّخذ سُلَّماً يرتقي عليه، ويصعد إلى السَّماء.

7 – وينزِّل كتـاباً من السَّـــمـاء يقرؤونه، يقول مجاهـد: أي: مكتوبٌ فيه إلى كـلِّ واحدٍ صحيفةً، هذا كتابٌ من الله لفلان بن فلانٍ، تصبح موضوعةً عند رأسه(1).

8 – طلبوا من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن يدعو لهم، فيُسَـيِّر لهم الجبال، ويقطع

---

(1) انظر: المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة ، د. سميرة محمد ، ص 171 ، 172.

الأرض، ويبعث من مضى من ابائهم من الموتى[1].

إنَّ عملية طلب الخوارق والمعجزات، هي خطَّةٌ متَّبعةٌ على مدى تاريخ البشـــريَّة الطَّويل، وبرغم حرص النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك، إلا أنَّه رفض طلبهم هذا؛ لأنَّه علم من آيات القرآن: أنَّهم إن لم يؤمنوا بعد إجابتهم لما طلبوا؛ عُذِّبُوا عذاباً شـــديداً، وكانت إجابته صلى الله عليه وسلم : «ما بهذا بعثت إليكم، إنَّما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلَّغتكم ما أرســـلت به إليكم، فإن تقبلوه؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبرُ لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم» [سبق تخريجه][2].

وانصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً أَسِفاً لما فاته، ممَّا طمِع فيه من قومه حين دعوه، ولـــمَّا رأى من مباعدتهم إيَّاه[3]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنُّتات، والردَّ عليها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً *وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً *قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 90 – 96].

ونزل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[الرعد: 31].

إنَّ الحكمة في أنَّهم لم يُجابوا لما طلبوا: أنَّهم لم يســـألوا مســـترشـــدين وجادِّين، وإنَّما ســـألوا متعنِّتين، ومســـتهزئين، وقد علم الحقُّ ســـبحانه: أنَّهم لو عاينوا، وشـــاهدوا ما طلبوا، لما امنوا،

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (311/1).

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (459/1).

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (317/1).

وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلُّوا في غيّهم وضلالهم يتردَّدون، قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ *وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 109 – 111].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهيَّة، والرَّحمة الرَّبَّانيَّة، ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنَّ سنَّته سبحانه: أنَّه إذا طلب قومٌ آيات، فأجيبوا، ثمَّ لم يؤمنوا؛ عذَّبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعادٍ، وثمود، وقوم فرعون.

وليس أدلَّ على أنَّ القوم كانوا متعنِّتين، وساخرين، ومعوِّقين لا جادِّين، من أنَّ عندهم القرآن، وهو ايةُ الآيات، وبيِّنةُ البيِّنات؛ ولذلك لـمَّا سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات، وغيرها؛ ردَّ عليهم سبحانه[1] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيات مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: 50 – 52] .

وقد ذكر عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه روايةً، مفادها: أنَّ قريشاً قالت للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفا ذهباً، ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا؛ فأتاه جبريل، فقال: إنَّ ربك – عزَّ وجلَّ – يقرأ عليك السَّلام، ويقول: إن شئت؛ أصبح لهم الصَّفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئت، فتحت لهم أبواب التَّوبة، والرَّحمة، فقال: بل باب التَّوبة، والرَّحمة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيات إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيات إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59] [الحاكم (53/1) و(240/4) والبزار (2224) والبيهقي (50/7)](2) .

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شنُّ حربٍ إعلاميَّةٍ ضدَّ الدَّعوة،

---

[1] يعني لو أنَّ هناك قراناً بهذه الصِّفات أو هذه الشُّروط؛ لكان هذا القران الكريم ، فهو ليس له مثيلٌ ، لا من قبل ، ولا من بعد ، فجواب (لو) محذوفٌ ، دلَّ عليه المقام.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (320/1 ، 321).

والدَّاعية، وتامراً على الحقِّ؛ كي تبتعد القبائل العربيَّة عنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّهم يطالبونــه بأمورٍ يدركون: أنَّها ليست طبيعة هذه الدَّعوة، ولهذا أصرُّوا عليها، بل لقد صرَّحوا بأن لو تحقَّق شــيءٌ من ذلك، فلن يؤمنوا أيضــاً بهذه الدَّعوة، وهذا كلُّه محاولةٌ منهم لإظهار عجز الرَّســول صلى الله عليه وسلم ، واتِّخاذ ذلك ذريعةً لمنع النَّاس عن اتِّباعه[1].

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكِّيّ، واستعانة مشركي مكَّة بهم:

تحدَّث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سورٍ كثيرةٍ، بلغت خمسين سورةً في المرحلة المكِّيَّة، وفي المرحلة المدنيَّة كان دور اليهود كبيراً في محاولة إطفاء نور الله، والقضـــاء على دعوة الإســلام، وعلى حياة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، ولم تحظَ مِلَّةٌ من الملل، ولا قومٌ من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشُّـــمول، وهذه التَّفصـــيلات، ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتَّسـم بمنهجٍ دقيقٍ يتناسـب مع المراحل الدَّعوية الَّتي مرَّت بها دعوة الإسـلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى أنَّ غفلة المشركين عن الحقِّ، الَّذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتراثهم به، وبدعوته له نماذج بشـريَّةٌ تقدَّمتهم؛ مثل: عادٍ، وثمودٍ، وفرعون، وبني إسرائيل، وقوم تُبَّعٍ، وأصحاب الرَّس[2].

اقرأ معي تلك الإشـارات، في قوله تعالى في سـورة المزمَّل – وهي السُّـورة الثَّالثة في ترتيب النُّزول[3]: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً *فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا *السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً *إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل: 15 – 19] .

وكذلك ما ورد في ســورة الأعلى، وهي السُّـــورة الثَّامنة في ترتيب النُّزول، فبعد أن ذكرت بعض الصِّــفات الجليلة لله جلَّ جلاله، وما أســبغ به من النِّعم الدُّنيويَّة والآخرويَّة على عباده، وذكر طريق الفلاح في الدُّنيا وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى، ختمت السُّورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى *صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 18 – 19] .

---

[1] صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 90.
[2] انظر: الوفود في العهد المكي ، ص 40 . 51.
[3] معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، لمصطفى مسلم ، ص 30 ، 31.

وفي سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ *وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ *الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ *فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ *فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ *إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 6 – 14] .

وجاء في سورة النَّجم ذِكْرُ بني إسرائيل، كنماذج بشريَّة تعرَّضت للفتنة، والاضطهاد، فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء، ومنهم من صمد، ونجح في الابتلاء.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى *وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى *أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى *أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى *أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى *وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى *وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى *ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى *وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم: 29 – 42].

إنَّ تلك المبادئ مقرَّرةٌ في صحف موسى – عليه السَّلام – المرسل إلى بني إسرائيل، فليرجعوا إليها إن كانوا في شكٍّ من أمر محمَّد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك في صحف إبراهيم، وهم «أي: قريش» يزعمون أنَّهم ينتمون إليه، ويعظِّمون شرائعه؛ الَّتي توارثوها، كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة، وخدمة الحجيج[1].

وفي سورة (ص، ويس، ومريم، وطه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وما أصابهم من الفتنة والابتلاء، وكيف أوذوا فصبروا، وبيان سنَّة الله تعالى في أولئك المتحزِّبين المناهضين لدعوة الحقّ: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ *وَثَمُودُ وقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ *إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ *وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ *وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ *اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

---

(1) المصدر السابق نفسه.

[ص 11 -17] .

إنَّها إشارةٌ ذات دلالةٍ تربويَّةٍ لأصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مأخوذةٌ من سيرة هؤلاء الأقوام؛ الَّذين تحزَّبوا ضدَّ دعوة الحقِّ؛ لقد كذَّبوا أنبياءهم، فحقَّ عليهم كلمة العذاب، وانتصر أهل الحقّ عليهم.

لم يسلم أحدٌ من الأنبياء من إيذاء الأقوام، مهما كانت مكانتهم، وعزَّتهم في مجتمعاتهم، فلئن كان نوحٌ، وهودٌ، وموسى، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ من عامَّة النَّاس، فما قولك في داود صاحب القوَّة، والسُّلطة، والملك، الَّذي كانت معجزاته بارزةٌ للعيان من تسبيح الجبال معه، وحَشْرِ الطُّيور لسماعِ مزاميره، وتلاوته؟ ماذا تقول عنه بنو إسرائيل؟ وماذا دوَّنوا في كتبهم عن سيرته؟ إنَّهم لم يتركوا نقيصةً إلا ألصقوها فيه، وهو النَّبيُّ العابد الأوَّاب، ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول - عليها وعلى ابنها السَّلام - وقد أورد القرآن الكريم حملها، وولادتها، والخوارق الَّتي حصلت لهما؛ حيث جعلها وابنها ايةً للعالمين: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم: 21] ؛ فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم، وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التَّوراة، ﴿فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾، فلا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحقِّ ما يدلُّ على ضلالها، وجهلها، إنَّها تهيئةٌ للنُّفوس، وتثبيتٌ لها على الحقّ لملاقاة أعدائه المفترين المكذِّبين من المشركين ومن أهل الكتاب، ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الَّذين كذَّبوهم ولم يؤمنوا لهم؛ بل كانت لهم مواقف غريبةٌ مشينةٌ مع أعظم أنبيائهم؛ الَّذين يفتخرون بنسبتهم إليه، وهم يزعمون: أنَّهم أهل كتابه الَّذي أنزل عليه، وحملة شرائعه وهدآياته، إنَّه نبيُّهم موسى - عليه السَّلام - أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبةً.

وتذكر لنا سورة (طه) كيف كان الحال معه، وما عاناه من سفههم، وتمرُّدهم على أوامر الله، وعصيانهم المتعمَّد، فما كاد موسى - عليه السلام - يغادرهم لمناجاة ربِّه، وقد ترك بين ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم، ولا يتَّبع سبيل المفسدين، إلا وتامروا عليه، وجمعوا زينة القوم ليُخرج لهم السَّامريُّ عجلاً جسداً له خوار، فيقوم النَّاس بالطَّواف به لعبادته؛ وليقولوا كلمتهم الكبيرة: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ [طه: 88] ، ولـمَّا عرف الحقيقة، استدعى السَّامري ليسأل عن الدَّافع له على هذا التصرُّف السَّفيه، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: 96].

إنَّ قوماً يصل بهم السَّفه إلى هذا الحدِّ من الزَّيغ، والضَّلال، والإفساد، فهل يُؤْمَن جانبهم، ويُتوقَّع منهم الخير، أو مناصــرة الحقِّ؟! لقد كان لقصـــص بني إســرائيل في هذه المرحلة المكِّيَّة المتقدِّمة آثار بعيدةُ الدَّلالة في تكوين الشَّخصيَّة الإسلاميَّة المتميّزة عن هذه الطَّوائف والنِّحَلِ[1].

ومن لطائف الأســرار القرآنيَّة، ومن جميل وجوه المناســبات أن يأتي الحديث عن عالميَّة الدَّعوة الإسـلاميَّة، من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم؛ لكي يؤمنوا بالنَّبيِّ الأمِّيِّ عندما يأتيهم بدعوته العالميَّة، وكان ذلك في ســورة الأعراف، وكان إيراد التَّفصــيلات في انحرافات بني إســرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين، بألا يتأثَّروا بموقف اليهود؛ إن هم تنكَّروا لهم، فإنَّهم قوم بُهْت، وتلك سـيرتهم مع أنبيائهم، فإن أعرضـوا عن دعوة الإسـلام، وكذَّبوا محمَّداً صـلى الله عليه وسلم ، وقد وجدوا أوصافه في كتبهم، فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين[2].

قال تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخرةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَـاءُ وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُــــولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَــــعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّــــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـــــولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: 156 – 158] .

نعم، إنَّها نقلةٌ من صــعيد مكَّة، وشــعابها، وجبالها إلى أقطار العالم جميعاً، إنَّها نقلةٌ رُوحيَّةٌ نفسـيَّةٌ كبيرةٌ؛ حيث نلاحظ سـياق الآيات يرسـم معالم الدَّعوة العالميَّة عندما تخرَّج من مكَّة إلى الصَّــعيد العالميِّ، كما أنَّ الآيات في ســورة الأعراف مليئةٌ بالدُّروس التَّربويَّة العظيمة لأمَّة محمَّد صـلى الله عليه وسـلم ، من خلال السَّـرد التَّاريخيِّ لحياة بني إسـرائيل، وما اعتورها من أحداثٍ عظامٍ، وهذه المداخلات الَّتي تلفت النَّظر إلى أمَّة رســول الله صــلى الله عليه وســلم ودورها ومهمَّتها في قيادة العالم، وفي الوقت نفســه تحذيرٌ لها لكي تتجنَّب ما وقعت فيه بنو إســرائيل،

[1] انظر: معالم قرانية في الصراع مع اليهود ، ص 316.

[2] انظر: معالم قرانيَّة في الصراع مع اليهود ، ص 39 ، 40.

ويمضـي السِّـياق في الحديث عن الأمم الَّتي تكوَّنت من الأسـباط، وكيف فُكَّت ضـائقتهم في المطعم والمشـرب، بتفجير الينابيع وإنزال المنِّ، والسَّلوى عليهم، وتوفير الظِّلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم، ولكن هل أدَّوا شكر هذه النِّعم؟ وماذا كان موقفهم من التكاليف الشَّرعيَّة؟ لقد كان العناد، والتَّحريف، والتَّحايل، والتمرُّد دائماً!

إنَّ إنســانيَّة الإنســان تتحقَّق باتِّباعه الوحي الرَّبَّانيَّ المنزل من خالق السَّــموات والأرض، والعبودية لله تعالى تحقِّق الكمال الإنسـانيَّ، حيث تتحقَّق الغاية الَّتي خُلق الإنسـان من أجلها، وأيُّ إهمالٍ لهذه المهمَّـة، وأيُّ ابتعادٍ عن نـور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشريِّ، ويلحقه بالدَّواب، والأنعام، وقد يكون أضلَّ منها؛ لأنه يسخِّر عقله لمزيــد من الإسفاف، والانحطاط، بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف، والانحطاط، وإنَّما هي مفطورةٌ على غرائز معيَّــنةٍ تدفعها لتصرُّفٍ محدَّدٍ.

كانت سـورة الأعراف المكِّيَّة، تعرض لمحاتٍ تربويَّةً، وتبيِّن توجيهاتٍ ربَّانيَّةً، وتوضِّـح سـنناً إلهيةً، من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل[1].

عندما وجدت قريش نفسـها عاجزةٌ أمام دعوة الحقِّ، وكان المعبِّر عن هذا العجز النَّضـر بن الحارث؛ الَّذي صـرح قائلاً: «يا معشـر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد! فانظروا في شــأنكم، فإنَّه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم!». فقرَّروا بعد ذلك إرســال النَّضــر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، إلى أحبار اليهود بالمدينة، لمعرفة حقيقة هذه الدَّعوة، لا لكي يتَّبعوها، ولكن لإدراكهم: أنَّ اليهود قد يمدُّونهم بأشــياء تظهر عجز الرَّســول صــلى الله عليه وسلم، ولمعرفة زعماء مكَّة بحقد اليهود المنصبِّ على الأنبياء جميعاً، وأصحاب الحقِّ أينما كانوا.

كانت بعثة المصـطفى صـدمةً قويَّةً لليهود؛ وذلك لأنَّهم عاشـوا في جزيرة العرب على حلمٍ توارثوه طوال السِّــنين الماضــية، وهو أنَّه ســيبعث نبيٌّ مُخلِّص في ذلك الزَّمان والمكان، فرجوا أن يكون منهم؛ آملين أن يخلِّصهم من الفرقة، والشَّتات؛ الَّذي كانوا فيه[2].

كان التقارب بين معسكر الكفر والشِّرك مع اليهود ينسجم مع أهدافهم المشـتركة للقضـاء

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 54.

[2] انظر: معالم قرانية في الصَّراع مع اليهود ، ص 55 إلى 60.

على دعوة الإسلام، ولذلك زوّدوا الوفد المكيَّ ببعض الأسئلة محاولةً لتعجيز النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النَّضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمَّد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا؛ حتَّى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنَّكم أهل التَّوراة، وقد جئناكم؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقَوِّلٌ، فقرِّروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل، ما كان من أمرهم؟ فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسلوه عن رجلٍ طوَّاف، بلغ مشارق الأرض، ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك، فإنَّه نبيٌّ فاتَّبعوه، وإن هو لم يخبركم؛ فهو رجلٌ مُتَقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النَّضر، وعقبة حتَّى قدما مكَّة على قريشٍ، فقالا: يا معشر قريش!، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد،قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمورٍ، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد! أخْبِرْنا، فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبركم غداً بما سألتم عنه، ولم يستثن[1]، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلةً، لا يحدِث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكَّة، وقالوا: وعدنا محمَّد غداً، واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه، وحتَّى أحْزَنَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة، ثمَّ جاء جبريل عليه السلام من الله – عزَّ وجلَّ – بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيَّاه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية والرَّجل الطَّوَّاف، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ **[الإسراء: 85] [ابن هشام (322/1)]**
ولـمَّا سمع اليهود: قالوا: كيف وقد أوتينا ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، ومن أوتي التَّوراة؛ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

[1] أي: لم يقل: (إن شاء الله).

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109].

كانت سورة الكهف قد احتوت على إجابةٍ لأسئلتهم، وإشارةٍ إلى أنَّ كهفاً من عناية الله سوف يُؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمَّد صلى الله عليه وسلم ، كما اوى الكهف الجبليُّ الفتية المؤمنين الفارِّين بدينهم من الفتنة، وأنَّ نفوساً ستبشُّ في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب، بالقرب من الَّذين عاضدوا قريشاً في شكِّهم، وحاولوا معهم طمس نور الحقِّ، بتلقينهم المنهج التعجيزيِّ في التَّثبُّت من أمر النُّبوَّة، وهو منهجٌ غير سليم؛ فمتى كانت الأسئلة التَّعجيزيَّة وسيلة التَّحقُّق من صدق الرِّسالة، وصاحبها؟! فهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته، على الرَّغم من تعهده ألاَّ يسأله عن شيءٍ حتَّى يحدث له منه ذكراً، على الرَّغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث، وما دار حولها في نبوَّة موسى عليه السلام شيئاً، ولم يشكِّك بنو إسرائيل في نبوَّته، فَلِمَ يجعلون مثل هذه الأسئلة أسلوباً للتحقُّق من صدق الرِّسالة؟![1].

جعل الله هذه المناسبة وسيلةً للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة؛ ليجدوا مأوىً كما وجد الفتية المأوى وليبشَّ في وجوههم أهل المدينة، كما بشَّ أهل المدينة في وجه أحد الفتية، ثمَّ ذهبوا إليهم ليكرموهم، وليخلِّدوا ذكراهم[2].

إنَّ القرآن الكريم نزل ليكوِّن خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، لها مقوِّماتها الذَّاتيَّة، ومصادرها المعرفيَّة، ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكِّيَّة، سورة الفاتحة، وفيها التَّضرُّع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصِّراط المستقيم، وتجنُّبه صراط المغضوب عليهم - وهم اليهود - وصراط الضَّالين - وهم النَّصارى - كما جاء في حديث عديِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه [الترمذي (2954) وأحمد (4/378 - 379)].

فتحديد هذا النَّهج، وبيان الصِّراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضَّالَّة؛ حتَّى تُتَجنَّب السُّبل الأخرى المتفرِّقة؛ الَّتي تؤدِّي بصاحبها إلى المزالق، والمهالك، فكان التعرُّض لعقائد اليهود، وانحرافاتهم، ومواقفهم مع أنبيائهم أمراً تقتضيه دواعي التكوين للشخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة، إنَّ

---

(1) انظر: مباحث في التَّفسير الموضوعي ، لمصطفى مسلم ، ص 189.

(2) انظر: تأمُّلات في سورة الكهف ، للشَّيخ أبي الحسن النَّدوي ، ص 46 ، وانظر: معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، ص 61.

معركتنا مع اليهود معركةٌ مستمرَّةٌ؛ لأنَّها معركةٌ بين المنهج الرَّبَّانيِّ، والصِّراط المستقيم ضدَّ المناهج الجاهليَّة المحرِّفة لكلمات الله، السَّاعية للإفساد في الأرض[1].

عاشراً: الحصار الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ في آخر العام السَّابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمام صبر الرَّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين على الأذى، وإصرارهم على الدَّعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمَّته في الحصار الماديِّ، والمعنويِّ؛ الَّذي ضربته قريشٌ ظلماً، وعدواناً على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومَنْ عطف عليهم مِنْ قرابتهم[2].

قال الزُّهريُّ: «ثمَّ إنَّ المشركين اشتدُّوا على المسلمين كأشدِّ ما كانوا؛ حتَّى بلغ المسلمين الجهد، واشتدَّ عليهم البلاء، وأجمعت قريش أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيةً؛ فلـمَّا رأى أبو طالب عمل القوم؛ جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شِعْبَهم، ويمنعوه ممَّن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمُهم وكافرُهم، فمنهم مَنْ فعله حَمِيَّةً، ومنهم من فعله إيماناً، ويقيناً، فلـمَّا عرفت قريشٌ: أنَّ القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يَدْخُلوا بيوتهم؛ حتَّى يُسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا من مكرهم صحيفةً، وعهوداً ومواثيق؛ ألا يتقبَّلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ؛ حتَّى يسلموه للقتل[3].

وفي روايةٍ: « ... على ألا ينكحوا إليهم، ولا يُنْكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يَدَعُوا سبباً من أسباب الرِّزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صُلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتَّى يُسْلِمُوا إليهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم للقتل، ثمَّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمَّ علَّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم»[4].

---

[1] معركة الوجود بين القران والتلمود ، ص 78 ، 79 ، نقلاً عن معالم قرانيَّة ، لمصطفى مسلم ، ص 29.

[2] انظر: ظاهرة الإرجاء ، د. سفر الحوالي (50/1).

[3] لمعرفة تفصيلات قصَّة الشِّعْب وما تخلَّلها من أحداث ، انظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقي (80/2 . 85) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (43/2 . 72) ، والرَّوض (101/2 . 129) ، والسيرة النبوية؛ لابن هشام (375/1 . 376).

[4] السيرة النبوية ، لابن هشام (350/1) ، وزاد المعاد (46/2) ، والكامل في التاريخ (87/2).

فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين، واشتدَّ عليهم البلاء، والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم من مكَّة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه، فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وكان أبو طالب إذا أخذ النَّاسُ مضاجعهم؛ أمر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأتى فراشه حتَّى يراه من أراد به مكراً، أو غائلة، فإذا نام النَّاس؛ أخذ أحد بنيه، أو إخوته، أو بني عمِّه، فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بعض فرشهم، فيرقد عليها[2].

واشتدَّ الحصار على الصَّحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، حتَّى اضطروا إلى أكل ورق الشَّجر، وحتى أصيبوا بشظف العيش، وشدَّته إلى حدِّ أنَّ أحدهم يخرج ليبول، فيسمع بقعقعة شيءٍ تحته، فإذا هي قطعةٌ من جلد بعيرٍ، فيأخذها، فيغسلها، ثمَّ يحرقها، ثم يسحقها، ثمَّ يستفُّها، ويشرب عليها الماء، فيتقوى بها ثلاثة أيام[3]، وحتَّى لتسمع قريشٌ صوت الصِّبية يتضاغون من وراء الشِّعْب من الجوع[4].

فلمَّا كان رأس ثلاث سنين، قيَّض الله - سبحانه وتعالى - لنقض الصَّحيفة أناساً من أشراف قريشٍ، وكان الَّذي تولَّى الانقلاب الدَّاخلي لنقض الصَّحيفة، هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أميَّة المخزومي، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب، فقال له: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطَّعام، وتلبس الثِّياب، وتنكح النِّساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يبتاعون، ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكْحون، ولا يُنْكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثمَّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم؛ ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ، والله لو كان معي رجلٌ آخر؛ لقمت في نقضها! فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبْغِنَا ثالثاً.

فذهب إلى المطْعِم بن عديٍّ، فقال له: يا مُطْعِمُ! أقد رضيت أن يَهْلِك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريشٍ فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه؛ لتجدنَّهم

---

[1] انظر: ظاهرة الإرجاء (51/1).

[2] انظر: فقه السيرة النبوية ، للغضبان ، ص 180.

[3] انظر: الغرباء الأولون ، ص 148 ، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم (7).

إليها منكم سراعاً! قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ، قال: قد وجدت لك ثانياً، قال: من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: مَنْ؟ قال: زهير بن أبي أميَّة، فقال: أبغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً ممَّا قال للمطعم بن عديٍّ، فقال له: ويحك! وهل نجد أحداً يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أميَّة، والمطعم بن عديٍّ، وأنا، فقال: أبغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد، فكلَّمه، وذكر له قرابته، وحقَّهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الَّذي تدعوني إليه من أحدٍ؟ قال: نعم، ثمَّ سمَّى له القوم؛ فاتَّعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكَّة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتَّى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤُكم، فأكون أوَّل من يتكلَّم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أميَّة عليه حُلَّةٌ، فطاف بالبيت سبعاً، ثمَّ أقبل على النَّاس، فقال: أنأكل الطَّعام، ونلبس الثِّياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! فقال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت والله لا تُشقُّ ! فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقِرُّ به، فقال المطعم بن عديٍّ: صدقتما، وكذبَ مَنْ قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، وممَّا كُتِبَ فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قضي بليلٍ، تُشُووِرَ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلَّم.

وقام المِطْعم بن عدِيٍّ إلى الصَّحيفة ليشقَّها، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها، إلا «باسمك اللَّهمَّ»[1].

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال لأبي طالب: يا عم ! إن ربي الله قد سلط الأَرَضَة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش ! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما

[1] انظر: السيرة النبوية ، لابن كثير (43/2 . 50 ، 67 . 69).

فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضـــينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شراً. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[1].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - إنَّ المتأمِّل لبنود هذه الاتِّفاقيَّة، يجد: أنَّ قريشاً قد أحكمت البنود، ولم تدع فيها ثُغْرَةً يمكن النفاذ من خلالها، ممَّا يؤكد: أنَّها وُضِعت بعد مداولاتٍ، ومشاوراتٍ على نطاقٍ واسعٍ، وشاركت في وضعها عقولٌ مفكرةٌ، امتزجت معها خبراتٌ عديدةٌ، وحبكَها ذكاءٌ مفرطٌ.

2 - في عدم الزَّواج بين الطَّرفين، جانب اجتماعيٌّ مهمٌّ؛ فالزَّواج غالباً ما يؤدِّي إلى التالف، والتاخي، والتَّراحم، والتَّواصـــل، والتَّزاور بين أهل الزَّوجين، فإذا تمَّ شـــيءٌ من ذلك؛ فسيؤدِّي إلى فشل الحصار، وحتَّى لا يحدث ذلك نصَّتِ الوثيقةُ على عدم الزَّواج بين الطَّرفين.

3 - وفي النَّهي عن البيع، والشِّـــراء منهم يَظْهر جانبٌ اقتصـــاديٌّ بالغ الأهمِّيَّة، فالبيع، والشِّـراء عصـب الحياة الاقتصـادية، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشـر، فإذا انعدم ذلك التَّعامل؛ انهار البناء الاقتصـاديُّ، وباتت الحياة الاقتصـاديَّة مهدَّدةً بالخطر، فيصـبح الإنسـان مفتقداً لضروريات الحياة؛ ممَّا يعرضه إلى الرُّضوخ، والانصياع لأوامر مَنْ يملك تلك الضروريات، ومعلومٌ أثر ذلك على الجماعة، والأفراد، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين، وهذا ما وقع فعلاً، فقد جاء: أنَّهم جُهِدوا حتَّى كانوا يأكلون ورق الشَّجر، والجلود[2].

4 - وزيادةً في الحصار الاقتصاديِّ، وضعوا بنداً يسدُّ الطَّريق أمام المسلمين في التَّعامل مع التُّجار الوافدين من خارج مكَّة، فكانوا يغلون على المسلمين في السِّعر حتَّى لا يدرك الصَّحابة شيئاً يشترونه، فيرجعون إلى أطفالهم الَّذين يتضاغون جوعاً؛ وليس في أيديهم شيءٌ يشغلونهم به، فكان يُسـمَعُ بُكَاء الأطفال من بعيدٍ[3]. كل هذا التضـييق بسـبب البند الَّذي يقول: «ولا يدعوا شـيئاً من أسـباب الرِّزق يصـل إليهم»، كما أنَّ هذا البند يفوِّت الحجَّة على مَنْ أراد أن

---

[1] السيرة النبوية (377/1).
[2] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (377/1) ، والرَّحيق المختوم ، ص 129.
[3] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (377/1) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 120.

يهديَ شـيئاً لأهل الشِّـعب، بحجة: أنَّه لا يبيع، وإنَّما يهدي، وحتَّى لا تبقى ذريعةٌ لإيصـال الطَّعام إليهم تحت أيِّ مسمَّى وضعت قريش هذا البند[1].

5 – والبند التَّالي: «ولا تقبلوا منهم صلحاً»، يسدُّ الطَّريق أمام أيِّ خيارٍ آخر سوى تسليم محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهـم، أمَّا البنـد الذي يقضي «بألا تأخذهم بهم رأفةٌ»، فهو بندٌ يضع قيوداً حتَّى على العواطف؛ كي لا يكون للرأفة، والرَّحمة وجودٌ بين أهل الصَّـحيفة تجاه المؤمنين؛ لأنَّ الرَّحمة والرَّأفة قد تقودان إلى فكِّ الحصـار؛ الَّذي يؤدِّي بـدوره إلى فشـل جهود قريش، وهو ما لا تهواه، لذا عملت على إبطال مفعول الرَّأفة بوضعها لهذا البند في الصَّحيفة.

6 – وفي «عدم مجالستهم، ومخالطتهم، وكلامهم»، سدُّ ثغرةٍ مهمَّةٍ ربُّما جاء من قِبَلِها خطرٌ على المقاطعة والحصـار؛ لأنَّ المجالسـة، والمخالطة، والكلام مع المسـلمين، يؤدِّي إلى النِّقاش، وتبادل الاراء، ووجهات النَّظر، فقد يُقنِع المسلمون بعض أهل الصَّحيفة بخطأ ما هم عليه؛ لأنَّ المسـلمين يملكون من الحقِّ والأدلَّة ما يمكن أن يقنعوا بها سـواهم، وحتَّى لا يتمَّ ذلك نصَّـت الصَّحيفة على عدم المجالسة، والمخالطة والكلام.

7 – قولهم: «لا يدخلوا بيوتهم»، بندٌ لا يختلف عمَّا سـبقه؛ لأنَّ دخولهم البيوت يحرِّك الجوانب الإنسـانيَّة في النَّفس، فالإنسـان عندما يرى بيتاً يخلو من أقلِّ مقومات الحياة، وأصـاب أهله الجوع، والعري، والمرض، ليس لذنبٍ سـوى أنَّهم اختاروا ديناً غير دين قريشٍ؛ لاشـكَّ أنَّ العاطفة ستتحرَّك عندهم، وسيحاولون رفع هذا الظُّلم، وتلك المعاناة، وحتَّى لا تقع قيادة قريش في مثل هذا الموقف نصَّت على عدم دخول البيوت.

8 – وتعليق الصَّـحيفة في الكعبة يعطيها قدسـيَّةً، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسـة الَّتي يجب التَّقيُّد، والالتزام بها، فالعرب قاطبةً تقدِّس الكعبة، وتضـع لها مكاناً سـامياً من الحرمة والقدسيَّة، لذا عمَدت قريش إلى تعليق الصَّحيفة داخل الكعبة[2].

9 – إنَّ مشـركي بني هاشـمٍ، وبني المطَّلب تضـامنوا مع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ،

---

[1] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة. قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 96.

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة. لجوانب الحذر والحماية ، ص 96 ، 97.

وحموه كأثرٍ من أعراف الجاهليَّة، ومن هنا، ومن غيره، نأخذ: أنَّه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدَّعوة، على أن يكون ذلك مبنِيّاً على فتوى صحيحةٍ من أهلها[1].

10 - إنَّ حقوق الإنسان في عصرنا ضمانٌ للمسلم، والحرّيَّة الدِّينيَّة في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرةٌ من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك، وغيره من خلال موازناتٍ دقيقةٍ[2].

11 - من المهمِّ أن تعلم: أنَّ حماية أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم له لم تكن حمايةً للرِّسالة الَّتي بُعِث بها، وإنَّما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغلَّ هذه الحماية من قِبَلِ المسلمين كوسيلةٍ من وسائل الجهاد والتغلُّب على الكافرين، والردِّ لمكائدهم وعدوانهم؛ فأنعم بذلك من جهدٍ مشكورٍ، وسبيلٍ ينتبهون إليها![3].

12 - لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التَّحالف الباغي إلا بالحرب السياسية من جهةٍ، ومحاولة تفتيت هذا التَّحالف، فعمل قصيدته اللاَّمية المشهورة وفي بدايتها قال:

ولـمَّا رأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ عِنْدَهُمْ ... وقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَا والْوَسَائِلِ
وقَدْ حَالَفُوا قَوْماً عَلَيْنَا أَظِنَّةً ... يَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بالأَنَامِلِ[4]

وكان لهذه القصيدة أثرٌ خطيرٌ زلزل أوضاع مكَّة، واستطاعت أن تحرِّك كامن العصبية عند أقارب بني هاشمٍ، حيث ائتمروا سرّاً، ودعوا إلى نقض الصَّحيفة[5].

13 - انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشيِّ بقصائده الضَّخمة، الَّتي هزَّت كيانه هزاً، وتحرَّك لنقض الصَّحيفة مَنْ ذكرنا مِنْ قبل، أولئك الخمسة الَّذين يمتُّون بصلة قرابةٍ، أو رحمٍ لبني هاشم، وبني المطَّلب، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظُّلامة وهذا الحيف، عن المسلمين، وأنصارهم، وحلفائهم، وخطَّطوا له، ونجحوا فيه، وفي هذا الموقف إشارةٌ إلى أنَّ كثيراً من النُّفوس - والَّتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهليِّ - قد تملك في أعماقها رفضاً لهذا الظُّلم، والبغي، وتستغلُّ الفرصة المناسبة لإزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتمُّوا بهذه الشَّرائح، وينفذوا

---

[1] انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ، السِّيرة النَّبوية ، لسعيد حوى (264/1).

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 88.

[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (245/1).

[5] انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، للغضبان ، ص 35 إلى 37.

إلى أعماقها، وتُوضِّحَ لهم حقيقة القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة، وتبيِّن لها طبيعة العداء بين الإسلام، واليهود، والنَّصارى، والعلمانيَّة، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام[1]

14 - ظاهرة أبي لهبٍ تستحقُّ الدِّراسة والعناية؛ لأنَّها تتكرَّر في التَّاريخ الإسلاميِّ، فقد يجد الدُّعاة من أقرب حلفائهم مَنْ يقلب لهم ظهر المِجَنِّ، ويبالغ في إيذاء الدُّعاة وحربهم أكثر بكثير من خصومهم الألدَّاء الأشدَّاء[2].

15 - كانت تعليمات الرَّسول صلى الله عليه وسلم لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدوَّ، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يُشْعِلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها؛ وإنَّ أعظم تربيةٍ في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومةٍ؛ حمزةُ، وعمر، وأبو بكرٍ، وعثمان، وغيرهم - رضي الله عنهم - سمعوا وأطاعوا، فلقوا كلَّ هذا الأذى، وهذا الحقد، وهذا الظُّلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثةٍ واحدةٍ فقط، أو يومٍ واحدٍ فقط، بل ثلاث سنين عجافٍ، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهمٍ أو شجَّة رأسٍ[3].

16 - أثبتت الأحداث عظمة الصَّفِّ المؤمن في التزامه بأوامر قائده، وبُعْده عن التَّصرُّفات الطَّائشة؛ فلم يكن شيءٌ أسهلَ من اغتيال أبي جهلٍ، وإشعال معركة غير مدروسةٍ - لا يعلم إلا الله مداها - وغير متكافئةٍ.

17 - كانت الدَّعوة الإسلاميَّة تحقِّق انتصاراتٍ رائعةً في الحبشة، وفي نجران، وفي أزْد شنوءة، وفي دَوس، وفي غِفار، وكانت تتمُّ في خطٍّ واضحٍ، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين، ومراكز قوى يمكن أن تتحرَّك في اللَّحظة الحاسمة، وامتدادات للدَّعوة، تتجاوز حدود مكَّة الصَّلْدة المستعصية.

18 - كانت هذه السَّنوات الثلاث للجيل الرَّائد زاداً عظيماً في البناء، والتَّربية، حيث ساهم بعضه في تحمُّل الام الجوع، والخوف، والصَّبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضَّغط على النُّفوس، والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

---

[1] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص 185.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 186.

[3] انظر: التَّربية القياديَّة (371/1).

19 – كانت بعض الشَّخصيات في الصَّفِّ المشرك تبنى في داخلها بالتَّربية النَّبويَّة، وتتأثر بعظمة شخصية النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ الَّتي يقدِّمها الدِّين الجديد، لكن سيطرة الملأ، وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التَّفاعل، وهذا الحبِّ، وهذه التَّربية، وختام قصَّة الصَّحيفة تقدِّم لنا أجلى بيانٍ عن ذلك[1].

20 – قيام الحجج الدَّامغة، والبراهين السَّاطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثِّر في أصحاب الهوى، وعبدة المصالح والمنافع؛ لأنَّهم يلغون عقولهم، ويغلقون قلوبهم، وعقولهم عن التدبُّر، ويصمُّون اذانهم عن سماع الحقِّ، ويغمضون أعينهم عن النَّظر والتأمُّل والاهتداء إلى الحقِّ بعد قيام الأدلَّة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرَّسول صلى الله عليه وسلم بما حدث للصَّحيفة من أكل الأرَضَة لها، وبقاء اسم الله فقط «باسمك اللَّهمَّ» ورأوا ذلك بأمِّ أعينهم، فما امن منهم أحدٌ، إنَّه الهوى الذي يغشي عن الحقِّ، ويصمُّ الاذان عن سماعه[2].

21 – كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدَّعوة والدِّعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كلِّ القبائل العربيَّة من خلال موسم الحجِّ، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدَّعوة، الَّتي يتحمَّل صاحبها وأصحابه الجوع، والعطش، والعزلة لكلِّ هذا الوقت، وآثار في نفوسهم: أنَّ هذه الدَّعوة حقٌّ، ولولا ذلك لما تحمَّل صاحب الرِّسالة وأصحابه كلَّ هذا الأذى والعذاب.

22 – آثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكَّة لقسوتهم على بني هاشمٍ وبني المطلب، كما آثار عطفهم على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فما إن انفك الحصار، حتَّى أقبل النَّاس على الإسلام، وحتَّى ذاع أمر هذه الدَّعوة، وتردَّد صداها في كلِّ بلاد العرب، وهكذا ارتدَّ سلاح الحصار الاقتصاديّ على أصحابه، وكان عاملاً قويّاً من عوامل انتشار الدَّعوة الإسلاميَّة، عكس ما أراد زعماء الشِّرك تماماً[3].

23 – كان لوقوف بني هاشم، وبني المطَّلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحمُّلهم معه الحصار الاقتصاديَّ، والاجتماعيَّ، أثرٌ في الفقه الإسلاميِّ؛ حيث إنَّ سهم ذوي القربى من

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (384/1 ، 385).

[2] السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص 167.

[3] انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص 101.

الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطَّلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

فيقول: «وأمَّا سهم ذوي القربى، فإنَّه يصرف إلى بني هاشمٍ، وبني المطَّلب؛ لأن بني المطَّلب وازروا بني هاشم في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام، ودخلوا معهم الشِّعْب غضباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحمايةً لهم، مسلمُهم طاعةً لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكافرهم حميَّة للعشيرة، وأنفةً، وطاعةً لأبي طالب عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمَّا بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمِّهم؛ فلم يوافقوهم على ذلك؛ بل حاربوهم، ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا كان ذمُّ أبي طالبٍ لهم في قصيدته اللاَّمية أشدَّ من غيرهم لشدَّة قربهم... وفي بعض روآيات هذا الحديث: إنَّهم لم يفارقونا في جاهليةٍ، ولا إسلامٍ [أبو داود (2980) والنسائي (130/7) وأحمد (81/4)]، وهذا قول جمهور العلماء: أنَّهم بنو هاشم، وبنو المطلب»[1].

24 - لـمَّا أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفتح مكَّة، ثمَّ حجَّة الوداع؛ كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة؛ ليتذكَّر ما كانوا فيه من الضِّيق، والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكَّة - التي أخرجوا منها - وليؤكِّد قضية انتصار الحقِّ، واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصَّابرين[2]، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ - في حجَّته - قال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟ ثمَّ قال: نحن نازلون غداً بِخَيْف بني كنانة، الْمُحَصَّبِ، حيث قاسمت قريشٌ على الكفر، وذلك: أنَّ بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم: ألاَّ يبايعوهم، ولا يؤووهم. قال الزُّهريُّ: والخَيْفُ: الوادي. [البخاري (3058) ومسلم، طرفه الأول (1351) وأحمد (202/5) وأبو داود (2010) وابن ماجه (2942)].

25 - على كل شَعْبٍ في أيِّ وقتٍ يسعى لتطبيق شرع الله أن يضع في حسبانه احتمالات

---

[1] تفسير ابن كثير (312/2).

[2] انظر: الغرباء الأولون، ص 149.

الحصـــار، والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملَّةٌ واحدةٌ؛ فعلى قادة الأمَّة الإســـلاميَّة تهيئة أنفسهم، وأتباعهم لمثل هذه الظُّروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكِّر بمقاومة الحصـــار بالبدائل المناســبة؛ كي تتمكَّن الأمَّة من الصُّــمود في وجه أيِّ نوعٍ من أنواع الحصار[1].

* * *

[1] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 98.

الفصل الرَّابع

هجرة الحبشة، ومحنة الطَّائف، ومنحة الإسراء

المبحث الأوَّل

تعامل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مع سنَّة الأخذ بالأسباب

من السُّنن الرَّبانيَّة الَّتي تعامل معها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم سنَّةُ الأخذ بالأسباب، والأسباب: جمع سبب، وهو كلُّ شيءٍ يُتوصَّل به إلى غيره. وسنَّةُ الأخذ بالأسباب مقرَّرةٌ في كون الله تعالى بصورةٍ واضحةٍ، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وأودع فيه من القوانين، والسُّنن ما يضمن استقراره، واستمراره، وجعل المسببات مرتبطةً بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فجعل عرشه سبحانه محمولاً بالملائكة، وأرسى الأرض بالجبال، وأنبت الزَّرع بالماء... وغير ذلك.

ولو شاء الله ربُّ العالمين؛ لجعل كلَّ هذه الأشياء وغيرها - بقدرته المطلقة - غير محتاجةٍ إلى سبب، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى، وحكمته؛ الَّتي يريد أن يوجِّه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السُّنَّة؛ ليستقيم سير الحياة على النَّحو الَّذي يريده سبحانه، وإذا كانت سنَّة الأخذ بالأسباب مبرزةً في كون الله تعالى بصورةٍ واضحة، فإنَّها كذلك مقرَّرةٌ في كتاب الله تعالى، ولقد وجَّه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السُّنَّة في كل شؤونهم، الدُّنيويَّة، والآخرويَّة على السَّواء، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15] .

ولقد أخبرنا القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى طلب من السَّيدة مريم، أن تباشر الأسباب وهي في أشدِّ حالات ضعفها. قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 25] .

وهكذا يؤكِّد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كلِّ الأمور، والأحوال. ورسولُ الله

صلى الله عليه وسلم كان أوعى النّاس بهذه السُّنَّة الرَّبانيَّة ، فكان – وهو يؤسّس لبناء الدَّولة الإسلامية – يأخذ بكلٍّ ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً، ولقد لمسنا ذلك فيما مضى، وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان صلى الله عليه وسلم يوجِّه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة، في أمورهم الدُّنيويَّة، والآخرويَّة على السَّواء[1]. وقد كان في حسِّ الأمَّة الإسلاميَّة، في صدرها الزَّاهر: أنَّ إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة، وقضائه، وقدره لا يتعارض مع اتِّخاذ الأسباب، فلقد كانوا يدركون: أنَّ لله تعالى سنناً في هذا الكون، وفي حياة البشر، غيرُ قابلةٍ للتَّغيير، ومع أنَّ لله تعالى سنناً خارقةً تملك أن تصنع كلَّ شيءٍ، ولا يعجزها شيءٌ إلا أنَّ الله تعالى – جلَّت قدرته – قد قضى بأن تكون سنَّته الجارية ثابتةً في الحياة الدُّنيا، وأن تكون سنَّته الخارقة استثناءً لها، وكلتاهما معلَّقةٌ بمشيئة الله، لذلك كان في حسِّهم أنَّه لا بدَّ لهم من مجاراة السُّنن الجارية؛ إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجةٍ معيَّنة في واقع حياتهم؛ أي: أنَّه لا بد من اتِّخاذ الأسباب المؤدِّية إلى النتائج، بحسب تلك السُّنن الجارية[2].

وإنَّ تخلُّف المسلمين اليوم عن رَكْبِ الزَّعامة العالميَّة لم يكن ظلماً نزل بهم، بل كان العدل الإلهيُّ مع قومٍ نَسُوا رسالتهم، وحطُّوا من مكانتها، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأهواء، والأوهام في مجال العلم، والعمل على السَّواء، وأهملوا السُّنَن الرَّبانيَّة، وظنُّوا: أنَّ التمكين قد يكون بالأماني، والأحلام، ولكن هيهات! ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182] وربَّما سائل يقول: ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الَّذين عصوه، فما بال الكافرين الَّذين جحدوه سبحانه بالمرَّة، ومع ذلك فإنَّهم ممكَّنون في الأرض – من النَّاحية المادِّيَّة – غاية التمكين؟!

إنَّ هؤلاء الكفار، لم يبلغوا ما بلغوه لأنَّهم أقرب إلى الله، أو أرضى له، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحرٍ، أو بمعجزةٍ، أو لأنَّهم خلقٌ آخر متميِّز، ولم يقيموا الصِّناعات، أو يجوبوا البحار، أو يخترقوا أجواء الفضاء؛ لأنَّ عقيدتهم حقٌّ، أو لأنَّ فكرهم سليمٌ، إنَّهم بلغوا بذلك؛ لأنَّ السبيل إلى هذا التَّقدُّم دربٌ مفتوح لجميع خلق الله، مؤمنهم، وكافرهم، برِّهم، وفاجرهم. قال تعالى:

---

[1] انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، (ص 248 . 250).

[2] انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح ، لمحمَّد قطب ، ص 262 ، وما بعدها بتصرف.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: 15]

إنَّ الله – سبحانه وتعالى – جعل التَّمكين في الحياة يمضي بالجهد البشريِّ، وبالطَّاقة البشريَّة، على سُننٍ ربَّانيَّةٍ ثابتةٍ، وقوانين لا تتبدَّل، ولا تتحوَّل؛ فمن يُقدِّم الجهد الصَّادق، ويخضع لسنن الحياة؛ يصل على قدر جهده، وبذله، وعلى قدر سعيه، وعطائه.

إنَّها السُّنَّة الَّتي أرادها الله في هذه الحياة، إنَّها مشيئته، وسنَّته، وإرادته صحيحٌ: أنَّ هذا التَّقدُّم كلَّه لا يفتح للكافرين أبواب الجنَّة، ولا يغني عنهم شيئاً، ولكنَّ التَّقصير من جانب المسلم إثمٌ يحاسب عليه[1].

التَّوكُّل على الله والأخذ بالأسباب:

التَّوكُّل على الله – تعالى – لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتَّخذ الأسباب من باب الإيمان بالله، وطاعته فيما يأمر به من اتِّخاذها، ولكنَّه لا يجعل الأسباب هي الَّتي تنشئ النَّتائج، فيتوكَّل عليها.

إنَّ الَّذي ينشئ النَّتائج – كما ينشئ الأسباب – هو قدر الله، ولا علاقة بين السَّبب والنَّتيجة في شعور المؤمن.. اتِّخاذ السَّبب عبادةٌ بالطاعة، وتحقُّق النتيجة قدرٌ من الله مستقلٌ عن السَّبب، لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التعبُّد للأسباب والتَّعلُّق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاعته؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها[2].

ولقد قرَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرةٍ ضرورة الأخذ بالأسباب مع التَّوكُّل على الله تعالى، كما نَبَّهَ – عليه الصَّلاة والسَّلام – على عدم تعارضهما.

يروي أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ رجلاً وقف بناقته على باب المسجد، وهمَّ بالدُّخول، فقال: يا رسول الله! أرسلُ راحلتي، وأتوكل؟... وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التَّوكُّل على الله تعالى، فوجَّهه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أنَّ مباشرة الأسباب أمرٌ مطلوبٌ، ولا ينافي – بحالٍ من الأحوال – التَّوكُّل على الله تعالى، ما صدقت النِّيَّة في الأخذ

---

[1] انظر: لقاء المؤمنين، (124/2)، وما بعدها بتصرُّف.

[2] في ظلال القران (1476/3).

بالأسباب، فقال له صلى الله عليه وسلم : «بل قيِّدها وتوكَّل» [الحاكم (623/3) ومجمع الزوائد (291/10) وبلفظ: (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي (2517)].

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي تبيِّن: أنَّه لا تعارض بين التَّوكُّل، والأخذ بالأسباب بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب، والاعتماد عليها، ونسيان التَّوكُّل على الله. وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو أنكم توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله؛ لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدو خِماصاً، وتروح بِطاناً» [أحمد (30/1، 52) والترمذي (2344) وابن ماجه (4164) وأبو يعلى (247) والحاكم (318/4)].

وفي هذا الحديث الشَّريف حثٌّ على التَّوكُّل، مع الإشارة إلى أهمِّيَّة الأخذ بالأسباب؛ حيث أثبت الغدوَّ، والرَّواح للطَّير مع ضمان الله تعالى الرِّزق لها.

ويمكن تلخيص نظرة الإسلام في هذه القضيَّة، في النُّقاط التَّالية:

1 – يقرِّر الإسلام مبدأ الأخذ بالأسباب، ذلك؛ لأنَّ تعطيل الأخذ بالأسباب تعطيلٌ للشَّرع، ولمصالح الدُّنيا.

2 – الاعتماد علىالأخذ بالأسباب وحدها، مع ترك التوكُّل على الله، شركٌ.

3 – يربط الإسلام اتخاذ الأسباب بالتَّوحيد، مع الاعتقاد بأنَّ أمر الأسباب كلِّها بيد الله.

4 – المطلوب من المسلم إذاً، هو اتِّخاذ الأسباب مع التوكُّل على الله تعالى[1].

ولا بدَّ للأمَّة الإسلاميَّة، أن تدرك: أنَّ الأخذ بالأسباب للوصول إلى التَّمكين أمرٌ لا محيص عنه، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنَّته الَّتي لا تتخلَّف، ومن رحمة الله – تعالى –: أنَّه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب، ولم يطلب منهم أن يُعِدُّوا العُدَّة التي تكافئ تجهيز الخصم، ولكنَّه سبحانه قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخرينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الانفال: 60] .

---

[1] انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 254.

فكأنه تعالى يقول لهم: افعلوا أقصى ما تستطيعون، احشدوا أقصى إمكاناتكم؛ ولو كانت دون إمكانات الخصوم، فالاستطاعة هي الحدُّ الأقصى المطلوب، وما يزيد على ذلك يتكفَّل الله تعالى به، بقدرته الَّتي لا حدود لها؛ وذلك لأنَّ فعل أقصى المستطاع هو برهان الإخلاص، وهو الشَّرط المطلوب؛ لينزل عون الله، ونصره[1].

إنَّ النِّداء اليوم موجَّهٌ لجماهير الأمَّة الإسلاميَّة، بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن، والغثاء، إلى مرحلة القوَّة، والبناء، وأن يودِّعوا الأحلام، والأمنيات، وينهضوا للأخذ بكلِّ الأسباب؛ الَّتي تعينهم على إقامة دولة الإسلام، وصناعة حضارة الإنسان الموصول بربِّ العالمين.

وعلى الأمَّة أن تراعي سُنن الله المبثوثة في كونه، والظَّاهرة في قرآنه الكريم؛ وذلك لتسير على طريق النُّهوض بنورٍ من الله تعالى.

إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتَّى وفاته، ولم يفرِّط في أيٍّ منها، فتعامل مع سنَّة الله في تغيير النُّفوس، وسنَّة التَّدافع مع الباطل، وسنَّة التَّدرُّج في بناء الجماعة، ثمَّ الدولة، وسنَّة الابتلاء، واستفرغ (ﷺ) جهده في الأخذ بالأسباب الَّتي توصل للتَّمكين، فكانت هجرتا الحبشة، وذهابه للطَّائف، وعرضه للدَّعوة على القبائل، ثمَّ هجرته إلى المدينة، فأقام الدَّولة، وحافظ عليها، وسار أصحابه من بعده على نهجه، وتعاملوا مع السُّنن بوعيٍ، وبصيرةٍ، وصنعوا حضارةً لم يعرف التَّاريخُ البشريُّ مثلها حتَّى يومنا هذا.

إنَّ حركة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة نورٌ يُهتدى به، وسنَّةٌ يُقتدى بها في هذه البحور المتلاطمة، والمناهج المتغايرة، والظَّلام البهيم، وإنَّها ليسيرةٌ على من يسَّرها الله عليه.

* * *

---

(1) انظر: الإسلام في خندق، لمصطفى محمود، ص 64.

المبحث الثَّاني

الهجرة إلى الحبشة[1]

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَـــنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 41].

فقـد نقل القرطبيُّ – رحمه الله! قول قتـادة – رحمه الله! –: «المراد أصحاب محمَّد صلى الله عليه وسـلم ، ظلمهم المشـركون بمكَّة، وأخرجوهم؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشـة، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين»[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

قـال ابن عبـاسٍ رضـــي الله عنهمـا: يريد جعفر بن أبي طالـبٍ، والَّذين خرجوا معه إلى الحبشة[3].

قال تعالى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56] .

قـال ابن كثيرٍ – رحمـه الله! –: «هـذا أمرٌ من الله تعـالى لعبـاده المؤمنين بالهجرة من البلد الَّذي لا يقدرون فيه على إقامة الدِّين إلى أرض الله الواســعة؛ حتَّى يمكن إقامة الدِّين... إلى أن قال: ولهذا لـــمَّا ضاق على المستضعفين بمكَّة مقامهم بها؛ خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة؛ ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنْزِلين هناك، أصحمةَ النَّجاشـيَّ ملك الحبشـة، رحمه الله تعالى!»[4].

---

[1] ينظر الشكل (9) في الصفحة (745).
[2] الجامع لأحكام القران (107/10).
[3] المصدر السابق نفسه (240/15).
[4] تفسير ابن كثير للاية رقم (56) من سورة العنكبوت (335/5).

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

1 – أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل الكفَّار يحبسونهم، ويعذِّبونهم بالضَّرب، والجوع، والعطش، ورمضاء مكَّة، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، ومنهم من تصلَّب في دينه، وعصمه الله منهم، فلمَّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله، ومن عمِّه أبي طالب، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صِدْقٍ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافةَ الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوَّل هجرةٍ كانت في الإسلام». [ابن هشام (344/1)][(1)].

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدةً في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ منها: ما ذكرت، ومنها: ظهور الإيمان: حيث كثُر الدَّاخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحدِّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن امن من قبائلهم، يعذِّبونهم، ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال لِلَّذين امنوا به: «تفرَّقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا»، وأشار إلى أرض الحبشة[2].

ومنها: الفرار بالدِّين:

كان الفرار بالدِّين خشية الافتتان فيه سبباً مهماً من أسباب هجرتهم للحبشة. قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم»[3].

---

(1) الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص 290.

(2) المغازي النبويَّة ، للزُّهري ، تحقيق: سهيل زكَّار ، ص 96.

(3) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (398/1).

ومنها: نشر الدَّعوة خارج مكَّة:

قال الأستاذ سيِّد قطب: «وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّسول صلى الله عليه وسلم يبحث عن قاعدةٍ أخرى غير مكَّة، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرِّيَّة، ويتاح فيها أن تتخلَّص من هذا التجميد؛ الذي انتهت إليه في مكَّة، حيث تظفر بحرية الدَّعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد، والفتنة، وهذا في تقديري، كان هو السَّبب الأوَّل، والأهمَّ للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل، والقول بأنَّهم هاجروا إليها لمجرَّد النَّجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويَّةٍ، فلو كان الأمر كذلك؛ لهاجر إذاً أقلُّ الناس وجاهةً، وقوَّةً، ومنعةً من المسلمين، غير أنَّ الأمر كان على الضدِّ من هذا، فالموالي المستضعفون الَّذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد، والتَّعذيب، والفتنة لم يهاجروا؛ إنَّما هاجر رجالٌ ذوو عصبياتٍ، لهم من عصبيتهم - في بيئة قبليَّةٍ - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلِّف غالبية المهاجرين»[1].

ووافق الغضبان سيِّداً فيما ذهب إليه، يقول: «وهذه اللَّفتة العظيمة من (سيِّد) -رحمه الله- لها في السِّيرة ما يعضُدها، ويساندها، وأهمُّ ما يؤكِّدها في رأيي هو الوضع العامُّ الَّذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة، حتَّى مَضَتْ هجرةُ يثرب، وبدرٌ، وأحد، والخندق، والحديبية، فلقد بقيت يثرب معرَّضةً لاجتياحٍ كاسحٍ من قريش خمس سنوات، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنَّ المدينة قد أصبحت قاعدةً أمينةً للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، فلم يعد ثمَّة ضرورةٌ لهذه القاعدة الاحتياطيَّة، الَّتي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو سقطت يثرب في يد العدوِّ»[2].

ويميل الأستاذ دروزة إلى أنَّ فتح مجالٍ للدَّعوة في الحبشة، كان سبباً من أسباب هجرة الحبشة؛ حيث يقول: «بل إنَّه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النَّصرانيَّة أمل

---

(1) في ظلال القرآن (29/1).

(2) المنهج الحركي للسِّيرة (67/1 ، 68).

وجود مجالٍ للدَّعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متَّصـــلاً بهذا الأمل»[1]. وذهب إلى هذا القول الدُّكتور ســــليمان بن حمد العودة: «وممَّا يدعم الرَّأي القائل بكون الدَّعوة للدِّين الجديد في أرض الحبشة سبباً، وهدفاً من أسباب الهجرة إسلامُ النَّجاشيِّ، وإسلام آخرين من أهل الحبشة، وأمرٌ آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتوجيهه، فبقاؤهم في الحبشـــة إلى فتح خيبر بأمرِ النَّبيِّ صـــلى الله عليه وســـلم وتوجيهه، وفي صحيح البخاريِّ: فقال جعفر للأشعريِّين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا» [البخاري (4230)] .

وهذا يعني: أنَّهم ذهبوا لمهمَّة معيَّنةٍ - ولا أشـــرف من مهمَّة الدَّعوة لدين الله - وأنَّ هذه المهمَّة قد انتهت حين طُلِب المهاجرون[2].

ومنها البحث عن مكانٍ آمنٍ للمسلمين:

كانت الخطَّة الأمنيَّة للرَّسول صلى الله عليه وسلم تستهدف الحفاظ على الصَّفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرَّسول صلى الله عليه وسلم : أنَّ الحبشة تعتبر مكاناً امناً للمسلمين، ريثما يشتدُّ عود الإسلام، وتهدأ العاصفــة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشـــة ما أمَّنهم، وطمأنهم، وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: «لـمَّا نزلنا أرض الحبشة؛ جَاوَرْنـا بها خيرَ جارٍ النَّجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى»[3].

2 - لماذا اختار النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الحبشة؟

هناك عدَّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السُّؤال؛ منها:

أ - النَّجاشيُّ العادل:

أشار النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى عدل النَّجاشيِّ بقوله لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحدٌ»[4].

---

[1] سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم (265/1) عن الشَّامي ، ص 111.
[2] انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، ص 34.
[3] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، تحقيق: همام أبو صعليك (413/1).
[4] المصدر السابق نفسه ، (397/1).

ب – النَّجاشيُّ الصَّالح:

فقد ورد عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ثناؤه على ملك الحبشة، بقوله: «قد تُوفي اليوم رجلٌ صالحٌ من الحبشة، فهَلُمَّ فَصَلُّوا عليه» [البخاري (1320) ومسلم (66/952)] ويظهر هذا الصَّلاح في حمايته للمسلمين، وتأثُّره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه، وكان معتقده في عيسى – عليه السَّلام – صحيحاً.

ج – الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجارة كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ، والحبشة تُعَدُّ من مراكز التِّجارة في الجزيرة، فربَّما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التِّجارة، أو ذكرها لهم مَنْ ذهب إليها قبلهم، وقد ذكر الطَّبريُّ في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتَّجرون فيها، يجدون فيها رَفَاغاً[1] من الرِّزق، وأمناً، ومتجراً حسناً»[2].

كما ذكر ابن عبد البرِّ: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الشِّعْب، أمر مَنْ كان بمكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكانت متجراً لقريش[3].

وذكر ابن حبَّان – ضمن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة –: أنَّها كانت أرضاً دفيئة، ترحل إليها قريش رحلة الشِّتاء[4].

د – الحبشة البلد الآمن:

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطَّاعة لقريش، وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب؛ إذ لها نفوذٌ عليها، وكانت القبائل في حاجةٍ لقريش في حَجِّها، وتجارتها، ومواسمها، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشاً في حرب الدَّعوة، وعدم الاستجابة للنبيِّ (ﷺ) ، وقد أشار

---

(1) رَفَاغاً: الرَّفْغ والرَّفاغة: سعة العيش ، والخصب.

(2) مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروة بن الزُّبير ، ص 104.

(3) انظر: الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ، ص 27.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء ، ص 72.

ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الّذين رفضوا عرضه، ودعوته[1]، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدٌ أكثر أمناً من بلاد الحبشـــة، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشـــة عن ســطوة قريش من جانبٍ، كما أنّها لا تدين لقريشٍ بالاتِّباع كغيرها من القبائل[2]. وفي حديث ابن إسـحاق عن أسباب اختيارالحبشـة مكاناً للهجرة: أنَّها: أرض صِـدْقٍ، وأن بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ[3]، فهي أرض صـــدقٍ، وملكها عادلٌ، وتلك من أهمِّ سمات البلد الآمن[4].

هـ محبة الرَّسول صلى الله عليه وسلم للحبشة، ومعرفته بها:

ففي حديث الزُّهريّ: أنَّ الحبشـة كانت أحبَّ الأرض إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن يهاجر إليها[5]، ولعلَّ تلك المحبة لها أسبابٌ منها:

- حكم النَّجاشيّ العادل.
- التزام الأحباش بالنَّصـرانيَّة ، وهي أقرب إلى الإسـلام من الوثنيَّة ؛ ولذلك فرح المؤمنون بانتصـــار الروم النَّصـــارى على فارسٍ المجوس المشـركين، في الفترة المكّية سـنة ثمانٍ من البعثة، كما في القرآن[6].
- معرفة الرَّسول صلى الله عليه وسلم بأخبار الحبشـة، من خلال حاضنته أمّ أيمن رضي الله عنها، وأمُّ أيمن هذه ثبت في صحيح مسلمٍ، وغيره: أنَّها كانت حبشيَّةً [البخاري (2630) ومسلم (1771)]، ونُقل ذلك عن ابن شهابٍ، وفي سنن ابن ماجه: أنَّها كانت تصنع للنَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم طعاماً، فقال: ما هذا؟ فقالت: طعام نصـنعه بأرضـنا، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفاً. [ابن ماجه (3336)] .

---

(1) السِّير والمغازي ، تحقيق سهيل زكّار ، ص 232.
(2) انظر : هجرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في القرآن والسُّنَّة ، ص 97.
(3) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (397/1).
(4) الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 46.
(5) مغازي الزُّهري ، ص 96.
(6) صحيح السِّيرة النَّبويَّة (152/2).

ولم تستطع أن تغيّر لكنتها الحبشية، ورخَّص لها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما لا تستطيع نطقه، فلا يُستبعد حديثها للنَّبيّ صلى الله عليه وسلم عن طبيعة أرضها، ومجتمعها، وحكَّامها[1]، كما أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان خبيراً بطبائع وأحوال الدُّول الَّتي كانت في زمانه.

3 – وقت خروج المهاجرين، وسرِّيَّة الخروج، والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مكَّة في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة رجالٍ، وأربع نسوةٍ، وقيل: خمس نسوةٍ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكَّة، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا، متوجّهين إلى الحبشة[2].

وعند التأمُّل في فقه المرويَّات يتبيَّن لنا سِرِّيَّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقديّ: «فخرجوا متسلِّلين سرَّاً»[3]، وعند الطَّبريّ[4]، وممَّن يذكر السِّرِّيَّة في الهجرة: ابن سيِّد النَّاس[5]، وابن القيِّم[6]، والزُّرقانيُّ[7]. ولـمَّا وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشيُّ مثواهم، وأحسن لقاءهم، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم، وأهليهم، فعن أمّ سلمة زوج النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: «لـمَّا نزلنا أرض الحبشة، جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ – النَّجاشيَّ – أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله لا نُؤْذَى، ولا نسمع شيئاً نكرهه» [سبق تخريجه] .

(1) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص 48، ويعتبر مبحث الحبشة جلُّه قد أخذ من هذا الكتاب والذي بعده.
(2) انظر: الهجرة في القران الكريم، لأحزمي سامعون، ص 290، 291.
(3) طبقات ابن سعد (204/1).
(4) تاريخ الطَّبري (329/2).
(5) عيون الأثر (116/1).
(6) زاد المعاد (23/3).
(7) شرح المواهب (271/1).. البداية والنِّهاية (96/3 , 97), وسيرة ابن هشام (344/1. 452) والهجرة في القرآن الكريم ص 292 إلى 294.

أسماء أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة:

- **الرجال:**

– عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس.

– عبد الله بن عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة.

– الزُّبير بن العوَّام بن خُوَيلد بن أسد.

– أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

– مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

– أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

– عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح.

– عامر بن ربيعة، حليف آل الخطَّاب من عَنْز بن وائل.

– سُهَيل بن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث.

– أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس عبد وُدَّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أوَّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة.

- **النساء:**

– رقيَّة بنت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

– سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والَّتي هاجرت مع زوجها أبي حذيفة، وولدت له بأرض الحبشة محمَّد بن أبي حذيفة.

– أمُّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة.

– ليلى بنت أبي حَثمة بن حذافة بن غانم (بن عامر) بن عبد الله بن عوف بن عبيد

ابن عويج بن عديٍّ بن كعب، امرأة عامر بن ربيعة.

– أمُّ كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، امرأة أبي سَبْرة بن أبي رُهْم[1].

وكان أول من هاجر منهم، عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى يعقوب بن سفيان: «إنَّ عثمان لأوَّلُ مَنْ هاجر بأهله بعد لوطٍ» [ابن أبي عاصم في السنة (1311)][2].

إنَّ المتأمِّل في الأسماء سالفة الذِّكر لا يجد فيهم أحداً من الموالي، الَّذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشدُّ من غيرهم، كبلال، وخبَّاب، وعمَّار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النَّسب، والمكانة في قريشٍ، ويمثِّلون عدداً من القبائل، صحيحٌ: أنَّ الأذى شمل ذوي النَّسب والمكانة، كما طال غيرهم، ولكنَّه كان على الموالي أشدَّ في بيئةٍ تقيم وزناً للقبيلة، وترعى النَّسب، وبالتَّالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السَّبب في الهجرة؛ لكان هؤلاء الموالي المعذَّبون أحقَّ بالهجرة من غيرهم، ويؤيِّد هذا: أنَّ ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[3].

ويصل الباحث إلى حقيقةٍ مهمَّةٍ، ألا وهي: أن ثَمَّةَ أسباباً أخرى تدفع للهجرة غير الأذى، اختار لها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم نوعيةً من أصحابه، تُمثِّل عدداً من القبائل، وقد يكون لذلك أثرٌ في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانبٍ، وتهزُّ هجرتهم قبائل قريش كلَّها، أو معظمها من جانبٍ آخر، فمكَّة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بُدّاً من الخروج عنها بحثاً عن الأمن في بلدٍ آخر، ومن جانبٍ ثالثٍ يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الآفاق، وقد تكون محلاً أصوب، وأبرك للدَّعوة إلى الله، فتنفتح عقولٌ وقلوبٌ حين يستغلق سواها[4].

---

[1] البداية والنّهاية (67/3) ، نقلاً عن (الهجرة في القران الكريم) ، ص 294. وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (3872).

[2] أنساب الأشراف للبلاذري (156/1 . 198) ، وابن هشام (392/1 . 396).

[3] انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 37.

[4] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 295.

ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى:

1 – شبهة عودة المهاجرين بسبب قصَّة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرِّخين والمفسِّرين عودة المسلمين من الحبشة بعد الهجرة إلى مكَّة لأسطورة راجت كثيراً، واحتلَّت مساحاتٍ واسعةً من كتب المستشرقين، قاصدين بذلك ترويجها، وجعلها حقيقةً واقعةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة.

إنَّ الَّذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون حيالها مناهج شتَّى؛ فمنهم مَنْ يذكرها، ويسكت عنها، لا ينفيها، ولا يثبتها، ومنهم مَنْ يحاول إثباتها، ومنهم مَنْ يورد الأدلَّة على بطلانها[1].

وتلك الأسطورة تتلخَّص في: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً عند الكعبة، وقرأ سورة النَّجم، حتَّى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخرى﴾ [النجم: 19-20].

قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى»، فقال المشركون: ما ذكر الهتنا بخيرٍ قبل اليوم، وقد علمنا أنَّ الله يرزق، ويحيي، ويميت، ولكنَّ الهتنا تشفع عنده، فلـمَّا بلغ السَّجدة سجد، وسجد معه المسلمون، والمشركون كلُّهم، إلا شيخاً من قريش، رفع إلى جبهته كفّاً من حصى، فسجد عليه[2].

وصَافَى المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفُّوا عن أذى المسلمين، وشاع ذلك حتَّى بلغ مَنْ في الحبشة، فاطمأنُّوا إلى حسن إقامتهم في مكَّة، وممارستهم عباداتهم امنين، فعادوا إلى مكَّة.

تلك خلاصة الأسطورة، والَّذين ذكروا القصَّة – مع اختلاف مواقفهم منها – يقولون: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لـمَّا قالت قريش: «إنَّا جعلت لالهتنا نصيباً، فنحن معك»

---

[1] انظر: مختصر سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص 84.

[2] فتح القدير (416/3) ، وفتح الباري (355/8) ، وأسباب النزول للسُّيوطي على هامش الجلالين (16/2) ، والهجرة في القران الكريم ، ص 296.

كبر عليه ذلك، وجلس في بيته حتَّى أمســـى، ثمَّ أتاه جبريل، فقرأ عليه ســـورة النَّجم، فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ يقصـد «تلك الغرانيق العلا، وإنَّ شـفاعتهنَّ لترجى» فحزن الرَّسول صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، وخاف من ربِّه، فأنزل الله عليه: [1]﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: 52]، وحينئذٍ عاد الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم إلى عيب الهتهم، وتسفيه عقولهم، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

2 – تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصَّـة الكثير من علماء الإسـلام السَّـابقين، والمحْدَثين، نقلاً، وعقلاً؛ وذلك لأنَّها تتنافى مع عصمة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ بل وتطعن في نبوَّته صلى الله عليه وسلم، كما أنَّها تتهاوى أمام البحث العلميِّ، ومن الأدلة النقليَّة على بطلانها:

أ – أنَّ القرآن الكريم بيَّن بوضـوح: أنَّ النبي صـلى الله عليه وسـلم لا يستطيع أن يتقوَّل على الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۝ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 44 – 46].

ب – أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – قد أخبر أنَّه يحفظ القرآن من أن يُدخل عليه ما ليس منه، أو يُنقص منه شـيءٌ، أو يُحرَّف عن مواضـعه. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ولو صـحَّ: أنَّ الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم نطق في أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين، لدخل في القرآن ما ليس منه، فلا يكون هناك حفظٌ، وهو مخالفٌ للنَّصِّ.

ج – قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُـلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99]، وهل هناك بشـرٌ أصـدق إيماناً، وأشـدُّ توكُّلاً على الله من الأنبياء، ولا سـيَّما خاتمهم صـلى الله عليه وسلم ؟! وقد أقرَّ رئيس الشَّياطين بأنَّه لا سلطان له على عباد الله المخلصين، قال تعالى:

---

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 298.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82 – 83].

وَمَنْ أحقُّ من الأنبياء بالاصطفاء؟! ومن أشدُّ إخلاصاً منهم لله؟! ونبيُّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم على رأس المصطفين الأخيار، وفي الذِّروة منهم إخلاصاً لله[1].

وقد ذكر القاضي عياض: أنَّ مَنْ ذكرها من المفسرين، وغيرهم لم يسندها أحدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحبٍ، إلا رواية البزَّار، وقد بيَّن البزَّار: أنَّه لا يعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى ما ذكره، وفيه ما فيه[2].

ورأى ابن حجر: وما قيل من أنَّ ذلك – السُّجود من المشركين – بسبب إلقاء الشَّيطان في أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صحَّة له عقلاً، ولا نقلاً[3].

ورأى ابن كثير: أنه قد ذكر كثيرٌ من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثيرٍ من المهاجرين إلى أرض الحبشة، ظنَّاً منهم: أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنَّها من طرقٍ كلِّها مرسلةٌ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيح. والله أعلم[4].

- **وأمَّا بطلان القصَّة من جهة العقل:** فقد قام الدَّليل العقليُّ، وأجمعت الأمَّة، على عصمته صلى الله عليه وسلم من مثل هذا؛ إذ لو جاز هذا من الرَّسول صلى الله عليه وسلم لجاز عليه الكذب، والكذب على الرَّسول صلى الله عليه وسلم محالٌ؛ إذ صدور مثل هذه القصَّة عن الرَّسول صلى الله عليه وسلم محالٌ، ولو قاله عمداً، أو سهواً لم يكن هناك عصمةٌ، وهو مردودٌ، كما أنَّ القصَّة تخالف عقيدة التَّوحيد الَّتي من أجلها بَعَثَ اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم.
- **وأمَّا بطلان القصَّة لغويّاً:** فلأنَّه لم يرد قطُّ عن العرب أنَّهم وصفوا الهتهم بـ

---

(1) انظر: الشِّفا (117/2).

(2) فتح الباري ، عند شرح حديث رقم (4862).

(3) تفسير ابن كثير والبغوي (600/6 وما بعدها) ، نقلاً عن الهجرة في القران ، ص 298.

(4) القاموس المحيط (281/3) مادَّة (الغرنوق).

(الغرانيق)، في الشِّعر، ولا في النَّثر، والَّذي تعرفه اللغة أنَّ (الغُرْنُوق) اسم لطائرٍ مائيٍّ أسود، أو أبيض، ومن معانيه: الشَّابُّ الأبيض الجميل[1]، ولا شيء من معانيه اللُّغويَّة يلائم معنى الالهة والأصنام حتَّى يطلق عليهما في فصيح الكلام؛ الَّذي يُعرَض على أمراء الفصاحة والبيان، فكيف يفرح به المشركون، ويعتبرونه ذكراً لالهتهم بالخير؟!![2].

إنَّ قصَّة الغرانيق لا تثبت من جهة النَّقل، وهي مخالفةٌ للقرآن الكريم، ولما قام عليه الدَّليل العقلي، كما أنكرتها اللُّغة، وهذا ممَّا يدلُّنا على أنَّ حديث الغرانيق مكذوبٌ، اختلقته الزَّنادقة، الَّذين يسعون لإفساد العقيدة والدِّين، والطَّعن في سيِّد الأنبياء، وإمام المرسلين صلى الله عليه وسلم [3] .

3 – الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين:

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة، وحدث تغيُّر كبيرٌ على حياة المسلمين في مكَّة، ونشأت ظروفٌ لم تكن موجودةً من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدَّعوة في مكَّة؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب، عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عصبيَّةً لابن أخيه، ثمَّ شرح الله صدره للإسلام؛ فثبت عليه، وكان حمزةُ أعزَّ فتيان قريش، وأشدَّهم شكيمةً، فلمَّا دخل في الإسلام؛ عرفت قريش: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزَّ، وامتنع، وأنَّ عمه سيمنعه، ويحميه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[4].

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وكان عمر ذا شكيمةٍ لا يرام، فلمَّا أسلم؛ امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحمزة؛ حتَّى عازُّوا قريشاً[5].

---

[1] انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 298 ، 299.
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة ، لأبي شهبة (372/1).
[3] مختصر سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص 90.
[4] السِّيرة النَّبويَّة (294/1) ، وعازُّوا قريشاً: أي: غلبوهم.
[5] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (365/1).

كان إسـلام الرَّجلين العظيمين بعد خروج المسـلمين إلى الحبشـة، فكان إسـلامهما عزَّةً للمسلمين، وقهراً للمشركين، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعودٍ: «إنَّ إسلام عمرَ كان فتحاً، وإنَّ هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمةً، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً؛ حتَّى صلَّى عند الكعبة، وصلَّينا معه»[1].

وعن ابن عمر قال: لـمَّا أسلم عمر؛ قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن مَعْمر الجُمَحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله : وغدوت معه أتبع أثره، وأنظر ماذا يفعل، حتَّى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل! أنِّي أسلمت، ودخلت في دين محمَّد؟ قال: فوالله ما راجعه حتَّى قام يجرُّ رداءه، وتبعه عمر، واتَّبعتُ أبي؛ حتَّى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! – وهم في أنديتهم حول الكعبة – ألا إن ابن الخطَّاب قد صبأ[2]. قال: يقول عمر مِنْ خلفه: كذب! ولكنِّي أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً عبده، ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم، ويقاتلونه، حتَّى قامت الشَّمس على رؤوسهم، وَطَلِحَ (أي: أعيا) فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئةٍ، لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا[3].

«لقد أصبح المسلمون إذاً في وضعٍ غير الَّذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة، وعمر رضي الله عنهما، واستطاعوا أن يصلُّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين، حتَّى دخلوا المسجد، وَكَفَّت قريش عن إيذاءهم بالصُّورة الوحشيَّة الَّتي كانت تعذِّبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغيَّر بالنسبة للمسلمين، والظُّروف الَّتي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحوَّلت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفى على

---

(1) صبأ: خرج من دين إلى دينٍ اخر ، القاموس المحيط ، باب الهمزة (20/1).

(2) سبل الهدى والرَّشاد للصالحي (498/2 ، 499).

(3) تأمُّلات في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، لمحمَّد سيد الوكيل ، ص 59 ، والهجرة في القران الكريم ، ص 302.

أحد؟! وهل تظنُّ: أنَّ هذه التَّغييرات الَّتي جرت على حياة المسلمين في مكَّة لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحَّارة الَّذين كانوا يمرُّون بجدَّة؟!

لا بدَّ: أنَّ كلَّ ذلك قد وصلهم، ولا شكَّ: أنَّ هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيراً، ولا يستغرب أحدٌ بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن - وهو فطرةٌ فطر الله عليها جميع المخلوقات - قد عاودهم، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز، مكَّة أمُّ القرى، وإلى حيث يوجد الأهل، والعشيرة، فعادوا إلى مكَّة في ظلِّ الظُّروف الجديدة، والمشجِّعة، وتحت إلحاح النَّفس، وحنينها إلى حرم الله، وبيته العتيق»[1].

لقد رجع المهاجرون إلى مكَّة بسبب ما علموا من إسلام حمزة، وعمر، واعتقادهم: أنَّ إسلام هذين الصَّحابيَّيْن الجليلين، سيعتزُّ به المسلمون، وتقوى به شوكتُهم.

ولكنَّ قريشاً واجهت إسلام حمزة، وعمر رضي الله عنهما، بتدبيراتٍ جديدة، يتجلَّى فيها المكر والدَّهاء من ناحيةٍ، والقسوة، والعنف من ناحيةٍ أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب الَّتي تستعملها ضدَّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضي الله عنهم، سلاحاً قاطعاً، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية - وقد تحدَّثت عنه - وكان من جرَّاء ذلك الموقف العنيف، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرَّةً ثانيةً، وانضمَّ إليهم عددٌ كبير ممَّن لم يهاجروا قبل ذلك[2].

ثالثاً: هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة:

قال ابن سعدٍ: قالوا: لـمَّا قدم أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مكَّة من الهجرة الأولى؛ اشتدَّ عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى أرض الحبشة مرَّةً ثانيةً، فكانت خرجَتُهم الثَّانية أعظمها مشقَّةً، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النَّجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا ؟

---

[1] انظر: القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، د. محمد النَّجار ، ص 111 ، والهجرة في القران الكريم ، ص 302.

[2] طبقات ابن سعد (207/1) (ط. بيروت) ، والهجرة في القران الكريم ، ص 303.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى، وإلـــيَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[1]!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدَّتهم - كما قال ابن إســـحاق وغيره - ثلاثةٌ وثمانون رجلاً؛ إن كان عمَّار بن ياســـر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّهيلي: وهو الأصحُّ عند أهل السِّير كالواقديِّ، وابن عقبة، وغيرهما[2]، وثماني عشرة امرأةً: إحدى عشرة قرشيَّاتٌ، وسبعٌ غير قرشيَّاتٍ، وذلك عدا أبنائهم الَّذين خرجوا معهم صغاراً، ثمَّ الذين وُلِدوا لهم فيها[3].

1 - سعي قريش لدى النَّجاشيِّ في ردِّ المهاجرين:

لـــمَّا رأت قريش: أنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا، واطمأنُّوا بأرض الحبشة، وأنَّهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً، وحُسْنَ جوارٍ من النَّجاشيِّ، وعبدوا الله، لا يؤذيهم أحدٌ؛ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنَّجاشيِّ لإحضار مَنْ عنده من المسلمين إلى مكَّة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشـــة، إلا أنَّ هذا الوفد خدم الإســـلام والمســـلمين من حيث لا يدري، فقد أســـفرت مكيدته عند النَّجاشـــيِّ عن حوارٍ هادف، دار بين أحد المهاجرين، وهو جعفر بن أبي طالب، وبين ملك الحبشـــة، أســـفر هذا الحوار عن إســـلام النَّجاشـــيِّ، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده.

فعن أمِّ سلمة بنت أبي أميَّـــة بن المغيرة زوج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قالت: لـــمَّا نزلنا أرض الحبشـــة، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ (النَّجاشـــيِّ)؛ أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى، ولا نسـمع شـيئاً نكرهه، فلـــمَّا بلغ ذلك قريشـاً؛ ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجاشـي فينا رجلين جَلْدين[4]، وأن يُهْدوا للنَّجاشـيِّ هدايا ممَّا يسـتطرف من متاع مكَّة، وكان من أعجب ما يأتيه

---

[1] انظر: الرَّوض الأنف ، للسهيلي (228/3).

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 303.

[3] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 304.

[4] الجلد: القوَّة والشدَّة.

منها إليه الآدم[1]، فجمعوا له آدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته[2] بِطْريقاً إلا أَهْدَوْا له هديَّةً، ثمَّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزوميَّ، وعمرو بن العاص بن وائل السَّـــهميَّ، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النَّجاشيَّ فيهم، ثمَّ قدِّما للنَّجاشــيِّ هداياه، ثمَّ ســلاه أن يُسْـلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. قالت: فخرجا، فقدما على النَّجاشـيِّ، ونحن عنده بخير دارٍ، وخير جارٍ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النَّجاشيَّ، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنَّه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن، ولا أنتم، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم من ابائهم، وأعمامهم؛ لتردُّوهم إليهم، فإذا كلَّمنا الملك فيهم؛ فأشيروا عليه بأن يُسْـــلِمَهم إلينا، ولا يكلِّمهم، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[3]، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم . ثمَّ إنهما قرَّبا هداياهما إلى النَّجاشــيِّ، فقبلها منهما، ثمَّ كلَّماه، فقالا له: أيها الملك! إنَّه قد صـــبأ إلى بلدك منا غلمانٌ ســـفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن، ولا أنت، وقد بَعَثَنَا فيهم أشـــرافُ قومهم من ابائهم، وأعمامهم، وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شــيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، من أن يســمع النَّجاشــيُّ كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صــدقا أيها الملك! قومُهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأَسْلِمْهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم، وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشيُّ، ثمَّ قال: لا هَيْمُ[4] الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[5]، قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ ســواي، حتَّى أدعوهم، فأســألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون؛ أســلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك؛

---

[1] الأدم: جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ.

[2] جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم.

[3] أعلى بهم عيناً: قال السُّهيلي: أي: أبصر بهم ، أي: أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم ، وانظر: الرَّوض الأنف (92/1).

[4] والمعنى: لا والله!

[5] لا أكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد ، وفي سيرة ابن هشام: ولا يُكادُ قوم جاوروني.

منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم، ما جاوروني[1].

2 – حوارٌ بين جعفر، والنَّجاشيِّ:

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم، فلـــمَّا جاءهم رســوله؛ اجتمعوا، ثمَّ قال بعضــهم لبعضٍ: ما تقولون للرَّجل؛ إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علَّمنا، وما أَمَرَنا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلـــمَّا جاؤوه، وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته[2]، فنشروا مصاحفهم[3] حوله، سألهم، فقال: ما هذا الدِّين الَّذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالبٍ رضـــي الله عنه، فقال له: أيُّها الملك! كنَّا قوماً أهل جاهليَّة، نعبد الأصـــنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِـــيء الجوار، ويأكل القويُّ منَّا الضَّـعيف، فكنَّا على ذلك، حتَّى بعث اللهُ إلينا رسـولاً نعرف نسـبه، وصـــدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن واباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحـارم والـدِّمـاء، ونهـانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكـل مـال اليتيم، وقَـذْف المحصـنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشـرك به شـيئاً، وأمرنا بالصَّـلاة، والزَّكاة، والصِّـيام. قالت: فعدَّد عليه أمور الإســـلام – فصـــدَّقناه، وامنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشـــرك به شـــيئاً، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلــــمَّا قهرونا، وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملك[4].

---

[1] أخرجه أحمد (290/5) وقال: إسناده صحيح ، ورقمه (22498).

[2] أساقفته: جمع الأسقف ، وهو العالم والرَّئيس من علماء النَّصارى.

[3] أي: أناجيلهم ، وكانوا يسمُّونها مصاحف.

[4] مسند الإمام أحمد (202/1 ، 203).

قالت: فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾، قالت: فبكى، والله النَّجاشيُّ، حتَّى أَخْضَلَ[1] لحيته، وبكت أساقفته، حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا – والله! – والَّذي جاء به موسى، ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا؛ فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبداً، ولا يُكادون[2].

3 – محاولة أخرى للدَّس بين المهاجرين والنَّجاشيِّ:

قالت: فلمَّا خرج كلٌّ من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النَّجاشيِّ؛ قال عمرو بن العاص: والله! لاتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[3]. قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة – وكان أتقى الرَّجلين فينا –: لا تفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله! لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبدٌ، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك! إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم، فاسألهم عمَّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قطُّ، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول – والله! – فيه ما قاله الله، وما جاء به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمَّا دخلوا عليه؛ قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ: نقول فيه الَّذي جاء به نبيُّنا، هو عبد الله، ورسولُه، وروحه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء[4] البَتُول[5].

قالت: فضرب النَّجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثمَّ قال: ما عدا عيسى ابن

---

[1] ابتلت بالدُّموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندي ، النهاية (43/3).

[2] مسند الإمام أحمد (202/1 ، 203) ، ولا يُكادون: لعل المعنَّى: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم ، ويعذِّبوهم.

[3] أستأصل به خضراءهم: أي بما أجتثُّ به شجرة حياتهم.

[4] العذراء: الجارية التي لم يمسَّها رجلٌ ، وهي البكر.

[5] يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرِّجال ، لا شهوة لها فيهم.

مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرت[1] بطارقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي (والشُّيوم الامنون)؛ من سبَّكم غَرِمَ، ثمَّ من سبَّكم غرم، فما أُحِبُّ أن لي دَبَراً ذهباً، وأنِّي اذيتُ رجلاً منكم، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل، ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله! ما أخذ اللهُ مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلْكي؛ فاخذَ الرَّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فيَّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْنِ، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ. [أحمد (202/1 – 203) و(290/5 – 292) وابن هشام (357/1 – 362) وأبو نعيم في دلائل النبوة (194) والبيهقي في الدلائل (301/2 – 304)] .

4 – إسلام النَّجاشيِّ:

وقد أسلم النَّجاشيُّ، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لِمَا علمه فيهم من الثَّبات على الباطل، وحرصهم على الضَّلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة – وإن صادمت العقل، والنَّقل – [البخاري (1245) ومسلم (951/62 و63)]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيراتٍ»[2]، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حين مات النَّجاشيُّ: «مات اليوم رجلٌ صالحٌ؛ فقوموا، فصلُّوا على أخيكم أصحمة» [البخاري (3877)] . وكانت وفاته – رحمه الله! – سنة تسعٍ عند الأكثر، وقيل: سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»[3].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 – إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار، والضَّالون أنواع العذاب، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسموِّ نفوسهم، وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير، واطمئنان النَّفس والعقل. وما يأملونه من رضا الله –

---

[1] فتناخرت: أي: تكلَّمت ، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٌ.

[2] انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 309.

[3] أسد الغابة (99/1) ، والإصابة (109/1).

جلَّ شأنُه -، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم، من تعذيبٍ، وحرمانٍ، واضطهادٍ؛ لأنَّ السيطرة في المؤمنين الصَّادقين، والدُّعاة المخلصين، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم، لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم، من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم، من راحةٍ، وشبعٍ، ولذَّةٍ، وبهذا تنتصر الدَّعوات، وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات، والجهالات[1].

2 - ممَّا يتبادر إلى الذِّهن من هذه الهجرة العظيمة، شفقة الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشَّديد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذَّهاب إلى الملك العادل؛ الَّذي لا يُظْلم أحدٌ عنده، فكان الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم ، فأمنوا في دينهم، ونزلوا عنده في خير منزلٍ[2]، فالرَّسول صلى الله عليه وسلم هو الَّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الَّذي اختار المكان الامن لجماعته، ودعوته؛ كي يحميها من الإبادة، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ، وبُعْد نظرٍ لحماية الدَّعوة، والدُّعاة، وتبحث عن الأرض الامنة الَّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة، ومركزاً من مراكز انطلاقها - فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه - فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقية، وهم الَّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم، وحمايتهم دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ في أرواحهم، وأمنهم، ومسلمٌ واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله، وتوحيده[3].

3 - كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً، ولذلك حرص النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضيَّة الإسلام، وموقف قريشٍ منه، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ، يشرح قضاياها، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها[4]، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة، فلذلك هاجر

---

(1) السِّيرة النَّبوية ، للدُّكتور مصطفى السِّباعي ، ص 57.
(2) انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 312.
(3) انظر: التَّربية القياديَّة ، للغضبان (333/1).
(4) أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص 427.

سادات الصَّحابة في بداية الأمر، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[1].

4 – إنَّ وجود ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقيَّة – رضي الله عنهم جميعاً – في مقدِّمة المهاجرين له دلالةٌ عميقةٌ، تشير إلى أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد، وأهله، ورحمه، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأىً عن الخطر، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم [3].

5 – مشروعية الخروج من الوطن – وإن كان الوطن مكَّة على فضلها – إذا كان الخروج فراراً بالدِّين – وإن لم يكن إلى دار إسلام – فإنَّ أهل الحبشة كانوا نصارى، يعبدون المسيح، ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبيَّن ذلك في هذا الحديث – يعني: حديث أمِّ سلمة المتقدِّم – وسُمُّوا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الَّذين أثنى الله تعالى عليهم بالسَّبق، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾

وجاء في التفسير: إنَّهم هم الذين شهدوا بيعة الرِّضوان[2]، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر لـمَّا كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم، ورجاء أن يُخلي بينهم وبين عبادة ربهم؛ يذكرونه امنين مطمئنين، وهذا حكمٌ مستمرٌّ متى غلب المنكر في بلدٍ، وأوذي على الحقِّ مؤمنٌ، ورأى الباطل قاهراً للحقِّ، ورجا أن يكون في بلدٍ آخر – أيَّ: بلدٍ كان – يخلِّي بينه وبين دينه، ويظهر فيه عبادة ربِّه؛ فإن الخروج على هذا الوجه حقٌّ على المؤمن، هذه هي الهجرة؛ الَّتي لا تنقطع إلى يوم القيامة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115][3].

6 – يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواءٌ

---

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (333/1).

(2) تفسير الطَّبري (6/11)، وتفسير ابن كثير (331/2).

(3) الرَّوض الأنف، للسُّهيليّ (92/2)، والهجرة في القرآن الكريم، ص 312.

كان المجِير من أهل الكتاب كالنَّجاشـي؛ إذ كان نصـرانيّاً عندئذٍ، ولكنَّه أسـلم بعد ذلك، أو كان مشركاً؛ كأولئك الَّذين عاد المسلمون إلى مكَّة في حمايتهم، عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالبٍ عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكالمطْعِم بن عديٍّ، الذي دخل الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم مكةَ في حمايته عندما رجع من الطَّائف[1].

وهذا مشروطٌ – بحكم البداهة – بألاَّ تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدَّعوة الإسلاميَّة، أو تغييراً لبعض أحكام الدِّين، أو سـكوتاً على اقتراف بعض المحرَّمات، وإلاَّ لم يَجُزْ للمسـلم الدُّخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه صلى الله عليه وسلم حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسـه، ولا يحمِّله ما لا يطيق، فلا يتحدَّث عن الهة المشـركين بسـوءٍ، فقد وطَّن نفسـه إذ ذاك للخروج من حماية عمِّه، وأَبى أن يسـكت عن شـيٍ ممَّا يجب عليه بيانه، وإيضاحه[2].

7 – إنَّ اختيار الرَّسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ، تمثَّلت في معرفة الرَّسـول صلى الله عليه وسلم بما حوله من الدُّول، والممالك، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها، وعادلها مِنْ ظالمها، الأمر الَّذي سـاعد على اختيار دارٍ امنةٍ لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله، مطَّلعاً على أحوال، وأوضاع الأمم، والحكومات[3].

8 – يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرَّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى، وكيفية الخروج، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسـلُّلاً، وخفيةً؛ حتَّى لا تفطن له قريشٌ، فتحبطه، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضـيِّقٍ، لم يزد على ستة عشر فرداً، فهذا العدد لا يلفت النَّظر في حالة تسـلُّلهم، فرداً، أو فردين، وفي الوقت ذاته يسـاعد على السَّـير بسـرعةٍ، وهذا ما يتطلَّبه الموقف؛ فالرَّكب يتوقَّع المطاردة، والملاحقة في أيِّ لحظةٍ، ولعلَّ السِّـرِّيَّة المضـروبة على هذه الهجرة، فوَّتت على قريشٍ العلم بها في حينها، فلم

[1] الهجرة في القران الكريم ، ص 316.
[2] فقه السيرة ، للبوطي ، ص 126 ، والهجرة في القران الكريم ، ص 317.
[3] انظر: في السِّيرة النَّبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 101.

تعلم بها إلا مؤخَّراً، فقامت في إثرهم؛ لتلحق بهم، لكنَّها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً، وهذا ممَّا يؤكِّد على أنَّ الحذر هو ممَّا يجب أن يلتزمه المؤمن في تحرُّكاته الدَّعوية، فلا تكون التَّحرُّكات كلُّها مكشوفةً، ومعلومةً للعدوِّ؛ بحيث يترتَّب عليها الإضرار به وبالدَّعوة[1].

9 - لم ترضَ قريشٌ بخروج المسلمين إلى الحبشة، وشعرت بالخطر الَّذي يهدِّد مصالحها في المستقبل، فربَّما تكبر الجالية هناك، وتصبح قوَّةً خطرةً، ولذلك جدَّ المشركون، وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريشٌ تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم في تخطيطٍ محكمٍ ذكيٍّ؛ بالهدايا إلى النَّجاشيِّ، والهدايا إلى بطارقته، ووُضِعتِ الخطَّة داخل مكَّة، وكيف تُوزَّع الهدايا، وما نوعية الكلام الَّذي يرافق الهدايا، وصفات السُّفراء، فعمرٌو من أصدقاء النَّجاشي ومعروفٌ بالدَّهاء . ما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدوَّنا، وألا ننام عن مخطَّطاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقيَّ، وندرس تحرُّكاته؛ لنستعدَّ لمواجهة مخطَّطاته الماكرة![2].

10 - نُفِّذت خطَّة قريشٍ بحذافيرها كاملةً، ولكنَّها فشلت؛ لأنَّ شخصية النَّجاشيِّ الَّتي تمَّ جوارها رفضت أن تسلِّم المسلمين قبل السَّماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين؛ ليعرضوا قضيَّتهم العادلة، ودينهم القويم.

11 - اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي، طلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنَّه يضمُّ خلاصة عقولٍ كثيرةٍ. وتبدو مظاهر السُّموِّ التَّربويِّ في كون الصَّحابة لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأيٍ واحدٍ، ألا وهو: أن يُعرض الإسلامُ كما جاء به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، كائناً في ذلك ما هو كائن، وعزموا على عرض الإسلام بعزةٍ؛ وإن كان في ذلك هلاكهم[3].

---

[1] المصدر السَّابق نفسه.

[2] انظر: التَّربية القياديَّة (317/1).

[3] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديّ (92/2).

12 – كان وَعْيُ القيادة النَّبويَّة على مســـتوى الأحداث، ولذلك وُضِـــع جعفر بن أبي طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛ وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شـــخصـــيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ، جعلتها تتقدَّم لســـدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها: أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ من ألصق النَّاس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة، وسيِّد الأمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة.

وهذا الموقف بين يدي النَّجاشيِّ يحتاج إلى بلاغةٍ، وفصاحةٍ، وبنو هاشم قمَّةُ قريش نسباً، وفضلاً، وجعفر في الذُّؤابة[1] من بني هاشم، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة، واختار نبيَّه من بني هاشم؛ فهو أفصح النَّاس لساناً، وأوسطهم نسباً.

وهو ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يجعل النَّجاشيَّ أكثر اطمئناناً، وثقةً بما يعرض عن ابن عمِّه[2].

خُلُقُ جعفر المقتبس من مشكاة النُّبوَّة، وجمال خَلْقِه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لجعفر: «أشبهت خَلْقي، وخُلُقي» [البخاري (2699) والترمذي (3765)] فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسفراء المسلمين على مرِّ الزَّمان، وكرِّ العصور، فقد اتَّصف بسمات السُّفراء المسلمين؛ كالإسلام، والانتماء إليه، والفصاحة، والعلم، وحسن الخلق، والصَّبر، والشَّجاعة، والحكمة، وسعة الحيلة، والمظهر الجذَّاب[3].

13 – كان عمرو بن العاص رضـــي الله عنه، وهو يمثِّل في تلك المرحلة عداوة الله ورســوله صلى الله عليه وسلم على مستوىً كبيرٍ من الذَّكاء، والدَّهاء، والمكر، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شـــحن كلَّ ما لديه من حُجَّةٍ، وألقى بها بين يدي النَّجاشـــيِّ، من خلال النقاط الآتية: تحدَّث عن بلبلة جوِّ مكة، وفســـاد ذات بينها، من خلال دعوة محمَّد صـــلى الله عليه

---

[1] الذُّؤابة من كلِّ شيء: أعلاه.

[2] التَّربية القياديَّة (335/1).

[3] انظر: سفراء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لمحمود شيت خطاب (252/2 إلى 317).

وسلم ، وهو سفير مكَّة، وممثِّلها بين يدي النَّجاشيِ، فكلامه مصدَّقٌ، لا يعتريه الشَّكُّ، وهو عند النَّجاشيِّ موضع ثقةٍ.

وقد تحدث عن خطورة أتباع محمَّد (ﷺ) ، فربما يزلزلون الأرض تحت قدمي النَّجاشيِّ، كما أفسدوا جوَّ مكَّة، ولولا حبُّ قريش للنَّجاشيِ، وصداقتها معه؛ ما تعنَّوا هذا العناء لنصحه: «وأنت لنا عَيْبَة صدقٍ، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقلَّ من ردِّ المعروف بمثله، وتحذيره من هذه الفتنة المخيفة.

وأخطر ما في أمرهم هو خروجهم على عقيدة النَّجاشيِّ، وكفرهم بها: فهم لا يشهدون: أنَّ عيسى ابن مريم إلهٌ، فليسوا على دين قومهم، وليسوا على دينك؛ فهم مبتدعةٌ، دعاة فتنةٍ.

ودليل استصغارهم لشأن الملك، واستخفافهم به: أنَّ كل النَّاس يسجدون للملك لكنَّهم لا يفعلون ذلك، فكيف يتمُّ إيواؤهم عندك، وهو عودةٌ إلى آثارة الرُّعب في نفسه من عدم احترام الدُّعاة له، حين يستخفُّون بملكه، ولا يسجدون له، فكان على جعفر أن يفنِّد كلَّ الاتِّهامات الباطلة، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[1].

14 - كان ردُّ جعفر على أسئلة النَّجاشيِّ في غاية الذَّكاء، وقِمَّة المهارة السياسية، والإعلاميَّة، والدَّعويَّة، والعقديَّة؛ فقد قام بالتَّالي:

- عدَّد عيوب الجاهليَّة، وعرضها بصورةٍ تنفِّر السَّامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركَّز على الصِّفات الذَّميمة؛ الَّتي لا تُنتزع إلا بنبوَّة.
- عرض شخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، في هذا المجتمع الآسن[2]، المليء بالرَّذائل، وكيف كان بعيداً عن النَّقائص كلِّها، ومعروفاً بنسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فهو المؤهَّل للرِّسالة.
- أبرز جعفر محاسن الإسلام، وأخلاقه، الَّتي تتَّفق مع أخلاقيَّات دعوات الأنبياء؛

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (319/1 ، 340).

[2] الاسن: المتغيِّر الفاسد.

كنبذ عبادة الأوثان، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم، والدِّماء، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة؛ وكون النَّجاشي وبطارقته موغلين في النَّصرانية؛ فهم يدركون: أنَّ هذه رسالات الأنبياء؛ الَّتي بعثوا بها من لدن موسى، وعيسى عليهما الصَّلاة، والسَّلام.

- فضح ما فعلته قريشٌ بهم؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان، وامنوا بما نُزِّل على محمَّد صلى الله عليه وسلم، وتخلَّقوا بخلقه.
- أحسن الثَّناء على النَّجاشيِّ بما هو أهله، بأنَّه لا يُظْلم عنده أحدٌ، وأنَّه يقيم العدل في قومه.
- وأوضح: أنَّهم اختاروه كهفاً من دون النَّاس، فراراً من ظلم هؤلاء الَّذين يريدون تعذيبهم. وبهذه الخطوات البيِّنة الواضحة دَحَرَ بلاغة عمرٍو، وفصاحته، واستأثر بلُبِّ النَّجاشي، وعقله، وكذلك استأثر بلُبِّ وعقل البطارقة، والقسِّيسين الحاضرين.

وعندما طلب الملك النَّجاشيُّ شيئاً ممَّا نُزِّل على محمَّد صلى الله عليه وسلم ؛ جاء صدر سورة مريم، في غاية الإحكام والرَّوعة، والتأثير، حتَّى بكى النَّجاشيُّ، وأساقفته، وبلَّلُوا لحاهم، ومصاحفهم من الدُّموع، واختيار جعفر لسورة مريم يُظْهر بوضوحٍ حكمة وذكاء مندوب المهاجرين، فسورة مريم تتحدَّث عن مريم وعيسى عليهما السَّلام(1).

إنَّ عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع، والزَّمن المناسب، والقلب المتفتِّح، والشُّحنة العاطفيَّة أدت إلى أن يربح الملكَ إلى جانبه(2).

كان ردُّه في قضية عيسى – عليه السَّلام – دليلاً على الحكمة، والذَّكاء النَّادر، فقد ردَّ بأنهم لا يُؤَلِّهون عيسى ابن مريم، ولكنَّهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم – عليها السَّلام –

---

(1) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 106.

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (337/1).

كما يخوض الكاذبون؛ بل عيســـى ابن مريم كلمة الله، وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطَّاهرة، وليس عند النَّجاشي زيادة عمَّا قال جعفر، ولا مقدار هذا العود[1].

هم لا يسـجدون للنَّجاشي، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله شيئاً! ولا ينبغي السُّجود إلا لله؛ لكنَّهم لا يسـتخفُّون بالملك؛ بل يوقِّرونه، ويسـلِّمون عليه كما يسـلِّمون على نبيِّهم، ويحيُّونه بما يُحيي أهلُ الجنَّة أنفسَهم به في الجَنَّة(3).

انتهى الأمر بأن أعلن النَّجاشـيُّ صـدق القوم، وأيقن بأنَّ هؤلاء صـدِّيقون، وعزم على أن يكون في خدمة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، الَّذي يأتيه ناموسٌ كناموس موســى، وأن يتقرَّب إلى الله بحماية أصـــحابه، وأكَّد لعمرٍو: أنَّه لا يضـــيره تجارة قريش، ولا مال قريش، ولا جاهها، ولو قطعت علاقتها معه[2].

15 – انهزمت قريش في هذه الجبهة سـياسـية، ومعنويّاً، وإعلاميّاً أمام مقاومة المســلمين الموفَّقة، وخطواتهم، وأساليبهم الرَّصينة.

16 – كان موقف جعفر، وإخوانه مثالاً تطبيقيّاً لقول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «من التمس رضا الله بسخط النَّاس؛ كفاه الله مُؤْنَة النَّاس، ومن التمس رضا النَّاس بسخط الله؛ وَكَلَهُ الله إلى النَّاس» [الترمذي (2414) وابن حبان (276) وابن المبارك في الزهد (66)] فهؤلاء الصَّـحابة رضـي الله عنهم قد التمســـوا رضـــا الله – عزَّ وجلَّ – مع أنَّ الظَّاهر في الأمر: أنَّه يترتَّب عليه في هذه القضـيَّة سـخط أولئك النَّصـارى، وهم الَّذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النَّتيجة: أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – سخَّر لهم ملك الحبشة، حتَّى نطق بالحقِّ الموافق لدعوة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، مع مخالفته الصَّـــريحة لمعتقدهم المنحرف؛ الَّذي قام عليه مُلْكُهُم، وما يغلب على الظَّنِّ من ثورة النَّصارى المتعصِّبين عليه[3].

17 – كان عند بعض النَّصارى إيمانٌ صحيحٌ بدينهم، ولكنَّهم يكتمون ذلك، لكون الغلبة

---

(1) المصدر السابق نفسه (342/1).

(2) انظر: التربية القياديَّة (342/1).

(3) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (105/2).

والسِّـيادة في الأرض لأصـحاب الدِّين المحرَّف، ومن الَّذين كانوا على الاعتقاد الصَّـحيح ملك الحبشـة، وكان يخفي إيمانه هذا مداراةً لقومه، وإبقاءً على نفسـه، وملكه، فلـــمَّا وقع في هذا الابتلاء؛ أظهر إيمانه، إرضاءً لربِّه، وإراحةً لضميره، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين، مهما ترتَّب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التَّاريخ[1].

18 – ومن دروس هجرة الحبشـة: أنَّ الجهل ببعض أحكام الإسـلام لمصـلحة راجحةٍ لا يضرُّ. قال ابن تيميَّة – رحمه الله! –: وهو يقرِّر العذر بالجهل: «ولـمَّا زِيدَ في صلاة الحضر حين هاجر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، كان مَنْ بعيداً عنه – مثل من كان بمكَّة، وبأرض الحبشة – يصلُّون ركعتين، ولم يأمرهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بإعادة الصَّلاة»[2].

وقال الذَّهبيُّ: «فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجَّة، وقد كان ســادة الصَّــحابة بالحبشـة ينزل الواجب، والتَّحريم على النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم ، فلا يبلغهم إلا بعد أشـهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل، حتَّى يبلغهم النَّصُّ»[3].

19 – ومن دروس هجرة الحبشة تفاضل الجهاد حسب الحاجة، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهاداً، ميَّز الله أصـحابها، وخصَّـهم بالذِّكر، والفضـيلة، فقد نال هذا الفضـل أصـحاب هجرة الحبشـة، وإن تآخر لحوقهم بالنَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم حتَّى فتح خيبر، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة، وهذا ما أكَّده النَّبيُّ لأصحاب السَّفينتين[4]، فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: ودخلت أسماءُ بنت عُمَيس – وهي ممَّن قدم معنا – على حفصةَ زوج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة – وأسماء عندها – فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنت عُمَيس، قال عمر: الحبشـيةُ هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله صلى الله

---

(1) المصدر السابق نفسه (106/2).

(2) الفتاوى (43/22).

(3) الكبائر ، ص 12.

(4) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 205.

عليه وسلم منكم، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنَّا في دار – أو في أرض – البُعَداء الْبُغَضَاءِ بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم . وايمُ الله لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شَراباً، حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نُؤْذَى، ونُخاف، وسأذكر ذلك للنَّبِيّ صلى الله عليه وسلم ، وأسأله، والله! لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاء النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبيَّ الله! إنَّ عمرَ قال: كذا، وكذا. قال: «فما قلت له؟» قالت: قلتُ له: كذا، وكذا. قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السَّفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسى، وأصحاب السَّفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظم في أنفسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم . [البخاري (4230) ومسلم (2502 و2503)] .

20 – كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة، وهذا بلا شكٍّ أثرٌ من آثار الهجرة للحبشة، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاسب للدَّعوة، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتَّجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النَّجاشيِّ، وهو المشهور كما يقول ابن حجر[1]، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسلم صحابيٌّ على يد تابعيٍّ، كما يقول الزُّرقاني[2]، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

21 – يرتبط زواج الرَّسول صلى الله عليه وسلم بأمِّ حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطاً وثيقاً، ويحمل هذا الزَّواج منه صلى الله عليه وسلم لإحدى المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً، وكان عقد الزَّواج على أمِّ حبيبة رضي الله عنها؛ وهي في أرض الحبشة، وجاء تأكيده في كتب السُّنَّة، فقد روى أبو داود في سننه بسندٍ صحيح عن أمِّ حبيبة رضي الله عنها: أنَّها كانت تحت عبيد الله بن

---

[1] انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 167.

[2] انظر: شرح المواهب (271/1).

جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجها النَّجاشيُّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها عنه أربعة الاف، وبعث بها إلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم مع شُرَحبيل بن حسنة. [أبو داود (2107)].

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهمِّ، متابعةَ الرَّسول صلى الله عليه وسلم لأحوال المهاجرين، ومشاركتهم في مصابهم، وتطييب أنفس الصَّابرين، وتقدير ثبات الثَّابتين. وبالتَّتبُّع لأحوال المهاجرات، لا نجد (أمَّ حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة الَّتي يُعنى الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم بأمرها، ويواسيها في مصابها، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[(1)]، فلمَّا رجعت مع زوجها إلى مكَّة من الحبشة، توفِّي زوجها السَّكران بن عمرو، فلمَّا حلَّت؛ أرسل إليها صلى الله عليه وسلم ، وخطبها، فقالت: أمري إليك يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مُري رجلاً من قومك يزوِّجك، فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ، فزوَّجها، فكانت أوَّل امرأة تزوَّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة[(2)].

وهذان الحدثان مؤشِّران من مؤشِّرات حِكَم تعدُّده صلى الله عليه وسلم في الزَّواج بشكلٍ عامٍّ، ولهما دلالتهما، وحكمتهما بالاهتمام بالنِّساء المجاهدات بشكلٍ خاصٍّ، هذا فضلاً عمَّا يمكن أن يقال من أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان يهدف أيضاً من وراء الزَّواج بأمِّ حبيبة، تخفيف عداوة «بني أميَّة» بشكلٍ عامٍّ، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكلٍ أخصَّ للإسلام، ونبيِّه، والمسلمين[(3)].

فالتَّأليف للإسلام واردٌ في السِّيرة، والرَّسول صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على قومه بكلِّ وسيلةٍ لا تتنافى مع قيم الإسلام[(4)].

22 - يرى بعض الباحثين: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن يحبُّ أن يهاجر إلى

---

(1) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 188.
(2) الطَّبقات (3/8).
(3) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله ، ص 706 ، 707.
(4) انظر: شرح المواهب (271/1).

الحبشة، لأسبابٍ كثيرة؛ منها:

– أنَّه ثبت – كما سيجيء – رؤية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم دار الهجرة: أرضاً ذات نخلٍ، بين حرَّتين، وأنَّه ظنَّها هجر[1].

– طبيعة الوضع الجغرافيِّ للحبشة؛ الَّذي يعوق انتشار الدَّعوة، وبسط سلطانها على العالم.

– أنَّ اختيار الجزيرة العربيَّة ومكَّة بالذَّات، ثمَّ المدينة لنزول الوحي، وانطلاق الدِّين لم يكن اتِّفاقاً، بل كان لمميزاتٍ كثيرة[2].

– أنَّ هذه البيئة الحبشيَّة لم تكن لتسمح لهذا الدِّين اللاجئ أن ينمو إلى جوار المسيحيَّة، ولم تكن الرُّومان – وهي المهيمنة على المسيحيَّة في العالم – لتسمح للحبشة بذلك[3].

23 – كان للهجرة إلى الحبشة أثرٌ في الحطِّ من مكانة القرشيِّين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدَّعوة، وحملتها؛ إذ كانت البيئة العربيَّة تفتخر بإيواء الغريب، وإكرام الجار، وتتنافس في ذلك، وتحاذر السُّبَّة، والعار في خلافه، فهاهم الأحباش يسبقون قريشاً، ويُؤوون مَنْ طردتهم وأساءت إليهم من أشراف النَّاس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم[4].

* * *

---

(1) هَجرَ: هي الأحساء.

(2) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص 169، 170.

(3) انظر: أضواء على الهجرة، ص 156 إلى 161، والهجرة في القران الكريم، ص 320.

(4) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص 170، 171.

المبحث الثَّالث

عام الحزن ومحنة الطَّائف

أولاً: عام الحزن:

1 – وفاة أبي طالبٍ:

كانت وفاة أبي طالبٍ بعد مغادرة بني هاشمٍ شِعْبه، وذلك في آخر السَّنة العاشرة من المبعث[1]. وقد كان أبو طالب «يحوط النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، ويغضبُ له» [البخاري (3883) ومسلم (209)] و«ينصره» [مسلم (358/209)]، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة، جاء زعماء الشِّرك، وحرَّضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدُّخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! وعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام قائلاً: قل: «لا إله إلا الله» أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا تعيِّرني بها قريش، يقولون: إنَّما حمله عليها الجزع؛ لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56] [مسلم (25) والترمذي (3188) وأحمد (434/2)] .

كانت أفكار الجاهليَّة راسخةً في عقل أبي طالبٍ، ولم يتمكَّن من تغييرها، فهو شيخٌ كبيرٌ يصعب عليه تغيير فكره، وما ألفه عن ابائه، وكان أقرآنه حاضرين وقت احتضاره؛ فأثَّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه، وتأثير ذلك على قومه[2].

2 – وفاة السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

أمَّا السَّيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، فقد توفِّيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[3] في العام نفسه لوفاة أبي طالبٍ[4].

---

[1] فتح الباري ، شرح حديث رقم (3883).
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (184/1).
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (185/1).
[4] المصدر السابق نفسه.

وبموت أبي طالبٍ؛ الَّذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها، تضاعف الأسى، والحزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بفقد هذين الحبيبين؛ اللَّذين كانا دعامتين من دعائم سير الدَّعوة في أزماتها، فقد كان أبو طالب السَّندَ الخارجيَّ الَّذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة رضي الله عنها السَّند الدَّاخلي الَّذي يخفِّف عنه الأزمات والمحن، فتجرَّأ كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالبٍ[1]. وابتدأت مرحلةٌ عصيبةٌ في حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم واجه فيها كثيراً من المشكلات، والمصاعب، والمحن، والفتن حينما أصبح في السَّاحة وحيداً لا ناصر له إلا الله - سبحانه وتعالى - ومع هذا؛ فقد مضى في تبليغ رسالة ربِّه إلى النَّاس كافَّةً، على ما يلقى من الخلاف والأذى الشَّديد؛ الَّذي أفاضت كتب الحديث، وكتب السِّير، بأسانيدها الصَّحيحة الثَّابتة في الحديث عنه، وتحمَّل صلى الله عليه وسلم من ذلك ما تنوء الجبال بحمله. ولـمَّا تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بلده الَّذي نبت فيه، وبين قومه الَّذين يعرفون عنه كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، عزم صلى الله عليه وسلم على أن ينتقل إلى بلدٍ غير بلده، وقومٍ غير قومه؛ ليعرضَ عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم؛ رجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله - عزَّ وجلَّ - فخرج إلى الطَّائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكَّة[2].

ثانياً: رحلة الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف[3]:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، يقتدي بالأنبياء والمرسلين الَّذين سبقوه في الدَّعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، فكانت هذه الأعوام الطَّويلة عملاً دائباً، وتنويعاً متكرِّراً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ *يَغْفِرْ

---

(1) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص 34.

(2) المصدر السابق نفسه (ص 36 . 45).

(3) ينظر الشكل (10) في الصفحة (746).

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا *فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: 1 – 9]، ومع امتداد الزَّمن الطَّويل ما توقف عن الدَّعوة، ولا ضَعُفَتْ همَّته في تبليغها، ولا ضَعُفَتْ بصيرته، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها. قال الالوسي في تفسيره: أي: إلى الإيمان والطَّاعة﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾، أي: دائماً من غير فتورٍ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾، ولا توانٍ، ثمَّ وصف إعراضهم الشَّديد، وإصرارهم العنيد، ثمَّ علَّق على قوله تعالى: فقال: أي دعوتهم مرَّةً بعد مرَّةٍ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾، وكرَّةً غِبَّ كرَّةٍ على وجوهٍ مختلفةٍ، وأساليب متفاوتةٍ، وهو تعميمٌ لوجوه الدَّعوة، بعد تعميم الأوقات، وقوله: يُشْعِر بمسبوقية الجهر ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾، وهو الأليق بِمَنْ همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللُّطف بالمدعوِّ[1].

فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينوّع، ويبتكر في أساليب الدَّعوة، فدعا سرّاً وجهراً، وسلماً وحرباً، وجمعاً وفرداً، وسفراً وحضراً، كما أنَّه صلى الله عليه وسلم قصَّ القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض، وغيره، كما رغَّب وبشَّر، ورهَّب وأنذر، ودعا في كلِّ انٍ، وعلى كلِّ حالٍ، وبكلِّ أسلوبٍ موثِّرٍ فعَّالٍ[2]، فها هو صلى الله عليه وسلم ينتقل إلى الطَّائف، ثمَّ يتردَّد على القبائل، ثمَّ يهاجر، ويستمرُّ في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة، وطلبَ النُّصْرة من ثقيفٍ، لكنَّها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها، فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصرانيّاً، فأسلم، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شوَّال سنة عشر من

[1] انظر: تفسير الالوسي (89/10).

[2] انظر: مقوِّمات الدَّعوة والدَّاعية، بادحدح، ص 123.

المبعث بعد موت أبي طالب، وخديجة، وذكر: أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف، كانت عشرة أيام[1].

1 – لماذا اختار الرَّسول صلى الله عليه وسلم الطَّائف؟:

كانت الطَّائف تمثل العمق الاستراتيجيَّ لملأ قريش؛ بل كانت لقريش أطماعٌ في الطَّائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضمَّ الطَّائف إليها، ووثبت على وادي وَجٍّ؛ وذلك لما فيه من الشَّجر، والزَّرع؛ حتَّى خافتهم ثقيفٌ، وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دَوْسٍ[2]. وقد كان كثيرٌ من أغنياء مكَّة يملكون الأملاك في الطَّائف، ويقضون فيها فصل الصَّيف، وكانت قبيلة بني هاشمٍ، وعبد شمسٍ على اتِّصال مستمرٍ مع الطَّائف، كما كانت تربط مخزوماً مصالحُ ماليَّةٌ مشتركة بثقيفٍ[3]، فإذا اتَّجه الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف، فذلك توجُّهٌ مدروسٌ، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدمٍ، وعصبةً تناصره، فإنَّ ذلك سيفزع قريشاً، ويهدِّد أمنها، ومصالحها الاقتصاديَّة تهديداً مباشراً، بل قد يؤدِّي لتطويقها، وعزلها عن الخارج. وهذا التَّحرك الدَّعويُّ السِّياسيُّ الاستراتيجيُّ، الَّذي قام به الرَّسول صلى الله عليه وسلم يدلُّ على حرصه في الأخذ بالأسباب، لإيجاد دولةٍ مسلمةٍ، أو قوَّةٍ جديدةٍ، تطرح نفسها داخل حلبة الصِّراع؛ لأنَّ الدَّولة، أو إيجاد القوَّة الَّتي لها وجودها من الوسائل المهمَّة في تبليغ دعوة الله إلى النَّاس.

عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، اتجه مباشرة إلى مركز السلطة، وموضع القرار السياسي في الطائف[4].

2 – أين كان موضع السُّلطة في الطَّائف؟

كان بنو مالكٍ، والأحلاف – بحكم أسبقيتهم الزَّمنيَّة للاستيطان – هما المسيطرين عليها، وتنتهي إليهما قيادتُها، فكانت لهما الرِّئاسة الدِّينية المتمثِّلة في رعاية المسجد، وبالإضافة إلى

---

[1] طبقات ابن سعد (221/1)، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (185/1).
[2] انظر: فتح الباري، كتاب الكفالة، شرح حديث رقم (2294).
[3] انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص 173.
[4] المصدر السَّابق نفسه، ص 174.

الزّعامة السياسية العامّة، والعلاقة الخارجيّة، والنُّفوذ الاقتصاديّ؛ إلا أنَّهما مع ذلك لم يكونا في وضعٍ يمكنهما من الدِّفاع عن منطقة الطَّائف؛ الَّتي كانت من أخصب بلاد العرب، وأكثرها جذباً للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريشاً، ويخافان بني عامر، وكلُّها قبائل قويَّةٌ وقادرةٌ على الانقضاض والاستلاب، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطَّائف على سياسة المهادنة، وحفظ الاستقرار السِّياسيِّ عن طريق المعاهدات والموازنات، وهي الطَّريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالكٍ يوثِّقون علاقاتهم مع هوازن؛ ليأمنوا شرَّها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريشٍ ليأمنوا جانبها[1].

هذا، ولم يكن الرَّسول صلى الله عليه وسلم غافلاً عن هذه الشَّبكة من العلاقات، والمعاهدات، وهو يتَّجه إلى الطائف، بل كان يعرف: أنَّ الطَّائف لم تكن توجد بها سلطةٌ مركزيَّةٌ واحدةٌ، وإنما يقتسم السُّلطة فيها بطنان من بطون العرب، بموجب اتفاقيَّةٍ داخليَّةٍ، وأنَّ أيّاً منهما كان يدور في فلك قبيلةٍ خارجيَّةٍ أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيّاً منهما، فسوف يكون لذلك أثرٌ كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أمَّا إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريشٍ؛ فإنَّ خطَّته تكون قد بلغت تمامها، وهو أمرٌ غير مستحيلٍ، فهو يعلم أنَّ موادَّة هذا المعسكر لقريشٍ لا تقوم على القناعة المذهبيَّة، أو الولاء الدِّينيِّ، بقدر ما تقوم على أساس التَّخوُّف من قريشٍ، وعلى هذا التَّقدير للوضع السِّياسيِّ، اتجه الرَّسول صلى الله عليه وسلم مباشرةً – حينما دخل الطَّائف – إلى بني عمرو بن عمير، الَّذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريشٍ، ولم يذهب إلى بني مالكٍ الَّذين يتحالفون مع هوازن[2].

قال ابن هشام في السِّيرة: لـمَّا انتهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ، هم يومئذٍ سادة ثقيف، وأشرافهم، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبد يا لَيْل بن عمرو

---

[1] انظر: أصول الفكر السياسي في القران ، ص 174.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص (175).

ابن عُميرٍ، ومسعود بن عمرو بن عُميرٍ، وحَبيب بن عمرو بن عُمَير بن عُقْدة بن غِيرَة بن عَوْف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأةٌ من قريش من بني جُمح[1]؛ غير أنَّ بني عمرٍو كانوا شـــديدي الحذر، وكثيري التَّخوُّف، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم، وقد يئس من خير ثقيفٍ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عنّي»[2]، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيُذْئرهم[3] ذلك عليه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جوٍّ من السِّـرِّيَّة، وألا تنكشــف تحرُّكاته لقريشٍ[(876)]؛ فقد كان النَّبيُّ صــلى الله عليه وسلم يهتمُّ كثيراً بجوانب الحيطة، والحذر، فقد:

أ - كان خروجه من مكَّة على الأقدام، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكباً؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة، والشُّكوك، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

ب - واختيار الرَّســول صــلى الله عليه وســلم زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّةٌ؛ فزيد هو ابن رســول الله صــلى الله عليه وســلم بالتَّبنِّي، فإذا راه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ من الشَّـكِّ، لقوَّة الصِّـلة بينهما، كما أنَّه صـلى الله عليه وسـلم عرف زيداً عن قربٍ، فعلم فيه الإخلاص، والأمانة، والصِّــدق، فهو إذاً مأمونُ الجانب، فلا يُفشـــي ســـرّاً، ويُعتَمد عليه في الصُّـحبة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم من الحجارة بنفسـه، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

ج - وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائف ردّاً قبيحاً مشُــوباً بالاســتهزاء، والسُّــخرية؛ تحمَّله الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يغضب، أو يَـــثُـــرْ؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرُّفٌ غايةً في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما

---

[1] سيرة ابن هشام (78/2).

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] فيُذْئرهم: يجرِّئهم ويثيرهم.

شدَّدت عليه في العذاب، والاضطهاد، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل، وخارج مكَّة[1].

3 - تضرُّعٌ ودعاءٌ:

كان بنو عمرو لئاماً، فلم يكتموا خبر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ بل أَغْرَوْا به سفهاءهم، وعبيدهم، يسبُّونه، ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتَّى دميت عقباه، وتلطَّخت نعلاه، وسال دمه الزَّكي على أرض الطَّائف، وما زالوا به، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤوهما إلى حائطٍ (أي: بستان) لعتبة، وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحان من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويَرَيَان ما لقي من سفهاء أهل الطَّائف، ولم يحرِّكا ساكناً، وفي هذه الغمرة من الأسى، والحزن، والالام النفسيَّة، والجسمانية توجه الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً، ويقيناً، ورضاً بما ناله في الله، واسترضاء الله: «اللَّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى مَنْ تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟[2] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك؛ الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُح عليه أمر الدُّنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضَبك، أو يحلَّ عليَّ سخطُك، لك العُتْبى[3] حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!» **[ابن هشام في السيرة النبوية (61/2 - 62) والقرطبي في تفسيره (195/16) والطبراني في المعجم الكبير (346/25) والهيثمي في مجمع الزوائد (35/6)](4)** .

وإنَّا لنلمح في هذا الدُّعاء عمق توحيد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ومبلغ تجرُّده لله - جلَّ وعلا - فهو لم يشعر بهذا الحزن المفضي، والهمِّ المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى، أو ليجلب

---

[1] انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكي.

[2] تجهمه: استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحِّب به ، ولا راغبٍ فيه.

[3] العتبى: الاسترضاء والرِّضا.

[4] ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبوية الصحيحة (186/1) ، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته ، وبيَّن أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه ، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبويَّة) ص 136 ، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقيه قويٌّ مقبول ، وخرَّج طرقه في كتابه الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 38.

لنفسه شيئاً من حياة الهدوء، والنَّعيم؛ بل هو يستعذب كلَّ هذا الأذى من أجل الله تعالى، غير أنَّه مشفقٌ من غضب ربِّه سبحانه أن يكون قصَّر في أمرٍ من أمور الدَّعوة، من غير أن يشعر، فيتعرَّض لشيءٍ من غضب مولاه – جلَّ وعلا – فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المطلب الأعظم الَّذي تُسَخَّر له كلُّ المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحلَّ رضاه، وينجلي سخطه؛ فأهلاً بالبلاء، فهو ساعتئذٍ نعمةٌ، ورخاء.

وختم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءه بالكلمة العظيمة، الَّتي يقولها، وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره: «ولا حول ولا قوة إلا بك!» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشِّدَّة إلى حال الرَّخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوَّة على مواجهة الشَّدائد، وتحمُّل المكاره، إلا بالله جلَّ وعلا[1].

إنَّ الدُّعاء من أعظم العبادات، وهو سلاحٌ فعَّال في مجال الحماية للإنسان، وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشريُّ من الذَّكاء، والدَّهاء؛ فهو عرضةٌ للزَّلل، والإخفاق، وقد تمرُّ على المسلم مواقف يعجز فيها عن التَّفكير، والتَّدبير تماماً، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدُّعاء؛ ليجد فرجاً، ومخرجاً، فعندما لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الطَّائف الأذى، والطَّرد، والسُّخرية، والاستهزاء، وأصبح هائماً على وجهه؛ لجأ إلى الله بالدُّعاء، فما أن انتهى من الدُّعاء، حتَّى جاءت الإجابة من ربِّ العالمين، مع جبريل وملك الجبال[2].

4 – الرَّحمة، والشَّفقة النَّبويَّة:

كانت رحمته، وشفقته العظيمة هي الَّتي تغلب في المواقف العصيبة؛ الَّتي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة، ورحمته العظيمة، هي الغالبة[3].

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (20/3).

(2) انظر: في السِّيرة النَّبوية ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 112 ، 113.

(3) انظر: مقوّمات الدَّاعية النَّاجح ، ص 76.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنَّها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من أُحُد؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابْنِ عَبْدِ يَالَيْلِ بْنِ عَبْدِ كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أَسْتفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب[1]، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال، فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحدَه لا يشرك به شيئاً. [البخاري (3231) ومسلم (1795)].

كانت إصابته صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ، أبلغ من النَّاحية الجسميَّة، أمَّا من النَّاحية النفسيَّة؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائف أبلغ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائف إلى قَرْن الثَّعالب[2].

5 – من مناهج التَّغيير:

كان مُقْتَرَحُ ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودٍ، وقوم لوطٍ. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

وكان هناك اقتراحٌ آخر، وهو أن يستمرَّ في هجرته، والابتعاد عن مكَّة، والطَّائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته، والثَّانية خذلته، وعرض ذلك الأمرَ زيدُ بن حارثة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن القيّم: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن لم يجد ناصراً في

---

[1] هو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، ويسمَّى الان السيل الكبير.

[2] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (26/3 ، 27).

الطَّائف، انصـــرف إلى مكَّة؛ ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً، وهو يدعو بدعاء الطَّائف المشهور، فأرسل ربُّه – تبارك وتعالى – مَلَكَ الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكَّة، وهما جبلاها اللَّذان كانت بينهما، فقال: «لا، بل أستأني بهم؛ لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شيئاً»، وأقام بنخلةَ أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم؛ وقد أخرجوك – يعني: قريشاً – وخرجت تستنصر، فلم تُنصر – يعني: الطَّائف – فقال صلى الله عليه وســلم : «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً، ومخرجاً، وإنَّ الله ناصــرٌ دينَهُ، ومظهرٌ نبيَّه»[1].

إنَّ النَّبيَّ صــلى الله عليه وســلم رفض منهج الاستئصــال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرَّة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرَّر الدُّخول إلى مكَّة الكافرة ليواصل جهاده الميمون، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد، لم يَخْتَرِ النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم أحد المنهجين السَّـــابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكَّة الكافرة، وليس الانســحاب منها، ويقوم على ضـــرورة الوجود على الأرض ذاتها، الَّتي يقف عليها الكافرون، واعتصــار مؤسَّــســاتها، واستثمار علاقاتها، وتحوير غآياتها؛ ليتغذَّى بكلِّ ذلك مجتمع المؤمنين، الَّذي سـيولد من أحشــائها؛ أي: أنَّه كان صــلى الله عليه وسلم يريد أن يتَّخذ من أصلاب الكافرين، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين، المقاتلين في ســبيل الله، فالنَّظر النَّبويُّ هنا مصــوَّب نحو المســتقبل بصــورةٍ جليَّةٍ، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[2].

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد عزم على دخول مكَّة مرَّةً ثانية، غير أنَّ ظاهر الأحوال تدلُّ على أنَّ دخول مكَّة لم يكن أمراً هيناً، ولا امناً، وهنالك احتمالٌ كبيرٌ للغدر به، أو اغتياله من قِبَلِ قريش، الَّتي لا يمكن أن تصــبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها، وذهب يســتنصــر

---

[1] انظر: زاد المعاد (46/2).

[2] انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكِّيِّ، ص 176.

بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها، وبين حلفائها؛ ثمَّ إنَّه حتَّى لو لم تكن هناك خطورةٌ على شخصه؛ فإنَّ دخوله إلى مكَّة بصورة «عادية» وقد طردته الطَّائف، سيجعل أهل مكة يصوِّرون الأمر كهزيمةٍ كبيرةٍ أصابت المسلمين، ويجترئون عليهم، ويزدادون سفهاً؛ ولذلك فقد اتَّجه نظر الرَّسول صلى الله عليه وسلم هذه المرَّة، إلى تفجير مكَّة من الدَّاخل، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي: أنَّه أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش ذاتها، ويُوجِدُ له حلفاء من بينهم، ويُكَوِّن له وجوداً في قلبها[1].

قال ابن القيِّم في كتابه زاد المعاد: ثمَّ إنَّه صلى الله عليه وسلم لما انصرف من الطَّائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه، ونصرته، صار إلى حِراء، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو، فقال له: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديٍّ – سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف – بعث إليه رجلاً من خُزاعة: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم. ودعا بنيه، وقومه، فقال: البَسوا السِّلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنِّي قد أجرت محمَّداً، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه زيد بن حارثة، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام؛ فقام الْمُطْعِم بن عديٍّ على راحلته، فنادى: «يا معشرَ قريش! إنِّي قد أجرت محمَّداً؛ فلا يَهِجْه أحدٌ منكم»، فانتهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الرُّكن، فاستلمه، وصلَّى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والْمُطْعِم بن عديٍّ وولده محدقون به بالسِّلاح، حتَّى دخل بيته[2].

وفي جواب الأخنس، وسهيلٍ نظرٌ؛ لأنهما لو لم يكونا ممَّن يجير؛ لما سألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لمعرفته صلى الله عليه وسلم لأعراف قومه، وعاداتهم، كيف وعامرٌ – الَّذي هو جدُّ سهيل – وكعبٌ أخوان، أبوهما لؤيٌّ، فهما سواء في مكانهما، يجير أحدهما على الآخر؟! هكذا قال الزُّرقانيُّ[3].

---

[1] انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكِّيِّ ، ص 177 ، 178.

[2] زاد المعاد (47/2).

[3] محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لصادق عرجون (324/2).

لقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم الجديدة، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزماً، مختفياً، دخلها ويحرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش، على مسمعٍ منهم، ومرأى، هذا ونلاحظ: أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد اختار رجلاً من خزاعة، فبعثه رسولاً، وفي هذين الاختيارين حُنْكَةٌ سياسية مدهشةٌ، ووعيٌ تاريخيٌّ، ودبلوماسيٌّ عميقٌ؛ لأنَّ نوفلاً - وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل الَّتي يتزعَّمها الْمُطْعِم بن عديٍّ آنذاك - كان خصيماً لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهليَّة، فقد وثب على أفنيةٍ، وساحاتٍ كانت لعبد المطَّلب، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطَّلب لذلك، واستنهض قومه، فلم ينهض كبير أحدٍ منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النَّجار من الخزرج قصيدةً يستنصرهم؛ فقدم عليه منهم جمع كثيف، فأناخوا بفِناء الكعبة، وتنكَّبوا القسيَّ، وعلَّقوا التِّراس؛ فلـمَّا راهم نوفل؛ قال: لِشَرٍّ ما قدم هؤلاء؟ فكلَّموه، فخافهم، وردَّ أركاح عبد المطلب إليه؛ فلـمَّا نصر بنو الخزرج عبد المطَّلب، قالت خزاعة - وهم قد قووا، وعزُّوا -: والله! ما رأينا بهذا الوادي أحداً أحسن وجهاً، ولا أتمَّ خلقاً، ولا أعظم حِلماً من هذا الإنسان، يعنون: عبد المطلب، وقد نصره أخواله من الخزرج، ولقد ولدناه كما ولدوه، وإنَّ جدَّه عبد مناف سيِّد خزاعة، ولو بذلنا له؛ نَصَرَنا، وحَالَفَنا، وانتفعنا به، وبقومه، وانتفع بنا. فأتاه وُجُوهُهُم، فقالوا: يا أبا الحارث! إنَّا قد ولدناك كما ولدك قومٌ من بني النَّجار، ونحن بعد متجاورون في الدَّار، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريشٍ من الأحقاد، فهلمَّ فنحالفك، فأعجب ذلك عبد المطَّلب، وقَبِلَهُ، وسارع إليه، ولم يحضر أحدٌ من بني نوفل، ولا عبد شمس[1].

هذا النَّص يشير إلى جذور الصِّراع التَّاريخيِّ القديم بين خزاعة، وقريش، حينما جمع قصيٌّ بن كلاب قريشاً من متفرقات المواقع، وقاتل بهم خزاعة الَّتي كان لديها رئاسة البيت، وسيادة العرب، فأخرج خزاعة من البيت، وقسم مكَّة أرباعاً على قريشٍ، فما زالت خزاعة مبغضةً لقريش، كارهين لها؛ ولـمَّا اضطرب الأمر بين قريشٍ، وعبد المطلب؛ تحالفت خزاعة مع عبد

---

[1] أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ ، تحقيق: محمَّد حميد الله (71/1).

المطَّلب؛ نكايةً بقريش، وإضعافاً لها؛ وليس صحيحاً: أنَّ الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريشٍ من الأحقاد، كما ذكر وفدهم؛ بل الصَّحيح: أنَّ الأحقاد لم تزل حيَّةً، والصِّراع لم يزل مستمرّاً، وممَّا يدل على ذلك: أنَّ بني نوفل، وبني عبد شمس لم يدخلا، ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ إنَّه حلفٌ مضادٌّ لهما.

فإذا بعث الرَّسول صلى الله عليه وسلم رجلاً من خزاعة، إلى سيِّد قبيلة بني نوفل، فإنَّ هذا الفعل إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تلك الوقائع التَّاريخية الَّتي ذكرناها، كما أنَّ فيها تذكيراً بالحلف القديم بين عبد المطلب، وخزاعة ضدَّ بني نوفل، وعبد شمس؛ ليفهم من ذلك: أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقف معزولاً في مكَّة، وأنَّه قد يفعل ما فعله جدُّه عبد المطَّلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرَّسول صلى الله عليه وسلم لم يكن في الواقع يستعطف الْمُطْعِم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل؛ ليدخل في جواره بقدر ما كان يهدِّده، ويثير مخاوفه، وحماية الْمُطْعِم بن عَدِيٍّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجرَّد أَرْيَحِيَّةٍ، ونبلٍ بقدر ما كانت رعايةً لمصلحته، وحمايةً لوضعه، وصَمْتُ قريشٍ - وهي ترى محمَّداً صلى الله عليه وسلم يدخل في جوار بني نوفل، وهم يحرسونه بالسِّلاح - لم يكن خوفاً من سلاح نوفل، وإنَّما خوفاً من سلاح خزاعة، وقسيِّ الخزرج(1).

كما لا ننسى: أنَّ المطعم ممَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة - مع من ذكرنا فيما مضى - وممَّن تحسَّن موقفه بعد تقريع أبي طالبٍ له، عندما قال:

أَمُطْعِمُ لمْ أخذلْكَ فِيْ يَوْمِ نَجْدَةٍ ... ولا مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلائِلِ
جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفلاً ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ اجلِ(2)

وقد حفظ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صنيع مُطْعِم بن عديٍّ، وعرف مدى الخطورة الَّتي عرَّض نفسه، وولده، وقومه لها من أجله، فقال عن أُسارَى بدرٍ السَّبعين يوم أسرهم: «لو

---

(1) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكي، ص 180.

(2) انظر: التَّحالف السياسيُّ في الإسلام، ص 36.

كان الْمُطْعِمُ بنُ عديٍّ حيّاً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لتركتُهم له» **[البخاري (4024) وأبو داود (2689) وأحمد (80/4)]** .

فرغم العداء العقديّ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة، ويحارُبها، ومن يناصِـــرُها، ويســـالمها، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة النُّبوَّة أن تتنكَّر للجميل[1].

وقد أثنى شاعر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، حسَّان بن ثابتٍ على موقف المطعم، فقال في مدحه:

فَلَو كَـانَ مَجْـدٌ مُخْلِـدَ اليَوْمَ وَاحِـدَاً ... مِنَ النَّاسِ نَجَّى مَجْدُه اليومَ مُطْعِمَا
أَجَرْتَ رَسُــولَ اللهِ مِنْهِمْ فَأَصْـبَحُوا ... عِبَـادَكَ مَـا لَبَّى مُحِـلٌّ وَأَحْـرَمَـا
فَلَوْ سُـــئِلَتْ عَنْهُ مَعَدٌّ بِأَسْـــرِهَا ... وَقَحْطَـانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّـةِ جُرْهُمَـا
لَقَـالُوا هُـوَ المُوفِي بِخُفْرَةِ جَـارِهِ ... وَذِمَّتِـهِ يَوْمـاً إِذَا مَـا تجشَّـــمَـا
وَمَـا تَطْلُعُ الشَّـــمْسُ المُنِيْرَةُ فَوْقَهمْ ... عَلَى مِثْلِـهِ فِيْـهِمْ أَعَزَّ وَأَكْرَمَـا
إِبَاءٌ إذا يَأبَى وَأَلْـيَنُ شِــــيْـمَـةً ... وَأَنْوَمُ عَنْ جارٍ إِذَا اللَّيْلُ أظْلَمَا[2]

إنَّ كون النَّبيّ صـلى الله عليه وسـلم أقرَّ حسَّـان بن ثابت في ثنائه البالغ على المطْعِم بن عديٍّ، وكونه صلى الله عليه وسلم أثنى عليه أيضاً؛ إلى حدِّ أنَّه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى؛ لو كان المطعم حيّاً، وكلَّمه فيهم لدليلٌ واضحٌ على أنَّ من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل، والثَّناء عليهم بما لهم من معروفٍ؛ وإن كانوا غير مسلمين[3].

وهكذا كان صـــلى الله عليه وســـلم يوظِّف الأعراف، والتَّقاليد الَّتي في مجتمعه لمصـــلحة الإســـلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعيّ القائم، باعتباره حقيقةً موضـــوعيَّةً تاريخيَّةً، وينظر

---

[1] انظر: التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص 44.
[2] البداية والنِّهاية (136/3).
[3] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديّ (32/3).

للإنسان الكافر ليس باعتباره رقماً حسابيّاً منقطعاً، وإنَّما ينظر إليه كفردٍ في شبكةٍ اجتماعيَّةٍ متداخلة العلاقات، ومتنوعة الدَّوافع، وإنَّ الإنسان يملك الفرصة، والإمكان لأن يتحوَّل هو نفسه، وطوع إرادته إلى قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ مؤثِّرةٍ، وله وزنٌ في اتِّخاذ القرار، ونقضه وَفْقاً للقيم الَّتي يختارها، والمطعم بن عديٍّ لم يكن فرداً، وإنَّما كان مؤسَّسةً، وهي مؤسَّسةٌ لم تولد بميلاده، وإنَّما يرجع وجودها إلى تاريخٍ قديمٍ، تصارعت فيها قيم التَّوحيد والإشراك، فإن صارت مؤسَّسةً خالصةً للكافرين الآن، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها، وتسخيرها للعودة للإيمان، والتَّوحيد[1].

6 – قصَّة عَدَّاس النَّصرانيّ، وإسلام الجنّ:

لقد حقَّقت رحلة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم انتصاراتٍ دعويَّةً رفيعةَ المستوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصرانيُّ عَدَّاس؛ الَّذي أسلم[2]، كما وصلت الدَّعوة إلى الجنِّ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا، ثمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرين.

أ – قصة عَدَّاس:

لـمَّا تعرَّض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للأذى من أهل الطَّائف، وخرج من عندهم، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، وراه عتبة، وشيبة؛ رَقَّا له، ودَعَوا غلاماً لهما نصرانيّاً يقال له: (عَدَّاس)، فقالا له: خُذْ قِطْفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطَّبق، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل، فقل له يأكل منه. ففعل عدَّاس، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ قال له: كُلْ. فلـمَّا وضع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيه يَدَهُ؛ قال: بسم الله، ثمَّ أكل، فنظر عَدَّاسٌ في وجهه، ثمَّ قال: والله! إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أيِّ البلاد أنت

---

[1] انظر: أصول الفكر السياسيُّ، ص 181.

[2] انظر: الرَّسول المبلِّغ، للخالديِّ، ص 39، 40.

يا عدَّاس؟! وما دينك؟ قال: نصرانيٌّ، وأنا رجلٌ من أهل نِينوى.

فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : من قرية الرَّجل الصَّـالح يونس بن مَتَّى. فقال له عداسٌ: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبيٌّ، فأكبَّ عدَّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّل رأسه، ويديه، وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمَّا غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلـــمَّا جاءهما عدَّاسٌ؛ قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل، ويديه، وقدميه؟! قال: يا ســيِّدي، ما في الأرض شــيءٌ خيرٌ من هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالا له: ويحك يا عداس! لا يصرفنَّك عن دينك، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه. [ابن هشام (62/2 – 63) وتفسير القرطبي (195/16 – 196)][1].

* إنَّ تسمية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيُّ إلى الإسلام، فما إن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسـلم اسـم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولى النَّصـرانِيّ، وجاشـت مشـاعره، فأخبر النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إنَّ التَّسـمية قبل الأكل – كسـائر السُّـنن الظَّاهرة – من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار، ويدفعهم إلى السُّـؤال عن سبب ذلك، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميِّ، والانجذاب إليه[2].

*كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسـول الله قويّاً، يدلُّ على ذلك موقفه من سـيِّديه عتبة، وشـيبة ابني ربيعة لـــمَّا أرادا الخروج إلى بدرٍ، وأمراهُ بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه[3].

---

(1) صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 136 ، 137.
(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (22/3).
(3) انظر: سبل الهدى والرَّشاد (578/2).

* في قول عدَّاس: «والله ما على الأرض خير من هذا» مواســـاةٌ عظيمةٌ، فلئن اذاه قومه، فهذا وافد من العراق، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه، ورجليه، ويقبّلهما، ويشـهد له بالرِّسـالة، وإنَّ هذا لقَدَرٌ رَبَّانيٌّ، يســوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورســوله؛ حيث كان الصَّـدُّ من أقرب الناس إليه![1].

ب - إسلام الجنِّ:

لــمَّا انصرف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الطَّائف، راجعاً إلى مكَّة، حين يئس من خير ثقيف، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيل يصــلِّي، فمرَّ به النَّفر من الجنِّ، الَّذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم؛ فلما فرغ من صـــــلاته، ولَّوْا إلى قومهم مُنذرِين؛ قد امنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصَّ الله تعالى خبرهم على النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، فقال: ﴿وَإِذْ صَـرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْـتَمِعُونَ الْقرآن فَلَـمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَـمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَـــى مُصَـــدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْــتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 29 - 30] .

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ببطن نخلة، فلــمَّا سمعوه؛ قالوا: ﴿أَنْصِتُوا﴾.

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائف تنتقل إلى عالمٍ آخر، هو عالم الجنِّ، فتلقَّوا دعوة النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، ومضــوا بها إلى قومهم، كما مضــى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه، والطفيل بن عمرٍو إلى قومه، وضِمَادُ الأزديُّ إلى قومه، فأصبح في عالم الجنِّ دعاةٌ، يبلغون دعوة الله تعالى: ﴿يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31] .

وأصبــح اســم محمَّد صــلى الله عليه وسـلم تهفو إليه قلوب الجنِّ، وليس قلوب المؤمنين من

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (437/1).

الإنس فقط، وأصبح من الجنِّ حواريُّون، حملوا راية التَّوحيد، ووطَّنوا أنفسهم دعاةً إلى الله، ونزل في حقهم قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآناً عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۝ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۝ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا﴾ [الجن: 1 – 13] .

كان هذا الفتح الرَّبانيُّ في مجال الدَّعوة؛ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة عاجزٌ عن دخول مكَّة، فهل يستطيع عتاة مكَّة، وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجنِّ، ويُنزلوا بهم ألوان التَّعذيب؟!(1) وعندما دخل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مكَّة في جوار المطعم بن عدي، كان يتلو على صحابته سورة الجنِّ، فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً، وتأثُّراً من روعة الفتح العظيم في عالم الدَّعوة، وارتفاع رآياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجنِّ يخوضون معركة التَّوحيد مع الشِّرك.

وبعد عدَّة أشهرٍ من لقاء الوفد الأول من الجنِّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء الوفد الثَّاني متشوِّقاً لرؤية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والاستماع إلى كلام ربِّ العالمين(2). فعن علقمةَ قال: سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله

---

(1) انظر: التربية القيادية (443/1).

(2) المصدر السابق نفسه ، (445/1).

صلى الله عليه وسلم ليلة الجنِّ؟ قال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلةٍ، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: اسْتُطِيرَ، أو اغْتِيلَ، قال: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلمَّا أصبحنا؛ إذا هو جاء من قِبَلِ حِرَاءٍ، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك، فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا شرَّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فقال: «أتاني داعي الجنِّ، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلَقَ بنا، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم. وسألوه الزَّاد، فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فلا تستنجوا بهما؛ فإنَّهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (450) وأبو داود (85) والترمذي (18)] .

كان هذا الفتح العظيم، والنَّصر المبين، في عالم الجنِّ، إرهاصاً، وتمهيداً لفتوحاتٍ وانتصاراتٍ عظيمة في عالم الإنس، فقد كان اللِّقاء مع وفد الأنصار بعد عدَّة أشهر[1].

وقد علَّق الدكتور البوطي على سماع الجنِّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في عودته من الطَّائف، فقال: «والَّذي يهمُّنا أن نعلمه بعد هذا كلِّه هو: أنَّ على المسلم أن يؤمن بوجود الجنِّ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفها الله - عزَّ وجلَّ - بعبادته، كما كلَّفنا بذلك، ولئن كانت حواسُّنا، ومداركنا لا تشعر بهم، فذلك؛ لأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - جعل وجودهم غير خاضع للطَّاقة البصريَّة، الَّتي بثَّها في أعيننا، ومعلومٌ: أن أعيننا إنَّما تبصر أنواعاً معيَّنةً من الموجودات، بقدرٍ معيَّنٍ، وبشروطٍ معيَّنةٍ.

إنَّ وجود هذه المخلوقات مسندٌ إلى أخبارٍ يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكتاب، والسُّنَّة، وصار وجود هذه المخلوقات أمراً معلوماً من الدِّين بالضَّرورة، والتَّكذيب بوجودها تكذيباً للخبر الصَّادق المتواتر إلينا عن الله - عزَّ وجلَّ - وعن رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشدِّ مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم: أنَّه لا يؤمن إلا بما يتَّفق مع العلم، فيمضي يتبجَّح بأنَّه لا يعتقد بوجود الجانِّ، من أجل أنَّه لم يرَ الجانَّ، ولم يحسَّ

---

[1] المصدر السابق نفسه.

بهم.

إنَّ من البداهة بمكانٍ: أنَّ مثل هذا الجاهل المتعالم يســـتدعي إنكار كثيرٍ من الموجودات اليقينيَّة لسـببٍ واحدٍ، هو عدم إمكان رؤيتها، والقاعدة العلميَّة المشـهورة تقول: عدم شـعوري بالشَّـيء لا يسـتلزم عدم الوجود؛ أي: عدم رؤيتك لشـيءٍ تفتِّش عنه لا يسـتلزم أن يكون بحدِّ ذاته مفقوداً، أو غير مفقودٍ»[1].

وبعد هذا التَّكرُّم الرَّبانيُّ، الَّذي خُصَّ به النَّبيُّ صـــلى الله عليه وســـلم ، في عالم الثَّقلين : الإنس، والجن حان وقت الحديث عن رحلته صلى الله عليه وسلم إلى عالم السَّموات العلا، إلى عالم الملائكة، إلى حضرة الجليل سبحانه، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً، ثُمَّ يعيده إليهم، فيحدثهم بما رأى في هذه الرِّحلة الميمونة الخالدة، الَّتي لم تعرف البشـــريَّة لها مثيلاً، ولن تعرف حتَّى يرث اللهُ الأرض، ومَنْ عليها[2].

* * *

---

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 105 ، 106.

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (446/1).

المبحث الرَّابع

الإسراء والمعراج.. ذروة التَّكريم

كان وجود أبي طالبٍ بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم، سياجاً واقياً له يمنع عنه أذى قريش؛ لأنَّ قريشاً ما كانت تريد أن تخسر أبا طالبٍ، ولـمَّا تُوفي أبو طالب؛ انهار هذا الحاجزُ، ونال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الضَّرر الجسديِّ الشيءُ الكثير.

وكانت خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم البلسم الشَّافي لما يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجراح النَّفسيَّة الَّتي يُلحقها به المشركون، ولـمَّا توفيت فَقَدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا البلسمَ.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف بعدما اشتدَّ عليه أذى قريش، وأمعنوا في التَّضييق عليه، يطلب من زعمائها نصرة الحقِّ الذي يدعو إليه، وحمايته، حتى يبلِّغ دين الله، فما كان جوابهم إلا أن ردُّوه أقبح ردٍّ، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتجهَّمت له قريش، وأضمرت له الشَّرَّ، فلم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول مكَّة إلا في جوار رجلٍ كافر، لقد تجهَّمت له قريش، وأحدقت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادتْ حزنَه، وهمَّه؛ حتَّى سُمِّي ذلك العام بالنِّسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بـ(عام الحزن)[1].

وبعد هذا كلِّه حصلتْ معجزةُ اللهِ لرسوله، ألاَ وهي: الإسراء والمعراج.

أمَّا هدف هذه المعجزة، فيتمثل في أمورٍ؛ من أهمِّها:

أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - أراد أن يتيح لرسوله صلى الله عليه وسلم فرصة الاطّلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتَّى يملأ قلبه ثقةً فيه، واستناداً إليه؛ حتَّى يزداد قوَّةً في مهاجمة سلطان الكفَّار القائم في الأرض، كما حدث لموسى عليه السلام، فقد شاء أن يريه عجائب قدرته. قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى ۝ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۝ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُوْلَى ۝ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ

---

[1] انظر: دراسةٌ تحليلية لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ص 128.

سُوءٍ آيَةً أخرى ﴾ [طه: 17 – 22] فلـمَّا ملأ قلبه بمشاهدة هذه الآيات الكبرى، قال له بعد ذلك: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آياتنَا الْكُبْرى ﴾ [طه: 23].

في رحلة الإسـراء والمعراج أطلع الله نبيه صـلى الله عليه وسـلم على هذه الآيات الكبرى، توطئةً للهجرة، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التَّاريخ للكفر، والضَّـلال، والفسـوق. والآيات التي راها رســول الله صـــلى الله عليه وســـلم كثيرةٌ؛ منها: الذَّهاب إلى بيت المقدس، والعروج إلى السَّـــماء، ورؤية الأنبياء، والمرســلين، والملائكة، والسَّـــموات، والجنَّة، والنار، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

كان حديث القرآن الكريم عن الإسـراء في سـورة الإسـراء، وعن المعراج في سـورة النَّجم، وذكر حكمة الإسـراء في سـورة الإسـراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنَا﴾ [الإسـراء: 1] وفي سـورة النجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيات رَبِّهِ الْكُبْرى ﴾ [النجم: 18]. وفي الإســـراء والمعراج علومٌ، وأســـرارٌ، ودقائق،ودروسٌ، وَعِبَرٌ[1].

يقول الأسـتاذ أبو الحسـن النَّدوي: «لم يكن الإسـراء مجرَّد حادثٍ فرديٍّ بسـيطٍ رأى فيه رســول الله صـــلى الله عليه وســـلم الآيات الكبرى، وتجلَّى له ملكوت السَّــموات، والأرض مشــاهدةً، عياناً؛ بل – زيادةً إلى ذلك – اشـتملت هذه الرِّحلة النَّبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ، وشـاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضـمَّت قصَّـةُ الإسـراء، وأعلنت السُّـورتان الكريمتان اللَّتان نزلتا في شـأنه «الإسـراء» و«النَّجم»: أنَّ محمَّداً صـلى الله عليه وسـلم هو نبيُّ القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه، وفي إسـرائه مكةُ بالقدس، والبيتُ الحرام بالمسجد الأقصى، وصلَّى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذاناً بعموم رسـالته، وخلود إمامته، وإنسـانيَّة تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزَّمان، وأفادت سـورة الإسـراء تعيين شـخصـية النَّبي صـلى الله عليه وسـلم ، ووصـف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمَّة التي بعث فيها، وامنت به، وبيان رسـالتها ودورها الَّذي ستمثِّله في العالم، ومن بين الشُّعوب، والأمم»[2].

---

[1] انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (291/1 ، 292).

[2] انظر: الأساس في السُّنَّة (292/1).

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أُتِيتُ بالبُرَاق – وهو دابّةٌ أبيضُ طويلٌ، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طَرْفه – قال: فركبتهُ حتَّى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة[1]؛ الَّتي يَرْبِطُ به الأنبياءُ. قال: ثمَّ دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين، ثمَّ خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللَّبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة»[2]... فذكر الحديث [مسلم (162)] .

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم حدَّثهُ عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم[3] – وربما قال في الحِجر – مضطجعاً؛ إذ أتاني اتٍ[4]، فَقَدَّ – قال: وسمعته يقول: فشقَّ – ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرةِ نحرِهِ[5]إلى شِعْرَته[6]وسمعته يقول: من قَصِّهِ[7] إلى شعرته – فاستخرج قلبي، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فَغُسِلَ قلبي، ثمَّ حُشيَ، ثمَّ أُعِيدَ، ثمَّ أُتيتُ بدابةٍ دون البغل، وفوق الحمار أبيض – فقال له الجارود: هو البُرَاقُ يا أبا حمزة؟! قال: أنسٌ: نعم – يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[8]، فحُمِلتُ عليه، فانطَلَقَ بي جبريلُ حتَّى أتى السَّماء الدُّنيا، فاستفتحَ[9] فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيلَ: ومن معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به[10]، فنعم المجيءُ جاء، فَفَتَح، فلما خَلَصتُ؛ فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فَسَلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلام، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح، والنَّبيِّ الصَّالح. ثمَّ صعِد بي حتَّى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم

---

(1) الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

(2) الفطرة: الإسلام ، والاستقامة.

(3) الحطيم: هو ما بين الرُّكن والمقام.

(4) ات: هو جبريل عليه السلام.

(5) ثغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرَّقبة من الأمام.

(6) شعرته: شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة.

(7) القص: رأس عظام الصَّدر.

(8) يضع خَطْوَهُ عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.

(9) استفتح: طلب فتح باب السَّماء الدُّنيا.

(10) مرحباً به: أصاب رحباً ، وسعةً.

المجيء جاء، فَفَتَح، فلـــمَّا خَلَصـتُ؛ إذا يحيى، وعيســى – وهما ابنا خالةٍ – قال: هذا يحيى، وعيسى، فسلِّمْ عليهما، فسلَّمتُ فَرَدَّا، ثمَّ قالا: مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيّ الصَّالح. ثمَّ صُعد بي إلى السَّماء الثَّالثة، فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلمَّا خلصت؛ إذا يوسفُ، قال: هذا يوسُفُ فسلِّمْ عليه، فسلَّمتْ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح، والنَّبيّ الصَّالح.

ثمَّ صُـعِدَ بي حتَّى أتى السَّـماء الرَّابعة، فاسـتفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد، قيل: أَوَ قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلـــمَّا خلصت؛ فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح، والنَّبيّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الخامسة، فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أرســـل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلـــمَّا خلصت؛ فإذا هارون، قال: هذا هارون، فسلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح، والنَّبيّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء السَّادسة، فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلـــمَّا خلصت؛ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح، والنَّبيّ الصَّالح؛ فلـــمَّا تجاوزتُ؛ بكى، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي؛ لأنَّ غلاماً[1] بُعِثَ بعدي يدخل الجنَّةَ من أمَّته أكثرُ مِمَّن يَدْخُلها من أمَّتي.

ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة، فاستفتح جبريل، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، فلـــمَّا خلصت؛ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك، فسلِّم عليه، قال: فسلَّمت عليه، فردَّ السَّلام، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّـالح، والنَّبيّ الصَّـالح، ثمَّ رُفِعَتْ لي[2] سِـدرةُ المنتهى، فإذا نَبقُها[3] مثل قِلالِ

---

[1] أبكي؛ لأن غلاماً ...: ليس هذا على سبيل النَّقص ، بل على سبيل التَّنويه بقدرة الله وعظيم كرمه.

[2] رُفعت لي: قُرِّبت لي.

[3] النَّبق: هو ثمر السِّدر.

هَجَر[1]، وإذا ورقُها مثل اذانِ الفيلة، قال: هذه سِــدرة المنتهى، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟! قال: أمَّا الباطنان؛ فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظاهران؛ فالنِّيلُ والفراتُ، ثمَّ رُفعَ لي البيتُ المعمور.

ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، وإناءٍ من عســـلٍ، فأخذتُ اللَّبنَ، فقال: هي الفطرةُ[2]؛ الَّتي أنت عليها، وأمَّتُك.

ثمَّ فُرِضتْ عليَّ الصَّلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ، فرجعتُ، فمررتُ على موسى، قال: بِمَ أُمِرت؟ قال: أُمرت بخمسين صلاةً كلَّ يومٍ. قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلَّ يومٍ، وإنِّي والله! قد جرَّبت النَّاس قبلك، وعالجتُ بني إســرائيل أشــدَّ المعالجة[3]، فارجعْ إلى ربِّك، فاسأله التَّخفيف لأمَّتك، فرجعت، فوضع عنِّي عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت، فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت، فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موســى، فقال مثله، فرجعت، فأُمرت بعشــر صــلوات كلَّ يومٍ، فرجعت، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صـــلواتٍ كلَّ يومٍ، فرجعت إلى موســـى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: أمرت بخمس صــلواتٍ كلَّ يومٍ، قال: إنَّ أمتك لا تســتطيع خمس صــلواتٍ كلَّ يومٍ، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك، وعالجتُ بني إســرائيل أشــدَّ المعالجة، فارجعْ إلى ربك فاســأله التخفيف لأمتَّك، قال: سألت ربِّي حتى استحييتُ، ولكن أرضى، وأسلِّم، قال: فلـــمَّا جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخففت عن عبادي» [البخاري (3207) ومسلم (164)] .

كانت حادثة الإسـراء والمعراج قبل هجرته - عليه السَّـلام - بسـنةٍ، هكذا قال القاضـي عياض في الشِّفا[4].

ولـمَّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحلته الميمونة؛ أخبر قومه بذلك، فقال لهم في مجلسٍ حضره المطعم بن عديٍّ، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة: إنِّي صليت اللَّيلة العشاء في هذا المسـجد، وصـليت به الغداة، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس، فَنُشِـر لي رهطٌ من الأنبياء؛ منهم: إبراهيم، وموســى وعيســى، وصــلَّيت بهم، وكلَّمتهم، فقال عمرو بن هشـــام

---

[1] قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها ، وهجر: قرية في البحرين ، والقلَّة: الجرة الكبيرة.

[2] الفطرة: دين الإسلام.

[3] عالجتهم أشدَّ المعالجة: مارست بني إسرائيل أشدَّ الممارسة.

[4] انظر: الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (108/1).

كالمستهزئ به: صِفْهم لي، فقال: أمَّا عيسى: ففوق الرَّبعة، ودون الطول، عريض الصَّدر، ظاهر الدَّم، جعدٌ، أشعرٌ، تعلوه صُهْبَةٌ[1]، كأنَّه عروة بن مسعود الثَّقفي. وأمَّا موسى: فضخمٌ آدم، طوالٌ، كأنَّه من رجال شَنُوءَةَ، متراكب الأسنان، مقلَّص الشَّفة، خارج اللَّثة، عابسٌ، وأمَّا إبراهيم: فوالله إنه لأشبه النَّاس بي، خَلْقاً، وخُلُقاً[2].

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً، وخرجت منه ليلاً»، فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «بابٌ منه كذا، في موضع كذا، وبابٌ منه كذا، في موضع كذا».

ثمَّ سألوه عن عيرهم، فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالرَّوحاء، قد ضَلَّتْ ناقةٌ لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» - قالوا: هذه والإله ايةٌ! - «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت منّي الإبل، وبرك منها جملٌ أحمر، عليه جُوالِق[3] مخطَّطٌ ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا؟ فاسألوهم عن ذلك» - قالوا: هذه والإله ايةٌ! - «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلانٍ في التَّنعيم، يقدمها جملٌ أورق[4]، وها هي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة»[5] فقال الوليد بن المغيرة: ساحرٌ، فانطلقوا، فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسِّحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [المطالب العالية (4/201 - 204، ومجمع الزوائد (1/75 - 76) وابن هشام في السيرة النبوية (2/11)] .

كانت هذه الحادثة فتنةً لبعض النَّاس، مِمَّن كانوا امنوا، وصدَّقوا بالدَّعوة، فارتدُّوا، وذهب بعض النَّاس إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم: أنَّه أسري به اللَّيلة إلى بيت المقدس!

قال: أَوَ قَال ذلك؟! قالوا: نعم! قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق! قالوا: أو تصدِّقه: أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم، إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السَّماء، في غدوةٍ أو روحة .

---

(1) صهبة: بياض بحمرة.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (3/37).

(3) الجُوالق: هو العِدْل الذي يوضع فيه المتاع.

(4) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد.

(5) الثَّنِيَّة: الطَّريق الجبلي.

فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيق [الحاكم (62/3)] .

ثانياً: فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ:

1 - بعد كلِّ محنةٍ منحةٌ، وقد تعرَّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحنٍ عظيمةٍ، فهذه قريش قد ســـدَّت الطَّريق في وجه الدَّعوة في مكَّة، وفي ثقيفٍ، وفي قبائل العرب، وأحكمتْ الحصار ضدَّ الدعوة ورجالاتها من كلِّ جانبٍ، وأصبح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في خطرٍ بعد وفاة عمِّه أبي طالبٍ أكبر حُماته، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ماضٍ في طريقه، صابرٍ لأمر ربِّه، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ، ولا حربُ محاربٍ، ولا كيدُ مســتهزىءٍ، فقد ان الأوان للمحنة العظيمة، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج، على قَدَرٍ من ربِّ العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً، ويكرمه على صبره، وجهاده، ويلتقي به مباشـرة دون رسولٍ، ولا حجابٍ، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافَّةً، ويجمعه مع إخوانه من الرُّســـل في صـــعيدٍ واحدٍ، فيكون الإمام، والقدوة لهم، وهو خاتمهم، وآخرهم صلى الله عليه وسلم [(1)] .

2 - إنَّ الرَّســول صــلى الله عليه وســلم كان مُقْدِماً على مرحلةٍ جديدةٍ، مرحلة الهجرة، والانطلاق لبناء الدَّولة، يريد اللهُ تعالى لِلَّبِنَات الأولى في البناء أن تكون ســليمةً قويَّةً، متراصَّــةً متماسكةً، فجعل الله هذا الاختبار والتَّمحيص؛ ليُخلِّص الصَّفَّ من الضِّعاف المتردِّدين، والَّذين في قلوبهم مرضٌ، ويُثبِّت المؤمنين الأقوياء والخلَّص؛ الذين لمسوا عياناً صدق نبيِّهم بعد أن لمسوه تصــديقاً، وشــهدوا مدى كرامته على ربِّه، فأيُّ حظٍّ يحوطهم، وأيُّ ســعدٍ يغمرهم، وهم حول هذا النَّبيِّ المصـــطفى، وقد امنوا به، وقدَّموا حياتهم فداءً له، ولدينهم؟! كم يترسَّـــخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الَّذي تمَّ بعد وعثاء الطَّائف؟! وبعد دخول مكَّة في جوارٍ، وبعد أذى الصِّبيان، والسُّفهاء؟![(2)].

3 - إنَّ شـجاعة النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم العالية، تتجسَّـد في مواجهته للمشـركين بأمرٍ تنكره عقولهم، ولا تدركه في أوَّل الأمر تصـــوُّراتهم، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم، وتلقِّي نكيرهم، واسـتهزائهم، فضـرب بذلك صـلى الله عليه وسـلم لأمَّته أروع الأمثلة في الجهر بالحقِّ أمام أهل الباطل، وإن تحزَّبوا ضدَّ الحقِّ، وجنَّدوا لحربه كلَّ ما في وسعهم، وكان من حكمة

---

(1) انظر: التربية القياديَّة (447/1).

(2) المصدر السابق نفسه (451/1).

النَّبيّ صلى الله عليه وسلم في إقامة الحجَّة على المشركين أنْ حدَّثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس، وأظهر الله له علاماتٍ تُلزِم الكفَّار بالتَّصديق، وهذه العلامات هي:

- وصف النَّبيّ صلى الله عليه وسلم بيت المقدس، وبعضهم قد سافر إلى الشَّام، ورأى المسجد الأقصى، فقد كشف الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى حتَّى وصفه للمشركين، وقد أقرُّوا بصدق الوصف، ومطابقته للواقع الَّذي يعرفونه.
- إخباره عن العير التي بالرَّوحاء، والبعير الَّذي ضَلَّ، وما قام به من شرب الماء الَّذي في القدح.
- إخباره عن العير الثَّانية الَّتي نفرت فيها الإبل، ووصفه الدَّقيق لأحد جمالهم.
- إخباره عن العير الثَّالثة الَّتي بالأبواء، ووصفه الجمل الَّذي يقدمها، وإخباره بأنَّها تطلع ذلك الوقت من ثَنِيَّة التَّنعيم، وقد تأكَّد المشركون، فوجدوا أنَّ ما أخبرهم به الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان صحيحاً، فهذه الأدلَّة الظَّاهرة كانت مفحِمةً لهم، ولا يستطيعون معها أن يتَّهموه بالكذب. كانت هذه الرِّحلة العظيمة تربيةً ربَّانيَّة رفيعة المستوى وأصبح صلى الله عليه وسلم يرى الأرض كلَّها، بما فيها من مخلوقاتٍ نقطةً صغيرةً في ذلك الكون الفسيح، ثمَّ ما مقام كفار مكَّة في هذه النقطة؟! إنَّهم لا يمثِّلون إلا جزءاً يسيراً جدّاً من هذا الكون، فما الَّذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه، وخصَّه بتلك الرِّحلة العلويَّة الميمونة، وجمعه بالملائكة والأنبياء – عليهم السَّلام – وأراه السَّموات السَّبع، وسدرة المنتهى، والبيت المعمور، وكلَّمه جلَّ وعلا[1]؟

4 – يظهر إيمان الصِّدِّيق رضي الله عنه القويُّ في هذا الحدث الجَلَل، فعندما أخبره الكفَّار، قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك؛ لقد صدق! ثمَّ قال: إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السَّماء في غدوةٍ، أو روحةٍ، وبهذا استحقَّ لقب الصِّدِّيق، وهذا منتهى الفقه، واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر، ونزول الوحي من السَّماء، فبيَّن لهم: أنَّه إذا كان غريباً على

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميّ، للحميدي، (3/41، 42).

الإنسان العاديّ، فإنَّه في غاية الإمكان بالنِّسبة للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم [1] .

5 - إنَّ الحكمة في شقِّ صدر النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، وملء قلبه إيماناً وحكمةً؛ استعداداً للإسراء تظهر في عدم تأثُّر جسمه بالشَّقِّ، وآخراج القلب ممَّا يؤمِّنه من جميع المخاوف العادية الأخرى، ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة يجب التَّسليم لها دون التَّعرُّض لصرفها عن حقيقتها؛ لمقدرة الله تعالى، الَّتي لا يستحيل عليها شيءٌ[2].

6 - إنَّ شُرْب رسول الله صلى الله عليه وسلم اللَّبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل عليه السلام: «هُديتَ للفطرة»، تؤكِّد: أنَّ هذا الإسلام دين الفطرة البشريَّة؛ الَّتي ينسجم معها، فالَّذي خلق الفطرة البشريَّة خلق لها هذا الدِّين، الَّذي يلبِّي نوازعها، واحتياجاتها، ويحقِّق طموحاتها، ويكبح جماحها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30] .

7 - كان إسراء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بالرُّوح والجسد يقظةً إلى بيت المقدس، وعلى هذا جماهير السَّلف، والخلف، ولا يُعوَّل على مَنْ قال: إنَّ الإسراء كان بروحه، وأنَّه رؤيا منام؛ إذ لو كان الإسراء مناماً؛ لما كانت فيه ايةٌ، ولا معجزةٌ، ولما استبعده الكفار، ولا كذَّبوه؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر[3]، ثمَّ إنَّ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، والمقصود بعبده: سيدنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وكلمة «بعبده» تشمل روحه، وجسده[4].

8 - إنَّ صلاة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالأنبياء دليلٌ على أنَّهم سلَّموا له القيادة، والرِّيادة، وأنَّ شريعة الإسلام نسخت الشَّرائع السَّابقة، وأنَّه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم، أن يسلِّموا القيادة لهذا الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولرسالته الَّتي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها.

إنَّ على الَّذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع من الدِّيانات المنحرفة، والإيمان بهذا الرَّسول صلى الله عليه وسلم ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدَّعوات المشبوهة، الَّتي تخدم وضعاً من الأوضاع، أو

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي ، (43/3).

[2] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (189/1).

[3] انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (91/2).

[4] تفسير ابن كثير (23/3) ، وتفسير القاسمي (189/10).

نظاماً من الأنظمة الجاهليَّة.

وأيُّ تقريب بين عقيدةٍ منحرفةٍ تعتقد: أنَّ الله هو المسـيح، وأنَّ المسـيح ابن الله، وأنَّ الله ثالث ثلاثةٍ، أو بين مَنْ يعتقد: أنَّ عزيراً ابنُ الله، ويحرِّف كلام الله، وبين من يعتقد: أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، ولا والد، ولا ولد، ولا زوجة له – وهو عبثٌ من القول[1].

9 – إنَّ الرَّبط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام وراءه حِكَمٌ، ودلالاتٌ، وفوائد؛ منها:

- أهمِّيَّة المسجد الأقصى بالنِّسبة للمسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم صلى الله عليه وسلم ، ومعراجه إلى السَّموات العلا، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكِّيَّة، وهذا توجيهٌ وإرشادٌ للمسلمين بأن يحبُّوا المسجد الأقصى، وفلسطين؛ لأنَّها مباركةٌ، ومقدَّسةٌ.
- الرَّبط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، بمسؤوليَّة تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشِّرك، وعقيدة التَّثليث، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام، من أوضار الشِّرك، وعبادة الأصنام.
- الرَّبط يشعر بأنَّ التَّهديد للمسجد الأقصى، هو تهديدٌ للمسجد الحرام، وأهله، وأنَّ النَّيْل من المسجد الأقصى، توطئةٌ للنَّيْل من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصى بوابة الطَّريق إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين، ووقوعه في أيدي اليهود، يعني: أن المسجدالحرام والحجاز قد تهدَّد الأمن فيهما، واتَّجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتَّاريخ قديماً وحديثاً يؤكِّد هذا، فإنَّ تاريخ الحروب الصَّليبيَّة يخبرنا: أنَّ (أرناط) الصَّليبيَّ صاحب مملكة الكرك، أرسل بعثةً للحجاز للاعتداء على قبر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى جُثمانه في المسجد النَّبويّ، وحاول البرتغاليُّون (النَّصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشَّريفين؛ لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصَّليبيُّون، ولكن المقاومة الشَّديدة الَّتي أبداها المماليك، وكذا العثمانيُّون، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنميّ، وبعد حرب (1967 م)، الَّتي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماؤهم بأنَّ الهدف بعد ذلك

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 213.

احتلال الحجاز، وفي مقدِّمة ذلك مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخيبر.

لقد وقف دافيد بن جوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس، يستعرض جنوداً وشبَّاناً من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى، ويُلقي فيهم خطاباً ناريّاً، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس، ونحن في طريقنا إلى يثرب»[1].

ووقفت جولدا مائير رئيسة وزراء اليهود ، بعد احتلال بيت المقدس ، وعلى خليج إيلات العقبة ، تقول: «إنَّني أشمُّ رائحة أجدادي في المدينة، والحجاز، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»[2].

وبعد ذلك نشر اليهود خريطةً لدولتهم المنتظرة؛ الَّتي شملت المنطقة من الفرات إلى النِّيل، بما في ذلك الجزيرة العربيَّة، والأردن، وسورية، والعراق، ومصر، واليمن، والكويت، والخليج العربي كلِّه، ووزَّعوا خريطة دولتهم هذه بعد انتصارهم في حرب (1967) م في أوروبة[3].

10 - يرى القارئ في سورة الإسراء: أنَّ الله ذكر قصَّة الإسراء في ايةٍ واحدةٍ فقط. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1] ثمَّ أخذ في ذكر فضائح اليهود، وجرائمهم، ثمَّ نبَّههم إلى أنَّ هذا القرآن يهدي لِلَّتي هي أقوم، والارتباط بين الآيات في سورة الإسراء، يشير إلى أنَّ اليهود سيُعزَلون عن منصب قيادة الأمَّة الإنسانيَّة؛ لما ارتكبوا من الجرائم الَّتي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّه سيصير إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويُجمَع له مركزا الدَّعوة الإبراهيمية كلاهما[4].

إنَّ سورة الإسراء تعرَّضت للاستبداد الإسرائيليّ، وبيَّنت كيف تهاوى بين مخالب القوى الدَّولية الكبرى في ذلك الزَّمان «الفرس، والروم»؛ ولذلك فإنَّ من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمَّته رؤية بعض آيات الله؛ لأنَّ من أوضح آيات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى هي آياته التَّاريخيَّة الَّتي كان يعكسها الصِّراع الرُّومانيُّ الفارسيُّ -

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ص 314.

(2) جريدة الدُّستور الأردنيَّة ، العدد (4613) بقلم أميل الغوري ، نقلاً عن السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص 314.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 215.

(4) انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص 120 ، بتصرف.

الإسرائيليُّ قبل الإسراء[1].

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: 2 – 7] .

ذكر ابن كثيرٍ في البداية والنِّهاية: أنَّ (بختنصر) بأمرٍ من ملك الفرس[2]، قد قام بتخريب مملكة اليهود، وجاس خلال الدِّيار، وتفرَّقت بسبب ذلك بنو إسرائيل، فنزلت طائفةٌ الحجاز، وطائفةٌ يثرب، وطائفةٌ بوادي القرى، وذهبت شرذمةٌ لمصر[3]، وقد وقع هذا الدَّمار الفارسيُّ لدولة اليهود، في القرن السَّادس قبل الميلاد (597ق.م)[4].

أمَّا الدَّمار الثاني، وهو الدَّمار الرُّوماني للدَّولة اليهوديَّة «بعد أن أعيد بناؤها»، فقد وقع في القرن الميلادي الأوَّل (70 م)، وذلك حين هدم القائد الرُّوماني (تيتوس) هيكل أورشليم، وفرَّ اليهود من وجه الاضطهاد الرُّومانيِّ السِّياسيِّ الدِّينيِّ، وتتابعت هجرتهم، وانتهى بعضهم إلى جنوب الجزيرة العربية، حيث سبقهم أجدادهم الأوائل[5].

فالشَّتات اليهوديُّ في أطراف الجزيرة العربيَّة، ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض، فإذا كان الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد استوعب الظَّاهرة القرشيَّة، واستعدَّ لها، فعليه أن يحلِّل الظاهرة اليهوديَّة، ويستعدَّ لها[6]، فاليهود ليسوا مجرَّد أمَّةٍ تاريخيَّةٍ، كعاد، وثمود، تُورَد أخبارها للإرشاد، والاعتبار، وإنَّما هم أمَّةٌ لها حضورٌ كثيفٌ في الواقع العربيِّ الَّذي يعيش فيه الرَّسول

---

(1) انظر: أصول الفكر السِّياسي في القران المكيِّ، ص 149.

(2) يرى الدُّكتور فرست مرعي أستاذ التاريخ في جامعة صنعاء: أن بختنصَّر كلداني، وليس فارسيّاً، والأمر من الملك الكلداني.

(3) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص 151.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 152.

(5) ابن خلدون، (206/2).

(6) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص 152.

صلى الله عليه وسلم ، ويتحرَّك فيه لإقامة دولة الإسلام، فقد كانوا يشكِّلون – فوق مكانتهم الاقتصاديَّة – مركز سلطةٍ فكريَّةٍ؛ لما لهم من أحبارٍ، وأخبارٍ، وكتب تراثٍ نبويٍّ، تؤهِّلهم لتحديد مواصفات النُّبوَّة، وطلب المعجزات، ووضع الشُّروط لصدق الرُّسل وصحَّة الرسالات، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام، فإنَّ اليهود كانوا يستخدمون التَّوراة لمحاربة القرآن، وإذا كان محمَّد صلى الله عليه وسلم يتوقَّع معركةً مع قريشٍ؛ فعليه أن يتوقَّع معارك مع اليهود[1].

لقد صوَّرت سورة الإسراء جانباً من الصِّراع الدَّولي بين الفرس، والرُّوم، واليهود، ونزلت بعدها سورة الرُّوم، وهي كذلك تتحدَّث عن الصِّراع الدَّولي.

قال الله تعالى: ﴿الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 1 – 7] .

كان مشركو قريشٍ يحبُّون أن يظهر أهل فارس على الرُّوم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل أوثانٍ، بينما كان المسلمون يحبُّون أن تظهر الرُّوم على فارس؛ لأنَّهم أهل كتاب، كما أورد المفسِّرون تفصيلاتٍ كثيرةً عن الرِّهَان الَّذي جرى بين أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وبعض مشركي مكَّة حول المعركة القآدمة بين الفرس، والرُّوم؛ الَّتي جزم فيها القرآن بانتصار الرُّوم، وهزيمة الفرس[2].

وذهب ابن عطيَّة إلى رأيٍ آخر، يستحقُّ التدبُّر؛ حيث قال: «الأقرب أن يُعَلَّل ذلك – أي: فرح المؤمنين – بما يقتضيه النَّظر من محبَّة أن يغلب العدوُّ الأصغر – الرُّوم – لأنَّه أيسر مؤنةً – ومتى غلب الأكبرُ – الفرس – كثر الخوف منه. فتأمَّل هذا المعنى؛ مع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه من ظهور دينه، وشرع الله الَّذي بعثه به، وغلبته على الأمم،

---

[1] أصول الفكر السِّياسيِّ ص 153.
[2] انظر: تفسير الطَّبري (12/21).

وإرادة كفار مكَّة أن يرميه بملكٍ يستأصله، ويريحهم منه»[1].

فابن عطيَّة يرى: أنَّ فرح المؤمنين الأكبر، ليس سببه أنَّ الروم أهل كتاب، أو أن انتصارهم على الفرس سيكون دليلاً ماديّاً على صدق الخبر القرآنيِّ؛ وإنَّما سببه هو أنَّ الله تعالى وظَّف القوَّة الجهازية الرُّومانية لصالح المسلمين الَّذين لم يقم لهم سلطانٌ جهازيٌّ بعد؛ إذ إنَّه بعد أن يسلِّط الروم على الدَّولة الفارسيَّة، فيحطِّموها، ويخضدوا شوكتها سيخرجون من المعارك منتصرين، ولكنَّهم منهكو القوَّة، ممَّا سيمهد طريقاً لنصر المسلمين عليهم، وينفتح للإسلام بذلك طريقٌ للبروز كقوَّة عالميَّةٍ جديدةٍ على أنقاض القوَّتين المندحرتين[2].

11 – أهمِّيَّة الصَّلاة، وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السُّنَّة النَّبويَّة: أنَّ الصَّلاة فُرضت على الأمَّة الإسلاميَّة في ليلة عروجه صلى الله عليه وسلم إلى السَّموات، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناءٌ عظيمٌ بشرف الصَّلاة، وعظمتها»[3]، فعلى الدُّعاة أن يؤكِّدوا على أهمِّية الصَّلاة، والمحافظة عليها، وأن يذكروا فيما يذكرون من أهمِّيتها، ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج، وأنَّها من آخر ما أوصى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قبل موته[4].

12 – سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إن كان قد رأى ربَّه، فقال: «نورٌ أنَّى أراه» [مسلم (178) والترمذي (3278)] .

13 – تحدَّث الرَّسول صلى الله عليه وسلم عن مخاطر الأمراض الاجتماعيَّة، وبيَّن عقوبتها، كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج؛ ومن هذه الأمراض؛ وعقوبتها:

- عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين: رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أناساً يأكلون الجيف، فأخبره جبريل: «هؤلاء الَّذين يأكلون لحوم النَّاس» [أحمد (1/257)] .
- عقوبة أكلة أموال اليتامى: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالاً لهم مشافر – شفاه كبيرةٌ – كمشافر الإبل في أيديهم قطعٌ من نار كالأفهار – أي: الحجارة –

---

[1] تفسير ابن عطيَّة (11/425).
[2] انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص 158. [963]تفسير ابن كثير (3/23).
[3] انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (3/93).
[4] تفسير ابن كثير (4/274).

يقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً. [ابن هشام في السيرة النبوية (47/2)].

- أكلة الرِّبا: أتى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على قومٍ بطونهم كالبيوت، فيها الحيَّات تُرى من خارج بطونهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة الرِّبا [أحمد (353/2) وابن ماجه (2273)] .
- وذكرت الرِّوآيات عقوبة الزُّناة، ومانعي الزَّكاة، وخطباء الفتنة [أحمد (120/3، 180، 231، 239) وعبد بن حميد (1222)] والتَّهاون في الأمانة[1].
- ثواب المجاهدين: في ليلة الإسراء والمعراج، مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على قومٍ يزرعون في يومٍ ويحصدون في يومٍ، كلَّما حصدوا؛ عاد كما كان، فأخبر جبريل: «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنات بسبعمئة ضعفٍ، وما أنفقوا من شيءٍ؛ فهو يُخْلَف». [البزار (55) ومجمع الزوائد (67/1 – 72) والمنذري في الترغيب والترهيب (1129)][2].

14 – إدراك الصَّحابة لأهمِّية المسجد الأقصى: أدرك الصَّحابة رضي الله عنهم، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، وهو يقع أسيراً تحت حكم الرُّومان، فحرَّره في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وظلَّ ينعم بالأمن، والأمان، حتَّى عاث الصَّليبيُّون فساداً فيه بعد خمسة قرون، من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومكثوا ما يعادل قرناً يعيثون فساداً، فحرَّره المسلمون بقيادة صلاح الدِّين الأيوبيِّ، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهوديِّ، فما الطَّريق إلى تخليصه؟[3].

الطَّريق إلى تخليصه: الجهاد في سبيل الله؛ على المنهج الَّذي سار عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.

* * *

---

[1] وكلُّ ما ورد من روايات في هذه العقوبات الَّتي راها النَّبي صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج ، هو حديث مروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو موجودٌ في بعض كتب التفاسير ، وفي سيرة ابن هشام في قصَّة المعراج ، غير أنَّه لم يرد في هذا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يُخرج هذا الحديث في البخاريِّ أو في مسلم ، والله أعلم.

[2] تفسير الطَّبري (7/15) ، والفتح الرباني (257/20).

[3] انظر: الخصائص الكبرى (171/1) والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 220.

الفصل الخامس

الطَّواف على القبائل، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

المبحث الأوَّل

الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة

بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء، والنُّصرة، حتَّى يبلِّغ كلام الله - عزَّ وجلَّ - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرَّك في المواسم التِّجارية، ومواسم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم، ومحدَّدة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب، وتاريخها، وكانا يقصدان «غُرَرَ النَّاس، ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ويعرض دعوته»[1].

يقول المقريزي: «ثمَّ عرض صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل أيَّام المواسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسَّان، وبنو فَزَارة، وبنو مرَّة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً، ويقال: إنَّه صلى الله عليه وسلم بدأ بكندة، فدعاهم إلى الإسلام، ثمَّ أتى كلباً، ثمَّ بني حنيفة، ثمَّ بني عامر، وجعل يقول: «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه، فيمنعني؛ حتَّى أبلغ رسالة ربِّي؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس: لا تسمعوا منه؛ فإنَّه كذاب» [أحمد (492/3، 493) وابن هشام (64/2 - 65)][2] .

وقد تعرَّض صلى الله عليه وسلم للأذى العظيم، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه

---

[1] انظر: الأنساب ، للسَّمعاني (36/1).

[2] إمتاع الأسماع ، للمقريزي (30/1 ، 31).

قال: كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه بالموقف، فيقول: «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي» [أبو داود (4734) والترمذي (2925) وابن ماجه (201) وأحمد (390/3)] وظلَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في تردُّده على القبائل يدعوهم، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ، ويؤذونه، ويقولون: قومه أعلم به، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه[1] وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً، وقبولاً؛ مثل: الصابئ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم: أنَّه رسول، وغير ذلك، ولا شكَّ: أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ويضاعف ألم التَّكذيب، وعدم الاستجابة[2].

ولم يقتصر الأذى على ذلك، بل واجه الرَّسول صلى الله عليه وسلم ما هو أشدُّ، وأقسى، فقد روى البخاريُّ في تاريخه، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك ابن منيب أيضاً، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهليَّة، وهو يقول: «يا أيها النَّاس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، فمنهم من تفلَ في وجهه، ومنهم من حثا عليه التُّراب، ومنهم من سبَّه؛ حتَّى انتصف النَّهار، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ، فغسل وجهه، ويديه، وقال: «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً، ولا ذلَّةً !» فقلت: من هذه ؟ قالوا: زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ. [البخاري في التاريخ الكبير (14/2/4) والطبراني في المعجم الكبير (342/20) ومجمع الزوائد (21/6)][3] .

وقد كان أبو جهل، وأبو لهب – لعنهما الله – يتناوبان على أذيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يدعو في الأسواق، والمواسم، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم[4].

---

[1] انظر: الدُّرر ، لابن عبد البرِّ ، ص 35 ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (185/2).

[2] انظر: المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص 53.

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] انظر: المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص 53.

أولاً: من أساليب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ، والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل:

1 – مقابلة القبائل في اللَّيل:

فكان صلى الله عليه وسلم من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام اللَّيل؛ حتَّى لا يحول بينه وبينهم أحدٌ من المشركين[1]، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدِّعاية المضادَّة؛ الَّتي كانت تتبعها قريشٌ، كلَّما اتَّصل الرَّسول صلى الله عليه وسلم بقبيلةٍ من القبائل، والدَّليل على نجاح هذا الأسلوب المضادِّ، اتِّصال الرَّسول صلى الله عليه وسلم بالأوس، والخزرج ليلاً، وَمِنْ ثمَّ كانت العقبة الأولى، والثَّانية ليلاً[2].

2 – ذهاب الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى القبائل في منازلهم:

فقد أتى كلباً، وبني حنيفة، وبني عامر في منازلهم[3]؛ وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطَّريقة المناسبة، دونما تشويشٍ، أو تشويهٍ من قريش.

3 – اصطحاب الأعوان:

كان أبو بكر، وعليٌّ رضي الله عنهما يرافقان الرَّسول صلى الله عليه وسلم في بعض مفاوضاته، مع بعض القبائل، وربَّما كانت هذه الرُّفقة لأجل ألا يظنَّ المدعوُّون: أنَّه وحيدٌ، ولا أعوان له من أشراف قومه، وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكرٍ رضي الله عنه بأنساب العرب[4]، الأمر الَّذي يساعد الرَّسول صلى الله عليه وسلم في التَّعرُّف على معادن القبائل، فيقع الاختيار على أفضلها؛ لتحمل تَبِعَات الدَّعوة.

4 – التأكُّد من حماية القبيلة:

ومن الجوانب الأمنيَّة المهمَّة، سؤاله صلى الله عليه وسلم عن المنعة، والقوَّة لدى القبائل، قبل أن يوجِّه إليهم الدَّعوة، ويطلب منهم الحماية، فقوَّة، ومنعةُ القبيلة الَّتي تحمي الدَّعوة شيءٌ ضروريٌّ، ومهمٌّ لابدَّ منه؛ لأنَّ هذه القبيلة ستواجه كلَّ قوى الشَّرِّ، والباطل، فلابدَّ أن تكون

---

[1] تاريخ الإسلام ، للنَّجيب ابادي (129/1) ، نقلاً عن الرَّحيق المختوم.

[2] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (44/2، 52)، وفي السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 116.

[3] البداية والنِّهاية ، لابن كثير (140/3).

[4] في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 116.

أهلاً لهذا الدَّور، من حيث الاســـتعداد المعنويّ والمادِّيّ؛ الَّذي يرهب الأعداء، ويحمي حمى الدَّعوة، ويتحمَّل تبعات نشرها، مزيلاً لكلِّ العقبات؛ التي تقف في طريقها[1].

ثانياً: المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرَّســول (ﷺ) أن يُجري مفاوضــاتٍ مع بني عامرٍ، وقامت تلك المفاوضــات على دراسةٍ وتخطيطٍ، فالرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه أبو بكر، كانا يعلمان: أنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةُ العدد، وعزيزةُ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس الَّتي لم يمسَّها سِبَاءٌ[2]، ولم تتبع لملكٍ، ولم تؤدِّ إتاوة، مثلها مثل قريش، وخزاعة[3]، كما أنَّ الرَّســول صــلى الله عليه وســلم كان يعلم: أنَّ هنالك تضــادّاً قديماً بين بني عامرٍ، وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل، فلماذا لا يحاول أيضــاً تطويقها من الخارج، والاســتفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة، فإذا استطاع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يبرم حلفاً مع بني عامر؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر[4].

يذكر أصحاب السِّيرة: أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم لـمَّا أتى بني عامر بـن صعصعـة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفســه، قال له رجلٌ منهم يقال له: بَيْحَرَة بن فِراس: والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثمَّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثمَّ أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمرُ لله يضعه حيث يشاء، فقال لـه: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونَك، فإذا أظهرك الله: كـان الأمر لغيرنا؟! لا حـاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه. [ابن هشــام (66/2) وأبو نعيم في الدلائل (215) والطبري في تاريخه (350/2 – 351) وابن ســعد مختصــراً (216/1)] .

ثالثاً: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: لـمَّا أمر الله – عزَّ وجلَّ – نبيَّه صلى الله عليه وســلم أن يعرض نفســه على قبائل العرب؛ خرج، وأنا معه... إلى أن قال: ثمَّ دفعنا إلى

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 116 ، 117.

[2] لم يمسَّها سِبَاءٌ: لم تُسْبَ نساؤها في الحرب.

[3] انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص 182.

[4] المصدر السابق نفسه.

مجلس آخر، عليه السَّكينة، والوقار، فتقدَّم أبو بكر، فسلَّم، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال: بأبي، وأمي! هؤلاء غُرَر النَّاس، وفيهم مفروقٌ قد غلبهم لساناً وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيْه، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكرٍ، فقال أبو بكر: كيف العَدَدُ فيكم؟ فقال مفروق: إنَّا لنزيد على الألف، ولن تُغلب ألفٌ من قلَّة. فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروقٌ: إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى، وأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسِّلاح على اللِّقاح، والنَّصر من عند الله يديلنا مرَّةً، ويديل علينا أخرى، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم: أنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فها هو ذا. فقال مفروق: إلامَ تدعونا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنِّي عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني، وتنصروني؛ فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحقِ، والله هو الغنيُّ الحميد، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:-151] .

قال مفروق: دعوت والله! إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفِك قومٌ كذَّبوك، وظاهروا عليك، ثمَّ ردَّ الأمر إلى هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ، شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش! وإنِّي أرى تركنا ديننا، واتِّباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أوَّل له، ولا آخر لذلٌّ في الرَّأي، وقلَّةُ نظرٍ في العاقبة؛ إنَّ الزَّلَّة مع العجلة، وإنَّا نكره أن نعقِد على مَنْ وراءنا عقداً، ولكن نرجع، وترجع، وننظر، ثمَّ كأنَّه أحبَّ أن يشركه المثنَّى بن حارثة، فقال: وهذا المثنَّى، شيخنا، وصاحب حربنا، فقال المثنَّى – وأسلم بعد ذلك –: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا، ومتابعتنا

دينك، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صريين؛ أحدهما: اليمامة، والآخر: السَّمامة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذان الصَّريان؟ قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأمَّا ما كان من أنهار كسرى، فذنبٌ صاحبه غير مغفورٍ، وعذره غير مقبولٍ، وإنَّا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى، ألا نحدث حدثاً، ولا نُؤوي مُحدثاً، وإنِّي أرى هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه يا أخا قريش! مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم في الردِّ إذ أفصحتم بالصِّدق، وإنَّ دين الله – عزَّ وجلَّ – لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورِّثكم الله تعالى أرضهم، وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟ فقال النُّعمان بن شريك: اللَّهمَّ فلك ذاك. [أبو نعيم في دلائل النبوة (214)][1] .

رابعاً: فوائد، ودروس، وعبر:

كانت النُّصرة الَّتي طلبها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ذات صفةٍ مخصوصةٍ، وذلك على النَّحو التالي:

1 – طلب الرَّسول صلى الله عليه وسلم للنُّصرة من خارج مكَّة إنَّما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّك الفعَّال لأجلها، وتوفير الاستجابة لها، في جوٍّ من العنف، والضَّغط، والإرهاب.

2 – كان عرض الرَّسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل يطلب منهم النُّصرة، إنَّما هو بأمرٍ من الله – عزَّ وجلَّ – له في ذلك، وليس مجرَّد اجتهادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه، اقتضته الظُّروف؛ الَّتي وصلت إليها الدَّعوة في مكَّة.

3 – حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب النُّصرة في زعماء القبائل، وذوي الشَّرف، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة، وصاحبها.

---

[1] انظر: البداية والنِّهاية (142/3 ، 143 ، 145) ، وفيها زياداتٌ ليست عند الصَّالحي في سُبُل الرَّشاد (596/2 ، 597).

4 – يلاحظ في سيرة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، بخصوص طلب النُّصرة: أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ – كان يطلبُ النُّصـرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب، بعيدةً عن الإساءة إليها، وإلى أتباعها.

ب – كان يطلب النُّصـرة، من أجل أن يتسلَّم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مقاليد الحكم، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمور.

5 – رفض النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصـرتها أيَّة ضماناتٍ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم، والسُّلطان على سبيل الثَّمن، أو المكافأة لما يقدِّمونه من نُصـرةٍ، وتأييدٍ للدَّعوة الإسـلاميَّة؛ وذلك لأنَّ الدَّعوة الإسـلاميَّة إنَّما هي دعوةٌ إلى الله، فالشَّرط الأساسيُّ فيمن يؤمن بها، ويستعدُّ لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه هما الغاية الَّتي يسعى إليها من النُّصـرة والتَّضـحية، وليس طمعاً في نفوذٍ، أو رغبةٍ في سلطانٍ، وذلك لأنَّ الغاية التي يضعها الإنسان للشَّيء هي الَّتي تكيّف نشاط الإنسان في السَّعي إليه، فلابدَّ – إذاً – أن تتجرَّد الغاية المستهدفة من وراء نُصرة الدَّعوة عن أيِّ مصلحةٍ مادِّيَّةٍ لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أيِّ انحرافٍ، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدَّعم لها، وتقديم التَّضـحيات في سبيلها[1]، فيجب على كلِّ من يريد أن يلتزم بالجماعة؛ الَّتي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً، أو عرضاً من أعراض الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الدَّعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والدَّاخل في أمر الدَّعوة إنَّما يريد ابتداءً وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أمَّا إذا كان المنصب هو همَّه الشَّاغل؛ فهذه علامةٌ خطيرةٌ، تنبئ عن دَخَنٍ في نيَّة صاحبها[2]، لذا قال يحيى بن معاذ الرَّازي: «لا يفلح مَنْ شَمَمْتَ منه رائحة الرِّياسة»[3].

6 – ومن صفة النُّصرة؛ الَّتي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النُّصـرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة – والحالة هذه – يُعرِّضها لخطر القضاء عليها، مِنْ قِبَلِ الدُّول الَّتي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والَّتي تجد في الدَّعوة الإسـلاميَّة خطراً عليها،

---

[1] انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة ، لمحمَّد خير هيكل (411/1).

[2] انظر: وقفات تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، ص 72.

[3] انظر: صفة الصَّفوة (94/4).

وتهديداً لمصالحها[1].

إنَّ الحماية المشروطة، أو الجزئية لا تحقِّق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد القبض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليمه، ولن يخوضوا حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد مهاجمة محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات[2].

7 - «إنَّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه»، كان هذا الردُّ من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على المثنَّى بن حارثة حين عرض على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السِّياسة البعيدة؛ يَرَ بُعْدَ النَّظر الإسلاميِّ النَّبويِّ الَّذي لا يُسامى[3].

8 - كان موقف بني شيبان يتَّسم بالأَرْيَحِيَّةِ، والخلق، والرُّجولة، وينمُّ عن تعظيم هذا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية الَّتي يملكونها، وقد بيَّنوا: أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرهه الملوك، وقدَّر الله لشيبانَ بعد عشر سنين، أو تزيد، أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيُّ صاحب حربهم، وبطلهم المغوار، الَّذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه[4]، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس، ولا يفكِّرون في قتالهم؛ بل إنَّهم ردُّوا دعوة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد اقتناعهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الَّذي لم يكونوا يفكِّرون فيه أبداً، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الَّذي رفع الله به المسلمين في الدُّنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخرآه م من النَّعيم الدَّائم، في جنَّات النَّعيم[5].

---

[1] انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة (412/1).

[2] انظر: التحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص 53.

[3] المصدر السابق نفسه ، ص 64.

[4] انظر: التَّربية القياديَّة (20/2).

[5] انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (69/3).

المبحث الثَّاني

مواكب الخير وطلائع النُّور

قال جابر بن عبد الله الأنصاريُّ:

«مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكَّة عشر سنين، يَتَّبَّعُ النَّاس في منازلهم، بعُكاظ، ومجَنَّة، وفي المواسم بمنى، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتَّى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتَّى إنَّ الرجل ليخرج من اليمن، أو مُضَر، فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش؛ لا يفتننَّك! ويمشي بين رجالهم؛ وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتَّى بعَثَنا اللهُ إليه من يثرب، فآويناه، وصدَّقناه، فيخرج الرَّجل منا، فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتَّى لم يبقَ دارٌ من دور الأنصار، إلا وفيها رهطٌ من المسلمين، يُظهرون الإسلام» [أحمد (322/3 – 323، 339 – 340)] .

أوَّلاً: الاتِّصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ، والعمرة:

1 – إسلام سُوَيد بن الصَّامت:

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع بقادمٍ يقدم مكَّة من العرب، له اسمٌ، وشرفٌ، إلا تصدَّى له، ودعاه إلى الله، وعرض عليه ما جاء به من الهدى، والحقِّ، فقدم سُوَيد بن الصَّامت – أخو بني عمرو بن عوف – مكَّة حاجّاً، أو معتمراً، وكان سُوَيد يسمِّيه قومُه فيهم الكامل، لجَلَده، وشِعْره، وشرفه، ونسبه، فتصدَّى له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به، فدعاه إلى الله، وإلى الإسلام، فقال له سُوَيد: فلعلَّ الذي معك مثلُ الَّذي معي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وما الَّذي معك؟» قال:مجلَّة[1] لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها عليَّ» فعرضها عليه، فقال: «إنَّ هذا الكلام حسن، والَّذي معي أفضل من هذا؟ قرآن أنزله الله عليَّ، وهو هدًى ونورٌ»، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن،

[1] المجلة: الصحيفة ، وتطلق على الحكمة ، أي: حكمة لقمان.

ودعاه إلى الإسلام، فلم يَبْعُد منه، وقال: إنَّ هذا القول حسنٌ، ثمَّ انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجالٌ من قومه يقولون: إنَّا لنراه قُتل؛ وهو مسلمٌ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث. [ابن هشام (67/2 – 69) والبيهقي في دلائل النبوة (418/2) والطبري في تاريخه (351/2 – 352)].

وعلى أيَّة حالٍ، لا توجد دلائل على قيام سُوَيد بن الصامت بالدَّعوة إلى الإسلام وسط قومه[1].

2 – إسلام إياس بن معاذ:

لـمَّا قدم أبو الحَيْسَر بن رافع مكَّة، ومعه فتيانٌ من بني عبد الأشْهَل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج؛ سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير ممَّا جئتم له؟» قالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسولُ الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب»، ثمَّ ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ – وكان غلاماً حدثاً-: هذا واللهِ خيرٌ ممَّا جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من ترابٍ، وضرب بها وجهه، وقال: دعنا منك، فلَعَمرِي لقد جئنا لغير هذا! فصمت إياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس، والخزرج، ثمَّ لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روى من حضره من قومه، أنَّه ما زال يهلِّل الله، ويكبِّره، ويحمده، ويسبحه حتَّى مات، فما كانوا يشكُّون: أنَّه مات مسلماً، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع. [ابن هشام (69/2 – 70) وأحمد (427/5) والطبراني في المعجم الكبير (805) والبيهقي في دلائل النبوة (420/2 – 421) والطبري في تاريخه (352/2 – 353) ومجمع الزوائد (36/6) والإصابة (102/1)].

ثانياً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفدٍ من الخزرج في موسم الحجِّ عند عقبة منى، قال لهم رسول الله

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (195/1).

صلى الله عليه وسلم : من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: أَمِنْ موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله – عزَّ وجلَّ – وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. [ابن هشام (70/2 – 71)، وابن سعد (218/1 – 219)، والبيهقي في الدلائل (433/2 – 435)، والطبراني في المعجم الكبير (362/20)، ومجمع الزوائد (40/6 – 42)] .

فلمَّا كلَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أولئك النَّفر، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله: أنَّه للنَّبيُّ الَّذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه، وقَبِلُوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الَّذي أجبناك إليه من هذا الدِّين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعزُّ منك. ثمَّ انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدَّقوا[1]، وكانوا ستَّة نفرٍ، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارةَ، وعوف بن الحارث من بني النَّجار، ورافع بن مالك، وقُطْبة بن عامرٍ، وعُقْبة بن عامرٍ، وجابر بن عبد الله بن رئاب[2]. فلمَّا قدموا المدينة إلى قومهم ؛ ذكروا لهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ودعَوهم إلى الإسلام، حتَّى فشا بينهم، فلم تبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .

فهذا أوَّل موكبٍ من مواكب الخير، لم يكتفِ بالإيمان؛ وإنَّما أخذ العهد على نفسه أن يدعوَ إليه قومه، وقد وفَّ كلٌّ منهم لدينه، ورسوله، فإنَّهم حين رجعوا؛ نشطوا في الدَّعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم، وذويهم، فلم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذكرٌ لمحمَّد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرَّسول صلى الله عليه وسلم على غير موعدٍ، لكنَّه لقاء هيَّأه الله؛ ليكون نبع الخير المتجدِّد الموصول، ونقطة التَّحوُّل الحاسم في التَّاريخ، وساعة الخلاص المحقَّق من عبادة الأحجار؛ بل إنَّها

---

[1] البداية والنِّهاية (148/3 ، 149).
[2] انظر: شرح المواهب ، للزُّرقاني (361/1).
[3] انظر: البداية والنِّهاية (147/3).

على التَّحقيق ســاعة الحســم في مصــير العالم كلِّه، ونقل الحياة من الظُّلمات إلى النُّور، أكان معقولاً في لحظةٍ يســيرةٍ أن يتحوَّل هؤلاء من وثنيِّين متعصِّــبين، إلى أنصــارٍ للدَّعوة متفتِّحين، وجنودٍ للحقِّ مخلصــين، ودعاةٍ إلى الله متجرِّدين، يذهبون إلى أقوامهم، وبين جوانحهم نورٌ وعلى وجوههم نورٌ، وإنَّهم لعلى نورٍ؟! تلك مشيئة القدر العالي، هيَّأت للدَّعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين، والسَّنوات العِجاف الَّتي قضاها الرَّسول صلى الله عليه وسلم نضالاً مستمرّاً، وكفاحاً دائماً، وتطوافاً على القبائل، والتماســاً للحليف، قد ولَّت إلى غير رجعةٍ؛ ســيكون بعد اليوم للإســلام قوَّته الرَّادعة، وجيشــه الباسـل، وسـيلتقي الحقُّ بالباطل؛ ليصـفِّي معه حسـاب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكَّة منذ اليوم مواكب الخير، وطلائع النُّور، الَّتي هيَّأها الله للخير؛ لتتصـل بالهداية، وتسـبح في النُّور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب بما وَعَتْ من خير، وبما حملت من نورٍ[1].

ومن الجدير بالتَّنبيه: أنَّ هذه المقابلة الَّتي حدثت عند العقبة، وتلاقى فيها فريقٌ من الخزرج بالنَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، وأســلموا على يديه، لم تكن فيها بيعةٌ[2]؛ لأنَّها كانت من نفر صـغيرٍ، لم يروا لأنفسـهم الحقَّ في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرُّجوع إلى قبائلهم في المدينة، ولكنَّهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام[2].

ثالثاً: بيعة العقبة الأولى:

بعد عامٍ من المقابلة الأولى؛ الَّتي تمَّت بين الرَّســول صــلى الله عليه وســلم وأهل يثرب عند العقبة، وَافَى الموسـم من الأنصـار اثنا عشـر رجلاً، فلقوه صـلى الله عليه وسـلم بالعقبة، وبايعوه العقبة الأولى، عشـرةٌ من الخزرج، واثنان من الأوس، ممَّا يشـير إلى أنَّ نشــاط وفد الخزرج الَّذين أســلموا في العام الماضــي، تركَّز على وســطهم القبلي بالدَّرجة الأولى؛ لكنَّهم تمكنوا في الوقت

---

[1] انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمَّد سبع، ص 273، 274.

[2] انظر: هجرة الرَّسول صلى الله عليه وسلموصحابته، للجمل، ص 143.

نفسه من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[1].

وقد تحدَّث عبادةُ بن الصَّـامت الخزرجيُّ عن البيعة، في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضـر العقبة الأولى، وكنا اثنيْ عَشَـرَ رجلاً، فبايعْنا رسـولَ الله صـلى الله عليه وسـلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب، على ألاَّ نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، لا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصـيه في معروف، فإن وفَّيتم فلكم الجنَّة، وإن غَشِـيتم من ذلك شـيئاً، فأمركم إلى الله - عزَّ وجلَّ - إن شـاء؛ غفر، وإن شـاء؛ عذَّب» [البخاري (18 و92 و38 و3999) ومسلم (1709)] .

وبنود هذه البيعة، هي الَّتي بايع الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم عليها النِّسـاء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم بيعة النِّساء[2]، وقد بعث الرَّسول صلى الله عليه وسلم مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلِّمهم الدِّين، ويقرئهم القرآن، فكان يُسـمَّى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمُّهم في الصَّلاة، وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علمٍ بشخصيَّته من جهةٍ، وعلمٍ بالوضع القائم في المدينة من جهةٍ أخرى، حيث كان بجانب حفظه لما نزل من القرآن يملك من اللَّباقة، والهدوء، وحسن الخُلُق، والحكمة قدراً كبيراً، فضلاً عن قوَّة إيمانه، وشدَّة حماسه للدِّين، ولذلك تمكَّن خلال أشهرٍ أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسـعد بن معاذ، وأُسَـيْد بن حُضَـيْر، وقد أسـلم بإسـلامهما خلقٌ كثير من قومهم[3].

لقد نجحت سـفارة مصعب بن عمير رضـي الله عنه في شـرح تعاليم الدِّين الجديد، وتعليم القرآن الكريم، وتفسـيره، وتقوية الرَّوابط الأخويَّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحيةٍ، وبين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه بمكَّة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدَّعوة.

---

(1) انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (197/1).

(2) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص 185.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 186، 187.

وقد نزل مصعب بن عمير رضـي الله عنه في يثرب على أسـعد بن زُرارة رضـي الله عنه[1]، ونشـط المسـلمون في الدَّعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدَّعوية الرَّائدة مصـعب رضـي الله عنه، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته، وهذا هو الذي تعلَّمه من أسـتاذه صـلى الله عليه وسلم، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنيَّة المكِّيَّة بصورةٍ عمليَّةٍ حيَّةٍ، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]

رابعاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حضير، سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركَيْن على دين قومهما، فلـمَّا سَمِعَا بمصعب بن عمير، ونشاطـه في الدَّعوة إلى الإسلام؛ قال سعد لأُسَـيْدٍ: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرَّجلين، اللَّذين أتيا دارينا؛ ليُسَـفِّها ضـعفاءنا، فازجرهما، وانهما أن يأتيا دارَينا؛ فإنَّه لولا أسـعد بن زُرارةَ منِّي حيث قد علمت؛ كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أُسَيْد حربته، ثمَّ أقبل عليهما، فلـمَّا رآه أسعد بن زرارة؛ قال: هذا سـيِّد قومه، وقد جاءك؛ فاصـدق الله فيه، قال مصـعب: إن يجلسْ أكلِّمْه، فوقف عليهما مُتشـتِّماً، فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلسُ، فتسمع، فإن رضيت أمراً؛ قبلته، وإنْ كرهته؛ نكفُّ عنك ما تكره؟

قال أُسَـيْد: أنصـفتَ، ثمَّ ركَّز حربته، وجلس إليهما، فكلَّمه مصـعب بالإسـلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا – فيما يُذكر عنهما –: والله! لعرفنا في وجهه الإسـلام قبل أن يتكلَّم في إشـراقه، وتسـهُّله، ثمَّ قال: ما أحسـنَ هذا الكلامَ، وأجْمَلَه! كيف تصـنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة (1/441).

الدِّين؟ قالا له: تغتسل، فتتطهَّر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلِّي، فقام، فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحقِّ، ثمَّ قام فركع ركعتين، ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً، إن اتَّبعْكما؛ لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثمَّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ، وقومه؛ وهم جلوسٌ في ناديهم، فلـمَّا نظر إليه سعد مقبلاً، قال: أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلـمَّا وقف على النَّادي؛ قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟ قال: كلَّمتُ الرَّجلين، فوالله! ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارةَ؛ ليقتلوه؛ وذلك أنَّهم عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ[1].

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوُّفاً لِلَّذي ذكر لـه من أمر بني حارثـة، وأخذ الحربة في يده، ثمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً، ثمَّ خرج إليهما سعد، فوجدهما مطمئنَّيْن، فعرف: أنَّ أسَيْداً إنَّما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتِّماً، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتَ هذا منِّي، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء - والله! - سيِّدُ مَنْ وراءَه مِنْ قومه، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً، ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت، ثمَّ ركَّز الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن. وذكر موسى بن عقبة: أنَّه قرأ عليه أوَّل سورة الزُّخرف، قالا: فعرفنا - والله! - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه، وتسهُّله.

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالا: تغتسل، فتتطَّهر، وتطهِّر ثوبيك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ، ثمَّ ركع ركعتين، ثمَّ أخذ حربته، فأقبل عائداً إلى نادي قومه، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر، فلـمَّا رآه قومه مقبلاً؛ قالوا: نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (442/1).

ذهب به من عندكم، فلـــمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: ســيّدنا، وأفضــلنا رأياً، وأيمُننا نقيبةً! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونســائكم عليَّ حرام؛ حتَّى تؤمنوا بالله، ورسوله! قال: فوالله، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ، ولا امرأة إلا مسلماً، أو مسلمةً.

ورجع أسعد، ومصعب إلى منزل أسعـــــد بن زرارة، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛ حتَّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون، ونساءٌ مسلماتٌ [قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (357/2 – 359) وابن ســـعد (420/3 – 421) والبيهقي في الدلائل (431/2 – 432) والطبراني في الكبير (362/20)] إلا ما كـان من الأُصَيْرِم، وهو عمرو بـن ثابت بـن وقش؛ فإنَّـه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحدٍ، فأسلم؛ واستُشهِـد بأحدٍ، ولم يصلِّ لله سجدةً قطُّ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَّه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إســحاق بإســنادٍ حســنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصـلِّ صــلاةً قطُّ، فإذا لم يعرفه النَّاس، قال: هو أُصَـيْرِم بني عبد الأشــهل» [أحمد (428/5 – 429) ومجمع الزوائد (364/9)][1] .

خامساً: فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ:

1 – اتَّجه التَّخطيط النَّبويُّ للتَّركيز على يثرب بالذَّات، وكان للنَّفر الســتَّة الذين أســلموا، دورٌ كبيرٌ في بث الدَّعوة إلى الإسلام، خلال ذلك العام.

2 – كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة؛ منها:

(أ) مـا طبع الله عليه قبائل الخزرج، والأوس من الرِّقَّة، واللِّين، وعدم المغالاة في الكبرياء، وجحود الحقِّ، وذلك يرجع إلى الخصـائص الدَّمويَّة والسُّلاليَّة؛ الَّتي أشـار إليها رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين وَفَد وَفْدٌ من اليمن، بقوله: «أتاكم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدةً، وألين قلوباً» [البخاري (4388) ومســلم (52)] وهما ترجعان في أصــــليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزَّمن

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (444/1) ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 291.

القديم[1]، فيقول القرآن الكريم مادحاً لهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: 9] .

(ب) التَّشـــاحن، والتَّطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطَّاحنة كيوم بُعاث، وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممَّن كان نظراؤهم في مكَّة، والطائف، وغيرها، حجر عثرة في ســبيل الدَّعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشَّــابَّة الجديدة، المستعدَّة لقبول الحقِّ؛ إضافةً إلى عدم وجود قيادةٍ بارزةٍ معروفةٍ، يتواضع الجميع على التَّسليم لها، وكانوا بحاجةٍ إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظلِّه. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يومُ بُعاثَ أمراً قدَّمه الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ، فَقَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق مَلَؤهم، وقُتِلت سَرَوَاتهم[2] وجُرِّحوا، فقدَّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم الإسلام». [البخاري (3777 و3846 و3930) وأحمد (61/6) والبيهقي في دلائل النبوة (421/2)] .

(ج) مجاورتهم لليهود، ممَّا جعلهم على علمٍ – ولو يسيرٍ – بأمر الرِّسالات السَّماويَّة، وخبر المرسلين السَّابقين، وهم – في مجتمعهم – يعايشون هذه القضيَّة في حياتهم اليوميَّة، وليسوا مثل قريشٍ؛ التي لا يســاكنها أهل كتاب، وإنَّما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرِّقةً عن الرِّسالات، والوحي الإلهيِّ، دون أن تلحَّ عليها هذه المسألــةُ، أو تشغل تفكيرهــا باستمرارٍ، وكان اليهود يهدِّدون الأوس، والخزرج بنبيٍّ قد أظلَّ زمانه، ويزعمون: أنَّهم سيتَّبعونه، ويقتلونهم به قتَل عادٍ، وإرم! مع أنَّ الأوس، والخزرج كانوا أكثر من اليهود[3]، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابــه العزيز. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: 89] .

وكان الأوس، والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهليَّة، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل كتاب،

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص 154.

[2] السَّرَوات: الأشراف.

[3] انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص 183.

فكانوا يقولون: إنَّ نبيّاً قد أظلَّ زمانه، نقتلكم به قتلَ عادٍ وإرم[1].

فلـــمَّا أراد الله إتمام أمره بنصر دينه؛ قيَّض ستَّة نفرٍ من أهل المدينة للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فالتقى بهم عند العقبة – عقبة منى – فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا، وأسلموا، وعرفوا: أنَّه النَّبيُّ الَّذي توعَّدَهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في بيوتها[2]، وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسمِّيه أهل السِّير[3].

3 – حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطوُّر مهمٌّ لمصلحة الإسلام، فبعد الحرب العنيفة في بُعَاث استطاع النَّفر السِّتَّة من الخزرج، أن يتجاوزوا قصَّة الصِّراعات الدَّاخلية، ويُحضروا معهم سبعةً جدداً، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أنَّهم وفوا بالتزاماتهم؛ الَّتي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصَّدع، وتوجيه التَّيَّار لدخول الإسلام في المدينة؛ أوسها، وخزرجها، وتجاوز الصِّراعات القبليَّة القائمة.

4 – كان التَّطُّور الجديد الَّذي أثمرته بيعة العقبة قد بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيّاً للرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ يعلِّم النَّاس القرآن الكريم، ومبادئ الإسلام، واستطاع مصعب بحكمته، وحصافته، وذكائه السِّياسيِّ أن يحقِّق انتصاراتٍ كبيرةً للإسلام[4].

5 – استطاع سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى، ثمَّ بصدق ذلك الدَّاعية وإخلاصه، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعلى ولاة الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب؛ الَّذي يستطيع أن يمثِّل بلاده، ودينه قولاً وعملاً، وخُلُقاً وسلوكاً، فيرى النَّاسُ، ويسمعون من خلاله.

6 – استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيِّئ البيئة الصَّالحة، لانتقال الدَّعوة

---

[1] الدُّر المنثور ، للسُّيوطي (216/1).

[2] انظر: ابن هشام (44/1).

[3] المصدر السابق نفسه ، (39/1 ، 44).

[4] انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص 71.

والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليّاً وسلوكيّاً، والَّتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام[1].

7 - بذل الرَّسول صلى الله عليه وسلم كلَّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسلاميَّة في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصيرٍ للجهد البشريِّ الممكن في بناء القاعدة الصُّلبة، الَّتي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة، والتَّنظيم[2].

8 - نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنَّه قد آن الأوان لقيام الدَّولة الجديدة، وكما يقول جابرٌ رضي الله عنه، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة: «حتَّى متى نترك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يطوف، ويُطرَد في جبال مكَّة، ويُخاف؟!»(2).

9 - وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكَّة قبيل موسم الحجِّ، من العام الثَّالث عشر للبعثة، ونقل الصُّورة الكاملة الَّتي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات، والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس، والخزرج، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة، قادرةٍ على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنعته[3].

10 - كان اللِّقاء الَّذي غيَّر مجرى التَّاريخ، في موسم الحجِّ في السَّنة الثَّالثة عشرة من البعثة؛ حيث حضر لأداء مناسك الحجِّ بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين، من أهل يثرب، فلـمَّا قدموا مكَّة؛ جرت بينهم وبين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم اتصالاتٌ سرِّيَّة، أدَّت إلى اتِّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيَّام التَّشريق في الشِّعْب الَّذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من مِنًى، وأن يتمَّ هذا الاجتماع في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ في ظلام اللَّيل[4].

---

[1] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التَّكوين إلى التَّمكين ، ص 356.

[2] انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص 71.

[3] المصدر السابق نفسه ، ص 72.

[4] انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص 37.

* * *

المبحث الثَّالث

بيعة العقبة الثَّانية

قال جابر بن عبد الله رضـي الله عنهما: «... فقلنا: حتَّى متى نترك رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ؛ يُطْرَد في جبال مكَّة، ويُخاف، فرحل إليه منا سـبعون رجلاً حتَّى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجلٍ، ورجلين؛ حتَّى توافينا فقلنا: يا رسول الله! علام نُبايعك؟

قال: «تبايعوني على السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط، والكسل، والنَّفقة في العسر، واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنَّة».

قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة – وهو من أصغرهم – فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً، وقتلُ خياركم، وأن تعضَّكم السُّيوف، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً؛ فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله! قالوا: أمط عنَّا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً! ولا نَسْلِبها (أي: نتركها)! قال: فقمنا إليه، فبايعناه، فأخذ علينا، وشَرَطَ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[1].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطَّاعة، والنُّصرة، والحرب؛ لذلك سمَّاها عبادة بن الصَّامت بيعة الحرب[2]، أمَّا رواية الصَّحابي كعب بن مالك الأنصاريِّ – وهو أحد المبايعين في العقبة الثَّانية – ففيها تفصيلاتٌ مهمَّةٌ، قال: «خرجنا في حجَّاج قومنا من

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (199/1).

[2] مسند الإمام أحمد (316/5) بإسنادٍ صحيحٍ لغيره.

المشـركين، وقد صـلَّينا، وفقهنا، ثمَّ خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بالعقبة، من أوسـط أيام التَّشـريق، وكنَّا نكتم مَنْ معنا من المشـركين أمرنا، فَنِمْنَا تلك اللَّيلة مع قومنا في رحالنا، حتَّى إذا مضـى ثلثُ اللَّيل؛ خرجنا من رحالنا لميعاد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، نتسَّـلل تسـلُّلَ القَطَا (الحمام) مسـتخفين، حتَّى اجتمعنا في الشِّـعْب عند العقبة، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمروٍ، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتَّى جاءنا، ومعه العبَّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثَّق له، فلـمَّا جلس؛ كان أول متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب؛ فبيَّن أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم في منعةٍ من قومه بني هاشــم، ولكنَّه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكُّد من حماية الأنصــار له، وإلا؛ فَلْيَدَعُوه، فطلب الأنصار أن يتكلَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فيأخذ لنفسه، ولربِّه ما يحبُّ من الشُّروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نســاءكم، وأبناءكم» فأخذ البراء بن مَعْرور بيده، ثمَّ قال: نعم والَّذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[1]، فبايِعْنا يا رســولَ الله! فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحَلَقة (السِّــلاح)، ورثناها كابراً عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التَّــيِّهان متسائلاً: يا رسول الله! إنَّ بيننا وبين القوم حبالاً، وإنَّا قاطعوها (يعني: اليهود)، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتَدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وســلم ، ثمَّ قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم، وأنتم منِّي، أحارب مَنْ حاربتم، وأسالم مَنْ سالمتم».

ثمَّ قال: «أَخْرِجُوا إليَّ منكم اثني عشـر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأَخْرَجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرَّسول صلى الله عليه وسلم منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشَّيطان

---

[1] الأزُر: الثِّياب ، والمقصود النِّساء أو الأنفس ، والمعنى: لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه نساءنا ، وأنفسنا.

يصــرخ منذراً قريشــاً، فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْــلة: والله الَّذي بعثك بالحق! إن شــئتَ؛ لنميلنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا.

فقال رســـول الله صـــلى الله عليه وســـلم : «لم نُؤْمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصَّــباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش، يســألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج، والأوس، بأنَّهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[1]، قال: ثمَّ قام القوم؛ وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميُّ، وعليه نعلانِ جديدانِ، قال: فقلت له كلمةً - كأنِّي أريد أن أشــــرك بها القومَ فيما قالوا - يا أبا جابر! أما تســتطيع أن تتَّخذ، وأنت ســيِّدٌ من ســاداتنا، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريشٍ؟ قال: فسمعهما الحارث، فخلعهما من رجليه، ثمَّ رمى بها إليَّ، وقال: والله لتَنْتَعِلَــنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مَهْ! أَحْفَظْتَ (أي: أغضــــبت) والله الفتى، فارددْ إليه نعليه. قال: قلت: لا والله! لا أردُّهما، فألٌ والله صالح! لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه. [أحمد (460/3 - 462) والحاكم (624/2 - 625) والطبري في تاريخه (360/2 - 362) والبيهقي في سنن الكبرى (9/9)] .

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - «كانت هذه البيعة العظمى بملابســـاتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التَّاريخي، (فتحَ الفتوح)؛ لأنَّها كانت الحلقة الأولى في ســلســلة الفتوحات الإســلاميَّة، الَّتي تتابعت حلقاتها في صورٍ متدرِّجة، مشدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهودٍ ومواثيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصار الله؛ الَّذين كانوا أعرف النَّاس بقدر مواثيقهم، وعهودهم، وكانوا أسمح النَّاس بالوفاء بما عاهدوا الله، ورســوله صــلى الله عليه وســلم عليه؛ من التَّضــــحية، مهما بلغت متطلبَّاتها من الأرواح، والدِّماء، والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحقِّ، ونصرته، وهي في ملابســاتها قوَّةٌ تناضل قوًى هائلةً تقف متألِّبةً عليها، ولم يَغِبْ عن أنصــــار الله قدرها، ووزنها، في ميادين الحروب، والقتال، وهي في آثارها

---

[1] انظر: ابن هشام (61/1) ، بإسنادٍ حسن ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمريّ (201/1)

تشميرٌ ناهضٌ بكلِّ ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتاليِّ في سبيل إعلاء كلمة الله، على كلِّ عالٍ مســـتكبرٍ في الأرض؛ حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله، وهي في واقعها التَّاريخيِّ صــــدقٌ، وعدلٌ، ونصرٌ، واستشهاد، وتبليغٌ لرسالة الإسلام»[1].

2 – إنَّ حقيقة الإيمان، وأثره في تربية النفوس، تظهر آثارها في اســـتعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها، ودماءها في سبيل الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً، ولا منصباً، ولا قيادةً، ولا زعامةً، وهم الَّذين أفنوا عشرات السِّنين من أعمارهم، يتصارعون على الزَّعامة، والقيادة، إنَّه أثر الإيمان بالله، وبحقيقة هذا الدِّين، عندما يتغلغل في النُّفوس[2].

3 – يظهر التَّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمَّت في ظروفٍ غايةٍ في الصُّـعوبـــــة، وكانت تمثِّل تحدِّياً خطيراً، وجريئاً لقوى الشِّرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التَّخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدِّقَّة على النَّحو التَّالي[3]:

أ – سِرِّيَّة الحركة، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتَّى لا ينكشفَ الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيٍّ قوامه نحو خمسمئة ممَّا يجعل حركة هؤلاء السَّبعين صعبةً ، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ، وقد تحدَّد موعد اللِّقاء في ثاني أيام التَّشريق، بعد ثلث اللَّيل، حيث النَّوم قد ضــرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تمَّ تحديد المكان في الشِّـعْب الأيمن، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّومِ لحاجةٍ[4].

ب – الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين، إلى موعد، ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتســلَّلون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج – ضرب السِّرِّيَّة التَّامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العبَّاس بن

---

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (400/2).

[2] انظر: التَّربية القياديَّة (103/2).

[3] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص 61.

[4] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 61.

عبد المطلب، الَّذي جاء مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ليتوثَّق له[1]، وعليُّ بن أبي طالبٍ، الَّذي كان عيناً للمسـلمين على فم الشِّـعب، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّريق – وهو الآخر – عيناً للمسـلمين[2]، أمَّا مَنْ عداهم من المسـلمين، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شـيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّـوت، وألا يطيلوا في الكلام؛ حذراً من وجود عينٍ تسـمع صوتهم، أو تحسُّ حركتهم[3].

د – متابعة الإخفاء والسِّرِّيَّة حين كشف الشَّيطان أمر البيعة، فأمرهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً؛ رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلَّحة؛ التي لم تتهيَّأ لها الظُّروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر؛ موَّه المسـلمون عليهم بالسُّكوت، أو المشاركة بالكلام الَّذي يشغل عن الموضوع[4].

هـ اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ، وهي الليلة الثالثة عَشْرة من ذي الحجَّة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم، أو تعويقهم؛ إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمرٌ متوقَّع، وهذا ما حدث[5].

4 – كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح، والقوَّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي، إنَّه السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط والكسل، والنَّفقة في اليسر، والعسر، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته؛ إذا قدم المدينة[6].

5 – سـرعان ما اسـتجاب قائد الأنصـار – دون تردُّدٍ – البراء بن مَعْرور، قائلاً: والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسـول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 62.
[2] انظر: التَّربية القياديَّة (109/2).
[3] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 62.
[4] المصدر السابق نفسه ، ص 65.
[5] المصدر السابق نفسه ، ص 67.
[6] انظر: التَّحالف السِّياسي ، ص 82.

الحلقة، ورثناها كابراً عن كابرٍ، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقومه أبناء الحرب، والسِّلاح[5]. وممَّا يجدر الإشارة إليه في أمر البراء: أنَّه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه، أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألاَّ أدع هذه البَنِيَّة - يعني: الكعبة - منِّي بِظَهْر، وأن أصلِّي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يصلِّي إلاَّ إلى الشَّام - ببيت المقدس - وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصَّلاة صلُّوا إلى بيت المقدس، وصلَّى هو إلى الكعبة، واستمرُّوا كذلك؛ حتى قدموا مكَّة، وتعرَّفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ مع عمِّه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام، فسأل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم العباسَ رضي الله عنه: «هل تعرف هذين الرَّجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن مَعْرور سيِّد قومه، وهذا كعب بن مالكٍ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : «الشَّاعر؟» قال: نعم. فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟! قال: «قد كنت على قِبْلةٍ لو صبرتَ عليها»[1] قال كعب: فرجع البراء إلى قِبْلةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلَّى معنا إلى الشَّام، فلـمَّا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجِّهوه قبَلَ الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه صلى الله عليه وسلم بشهرٍ، وأوصى بثلث ماله إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقبله، وردَّه على ولده، وهو أوَّل من أوصى بثلث ماله[2].

ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ - الانضباط، والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم صلى الله عليه وسلم ، وأوامره، وإنَّ أيَّ اقتراحٍ مهما كان مصدره، يتعارض مع ذلك يُعَدُّ مرفوضاً، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيِّزها في حياتهم، وهم - بعد - ما زالوا في بداية الطَّريق.

ب - إنَّ السِّيادة لم تعد لأحدٍ غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّ توقير أيِّ إنسانٍ،

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (444/1).

[2] المصدر السابق نفسه (445/1).

واحترامه إنَّما هو انعكاسٌ لسلوكه، والتزامه بأوامر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهليَّةٌ؛ لتحلَّ محلَّها قيمٌ إيمانيَّة، فهي المقاييس الحقَّة؛ الَّتي بها يمكن الحكم على النَّاس تصنيفاً وترتيباً[1].

6 - كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحاً عندما قال للرَّسول صلى الله عليه وسلم : إنَّ بيننا وبين الرِّجال حبالاً، وإنَّا قاطعوها - يعني: اليهود - فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله؛ أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهدمُ الهدمُ، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

وهذا الاعتراض يدلُّنا على الحرِّيَّة العالية؛ الَّتي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبَّر عمَّا في نفسه بكامل حرِّيَّته[2]، وكان جواب سيِّد الخلق صلى الله عليه وسلم عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار، والأنصار جزءاً منه[3].

7 - يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمَّةٌ؛ منها:

أ - أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم لم يعيِّن النُّقباء؛ إنَّما ترك طريق اختيارهم إلى الَّذين بايعوا، فإنَّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمرٌ شوريٌّ، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمارسوا الشُّورى عمليّاً من خلال اختيار نقبائهم.

ب - التَّمثيل النِّسبي في الاختيار، فمن المعلوم أنَّ الذين حضروا البيعة من الخزرج، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج[4].

ج - جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم النقباء مشرفين على سير الدَّعوة في يثرب،

---

(1) انظر: معين السِّيرة النَّبويَّة ، للشَّامي ، ص 135.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (97/3).

(3) انظر: التَّربية القياديَّة (67/2).

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 209.

حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقَّفوه، ومعتنقوه، فأراد الرَّسول صلى الله عليه وسلم أن يشعرهم أنَّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم، وأنَّهم غدوا أهل الإسلام، وحماته، وأنصاره[1].

8 - تأكَّد زعماء مكَّة من حقيقة الصَّفقة، الَّتي تمَّت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذَاخر[2]، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، فأمَّا المنذر، فأعجز القومَ، وأمَّا سعدٌ، فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع[3] رَحْله، ثمَّ أقبلوا به حتَّى أدخلوه مكَّة، يضربونه، ويجذبونه بجُمَّته[4] - وكان ذا شعرٍ كثيرٍ -[5]، واستطاع أن يتخلَّص من قريش، بواسطة الحارث بن حرب بن أميَّة، وجبير بن مُطْعِم؛ لأنَّه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهليَّة، ولم تنقذه سيوف لمسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضةً من ذلك، فهو يعرف: أنَّ المسلمين مطاردون في مكَّة، وعاجزون عن حماية أنفسهم[6]، وقد قيل في هذه الحادثة أوَّل شعرٍ في الهجرة، بيتان قالهما ضرار بن الخطَّاب بن مرداس؛ حيث قال:

تَداركْتُ سَعْداً عَنْوةً فأخَذْتُهُ ... وكانَ شِفاءً لَو تَداركْتُ مُنْذِرا

ولو نِلْتهُ طُلَّتْ[7] هُنَاكَ جِراحُهُ ... وكانَ حرِيًّا أَنْ يُهَانَ ويُهْدَرا

وكان حسَّان بن ثابت بالمرصاد، وردَّ عليه بأبيات من الشِّعر، تناقلتها الرُّكبان:

وَلَسْتُ إِلَى سَعْدٍ ولاَ المرْءُ مِنْذِرٌ ... إِذَا مَا مَطَايا القَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا[8]

فَلاَ تَكُ كالوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ ... بِقَرْيَةِ كِسْرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرَا

---

(1) انظر: دراسات في السِّيرة النَّبوية ، د. عماد الدين خليل ، ص 132.

(2) أذاخر: مكان قريب من مكَّة.

(3) النِّسْع: الشِّراك الَّذي يشدُّ به الرَّحل.

(4) الجمَّة: مجتمع شعر الرأس.

(5) انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (107/3).

(6) انظر: التَّربية القياديَّة (116/2).

(7) أي: أهدرت.

(8) ضُمَّرا: جمع ضامر ، والضامر من الخيل والإبل: هو الخفيف اللَّحم من التَّدريب.

فإنَّا وَمَنْ يَهْدِي القَصَـــائِدَ نَحْوَنَا   كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إِلَى أَرْضِ خَيْبَرا[1]

9 - في قول العبَّاس بن عبادة بن نضلة: «والله الذي بعثك بالحق! إن شئت لَنمِيلنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا»، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه] درسٌ تربويٌّ بليغٌ، وهو: أنَّ الدِّفاع عن الإسلام، والتَّعامل مع أعداء هذا الدِّين، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه؛ وإنَّما هو خضوعٌ لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شُرع الجهاد؛ فإنَّ أمر الإقدام، أو الإحجام متروكٌ لنظر المجتهدين، بعد التَّشاور، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[2]، وكلَّما كانت عبقريَّة التَّخطيط السِّياسيِّ أقوى؛ أدَّت إلى نجاح المهمَّات أكثر، وإخفاء المخطَّطات، وتنفيذها عن العدوِّ، هو الكفيل - بإذن الله - بنجاحها: «ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه][3].

10 - كانت البيعة بالنِّسبة للرِّجال ببسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، وقولهم له: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، وأمَّا بيعة المرأتين اللَّتين شهدتا الوقعة، فكانت قولاً؛ ما صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأةً أجنبيةً قطُّ، فلم يتخلَّف أحدٌ عن بيعته صلى الله عليه وسلم ، حتَّى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأمَّا نُسَيبة بنت كعب (أمُّ عمارة)، فقد سقطت في أُحدٍ، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً، وقد خرجت يوم أحدٍ مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاءٌ تسقي به المسلمين، فلـمَّا انهزم المسلمون؛ انحازت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تباشر القتال، وتذبُّ عنه بالسَّيف، وقد أصيبت بجراحٍ عميقةٍ، وشهدت بيعة الرِّضوان[4]، وقطَّع مسيلمة الكذَّاب ابنها إرباً إرباً، فما وهنت، وما استكانت[5]، وشهدت معركة اليمامة، في حروب الرَّدَّة مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتَّى قطعت يدُها،

---

[1] سيرة ابن هشام (65/2).
[2] انظر: التاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (104/3).
[3] انظر: التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام ، ص 96.
[4] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، دكتورة عصمة الدِّين ، ص 108.
[5] انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص 87.

وجُرحت اثني عَشَــرَ جُرحاً[1]، وأمَّا أسماء بنت عمرو من بني ســلمة، قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[2].

11 – عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصــار في كتب السِّــير والتَّراجم، نجد: أنَّ هؤلاء الثلاثة والسَّبعين، قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وبعده، ونلاحظ: أنَّه قد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة النِّصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرَّسول صلى الله عليه وسلم في جميع غزواته، وأمَّا الَّذين حضروا غزوة بدر، فكانوا قرابة السَّبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربَّه شهيداً، ومنهم من بقي حتَّى ساهم في قيادة الدَّولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجِسَام، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النَّماذج الَّتي تعطي، ولا تأخذ، والَّتي تقدِّم كلَّ شــيءٍ، ولا تطلب شــيئاً إلا الجنَّة، ويتصــاغر التَّاريخ في جميع عصوره، ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرِّجال والنِّساء[3].

* * *

---

[1] ابن هشام (80/2) ، وأسد الغابة (395/5) ، والبداية والنِّهاية (158/3 . 166) ، والإصابة (8/8) رقم 48 ، 49 ، نقلاً عن المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص 108

[2] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص 108.

[3] انظر: التَّربية القياديَّة (140/2).

المبحث الرَّابع

الهجرة إلى المدينة

أولاً: التَّمهيد، والإعداد لها:

إنَّ الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيدٌ، وإعدادٌ، وتخطيط من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى، وتدبيره، وكان هذا الإعداد في اتِّجاهين: إعداد في شخصية المهاجرين، وإعداد في المكان المهاجَرِ إليه.

1 - إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهةً، أو رحلةً يروِّح فيها الإنسان عن نفسه؛ ولكنَّها مغادرةُ الأرض، والأهل، ووشائج القربى، وصلات الصَّداقة والمودَّة، وأسباب الرِّزق، والتَّخلِّي عن كلِّ ذلك من أجل العقيدة، ولهذا احتاجت إلى جهدٍ كبيرٍ، حتَّى وصل المهاجرون إلى قناعةٍ كاملةٍ بهذه الهجرة، ومن تلك الوسائل:

. التَّربية الإيمانيَّة العميقة الَّتي تحدَّثنا عنها في الصَّفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الَّذي أصاب المؤمنين، حتَّى وصلوا إلى قناعةٍ كاملةٍ بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

. تناول القرآن المكِّيّ التَّنويه بالهجرة، ولفت النَّظر إلى أنَّ أرض الله واسعةٌ. قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10] .

ثمَّ تلا ذلك نزولُ سورة الكهف، والَّتي تحدَّثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرَّت صورةٌ من صور الإيمان في نفوس الصَّحابة، وهي ترك الأهل، والوطن من أجل العقيدة.

ثم تلا ذلك آيات صريحةٌ تتحدَّث عن الهجرة في سورة النَّحل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا

فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخرةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 41 – 42] .

وفي أواخر السُّورة يؤكِّد المعنى مرَّةً أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: 110] .

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عمليّاً على ترك الأهل، والوطن[1].

2 – الإعداد في يثرب:

نلاحظ: أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى؛ وإنَّما أخَّر ذلك لأكثر من عامين؛ حتَّى تأكَّد من وجود القاعدة الواسعة نسبيّاً، كما كان في الوقت نفسه يتمُّ إعدادها في أجواء القرآن الكريم، وخاصَّةً بعد انتقال مصعب رضي الله عنه إلى المدينة.

وقد تأكَّد: أنَّ الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم إليهم، كما كانت المناقشات الَّتي جرت في بيعة العقبة الثَّانية، تؤكِّد الحرص الشَّديد من الأنصار على تأكيد البيعة، والاستيثاق للنَّبي صلى الله عليه وسلم بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل مِنًى ممَّن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسيافهم؛ لو أذن الرَّسول الكريم بذلك، ولكنَّه قال لهم: «لم نؤمر بذلك».

وهكذا تمَّ الإعداد لأهل يثرب؛ ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين، وما يترتَّب على ذلك من تَبِعَات[2].

ثانياً: تأمُّلاتٍ في بعض آيات سورة العنكبوت:

تعتبر سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في المرحلة المكِّيَّة، وتحدَّثت السُّورة عن سنَّة الله في

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، لصَالح الشامي ، ص 118.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 120 ، 121.

الدَّعوات، وهي سنُّة الابتلاء، قال تعالى: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۝ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: 1 – 4] .

وفي سورة العنكبوت ثلاثةُ أمورٍ تلفت النَّظر، وهي:

1 – ذِكْرُ كلمة المنافقين، ومن المعلوم: أنَّ النِّفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين؛ حيث يخشى بعضُ النَّاس على مصالحهم، فيظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، ومن المعلوم: أنَّ المجتمع في مكَّةَ كان جاهليّاً، وكانت القوَّة والغلبة لأهل الشِّرك، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السُّورة، في قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: 11]، وهي سورةٌ مكِّيَّةٌ كما قلنا: فهل كانت الآمال قد قويت عند الفئة المؤمنة بحيث تراءى لهم الفرج، والنَّصر قاب قوسين أو أدنى؟ أم أنَّ هذه الآية مدنيَّةٌ وضعت في سورةٍ مكِّيَّةٍ؛ لأنَّ النِّفاق لم يحِنْ وقتُه بعدُ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين؟[(1)].

2 – ورد الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن، وكأنَّه تهيئةٌ للنُّفوس للمرحلة القادمة؛ الَّتي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب فيها احتكاكٌ، فلا يكونون البادئين بالشدَّة، فيأتي التَّنبيه على هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: 46 – 47] .

3 – تهيئة النُّفوس للهجرة في أرض الله الواسعة، وربما كانت المدينة قد بدأت تستقبل

---

(1) انظر في ذلك: صنيع محمَّد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز للاية بـ (م) وهو رمز الايات المدنية ، وما ذكره القرطبيُّ من خلاف العلماء في الاية (323/13).

المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى، ومهما كان الأمر، وأنَّى كان وقت نزول سـورة العنكبوت؛ فإنَّ الإشارة واضحةٌ، والحثَّ على الهجرة - أيضاً - واضحٌ ببيان تكفُّل اللهِ الرِّزق للعباد؛ في أيِّ أرضٍ، وفي أيِّ زمانٍ[1]. قال تعالى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمنوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: 56] .

هذه الآية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الَّذين كانوا بمكَّة على الهجرة؛ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصوابٍ؛ بل الصَّواب أن يُتلمَّس عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها، فهاجروا إلى المدينة؛ فإنَّها واسعةٌ لإظهار التَّوحيد بها[2]، ثمَّ أخبرهم تعالى: أنَّ الرِّزق لا يختصُّ ببقعةٍ معيَّنةٍ؛ بل رزقه تعالى عامٌّ لخلقه حيث كانوا، وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر، وأوسع، وأطيب، فإنَّهم بعد قليل صاروا حكَّام البلاد في سائر الأقطار، والأمصار[3]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: 60] .

كما ذكَّرهم تعالى: أنَّ كلَّ نفسٍ واجدةٌ مرارة الموت، فقال جلَّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 57] .

أي: واجدةٌ مرارته، وكربه، كما يجد الذَّائق طعم المذوق، ومعناه: إنَّكم ميِّتون، فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته؛ لم يكن له بُدٌّ من التزوُّد لها، والاستعداد بجهده[4]، وهذا تشجيعٌ للنَّفس على الهجرة؛ لأنَّ النَّفس إذا تيقَّنت بالموت؛ سهُلَ عليها مفارقةُ وطنها[5].

قال ابن كثير في الآية: أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وحيث أمركم

(1) انظر: معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم ، ص 62 ، 63.
(2) انظر: تفسير القرطبي (5073/6).
(3) انظر: تفسير ابن كثير (360/3).
(4) انظر: الكشاف للزَّمخشري (310/3) ، وتفسير أبي السعود (45/7) ، وتفسير فتح القدير (210/4).
(5) انظر: الأساس في التفسير ، لسعيد حوَّى (4223/8).

الله؛ فهو خيرٌ لكم، فإنَّ الموت لابدَّ منه، ولا محيد عنه، ثمَّ إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له؛ جازاه أفضـــل الجزاء، ووافاه أتمَّ الثَّواب[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الآنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت 58 -59]، أي: صبروا على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابزوا الأعداء، وفارقوا الأهل، والأقرباء؛ ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده، وتصديق موعوده، ولم يتوكَّلوا في جميع ذلك إلا على الله[2].

ثالثاً: طلائع المهاجرين:

لــــمَّا بايعتْ طلائعُ الخير، ومواكبُ النُّور من أهل يثرب النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام، والدِّفاع عنه؛ ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاءً للمسلمين، فأذن النَّبيُّ صلى الله عليه وســـلم للمســـلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصـــود من الهجرة إلى المدينة، إقامة الدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي تحمل الدَّعوة، وتجاهد في سبيلها؛ حتَّى لا تكون فتنةٌ، ويكون الدِّين كلُّه لله[3]، وكان التَّوجيه إلى المدينة من الله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لــــمَّا صدر السَّبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعةً، وقوماً أهل حربٍ، وعدَّةٍ، ونجدةٍ، وجعل البلاء يشتدُّ على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من الخروج، فضيَّقوا على أصحابه، وتعبَّثوا[4] بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتم، والأذى، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنـــوه في الهجرة، فقال: « قـــد أُريت دار هجرتكم، أُريت ســبخةً ذات نخلٍ بين لابتين - وهما الحرَّتان - ولو كانت السَّـــراة أرض نخلٍ، وسباخٍ؛ لقلت: هي، هي» [البخاري (2297) والبيهقي في الدلائل (459/2)] ..

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (359/2).
[2] انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 325.
[3] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 33 ، 34.
[4] عَبثَ عبثاً: لعب ، فهو عابثٌ لاعبٌ لما لا يعنيه ، انظر: لسان العرب (166/2).

ثمَّ مكث أياماً، ثمَّ خرج إلى أصـــحابه مســـروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل القوم يتَّجهون، ويتوافقون، ويتواسـون، ويخرجون، ويخفون ذلك، فكان أوَّلَ من قدم المدينة من أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، أبو سـلمة بن عبد الأسـد، ثمَّ قدم بعده عامر بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة، فهي أوَّل ظعينةٍ قدمت المدينة، ثمَّ قدم أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أرسـالاً، فنزلوا على الأنصـار في دورهم، فآووهم، ونصـروهم، وآسـوهم، وكان سـالم مولى أبي حُذيفة، يؤمُّ المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فلـــمَّا خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كَلِبَتْ[1] قريشٌ عليهم، وحربوا، واغتاظوا على مَنْ خرج من فتيانهم، وكان نفرٌ من الأنصـــار بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعة الآخرة، ثمَّ رجعوا إلى المدينة، فلـــمَّا قدم أوَّل مَنْ هاجر إلى قُباء؛ خرجوا إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بمكَّة، حتَّى قدموا مع أصـحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصـــاريُّون، وهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضـــلة، وزياد بن لبيد، وخرج المســـلمون جميعاً إلى المدينة، فلم يبقَ بمكَّة فيهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر، وعليٌّ، أو مفتونٌ، أو مريضٌ، أو ضعيفٌ عن الخروج. [ابن سعد (325/1)] .

رابعاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسـعها للحيلولة دون خروج من بقي من المســلمين إلى المدينة، واتَّبعت في ذلك عدَّة أساليب؛ منها:

1 - أسلوب التَّفريق بين الرَّجل، وزوجه، وولده:

ونترك أمَّ المؤمنين أمَّ ســـلمة، هند بنت أبي أميَّة تحدِّثنا عن روائع الإيمان، وقوَّة اليقين في هجرتها، وهجرة زوجها أبي سلمة. قالت رضي الله عنها: «لما أَجْمَعَ أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة،

---

[1] كلبت قريش عليهم: أي: غضبت عليهم.

رَحَل لي بعيرَهُ، ثمَّ حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثمَّ خرج بي يقود بعيرَه، فلـمَّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم، حتَّى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرِّق بيني، وبين زوجي، وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كلَّ غداةٍ، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتَّى أُمسي، سنةً، أو قريباً منها؛ حتَّى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي - أحدُ بني المغيرة - فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرِجون هذه المسكينة؛ فرَّقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ بعيري، ثمَّ أخذت ابني، فوضعته في حِجري، ثمَّ خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خَلْق الله.

قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتَّى أقدم على زوجي، حتَّى إذا كنت بالتَّنْعيم، لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدَّار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميَّة؟!

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله! إلا الله، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لكِ من مَتْرك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أرى أنَّه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل؛ أناخ بي، ثمَّ استأخر عنِّي، حتَّى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثمَّ قيَّده في الشَّجرة، ثمَّ تنحَّى عنِّي إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح؛ قام إلى بعيري، فقدَّمه، فرحَّله، ثمَّ استأخر عنِّي، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ، واستويت على بعيري؛ أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتَّى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدَمني المدينة فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادْخُليها على بركة الله، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة.

قال: فكانت تقول: والله! ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة». [ابن هشام (2/112 - 113)][1] .

فهذا مثل على الطُّرق القاسية، الَّتي سلكتها قريشٌ؛ لتحول بين أبي سلمة والهجرة، فرجل يفرِّق بينه وبين زوجه عَنْوَةً، وبينه وبين فلذة كبده على مرأىً منه، كلُّ ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة، ولكنْ متى تمكَّن الإيمان من القلب؛ استحال أن يقدِّم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئاً، حتَّى لو كان ذلك الشَّيء، فلذة كبده، أو شريكة حياته، لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة، لا يلوي على أحدٍ، وفشل معه هذا الأسلوب، وللدُّعاة إلى الله فيه أسوةٌ[2].

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبوية الصحيحة (1/202 ، 203).

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، د. إبراهيم علي محمَّد ، ص 130 ، 131 ، تقسيم الأساليب أخذ من هذا الكتاب ، وأخذت مشاهد العظمة من كتاب (الهجرة النَّبويَّة المباركة).

وهكذا أثَرُ الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرةٌ فُرِّق شملُها، وامرأةٌ تبكي شدَّة مصابها، وطفلٌ خُلعت يده، وحُرِم من أبويه، وزوج، وأبٌ يسجِّل أروع صور التَّضحية، والتَّجرد؛ ليكون أوَّل مهاجرٍ يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصمِّمين على المضيِّ في طريق الإيمان، والانحياز إلى كتيبة الهدى، فماذا عسى أن ينال الكفر، وصناديده من أمثال هؤلاء؟!

وأمَّا صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه، فقد كان يومئذ كافراً «وأسلم قبل الفتح»، ومع ذلك تشهَدُ له أمُّ سلمة رضي الله عنها بكرم الصُّحْبةِ، وذلك شاهد صدقٍ على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضَّعيف[1]، فقد أبت عليه مروءته، وخلقه العربيُّ الأصيل، أن يَدَع امرأةً شريفةً، تسير وحدها في هذهِ الصَّحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنَّها بهجرتها تراغمه، وأمثاله من كفَّار قريش.

فأين من هذه الأخلاق - يا قومي المسلمين! - أخلاق الحضارة في القرن العشرين؛ من سطوٍ على الحرِّيات، واغتصابٍ للأعراض؛ بل وعلى قارعة الطَّريق، وما تطالعنا به الصَّحافة كلَّ يومٍ من أحداثٍ يندى لها جبين الإنسانيَّة؛ مِن تَفَنُّنٍ في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسَّطو على الأموال!.

إنَّ هذه القصة - ولها مُثُلٌ ونظائر - لتشهدُ أنَّ ما كان للعرب من رصيدٍ من الفضائل كان أكثر من مثالبهم، ورذائلهم، فَمِنْ ثمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهلاً لحمل الرِّسالة، وتبليغها للنَّاس كافَّةً[2].

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، فهو - جلَّ وعلا - الَّذي سخَّر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأمِّ سلمة، ولذلك بذل الجهد، والوقت من أجلها[3]، كما تظهر

---

[1] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 124.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسنة ، د. محمَّد أبو شهبة (461/1).

[3] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (128/3).

سلامة فطرة عثمان بن طلحة؛ الَّتي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعلَّ إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرِّحلة في مصاحبته لأمِّ سلمة رضي الله عنها[1].

2 - أسلوب الاختطاف:

لم تكتفِ قيادة قريش بالمسلمين داخل مكَّة بمنعهم من الهجرة، بل تعدَّت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجراً، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين، ولقد نجحت هذه المحاولة، وتمَّ اختطاف أحد المهاجرين من المدينة، وأعيد إلى مكَّة[2]، وهذه الصُّورة التَّاريخيَّة للاختطاف يحدِّثنا بها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، حيث قال: اتَّعدتُّ لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السَّهمي التَّناضِبَ[3] من أضَاة[4] بني غفارٍ، فوق سَرِف[5]، وقلنا: أيُّنا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس، فليمضِ صاحباه.

قال: فأصبحت أنا، وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضِب، وحُبِس عنَّا هشام، وفُتِن، فافتتن[6].

فلـمَّا قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام، إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمِّهما، وأخاهما لأمِّهما، حتَّى قدما علينا المدينة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكَّة، فكلَّماه، وقالا: إنَّ أمَّك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مشطٌ حتَّى تراك، ولا تستظلَّ من شمسٍ حتَّى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: عيَّاش، إنَّه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمَّك القملُ، لامتشطت، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت.

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (204/1).

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة، ص 132.

[3] التناضب: جمع تنضيب، وهو شجر، وهو اسم موضع قريب من مكَّة.

[4] الأضاة: على عشرة أميال من مكَّة.

[5] سرف: وادٍ متوسط الطُّول من أودية مكَّة.

[6] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 129.

قال: أبرُّ قسم أمِّي، ولي هناك مالٌ، فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنِّي لَمِنْ أكثر قريشٍ مالاً، فلك نصـــفُ مالي، ولا تذهب معهما، قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلـــمَّا أبى إلا ذلك، قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذلول[1]، فالزمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ؛ فانجُ عليها، فخرج عليها معهما، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي، والله! لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعْقِبني[2] على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخ، ليتحوَّل عليها، فلما استوَوْا بالأرض، عدوا عليه، فأوثقاه، ثمَّ دخلا به مكَّة، وفتناه، فافتتن[3].

قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممَّن افتتن صَرفاً، ولا عدلاً، ولا توبةً، قوم عرفوا الله، ثمَّ رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلـمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسـلم المدينة؛ أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا، وقولهم لأنفســهم: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـــهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْـلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَـرُونَ ۝ وَاتَّبِعُوا أَحْسَـنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 53 – 55] .

قال عمر بن الخطَّاب رضـي الله عنه: فكتبتها بيدي في صـحيفةٍ، وبعثت بها إلى هشـام بن العاص، قال: فقال هشام: فلـــمَّا أتتني؛ جعلت أقرؤها بذي طوَى[4] أُصَعِّد بها فيه، وأصَوِّبُ، ولا أفهمها، حتَّى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنَّها إنَّما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفســنا، ويُقال: فينا، قال: فرجعت إلى بعيري، فجلســت عليه، فلحقت برسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بالمدينة. [البزار (1746) والبيهقي في الدلائل (461/2–462) ومجمع الزوائد (61/6)][5] .

---

[1] الذلول: أذلَّها العمل ، فصارت سهلة الرُّكوب والانقياد.

[2] تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

[3] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (205/1).

[4] ذو طوى: وادٍ من أودية مكَّة.

[5] الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 131.

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعدَّ عمر رضـي الله عنه خطَّة الهجرة له، ولصـاحبيه عيَّاش بن أبي ربيعة، وهشـام بن العاص بن وائل السَّـهميِّ، وكان ثلاثتهم كلُّ واحدٍ من قبيلةٍ، وكان مكان اللِّقاء الَّذي اتَّعَدوا فيه بعيداً عن مكَّة، وخارج الحرم، على طريق المدينة، ولقد تحدَّد الزمان، والمكان بالضَّـبط؛ بحيث إنَّه إذا تخلف أحدهم؛ فليمضِ صـاحباه، ولا ينتظرانه؛ لأنَّه قد حُبس، وكما توقعوا، فقد حبس هشـام بن العاص رضـي الله عنه، بينما مضـى عمر، وعيَّاش بهجرتهما، ونجحت الخطَّة كاملة، ووصلا المدينة سَالِمَيْنِ[1].

إلا أنَّ قريشـاً صـمَّمت على متابعة المهاجرين، ولذلك أعدَّت خطَّةً محكمةً، قام بتنفيذها أبو جهل، والحارث، وهما أَخَوَا عياش من أمِّه، الأمر الذي جعل عياشـاً يطمئنُّ لهما، وبخاصَّـةٍ إذا كان الأمر يتعلَّق بأمِّه، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة؛ لعلمه بمدى شـفقة ورحمة عيَّاش بأمِّه، والَّذي ظهر جليّاً عندما أظهر موافقته على العودة معهما، كما تُظهر الحادثة الحسَّ الأمني الرَّفيع؛ الَّذي كان يتمتَّع به عمر رضي الله عنه؛ حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[2].

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوَّة التي بناها الإسـلام في هذه النُّفوس؛ فعمر يضـحِّي بنصـف ماله حرصـاً على سـلامة أخيه، وخوفاً عليه من أن يفتنه المشـركون بعد عودته، ولكن غلبت عياشـاً عاطفتُه نحو أمِّه، وبرِّه بها؛ ولذلك قرَّر أن يمضـي لمكَّة فيبرَّ قسـم أمِّه، ويأتي بماله من هناك، وتأبى عليه عفَّته أن يأخذ نصـف مال أخيه عمر رضـي الله عنه، وماله قائم في مكَّة لم يُمسَّ، غير أنَّ أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد، فكأنه يرى رأي العين، المصير المشؤوم، الَّذي سـينزل بعياشٍ لو عاد إلى مكَّة، وحين عجز عن إقناعه؛ أعطاه ناقته الذَّلول النَّجيبة، وحدث لعياش ما توقَّعه عمر من غدر المشركين به[3].

وسـاد في الصـفِّ المسـلم: أنَّ الله تعالى لا يقبل صـرفاً، ولا عدلاً، من هؤلاء الذين فُتِنوا،

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (159/2).
[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص 134.
[3] انظر: التَّربية القياديَّة (160/2).

فافتتنوا، وتعايشوا مع المجتمع الجاهليّ، فنزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وما إن نزلت هذه الآيات، حتَّى سارع الفاروق رضي الله عنه، فبعث بهذه الآية إلى أخَوَيه الحميمين عيَّاش، وهشام؛ ليجدِّدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر .. أيُّ سموٍّ عظيمٍ عند ابن الخطَّاب رضي الله عنه؟! لقد حاول مع أخيه عياش، أعطاه نصف ماله على ألاَّ يغادر المدينة، وأعطاه ناقته ليفرَّ عليها، ومع هذا كلِّه، فلم يشمت بأخيه، ولم يَتَشَفَّ منه لأنَّه خالفه، ورفض نصيحته، وألقى برأيه خلف ظهره؛ إنَّما كان شعور الحبِّ، والوفاء لأخيه هو الَّذي يسيطر عليه، فما إن نزلت الآية، حتَّى سارع ببعثها إلى أخويه في مكَّة، ولكلِّ المستضعفين هناك؛ ليقوموا بمحاولاتٍ جديدةٍ للانضمام إلى المعسكر الإسلاميّ[1].

3 - أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس كأسلوبٍ لمنع الهجرة، فكلُّ من تقبض عليه، وهو يحاول الهجرة كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت مع وضع يديه، ورجليه في القيد، وتفرض عليه رقابةً، وحراسةً مشدَّدةً حتَّى لا يتمكَّن من الهرب، وأحياناً يكون الحبس داخل حائطٍ بدون سقف، كما فُعل مع عيَّاش، وهشام بن العاص رضي الله عنهما، حيث كانا محبوسَيْن في بيتٍ لا سَقف له[2]، وذلك زيادة في التَّعذيب؛ إذ يضاف إلى وحشة الحبس، حرارة الشَّمس، وسط بيئةٍ جبليَّةٍ شديدة الحرارة مثل مكَّة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين؛ أوَّلهما: منع المحبوسين من الهجرة، والآخر: أن يكون هذا الحبس درساً وعِظَةً، لكلِّ مَنْ يحاول الهجرة من أولئك الَّذين يفكِّرون بها ممَّن بقي من المسلمين بمكَّة، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنَّورة، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكَّة؛ مثل عيَّاش، وهشام رضي الله عنهما، ولكنَّهما تمكَّنا من

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (160/2).

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص 132.

الخروج، واستقرّا بالمدينة[1].

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بعد هجرته يقْنُتُ، ويدعو للمستضعفين في مكَّة عامَّةً، ولبعضهم بأسمائهم خاصَّةً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الرَّكعة الأخيرة؛ يقول: «اللَّهم أَنْجِ عيَّاش بن أبي ربيعة، اللَّهمَّ أنج سَلَمَةَ بن هشام، اللَّهم أنج الوليدَ بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللَّهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنينَ كسِنِي يوسفَ» [البخاري (1006) وأحمد (418/2)] .

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عيَّاش؛ فقد ندب الرَّسول صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه، وفعلاً استعدَّ للمهمَّة، ورتَّب لها ما يحقِّق نجاحها، وذهب إلى مكَّة، واستطاع بكلِّ اقتدارٍ، وذكاءٍ، أن يصل إلى البيت الَّذي حُبسا فيه، وفكَّ قيدهما، ورجع بهما إلى المدينة المنوَّرة[2].

4 - أسلوب التَّجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمر بن قاسط، أغارت عليهم الرُّوم، فسُبي وهو صغيرٌ، وأخذ لسان أولئك الَّذين سَبَوْه، ثمَّ تقلَّب في الرِّق، حتَّى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثمَّ أعتقه، ودخل الإسلام هو، وعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما في يومٍ واحدٍ[3].

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه، عملاً تتجلَّى فيه روعة الإيمان، وعظمة التَّجرُّد لله؛ حيث ضحَّى بكلِّ ما يملك في سبيل الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، واللُّحوق بكتيبة التَّوحيد، والإيمان[4]، فعن أبي عثمان النَّهْديِّ - رحمه الله - قال: بلغني: أنَّ صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة، قال له أهل مكَّة: أتيتنا هاهنا صُعْلُوكاً[5]، حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص 135.

[3] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 119.

[4] المصدر السابق نفسه ، ص 120.

[5] الصعلوك: الفقير.

ما بلغتَ، ثمَّ تنطلق بنفسـك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي؛ تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: «ربح صهيبٌ! ربح صهيبٌ!» [المطالب العالية (4063) وابن هشام (121/2)] .

وعن عكرمة - رحمه الله - قال: لمَّا خرج صهيب مهاجراً؛ تبعه أهل مكَّة، فنثل[1] كنانته، فأخرج منها أربعين سهماً، فقال: لا تَصِلُون إليَّ حتى أضع في كلِّ رجلٍ منكم سهماً، ثمَّ أصيرُ بعد إلى السَّيف، فتعلمون أنِّي رجلٌ، وقد خلَّفت بمكَّة قينتين، فهما لكم» [الحاكم (398/3)]، وقال عكرمة: ونزلت على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة: 207].

فلـمَّا رآه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: «أبا يحيى! ربح البيع!» قال: وتلا عليه الآية [الحاكم (398/3)] لكأنِّي[2] بصهيبٍ رضي الله عنه يقدِّم الدَّليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين؛ الَّذين يَزِنُون حركات التَّاريخ، وأحداثَه كلَّها بميزان المادَّة، فأين هي المادَّة الَّتي سوف يكسبها صهيبٌ في هجرته، والَّتي ضحَّى من أجلها بكلِّ ما يملك؟!

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم منصباً يعوِّضه عمَّا فقده ؟! أو هل ترى محمَّداً صلى الله عليه وسلم يُمنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إنَّ صهيباً ما فعل ذلك، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة، إلا ابتغاء مرضاة الله، بالغاً ما بلغ الثَّمن؛ ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التَّضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدَّرب، ويقتفون الأثر[3].

إنَّ هذه المواقف الرائعة، لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشُّموخ في الهجرة المباركة، بل امتلأ هذا الحدث العظيم، بكثيرٍ من مشاهد العظمة والتَّجرُّد والتَّضحية، الَّتي تعطي الأمَّة دروساً

---

[1] نثل: استخرج ما فيها من النَّبل والسِّهام.

[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص 121.

[3] المصدر السابق نفسه ، ص 121.

بليغةً في بناء المجد، وتحصيل العزَّة[1].

خامساً: البيوتات الحاضنة، وأثرها في النُّفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار، ومبايعتهم، وتعهُّدهم بالنُّصرة أن دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرةٌ عظيمةٌ من التَّكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها، وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدَّت لاحتضانهم رجالاً، ونساءً؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضمُّ المهاجر، والأنصاريَّ، والمهاجرة، والأنصاريَّة، يتقاسمون المال، والمكان، والطَّعام والمسؤوليَّة الإسلاميَّة؛ فمن هذه البيوتات الحاضنة:

1 - دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء: ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين، نساءً، ورجالاً، وقد ضمَّت هذه الدُّور، عمر بن الخطاب، ومن لحق به من أهله وقومه، وابنته حفصة، وزوجها، وعيَّاش بن أبي ربيعة.

2 - دار خُبَيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح[2]: نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وأمُّه، وصهيب بن سنان.

3 - دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب.

4 - دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار، وكان يسمَّى: بيت العزاب، ونزل بها العُزَّاب من المهاجرين.

5 - دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقُباء، ونزل بها عُبيدة بن الحارث، وأمُّه سُخيلة، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب، والطُّفيل بن الحارث، وطُليب بن عُمير، والحُصَيْن بن الحارث؛ نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقُباء.

---

[1] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 119.

[2] المرأة في العهد النَّبويِّ، ص 116.

6 – دار بني جَحْجَبَى، والْمُحتَضِـــن هو منذر بن محمَّد بن عُقبة، نزل عنده الزُّبير بن العوَّام، وزوجه أسماء بنت أبي بكر، وأبو سَبْرَة بن أبي رُهْم، وزوجته أمُّ كلثوم بنت سُهيل[1].

7 – دار بني عبد الأشهل، والمحْتَضِن هو سعد بن معاذ بن النُّعمان من بني عبد الأشهل، نزل بها مصعب بن عمير، وزوجته حَمْنة بنت جحش.

8 – دار بني النَّجار، والمحتضـــن هو أوس بن ثابت بن المنذر، نزل بها عثمان بن عفان، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

فهذه المقاسمة، وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ كان من أهمِّ العناصـر الَّتي مهَّدت لإقامة رســول الله صـــلى الله عليه وســـلم وصـــحابته المهاجرين معه، وبعده، إقامةً طيِّبةً، تنبض بالإيثار على النَّفس، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة[3].

بهذه الروح العالية، والإيمان الوثيق، والصِّـــدق في المعاملة تمَّت المؤاخاة، وتمَّ الوفاق بين المهاجرين، والأنصار، وقد يحدث تساؤلٌ، فيقال: لماذا لم نسمع، ولم تسجِّل المصادر، ولم تكتب المراجع: أنَّ خلافاتٍ وقعت في هذه البيوت؟ وأين النِّساءُ وما اشتهرن به من مشاكسات؟

إنَّه الدِّين الحقُّ؛ الَّذي جعل تقوى الله أسـاسـاً لتصرُّف كلِّ نفسٍ، والأخلاق السَّـامية الَّتي فرضـت الأخوة بين المســلمين، ونصـرة الدَّعوة، إنَّها المبايعة، وأثرها في النُّفوس، إنَّه الصِّـدق، والعمل من أجل الجماعة، خوفاً من العقاب، ورهبةً من اليوم الآخر، ورغبةً في الثواب، وطمعاً في الجنة، إنَّه دفء حضانة الإيمان، واستقامة النَّفس والسُّلوك، وصدق الطَّويَّة، فكلُّ مَنْ أسلم، وكلُّ من بايع، وكلُّ من أســلمت، وبايعت، يعملون جميعهم ما يؤمرون به، ويخلصـــون فيما يقولون، يخافون الله في السِّر، والعلن، آمنت نفوسهم فاحتضنت المناصرةُ المهاجرةَ، فالكلُّ يعمل من أجل مصـلحة الكلِّ، فهذا هو التَّكافل الاجتماعيُّ في أجلى صـورةٍ، وأقدس واقعةٍ، رغب

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 117.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة ، لأبي شهبة (468/1 ، 469).

[3] انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص 118.

الكلُّ في الثَّواب؛ حتَّى إنَّ الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كلِّه[1].

إنَّ جانب البذل، والعطاء ظاهرةٌ، نحن بحاجة إلى الإشـارة إليها في كلِّ وقتٍ؛ إنَّنا في عالمنا المعاصـر، وفي الصَّـفِّ الإسـلاميِّ، وفي رحلةٍ لبضـعة أيام تتكشَّـف النُّفوس والعيوب، والحزازات والظُّنون، وهذا مجتمعٌ يبنى؛ ولـمَّا يصلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد، ومع ذلــك تفتح البيوت للوافديــن الجُدُد، ليس على مستوى فــردٍ فقط؛ بل على مستوى جماعيٍّ كذلك، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصـار شـهوراً عدَّةً، والمعايشـة اليوميَّة مسـتمرةٌ، والأنصـار يبذلون المال، والحبَّ، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم، نحن أمام مجتمعٍ إســـلاميٍّ، بلغ الذِّروة في لُحْمَتِهِ، وانصـهاره، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصـار بالبذل، والعطاء، فلم يكونوا أصلاً فقراء؛ بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدَّار، وتركوا ذلك كلَّه ابتغاء مرضـــاة الله، وبذلوه كلَّه لطاعته جلَّ وعلا، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَاناً وَيَنْصُـرُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَـاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 8 - 9] . كان هذا المجتمع المدنيُّ الجديد يتربَّى على معاني الإيمان، والتَّقوى، ولم يصل النَّبيُّ (ﷺ) بعد، ولكن تحت إشـــراف النُّقباء الاثنى عشـــر، الَّذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى، الَّتي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعاً من النَّبع النَّبويِّ الثَّرِّ[2]، واقتبسوا من هديه[3].

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصـــبية؛ فقد كان إمامُ المســـلمين، ســـالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكثرهم قرآناً، فهذا المجتمع الَّذي يوجد فيه عِلْيَةُ أصحاب محمَّد

---

(1) المصدر السَّابق نفسه ، ص 132.

(2) الثَّرّ: الغزير الكثير.

(3) انظر: التَّربية القياديَّة (171/2 ، 172).

صـلى الله عليه وسـلم ؛ من المهاجرين، والأنصـار، وسـادة العرب من قريش، والأوس والخزرج، يقوده ويؤمُّه حامل القرآن، فالكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله، وحامل القرآن في المجتمع الإسلاميِّ هو نفسه حامل اللِّواء في الحرب، فليس بينهما ذلك الانفصام الَّذي نشهده اليوم، بين حملة القرآن من الحفَّاظ، وبين المجاهدين في سبيل الله، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سـالم مولى أبي حذيفة، وكان شـعاره: (بئس حامل القرآن) – يعني: إن فررت –، فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيسـاره، فقطعت، فاعتنقه إلى أن صُـرع، واستُشـهد في سـبيل الله[1].

ومن معالم المجتمع الإسـلاميِّ الجديد حرِّيَّة الدَّعوة إلى الله علانيةً، فقد أصـبح واضـحاً عند الجميع: أنَّ معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدِّين، ونشـط الشَّـباب، والنِّسـاء، والرِّجال في الدَّعوة إلى الله، والتبشـير بقدوم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على قدمٍ وسـاقٍ. ولابدَّ من المقارنة بين المجتمع الَّذي قام بالحبشـة من المسـلمين، وبين المجتمع الإسـلاميِّ في يثرب؛ فلقد كانت الحبشة تحمل طابع اللُّجوء السِّياسيِّ، والجالية الأجنبيَّة أكثر ممَّا كانت تحمل طابع المجتمع الإسلاميِّ الكامل؛ صحيحٌ: أن المسلمين ملكوا حرِّيَّة العبادة هناك؛ لكنَّهم معزولون عن المجتمع النَّصرانيِّ، لم يستطيعوا أن يؤثِّروا فيه التَّأثير المنشود، وإن كانت هجرة الحبشة خطوةً متقدِّمةً على جو مكَّة؛ حيث لا تتوفر حرِّيَّة الدَّعوة، وحرِّيَّة العبادة، ولكنَّه دون المجتمع الإسـلاميِّ في المدينة بكثير، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرَّد سماع خبر هجرة المدينة، بالتوجُّـه نحوها مباشرة، أو عن طريق مكَّة؛ إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك، لقد أصبحت المدينة مسلمةً بعد أن عاشت قروناً وثنيَّةً مشركةً.

لقد أصبح المجتمع المدنيُّ مسلماً، وبدأ نموُّه، وتكوينه الفعليُّ بعد عودة الاثني عشر صحابيّاً من البيعة الأولى، والَّتي كان على رأسها، الصحابيُّ الجليل أسعد بن زُرَارَةَ والَّتي حملت المسؤوليَّة

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (2/174 ، 175).

الدَّعويَّة فقط، دون الوجود السِّياسيّ، وبلغ أوج توسُّعه، وبنائه بعد عودة السَّبعين، الَّذين ملكوا الشَّارع السِّياسيَّ والاجتماعيَّ، وقرَّروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض، وهم على استعدادٍ أن يواجهوا كلَّ عدوٍّ خارجيٍّ، يمكن أن ينال من هذه السِّيادة، حتَّى قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في المدينة.

إنَّ القاعدة الصُّلبة، الَّتي بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاً وجهداً في تربيتها، بدأت تعطي ثمارها أكثر، بعد أن التحمت بالمجتمع المدنيِّ الجديد، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة، وأخوَّة الدين.

لقد أعدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأفراد، وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض[1].

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظَّمة القويَّة إلى المدينة، والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكَّل المجتمع المسلم؛ الَّذي أصبح ينتظر قائده الأعلى صلى الله عليه وسلم ؛ ليعلن ولادة دولة الإسلام، الَّتي صنعت - فيما بعد - حضارةً؛ لم يعرفِ التَّاريخ مثلها حتَّى يومنا هذا.

سادساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة داراً للهجرة، ومركزاً للدَّعوة - عدا ما أراده الله من إكرام أهلها - أسرارٌ لا يعلمها إلا الله؛ إنَّها امتازت بتحصُّن طبيعيٍّ حربيٍّ، لا تزاحمها في ذلك مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرة، فكانت حَرَّة الوَبْرَة، مُطبقةً على المدينة من النَّاحية الغربية، وحَرَّة واقِم مطبقةً على المدينة من النَّاحية الشَّرقيَّة، وكانت المنطقة الشَّمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة - وهي الَّتي حصَّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب - وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة، محاطة بأشجار النَّخيل والزُّروع

---

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (146/1 ، 147).

الكثيفة، لا يمرُّ منها الجيش إلا في طرقٍ ضـــيّقةٍ، لا يتّفق فيها النِّظام العســـكريُّ، وترتيب الصُّفوف.

وكانت خفاراتٌ عسكريَّةٌ صغيرةٌ كافيةٌ لإفساد النِّظام العسكريِّ، ومنعه من التقدُّم، يقول ابن إســحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورةً، وســائر جوانبها مشــكَّكةً بالبنيان، والنَّخيل، لا يتمكَّن العدوُّ منها»[1].

ولعلَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قد أشـار إلى هذه الحكمة الإلهيَّة في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني أُرِيتُ دار هجرتكم، ذات نخيلٍ بين لابتين، وهما الحرَّتان» [سبق تخريجه]، فهاجر مَنْ هاجر قِبَلَ المدينة، ورجع عامَّةُ من كان هاجرَ بأرض الحبشة إلى المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس، والخزرج أصــحاب نخوةٍ، وإباءٍ، وفروســيَّةٍ، وقوَّةٍ، وشــكيمةٍ، ألفوا الحرِّيَّة، ولم يخضـــعوا لأحدٍ، ولم يدفعوا إلى قبيلةٍ، أو حكومةٍ إتاوةً، أو جبايةً. يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيَّان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملَّتهم مَنْ جاورهم من قبائل مُضَر.

وكان بنو عديّ بن النَّجار أخواله صــلى الله عليه وســلم ، فأمُّ عبد المطلب بن هاشــم بن عديٍّ بن النَّجار إحدى نســـائهم، فقد تزوَّج هاشــم بســـلمى بنت عمرو أحد بني عديِّ بن النَّجار، وولدت لهاشــم عبد المطلب، وتركه هاشــم عندها، حتَّى صــار غلاماً دون المراهقة، ثمَّ احتمله عمُّه المطَّلب، فجاء به إلى مكَّة، وكانت الأرحام يحســـب لها حســـابٌ كبيرٌ، في حياة العرب الاجتماعيَّة، ومنهم أبو أيوبٍ الأنصـاريُّ؛ الَّذي نزل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في داره في المدينة.

وكان الأوس، والخزرج من قحطان، والمهاجرون وَمَنْ سبق إلى الإسلام في مكَّة، وما حولها من عدنان، ولـــمَّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقام الأنصـار بنصره؛

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص 157.

اجتمعت بذلك عدنان، وقحطان تحت لواء الإســـلام، وكانوا كجســـدٍ واحدٍ، وكانت بينهما مفاضلةٌ، ومسابقةٌ في الجاهليَّة، وبذلك لم يجد الشَّيطان سبيلاً إلى قلوبهم؛ لإثارة الفتنة، والتَّعزِّي بعزاء الجاهليَّة، باســـم الحميَّة القحطانيَّة، أو العدنانيَّة، فكانت لكلٍّ ذلك مدينة يثرب أصـــلحَ مكانٍ لهجرة الرَّســـول صـــلى الله عليه وســـلم وأصـــحابه، واتِّخاذهم لها داراً، وقراراً، حتَّى يقوى الإسلام، ويشقَّ طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة، ثمَّ يفتح العالم المتمدِّن[1].

سابعاً: من فضائل المدينة:

لقد عظم شرف المدينة المنوَّرة المباركة، بهجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إليها، حتَّى فضلت على سائر بقاع الأرض - حاشا مكَّة المكرَّمة - وفضائلها كثيرةٌ منها:

1 - كثرة أسمائها:

إنَّ كثرة الأسماء تدلُّ على شـرف المسـمَّى، ولا توجد بلدةٌ في الدُّنيا لها من الأسماء، مثل ما للمدينة المنوَّرة، أو نصـفه، أو حتَّى ربعه، وقد بلغ العلماء بأسمائها حوالي مئة اسـمٍ[1]، وقد ذكر هذه الأسماء الزَّركشـي في (إعلام السَّـاجد بأحكام المسـاجد)[2]، والمجد الفيروز ابادي صـاحب (القاموس المحيط)[3]، ونور الدِّين السَّـمهودي في (وفاء الوفا بأخبار دار المصـطفى)، ومحمَّد بن يوسف الصَّالحي في (سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد).

وأشهر هذه الأسماء:

(أ) يثرب: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: 13] .

---

[1] انظر: الأساس في السُّنَّة (333/1).

[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 155 ، وهذا الكتاب هو المرجع الأساسي في فضائل المدينة.

[3] ذكر السَّخاوي له في الضَّوء اللامع (79/1: 86) مؤلفات منها: المغانم.

وقد ورد النَّهي عن تسـميتها بهذا الاسـم، وأمَّا تسـميتها في القرآن «يثرب» فذلك حكاية عن قول المنافقين.

(ب) طابة: فعن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سمَّى المدينة يثرب؛ فليسـتغفر الله؛ فإنَّما هي طابة» وفي روايةٍ: «هي طابة، هي طابة، هي طابة»[1].

(ج) المدينة: وهذا أشهر أسمائها، وهذا الاسم إذا أطلق؛ أريدت به المدينة المنوَّرة دون غيرها من مدن الدُّنيا، وقد جاءت الآيات الكثيرة بهذا الاســم، كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة 101]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120] وقد وصفت المدينة بالمباركة، والمنوَّرة، والمشرَّفة، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة[2].

2 – محبته صلى الله عليه وسلم لها، ودعاؤه برفع الوباء عنها:

دعا النَّبي صــلى الله عليه وســلم ربَّه قائلاً: «اللَّهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكَّة، أو أشدَّ!»[3] وعن أنسٍ رضي الله عنه: «أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفرٍ، فنظر إلى جُدُرات المدينة[4]؛ أوْضَــعَ راحلته[5]، وإن كان على دابةٍ حرَّكها؛ من حُبِّها» [البخاري (1802، 1886)] .

---

[1] أخرجه أحمد (285/4) ، وضعَّفه الشَّوكانيُّ في فتح القدير (268/4).
[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 156.
[3] المصدر السابق نفسه: ص 157.
[4] جُدُرات: جمع جدار ، وهو الحائط.
[5] أوْضَعَ راحلته: حثَّها على السرعة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لـــمَّا قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ وُعِكَ أبو بكر، وبلالٌ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمَّى يقول:

كُـلُّ امْرِئ مُصَـــبَّحٌ في أهْلِـهِ والمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِــرَاكِ نَعْلِـهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته، يقول: .... وقال: «اللَّهمَّ العن شـــيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميَّة بن خلف، كما أخرجونا من أرضـــنا إلى أرض الوباء!» ثمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكَّة، أو أشدَّ! اللَّهمَّ بارك لنا في صاعنا، وفي مُدِّنا، وصحِّحْها لنا، وانقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ!» [البخاري (1889) ومسلم (1376)] .

3 – دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لها بضعفي مافي مكَّة من البركة:

فعن أنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «اللَّهمَّ اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكَّة من البركة!» [البخاري (1885) ومسلم (1369)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النَّاس إذا رأوا أوَّل الثَّمر؛ جاؤوا به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال: «اللَّهمَّ بارك لنا في ثمرنا!، وبارك لنا في مدينتنا! وبارك لنا في صاعنا! وبارك لنا في مُدِّنا! اللَّهمَ إنَّ إبراهيم عبدُك، وخليُلك ونبيُّك وإنِّي عبدك، ونبيُّك، وإنَّه دعاك لمكَّة، وإنِّي أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكَّة، ومثلهِ معه» قال: ثمَّ يدعو أصْغَرَ وليدٍ له، فيعطيه ذلك الثَّمر. [مسلم (1373) والترمذي (3454) والنسائي في عمل اليوم والليلة (302) وابن ماجه (3329) وابن السني (279)] .

4 – عصمتها من الدَّجال والطَّاعون ببركته صلى الله عليه وسلم:

إنَّ الله تعالى قيَّض لها ملائكةً يحرسونها، فلا يستطيع الدَّجال إليها سبيلاً؛ بل يلقي إليها بإخوانه من الكفَّار، والمنافقين، كما أنَّ من لوازم دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالصِّحَّة ورفع الوباء ألاَّ ينزل بها الطَّاعون، كما أخبر بذلك المعصوم صلى الله عليه وسلم . [البخاري (1880) ومسلم

(1379)] [1] .

5 – فضيلة الصَّبر على شدَّتها:

فقد وعد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من صبر على شدَّة المدينة، وضيق عيشها، بالشَّفاعة يوم القيامة[2]، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها مَنْ هو خيرٌ منه، ولا يثبت أحدٌ على لأْوَائِهَا[3] وجَهْدِها، إلا كنتُ له شفيعاً – أو شهيداً – يوم القيامة» [مسلم (1361)] .

6 – فضيلة الموت فيها: فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من استطاع أن يموت بالمدينة؛ فليَمت بها، فإنِّي أشفع لمن يموت بها» [الترمذي (3917) وابن ماجه (3112) وابن حبان (3733) والبيهقي في الشعب (4184)]، وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدُّعاء: «اللَّهم ارزقني شهادةً في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك صلى الله عليه وسلم» [البخاري (1890)] .

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه، فاستُشهد في محراب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يؤمُّ المسلمين في صلاة الفجر.

7 – هي كهف الإيمان، وتنفي الخبث عنها:

الإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد، والأخبات، والأشرار لا مقام لهم فيها، ولا استقرار، ولا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين[4].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الإيمان ليأْرِزُ

---

[1] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 158.
[2] المصدر السابق نفسه ، ص 160.
[3] اللأواء: الشِّدَّة ، وضيق العيش.
[4] انظر: الهجرة النبويَّة المباركة ، ص 161.

إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحيةُ إلى جُحرها»[1] [البخاري (1876) ومسلم (147)]، وقال صلى الله عليه وسلم : «... والّذي نفسي بيده! لا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إنَّ المدينة كالكير، تُخرِج الخبث، لا تقوم السَّاعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد» [مسلم (1381) وأحمد (439/2)] .

8 – تنفي الذُّنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّها – أي: المدينة – طَيْبَةُ تنفي الذُّنوب[2]، كما تنفي النَّار خبث الفضَّة» [البخاري (4589) ومسلم (1384)] .

9 – حفظ الله إيَّاها ممَّن يريدها بسوء:

قد تكفَّل الله بحفظها من كلِّ قاصدٍ إيَّاها بسوءٍ، وتوعَّد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مَنْ أحدث فيها حدثاً، أو آوى فيها مُحدِثاً، أو أخاف أهلها، بلعنة الله، وعذابه، وبالهلاك العاجل[3]، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع[4]، كما ينماع الملحُ في الماء» [البخاري (1822) ومسلم (1387)]، وقال صلى الله عليه وسلم : «المدينة حَرَمٌ، فمن أحدث فيها حَدَثاً[5] أو آوى مُحدثاً[6]؛ فعليه لعنةُ اللهِ، والملائكة، والنَّاس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه يومَ القيامة عَدْلٌ، ولا صَرْفٌ» [مسلم (1371)].

10 – تحريمها:

قد حرَّمها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بوحيٍ من الله، فلا يُراق فيها دمٌ، ولا يُحْمل فيها سلاحٌ، ولا يروَّع فيها أحدٌ، ولا يقطع فيها شجرٌ، ولا تَحِلُّ لُقطتُها إلا لمنشدٍ، وغير ذلك ممَّا

---

[1] يأرز: ينضمُّ ، ويجتمع.
[2] في رواية: (تنفي الخبث) وفي رواية: (تنفي الدَّجال).
[3] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 162.
[4] انماع: ذاب ، وسال.
[5] الحدث: الإثم ، أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروفٍ في السنة.
[6] المحدث: هو مَنْ أتى الحَدث.

يدخل في تحريمها، قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّةَ ودعا لها، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكَّةَ، ودعوتُ لها في مُدِّها، وصَاعها مِثْلَ ما دَعا إبراهيم – عليه السَّلام – لمكَّة» [البخاري (2129) ومسلم (1360)].

وقال صلى الله عليه وسلم : «هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه، اللَّهمَّ! إنَّ إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرَّمت ما بين لابتيها» [البخاري (4084) ومسلم (1362)] يعني: المدينة، وقال صلى الله عليه وسلم : «لا يُخْتلى خلاها[1]، ولا ينفَّر صيدها[2]، ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلا لمن أشادها[3]، ولا يصلح لرجلٍ أن يحمل فيها السِّلاح لقتالٍ، ولا يصلح أن يقطع منها شجرٌ، إلا أن يعلف رجلٌ بعيرَه» [أحمد (119/1)] .

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصَّحابة يتعلَّقُون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمَّعت طاقات الأمَّة فيها، ثمَّ توجَّهت نحو القضاء على الشِّرك بأنواعه، والكفر بأشكاله، وفتحوا مشارق الأرض، ومغاربَها.

* * *

(1) لا يُخْتَلى خَلاَها: لا يُجزُّ ، ولا يقطع الحشيش الرَّطب فيها.

(2) لا ينفَّر صيدُها: لا يُزجر ، ويمنع من الرَّعي.

(3) أشادها: أشاعها ، والإشادة: رفع الصَّوت ، والمراد: تعريف اللقطة.

الفصل السَّادس

هجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه[1]

المبحث الأوَّل

فشل خطَّة المشركين، والتَّرتيب النَّبويُّ الرَّفيع للهجرة

أولاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصَّحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرَّغم من أساليبها الشَّنيعة، والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصاديَّة، وكيانهم الاجتماعيِّ القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار النَّدوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدَّعوة، وقد تحدَّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: 30] .

فقال: تشاورت قريش ليلةً بمكَّة، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (124/2 - 126) وابن سعد (227/1 - 228) والبيهقي في دلائل النبوة (466/2 - 468) وأبو نعيم في دلائله (63 - 64) والطبري في تاريخه (372/2) والهيثمي في مجمع الزوائد (52/6 - 53)][2]، يريدون النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع اللهُ نبيَّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم - تلك اللَّيلة [أحمد (348/10) وعبد الرزاق في المصنف (389/5) والطبري في تاريخه (372/2) ومجمع الزوائد (52/6 - 53)][3]. وخرج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا أصبحوا؛ ثاروا إليه، فلمَّا رأوا عليّاً؛ ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين

---

[1] ينظر الشكل (11) في الصفحة (747).

[2] الوُثُق: الحبال ، والمفرد: وثاق.

[3] انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 135.

صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصُّوا أثره، فلـــمَّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نســـج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينســـج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً[1].

قال سـيِّد قطب – رحمه الله – في تفسـيره للآيات الَّتي تتحدَّث عن مكر المشـركين بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّه التَّذكير بما كان في مكَّة قبل تغيُّر الحال، وتبدلُّ الموقف، وإنَّه ليوحي بالثِّقة واليقين في المسـتقبل، كما ينبِّه إلى تدبير قدر الله، وحكمته فيما يقضـي به ويأمر. ولقد كان المســـلمون الَّذين يخاطَبون بهذا القرآن أوَّل مرَّةٍ يعرفون الحالين معرفة الَّذي عاش، ورأى، وذاق، وكان يكفي أن يذكَّروا بهذا الماضـــي القريب، وما كان فيه من خوفٍ، وقلقٍ في مواجهة الحاضـر الواقع، وما فيه من أمنٍ، وطمأنينة، وما كان من تدبير المشـركين، ومكرهم برسـول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة ما صار إليه من غلبةٍ عليهم، لا مجرَّد النَّجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون؛ ليوثقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحبسوه حتَّى يموت؛ أو ليقتلوه، ويتخلَّصوا منه، أو ليخرجوه من مكَّة منفيّاً مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كلِّه، ثمَّ اختاروا قتله، على أنَّ يتولَّى ذلك المنكر فتيةٌ من القبائل جميعاً؛ ليتفرَّق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشـم عن قتال العرب جميعاً، فيرضوا بالدِّية، وينتهي الأمر.

إنَّها صـورةٌ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾، وهي في الوقت ذاته صـورةٌ مفزعةٌ؛ فأين هؤلاء البشـــر الضِّـــعاف المهازيل، من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبَّار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكلِّ شيءٍ محيط؟!»[2].

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة:

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النَّهار، إمَّا بُكرةً، وإمَّا عشـــيَّةً، حتَّى إذا كان اليوم الَّذي أُذِن فيه لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في الهجرة، والخروج من مكَّة من بين ظهري قومه؛ أتانا

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (181/3) ، وابن حجر في الفتح ، وحسَّن إسناده ، شرح حديث رقم (3905).

(2) انظر: في ظلال القران (1501/3).

رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة[1]، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها، قالت: فلـــمَّا رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السَّاعة إلا لأمرٍ حَدَث.

قالت: فلــمَّا دخل؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أخْرِجْ عنِّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رســـول الله! إنَّما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي، وأمِّي! فقال: «إنَّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضـــي الله عنه: الصُّــحبة يا رسول الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح، حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هـاتين راحلتـان، قـد كنـت أعددتهما لهذا. فاســـتأْجَرَا عبد الله بن أريقط – رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً – يدلُّهما على الطَّريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. [ابن هشام (2/128 – 129)][2] .

وروى البخاريُّ عن عائشــة رضـــي الله عنها في حديثٍ طويل، وفيه: «... قالت عائشــة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر، في نحر الظَّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رســـول الله صلى الله عليه وسلم متقنِّعاً[3]؛ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمِّي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ رضـــي الله عنه: «أخْرِجْ من عندك»، فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلك. قال: «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخروج»، فقال أبو بكـر: الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نعم»، قال أبو بكر رضـــي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رســـول الله! إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «بالثَّمن»، قالت عائشــة رضـــي الله عنها: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز (من الحثِّ وهو الإســراع)، وصــنعنا لهم سُـفرةً في جِرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سمِّيت ذات النطاقين، ثمَّ لحق رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكمنا[4] فيه ثلاث ليالٍ،

[1] الهاجرة: هي نصف النَّهار عند اشتداد الحرِّ.
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير (2/233 . 234).
[3] متقنعاً: مغطِّياً رأسه.
[4] كمنا فيه: أي استترا ، واستخفيا ، ومنه الكمين في الحرب ، النِّهاية (4/201).

يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ رضـــي الله عنهما، وهو غلامٌ، شـــابٌّ، ثَقِفٌ[1]، لَقِنٌ[2]، فيُدلِجُ[3] من عندهما بسَـحَرٍ، فيصبح مع قريشٍ بمكَّة كبائتٍ، فلا يسـمع أمراً يُكتادانِ[4] به إلا وَعَاهُ، حتَّى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظَّلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَم، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء، فيبتان في رِسْلٍ – وهو لَبَنُ مِنْحتِهِما ورَضِــيفهما[5] – حتى ينعق[6] بها عامر بن فهيرة بَغَلسٍ[7]يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيْل، وهو من بني عبد بن عديٍّ – هادياً خِرّيتاً – والخرِّيت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً[8] في ال العاص بن وائل السَّـــهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمِناهُ، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُــبْحَ ثلاثٍ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدَّليل، فأخذ بهم طريق السَّـــواحل» [البخاري (3905)، وأحمد (198/6 – 199)، والبيهقي في دلائل النبوة (473/2 – 475)، وعبد الرزاق في المصنف (388/5)، والطبري في تاريخه (375/2 – 378)] .

ثالثاً: خروج الرَّسول صلى الله عليه وسلم ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالبٍ، وأبو بكر الصِّدِّيق، وآل أبي بكرٍ.

أمَّا عليٌّ رضي الله عنه، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلَّف؛ حتَّى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع؛ الَّتي كانت عنده للنَّاس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بمكَّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه، وأمانته[9]، وكان الميعاد بين الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكرٍ رضي الله عنه، فخرجا من

---

[1] ثقف: ذو فطنةٍ ، وذكاء ، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، النِّهاية (216/1).
[2] لقن: فَهِم ، حسن التَّلقِّي لما يسمعه ، النِّهاية (266/4).
[3] يدلج: أدلج إذا سار أوَّل الليل ، وادَّلج ـ بالتشديد ـ: إذا سار اخره.
[4] يُكتادان: أي: يُطلب لهما فيه المكروه ، وهو من الكيد.
[5] الرَّضيف: اللَّبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّمس ، أو النَّار ، لينعقد وتزول رخاوته.
[6] ينعق: نعق بغنمه ، أي: صاح بها ، وزجرها ، القاموس المحيط (295/3).
[7] الغلس: ظلمة اخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح ، النِّهاية (377/3).
[8] غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم ، وحلفهم يأمن به.
[9] السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (234/2).

خوخة[1]، لأبي بكر في ظَهْرِ بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء؛ حتَّى لا تتبعهما قريشٌ، وتمنعهما من تلك الرِّحلة المباركة، وقد اتَّعَدا مع اللَّيل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط، في غار ثور، بعد ثلاث ليالٍ[2].

رابعاً: دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكَّة:

وقد دعا النَّبي صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكَّة إلى المدينة قائلاً:

«الحمد لله الَّذي خلقني ولم أَكُ شيئاً! اللَّهمَّ أعنِّي على هول الدُّنيا، وبوائق الدَّهر، ومصائب اللَّيالي والأيام! اللَّهمَّ اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذَلِّلني، وعلى خلقي فقوِّمني، وإليك رب فحبِّبني، وإلى النَّاس فلا تكلْني! ربَّ المستضعفين! وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الَّذي أشرقت له السَّموات، والأرض، وكُشِفت به الظُّلمات، وصلُح عليه أمر الأوَّلين، والآخرين أن تحلَّ عليَّ غضبك، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك، وَفُجَاءَة نقمتك، وتحوُّل عافيتك، وجميع سخطك، لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت، لا حول، ولا قوَّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (9234)][3] .

ووقف الرَّسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكَّة، وقال: «والله إنَّكِ لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منكِ ما خَرَجْتُ» [الترمذي (3925) وأحمد (305/4) وابن ماجه (3108)] .

ثمَّ انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه، وقد حفظهما الله من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أنَّ المشركين اقتصُّوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا بلغوا الجبل - جبل ثور - اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت؛ فقالوا: لو دخل هاهنا، لم يكن نسج العنكبوت على بابه» [أحمد (348/1)]، وهذه من جنود الله - عزَّ وجلَّ - التَّي يخذل بها الباطل، وينصر بها الحق؛ لأنَّ

---

[1] الهجرة في القران الكريم ، ص 334.

[2] خاتم النَّبيِّين ، لأبي زهرة (659/1) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (234/2).

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (230/2 . 234).

جنود الله – جلّت قدرته – أعمُّ من أن تكون مادِّيَّةً، أو معنويةً، وإذا كانت مادِّيَّة؛ فإنَّ خطرها لا يتمثَّل في ضـــــخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيشٍ ذي لَجَبٍ[1]. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: 31] . أي: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فجنود الله غير متناهيةٍ، لأنَّ مقدوراته غير متناهيةٍ[2]، كما أنَّه لا ســـبيل لأحدٍ إلى حصر الممكنات، والوقوف على حقائقها، وصفاتها، ولو إجمالاً، فضلاً عن الاطِّلاع على تفاصيل أحوالها من كمٍّ، وكَيْفٍ، ونسبةٍ[3].

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم:

بالرَّغم من كلِّ الأسباب الَّتي اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنَّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنَّما كان كاملَ الثِّقة في الله، عظيم الرَّجاء في نصره، وتأييده، دائم الدُّعاء بالصِّيغة الَّتي علَّمه الله إيَّاها[4]. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 80] .

وفي هذه الآية الكريمة، «دعاء يعلِّمه الله لنبيِّه ليدعوه به، ولتتعلَّم أمَّته كيف تدعو الله، وكيف تتَّجه إليه؟ دعاء بصدق المدْخَل، وصدق المخْرَج، كنايةً عن صدق الرِّحلة كلِّها؛ بدئها، وختامها، أوَّلها، وآخرها، وما بين الأوَّل والآخر، وللصِّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره، وللصـــدق كذلك ظلاله: ظلال الثَّبات، والاطمئنان والنَّظافة، والإخلاص.

﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا ﴾، وهيبةً أستعلي بهما على سلطان الأرض، وقوَّة المشركين، وكلمة تصوِّر ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾، والاتِّصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرةً، واللُّجوء إلى حماه.

وصاحب الدَّعوة لا يمكن أن يستمدَّ السُّلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان

---

[1] لَجِبَ القَوْمُ لَجَباً: صاحوا وأجلبوا ، والبحرُ: اضطرب موجه ، فهو لَجِبٌ.
[2] انظر: تفسير الرَّازي (208/30).
[3] انظر: تفسير أبي السُّعود (60/9).
[4] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 72.

الله، ولا يمكن أن يستظلَّ بحاكمٍ، أو ذي جاهٍ، فينصره، ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله، والدَّعوة قد تغزو قلوب ذوي السُّلطان، والجاه، فيصبحون لها جنداً، وخدماً، فيفلحون، ولكنَّها هي لا تفلح إن كانت من جند السُّلطان، وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السُّلطان، والجاه»[1].

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأيَ العين؛ طمأن الرَّسول صلى الله عليه وسلم الصِّدِّيق بمعيَّة الله لهما، فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: قلت للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه؛ لأبصرنا، فقال صلى الله عليه وسلم : «ما ظنُّك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثُهما؟» [البخاري (3653) ومسلم (2381)]. وفي روايةٍ: «اسكت يا أبا بكر! اثنان الله ثالثهما» [البخاري (3922)] .

وسجّل الحقُّ - عزَّ وجلَّ - ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40] .

وقد تحدَّث الطَّبريُّ في تفسيره عن هذه الآية الكريمة، فقال: هذا إعلامٌ من الله لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم : أنَّه المتكفِّل بنصر رسوله على أعداء دينه، وإظهاره عليهم دونهم؛ أعانوه، أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم بفعل ذلك به، وهو من العدد في قلَّةٍ، والعدوُّ في كثرةٍ، فكيف به؛ وهو من العدد في كثرةٍ؛ والعدوُّ في قلَّة؟! يقول لهم جلَّ ثناؤه: إلا تنفروا - أيُّها المؤمنون - مع رسولي؛ إذا استنصركم فتنصروه؛ فالله ناصره، بالله من قريش، من وطنه، وداره يقول: أخرجوه وهو أحد ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، وإنَّما عنى جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ الله (ﷺ) ، وأبا بكرٍ رضي الله عنه؛ لأنَّهما كانا اللَّذين خرجا هاربين من قريش؛ إذ همُّوا بقتل رسول الله (ﷺ) ، واختفيا في الغار، وقوله: (إذ هما في الغار) يقول: إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه في الغار[2]﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ يقول: إذ يقول الرَّسول لصاحبه أبي بكر: لا تحزن؛ وذلك: أنَّه خاف من الطَّلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من

---

[1] في ظلال القران (2247/4).

[2] الغار: الثقب العظيم يكون في الجبل ، وقيل: شبه البيت في الجبل.

ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحزن؛ لأنَّ الله معنا، والله ناصرنا، فلن يعلم المشـــركون بنا، ولن يصـــلوا إلينا، يقول جلَّ ثناؤه: فقد نصـــره على عدوِّه وهو بهذه الحال من الخوف، وقلَّة العدد، فكيف يخذله، ويحوجه إليكم وقد كثَّر الله من أنصـاره وعدد جنوده. [الطبري في تفسيره (10/135 – 136)] .

وقد تحدَّث الدكتور عبد الكريم زيدان، عن المعيَّة في هذه الآية الكريمة، فقال: «وهذه المعيَّة الرَّبانية المســتفادة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، أعلى من معيَّته للمتَّقين، والمحســنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِــنُونَ ﴾ [النحل: 128] ؛ لأنَّ المعيَّة هنا هي لذات الرَّسـول، وذات صـاحبه، غير مقيَّدةٍ بوصـفٍ هو عملٌ لهما، كوصـف التَّقوى، والإحسـان؛ بل هي خاصَّةٌ برسوله، وصاحبه، مكفولةٌ هذه المعيَّة بالتأييد بالآيات، وخوارق العادات»[1].

وتحدَّث صاحب الظِّلال عن هذه الآيات، فقال: «ذلك حين ضاقت قريش بمحمدٍ ذرعاً، كما تضـيق القوَّة الغاشمة دائماً بكلمة الحقِّ، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صـبراً، فائتمرت به، وقرَّرت أن تتخلَّص منه، فأطلعه الله على ما ائتمرت به، وأوحى إليه بالخروج وحيداً، إلا من صـــاحبه الصِّـــدِّيق، لا جيش، ولا عدَّة، وأعداؤه كُثُرٌ، وقوَّتهم إلى قوته ظاهرةٌ، ثمَّ ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلُّها من جانبٍ، والرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم مع صـاحبه منها مجرَّد؟ كان النَّصـر المؤزَّر من عند الله بجنود لم يرها النَّاس، وكانت الهزيمة لِلَّذين كفروا والذُّلُّ والصَّـغار، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾، وظلَّت كلمة الله في مكانها العالي منتصرةً قويَّةً نافذةً.

ذلك مثلٌ على نصــــرة الله لرســـوله، ولكلمته، والله قادرٌ على أن يعيده على أيدي قومٍ آخرين؛ غير الَّذين يتثاقلون ويتباطؤون وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجةٍ بعد قول الله إلى دليلٍ!»[2].

سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الغار خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطَّلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله

[1] المستفاد من قصص القران (2/100).

[2] انظر: في ظلال القران (3/1656).

صـــلى الله عليه وســـلم ، وقد قلنا: إنَّ رســـول الله (ﷺ) وأبا بكر، قد اســـتأجرا رجلاً من بني الدِّيْل، يُسمَّى عبد الله ابن أريقط، وكان مشركاً، وقد أمِنَاهُ، فدَفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدَّد، وســـلك بهما طريقاً غير معهودةٍ؛ ليخفي أمرهما عمَّن يلحق بهم من كفار قريش[1].

وفي الطريق إلى المدينة، مرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بأمِّ مَعْبَد[2] في قُدَيْد[3] حيث مساكن خزاعة، وهي أخت خُنَيْس بن خالدٍ الخزاعيّ؛ الَّذي روى قصَّـــتها، وهي قصَّـــةٌ تناقلها الرُّواة، وأصـــحاب السِّـــير، وقال عنها ابن كثير: «وقصَّـــتها مشـــهورةٌ مرويَّةٌ من طرقٍ يشـــدُّ بعضـــها بعضـــاً»[4]، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعيّ رضـي الله عنه، صـاحب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكَّة، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة، هو وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكرٍ عامر بن فهيرة رضـي الله عنه، ودليلهما اللَّيثي عبد الله بن أريقط، مرُّوا على خيمة أمِّ معبد الخزاعيَّة، وكانت بَرْزَة[5]، جَلْدَة[6]، تحتبي[7] بفناء القبَّة، ثمَّ تسقي وتطعم، فسألوها لحماً، وتمراً؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْمِلين[8] مُسْنِتين[9]، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاةٍ في كَسْر الخيمة[10]، فقال: «ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبد؟!» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم، قال: «فهل بها من لبنٍ؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمِّي! نعم إن رأيت بها حَلْباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ، ودعا لها

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القران (101/2).

(2) هي عاتكة بنت كعب الخزاعيَّة.

(3) وادي قُدَيْد: موضع قرب مكَّة ، يبعد عن الطَّريق المعبَّدة حوالي ثمانية كيلو مترات.

(4) البداية والنهاية (188/3).

(5) برزة: كهلةٌ ، كبيرة السن ، لا تحتجب احتجاب الشَّوَابِّ.

(6) جَلْدَة: قوِّيةً صلبة ، وقيل: عاقلة.

(7) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ، على ركبتيها ، وتلك جلسة الأعراب.

(8) مرملين: نفد زادهم.

(9) مسنتين: أي: داخلين في سَنَةٍ ، وهي الجدب ، والمجاعة ، والقحط.

(10) كسر الخيمة . بفتح الكاف وكسرها ، وسكون المهملة . أي: جانبها.

في شـــاتها، فتفاجَّت[1]عليه، ودَرَّت[2]، واجترَّت[3] ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ[4] الرَّهط، فحلب فيها ثجّاً[5]؛ حتَّى علاه البهاء[6]، ثمَّ سقاها حتَّى رَوِيت، وسقى أصحابه؛ حتَّى رَوَوْا، وشرب آخرهم صـلى الله عليه وسـلم ، ثمَّ أراضـوا[7]، ثمَّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ؛ حتَّى ملأ الإناء، ثمَّ غادره عندها، ثمَّ بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلَّما لبثت حتَّى جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزاً عجافاً[8]، يتساوَكن هُزلاً[9] ضـحىً، مخُّهنَّ قليلٌ، فلمَّا رأى أبو معبد اللبن؛ عجب، وقال: من أين لك هذا اللَّبن يا أمَّ معبد! والشَّاة عازبٌ حِيال[10]، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنَّه مرَّ بنا رجلٌ مبارك، من حاله كذا، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[11]، أَبْلَج الوجه[12]، حسنُ الخَلْقِ، لم تَعِبْه نُجْلَة[13]، ولم تُزْر به صَعْلَةٌ[14]، وسيمٌ[15]، في عينيه دَعَجٌ[16]، وفي أشفاره وَطَفٌ[17]، وفي صوته صَهَلٌ[18]، وفي عنقه سَطَع[19]، وفي لحيته كثاثةٌ، أزجُّ[20]، أقرن[21]، إن صمت؛ فعليه الوقار، وإن تكلَّم سما[22] وعلاه البهاء، أجمل النَّاس، وأبهاهم من بعيدٍ، وأحلاهم

---

[1] تفاجَّت: فتحت ما بين رجليها للحلب.

[2] دَرَّت: أرسلت اللَّبن.

[3] واجترَّت: من الجرَّة ، وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.

[4] يربض: يرويهم حتَّى يثقلوا ، فيربضوا ، أي: يقعوا على الأرض للنَّوم والرَّاحة.

[5] ثجَّاً: السَّيلان ، ومعنى ثجَّاً: لبناً كثيراً سائلاً.

[6] علاه البهاء: أي: علا الإناء بهاء اللَّبن.

[7] أراضوا: أي: رَوَوا ، فنقعوا بالرَّي ، يريد شربوا مرَّة بعد مرَّةٍ حتى رَوَوْا.

[8] عجافاً: ضد السَّمن ، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.

[9] يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضَّعف.

[10] عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في اللَّيل ، حيال: لم تحمل.

[11] ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.

[12] أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.

[13] نُجلة: من النُّحول ، والدقَّة ، والضُّمور ، أي: أنَّه ليس نحيلاً.

[14] صَعْلة: صغر الرأس ، وهي تعني الدقَّة والنُّحول في البدن.

[15] وسيم: الوسيم المشهور بالحسن ، كأنَّ الحسن صار له سمةً.

[16] دَعَج: شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها.

[17] في أشفاره وَطَفٌ: في شعر أجفانه طول.

[18] صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حادَّ الصوت.

[19] سطع: طول العنق.

[20] أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.

[21] أقرن: متصل ما بين الحاجبين من الشَّعر ، أو مقرون الحاجبين.

[22] سما: علا برأسه ، أو بيده وارتفع.

وأحسنهم من قريبٍ، حُلْوُ المنطق، فَصْلٌ، لا هذر، ولا نزر[1] كأنَّ منطقه خرزات نظمٍ يتحدَّرن، رَبْعٌ[2]، لابأس من طولٍ[3]، ولا تقتحمه العين من قصرٍ[4]، غُصْنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثَّلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به؛ إن قال؛ استمعوا لقوله، وإن أمر؛ تبادروا إلى أمره، مَحْفُودٌ[5]، محشودٌ[6]، لا عابسٌ، ولا مُفنَّدٌ[7].

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش؛ الَّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكَّة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

فأصبح صوتٌ بمكَّة عالياً، يسمعون الصوت، ولا يدرون مَنْ صاحبه، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جزائهِ ... رَفِيْقَيْنِ قالا[8] خَيْمَتَيْ أمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بالبِرِّ ثُمَّ تروَّحا ... فَقَدْ فازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيْقَ مُحَمَّدِ
فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَى الله عَنْكُمُ ... بهِ مِنْ فِعَالٍ لا تُجَارَى وسُؤدُدِ[9]
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ ... ومَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمنين بِمَرْصَدِ
سَلُوا أختَكمْ عنْ شاتِهَا وإنائِهَا ... فإنَّكُمْ إنْ تَسْألُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائلٍ[10] فَتحَلَّبتْ ... عَلَيْهِ صَرِيْحاً ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[11]
فغَادَرَهَا رَهْناً لَدَيْهَا لِحَالِبٍ ... يُرَدِّدُهَا في مَصْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

[حديث أم معبد: رواه الطبراني في الكبير (3605) وفي الأحاديث الطوال (30) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (6/56–57) عن حبيش بن خالد][12].

---

[1] لا هذر، ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه، والنَّزر: القليل، والمعنى: وسط، لا قليل، ولا كثير.
[2] رَبْع: ليس بالقصير، ولا بالطويل.
[3] لابأس من طول: لا يجاوز الناس طولاً.
[4] لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه، ولا تحتقره.
[5] محفود: مخدوم.
[6] محشود: يجتمع الناس حواليه.
[7] لا عابس ولا مفنَّد: ليس عابس الوجه، ولا مفنَّد: ليس منسوباً إلى الجهل، وقلَّة العقل.
[8] قالا: نزلا في وقت القيلولة على الخيمتين.
[9] وسؤدد: من السِّيادة.
[10] حائل: غير حامل.
[11] مزبد: الصريح ومعناها الخالص، والضرة: لحم الضرع.
[12] انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص 107.

سابعاً: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أعلنت قريش في نوادي مكَّة: أنَّه من يأتِ بالنَّبيّ (ﷺ) ، حيَّاً، أو ميتاً، فله مئة ناقةٍ، وانتشـــر هذا الخبر عند قبائل الأعراب، الَّذين في ضــواحي مكَّة، وطمع ســراقة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب، الَّذي أعدَّته قريش لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجهد نفســه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته الَّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رســول الله صلى الله عليه وسلم بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شـهاب: وأخبرني عبد الرَّحمن بن مالك المدْلِجيُّ – وهو ابن أخي سـراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ –: أنَّ أباه أخبره، أنَّه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول: جاءنا رُسُلُ كفَّار قريش، يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدْلِجٍ؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتَّى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سـراقة! إنِّي قد رأيت آنفاً أَسْـوِدةً[1]بالسَّـاحل، أراها محمَّداً وأصـحابه، قال سـراقة: فعرفتُ: أنَّهم هم، فقلت له: إنَّهم ليســوا بهم، ولكنَّك رأيتَ فلاناً، وفلاناً، انطلَقوا بأعيننا، ثمَّ لبثتُ في المجلس ســاعةً، ثمَّ قمتُ، فدخلتُ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرســي – وهو من وراء أكمةٍ[2]– فتَحْبِسَــهَا عليَّ، وأخذت رُمْحي، فخرجت به من ظَهْر البيت، فخططت بِزُجِّهِ[3] الأرضَ، وخَفَضْـت عاليه، حتَّى أتيتُ فرسـي فركبتُها، فرفعتُها (أي: أسـرعت بها السَّـير) تُقَرِّب بي، حتَّى دنوت منهم، فَعَثَرت بي فرســي، فخررتُ عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[4]، فاستقسمت بها: أضُرُّهم، أم لا؟ فخرج الَّذي أكره، فركبت فرسي، وعصـيت الأزلام، تُقرِّب بي، حتَّى إذا سمعت قراءة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وهو لا

---

[1] أسودة: جمع قلَّةٍ لسواد ، وهو الشَّخص يُرى من بعيد أسود ، الهجرة في القران ، ص 344.

[2] الأكمة: وهي الرَّابية.

[3] الزج: الحديدة في أسفل الرُّمح.

[4] الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهليَّة ، مكتوب عليها الأمر ، أو النهي: افعل ، أو لا تفعل.

يلتفتُ، وأبو بكر يكثر الالتفات، سَاخَتْ[1] يدا فرسي في الأرض؛ حتَّى بلغتا الرُّكبتين، فخررتُ عنها، ثُمَّ زجرتها، فنهضـــتْ، فلم تكد تُخْرِجُ يديها، فلمَّا اســتوت قائمةً؛ إذا لأثر يديها عُثان[2] ســاطعٌ في السَّــماء مثلُ الدخان، فاســتقســمت بالأزلام، فخرج الَّذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسـي؛ حتَّى جئتُهم، ووقع في نفســي حين لَقِيتُ ما لَقِيتُ من الحبس عنهم، أن سَـيظهرُ أمرُ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّية، وأخبرتهم أخبار ما يريد النَّاس بهم، وعرضـــت عليهم الزَّاد والمتاع، فلم يَرْزاني[3]، ولم يسألاني، إلا أن قال: أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ، فأمرَ عامرَ بن فهيرة، فكتب في رقعةٍ من أدَمٍ[4]، ثُمَّ مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم . **[البخاري (3906) ومسلم (2009/91)]** .

وكان ممَّا اشتهر عند النَّاس من أمر سراقة، ما ذكره ابن عبد البرِّ، وابن حجر، وغيرهما.

قال ابن عبد البرِّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى، عن الحسن: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلـمَّا أُتِيَ عمرُ بسـواري كسـرى، ومِنْطَقَته وتاجه؛ دعا سـراقة بن مالكٍ، فألبسـه إيَّاها، وكان سـراقة رجلاً أزَبَّ[5] كثير شـعر السَّـاعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد للهِ الَّذي سـلبهما كسرى بن هُرْمز، الَّذي كان يقول: أنا ربُّ النَّاس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ أعرابيَّاً من بني مُدْلِجٍ، ورفع بها عمر صـوته[6]، ثمَّ أركب سُـراقة، وطوَّف به المدينة، والنَّاس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمد للهِ الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسـهما سراقة بن جُعْشُمٍ أعرابيّاً من بني مُدْلِجٍ[7].

---

[1] ساخت يدا فرسي: أي: غاصت في الأرض.
[2] عُثان: أي: دخان ، وجمعه عواثن على غير قياسٍ ، النِّهاية (183/3).
[3] فلم يرزاني: أي: لم يأخذا مني شيئاً.
[4] أدم: قطعة من جلد.
[5] التَّزبب في الإنسان: كثرة الشَّعر ، وطوله.
[6] انظر: الرَّوض الأنف (218/4) والهجرة في القران ، ص 346.
[7] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (495/1).

ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب:

كان سـراقة في بداية أمره يريد القبض على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وتسـليمه لزعماء مكَّة؛ لينال مئة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأســاً على عَقِب، ويصـــبح يردُّ الطلب عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فجعل لا يلقى أحداً من الطَّلب إلا ردَّه، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه، فلمَّا اطمأنَّ إلى أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وصل إلى المدينة المنوَّرة، جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصَّته، وقصَّـة فرسـه، واشـتهر هذا عنه، وتناقلته الألسـنة؛ حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكَّة، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج، ورئيسهم، فكتب أبو جهل إليهم:

بني مُدْلِجٍ إنِّي أخاف سَــفيهَكُمْ ... ســراقةَ مســتغوٍ لِنَصْــرِ مُحَمَّدِ
عَلَيْكُمْ بـه ألاَّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْ ... فَيُصْــبِحَ شَــتَّى بَعْدَ عِزٍّ وسُــؤْدُدِ

فقال سراقة يردُّ على أبي جهلٍ:

أبا حَكَمٍ اللَّاتِ لوْ كنتَ شــاهداً ... لأَمرِ جَوَادِي إذْ تســيخُ قَوائِمُـهْ
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْــكُكْ بأنَّ مُحَمَّداً ... رَسُــولٌ بِبُرْهَـانٍ فَمَنْ ذَا يُقَـاوِمُـهْ
عَلَيْـكَ فكُفَّ القَوْمَ عَنْـهُ فـإنَّني ... أَرَى أَمْرَهُ يَوْماً سَــتَبْدُو مَعالِمُهْ
بأَمْرٍ تَوَدُّ النَّـاسُ فِيْـهِ بأَسْــرِهِمْ ... بأنَّ جَمِيْعَ النَّاسِ طُرّاً مُسَــالِمُهْ[1]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ولـمَّا سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكَّةَ، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّة فينتظرونه، حتَّى يردَّهم حرُّ الظَّهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلـــمَّا أَوَوْا إلى بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطُمٍ[2] من آطامهم، لأمرٍ ينظر إليه، فبصُـرَ

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (494/1) ، وانظر أيضاً: فتح الباري ، شرح حديث رقم (3906).

[2] أطم . بضم أوله وثانيه .: الحصن.

برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مُبَيَّضين[1]، يزولُ بهم السَّرابُ[2]، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صـوته: يا معاشـرَ العرب! هذا جَدُّكم[3] الَّذي تنتظرونَ، فثار المسـلمون إلى السِّلاح، فتلقَّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحَرَّة، فعدل بهم ذات اليمين، حتَّى نَزَل بِهِم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين[4] من شهر ربيع الأوَّل[5]، فقام أبو بكر للنَّاس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممَّن لم يَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم - يُحَيِّي أبا بكرٍ، حتَّى أصابت الشَّمْسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتَّى ظلَّلَ عليه بردائه، فعرف النَّاس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، فلبث رسـولُ الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضـعَ عَشْـرَةَ ليلةً[6]، وأُسِّـسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى، وصلَّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ ركب راحلته» [البخاري (3906)] .

وبعد أن أقام رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم المدَّة الَّتي مكثها بقُباء، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصـار» فجاؤوا إلى نبيِّ الله صـلى الله عليه وسـلم وأبي بكر، فسـلَّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمِنَيْن مُطَاعَيْن، فركب نبيُّ الله صـلى الله عليه وسـلم ، وأبو بكرٍ، وحَفُّوا دونَهما بالسِّلاح».

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، فأشرفوا ينظرون، ويقولون: جاء نبيُّ الله» [البخاري (3911)] .

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ، لم ترَ المدينة يوماً مثله، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم، كأنَّهم في يوم عيدٍ، ولقد كان حقّاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسـلام من ذلك الحيِّز الضَّـيِّق في

---

[1] مُبيَّضين: عليهم ثياب بيض.

[2] السَّراب: أي: يزول السَّراب عن النَّظر بسبب عروضهم له.

[3] جدُّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الَّذي تتوقَّعونه.

[4] قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد ، وشذَّ من قال: يوم الجمعة ، (الفتح شرح حديث رقم 3906).

[5] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 351.

[6] المصدر السابق نفسه ، ص 352.

مكَّة، إلى رحابة الانطلاق والانتشـــــار، بهذه البقعة المباركة (المدينة)، ومنها إلى ســـــائر بقاع الأرض، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الَّذي حباهم الله به، وبالشَّرف الَّذي اختصَّهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطناً للنِّظام الإسلاميّ العامِّ، والتَّفصيليّ بكلِّ مقوِّماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ، ويقولون: يا رســـول الله! يا محمد! يا رســـول الله[1]! روى الإمام مسلمٍ بسنده، قال: «عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ صعد الرِّجال، والنِّســـاء فوق البيوت، وتفرَّق الغِلْمَان، والخدم في الطُّرق، ينادون: يا محمد! يا رســـول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!» [مسلم (3014/م)] .

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريّ العظيم؛ الَّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيَّة سار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى نزل في دار أبي أيوبٍ الأنصاريّ رضي الله عنه، فعن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يســـيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه ليُحَدِّثُ أهلَه[2]؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلاَم، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِف[3] لهم، فعجَّل أن يضع الَّذي يَخْتَرِف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ رجع إلى أهله، فقال نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ بيوتِ أهلنا[4] أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي، قال: فانَطَلِقْ فهيِّئْ لنا مقيلاً[5]....» [البخاري (3911)]، ثمَّ نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوبٍ حتَّى بنى مسجده، ومساكنه.

وبهذا قد تمَّت هجرته صلى الله عليه وسلم ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها، وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب، والتَّحدِّيات، فتغلَّب عليها رسول الله صلى الله

---

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 353.

[2] الضَّمير هنا للنَّبيّ صلى الله عليه وسلمفتح الباري (251/7).

[3] يخترف: أي: يجتني من ثمارها ، انظر: النِّهاية (24/2).

[4] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 354.

[5] مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القيلولة.

عليه وسلم للوصول للمستقبل الباهر للأمَّة، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً، على أسس من الإيمان، والتَّقوى، والإحسان، والعدل بعد أن تغلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم، وهما: دولة الفرس، ودولة الرُّوم[1].

عاشراً: فوائد، ودروسٌ، وعبر:

1 - الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ، وممتدٌّ:

وهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ نافذةٌ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40] .

ولكنَّ هذا الصِّراع معلومُ العاقبة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

2 - مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌّ متكرِّرٌ:

سواءٌ عن طريق الحبس، أو القتل، أو النَّفي، والإخراج من الأرض، وعلى الدَّاعية أن يلجأ إلى ربِّه، وأن يثق به، ويتوكَّل عليه، ويعلم: أنَّ المكر السَّيئ لا يحيق إلا بأهله[2]، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الآنفال: 30] .

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدَّعوة استخدام سلاح المال لإغراء النُّفوس الضَّعيفة، للقضاء على الدَّعوة والدُّعاة، ولذلك رصدوا مئة ناقةٍ، لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم حيّاً، أو ميتاً، فتحرَّك الطَّامعون، ومنهم سراقة؛ الَّذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديّاً، بأوفر ربحٍ، وأطيب رزقٍ، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمِّي الطريق على الطَّامعين الآخرين، الَّذين

---

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 355.

[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 199.

اجتهدوا في الطَّلب، وهكذا يردُّ الله عن أوليائه والدُّعاة[1]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 36] .

3 – دقَّة التَّخطيط، والأخذ بالأسباب:

إنَّ مَنْ تأمَّل حادثة الهجرة، ورأى دقَّة التَّخطيط فيها، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنَّ التَّخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأنَّ التَّخطيط جزءٌ من السُّنَّة النَّبويَّة، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيّ في كل ما طولب به المسلم، وأنَّ الَّذين يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنَّ التخطيط، وإحكام الأمور ليسا من السُّنَّة؛ أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين[2].

فعندما حان وقت الهجرة للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وشرع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في التَّنفيذ، نلاحظ الآتي:

- وجود التَّنظيم الدَّقيق للهجرة حتَّى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ، وذلك أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة، كان مدروساً دراسةً وافيةً؛ فمثلاً:

1 – جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، في وقت شدَّة الحرِّ – الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ –؛ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

2 – إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصِّدِّيق، وجاء إلى بيت الصِّدِّيق متلثماً؛ لأنَّ التلثُّم يقلِّل من إمكانية التعرُّف على معالم الوجه المتلثم[3].

3 – أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُخْرِج مَن عنده، ولما تكلَّم لم يبيِّن إلا الأمر

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 200.
[2] الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (357/1).
[3] في السِّيرة النَّبويَّة . قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 141.

بالهجرة، دون تحديد الاتجاه.

4 – كان الخروج ليلاً، ومن بابٍ خلفيٍّ في بيت أبي بكرٍ[1].

5 – بلغ الاحتياط مداه، باتِّخاذ طرقٍ غير مألوفةٍ للقوم، والاستعانة في ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية، ومسارب الصَّحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، ما دام على خُلُقٍ ورزانةٍ، وفيه دليلٌ على أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[2].

- انتقاء شخصياتٍ عاقلةٍ لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أنَّ هذه الشَّخصيات كلَّها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، ممَّا يجعل من هؤلاء الأفراد، وحدةً متعاونةً على تحقيق الهدف الكبير.
- وضع كلِّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب؛ الذي يجيد القيام به على أحسن وجهٍ؛ ليكون أقدر على أدائه، والنُّهوض بتبعاته.
- فكرة نوم عليٍّ بن أبي طالب مكان الرَّسول صلى الله عليه وسلم فكرةٌ ناجحةٌ، قد ضلَّلت القوم، وخدعتهم، وصرفتهم عن الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، حتَّى خرج في جنح اللَّيل، تحرسه عناية الله، وهم نائمون، ولقد ظلَّت أبصارهم معلَّقةً بعد اليقظة، بمضجع الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، فما كانوا يشكُّون في أنَّه ما يزال نائماً، مُسجّىً في بردته، في حين أنَّ النَّائم هو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.
- **وقد كان عملُ أبطال هذه الرِّحلة على النَّحو التالي:**

1 – عليٌّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ ليخدع القوم؛

[1] انظر: من معين السِّيرة ، ص 147.

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 361.

ويُسلِّم الودائع، ويلحق بالرَّسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

2 – عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصَّادق، وكاشف تحرُّكات العدوِّ.

3 – أسماء ذات النِّطاقين: حاملة التموين من مكَّة إلى الغار، وسط جنون المشركين؛ بحثاً عن محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

4 – عامر بن فهيرة: الرَّاعي البسيط الذي قدَّم اللَّحم واللَّبن إلى صاحبي الغار، وبدَّد آثار أقدام المسيرة التَّاريخيَّة بأغنامه كي لا يتفرَّسها القوم!! لقد كان هذا الرَّاعي يقوم بدور الإمداد، والتَّموين، والتَّعمية.

5 – عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصَّحراء البصير ينتظر في يقظةٍ إشارة البدء من الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ ليأخذ الرَّكبُ طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبيرٌ للأمور على نحوٍ رائعٍ دقيقٍ، واحتياطٌ للظُّروف بأسلوبٍ حكيمٍ، ووَضْعٌ لكلِّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسدٌّ لجميع الثَّغرات، وتغطيةٌ بديعةٌ لكلِّ مَطالب الرِّحلة، واقتصارٌ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ، ولا إسرافٍ.

لقد أخذ الرَّسول صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته، وقدرته؛ ومن ثمَّ باتت عنايةُ الله متوقَّعةً[1].

4 – الأخذ بالأسباب أمرٌ ضروريٌّ:

إنَّ اتخاذ الأسباب أمرٌ ضروريٌّ وواجبٌ؛ ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة؛ ذلك لأنَّ هذا أمرٌ يتعلَّق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكُّل أمراً ضروريّاً، وهو من باب استكمال اتِّخاذ الأسباب.

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدَّ كلَّ الأسباب، واتَّخذ كلَّ الوسائل؛ ولكنَّه في الوقت

---

[1] انظر: أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد ، ص 393 . 397.

نفسه مع الله، يدعوه، ويستنصره أن يكلِّل سعيه بالنَّجاح، وهنا يُستجاب الدُّعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض، ويكلَّل العمل بالنَّجاح[1].

5 – الإيمان بالمعجزات الحسِّيَّة:

وفي هجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقعت معجزاتٌ حسِّيَّةٌ، وهي دلائل ملموسةٌ على حفظ الله، ورعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك – على ما روي – نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمِّ معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إيَّاه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدُّعاة ألا يتنصَّلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتةً بالسُّنَّة النَّبويَّة، على أن ينبِّهوا الناس على أن هذه الخوارق، هي من جملة دلائل نبوَّته، ورسالته عليه السَّلام[2].

6 – جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدُّعاة أن يستعينوا بمن لا يُؤمنون بدعوتهم ما داموا يثقون بهم، ويأتمنونهم؛ فقد رأينا: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ استأجرا مشركاً ليدلهما على طريق الهجرة، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه عند غار ثور، وهذه أمورٌ خطيرةٌ أطلعاه عليها، ولاشكَّ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وأبا بكر وثقا به، وأمَّناه، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكافر، أو العاصي، أو غير المنتسب إلى الدُّعاة، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدُّعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة، أو المعرفة القديمة، أو الجوار، أو عمل معروف كان قد قدَّمه الدَّاعية لهم، أو لأن هؤلاء عندهم نوعٌ جيِّدٌ من الأخلاق الأساسيَّة؛ مثل الأمانة، وحبِّ عمل الخير، إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديريَّة، يترك تقديرها إلى فطنة الدَّاعي، ومعرفته بالشَّخص[1].

---

[1] انظر: من معين السِّيرة ، ص 148.

[2] انظر: المستفاد من قصص القران (108/2).

7 – دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماءٌ كثيرةٌ، كان لها فضلٌ كبيرٌ، ونصيبٌ وافرٌ من الجهاد؛ منها: عائشــة بنت أبي بكرٍ الصِّــدِّيق؛ الَّتي حفظت لنا القصَّــة، ووعتها، وبلَّغتها للأمَّة، وأمُّ سـلمة المهاجرة الصَّبور، وأسماء ذات النِّطاقين[1]، الَّتي أسهمت في تموين الرَّسول صلى الله عليه وسلم وصـاحبه في الغار، بالماء، والغذاء، وكيف تحمَّلت الأذى في سـبيل الله، فقد حدَّثتنا عن ذلك، فقالت: «لـــمَّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكرٍ رضي الله عنه أتانا نفرٌ من قريشٍ، فيهم أبو جهل بن هشــام، فوقفوا على باب أبي بكرٍ، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنتَ أبي بكرٍ؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي!

قالت: فرفع أبو جهل يده – وكان فاحشــاً خبيثاً – فلطم خَدِّي لطمةً، طرح منها قُرْطِي، قالت: ثمَّ انصرفوا» [الطبري في تاريخه (379/2 – 380) وابن هشام (131/2 – 132)][2] .

فهذا درسٌ من أسماء رضــي الله عنها؛ تعلِّمه لنســاء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفي أسـرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صـامدةً شـامخةً أمام قوى البغي والظُّلم! وأمَّا درسـها الثَّاني البليغ، فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة، وقد ذهب بصــــره، فقال: «والله إنِّي لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه»، قالت: «كلا يا أبت! ضع يدك على هذا المال» قالت: «فوضع يده عليه»، فقال: «لابأس، إذا كان ترك لكم هذا؛ فقد أحســن»، وفي هذا بلاغ لكم، قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكنِّي أردت أن أسكِّن الشَّيخ بذلك»[3].

وبهذه الفطنة، والحكمة، ســترت أسماء أباها، وســكَّنت قلب جدِّها الضــرير، من غير أن تكذب فإنَّ أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار الَّتي كوَّمتها؛ لتطمئن لها نفس الشَّــيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحرِّكه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلَّةٍ أو كثرةٍ في

---

[1] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 206.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 126.

[3] انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (102/2) ، وإسناده صحيح.

المال، وورَّثهم يقيناً، وثقةً به لا حدَّ لها، وغرس فيهم همَّةً تتعلَّق بمعالي الأمور، ولا تلتفت إلى سفاسفها[1]، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزَّ أن يتكرَّر، وقلَّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء، وبنات المسلمين مثلاً هُنَّ في أمسِّ الحاجة إلى الاقتداء به، والنَّسج على مِنواله.

وظلَّت أسماء مع أخواتها في مكَّة، لا تشكو ضيقاً، ولا تظهر حاجةً، حتَّى بعث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة، وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهمٍ إلى مكَّة، فقدما عليه بفاطمة، وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأُمُّه بركة المكنَّاة بأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ، فيهم عائشة، وأسماء، فقدموا المدينة، فأنزلهم في بيت حارثة بن النُّعمان[2].

8 – أمانات المشركين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله دليلٌ باهرٌ على تناقضهم العجيب، الَّذي كانوا واقعين فيه؛ ففي الوقت الَّذي كانوا يكذِّبونه، ويزعمون: أنَّه ساحرٌ، أو مجنونٌ، أو كذَّابٌ، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم مَنْ هو خيرٌ منه أمانةً وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم، ولا أموالهم الَّتي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدلُّ على أنَّ كفرانهم، لم يكن بسبب الشَّكِّ لديهم في صدقه؛ وإنَّما بسبب تكبُّرهم، واستعلائهم على الحقِّ الَّذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم، وطغيانهم[3]، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وفي أمر الرَّسول صلى الله عليه وسلم لعليٍّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها

---

(1) السَّفْسَافُ: الرَّديءُ الحقير من كل شيء، والجمع: سَفَاسِف.
(2) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 128.
(3) انظر: فقه السِّيرة، للدُّكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 193.

في مكَّة؛ برغم هذه الظُّروف الشَّديدة؛ الَّتي كان من المفترض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتَّجه التَّفكير إلا إلى إنجاح خطَّة هجرته فقط؛ برغم ذلك فإنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ما كان لينسى، أو ينشغل عن ردِّ الأمانات إلى أهلها، حتَّى ولو كان في أصعب الظُّروف الَّتي تُنسي الإنسان نفسه، فضلاً عن غيره[1].

9 - الرَّاحلة بالثَّمن:

لم يقبل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يركب الرَّاحلة، حتَّى أخذها بثمنها من أبي بكرٍ رضي الله عنه، واستقرَّ الثَّمن دَيْناً بذمَّته، وهذا درسٌ واضحٌ بأنَّ حملة الدَّعوة لا ينبغي أن يكونوا عالةً على أحدٍ في وقتٍ من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كلِّ شيءٍ.

إنَّ يدهم إن لم تكن العليا، فلن تكون السُّفلى، وهكذا يصرُّ صلى الله عليه وسلم أن يأخذها بالثَّمن، وسلوكه ذلك هو التَّرجمة الحقَّة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109] .

إنَّ الذين يحملون العقيدة، والإيمان، ويبشِّرون بهما، ما ينبغي أن تمتدَّ أيديهم إلى أحدٍ إلا الله؛ لأنَّ هذا يتناقض مع ما يدعون إليه، وقد تعوَّد النَّاس أن يعوا لغة الحال؛ لأنَّها أبلغ من لغة المقال، وما تأخَّر المسلمون، وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدَّعوة، والعاملون بها خاضعين لِلُغة المادَّة؛ إذ ينتظر الواحد منهم مرتَّبه، ويومها تحوَّل العمل إلى عملٍ ماديٍّ؛ فقَد الرُّوح، والحيويَّة، والوضاءة، وأصبح للأمر بالمعروف موظَّفون، وأصبح الخطباء موظَّفين، وأصبح الأئمَّة موظَّفين.

إنَّ الصَّوت الَّذي ينبعث من حنجرةٍ وراءها الخوف من الله، والأمل في رضاه، غير الصَّوت الَّذي ينبعث ليتلقَّى دراهم معدودة، فإذا توقَّفت؛ توقف الصَّوت، وقديماً قالوا: «ليست النَّائحة

---

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 364.

كالثَّكلى»؛ ولهذا قلَّ التأثير، وبَعُدَ النَّاس عن جادَّة الصَّواب[1].

10 – الدَّاعية يَعفُّ عن أموال النَّاس:

لـمَّا عفا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن سراقة؛ عرض عليه سراقة المساعدة، فقال: «وهذه كنانتي فخذ منها سهماً؛ وإنَّك ستمرُّ بإبلي، وغنمي في موضع كذا، وكذا، فخذ منها حاجتك». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا حاجة لي فيها» **[أحمد (3/1) ومسلم (3014/م)]**[2].

فحين يزهد الدُّعاة فيما عند النَّاس، يحبُّهم الناس، وحين يطمعون في أموال النَّاس، ينفر النَّاس منهم، وهذا درسٌ بليغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى[3].

11 – الجندية الرَّفيعة والبكاء من الفرح:

تظهر أثر التَّربية النَّبويَّة، في جندية أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ فأبو بكرٍ رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تعجل؛ لعلَّ الله يجعل لك صاحباً»؛ بدأ في الإعداد والتَّخطيط للهجرة؛ فابتاع راحلتين، واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك، وفي رواية البخاريِّ: «وعلف راحلتين كانتا عندهُ ورقَ السَّمُر – وهو الخَبَط – أربعة أشهر» **[البخاري (3905) والبيهقي في الدلائل (473/2)]** لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه – وهو الَّذي تربَّى؛ ليكون قائداً –: أنَّ لحظة الهجرة صعبةٌ، قد تأتي فجأةً، ولذلك هيَّأ وسيلة الهجرة، ورتَّب تموينها، وسخَّر أسرته لخدمة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره: أنَّ الله قد أذن له في الخروج، والهجرة؛ بكى من شدَّة الفرح، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: «فوالله! ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتَّى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ»،

---

[1] انظر: من معين السِّيرة ، ص 148 ، 149.
[2] في البخاريِّ: «وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يَرْزاني» رقم (3906).
[3] انظر: في ظلال الهجرة النَّبويَّة ، ص 58.

إنَّها قمَّة الفرح البشريِّ أن يتحوَّل الفرح إلى بكاءٍ، كما قال الشَّاعر عن هذا:

وَرَدَ الكِتَـابُ مِنَ الحَبِيْـبِ بأنَّـهُ ... سَـيَزُورُنِي فـاسـتعبرتْ أَجْفَـانِي
غَلَـبَ السُّـرورُ عليَّ حتَّى إنَّني ... مِنْ فرْطِ مـا قَـدْ سـرَّنِي أَبْكَـانِي
يا عَيْنُ صَـارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةً ... تَـبْكِيْنَ مِـنْ فَـرَحٍ وَمِـنْ أَحْـزَانِ

فالصِّدِّيق رضي الله عنه، يعلم: أنَّ معنى هذه الصُّحبة: أنَّه سيكون وحدَه برفقة رسول ربِّ العالمين، بضعة عشر يوماً على الأقلِّ، وهو الَّذي سيقدِّم حياته لسيِّده، وقائده، وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأيُّ فوزٍ في هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرَّد الصِّدِّيق وحدَه من دون أهل الأرض، ومن دون الصَّحب جميعاً برفقة سيِّد الخلق صلى الله عليه وسلم وصحبته كلَّ هذه المدَّة[1]. وتظهر معاني الحبِّ في الله في خوف أبي بكرٍ، وهو في الغار من أن يراهما المشركون؛ ليكون الصِّدِّيق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جنديُّ الدَّعوة الصَّادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوفٍ، وإشفاقٍ على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالَّذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك؛ لما رافق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في هذه الهجرة الخطيرة، وهو يعلم: أنَّ أقلَّ جزائه القتلُ؛ إن أمسكه المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكنَّه كان يخشى على حياة الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وعلى مستقبل الإسلام؛ إن وقع الرَّسول صلى الله عليه وسلم في قبضة المشركين[2].

ويظهر الحسُّ الأمنيُّ الرَّفيع للصِّدِّيق في هجرته مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، في مواقف كثيرةٍ؛ منها: حين أجاب السَّائل: مَنْ هذا الرَّجل الَّذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السَّبيل، فظنَّ السائل بأنَّ الصِّدِّيق يقصد الطريق، وإنَّما كان يقصد سبيل الخير. [البخاري]

---

(1) انظر: التربية القياديَّة (2/191، 192).

(2) السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ، للسِّباعي، ص 71.

[(391)][1]، وهذا يدلُّ على حسن استخدام أبي بكرٍ للمعاريض فراراً من الكذب[2]، وفي إجابته للسَّائل توريةٌ، وتنفيذٌ للتَّربية الأمنيَّة؛ الَّتي تلقَّاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّ الهجرة كانت سرّاً، وقد أقرَّه الرَّسول صلى الله عليه وسلم على ذلك[3].

وفي موقف عليّ بن أبي طالبٍ مثالٌ للجنديّ الصَّادق المخلص لدعوة الإسلام؛ حيث فدى قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامةٌ للدَّعوة، وفي هلاكه خذلانها، ووهنها، وهذا ما فعله عليٌّ رضي الله عنه ليلة الهجرة؛ من بياته على فراش الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس عليٍّ رضي الله عنه، ولكنَّ عليّاً رضي الله عنه لم يبالِ بذلك، فحسبه أن يَسْلَم رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيُّ الأمَّة، وقائد الدَّعوة[4].

12 - فنُّ قيادة الأرواح، وفنُّ التَّعامل مع النُّفوس:

يظهر الحبُّ العميق؛ الَّذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، كما يظهر حبُّ سائر الصَّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحبُّ الرَّبَّانيُّ كان نابعاً من القلب وبإخلاصٍ، لم يكن حبَّ نفاقٍ، أو نابعاً من مصلحة دنيويَّةٍ، أو رغبةٍ في منفعةٍ، أو رهبةٍ لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحبِّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم صفاته القياديَّة الرَّشيدة، فهو يسهر؛ ليناموا، ويتعب؛ ليستريحوا، ويجوع؛ ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرَّسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته، في حياته الخاصَّة والعامَّة، وشارك النَّاس في أفراحهم، وأتراحهم، وكان عمله لوجه الله، أصابه شيءٌ من هذا الحبِّ؛ إنْ كان من الزُّعماء أو القادة أو المسؤولين في أمَّة الإسلام[5]. وصدق الشَّاعر اللِّيبيُّ عندما قال:

---

[1] البخاريُّ ، رقم (3911).
[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 204.
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 254.
[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص 68.
[5] انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 54.

فَــإِذَا أَحَــبَّ اللهُ بَاطِــنَ عبــدِهِ	ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الفَتَّاحِ
وإِذَا صَــفَتْ للهِ نِيَّــةُ مُصْــلِحٍ	مَالَ العِبَادُ عَلَيْهِ بالأَرْوَاحِ[1]

إنَّ القيادة الصَّحيحة هي الَّتي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيءٍ، وتستطيع أن تتعامل مع النُّفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة، يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحبُّ من الجنود، فقد كان صلى الله عليه وسلم رحيماً، وشفيقاً بجنوده، وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبقَ إلا المستضعفون، والمفتونون، ومن كانت له مهمَّاتٌ خاصَّةٌ بالهجرة[2].

13 - وفي الطَّريق أسلم بُريدة الأسْلَمِيُّ رضي الله عنه في ركبٍ من قومه:

إنَّ المسلم الَّذي تغلغلت الدَّعوة في شغاف قلبه، لا يفتر لحظة واحدةً عن دعوة النَّاس إلى دين الله تعالى، مهما كانت الظُّروف قاسيةً، والأحوال مضطربةً، والأمن مفقوداً؛ بل ينتهز كلَّ فرصةٍ مناسبةٍ لتبليغ دعوة الله تعالى، فهذا نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام حينما زُجَّ به في السِّجن ظُلْماً، واجتمع بالسُّجناء في السِّجن لم يندُبْ حظَّهُ، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التَّوحيد، وتبليغها للنَّاس، ومحاربة الشِّرك، وعبادة غير الله، والخضوع لأيِّ مخلوقٍ.

قال تعالى: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إبراهيم وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ۝ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 37 -40] .

---

[1] انظر: الحركة السَّنوسيَّة في ليبيا، للصَّلابي (7/2) ، والشَّاعر هو: أحمد رفيق المهدوي.

[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 205.

وسورة يوسف عليه السلام مكِّيَّة، وقد أمر الله تعالى رسوله محمَّداً صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله؛ ولذلك نجده صلى الله عليه وسلم في هجرته من مكَّة إلى المدينة – وقد كان مطارداً من المشركين، قد أهدروا دمه، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة، ليأتوا برأسه حيّاً أو ميتاً – لا ينسى مهمَّته، ورسالته، فقد لقي صلى الله عليه وسلم في طريقه رجلاً يقال له: بُرْيَدة بن الحُصَيب الأسلميُّ رضي الله عنه، في رَكْبٍ من قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فآمنوا، وأسلموا[1].

وذكر ابن حجرٍ العسقلانيُّ – رحمه الله –: «أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم في طريق هجرته إلى المدينة لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلميَّ، فدعاه إلى الإسلام، وقد غزا مع الرَّسول صلى الله عليه وسلم ست عَشْرَة غَزْوة[2]، وأصبح بُرَيْدَةُ بعد ذلك من الدُّعاة إلى الإسلام، وفتح الله لقومه «أسْلَم» على يديه أبوابَ الهداية، واندفعوا إلى الإسلام، وفازوا بالوسام النَّبويّ؛ الَّذي نتعلَّم منه منهجاً فريداً في فقه النُّفوس[3]. قال صلى الله عليه وسلم: «أسْلَمُ سالمها الله، وغِفَارُ غَفَرَ الله لها، أَما إنِّي لم أَقُلْهَا، ولكنْ قالها اللهُ» [البخاري (3514) ومسلم (2516)].

14 – وفي طريق الهجرة أسلم لصَّان على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كان في طريقه صلى الله عليه وسلم بالقرب من المدينة لصَّان من أَسْلم، يقال لهما: المهَانَانِ، فقصدهما صلى الله عليه وسلم، وعرض عليهما الإسلام، فأسلما، ثمَّ سألهما عن اسميهما، فقالا: نحن المهانان، فقال: بل أنتما المكْرمان، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [أحمد (74/4)] وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالدَّعوة إلى الله؛ حيث اغتنم فرصةً في طريقه، ودعا اللِّصَّين إلى الإسلام، فأسلما، وفي إسلام هذين اللِّصين مع ما ألفاه من حياة

---

[1] انظر: الهجرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 59، وشرح المواهب (405/1).
[2] انظر: الإصابة (146/1).
[3] انظر: المستدرك على الصَّحيحين (92/4) رقم 6981 صحيح الإسناد.

البطش، والسَّلب، والنَّهب دليلٌ على سرعة إقبال النُّفوس على اتِّباع الحقّ؛ إذا وجد مَنْ يمثِّله بصدقٍ وإخلاصٍ، وتجرَّدت نفس السَّامع من الهوى المنحرف، وفي اهتمام الرَّسول صلى الله عليه وسلم بتغيير اسمي هذين اللِّصين، من المهَانَيْن إلى المكْرَمَيْن دليلٌ على اهتمامه صلى الله عليه وسلم بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم، إكراماً لهم، ورفعاً لمعنوياتهم.

وإنَّ في رفع معنوية الإنسان تقويةً لشخصيته، ودفعاً له إلى الأمام؛ ليبذل كل طاقته في سبيل الخير، والفلاح[1].

15 – الزُّبير، وطلحة رضي الله عنهما، والتقاؤهما برسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق الهجرة:

وممَّا وقع في الطَّريق إلى المدينة: أنَّه صلى الله عليه وسلم لقي الزُّبير بن العوَّام في ركبٍ من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشَّام، فكسا الزُّبيرُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياباً بيضاء. [البخاري (3906) والبيهقي في الدلائل (498/2)][2]، وكذا روى أصحاب السِّيَر: أنَّ طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشَّام، وكساهما بعض الثِّياب [البيهقي في الدلائل (498/2)][3] .

16 – أهمِيَّة العقيدة والدِّين في إزالة العداوة والضَّغائن:

إنَّ العقيدة الصَّحيحة السَّليمة، والدِّين الإسلاميَّ العظيم لهما أهمِّيَّةٌ كبرى في إزالة العداوات، والضَّغائن، وفي التَّأليف بين القلوب والأرواح، وهو دورٌ لا يمكن لغير العقيدة الصَّحيحة أن تقوم به، وهاقد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلاميَّة بين الأوس، والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرَّت عقوداً من الزَّمن، وأغلقت ملف ثاراتٍ كثيرةٍ في مدَّةٍ قصيرةٍ، بمجرَّد التَّمسُّك بها، والمبايعة عليها، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار، فقد استقبلوا المهاجرين بصدورٍ مفتوحةٍ، وتآخوا معهم في مثاليَّةٍ نادرةٍ، لا تزال مثارَ الدَّهشة، ومضرب المثل،

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديّ (178/3).

[2] انظر: السِّيرة النبوية، لأبي شهبة (495/1).

[3] المصدر السَّابق نفسه (495/1)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص 181.

ولا توجد في الدُّنيا فكرةٌ، أو شعارٌ آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصَّافية في النُّفوس.

ومن هنا ندرك السِّرَّ في سعي الأعداء الدَّائب إلى إضعاف هذه العقيدة، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمرِّ نحو تزكية النَّعرات العصبيَّة، والوطنيَّة، والقوميَّة، وغيرها، وتقديمها كبديلٍ للعقيدة الصَّحيحة[1].

17 - فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب؛ من أنصارٍ، ومهاجرين بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصوله إليهم سالماً فرحةً أخرجت النِّساء من بيوتهنَّ، والولائد، وحملت الرِّجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة، موقف المشارك لسكَّانها في الفرحة ظاهراً، والمتألِّم من منافسة الزَّعامة الجديدة باطناً، أمَّا فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم؛ فلا عجب فيها، فهو الَّذي أخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود، فلا غرابة فيه؛ فهم الذين عُرِفوا بالملق، والنِّفاق للمجتمع؛ الَّذي فقدوا السَّيطرة عليه، وبالغيظ، والحقد الأسود ممَّن يسلبهم زعامتهم على الشُّعوب، ويَحُول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض، وسفك دمائها باسم النُّصح، والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كلِّ من يخلِّص الشُّعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدَّسِّ، والمؤامرات، ثمَّ إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك دينهم، وتلك جِبِلَّتُهم[2].

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم، بالحفاوة والإكرام، فقد حدث ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الإكرام، وهذه الحفاوة، نابعين من حبٍّ للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في

---

[1] انظر: الهجرة النَّبوية المباركة ، ص 405.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص 43 ، والهجرة في القران الكريم ، ص 367

الخير، وإكرام ذوي العلم والشرف، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وتعرض أن يكون رجالها حُراساً له، ويؤخذ من هذا، إكرام العلماء والصالحين، واحترامهم وخدمتهم[1].

18 – مقارنة بين الهجرة، والإسراء والمعراج:

كانت الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة على النَّحو الَّذي كانت عليه، وسارت على الوضع الَّذي يسلكه كلُّ مهاجرٍ؛ حتَّى توجد القدوة، وتتحقَّق الأسوة، ويسير المسلمون على نهجٍ مألوفٍ، وسبيلٍ معروفٍ، ولذلك، فلم يرسلِ الله – عزَّ وجلَّ – له صلى الله عليه وسلم البراق ليهاجر عليه – كما حدث في ليلة الإسراء – مع أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أيِّ وقتٍ آخر؛ لأنَّ القوم يتربَّصون به هنا، ولم يكن هناك تربُّص في ليلة الإسراء، ولو ظفروا به في هجرته؛ لشفوا نفوسهم منه بقتله.

والحكمة في ذلك – والله أعلم –: أنَّ الهجرة كانت مرحلةً طبيعيَّةً من مراحل تطوُّر الدَّعوة، ووسيلةً من أهمِّ وسائل نشرها، وتبليغها، ولم تكن خاصةً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل كان غيره من المؤمنين مكلَّفين بها، حين قطع الإسلام الولاية[2] بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمنوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **[الأنفال- 72]** .

أمَّا رحلة الإسراء، والمعراج، فكانت رحلةَ تشريفٍ، وتقديرٍ، كما كانت إكراماً من الله –

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 358 ، 359.

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 365.

عزَّ وجلَّ – لنبيِّه صـــلى الله عليه وســـلم ؛ ليطلعه على عالم الغيب، ويريه من آياته الكبرى، فالرِّحلة من أولها إلى آخرها خوارق، ومعجزاتٌ، ومشاهد للغيبيَّات، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهةً لغايتها.

زِدْ على ذلك: أنَّ رحلة الإسراء خصوصيَّةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس لأحدٍ من النَّاس أن يتطلَّع لمثلها، ولسـنا مطالبين بالاقتداء به فيها، ولذا فإنَّ حصـولها على النَّحو؛ الَّذي كانت عليه، هو أنسب الأوضاع لحدوثها[1].

19 – وضوح سنَّة التَّدرُّج:

حيث نلاحظ: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلـــمَّا جاؤوا في العام التالي، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات، والأخلاق، والفضائل، فلمَّا جاؤوا في العام التالي؛ كانت بيعة العقبة الثَّانية على الجهاد، والنَّصر، والإيواء[2].

وجديرٌ بالملاحظة: أنَّ بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيلٍ، وإعدادٍ استمرَّ عامين كاملين، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّجٍ ينسجم مع المنهج التَّربويِّ الَّذي نهجت عليه الدَّعوة من أوَّل يومٍ[3].

إنَّه المنهج الَّذي هدى الله نبيَّه صـــلى الله عليه وســـلم إلى التزامه، ففي البيعة الأولى، بايعه هؤلاء الأنصـار الجدد على الإسـلام؛ عقيدةً، ومنهاجاً، وتربية، وفي البيعة الثانية، بايعه الأنصـار على حماية الدَّعوة، واحتضـان المجتمع الإسـلاميِّ؛ الذي نضـجت ثماره، واشـتدَّت قواعده قوَّةً وصلابةً.

---

[1] انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص 103 ، 104 ، بتصرُّف.
[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 202.
[3] انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة ، لمحمد توفيق ، ص 119.

إنَّ هاتين البيعتين أمران متكاملان ضـــمن المنهج التَّربويِّ للدَّعوة الإســـلاميَّة، وإنَّ الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني – وهو بيعة الحرب – هو السِّياج الَّذي يحمي ذلك المضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام، وليس فور إعلانهم.

بعد عامين؛ إذ تمَّ إعدادهم حتَّى غدوا موضـــع ثقةٍ، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ: أنَّ بيعة الحرب لم يســبق أن تمَّت قبل ذلك اليوم مع أيِّ مسـلم؛ إنَّما حصـلت عندما وجدت الدَّعوة في هؤلاء الأنصـــار، وفي الأرض الَّتي يقيمون فيها المعقل الملائم؛ الَّذي ينطلق منه المحاربون؛ لأنَّ مكَّة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب[1].

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «ألاَّ يُحَمِّلَهم واجبَ القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقلٍ يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنوَّرة أوَّل دار إسلامٍ»[2].

لقد كانت البيعة الأولى قائمةً على الإيمان بالله، ورســوله صــلى الله عليه وســلم ، والبيعة الثَّانية على الهجرة، والجهاد، وبهذه العناصـــر الثلاثة: الإيمان بالله، والهجرة، والجهاد، يتحقَّق وجود الإســـلام في واقع جماعيٍّ ممكنٍ، والهجرة لم تكن لتتمَّ لولا وجود الفئة المســـتعدَّة للإيواء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمنوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72] .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75] .

وقد كانت بيعة الحرب هي التَّمهيد الأخير لهجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 122 ، 123.

[2] انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص 172.

المدينة، وبذلك وَجَدَ الإسـلامُ موطنَه؛ الَّذي ينطلق منه دعاةً الحقِ بالحكمة، والموعظة الحسـنة، وتنطلق منه جحافل الحقّ المجاهدة أوَّل مرَّةٍ، وقامت الدَّولة الإسلاميَّة المحكِّمة لشرع الله[1].

20 – الهجرة تضحيةٌ عظيمةٌ في سبيل الله:

كانت هجرة النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه من البلد الأمين تضـحيةً عظيمةً، عبَّر عنها النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم بقوله: «والله! إنك لخير أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرِجت منك ما خرجتُ» [أحمد (4/305) والترمذي (3925) وابن ماجه (3108)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لـمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ قدمها، وهي أوبأ أرض الله من الحمَّى، وكان واديها يجري نجلاً – يعني ماءً آجناً – فأصـاب أصـحابَه منها بلاءٌ، وسقمٌ، وصرف الله ذلك عن نبيِّه، قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وبلال، في بيتٍ واحدٍ، فأصابتهم الحمَّى، فاستأذنتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم، فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدَّة الوعك[2]، فدنوت من أبي بكرٍ، فقلت: يا أبتِ كيف تجدُك؟ فقال:

كـلُّ امْرِئ مُصَـبَّحٌ فِي أَهْلِـهِ ... والمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِـرَاكِ نَعْلِـهِ

قالت: فقلت: والله! ما يدري أبي ما يقول، ثم دنوت من عامر بن فهيرة، فقلت: كيف تجدُك يا عامر؟! فقال:

لَقَـدْ وَجَـدْتُ المَوْتَ قَبْـلَ ذَوْقِـهِ ... إنَّ الجَبَـانَ حَـتْـفُـهُ مـِنْ فَـوْقِـهِ
كُـلُّ امْرِئ مُجَـاهِـدٌ بِطَوْقِـهِ[3] ... كـالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْـدَهُ بِرَوْقِـهِ[4]

قالت: فقلت: والله! ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمَّى،

---

[1] انظر: الغرباء الأوَّلون، ص 198 ، 199.
[2] الوعك: الحمَّى.
[3] بطوقه: بطاقته.
[4] بروقه: بقرنه.

اضطجع بفناء البيت، ثمَّ يرفع عقيرته[1]، ويقول:

ألا لَيْتَ شِــعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً بِـوَادٍ وَحَـوْلِي إِذْخِـرٌ[2] وجَـلِيْـلُ
وهَـلْ أَرِدَنْ يَـوْماً مِـيَـاهَ مَجَنَّـةٍ وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شــامَةٌ وَطَفِيْلُ[3]

قالت: فأخبرت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: «اللهمَّ! حبِّبْ إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكَّة، أو أشـدَّ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ. اللَّهمَّ! باركْ لنا في مُدِّنا، وصـاعنا» [البخاري (1889) ومسلم (1376)]

وقد اسـتجاب الله دعاء نبيّه صـلى الله عليه وسـلم ، وعُوفي المسـلمون بعدها من هذه الحمَّى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكلِّ الوافدين، والمهاجرين إليها، من المسـلمين على تنوُّع بيئاتهم، ومواطنهم[4].

21 – مكافأة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأمِّ معبد:

وقد روي: أنَّها كثرت غنمها، ونمت؛ حتَّى جلبت منها جَلَباً إلى المدينة، فمرَّ أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أُمَّه! هذا هو الرَّجل الَّذي كان مع المبارك.

فقامت إليه فقالت: يا عبد الله! مَنِ الرَّجل الَّذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟! قالت: لا! قال: هو نبيُّ الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم ، وأعطاها، وفي روايةٍ: فانطلقت معي، وأهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من أقطٍ، ومتاع الأعراب، فكسـاها، وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسـلمت، وذكر صـاحب (الوفاء): أنَّها هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها خُنَيْس، واستشهد يوم الفتح[5].

---

(1) عقيرته: صوته ، قال الأصمعيُّ: إنَّ رجلاً عُقرت رجله ، فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله. .[304]الإذخر: نباتٌ طيِّب الرَّائحة.

(2)

(3) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجَنَّة على بريد مكة.

(4) انظر: التَّربية القياديَّة (310/2).

(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (489/1 ، 490).

22 – أبو أيُّوبٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه ومواقف خالدة:

قال أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه: «لـمَّا نزل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي؛ نزل في السُّفْل، وأنا وأمُّ أيوبٍ في العُلْو، فقلت له: يا نبيَّ الله – بأبي أنت، وأمي! إنِّي لأكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظْهَرْ أنت، فكن في العلوِّ، وننزل نحن فنكون في السُّفل، فقال: يا أبا أيوب! إنَّ أرفق بنا، وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت.

قال: فلقد انكسر حُبٌّ[1] لنا فيه ماءٌ، فقمت أنا، وأمُّ أيوب بقطيفة لنا، مالنا لحاف غيرها، ننشِّفُ بها الماء؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيءٌ، فيؤذيه» **[ابن هشام (144/2)]**[2].

23 – هجرة عليٍّ رضي الله عنه وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدَّى عن رسول الله (ﷺ) الأمانات الَّتي كانت عنده للنَّاس لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأدركه بقُباء بعد وصوله بليلتين، أو ثلاثٍ، فكانت إقامته بقُباء ليلتين، ثمَّ خرج مع النَّبيِّ (ﷺ) إلى المدينة يوم الجمعة[3]، وقد لاحظ سيِّدنا عليٌّ مدَّة إقامته بقُباء امرأةً مسلمة لا زوج لها، ورأى إنساناً يأتيها من جوف اللَّيل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً معه، فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمةَ الله! مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلَّ ليلةٍ فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو! وأنت امرأةٌ مسلمةٌ لا زوج لك؟ قالت: هذا سهلُ بن حُنيف، قد عرف أني امرأةٌ لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه، فكسرها، ثمَّ جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان عليٌّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف، حين هلك عنده بالعراق[4].

---

[1] الحُبُّ: الجرَّة الضَّخمة.

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (220/1).

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (497/1).

[4] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمد الصَّادق عرجون (421/2) ، ويأثر ذلك: أي: يرويه ويحكيه.

24 – الهجرة النَّبويَّة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النَّبويَّة من مكَّة المشـرَّفة إلى المدينة المنوَّرة أعظم حدثٍ حوَّل مجرى التَّاريخ، وغيَّر مسـيرة الحياة، ومناهجها؛ التي كانت تحياها، وتعيش محكومةً بها في صـورة قوانين، ونظمٍ، وأعرافٍ، وعاداتٍ، وأخلاقٍ، وسـلوكٍ للأفراد والجماعات، وعقائد، وتعبُّداتٍ، وعلمٍ، ومعرفةٍ، وجهالةٍ، وسفه، وضلالٍ، وهدًى، وعدلٍ، وظلمٍ»[1].

25 – الهجرة من سنن الرُّسل الكرام:

إنَّ الهجرة في سبيل الله سنَّةٌ قديمة، ولم تكن هجرة نبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بدعاً في حياة الرُّسل لنصـرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه، ومسـقط رأسـه من أجل الدَّعوة حفاظاً عليها، وإيجاداً لبيئةٍ خصـبةٍ تتقبلها، وتسـتجيب لها، وتذود عنها؛ فقد هاجر عددٌ من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها، التي دعت نبيَّنا للهجرة.

وذلك: أنَّ بقاء الدَّعوة في أرضٍ قاحلةٍ لا يخدمها؛ بل يعوق مسارها، ويشلُّ حركتها، وقد يعرضـها للانكماش داخل أضـيق الدوائر، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرُّسل، وأتباعهم من الأمم الماضية؛ لتبدو لنا في وضوحٍ سنَّةٌ من سنن الله في شأن الدَّعوات، يأخذ بها كلُّ مؤمن من بعدهم؛ إذا حيل بينه وبين إيمانه، وعزَّته، واسـتُخفَّ بكيانه، ووجوده، واعتُدِيَ على مروءته وكرامته[2].

هذه بعض الفوائد، والعبر، والدروس، وأترك للقارئ الكريم أن يسـتخرج غيرها، ويسـتنبط سواها من الدُّروس، والعبر، والفوائد الكثيرة النَّافعة من هذا الحدث العظيم.

* * *

---

[1] المصدر السابق نفسه (423/2).

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 175.

المبحث الثَّاني

الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ، والوعد لمن هاجر منهم، والوعيد لمن تخلَّف

تُعَدُّ الهجرةُ النَّبويَّة المباركة من مكَّة إلى المدينة أهمَّ حدثٍ في تاريخ الدَّعوة الإسـلاميَّة؛ إذ كانت نقطة تحوُّل في تاريخ المسـلمين؛ فقد كان المسـلمون قبل الهجرة أمَّة دعوةٍ، يبلغون دعوة الله للنَّاس، دون أن يكون لهم كيانٌ سياسيٌّ، يحمي الدَّعاة، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكوَّنت دولة الدَّعوة، هذه الدَّولة الَّتي أخذت على عاتقها نشـر الإسـلام، في داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها، ترسل الدُّعاة إلى الأمصار، وتتكفَّل بالدِّفاع عنهم، وحمايتهم من أيِّ اعتداءٍ قد يقع عليهم، ولو أدَّى ذلك إلى قيام حربٍ، أو حروبٍ[1].

وبجانب هذا، فإنَّ الهجرة النَّبويَّة لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه؛ حيث فرَّق العلماء بين المكِّيِّ، والمدنيّ؛ فالمكِّيّ: ما نزل قبل الهجرة - وإن كان بغير مكَّة - والمدني: ما نزل بعد الهجرة - وإن كان بغير المدينة - وترتَّب على ذلك فوائد؛ من أهمِّها:

1 - تذوُّق أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدَّعوة إلى الله.

2 - الوقوف على السِّيرة النَّبويَّة من خلال الآيات القرآنيَّة[2].

ولأهمية الهجرة النَّبويَّة نرى: أنَّ القرآن الكريم حثَّ المؤمنين على الهجرة في سـبيل الله بأساليب متنوعةٍ، مرَّةً بالثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ، وأخرى بالوعد للمهاجرين، وتارةً بالوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة[3].

---

(1) انظر: الهجرة النَّبوية، لمحمد أبو فارس، ص 13.

(2) انظر: مباحث في علوم القران، للقطَّان، ص 59.

(3) انظر: الهجرة في القران الكريم، ص 84.

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ:

أثنى الله – سبحانه وتعالى – على المهاجرين في القرآن الكريم، ووصفهم بأوصافٍ حميدةٍ متميّزةٍ؛ وذلك لأنَّهم أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكُّر لهم من قرابتهم، وعشيرتهم في مكَّة، وما أُخرِجوا إلا أن يقولوا ربُّنا الله، فمن أهمّ الصِّفات المميّزة للمهاجرين[1]:

1 – الإخلاص:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: 8]؛ قوله تعالى: يدلُّ على أنَّهم لم يخرجوا من ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾، وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته، ورضوانه[2].

2 – الصَّبر:

ومن صفات المهاجرين، وأخلاقهم المتميّزة؛ الَّتي أثنى الله عليهم بها الصَّبر. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخرةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 41، 42]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: 110]

3 – الصِّدق:

ومن الصفات الحميدة الَّتي أثنى الله – سبحانه وتعالى – بها على المهاجرين الصِّدق. قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: 8] .

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 85، وهذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرُّف اليسير.

(2) المصدر السَّابق نفسه، ص 86.

قال البغـــويُّ في تفسيـــره قولـــه: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الَّذين تركوا الدِّيار، والأموال، والعشائر، وخرجوا حبّـــاً لله، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيـه من شـدَّةٍ، حتَّى ذُكِر لنـا: أنَّ الرَّجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرَّجل يتَّخذ الحصيرة في الشِّتاء، ما له من دثارٍ غيرها[1].

4 - الجهاد والتَّضحية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـــهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ **[التوبة: 20]** .

تركَّزت دعوة الرُّســـل على التَّضـــحية، والفداء؛ إذ إنَّها تواجه عناداً، وتكذيباً وعداءً مســتحكماً، وهذا لابدَّ من مواجهته بصـــلابة عودٍ، وقوَّة إيمانٍ، ورســوخ عقيدةٍ، وعظيم بذل، والحياة في ظلِّ العقيدة حياةُ جهادٍ وكفاحٍ، ومنذ مطلع الدَّعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بإيذاء قومه؛ حيث قال له ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موسى. يا ليتني فيها جَذَعاً[2]! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أومخرجيَّ هم؟» فقال ورقة: «نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودي، وإن يُدركْني يومُك؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً» **[البخاري (3) ومسلم (160)]** .

وقد اشتمل حدث الهجرة على أنواعٍ من التَّضحية، والفداء، وبذل النَّفس، والمال في سبيل الله[3].

ولعلَّ الملاحظة الجديرة بالتأمُّل في هذا المجال: أنَّ التَّضحية ملازمةٌ للجهاد في سبيل الله؛ إذ

---

[1] انظر: تفسير البغوي (318/4).

[2] جَذعاً: شابّاً قويّاً. انظر: شرح صحيح مسلم ، للنَّوويّ.

[3] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 104.

لا جهاد دون تضحيةٍ[1].

5 – نصرُهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8].

امتدح الله – سبحانه وتعالى – في هذه الآية الكريمة المهاجرين، بأنهم ينصرون الله ورسوله؛ ذلك لأنَّهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم، مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم ونَصْرُ الله شرطٌ لتحقيق النَّصر، والتثبيت. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

قال سيّد قطب: وكيف يَنْصُرُ المؤمنون الله؛ حتَّى يقوموا بالشَّرط، وينالوا ما شرط لهم من النَّصر، والتثبيت؟

إنَّ للهِ في نفوسهم أن تتجرَّد له، وألا تشرك به شيئاً شركاً ظاهراً، أو خفيّاً، وألا تستبقي فيها معه أحداً، ولا شيئاً، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها، ومن كلِّ ما تحبُّ وتهوى، وأن تحكِّمَه في رغباتها، ونزواتها، وحركاتها، وسكناتها، وسرِّها وعلانيتها، ونشاطها كلِّه، وخلجاتها، فهذا نصر الله في ذوات النُّفوس. وإنَّ للهِ شريعةً، ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد، وموازين، وقيمٍ، وتصوُّر خاصٍّ للوجود كلِّه، وللحياة، ونصرُ الله يتحقَّق بنصرة شريعته، ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلِّها بدون استثناءٍ، فهنا نصر الله في واقع الحياة[2].

6 – التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 41 – 42] يمتدح الله

---

[1] انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 106.

[2] في ظلال القرآن (3288/6).

– سبحانه وتعالى – المهاجرين، بأنَّهم يتوكَّلون على الله لا على غيره، والتوكُّل على الله خاصِّيَّةُ الإيمان، وعلامته، وهو منطق الإيمان، ومقتضاه. قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة: 23] .

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84] .

وقال الله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم: 11] وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام مثالاً يُقتدى به على مرّ الدُّهور في ترجمة التَّوكُّل في واقع الحياة في حادثة الهجرة، ولحسن توكّلهم على الله – سبحانه وتعالى – أثنى عليهم، وجزاهم أحسن الجزاء[1].

7 – الرَّجاء:

ومن صفات المهاجرين الحميدة؛ الَّتي مدحهم الله بها: الرَّجاء. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218] .

وإنَّما قال: وقد مدحهم؛ لأنَّه ﴿يَرْجُونَ﴾ يعلم أحدٌ في هذه الدُّنيا: أنَّه صائر إلى الجنَّة، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغٍ لأمرين: أحدهما: أنَّه لا يدري بما يُختم له، والثَّاني: لئلا يتَّكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم، ومع ذلك يرجون رحمة الله، وذلك زيادة إيمانٍ منهم[2].

8 – اتِّباع الرَّسول صلى الله عليه وسلم:

وممَّا يدلُّ على أنَّ الهجرة لها مكانةٌ عظيمةٌ في القرآن الكريم: أنَّ الله – سبحانه وتعالى –

---

(1) انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 114 إلى 117.

(2) الجامع لأحكام القران (50/3) ، وتفسير أبي السُّعود (218/1).

وصف المهاجرين، وأنصارهم بأنَّهم يتَّبعون الرَّسول صلى الله عليه وسلم . قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 117] فالمهاجرون، والأنصار، هم الذين يتَّبعون الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ في أقواله، وأعماله؛ بل في ساعة العسرة، ممَّا يدلُّ على أنَّهم يستحقُّون بذلك الدَّرجة العظمى، والتَّوبة من الله عزَّ وجلَّ.

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شدَّةٍ من الأمر، في سَنَةٍ مُجْدبةٍ، وحرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ في الزَّاد، والماء.

قال قتادة: «خرجوا إلى الشَّام عام تبوك في لهبان الحرِّ، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديدٌ، حتَّى لقد ذُكِرَ لنا: أنَّ الرجلين كانا يشقَّان التَّمرة بينهما، وكان النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم؛ يمصُّها هذا، ثمَّ يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم، وأقفلهم[1] من غزوتهم»[2].

إنَّ اتِّباع الرَّسول صلى الله عليه وسلم يدلُّ على حقيقة الإيمان، وحقيقة الدِّين، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان، والكفر في جلاءٍ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أنْ يُصاحبه الاتِّباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسَّير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة. إنَّ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال، ولا مشاعر تَجيش، ولا شعائر تُقام، ولكنَّه طاعةُ الله، والرَّسول، وعملٌ بمنهج الله؛ الَّذي يحمله الرَّسول صلى الله عليه وسلم . قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 31 – 32] .

قال ابن كثيرٍ في تفسيره للآية المذكورة: «هذه الآية الكريمة، حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى

---

(1) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

(2) تفسير ابن كثير (397/2).

محبَّة الله؛ وليس هو على الطَّريقة المحمَّدية؛ فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ، والدِّين النَّبويَّ، في جميع أقواله، وأعماله[1]، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَّه قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» [البخاري (2697) ومسلم (1718)] .

9 - حقُّ السَّبق في الإيمان والعمل:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الآنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100] .

قال الرَّازي: والسَّبق موجبٌ للفضيلة؛ فإقدامهم على هذه الأفعال يُوجِبُ اقتداء غيرهم بهم. قال صلى الله عليه وسلم : «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجر من عمل بها، إلى يوم القيامة» [أحمد (357/4 - 358) ومسلم (1017) والترمذي (2675) والنسائي (75/5 - 77) وابن ماجه (203)]. فدواعي النَّاس تَقوى بما يرون من أمثالهم، في أحوال الدِّين، والدُّنيا، وثبت بهذا: أنَّ المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[2].

وهكذا اختار الله - سبحانه وتعالى - السَّابقين من المهاجرين، من تلك العناصر الفريدة النَّادرة، الَّتي تحتمل الضغوط، والفتنة، والأذى، والجوع، والغربة، والعذاب، والموت في أبشع الصُّور في بعض الأحيان؛ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين في مكَّة، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين بعد ذلك في المدينة، مع السَّابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوا بها في أوَّل الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أنَّ بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بيعة العقبة)، قد دلَّت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعةٍ أصيلةٍ مكافئةٍ لطبيعة هذا الدِّين.

وبالمهاجرين، والأنصار تكوَّنت للإسلام قاعدةٌ صلبةٌ من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربيِّ، فأما العناصر الَّتي لم تحتمل هذه الضُّغوط؛ فقد فُتنت عن دينها، وارتدَّت إلى الجاهليَّة

---

[1] تفسير ابن كثير ، (466/3).
[2] انظر: تفسير الرَّازي (208/15).

مرَّةً أخرى، وكان هذا النَّوع قليلاً، فقد كان الأمر كلُّه معروفاً مكشــوفاً من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهليَّة إلى الإسلام، وقطع الطريق الشَّائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التَّكوين[1]. وبذلك أيضــاً تتَّضــح لنا منزلة المهاجرين، وعلوُّ طبقتهم في الفضـل؛ حيث أنفقوا، وقاتلوا؛ والعقيدة مطاردةٌ، والأنصـار قلَّةٌ، وليس في الأفق ظلُّ منفعةٍ، ولا سـلطانٍ، ولا رخاءٍ، مما يدلُّ على أنَّهم لا يسـتوون مع غيرهم من الَّذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظُّروف الصَّــعبة[2]. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَــبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْــتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: 10].

وقد تحدَّث ابن كثيرٍ عن آية ســورة التَّوبة؛ الَّتي بيَّنت فضــل السَّــابقين من المهاجرين، والأنصــار، فقال: فقد أخبر الله العظيم: أنَّه قد رضــي عن السَّــابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصــار، والذين اتَّبعوهم بإحســانٍ، فيا ويل من أبغضــهم، أو ســبَّهم أو أبغض، أو ســبَّ بعضهم، ولا سيما سيِّد الصَّحابة بعد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ وخيرهم، وأفضلهم، أعني: الصِّــديق الأكبر، والخليفة الأعظم، أبا بكرٍ بن أبي قحافة؛ فإنَّ الطَّائفة المخذولة من الرَّافضــة يعادون أفضل الصَّحابة، ويبغضونهم، ويسبُّونهم، عياذاً بالله من ذلك! وهذا يدلُّ على أنَّ عقولهم معكوسـةٌ، وقلوبهم منكوسـةٌ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسـبُّون من رضـي الله عنهم؟! وأمَّا أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّون عمَّن رضي الله عنهم، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متَّبعون، لا مبتدعون، ويقتدون، ولا يبتدعون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون[3].

---

[1] في ظلال القران (1703/3).

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 124.

[3] تفسير ابن كثير (332/2).

10 - الفوز:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: 20] .

قال أبو السُّعود في تفسيره: قوله تعالى: أي: المختصُّون بالفوز ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، أو بالفوز المطلق، كأنَّ فوز من عداهم ليس بفوزٍ بالنِّسبة إلى فوزهم[1].

فهذا ثناءٌ من الله العليِّ العظيم، على المهاجرين، بأنَّهم يستحقُّون الفوز العظيم، والفوز يكون عظيماً لأنَّه يأتي من مصدر العظمة، وأيُّ فوزٍ أعظم من هذا الفوز! يخبرهم ربُّهم بأنَّهم من الفائزين في الآخرة، وذلك بدخولهم الجنَّة، وبُعْدهم عن النَّار. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185] .

11 - الإيمان الحقيقيُّ:

ومن هذه الصِّفات الحميدة؛ الَّتي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحقّ. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الآنفال: 74] .

فهذه شهادةٌ من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنَّهم المؤمنون حقّاً، فالمهاجرون رضي الله عنهم هم النَّموذج الحقيقيُّ؛ الَّذي يتمثَّل فيه الإيمان - بعد رسول الله (ﷺ) - كما أنَّهم قدوةٌ حسنةٌ لمن جاء بعدهم وصورةٌ حقيقيَّةٌ في ترجمة الصِّفات الحميدة في واقع الحياة، فلذلك استحقُّوا هذا الثناء الرَّبانيّ بأنَّهم المؤمنون حقّاً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

[1] تفسير أبي السُّعود (53/4).

كَرِيمٌ ﴾ [الآنفال: 2 – 4]. وهذه الصِّفات الحميدة تتمثَّل في حياة المهاجرين، كما أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان[1].

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النِّعم الَّتي وعد بها المهاجرين في الدُّنيا، والآخرة؛ ومن هذه النِّعم:

1 – سعة رزق الله لهم في الدُّنيا:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 100] .

ومن سعة رزق الله لهم في الدُّنيا تخصيصهم بمال الفيء، والغنائم. قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] فالمال لهؤلاء لأنَّهم أُخرجوا من ديارهم، فهم أحقُّ النَّاس به[2].

ومن سعة الله لهم في الرِّزق أن خلَّص الله – عزَّ وجلَّ – الأنصار من شحِّ النفس، ووسَّع صدورهم للمهاجرين. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: 9].

إنَّ الله – عزَّ وجلَّ – وعد المهاجرين سعة الرِّزق في الدُّنيا، وتحقَّق ذلك الوعد الكريم؛ وذلك لأنَّ الله – عزَّ وجلَّ – في منهجه الرَّبانيِّ القرآني يعالج هذه النَّفس في وضوحٍ وفصاحةٍ، فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف، ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار – بما في ذلك خطر

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم، ص 129.

[2] انظر: تفسير ابن كثير (295/4)، وتفسير أبي السعود (228/8)، وتفسير فتح القدير (200/5)، والهجرة في القران الكريم، ص 132.

الموت – ولكنَّه يسكب فيها الطُّمأنينة بحقائق أخرى، وبضمانة الله – سبحانه وتعالى – فهو يحدِّد الهجرة بأنَّها «في سبيل الله»، وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام، فليست هجرةً للثَّراء، أو هجرةً للنَّجاة من المتاعب، أو هجرةً للذائذ والشَّهوات، أو هجرةً لأيِّ عرضٍ من أعراض الحياة، ومَنْ يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحةً، ومنطلقاً، فلا تضيق به الأرض،

ولا يعدم الحيلة، والوسيلة للنَّجاة، وللرِّزق، والحياة[1]؛ لأنَّ الله سيكون في عونه، ويسدِّد خطاه.

2 – تكفير سيئاتهم، ومغفرة ذنوبهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد بها الله – سبحانه وتعالى – المهاجرين تكفيرُ سيِّئاتهم، ومغفرة ذنوبهم. قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195] .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحاديث كثيرةٌ تبيِّن: أنَّ الهجرة من أعظم الوسائل المكفِّرة للسَّيِّئات، وأنَّها سببٌ لمغفرة ذنوب أهلها، ومن هذه الأحاديث: عن ابن شماسة المهريِّ قال: حضَرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة[2]الموت، فبكى طويلاً، وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنُهُ يقول: يا أبتاهُ! أما بشَّرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ أمَا بشَّرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إنَّ أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله. إنِّي كنت على أطباقٍ[3] ثلاث، لقد رأيتني وما

---

[1] في ظلال القران (745/2).
[2] سياقة الموت: أي النَّزع ، كأنَّ روحه تساق لتخرج من بدنه.
[3] أطباق ثلاث: أحوال ثلاث ، واحدها طبق.

أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم منِّي، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه، فقتلْتُهُ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النَّار، فلـمَّا جعل اللهُ الإسلامَ في قلبي، أتيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ: ابسُطْ يمينك فلأبايعنَّك، فَبَسَطَ يمينَهُ، قال: فقبضتُ يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلتُ: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلتُ: أن يُغْفَرَ لي. قال: «أما علمت أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله!» وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه؛ إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطَقْتُ؛ لأنِّي لم أكن أملأ عينيَّ منه، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنَّة، ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحةٌ، ولا نارٌ، فإذا دفنتموني؛ فشُنُّوا[1] عليَّ التُّرابَ شنّاً، ثمَّ أقِيمُوا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ، ويُقْسَمُ لحمُها؛ حتى أستأنسَ بكم، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربِّي. [مسلم (121)] .

قال النَّوويُّ: فيه: عظم موقع الإسلام، والهجرة، والحجِّ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها يهدم ما كان قبله من المعاصي. وفيه: استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنِّه بالله سبحانه وتعالى، وذكر آيات الرَّجاء، وأحاديث العفو عنده، وتبشيره بما أعدَّه الله تعالى للمسلمين، وذكر حسن أعماله عنده ليحسن ظنَّه بالله تعالى، ويموت عليه، وهذا الأدب مستحبٌّ بالاتفاق[2].

3 – ارتفاع منزلتهم، وعظمة درجتهم عند ربِّهم:

وعد الله – سبحانه وتعالى – الَّذين نالوا أفضل الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم أعظم الدَّرجات عند الله. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة: 20] .

---

[1] فشنُّوا عليَّ التُّراب: أي صبُّوه متفرقاً ، انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 136.

[2] انظر: شرح النَّووي لصحيح مسلمٍ للحديث المذكور ، والهجرة في القران الكريم ، ص 138.

يقول الفخر الرَّازي: إنَّ الموصـــوفين بهذه الصِّـــفات الأربعة، في غاية الجلالة والرِّفعة؛ لأنَّ الإنسان ليس له إلا مجموع أمورٍ ثلاثة: الرُّوح، والبدن، والمال، أمَّا الرُّوح؛ فلمَّا زال عنها الكفر، وحصـل فيها الإيمان؛ فقد وصـلت إلى مراتب العادات اللاَّئقة بها، وأمَّا البدن، والمال؛ فبسـبب الهجرة وقعا في النُّقصـان، وبسـبب الاشـتغال بالجهاد صـارا مُعرَّضَـيْنِ للهلاك، والبطلان، ولا شـكَّ: أنَّ كلاً من النَّفس، والمال؛ محبوبٌ للإنسـان، والإنسـان لا يعرض عن مجموعه إلا للفوز بمحبوبٍ أكمل من الأوَّل، فلولا أنَّ طلب الرِّضـــوان أتمُّ عندهم من النَّفس، والمال؛ لما رجَّحُوا جانب الآخرة على جانب النَّفس، والمال، ولما رَضُـــوا بإهدار النَّفس، والمال لطلب مرضـــاة الله تعالى.

فثبت: أنَّ عند حصول الصِّفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى أعلى درجات البشريَّة، وأوَّل مراتب درجات الملائكة، وهم بذلك يكونون أفضـل من كلِّ مَنْ سـواهم من البشـر على الإطلاق؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصِّفات[1].

فالذين آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا في سـبيل الله بأموالهم، وأنفسـهم أعظم، وأعلى مقاماً في مراتب الفضـــل، والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبةً من أهل سـقاية الحاجِّ وعمارة المســجد الحرام؛ الَّذين رأى بعض المسلمين: أنَّ عملهم إيَّاهما من أفضل القربات بعد الإسلام.

فالَّذين نالوا فضل الهجرة، والجهاد بنوعيه: النَّفسيِّ، والماليِّ أعلى مرتبةً، وأعظم كرامةً ممَّن لم يتَّصف بهما كائناً مَنْ كان، ويدخل في ذلك أهل السِّقاية، والعمارة[2].

وأنَّه تعالى لم يقل: أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية، والعمارة؛ لأنَّه لو عين ذكرهم لأوهم أنَّ فضيلتهم إنَّما حصلت بالنسبة إليهم، ولـــمَّا ترك ذكر المرجوح؛ دلَّ ذلك على أنَّهم أفضل من كل مَنْ سواهم على الإطلاق؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى، وأكمل

---

[1] انظر: تفسير الرازي (13/16) وما بعدها بتصرف.

[2] تفسير المراغي (78/10).

من هذه الصِّفات[1]. والتَّفضيل هنا في قوله: ليس على ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، فهو لا يعني: أنَّ للآخرين درجةً أقلَّ؛ إنما هو التَّفضـــيل المطلق، فالآخرون ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: 17] فلا مفاضــــلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجةٍ، ولا في نعيمٍ[2].

4 – استحقاقهم الجنَّة، والخلود فيها:

ومن النِّعم الَّتي أعدَّها الله – سـبحانه وتعالى – للمهاجرين الجنَّةُ، والخلود فيها. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 20 – 22] قال الشَّـــوكاني في تفســـيره: والتنكير في الرَّحمة، والرِّضــوان، والجنَّات للتَّعظيم، والمعنى: أنَّها فوق وصــف الواصـفين، وتصـوُّر المتصـوِّرين. والنَّعيم المقيم: الدَّائم المستمرُّ الَّذي لا يفارق صـاحبه، وَذِكْرُ الأبد بعد الخلود تأكيدٌ له[3]. هذه بشرى ما بعدها بشـرى، وقد وعد الله – سـبحانه وتعالى – بها المؤمنين والمؤمنات. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الآنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَــــاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72] .

5 – الفوز العظيم ورضوان الله عليهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد الله – ســبحانه وتعالى – بها المهاجرين: أنَّهم ســينالون الفوز العظيم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: 20] .

ورضـوانُ الله تعالى عليهم أكبر، وأجلُّ، وأعظم ممَّا هم فيه من النَّعيم، وهو نهاية الإحسـان،

---

[1] تفسير الرَّازي (14/16).

[2] في ظلال القران (1614/3) ، والهجرة في القران الكريم ، ص 141.

[3] تفسير فتح القدير (345/2) ، والهجرة في القران الكريم ، ص 142.

وهو أعلى النِّعم، وأكمل الجزاء[1]، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72] .

ورضا الله عنهم هو الرِّضا الَّذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى، وأكرم مثوبةً، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه على نعمائه، والصَّبر على ابتلائه، ولكن التَّعبير بالرِّضا هنا، وهناك يشيع جوَّ الرِّضا الشَّامل، الغامر، المتبادل، الوافر، الوارد، الصَّادر بين الله سبحانه وتعالى وهذه الصَّفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصَّفوة من البشر؛ حتَّى إنَّهم ليبادلون ربهم الرِّضا، وهو ربُّهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون، وهو حالٌ، وشأنٌ وجوٌّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبِّر عنه، ولكن يتَّسم، ويتشرَّف، ويستجلي من خلال النَّصِّ القرآنيِّ، بالرُّوح المتطلِّع، والقلب المتفتِّح، والحسِّ الموصول[2].

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء، والثَّواب بسبب جهادهم المرير. إنَّ المهاجرين بإيمانهم الرَّاسخ، ويقينهم الخالص لم يمكِّنوا الجاهليَّة في مكَّة من وأد الدَّعوة؛ وهي في مستهلِّ حياتها؛ لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيِّهم، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه، وآمنوا به، فلـمَّا أسرفت الجاهليَّة في عسفها، واضطهادها، وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصَّابرين بالهجرة من مكَّة؛ خرجوا من ديارهم، وأموالهم، ويمَّموا صوب المدينة؛ ليس رهبة من الكفر، ولا رغبة في الدنيا؛ ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله، ويبتغون فضلاً منه ورضواناً؛ ولذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فَضْلٍ في الدُّنيا، وما أعدَّه لهم يوم القيامة من ثوابٍ عظيم[3].

ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة:

إنَّ الأسلوب القرآنيَّ في الوعد، والوعيد يهدف إلى الخشية، والرَّجاء في النُّفوس: رجاء

---

(1) تفسير ابن كثير (320/2) ، وتفسير المراغي (79/10) ، والهجرة في القران الكريم ، ص 144.

(2) في ظلال القران (1705/3).

(3) انظر: هجرة الرَّسول صلى الله عليه وسلموصحابته في القران والسُّنَّة ، للجمل ، ص 332 ، 333.

يدفعها إلى الطَّاعة، والاستقامة، وخشيةٍ تمنعها من المعصية، وتسرع بها إلى الاستغفار، والتَّوبة، والمؤمن بينهما في معادلةٍ جِدُّ دقيقةٍ؛ لئلا يقعَ فريسةً لليأس، والقنوط، ولا يندفع إلى الجرأة على محارم الله، أو التهاون فيما أمر الله، ولقد استطاع القرآن الكريم بسلاحيه هذين أن يحفظ للفرد شخصيته، وللمجتمع مقوِّماته؛ في الحياة، والمال، والعقل، والعِرْض، والدِّين[1]، وهي كلّياتٌ تقوم عليها الحياة الرَّشيدة الفاضلة. ولقد رأت الحياة النُّور في أجيالٍ عديدةٍ، أنارها القرآن بالوعد، والرجاء، وبالوعيد، والخشية، ولـمَّا خَفَتَ ذلك النورُ بِبُعد النَّاس عن القرآن؛ اصطدم الفردُ بفطرته، والمجتمعُ بواقعه؛ فاضطربت القيم، وانهارت الأخلاق، وفسدت المعاملات، والمناهج والتَّصوُّرات، ولن يصلح اخر هذه الأمَّة إلا بما صلح به أوَّلها، وأن تخشى الله لا تخشى سواه، وأن ترجوه لا ترجو إلا إيَّاه[2] ومن العقوبات الَّتي توعَّد الله - عزَّ وجلَّ - بها المتخلِّفين عن الهجرة سوءُ المصير. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97] .

روى البخاريُّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يُكثرون سوادَ المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأتي السَّهم يُرْمَى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُله، أو يُضْرَبُ، فيُقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (4596 و7085).

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان قومٌ من أهل مكَّة أسلموا، وكانوا يَسْتخْفُون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدرٍ معهم، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين، وأُكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، قال: فكتب إلى من بقي بمكَّة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا، فلحقهم

---

[1] ولا شك أنَّ سلطان الدَّولة المسلمة يحافظ على مقاصد الشَّريعة.

[2] تفسير سورة فصلت ، د. محمد صالح علي ، دار النفائس ، ص 98 ، نقلاً عن الهجرة في القران الكريم ، ص 151.

المشـــركون، فأعطوهم التَّقيَّة، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 10] .

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، وأيسوا من كلِّ خير، ثمَّ نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110][1] .

لقد وصف الله – سبحانه – المتخلِّفين عن الهجرة بأنَّهم ظلموا أنفسهم، والمراد بالظُّلم في هذه الآية: أنَّ الذين أسلموا في دار الكفر، وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينة ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة[2]. وبما أنَّهم حرموها من دار الإسلام، تلك الحياة الرَّفيعة النَّظيفة الكريمة الحرَّة الطَّليقة، وألزموها الحياة في دار الكفر، تلك الحياة الذَّليلة الخاسئة الضَّعيفة المضطهدة؛ توعَّدهم ممَّا يدلُّ على أنَّها تعني الَّذين فُتِنوا عن دينهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ هناك[3].

وفي هذه الآية الكريمة وعيد للمتخلِّفين عن الهجرة، بهذا المصير ، وبالتَّالي التزم الصَّحابة بأمر الله، وانضمُّوا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة؛ تنفيذاً لأمر الله، وخوفاً من عقابه، وكان لهذا الوعيد أثرُه في نفوس الصَّحابة رضي الله عنهم، فهذا ضمْرَة بنُ جُنْدب لـمَّا بلغه قوله تعالى: وهو ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، قال لبنيه: احملوني؛ فإنِّي لست من المستضعفين، وإنِّي لأهتدي الطريق، وإنِّي لا أبيت اللَّيلة بمكَّة، فحملوه على سريرٍ، متوجهاً إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً، فمات بالتَّنعيم، ولـمَّا أدركه الموت، أخذ يصفِّق بيمينه على شماله، ويقول: اللَّهمَّ هذه لك، وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك، ولـمَّا بلغ خبرُ موته الصَّحابة رضي الله عنهم، قالوا: ليته مات بالمدينة! فنزل[4] قوله

---

[1] زاد المسير ، لابن الجوزي (97/2) ، وتفسير القاسمي (399/3).
[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 161.
[3] في ظلال القران (473/2).
[4] روح المعاني ، للالوسي (128/5 ، 129) ، وأسباب النزول ، للواحدي ، ص 181.

تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 100] .

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصَّحابة، من سرعةٍ في امتثال الأمر، وتنفيذه في النَّشاط، والشِّدَّة، كائنةً ما كانت ظروفهم، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولا يطلبون الرُّخص[1].

فهذا الصحابيُّ تفيد بعض الرِّوايات: أنَّه كان مريضاً[2]، إلا أنَّه رأى أنَّه ما دام له مالٌ يستعين به، ويُحمل به إلى المدينة؛ فقد انتفى عذره، وهذا فقهٌ أملاه الإيمان، وزكَّاه الإخلاص، واليقين[3].

وبعد أن ذكر الله – عزَّ وجلَّ – وعيده للمتخلِّفين عن الهجرة بسوء مصيرهم استثنى من ذلك مَنْ لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتَّعرُّض للفتنة في الدِّين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشُّيوخ، والضِّعاف، والنِّساء، والأطفال، فيعلقهم بالرَّجاء في عفو الله، ومغفرته، ورحمته بسبب عذرهم البيِّن، وعجزهم عن الفرار[4]. قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ۝ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 98 – 99] .

---

[1] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 124.
[2] المصدر السابق نفسه، ص 125.
[3] المصدر السَّابق نفسه، ص 126.
[4] انظر: الهجرة في القران الكريم، ص 167.

الفصل السَّابع

دعائم دولة الإسلام في المدينة[1]

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدَّولة الجديدة، على قواعد متينةٍ، وأسسٍ راسخةٍ، فكانت أولى خطواته المباركة، الاهتمام ببناء دعائم الأمَّة؛ كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحبِّ في الله، وإصدار الوثيقة، أو الدُّستور الإسلاميِّ في المدينة، الَّذي ينظِّم العلاقات بين المسلمين، واليهود، ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسَّعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حلِّ مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الربَّانيِّ في شؤون الحياة كافَّةً، فقد استمرَّ البناء التَّربويُّ والتَّعليميُّ، واستمرَّ القرآن الكريم يتحدَّث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والتَّرغيب في الجنَّة، والتَّرهيب من النَّار، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة، ودعم مقوِّمات الدَّولة، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة، والتَّربويَّة، تتطوَّر مع تطوُّر مراحل الدَّعوة، وبناء المجتمع، وتأسيس الدَّولة. وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزمة الاقتصاديَّة بالمدينة، من خلال المنهج الربَّانيِّ، واستمرَّ البناء التربويُّ، ففُرِض الصِّيامُ، وفُرضتِ الزَّكاة، وأخذ المجتمع يزدهر، والدَّولة تتقوَّى على أسسٍ ثابتةٍ، وقويَّة.

* * *

[1] ينظر الشكلان (12 و13) في الصفحتين (748 و749).

المبحث الأوَّل

الدِّعامة الأولى بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أوَّلَ ما قام به الرَّسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بناءُ المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، الَّتي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصَّلوات؛ الَّتي تربط المرء بربِّ العالمين، وتنقِّي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدُّنيا[1].

روى البخاريُّ بسنده: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة راكباً راحلتَهُ، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتَّى بَرَكَتْ عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين، وكان مِرْبَداً[2] للتَّمر، لسهلٍ، وسُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زُرَارَة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثمَّ دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الغلامين، فساومهما بالمِرْبَد ليتَّخذَه مسجداً، فقالا: لا، بل نَهَبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتَّى ابتاعه منهما. [البخاري (3906)] .

وفي رواية أنس بن مالكٍ: فكان فيه ما أقول: كان فيه نَخْلٌ، وقُبورُ المشركين، وخربٌ، فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالنَّخل، فقُطع، وبقبور المشركين، فنُبِشَتْ، وبالخربِ، فسُوِّيَتْ. قال: فَصَفُّوا النَّخلَ قبلةً، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً. قال: فكانوا يرتجزون، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم معهم؛ وهم يقولون:

اللَّهُمَّ! لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الآخرهْ ... فَانْصُرِ الأنصارَ والمهَاجِرَهْ

[البخاري (428) ومسلم (524)] .

شرع الرَّسول صلى الله عليه وسلم في العمل مع أصحابه، وضرب أوَّل معولٍ في حفر

---

[1] انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص 191، وفقه السِّيرة، للبوطي، ص 151.

[2] مربد: الموضع الذي يُجفَّف فيه التَّمر. القاموس المحيط (304/1).

الأســـاس؛ الَّذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثمَّ اندفع المســـلمون في بناء هذا الأســـاس بالحجارة، والجدران - الَّتي لم تزد عن قامة الرَّجل إلا قليلاً - باللَّبن؛ الَّذي يعجن بالتُّراب، ويســـوَّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ للبناء[1]. وفي النَّاحية الشَّمالية منه، أقيمت ظلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النَّخل، كانت تســـمَّى «الصُّــفة»، أما باقي أجزاء المســـجد، فقد تُرِكت مكشــوفةً بلا غطاءٍ[2].

أمَّا أبواب المســـجد؛ فكانت ثلاثةٌ: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبيَّة، وباب في الجهة الشَّـرقيَّة، كان يدخل منه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بإزاء باب بيت عائشـة، وباب من الجهة الغربية، يقال له: باب الرَّحمة، أو باب عاتكة[3].

أولاً: بيوتات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم التَّابعة للمسجد:

وبُني لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حُجَرٌ حول مسـجده الشَّـريف؛ لتكون مسـاكن له، ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك، والأكاسـرة، والقياصـرة؛ بل كانت بُيوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عن الدُّنيا، وزخارفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمســـجده مبينةً من اللَّبن، والطين، وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النَّخل، والجريد، وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسـن البصـريُّ - وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سـلمة -: «قد كنت أنال أول سـقفٍ في حُجَرِ النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم بيدي»[4]. وهكذا كانت بيوت النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم في غاية البسـاطة، بينما كانت المدينة تشـتهر بالحصـون العالية، الَّتي كان يتَّخذها عِلْيَةُ القوم؛ تباهياً بها في السِّـــلم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول اسمه: (مزاحم)، وكما كان حصن

---

[1] انظر: نور اليقين ، للخضري ، ص (87 ، 88) ، وتاريخ خليفة بن خياط ، ص 56 ، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى ، د. فايد حمَّاد عاشور ، وسليمان أبو عزب ، ص 108.

[2] انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (321/1).

[3] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (258/1).

[4] انظر: نظام الحكومة النَّبوية المسمَّى التراتيب الإداريَّة ، لعبد الحيِّ الكتاني (474/1).

حسَّان بن ثابت رضي الله عنه اسمه: (فارع).

إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بنى بيوته بذلك الشَّكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقةً، ولو أنَّه أشار إلى رغبته بذلك مجرَّد إشارةٍ، لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدَّولة العامَّة؛ كالفيء، ونحوه، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك؛ ليضرب لأمتِّه مثلاً رفيعاً، وقدرةً عاليةً في التَّواضع والزُّهد في الدُّنيا، وجمع الهمَّة، والعزيمة للعمل لما بعد الموت[1].

ثانياً: الأذان في المدينة[2]:

تشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه لإيجاد عملٍ ينبِّه النَّائم، ويدرك السَّاهي، ويُعلِم النَّاس بدخول الوقت لأداء الصَّلاة، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصَّلاة ليراها النَّاس، فاعترضوا على هذا الرأي؛ لأنَّها لا تفيد النَّائم، ولا الغافل، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب، فلم يُقبل هذا الرَّأي أيضاً، وأشار آخرون ببوقٍ - وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم - فكرهه الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يحبُّ مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم، وأشار بعضُ الصَّحابة باستعمال النَّاقوس - وهو ما يستعمله النَّصارى - فكرهه الرَّسول صلى الله عليه وسلم أيضاً، وأشار فريقٌ بالنِّداءِ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها، فقُبل هذا الرَّأي، وكان أحد المنادين عبدَ الله بن زيدٍ الأنصاريَّ، فبينما هو بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النِّداء بالصَّلاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين، وتشهَّد مرَّتين، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّلاة مرَّتين، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين، ثمَّ كبِّر ربَّك مرَّتين، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجَّه إلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبره خبر رؤياه، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛

---

[1] الفتاوى (11/38).

[2] انظر: فتح الباري ، في شرح حديث رقم (3581).

فإنَّه أندى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤذِّن للصَّـــلاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رســـول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤذِّنيه بالمدينة، والآخر عبد الله بنُ أمِّ مكتومٍ، وكان بلال يقول في أذان الصُّبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّلاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين، وأقرَّه الرَّســول صــلى الله عليه وســلم على ذلك، وكان يُؤذِّن في البداءة من مكانٍ مرتفعٍ، ثمَّ اســتُحدثت المنارة (الْمئذَنة) [أحمد (43/4) وأبو داود (499) والترمذي (189) وابن ماجه (706) وابن حبان (1679)][(362)] .

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة:

كانت أوَّل خطبةٍ خطبها رسولُ الله صــلى الله عليه وســلم بالمدينة: أنه قام فيهم، فحمِدَ الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ! فقدموا لأنفســـكم. تعلمُنَّ والله ليُصْـعَقَنَّ أحدُكم، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه؛ وليس له ترجمانٌ، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسـولي، فبلَّغك؟! وآتيتك مالاً، وأفضـلت عليك، فما قدَّمت لنفسـك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً، وشمالاً، فلا يرى شـيئاً، ثمَّ لينظرنَّ قُدَّامه، فلا يرى غير جهنَّم؛ فمن اسـتطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشقٍّ من تمرةٍ فليفعل، ومن لم يجد؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعفٍ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [البيهقي في الدلائل (524/2) وابن هشام (146/2)] .

ثمَّ خطب رســول الله صــلى الله عليه وســلم مرَّةً أخرى، فقال: «إنَّ الحمد لله، أحمده، وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى. قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث النَّاس، إنَّه أحســن الحديث، وأبلغه، أحِبُّوا من أحبَّ اللهُ، أحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم، ولا تَمَلُّوا كلام الله وذكرَهُ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم؛ فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار، ويصـطفي، قد

سمّاه الله خيرتَه من الأعمال، ومُصــــطفاه من العباد، والصَّـــالح من الحديث، ومن كلِّ ما أوتي النَّاس الحلالُ والحرامُ، فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتَّقوه حقَّ تقاته، واصْدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إنَّ الله يغضــب أن يُنْكَثَ عهده، والسَّـلام عليكم» [البيهقي في الدلائل (2/524 – 525) وابن هشام (2/146 – 147)] .

رابعاً: الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويّ:

لــــمَّا تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة [البخاري (40) ومسلم (545)]، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم به، فظلِّل، أو سقف، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة)[(363)]، ولم يكن له ما يستُرُ جوانبه[(364)].

قال القاضي عياض: الصُّفَّة ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأوي إليها المساكين، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة[(365)].

وقال ابن تيميَّة: الصُّـفَّة كانت في مؤخرة مســجد النَّبيّ صــلى الله عليه وســلم ، في شمالي المسجد بالمدينة المنوَّرة[(366)].

وقال ابن حَجَرٍ: الصُّفَّة مكانٌ في مؤخَّر المسجد النَّبويِّ مظلَّلٌ، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه، ممَّن لا مأوىً له، ولا أهل. [فتح الباري (6/738)][(367)] .

1 – أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وأهلُ الصُّفَّة أضيافُ الإسلام، لا يأوون إلى أهلٍ، ولا مالٍ، ولا على أحدٍ» [البخاري (6452)] .

إنَّ المهاجرين الأوائل، الَّذين هاجروا قبل النَّبيِّ صــلى الله عليه وســلم ، أو معه، أو بعده؛ حتَّى نهايـــة الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ، اســتطاع الأنصــار أن يســتضــيفوهم في بيوتهم، وأن يشـــاركوهم النَّفقة، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصـــار على

استيعابهم[1]؛ فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيءٍ؛ فإنَّ الإسلام صار ينتشر، والنَّاس يدخلون فيه، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء، والأغنياء، والآهلين، والعُزَّاب، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»[2].

والَّذي يظهر للباحث: أنَّ المهاجر الَّذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ يوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله، فإن لم يجد فإنَّه يستقرُّ في الصُّفَّة مؤقتاً، ريثما يجدُ السَّبيل[3]؛ فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُشغل، فإذا قدم رجلٌ مهاجرٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دفعه إلى رجلٍ منَّا يعلِّمه القرآن، فدفع إليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلاً، وكان معي في البيت، أُعشِّيه عشاء أهل البيت، فكنت أُقرئه القرآن» [أحمد (324/5)] . وقد كان أول مَنْ نزل الصُّفة المهاجرون[4]؛ لذلك نسبت إليهم، فقيل: (صُفَّة المهاجرين)[5]، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود، الَّتي كانت تقدم على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم معلنةً إسلامَها، وطاعتها[6]، وكان الرَّجل إذا قدم على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وكان له عريفٌ؛ نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف؛ نزل مع أصحاب الصُّفَّة[7]، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُّفَّة من القاطنين، ومَنْ نزلها من الطَّارقين، فكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا أراد دعوتهم، عهد إلى أبي هريرة، فدعاهم؛ لمعرفته بهم، وبمنازلهم، ومراتبهم في العبادة، والمجاهدة[8]. ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة؛ حبّاً لحياة الزُّهد، والمجاهدة، والفقر، برغم استغنائهم عن ذلك، ووجود دارٍ لهم في المدينة؛ ككعب بن مالك الأنصاريِّ، وحنظلة بن أبي عامرٍ الأنصاري (غسيل الملائكة)، وحارثة

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، للشَّامي ، ص 175.
(2) الفتاوى (40/11 ، 41).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربيةُ أمَّة وبناء دولة ، ص 175.
(4) انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (323/1).
(5) سنن أبي داود (361/2).
(6) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (258/1).
(7) المصدر السابق نفسه (259/1).
(8) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (259/1).

بن النُّعمان الأنصاريِّ، وغيرهم[1].

2 - نفقة أهل الصُّفَّة، ورعاية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والصَّحابة لهم:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يتعهَّد أهل الصُّفَّة بنفسه، فيزورهم، ويتفقَّد أحوالَهم، ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم، ويرشدهم، ويواسيهم، ويذكِّرهم، ويعلِّمهم، ويوجِّههم إلى قراءة القرآن الكريم، ومدارسته، وذِكْرِ الله، والتَّطلُّع إلى الآخرة[2]، وكان صلى الله عليه وسلم يُؤَمِّن نفقتهم بوسائل متعدِّدةٍ، ومتنوعةٍ؛ منها:

1 - «إذا أتته صلى الله عليه وسلم صدقةٌ؛ بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديَّة، أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها» [البخاري (6452)] .

2 - كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطَّعام في إحدى حجرات أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً؛ بل كانت حالتُهم ماثلةً أمامه؛ فعن عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء، وإنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال مرَّةً: «من كان عنده طعام اثنين؛ فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة؛ فليذهب بخامسٍ، أو سادسٍ - أو كما قال - وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثةٍ، وانطلق النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بعشرةٍ» [البخاري (3581) ومسلم (2057)]. وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاريِّ، قال: «كان أبي من أصحاب الصُّفَّة، فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بهم، فجعل الرَّجل ينقلب بالرَّجل، والرَّجل بالرَّجلين؛ حتَّى بقيت خامس خمسة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انطلقوا»، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة». [أحمد (4/429 - 430) والطيالسي (1339)] .

3 - وكان صلى الله عليه وسلم يطلب من النَّاس أن يوجِّهوا صدقاتهم إليهم؛ فقد جاء في المسند: أنَّ فاطمة لـمَّا ولدت الحسن؛ طلب منها صلى الله عليه وسلم أن تحلق رأسه، وتتصدَّق

---

[1] المصدر السابق نفسه (1/259).

[2] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (1/266).

بوزن شعره من فضَّة، على أهل الصُّفَّة. [أحمد (390/6 – 391)] .

4 – وقد كان صلى الله عليه وسلم يقدِّم حاجتهم على غيرها ممَّا يطلب منه؛ فقد أُتي بسَبْيٍ مرَّةً، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً، فكان جوابه – كما في المسند عند الإمام أحمد –: «والله! لا أعطيكما، وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطْوى بطونُهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم؛ ولكن أبيعُهم، وأنفق عليهم أثمانَهم» [البخاري (3113)] .

5 – وقد أوصى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّحابة بالتَّصدُّق على أهل الصُّفَّة[1]، فجعلوا يَصلُونهم بما استطاعوا مِنْ خيرٍ [الحلية (340/1)]، فكان أغنياء الصَّحابة يبعثون بالطَّعام إليهم [الحلية (378/1)].

3 – انقطاعهم للعلم، والعبادة، والجهاد:

كان أهل الصُّفَّة يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر، والزُّهد، فكانوا في خلواتهم يصلُّون ويقرؤون القرآن، ويتدارسون آياته، ويذكرون الله تعالى، ويتعلَّم بعضهم الكتابة، حتَّى أهدى أحدُهم قوسَه لعبادة بن الصَّامت رضي الله عنه؛ لأنَّه كان يعلمهم القرآن، والكتابة[2].

واشتهر بعضهم بالعلم، وحفظ الحديث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ مثل أبي هريرة رضي الله عنه، الَّذي عُرِف بكثرة تحديثه، وحُذَيفة بن اليمان، الذي اهتم بأحاديث الفتن.

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد؛ بل كان منهم الشُّهداء ببدرٍ؛ مثل صفوان ابن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسديِّ، وخبيب بن يساف، وسالم بن عُمير، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريّ[3]، ومنهم من استشهد بأحدٍ؛ مثل حنظلة الغسيل [الحلية (357/1)]، ومنهم من شهد الحديبية؛ مثل جرهد بن خويلد [الحلية (353/1)]، وأبو سريحة الغفاري [الحلية (355/1)]، ومنهم من

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (267/1).
[2] سنن أبي داود (237/2) ، وابن ماجه (730/2).
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (264/1).

اســـتشــــهد بخيبر؛ مثل ثقيف بن عمرو[1]، ومنهم من اســـتشـــهد بتبوك؛ مثل عبد الله (ذو البِجادَين)[2]، ومنهم من اسـتشـهد باليمامة؛ مثل سـالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن الخطاب، فكانوا رهباناً باللَّيل، فُرْساناً في النَّهار[3].

وكان بعض الصَّحابة قد اختاروا المكوث في الصُّفَّة رغبةً منهم لا اضطراراً؛ كأبي هريرة رضي الله عنه، فقد أحبَّ أن يلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعوِّضَ ما فاته من العلم، والخير - فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السَّابع - وحرص على سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من حديثه صـلى الله عليه وسـلم ، ومعرفة أحواله، وتبرُّكاً بخدمته صـلى الله عليه وسـلم ، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريباً من بيت النَّبيِّ صـــلى الله عليه وســلم ، فكانت الصُّــفة هي المكان الوحيد الَّذي يؤمِّن له ذلك، ولنستمع إليه يوضِّح لنا ذلك، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إنَّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يُكْثِرُ الحديث عن رســول الله صــلى الله عليه وســلم ، وتقولون: ما بالُ المهاجرين، والأنصـار لا يُحَدِّثُون عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشغَلُهُم الصَّفْقُ بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسـلم على ملء بطني، فأشـهدُ إذا غابوا، وأحفظ إذا نَسُـوا، وكان يَشْـغَلُ إخوتي من الأنصـار عملُ أموالهم، وكنت امرأً مسـكيناً من مسـاكين الصُّفَّة، أعي حين يَنْسَـون» [البخاري (2047) ومسلم (2492)] .

وهكذا يوضِّح رضي الله عنه: أنه فعل ذلك رغبةً منه في ملازمة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثمَّ إنَّ أبا هريرة كان له ســكنٌ في المدينة، وهو المكان الَّذي تســكنه أمُّه، والَّتي طلب من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بالهداية. [مسلم (2491) وأحمد (320/2)] .

ثمَّ إنَّ أبا هريرة رضــي الله عنه لم يكن فقيراً مُعْدماً، ففي أوَّل يومٍ قدم فيه على النَّبيِّ صــلى

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (264/1).

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] المصدر السَّابق نفسه.

الله عليه وسلم في خيبر أسهم له صلى الله عليه وسلم من الغنيمة، كما أنَّه لـــمَّا قدم كان معه عبدٌ يخدمه – كما ورد في الصَّـحيح – [1]؛ وإذاً فالَّذي أفقره هو إيثاره ملازمة النَّبيِّ صـلى الله عليه وسلم ، واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد[2].

كان أهل الصُّفَّة يكثرون، ويقلُّون بحسب تبدُّل الأحوال الَّتي تحيط بأهل الصُّفَّة؛ من عودة الأهل، أو زواجٍ، أو يُسرٍ بعد عُسْر، أو شهادةٍ في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل، وكســـب الرِّزق، فقد ذكر الزَّمخشـــريُّ: أنهم كانوا يرضخون النَّوى بالنَّهار، ويظهر: أنَّهم كانوا يرضخون النَّوى – يكسرونه – لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذاً يعملون لكسب الرِّزق[3].

4 – عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون؛ إذا قدمت الوفود إلى المدينة، ويقلُّون إذا قلَّ الطَّارقون من الغرباء، على أنَّ عدد المقيمين منهم في الظروف العاديَّة، كان في حدود السَّـــبعين رجلاً [الحلية (339/1، 341)]، وقد يزيد عددهم كثيراً؛ حتَّى إنَّ ســـعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم، فضلاً عن الآخرين الَّذين يتوزَّعهم الصَّحابة [الحلية (341/1)] .

ومن أهل الصُّفَّة:

1 – أبو هريرة رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

2 – أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

3 – واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

4 – قيس بن طهفة الغفاريُّ رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، ص 184.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] انظر: المدينة النَّبوية فجر الإسلام والعصر الرَّاشديّ ، لشرَّاب (222/1).

5 - كعب بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

6 - سعيد بن عامر بن حذيم الجمحيُّ رضي الله عنه.

7 - سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه.

8 - أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلميُّ رضي الله عنه.

9 - حنظلة بن أبي عامر الأنصاريُّ «غسيل الملائكة» رضي الله عنه.

10 - حازم بن حرملة رضي الله عنه.

11 - حارثة بن النُّعمان الأنصاريُّ النَّجاريُّ رضي الله عنه.

12 - حُذَيفة بن أَسِيد أبو سريحة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

13 - حُذَيفة بن اليمان رضي الله عنه.

14 - جارية بن حُمَيل بن نُشَبَة بن قُرْطٍ رضي الله عنه.

15 - جُعَيْل بن سراقة الضَّمَّريُّ رضي الله عنه.

16 - جَرْهَدُ بن خويلد الأسديُّ رضي الله عنه.

17 - رفاعة أبو لبابة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

18 - عبد الله ذو البِجَادَين رضي الله عنه.

19 - دكين بن سعيد المزنيُّ، وقيل: الخثعميُّ رضي الله عنه.

20 - خُبَيْبُ بن يساف بن عِنَبة رضي الله عنه.

21 - خريم بن أوس الطائيُّ رضي الله عنه.

22 - خريم بن فاتك الأسديُّ رضي الله عنه.

23 - خُنيس بن حذافة السَّهميُّ رضي الله عنه.

24 - خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه.

25 - الحكم بن عمير الثُّماليُّ رضي الله عنه.

26 – حرملة بن أياس، وقيل: حرملة بن عبد الله العنبريُّ رضي الله عنه[1].

27 – زيد بن الخطَّاب رضي الله عنه.

28 – عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

29 – الطُّفاويُّ الدَّوسيُّ رضي الله عنه.

30 – طلحة بن عمرو النَّضريُّ رضي الله عنه.

31 – صفوان بن بيضاء الفهريُّ رضي الله عنه.

32 – صهيب بن سنان الرُّوميُّ رضي الله عنه.

33 – شدَّاد بن أسيد رضي الله عنه.

34 – شقرآن رضي الله عنه مولى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

35 – السَّائب بن خلاَّد رضي الله عنه.

36 – سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوفٍ رضي الله عنه.

37 – سالم بن عبيد الأشجعيُّ رضي الله عنه.

38 – سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه.

39 – سفينة رضي الله عنه مولى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

40 – أبو رزين رضي الله عنه.

41 – الأغرُّ المزنيُّ رضي الله عنه.

42 – بلال بن رباحٍ رضي الله عنه.

43 – البراء بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (262/1).

44 – ثوبان رضي الله عنه مولى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

45 – ثابت بن وديعة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

46 – ثَقْفُ بن عمرو بن سُميط الأسديُّ رضي الله عنه.

47 – سعد بن مالكٍ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه.

48 – العِرباض بن سارية رضي الله عنه.

49 – غَرَفَةُ الأزديُّ رضي الله عنه.

50 – عبد الرَّحمن بن قُرْطٍ رضي الله عنه.

51 – عبادة بن خالد الغفاريُّ[1] رضي الله عنهم أجمعين، وغيرهم من الصَّحابة الكرام.

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادحٍ حين استدلَّ بعضهم على مشروعيَّة مسلك بعض المنحرفين من المتصوِّفة، من حيث ترك العمل، والإخلاد إلى الرَّاحة، والكسل، والمكوث في الزَّوايا، والتكايا؛ بحجَّة الاقتداء بحال أهل الصُّفَّة[2]؛ فإن أبا هريرة – وهو أكثر ارتباطاً بالصُّفَّة من غيره – لم يستمرَّ فيها، وخرج إلى الحياة؛ بل أصبح أميراً في بعض أيَّامه على البحرين، في عهد عمر بن الخطَّاب، ولم يكن مخشوشناً في حياته[3]؛ بل إنَّ أهل الصُّفَّة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال، وقد استشهد بعضهم كما ذكرتُ.

خامساً: فوائد ودروس وعبر:

1 – المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع:

إنَّ إقامة المساجد من أهمِّ الرَّكائز في بناء المجتمع الإسلاميِّ؛ ذلك أنَّ المجتمع المسلم إنَّما

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (263/1).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، ص 186.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص 188.

يكتسب صفة الرُّسوخ، والتَّماسك بالتزام نظام الإسلام، وعقيدته، وآدابه، وإنَّما ينبع ذلك من رُوح المسجد، ووحيه[1].

قال تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: 108]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۝ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: 36 – 38] .

2 – المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام:

1 – حيث «أُنشئ ليكون متعبَّداً لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إيَّاه بحمده، وشكره على نعمه عليهم، يدخله كلُّ مسلمٍ، ويقيم فيه صلاته، وعبادته، ولا يضارُّه أحدٌ ما دام حافظاً لقداسته، ومؤدِّياً حقَّ حرمته»[2].

2 – كما «أنشئ المسجد ليكون ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية، ورغبةً في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»[1].

3 – «وهو قد أنشئ ليكون جامعةً للعلوم، والمعارف الكونيَّة، والعقليَّة، والتَّنزليَّة، الَّتي حثَّ القرآن الكريم على النَّظر فيها، وليكون مدرسةً يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم، ومعهداً يَؤُمُّهُ طلاب العلم من كلِّ صوبٍ؛ ليتفقهوا في الدِّين، ويرجعوا إلى قومهم مبشِّرين، ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ»[1].

4 – وهو «قد أنشئ؛ ليجد فيه الغريب مأوىً، وابن السَّبيل مستقراً، لا تكدِّره منَّةُ أحدٍ عليه، فينهل من رِفْدِه، ويعبُّ من هدايته ما أطاق استعداده النَّفسيُّ، والعقليُّ، لا يصدُّه أحدٌ

---

(1) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 203.

(2) محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصادق عرجون (33/3).

عن علمٍ، أو معرفةٍ، أو لونٍ من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرَّج فيه، وبرزت بطولتُه بين جدرانه! وكم من عالمٍ استبحر علمُه في رحابه، ثمَّ خرج به على النَّاس يروي ظمأهم للمعرفة! وكم من داعٍ إلى الله تلقَّى في ساحاته دروس الدَّعوة إلى الله، فكان أسوة الدُّعاة، وقدوة الهداة، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شَذَاها، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية؛ لتستضيء بأنوارها!

وكم من أعرابيٍّ جلفٍ لا يفرِّق بين الأحمر، والأصفر وفد عليه، فدخله، ورأى أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله هالةً تحفُّ به، يسمعون منه؛ وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبَّأةً تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل، وفَقِهَ، واهتدى، واستضاء، ثمَّ عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله، ويربِّيهم بعلمه الَّذي علم، وسلوكه الَّذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التَّاريخ الإسلاميِّ!»[1].

5 – وهو «قد أُنشئ ليكون قلعةً لاجتماع المجاهدين إذا استُنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدَّعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرَّآيات، للتوجُّه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلِّها يقف جند الله في نشوة ترقُّب النَّصر، أو الشَّهادة»[1].

6 – وهو «قد أُنشئ؛ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه، ليكون مشفىً يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد؛ ليتمكن نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم من عيادتهم، والنَّظر في أحوالهم، والاستطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقَّةٍ، ولا نَصَبٍ؛ تقديراً لفضلهم»[1].

7 – «وهو قد أُنشئ ليكون مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار، ويُبْرَدُ البريد، وتصدر الرَّسائل، وفيه تُتلقَّى الآنباء السِّياسيَّة سلماً، أو حرباً، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنَّصر، ورسائل طلب المدد، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد؛ ليتأسَّى بهم المتأسُّون، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»[1].

---

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (34/3 ، 35).

8 – «وهو قد أُنشئ ليكون مرقباً للمجتمع المسلم؛ يتعرَّف منه على حركات العدو المريبة، ويراقبها، ولا سيَّما الأعداء الَّذين معه يساكنونه، ويخالطونه في بلده؛ من شراذم اليهود، وزُمَر المنافقين، ونفايات الوثنيَّة، الذين انغمسوا في الشِّرك، فلم يتركوه، ليتجنَّب المجتمع المسلم عاقبة كيدهم، وسوء مكرهم، وتدبيرهم، ويأمن مغَبَّةَ[1]غدرهم، وخياناتهم»[2].

فالمسجد النَّبويُّ «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَّل ما بدأ من عملٍ في مستقرِّه، ودار هجرته في مطلع مقدمه؛ ليكون نموذجاً يُحتذَى به في بساطة المظهر، وعمق المخبر؛ ليحقِّق به أعظم الأهداف، وأعمَّها بأقلِّ النفقات، وأيسر المشقَّات»[3].

3 – التَّربية بالقدوة العمليَّة:

من الحقائق الثَّابتة: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم شارك أصحابه العمل، والبناء، فكان يحمل الحجارة، وينقل اللَّبن على صدره، وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأيِّ واحدٍ منهم، فكان مثال الحاكم العادل، الَّذي لا يفرِّق بين رئيسٍ ومرؤوسٍ، أو بين قائدٍ ومقودٍ، أو بين سيِّدٍ ومسودٍ، أو بين غنيٍّ، وفقيرٍ؛ فالكلُّ سواسيةٌ أمام الله، لا فرق بين مسلمٍ وآخر إلا بالتَّقوى، ذلك هو الإسلام: عدالةٌ، ومساواةٌ في كلِّ شيءٍ، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعيِّ للمصلحة العامَّة، وبهذا الفضل ثوابٌ من الله، والرَّسول صلى الله عليه وسلم كغيره من المسلمين، لا يطلب إلا ثواب الله[4]؛ فقد كانت مشاركة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في عملية البناء ككلِّ العمال الَّذين شاركوا فيه، وليس بِقَطْعِ الشَّريط الحريريِّ فقط، وليس بالضَّربة الأولى بالفأس فقط؛ بل غاص بعملية البناء كاملةً، وقد دُهِشَ المسلمون من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ وقد عَلَتْهُ غَبَرَةٌ، فتقدَّم أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه؛ ليحمل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا رسول الله! أعطنيه! فقال: «اذهب فاحتمل غيره؛ فإنَّك لست بأفقرَ إلى

---

[1] المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه ، وآخرُه.
[2] انظر: محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (36/3).
[3] انظر: محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمد الصَّادق عرجون (33/3).
[4] انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص 158.

الله منّي»[1]، وقد سمع المسلمون ما يقول النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لصاحبه، فازدادوا نشاطاً، واندفاعاً في العمل[2].

إنَّه مشهدٌ فريدٌ من نوعه، ولا مثيل له في دنيا النَّاس، وإذا كان الزُّعماء، والحكَّام قد يقدمون على المشاركة أحياناً بالعمل؛ لتكون شاشات التِّلفزيون جاهزةً لنقل أعمالهم، وتملأ الدُّنيا في الصُّحف، ووسائل الإعلام كلِّها، بالحديث عن أخلاقهم، وتواضعهم؛ فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ينازع الحجرَ أحدَ أفراد المسلمين، ويبيِّن له: أنَّه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصَّحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء، وأنشدوا هذا البيت:

لَئِنْ قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... فَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المضَلَّلُ [3]

إنَّ هذه التَّربية العمليَّة لا تَتِمُّ من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمَّق، إنَّما تتمُّ من خلال العمل الحيِّ الدَّؤُوب، والقدوةِ المصطفاة من ربِّ العالمين، والَّتي ما كان يمكن أن تتمَّ في أجواء مكَّة، والملاحقة، والاضطهاد، والمطاردة فيها، إنَّما تَتِمُّ في هذا المجتمع الجديد، والدَّولة الَّتي تُبنى، وكأنَّما غدا هذا الجمع من الصَّحابة الكرام كلُّه صوتاً واحداً، وقلباً واحداً، فمضى يهتف:

اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخرهْ ... فانْصُرِ الأنصارَ وَالمهَاجِرَهْ

ويهتف بلحنٍ واحدٍ:

لَئِنْ قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... فَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المضَلَّلُ

وكان الهُتاف الثَّالث:

هَذِي الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ ... هَذَا أَبرُّ لِرَبِّنَا وأطْهَرْ

[البخاري (3906)][4].

---

[1] انظر: صورٌ من حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لأمين دويدار، ص 261.
[2] انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ، د. علي معطي، ص 158.
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (496/1)، وفتح الباري، وشرح حديث رقم (3906).
[4] انظر: التَّربية القياديَّة (249/2)، والبخاريُّ، حديث رقم (3906) وشرحه في فتح الباري.

فحَمْلُ التَّمر، والزَّبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانةً عظيمةً في المجتمع المدنيّ؛ لكنَّه أصــبح لا يُذْكَرُ أمام حمل الطُّوب لبناء المســجد النَّبويِّ العظيم، فقد أيقنوا بقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] .

وأمَّا الهُتاف الرَّابع:

لاَ يَسْــتَوي مَنْ يَعْمُرُ المسَــاجِدَا يَـدْأَبُ فِيْهَـا قَـائِمـاً وقَـاعِـدا
وَمَنْ يُرَى عَن الغُبَـارِ حَـائِـدَا

[فتح الباري (314/7) وابن هشام (142/2)][1] .

4 - الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد [مجمع الزوائد (9/2)] عن طَلْق بن عليٍّ اليماميِّ الحنفيِّ، قال: بنيت المســجد مع رســول الله صــلى الله عليه وســلـم ، فكان يقول: «قرِّبوا اليماميَّ من الطِّين؛ فإنَّه أحسنكم له مسيساً»، وأخرج الإمام أحمد عن طلقٍ أيضاً [الطبراني في الكبير (8254) ومجمع الزوائد (9/2)] قال: جئت إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ وأصحابه يبنون المسجد، وكأنَّه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطِّين، فكأنَّه أعجبه، فقال: «دعوا الحنفيَّ والطِّين؛ فإنَّه أضــبطكم للطِّين»، وأخرج ابن حبَّان عن طلقٍ، قال: فقلت: يا رســولَ الله! أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلطْ لهمُ الطِّين؛ فأنت أعلم به» [ابن حبان (1122)][2] .

فقد اهتمَّ النَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم بهذا الوافد الجديد على المدينة، والَّذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظَّف خبرته في خلط الطِّين، وفي قوَّة العمل، وهو درسٌ للمسلمين في الثَّناء على الكفاءات، والاســتفادة منها، وإرشــادٌ نبويٌّ كريمٌ في كيفيَّة التعامل معها، وما أحوجَنَا إلى هذا الفهم العميق![3].

---

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصادق عرجون (15/3).
[2] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصادق عرجون (15/3).
[3] انظر: التَّربية القياديَّة (252/2).

5 – شعار الدَّولة المسلمة:

إنَّ أذان الصَّلاة شعارٌ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّة عالميَّةٍ: «الله أكبر، الله أكبر»: إنَّها تعني: أنَّ الله أكبر من أولئك الطُّغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.

«أشهد أن لا إله إلا الله» أي: لا حاكمية، ولا سيادة، ولا سلطة، إلا لله ربِّ العالمين، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم، ولا آمر، ولا مُشَرِّع، إلا الله.

«أشهد أنَّ محمداً رسول الله»: أسْلَمَهُ الله تعالى القيادة، فليس لأحدٍ أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إيَّاه من سُنَّة[1]، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرِّسالة، والزَّعامة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، والسَّمع والطَّاعة له[2].

«حَيَّ على الصَّلاة.. حيَّ على الفلاح»: أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدَّولة الَّتي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساسٍ من القيم السَّامية. «قد قامت الصَّلاة»: وقد اختيرت الصَّلاة من بين سائر العبادات؛ لأنَّها عماد الدِّين كلِّه، ولأنَّها بما فيها من الشَّعائر كالرُّكوع، والسُّجود، والقيام أعظم مظهرٍ لمظاهر «العبادة» بمعناها الواسع؛ الَّتي تعني: الخضوع، والتذلُّل، والاستكانة، فهي خضوعٌ ليس بعده خضوعٌ، فكلُّ طاعةٍ لله على وجه الخضوع، والتذلُّل عبادةٌ، فهي طاعة العبد لسيِّده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعةً وتذلُّلاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَـمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66] .

وهذا الارتباط بين شعار الدَّولة الرَّسميّ بحاكمية الله، وسيادة الشَّرع، وسقوط الطَّواغيت، وقوانينهم، وأنظمتهم، وشرائعهم، بـ «حيَّ على الفلاح... قد قامت الصَّلاة» يشير إلى أنَّه: لا

[1] انظر: قراءةٌ سياسيَّةٌ للسيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص 114.

[2] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة الدَّقس ، ص 438.

قيام للصَّـــلاة، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظلِّ دولةٍ تقوم عليها، وتقوم بها، ولها، فقد كان المسـلمون يصـلُّون خِفْيَةً في شِـعاب مكَّة قبل قيام دولتهم، أما وقد قامت تحت حماية سـيوف الأنصار، فليجهروا بالأذان، والإقامة، وليركعوا ويسجدوا لله ربِّ العالمين.

إنَّ الواقع التَّاريخيَّ خيرُ شـاهدٍ على أنَّ الله لا يُعْبَدُ في الأرض حقَّ عبادته، إلا في ظلِّ دولةٍ قويَّةٍ، تحمي رعاياها من أعداء الدِّين.

ثمَّ تتكرَّر كلمات الأذان: «الله أكبر... الله أكبر» للتأكيد على المعاني السَّابقة[1].

إنَّنا بحاجةٍ ماسَّـةٍ لفهم الأذان، وإدراك معانيه، والعمل على ترجمته ترجمةً عمليَّةً؛ لنجاهد في الله حقَّ جهاده، حتَّى ندمِّر شـعارات الكفر، ونرفع شـعارات الإيمان، ونقيم دولة التَّوحيد، الَّتي تحكم بشرع الله، ومنهجه القويم.

6 - حكم تشييد المساجد، ونقشها، وزخرفتها:

والتَّشـييد: أن تقام عمارة المسـجد بالحجارة، ممَّا يزيد في قوَّة بنائه، ومتانة سـقفه وأركانه. والنَّقش، والزَّخرفة: ما جاوز أصل البناء من شتَّى أنواع الزِّينة.

فأمَّا التشييد: فقد أجازه، واستحسنه العلماء عامَّةً؛ بدليل ما فعله عمر، وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّ في ذلك عنايةً، واهتماماً بشعائر الله تعالى، واسـتدلَّ العلماء على ذلك بقوله تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْـجِدٌ أُسِّـسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ **[التوبة: 108]** .

وأمَّا النَّقش، والزَّخرفة؛ فقد أجمع العلماء على كراهتهما، ثمَّ هم في ذلك بين محرِّمٍ، ومكرِّهٍ كراهةَ تنزيه؛ غير أنَّ الذين قالوا بالحرمة، والَّذين قالوا بالكراهة اتَّفقوا على أنَّه يحرم صـرف المال الموقوف لعمارة المسـاجد على شـيءٍ من الزَّخرفة، والنَّقش[2]. وكان أوَّلَ مَنْ زخرف المسـاجد

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 439.

[2] انظر: فقه السِّيرة النبوية ، للبوطي ، ص 145.

الوليدُ بن عبد الملك بن مَرْوان، ومن يومها والنَّاس شــرعوا يغالون في بناء المســاجد، وزخرفتها، حتى أصــبح بعضــها من قبيل المتاحف، وكلُّ ذلك خارج عن هَدي النُّبوَّة[1]، فعندما زُخرفتِ المساجد، وخرجت عن نمط البساطة؛ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بخعَ الأسفُ نفوسَ المستضعفين، وتنافس في شهوات التَّزخرف الفارغون من عواصم الإيمان[2].

إنَّ الذين يهتمُّون بتعمير المســاجد، وتشــييدها، وينصــرفون بكلِّ جهودهم إلى التَّفنُّن في تزيينها، ونقشها، وإضفاء مختلف مظاهر الأبَّهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيمٍ؛ حتَّى إنَّ الداخل إليها لا يكاد يستشعر أيَّ معنىً من ذلِّ العبودية لله - عزَّ وجلَّ - وإنَّما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فنُّ الهندسة المعماريَّة، وفنون الزَّخرفة العربيَّة.

إنَّ الفقراء لم يعودوا يســــتطيعون أن يتهرَّبوا من مظاهر الإغراء الدُّنيويِّ إلى أيِّ جهةٍ، لقد كان في المســاجد ما يعزِّي الفقير بفقره، ويخرجه من جوِّ الدُّنيا، وزخرفها إلى الآخرة، وفضــلها، فأصبحوا يجدون حتَّى في مظهر هذه المساجد ما يذكِّرهم بزخارف الدُّنيا الَّتي حُرموها، ويشعرهم بنكد الفقر، وأوضاره، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران لحقائق إسلامهم، وانشغالٍ بمظاهر كاذبةٍ، ظاهرها الدِّين، وباطنها الدُّنيا بكلِّ ما فيها من شهواتٍ، وأهواءٍ![3].

7 - فضائل المسجد النَّبويِّ:

تحدَّث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن فضائل المسجد النَّبويِّ؛ ولذلك تعلَّق الصَّحابة به. ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الاتي:

أ - تأسيس المسجد النَّبويِّ على التَّقوى:

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، قال: دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم في

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (33/2).
[2] انظر: محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (39/3).
[3] انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 146.

بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله! أيُّ المسجدينِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حَصْبَاء، فضرب به الأرض، ثمَّ قال: «هو مسجدكم هذا» [مسلم (1398) والترمذي (3099) والنسائي (36/2) وأحمد (8/3)] لمسجد المدينة.

وقد تكلَّم بعض العلماء، في الأحاديث الَّتي أشارت إلى أنَّ المسجد النَّبويَّ هو الَّذي أُسِّس على التَّقوى؛ بحجَّة أنَّها معارضةٌ لقوله تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: 108] .

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى في الآية السَّابقة، فقال بعضهم: هو مسجد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقال آخرون: هو مسجد قُباء، وقد ذكر أقوالهم محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره، ثمَّ قال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصَّواب، قول مَنْ قال: هو مسجد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ لصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1].

ولا معارضة بين الحديث والآية السَّابقة على القول بأنَّ المراد بالمسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى فيها هو مسجد قُباء؛ لأنَّ كلاً من المسجدين أُسِّس على التَّقوى[2]. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أنَّ الآية السَّابقة نزلت بسبب مسجد قُباء، ثمَّ قال: «لكن الحكم يتناوله، ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجد المدينة، وهذا يوجِّه ما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه سئل عن المسجد الذي أُسِّس على التَّقوى، فقال: «هو مسجدي هذا» [سبق تخريجه][3].

وقال في موضع آخر: «... فتبيَّن أنَّ كلا المسجدين أُسِّس على التَّقوى، لكن مسجد

[1] انظر: تفسير الطَّبري (476/14 . 479).
[2] انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ، د. صالح الرِّفاعي ، ص 372.
[3] انظر: منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (74/7).

المدينة أكمل في هذا النَّعت، فهو أحقُّ بهذا الاسم، ومسجد قُباء كان سبب نزول الآية»[1].

وذكر الحافظ ابن حجرٍ: أنَّ السِّرَّ في جوابه صلى الله عليه وسلم بأنَّ المسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى مسجده رفعُ توهم أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجد قُباء[2].

ب - فضل الصَّلاة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «صلاةٌ في مسجدي هذا، خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرامَ» [البخاري (1190) ومسلم (1394/506 و507)] .

ج - أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: «المسجد الحرام، ومسجد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ومسجد الأقصى» [البخاري (1189) ومسلم (1397/511)] .

د - الرَّوضة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنَّة، ومنبري على حوضي» [البخاري (1196) ومسلم (1391)] .

هـ فضل التَّعلُّم والتَّعليم في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ دخل مسجدنا هذا؛ يتعلَّم خيراً، أو يعلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله، ومَنْ دخله لغير ذلك؛ كان كالنَّاظر إلى ما ليس له» [أحمد (2/350) وابن ماجه (227) والحاكم (1/91)] .

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (27/406).

[2] فتح الباري (7/245).

8 – آيةٌ نزلت في أهل الصُّفَّة وفقراء المهاجرين:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 273].

ذكر ابن سعدٍ بسنده إلى ابن كعبٍ القرظيّ، قال: هُمْ أصحاب الصُّفَّة[1]. وذكر الطَّبريُّ بأسانيده عن مجاهدٍ والسُّدِّيّ: أنَّها في فقراء المهاجرين[2].

إنَّ الأحداث الَّتي تتعلَّق بالدِّعامة الأولى في المجتمع كثيرةٌ، وكذلك ما يتعلَّق بها من أحكام؛ كضمان حقوق الأيتام، وجواز نبش القبور الدَّارسة، واتِّخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت، وطابت أرضُها، إلاَّ أنني أكتفي بهذه الدُّروس، والعبر، والفوائد فيما يتعلَّق بالمسجد؛ خوفاً من الإطالة.

* * *

---

[1] انظر: الطَّبقات الكبرى، لابن سعدٍ (255/1).

[2] انظر: تفسير الطَّبري (591/5)، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، للعمري (269/1).

المبحث الثَّاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان مِنْ أولى الدَّعائم الَّتي اعتمدها الرَّسول صلى الله عليه وسلم في برنامجه الإصلاحيِّ والتَّنظيميِّ للأمَّة، وللدَّولة، والحكم، الاستمرار في الدَّعوة إلى التَّوحيد، والمنهج القرآنيِّ، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوةٌ لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم، ويتآلف، وتتَّضح معالم تكوينه الجديد[1].

كان مبدأ التَّآخي العام بين المسلمين قائماً، منذ بداية الدَّعوة في عهدها المكِّيِّ، ونهى الرَّسول صلى الله عليه وسلم عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التَّباغض بين المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم : «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيَّامٍ» [البخاري (6065 و6076) ومسلم (2559)]، وقال صلى الله عليه وسلم : «المسلم أخو المسلم، لا يظلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ[2]، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة[3]، فرَّج الله – عزَّ وجلَّ – عنه كربةً من كُرُبات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة» [البخاري (2442) ومسلم (2580)] .

وقد أكَّد القرآن الكريم الأُخوَّة العامَّة بين أبناء الأمَّة، في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الآنفال: 63] .

---

(1) انظر: الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. مجدلاوي ، ص 52 ، 53

(2) أي: لا يتركه مع مَنْ يؤذيه ، ولا فيما يؤذيه؛ بل ينصره ، ويدفع عنه.

(3) كربة: أي: غمة.

أمَّا موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصَّــة؛ الَّتي شُــرِعت، وترتبت عليهــا حقوقٌ، وواجباتٌ أخصُّ من الحقوق، والواجبات العامَّة بين المؤمنين كافَّةً[1].

وقد تحدَّث بعض العلماء عن وجود مؤاخاةٍ كانت في مكَّة بين المهاجرين، فقد أشـــار البلاذري إلى أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم آخى بين المسلمين في مكَّة قبل الهجرة على الحقِّ، والمواســاة، فآخى بين حمزة، وزيد بن حارثة، وبين أبي بكرٍ، وعمر، وبين عثمان بن عفَّان وعبد الرَّحمن بن عوف، وبين الزُّبير بن العوَّام، وعبد الله بن مســـعودٍ، وبين عبيدة بن الحارث، وبلالٍ الحبشيّ، وبين مصعب بن عميرٍ، وسعد ابن أبي وقَّاصٍ، وبين أبي عبيدة بن الجرَّاح، وسالمٍ مولى أبي حذيفة، وبين ســـعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وطلحة بن عبيد الله، وبينه وبين عليّ بن أبي طالب[2] وَيُعَدُّ البلاذريُّ (ت 276 هــــ) أقدم مَنْ أشار إلى المؤاخاة المكِّيَّة، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البرِّ (ت 463هــ) دون أن يصرّح بالنَّقل عنه، كما تابعهما ابن سيِّد النَّاس دون التَّصريح بالنَّقل عن أحدهما[3].

وقد أخرج الحاكم في المستدرك، من طريق جميع بن عمير، عن ابن عمر رضـي الله عنهما: «آخى رســولُ الله صــلى الله عليه وســلم بين أبي بكرٍ، وعمر، وبين طلحة، والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف، وعثمان»[4]، وعن ابن عباسٍ: «آخى النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم بين الزُّبير، وابن مســـعودٍ» [الحاكم (314/3)][5] وذهب كلٌّ مِنْ: ابن القيِّم، وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكَّة، فقال ابن القيِّم: «وقد قيل: إنَّه – أي النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم – آخى بين المهاجرين بعضـــهم مع بعض، مؤاخاةً ثانيةً، واتَّخذ فيها عليّاً أخاً لنفســـه، والثَّابت الأوَّل[6]؛ فالمهاجرون كانوا مستغنين بأخوَّة الإسلام، وأخوَّة الـــدَّار، وقرابـــة النَّسب عن عقـــدٍ مؤاخـــاةٍ، بخلاف

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (240/1).
[2] أنساب الأشراف ، للبلاذري (270/1) ، وابن هشام في السيرة النبوية (150/2 . 152).
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (240/1).
[4] المصدر السابق نفسه (240/1).
[5] فتح الباري (471/7).
[6] يعني: المؤاخاة في المدينة.

المهاجرين مع الأنصار»[1]، أمَّا ابن كثيرٍ؛ فقد ذكر: أنَّ من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلَّة نفسها، الَّتي ذكرها ابن القيِّم[2].

لم تُشِرْ كتب السِّيرة الأولى المختصَّة، إلى وقوع المؤاخاة بمكَّة، والبلاذريُّ ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسنادٍ؛ ممَّا يضعِّف الرِّواية، كما أنَّ البلاذريَّ نفسه ضعَّفه النُّقاد، وعلى فرض صحَّة هذه المؤاخاة بمكَّة، فإنها تقتصر على المؤازرة، والنَّصيحة بين المتاخين؛ دون أن تترتب عليها حقوق التَّوارث[3].

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمَّة بعضها ببعض، فقد أقام الرَّسول صلى الله عليه وسلم هذه الصِّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الَّذي تذوب فيه عصبيَّات الجاهليَّة، فلا حَمِيَّة إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النَّسب، واللَّون، والوطن، فلا يتأخَّر أحدٌ، أو يتقدَّم، إلا بمروءته، وتقواه.

وقد جعل الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم هذه الأخوَّة عقداً نافذاً، لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدِّماء، والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثرٌ.

وكانت عواطف الإيثار، والمواساة، والمؤانسة تمتزج في هذه الأُخوَّة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[4].

والسَّبب الَّذي أدَّى إلى تقوية هذه الأُخوَّة بين المهاجرين والأنصار هو أنَّ أهل هذا المجتمع، ممَّن التقوا على دين الله وحده، نشَّأهم دينهم الَّذي اعتنقوه، على أن يقولوا، ويفعلوا، وعلَّمهم الإيمانَ، والعملَ جميعاً، فهم أبعد ما يكونون عن الشِّعارات الَّتي لا تتجاوز أطراف الألسنة،

---

[1] زاد المعاد (79/2).

[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير.

[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (241/1).

[4] انظر: فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص 193، 194.

وكانوا على النَّحو الَّذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: 51] .

وبذلك الَّذي درج عليه المسلمون كفل البقاء، والاستمرار لهذه الأخوَّة؛ الَّتي شدَّ الله بها أَزْرَ دينه، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتَّى آتت ثمارَها في كلِّ أطوار الدَّعوة، طوال حياته صلى الله عليه وسلم ، وامتدَّ أثرها، فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصِّدِّيق رضي الله عنه دون أن تطوِّع لهم أنفسهم (أي: للأنصار) أن يحدثوا صدعاً في شمل الأمَّة، مستجيبين في ذلك لشهوات السُّلطة، وغريزة السَّيطرة، لذلك فإنَّ سياسة المؤاخاة بين المهاجرين، والأنصار نوع من السَّبق السِّياسيِّ: الَّذي اتَّبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، في تأصيل المودة، وتمكينها في مشاعر المهاجرين، والأنصار، الَّذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودَّة، وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[1]،ولا سيما الأنصار، الَّذين لا يجد الكُتَّاب، والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان، خيراً من حديث الله عنهم[2].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] .

ونلحظ في الآية السَّابقة: أنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

1 - تبوَّؤوا الدَّار، والإيمان من قبلهم.

2 - يحبُّون من هاجر إليهم.

3 - لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا.

4 - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

---

[1] انظر: فصولٌ في السِّيرة النَّبوية ، د. عبد المنعم السَّيِّد ، ص 200.

[2] انظر: هجرة الرَّسول صلى الله عليه وسلموصحابته في القران والسُّنَّة ، للجمل ، ص 245.

5 – ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون[1].

وفي الآية السَّابقة فوائدُ عظيمةٌ، وحكمٌ جليلةٌ؛ منها:

(أ) التَّعبير عن المدينة بلفظ «الدَّار» إشعارٌ بأنَّها دارٌ خاصَّةٌ لكلِّ متوطِّنٍ بها، متبوِّئ لها، فهي بالنِّسبة لأهلها كدارٍ خاصَّةٍ للفرد، يهنأ بالأمن، والاستقرار، وهو في داخلها، وفي هذا الإشعار نوعٌ من الأنس السَّريّ في النَّفس، يزيدها رُوْحاً، وطُمأْنِينَةً، فالأنصار في دارهم، وإيمانهم متمكِّنون من الأمن، والاستقرار المادِّيّ، تتنزَّل عليهم السَّكينة، فتحفُّهم بنورها، كأنَّها سياجٌ من الرَّحمة مضروبٌ عليهم، لا يلحقهم فزعٌ، ولا يدخل عليهم قلقٌ.

(ب) أمَّا قوله تعالى: فالضَّمير فيه ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ومعناه: أنَّ الأنصار هم الذين تبوَّؤوا المدينة المنوَّرة داراً لهم، وتبوَّؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم؛ لأنَّ المهاجرين وإن تبوَّؤوا الإيمان قبل الأنصار؛ لأنَّهم سبقوهم إليه، وتمكَّنوا منه أعظم تمكُّنٍ، وتمكَّن هو منهم أبلغ تمكُّنٍ؛ لكنَّهم لم يتبوَّؤوا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّيِّ المادِّيِّ، والأمن على أنفسهم، وإيمانهم من فزعات الأعداء، وسطواتهم، فكان للمهاجرين في تَبَوُّؤ الإيمان دون تَبَوؤ الدَّار، وكان للأنصار تَبَوُّؤُهما معاً في قرنٍ واحدٍ.

(ج) ومن لطائف القرآن الحكيم: أنَّه ساق مدْحَةَ المهاجرين قبل مِدْحَة الأنصار، مفتتحاً لها بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] .

فجعل فَقْد بعض ما كان مدحةً للأنصار من تَبَوُّؤ الدَّار، والإيمان مدحةً للمهاجرين؛ لأنَّهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصرهم الله بنصر دينه، ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم بنصر رسالته، ودعوته، ووصفهم بأنَّهم هم الصَّادقون، وأنَّ الناس تَبَعٌ لهم في ذلك، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وقال لعامَّة المؤمنين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ

[1] انظر: التَّربية القياديَّة (284/2).

وَكُونُوا مَعَ الصَّـــادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119] فالقَبْلِيَّةُ – أي: قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ – بهذا المعنى مدحةٌ للأنصـار؛ جاءت لتشـعرهم بواجباتهم نحو إخوانهم الَّذين هاجروا إليهم، تاركين ديارهم، وأموالهم ابتغاء فضـل الله، ورضـوانه، والتَّفرُّغ لنصـرة دينه، ونصـرة رسـوله، فالدَّار الَّتي فقدها المهاجرون بما فيها من أموالٍ، وفلذات أكبادٍ إنَّما فقدوها تقرُّباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوَّؤون معهم دارهم، دار الأمن، والاستقرار، مع سبق تَبوُّئهم الإيمان قبل الأنصار، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوُّءُ الدَّار والإيمان، وانفردوا بسـبق تَبَوُّئِهم الإيمان. فضـيلةٌ لا يشـاركهم فيها غيرهم من سـائر المؤمنين، وفي طليعتهم الأنصـار، الَّذين جعلوا من الإيواء والنُّصـرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحبِّ الصَّـادق، فقيل في وصـفهم: وهذا حبٌّ ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، والله جعله فضـيلةً لهم، ميَّزهم بها في مقابلة وصـف المهاجرين بأنَّهم أُخرجوا من ديارهم، وأموالهم؛ ابتغاء مرضاة الله، وتعرُّضاً لفضله المنهمر عليهم غيثُه ديمة لا ينقطع، ولا يفتر، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرةً بالحبِّ لإخوانهم الأنصـار، الَّذين وُصـفوا بالإخلاص الصَّـفيّ، الَّذي كان ثمرة الحبّ في الله، ولله، فقيل عنهم: أي: أنَّهم ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُـــدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ تستشـرف نفوسـهم إلى فضلٍ ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان، وتضـحيتهم بمفارقة ديارهم، وأموالهم، وانتهاضهم لنصرة دين الله، ورسالاته، ولا يتطلَّعون إلى شيءٍ منه تطلباً له، أو مشاركةً فيه[1].

(د) وفي قوله: : والحبُّ الَّذي يسجِّله ربُّ العزَّة ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ تبارك وتعالى – في محكم كتابه آيات بيِّنات تُتلى، ويُـتعبَّد بها في روعة إعجازها، وبراعة أسلوبها، وسموِّ منهجها في الهداية، لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النَّفس المؤمنة آثار حزازةٍ تحسـد المهاجرين على ما اتاهم الله من مكارم الإيمان، والتَّضحية في سبيله بالدِّيار، والأموال، بله متعةً مادِّيَّةً زائلةً تافهةً.

وصـفات المدحة السَّـلبيَّة لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع، فيكون نفيُها

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (94/3).

عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفاتٍ إيجابيَّةٍ في بناء المدحة المشرِّفة[1].

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبِّهم المهاجرين: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾، معنى ذلك: أنَّ هؤلاء الأنصار سَمَوا في حبِّهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذِروة الصَّفاء، والإخلاص، ووحدة الشُّعور، وامتلأت صدورهم بهذا الحبِّ القدسيِّ، فلم تعد تتَّسع لشيءٍ معه، إلا أن يكون ذلك الشَّيء أثراً من آثار الحبِّ، وليس ذلك إلا ذِروة الفضائل، وهو إيثارهم على أنفسهم بكلِّ مكرمة، ولو كانوا هم في أشدِّ الحاجة إليها[2].

(هـــ) ومجيء قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ عقب قوله عزَّ شأنُه: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ بيانٌ لثمرة هذا الحب، وهي ثمرةٌ سما بها الأنصار إلى افاقٍ لم تصل إليها البشريَّة في تاريخها البعيد السَّحيق، ولا في تاريخها الدَّاني القريب، تلك هي ثمرة الإيثار على النَّفس، الَّتي أثمرها الحبُّ الإيمانيُّ[3].

(و) ثمَّ وُصِفُوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصِّدق في عزائمهم، والإخلاص في إيمانهم، فقيل فيهم بعد تقرير: أنَّهم بهذا الإيثار صفَتْ نفوسُهم من كُدورات التَّطلُّعات، والحزازات، وأخلصوا الحبَّ لإخوانهم المهاجرين، وطُهِّروا من رشح الشُّح، فتوقَّوه بفضيلة الكرم والسَّخاء المؤثر: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

كان هذا الحبُّ الأخويُّ بين المهاجرين والأنصار، هو الأساس الَّذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعيَّة؛ الَّتي عقدها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بين أصحابه بعد مَقْدِمِه المدينة، فقد كانت هذه المؤاخاة، من أسبق الأعمال؛ الَّتي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَّل ما استقرَّ في مقامه، وأخذ في بناء مسجده الأعظم[4].

---

(1) انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (95/3).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السَّابق نفسه ، (96/3).

(4) انظر: محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (98/3).

والظاهر: أنَّ ابتداءها كان في المسجد؛ وهو يُـبْنى، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مشغولٌ في بنائه مع أصحابه من المهاجرين، والأنصار، وكان ذلك المكان الطَّاهر، والعمل الشَّريف الخالص لوجه الله – تبارك وتعالى – أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة، لما فيهما من اقتضاء التَّرافق، والتَّعاون، والتَّعاضد، والتَّواسي، والتَّناصر، والتوادُد، وتقوية اصرة الأخوَّة الإيمانيَّة، فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العاملين معه في بناء المسجد أوَّلاً، ثمَّ آخى بين قومٍ آخرين في دار أنسٍ، وتكرَّر ذلك منه صلى الله عليه وسلم ، حتَّى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين، والأنصار، وكانوا نحو المئة، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار[1].

بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممَّن تأخوا في الله:

أبو بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه، وخارجة بن زهيرٍ. وعمر بن الخطَّاب، وعتبان بن مالكٍ. وأبو عبيدة بن الجرَّاح، وسعد بن معاذ. وعبد الرَّحمن بن عوفٍ، وسعد بن الرَّبيع. والزُّبير بن العوام، وسلامة بن سلامة بن وَقْشٍ. وطلحة ابن عُبيد الله، وكعب بن مالكٍ. وسعيد بن زيدٍ، وأُبيُّ بن كعبٍ. ومصعب بن عميرٍ، وأبو أيوبٍ خالد بن زيد. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعبَّاد بن بشر بن وَقْش. وعمَّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان. وأبو ذرٍّ الغفاريُّ، والمنذر بن عمرو. وحاطب بن أبي بلتعة[2]، وعُوَيم بن ساعدة. وسلمان الفارسي، وأبو الدَّرداء. وبلال مؤذِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو رُوَيْحة عبد الله بن عبد الرَّحمن الخَثْعميُّ[3].

ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد:

1 – آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إنَّ المجتمع المدنيَّ الَّذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقديّاً يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله، ولرسوله، وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط، وأرقاه؛ إذ يتَّصل بوحدة العقيدة،

---

(1) المصدر السابق نفسه ، (100/3).

(2) بلتعة: تبلتع الرَّجل: إذا تظرَّف.

(3) انظر: ابن هشام (109/2 . 111) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (324/2).

والفكر، والرُّوح[1].

إنَّ الولاء لله، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين من أهمِّ الآثار، والنَّتائج المترتِّبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربِّي المسلمين على هذه المعاني الرَّفيعة، فقد بيَّن الحقُّ - سبحانه وتعالى -: أنَّ ابن نوحٍ وإن كان من أهله باعتبار القرابة؛ لكنَّه لم يَعُدْ من أهله لـمَّا فارق الحقَّ، وكفر بالله، ولم يتَّبع نبيَّ الله. قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 45، 46] .

وقد حصر الإسلامُ الأُخوَّة والموالاة بين المؤمنين فقط. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: 10] وقطع الولاية بين المؤمنين ، والكافرين من المشركين، واليهود، والنَّصارى، حتَّى لو كانوا اباءهم، أو إخوانهم، أو أبناءهم، ووصف مَنْ يفعل ذلك من المؤمنين بالظُّلم، ممَّا يدلُّ على أنَّ موالاة المؤمنين للكافرين، من أعظم الذُّنوب.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: 23] .

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: 1 - 3] .

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (252/1).

فإذا كان الله سـبحانه يحذِّر المؤمنين في الآيات السَّـابقة من موالاة الكفَّار عامَّةً، فهناك آيات كثيرةٌ وردت في تحذير المؤمنين، ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصَّةً، أو اتخاذهم أولياء، أو الرُّكون إليهم[1].

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: 120] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: 100]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: 51] .

قال صاحب الظِّلال: «هذا النِّداء موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة في المدينة، ولكنَّه في الوقت ذاته موجَّهٌ لكلِّ جماعةٍ مسلمةٍ، تقوم في أيِّ ركنٍ من أركان الأرض إلى يوم القيامة، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء لِلَّذين آمنوا: أنَّ المفاصلة لم تكن كاملةً، ولا حاسمةً بين بعض المسلمين في المدينة، وبعض أهل الكتاب، وبخاصَّةٍ اليهود، فقد كانت هناك علاقات ولاءٍ، وحلفٍ، وعلاقات اقتصادٍ، وتعاملٍ، وعلاقات جيرةٍ، وصحبةٍ، وكان هذا كلُّه طبيعياً مع الوضع التَّاريخي، والاقتصاديّ، والاجتماعيّ في المدينة قبل الإسلام بين أهل المدينة من العرب، وبين اليهود بصفةٍ خاصَّةٍ، وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدِّين وأهله بكل صنوف الكيد؛ التي عدَّدَتْها، وكشفتها النُّصوص القرآنيَّة الكثيرة.

ونزل القرآن؛ ليبثَّ الوعي اللاَّزم للمسلم في المعركة الَّتي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة، بينه وبين كلِّ من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة، ولا يقف تحت رايتها الخاصَّة. المفاصلة الَّتي لا تُنهي السَّماحة

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي جزولي ، ص 417.

الخلقيَّة، فهذه صـفة المسـلم دائماً، ولكنَّها تنهي الولاء الَّذي لا يكون في قلب المسـلم إلا لله، ورســوله، والذين آمنوا. الوعي، والمفاصلــة اللَّذان لابُدَّ منهما في كلِّ أرضٍ، وفي كلِّ جيلٍ... ﴿بَعْضُــهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51]، إنَّها حقيقةٌ لا علاقة لها بالزَّمن؛ لأنَّها حقيقةٌ نابعةٌ من طبيعة الأشــياء، إنَّهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسـلمة في أيِّ أرضٍ، ولا في أيِّ تاريخٍ، وقد مضــت القرون تلو القرون، ترسـم مصـداق هذه المقولة الصَّـادقة، ولم تختلَّ هذه القاعدة مرَّةً واحدةً، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرَّره القرآن الكريم في صـيغة الوصـف الدَّائم، لا الحادث المفرد، واختيار الجملة الاسميَّة على هذا النَّحو، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51] ليست مجرد تعبير! إنَّما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدَّائم الأصيل»[1].

وقد نهى الله – سـبحانه – المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء؛ وذلك لأنَّ من أبرز صـفاتهم موالاة الكفار، وكراهية دين الله. قال تعالى: ﴿بَشِّـــرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [المنافقين: 138 – 139] .

وقد جاءت آيات توضِّح صور هذه المفاصلة في القرآن المدنيِّ، ومنها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: 73] .

ونهى المولى – عزَّ وجل – عن الصَّــــلاة عليهم، أو القيام على قبورهم. قال تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: 84] .

وحدَّد المولى – عزَّ وجل – لِلَّذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة، الَّتي تتَّفق مع صــفة الإيمان، وبيَّن لهم من يتولَّون. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُــولُهُ وَالَّذِينَ آمنوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّـــلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمنوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

---

[1] في ظلال القران (911/2).

[المائدة: 55 – 56] .

فقد فهم الصحابة: أنَّ ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحقَّقوا ذلك كلَّه في أنفسهم، وطبَّقوه على حياتهم، فمحَّضوا ولاءهم، وجعلوه لله، ورسوله، والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرَّائعة، الَّتي تدلُّ على فهمهم العميق لمعنى الولاء، الذي منحوه لخالقهم، ولدينهم، وعقيدتهم، وإخوانهم.

إنَّ التَّآخي الَّذي تمَّ بين المهاجرين، والأنصار كان مسبوقاً بعقيدةٍ تمَّ اللِّقاء عليها، والإيمان بها؛ فالتآخي بين شخصين يُؤْمِن كلٌّ منهما بفكرةٍ، أو عقيدةٍ مخالفةٍ للأخرى خرافةٌ، ووَهْمٌ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة، أو العقيدة، ممَّا تَحْمِلُ صاحبها على سلوكٍ معيَّنٍ في الحياة العمليَّة، ولذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة الَّتي جاء بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى هي العمود الفقريَّ للمؤاخاة التي حدثت؛ لأنَّ تلك العقيدة تضع الناس كلَّهم في مصافِّ العبودية الخالصة لله، دون الاعتبار لأيِّ فارقٍ، إلا فارق التَّقوى، والعمل الصَّالح؛ إذ ليس من المتوقَّع أن يسود الإخاء، والتَّعاون، والإيثار بين أناسٍ شَتَّتَتْهُمُ العقائد، والأفكار المختلفة، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته، وأثرته، وأهوائه[1].

2 – الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدنيِّ:

إنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأمَّة المسلمة، فإذا وَهَتْ؛ تاكل كلُّ بنيانها[2]؛ ولذلك حرصَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على تعميق معاني الحبِّ في الله، في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي» [مسلم (2566) وأحمد (237/2 و535) ومالك في الموطأ (952/2)].

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حقَّت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمتواصلين فيَّ،

---

[1] انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 156.

[2] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (129/3).

وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرَ من نورٍ، يغبطهم النَّبيُّون، والصِّــدِّيقون، والشُّهداء» [أحمد (229/5 و239) وابن حبان (577) وروى الترمذي (2390) طرفه الأخير] .

كانت توجيهات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، تحثُّ الصَّحابة على معاني الحبِّ والتَّكافل، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً، فلا يستعلي غنيٌّ على فقيرٍ، ولا حاكمٌ على محكومٍ، ولا قويٌّ على ضعيفٍ، وكان للحبِّ في الله أثرُه في المجتمع المدنيّ الجديد، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصـــاريٍّ بالمدينة نخلاً، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاء، وكانت مُستقبلةَ المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيّبٍ، فلــــمَّا نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَـيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]؛ قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بَيْرُحاء)، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو برَّها، وذُخْرها عند الله، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ذلك مالٌ رابحٌ! ذلك مالٌ رابحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. [البخاري (1461)(1) ومسلم (998)] .

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدِّثنا عن هذه المعاني الرَّفيعة، حيث قال: لـــمَّا قدمنا المدينة؛ آخى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيني، وبين سعدٍ بن الرَّبيع، فقال سعد بن الرَّبيع: إنّي أكثر الأنصـار مالاً، فأقسمُ لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويتَ؛ نَزَلْتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ[2]؛ تزوَّجتَها. قال: فقال له عبد الرَّحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟ قال: سوق قينقاع[3].

قال: فغدا إليه عبد الرَّحمن فأتى بأقطٍ، وسمنٍ، قال: ثمَّ تابع الغُدُوَّ[4]، فما لبث أن جاء

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (254/1).

[2] نزلتُ لك عنها: أي: طلَّقتها لأجلك ، فإذا حلَّت: أي: انقضت عدَّتها.

[3] قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السُّوق إليهم.

[4] تابع الغُدُوَّ: أي: داوم الذَّهاب إلى السُّوق للتجارة.

عبدُ الرَّحمن عليه أثَرُ صُفرةٍ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تَزَوَّجتَ؟» قال: نعم. قال: «ومَنْ؟» قال: امرأةً من الأنصار. قال: «كم سُقْتَ؟» قال: زِنَةَ نواةٍ من ذهبٍ – أو: نواةً من ذهب – فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : «أوْلِمْ ولو بشاةٍ» [البخاري (2048 و3780) ومسلم (1426)].

ونلاحظ: أنَّ كرم سعد بن الرَّبيع قابله عفةُ وكرمُ نفسٍ من عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهما، ولم يكن مسلك عبد الرَّحمن بن عوفٍ خاصّاً به؛ بل إنَّ الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار، ثمَّ باشروا العمل، والكسب، واشتروا بيوتاً لأنفسهم، وتكفَّلوا بنفقة أنفسهم؛ ومن هؤلاء: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وغيرُهم رضي الله عنهم.

3 – النَّصيحة بين المتآخين في الله:

كان للمؤاخاة أثرٌ في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بين سلمان، وأبي الدَّرداء، فزار سلمانُ أبا الدَّرداء، فرأى أمَّ الدرداء، مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء، ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كلْ، فإنِّي صائم، قال: ما أنا باكلٍ حتَّى تأكل. قال: فأكل، فلمَّا كان اللَّيل؛ ذهب أبو الدَّرداء يقوم، قال: نَمْ، فنام، ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نَمْ. فلمَّا كان آخر اللَّيل، قال سلمان: قم الآن، فصَلَّيا. فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : «صَدَقَ سلمان» [البخاري (1968 و6139) والترمذي (2413)].

4 – لا ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم، وزادوا على ذلك بأن اثروهم على أنفسهم بخير الدُّنيا، وهذا شاهدٌ على صدق محبَّتهم، وقوَّة إيمانهم، فقد رويت نماذج عالية من

مواقف الأنصار، الَّتي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصار للنَّبيِّ: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة، ونشرككم في الثَّمرة. قالوا: سمعنا، وأطعنا» [البخاري (2325)]

فهذا الحديث يفيد: أنَّ الأنصار عرضوا على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، أن يتولَّى قسمة أموالهم بينهم، وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النَّخيل، فأبى عليهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة - أي: العمل في النَّخيل من سقيها، وإصلاحها - ونشرككم في الثَّمرة، فلمَّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنَّ هذا الرأي ضمن سدِّ حاجة المهاجرين، مع الإرفاق بالأنصار، فأقرَّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا، وأطعنا[1].

وقد قام الأنصار بالمؤونة، وأشركوا المهاجرين في الثَّمرة، ولعلَّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل، ولكنَّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم، ومواقفهم الرَّفيعة في الإيثار، والكرم، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليلٍ، ولا أحسن بذلاً في كثيرٍ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[2]، حتَّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله - عزَّ وجل - لهم» [أحمد (3/200 - 201) والترمذي (2487) وابن أبي شيبة (9/68)] .

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويِّ بيانٌ لعمق تصوُّرهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التَّصور على تفكيرهم[3].

وقد أراد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يكافئ الأنصار على تلك المكارم العظيمة، الَّتي

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (4/30).
[2] يعني: كفونا العمل ، وأشركونا في الثَّمرة.
[3] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (4/406).

قدَّموها لإخوانهم المهاجرين، فعن أنس بن مالكٍ رضـي الله عنه قال: «دعا النَّبيُّ صـلى الله عليه وسلم الأنصار إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلَها. قال: إمَّا لا؛ فاصبروا حتَّى تلْقَوني؛ فإنَّه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ» [البخاري (3794)] .

لقد حقَّقتْ هذه المؤاخاةُ أهدافها، فمنها إذهاب وحشـة الغربة للمهاجرين، ومؤانسـتهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشدِّ أزر بعضهم بعضاً، ومنها نهوض الدَّولة الجديدة؛ لأنَّ أيَّ دولةٍ لا يمكن أن تنهض، وتقوم إلا على أسـاس من وحدة الأمَّة، وتسـاندها، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتَّساند أن يتمَّ بغير عاملِ التَّـاخي والمحبَّـة المتبادلة، فكلُّ جماعةٍ لا تؤلف بينها اصرة المودة، والتَّـاخي الحقيقية لا يمكن أن تتَّحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتِّحاد حقيقةً قائمةً في الأمَّة، أو الجماعة، فلا يمكن أن تتألَّف منها دولةٌ[1].

5 - الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كلُّه حادثاً جماعيّاً، كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحبِّ الكريم، وبهذا البذل السَّـخيِّ، وبهذه المشـاركة الفعَّالة، وبهذا التَّسـابق إلى الإيواء، واحتمال الأعباء، فقد طُبِّقت الأخوَّة في الواقع العمليِّ لحياة الصَّحابة رضي الله عنهم.

إنَّ ما أقامه الرَّسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من مبدأ تاريخيٍّ لم يكن مجرَّد شعارٍ في كلمةٍ أجرآه ا على ألسـنتهم؛ وإنَّما كان حقيقةً عمليَّةً، تتَّصـل بواقع الحياة، وبكلِّ أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين، فقد جعل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من هذه الأخوة مسـؤوليَّةً حقيقيَّةً، تشـيع بين هؤلاء الإخوة، وكانت هذه المسـؤوليَّة تؤدَّى فيما بينهم على خير وجهٍ، ولذلك جعل الله - سبحانه وتعالى - حقَّ الميراث منوطاً بهذا التَّـاخي دون حقوق القرابة والرَّحم، فقد كان من حكمة التَّشـريع أن تتجلَّى الأخوَّة الإسـلاميَّة حقيقةً محسوسـةً في أذهان المسـلمين، وأن يعلموا أنَّ ما بين المسـلمين من التاخي والتَّحابب، ليس شـعاراً، وكلاماً مجرَّدين؛

---

[1] في ظلال القران (3526/6).

وإنَّما هي حقيقةٌ قائمةٌ، ذات نتائج اجتماعيَّةٍ محســـوســـةٍ، تكوِّن أهمَّ أســـس نظام العدالة الاجتماعيَّة. أمَّا حكمة نسخ التَّوارث على أساس هذه الأخوَّة فيما بعد، فهي أنَّ نظام الميراث الَّذي استقرَّ أخيراً إنَّما هو نفسه قائم على أخوَّة الإسلام بين المتوارثين؛ إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين؛ إلا أنَّ الفترة الأولى من الهجرة، وضـــعت كلاً من الأنصـــار والمهاجرين، أمام مسؤوليَّةٍ خاصَّةٍ من التعاون، والتَّناصر، والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم، وتركهم ديارهم، وأموالهم في مكَّة، ونزولهم ضـــيوفاً على إخوانهم الأنصـــار في المدينة، فكان من إقامة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التَّـــاخي بين أفراد المهاجرين، والأنصار ضمانةٌ لتحقيق هذه المسؤوليَّة، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤوليَّة أن يكون هذا التاخي أقوى في حقيقته، وأثره من أُخوَّة الرَّحم المجرَّدة، فلـمَّا استقرَّ أمر المهاجرين في المدينة، وتمكَّن الإسلام فيها؛ غدت الرُّوح الإسلاميَّة هي وحدها العصب الطَّبيعيُّ للمجتمع الجديد في المدينة[1].

ولـــمَّا ألِفَ المهاجرون جوَّ المدينة، وعرفوا مســالك الرِّزق فيها، وأصــابوا من غنائم بدرٍ الكبرى ما كفاهم؛ رجع التَّوارث إلى وضعه الطَّبيعيِّ، المنسجم مع الفطرة البشريَّة، على أساس صلة الرَّحم، وأبطل التَّوارث بين المتاخين، وذلك بنصِّ القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: 75].

فهذه الآية نسخت التَّوارث بموجب نظام المؤاخاة[2]، وبقيت النُّصرة، والرِّفادة، والنَّصيحة بين المتاخين[3]، فقد بيَّن حَبْرُ الأمَّة ابن عباسٍ ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 33] .

---

[1] انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص (211، 212).
[2] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (246/1).
[3] انظر: التَّاريخ الإسلامي (25/4).

قال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثةً ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كان المهاجرون لـمَّا قدموا المدينة يرثُ المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه؛ للأُخوة الَّتي آخى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بينهم، فلـمَّا نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾؛ نسخت، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[1] من النصر، والرِّفادة والنَّصيحة، وقد ذهب الميراثُ، ويُوصي له [البخاري (2292 و4580 و6747) وأبو داود (2922) والنسائي في السنن الكبرى (11037)] .

6 – قيمٌ إنسانيَّة ومبادئ مثاليَّةٌ:

من خلال الرَّوابط الوثيقة الَّتي ألَّفَتْ بين المهاجرين، والأنصار أُرْسِيَتْ قيمٌ إنسانيَّةٌ، واجتماعيَّةٌ، ومبادئ مثاليَّةٌ لا عهد للمجتمع القبليِّ بها؛ وإنَّما هي من شأن المجتمعات المتحضِّرة الفاضلة، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشَّريف كوسيلةٍ لكسب الرِّزق، فلقد قَبِلَ المهاجرون في أوَّل الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة، ولكنَّهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزقٍ لهم، ولا يُعوِّلُوا على رابطة المؤاخاة الَّتي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتِّجارة، ومنهم من عمل بالزِّراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالةً على إخوانهم؛ ذلك لأنَّ عزَّة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالةً على أحدٍ، بل تطلب منه أن يعطي أكثر ممَّا يأخذ، فاليد العليا خيرٌ، وأحبُّ إلى الله من اليد السُّفلى، وقد فهم الصَّحابة الكرام من تعاليم الإسلام: أنَّ العمل عبادةٌ، وهي منزلةٌ لم تصل إليها النُّظم المعاصرة، الَّتي قصرت فائدتها على سدِّ حاجات الإنسان المادِّيَّة والمعنويَّة، وفي ضوء هذا المفهوم الإسلاميِّ نستطيع أن نقول: إنَّ الإخاء، والعمل كانا حَجَرَ الزَّاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتَّالي في تأسيس الحضارة الإسلاميّة؛ الَّتي بُنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أوَّل دولةٍ في الإسلام، برئاسة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ ترعرعت حتَّى أصبحت شجرةً يتفيَّأ ظلالَها العالمُ كلُّه[2].

7 – تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

---

[1] هذه الجملة من رواية الطَّبري بنفس إسناد البخاريِّ (فتح الباري 249/8).

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 411.

إنَّ القضاء على الفوارق الإقليميَّة، والقبليَّة، ليس بالأمر الهيِّن في المجتمعات الجاهليَّة؛ حيث العصبية هي الدِّين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورةٍ واقعيَّةٍ، منطلقةٍ من قلب البيئة الجاهليَّة.

إنَّ من الأمراض في الصَّفِّ الإسلاميِّ المعاصر، سيطرةَ الرُّوح الإقليميَّة، والعصبيَّة في نفوس بعض الدُّعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين، وتُضعف الصُّفوف؛ بل تُشتِّتها، وينشغل الصَّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميَّة بداء العصبية الإقليميَّة، والعصبيَّة الشَّخصيَّة، والعصبية القُطريَّة، والعصبية حتَّى على مستوى المدينة، والقرية الصَّغيرة[1]، وقد تولَّد هذا عن أمراضٍ في نفوس بعض الأفراد، بسبب بُعْدِهم عن القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فلم يتربَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّناحر، والتَّباغض.

إنَّ المسلمين اليوم في أشدِّ الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة؛ الَّتي حدثت بين المهاجرين، والأنصار؛ لأنَّه يستحيل أن تُسْتَأْنف حياةٌ إسلاميَّةٌ عزيزةٌ قويَّةٌ؛ إذا لم تتخلَّق المجتمعات الإسلاميَّة بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيمانيِّ الرَّفيع، وإلى هذه التَّضحيات الكبيرة، وأمَّا المظاهر الزَّائفة من الأخوة (باللِّسان)؛ فلا تجدي فتيلاً.

إنَّ الفرد المسلم حين يشعر: أنَّ له إخوةً يحبُّهم، ويحبُّونه، وينصرهم، وينصرونه، خاصَّةً إذا تفاقمت الأزمات، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، فإنَّ هذا ممَّا يرفع من رُوحه المعنويَّة؛ بل ويرفع قدراته الذَّاتية، ويجعله أقوى مضاءً، وعزيمةً، وإنَّ فقدان مثل هذه المؤاخاة، ممَّا يضعف الصفَّ الإسلاميَّ، ويجعل الفرد المسلم يشعر أحياناً: أنَّه وحيدٌ أمام أعداء يكنُّون له كلَّ حقدٍ، ويحيطون به من كلِّ جانبٍ، فكيف يستطيع حمل كلِّ هذه الضُّغوط النَّفسيَّة والمادِّيَّة؟![2].

وقد حفظ لنا التَّاريخ جهاد المجتمع المسلم مع أعدائه، بعد تحقيق وحدته الاجتماعيَّة، وهو

---

[1] انظر: التربية القياديَّة (286/2).

[2] انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمد العبده ، ص 10 ، 101.

لا يزال في دَوْرِ نشـــأته، وتكوينه، وكثيراً من المحاولات الإفســـاديَّة، الَّتي كان الأعداء يدبِّرون مكايدها؛ ليشـعلوا بها نيران الفتن بين صـفوف المجتمع المسـلم، ليفرّقوا جمعه، ويفكِّكوا وحدته، ولكنَّ هذه المحاولات الإفسـادية كانت تبوء بالخسران؛ لأنَّها كانت تصطدم بقوَّة تماسك المجتمع المسلم، في تركيبه الإيمانيِّ والاجتماعيِّ، فيذيبها في تلك القوَّة، الَّتي جعلت من تركيبه الاجتماعيِّ وحدةً مدمَّجة العناصر دمجاً لا يقبل التَّفريق، ولا تنفصم عرآه ، ولا تُحَلُّ روابطه[1].

8 – المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التَّمكين المعنويَّة:

إنَّ من أسباب التَّمكين المعنويَّة العملَ على تربية الأفراد تربيةً ربانيَّةً، وإعداد القيادة الرَّبَّانيَّة، ومحاربة أسباب الفُرْقة، والأخذ بأصول الوحدة، والاتِّحاد[2].

وأهمُّ أصـول الوحدة، والاتِّحاد وحدةُ العقيدة، وصـدق الآنتماء إلى الإسـلام، وطلب الحقِّ، والتَّحري في ذلك، وتحقيق الأخوَّة بين أفراد المسلمين.

إنَّ من الأصــول العظيمة؛ التي تحقِّق وحدة الصَّــف، وقوَّة التَّلاحم، ومتانة التَّماســك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوَّة في أوساطهم.

إنَّ الأُخوَّة منحةٌ من الله – عزَّ وجلَّ – يعطيها الله للمخلصـــين من عباده، والأصـــفياء، والأتقياء من أوليائه، وجنده. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْـــبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْـــرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 62 – 63]**.

وهي قوَّةٌ إيمانيَّةٌ، تورث شـعوراً عميقاً بعاطفةٍ صـادقةٍ، ومحبَّةٍ وودٍّ، واحترامٍ، وثقةٍ متبادلةٍ مع كلِّ مَنْ تربطنا بهم عقيدة التَّوحيد، ومنهج الإســلام الخالد، يتبعها، ويســتلزمها تعاونٌ، وإيثارٌ، ورحمةٌ، وعفوٌ، وتسامحٌ، وتكافلٌ، وتآزرٌ، وهي ملازمةٌ للإيمان. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

---

[1] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (152/3).

[2] انظر: فقه التَّمكين في القران الكريم للصَّلابي ، ص 253.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: 10] .

ولا يذوق حلاوة الإيمان، إلا من أشرب هذه الأُخوَّة. قال صلى الله عليه وسلم : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ، ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النَّار» [البخاري (16) ومسلم (43)] .

إنَّ القرآن الكريم يرسم لنا صورةً جميلةً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الآنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: 29] .

إنَّ القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصُّورة إنَّما يخبرنا بتكريم الله – عزَّ وجلَّ –؛ فَهُمْ: أشدَّاء على الكفَّار؛ ولو كان فيهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، والقرابة، والأبناء، رحماءُ بينهم، وهذه الأخوَّة في الحقِّ أخوَّةٌ في الدِّين. إن الأخوَّة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصُّمود في وجه أعتى المحن الَّتي تنزل بالمسلمين، كما أنَّ الفهم المتبادل، والكامل للأخوَّة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين، وقوَّتهم، ومن أسباب شموخهم، والتَّمكين لهم[1].

9 – من فضائل الأنصار:

تسميتهم بالأنصار: سمَّاهم الله، ورسولُه صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين، ونصرة دين الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكونوا معروفين بذلك مِنْ قبل[2]، فعن غَيْلان بن جرير – رحمه الله! – قال: قلتُ لأنسٍ رضي الله

---

[1] انظر: شرح رسالة التَّعاليم ، د. محمَّد عبد الله الخطيب ، ص (296).

[2] انظر: الهجرة النَّبوية المباركة ، لعبد الرحمن البر ، (ص 131 . 135).

عنه: أرأيتَ اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به، أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمَّانا الله [البخاري (3776)] .

أمَّا مناقبهم، وفضائلهم، فكثيرةٌ، لا تحصى، منها مناقب عامَّةٌ لجميع الأنصار، ومناقب خاصَّة بأفراد من الأنصار. أمَّا المناقب العامَّة الواردة في القرآن الكريم مايلي:

فقد وصفهم المولى - عزَّ وجلَّ - بأنَّهم من المؤمنين حقّاً، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الآنفال: 74] .

وبشَّرهم ربُّهم برضاه عنهم، وامتدح رضاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الآنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 100] .

ووصفهم المولى - عزَّ وجلَّ - بالفلاح. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: 9] .

وأمَّا الأحاديث الَّتي تحدَّثت عن ماثر الأنصار؛ فمنها:

حبُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم للأنصار: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رأى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم النِّساءَ، والصِّبيان مقبلين - قال: حَسِبْتُ: أنَّه قال: مِنْ عُرس - فقام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مُمْتَناً[1]، فقال: «اللَّهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ النَّاس إليَّ» قالها ثلاث مِرارٍ [البخاري (3785) ومسلم (2508)] .

حبُّ الأنصار علامة الإيمان، وبغضهم علامة النِّفاق: عن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ، ولا يُبْغِضُهم إلا منافقٌ، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله» [البخاري (3783) ومسلم (75)] .

(1) مُمْتَناً: يعني متفضِّلاً عليهم بذلك.

مَنْ أحبَّهم فاز بحبِّ الله إيَّاه، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إيَّاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «من أحَبَّ الأنصار أحبَّه اللهُ، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله» [أحمد (501/2 و527) وأبو يعلى (7367) والبزار (2792 و2793) ومجمع الزوائد (39/10)] .

الشَّهادة لهم بالعفاف، والصَّبر: العفة والصَّبر شيمتان كريمتان، تدلاَّن على أصالة معدن المتخلِّق بهما، وتمام مروءته، وكمال رجولته، وفتوته، وقد شهد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم للأنصار بهما، وما أعظمها من شهادةٍ! وما أعظمه من شاهدٍ![1]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما يضرُّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار، أو نزلت بين أبويها» [أحمد (257/6) وابن حبان (7267) والحاكم (83/4) والبزار (2806) ومجمع الزوائد (40/10)] .

رغبة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الآنتساب إليهم لولا الهجرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً، أو شعباً، لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» [البخاري (3779 و7344) وأحمد (410/2) والنسائي في السنن الكبرى (8261)] .

دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالمغفرة لهم، ولأبنائهم، ولأزواجهم، ولذراريهم: لاشكَّ أنَّ دعاء الرَّسول صلى الله عليه وسلم مستجابٌ، وقد فاز الأنصار بهذا الفضل، فقد روى البخاريُّ عن عبد الله بن الفضل: أنَّه سمع أنس بن مالكٍ يقول: «حَزِنْتُ على من أُصيب بالحَرَّة[2]، فكتب إليَّ زيدُ بنُ أرقم - وبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزني - يذكر: أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «اللَّهُمَّ اغفر للأنصار! ولأبناء الأنصار». وشكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار[3]، فسأل أنساً بعضُ مَنْ كان عنده، فقال: هو الذي يقولُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، هذا

(1) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 142.

(2) كانت وقعة الحرَّة في سنة ثلاث وستين ، وسببها: أنَّ أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية؛ لمَّا بلغهم ما يتعمَّده من الفساد ، فأرسل إليهم يزيدُ بنُ معاوية مسلمَ بن عقبة المرّي في جيشٍ كثير ، فهزمهم ، واستباحوا المدينة ، وقُتِلَ من الأنصار شيءٌ كثير ، وكان أنسٌ يومئذ بالبصرة ، فبلغه ذلك ، فحزن على من أصيب من الأنصار ، فكتب إليه زيد بن أرقم . وكان يومئذٍ بالكوفة . يسلِّيه ، ومحصَّل ذلك: أنَّ الذي يصير إلى مغفرة الله ، لا يشتدُّ الحزن عليه ، فكان ذلك تعزيةً لأنس فيهم.

(3) هذه الزيادة ثابتةٌ عند مسلمٍ ، في كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم ، رقم (2506 ، 2507).

الَّذي أوفى الله له بأذنِهِ[1]» [البخاري (4906) ومسلم (2506)] .

وصية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالإحسان إليهم، وعدم إفزاعهم: كان جهاد الأنصار في سبيل الدِّين عظيماً، وكان فضلهم في نشره، والدِّفاع عنه بليغاً؛ إذ لم يمنعهم من الخفَّة إلى الخروج في سبيل الله عسرٌ، ولا يسرٌ، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117] وَمِنْ ثَمَّ كانت وصيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار، والإحسان إلى محسنهم، والتَّجاوز عن مسيئهم، وكان ترهيبه صلى الله عليه وسلم من ترويعهم، وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيراً[2]، فعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الأنصار كَرِشي، وعَيْبَتي[3]، والنَّاسُ سيكثرون، ويَقِلُّون[4]، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» [البخاري (3801) ومسلم (2510)] وعنه أيضاً، قال: خرج نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقَّته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده! إنِّي لأحِبُّكم، وإنَّ الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الَّذي لهم[5]، فأحْسِنوا إلى مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم» [أحمد (187/3) والنسائي في السنن الكبرى (8270) وابن حبان (7266 و7271) وأبو يعلى (3770)]

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر للأنصار «....فمن ولي الأنصار؛ فليحسن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومَنْ أفزعهم؛ فقد أفزع هذا الَّذي بين هاتين، وأشار إلى نَفْسِه صلى الله عليه وسلم »[6].

---

[1] أوفى الله له بأذنه: أي: بسمعه ، وهو بضمِّ الهمزة والذَّال ، ويجوز فتحهما ، أي: أظهر صدقه فيما أعلم به.

[2] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 150.

[3] كرشي ، وعيبتي: أي: بطانتي ، وخاصَّتي ، يريد أنَّهم موضع سرِّه ، وأمانته.

[4] قال ابن حجر: «أي: أنَّ الأنصار يقلُّون ، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار ، فمهما فُرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل؛ فُرض في كلِّ طائفة من أولئك ، فهم أبداً بالنِّسبة إلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلماطَّلع على أنَّهم يقلُّون مطلقاً ، فأخبر بذلك ، فكان كما أخبر؛ لأنَّ الموجودين الان من ذرِّية عليِّ بن أبي طالبٍ ممَّن يتحقَّق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّن يتحقق نسبه ، وقس على ذلك ، ولا التفات إلى كثرة مَنْ يدَّعي: أنَّه منهم بغير برهانٍ» فتح الباري ، شرح حديث رقم (3801).

[5] قضوا الَّذي عليهم: يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة ، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، وينصروه على أنَّ لهم الجنَّة ، فوفوا بذلك. فتح الباري ، شرح حديث رقم (3799) ، وهذا الحديث موجودٌ بنحوه في البخاريِّ ، رقم (3799).

[6] انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 151 ومن أراد المزيد؛ فليرجع إلى صحيح البخاريِّ ، كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (3776 ، 3948) ومسلم

المبحث الثَّالث

الوثيقة أو الصَّحيفة

نظَّم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التَّاريخية، واستهدف هذا الكتاب، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق، والواجبات، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب، والصَّحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور).

ولقد تعرَّض الدُّكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحيحة»[1]، وبيَّن: أنَّ أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها؛ «فنصوصها مكوَّنةٌ من كلماتٍ، وتعابير كانت مألوفةً في عصر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد، حتَّى أصبحت مغلقةً على غير المتعمِّقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوصٌ تمدح، أو تقدح فرداً، أو جماعةً، أو تخصُّ أحداً بالإطراء، أو الذَّمِّ؛ لذلك يمكن القول بأنَّها وثيقةٌ أصليةٌ، وغير مزوَّرةٍ»[2]، ثمَّ إنَّ التَّشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة، وأساليب كُتُبِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يعطيها توثيقاً آخر.

أولاً: كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نصُّ الوثيقة[3]:

1 - هذا كتابٌ من محمَّد النَّبيِّ «رسول الله» بين المؤمنين، والمسلمين من قريشٍ، «وأهل يثرب»، وَمَنْ تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

2 - إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس.

، كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، حديث رقم (2505 ، 2513).

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري ، (275/1).

(2) تنظيمات الرَّسول صلى الله عليه وسلمالإدارية في المدينة ، لصالح العلي ، ص 4 . 5.

(3) مجموعة الوثائق السِّياسية، لمحمَّد حميد الله ، ص 41 . 47 ، وابن هشام (147/2 . 150).

3 – المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم[1]، يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عانِيَهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

4 – وبنو عَوْف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم[3]الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

5 – وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

6 – وبنو ساعدة على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

7 – وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

8 – وبنو النَّجار على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

9 – وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

10 – وبنو النَّبيت على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

11 – وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

12 – وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[4] بينهم أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ، أو عَقْل، وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

---

(1) الربعة: الحال الَّتي جاء الإسلام، وهم عليها.

(2) العاني: الأسير.

(3) معاقلهم: المعاقل أي: الدِّيات ، الواحدة: معقلة.

(4) مُفْرَحاً: أي: المثقل بالدَّين ، والكثير العيال.

13 – وإنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعةَ[1] ظُلْمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدهِم.

14 – ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

15 – وإنَّ ذمة الله واحدةٌ، يُجير عليهم أدناهم، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

16 – وإنَّه مَنْ تبعنا من يهود، فإنَّ له النَّصرَ، والأُسوة غير مظلومين، ولا متناصرٍ عليهم.

17 – وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ، وعدلٍ بينهم.

18 – وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقب بعضها بعضاً.

19 – وإنَّ المؤمنين يُبِيءُ[2] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله.

20 – وإنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً، وأقومه، وإنَّه لا يجير مشركٌ مالاً لقريشٍ، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

21 – وإنَّه من اعتبط[3] مؤمناً قتلاً عن بيِّنةٍ؛ فإنَّه قَوَدٌ[4] به، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ (العَقْل)، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّةً، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه.

22 – وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة، وامن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحْدِثاً[5]، أو يُؤْوِيه، وإنَّ مَنْ نصره، أو اواه، فإنَّ عليه لعنةَ الله، وغضبه يوم القيامة، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ، ولا عدلٌ.

23 – وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ ﷺ .

---

[1] دسيعة: عظيمة.

[2] يُبِيءُ: من «البَوَاء» وهو المساواة.

[3] أي: قتله دون جنايةٍ ، أو سببٍ يوجب قتله.

[4] القود: القصاص.

[5] المحدث: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر: من نصر جانياً ، واواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتصَّ منه ، وبالفتح: هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرِّضا به ، والصَّبر عليه ، فإنَّه إذا رضي بالبدعة ، وأقرَّ فاعلها ، ولم ينكرها عليه؛ فقد اواه.

24 – وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

25 – وإن يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم، وللمســـلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا ظلم نفسه، وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ[1] إلا نفسَه، وأهلَ بيته.

26 –وإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ.

27 – وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ.

28 – وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ.

29 – وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ.

30 – وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ.

31 – وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، إلا من ظَلَمَ، وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه، وأهلَ بيته.

32 – وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم.

33 – وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، وإنَّ البر دون الإثم.

34 – وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

35 – وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (بطانة الرَّجل: أي: خاصَّته، وأهل بيته).

36 – وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد صلى الله عليه وسلم .

37 – وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ بينهم النُّصح، والنَّصيحة، والبرُّ دون الإثم.

38 – وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه، وإنَّ النَّصر للمظلوم.

39 – وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

40 – وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة.

---

[1] يوتغ: يهلك ، والوتغ . بالتَّحريك .: الهلاك. والمعنى: فسد ، وهلك ، وأثم.

41 – وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍّ، ولا اثم.

42 – وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها.

43 – وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله – عزَّ و جلَّ – وإلى محمَّدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه (أي: إنَّ الله، وحزبه المؤمنين على الرِّضا به).

44 – وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نصرها، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ.

45 – وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه، ويَلْبَسونه؛ فإنَّهم يصالحونه، ويلبسونه، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك؛ فإنَّه لهم على المؤمنين، إلا مَنْ حارب في الدِّين. وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتُهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم.

46 – وإنَّ يهود الأوس – مواليهم، وأنفسهم – على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ البرَّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.

47 – وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ، أو اثمٍ، وإنَّه مَنْ خرج امنٌ، ومن قعد امنٌ بالمدينة، إلا من ظَلَم، وَأَثِمَ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ، واتقى، ومحمَّدٌ رسولُ الله (ﷺ)[1] .

ثانياً: دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد من الوثيقة:

1 – تحديد مفهوم الأمَّة:

تضمَّنت الصَّحيفة مبادئ عامَّةً، درجت دساتير الدُّول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادئ، تحديد مفهوم الأمَّة؛ فالأمَّة في الصَّحيفة تضمُّ المسلمين جميعهم، مهاجريهم، وأنصارهم، وَمَنْ تبعهم ممَّن لحق بهم، وجاهد معهم، أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس[2]، وهذا شيءٌ جديدٌ كلَّ الجدَّة في تاريخ الحياة السِّياسيَّة في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرَّسول صلى الله عليه وسلم قومه من شعار القبليَّة، والتَّبعيَّة لها، إلى شعار الأمَّة، الَّتي تضمُّ كلَّ من اعتنق

(1) انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، ص 41 . 47.

(2) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص 169.

الدِّين الجديد، فلقد قالت الصَّحيفة عنهم: «إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ» (الفقرة: 1، 2). وقد جاء به القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92]، وبيَّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، ووضَّح - سبحانه وتعالى -: أنَّها أمَّةٌ إيجابيَّة؛ فهي لا تقف موقف المتفرِّج من قضايا عصرها؛ بل تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الفضائل، وتحذِّر من الرَّذائل[1]. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110] .

وبهذا الاسم الَّذي أُطلق على جماعةٍ من المسلمين، والمؤمنين، ومَنْ تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة؛ الَّتي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام؛ فهم يتكافلون فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظَّالم، وهم يرعون حقوق القرابة، والمحبَّة، والجوار[2]. لقد انصهرت طائفتا الأوس، والخزرج في جماعة الأنصار، ثمَّ انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين، وأصبحوا أمَّةً واحدةً[3]، تربط أفرادها رابطةُ العقيدة، وليس الدَّم، فيتَّحد شعورهم، وتتَّحد أفكارهم، وتتَّحد قبلتهم، ووجهتهم، وولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشَّرع وليس للعُرْف، وهم يتمايزون بذلك كلِّه على بقيَّة النَّاس «من دون النَّاس»، فهذه الرَّوابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهم من اليهود، والحلفاء، ولا شكَّ: أنَّ تمييز الجماعة الدِّينية كان أمراً مقصوداً، يستهدف زيادة تماسكها، واعتزازها بذاتها[4]، ويتَّضح ذلك في تمييزها بالقبلة، واتجاهها إلى الكعبة، بعد أن اتَّجهت ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس[5].

وقد مضى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يميِّز أتباعه عمَّن سواهم في أمورٍ كثيرةٍ، ويوضِّح لهم: أنَّه يقصد بذلك مخالفة اليهود، ومن ذلك: أنَّ اليهود لا يُصلُّون بالخِفاف، فأذن النَّبيُّ صلى الله

---

[1] انظر: دستورٌ للأمَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، ص 9.
[2] انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيِّد عبد العزيز سالم ، ص 100.
[3] انظر: قيادة الرَّسول صلى الله عليه وسلمالسِّياسيَّة والعسكريَّة ، لأحمد راتب ، ص 93.
[4] انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (293/1).
[5] تاريخ خليفة بن خياط ، ص 23 . 24 ، وسيرة ابن هشام (550/1).

عليه وسلم لأصحابه أن يصلُّوا بالخُفِّ، واليهود لا تصبغ الشَّيب، فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحنَّاء، والكَتَم[1]، واليهود تصوم عاشوراء، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يصومه أيضاً، ثمَّ اعتزم في أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه؛ مخالفةً لهم[2]. ثمَّ إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم، والتميُّز عليهم، فقال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم» **[أحمد (50/2 و92) وأبو داود (4031) وعبد بن حميد (848)]**، وقال أيضاً: «لا تشبَّهوا باليهود» **[أحمد (165/1) والنسائي (137/8) وأبو يعلى (681)]** . والأحاديث في ذلك كثيرةٌ، وهي تفيد معنى تميُّز المسلمين، واستعلائهم على غيرهم، ولا شك: أنَّ التشبُّه، والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذَّات، والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التَّميُّز، والاستعلاء، لا يشكِّل حاجزاً بين المسلمين، وغيرهم، فكيان الجماعة الإسلاميَّة مفتوح، وقابلٌ للتوسُّع، ويستطيع الانضمامَ إليه مَنْ يؤمن بعقيدته[3].

واعتبرت الصَّحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة، وعنصراً من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصَّحيفة: «وإنَّه من تبعنا من يهود، فإنَّ له النَّصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرٌ عليهم» (الفقرة 16)، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً، في الفقرة (25) وما يليها؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله: «وإنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين...».

وبهذا ترى: أنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب؛ الَّذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنَّهم أمَّةٌ مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتِّبة عليهم؛ فاختلاف الدِّين ليس - بمقتضى أحكام الصَّحيفة - سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[4].

2 - المرجعيَّة العليا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (23)، وقد جاء فيها: «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّد صلى الله عليه وسلم » والمغزى من ذلك واضحٌ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ، تُهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في

---

[1] الكَتَم: جَنْبَةٌ من الفصيلة المرسينية ، قريبة من الآس ، تنبت في المناطق الجبلية ، وكانت تُستعمل قديماً في الخِضابِ ، وَصُنْعِ المِداد.
[2] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (293/1).
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، (293/1).
[4] انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (37/1).

الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات، وفي الوقت نفسه تأكيدٌ ضمنيٌّ برئاسة الرَّسول صلى الله عليه وسلم على الدَّولة[1]، فقد حدَّدت الصَّحيفة مصدر السُّلطات الثلاثة: التَّشريعية، والقضائية، والتَّنفيذية، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصاً على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة؛ لأنَّ تحقيق الحاكمية لله على الأمَّة هو محض العبوديَّة لله تعالى؛ لأنَّه بذلك يتحقَّق التَّوحيد، ويقوم الدِّين. قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 40] .

يعني: «ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية، والعقائد، والعبادات، والمعاملات إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشرٍ أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة»[2].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبوديَّة، والحاكميَّة لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: 2 – 3] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105] فكما أنَّ تحقيق العبودية غايةٌ من إنزال الكتاب؛ فكذلك تطبيق الحاكميَّة غايةٌ من إنزاله، وكما أنَّ العبادة لا تكون إلا عن وحي مُنَزَّل؛ فكذلك لا ينبغي أن يُحكم إلا بشرعٍ منزَّلٍ، أو بما له أصلٌ في شرعٍ مُنزَّلٍ[3].

إنَّ تحقيق الحاكميَّة تمكينٌ للعبوديَّة، وقيامٌ بالغاية الَّتي من أجلها خُلق الإنسان، والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] .

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا، يرجع إليها سكَّان المدينة – بما فيهم اليهود – بموجب بند رقم (43)، لكنَّ اليهود لم يُلزَموا بالرُّجوع إلى القضاء الإسلاميِّ

[1] انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، للسيد عبد العزيز ، ص 102.
[2] انظر: تفسير المنار (309/12).
[3] انظر: الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي (433/1).

دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة، وأحوالهم الشَّخصيَّة، فهم يحتكمون إلى التَّوراة، ويقضي بينهم أحبارها، ولكن إذا شاؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد خيَّر القرآن الكريم النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بين قبول الحكم فيهم، أو ردّهم إلى أحبارهم، قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: 42] .

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرَّسول صلى الله عليه وسلم فيها اختلافُ بني النَّضير، وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النَّضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دِيَةً مضاعفةً لقتلاها، فلمَّا ظهر الإسلام في المدينة؛ امتنعت بنو قريظة عن دفع الضّعف، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة[1]، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالآنفَ بِالآنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: 45] .

وبهذه الصَّحيفة – الَّتي أقرَّت المادة (43): على «أنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجارٍ يُخاف فساده. فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ رسوله صلى الله عليه وسلم » – أصبح للرَّسول صلى الله عليه وسلم سلطةٌ قضائيَّةٌ مركزيَّةٌ عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولها قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ؛ لأنَّ أوامر الله واجبة الطَّاعة، وملزمة التَّنفيذ، كما أنَّ أوامر الرَّسول صلى الله عليه وسلم هي من الله، وطاعتها واجبةٌ[2].

وبذلك أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيسَ الدَّولة، وفي الوقت نفسه رئيس السُّلطة القضائيَّة، والتَّنفيذيَّة، والتَّشريعية؛ فقد تولَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم السُّلطات الثلاث، بصفته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المكلَّف بتبليغ شرع الله، والمفسِّر لكلام الله، والسُّلطة التَّنفيذيَّة بصفته الرَّسول الحاكم، ورئيس الدَّولة، فقد تولَّى رئاسة الدَّولة وَفْقَ نصوص الصَّحيفة، وباتفاق الطَّوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممَّن شملتهم نصوص الصَّحيفة في المادة (36)، الَّتي تقرِّر: أنَّه: «لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم » ولهذا تأثيرٌ كبيرٌ في

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (291/1).

[2] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التَّكوين إلى التَّمكين ، ص 418.

عدم السَّــماح لهم بمحالفة قريش، أو غيرها من القبائل المعادية. وهناك المادَّة (44) الَّتي ذهبت إلى ما هو أبعد، وأصرح من ذلك؛ إذ قرَّرت: أنَّه: «لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نَصَرَها»، ولم يَرِدْ في الصَّحيفة اسمٌ لأيِّ شخصٍ ما عدا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم [1] .

3 – إقليم الدَّولة:

وجاء في الصَّــحيفة: «إنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصَّــحيفة» مادة (40)، وأصــل التَّحريم ألا يقطع شـــجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّـــجر والطَّير، فما بالك في الأموال، والأنفس؟![2] فهذه الصَّـــحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أمَّةٌ واحدةٌ، وإقليمٌ هو المدينة، وسلطةٌ حاكمةٌ يُرْجَع إليها، وتَحْكُم بما أنزل الله.

إنَّ المدينة كانت بداية إقليم الدَّولة الإســـلاميَّة، ونقطة الآنطلاق، ومركز الدَّائرة؛ الَّتي كان الإقليم يتَّسع منها، حتَّى يضع حدَّاً للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم، والأمن العام.

وقد أرسـل النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم أصـحابه ليثبِّتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابَتَيْها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثَوْر في الشمال، وجبل عَيْر في الجنوب[3].

ثمَّ اتسـع «الإقليم» باتِّسـاع الفتح، ودخول شـعوب البلاد المفتوحة في الإسـلام، حتَّى عمَّ مسـاحةً واسعةً في الأرض، والبحر، وما يعلوهما من فضـاء، فمن المحيط الأطلسي غرباً، ومناطق واسعةٍ من غرب أوربة، وجنوبها، ومناطق فسيحةٍ من غرب اسية وجنوبها، إلى أكثر أهل الصِّين وروســـية شـــرقاً، وكلِّ شمال إفريقية وأواســـطها[4]. إنَّ إقليم الدَّولة مفتوحٌ وغير محدودٍ بحدود جغرافيَّةٍ، أو سياسيَّةٍ؛ فهو يبدأ من عاصمة الدَّولة «المدينة»، ويتَّسع حتَّى يشمل الكرة الأرضيَّة بأسرها.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 420.

[2] انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (38/1).

[3] قال صلى الله عليه وسلم: «المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْر إلى ثَوْر ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو اوى مُحْدِثاً ، فعليه لعنة الله...» البخاري (6755) ، ومسلمٌ ،كتاب الحجِّ ، باب فضل المدينة... وبيان حدود حرمها ، رقم (1370).

[4] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التكوين إلى التمكين ، ص 411.

عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: 128] كما أنَّ مفهوم الأمَّة مفتوحٌ وغير منغلقٍ على فئةٍ دون فئةٍ؛ بل هي ممتدَّةٌ لتشمل الإنسانيَّة كلَّها، إذا ما استجابت لدين الله تعالى؛ الذي ارتضاه لخلقه، ولبني ادم أينما كانوا، فالدَّولة الإسلاميَّة دولةُ الرِّسالة العالمية، لكلِّ فردٍ من أبناء المعمورة نصيبٌ فيها، وهي تتوسَّع بوسيلة الجهاد[1].

4 - الحرِّيَّات وحقوق الإنسان:

إنَّ الصَّحيفة تدلُّ بوضوحٍ، وجلاءٍ على عبقرية الرَّسول صلى الله عليه وسلم في صياغة موادِّها، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعضٍ؛ فقد كانت موادُّها مترابطةً، وشاملةً، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقِّق العدالة المطلقة، والمساواة التَّامَّة بين البشر، وأن يتمتَّع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأديانهم، بالحقوق والحرِّيَّات بأنواعها[2]. يقول الأستاذ محمد سليم العوَّا: «ولا تزال المبادئ التي تضمَّنها الدستور - في جملتها - معمولاً بها، والأغلب أنَّها ستظل كذلك في مختلف نُظُم الحكم المعروفة إلى اليوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها، في أوَّل وثيقة سياسيَّة دوَّنها الرَّسول صلى الله عليه وسلم »[3].

فقد أعلنت الصَّحيفة: أنَّ الحرِّيات مصونةٌ؛ كحرية العقيدة، والعبادة، وحقِّ الأمن... إلخ، فحرية الدِّين مكفولةٌ: «للمسلمين دينهم، ولليهود دينهم». قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 256] وقد أنذرت الصَّحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصَّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين النَّاس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة واجبٌ عليها أن تقيم العدل بين الناس، وتفسح المجال وتيسِّر السُّبل أمام كلِّ إنسانٍ - يطلب حقَّه - أن يصل إلى حقِّه بأيسر السُّبل، وأسرعها، دون أن يكلِّفه

[1] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التكوين إلى التمكين ، ص 421.
[2] المصدر السابق نفسه ، ص 420.
[3] انظر: النظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص 65.

ذلك جهداً، أو مالاً[1]، وعليها أن تمنع أيَّ وسيلةٍ من الوسائل، التي من شأنها أن تعوق صاحب الحقّ من الوصول إلى حقِّه.

لقد أوجب الإسلام على الحكَّام أن يقيموا العدلَ بين النَّاس دون النّظر إلى لغاتهم، أو أوطانهم، أو أحوالهم الاجتماعيَّة، فهو يعدل بين المتخاصمين، ويحكم بالحقّ، ولا يهمُّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء، أو أعداء، أغنياء، أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8] والمعنى: لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على ظلمهم، ومقتضى هذا أنَّه لا يحملنَّكم حبُّ قوم على محاباتهم، والميل إليهم[2].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي – رحمه الله – معقِّباً على قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15] ما نصُّه: «يعني أنَّني مأمور بالآنصاف دون عداوةٍ، فليس من شأني أن أتعصَّب لأحدٍ، أو ضدَّ أحدٍ، وعلاقتي بالنَّاس كلِّهم سواءٌ، وهي علاقة العدل، والآنصاف، فأنا نصيرُ مَنْ كان الحقُّ في جانبه، وخصيم من كان الحق ضدَّه، وليس في ديني أيُّ امتيازات لأيِّ فردٍ كائناً مَنْ كان، وليس لأقاربي حقوقٌ، وللغرباء حقوقٌ أخرى، ولا للأكابر عندي مميّزاتٌ لا يحصل عليها الأصاغر، والشُّرفاء والوضعاء عندي سواءٌ، فالحقُّ حقٌّ للجميع، والذَّنب والجُرْم ذنبٌ للجميع، والحرام حرامٌ على الكلِّ، والحلال حلالٌ للكُلِّ، والفرض فرض على الكلِّ، حتَّى أنا نفسي لست مستثنىً من سلطة القانون الإلهيِّ[3].

إنَّ تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانيَّة بخصائصه؛ التي احتواها منهجه التربويُّ حفيَّةٌ أشدَّ الحفاوة بشِرْعَةِ العدل، وإقامته بين الأفراد، والجماعات، والأمم، والشُّعوب؛ لأنَّ العدل في شمول مواطنه هو دعامةُ القيادة الموفَّقة.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ

[1] انظر: النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام، لأبي فارس، ص 58.
[2] المصدر السابق نفسه، ص 52.
[3] انظر: الحكومة الإسلاميَّة، ص 202.

الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: 135] .

وهذا نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في تكليف المجتمع القياديّ المسلم بتحقيق العدل على أتمِّ صوره، وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس، وأبعد البُعَدَاء، وفي قوله تعالى: ﴿كُونُوا﴾، أمرٌ للمجتمع المسلم، في جميع أفراده، وجماعاته، أينما حلُّوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة، أو المتباعدة، وهو أمر كينونة يُشْعر بمادَّته بالإلزام، والالتزام، والتَّهيُّؤ والآنبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله تعالى: بصيغة ﴿قَوَّامِينَ﴾، إيماءٌ إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكلِّ ما أوتي من قوة مادِّية، ورُوحية، مشمِّراً علساق العزم في بذل الجهد، والتحفُّز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعيّ.

إنَّ القرآن الكريم – وهو دستور المجتمع المسلم – لا يقف في أسلوبه الَّذي يحضُّ به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة، ولكنَّه يَلِجُ[1] إلى مداخل الضَّمير الإنسانيّ، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملَّق الغنيَّ لغناه، وسعة ثروته من المال، أو يتملَّق عاطفة الرَّحمة، فيرحم الفقير لفقره، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلمٍ، وحَيْفٍ على الحق.

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم، أن يحمله تعزُّز الغني بثرائه، وغناه على ألا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرَّحمة للفقير، فيُحابي بظلم الغنيِّ لأجله.

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم، أن يميل مع الهوى، ويخضع للعواطف، فيحيد عن العدل ليّاً بالحق، وإعراضاً عنه.

وقد جاءت أخت هذه الآية، في نسق أسلوبها، وألفاظها؛ لتكمِّل صورة إقامة العدل على أتمِّ وجوهه، ولتقرِّر: أنَّ موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحبُّ والمبْغض، والقريب والبعيد، والصَّديق والعدوُّ، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ

[1] يلج: يدخل.

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8] .

فصـــورة الخطاب الكينوني هنا ﴿كُونُوا﴾ الَّذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم؛ الَّذي نيطَ به قيادة الإنسانيَّة – هي صورته هناك؛ لأنَّ العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى الَّتي حملوها؛ ليؤدُّوها إلى النَّاس في حياتهم[1]؛ بيد أنَّ الأمر قد اختلف في الايتين اختلافاً جَمَعَ مُتَفَرِّقَ مواطنِ العدل باعتباره أصلاً من أصول الرِّسالة الخالدة الخاتمة؛ الَّذي يعمُّ الحياة من جميع جوانبها؛ ففي الآية الأولى وجَّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه – قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا﴾ – إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمةُ منازع الحبِّ، والودِّ، والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجَّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرِّف، إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمةُ جميع عواطف البغض، والعداوة[2].

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضاً بالعدل، قائماً به بين النَّاس، له قيادته للإنسانيَّة، وليخلص له التوجُّه إلى الله تعالى في إخلاص العبوديَّة له وحده، لا تحمله محبَّةٌ مهما عظمت، أو بغضٌ مهما اشتدَّ على الإعراض عن إقامة العدل؛ إحقاقاً للحقِّ، وإنصافاً للمظلوم، ونصراً للضَّعيف[3].

أمَّا مبدأ المساواة؛ فقد جاءت نصوصٌ صريحةٌ في الصَّحيفة حولها، منها: «أن ذمَّة الله واحدة»، وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم»، وأنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس»، ومعنى الفقرة الأخيرة: أنَّهم يتناصرون في السَّراء والضَّرَّاء (الفقرة 15). وتضمَّنت الفقرة (19): أنَّ «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعضٍ، بما نال دماءهم في سبيل الله»، قال السُّهيلي – شارح السيرة – في كتابه (الرَّوض الآنف): «ومعنى قوله يبيء: هو من البَوَاء، أي: المساواة»[4].

ويعدُّ مبدأ المساواة أحد المبادئ العامَّة الَّتي أقرَّها الإسلام، وهو من المبادئ الَّتي تساهم في بناء المجتمع المسلم، ولقد أقرَّ هذا المبدأ، وسبق به تشريعات، وقوانين العصر الحديث، وممَّا ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

[1] انظر: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(142/3 ، 143 ، 144).
[2] المصدر نفسه (144/3 ، 145).
[3] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، (145/3).
[4] انظر: الرَّوض الأُنف (17/2) ، نقلاً عن نظام الحكم ، للقاسمي (38/1).

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أيها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ، إلا بالتَّقوى. أَبَلَّغْتُ؟» [أحمد (411/5)] .

إنَّ هذا المبدأ كان من أهم المبادئ الَّتي جذبت الكثير من الشُّعوب قديماً نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوَّة للمسلمين الأوَّلين[1].

وليس المقصود بالمساواة هنا، (المساواة العامَّة) بين النَّاس جميعاً في أمور الحياة كافَّةً، كما ينادي بعض المخدوعين، ويرون ذلك عدلاً[2]؛ فالاختلاف في المواهب، والقدرات، والتَّفاوت في الدَّرجات غايةٌ من غايات الخلق[3]؛ ولكنَّ المقصود المساواةُ؛ الَّتي دعت إليها الشَّريعة الإسلاميَّة، مساواةٌ مقيَّدةٌ بأحوالٍ فيها التَّساوي، وليست مطلقةً في جميع الأحوال[4]، فالمساواة تأتي في معاملة النَّاس أمام الشَّرع، والقضاء، والأحكام الإسلاميَّة كافَّةً، والحقوق العامَّة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس، أو اللَّون، أو الثروة، أو الجاه، أو غير ذلك[5].

إنَّ النَّاس جميعاً في نظر الإسلام سواسيةٌ، الحاكم، والمحكوم، الرِّجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين النَّاس بسبب الجنس، واللون، أو النَّسب، أو الطَّبقة، والحكَّام والمحكومون كلُّهم في نظر الشَّرع سواء؛ ولذلك كانت الدَّولة الإسلاميَّة الأولى، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين النَّاس وكانت تراعي الآتي:

. إنَّ مبدأ المساواة أمرٌ تعبُّديٌّ، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

ـ إسقاط الاعتبارات الطَّبقية، والعُرْفية، والقبليَّة، والعنصريَّة، والقوميَّة، والوطنية، والإقليمية، وغير ذلك من الشِّعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانيَّة، وإحلال المعيار الإلهيّ بدلاً عنها للتَّفاضل، ألا وهو التَّقوى.

---

[1] انظر: مبادئ نظام الحكم في الإسلام، لعبد الحميد متولِّي، ص 385.
[2] انظر: الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها، للميداني (624/1).
[3] انظر: فلسفة التَّربية الإسلاميَّة، لماجد الكيلاني، ص 179.
[4] انظر: مبادئ علم الإدارة، لمحمَّد نور الدِّين، ص 116.
[5] انظر: فقه التمكين، د. علي الصَّلابي، ص 463.

ــ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يُراعى أحدٌ لجاهه، أو سلطانه، أو حسبه ونسبه؛ وإنَّما الفرص للجميع، وكلٌّ على حسب قدراته، وكفاءاته، ومواهبه، وطاقته، وإنتاجه.

ــ إنَّ تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدَّولة الإسلاميَّة، يقوِّي صفَّها، ويوحِّد كلمتها، وينتج عنه مجتمعٌ متماسكٌ متراحمٌ يعيش لعقيدةٍ، ومنهجٍ، ومبدأ[1].

كانت الوثيقة قد اشـــتملت على أتمِّ ما قد تحتاجه الدَّولة، من مقوِّماتها الدُّســـتوريَّة، والإداريَّة، وعلاقة الأفراد بالدَّولة، وظَلَّ القرآن يتنزَّل في المدينة عشــر ســنين، يرســم للمســلمين خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادئ الحكم، وأصول السِّياسة، وشؤون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التَّقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدَّولة المسلمة في الدَّاخل، والخارج، والسُّنَّة الشريفة تدعم هذا، وتشيده، وتفصِّلـــــه في تنوير وتبصرةٍ، فالوثيقة خطَّت خطوطاً عريضة في التَّرتيبات الدُّســـتورية، وتُعَدُّ في قمَّة المعاهدات الَّتي تحدِّد صـــلة المســـلمين بالأجانب الكفَّار المقيمين معهم، في شيءٍ كثيرٍ من التَّسامح، والعدل، والمساواة، وعلى التَّخصيص إذا لُوحِظَ أنَّها أوَّل وثيقةٍ إســـلاميَّة، تُسَـــجَّل، وتنفَّذ في أقوامٍ كانوا – منذ قريب – وقبل الإســـلام – أســـرى العصـــبية القَبَلِيَّة، ولا يشـــعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتســـلُّط، وبالتَّخوض في حقوق الآخرين، وأشيائهم[2].

كانت هذه الوثيقة، فيها من المعاني الحضاريَّة الشيء الكثير، وما توافق النَّاس على تسميته اليوم بحقوق الإنســـان، وأنَّه لا بدَّ على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها، فهل حدث هذا الالتزام[3].

ثالثاً: موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة، والبرآه ين السَّاطعة لليهود على صدق رسالة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ ذلك لم يزدْهم إلا عناداً، وعداوةً، واستكباراً، وحقداً، وحسداً على الرَّسول صـــلى الله عليه وســـلم والَّذين آمنوا معه، فعن صـــفية بنت حُيَيِّ بن أخطب: أنَّها قالت: كنتُ

---

(1) انظر: فقه التَّمكين ، ص 466.

(2) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ص (29، 30).

(3) انظر: هجرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، للجمل ، ص 261.

أحَبَّ ولدِ أبي إليه، وإلى عمِّي أبي ياســـر، لم ألقَهُما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلــمَّا قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونزل قُباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيَيُّ بن أخطب، وعمِّي أبو ياسـر بن أخطب، مُغَلِّسَـيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشـمس، قالت: فأتيا كالَّيْنِ، كسـلانينِ، سـاقطينِ، يمشـيان الهُوَيْنَى. قالت: فَهَشِشْـتُ إليهما، كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغَمِّ. قالت: وسمعتُ عمِّي أبا ياســـر، وهو يقول لأبي حُيَيِّ بن أخطب: أهو هو؟ قـال: نعم والله! قـال: أتعرفه، وتُثْبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بَقِيتُ[1].

وقد شـنَّ اليهودُ على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم والذين آمنوا معه، حملاتٍ إعلاميَّةً لتشويه صورة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وتنفير النَّاس منه، ونَزْع الثِّقة بينه، وبين النَّاس. لقد شـــعر اليهود بخطورة هذا الدِّين على مصـــالحهم، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيَّفة، القائمة على الاستعلاء، واحتقار النَّاس، عدا الجنسَ اليهوديَّ؛ لقد جاء ينادي بعقيدة التَّوحيد، وهم يقولون: «عزير ابن الله»، وجاء ينادي بالمســاواة بين أفراد الجنس البشــريِّ، وأنَّه لا يعلو شــعبٌ على شعبٍ، ولا جماعةٌ على جماعةٍ، وهم يرون: أنَّهم شعب الله المختار، يترفَّعون عن بقيَّة الأجناس، وينظرون إليهم على أنَّهم دونهم، وأقلُّ منهم[2]؛ ولـذلـك لم يلتزموا ببنود الوثيقـة، وشـــرعوا في التَّشكيك في نبوَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ورسالته، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخدعوا المؤمنين، ودلَّسوا عليهم[3]، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

1 - محاولة اليهود تصديع الجبهة الدَّاخلية:

ومن وسـائلهم الخبيثة في حرب الإسـلام محاولاتُهم المسـتمرَّة لتمزيق الصَّـفِّ المسلم، وتخريبه بتقطيع أواصـر المحبَّة بين المسـلمين، وذلك بآثارة الفتن الدَّاخلية، والشِّعارات الجاهليَّة، والنَّعرات الإقليميَّة، والدَّعوات القوميَّة، والقَبَلِيَّة، والسَّعي بالدَّسيسة والوقيعة بين الإخوة المتالفين المتوادِّين المتحابِّين، فهم في توادِّهم، وتعاطفهم، وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (518/1 ، 519).

[2] انظر: الصِّراع مع اليهود ، لمحمد أبو فارس (31/1).

[3] المصدر السابق نفسه (31/1 . 46).

له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسَّهر[1].

فقد تفتَّق ذهنُ أحد شـيوخهم الكبار في السـنِّ، عن حيلةٍ هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصـار، وذلك بآثارة العصـبيَّة القبليَّة بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليتهم، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسـر النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم بذلك أقوى أنصـاره[2]، وفي بيان هذا الخبر يقول محمَّد بن إسحاق - رحمه الله تعالى! -: ومَرَّ شأس بن قيس - وكان شيخاً قد عَسَا[3]، عظيمَ الكفر، شديدَ الضِّغْن على المسلمين، شديدَ الحسد لهم - على نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس، والخزرج، في مجلسٍ قد جمعهم يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهم، وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الَّذي كان بينهم في الجاهليَّة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[4] بهذه البلاد، لا والله! ما لنا معهم - إذا اجتمع مَلَؤهم بها - من قرارٍ، فأمر فتىً شـابّاً من يهود كان معهم، فقال: اعْمِدْ إليهم، فاجلس معهم، ثمَّ اذكر يوم بُعاث، وما كان قَبْلَه، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار.

وكان يومُ بُعاث يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج، وكان الظَّفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَيْر بن سماك الأشهليُّ أبو أُسيد بن حُضَير، وعلى الخزرج عمرو بن النُّعمان البَيَاضي، فَقُتِلا جميعاً.

قال ابن إسـحاق: ففعل، فتكلَّم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، حتَّى تواثب رجلانِ من الْحَيَّيْنِ على الرُّكب: أوس بن قَيْظيٍّ - أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس - وجبَّار بن صخر - أحد بني سلمة من الخزرج - فتقاولا، ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة[5]، فغضـب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظَّاهرة - والظَّاهرة: الحَرَّة - السِّلاحَ السِّلاحَ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتَّى جاءهم، فقال: يا معشـرَ المسـلمين! اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجاهلية، وأنا بين أظهُرِكم بعد أن

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (44/1).

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (37/4).

(3) عَسَا: كَبِرَتْ سِنُّه.

(4) قيلة: أمُّ الأوس والخزرج

(5) جَذَعَة: أي: رددنا الحرب فتيةً قويَّةً ، أو: رددنا الاخر إلى أوله.

هداكم الله للإســـلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واســـتنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم؟!

فعرف القوم أنّها نزغةٌ من الشّـــيطان، وكيدٌ من عدوّهم، فبكوا، وعانق الرّجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوِّ الله شـأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شـأس بن قيس، وما صـنع: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَـــهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُـهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 98 – 99] وأنزل الله في أوس بن قَيْظيٍّ، وجبَّار بن صـــخر، ومن كان معهما من قومهما؛ الّذين صـنعوا ما أدخل عليهم شـأس من أمر الجاهلية[1]: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْـــلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِـــمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْـــبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَــفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 100 – 105] .

ونرى من خلال القصَّـــة، قدرة القيادة النَّبويَّة على إحباط مخطَّط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصـفِّ، واهتمام النَّبيِّ صـلى الله عليه وسـلم بأمور المسـلمين، وإشـفاقه عليهم، وفزعه ممَّا يصـيبهم من الفتن والمصـائب، فقد أسـرع إلى الأنصـار، وذكَّرهم بالله، وبيَّن لهم: أنَّ ما أقدموا عليه من أمر الجاهليَّة، وذكَّرهم بالإسـلام، وما أكرمهم الله به من القضـاء على الحروب والفتن، وتطهير النُّفوس من الضَّـغائن، وتأليف القلوب بالإيمان، وكانت لكلمات النَّبيِّ صـلى الله عليه وسلم أثرٌ في نفوسهم، وسرت في كيانهم رُوحٌ جديدةٌ، مسحت كل أثرٍ لأمر الجاهليَّة بفضل الله تعالى، ثمَّ بكلمات نبيِّه صـلى الله عليه وسـلم المعبِّرة، ورُوحه القويَّة المؤثِّرة، وهيئته الوثَّابة المنذرة،

[1] انظر: سيرة ابن هشام (2/211، 214).

وأدركوا: أن ما وقعوا فيه كـان من وساوس الشّيطان، وكيد عدوّهِم من اليهـود، فبكوا ندماً على ما وقعوا فيه من الذُّنوب، وتعانق رجال الإسلام؛ تعبيراً عن محبَّتهم الإيمانيَّة لبعضهم[1].

2 ـ التَّهجم على الذَّات الإلهيَّـة: ذكر غيرُ واحدٍ من كُتَّاب السِّير، والمفسِّرين: أنَّ أبا بكرٍ رضـي الله عنه، قد دخل بيت الْمِدْرَاس[2] على يهود، فوجد منهم ناسـاً كثيراً، قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم، يقال له: (فِنْحاص)، وكان من علمائهم، وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ من أحبارهم، يقال له: (أشـيع)، فقال أبو بكر لفِنْحاص: ويحَك! اتَّق الله، وأَسْـلِم، فوالله! إنَّك تعلم: إنَّ محمداً لَرسـولُ اللهِ، قد جاءكم بالحقِّ من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التَّوراة، والإنجيل. فقال فِنْحاص لأبي بكرٍ: والله! يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فَقْرٍ، وإنَّه إلينا لفقير، وما نتضـرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، وما هو عنَّا بغنيٍّ، ولو كان عنَّـا غنيّاً ما استقرضنا أموالنـا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الرِّبا ويُعْطِيناه، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر، فضـرب وجه فِنْحاص ضـرباً شـديداً، وقال: والذي نفسـي بيده! لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم؛ لضـربتُ رأسَـك أيْ عدوَّ الله! فذهب فِنْحاص إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ: « ما حملك على ما صـنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسـول الله! إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً؛ إنَّه يزعم: أنَّ الله فقيرٌ، وأنَّهم أغنياء، فلـمَّا قال ذلك؛ غضبتُ لله ممَّا قال، وضربتُ وجهه! فجحد ذلك فِنْحاص، وقال: ما قلتُ ذلك؛ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص؛ ردَّاً عليه، وتصـديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181] .

ونزل في أبي بكرٍ الصِّـديق رضـي الله عنه، وما بلغه في ذلك من الغضـب[3]: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186][4] .

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (4/41 ـ 42).

[2] المِدْراس: مكان يُتلى فيه التَّوراة.

[3] انظر: تفسير القرطبيِّ (4/295).

[4] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (1/558 ـ 559)، وسبل الهدى والرَّشاد (3/583 ـ 585)، وتفسير مجاهد، ص 140.

وذكر القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ، سوءَ أدبهم مع الله – سبحانه وتعالى – وعـــدم تنزيهــه عن النَّقائص، وَوَصْفَــه بما لا يليق به سبحانه، وهذا عين الوقاحة، وانعدام الأدب؛ ومن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـــوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَـــاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64] .

ويبدو من مضـمون الآية : أنَّ هذا الموقف الَّذي وقفوه ، كان منبعثاً ممَّا كان يملأ صـدورهم من الغيظ ، والسُّخط من رسوخ قدم النَّبيّ صلى الله عليه وسلم وانتشار دعوته، ولعلَّ ممَّا يصحُّ أن يضــاف إلى هذا الاحتمال كون المســلمين قد انصــرفوا عنهم، أو قاطعوهم بســبب مواقف الكيد، والجحود؛ الَّتي ما فتئوا يقفونها، واســـتجابةً لأمر القرآن، ونهيه، وتحذيره، فأثَّر ذلك في حالتهم الاقتصاديَّة تأثيراً سيئاً، فزاد سخطهم، وغيظهم، وتَبَرُّمُهم، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حقِّ الله، ومن ردٍّ غير جميلٍ لرسول الله(ﷺ)[1] .

وقد جاء بعد هذه الآية ما يدلُّ على صـــحَّة ما ذهبتُ إليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمنوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَـــيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالآنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِـدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 65- 66].

3 – سوء أدبهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والنَّيل من الرُّسل الكرام والقرآن الكريم:

وكان اليهود يسيئـــون الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حضرتـــه، وأثناء خطابـــه؛ إذ يلمزونه، ويحيّونه بتحيَّةٍ فيها من الأذى والتهجُّم ما يدلُّ على سوء أخلاقهم، فعن عائشـة رضـي الله عنها قالت: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقالوا: السَّـامُ[2] عليك يا أبا القاسم! فقلتُ: السَّـام عليكم! وفعل الله بكم! فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «مَهْ يا عائشــة! فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش، ولا التفحُّش»، فقلت: يا رسـول الله!

[1] انظر: الصِّراع مع اليهود (51/1).
[2] السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (189/8).

ترى ما يقولون؟ فقال: «ألســـتِ تريني أردُّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم»، قالت: فنزلت هذه الآية في ذلك [البخاري (2935) ومسلم (11/2165)][1] وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: 8] .

وهذه الآية تُظْهِر الحقد الَّذي هيمن على نفوس اليهود، ودفعهم إلى استخدام كلِّ الوسائل، والطُّرق لهدم الإسلام، والتخلُّص من صاحب الرِّسالة صلى الله عليه وسلم ، والسَّيطرة على المسلمين، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرَّسول صلى الله عليه وسلم بالموت – مع التَّظاهر بالسَّلام عليه – الضَّعفُ الَّذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النَّوع من السَّلام، فالممارس لمثل ما قام به اليهوديُّ الَّذي سلَّم على الرَّسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «السَّام عليك» يعيش أزمةً نفسيَّةً متولِّدة عن فقدان عزٍّ كان يظنُّ أنه ينعم فيه، لقد تغلَّبت قوىً جديدةٌ على ماضيه وحاضره ، ولم يستطع أن يتفاعل مع مَنْ تغلَّب عليه ، ومنعهم الحسد والغيرة من الآنقياد للدِّين الجديد، وممَّا زاد في تأزُّم اليهود: أنهم جرَّبوا محاربة الإسلام بوسائلهم الَّتي كانوا يظنُّون أنَّها لا تُقهر، فكان الفشل حليفهم، لذلك لجؤوا إلى الطُّرق السَّلبيَّة، والوسائل الملتوية، فالدُّعاء على الخصم مع التَّظاهر بالسَّلام، هو سلاح العاجزين، ووسيلة الخائبين، وترْيَاقُ الحاقدين[2].

ولـمَّا سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما صدر عن عائشة رضي الله عنها، دعاها إلى الرِّفق، واللِّين، وبيَّن لها: أنَّ المسلم لا يجوز له أن يترك الغضبَ يتحكَّم فيه، فالرِّفق في الإسلام ثمرةٌ لا يثمرها إلا حسن الخُلُق، فالله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[3].

وأمَّا نَيْلُهم من المرسلين: فقد أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نفرٌ من يهود، فيهم أبو ياسر ابن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وغيرهم، وسألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عمَّن يؤمن به من الرُّسل، فقال صلى الله عليه وسلم : «نؤمن بالله، وما أُنزل إلينا،

---

[1] زاد المسير في علم التفسير (189/8) ، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروقٍ ، عن عائشة ، وإسناده صحيحٌ.
[2] انظر: حوار الرَّسول صلى الله عليه وسلممع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص 101.
[3] انظر: حوار الرَّسول صلى الله عليه وسلممع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص 87.

وما أُنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون»، فلما ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام جحدوا نبوّته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم، ولا بمن امن به[1]، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 59] .

وأمَّا عن محاولاتهم للنَّيل من القرآن الكريم في أسئلتهم، ونقاشهم، الَّذي لا ينتهي: فعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لـمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ قالت أحبار اليهود: يا محمد! أرأيتَ قولك: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] إيَّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاًّ»، قالوا: فإنَّك تتلو فيما جاءك: أنّا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيءٍ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّها في عِلْم الله قليلٌ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم؛ لو أقمتموه»[2]. قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27] .

4 – دعم حزب المنافقين، وتآمرهم معهم:

حدَّثنا القرآن الكريم، عن قيادة اليهود الفكريَّة لحزب المنافقين، فهم شياطين المنافقين؛ يخطِّطون لهم، ويوجِّهونهم، ويدرسون لهم أساليب الكيد، والمكر، والخداع، والدَّهاء، وآثارة الفتن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمنوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14] .

قال النَّسفي في تفسيره: «وشياطينهم الَّذين ماثلوا الشَّياطين في تمرُّدهم، هم اليهود»[3].

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضدَّ المسلمين، وفي هذا التآمر يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138 – 139] .

---

[1] انظر: ابن هشام في السِّيرة (567/1) ، وتفسير ابن جرير (442/1) ، وانظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، لعبد الله الشَّقاري (242/1 . 243).

[2] انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (241/1) ، وتفسير ابن كثير: سورة الإسراء الاية (85).

[3] انظر: تفسير النَّسفي (21/1).

قال الأســتاذ محمد دَرْوَزَة: «وجمهور المفســرين على أنَّ الكافرين هنا هم اليهود، وفي الآية قرينةٌ على صحَّة ذلك، كما أنَّ فيما بعدها قرينةً ثانيةً أيضاً، وواضحٌ: أن اتِّخاذ المنافقين اليهود أولياء، وتواثـقهم معهم، إنَّما هما أثران من آثار التآمر الموطَّد بين اليهود، والمنافقين تجاه الدَّعوة والقوَّة الإسلاميَّة»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 25 – 26] .

والجمهور على أنَّ الآية الأولى عَنَتِ المنافقين، وأنَّ الَّذين كرهوا ما نزَّل الله هم اليهود، وهكذا تبدو في الآية الثَّانية صورةٌ من صور التآمر بين الفريقين ضدَّ الإسلام، والمسلمين، ونلفت النَّظر إلى ما حَكَتْهُ الآية الثَّانية، من وَعْد المنافقين لليهود بطاعتهم، والسَّير على الخطَّة ؛ الَّتي يضعونها، ففي هذا كما هو ظاهرٌ صورةٌ لبعض ما كان لليهود من التَّوجيه والتَّأثير والنُّفوذ في المنافقين، وحركتهم، وأعمالهم[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: 14 – 16] .

قال الماورديُّ في تفسيره لهذه الآية: «يعني: المنافقين؛ تولَّوا قوماً غضب الله عليهم: هم اليهود»[3]، وفسر الماورديُّ الصدَّ عن سبيل الله بأنه: الصَّدُّ عن الجهاد ممايلةً لليهود[2].

ودفع اليهود المنافقين لإشعال حربٍ ضدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فَدَكِيَّة[4]، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعودُ سعدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبد الله بن أُبيِّ بن سَلول، وذلك قبل أن يُسْلم عبد الله بن أُبيٍّ،

---

(1) انظر: سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لدروزة (179/2 ، 180).

(2) المصدر السابق نفسه (180/2).

(3) انظر: النكت والعيون ، للماوردي (203/4).

(4) قطيفة فدكية: كساءٌ غليظٌ منسوبٌ إلى فَدَك ، وهي بلدٌ مشهور على مرحلتين من المدينة.

فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رَواحة، فلـمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجَاجةُ الدَّابة، خَمَّر عبد الله بن أُبيّ أنفَه بردائه، ثمَّ قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبيّ بن سَلول: أيها المرءُ! إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقول - إن كان حقَّاً - فلا تُؤْذِنا به في مجلسنا، ارجع إلى رَحْلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله! فَاغْشَنَا به في مجالسنا، فإنَّا نحبُّ ذلك، فاستبَّ المسلمون، والمشركون، واليهود، حتَّى كادوا يتثاورون[1]، فلم يزلِ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضُهم حتَّى سكنوا، ثمَّ ركب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : «يا سعدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب - يريد عبد الله بن أُبيٍّ - قال كذا، وكذا». قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله! أُعْفُ عنه، واصفحْ، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب! لقد جاء الله بالحقِّ الذي أَنزل عليك، ولقد اصطلح أهلُ هذه البحيرة[2] على أن يُتَوِّجوه، فيعصِّبُونه بالعصابة[3]، فلمَّا أبى الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به ما رأيتَ. فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . [البخاري (4566)] .

5 - طعنُ اليهود في مَنْ آمن من الأحبار (عبد الله بن سَلام) رضي الله عنه:

«بلغَ عبدَ الله بن سَلام مَقْدَمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ، فأتاه، فقال: إنِّي سائلُك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ، قال: ما أوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ ومن أيِّ شيءٍ يَنْزِعُ الولدُ إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيء يَنْزِعُ إلى أخواله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خَبَّرَنِي بهنَّ انفاً جبريلُ»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أمَّا أوَّلُ أشراط السَّاعة، فنارٌ تحشر النَّاسَ من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أولُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنة، فزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وأما الشَّبهُ في الولد، فإنَّ الرَّجل إذا غَشيَ المرأةَ، فسبقها ماؤه؛ كان الشَّبه له، وإذا سبق ماؤها؛ كان الشَّبهُ لها».

قال: أشهد أنَّك رسول الله، ثمَّ قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قومٌ بُهْتٌ، وإن علموا

---

[1] يتثاورون: أي: يتواثبون ، والمعنى: كادوا أن يَثِبَ بعضهم على بعضٍ فيقتتلوا ، ويقال: ثار ، إذا قام بسرعةٍ وانزعاجٍ.
[2] البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد ، والمراد به هنا المدينة النَّبويَّة.
[3] يعني: يرئِّسونه عليهم ، ويسودونه.

بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبدُ الله البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سلام!» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمِنا، وأخبرُنا وابن أخبرِنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفرأيتم إن أسلم عبد الله!» قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك. فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمَّداً رسول الله، فقالوا: شَـرُّنا، وابن شَـرِّنا، ووقعوا فيه» [البخاري (3329)] . فكانوا يؤذون من آمن من أحبارهم، ويثيرون حولهم الشُّـكوك، ويقذفونهم بتهمٍ باطلةٍ قبيحةٍ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة، ودافع عن هؤلاء المؤمنين، الَّذين وجَّه اليهود ضدَّهم تلك الحملات الظَّالمة[1].

قال الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 113 – 115] .

قال الواحديُّ في (أسباب النُّزول): «قال ابن عباسٍ، ومقاتلٍ: لـمَّا أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأسيد بن سعية، وأسد بن عُبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمَّد إلا شـرارُنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين ابائهم، وقالوا لهم: لقد خُنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ الآية»[2].

6 – بثُّ الإشاعات والشَّماتة بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين:

كان اليهود يتحيَّنون الفرص للنَّيل من المسـلمين، والبحث عمَّا يفرِّق كلمتهم، ومن ذلك استغلالهم – في الأشهر الأولى من الشَّهر – لوفاة أحد النُّقباء، الَّذين بايعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرارةَ الأنصاريُّ الخزرجيُّ رضي الله عنه، فعندما أخذته الشَّـوْكة[3]، فجاءه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يعوده، فقال: بئس الميِّتُ ليهود – مرَّتين – سيقولون: لولا دفع عنه صاحبه، ولا أملك له ضرّاً، ولا نفعاً، ولأتَمَحَّلَنَّ[4] له»، فأمر به، فكُوِيَ بخطَّين فوق رأسـه فمات، [أحمد (138/4) والحاكم (214/4) ومجمع الزوائد (98/5)] . وفي روايةٍ:

---

[1] انظر: الصِّراع مع اليهود (59/1).

[2] انظر: أسباب النزول ، للواحديّ ، ص 114.

[3] الشوكة: حُمرةٌ تعلو الوجه والجسد.

[4] أتَمَحَّلَنَّ: أي: لأحاولنَّ له في حيلةٍ يشفى بواسطتها ، انظر: النهاية (303/4).

فكواه حَوْران[1]، على عنقه، فمات، فقال النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم : «بئس الميتُ لليهود، يقولون: قد داواه صـاحبه، أفلا نفعه!» [الطبراني في المعجم الكبير (5584) وعبد الرزاق في المصنف (19515) ومجمع الزوائد (98/5)] .

ولم تكن حادثة أبي أُمامة هي الحدث الوحيد الَّذي أبان الحقد اليهوديَّ على المسـلمين، فقد أشاعوا في أوَّل الهجرة: أنَّهم سحروا المسلمين، فلا يُولد لهم ولد، أشاعوا ذلك ليضيّقوا على المسلمين الخناق، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة، التي عاشوها في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعكِّروا ذلك الجوَّ الصَّافي؛ الَّذي يملؤه الحبُّ، والتآلف بين المسلمين.

وممَّا يدلُّ على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين، شدَّة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أوَّل مولودٍ ذكر من المهاجرين، وهو عبد الله بن الزُّبير رضـي الله عنه[2]، فعن أسماء بنت أبي بكر رضـي الله عنها: «أنَّها حَمَلَتْ بعبد الله بن الزُّبير في مكَّة، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة، فنزلت قُباءً، فولدت بقُباء، ثمّ أتيت به رسـولَ الله صـلى الله عليه وسـلم ، فوضـعتُه في حجره، ثمَّ دعا بتمرةٍ، فمضـغها، ثمَّ تفل في فيه، فكان أوَّل شـيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ حَنَّكَه بالتَّمرة، ثمَّ دعا له، فَبَرَّكَ عليه، وكان أولَ مولود وُلِدَ في الإسـلام، ففرحوا به فرحاً شـديداً؛ لأنَّهم قيل لهم: إنَّ اليهود قد سـحرتكم، فلا يُولدُ لكم» [البخاري (5469) ومسلم (26/2146)]، وفي روايةٍ مسـلم [(25/2146)]: «وسمَّاه عبد الله، ثمَّ جاء بعدُ وهو ابن سبعٍ، أو ابن ثماني سنين، يبايع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، أمره الزُّبير رضي الله عنه بذلك، فتبسـم النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم حين رآه مقبلاً، وبايعه»، وكان أوَّل من وُلِدَ في الإسـلام بالمدينة بعد مَقْدَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يُولدُ لهم بالمدينة وُلد ذكر، فكبَّرَ أصـحابُ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حين وُلد عبد الله [الحاكم (548/3)] .

7 – موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة، من بيت المقدس إلى الكعبة المشـرَّفة هي الفاصـل بين الحرب الكلاميَّة، وحرب المناوشـات، والتدخُّل الفعليَّ من جانب اليهود، لزعزعة الدَّولة

---

[1] حَوْران: هي كيةٌ مُدَوَّرةٌ ، من: حار يحور إذا رجع ، وحوّره: إذا كواه هذه الكية ، وتسمى حوراء أيضاً ، انظر: النِّهاية (459/1).

[2] انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (265/1).

الإسـلاميَّة الناشـئة[1]، فعن البَرَاء بن عازبٍ رضـي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم كان أولَ ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده - أو قال: أخواله - من الأنصـــار، وأنَّه صـــلى الله عليه وسلم صلَّى قِبَلَ بيت المقدس ستةَ عَشَرَ شهراً، أو سبعةَ عَشَرَ شهراً، وكان يُعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت، وأنَّه صلى الله عليه وسلم صلَّى أوَّل صلاةٍ صلاها، صلاةَ العصر، وصلَّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممَّن صلَّى معه، فمرَّ على أهل مسجدٍ؛ وهم راكعون، فقال: أشهد بالله! لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ مكَّة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم أنَّه كان يُصلِّي قِبَلَ بيت المقدس، وأهلُ[2]الكتاب، فلـــمَّا ولَّى وجهه قِبَلَ البيت؛ أنكروا ذلك [البخاري (40) ومسلم (525)]، وقد نزلت في هذه الحادثة آيات عظيمة، فيها عِبَرٌ، وحكمٌ ودروسٌ للصفِّ المسلم.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: 149 - 152] .

* ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا ولاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142] : أخبر الله - تبارك وتعالى - بما سـيقوله اليهود عند تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من آثارة الشُّكوك، والتَّساؤلات قبل وقوع الأمر، ولهذا دلالته؛ فهو يدلُّ على نبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسـلم ؛ إذ هو أمر غيبيٌّ، فأخبر عنه قبل وقوعه، ثمَّ وقع، فدلَّ ذلك على أنَّ محمداً صـلى الله عليه وسلم رسولٌ، ونبيٌّ يخبره الوحي بما سيقع؛ إذ من الأدلَّة على صدق رسالة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، أن يخبر بأمور غيبية ثمَّ تقع بعد ذلك.

وهو يدلُّ أيضاً على علاجٍ للمشاكل قبل حدوثها، حتَّى يستعدَّ المسلمون، ويهيِّئوا أنفسهم لهذه المشـــاكل للتغلُّب عليها، والردِّ عليها، ودفعها؛ لأنَّ الأمر حين يكون مفاجئاً لهم، يكون

---

[1] انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (258/1).

[2] هو بالرفع؛ عطفاً على اليهود.

وقعه على النفس أشـــدَّ، ويربك المفاجأ، أمَّا حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه، فالحديث يطمئنهم، ويوطِّن نفوسـهم، ويعدُّها لمواجهة الشَّـدائد[1]. قال أبو السعود في تفسـيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه؛ لتوطين النُّفوس، وإعدادها على ما يبكتهم، فإنَّ مفاجأة المكروه على النَّفس أشـــقُّ، وأشـدُّ، والجواب العتيد لشـغب الخصـم الألد أردُّ»[2]، وقد وصـف الله تعالى اليهود بالسَّـفه؛ لاعتراضـهم على تحويل القبلة، وللكيد ضـدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفَّت أحلامُهم، واستمهنوها بالتَّقليد، والإعراض عن التدبُّر، والنَّظر. وقولهم: ثوبٌ سفيهٌ، إذا كان خفيف النَّسيج، وقيل: السَّفيه: البهَّات الكذَّاب، المتعمِّد خلاف ما يعلم، وقيل: الظَّلوم الجهول، والسُّفهاء هم اليهود»[3].

* ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـــطًا لِتَكُونُوا شُـــهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُـــولُ عَلَيْكُمْ شَـــهِيدًا﴾ [البقرة 143][4] : يقول ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السـلام، واخترناها لكم، لنجعلكم خيارَ الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شـهداءَ الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضـل. والوسـط هاهنا: الخيار، والأجود، كما يقال: قريش أوسـط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصَّلاة الوسطى الَّتي هي أفضل الصَّلوات وهي العصر»[5].

فهي أمَّـــةٌ وسطٌ في التَّصوُّر والاعتقاد، في التَّفكيـــر والشُّعـــور، في التَّنظيم والتَّنسيق، في الارتباطات والعلاقات، في المكان في سرَّة الأرض وأوسط بقاعها[6].

* ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُـــولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: 143] .

فالآية تذكِّر أنَّ الصَّـــلاة نحو بيت المقدس كانت فتنةً؛ أي: اختباراً، والتَّحوُّل من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضـاً اختباراً، وامتحاناً. قال البيضـاويُّ في تفسـيره: «وما جعلنا قبلتك

---

(1) انظر الصِّراع مع اليهود (102/1).

(2) انظر: تفسير أبي السُّعود (171/1).

(3) المصدر السابق نفسه (170/1).

(4) كانت رسالة الماجستير للمؤلف حول هذه الاية (الوسطية في القران الكريم) وتحدَّث عنها في حوالي 700 صفحة.

(5) انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الاية.

(6) انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الاية ، (430/2).

بيت المقدس إلا لنعلم مَنْ يتَّبع الرَّســـول، ممَّن ينقلب على عقبيه، إلا لنمتحن به النَّاس، ونعلم من يتَّبعك في الصَّــلاة إليها، ممَّن يرتدُّ عن دينك إلفاً لقبلة ابائه، أو لنعلم من يتَّبع الرَّســول ممَّن لا يتَّبعه، وما كان لعارض يزول بزواله، وعلى الأول: معناه: ما رددناك إلى الَّتي كنت عليها، إلا لنعلم الثَّابت على الإسلام، ممَّن ينكص على عقبيه؛ لقلقه، وضعف إيمانه»[1].

فالصَّــــلاة إلى الكعبة في بداية الأمر، ثمَّ الصَّــــلاة إلى بيت المقدس، ثمَّ العودة إلى الكعبة، واستمرار ذلك لا شيء فيه؛ ما دام الباري سبحانه أمر بذلك، ومن ثَمَّ فالتَّوجه في كلِّ حالةٍ هو عبادة، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله – تبارك وتعالى –، ويلتزموا بأمره، فالذي يتَّبع الرســول وينقاد لأوامره في القبلة يُعَدُّ فائزاً في الاختبار، والامتحان، والَّذي يجد في نفســه مخالفة حكمٍ من الأحكام الشَّرعيَّة كان ساقطاً، وهالكاً، والإيمان الحقُّ هو الَّذي يُلزم صاحبه بالاتِّباع، ومخالفة الهوى[2]؛ ولهذا ثبت الصَّحابة الكرام، واستجابوا لأوامر الله تعالى، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينا النَّاس يصلُّون الصُّبح في مسجد قُباء؛ إذ جاء رجلٌ فقال: قد أُنزل على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة، فاسْتقبِلُوها. فتوجَّهوا إلى الكعبة[3].

* ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: 143] .

تبيِّن الآية الكريمة حرص المؤمنين على إخوانهم، وحبَّ الخير لهم، فحينما نزلت الآيات؛ الَّتي تأمر المؤمنين بتحويل القبــلة إلى الكعبـــة؛ تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم، الَّذين ماتوا؛ وقد صــلوا نحو بيت المقدس، فأخبر الله – عزَّ وجلَّ –: أنَّ صــلاتهم مقبولةٌ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما وُجِّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة؛ قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الَّذين ماتوا وهم يصــلُّون إلى بيت المقدس؟، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: 143] [أبو داود (4680) والترمذي (2964) وأحمد (295/1 و304 و322 و347)]، وبيَّن لهم: أنَّه رؤوف رحيمٌ، «وبهذا يســكب في قلوب المســلمين الطُّمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرِّضا، والثِّقة، واليقين»[4].

---

[1] انظر: تفسير البيضاوي ، نقلاً عن الصِّراع مع اليهود (101/1).
[2] انظر: الصِّراع مع اليهود (101/1).
[3] انظر: تفسير ابن كثير (337/1).
[4] في ظلال القرآن ج 131/2 . 133.

* ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 144 – 148] .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصاً على أن يتوجَّه في صلاته إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فهو أولى النَّاس به؛ لأنَّه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، وحامل لواء التَّوحيد بحقٍّ كما حملها إبراهيم عليه السلام، وهو صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أن يكون مستقلاً، ومتميّزاً عن أهل الدِّيانات السَّابقة؛ الَّذين حرَّفوا، وبدَّلوا، وغيَّروا؛ كاليهود، والنَّصارى؛ ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتَّشبُّه بهم؛ بل يأمر بمخالفتهم، ويحذِّر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزَّلل، والخطل[(575)]، والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجَّه في صلاته بشكل دائم إلى قبلة أبي الأنبياء، وهو أول بيت وضع للناس[(576)].

إن لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرة: منها السِّياسيُّ، ومنها العسكريُّ، ومنها الدِّينيُّ البحت، ومنها التاريخيُّ؛ فبعدها السياسيُّ: أنها جعلت الجزية العربية محور الأحداث، وبعدها التَّاريخيُّ: أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربيِّ لإبراهيم – عليه الصَّلاة والسَّلام – وبعدها العسكريُّ: أنَّها مهَّدت لفتح مكة ، وإنهاء الوضع الشَّاذِّ في المسجد الحرام، حيث أصبح مركز التَّوحيد مركزاً لعبادة الأصنام، وبُعدها الدينيُّ: أنها ربطت القلب بالحنفيَّة، وميَّزت الأمة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام في بقية الأديان[(577)].

*﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ

آياتنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 149 – 152].

إنَّ نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيَّتكم من نعم الله عليكم، وقد سبقتها آلاء من الله كثيرةٌ عليكم؛ منها:

ـــ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾: فوجود شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم – إمام المربيِّين والدُّعاة – هو من خصيصة هذه النخبة القيَّاديَّة، الَّتي شرَّفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها؛ فقيه النُّفوس، وطبيب القلوب، ونور الأفئدة، فهو النُّور، والبرهان، والحجَّة.

. ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتنَا﴾: فالمادة الأساسيَّة للبناء والتَّربية كلام الله تعالى، وكان يرافقهُ شحنةٌ عظيمةٌ لنزوله أوَّل الأمر غضّاً طريّاً، فكان جيلاً متميِّزاً في تاريخ الإنسانيَّة.

ـ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ﴾: فالمعلِّم المربِّي رسول الله (ﷺ)، فهو المسؤول عن عمليَّة التربيَّة، وهو الَّذي بَلَغَ من الخُلُق، والتَّطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله تعالى به من هذا الوصف الجامع المانع، الذي تفرَّد به صلى الله عليه وسلم من دون البشريَّة كافَّةً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وهو الَّذي وصفته عائشة رضي الله عنها، بأعظم ما يملك بشرٌ أن يصف به نبيَّاً، فقالت: «كان خُلُق نبيِّ الله القرآن» [البخاري في الأدب المفرد (308) وأحمد (91/6) والنسائي في السنن الكبرى (11287)] فكان الصَّحابة يسمعون القرآن الَّذي يُتلى من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرون القرآن الَّذي يمشي على الأرض، متجسِّداً في خلُقه الكريم صلى الله عليه وسلم .

ـــ : فهذه هي المهمَّة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، تعليم الصَّحابة الكرام الكتاب، والحكمة، فالقرآن الكريم لكي يكون مؤثراً في الأمَّة لا بدَّ من المربِّي الرَّبَّانيّ الَّذي يزكِّي النُّفوس، ويطهِّر القلوب، ويعلِّمها شرع الله تعالى من خلال القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم ؛ فيشرح للمسلمين غامضَه، ويبيِّن مُحْكَمَهُ، ويفصِّل مجمله، ويسأل عن تطبيقه، ويصحِّح خطأ الفهم لهم؛ إن وجد. كان الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، يعلِّم، ويربِّي أصحابه؛ لكي يُعلِّموا، ويربُّوا النَّاس على المنهج الرَّبَّانيّ، فتعلَّم الصَّحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج التَّعليم، ومنهج التَّربية، ومنهج الدَّعوة، ومنهج القيادة للأمَّة من خلال ما تسمع، وما

تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع صلى الله عليه وسلم أن يعدَّ الجيل إعداداً كاملاً، ومؤهّلاً لقيادة البشريَّة، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التَّربية القرآنيَّة، والتَّربية النَّبويَّة إلى كل صُقْعٍ[1]، وأصبحوا شهداء على النَّاس.

ـــــ ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾: ماذا كانوا قبل الوحي والرِّسالة؟ وماذا أصبحوا ذلك؟ كانوا في حروبٍ، وصراعٍ، وجاهليَّةٍ عمياء، وأصبحوا بفضل الله، ومَنِّهِ، وكرمه أمةً عظيمةً، لها رسالةٌ، وهدفٌ في الحياة، لا همَّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وحقَّقوا العبوديَّة لله وحده، والطاعة للهِ وحده، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وانتقلوا من نزعة الفردية، والآنانيَّة، والهوى إلى البناء الجماعيّ، بناء الأمَّة، وبناء الدَّولة، وصناعة الحضارة، واستحقَّت بفضل الله، ومَنِّه أعظمَ وسَامَيْنِ في الوجود[2]، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وقال – أيضاً –: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

ـ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾: فهذه المنن، وهذه العطايا، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدوِّ، والاصال، وشكره عليها، وحثَّهم المولى – عزَّ وجلَّ – على ذكره، وبكرمه يُذكرون في الملأ الأعلى، بعدما كانوا تائهين في الصَّحاري، ضائعين في الفيافي، وحُقَّ لهذه النعم جميعاً أن تُشْكَرَ[3]!.

وهكذا الآيات الكريمة تربِّي الصَّحابة من خلال الأحداث العظيمة، وتصوغ الشَّخصيَّة المسلمة القويَّة، الَّتي لا ترضى إلا بالإسلام ديناً، والتَّي تعرَّفت على طبيعة اليهود من خلال القرآن الكريم، وبدأت تتعمَّق في ثنايا طبيعتهم الحقيقيَّة، وانتهت إلى الصُّورة الكلِّيَّة النِّهائيَّة، الَّتي تربوا عليها من خلال القرآن الكريم، والتَّربيَة النَّبويَّة. قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120] .

---

[1] الصُّقْع: الناحية ، والجمع: أَصْقَاع.
[2] انظر: التَّربية القياديَّة (438/2 . 442).
[3] المصدر السابق نفسه ، (442/2).

8 – من صفات اليهود في القرآن الكريم:

إنَّ المتتبّع لتاريخ اليهود، ومواقفهم مع المصطفى صلى الله عليه وسلم يشاهد تلك الأفعال القبيحة، والأخلاق الرَّذيلة، الَّتي يتَّصف بها هؤلاء البشر، ولا غرابة في ذلك، فهي طبيعة كلِّ ادميٍّ ينسلخ من دينه الصَّحيح، وعقيدته السَّليمة.

كانت معاناة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين من اليهود شديدةً، وأليمةً، فالقرآن الكريم تحدَّث عن بعضها، وكتب السُّنَّة، والتَّاريخ، والسِّير حافلةٌ بالأحداث الجسيمة مع اليهود، وقد تحدَّث القرآن الكريم، وبيَّنت السُّنَّة النَّبويَّة صفاتهم القبيحة؛ كالنِّفاق، وسوء الأدب مع الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والمكر، والخداع، والمداهنة، وعدم الآنتفاع بالعلم، والحقد، والكراهية، والحسد، والجشع، والبُخل، ونكران الجميل، وعدم الحياء، والغرور، والتكبُّر، وحبُّ الظهور، والإشراك في العبادة، ومحاربة الأنبياء، والصَّالحين، والتَّقليد الأعمى، وكتمان العلم، وتحريف المعلومات، والتَّحايل على المحرمات، والتَّفرُّق، والطَّبقيَّة في تنفيذ الأحكام، والرِّشوة، والكذب، والقذارة[1]، وسوف نشير إلى بعض هذه الصِّفات الذَّميمة؛ التي جاءت في القرآن الكريم.

1 – الإشراك في العبادة:

فعبادة اليهود شركيَّةٌ باطلةٌ؛ حيث يعتقدون: أنَّ لله ولداً، ويشركون معه في عِبادته غيره، وقد سجَّل الله – عزَّ وجل – عليهم بعض مظاهر الإشراك. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 30 – 31] .

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدِّم؛ بل عبدوا أنبياءهم، وصالحيهم، واتخذواقبورهم مساجد، وأوثاناً يعبدونها من دون الله[2]. قال صلى الله عليه وسلم : «قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» [البخاري (437) ومسلم (530)] .

---

[1] راجع الرِّسالة القيمة: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» ، د. عبد الله الشقاري.

[2] انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (507/2).

2 – محاربة الأنبياء والصَّالحين:

في الوقت الَّذي يقدِّســـون فيه أحبارهم، ورهبانهم إلى درجة العبادة نجدهم في المقابل لا يتورَّعون عن محاربة أنبيائهم، وصـــالحيهم، ويشـــنُّون عليهم الحملات المغرضـــة بشـــتَّى الطُّرق، والوســـائل كافَّةً، ولا يمتنعون حتَّى عن قتلهم؛ كما فعلوا بزكريا، ويحيى عليهما السَّـــلام[1]، وقد أخبرنا الله – عزَّ وجلَّ – عنهم بذلك، فبعد أن بيَّن – عزَّ وجلَّ – ألواناً من العذاب أوقعه عليهم؛ قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 61] .

3 – كتمانهم العلم، وتحريفهم للحقائق:

إنَّ كتمان العلم، وتحريف الحقائق صـــفتان ملازمتان لليهود من قديم الزَّمن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُــجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، فبدَّلوا، ودخلوا يزحفون على أَسْـتَاههم، وقالوا: حَبَّةٌ في شَـعرةٍ» [البخاري (3403) ومسلم (3015)] .

ومن أعظم العلوم الَّتي كتمها أحبار اليهود، وحاولوا إخفاء حقيقتها علمُ نبوَّة محمَّدٍ صـــلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعُ بن حارثة، وسـلام بن مِشْـكم، ومالك بن الصَّـيف، ورافع بن حُريملة، فقالوا: يا محمد! ألسـتَ تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم، ودينه، وتؤمن بما عندنا من التَّوراة، وتشـــهد أنَّها من الله حقٌّ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بلى؛ ولكنَّكم أحدثتم، وجحدتم ما فيها، ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبيِّنوه للنَّاس، فَبَرِئْتُ من إحداثكم». قالوا: فإنَّا نأخذ بما في أيدينا، فإنَّا على الهدى والحقِّ، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك، فأنزل الله – عزَّ وجلَّ – فيهم [ابن هشام (217/2) وابن جرير في تفسيره (310/6)]: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالآنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: 68] .

---

[1] انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (509/2).

4 – التَّفرُّق:

إنَّ اليهود دائماً، وأبداً مختلفون في الأفكار، مفترقون في الأحكام، تحسبهم جميعاً؛ وقلوبهم شتَّى، تماماً كما وصفهم الباري – عزَّ وجل – في قوله تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنَ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14] .

5 – الرِّشوة:

إنَّ من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثَهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها، بشتَّى السُّبل، والوسائل؛ ولو كانت مخالفةً لشرعهم؛ كدفع الرِّشوة، والمال الحرام، فأكل السُّحت من رشوةٍ، ومال حرامٍ من طباعهم، وقد وصفهم الحقُّ – سبحانه وتعالى – بذلك: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42] .

6 – النِّفاق:

وقد أظهر بعضُ زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة، وتستَّروا بالنِّفاق، وقد سجل الله عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمنوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمنوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 13 – 14] .

7 – المداهنة:

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع، ولا ينكرون المنكر؛ ولذلك لعنهم الله – عزَّ وجلَّ – وسجَّل لعنته عليهم في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 78 – 79] .

8 – عدم الانتفاع بالعلم:

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك، وصوَّر هذه الصِّفة تصويراً دقيقاً[1]. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: 5] .

9 – الحقد، والكراهية:

من صفات اليهودِ المستقرَّة في أعماق نفوسهم الحقدُ على كلِّ شيءٍ ليس منهم، والكراهية لكلِّ ما هو غير يهوديٍّ؛ مهما كان نوعه ومصدره، وخاصَّةً إذا كان يمتُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلةٍ، كما حصل في أمر القبلة، وما حصل في تحريم الخمر، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت آية تحريم الخمر، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها؟! [الحاكم (4/143 – 144)] فأنزل الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمنوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: 93] .

10 – الحسد:

فقد حسد اليهودُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم على الرِّسالة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الرَّسول الَّذي سيبعث، سيكون منهم، يتجمَّعون حوله، ويقاتلون به أعداءهم، فلـمَّا بُعِث الرَّسول صلى الله عليه وسلم من غيرهم؛ جُنَّ جنونهم، وطار صوابهم، ووقفوا يعادونه عداوةً شديدةً، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان، ونعمة الهدى؛ الَّتي شرح الله صدورهم لها[2]، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: 4 – 5]، وسورتا «الفلق» و«النَّاس» تعوَّذ بهما الرَّسول صلى الله عليه وسلم حينما سحرته اليهود. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109] .

---

[1] انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (2/463 . 482).

[2] انظر: الصِّراع مع اليهود (1/70).

11 – الغرور والتَّكبُّر:

اتَّصف اليهود بالغرور، والتَّكبُّر على الخلق من قديم الزَّمان، فهم يرون أنَّهم أرقى من النَّاس، وأفضل من النَّاس، ويزعمون أنَّهم شعب الله المختار، ويعتقدون أنَّ الجنَّة لليهود، وأنَّ طريق اليهودية هو طريق الهداية، وسواها ضلالٌ، وقد أخبر المولى – عزَّ وجلَّ – في كتابه عن هذه الخصلة الذَّميمة فيهم[1]. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: 111] وقد مارسوا ذلك الغرور والتَّعالي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشتَّى الوسائل والصُّور، ومن ذلك هذه الصُّورة[2]:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نُعمانُ بن أضاء، وبَحْريُّ بن عمرو، وشأسُ بن عديٍّ، فكلَّموه، وكلَّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الله، وحذَّرهم نِقمته، فقالوا: ما تُخَوِّفنا يا محمد! نحن أبناء الله، وأحبَّاؤه – كقول النَّصارى – فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18] .

12 – البخل:

من صفات اليهود القديمة بخلُهم بالمال، وعدم إنفاقه في سبيل الخير، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم؛ فإنَّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النَّفقة؛ فإنَّكم لا تدرون علامَ يكون[3]، فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً﴾ [النساء: 37] أي: من التَّوراة الَّتي فيها تصديق ما جاء به محمَّد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمنوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء 39] .

---

(1) انظر: اليهود في السنَّة المطهَّرة (495/2 . 496).

(2) انظر: تفسير الطَّبريِّ (105/6).

(3) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (487/2 . 488).

13 – العناد:

برغم قيام الأدلَّة، والبرآه ين على صدق نبوَّة ورسالة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، إلا أنَّ اليهود بسبب عنادهم، امتنعوا عن الإيمان، وانغمسوا في الكفر، والتكذيب؛ لأنَّ العناد يقفل العقول بأقفال الهوى، وقد بيَّن المولى – عزَّ وجلَّ – هذه الصِّفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 145] نعم! لو قدَّمت لهم يا محمد! ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا، وما غيَّروا، وما بدَّلوا، ويصدق فيهم قول الله تعالى[1]: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيات وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101] .

هذه بعض الصِّفات الَّتي تجسَّدت في الشَّخصية اليهوديَّة، والَّتي أشار القرآن الكريم إليها؛ لنعرف اليهود على حقيقتهم، حتَّى لا يغترَّ[2] المسلمون بهم في أيِّ وقتٍ، أو أيِّ زمانٍ، أو أيِّ مكانٍ.

رابعاً: (إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين):

إنَّ هذه الوثيقة وضَّحت مدى العدالة الَّتي تميَّزت بها معاملة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لليهود، وأعطت لمواطني الدَّولة مفهوم الحرية الدِّينيَّة، وضربت عُرْضَ[3] الحائط بمبدأ التَّعصُّب، ومصادرة الأفكار والمعتقدات، ولم تكن المسألةُ مسألةَ تكتيكٍ مرحليٍّ، ريثما يتسنَّى للرَّسول صلى الله عليه وسلم تصفية أعدائه في الخارج، لكي يبدأ تصفيةً أخرى إزاء أولئك الَّذين عاهدهم.. وحاشاه؛ وإنَّما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسةٍ إسلاميَّةٍ منبثقةٍ من شريعةٍ ربَّانيَّة[4].

لقد عقد الرَّسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود المعاهدات الَّتي تؤمِّن لهم الحياة الكريمة في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة، بحكم أنَّهم أهل كتاب (أهل الذِّمَّة)، ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة، وعدم الوفاء، ولم يستطيعوا – ولن يستطيعوا لؤماً وخسَّةً – أن يتخلَّوا عن تلك الصِّفات

---

(1) انظر: دراساتٌ في السِّيرة ، ص 151.
(2) اغْتَرَّ فلانٌ بكذا: خُدِعَ به
(3) عُرْض الشَّيء: جانبه ، وناحيته. ويقال: ضربَ بالأمر عُرْض الحائط: أهمله ، ولم يُبالِ به.
(4) انظر: العهد والميثاق في القران الكريم ، د. ناصر العمر ، ص 121.

الذَّميمة، فنقضوا عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال؛ حيث أجلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بني قينقاع، وبني النَّضير، وَقَتَل رجالَ بني قريظة[1]، وهذا ما سوف نرآه – بإذن الله تعالى – في هذا الكتاب، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: 56] .

والعهد هنا ما عقده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود، من عهودٍ، ومواثيق، بألا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه، كما بيَّن ذلك المفسِّرون[1].

لقد سلك اليهود وسائل عدَّةً، ومتغايرةً، ومتنوِّعةً للكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والَّذين آمنوا معه، ومقاومتهم، إلا أنَّ هذه الوسائل لم تفلح، ولم تؤتِ ثمارها المرجوَّة منها، وهي القضاء على جماعة المسلمين، ودولتهم، وكيانهم السِّياسيِّ، فما أسباب ذلك؟

إنَّ ذلك يرجع إلى تلك التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة، الَّتي غرست معاني الإيمان في القلوب، وحقَّقت العبوديَّة الخالصة لله، وحاربت الشِّرك بجميع أشكاله، وعلَّمت الصَّحابة الأخذ بأسباب النُّهوض، والتَّمكين المعنويَّة، والمادِّيَّة، فقد ربَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه على العزَّة، والنَّخوة، والرُّجولة، والشَّجاعة، ورفض الذلِّ، ومقاومة الظُّلم، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود، وغيرهم؛ بل مقاومتها، والقضاء عليها، وعلى أهلها، فثابروا، وصابروا، حتَّى انتصروا على أعدائهم[2].

كان مكر اليهود في غاية الدَّهاء، تكاد تزول منه الجبال؛ ولكنَّه لم يفلح مع الرَّعيل الأوَّل، بسبب القيادة النَّبوية، والمنهج الرَّبانيِّ الَّذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .

إنَّ المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخطَّطات اليهوديَّة، ومؤامراتها؛ لبُعْدهم عن المنهاج النَّبويّ في تربية الأمَّة، وكيفيَّة التَّعامل مع اليهود، فالأمَّة في أشدِّ الحاجة للقيادة الرَّبانيَّة، الحكيمة، الواعية، الموفَّقة من عند الله، الخبيرة بأخلاق اليهود، وصفاتهم، فتتعامل معهم معاملةً واعيةً، مستمدَّةً أصولها من السِّياسة النَّبويّة الرَّاشدة، في التَّعامل مع هذا الصِّنف المنحرف من

---

[1] انظر: تفسير الطَّبري (30/8) ، والتَّحرير والتَّنوير(48/10).
[2] انظر: الصِّراع مع اليهود (80/1).
[3] المصدر السابق نفسه ، (79/1).

البشر.

لقد تغلغلت في عصرنا هذا الأصابع اليهوديَّة القذرة في مجالاتٍ عديدةٍ من حياة الشُّعوب، والدُّول، تلك الأصـابع الَّتي تهدف إلى غايةٍ محدَّدةٍ، هي (الفسـاد في الأرض)، وهذا هو التَّعبير القرآنيُّ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 64] .

إنَّ استعمال الفعل المضارع في الآية، يدل على التَّجدُّد، والاستمرار، فليس سعيهم للفساد مرحلةً تاريخيَّةً انتهت؛ لكنَّه قدرهم الكونيُّ إلى يوم يبعثون، وقد اسـتطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدَّرات الأمم من خلال كيدهم المدروس، وفي غيبة الوجود الإســـلاميِّ القادر على إحباط مؤامراتهم، وفضح ألاعيبهم.

إنَّ العبقريَّة اليهوديَّة في الهدم، والتخريب، ليسـت موضـعَ جدلٍ، تلك العبقرية الَّتي تسـتغلُّ الأحداث، وتستثمرها لمصلحتها. إنَّ لليهود وجوداً مؤثِّراً في الدُّول الكبرى، اقتصاديّاً، وسياسيّاً، وإعلاميّاً، ولم يكونوا غائبين في النِّظامين العالميين: الرَّأسمالية، والشيوعية، ولا عن الثَّورات الكبرى في العالم، وهناك عددٌ من المنظَّمات العالمية، تبذل جهداً ضــــخماً في تحقيق أهداف اليهود، أبرزها (الماسونية)، و(الليونز)، و(الرُّوتاري)، و(شهود يهوه)... إلخ.

ألا يحسُّ الباحث الواعي: أنَّ في الأمر نوعاً من المبالغة المقصـودة، أو غير المقصـودة؟! هذه الصُّـورة الجاثمة في عقول الكثيرين: أنَّ اليهود هم الذين يحرِّكون العالم، وهم زعماؤه السِّـياسـيُّون، ومفكروه، ومبدعوه و... و... وأنَّ الشَّـــخصـــيات المهمَّة من غير اليهود، ما هي إلا «أحجار على رقعة الشَّطرنج» على حدِّ تعبير «وليام غاي كار»[1].

إنَّ هذا الكمَّ الهائل من الكتب الَّتي تتحدَّث عن اليهود، ودورهم العالمي الخطير تسـاهم في تهيئة الجوِّ للتسليم بالأمر الواقع، وتمنح تفسيراً جاهزاً لجميع الهزائم الَّتي مُنِيَتْ[2] بها الأمَّة، الهزائم الحضاريَّة، والعسكرية على حدٍّ سواءٍ.

إنَّ إحســـاس النَّاس بأنَّ كلَّ شـــيءٍ مدبَّرٌ، ومُبَيَّتٌ، ومدروسٌ من قِبَلِ اليهود، أو محافلهم يقعد بهم عن المقاومة، والمواجهة، والجهاد. وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أيِّ عدوٍّ

---

(1) انظر: قضايا في المنهج ، لسلمان العودة ، ص 84. 85.

(2) مُنِيَ بكذا: ابْتُلِيَ به.

آخر، ينتهج سياسة الإرهاب الفكريّ، والعسكريّ.

هذه الجماعات تجد – أحياناً – من يُهَوِّل من شـــأنها، ويعطيها أكبر من حجمها، فكلُّ من يتحدَّث – مثلاً – عن هذه الفئة الغالية المنحرفة، أو يكتب، أو يحاضـــر، فهو مهدَّدٌ في رزقه، وحياته، إذاً: فليســـكت الجميع حفاظاً على أرزاقهم، وأرواحهم[1]. إنَّ هذا التَّضـــخيم الرَّهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقةٌ؛ لأنَّ أولياء الشَّـيطان كيدهم مهما عظُم، وكبُر ضـعيفٌ. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّـيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّـيْطَانِ كَانَ ضَـعِيفًا ﴾ [النساء: 76]، فإنَّ قوَّتهم بسـبب ضـعف إيماننا، وبُعْدنا عن منهج ربِّنا؛ لأنَّ الإيمان الصَّـحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات، وتفشـل بسـببه جميع الخطط، لكن لا بدَّ من نزع عنصر الخوف الَّذي قتل كثيراً من الهِمَم، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداثُ تؤكِّد أنَّ (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصَّـابرة يتحطَّم الكيد كلُّه؛ يهوديّاً كان أم غير يهوديٍّ أمام عوامل التصدِّي والنُّهوض. قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 120] .

وهذا لا يعني – بحالٍ من الأحوال – تجاهل قوَّة العدوِّ، أو التَّقليل من شـأنه، حتَّى لو كان عدوّاً حقيراً، فضلاً عن عدو مُدَجَّجٍ، وقديم (الْمُدَجَّجُ: من عليه سلاحه).

والمطلوب أن نســـلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدوِّ، فلا نبالغ في تهويل قوَّته بما يوهن قوانا، ويفتِّت عزيمتنا، ويُسوِّغ لنا الهزيمة، وفي المقابل لا نستهين به، أو نتجاهل وجوده[2]. وستمضي في اليهود وغيرهم سنَّة الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: 81] .

* * *

---

[1] انظر: قضايا في المنهج ، ص 86.

[2] انظر: قضايا في المنهج ، ص 86. 87.

المبحث الرَّابع

سنَّة التَّدافع وحركة السَّرايا

أولاً: سنَّة التَّدافع:

إنَّ من السُّنن الَّتي تعامل معها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، سنَّة التَّدافع، وتظهر جليّاً في الفترة المدنيَّة مع حركة السَّرايا، والبُعوث، والغزوات الَّتي خاضها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ضدَّ المشركين، وهذه السنَّة متعلقةٌ تعلُّقاً وطيداً بالتَّمكين لهذا الدِّين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التَّنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251]، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40].

ونلاحظ في اية البقرة: أنَّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصِّراع بين الحقِّ والباطل، المتمثِّل هنا في طالوتَ وجنوده المؤمنين، وجالوتَ وأتباعه، ويذيِّل الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251] ؛ «ممَّا يفيد: أنَّ دفع الفساد بهذا الطَّريق، إنعامٌ يعمُّ النَّاسَ كلَّهم»[1].

وتأتي اية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنَّه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم - سبحانه - بقتال عدوِّهم، ويختتم الآية بتقريرٍ لقاعدةٍ أساسيَّةٍ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

لقد أدرك الصَّحابة هذه السُّنَّة، وعلموا: أنَّ القضاء على الباطل وتدميره، لابدَّ له من أمَّةٍ لها قيادةٌ ومنهجٌ، وقوَّةٌ تدمغ الباطل، وتزهقه، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاج إلى عزائمَ تنهض به، وسواعدَ تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به. لقد علَّمهم النَّبيُّ صلى الله عليه

[1] انظر: مفاتيح الغيب ، للفخر الرَّازي (514/3).

وسلم كيف يتعاملون مع هذه السُّنَّة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله – عزَّ وجلَّ – الجهاد لهذه الأمَّة، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة، لا يبطله جورُ جائرٍ، ولا عدلُ عادل، وما تركه قومٌ إلا أذلَّهم الله، وسلَّط عليهم عدوَّهم. وقد شرع الله – عزَّ وجلَّ – الجهاد على مراحل؛ ليكون أروضَ للنَّفس، وأكثر ملاءمةً للطَّبع البشري، وأحسن موافقةً لِسَيْرِ الدَّعوة، وطريقة تخطيطها[1]؛ فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر، وذلك عندما كان المسلمون في مكَّة، وكانوا يطالبون النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بالإذن لهم في القتال، فيجيبهم صلى الله عليه وسلم : «اصبروا؛ فإنِّي لم أُؤمر بالقتال» [الكشاف (199/4)][2].

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجابٍ. قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: 39] .

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190] .

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفَّار على المسلمين. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: 36] .

إنَّ هذا التدرُّج في حكم القتال، كان يقتضيه وضعُ الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة، وحالة الجيش الإسلاميِّ الَّذي كان اخذاً في التَّكوين، من حيث العَدد، والعُدد والتَّدريب، وما إلى ذلك، فكان لابُدَّ من مُضيِّ فترةٍ من الوقت، يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدَّعوة الإسلاميَّة من كفَّار قريش – الَّذين اذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم .. يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدَّعوة، إنَّما هو على سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يَصْلُب عودُ الدَّولة الإسلاميَّة، ويشتدَّ بأسُها، بحيث تستطيع الصُّمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربيَّة، حتَّى لو عملت قريش على تأليبها ضدَّ المسلمين، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال، في حالةٍ تكون فيها أوضاع الدَّولة الإسلاميَّة، والجيش الإسلامي، على أُهْبَةِ الاستعداد

---

[1] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 438.

[2] انظر: تفسير الالوسي (108/6).

لمواجهة الاحتمالات كافَّةً، هذا فيما يتَّصل بالقتال الَّذي يتعرَّض فيه المسلمون لكفَّار قريش، جاء النَّصُّ بالإذن، أي بالإباحة، لا بالوجوب، أمَّا في حالة ما لو تعرَّض المسلمون - وهم في دولتهم في المدينة - لهجوم الأعداء عليهم؛ فالقتال هنا فرضٌ، لا مجال فيه للخيار، وليس مجرَّد أمرٍ مأذون فيه، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثَّانية، الَّتي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر، والأسود من النَّاس، في سبيل الذَّود عن الدَّعوة الإسلاميَّة، وصاحبها صلى الله عليه وسلم ، وأتباعها[1].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في تدريب أصحابه على فنون القتال، والحروب، واشترك معهم في التَّمارين، والمناورات، والمعارك، وعَدَّ السَّعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات، وأقدس العبادات؛ التي يُتَقَرَّب بها إلى الله - سبحانه وتعالى - وقد قام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخرين مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الآنفال: 60]، وكان منهجه صلى الله عليه وسلم في تكوين المجاهد المسلم، يعتمد على نهجين متوازنين: التَّوجيه المعنويِّ، والتَّدريب العمليِّ.

1 - التَّوجيه المعنويُّ:

كان صلى الله عليه وسلم يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين؛ فيمنحهم أملاً يقينيّاً بالنَّصر، أو الجنَّة، ومنذ تلك اللَّحظات وفيما بعد، ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجنديَّ المسلم في ساحات القتال، ويدفعه إلى بذل كلِّ طاقاته النَّفسيَّة، والجسدية، والفنِّيَّة من أجل كسب المعارك، أو الموت تحت ظلال السُّيوف[2]، فمن أقواله صلى الله عليه وسلم في حثِّ أصحابه على الجهاد: «والَّذي نفسي بيده! لولا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تَطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي، ولا أجد ما أحملهم عليه؛ ما تخلَّفت عن سريَّةٍ تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده! لوددت أنِّي أُقتلُ في سبيل الله، ثمَّ أُحيا، ثم أُقتل، ثمَّ أُحيا، ثمَّ أُقتل، ثمَّ أحيا، ثمَّ أقتلُ» [البخاري (2797) والنسائي (8/6)]، وقوله صلى الله عليه وسلم : «ما أحدٌ يدخلُ الجنةَ، يُحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيدُ؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مراتٍ؛ لما يرى من

---

[1] انظر: القتال والجهاد ، لمحمد خير هيكل (463/1 ، 464).
[2] انظر: دراساتٌ في السِّيرة ص 161.

الكرامة» [البخاري (2817) ومسلم (1877/109)] .

2 - التَّدريب العمليُّ:

سعى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى اعتماد كلِّ طاقات الأمَّة القادرة على البذل، والعطاء، رجالاً، ونساءً، وصبياناً، وشباباً، وشيوخاً، وإلى التَّمرُّس على كلِّ مهارةٍ في القتال، طعناً بالرُّمح، وضرباً بالسَّيف، ورمياً بالنَّبل، ومناورةً على ظهور الخيل، وكان صلى الله عليه وسلم يمزج خَطَّي التَّربية العسكريَّة المتوازنين: التَّوجيه، والتدريب، والأمل في النَّصر، أو الجنة، وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحضُّ المسلمين على إتقان ما تعلَّموا من فنون الرِّماية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من عَلِمَ الرَّمي ثمَّ تركه؛ فليس منَّا، أو: قدْ عَصَى» [مسلم (1919) وأحمد (148/4) وابن ماجه (2814)]، فهي دعوةٌ إلى عموم الأمَّة، وحتَّى مَنْ دخلوا في سنِّ الشيخوخة، للتَّدريب على إصابة الهدف، ومهارة اليد ونشاط الحركة. إنَّ الإسلام يهتمُّ بطاقات الأمَّة جميعها، ويوجِّهها نحو المعالي، وعلوِّ الهمَّة.

وكان صلى الله عليه وسلم يهتمُّ بالأعداء على حسب كلِّ ظرفٍ وحالٍ، ويحثُّ على كلِّ وسيلةٍ يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم : أنَّه قال: «وأعدِّوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إنَّ القوَّة الرَّمي! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ!» [مسلم (1917) وأبو داود (1514) والترمذي (3083) وابن ماجه (2883)] .

إنَّ القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يعلمان المسلمين الإعداد على الأصعدة المعنويَّة، والمادِّيَّة كافَّةً، وأن يأخذوا حذرهم. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء : 71] وهذا يدلُّ على وجوب العناية بالأسباب، والحذر من مكائد الأعداء، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد؛ المتعلِّقة بالأسلحة، والأبدان، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة، وكيفيَّة استعمالها، وتوجيههم إلى ما يعينهم على جهاد عدوهم، والسَّلامة من مكائده، والله - عزَّ وجلَّ - أطلق الأمر بالإعداد، وأخْذِ الحذر، ولم يذكر نوعاً دون نوعٍ، ولا حالاً دون حالٍ، وما ذلك إلا لأنَّ الأوقات تختلف، والأسلحة تتنوَّع، والعدوَّ يقلُّ ويكثر، ويضعف ويقوى.

كان الجهاد في فهم الصَّحابة مدرسةً عظيمةً في تزكية النَّفس، وأيقنوا: أنَّه لكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوَّة، فعليهم أن يخلصوا لله سبحانه في جهادهم، وأن يعملوا بما آمنوا به، ودعوا النَّاس

إليه، فقد بيّن لهم الرّسـول صـلى الله عليه وسـلم خطورة الرّياء في الأعمال. فقد قال صـلى الله عليه وسـلم : «إنَّ أوَّل النَّاس يُقْضـى يوم القيامة عليه رجلٌ اسـتُشـهدَ، فأُتي به، فعرَّفه نِعَمَهُ، فعَرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى اسـتُشْـهِدتُ، قال: كَذبت! ولكنَّك قاتلت؛ لأن يُقال: جَرِيءٌ، فقد قيل، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه؛ حتَّى أُلقي في النَّار، ورجلٌ تعَلَّمَ العلمَ، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نِعَمَهُ، فَعَرَفها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ، وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ! ولكنَّك تعلَّمت العلمَ؛ ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن؛ ليقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمر به، فسُـحب على وجهه، حتَّى أُلقي في النَّار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأُتي به، فعرَّفه نِعَمَهُ، فَعَرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سـبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيه إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ! ولكنَّك فعلت؛ ليقال: هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمر به، فسُـحب على وجهه، ثمَّ أُلقي في النَّار» [مسلم (1905) وأحمد (322/2) والنسائي (23/6)] .

ولذلك أخلص الصَّـحابة في جهادهم لله تعالى؛ طمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه، فكان كلامهم لله، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضـاة الله، وقدَّموا أنفسـهم دفاعاً عن دين الله، ومن أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وكان لجهاد الصَّحابة في سبيل الله تعالى آثاره العظيمة في تزكية نفوسهم، والَّتي تتجلَّى في الجوانب التَّالية:

(أ) تحرير النَّفس من حبِّ الحياة، والتَّعلُّق بها:

الجهاد في سـبيل الله تدريبٌ عمليٌّ على الزُّهد في الدُّنيا، والتَّطلُّع إلى الآخرة، والتَّشـوُّق لما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسـلاميُّ في تزكية النَّفس؛ فالمجاهد يبيع نفسـه لله تعالى ابتغاء مرضـاته، والله سـبحانه واهب الآنفس، والأموال، ومالكُها، يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم؛ إذا بذلوها في سبيله[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـدًا عَلَيْـهِ حَقًّـا فِي التَّوْرَاةِ وَالآنجِيـلِ وَالْقرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْـتَبْشِـرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ

[1] منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (293/1).

السَّـائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّـاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 111 – 112] .

(ب) تمحيص النَّفس، وتدريبها على الصَّبر، والفداء:

أيقن الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيّ صلى الله عليه وسلم لهم: أنَّ الجنَّة محفوفةٌ بالمكاره، ولا تُنال براحة البدن، ولابدَّ من تعويد النَّفس على المشاقِّ، والصِّعاب؛ ليقوى بنيانها، وتصمد في وجه الشَّدائد، والأهوال، وتدع الخمول، والكسل، والتَّواني، وتعلَّموا من القرآن الكريم: أنَّ حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرَّض النُّفوس للتَّمحيص؛ ليظهر ثباتها، ويستقيم حالها، وأنَّ ميدان الجهاد من أكبر الميادين لهذا التمحيص[1].

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [آل عمران: 140 – 143] .

(ج) الجهاد عزَّةٌ للنَّفس، وقوَّةٌ لها:

وتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من الهدي النَّبويّ الكريم: أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى وسيلةٌ عظيمةٌ لتنمية العزَّة في نفس المسلم، وتقوية كيانها، وتطهيرها من الذِّلَّة، والمهانة، والخمول، وغير ذلك من الصِّفات المهلكة للفرد، والمجتمع، فقد بيَّن لهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنَّ المؤمن عزيز الجانب؛ لأنَّه يستمدُّ العزَّة من إيمانه بربه، وتمسُّكه بدينه؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8] .

فإذا تخلَّى المسلم عن الجهاد، وشُغل بالدُّنيا عن الآخرة؛ تعوَّدت نفسه الذِّلَّة، والهوان، والاستكانة، والخُنُوع (أي: الذُّلَّ، والخضوع) قال صلى الله عليه وسلم : «إذا تبايعتم بالعينة[2]، وأخذتم أذناب البقر[3]، ورضيتم بالزَّرع، وتركتُم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتَّى

---

[1] المصدر السابق نفسه (294/1).

[2] أي: أن يبيع الرَّجل لغيره سلعةً ، ثم يشتريها منه بثمنٍ أقلّ.

[3] معناه: اتخذتم الماشية للحرث والرَّي ، وعكفتم على ذلك ، فلم تنشغلوا إلا به.

ترجعوا إلى دينكم» [أبو داود (3462) وأحمد (42/2 و84)] .

ويُخشى على منْ جعل الدُّنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، ولا يعمل إلا لها، ولا يفكر إلا من أجلها أن يكون ممَّن قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: 7 -8] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ مات؛ ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّث به نَفْسَه؛ مات على شعبةٍ من نفاقٍ» [مسلم (1910) وأحمد (374/2) وأبو داود (2502) والنسائي (8/6)] .

إنَّ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، سلكوا طريق الجهاد بأنواعه، وبذلك حظوا بالبشارة العظمى، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69] .

ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

1 - حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الآنفال: 39 – 40] .

قال صاحب الظِّلال: «هناك واجبٌ آخر على الجماعة المسلمة، وهو أن تُحَطِّم كلَّ قوَّةٍ تعترض طريق الدَّعوة، وإبلاغها للنَّاس في حرِّيَّةٍ، أو تهدِّد حرية اعتناق العقيدة، وتفتن النَّاس عنها، وأن تظلَّ تجاهد حتَّى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنةٍ لقوَّةٍ في الأرض، ويكون الدِّين لله؛ لا بمعنى إكرآه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدُّخول، ولا يخاف قوَّةً في الأرض تصدُّه عن دين الله أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يبقى عليه، وبحيث لا يكون في الأرض وضعٌ، أو نظامٌ يحجب نور الله وهداه عن أهله، ويضلّهم عن سبيل الله بأيَّة وسيلةٍ، وبأيَّة أداةٍ، وفي حدود هذه المبادئ العامَّة كان الجهاد في الإسلام. إنَّه الجهاد للعقيدة، لحمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها، وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض؛ بحيث يَرْهَبُها من يهمُّ بالاعتداء عليها، وبحيث يلجأ إليها كلُّ راغبٍ فيها، لا يخشى قوَّةً أخرى في الأرض تتعرَّض له، أو تمنعه،

أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الَّذي يأمر به الإسلام، ويقرُّه، ويثبت عليه، ويَعْتَبِر الَّذين يقاتلون فيه شهداء، والَّذين يَحْتَمِلون أعباءه أولياء»[1].

2 – حماية الشَّعائر، والعبادات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمنوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: 38 – 41] .

قال النَّسفي – رحمه الله! –: «أي: لولا إظهاره، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة؛ لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبَّداتهم، فهدموها، ولم يتركوا للنَّصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلواتٍ؛ أي: كنائس، ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون في أمَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الَّذين في ذمَّتهم، وهدموا متعبَّدات الفريقين، وقدَّم غير المساجد عليها؛ لتقدُّمها وجوداً، أو لقربها من التَّهديم»[2].

3 – دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 250 – 252] .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ

---

[1] في ظلال القران (187/1).
[2] تفسير النَّسفي (106/3) ، والكشَّاف (16/3) ، وتفسير المراغي (119/6).

الْأَرْضُ﴾ «أي: لولا الله يدفع عن قومٍ بآخرين، كما دفع عن بني إســـرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود؛ لهلكوا»[1].

وقال صــاحب الكشَّــاف في تفســير هذه الآية: «ولولا أنَّ الله يدفع بعض النَّاس ببعض، ويكفُّ بهم فسادهم؛ لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطَّلت مصالحها؛ من الحرث، والنَّسل، وسائر ما يعمر الأرض»[2].

وقال الشَّـيخ عبد الرَّحمن السَّـعدي في تفسـيره: «إنَّ في هذه الآية عبراً كثيرةً للأمَّة؛ منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنَّه السَّبب الوحيد في حفظ الدِّين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان، والأموال، وأنَّ المجاهدين ولو شقَّت عليهم الأمور؛ فإنَّ عواقبهم حميدةٌ، كما أنَّ النَّاكلين ولو استراحوا قليلاً؛ فإنَّهم سيتعبون طويلاً»[3].

4 – الابتلاء، والتَّربية، والإصلاح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَـــعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَـــاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَــرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 4 – 6] .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: أي: ولكن شرع لكم ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾، وقتال الأعداء، ليختبركم، وليبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شـــرعية الجهاد في ســـورتي ال عمران، وبراءة، في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَـمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142][4] .

قال صـاحب الظِّلال: «إنَّما يتَّخذ الله المؤمنين – حين يأمرهم بضـرب رقاب الكفار، وشـدِّ وثاقهم بعد إثخانهم إنَّما يتَّخذهم سبحانه – ستاراً لقدرته، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرةً، كما انتصر منهم من غير هـذه الأسباب كلِّها؛ ولكنَّه إنَّما يريد لعباده المؤمنين الخير. قال تعالى:

---

[1] تفسير ابن كثير (262/1).
[2] تفسير الكشَّاف (382/1) ، وتفسير أبي السُّعود (245/1).
[3] تفسير السَّعدي (309/1).
[4] تفسير ابن كثير (154/4).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]، وهو يبتليهم، ويربّيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار:

أ - يريد ليبتليهم: وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النَّفس البشرية من طاقاتٍ، واتِّجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحقُّ؛ الَّذي تؤمن به، حتَّى تجاهد في سبيله، فتقتُل، وتُقتل، ولا تسلِّم في هذا الحق الذي تعيش له، وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحبُّ هذه الحياة في غير ظلِّه.

ب - ويريد ليربيهم: فيظلُّ يُخرج من نفوسهم كلَّ هوىً، وكلَّ رغبةٍ في أعراض هذه الأرض الفانية ممَّا يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه، ويظلُّ يقوّي في نفوسهم كلَّ ضعفٍ، ويكمل كلَّ نقصٍ، وينفي كلَّ زَغلٍ[1]، ودَخل، حتَّى تصبح رغائبهم كلُّها في كفَّةٍ، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتَّطلُّع إلى وجه الله، ورضاه، وتشيل تلك[2]، ويعلم الله من هذه النُّفوس: أنَّها خُيِّرت، فاختارت، وأنَّها تربَّت، فعرفت، وأنَّها لا تندفع بلا وعيٍ؛ ولكنَّها تقدِّر، وتختار.

ج - ويريد ليصلحهم: ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتَّعرُّض للموت في كلِّ جولةٍ ما يعوِّد النَّفس الاستهانة بخطر المخوِّف، الَّذي يكلف النَّاس الكثير من نفوسهم، وأخلاقهم، وموازينهم، وقيمهم، ليتَّقوه، وهو هيِّنٌ، هيِّنٌ عند من يعتاد ملاقاته، سواءٌ سَلِمَ منه، أو لاقاه، والتَّوجُّه به لله في كلِّ مرَّةٍ، يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقرِّبه للتَّصوُّر فعل الكهرباء بالأجسام، وكأنَّه صياغةٌ جديدةٌ للقلوب والأرواح، على صفاءٍ، ونقاءٍ، وصلاح.

ثمَّ هي الأسباب الظَّاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلِّها عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين؛ الَّذين فرغت نفوسهم من كلِّ أعراض الدُّنيا، وكلِّ زخارفها، وهانت عليهم الحياة؛ وهم يخوضون غِمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله، والتَّطلُّع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلُّها، ويصلح العباد، ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلِّم راية القيادة للكفر، والضَّلال، والفساد، وهي قد اشترتها

(1) الزَّغلُ: الغِشُّ.

(2) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفَّتيه ، انظر: لسان العرب (375/11).

بالدِّماء، والأرواح، وكلُّ عزيزٍ، وغالٍ أرخصته لتتسلَّم هذه الراية، لا لنفسها، ولكن لله»[1].

5 – إرهاب الكفَّار، وإخزاؤهم، وإذلالهم، وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخرين مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الآنفال: 60]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14 – 15]، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الآنفال: 17 – 18] .

6 – كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمنوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179] .

قال ابن كثير: «أي: لابدَّ أن يعقد سبباً من المحنة يظهر فيه وليُّه، ويفتضح فيه عدوُّه، يعرف به المؤمن الصَّابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أُحُد، الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانُهم، وصبرُهم، وجلَدُهم، وثباتُهم، وطاعتُهم لله، ورسولِه صلى الله عليه وسلم، وهتك به سِتْرَ المنافقين، فظهر مخالفتُهم، ونكولُهم عن الجهاد، وخيانتهم للهِ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم »[2].

7 – إقامة حكم الله، ونظام الإسلام في الأرض:

إنَّ إقامة حكم الله في الأرض هدفٌ من أهداف الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105] .

---

[1] في ظلال القران (3286/6).

[2] انظر: تفسير ابن كثير (371/1).

8 – دفع عدوان الكافرين:

إنَّ من أهداف الجهاد في الإسلام دفعَ عدوان الكافرين، وهذا العدوان أنواعٌ؛ منها:

أ – أن يعتدي الكفَّار على فئةٍ مؤمنةٍ مُسْتَضْعفةٍ في أرض الكفار، لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلادٍ تأمن فيها على دينها: فإنَّ الواجب على الدَّولة الإسـلاميَّة، أن تعدَّ العدة لمجاهدة الكفار؛ الَّذين اعتدوا على تلك الطَّائفة، حتَّى يخلِّصوها من الظُّلم، والاعتداء الواقع عليها[1]. قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخرةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 74 – 75] .

قال القرطبيُّ – رحمه الله –:

«حضٌّ على الجهاد، وهو يتضمَّن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين؛ الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدِّين؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضُّعفاء من عبادِه، وإن كان في ذلك تلفُ النُّفوس. وتخليص الأُسارى واجبٌ على جماعة المسلمين؛ إمَّا بالقتال، وإمَّا بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النُّفوس؛ إذ هي أهون منها»[2].

ب – أن يعتدي الكفَّار على ديار المسلمين: قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: 190 – 192]. نصَّ الفقهاء على أنَّه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين؛ يتعيَّن الجهاد للدِّفاع عن الدِّيار؛ لأنَّ العدوَّ إذا احتلَّها سام المسلمين عذاباً، ونفَّذ فيها أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفرٍ بعد أن كانت دار إسلام.

---

[1] انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (162/2).

[2] انظر: تفسير القرطبي (279/5).

قال ابن قدامة – رحمه الله –: «ويتعيَّن الجهاد في ثلاثة مواضـع: ...الثاني: إذا نزل الكفار ببلدٍ معيَّنٍ على أهله قتالُهم، ودفعُهم»[1].

وقال بعض علماء الحنفيَّة: «وحاصـله: أنَّ كلَّ موضـعٍ خيفَ هجوم العدوِّ منه، فُرِض على الإمام، أو على أهل ذلك الموضــع، حفظُه، وإن لم يقدروا فُرِض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدوِّ»[2].

ج – أن ينشـــر العدوُّ الظُّلم بين رعاياه – ولو كانوا كفاراً –: إنَّ الله ســـبحانه حرَّم على عباده الظلم، والعدلُ في الأرض واجبٌ لكلِّ النَّاس، وإذا لم يدفع المسلمون الظُّلم عن المظلومين؛ أثِموا؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض؛ لإحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل، ونشر العدل، والقضـاء على الظُّلم، ولا فلاح لهم إلا بذلك، وهو الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وما كـانوا خير أمَّـةٍ أخرجـت للنَّاس إلا بـذلـك، كـما قـال تعـالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُـــهَدَاءَ بِالْقِسْــطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَــنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 8] .

ومن العدل كفُّ الظُّلم عن المظلوم الكافر، الَّذي يبغضـه المسلم لكفره. قال السَّـرخسـيُّ – رحمه الله! –: «وإن كان – يقصد أحد ملوك أهل الحرب – طلب الذِّمَّة على أن يُتْرَك يحكم في أهل مملكته بما شـاء؛ من قتلٍ، أو صَـلْبٍ، أو غيره بما لا يصـلح في دار الإسـلام؛ لم يُجَبْ إلى ذلك؛ لأنَّ التقرير على الظُّلم مع إمكان المنع منه حرامٌ»[3].

د – الوقوف ضـدَّ الدُّعاة إلى الله، ومنعهم من تبليغ دعوة الله: إنَّ المسـلمين مفروضٌ عليهم من قِبَل المولى – عزَّ وجلَّ – أن يبلِّغوا رسـالات الله للنَّاس كافَّةً. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 104]

وأعداء الله يصدُّون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته، ولا يتركون لهم سبيلاً إلى النَّاس، كما لا يأذنون للدُّعاة أن يُسْـمِعوا النَّاس دعوة الله، ويضـعون العراقيل، والعوائق، والحواجز، بين الدَّعوة،

---

[1] انظر: المغني (279/9).
[2] انظر: حاشية ابن عابدين (124/4).
[3] انظر: المبسوط، للسَّرخسي (85/10).

ودعاتها، والناس، ولذلك أوجب الله – عزَّ وجلَّ – على عباده المؤمنين، قتال كلِّ مَنْ يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمنوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمنوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝ فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 1 – 4] وممَّا تقدَّم يتَّضح لنا أنَّ للجهاد أهدافاً ساميةً، ومصالح كريمةً، وفوائدَ عظيمةً تتحقَّق للمسلمين وغيرهم، وأنَّ الجهاد من آثار الهجرة، ونتائجها المهمَّة، وأنَّه من الدَّعائم؛ الَّتي أقامها الرَّسول صلى الله عليه وسلم لبناء الدَّولة الإسلاميَّة، وتوطيد أركان الإسلام[2]؛ وذلك «لأنَّ الأمَّة بغير جيشٍ قويٍّ عرضةٌ للضَّياع؛ إذ يطمع فيها أعداؤها، ولا يهابون قوَّتها، فإذا كان لها جيشٌ قويٌّ احترم العدوُّ إرادتها، فلا تحدِّثه نفسه باعتداءٍ عليها؛ فيسود عند ذلك السَّلام»[3].

ثالثاً: أهم السَّرايا، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى:

بمجرَّد الاستقرار الَّذي حصل للمسلمين بقيادة الرَّسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابدَّ أن يتنبَّه المسلمون ، وقيادتهم إلى الوضع حولهم، وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدَّعوة، وكان لابدَّ أن تنطلق الدَّعوة الإسلاميَّة إلى غايتها الَّتي أرسل الله محمَّداً صلى الله عليه وسلم بها، وتحمَّل هو وأصحابه في سبيلها المشاقَّ الكثيرة.

إنَّ موقف قريشٍ في مكَّة من أهم الأمور الَّتي يجب أن تعالجها قيادة المدينة؛ لأنَّ أهل مكة

---

[1] انظر: فقه التمكين في القران الكريم ، للصَّلابي ، ص 488.

[2] انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص 453.

[3] الحركات العسكريَّة للرَّسول الأعظم صلى الله عليه وسلمفي كفتي الميزان ، لسيف الدِّين ، ص 62.

لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيانٌ – ولو كان في المدينة – لأنَّ ذلك يهدِّد كيانهم، ويُقَوِّض[1] بنيانهم، فهم يعلمون أنَّ قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهليَّة، وعادات الاباء، والأجداد، فلابدَّ من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكةُ، وأهلُها المحاولات الكثيرة؛ لعدم وصول النَّبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واتَّخذت مواقف عدائيَّةً لضرب الإسلام، والقضاء على المسلمين[2]، واستمرَّ هذا العداء بعد هجرة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومن أهم المواقف الدَّالة على ذلك: أنَّ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حدَّثَ عن سعد بن معاذ: أنَّه قال: كان صديقاً لأُمية بن خَلف، وكان أُمَيةُ إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكَّة نزل على أميَّةَ، فلمَّا قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ، انطلق سعد معتمراً، فنزل على أُميةَ بمكَّةَ، فقال لأُميةَ: انظر لي ساعةَ خَلوةٍ، لعلّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النَّهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكَّة آمناً، وقد أويتم الصُّبَأة[3]، وزعمتم: أنَّكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان؛ ما رجَعْتَ إلى أهلك سالماً. فقال له سعد – ورفع صوته عليه –: أما والله! لئن منعتني هذا، لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه، طريقَك على المدينة ...» [البخاري (3950)] وفي روايةٍ عند البيهقيِّ [دلائل النبوة (25/3)] : «والله! لئن منعتني أن أطوف بالبيت، لأقطعنَّ عليك متجرَك إلى الشَّام».

تدلُّ هذه الواقعة على أنَّ (أبا جهلٍ)، يَعْتَبِرُ (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنِّسبة إلى قريش، ولولا أنَّه دخل مكة في أمان زعيمٍ من زعمائها؛ لأهدر دمه، وهذا تصرُّف جديدٍ من رؤساء مكَّة حيال أهل المدينة، لم يكن قبل الدَّولة الإسلاميَّة فيها؛ فلم يكن أحدٌ من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمانٍ؛ لكي يُسْمَحَ له بالدُّخول إلى مكَّة! بل إن قريشاً كانت تكره أن تفكِّر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا في هذا الصَّدد، يخاطبون أهل المدينة ما نصُّه: «والله! ما مِنْ حيٍّ من العرب أبغضَ إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[4]، كما تدلُّ هذه القصَّة، على أنَّ قوافل تجارة قريش في طريقها إلى

---

[1] قَوَّض البناء: هَدَمَه ، وتَقَوَّضت الصُّفوف والمجالسُ: تفرَّقت.

[2] انظر: مرويات غزوة بدر ، لأحمد باوزير ، ص 79.

[3]]جمع صابئ: أي الخارج عن دينه. وكان المشركون يسمُّون من أسلم صابئاً.

[4] انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف 192/2).

الشَّام كانت في أمانٍ حتَّى حدوث هذه الواقعة، لم تتعرَّض لها الدَّولة الإسلاميَّة بمكروهٍ؛ أي: أنَّ الدَّولة الإسـلاميَّة حتَّى هذا الوقت لم تعامل أهل مكَّة معاملة أهل الحرب، فلم تضـرب عليهم الحصـار الاقتصـاديَّ، ولم تصـادر لهم أيَّة قافلةٍ، أو تقصـدها بسـوءٍ! ومعنى هذا أنَّ الأيدي الممسـكة بزمام الأمور في مكَّة هي الَّتي بادرت، وأعلنت الحرب على الدَّولة الإسـلاميَّة في المدينة، واعتبرت المسلمين أهلَ حرب، لا يُسْمح لهم بدخول مكَّة إلا بصفة مُسْتأمَنين[1].

ودليلٌ آخر على مبادرة رؤساء مكَّة إلى إعلان الحرب، على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسـلم : أنَّ كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبيٍّ) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج؛ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم اويتم صاحبنا، وإنَّا نقسـم بالله! لتُقاتِلنَّه، ولتُخرجُنَّه، أو لَنَسـيرنَّ إليكم بأجمعنا، حتَّى نقتل مقاتلتكم، ونسـتبيح نسـاءكم. فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبيِّ صـلى الله عليه وسلم ، فلـمَّا بلغ ذلك النبيَّ (ﷺ)؛ لَقِيَهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ممَّا تريدون أن تكيدوا به أنفسـكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم، وإخوانكم!» فلـمَّا سمعوا ذلك من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ تفرَّقوا. **[أبو داود (3004) وعبد الرزاق في المصنف (9733) والبيهقي في دلائل النبوة (3/179 – 180)]** .

وهنا تظهر عظمة النُّبوَّة، وعظمة القائد المربِّي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضـرب على وتر العزَّة القبليَّة؛ فقد كان صـلى الله عليه وسـلم يدرك أغوار النَّفس البشريَّة الَّتي يتعامل معها؛ ولذلك كان خطابه مؤثِّراً في نفوس مشركي يثرب، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم، في تفتيت محاولات المشـركين للقضـاء على الصـفِّ الإسـلاميِّ، وزعزعة بنيانه الدَّاخلي، وبعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسـلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال؛ صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريشٍ حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتَّجه نشاط الرَّسول صلى الله عليه وسلم من أجل توطيد مكانة هذه الدَّولة، والردِّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتَّجه نشـاطه صـلى الله عليه

---

[1] انظر: الجهاد والقتال (1/476).

وسلم نحو إرسال السَّرايا، والخروج في الغزوات[1]، فكانت تلك السَّرايا، والغزوات الَّتي سبقت بدر الكبرى؛ ومن أهمها:

1 – غزوة الأبْوَاء:

أولى الغزوات الَّتي غزاها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم غزوة الأبواء[2]، وتُعْرَف بغزوة وَدَّان[3] أيضاً، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال، أو ثمانية، ولم يقع قتال في هذه الغزوة؛ بل تمَّت موادعة بني ضمرة (من كنانة)، وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة)، وكان عدد المسلمين مئتين بين راكبٍ، وراجلٍ[4].

2 – سرية عُبَيْدة بن الحارث:

وهي أوَّل رايةٍ عقدها رسول الله (ﷺ)[5]، وكان عدد السَّرِيَّة ستِّين من المهاجرين، وكانت قوَّة الأعداء من قريش أكثر من مئتي راكبٍ، وراجلٍ، وكان قائدَ المشركين أبو سفيان بن حرب، وحصلت مناوشاتٌ بين الطَّرفين على ماءٍ بوادي رابغ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهمٍ، فكان أوَّل سهمٍ رُمِيَ به في الإسلام، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[6].

3 – سريَّة حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في مقامه ذلك – أي لـمَّا وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء – حمزة بن عبد المطلب إلى سيف[7] البحر[8] من ناحية العيص[9]، في ثلاثين راكباً من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السَّاحل، في ثلاثمئة راكبٍ من أهل مكَّة، فحجز بين الفريقين مجديُّ بن عمرو الجُهَنيُّ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعضُ

---

(1) انظر: الجهاد والقتال (477/1).

(2) قيل: سمِّيت بذلك لما فيها من الوباء.

(3) ودَّان: قرية قريبة من الأبواء.

(4) انظر: جيش النَّبي صلى الله عليه وسلم، لمحمود شيت خطاب، ص 54 ، والرَّاجل: خِلاف الفارس، والجمع: رَجَّالةٌ.

(5) انظر: طبقات ابن سعد (7/2).

(6) انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم، د. محمد بكر ال عباد (40/1).

(7)]سيف: السِّيف . بالكسر .: الشاطئ والسَّاحل ، والجمع: أسياف.

(8) سيف البحر: ساحله من ناحية العيص.

(9) العيص . بالكسر .: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال[1].

4 – غزوة بُوَاط[2]:

وكانت غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بُواط في شهر ربيع الأوَّل، في السَّنة الثَّانية من مُهَاجره، وخرج في مئتين من أصحابه، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش، كان فيها أميَّة بن خلف، في مئة رجلٍ، وألفين وخمسمئة بعيرٍ، فلم يلق النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كيداً؛ فرجع إلى المدينة.

5 – غزوة العُشَيَرة[3]:

وفيها غزا صلى الله عليه وسلم قريشاً، واستعمل على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسد، وسُمِّيت هذه الغزوة بغزوة العُشَيرة، فأقام بها جُمَادَى الأولى، وليالي من جُمادى الآخرة، وادع فيها بني مُدْلِج، وحلفاءهم من بني ضَمْرة، ثمَّ رجع إلى المدينة، ولم يلقَ كيداً؛ وذلك: أنَّ العير الَّتي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيامٍ، ذاهبةً إلى الشَّام[4]، فساحلت على البحر، وبلغ قريشاً خبرُها، فخرجوا يمنعونها، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت غزوة بدر الكبرى[5].

6 – سرية سعد بن أبي وقاصٍ:

وبعد غزوة العُشيرة، بعث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقَّاص، في سريةٍ قوامها ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتَّى بلغ الخَرَّار[6] من أرض الحجاز، ثمَّ رجع، ولم يلقَ كيداً[7].

7 – غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرْزَ بنَ جابر الفِهريَّ، قد أغار على سَرْحِ[8] المدينة، ونهب بعض الإبل، والمواشي، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه، حتَّى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان، من

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام (595/1).

(2) بُواط . بفتح الموحدة وضمِّها .: جبلٌ من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع.

(3) العشيرة: موضع بين مكَّة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر. (مراصد الاطلاع: 943/2). .[641]انظر: طبقات ابن سعد (10/2).

(4)

(5) المصدر السابق نفسه (11/2).

(6) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة ، انظر: (مراصد الاطلاع: 455/1).

(7) انظر: سيرة ابن هشام (600/2).

(8) السَّرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

ناحية بدرٍ، وفاتَه كُرْزُ بن جابرٍ، فلم يدركه، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة[1].

8 - سرية عبد الله بن جحش الأسديّ إلى نَخْلة[2]:

وأرسل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش في ثمانية رَهطٍ من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يومٍ من رجب؛ للاستطلاع، والتَّعرف على أخبار قريش؛ لكنَّهم تعرضوا لقافلةٍ تجاريَّةٍ لقريش، فظَفِرُوا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحَضْرمي، وأسروا اثنين من رجالها، هما: عثمان بن عبد الله، والحكم بن كَيْسان، وعادوا بهما إلى المدينة، وقد توقَّف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في هذه الغنائم، حتَّى نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217].

فلمَّا نزل القرآن الكريم؛ قبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم العير، والأسيرين، وفي سرية عبد الله هذه غنم المسلمون أوَّل غنيمة، وعمرو بن الحَضْرَمي أوَّل قتيلٍ قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أوَّل من أسر المسلمون[3].

رابعاً: فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ:

1 - متى شُرِع الجهاد؟

ذهب الشَّيخ الدُّكتور محمَّد أبو شهبة إلى أنَّ تشريع الجهاد كان في أوائل السَّنة الثَّانية للهجرة، وعلَّل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السَّنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدِّينيَّة، والدُّنيويَّة؛ كبنائهم المسجد النَّبويّ، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السِّياسيَّة؛ كعقد التاخي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة؛ كي يأمنوا شرورهم[4]. وذهب الأستاذ

---

[1] انظر: سيرة ابن هشام (601/2).

[2] نخلة اليمانية: وادٍ عسكرت به هوازن يوم حنين.

[3] انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(43/1) ، وقد كانت هذه السَّريَّة في شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الحُرم ، فلمَّا كانوا في اخر يومٍ من رجب وتعرضوا لهذه القافلة ، تشاوروا ، وقالوا: نحن في اخر يومٍ من رجب ، فإن قاتلناهم؛ انتهكنا الشَّهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة؛ دخلوا الحرم ، ثمَّ اجتمعوا على اللقاء ، فقتلوا ، وأسروا ، وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلمما فعلوه ، وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» فنزلت الاية.

[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (75/1 ، 76).

صالح الشَّامي إلى أنَّ الإذن بالجهاد كان في أواخر السَّنة الأولى للهجرة[1].

2 - الفَرْق بين السَّرية، والغزوة:

يُطلق كُتَّاب السِّيَر في الغالب على كلِّ مجموعةٍ من المسلمين؛ خرج بها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ليلقى عدوَّه غزوةً، سواءٌ حدث فيها قتالٌ، أم لم يحدث، وسواءٌ كان عددها كبيراً، أم صغيراً. ويطلقون على كل مجموعة من المسلمين؛ يرسلها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لاعتراض عدوٍّ كلمة: (سَرِيَّة) أو: (بعث)، وقد يحدث فيها قتالٌ، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوِّه، أو غيره، وغالباً ما يكون عدد الَّذين يخرجون في السَّرايا قليلاً ؛ لأنَّ مهمَّتهم محدَّدةٌ في مناوشة العدوِّ، وإخافته، وإرباكه، وقد قاد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سبعاً وعشرين غزوةً، وأرسل ما يُقدَّر بثمانٍ وثلاثين سريَّةً، وبعثاً، وقد خطَّط لها في فترةٍ وجيزةٍ في عُمْرِ الأمم، بلغت عَشْرَ سنواتٍ من الزَّمن[2].

3 - تعداد سكَّان المدينة، وعلاقته بالسَّرايا:

أمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بإجراء تعدادٍ سكَّانيٍّ في السَّنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرةً، وكان الإحصاء للمسلمين فقط، أو حسب نصِّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال: «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (1500) ألفاً وخمسمئة رجلٍ[3]، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجبٍ، واستغرابٍ: «نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟!»؛ لأنَّهم كانوا قبلُ لا ينامون إلا ومعهم السِّلاح؛ خوفاً على أنفسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنع خروجهم ليلاً فرادى؛ حمايةً لهم من الغدر[4]، وبعد هذا التَّعداد مباشرةً، بدأت السَّرايا، والغزوات، وهذا الإجراء الإحصائيُّ يدخل ضمن الإجراءات التَّنظيميَّة في تطوير الدَّولة النَّاشئة[5].

---

[1] انظر: من معين السِّيرة ، ص 175.
[2] في ظلال السيرة . غزوة بدر ، لأبي فارس ، ص 12.
[3] انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، ص 65.
[4] انظر: الرَّوض الأُنف (43/5).
[5] انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص 163.

4 - حراسة الصَّحابة للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الشَّخصيَّة:

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يحرسون النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم حراسةً شخصيَّةً، فعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أَرِقَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلةٍ، فقال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يَحْرسُني اللَّيلة»؛ إذ سمعنا صوتَ السِّلاح، قال: «مَنْ هذا؟» قال: سعدٌ يا رسولَ الله! جئتُ أَحْرُسُك، فنام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حتَّى سمعنا غَطيطه» [البخاري (2885 و7231) ومسلم (2410)]، وكان ذلك قبل غزوة بدرٍ الكبرى[1]. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية الاحتراس من العدوِّ، والأخذ بالحزم، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، وأنَّ على النَّاس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثَّناء على مَنْ تبرَّع بالخير، وتسميته، وإنَّما عنَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك مع قوَّة توكُّله؛ للاستنان به في ذلك[2].

5 - نص وثيقة المعاهدة مع بني ضَمْرَة والتعليق عليها:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، هذا كتابٌ من محمَّدٍ رسول الله، لبني ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، بأنَّهم آمنون على أموالهم، وأنفسهم، وأنَّ لهم النَّصر على مَنْ رامهم؛ إلا أن يُحارِبُوا دين الله، ما بَلَّ بحرٌ صُوفَةً[3]، وأنَّ النَّبيَّ إذا دعاهم لنُصْرة؛ أجابوه، عليهم بذلك ذمَّة الله، وذمَّة رسوله، ولهم النَّصرُ على مَنْ برَّ منهم، واتَّقى»[4].

انتهز النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في غزوة الأبْواء فرصةً ذهبيَّةً، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمةٍ عسكريَّةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ في الصِّراع بين الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة، وقريش؛ ولذلك عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضمان حيدتهم، في حالة وقوع صدامٍ مسلَّحٍ بين المدينة، وأهل مكَّة، وكانت خطَّته صلى الله عليه وسلم حتَّى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعاتٍ صغيرةٍ من المهاجرين، وخاصَّةً أنَّ هذه القوافل كانت غير مصحوبةٍ بجيشٍ يحميها، وهو أمرٌ لم تفكِّر فيه قريش حتَّى تلك اللَّحظة[5].

---

[1] انظر: تفسير القرطبيّ (230/6).
[2] انظر: ولاية الشرطة في الإسلام، د. عمر محمد الحميداني، ص 63.
[3] كناية عن التأبيد والاستمرار.
[4] الوثائق السِّياسيَّة، لمحمد حميد الله، ص 220 رقم (159).
[5] انظر: نشأة الدَّولة الإسلاميَّة، د. عون الشريف، ص 43.

كان قُرْبُ بني ضَمْرَة، وحلفائهم من المدينة؛ الَّتي كانت سوقَهم، ومصدرَ رزقهم قد وضعهم في موقفٍ لا يسمح لهم بأيّ مسلكٍ غير موادعة الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة، وهو حلف عدم اعتداءٍ وفق المصطلح الحديث[1].

وقد دلَّت هذه الموادعة على أنَّ مقتضيات السِّياسة الشَّرعيَّة، قد تدفع المسلمين إلى التَّحالف العسكريِّ، أو الاقتصاديِّ، أو التِّجاريِّ، مع أيٍّ من الكتل القائمة، وأنَّ التَّحالف السِّياسيَّ له أصلٌ في الشَّريعة، وضرورةٌ يوجبها استهدافُ رفع الضَّرر الحاصل، أو المرتقب[2]، وأنَّ التَّحالف مبنيٌّ على قاعدة رفع الضَّرر، والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غايةٌ شرعيَّةٌ معلومةٌ، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرارٌ، ورأيٌ، أما إذا كانوا أتباعاً، ومنفذين - كما في الأحلاف الحديثة - فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشَّرعيُّ، وعلى قيادة الأمَّة أن تستوعب هدي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشَّرعيَّة؛ الَّتي تقول: «لا ضرر ولا ضرار» [ابن ماجه (2341) وأحمد (313/1) والطبراني في المعجم الأوسط (3789)][3] .

يقول الشَّيخ مصطفى الزَّرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة، ما نصُّه:

«وهذه القاعدة من أركان الشَّريعة، وتشهد لها نصوصٌ من الكتاب والسنَّة، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عامّاً، أو خاصّاً، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التَّدابير الَّتي تزيل آثاره، وتمنع تكْرَاره، كما يدلُّ على وجوب اختيار أهون الشَّرَّين؛ لدفع أعظمهما؛ لأنَّ في ذلك تخفيفاً للضَّرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً»[4].

إنَّ هذه الموادعة توضِّح جواز عقد الدَّولة الإسلاميَّة معاهدةً دفاعيَّةً بينها وبين دولةٍ أخرى، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتَّب أيُّ ضررٍ على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدَّولة الإسلاميَّة في هذه الحال، نصرة الدَّولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النُّصرة ضدَّ الكفار المعتدين، كما يجوز للدَّولة الإسلاميَّة أن تطلب من الدَّولة الحليفة إمدادها بالسِّلاح، والرِّجال؛

---

[1] انظر: الفقه السِّياسي، لخالد سليمان الفهداوي، ص 119.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 124.

[3] هذه القاعدة أصلها حديثٌ نبويٌّ.

[4] انظر: المدخل الفقهي، للشَّيخ الزرقا، ص 972.

ليقاتلوا تحت راية الدَّولة الإسلاميَّة، ضدَّ الأعداء من الكفَّار[1].

وقد شرط النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله؛ حتَّى يكون لهم النَّصر على من اعتدى عليهم، أو حاول الاعتداء.

وفي هذا إبعادٌ للعقبات؛ الَّتي يمكن أن تقف في طريق الدَّعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضَمرة ألا يحاربوا هذا الدِّين، أو يقفوا في طريقه[2]، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسيَّاً وعسكريَّاً للمسلمين، لا يستهان به[3].

6 - (وإنِّي لأوَّل رجلٍ رمَى بسهمٍ في سبيل الله)[4]:

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث رضي الله عنه أوَّلَ سريَّةٍ في تاريخ السَّرايا، يلتقي فيها المسلمون مع المشركين في مواجهةٍ عسكريَّةٍ، وقد اتَّخذ القتال بين الطَّرفين طابع المناوشة بالسِّهام، وكان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه «أوَّل العرب رمى بسهم في سبيل الله»[5] في تلك المعركة؛ الَّتي لم تستمرَّ طويلاً؛ إذ قرَّر الفريقان الانسحاب من أرضها، وقد كان انسحاب المسلمين قوياً، ومنظَّماً، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، فقد كان له الدَّور الأكبر في تثبيت، وإحباط استعدادات العدوِّ، لشنِّ أيِّ هجومٍ مضادٍّ، وذلك بوابل من السِّهام المزعجة الَّتي قذفها نحوه، والتي كونت ساتراً دفاعياً، مهَّد لانسحابٍ سليمٍ منظَّمٍ بالنِّسبة للمسلمين، وقد فرَّ عُتْبة بن غزوان، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذ إلى المسلمين، وكانا قد أسلما قبل ذلك، وفي هذه السَّريَّة حقَّق سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه سبقاً عسكريَّاً إسلاميَّاً، يسجَّل في سجلِّه الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى، كما أكَّدت هذه السَّريَّة، استمرار سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم التَّعبويَّة، الخاصَّة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسَّرايا الأولى حتَّى بدر؛ تنفيذاً لاتفاقية العقبة الثَّانية[6].

---

[1] انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية ، د. محمد خير هيكل (479/1).
[2] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التكوين إلى التمكين ، ص 530.
[3] انظر: الدَّعوة الإسلامية ، د. عبد الغفار عزيز ، ص 296.
[4] انظر: صحيح سنن التِّرمذيّ (277/2).
[5] انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، د. بريكك العُمري ، ص 91.
[6] انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 92.

7 – نصُّ وثيقة المُوادعة مع جُهَيْنة، والتَّعليق عليها:

«إنَّهم امنون على أنفسهم، وأموالهم، وإنَّ لهم النَّصر على من ظلمهم، أو حاربهم، إلا في الدِّين، والأهل، ولأهل باديتهم من برَّ منهم، واتَّقى ما لحاضرتهم»[1].

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخَّل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنِيُّ في التَّوسُّط بين سريَّة حمزة بن عبد المطلب، والقافلة القرشيَّة الَّتي كان يقودها أبو جهل بن هشام، ويحرسها ثلاثمئة راكبٍ من فُرْسان قريشٍ[2]، فقد التقوا ناحية العيص، في منطقة نفوذ جهينة، واصطفُّوا للقتال[3]، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين، تدخَّل مجْديُّ بن عمرو – زعيم من زعماء جهينة – في وساطة سلامٍ بينهم، واستطاع أن ينجح في مساعيه السِّلمية بين الطَّرفين، فقد كان مجديٌّ، وقومه حلفاء للفريقين جميعاً، فلم يعصوه، فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما، فلم يكن بينهما قتالٌ[4].

ويظهر من هذه المعاهدة: أنَّ عقد المعاهدات بين الدَّولة الإسلامية والقبائل المجاورة، كان سابقاً على الأعمال العسكريَّة؛ الَّتي قامت بها؛ بدليل أنَّ حركة السَّرايا الأولى الموجَّهة ضدَّ قريشٍ، كان قد سبقها معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر، وقد توسَّطت لمنع القتال بين المسلمين، وكفَّار مكَّة.

ومن فقه هذه المعاهدة جوازُ عقد معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام، ودولةٍ أخرى، هي بدورها مرتبطةٌ بمعاهدة سلامٍ مع أعداء الدَّولة الإسلاميَّة؛ بشرط ألاَّ تتجاوز تلك المعاهدة الاتفاق على أن تنصر الدَّولة المعاهدة للمسلمين العدوَّ إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتالٍ، ويجوز للدَّولة الإسلاميَّة، أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعدَّ لذلك؛ استجابةً لوساطة دولةٍ أخرى؛ إذا لم يترتب على ذلك ضررٌ للمسلمين[5].

كانت نتائج سريَّة حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثنيِّ سيئةً للغاية؛ حيث هزَّت كيان

---

[1] انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة، لمحمد حميد الله، ص 62.

[2] انظر: المواهب اللَّدنيَّة (75/1).

[3] انظر: طبقات ابن سعد (6/2)، وانظر: السَّرايا والبعوث، ص 85.

[4] انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص 86.

[5] انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية (478/1، 479).

قريش، وبثَّت الرُّعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحْدق بهم، والَّذي أصـبح يهدِّد طريق تجارتهم، وقوَّتهم الاقتصـاديَّة[1]، فقد قال أبو جهل حين قدم مكَّة منصرفاً عن حمزة: «يا معشـر قريش! إنَّ محمداً قد نزل يثربَ، وأرسـل طلائعه ؛ وإنَّما يريد أن يصـيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمرُّوا في طريقه، وأن تقاربـوه ؛ فإنَّـه كالأسد الضَّاري، إنـه حَنِـقٌ[2] عليكم؛ نفيتموه نَفْيَ القردان[3] على المناسـم[4]، والله! إنَّ له لسـحرةً، ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصـحابه، إلا رأيتُ معهم الشَّياطين، وإنَّكم عرفتم عداوة ابني قَيْلَة[5]، فهو عدوٌّ استعان بعدوٍّ»[6].

8 – سريَّة عبد الله بن جحش وما فيها من دروسٍ، وعبر:

إنَّ ســـرية عبد الله بن جحشٍ، حقَّقت نتائج مهمَّةً، وفيها دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد عظيمةٌ؛ منها:

أ – جاء في خبر هذه السَّريَّة: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كتب لأمير السَّريَّة كتاباً، وأمره ألاَّ ينظرَ فيه حتَّى يســـير يومين، وهذا مثلٌ لتطبيق مبدأ مهمٍّ من مبادئ الحرب، وهو إخفاء الخُطط الحربيَّة، ومنها خط السَّـير، حتَّى يكون الجيش في أمانٍ من كيد الأعداء؛ فالمدينة كانت آنذاك تضمُّ اليهود، والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكَّة، بخطِّ سير تلك السَّريَّة الموجَّهة ضدَّهم، فلـــمَّا سار أفراد السَّريَّة وهم بأنفسهم لا يعلمون اتِّجاههم؛ أصبح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم آمناً من انكشاف الهدف المقصود[7].

وإنَّ الباحث ليرى أثر التَّربية النَّبويَّة في هذه السَّـــريَّة المباركة؛ حيث سمعوا، وأطاعوا جميعاً، وســاروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتَّى أصـبحوا من ورائهم، وهذا شـاهدٌ على قوَّة إيمان الصَّحابة رضي الله عنهم، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[8].

---

(1) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 86.
(2) حَنق عليه حنقاً: اشتد غيظه ، فهو حنقٌ ، وحنيقٌ.
(3) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل
(4) المناسم: جمع منسم ، وهو طرف خُفِّ البعير ، وقيل: هو للنَّاقة كالظُّفر للإنسان.
(5) كناية عن الأوس والخزرج ، فقيلة أمُّهم وكانوا يُنسبون إليها.
(6) انظر: سيرة ابن هشام (218/1 ، 219).
(7) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر (71/4).
(8) المصدر السابق نفسه.

ب – حاولت قريش أن تستغلَّ ما وقع من قَتْلٍ في الشَّهر الحرام مِنْ قِبلَ أفراد السَّريَّة، فشنُّوا حرباً إعلاميَّة، وهجوميَّة مركَّزةً، تتخلَّلها دعآيات مغرضةٌ ضدَّ المسلمين، استغلت فيها التعاليم الإبراهيميَّة؛ الَّتي لا زالت بعض آثارها باقيةً في المجتمع الجاهليِّ حتَّى ذلك الوقت؛ من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك، فقد «انتهزت قريش هذه الفرصة للتَّشهير بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وبالمسلمين، وإظهارهم بمظهر المعتدي الَّذي لا يراعي الحرمات»[1]. «قالت قريش: قد استحلَّ محمَّدٌ، وأصحابه الشَّهر الحرام، وسفكوا فيه الدَّم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرِّجال» [البيهقي في السنن الكبرى (59/9) وفي الدلائل (19/3) وابن هشام (254/2)][2] .

ونجحت قريش في خُطَّتها تلك بادئ الأمر؛ حيث «كان لدعايتها صدىً كبيرٌ، وأثرٌ ملموسٌ حتَّى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل، والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السَّريَّة محاربتهم في الشَّهر الحرام، واشتدَّ الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»[3]، وقالوا: إنَّ الحرب واقعةٌ لا محالة بين المسلمين وقريش؛ بل بينهم وبين العرب جميعاً؛ جزاء ما انتهكوا من حرمة الشَّهر الحرام، وأخذوا يردِّدون: «عمرو بن الحَضرمي قتله واقدُ بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب»[4]، وهذا الكلام من اليهود يعبِّر عن حقدٍ دفينٍ في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[5].

وعندما ظنَّ أهل السَّريَّة: أنَّهم قد هلكوا، وسُقط في أيديهم[6]؛ جاء الردُّ الرَّبانيُّ المفحم؛ قطعاً لألسنة المشركين الَّذين يتترَّسون بالحرمات، ويتَّخذونها ستاراً لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم، وأجاب على استنكارهم القتال في الشَّهر الحرام، فالصدُّ عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشَّهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراجُ أهله منه أكبرُ من القتال في الشَّهر الحرام، وفتنةُ الرَّجل في دينه أكبرُ من القتل في الشَّهر الحرام. لقد فعلت قريشٌ كلَّ هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر؛ ولكنَّها تناستها، أو استهانت بها، ولم تذكر إلا

---

[1] انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، للأستاذ أحمد الشريف ، ص 445.
[2] انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 100.
[3] انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، للأستاذ أحمد الشريف ، ص445.
[4] انظر: سيرة ابن هشام (603/1 ، 604).
[5] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (72/4).
[6] سقط في أيديهم: أي: ندموا على ما فعلوا ، وهو تعبير قرآنيٌّ في سورة الأعراف ، الاية (149).

حُرمة الشَّهر، واتَّخذتها وسيلةً لآثارة حربٍ شعواء على الإسلام، ودولته؛ لتأليب القبائل الوثنيَّة عليها، وتنفير النَّاس من الدُّخول في هذا الدِّين؛ الَّذي يستحلُّ الحرمات، ويستبيح المقدَّسات؛ حتَّى إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لحقه الغمُّ، ولام قائد السَّريَّة، وأصحابه على ما فعلوا[1]، فنزلت الآيات البيِّنات تردُّ وبقوَّةٍ على دعآيات قريشٍ المغرضة، موضحةً: أنَّه وإن كان الشَّهر الحرام لا يحلُّ فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات، وصدَّ عن سبيله[2].

ج - حِرْصُ القائد على سلامة الجنود: عندما تخلَّف سعد بن أبي وقَّاصٍ، وعُتْبة بن غَزْوان؛ بسبب بحثهما عن بعيرٍ لهما قد ضلَّ، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك، وعُتبة بن غَزوان» فلم يفادهما حتَّى قدم سعدٌ، وعُتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كَيسان[3]، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافراً[4].

ونفهم من المنهاج النَّبويِّ، ضرورة أن يهتمَّ القائد بسلامة جنده؛ لأنَّهم هم الَّذين يقدِّمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله، وإقامة دولة الإسلام.

إنَّ المدارس العسكريَّة الحديثة تقول: إنَّ الجنديَّ حين يُحسُّ باهتمام القيادة به، وبسلامته، وبأمنه لا يتردَّد في أن يبذل غاية البذل، ويعطي أقصى العطاء[5].

د - ظهور التَّربيَّة الأمنيَّة في الميدان: كانت سريَّة عبد الله بن جحشٍ قد حقَّقت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغُّل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش، ممَّا أذهلها، وزاد دهشتها وذهولها تلك السِّرِّيَّةُ التَّامَّةُ، والدِّقَّةُ المتناهية؛ الَّتي تمَّت بها العمليَّة؛ حتَّى إنَّ جواسيس قريش لم تستطع رصدها، ولا معرفة الوجهة الَّتي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطَّط له بابتكاره أسلوب الرَّسائل المكتوبة؛ للمحافظة على الكتمان، وحرمان العدوِّ من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده عن حركات المسلمين، «والكتمان أهمُّ عاملٍ من عوامل

---

(1) انظر: دولة الرسول صلى الله عليه وسلممن التكوين إلى التمكين ، ص 533.

(2) انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص 100.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لمحمد أبو فارس ، ص 23.

مبدأ (المباغتة)، وهي أهمُّ مبدأ من مبادئ الحرب»[1].

وقد أثبتت هذه السَّرِيَّةُ بما لا يدع مجالاً للشك: أنَّ سرايا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قويَّةٌ، تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمَّات، وتتحلَّى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكلِّ كفاءة، واقتدارٍ، ممَّا يدلُّ على رُوحها المعنويَّة العالية.

وتظهر آثار التَّربية النَّبويَّة في الضَّبط العسكريِّ الرَّفيع، الَّذي تميَّز به قائد السَّريَّة، وطاعته للأوامر النَّبويَّة العليا؛ دون تردُّدٍ، أو تخاذلٍ، فما إن قرأ الكتاب، حتَّى امتثل فوراً للأمر بحذافيره، معطياً من نفسه القدوة الحسنة، وباثّاً في نفوس جنوده الحماس، وهو يقول لهم: «من كان منكم يريد الشَّهادة، ويرغب فيها؛ فلينطلق، ومن كره ذلك؛ فليرجع، فأمَّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم »[2].

9 - من أهداف السَّرايا:

عندما ندرس حركة السَّرايا، والغزوات؛ الَّتي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم بدقَّةٍ، وعمقٍ، وتحليلٍ، نستطيع أن نتلمَّس كثيراً من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروسٍ وعبرٍ، وفوائد؛ فإذا تأمَّلنا في حركة السَّرايا الَّتي سُيِّرت قبل بدرٍ؛ نجد أنَّ أفرادها كلَّهم من المهاجرين، ليس فيهم واحدٌ من الأنصار. يقول ابن سعدٍ - رحمه الله! -: «والمجتمع عليه: أنَّهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الأنصار مَبْعثاً حتَّى غزا بهم بدراً»[3]. وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه؛ ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أوَّلاً، وإحياؤها على المستوى الخارجيِّ، وإنهاك الاقتصاد القرشيِّ، ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريشٍ عسكريّاً، وتدريب الصَّحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحرُّكات قريش، وإرهاب العدوِّ الدَّاخليِّ في المدينة، وما حولها، واختبار قوة العدوِّ[4]، وقد حقَّقت تلك السَّرايا أهدافها، والَّتي من أهمها:

أ - بسط هيبة الدَّولة في الدَّاخل، والخارج: فقد استطاعت تلك السَّرايا والغزوات، أن

---

[1] انظر: الرَّسول القائد صلى الله عليه وسلم، لخطاب ، ص 94.

[2] انظر: سيرة ابن هشام (602/2) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

[3] انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (6/2).

[4] انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، (ص 14 . 24).

تلفت أنظار أعداء الدَّعوة، والدَّولة الإسلاميَّة إلى قوَّة المسلمين، وقدرتهم على ضرب أيَّة حركةٍ مناوئةٍ، سواءٌ في الدَّاخل، أو الخارج؛ حتَّى لا يُحَدِّث أحدٌ نفسَه بمهاجمة الدَّولة الإسلاميَّة، الَّتي لا يتوقَّف جيشها ليلَ نهارَ، ممَّا أرهب الأفاعي اليهوديَّة، والقبائل الوثنيَّة المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف حسابٍ قبل أن تحدِّثه نفسُه بغزو المدينة، أو مناصرة أحدٍ من الأعداء عليها. والَّذي نلاحظه في حركة السَّرايا الزِّيادة المستمرَّة في أعداد قوَّة تلك الغزوات، والسَّرايا، ومجيئها متتابعةً ليس بينها فاصلٌ زمنيٌّ على الإطلاق، فلا تكاد السَّريَّة، أو الغزوة تعود؛ حتَّى تكون الَّتي بعدها قد خرجت؛ لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصاديَّة، وقطع طرق تجارتها، وخصوصاً إلى بلاد الشَّام؛ ممَّا كلَّفها زيادة عدد حرَّاس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، هذا غير الرُّعب، والخوف الَّذي شعر به رجال القوافل القرشيَّة، وأصحاب الأموال في مكَّة على حدٍّ سواءٍ[1].

ب - كسب بعض القبائل، وتحجيم دَور الأعراب: لقد وادع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قبيلة جُهَيْنة، وحالفها، وكذلك بعض القبائل الضَّاربة في تلك المنطقة من أجل تحييدها في الصِّراع الدَّائر بين مكَّة، والمدينة، والعمل على كسبها في هذا الصِّراع؛ وذلك «لأنَّ الأصل: أنَّ هذه القبائل تميل إلى قريشٍ، وتتعاون معها؛ إذ بينهما مُحالفاتٌ تاريخيَّةٌ، سمَّاها القرآن الكريم بالإيلاف[2]، سعَت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشَّام، واليمن»[3].

وبعد أن اتَّفقت بعض القبائل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعقدت معه معاهداتٍ، أصبحت تشكِّل خطراً على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السَّادة في المنطقة[4].

وقام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بتحجيم دور الأعراب؛ كي لا يكون لهم وجودٌ في طرق التِّجارة، فقد كان الأعراب يُشَكِّلون قوَّة تهديدٍ للقوافل التِّجارية، وكان المارُّ في مناطق نفوذهم، لا يمرُّ إلا بإتاوة تُدْفع إليهم، وحينما قامت الدَّولة الإسلاميَّة؛ لم يجدوا شيئاً منها؛ فجرَّبوا مهاجمتها، وتولَّى هذا كُرْزُ الفهريُّ؛ ولكنَّه وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يطارده إلى

---

[1] انظر: دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلممن التكوين إلى التمكين ، ص 532.
[2] انظر: سورة قريش (1 . 4).
[3] انظر: المجتمع المدني ، د. أكرم ضياء العمري ، ص 27.
[4] انظر: دراسات في السِّيرة ، لمؤنس ، ص 19.

سفوان «بالقرب من بدرٍ مسافةً تبعد عن المدينة حوالي 150 كيلو متراً»، وقد سمَّى أهلُ السِّير هذه المطاردة: غزوة بدر الصُّغرى، وتُعدُّ هذه الغزوة درساً لكلِّ الأعراب، فلم يحصل: أنَّ أعرابيَّاً سوَّلت له نفسه أن يهاجم المدينة بعد هذه المطاردة، ومِنْ ثمَّ لم تدفع الأمَّة الإسلاميَّة إتاواتٍ لقُطَّاع الطُّرق؛ بل أجبرتهم على الانسحاب، والدُّخول في اتِّفاقاتٍ مع المسلمين؛ فأمنوا شرَّهم[1].

ج - علاقة هذه السَّرايا بحركة الفتوح الإسلاميَّة: وقد استمرَّت حركة السَّرايا، والبعوث، وكانت بمثابة تمريناتٍ عسكريَّةٍ تعبويَّةٍ، ومناوراتٍ حيَّةٍ لجند الإسلام، وكان هذا النَّشاط المتدفِّق على شكل موجاتٍ متعاقبةٍ من جند الإسلام الأوائل، دلالةً قاطعةً على أنَّ دولة الإسلام في المدينة - وبقيادة النَّبيِّ القائد صلى الله عليه وسلم - كانت مثل خلية النَّحل، لا تهدأ، ولا تَكِلُّ، وإنَّ الباحث ليلحظ في حركة السَّرايا، والبعوث، والغزوات الكبرى في زمن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، حرص الصَّحابة على المشاركة كقادة، وجنود، فكان صلى الله عليه وسلم يعدُّهم لتثبيت دعائم الدَّولة، والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والَّتي ما فتئ صلى الله عليه وسلم يبشِّر بها أصحابه بين الفَيْنَة والأخرى في أوقات الحرب، والسِّلم، والخوف، والأمن.

إنَّه بنظرةٍ فاحصةٍ في قوَّاد وجنود تلك السَّرايا، والبعوث، تطالعنا أسماء لمعت كثيراً في تاريخ الفتح الإسلاميِّ فيما بعد؛ مثل: قائد فتوحات الشَّام - أمين الأمَّة - أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسيَّة، وفاتح المدائن، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الرُّوم في اليرموك، وعمرو بن العاص فاتح مصر، وليبيا، وغيرهم رضي الله عنهم. لقد التحق خالدٌ، وعمرٌو فيما بعد بحركة السَّرايا، وقادا بعضها بعد إسلامهم. لقد كانت السَّرايا والغزوات الَّتي أشرف عليها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في حياته، بمثابة تدريبٍ حيٍّ نابضٍ؛ بل يمكن اعتبارها دورات أركانٍ للقادة الَّذين فتحوا مشارق الأرض، ومغاربها فيما بعد.

إنَّ حياة الصَّحابة رضي الله عنهم، خلال الأربع والعشرين ساعةً اليوميَّة، عبارةٌ عن تدريبٍ مستمرٍّ؛ فالبرنامج اليوميُّ المنتظم، يبدأ مبكِّراً من صلاة الفجر، الَّتي تُؤَدَّى في جماعةٍ مع قائدهم الأعلى صلى الله عليه وسلم ؛ الَّذي كان يحثُّهم على أداء هذه الصَّلاة جماعة وفي وقتها،

---

[1] انظر: دراسات في عهد النُّبوة، د. عبد الرحمن الشُّجاع، ص 131.

موضحاً لهم، ولأنَّه أنَّها المِفْتاح العجيب ليوم مليءٍ بالنَّشاط والحيويَّة. قال صلى الله عليه وسلم : «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافيــة رأس أحدكم إذا هو نــام ثلاثَ عُقَدٍ، يضربُ مكان كلِّ عقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ، فارقدْ، فـإن استيقظ، فذكر الله؛ انحلَّت عقدةٌ، فإن توضَّأ؛ انحلَّت عُقْدَةٌ، فإن صلَّى؛ انحلت عُقَدُهُ كلُّها، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفس، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفس كسلان » [البخاري (1142) ومسلم (776)] .

ثمَّ ينطلق كلٌّ منهم إلى عمله الَّذي تتخلَّله فترات الصَّــلوات الباقية؛ حتَّى إذا ما صــلَّوا الصَّلاة الآخرة (صلاة العشاء) ناموا، حتى إذا ما أخذوا قسطــاً وافراً من النَّوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه؛ قام معظمهم لأداء صـلاة التَّهجُّد الَّتي تملأ قلوبهم روحانيَّةً، وتكسبهم مزيداً من النَّشاط لأدائها في وقتٍ يكون الجسم فيه مرتاحاً.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدَّائم، واليقظة التامَّة لمتطلبات دولة الإسلام، فكانوا يقومون بنشــاطاتٍ تدريبيَّةٍ مركَّزةٍ، تتمثَّل في ركوب الخيل، والسَّبق، والرِّماية، وكان النَّبيُّ صـلى الله عليه وسلم يحثُّهم على فعل ذلك؛ بل ويشـاركهم فيه، معطياً من نفسه القدوة، وكان صلى الله عليه وسلم يركِّز على تعلُّم الرِّماية كثيراً، موضِّحاً أنَّها خير ما يعدُّ من قوَّةٍ استعداداً للكفَّار.

وكان صــلى الله عليه وســلم يشــجِّعهم على الصِّــناعة الحربيَّة، المتمثِّلة في ذلك الوقت في صــناعة الأســهم، ويخبرهم: أنَّ الأجر الذي غايته الجنَّة ينســحب على صــانعها، والمتنبِّل بها، والرَّامي بها، فيروي لنا عقبة عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قوله: «إنَّ الله يُدخل بالسَّـهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنَّـــة: صانعُه؛ الَّذي احتسب في صنعته الخير، ومتنبِّله[1]، والرَّامي، ارموا، واركبوا، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللَّهو إلاَّ ثلاثة تأديب الرَّجل فرسَــــه، وملاعبته زوجتَه، ورميه بنبله عن قوســـه، ومن عُلِّم الرَّمي ثُمَّ تركه، فهي نعمةٌ كفرها» [أبو داود (2513) والترمذي (1637) والنسائي (6/222 – 223) والحاكم (2/95) والبيهقي في الشعب (4301)].

فيا لَهُ من عصرٍ تمسَّك فيه الصَّحابة رضي الله عنهم بالتعاليم القرآنيَّة الرَّبَّانيَّة، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وقاموا بتطبيقها حرفيّاً في شتَّى شؤون حياتهم، فغزوا، واستعلوا على أمم الأرض شرقاً، وغرباً رغم قلَّتهم، وبساطتهم! وحين ابتعد المسلمون عن تلك التَّعاليم، وألقوا بها وراء ظهورهم؛

[1] المتَنَبِّل: هو الذي يناول السَّهم للرَّامي.

ركبهم الذُّلُّ، والصَّغار، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها؛ بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السَّيل.

إنَّ المهمَّات، والأهداف الَّتي ســعت لتحقيقها السَّــرايا، والبعوث كانت تتفاوت تَبعاً لاختلاف الظُّروف المحيطة والحادثة، فكانت السَّــرايا الأولى في معظمها عبارةً عن دورياتٍ استطلاعيَّة، واستكشافيَّة، وجسِّ نبضٍ، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضيَّةٍ، تُوقع الرُّعب، والفزع في القوافل القرشيَّة، وذلك قبل غزوة بدرٍ الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها؛ أصبحت مهمَّة بعض السَّـرايا، والبعوث تنصـبُّ في تصـفية الأفراد من أعداء الدَّولة الإسـلاميَّة، الَّذين يحاولون النَّيل من مسـيرتها؛ مثل كعب بن الأشـرف، والعصـماء بنت مَرْوَان، وأبي عفك، فكان في قَتْل كعب ردعٌ لليهود، وقتل العَصْماء، وأبي عفك ردعٌ للمشركين، والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمـور لغير صـالح المسلمين بعد أُحـدٍ؛ طمع الأعراب في خيرات المدينـة، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنَّهم غـدروا ببعض البعوث التَّعليميَّـة - كما في الرَّجيع، وبئر معونـة - غيَّر تبعاً لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (استراتيجيَّتـه) العسكريَّـة، فانتقل بالسَّرايا من قريشٍ إلى الأعراب؛ لتأديبهم بطريقةٍ صـارمةٍ، وسـريعةٍ، ومباغتةٍ، وكان أهمَّ ما يميِّز تلك السـرايا، هجومُها التَّعرضيُّ للأعراب قبل تحشُّدهم، وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلَّت السَّرايا، والبعوث النَّبويَّة تؤدِّي دورها، وتقوم بمهامِّها الخاصَّة لخدمة أهداف الدَّعوة، فمن دورياتٍ قتاليَّةٍ، إلى ســرايا تعقُّبيَّةٍ، وأخرى تمويهيَّةٍ، حتَّى إذا ما توطَّد الأمر للمســلمين بعد فتح مكَّة، اهتمَّ النَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم بإزالة كلِّ ما يمتُّ للوثنيَّة بصــلةٍ، فبعث السَّــرايا، والبعوث من مكَّة لتحطيم بقيَّة رموز الشِّـرك، والوثنيَّة، فانطلقت السَّـرايا لتحطيم العُزَّى، ومناة، واللاَّت، وسُواع، وذي الخَلصة[1]، وغيرها من الأصنام، والطَّواغيت الوثنيَّة[2].

وبعد ذلك انطلقت دعوة الإســـلام في أرجاء الجزيرة، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً، ثمَّ تحرَّكت الجيوش الرَّاشـديَّة بعد وفاة الرَّسـول صـلى الله عليه وسـلم ؛ لنشـر دين الله في المعمورة، وإزالة كلِّ العوائق، والقوى الَّتي تقف في وجه الدَّعوة.

لقد أدهشـت النتائج السَّـريعة الإيجابيَّة لحركة الفتوح الإسـلاميَّة جميع المحلِّلين على اختلاف

---

[1] الخلصة: بفتح الخاء المعجمة واللاَّم ، بعدها مهملةٌ ، وحكى ابن دريد فتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وحكى ابن هشام ضمَّهما ، وقيل: بفتح أوله وضمِّ ثانيه ، والأوَّل أشهر ، وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (4355).

[2] انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص 61 . 65).

دياناتهم، وأفكارهم، ومشــاربهم؛ ولكن ســتزول دهشــة المحلِّلين المنصــفين، عندما يقرؤون تلك التَّعاليم، والوصايا النَّبويَّة لقوَّاد، وجنود السَّرايا، والبعوث، والَّتي هي نواة حركة الفتوح الإسلاميَّة، والَّتي صارت تتكرَّر على ألسنة الخلفاء، وقادة جيوش الفتوح، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[1].

عن أنس رضـي الله عنه قال: كان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إذا بعث جيشـاً؛ قال: «انطلقوا باســم الله، لا تقتلوا شــيخاً فانياً، ولا طفلاً صــغيراً، ولا امرأةً، ولا تغلُّوا، وضــمُّوا غنائمكم، وأصـلحوا، وأحسـنوا، إنَّ الله يحبُّ المحسـنين» [أبو داود (2614) والبيهقي في السـنن الكبرى (90/9) وعبد الرزاق في المصنف (9430)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصــحابه في بعض أمره؛ قال: «بَشِّــروا، ولا تُنَفِّروا، ويَسِّــرُوا، ولا تُعَسِّــرُوا» [مسـلم (1732) وأبو داود (4835) وأحمد (399/4)].

* * *

---

[1] انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص 65 . 66).

المبحث الخامس

استمرارية البناء التَّربويِّ والعلميّ

كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدنيّ مقدِّماتُ سورة البقرة، الَّتي تحدَّثت عن صــفات أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النِّفاق، ثمَّ إشــارة لأهل الكتاب - اليهود والنَّصــارى - وكان التَّركيز على بيان حقيقة اليهود؛ لأنَّهم الذين تصـدَّوا للدَّعوة الإسـلاميَّة من أوَّل يومٍ دخلت فيه المدينة، وتتضــمَّن ســورة البقرة جانباً طويلاً منها لشــرح صــفة يهود، وطباعهم[1].

والملاحظ: أنَّ سـورة البقرة - وهي من أوائل ما نزل في العهد المدنيّ - كانت توجِّه الدَّعوة للنَّاس أجمعين أن يدخلوا في دين الله، وأن يتوجَّهوا له بالعبادة. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21 - 22].

وكانت الآيات القرآنيَّة في العهد المدنيّ تحذِّر المسـلمين من الاتِّصـاف بصـفات المنافقين، وتوضِّــح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشــئ والدَّولة الجديدة، ولم تظهر حركة النِّفاق ضــدَّ المجتمع، والدَّولة المسلمة إلا في العهد المدنيّ؛ لأنَّ المسلمين في مكَّة «لم يكونوا من القوَّة، والنُّفوذ في حالةٍ تســتدعي وجود فئةٍ من النَّاس ترهبهم، أو ترجو خيرهم، فتتملَّقهم، وتَتَزَلَّف إليهم في الظَّاهر، وتتآمر عليهم، وتكيد لهم، وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شــأن المنافقين بوجهٍ عام.. والآيات تتضــمَّن أوصــاف، وأخبار، ومواقف المنافقين. والحملات عليهم كثيرةٌ جداً، حتَّى لا تكاد تخلو سورةٌ مدنيَّةٌ منها، وخاصَّةً الطَّويلة، والمتوسطة، وهذا يعني: أنَّ هذه الحركة ظلَّت طِيلَةَ العهد المدنيّ تقريباً، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأوَّل»[2].

واستمرَّ القرآن المدنيُّ يتحدَّث عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والتَّرغيب في الجنة، والتَّرهيب

---

(1) انظر: الظلال (27/1) وما بعدها.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لدروزة (73/2. 76) نقلاً عن: دراسات في عهد النُّبوة، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص 172.

من النَّار، ويشرّع الأحكام لتربية الأمَّة، ودعم مقومات الدَّولة، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً[1]، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة تتطوَّر مع تطور مراحل الدَّعوة، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم، والَّذين يتعلَّمون، ورُويت أحاديث عن تقدير الرَّسول صلى الله عليه وسلم للعلم، وتضمَّنت كتبُ الحديث أبواباً عن العلم.

لقد أيقنت الأمَّة: أنَّ العلم من أهم مقوِّمات التَّمكين؛ لأنَّه من المستحيل أن يمكِّن الله تعالى لأمَّةٍ جاهلةٍ، متخلِّفةٍ عن ركاب العلم. وإنَّ النَّاظر للقرآن الكريم؛ ليتراءى له في وضوحٍ: أنَّه زاخرٌ بالآيات الَّتي ترفع من شأن العلم، وتحثُّ على طلبه وتحصيله، فقد جعل القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر[2]؛ الذي هو الجهل، والضَّلال. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

وإنَّ الشَّيء الوحيد؛ الَّذي أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطلب منه الزِّيادة هو العلمُ. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] كما أنَّ أوَّل خاصِّيَّةٍ ميَّز الله تعالى بها ادم عليه السلام هي العلم. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31] .

واستمرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في منهجه التَّربويّ يعلِّم أصحابه، ويذكِّرهم بالله – عزَّ وجلَّ – ويحثُّهم على مكارم الأخلاق، ويوضِّح لهم دقائق الشَّريعة، وأحكامها، وكان توجيهه صلى الله عليه وسلم لأصحابه أحياناً فرديّاً، ومرَّةً جماعيّاً، وترك لنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثروةً هائلةً في وسائله التَّربويَّة في التَّعليم، وإلقاء الدُّروس، فقد راعى صلى الله عليه وسلم الوسائل التَّربويَّة؛ الَّتي تعين على الحفظ، وحسن التلقِّي، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم؛ فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النَّافعة[3] في العهد المكيِّ، والمدنيّ:

---

[1] يقال: جاء القومُ قاطبةً: أي: جميعاً.

[2] التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص 62.

[3] انظر: مناهج واداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، ص 59 ، 60.

أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادئ التَّربوية:

1 - تكرار الحديث، وإعادته:

فذلك أسهل في حفظه، وأعون على فهمه، وأدعى لاستيعابه، ووعي معانيه؛ ولذلك حَرَص النبي صلى الله عليه وسلم على تكرير الحديث في غالب أحيانه، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعَادَها ثلاثاً؛ حتَّى تُفْهَمَ عنه، وإذا أتى على قومٍ، فسَلَّم عليهم؛ سَلَّمَ عليهم ثَلاثاً [البخاري (95)] .

2 - التأنِّي في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان صلى الله عليه وسلم يتأنَّى ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمةٍ، وأخرى، حتَّى يسهل الحفظ، ولا يقع التَّحريف والتَّغيير عند النَّقل، وبلغ من حرص النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على ذلك: أنَّه كان يَسْهُل على السَّامع أن يَعُدَّ كلماته صلى الله عليه وسلم ؛ لو شاء[1]، فقد روى عروة بن الزُّبير - رحمه الله! - أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: «ألا يُعجبُك أبو فلان «أبو هريرة»؟ جاء، فجلس إلى جانب حجرتي يُحَدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُسْمِعُني ذلك، وكنت أُسبِّحُ[2]، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي، ولو أدركتُهُ؛ لرددت عليه، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسَرْدِكم» [البخاري (3568)] .

3 - الاعتدال، وعدم الإملال، واختيار الوقت المناسب:

كان صلى الله عليه وسلم يقتصد في تعليمه؛ في مقدار ما يلقيه، وفي نوعه، وفي زمانه؛ حتَّى لا يملَّ الصَّحابة، وحتَّى ينشطوا لحفظه، ويسهل عليهم عَقْلُهُ، وفهمه، فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَتخوَّلُنا[3] بالموعظة في الأيام؛ كرآهَ ةَ السَّآمةِ علينا [البخاري (68)] .

4 - ضرب الأمثال:

للمثل أثرٌ بالغٌ في إيصال المعنى إلى العقل، والقلب؛ ذلك: أنَّه يقدِّم المعنويَّ في صورةٍ

---

[1] عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يُحَدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ؛ لأحصاه ، انظر: البخاريّ رقم (3567).
[2] أسبِّح: أصلي النَّافلة ، وهي السُّبحة ، وقيل: صلاة الضُّحى.
[3] يتخوَّلنا: يتعهدنا.

حسِّـيَّةٍ، فيربطه بالواقع، ويقرِّبه إلى الذِّهن؛ فضـلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صـوره بلاغةً تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصَّةٍ عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] .

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سـار النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم ، فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثلٍ»[1].

وقد أُلِّفت كتبٌ متعدِّدةٌ في الأمثال في الحديث النَّبويِّ؛ من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث)، للقاضي أبي محمَّد الحسن بن عبد الرَّحمن بن خلاَّد الرَّامَهُرْمُزِيِّ، (ت 360هـ)[2].

5 – طرح المسائل:

إنَّ طرح السُّؤال من الوسائل التربويَّة المهمَّة في ربط التَّواصل القويِّ بين السَّائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول، وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النَّشاط الذِّهنيِّ الكامل؛ ولذلك استخدم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم السُّؤال في صورٍ متعدِّدةٍ لتعليم الصَّحابة؛ ممَّا كان له كبير الأثر في حسن فهمهم، وتمام حفظهم، فأحياناً يوجِّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم السُّؤال لمجرد الآثارة، والتَّشويق، ولفت الآنتباه، ويكون السُّؤال عندئذٍ بصيغة التَّنبيه (ألا) غالباً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدَّرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فذلكم الرِّباط» [مسلم (251) ومالك في الموطأ (161/1) والترمذي (51) والنسائي (89/1) وابن ماجه (428)] .

وأحياناً يسألهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عمَّا يعلم: أنَّهم لا علم لهم به، وأنَّهم سيكلُون علمه إلى الله، ورسوله؛ وإنَّما يقصد آثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه[3]، فعن أبي

[1] انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص 65.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 65 ، وكلُّ وسائل التَّعليم النبويَّة اختصرتها من هذا الكتاب القيِّم.

[3] انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص 67.

هريرة رضـي الله عنه: أنَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له، ولا متاعَ. فقال: «إنَّ المفلس من أمَّتي، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دَمَ هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليه، ثمَّ طُرِح في النار» [مسلم (2581) والترمذي (2418)].

وأحياناً يسأل، فيحسن أحد الصَّحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشجيعاً له، وتحفيزاً لغيره، كما فعل مع أُبَيّ بن كعبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أبا الْمُنْذِرِ! أتدري أيُّ اية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «يا أبا الْمُنْذر! أتدري أيُّ ايةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله! ليَهْنِك العِلْمُ[1] أبا المُنْذِرِ!» [مسلم (810) وأبو داود (1460) وأحمد (142/5)].

فهذا الاستحسان، والتَّشجيع يبعث المتعلِّم على الشُّعور بالارتياح، والثِّقة بالنَّفس، ويدعوه إلى طلب، وحفظ المزيد من العلم، وتحصيله[2].

6 - إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام، والدَّاعية إلى الاستفسار، والسُّؤال:

ومن ألطف ذلك، وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله رضـي الله عنهما: أنَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مرَّ بالسُّـوق، داخلاً من بعض العَالية، والنَّاس كُنَفَتَهُ[3]، فمرَّ بجَدْيٍ أسَـكَّ[4] ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثمَّ قال: «أيكم يحبُّ: أنَّ هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نحبُّ: أنَّه لنا بشـيءٍ، وما نصـنع به؟ قال: «أتحبُّون: أنَّه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنه أسَـكُّ، فكيف، وهو ميتٌ؟! فقال: «فو الله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم» [مسلم (2957)].

---

(1) أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

(2) انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص 69.

(3) كنفته: يعني: عن جانبه ، والكنف ـ بالتَّحريك ـ: النَّاحية ، والجانب.

(4) جدي أسكَّ: أي: صغير الأذنين.

7 – استخدام الوسائل التوضيحيَّة:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يستخدم ما يسمَّى اليوم بالوسائل التَّوضيحية؛ لتقرير، وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السَّامعين، وشغل كلِّ حواسِّهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه، ممَّا يساعد على تمام وعيه، وحسن حفظه بكلِّ ملابساته؛ ومن هذه الوسائل:

أ – التعبير بحركة اليد: كتشبيكه صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضاً»، وشبَّك بين أصابعه [البخاري (2446) ومسلم (2585)] .

ب – التعبير بالرَّسم: فكان صلى الله عليه وسلم يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحيَّة، تسترعي نظر الصَّحابة، ثمَّ يأخذ في شرح مفردات ذلك التَّخطيط، وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطّاً بيده، ثمَّ قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثمَّ قال: «وهذه سُبُلٌ – قال يزيد: متفرِّقةٌ – على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الآنعام: 153] [أحمد (1/435) والطيالسي (244) والدارمي (208) وابن حبان (6 و7)] .

ج – التَّعبير برفع، وإظهار الشَّيء موضع الحديث، كما فعل صلى الله عليه وسلم عند الحديث عن حكم لبس الحرير، والذَّهب، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريراً، فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً، فجعله في شماله، ثمَّ قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي» [أبو داود (4057) والنسائي (8/160)]، وزاد في رواية: «حلٌّ لإناثهم» [المصدران السابقان]، فجمع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بين القول، وبين رفع الذَّهب، والحرير، وإظهارهما، حتَّى يجمع لهم السَّماع، والمشاهدة، فيكون ذلك أوضحَ، وأعونَ على الحفظ.

د – التَّعليم العمليُّ بفعل الشَّيء أمام النَّاس، كما فعل عندما صَعِدَ صلى الله عليه وسلم المنبرَ، فصلَّى بحيث يراه النَّاس أجمعون، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر، فاستقبل القبلة، وكبَّر، وقام النَّاس خلفه،

فقرأ وركع، وركع النَّاس خلفه، ثمَّ رفع رأســه، ثمَّ رجع القَهْقَرى[1]، فســجد على الأرض، ثمَّ عاد إلى المنبر، ثمَّ قرأ، ثمَّ ركع، ثمَّ رفع رأسه، ثمَّ رجع القَهْقَرى، فسجد على الأرض، ثمَّ عاد إلى المنبر، ثمَّ قرأ، ثمَّ ركع، ثمَّ رفع رأســه، ثمَّ رجع القَهْقَرَى، حتَّى سـجد بالأرض، فلـــــمَّا فرغ؛ أقبل على الناس، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بي، ولِتَعلَّموا[2] صلاتي» [البخاري (377)] .

8 - استعمال العبارات اللَّطيفة، والرَّقيقة:

إنَّ اسـتعمال لطيف الخطاب، ورقيق العبارات يؤلِّف القلوب، ويسـتميلها إلى الحقِّ، ويدفع المســتمعين إلى الوعي، والحفظ، فقد كان صــلى الله عليه وســلم يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارةٍ لطيفةٍ رقيقةٍ، وبخاصَّةٍ إذا كان بصـدد تعليمهم ما قد يُسْتَحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضـاء الحاجة؛ إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يُعلِّمهم؛ شـفقةً بهم[3]، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط؛ فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه» [أبو داود (8)] .

لقد راعى المعلِّم الأوَّل صلى الله عليه وسلم جملةً من المبادئ التَّربويَّة الكريمة؛ كانت غايةً في السُّـموِّ الخُلُقيِّ، والكمال العقليِّ، وذلك في تعليقه على ما صـدر من بعض الصَّـحابة، جعلت التوجيــه يستقــرُّ في قلوبهم، وبقي ماثـلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معــانٍ تربويــةٍ كريمةٍ[4]، وهذه بعض المبادئ الرَّفيعة الَّتي استعملها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم :

أ - تشجيع المحسن، والثناء عليه:

ليزداد نشـاطاً وإقبالاً على العلم، والعمل؛ مثلما فعل مع أبي موسى الأشعريِّ - رضي الله عنه - حين أثنى على قراءته، وحسن صوته بالقرآن الكريم. فعن أبي موسى - رضي الله عنه - :أن النبي صــلى الله عليه وســلم قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أســتمع لقراءتك البارحة! لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مَزَاميرِ ال داود» [البخاري (5048) ومسلم (793)] .

---

[1] القهقَرى: المشي إلى خلف ، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.
[2] ولتعلَّموا: أي: لتتعلموا ، فحذف إحدى التاءين.
[3] انظر: مناهج واداب الصَّحابة في التعلُّم والتَّعليم ، ص 74.
[4] المصدر السابق نفسه ، ص 85.

ب – الإشفاق على المخطئ، وعدم تعنيفه:

كان صـــلوات الله وســـلامه عليه يقدِّر ظروف النَّاس، ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلطَّف في تصـــحيح أخطائهم، ويترفَّق في تعليمهم الصَّـــواب، ولا شـــكَّ أنَّ ذلك يملأ قلب المنصـوح حبّاً للرِّسـالة، وصـاحبها، وحرصـاً على حفظ الواقعة، والتَّوجيه، وتبليغهما، كما يجعل قلوب الحاضـرين المعجبة بهذا التَّصـرُّف، والتَّوجيه الرَّقيق مهيَّأةً لحفظ الواقعة بملابسـاتها كافَّةً[1]؛ ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنـه قال: «بَيْـنَـا أنا أصلي مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ؛ إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمُك الله! فرماني القومُ بأبصـارهم، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ![2] ما شأنُكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلـــمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني، لكنِّي سكتُّ، فلما صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبأبي هو، وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبلـــه، ولا بعده أحسنَ تعليمـــاً منه، فو الله! ما كَهَرَنـــي[3]، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصَّلاة لا يَصْلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاس؛ إنَّما هو التَّسبيح، والتَّكبير، وقراءة القرآن» [مسلم (537) وأبو داود (930 و931) والنسائي (14/3 – 18) وأحمد (447/5)] .

فانظر – رحمك الله! – إلى هـــذا الرِّفق البالغ فـــي التَّعليم! وانظر أثـــر هذا الرِّفـــق في نفس معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه، وتأثُّره بحسن تعليمه صلى الله عليه وسلم !.

ج – عدم التَّصريح، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يُذمُّ:

لما في ذلك من مراعاة شـــعور المخطئ، والتَّأكيد على عموم التَّوجيه؛ ومن ذلك ما حَدَثَ مع عبد الله بن اللُّتْبيَّة رضي الله عنه حين استعمله النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على صدقات بني سُلَيْم، فقبل الهدايا من المتصدِّقين، فعن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: استعمل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلاً على صدقات بني سُلَيْم، يُدعى ابن اللُّتْبِيَّة، فلـــمَّا جاء حاسبه صلى الله عليه وسلم ، فقال: هذا مالُكم، وهذا هديـــةٌ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فَهَلاَّ جلستَ في بيت أبيك وأمِّك حتَّى تأتيك هديَّتُك؛ إن كنت صادقاً؟» ثمَّ خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ، فإنِّي أسـتعمل الرَّجل منكم على العمل ممَّا ولاَّني الله، فيأتي،

---

[1] المصدر السابق نفسه . ص 86.

[2] وا: حرف للنُّدبة والحسرة ، والثكل: فقدان المرأة ولدها ، وأمِيَّاه . هو بكسر الميم .: أي: يا أمَّاه.

[3] ما كهرني: أي: ما انتهرني.

فيقول: هذا مالُكم، وهذا هديـــــةٌ أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيه هديَّتُه؟ والله! لا يأخذ أحدٌ منكم شـــيئاً بغير حقِّه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رُغَاءٌ، أو بقرةً لها خُوارٌ، أو شـــاةً تَيْعَرُ»[1] ثُمَّ رفع يديه؛ حتَّى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «اللَّهمَّ! هل بلَّغتُ؟ بَصُرَ عيني، وسَمْعَ أذني» [البخاري (6979) ومسلم (1832/27)] .

د – الغضب، والتَّعنيف؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمَّة:

وذلك كأن يحدث خطأٌ شــرعيٌّ من أشـــخاصٍ لهم حيثيَّةٌ خاصَّـــةٌ، أو تَجَاوَزَ الخطأُ حدود الفَرديَّة، والجزئيَّة، وأخذ يمثِّل بداية فتنةٍ، أو انحرافٍ عن المنهج؛ على أنَّ هذا الغضــــب يكون غضباً توجيهيّاً، من غير إسفافٍ، ولا إسرافٍ؛ بل على قدر الحاجة؛ ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسـلم حين أتاه عمر؛ ومعه نسـخةٌ من التَّوراة؛ ليقرآه ا عليه صـلى الله عليه وسـلم ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم بنسـخةٍ من التَّوراة، فقال: يا رسـولَ الله! هذه نسـخةٌ من التَّوراة. فسـكت، فجعل يقرأ ووجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغيَّر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ثكلتك الثَّواكلُ! ما ترى بوجه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ؟ فنظر عمر إلى وجه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فقال: أعوذ بالله من غضـب الله، وغضـب رسـوله، رضـينا بالله ربّاً، وبالإسـلام ديناً، وبمحمَّدٍ نبيّاً. فقال رســول الله صــلى الله عليه وســلم : «والذي نفس محمَّدٍ بيده! لو بدا لكم موسى، فاتبعتموه، وتركتموني؛ لضَلَلْتُم عن سواء السَّبيل، ولو كان حيّاً، وأدرك نبوَّتي؛ لاتَّبعني» [أحمد (338/3 و387) والبزار (124)] .

ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم من تطويل بعض أصحابه الصَّلاة، وهم أئمَّةٌ بعد أن كان صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك؛ لما فيه من تعسيرٍ، ومشقَّةٍ، ولما يؤدِّي إليه من فتنةٍ لبعض الضُّعفاء، والمعذورين، وذوي الأشغال، فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه، قال: قال رجلٌ: يا رسـولَ الله! لا أكاد أُدرِكُ الصَّــلاةَ ممَّا يُطولُ بنا فلانٌ. فما رأيت النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم في موعظةٍ أشـدَّ غضـباً من يومئذٍ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّكم مُنَفِّرون، فمن صـلَّى بالنَّاس فلْيُخفِّف؛ فإنَّ فيهمُ المريض، والضَّعيفَ، وذا الحاجة» [البخاري (90) ومسلم (466)] .

---

[1] الرُّغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها ، والخوار: صوت البقر ، وتيعر: يعني: تصيح.

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة، وتجادلهم في القَدرِ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه؛ وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأُ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعضٍ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم» [ابن ماجه (85)] .

ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم حين يخالف الصَّحابة أمره، ويُصرُّون على المغالاة في الدِّين، والتَّشديد على أنفسهم، ظناً منهم: أنَّ ذلك أفضلُ ممَّا أُمروا به، وأقرب إلى الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم؛ أمرهم من الأعمال بما يُطِيقون، قالوا: إنَّا لسنا كهيئتك يا رسولَ الله! إنَّ الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك، وما تأخَّر، فيغضبُ، حتَّى يُعْرفَ في وجهه الغضبُ، ثمَّ يقول: «إنَّ أتقاكُم وأعلمُكم بالله أنا» [البخاري (20)] .

ولم يكن غضب النَّبيّ صلى الله عليه وسلم في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيّاً، وتعليميّاً؛ تحريضاً للصَّحابة على التَّيقُّظ، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان؛ لأنَّ مقامه يقتضي تكلُّف الآنزعاج؛ لأنَّه في صورة المُنْذِر، وكذا المعلِّم إذا أنكر على مَنْ يتعلَّم منه سوءَ فهمٍ ونحوه؛ لأنَّه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازماً في حقّ كلِّ أحدٍ؛ بل يختلف باختلاف أحوال المتعلِّمين»[1].

هـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة:

كان صلى الله عليه وسلم تحدث أمامه أحداثٌ معيَّنةٌ، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنًى معينٍ يريد تعليمه للصَّحابة، ومشاكلته لتوجيهٍ مناسبٍ يريد بثَّه لأصحابه، وعندئذٍ يكون هذا المعنى، وذلك التَّوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النَّبيّ صلى الله عليه وسلم سَبْيٌ[2]، فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلُبُ ثَدْيَها[3] تسقي[4]، إذا وجدت صبيّاً في السَّبي؛ أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال النَّبيُّ

---

(1) فتح الباري (187/1).

(2) السَّبْيُ: الأسرى.

(3) تَحْلُبُ ثديَها ، وفي لفظٍ اخر: تَحَلَّبَ ثديُها ، أو ثدياها: أي: تهيأ لأن يُحْلَبَ.

(4) تسقي: تبتغي ولداً ترضعه؛ لأنَّ ثديها قد امتلأ ، وتضرَّرت باجتماع اللبن فيه ، وفي روايةٍ (تسعى): وهو من السَّعي ، وهو المشي بسرعة ، أي: تسعى للبحث عن ولدها الَّذي فُقِدَ منها. .[734]أتُرَوْنَ . بضم المثناة .: أي: أتظنُّون.

صلى الله عليه وسلم : «أَتُــرَوْن[1] هذه طارحةً ولدها في النَّار؟» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تَطرَحَهُ[2]، فقال: «للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها!» [البخاري (5999) ومسلم (2754)] .

«فانتهز صلى الله عليه وسلم المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه، والمشهود فيها حنان الأمّ الفاقدة رضيعها؛ إذ وجدته، وضرب بها المشاكلةَ والمشابهةَ برحمة الله تعالى؛ ليُعرِّف النَّاسَ رحمة ربِّ النَّاس بعباده»[3].

ثانياً: من أخلاق الصَّحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنَّبِيّ صلى الله عليه وسلم:

حَرَصَ الصَّحابة رضي الله عنهم على الالتزام بآداب ومبادئ مهمَّة، كان لها عظيمُ الأثر في حسن الحفظ وتمام الضَّبط، وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للنَّاس؛ ومن هذه الآداب، والأخلاق:

1 – الإنصات التَّامُّ، وحسن الاستماع:

فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجلَّ في نفوس الصَّحابة، وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدَّث، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته؛ وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم، ويشهدون عقولهم، وقلوبهم، ويحفزون ذاكرتهم، فعن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في الحديث عن سيرته صلى الله عليه وسلم في جلسائه، قال: «... وإذا تكلَّم؛ أطْرَقَ جلساؤه، كأنَّما على رؤوسهم الطَّير، فإذا سكت؛ تكلَّموا....» [الشمائل للترمذي (352)] .

قال الشَّيخ عبد الفتاح أبو غدَّة – رحمه الله –: «أصله: أنَّ الغراب يقع على رأس البعير، فيلقط منه القُراد، فلا يتحرَّك البعير حينئذٍ؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القُراد في رأس البعير فيؤلمه، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»[4].

وأيَّاً ما كان أصل المثل، فهو يدلُّ على السُّكون التَّامِّ، والآنصات الكامل، هيبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيماً له، وإجلالاً لحديثه[5].

---

(1)

(2) أي: لا تطرحه ما دامت تقدر على حفظه معها ووقايته وعدم طرحه في النَّار.

(3) الرَّسول المعلِّم صلى الله عليه وسلم، لعبد الفتاح أبو غدة ، ص 160 ، وهذا المبحث اختصرته من مناهج واداب الصَّحابة في التعلم والتعليم ، للدُّكتور عبد الرحمن البر.

(4) انظر : الرَّسول المعلم صلى الله عليه وسلموأساليبه في التَّعليم ، ص 30.

(5) انظر : مناهج واداب الصَّحابة ، ص 77.

2 – ترك التَّنازع وعدم مقاطعة المتحدِّث حتَّى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب، المفضـــي إلى ارتياح جميع الجالســـين، وإقبال بعضـــهم على بعضٍ، والمعين على ســهولة الفهم، والتَّعلم؛ ففي حديث عليّ بن أبي طالب رضـي الله عنه السَّـابق في ســيرته صــلى الله عليه وســلم في جلســائه، قال: «لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلَّم عنده أنصتوا له حتَّى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوَّلهم...» [سبق تخريجه]، أي: أنَّ من بدأ منهم الحديث والكلام، ســكتوا حتَّى يفرغ أوَّلاً من حديثه، ولم يقاطعوه، أو ينازعوه، وبذلك يبقى المجلس على وقاره، وهيبته، ولا تختلط فيه الأصوات، ولا يحصل أدنى تشويش[1].

3 – مراجعته صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم حتَّى يتبيَّن لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشدَّة تعظيمهم له، لم يكونوا يتردَّدون في مراجعته صلى الله عليه وسلم ؛ لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمُه، حتَّى يسهل حفظه بعد ذلك، ولاشــــك أنَّ هذه المراجعة تعين على تمام الفهم، وحضــــور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : «إنِّي لأرجو ألا يدخلَ النَّار أحدٌ إن شاء الله – ممَّن شهد بدراً، والحديبية»، قالت:قلت: يا رسول الله! أليس قد قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: 71]، قال: «ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 72]» [أحمد (285/6) وابن ماجه (281)] .

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أُنَيْسَ رضــــي الله عنهم؛ الَّذي رحل جابرٌ إليه فيه، قال ابن أنيس: سمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول: «يحشـر الله العباد – أو قال: النَّاس – عُراةً غُرْلاً[2] بُهْماً» قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيءٌ، ثمَّ يناديهم بصوتٍ يسـمعه مَنْ بَعُد، كما يسـمعه مَنْ قَرُب: أنا الملك، أنا الدَّيَّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّة أن يدخل الجنَّة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النَّار، وعنده مظلمةٌ، حتَّى أُقِصَّــه[3] منه، حتى اللَّطمة»، قال: قلنا: كيف ذا، وإنَّما نأتي الله غُرْلاً بُهماً؟ قال: «بالحســـنات والسَّيِّئات» قال: وتلا رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ص 87.

[2] غُرْلاً: جمع أغرَل ، وهو الأقلف ، والغُرْلَة: القُلفة، والقُلفة: هي القطعة التي تُقطع من الذَّكر عند الختان.

[3] أقِصَّه: أمكِّنَهُ من أخذ القصاص ممَّن ظلمه.

ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: 17] [البخاري في الأدب المفرد (970) وأحمد (495/3) والحاكم (437/2 – 438) ومجمع الزوائد (133/1)] .

وهكذا استفهم الصَّحابة عمَّا خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثرٌ كبيرٌ في الفهم، والوعي، والحفظ[1].

4 – مذاكرة الحديث:

كان الصَّحابة – رضوان الله عليهم – إذا سمعوا شيئاً من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وحملوا عنه علماً؛ جلسوا، فتذاكروه فيما بينهم، وتراجعوه على ألسنتهم؛ تأكيداً لحفظه، وتقويةً لاستيعابه، وضبطه، والعمل به، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنَّا نكون عند النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا؛ تذاكرناه فيما بيننا، حتى نحفظه»[2]. وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصَّحابة حتَّى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ؛ فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة – رحمه الله –! قال: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا؛ تذاكروا العلم، وقرؤوا سُوَرَهُ»[3].

5 – السُّؤال بقصد العلم، والعمل[4]:

كانت أسئلة الصَّحابة بقصد العلم، والعمل، لا للعبث، واللعب، فكانت أسئلتهم مشفوعةً بهذا القصد؛ لِمَا علموا من كرآه ة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم للمسائل العبثيَّة الَّتي لا يُحتاج إليها، ولِمَا سمعوا من تحذيره صلى الله عليه وسلم من كثرة السُّؤال، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: «كَرِهِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسائلَ، وعابَهَا»[5].

قال النَّوويُّ: «المراد: كرآه ة المسائل الَّتي لا يُحْتاج إليها، لاسيَّما ما كان فيه هتك ستر مسلمٍ، أو إشاعةُ فاحشةٍ، أو شناعةٍ على مسلمٍ، أو مسلمةٍ، قال العلماء: أمَّا إذا كانت المسائل ممَّا يُحتاج إليه في أمور الدِّين، وقد وقع، فلا كرآه ة فيها»[6].

---

[1] انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص 80.
[2] أخرجه الخطيب في الجامع (363/1 . 364) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.
[3] أخرجه الخطيب في الجامع (86/2) رقم (1229) ، والسَّمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، ص 48.
[4] انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص 96.
[5] أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسنادٍ صحيحٍ في كتاب العلم ، ص 20 ، رقم (77).
[6] شرح النَّوويِّ على مسلم (741/3) طبعة الشَّعب.

6 – ترك التنطُّع، وعدم السُّؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقاً لتحذير النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من ذلك، وتشديده على المتنطِّعين، ونهيه عن مجالستهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيات مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فإذا رأيت الَّذين يَتَّبِعون ما تشابه منه؛ فأولئك الَّذين سَمَّى الله؛ فاحذروهم!» [البخاري (4547) ومسلم (2665)] .

7 – ترك السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع:

فقد التزموا – رضوان الله عليهم – بهذا الأدب، فلم يتكلَّفوا السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع؛ حتَّى لا يؤدِّي السُّؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشَّرع، أو تحريم ما لم يحرِّمه؛ فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التَّضييق على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقرآن تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 101 – 102] .

وحذَّر الرَّسول صلى الله عليه وسلم من مثل ذلك؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ، فحُرِّمَ من أجل مسألته» [البخاري (7289) ومسلم (2358)] .

8 – اغتنام خلوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومراعاة وقت سؤاله:

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب للسُّؤال؛ ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته صلى الله عليه وسلم ؛ حتَّى لا يكون في السؤال إثقالٌ، أو إرهاقٌ أو نحو ذلك؛ فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى الفجر؛ انحرفنا إليه، فمنَّا من يسأله عن القرآن، ومنَّا من يسأله عن الفرائض، ومنَّا من يسأله عن الرُّؤيا» [مجمع الزوائد: (159/1)] .

9 – مراعاة أحواله صلى الله عليه وسلم وعدم الإلحاح عليه بالسُّؤال:

وبخاصَّــةٍ، بعد أن نُهُوا عن السُّــؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسـؤاله صـلى الله عليه وسلم ، ويتحيَّنون، وينتظرون مجأي العقلاء منهم؛ ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يسمعون؛ فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: نُهِينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شــيءٍ، فكان يُعجِبنا أن يجيء الرَّجلُ من أهل البادية العاقلُ، فيسـأله، ونحن نسـمع، فجاء رجلٌ من أهل البادية، فقال: يا محمد! أتانا رسولك، فزعم لنا أنَّك تزعم: أنَّ الله أرسلك. قال: «صدق».... الحديث [مسلم (92) وأبو داود (486) والترمذي (619) والنسائي (4/121 – 122) وأحمد (3/143 و193)]

.

وهكذا اســـتمرَّ البناء التَّربويُّ في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليَّة الواضـــحة، منســـجماً مع غرس فريضــة التعلُّم، والتَّعليم بين أفراد المجتمع المسـلم، فكانت تلك التَّوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم، والأمَّة المسلمة، والدَّولة المسلمة الَّتي أسَّسها رسولُ الله صلى الله عليه وســـلم ، وهذا جزءٌ من كلٍّ، وغَيْضٌ من فَيْضٍ، وتذكيرٌ، وتنبيهٌ لأهمِّيَّة اســـتمرار البناء التَّربويِّ، والعلميّ في الأمَّة، حتَّى بعد قيام الدَّولة.

* * *

المبحث السَّادس

أحداثٌ وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصاديَّة:

أدَّت هجرة المسلمين إلى المدينة، إلى زيادة الأعباء الاقتصاديَّة الملقاة على عاتق الدَّولة النَّاشئة، وشرع القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم يَحُلُّ هذه الأزمة بطرقٍ عديدةٍ، وأساليب متنوعةٍ، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ؛ لاستيعاب أكبر عددٍ ممكنٍ من فقراء المهاجرين، واهتمَّ صلى الله عليه وسلم بدراسة الأوضاع الاقتصاديَّة في المدينة؛ فرأى: أنَّ القوَّة الاقتصاديَّة بيد اليهود، وأنَّهم يملكون السُّوق التِّجاريَّة في المدينة، وأموالها، ويتحكَّمون في الأسعار والسِّلع، ويحتكرونها، ويستغلُّون حاجة النَّاس، فكان لابدَّ من بناء سوقٍ للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثَّروة، والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام، وأخلاقه الرَّفيعة في عالم التِّجارة، فحدَّد صلى الله عليه وسلم مكاناً للسُّوق في غرب المسجد النَّبوي، وخَطَّه برجله، وقال: «هذا سوقُكم، فلا ينتقصنَّ، ولا يضربنَّ عليه خراجٌ» [ابن ماجه (2233)] .

وقد قامت السُّوق في عهده صلى الله عليه وسلم رَحْبةً واسعةً، وقد حظي السُّوق باهتمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ورعايته، فتعهَّده بالإشراف، والمراقبة، ووضع له ضوابطَ، وسنَّ له آداباً، وطهَّره من كثيرٍ من بُيُوع الجاهليَّة؛ المشتملة على الغَبْنِ، والغَرَرِ[1]، والغشِّ، والخداع، كما عُنِي صلى الله عليه وسلم بحرِّيته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشِّراء، بين الجميع على السَّواء[2].

وقد أرسى صلى الله عليه وسلم آداباً كثيرة، وحرماتٍ عديدةً لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك، وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوةً لأسواق الأمَّة على مَرِّ الدُّهور، وكَرِّ العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملةً من الآداب الَّتي كان يأمر بها،

---

[1] أي: بيع ما يجهله المتبايعان، أو ما لا يُوثَق بتسلُّمه، كبيع السَّمك في الماء.

[2] انظر: أحكام السُّوق في الإسلام، لأحمد الدرويش، ص 35، 36.

أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السُّـوق، وإشـرافه عليه، ومتابعته سـير المعاملات فيه، فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرى منكراً إلا غيَّره، وأزاله، ولا معروفاً إلا أقرَّه، ورغب في المواظبة عليه، والالتزام به، مستـمدّاً كلَّ ذلك من توجيهات، وتعليمات ربِّه سـبحانه وتعالى، قال تعالى:﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: 3 – 4].

ومن هذه الآداب:

1 – يُسَنُّ في حقِّ الدَّاخل إلى السُّوق أن يذكر الله – تعالى – ابتداءً، ويحمده، ويثني عليه؛ وذلك لما ورد عنه صـلى الله عليه وسـلم : أنَّه قال: «مَنْ دخل السُّـوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي، ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كلِّ شـيءٍ قديرٌ؛ كتب الله له ألف حسـنةٍ، ومحا عنه ألف سيئةٍ، ورفع له ألف درجةٍ، وبنى له بيتاً في الجنة» [الترمذي (3428) وابن ماجه (2235) والحاكم (538/1)] .

«وإنَّما خصَّ السُّـوق بالذِّكر؛ لأنَّه مكان الغفلة عن ذكر الله، والاشـتغال بالتِّجارة، فهو في موضع سلطنة الشَّيطان، ومجمع جنوده، فالذِّكر هنا يحارب الشَّيطان، ويهزم جنوده ؛ فمن قال ذلك فهو خليقٌ بما ذُكر من الثَّواب»[1].

2 – يُكره لمن دخل السُّوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج؛ فقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم : أنَّه: «ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سَخَّابٍ[2] في الأسواق، ولا يدفع بالسَّيئةِ السَّيئةَ، ولكن يعفو، ويغفرُ» [البخاري (2125)] . فالصَّخَب مذمومٌ بذاته، فكيف إذا كان في الأسواق؛ الَّتي هي مجمع النَّاس من كلِّ جنسٍ؟![3].

3 – ينبغي المحافظة على نظافة الأسـواق، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار، والأوسـاخ؛ لكي لا يُؤْذَى المسلمون في حركة سيرهم، ولا بالرَّوائح الكريهة، وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على النَّظافة، ونهى عن عدمها؛ وخاصَّةً في طرقات النَّاس، وأسواقهم؛ وذلك لما فيها من الضَّرر، قال صـلى الله عليه وسـلم : «اتَّقوا اللَّعَّانَيْنِ»[4] قالوا: وما اللَّعَّانانِ يا رسـولَ الله؟! قال: «الَّذي

---

[1] تحفة الأحوذي ، بشرح جامع التِّرمذيِّ (386/9).

[2] السَّخب ، ويقال: الصَّخَب: رفع الصَّوت بالخصام.

[3] انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص 41.

[4] اللَّعَّانيْن: المراد بها الأمرين الجالبين لِلَّعن ، الحاملين النَّاس عليه ، وقد يكون اللاَّعن بمعنى الملعون ، والتَّقدير: اتقوا الأمرين الملعون فاعلُهما.

يَتَخَلَّى في طريق النَّاس، أو في ظِلِّهم» [مسلم (269) وأبو داود (25)] .

4 – الاحتراز في حمل السِّلاح لمن دخل السُّوق، ومعه سلاحٌ؛ فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم : أنَّه قال: «إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نَبْلٌ[1] فَلْيُمْسِكْ على نِصَالها[2]ـ أو قال: فليقبضْ بكفِّه – أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [البخاري (7075) ومسلم (2615)] ويقاس عليه الأسلحة، مع ما فيها من خطرٍ محقَّقٍ عند أدنى ملامسةٍ لها[3].

5 – الأمر بالوفاء بالعقود، والعهود، وسائر الالتزامات، والتَّحذير من نقضهما، أو الغدر فيهما، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُّمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: 91] .

6 – السُّهولة، واليسر، والمسامحة في البيع، والشِّراء، ونحوهما من صنوف التِّجارة، قال صلى الله عليه وسلم : «رَحِمَ اللهُ عبداً سَمْحاً إذا با ع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى» [البخاري (2076) والترمذي (1320) وابن ماجه (2203)] .

7 – الصِّدقُ، والبيانُ، وعدم الكتمانِ من أهمِّ الآداب الَّتي يجب أن تسري بين النَّاس في معاملاتهم؛ فقد أثنى صلى الله عليه وسلم على التَّاجر الصَّادق في معاملته، الأمين في أخذه، وعطائه، وبيَّن: أنَّه يُحْشر يوم القيامة مع النَّبيِّين، والصِّديقين، والشُّهداء، وحَسُنَ أولئك رفيقاً، قال صلى الله عليه وسلم : «التَّاجر الصَّدوق الأمين، مع النَّبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداء» [الترمذي (1209)] وفي لفظٍ: «يوم القيامة» [ابن ماجه (2139)] .

8 – وجوب الابتعاد عن الأَيْمان الكاذبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ[4] للسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ للرِّبْحِ» [البخاري (2087) ومسلم (1606)]، وقال صلى الله عليه وسلم : «إيَّاكم وكَثرةَ الْحلِفِ في البيع! فإنَّه يُنْفِقُ، ثمَّ يَمْحَقُ» [مسلم (1607) والنسائي (246/7) وابن ماجه (2209)] . «فالحالف يروِّج سلعته، وينفقها، لكن هذا الرَّواج، وذلك الآنفاق موضعٌ لنقصان البركة، ومظنَّةٌ له في المال، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها؛ إمَّا سرقاً، أو حرقاً، أو غرقاً، أو غصباً، أو

---

[1] النَّبل: السِّهام العربيَّة ، ولا واحد لها من لفظها.

[2] النَّصْل: حديدة السَّهم ، والرُّمح ، والسَّيف ما لم يكن له مقبض.

[3] انظر: أحكام السُّوق ، ص 44.

[4] مَنْفَقَة ، ومَمْحَقة: فيه النَّهي عن الحَلِف في البيع؛ فإنَّ الحلف من غير حاجةٍ مكروهٌ ، وينضمُّ إليه ترويج السِّلعة ، وربما اغترَّ المشتري باليمين.

نهباً، أو عوارض يُنفَق فيها من أمراضٍ وغيرها»[1].

هذه بعض الآداب والتّوجيهات النّبويّة، تتعلّق بآداب التّعامل في السُّــوق الإســلاميّ؛ ممَّا كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن يسيطروا على الاقتصاد في المدينة ويتحكَّموا فيه، وهكذا قهروا اليهود في أدقِّ اختصاصاتهم[2].

ولقد تطوَّرت تلك التعاليم، والآداب مع توسُّع الدَّولة، ونزول التَّشريعات، وأصبح للتِّجارة علمٌ، وفقهٌ، ومبادئ، ولذلك قال عمر رضـــي الله عنه: «لا يبيعُ في ســـوقنا إلا مَنْ تفقَّه في الدِّين»[3].

إنَّ للأسواق في الإسلام مكانةً عاليةً، ومنزلةً ساميةً؛ وذلك نظراً لأهمِّيتها الماليَّة والاقتصاديَّة في حياة النَّاس؛ حيث إنَّها موضــع التَّعامل، والمبادلات فيما بينهم، وعن طريقه يحصــل كلُّ فردٍ على أموره المعيشــية، وحاجته الضَّــروريَّة، ومســتلزماته الخاصَّــة والعامَّة، ولذلك حظي السُّــوق الإسلاميُّ بالتَّوجيهات النَّبويَّة[4].

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن افةٍ اقتصـــاديةٍ، واجتماعيَّةٍ خطيرةٍ، أثَّرت على دين النَّاس، ودنياهم، ألا وهي نقص الميزان، والمكيال، فقد كان هذا العمل يخالف، ويناقض النَّهج الَّذي أنزله الله من عنده؛ ليتعامل الناس بمقتضـــاه، ذلك النَّهج هو العدل في كلِّ شـــيءٍ. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّــاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشـورى: 17] والميزان: هو العدل[5]، والموازين، والمكاييل الاتٌ لإقامة العدل؛ ولذا أمر الله بإيفائها، ونهى عن نقصها.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـــنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُـــدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّـــاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 152]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء: 35] .

---

[1] شرح السُّيوطي على سنن النَّسائي (246/7).
[2] في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ـ الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 70.
[3] انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص 53.
[4] انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص 585 ، 586.
[5] انظر: زاد المسير ، لابن الجوزي (77/7).

وتوعَّد اللهُ المطفِّفين بالويل، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين: 1 – 5] .

فتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من قصَّة شعيبٍ: أنَّ نقص الميزان، والمكيال تعطيلٌ للمنهج الإلهيِّ، ومخالفةٌ للأوامر الرَّبَّانيَّة، وتعرُّضٌ لسخط الجبَّار، وعذابه في الدُّنيا، والآخرة.

إنَّ هذا العمل له ضَـرَرُهُ على دنيا النَّاس؛ لأنَّه يجلب الشِّـدَّة بدل الرَّخاء، وغلاء الأسـعار بدل رخصها، ويؤدِّي إلى إضرارٍ بمعايش النَّاس؛ ولذلك حاربته الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة[1].

إنَّ نقص المكيال، والميزان، كان من الأسباب التي أدَّت إلى هلاك قوم شعيبٍ، قال تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: 95] .

كانت قصَّة شعيبٍ مع قومه من ضمن المنهاج النَّبويِّ في تربية النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأصـحابه؛ ولذلك فهموا: أنَّ الانحراف عن المنهج الرَّبانيِّ معناه الدَّمار، والهلاك، وأنَّ شموليَّة هذا الدِّين تدخل في شؤون حياتهم كافَّةً.

إنَّ المنهج الرَّبانيَّ، عالج المشكلة الاقتصاديَّة عن طريق القصص القرآنيِّ، لكي يتَّعظ النَّاس، ويعتبروا بِمَنْ مضـى من الأقوام، ولم يترك الجانب التَّشـريعيَّ التَّعبديَّ، الَّذي له أثرٌ في البناء التَّنظيميِّ التَّربويِّ، فقد كان المولى – عزَّ وجلَّ – يرعى هذه الأمَّة، وينقل خطاها؛ لكي تكون مؤهَّلةً لحمل الأمانة، وتبليغ الرِّسالة، ولا فرق في وسط هذه الدَّولة بين الأمور الصَّغيرة، والأمور الكبيرة؛ لأنَّها كلَّها تعمل لرفع بنائها، ووقوفها شامخةً أمام الأعاصير الَّتي تحتمل مواجهتها؛ ومن هذه الشعائر التعبُّديَّة التي فُرِضت في السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزَّكاة، وزكاة الفطر، والصِّيام، ونلاحظ سنَّة التَّدرُّج في بناء المجتمع المسلم، ومراعاته لواقع النَّاس، والانتقال بهم نحو الأفضل؛ دون اعتسافٍ، أو تعجيلٍ، بل كلُّ شيءٍ في وقته[2].

---

[1] انظر: أسباب هلاك الأمم السَّالفة، لسعيد محمَّد، ص 446.

[2] انظر: دراساتٌ في عصر النُّبوَّة، للشُّجاع، (ص 166. 168).

ثانياً: بعض التَّشريعات:

1 – تشريع فريضة الصّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصِّيامَ، وجعله ركناً من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السَّابقة، وفي ذلك تأكيدٌ على أهمِّيَّة هذه العبادة الجليلة، ومكانتها. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183] .

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام، واختصَّه من بين سائر الشُّهور؛ لإنزال القرآن العظيم، فقال – عزَّ وجل –: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقرآن هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185] .

وقد وضَّحت الآية الكريمة الأولى الثَّمرة العظمى الَّتي يحظى بها الصَّائمون المخلصون؛ ألاَ وهي بلوغ درجة التَّقوى: فالصِّيام بالنِّسبة للأمَّة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، مدرسةٌ فريدةٌ، ودورةٌ تدريبيَّةٌ على طهارة النُّفوس؛ لكي تنخلع من افاتها، وتتحلَّى بالفضائل، وترتقي في مدارج التَّقوى، والصَّلاح [1].

ولأهمِّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم، فقد رغَّب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في أيَّامٍ للصِّيام، وحثَّ على صيامها، ورغَّب في الأجر، والمثوبة من الله تعالى؛ وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحةً أبوابُها طِيلَةَ السَّنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوةٍ في قلبه، وحاجةٍ لترويض نفسه، ورغبةٍ في المزيد من الأجر، والفضل عند الله سبحانه، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنَّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من صَامَ يوماً في سبيل الله؛ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عن النَّارِ سبعين خريفاً» [البخاري (2840) ومسلم (1153)] .

2 – تشريع زكاة الفطر:

[1] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (106/2) ، ومنهج الإسلام في تزكية النَّفس (251/1 ، 252).

وفي رمضان من العام نفسه، شرع الله - سبحانه وتعالى - زكاة الفطر، وهي على كلِّ حُرٍّ أو عبدٍ، ذكرٍ أو أنثى، صغيرٍ أو كبيرٍ من المسلمين، والحكمة من فرضية هذه الزَّكاة، وإلزام المسلمين بها ظاهرةٌ وجليَّةٌ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طُهْرَةً للصَّائم من اللَّغو والرَّفث، وطُعْمَةً للمساكين، من أدَّاها قبل الصَّلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقةٌ من الصَّدقات» [أبو داود (1609) وابن ماجه (1827) والحاكم (409/1)]، ففي هذا الحديث النَّصُّ على أنَّ الحكمة مركَّبةٌ من أمرين[1]:

أ - يتعلَّق بالصَّوم في شهر رمضان، فإنَّ النُّفوس مجبولةٌ على الخطأ، والتَّقصير، والوقوع في لغو القول؛ الَّذي لا فائدة فيه، أو فيه ضررٌ من الكلام الباطل، ونحو ذلك، ممَّا لا يسلم الإنسان منه غالباً، فجاءت هذه الزَّكاة في ختام الشَّهر تطهيراً للصَّائم ممَّا خالط صومَه من ذلك.

ب - إغناء المحتاج في يوم العيد؛ الذي يعقب الفطر من رمضان، فهذا يومٌ يسعد فيه المجتمع المسلم كلُّه، فينبغي أن يعمَّ هذا السُّرور على الجميع، فشُرِعت هذه الزَّكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال، واستجداء النَّاس، لذلك كانت خاصَّةً بالفقراء، والمساكين، لا تُعْطَى لغيرهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم «طعمةً للمساكين»؛ ولذلك نرى: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثيرٌ من النَّاس عنه؛ بل جعل الواجب شيئاً قليلاً، ممَّا يسهل على النَّاس، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد، حتَّى يتمكَّن من أدائها كثيرٌ من المسلمين، فيحصل الغَنَاءُ بذلك لهؤلاء المحتاجين، فما أعظم هذا الدِّين![2] ولهذه الزَّكاة أحكامٌ وتفصيلاتٌ تُطْلَب من كتب الفقه[3].

3 - صلاة العيد:

وفي هذه السَّنَةِ صلَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم صلاة العيد، فكانت أوَّل صلاةٍ صلاَّها، وخرج بالنَّاس إلى المصَلَّى؛ يهلِّلون الله، ويكبِّرونه، ويعظِّمونه؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النِّعم المتتالية.

إنَّ العيد موسمٌ من مواسم الخير، والتَّعاطف، والتَّحابب، وكان من دأب رسول الله صلى

[1] انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (268/1، 269).
[2] انظر: المال في القران الكريم، لسليمان الحصين، ص 334.
[3] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (109/2).

الله عليه وسلم : أنَّه إذا صلَّى العيد، ذكَّر، وأنذر، ورغَّب، ورهَّب، فيتسابق في مِضْمَار البذل، والعطاء الرِّجالُ، والنِّساء، والصِّغار، والكبار[1].

4 – تشريع الزَّكاة:

وفي السَّنة الثانية للهجرة شرع الله الزَّكاة؛ الَّتي هي ركنٌ من أركان الإسلام، وكان ذلك بعد شهر رمضان؛ لأنَّ تشريع الزَّكاة العامَّة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً؛ يدلُّ على هذا ما رواه الأئمَّة: أحمد، وابن خزيمة، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال: «أمَرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزَّكاةُ، ثمَّ نزلت الزَّكاةُ، فلم يأمرنا، ولم ينهنا ونحن نفعله»[2]، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده صحيحٌ»[3]، «وجمهور العلماء سلفاً، وخلفاً على أنَّ مشروعية الزَّكاة إنما كانت بالمدينة في السَّنة الثَّانية»[4].

فالزَّكاة في العهد المكيِّ كانت مطلقةً من القيود، والحدود، وكانت موكولةً إلى إيمان الأفراد، وأرْيَحِيَّتِهِم، وشعورهم بواجب الأخوَّة نحو إخوانهم من المؤمنين، فقد يكفي في ذلك القليل من المال، وقد تقتضي الحاجة بذلَ الكثيرِ، أو الأكثر[5].

فكانت الآيات المكِّيَّة تهتمُّ بجانب التَّربية، والتَّوجيه، وتحثُّ على رعاية الفقراء والمساكين بأساليب متنوعةٍ، منها: أنَّ إطعام المساكين من لوازم الإيمان، ففي سورة المدَّثر – وهي من أوائل ما نزل من القرآن – يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الآخرة، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين، في جنَّاتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة، وقد أُطبقت عليهم النِّيران، فيسألونهم عمَّا أحلَّ بهم هذا العذاب، فكان من أسبابه، وموجباته: إهمال حقِّ المسكين، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه، وهم عنه معرضون[6]، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝

---

(1) المصدر السابق نفسه (110/2).

(2) صحيح سنن النَّسَائي ، للألباني ، كتاب الزَّكاة ، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزَّكاة ، ورقمه (2506) وصححه.

(3) فتح الباري (207/3).

(4) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (111/2).

(5) انظر: فقه الزَّكاة ، للقرضاوي (77/1).

(6) المصدر السابق نفسه ، (70/1).

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المدثر: 38 – 46] .

وقصَّ الله على عباده قصَّة أصحاب الجنَّة، الَّذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بِلَيْلٍ؛ ليحرموا منها المساكين – الَّذين اعتادوا أن يصيبوا شيئاً من خيرها يوم الحصاد – فحلَّت بهم عقوبة الله العاجلة: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۞ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۞ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ۞ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۞ أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ۞ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَآلُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ۞ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۞ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۞ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخرةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 19 – 33] .

ولم تقف عناية القرآن المكِّيّ عند الدَّعوة إلى الرَّحمة بالمسكين، والتَّرغيب، في إطعامه، ورعايته، والتَّرهيب من إهماله والقسوة عليه؛ بل تجاوز ذلك، فجعل في عنق كلِّ مؤمنٍ حقاً للمسكين، أن يحضَّ غيره على إطعامه، ورعايته، وجعل تَرْكَ هذا الحضّ قرينَ الكفر بالله العظيم، وموجباً لسُخْطه – سبحانه – وعذابه في الآخرة.

قال تعالى في شأن أصحاب (الشِّمال): ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: 30 – 32] .

وَلِمَ كلُّ هذا العذاب، والهوان، والخزي على رؤوس الأشهاد؟: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: 33 – 34] .

وهذه الآيات المزلزِلة للقلوب ، المنذرة بالعذاب ، هي الَّتي جعلت مثلَ أبي الدَّرداء – رضي الله عنه – يقول لامرأته: «يا أمَّ الدرداء! إنَّ لله سلسلةً ولم تزل تغلي بها مَرَاجِلُ النَّار منذ خَلَقَ الله جهنَّمَ، إلى يوم تُلقى في أعناق الناس، وقد نجَّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء»[1].

---

[1] الأموال ، ص 35 نقلاً عن فقه الزَّكاة (70/1).

أمَّا القرآن المدني، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعةٌ، لها أرضٌ، وكيانٌ وسلطان؛ فلهذا اتَّخذت التَّكاليف الإسلاميَّة صورةً جديدةً ملائمةً لهذا الطَّور: صورة التحديد، والتَّخصيص، بعد الإطلاق والتَّعميم، صورة قوانين إلزاميَّة، بعد أن كانت وصايا توجيهيةً فحسب، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوَّة والسُّلطان، مع اعتمادها على الضَّمير، والإيمان، وظهر هذا الاتِّجاه المدنيُّ في الزَّكاة؛ فحدَّد الشَّارع الأموال التي تجب فيها، وشروط وجوبها، والمقادير الواجبة، والجهات التي تُصرف لها، وفيها، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[1]، وأكَّد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في المدينة فريضة الزَّكاة، وبيَّن مكانتها في دين الله، وأنَّها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين، ورغَّب في أدائها، ورهَّب من منعها بأحاديث شتَّى، وأساليب متنوعةٍ.

وأعلن الرَّسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه: أنَّ أركان الإسلام خمسةٌ، بدأها بالشَّهادتين، وثنَّاها بالصَّلاة، وثلَّثها بالزَّكاة، فالزَّكاة في السُّنَّة - كما هي في القرآن - ثالثةُ دعائم الإسلام: الَّتي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها[2]، وعندما طبَّق المسلمون هذا الرُّكن كما أمر الله تعالى، وكما شرع رسولُه صلى الله عليه وسلم ، تحقَّقت أهدافٌ عظيمة في المجتمع، وبرزت آثارها في حياة الفرد، والمجتمع.

فمن آثار الزَّكاة على الفرد:

أ - الوقاية من الشُّحِّ:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] .

ب - تنمية المال وزيادته:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: 39]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ

---

(1) انظر: فقه الزَّكاة (78/1).

(2) المصدر السابق نفسه (89/1).

وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَـدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: 7]، وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّـدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276] .

وقال صلى الله عليه وسلم : «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ» [مسلم (2588) والترمذي (2029) ومالك في الموطأ (1000/2)].

وقال صـلى الله عليه وسـلم : «ما من يومٍ يُصـبحُ العبادُ فيه إلا مَلَكانِ يَنزلان، فيقول أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر : اللَّهُمَّ أعطِ مُمْسِـكاً تَلَفاً» [البخاري (1442) ومسـلم (1010)].

وهكذا يتمُّ تطهير نفس المسلم من افة الشُّحِّ، والبُخل، ويسـارع إلى الآنفاق، موقناً بفضل الله، ووعده الذي لا يتخلَّف بالرِّزق الواسع[1].

ج – حصول الأمن في الدُّنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِـرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 274] .

فهم في أمنٍ، وسـعادةٍ، وراحةِ بالٍ؛ لأنَّهم أدَّوا ما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عمَّا نهاهم الله عنه.

ومن آثار الزَّكاة على المجتمع: حصـولُ المحبَّة بين الأغنياء والفقراء، وشـيوع الأمن والطُّمَأْنِينَة في أوساطه، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنَّهم كالجسد الواحد، قال صلى الله عليه وسلم : «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثَلُ الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سـائر الجسـد بالسَّـهر والحمَّى» [مسـلم (2586) وأحمد (270/4)]، ومن الآثار أيضـاً حفظ التوازن الاجتماعي[2].

عندما كانت الزَّكاة تُجْمَع من كلِّ من تجب عليه، وتُنفَق في سـبلها المشـروعة في صـدر الإسـلام؛ كان المجتمع الإسـلاميُّ يعيش في رخاءٍ، ورغدٍ، وتمتُّعٍ بالطَّيِّبات، وتالفٍ، وتاخٍ، وتحابٍ؛ فقد روى الرُّواة: أنَّه في عهد خامس الخلفاء الرَّاشـدين، عمر بن عبد العزيز رضـي الله

(1) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (249/1).

(2) انظر: المال في القران الكريم ، ص240.

عنه أخصب النَّاس، واغتنوا، حتَّى إنَّهم بحثوا عن مستحقٍّ للصَّدقة، فلم يجدوا، فما كان منهم إلا أن اشتَرَوا بها عبيداً، وأعتقوهم لوجه الله، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أممٌ قليلةٌ اليوم، وذلك بفضل تشريع الزَّكاة[1].

5 – زواجه صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة في مكَّة قبل الهجرة، وهي ابنة ستِّ سنين، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين، وذلك في شهر شوَّال من السَّنة الأولى للهجرة[2].

وكانت حركة الدَّعوة والجهاد، والتَّربية، وبناء الدَّولة مستمرةً، ولم تتعطَّل حالات الزَّواج في حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ بل الزَّواج، والإكثار منه كان عاديّاً جدّاً، في حياتهم، كالطَّعام، والشَّراب، وذلك من مظاهر: أنَّ الإسلام دين الفطرة، والواقع؛ بل إنَّ الزَّواج جزءٌ مهمٌّ في بناء المجتمع المسلم[3].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بنى بعائشة رضي الله عنها وهو في الرَّابعة والخمسين من عمره، وحيثما يُذكر هذا الرَّقم؛ يتبادر للذِّهن الشَّيب، والضَّعف، ونفسيةٍ أصابتها الشَّيخوخة، ولاشكَّ أنَّ مرور الأعوام هو مقياس أعمار النَّاس كقاعدةٍ عامَّةٍ؛ ولكنَّ المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان، ونشاطه، وقدرته على المبادرة والعمل؛ فقد نجد إنساناً في الثَّلاثين يحمل في جسمه، ونفسيته أعباء الخمسين، وقد نجد في بعض الأحيان إنسان الخمسين، فلا نحكم عليه بأكثر من الثَّلاثين، وشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فذَّةٌ في هذا الميدان، فهو – وهو في الخمسين – كان رجلاً في عنفوان شبابه؛ همَّةً، وعزماً، ومَضَاءً وفحولةً؛ إنَّه في هذا لا يساويه أيُّ إنسان، والأدلة تؤيِّد ما ذهبت إليه؛ ومنها:

أ – لما عرض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نفسَه على القبائل، مرَّ على بني عامر بن صعصعة، وعرض عليهم أمره، فقال بَيْحَرَةُ بن فِرَاس: «والله! لو أنِّي أخذت هذا الفتى من قريش

---

[1] انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (115/2).
[2] انظر: من معين السِّيرة ، ص 168.
[3] انظر: الأساس في السُّنَّة (420/1).

لأكلت به العرب»[1]، ونلحظ في قول بَيْحَرَة:

ـ عبَّر عنه بـ (الفتى)، والفتى هو الشَّابُّ في مُقْتَبَلِ العمر، الممتلئ حيويةً، ونشاطاً.

ـــ وفي قوله: «لأكلت به العرب» يعبِّر عمَّا لاحظه في شخصية الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم من حيويَّةٍ، وهمَّةٍ لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبةً، كانت هذه نظرة بَيْحَرَة، والرَّسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من العمر يومئذٍ؛ إنَّه الشباب شكلاً، ومضموناً، مظهراً ونفسيَّةً، همَّةً، وروحاً[2].

ب - وفي خبر الهجرة، روى البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وهو مُرْدِفٌ أبا بكرٍ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعْرَف، ونبيُّ الله صلى الله عليه وسلم شابٌّ لا يُعْرَفُ، قال: فيلقى الرَّجلُ أبا بكرٍ، فيقول: يا أبا بكر! من هذا الرَّجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرَّجل يهديني السبيل، قال: فيحسِب الحاسِبُ: أنَّه إنَّما يعني الطَّريقَ، وإنَّما يعني سبيلَ الخير» [البخاري (3911) وأحمد (211/2)]، وكان صلى الله عليه وسلم لم يَشِبْ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[3].

ويلاحظ من النَّصِّ بوضوحٍ: أنَّ أبا بكرٍ كان يبدو في سنِّهِ الحقيقي شيخاً[4]؛ بينما كان صلى الله عليه وسلم يبدو شابّاً؛ لعدم ظهور الشَّيب فيه، كما أوضح ذلك القسطلاَّنيُّ بقوله: وكان صلى الله عليه وسلم لم يَشبْ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[5].

وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الفارق في العمر بينه صلى الله عليه وسلم وبين عائشة، لم يكن ذلك الفارقَ الكبير من وجهة النَّظر العمليَّة، فها هو صلى الله عليه وسلم يسابق السَّيدة عائشة، فتسبقه مرَّةً، ويسبقها أخرى، فيقول: «هذه بتلك» [أحمد (264/6) وأبو داود (2578) وابن ماجه (1979) وابن حبان (4691)]، والأمثلة في حياته صلى الله عليه وسلم كثيرةٌ[6].

---

[1] انظر: سيرة ابن هشام (424/1).
[2] انظر: من معين السِّيرة، ص 171.
[3] انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (355/1) نقلاً عن (من معين السيرة).
[4] انظر: من معين السيرة، ص 171.
[5] المصدر السابق نفسه.
[6] انظر: من معين السِّيرة، ص 172.

ويستطيع كلُّ ذي نظرٍ أن يدرك الحكمة الجليلة الَّتي كانت وراء زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عائشة رضي الله عنها، فقد تمَّ هذا الزَّواج الميمون في مَطْلِع الحياة في المدينة، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته صلى الله عليه وسلم ، وممَّا لاشك فيه: أنَّ الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته، ومع أسرته، وكان لابدَّ من نقل سلوك الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، في هذا الجانب من حياته إلى النَّاس؛ حتَّى يستطيعوا التأسِّيَ به، وكانت تلك مهمَّةُ السِّيِّدة عائشة رضي الله عنها – على الخصوص – وبقيَّة أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهُنَّ؛ فقد استطاعت السَّيدة عائشة رضي الله عنها، بما وهبها الله من ذكاءٍ وفهمٍ، أن تؤدِّيَ دورها على خير ما يُرام، وإنَّ نظرةً عابرةً لأيِّ كتابٍ من كتب السِّيرة تبيِّن، وتؤكِّد ما ذهبت إليه؛ وقد ساعدها على ذلك: أنَّ الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساعدتها تلك المدَّة على أن تُبَلِّغَ ما وَعَتْهُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرضي الله عنها![1].

* * *

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 173.

الفصل الثَّامن

غزوة بدرٍ الكبرى[1]

المبحث الأوَّل مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ من الشَّام، تحمل أموالاً عظيمة[2]لقريش، يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين ثلاثين، وأربعين رجلاً[3]، فأرسل الرَّسول صلى الله عليه وسلم بَسْبَسَ بنَ عمرو[4]؛ لجمع المعلومات عن القافلة[5]، فلمَّا عاد بَسْبَسُ بالخبر اليقين، ندب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للخروج، وقال لهم: «هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعلَّ الله يُنْفِلُكُموها»[6]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر، من شهر رمضان المبارك، من السَّنة الثانية للهجرة، ومن المؤكَّد: أنَّه حين خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة، لم يكن في نيَّته قتالٌ؛ وإنَّما كان قصده عِيرَ قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكَّة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدوِّ، ودماؤهم مباحةً، فكيف إذا علمنا: أنَّ جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشيَّة، كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكَّة، قد استولى عليها المشركون ظلماً، وعدواناً[7].

كلَّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن أمِّ مكتومٍ بالصَّلاة بالنَّاس في المدين[8].

أرسل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم اثنين من أصحابه[9] إلى بدرٍ طليعةً، للتَّعرُّف على أخبار

---

[1] ينظر الشكلان (14 و15) في الصفحتين (750 و751).

[2] قُدِّرتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي 50 ألف دينار ، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(286/1).

[3] جوامع السِّيرة ، لابن حزم ص 107.

[4] ورد هذا الاسم في مسلمٍ هكذا: «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشَّهيد ، رقم (1901) ، قال النَّووي في شرحه على الحديث: «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس)... قلت: يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والآخر لقباً».

[5] مسلمٌ ، رقم (1901).

[6] سيرة ابن هشام (61/2) بسندٍ صحيح إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

[7] انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم، د. محمَّد ال عابد (43/1).

[8] البداية والنِّهاية (260/3) ، والمستدرك للحاكم (632/3).

[9] هما عديُّ بن أبي الزَّغْباء ، وبسبس بن عمرو ، انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (24/2).

القافلة فرجعا إليه بخبرها[1]: وقد حصل خلاف بين المصادر الصَّحيحة حول عدد الصَّحابة، الذين رافقوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في غزوته هذه إلى بدرٍ، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمئةٍ» [البخاري (3957) و(3958)]؛ يذكر مسلمٌ: أنَّهم كانوا «ثلاثمئةٍ وتسعة عَشَرَ رجلاً» [مسلم (1763)]، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمئةٍ وأربعين من الصَّحابة البدريين[2].

كانت قوَّات المسلمين في بدرٍ، لا تمثِّل القدرة العسكريَّة القصوى للدَّولة الإسلاميَّة؛ ذلك: أنَّهم إنَّما خرجوا لاعتراض قافلةٍ، واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون: أنَّهم سوف يواجهون قوَّات قريشٍ، وأحلافها مجتمعةً للحرب، والَّتي بلغ تعدادها ألفاً [مسلم (1763)]، معهم مئتا فرسٍ، يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القِيانُ[3] يضربن بالدُّفوف، ويغنِّين بهجاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه[4]، في حين لم يكن مع القوات الإسلاميَّة من الخيل إلا فَرَسَانِ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبَها. [الطبراني في المعجم الكبير (12105) والهيثمي في مجمع الزوائد (69/6)] .

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ فيها من العِبَرِ والمواعظ الشَّيءُ الكثير:

1 - إرجاع البَرَاء بن عازبٍ وابن عمر لصغرهما: وبعد خروج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عِيرِ أبي سفيان وصلوا إلى (بيوت السُّقيا) خارج المدينة، فعسكر فيها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، واستعرض صلى الله عليه وسلم مَنْ خرج معه، فردَّ مَنْ ليس له قدرةٌ على المضِيِّ مع جيش المسلمين، وملاقاة مَنْ يُحتَمَل نشوبُ قتالٍ معهم، فردَّ على هذا الأساس البَرَاء بن عازب، وعبد الله بن عمر؛ لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي صلى الله عليه وسلم راغبين، وعازمَيْنِ على الاشتراك في الجهاد. [البخاري (3955) و(3956)] .

2 - (فارجعْ فلن أستعينَ بمشركٍ): عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ بدرٍ، فلـمَّا كان بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ، أَدْرَكهُ رَجُلٌ، قد كان يُذْكَرُ منه جُرْأَةٌ، ونَجْدةٌ؛

---

[1] الطَّبقات ، لابن سعد (42/2) بإسناد صحيح.
[2] البداية والنِّهاية (314/3) وكذلك الطَّبقات ، وخليفة بن خيَّاط.
[3] القَيْنَة: المغنِّية ، والجمع: قِيَان.
[4] البداية والنِّهاية (260/3).

ففرِحَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رَأوْهُ، فلـمَّا أدْرَكَهُ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئتُ لأتَّبِعَكَ، وأُصيبَ معَكَ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تؤمنُ بالله ورَسُولِهِ؟» قال: لا، قال: «فارجعْ؛ فلن أستعينَ بمشركٍ». قالت: ثمَّ مضى، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كما قال أوَّل مرَّةٍ، ثمَّ رجع، فأدركه بالبَيْدَاءِ، فقال له كما قال أوَّل مرَّة: «تؤمنُ بالله ورسوله؟» قال: نعم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فانْطَلِقْ» [مسلم (1817) وأبو داود (2732) والترمذي (1558) وأحمد (148/3 و149)].

3 – مشاركة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه في الصِّعاب: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا يوم بدرٍ كلُّ ثلاثة على بعيرٍ، وكان أبو لُبَابَةَ، وعليُّ بن أبي طالبٍ زميلَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: وكانت عُقبَةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى منّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [أحمد (411/1) وابن حبان (4733) وأبو يعلى (5359) والبزار (1759) ومجمع الزوائد (69/6)].

ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر:

بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته، واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق السَّاحل، في الوقت نفسه أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَاريَّ إلى قريشٍ يستنفرها؛ لإنقاذ قافلتها، وأموالها[1]، فقد كان أبو سفيان يَقِظاً حَذِراً، يتلقَّط أخبار المسلمين، ويسأل عن تحرُّكاتهم؛ بل يتحسَّس أخبارهم بنفسه، فقد تقدَّم إلى بدرٍ بنفسه، وسأل مَنْ كان هناك: هل رأيتم من أحدٍ؟ قالوا: لا، إلا رجلين، قال: أروني مُنَاخَ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر فَفَتَّهُ، فإذا هو فيه النَّوى، فقال: هذه والله! علائفُ يثربَ[2]، فقد استطاع أن يعرف تحرُّكات عدوه، حتَّى خبر السَّريَّة الاستطلاعيَّة عن طريق غذاء دوابِّها، بفحصه البعر الَّذي خلَّفته الإبل؛ إذ عرف أنَّ الرَّجلين من المدينة؛ أي: من المسلمين، وبالتَّالي فقافلته في خطرٍ، فأرسل ضَمْضَمَ بنَ عمرٍو، إلى قريشٍ، وغيَّر طريق القافلة، واتَّجه نحو ساحل

---

[1] انظر: موسوعة نضرة النعيم (287/1).

[2] انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (230/2).

البحر[1].

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريشٍ؛ التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يَرَوْنه من امتهانٍ للكرامة، وتعريضٍ للمصالح الاقتصاديَّة للأخطار؛ إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاطٍ لمكانة قريشٍ بين القبائل العربيَّة الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية[2].

لقد جاءهم ضَمْضَمُ بنُ عمرو الغِفَاريُّ بصورةٍ مثيرةٍ جدّاً، يتأثَّر بها كلُّ من رآه ا، أو سمع بها؛ إذ جاءهم وقد حوَّلَ رَحْلَه، وجَدَعَ أنفَ بعيره، وشقَّ قميصه من قُبُلٍ، ومن دُبُرٍ، ودخل مكَّة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشرَ قريش! اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ[3]! أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد مع أصحابه، لا أرى أن تُدْرِكوها، الغوثَ، الغوثَ![4].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة، أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجُحْفَة، برسالةٍ أخبرهم فيها بنجاته، والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكَّة، وذلك أدَّى إلى حصول انقسامٍ حادٍّ في اراء زعماء قريش، فقد أصرَّ أغلبهم على التَّقدُّم نحو بدرٍ؛ من أجل تأديب المسلمين، وتأمين سلامة طريق التِّجارة القرشيَّة، وإشعار القبائل العربيَّة الأخرى بمدى قوَّة قريشٍ، وسلطانها، وقد انشق بنو زُهْرَة[5]، وتخلَّف في الأصل بنو عديٍّ، فعاد بنو زُهْرَةَ إلى مكَّة، أمَّا غالبية قوَّات قريشٍ، وأحلافهم؛ فقد تقدَّمت؛ حتَّى وصلت بدراً[6].

ثالثاً: مشاورة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

لـمَّا بلغ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم نجاةُ القافلة، وإصرارُ زعماء مكَّة على قتال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم استشار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمر[7]، وأبدى بعضُ الصَّحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربيَّة مع قريشٍ؛ حيث إنَّهم لم يتوقَّعوا المواجهة، ولم

[1] انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص 33، 34.
[2] انظر: موسوعة نضرة النعيم (287/1).
[3] اللَّطِيمة: القافلة المحمَّلة بشتَّى أنواع البضاعة غير الطعام.
[4] انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (221/2).
[5] نصحهم الأخْنَسُ بن شريق بذلك، انظر: ابن هشام (231/2).
[6] انظر: موسوعة نضرة النعيم (287/1).
[7] البخاريُّ، كتاب المغازي، باب {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، رقم (3952)، وانظر: شرح هذا الحديث في فتح الباري.

يستعدُّوا لها، وحاولوا إقناع الرَّسول صلى الله عليه وسلم بوجهة نظرهم، وقد صوَّر القرآن الكريم موقفَهم، وأحوال الفئة المؤمنة عموماً، في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الآنفال5 – 8] .

وقد أجمع قادة المهاجرين، على تأييد فكرة التَّقُّدم لملاقاة العدوِّ[1]، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: شهدت من الْمِقْدَاد بن الأسود مشهداً، لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به[2]: أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾، ولكنَّا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخَلْفك، فرأيت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أشرق وَجْهُهُ وسَرَّه؛ يعني: قوله. [البخاري (3952)].

وفي روايةٍ: قال المقداد: يا رسولَ الله! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ولكن: امضِ ونحن ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فكأنه سُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . [البخاري (4609)] .

وبعد ذلك عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» وكان إنَّما يقصد الأنصار؛ لأنَّهم غالبيةُ جنده، ولأنَّ بيعة العقبة الثَّانية، لم تكن في ظاهرها ملزمةً لهم بحماية الرَّسول صلى الله عليه وسلم خارج المدينة، وقد أدرك الصَّحابيُّ سعدُ بن معاذ، – وهو حامل لواء الأنصار – مقصد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ فنهض قائلاً: (والله! لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : «أجل»، فقال: لقد آمنا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السَّمع، والطَّاعة، فامضِ يا رسول الله! لما أردت، فنحن معك، فوالَّذي بعثك بالحقِّ! لو استعرضت بنا هذا البحر، فخُضْتَه لخُضْنَاه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى

---

[1] انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (288/1).

[2] المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد ، وأنَّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك ، لكان حصوله أحبَّ إليه.

بنا عدوَّنا غداً، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللِّقاء، ولعلَّ اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ على بركة الله. [ابن هشام (267/2) وبنحوه مسلم (1179)].

وسُرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من مقالة سعد بن معاذٍ، ونشَّطه ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم : «سِيرُوا وأبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين، والله! لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم» [البيهقي في دلائل النبوة (34/3) وابن هشام (267/2)] .

كانت كلمات سعدٍ مشجِّعةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وملهبةً لمشاعر الصَّحابة؛ فقد رفعت معنويات الصَّحابة، وشجَّعتهم على القتال، إنَّ حرص النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على استشارة أصحابه في الغزوات، يدلُّ على تأكيد أهمِّية الشُّورى في الحروب بالذَّات؛ ذلك لأنَّ الحروب تقرِّر مصير الأمم، فإمَّا إلى العلياء، وإمَّا تحت الغبراء[1].

رابعاً: المسير إلى لقاء العدوِّ، وجمع المعلومات عنه:

نظَّم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم جنده، بعد أن رأى طاعة الصَّحابة، وشجاعتهم، واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض، وسَلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سَوْدَاوَيْن إلى سعد بن معاذٍ، وعليِّ بن أبي طالبٍ، وجعل على السَّاقة قيس بن أبي صَعْصَعَة[2].

وقام صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكرٍ يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجوَّلان في تلك المنطقة، لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن جيش قريش، وعن محمَّدٍ وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم؛ فقال الشَّيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مِمَّن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا أخبرتنا؛ أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشَّيخ: فإنَّه بلغني: أنَّ محمَّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش المسلمين – وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً – ثمَّ قال الشيخ: لقد أخبرتكما عمَّا أردتما،

---

[1] انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص 37.

[2] انظر: زاد المعاد (172/3).

فأخبراني ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نحن من ماءٍ»، ثمَّ انصرف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عن الشَّيخ، وبقي هذا الشَّيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن هشام (2/267 – 268)] .

وفي مساء ذلك اليوم الَّذي خرج فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكرٍ، أرسل صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالبٍ، والزُّبيرَ بن العوَّام، وسعدَ بن أبي وقَّاصٍ، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدرٍ؛ يتسقَّطون له الأخبار عن جيش قريشٍ، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين، فأتوا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريشٍ» فقالا: هم – والله! – وراء هذا الكثيب الَّذي ترى بالعُدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثيرٌ، قال: «ما عدَّتُهم؟» قالا: لا ندْري، قال الرَّسول صلى الله عليه وسلم : «كم ينحرون كلَّ يومٍ؟» قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «القوم ما بين التِّسعمئة والألف» ثمَّ قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، وأميَّة بن خلفٍ، في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكَّةُ قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [ابن هشام (2/269)]

كان من هدي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، حرصه على معرفة جيش العدوِّ، والوقوف على أهدافه، ومقاصده؛ لأنَّ ذلك يعينه على رسم الخطط الحربيَّة المناسبة لمجابهته، وصدِّ عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدرٍ في جمع المعلومات؛ تارةً بنفسه، وأخرى بغيره، وكان صلى الله عليه وسلم يطبِّق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: 83].

وقد تحلَّى رسول صلى الله عليه وسلم بصفة الكتمان في غزواته عامَّةً، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: «ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها» [البخاري (2947)]، وفي غزوة بدرٍ ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

1 – سؤاله صلى الله عليه وسلم الشَّيخ الَّذي لقيه في بدرٍ عن محمَّدٍ وجيشه، وعن قريش

وجيشها.

2 - تورية الرَّسول صلى الله عليه وسلم في إجابته على سؤال الشَّيخ: ممَّن أنتما؟ بقوله (ﷺ): «نحن من ماءٍ»، وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرَّسولُ (ﷺ) كتمانَ أخبار جيش المسلمين عن قريشٍ.

3 - وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ - أيضاً - وهو دليلٌ على ما يتمتَّع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحكمة؛ فلو أنَّه أجاب هذا الشَّيخ ثمَّ وقف عنده، لكان هذا سبباً في طلب الشَّيخ بيان المقصود من قوله (ﷺ): «من ماءٍ»[1].

4 - أمره صلى الله عليه وسلم بقطع الأجراس من الإبل يوم بدرٍ، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدرٍ. [أحمد (150/6) وابن حبان (4699) و(4702) والهيثمي في مجمع الزوائد (174/5)].

5 - كتمانه صلى الله عليه وسلم خبر الجهة الَّتي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال صلى الله عليه وسلم): «إنَّ لنا طَلَبةً؛ فمن كان ظَهْرُهُ حاضراً؛ فيركبْ معنا» [مسلم (1901)].

قال الإمامُ النَّوويُّ: «في هذا: استحباب التَّورية في الحرب، وألاَّ يُبين الإمام جهة إغارته، وإغارة سراياه؛ لئلا يشيع ذلك؛ فيحذرهم العدوُّ»[2].

ونلحظ: أنَّ التَّربية الأمنيَّة في المنهاج النَّبويّ مستمرةٌ منذ الفترة السِّرِّيَّة والجهريَّة بمكَّة، ولم تنقطع مع بناء الدَّولة، وأصبحت تنمو مع تطوّرها، وخصوصاً في غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم.

خامساً: مشورة الحُباب بن المُنْذِر في بدرٍ:

بعد أن جمع صلى الله عليه وسلم معلوماتٍ دقيقةًعن قوَّات قريشٍ، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدرٍ؛ ليسبقوا المشركين إلى ماء بدرٍ، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ، وهنا قام الحُبَاب بن المنذر، وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل،

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (110/4).
[2] انظر: التَّربية القياديَّة (21/3).

أمنزلاً أنزلكه اللهُ، ليس لنا أن نتقدَّمه، ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرَّأي، والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرَّأي، والحرب، والمكيدة» قال: يا رسولَ الله! فإن هذا ليس بمنزلٍ، فانهضْ يا رسول الله بالنَّاس ! حتَّى تأتي أدنى ماءٍ من القوم - أي: جيش المشركين - فننزله، ونغوِّر - نخرِّب - ما وراءه من الابار، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثمَّ نقاتل القوم، فنشرب، ولا يشربون. فأخذ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم برأيه، ونهض بالجيش حتَّى أقرب ماءٍ من العدوِّ، فنزل عليه، ثمَّ صنعوا الحِيَاضَ، وغوَّروا ما عداها من الابار [ابن هشام (272/2)، والبيهقي في دلائل النبوة (35/3)].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدْلي برأيه، حتَّى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ حصول ما يترتَّب على ذلك الغضب من تدنِّي سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد، وتأخُّره في الرتبة، وتضرُّره في نفسه أو ماله.

إنَّ هذه الحرِّيَّة؛ الَّتي ربَّى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرَّأي السَّديد، والمنطق الرَّشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً، وإن كان حديثَ السِّنِّ؛ لأنَّه لم يكن يفكِّر برأيه المجرَّد، أو اراء عصبةٍ مهيمنةٍ عليه، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامَّة؛ وإنَّما يفكِّر باراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرَّأي السَّديد من أقلِّهم سمعةً، وأبعدهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنَّه ليس هناك ما يحول بين أيِّ فردٍ منهم، والوصول برأيه إلى قائد جيشه[(816)].

ونلحظ عظمة التَّربية النَّبويَّة؛ الَّتي سرَتْ في شخص الحُبَاب بن المنذر، فجعلته يتأدَّب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدَّم دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة الَّتي لديه؛ لكن هذا تمَّ بعد السُّؤال العظيم، الَّذي قدَّمه بين يدي الرَّسول صلى الله عليه وسلم : «يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدَّمه، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرَّأي، والحرب، والمكيدة؟».

إنَّ هذا السُّؤال يوضِّح عظمة هذا الجوهر القياديَّ الفذَّ؛ الَّذي يعرف أين يتكلَّم، ومتى يتكلَّم بين يدي قائده، فإن كان الوحي هو الَّذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم، فتقطع عنقه أحبُّ إليه من أن يلفظ بكلمةٍ واحدةٍ، وإن كان الرأي البشريُّ؛ فلديه خطَّةٌ جديدةٌ كاملةٌ

باستراتيجيَّةٍ جديدةٍ.

إنَّ هذه النَّفسيَّة الرَّفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرَّأي، وأدركت مفهوم السَّمع والطَّاعة، ومفهوم المناقشــة، ومفهوم عرض الرَّأي المعارض لرأي سـيِّد ولد آدم صـلى الله عليه وسلم .

وتبدو عظمة القيادة النَّبويَّة في اســتماعها للخطَّة الجديدة، وتبنِّي الخطَّة الجديدة المطروحة من جنديٍّ من جنودها، أو قائدٍ من قوَّادها[(817)].

سادساً: الوصف القرآنيُّ لخروج المشركين:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُــدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: 47] .

ينهى المولى - عزَّ وجلَّ - المؤمنين عن التشـــبُّه بالكافرين؛ الَّذين خرجوا من ديارهم بطراً، ورئاء النَّاس، وتفسير الآية الكريمة:

1 - ﴿بَطَرًا﴾: قال القرطبيُّ: «والبطر في اللغة:، أي: التَّقوية بنعم الله - عزَّ وجلَّ - وما ألبسه من العافية على المعاصي»[1].

2 - ﴿وَرِئَاءَ﴾: ومعناه:، أو الفعل الَّذي لا يقصد معه الإخلاص؛ وإنَّما يُقصد به التَّظاهر، وحبُّ الثناء.

3 - ﴿ وَيَصُــدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ﴾: معطوفاً على ﴿ بَطَرًا ﴾، والسَّـبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ، والمراد بسبيل الله: دينه؛ لأنَّه يوصل النَّاس إلى الخير، والصَّلاح.

فقد وصف - سبحانه - الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء:

الأول: البطر، والثَّاني: الرِّياء، والثالث: الصَّدُّ عن سبيل الله.

ونلحظ: أنَّ الله تعالى عبَّر عن بطرهم، بصـيغة الاسـم الدَّالِّ على التَّمكين، والثُّبوت، وعن

---

[1] انظر: تفسير القرطبي (25/8).

صدِّهم بصيغة الفعل الدَّالّ على التجدُّد والحدوث[1].

قال الإمام الرَّازي: «إنَّ أبا جهلٍ ورَهْطَه، وشـــيعتَه، كانوا مجبولين على البطر، والمفاخرة، والعُجْب[2]، وأمَّا صـدُّهم عن سـبيل الله، فإنَّما حصـل في الزَّمان؛ الَّذي أكرم فيه النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بالنُّبوَّة، ولهذا السَّبب ذُكِر البطر، والرئاء بصيغة الاسم، وذُكِر الصَّدُّ عن سبيل الله بصيغة الفعل، والله أعلم»[3].

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبيِّ: أنَّ المقصود بالآية: «يعني: أبا جهلٍ وأصحابه الخارجين يوم بدرٍ لنُصرة العِير، خرجوا بالقِيَان، والمغنِّيات والمعازف، فلـــمَّا وردوا الجُحفة، بعث خُفافُ الكنانيُّ – وكان صـديقاً لأبي جهلٍ – بهدايا إليه مع ابنٍ له، وقال: إن شئتَ؛ أمددتك بالرِّجال، وإن شـئتَ؛ أمددتك بنفسـي مع مَنْ خفَّ من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل اللهَ كما يزعم محمَّد؛ فوالله ما لنا بالله من طاقةٍ، وإن كنَّا نقاتل النَّاس؛ فوالله إنَّ بنا على النَّاس لقوةً، والله! لا نرجع عن قتال محمَّد حتَّى نرد بدراً، فنشـــربَ فيها الخمور، وتعزف علينا القِيانُ، فإن بدراً موسـمٌ من مواسـم العرب، وسـوقٌ من أسـواقهم، حتَّى تسـمع العرب بمخرجنا، فتهابنا اخر الأبد، فوردوا بدراً، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[4].

سابعاً: موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدرٍ:

بيّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لـــمَّا قدموا إلى بدرٍ، قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أنَّ أبا جهل قال حين التقى القومُ – في بدرٍ – اللَّهم! أقطعُنا للرَّحم، واتانا ممَّا لا يُعرف، فأَحِنْهُ – أي: أهلكه – الغداةَ.

فكان المسْتَفْتِح. [أحمد (431/5) وابن هشام (280/2) والبيهقي في الدلائل (74/3)] .

---

[1] انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(65/1 ، 66).
[2] العُجْب: الكِبْرُ ، والزَّهْوُ.
[3] انظر: تفسير الرَّازي (173/15) بتصرف يسير.
[4] انظر: تفسير القرطبي (25/8).

ومعنى الآية: إن تستنصروا اللهَ على محمَّد، فقد جاءكم النَّصر، وقد كانوا عند خروجهم من مكَّة سـألوا الله أن ينصـر أحقَّ الطَّائفتين بالنَّصـر، فتهكَّم الله بهم، وسمَّى ما حلَّ بهم من الهلاك نصـــراً، ومعنى بقيَّة الآية على هذا القول: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عمَّا كنتم عليه من الكفر، والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي: الآنتهاء إلى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا﴾ كنتم عليه من الكفر والعداوة بتسليط المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾، ونصرهم كما سلَّطناهم، ونصرناهم في يوم بدرٍ أي: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا﴾، أي: ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ تغني عنكم في حالٍ من الأحوال، ولو في حال كثرتها، ثمَّ قال: ومن كان معه فهو ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، ومن كان الله عليه فهو المخذول[1].

ولما وصل جيش مكَّة إلى بدرٍ، دبَّ فيهم الخلاف، وتزعزعت صفوفهم الدَّاخلية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لـمَّا نزل المسلمون، وأقبل المشركون؛ نظر رسولُ الله صلى الله عليه وســـلم إلى عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وهو على جملٍ أحمر، فقال: «إن يكن عند أحدٍ من القوم خيرٌ، فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه؛ يَرْشُدُوا»، وهو يقول: يا قوم! أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنَّكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كلُّ رجلٍ إلى قاتل أخيه، وقاتل أبيه، فاجعلوا حقَّها برأسي، وارجعوا، فقال أبو جهل: انتفخ والله! سَحْرُهُ[2] حين رأى محمَّداً وأصحابه، إنَّما محمدٌ وأصحابه أكلة جزورٍ لو قد التقينا.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله! إنِّي لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجههم السُّيوف. [البزار (1762) والهيثمي في مجمع الزوائد (76/6)] .

وهذا حكيم بن حزام، يحدِّثنا عن يوم بدرٍ – وكان في صـفوف المشـركين قبل إسـلامه – قال: خرجنا؛ حتَّى نزلنا العُدْوة الَّتي ذكرها الله – عزَّ وجلَّ – فجئتُ عُتبةَ بن ربيعة، فقلت: يا أبا الوليد! هل لك أن تذهب بشـــرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: أفعل؛ ماذا؟ قلت: إنَّكم لا تطلبون من محمَّد إلا دم ابن الحَضْـــرَمي[3] وهو حليفُك، فتحمل ديته، وترجع بالنَّاس، فقال:

---

[1] انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(68/1).

[2] السَّحْرُ: الرِّئة ، وانتفاخ السَّحْر: كناية عن الجبن.

[3] هو عمرو بن الحَضْرمي الَّذي قتله وافد بن عبد الله في سريَّة عبد الله بن جحش في الشَّهر الحرام.

أنت وذاك، وأنا أتحمَّل ديته، واذْهبْ إلى ابن الحَنْظَلِيَّة[1] – يعني: أبا جهل – فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمِّك؟ فجئته، فإذا هو في جماعةٍ من بين يديه، ومن ورائه، وإذا ابن الحَضْرَميّ[2] واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزومٍ، فقلت له: يقول لك عُتْبةُ بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمِّك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولاً غَيْرَك؟ قلت: لا، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره! قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة؛ لئلا يفوتني من الخبر شيءٌ. [ابن هشام (274/2 – 275) والبيهقي في الدلائل (65/3 – 66)] .

فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريشٍ لا يرى داعياً لقتال محمَّد صلى الله عليه وسلم ، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمَّدٍ؛ فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعزُّه عِزُّ قريش، ومُلْكُهُ مُلْكُهَا، وستكون أسعد النَّاس به، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب، وينتهي.

ولكنَّ كبرياء الجاهليَّة دائماً في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ لا يمكن أن يترك الحقَّ يتحرَّك؛ لأنَّها تعلم أنَّ انتصارَه معناه: زوالُها من الوجود، وبقاؤه مكانها[3].

وهذا عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي، ترسله قريش، ليحزر لهم أصحاب محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فَاسْتَجَال حول العسكر ثُمَّ رجع إليهم ، فقال: ثلاثمئة رجلٍ ، يزيدون قليلاً ، أو ينقصون، ولكن أمهلوني أنظرْ أَلِلْقَوْمِ كمينٌ، أو مددٌ؟ قال فضرب في الوادي حتَّى أَبْعد، فلم يرَ شيئاً، فرجع إليهم، فقال: ما وجدت شيئاً، ولكنِّي قد رأيت يا معشرَ قريش، البلايا[4]تحمل المنايا[5]، نواضح[6] يثرب تحمل الموت النَّاقع[7]، قومٌ ليس معهم منعةٌ، ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله! ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتَّى يَقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم![8].

---

[1] ابن الحَنْظَلِيَّة هو أبو جهل ، وهي أسماء بنت مُخرَّبة من بني تميم.
[2] المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدِّم.
[3] انظر: مرويات غزوة بدر ، ص 155.
[4] البلايا: جمع بلية ، وهي النَّاقة أو الدَّابة تُربط على قبر الميت فلا تعلف ، ولا تسقى حتَّى تموت.
[5] مَنَايَا: جمع مَنِيَّة ، وهي الموت.
[6] نواضح: الإبل الَّتي يُستقى عليها الماء.
[7] النَّاقع: الثَّابت البالغ في الإفناء ، يقال: موتٌ ناقعٌ ، أي: دائم.
[8] انظر: البداية والنِّهاية (269/3).

وهذا أميَّـــة بن خلف، رفض الخروج من مكَّة ابتداءً؛ خوفاً من الموت، «فأتاه أبو جهلٍ، فقال: يا أبا صـفوان! إنَّك متى يراك النَّاسُ قد تخلَّفتَ؛ وأنت سـيد أهل الوادي؛ تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتَّى قال: أما إذْ غلبتني، فوالله! لأشـترينَّ أجود بعيرٍ بمكَّة، ثمَّ قال أميَّة: يا أمَّ صـفوان! جَهِّزيني. فقالت له: يا أبا صـفوان! وقد نسـيتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ تقصـد سـعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول: «إنَّهم قاتلوك» ؟ قال: لا، ما أريدُ أن أجوزَ معهم إلا قريباً، فلـمَّا خرج أُميَّــةُ أخذ لا يتركُ منزلاً إلا عَقَلَ بعيرَه، فلم يزل بذلك حتَّى قتله اللهُ – عزَّ وجلَّ – ببدرٍ» [البخاري (3950) والبيهقي في الدلائل (3/25 -27)] .

ومن دهاء أبي جهل – لعنه الله – أن سلَّط عُقبةَ بن أبي مُعَيْط، على أميَّةَ بن خلف، فأتاه عقبةُ بمَجْمَرةٍ يحملها، فيها نارٌ ومُجْمَر (العود يتبخَّر به)، حتَّى وضـــعها بين يديه، ثمَّ قال: اســـتجمرْ؛ فإنَّما أنت من النِّســـاء، قال: قبَّحك الله، وقبَّح ما جئت به! ثمَّ تجهَّز، وخرج من النَّاس[1].

لقد كانت القوَّة المعنويَّة لجيش مكَّة، متزعزعةً في النُّفوس، وإن كان مظهره القوَّة، والعزم، والثبات، إلا أنَّ في مخبره الخوفُ، والجبنُ، والتردُّد[2].

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثرٌ على معنويات أهل مكَّة؛ فقد رأت في المنام: أنَّ رجلاً استنفر قريشاً، وألقى بصخرةٍ من رأس جبل أبي قُبَيْس بمكَّة، فتفتَّتت، ودخلت سائر دُورِ قريش، وقد آثارت الرُّؤيا خصـومةً بين العبَّاس، وأبي جهلٍ، حتَّى قدم ضَـمْضَـمُ، وأعلمهم بخبر القافلة، فسكنت مكَّة، وتأوَّلت الرُّؤيا[3]، كما أن جُهَيم بن الصَّلْت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجُحْفة، فقد رأى رجلاً أقبل على فرسٍ حتَّى وقف، ومعه بعيرٌ له، ثمَّ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة، وشـيبةُ بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشـام، وأميَّة بن خلف، وفلان، وفلانٌ، فعدَّد رجالاً ممَّن قُتِلَ يوم بدر من أشـراف قريش، ثمَّ رأيته ضـرب في لَبَّة بعيره، ثمَّ أرسـله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسـكر إلا أصـابه نَضْحٌ[4] من دمه، فلـــمَّا بلغت أبا

---

[1] سيرة ابن هشام (عقبة يتهكم بأمية لقعوده فيخرج).

[2] انظر: مرويات غزوة بدر ، (ص 138).

[3] انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة ، للعمري ، (ص 138) وهذه القصة مروية في سيرة ابن هشام في باب (ذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب).

[4] نَضْح: أصابه رشاشٌ من دمه.

جهل هذه الرُّؤيا، قال: وهذا أيضـــاً نبيٌّ اخر من بني المطلب، ســيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا[1]. كانت تلك الرُّؤَى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى، في إضعاف النَّفسيَّة القرشيَّة المشركة.

ثامناً: الوصف القرآنيُّ لمواقع المسلمين والمشركين في أرض المعركة:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42].

هذه الآية الكريمة توضِّح الأماكن في غزوة بدرٍ، وصوَّر لنا - سبحانه وتعالى - الحالة التي كان عليها الجيشـــان يوم اللقاء، فقد كان المســـلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة، وكانت أرضـــه رخوةً، تغوص فيها الأقدام، ولم يكن هناك ماءٌ، وكان الكفَّار بالجانب الآخر من الوادي - الأبعد من المدينة - وكانت أرضه ثابتةً، وكان فيها ماءٌ، وكان ركب العير الَّذي يقوده أبو سفيان بالقرب من ساحل البحر

فقد ذكَّر المولى - عزَّ وجلَّ - المؤمنين بنعمته عليهم، قال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة، فســـرتم حتَّى كنتم أي: بجانـب ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾، وحافَّته الأقرب إلى المدينة المنوَّرة أي: والكفار بالجانب الأبعد الأقصـى ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ الَّذي هو بعيد بالنِّسبة للمدينة - أي: وعِيرُ ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ سـفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ منكم.

وفي الآية تصـــوير ما دبَّر - ســبحانه - من أمر غزوة بدرٍ؛ ليقضـــي أمراً كان مفعولاً؛ من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المســـــلمين إحدى الطَّائفتين؛ مبهمةً غير مبينةٍ، حتَّى خرجوا؛ ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وأقلق قريشـــاً ما بلغهم من تعرُّض المســـلمين لأموالهم، فنفروا؛ ليمنعوا عِيرَهم، وســـبَّب الأســــباب حتَّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدُّنيا، وهؤلاء بالعدوة القصوى، وراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساقٍ، وكان ما كان[2].

وقوله تعالى: بيان لتدبير الله ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

---

[1] سيرة ابن هشام (رؤيا جُهَيْم بن الصَّلْت في مصارع قريش).

[2] حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم.

مَفْعُولاً﴾، وإرادته النافذة؛ أي: ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك؛ لاختلفتم في الميعاد؛ لكرآه تكم للحرب على قلّتكم، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها، وانحصار هِمَّكم في أخذ العير، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً؛ لأنَّهم كانوا يهابون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً، أو استكباراً، لا اعتقاداً أي: ولكن تلاقيتم هنالك على غير ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾، ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه، وحكمته: أنَّه واقعٌ لابدَّ منه، وهو القتال المفضي إلى خزيهم، ونصركم عليهم، وإظهار دينه، وصدق وعده لرسوله صلى الله عليه وسلم كما تقدَّم[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال الالوسي: أي: ليموت من يموت عن حجَّةٍ عاينها، ويعيش من يعيش عن حجَّةٍ شاهدها، فلا يبقى محلٌّ لتعليلٍ بالأعداد؛ فإنَّ وقعة بدرٍ من الآيات الواضحة، والحجج الغُرِّ المحجَّلة[2].

وقوله: تذييلٌ قُصِدَ به التَّرغيب في ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، والتَّرهيب من الكفر، أي: لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال أهل الإيمان، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبهم، وضمائرهم – وسيجازي – سبحانه – كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه مِنْ ثوابٍ، أو عقابٍ على حسب ما يعلم، وما يسمع عنه[3].

* * *

---

(1) انظر: تفسير الكشَّاف للزَّمخشريِّ (160/2).

(2) انظر: تفسير الطَّبري (11/10).

(3) انظر: تفسير الالوسي (7/10) بتصرف.

المبحث الثَّاني

النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه، على أدنى ماء بدرٍ من المشركين؛ اقترح سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء عريشٍ له؛ يكون مقرّاً لقيادته، ويأمن فيه من العدوِّ، وكان ممَّا قاله سعدٌ في اقتراحه: «يا نبيَّ الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نَلْقَى عدوَّنا، فإن أعزَّنا الله، وأظهرنا على عدوِّنا؛ كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى؛ جلستَ على ركائبك، فلحِقْتَ بمن وراءنا، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ، يا نبيَّ الله! ما نحن بأشدَّ لك حبّاً منهم، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً، ما تخلَّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك» فأثنى عليه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له بخيرٍ، ثمَّ بنى المسلمون العريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، على تلٍّ مشرفٍ على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثُلَّةٌ من شباب الأنصار، بقيادة سعد بن معاذٍ، يحرسون عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم . [ابن هشام (272/2 – 273) والبيهقي في الدلائل (44/3)] .

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ؛ منها:

1 – لابدَّ أن يكون مكان القادة مشرفاً على أرض المعركة، يتمكَّن القائد فيه من متابعة المعركة، وإدارتها.

2 – ينبغي أن يكون مقرُّ القيادة آمناً بتوافر الحراسة الكافية له.

3 – ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرُّض لأيِّ خطرٍ.

4 – ينبغي أن يكون للقائد قوَّةٌ احتياطيَّةٌ أخرى، تعوِّض الخسائر الَّتي قد تحدث في المعركة[1].

---

[1] انظر: تفسير الالوسي (7/10) بتصرف.

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المِنَن[1] الَّتي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدرٍ: أنَّه أنزل عليهم النُّعَاسَ، والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الآنفال: 11] .

قال القرطبيُّ: «وكان هذا النُّعاس في الليلة الَّتي كان القتال من غدها، فكان النَّوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمِّ، ولكنَّ الله ربط جأشهم.

وعن عليّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المِقْدَاد على فرسٍ أَبْلَقَ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرةٍ يُصلِّي، ويبكي حتَّى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنَّوم في هذه الليلة وجهانِ:

أحدهما: أنْ قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثَّاني: أنْ أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم، كما يقال: الأمن مُنِيمٌ، والخوفُ مُسْهِرٌ»[2].

وبيَّن - سبحانه وتعالى -: أنَّه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم، في وقتٍ لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه، وكرماً، وإسناد هذا الآنزال إلى الله للتَّنبيه على أنَّه أكرمهم به.

قال الإمام الرَّازي: «وقد عُلِم بالعادة: أنَّ المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً، ويغتمُّ إذا لم يتمكَّن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السَّبب، فلا جَرَمَ عدَّ - تعالى وتقدَّس - تمكينهم من الطَّهارة من جملة نعمه»[3].

وقوله تعالى: فقد روى ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ جريرٍ عن ابن عباس قال: «نزل النَّبي صلى الله عليه وسلم - يعني حين سار إلى بدرٍ - والمسلمون بينهم وبين الماء رملةٌ دِعْصَةٌ - أي كثيرةٌ مجتمعةٌ - فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقى الشَّيطان في قلوبهم الغيظ،

---

[1] انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، ص 66.

[2]]الْمنَّةُ: الإحسان والإنعام ، والجمع: مِنَنٌ.

[3] انظر: تفسير القرطبيّ (327/7).

فوسوس بينهم: (تزعمون: أنَّكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مُجْنِبينَ)، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون، وتطهَّروا، وأذهب الله عنهم رجز الشَّيطان، وثبت الرَّمل حين أصابه المطر، ومشى النَّاس عليه، والدَّواب، فساروا إلى القوم»[1].

فقد بيَّن - سبحانه -: أنَّه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة، فتطهَّروا به حسِّيّاً، ومعنويّاً؛ إذ ربط الله به على قلوبهم، وثبَّت به أقدامهم؛ وذلك: أنَّ النَّاظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحرِّكةً لا زالت حتَّى اليوم، ومن العسير المشي عليها، ولها غبارٌ كبيرٌ، فلـمَّا نزلت الأمطار تماسكت تلك الرِّمال، وسَهُل السَّير عليها، وانطفأ غبارها، وكلُّ ذلك كان نعمةً من الله على عباده[2].[3]:

ابتكر الرَّسول صلى الله عليه وسلم في قتاله مع المشركين يوم بدرٍ أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفاً من قبل؛ حيث قاتل صلى الله عليه وسلم بنظام الصُّفوف[4]، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4] .

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصَّلاة، وتقلُّ هذه الصُّفوف، أو تكثر تَبَعاً لقلة المقاتلين، أو كثرتهم، وتكون الصُّفوف الأولى من أصحاب الرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان، وتكون الصُّفوف الَّتي خلفها من أصحاب النِّبال؛ لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدرٍ:

1 - رهاب الأعداء، ودلالةٌ على حسن وترتيب النِّظام عند المسلمين.

2 - جعل في يد القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم قوَّة احتياطيَّة، عالج بها المواقف المفاجئة في صدِّ هجومٍ معاكس، أو ضرب كمينٍ غير متوقَّعٍ، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة، والفُرْسان، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأوَّل مرَّةٍ في غزوة بدرٍ سبقاً عسكريّاً،

---

[1] انظر: تفسير الفخر الرَّازي (133/15).

[2] انظر: تفسير الطَّبري (195/9).

[3] انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(91/1).

[4] ينظر الشكل (16) في الصفحة (752).

تميَّزت به المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة على غيرها منذ أربعةَ عَشَرَ قرناً من الزَّمان[1].

ويظهر للباحث في السِّيرة النَّبويَّة: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصَّةً تلك الَّتي لم يعهدْها العرب من قبل، على نحو ما قام به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في يوم بدرٍ، وأُحدٍ، وغيرهما.

فقد كانت العرب تقاتل بأسلوب الكرِّ والفرِّ، وقد علَّق اللواء محمود شيت خطَّاب على كلا الأسلوبين القتاليين بقوله: «إنَّ القتال بأسلوب الكرِّ، والفرِّ، هو أن يهجم المقاتلون بكلِّ قوَّتهم على العدوِّ؛ النَّشابة منهم، والَّذين يقاتلون بالسُّيوف، ويطعنون بالرِّماح، مشاةً، وفُرْساناً، فإن ثبت لهم العدوُّ، أو أحسُّوا بالضَّعف؛ نكصوا، ثمَّ أعادوا تنظيمهم، وكَرُّوا من جديدٍ، وهكذا يكرُّون، ويفرُّون حتَّى يكتب لهم النَّصر، أو الآندحار.

والقتال بأسلوب الصَّفِّ يكون بترتيب المقاتلين صفَّين، أو ثلاثة صفوفٍ، أو أكثر، على حسب عددهم، وتكون الصُّفوف الأماميَّة من المسلمين مسلحةً بالرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان، وتكون الصُّفوف المتعاقبة الأخرى مزوَّدةً بالنِّبال؛ لرمي المهاجمين من الأعداء.

وتبقى الصُّفوف بقيادة قائدها، وسيطرته إلى أن يفتقد هجوم أصحاب الكرِّ، والفرِّ زخمه وشدَّته، عند ذاك تتقدَّم الصُّفوف متعاقبةً متساندةً للزَّحف على العدوِّ، ومطاردته عند هزيمته.

ويرى اللِّواء (خطاب) أنَّ أسلوب الصَّفِّ يتميَّز عن أسلوب الكرِّ، والفرِّ، بأنَّه يؤمن التَّرتيب (بالعمق)، فتبقى دائماً بيد القائد قوَّةٌ احتياطيَّة يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان؛ كأن يصدَّ هجوماً مقابلاً للعدو، أو يضرب كميناً لم يتوقعه، أو يحمي الأجنحة الَّتي يهددها العدوُّ بفُرْسانه، أو مشاته، ثمَّ يستثمر الفوز بهذا الاحتياط عند الحاجة»[2].

وقد تحدَّث ابن خلدون عن الأساليب القتاليَّة الجديدة؛ الَّتي استحدثها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في معاركه، والَّتي لم يكن للعرب عهدٌ بها، فقال مشيراً إلى ذلك: «وكان أسلوب الحرب أوَّل الإسلام كلُّه زحفاً، وكان العرب إنما يعرفون الكرَّ، والفرَّ...»[3].

---

[1] انظر: القيادة العسكريَّة، د. محمَّد الرَّشيد، ص 401.

[2] انظر: الرَّسول القائد صلى الله عليه وسلم، لخطَّاب، ص 111، 116، 117.

[3] انظر: غزوة بدرٍ الكبرى الحاسمة، لمحمود خطَّاب، ص 23، 24.

وبيَّن أفضلية الأساليب الَّتي استحدثها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: «وقتال الزَّحف أوثق وأشدُّ من قتال الكرِّ، والفرِّ؛ وذلك لأنَّ قتال الزَّحف ترتب فيه الصُّفوف، وتسوَّى كما تسوى القداح، أو صفوف الصَّلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدوِّ قُدُماً؛ فلذلك تكون أثبت عند المصارع، وأصدق في القتال، وأرهب للعدوِّ؛ لأنَّه كالحائط الممتدِّ، والقصر المشيد لا يطمع في إزالته»[1].

ومن جهة النَّظرة العسكرية فإنَّ هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصيَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وبراعته العسكريَّة؛ لأنَّ التَّعليمات العسكريَّة الَّتي كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[2].

وتفصيل ذلك: فقد اتَّبع صلى الله عليه وسلم أسلوب الدِّفاع ولم يهاجم قوَّة قريشٍ، وكانت توجيهاته التَّكتيكيَّة الَّتي نفَّذها جنودُه بكلِّ دقَّةٍ سبباً في زعزعة مركز العدوِّ، وإضعاف نفسيته؛ وبذلك تحقَّق النَّصر الحاسم - بتوفيق الله - على العدوِّ برغم تفوُّقه[3] (بنسبة 3 إلى 1)، فقد كان صلى الله عليه وسلم يتصرَّف في كلِّ موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال، والظروف، وقد طبَّق الرَّسول صلى الله عليه وسلم في الجانب العسكريِّ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة في مكانها الصَّحيح، أمَّا أخذه بالأسلوب الإقناعيِّ في غزوة بدرٍ؛ فقد تجلَّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضعَ متعدِّدةٍ؛ لأنَّه صلى الله عليه وسلم لا يقود جنده بمقتضى السُّلطة؛ بل بالكفاءة، والثِّقة، وهو صلى الله عليه وسلم أيضاً لا يستبدُّ برأيه، بل يتَّبع مبدأ الشُّورى، وينزل على الرَّأي الَّذي يبدو صوابه، ومارس صلى الله عليه وسلم في غزوة بدرٍ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة، فقد تجلَّى في أمورٍ؛ منها[4]:

الأمر الأوَّل: أمره صلى الله عليه وسلم الصَّحابة برمي الأعداء؛ إذا اقتربوا منهم؛ لأنَّ الرَّمي يكون أقربَ إلى الإصابة في هذه الحالة: «إن دنا القوم منكم؛ فانضحُوهم[5] بالنَّبْل» **[ابن هشام (278/2) والبيهقي في الدلائل (81/3)] .**

---

[1] انظر: المقدِّمة ، لابن خلدون ، ص 273.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 271.

[3] المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد محفوظ ، ص 121.

[4] انظر: مقومات النَّصر ، د. أحمد أبو الشباب (154/2).

[5] هذه الأمور الثلاثة موجودة في حديث رواه أبو داود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أكثبوكم . يعني: اقتربوا منكم . فارموهم ، واسْتَبْقُوا نبلكم ، ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم».

الأمر الثاني: نهيه صلى الله عليه وسلم عن سلِّ السيوف إلى أن تتداخل الصُّفوف[1]: «ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم» [أبو داود (2664)] .

الأمر الثالث: أمره صلى الله عليه وسلم الصَّحابة بالاقتصاد في الرَّمي[2]: «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [البخاري (3984/2) و3985) وأبو داود (2663)].

وعندما تقارن هذه التَّعليمات الحربيَّة بالمبادئ الحديثة في الدِّفاع؛ تجد أنَّ رسول الله (ﷺ) كان سباقاً إليها، من غير عكوفٍ على الدَّرس، ولا التحاقٍ بالكلِّيات الحربيَّة، فالنَّبيُّ (ﷺ) يرمي مِنْ وراء تعليماته الَّتي استعرضناها انفاً إلى تحقيق ما يُعرف حديثاً بكبت النِّيران إلى اللحظة الَّتي يصبح فيها العدوُّ في المدى المؤثِّر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده صلى الله عليه وسلم في قوله: «واسْتَبْقوا نَبْلكم» [سبق تخريجه] .

فرصة الاستفادة من الظُّروف الطَّبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهملْ صلى الله عليه وسلم فرصةَ الاستفادة من الظروف الطَّبيعية أثناء قتال العدوِّ، فقد كان يستفيد من كلِّ الظُّروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله صلى الله عليه وسلم قبل بدء القتال يوم بدرٍ، يقول المقريزي: «وأصبح صلى الله عليه وسلم ببدرٍ قبل أن تنزل قريش، فطلعت الشَّمس وهو يصفُّهم، فاستقبل المغرب، وجعل الشَّمس خلفه، فاستقبلوا الشَّمس»[3].

وهذا التَّصرُّف يدلُّ على حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم ، واستفادته حتَّى من الظُّروف الطَّبيعية، لما يحقِّق المصلحة لجيشه؛ وإنَّما فعل ذلك لأنَّ الشَّمس إذا كانت في وجه المقاتل، تسبِّب له عَشَا[4] البصر؛ فتقلُّ مقاومته، ومجابهته لعدوِّه[5]. وفيما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ إشارةٌ إلى أنَّ الظروف الطَّبيعيَّة كالشَّمس، والرِّيح، والتَّضاريس الجغرافيَّة، وغيرها لها تأثيرٌ عظيمٌ على موازين القوى في المعارك، وهي من الأسباب الَّتي طلب الله منَّا الأخذ بها؛

---

[1] نَضَحَهُ بالنَّبل: إذا رماه به.

[2] انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص 63 ، 64.

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] انظر: القيادة العسكرية ، ص 453.

[5] عَشِيَ عَشاً ، وعَشَاوةً: ضعُفَ بصرُه ليلاً ، فهو أعشى.

لتحقيق النَّصر، والصُّعود إلى المعالي[1].

سَوَّاد بن غَزِيَّة في الصفوف:

كان صلى الله عليه وسلم في بدرٍ يعدِّل الصُّفوف، ويقوم بتسويتها؛ لكي تكون مستقيمةً، متراصةً؛ وبيده سَهْمٌ لا ريش له، يُعَدِّل به الصَّف، فرأى رجلاً اسمه سَوَّاد بن غَزِيَّة وقد خرج من الصَّفِّ، فطعنه صلى الله عليه وسلم في بطنه، وقال له: «استوِ يا سَوَّاد!» فقال: يا رسولَ الله! أَوْجَعْتَنِي! وقد بعثك الله بالحقِّ، والعدل، فأَقِدْني[2]، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه، وقال: «استَقِدْ»، فاعتنقه، فقبَّل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سَوَّاد!» قال: يا رسولَ الله! حضر ما ترى؛ فأردت أن يكون اخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جِلْدَك. فدعا له رسول الله بخير. [ابن هشام (2/278 – 279)].

ويُستفاد من قصَّة سَوَّاد رضي الله عنه أمورٌ؛ منها:

1 – حرص الإسلام على النِّظام.

2 – العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم القَوَد من نفسه.

3 – حب الجندي لقائده.

4 – تذكُّر الموت، والشَّهادة.

5 – جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباركٌ، ومسُّه فيه بركةٌ؛ ولهذا حرص عليها سَوَّاد.

6 – بطن الرَّجل ليس بعورةٍ؛ بدليل: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كشف عنه، ولو كان عورةً؛ لما كشف عنه[3].

تحريض النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أصحابه على القتال:

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يربِّي أصحابَه على أن يكونوا أصحاب إراداتٍ قويَّةٍ،

---

[1] انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذيِّ (7/175).

[2] أَقِدْني: اقتصَّ لي من نفسك.

[3] انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص 52.

راسخةٍ، ثابتةٍ، ثبات الشُّمِّ[1] الرَّواسي، فيملأ قلوبهم شجاعةً، وجرأةً، وأملاً في النَّصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القويَّة أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب؛ التَّرغيب في أجر المجاهدين الثَّابتين، والتَّرهيب من التولِّي يوم الزَّحف، والفرار من ساحات الوَغَى[2]، كما كان يحدِّثهم عن عوامل النَّصر، وأسبابه؛ ليأخذوا بها، ويلتزموها، ويحذِّرهم من أسباب الهزيمة؛ ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[3].

وكان صلى الله عليه وسلم يحثُّ أصحابه على القتال، ويحرِّضهم عليه؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الآنفال: 65]، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾ [النساء: 84] .

وفي غزوة بدرٍ الكبرى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات، والأرض»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله! جَنَّةٌ عرضُها السَّموات والأَرضُ؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ، بخٍ! (كلمة تعجب)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما يحملُك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟!» قال: لا والله! يا رسولَ الله! إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنَّك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قَرَنِهِ (جعْبَة النُّشَّاب)، فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتَّى آكل تمراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، قال: فرمى بما كان معه من التَّمر، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتل. [مسلم (1901)] .

وفي روايةٍ قال: قال أنسٌ رضي الله عنه: فرمى ما كان معه من التَّمر، وقاتل؛ وهو يقول:

رَكْضاً إلى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ ... إلا التُّقَى وَعَمَلَ المعَادِ
والصَّبْرَ في الله على الجِهَادِ ... وكُلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى والبرِّ والرَّشَادِ

فقاتل - رحمه الله! - حتَّى استُشْهِد[4].

---

[1] الأَشَمُّ: المرتفع ، وهي شَمَّاءُ ، ويقال: جبلٌ أَشَمُّ ، والجمع: شُمٌّ.
[2] الوَغَى: الحَرْبُ؛ لما فيها من الصَّوت ، والجَلَبة.
[3] انظر: المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة ، لأبي فارس ، ص 140.
[4] انظر: صفة الصَّفوة (488/1) وزاد المعاد (182/3).

ومن صور التَّعبئة المعنويَّة: أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يبشِّرهم بقتل صَنَادِيد[1] المشركين، وزيادةً لهم في الطُّمأْنينة، كان يحدِّد مكان قتل كلِّ واحدٍ منهم[2]، كما كان يبشِّـــر المؤمنين بالنَّصر قبل بدء القتال، فيقول: «أبشرْ أبا بكر» ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للصَّـــحابة – رضـــوان الله عليهم –: «والذي نفسُ محمد بيده! لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ، فَيُقْتَل صابراً محتسباً، مقبلاً غيرَ مُدْبرٍ، إلا أدخله الله الجنَّة» [ابن هشام (279/2)] .

وقد أثَّرت هذه التَّعبئة المعنويَّة في نفوس أصحابه – رضوان الله عليهم – والَّذين جاؤوا من بعدهم بإحسانٍ[3].

وكان (ﷺ) يطلب من المســـلمين ألاَّ يتقدمَ أحدٌ إلى شـــيءٍ حتَّى يكون دونه، فعن أنسٍ رضـــي الله عنه قال: .... فانطلق رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وأصـحابه حتَّى سـبقوا المشـركين إلى بدرٍ، وجاء المشـركون، فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : «لا يَقْدُمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونَه»[4]، فدنا المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ» [سبق-تخريجه] .

دعاؤه صلى الله عليه وسلم واستغاثته:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: 9]، لـــمَّا نظم صلى الله عليه وسلم صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم، وحرَّضهم على القتالِ؛ رجع إلى العريش الَّذي بُني له، ومعه صـاحبه أبو بكرٍ رضـي الله عنه، وسـعد بن معاذٍ على باب العريش لحراسته؛ وهو شاهرٌ سَيْفَه، واتَّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربِّـــه يدعوه، ويناشده النَّصر الَّذي وعده، ويقول في دعائه: «اللَّهمَّ أَنْجِزْ لي ما وعدتني! اللَّهُمَّ اتِ ما وعدتني! اللَّهُمَّ إن تُهْلِكْ هذه العصـابةَ من أهل الإسـلام لا تُعْبَدْ في الأرض!» فما زال يهتفُ بربِّه، مادّاً يديه، مسـتقبلَ القبلة، حتَّى سـقط رداؤُهُ عن مَنْكِبيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذ رِدَاءَهُ،

---

[1] الصِّنْدِيدُ: الشَّريفُ الشُّجاعُ ، والجمع: صَنَادِيدُ.

[2] قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلمكان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول: هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدودَ الَّتي حدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم». رواه مسلمٌ ، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها ، رقم (2873).

[3] المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، لأبي فارس ، ص 143.

[4] (لا يتقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتَّى أكون أنا دونه): أي: قدَّامه متقدِّماً في ذلك الشَّيء؛ لئلا يفوت شيءٌ من المصالح التي لا تعلمونها.

فألقاه على مَنْكبيه، ثمَّ التزمه من ورائه، وقال: يا نبيَّ الله! كفاك مناشــدتُك ربَّك، فإنَّه ســينجز لـــــكَ ما وعدك! [مسلم (1763) وأبو داود (2690) والترمذي (3081) وأحمد (30/1)]. فأنزل الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾

وفي رواية ابن عباسٍ قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ: «اللَّهمَّ أنشُدُكَ عَهْدَكَ، ووعدك! اللَّهُمَّ إن شئتَ لم تُعْبَدْ» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج صلى الله عليه وسلم ؛ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [(2915) وأحمد (329/1) والبيهقي في الدلائل (50/3)].

وروى ابن إســـحاق: أنَّه صـــلى الله عليه وســـلم قال: «اللَّهُمَّ هذه قريش، قد أقبلت بخُيَلائها[1]، وفَخْرها، تُحَادُّك[2] وتكذِّبُ رسولَك، اللَّهُمَّ فنصرَك الَّذي وعدتني! اللَّهُم أحنهم[3] الغداة!» [ابن هشام (273/2) والبيهقي في الدلائل (110/3)] .

وهـذا درسٌ ربَّانيٌّ مهمٌّ لكـلِّ قـائـدٍ، أو حـاكمٍ، أو زعيمٍ، أو فردٍ في التَّجرُّد من النَّفس. وحظِّها، والخلوص، واللُّجوء لله وحدَه، والسُّــجود، والجُثُوِّ بين يدي الله ســبحانه؛ لكي ينزل نصره، ويبقى مشـهد نبيِّه؛ وقد سـقط رداؤه عن كتفه؛ وهو مادٌّ يديه يسـتغيث بالله، يبقى هذا المشـــهد محفوراً بقلبه، ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه السَّـــاعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسؤوليَّة، وتُلقى عليه أعباء القيادة[4].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾

بعد أن دعا صلى الله عليه وسلم ربَّه في العريش، واستغاث بـــه، خرج من العريش، فأخذ قبضـــةً من التُّراب، وحصب بها وجوهَ المشركين، وقال صلى الله عليه وسلم : «شاهتِ الوجوه» [ابن هشام (280/2)] ثمَّ أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يَصْدُقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]، ومعنى الآية: أنَّ الله

---

[1] الخُيَلاء: التكبُّر ، والعجب.

[2] تُحَادُّك: تعاديك.

[3] أحنهم: أهلكهم.

[4] انظر: التَّربية القياديَّة (36/3).

سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرَّمي، ونفى عنه الإيصال الَّذي لم يحصل برميته[1].

ونلحظ: أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم أخذ بالأسباب المادِّيَّة، والمعنويَّة، وتوكَّل على الله، فكان النَّصـر والتَّأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدرٍ الأخذ بالأسـباب بالقَدْرِ الممكن، مع التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في تهيئة جميع أسـباب النَّصـر متعاونةً، متكافئةً مع التأييدات الرَّبَّانيَّة الخارقة، والغيبيَّة؛ ففي عالم الأسباب تشكِّل دراسة الأرض، والطَّقس، ووجود القيادة والثِّقة بها، والرُّوح المعنويَّة لبناتٍ أساسيةً في صحَّة القرار العسكريِّ، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين، وكان الطَّقس مناسباً للمعركة، والقيادة الرَّفيعة موجودةً، والثِّقة بها كبيرة، والرُّوح المعنويَّة مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكلٍ مباشرٍ، وتوفيقه، وبعضها كان من فِعْلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً بالأسـباب المطلوبة، فتضـافر الأخذ بالأسـباب مع توفيق الله، وزيدَ على ذلك التأييدات الغيبيَّة، والخارقة؛ فكان ما كان، وذلك نموذجٌ على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله، إذا ما صلحت النِّـيَّات عند الجند، والقادة، ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب[2].

* * *

---

[1] انظر: المستفاد من قصص القران (125/2).

[2] انظر: الأساس في السنة وفقهها، السِّيرة النَّبويَّة، لسعيد حوى (474/1).

المبحث الثَّالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفرديَّة، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار؛ ولكنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم أرجعهم؛ لأنَّه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله، وذوي قرباه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : «قم يا عُبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!» وبارز حمزةُ شيبةَ، فقتله، وبارز عليٌّ الوليدَ، وقتله، وبارز عبيدةُ بن الحارث عتبةَ، فضرب كلُّ واحدٍ منهما الآخر بضربةٍ موجعةٍ، فكرَّ حمزة، وعليٌّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة، وأتيا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن ما لبث أن اسْتُشهد متأثراً بجراحه. [أبو داود (2665)][1] .

وفي هؤلاء السِّتَّة نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: 19 – 24].

ولـمَّا شاهد المشركون قَتْلَ الثلاثة الَّذين خرجوا للمبارزة؛ استشاطوا غضباً، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد، وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدِّفاع، ويرمونهم بالنَّبل، كما أمرهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وكان شعار المسلمين: أَحَدٌ، أحَدٌ، ثمَّ أمرهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالهجوم المضادِّ، محرِّضاً لهم على القتال، وقائلاً لهم: «شُدُّوا»، وواعداً مَنْ يُقتل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنَّة، وممَّا زاد في نشاط المسلمين، واندفاعهم في القتال، سماعُهم قولَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]، وعِلْمُهم، وإحساسُهم بإمداد الله لهم بالملائكة، وبتقليل المشركين في أعين المسلمين، ورؤيتهم رسولَ الله صلى الله عليه

[1] انظر: المستفاد من قصص القران (126/2).

وسلم يَثبُ في الدِّرع وقد تقدَّمهم، فلم يكن أحدٌ أقرب من المشركين منه، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1].

كان صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه – ليلة اليوم الَّذي التقى فيه الجيشان، رأى – المشركين قليلاً، وقد قصَّ رؤياه على أصحابه؛ فاستبشروا خيراً، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: 43] .

والمعنى: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رآه م – أي: رأى المشركين – في منامه قليلاً، فقصَّ ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآه م في منامه كثيراً؛ لفشلوا، وجبنوا على قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الآية بمعنى الماضي؛ لأنَّ نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام، أي: عصمهم من الفشل، والتنازع، فقلَّلهم في عين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ الله (ﷺ)[2]، فقصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيتٌ لهم، وتشجيعهم، وجرأتهم على عدوِّهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كلٌّ منهم عدد الآخر قليلاً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [الأنفال: 44] .

وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين؛ تصديقاً لرؤيا النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وليعاينوا ما أخبرهم به، فيزدادوا يقيناً، ويجدُّوا في قتالهم؛ ويثبتوا، قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: قلت لرجل إلى جنبي: أتراه م سبعين؟ قال: أراه م مئة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً، وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾حتَّى قال قائل من المشركين: إنَّما هم أكلة جزور.

ووجه الحكمة، واللُّطف بالمسلمين في هذا التَّقليل، هو أنَّ إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبَّتهم، ونشَّطهم، وجرآه م على قتال المشركين، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم، ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين، هو أنَّهم إذا رأوهم قليلاً؛ أقدموا

---

[1] انظر: الرَّحيق المختوم، ص 116 . 118 ، والحديث رواه البخاريُّ ، رقم (4875).

[2] انظر: المستفاد من قصص القران (125/2).

على قتالهم غيرَ خائفين، ولا مبالين بهم، ولا اخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجدٍّ، واستعدادٍ، ويقظةٍ، وتحرُّزٍ، ثمَّ إذا ما التحموا بالقتال فعلاً؛ تفجؤهم الكثرة، فَيُبْهَتُوا، ويَهَابُوا، وتكسر شوكتُهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم، وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم، وانتصار المسلمين عليهم[1].

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، ومرويات عددٍ من الصحابة البدريين: أنَّ الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرُّعب.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمنوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۝ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:-123 – 126].

وأورد البخاريُّ، ومسلمٌ، وأحمد بن حنبل، وغيرهم عدداً من الأحاديث الصَّحيحة الَّتي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدرٍ، وقيامهم بضرب المشركين، وقتلهم[2].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ، يَشْتَدُّ في أَثَرِ رجلٍ من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ[3]! فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو خُطِمَ أنفُه[4]، وشُقَّ وَجْهُهُ كضربة السَّوط، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فجاء الأنصاريُّ، فحدَّثَ بذلك رسولَ الله، فقال: «صدقتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماء الثالثة»، [سبق تخريجه] ومن حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما – أيضاً – قال: إنَّ

---

[1] انظر: تفسير الزَّمخشري (225/2) ، وتفسير ابن كثير (315/2).

[2] انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم(291/1).

[3] حَيْزُوم: اسم الفرس الَّذي يركبه الملَكُ.

[4] خُطِمَ: الخطم الأثر على الأنف.

النبي صـــلى الله عليه وســـلم قال يوم بدرٍ: «هذا جبريلُ اخِذٌ برأس فرســـه، عليه أداةُ الحرب» [البخاري (3995)]، ومن حديث عليّ بن أبي طالبٍ رضـــي الله عنه قال: فجاء رجلٌ من الأنصـــار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطَّلب أسيراً، فقال العباس: يا رسولَ الله! إنَّ هذا والله! ما أسرني، لقد أســـرني رجل أَجْلَحُ[1]، من أحســـن النَّاس وجهاً، على فرسٍ أَبْلَقَ[2]، وما أرآه في القوم، فقال الأنصاريُّ: أنا أسرته يا رسولَ الله! فقال: «اسكت، فقد أيَّدك الله بملكٍ كريمٍ»، [أحمد (117/1)]، ومن حديث أبي داود المازنيّ قال: «إنِّي لأتبع رجلاً من المشـركين لأضـربه؛ إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنَّه قتله غيري» [أحمد (450/5) وابن هشام (286/2)] .

«إنَّ إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعيٌّ ثابتٌ، لاشكَّ فيه، وإنَّ الحكمة من هذا الإمداد تحصـيل ما يكون سـبباً لانتصـار المسـلمين، وهذا ما حصـل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكلِّ ما يمكن أن يكون سـبباً لنصـر المسـلمين، من تبشـيرهم بالنَّصـر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم ؛ من بواعث الأمل في نصرهم ، والنَّشـاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنَّهم مُعانون من الله تعالى، وأيضـاً بما قام به بعضـهم من الاشـتراك الفعليِّ في القتال، ولاشـكَّ: أنَّ هذا الاشـتراك الفعليَّ في القتال قوَّى قلوبَهم، وثبَّتهم في القتال، وهذا ما دلَّت عليه الآيات، وصـــرَّحت به الأحاديث النَّبوية»[3].

وقد يســـأل ســـائل: ما الحكمة في إمداد المســـلمين بالملائكة، مع أنَّ واحداً من الملائكة كجبريل عليه السَّلام، قادرٌ – بتوفيق الله – على إبادة الكفَّار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك، فقال: لقد مضت سنَّة الله بتدافع الحقِّ، وأهله مع الباطل، وأهله، وأنَّ الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة، والآنتصار، وأنَّ هذا التَّدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحقِّ والباطل، ومن ثمرات التمسُّك بالحقِّ، والقيام بمتطلَّباته أن يحصـــلوا على عونٍ، وتأييد من الله تعالى بأشـــكالٍ، وأنواعٍ متعدِّدة من التأييد، والعون، ولكن تبقى المدافعة، والتدافع يجريان وَفْقاً لســـنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التَّدافع، فالجهة الأقوى بكلِّ معاني القوَّة اللازمة للغلبة هي الَّتي تغلب، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك

---

[1] الأَجْلَح: الَّذي انحسر شعره من جانبي رأسه ، فهو أجْلحُ ، وهي جَلْحَاءُ ، والجمع: جُلْحٌ.

[2] الأبلق: الَّذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

[3] انظر: المستفاد من قصص القران (131/2 ، 132).

العصبة المجاهدة، ذلك الإمداد الَّذي تحقَّق به ما يستلزم الغلبة على العدوِّ، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدَّمه أولئك المؤمنون في قتالٍ، ومباشرة لأعمال القتال، وتعرُّضهم للقتل، وصمودهم، وثباتهم في الحرب، واستدامة توكُّلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معانٍ جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة، والنَّصر مع الأسباب الأخرى المادِّية؛ مثل العُدَّة، والعَدد، والاستعداد للحرب، وتعلُّم فنونها ... إلخ، ولهذا فإنَّ الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل، وقتال المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادِّيَّة، والإيمانيّة للغلبة والآنتصار، وبأيديهم – إن شاء الله تعالى – ينال المبطلون ما يستحقُّونه من العقاب[1]، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14 – 15].

إنَّ نزول الملائكة – عليهم السَّلام – من السَّموات العلا إلى الأرض؛ لنصر المؤمنين حدثٌ عظيمٌ؛ إنَّه قوَّةٌ عظمى، وثباتٌ راسخٌ للمؤمنين؛ حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنَّهم إذا حققوا أسباب النَّصر، واجتنبوا موانعه، فإنَّهم أهلٌ لمدد السَّماء، وهذا الشُّعور يعطيهم جرأةً في مقابلة الأعداء، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة، لبُعد التكافؤ المادِّيِّ بين جيش الكفار الكبيرِ عدداً، القويِّ إعداداً، وجيش المؤمنين القليلِ عدداً، الضعيفِ إعداداً.

وهو في الوقت نفسه عاملٌ قويٌّ في تحطيم معنوية الكفَّارِ، وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تَكْرَار نزول الملائكة؛ الَّذين شاهدهم بعض الكفَّار عَيَاناً، إنَّهم مهما قدَّروا قوَّة المسلمين، وعددهم؛ فإنَّه سيبقى في وجداهم رعبٌ مزلزِلٌ من احتمال مشاركة قوىً غير منظورةٍ، لا يعلمون عددها، ولا يقدِّرون مدى قوَّتها، وقد رافق هذا الشُّعورُ المؤمنين في كلِّ حروبهم؛ الَّتي خاضها الصَّحابة رضي الله عنهم في العهد النَّبويِّ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك، فكان عاملاً قويّاً في انتصاراتهم المتكرِّرة الحاسمة مع أعدائهم[2].

---

[1] انظر: المستفاد من قصص القران (131/2، 132).

[2] انظر: التاريخ الإسلاميُّ، للحميدي (145/4).

ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل القَليب[1]:

انتهت معركة بدرٍ بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركينَ سبعين رجلاً، وأُسِر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش، وزعمائهم، واسْتُشهد من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً، منهم ستَّةٌ من المهاجرين، وثمانيةٌ من الأنصار، ولما تمَّ الفتحُ، وانهزم المشركون؛ أرسل صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن رَوَاحة، وزيدَ بن حارثة، ليبشِّرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين، وهزيمة المشركين[2].

ومكث صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيَّام في بدرٍ، فقد ذكر أنس بن مالكٍ عن أبي طلحة: «أنَّ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم ... وكان إذا ظَهَرَ على قومٍ: أقام بالعَرْصَة ثلاث ليالٍ» [البخاري (3976)] ولعلَّ الحكمة في ذلك:

1 – تصفية الموقف بالقضاء على أيَّة حركةٍ من المقاومة اليائسة؛ الَّتي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارّين.

2 – دفن من استشهد من جند الله، مما لا تكاد تخلو منه معركةٌ، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يَرِدْ ما يشير إلى الصَّلاة عليهم، ولم يُدفن أحدٌ منهم خارج بدرٍ[3].

3 – جمع الغنائم، وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ؛ حتى تُؤَدَّى كاملةً إلى مستحقِّيها، وقد أُسندت أنفال، وغنائم بدر، إلى عبد الله بن كعبٍ الأنصاريّ أحد بني مازنٍ[4].

4 – إعطاء الجيش الظَّافر فرصةً يستريح فيها، بعد الجهد النَّفسيّ، والبدنيّ المُضْنِي الَّذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمّد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النَّصر المؤزَّر، الَّذي لم يكن دانيَ القطوف، سهلَ المنال، ويتذاكر أفراده، وجماعاته ما كان

---

[1] القَلِيب: البئر ، والجمع: قُلُبٌ.
[2] انظر: المستفاد من قصص القرآن (133/2).
[3] انظر: موسوعة نضرة النعيم (291/1).
[4] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لصادق عرجون (453/3).

من أحداثٍ ومفاجات في الموقعة، ممَّا كان له أثرٌ فعَّال في استجلاب النَّصر، وما كان من فلانٍ في شجاعته وفدائيته، وجرأته على اقتحام المضائق، وتفريج الأزمات، وما تكشَّفت عنه المعركة من دروسٍ عمليَّة في الكرِّ، والفرِّ، والتَّدبير المحكم الَّذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبَر، واستذكار أوامر القيادة العليا، وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعليَّة في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياءٌ يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصَّبور، المظفَّر بالنَّصر المبين.

5 - مواراة جِيَفِ[1] قتلى الأعداء، الَّذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرُّف عليهم، وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاءَ شرِّه في المستقبل؛ كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمَّة، والذي كان من شأن رأس الكفر أميَّة بن خلف، وأضرابهما، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ[2] من قُلُبِ بدرٍ، خبيثٍ مُخْبِثٍ [البخاري (3976)]، ثمَّ وقف على شفة الرَّكي[3]، وقد ورد: أنَّه صلى الله عليه وسلم وقف على القتلى، فقال: « بئس عشيرةُ النَّبيِّ كنتم لنبيِّكم ؛ كذَّبتموني، وصدَّقني النَّاس، وخذلتموني، ونصرني النَّاس، وأخرجتموني، وآواني النَّاس» [ابن هشام (2/292 - 293)] ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ من قُلُبِ بدر، فطُرِحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبةُ بنُ ربيعةَ! ويا شيبةُ بنُ ربيعةَ! ويا أُميَّةُ بنُ خلف! ويا أبا جهل بن هشام! ويا فلان! ويا فلان! هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً، فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقّاً»، فقال عمر بن الخطَّاب: يا رسولَ الله! ما تخاطب من أقوامٍ قد جيَّفوا؟ فقال: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً» [البخاري (3976) ومسلم (2873) و(2874)] .

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه، توبيخاً، وتصغيراً، ونقمةً، وحسرةً، وندماً. [البخاري في نهاية حديث (3976)] .

إنَّ مناداة الرسول صلى الله عليه وسلم لقتلى قريش بيَّنت أمراً عظيماً، وهو أنَّهم بدؤوا حياةً

---

[1] الجِيفَةُ: جُثَّةُ الميت إذا أَنْتَنَت ، والجمع: جِيَفٌ.

[2] الرَّكِيَّةُ: البئر لم تُطْوَ ، والجمع رَكَايَا ، ورَكِيٌّ.

[3] شفة الرَّكِيِّ: طرف البئر

جديدةً، هي حياة البرزخ الخاصَّــة، وهم فيها يســـمعون كلام الأحياء، غير أنَّهم لا يجيبون، ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائـــــد المســلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صــحاح الأحاديث، حتَّى إنَّه صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين، وقال: «إنهما لَيُعَذَّبَــان، وما يُعَذَّبَــان في كبيرٍ» [البخاري (218) ومسلم (292)] . وذكر: أنَّ سبب تعذيبهما النَّمُّ بين النَّاس، وعدمُ الاستنزاه من البَوْلِ[1]. ولابدَّ من التَّسليم بهذه الحقائق الغيبيَّة، بعد أن تحدَّث عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وســـلم ، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب ال فرعون، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُـــونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: 46]

وأمَّا الشُّـــهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلاَ تَحْسَــبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَــبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169].

* * *

[1] انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فوزي فيض الله ، ص 64.

المبحث الرَّابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطُّغاة:

أ – مصرع أبي جهل بن هشامٍ المخزوميّ:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضـي الله عنه: بَيْنَا أنا واقفٌ في الصَّـفِّ يوم بدرٍ، فنظرتُ عن يميني، وشِمالي، فإذا أنا بغُلاَمَيْنِ من الأنصـار حديثة أَسْـنَانُهما، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بين أضـلَعَ[1] منهما، فغمزني[2] أحدُهما، فقال: يا عمُّ ! هل تعرفُ أبا جهلٍ؟ قلتُ: نعم، وما حاجتُك إليه يابن أخي؟! قال: أُخْبِرْتُ أنَّه يَسُبُّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، والَّذي نفسي بيده! لئن رأيتُهُ لا يُفارقُ سـوادي سـوادَهُ؛ حتَّى يموتَ الأعجلُ منا[3]، فتعجبتُ لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مِثْلَهَا، فلم أَنْشَـبْ[4] أَنْ نظرتُ إلى أبي جهلٍ يَجُول في النَّاس، فقلت: ألا إنَّ هذا صَاحِبُكما الَّذي سألْتُمَاني، فابتدرآه بسيفيهما، فضرباه حتَّى قتلاه، ثمَّ انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرآه ، فقال: «أيُّكما قَـتَـلَهُ؟» قال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه! فقال: «هل مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُما؟»، قالا: لا. فنظر في السَّيفين، فقال: «كِلاَكُما قتله، سَلَبُه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح» وكانا: مُعاذَ بن عَفْرَاء، ومُعَاذَ بن عمروِ بن الجموح» [البخاري (3141) ومسـلم (1752)][5] .

وفي حديث أنسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ: «مَنْ ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسـعود، فوجده قد ضـرَبَه ابنا عفراء حتَّى بَرَدَ[6]، فأخذ بلحيته، فقال:

---

[1] أضلع: أقوى ، وأعظم ، وأشدُّ.

[2] غمزني: قرصني.

[3] حتَّى يموتَ الأعجلُ منا: أي: الأقرب أجلاً.

[4] أنشب: ألبث.

[5] وإنَّما قضى صلى الله عليه وسلمبالسَّلَب لعمرو بن الجَمُوح وحده؛ لأن السَّلَب يستحقُّه من أثخن في القتل ، ولو شاركه غيره في الضَّرب ، أو الطعن، وإنَّما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كلاكما قتله» تطييباً لقلب الاخر؛ من حيث إنَّ له مشاركةً في قتله ، ومن ذلك عُلِمَ أنَّ ابن الجموح هو الَّذي أثخنه ، وأيضاً فإن مُعاذَ بن عفراء قُتِلَ في المعركة نفسها ، وأما الاخر فقد عاش إلى زمان عثمان رضي الله عنه.

[6] بَرَدَ: قارب على الموت ، وكان في النَّزع الأخير ، أو فَتَرَ وسَكَنَ ، والمعنيان متقاربان.

أنت أبا جهل؟! قال: وهل فوقَ رجلٍ قتله قومُه؟ أو قال: قَتَلتموه. [البخاري (3962) ومسلم (118/1800)] .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركتُ أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً، فقلت: أيْ عدوَّ الله، قد أخزاك الله! قال: وبِمَ أخزاني؟ هل أَعْمُدُ من رجلٍ قتله قومه[1]، ومعي سيفٌ لي، فجعلت أضربه، ولا يحتك فيه شيءٌ، ومعه سيفٌ له جيِّدٌ، فضربتُ يده، فوقع السَّيف من يده، فأخذته، ثمَّ كشفتُ المِغْفَرَ عن رأسه، فضربتُ عنقَه، ثمَّ أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته، فقال: «الله الَّذي لا إله إلا هو؟!» قلت: الله الَّذي لا إله إلا هو!

قال: فانطلق فاستثبت، فانطلقتُ؛ وأنا أسعى مثلَ الطَّائر، ثم جئتُ، وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انطلق» فانطلقتُ معه فأريتُه، فلمَّا وقف عليه صلى الله عليه وسلم قال: «هذا فرعونُ هذه الأمَّة» [أحمد (403/1 و444) وأبو داود (2709) مختصراً] .

كان الدَّافع من حرص الأنصاريَّيْنِ الشَّابَّيْنِ على قتل أبي جهلٍ ما سمعاه من أنَّه كان يسبُّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا تبلغ محبَّة شباب الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى بذل النَّفس في سبيل الآنتقام ممَّن تعرَّض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه وأبي جهلٍ - وهو في الرَّمق الأخير من حياته - فيه عبرةٌ بليغةٌ، فهذا الطَّاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكَّة، قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على اخر رمقٍ من حياته، هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً؛ حتى؛ وهو صريعٌ وفي اخر لحظات حياته [2]، فقد جاء في روايةٍ لابن إسحاق: أنَّه قال لعبد الله بن مسعود لـمَّا أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعِي الغنم!» [ابن هشام (289/2)] .

«فالله تعالى لم يُعجِّلْ لهذا الخبيث أبي جهلٍ بضربات الأبطال من أشبال الأنصار فحسب،

---

[1]](أَعْمَدُ من رجل قتله قومه) أو (هل فوق رجل قتله قومه): أي: ليس عليَّ عارٌ؛ فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

[2] انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (158/4 . 160).

ولكنَّه أبقاه مصروعاً في حالةٍ من الإدراك، والوعي، بعد أن أصابته ضرباتٌ أشفَتْ به على الهلاك الأبديّ، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة، والذُّلِّ، والخذلان على يد من كان يستضعفه، ويؤذيه، ويضطهده بمكَّة من رجال الرَّعيل الأوَّل - السَّابقين إلى مظلَّة الإيمان، وطُهْر العقيدة، والتعبُّد لله بشرائعه الَّتي أنزلها رحمةً للعالمين - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيراً له، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره، واستكباره في الأرض، ويستلُّ منه سيفه إمعاناً في البطش به، فيقتله به، ويمعن في إغاظته بإخباره: أنَّ النَّصر عقد بناصية جند الله، وكتيبة الإسلام، وأنَّ شَنَارَ[1] الهزيمة النَّكراء، وعارها، وخزيها، وخذلانها قد رُزِئَتْ[2] به كتائب الغرور الأجوف، في حشود النَّفير الَّذي قاده هذا الكفور الخبيث...»[3].

ب - مصرع أميَّة بن خلف:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: «كَاتبتُ أُمية بنَ خلف كتاباً، بأن يحفظني في صَاغِيَتِي[4] بمكَّة، وأحفظه في صَاغِيَتِهِ بالمدينة، فلمَّا ذكرتُ (الرَّحمن) قال: لا أعرفُ الرَّحمنَ، كَاتِبْني باسمك الَّذي كان في الجاهليَّة، فكاتبته (عبدُ عمرٍو).

فلمَّا كان في يوم بدرٍ؛ خرجْتُ إلى جَبَلٍ لأُحْرِزَهُ[5] حين نام النَّاسُ، فأبصره بلالٌ، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار، فقال: أُميةُ بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أميَّةُ، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلمَّا خَشِيتُ أن يلحقونا خلَّفتُ لهم ابنَهُ لأشْغِلَهم، فقتلوه، ثمَّ أَبَوا حتَّى يَتْبَعُونا - وكان رجلاً ثقيلاً[6] - فلما أدركونا؛ قلتُ له: ابْرُكْ، فَبَرَكَ، فألقيتُ عليه نفسي لأمنعه، فتَجَلَّلُوهُ[7] بالسُّيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدُهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرَّحمن بن عوف يُرِينا ذلك الأَثَرَ في ظَهْرِ قَدَمِهِ» [البخاري (2301 و3971)] .

---

[1] الشَّنَارُ: الأمر المشهور بالشُّنعَةِ والقُبْح ، ويقال: عارٌ وشَنَارٌ.

[2] رَزَأَهُ رُزْءاً: أصابه بمصيبة.

[3] انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلملصادق عرجون (3/431 ، 432).

[4] الصَّاغية: صاغية الرَّجل: ما يميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال.

[5] أُحْرِزَهُ: أحميه.

[6] وكان رجلاً ثقيلاً: أي: ضخم الجثَّة.

[7] تجلَّلوه: طعنوه ، وأصابوه ، وفي رواية (فتخلَّلوه) أي: أدخلوا أسيافَهم خلاله.

وفي روايةٍ أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضـي الله عنه قال: كان أُمَيَّةُ بن خلفٍ لي صـديقاً بمكَّة، وكان اسمي عبدَ عمرٍو، فتسمَّيتُ حين أسلمتُ عبدَ الرَّحمن، ونحن بمكَّة، فكان يلقاني؛ إذ نحن بمكَّة، فيقول: يا عبدَ عمرو! أرغبتَ عن اسـمٍ سمَّاكه أبواك؟ فأقول: نعم، فيقول: فإنِّي لا أعرف الرَّحمن؛ فاجعل بيني وبينك شـيئاً أدعوك به، أمَّا أنت فلا تجيبني باسمك الأوَّل، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: فكان إذا دعاني: يا عبدَ عمرو! لم أجبْه، قال: فقلت له: يا أبا عليٍّ! اجعلْ ما شئتَ!، قال: فأنت عبدُ الإله، قال: فقلت: نعم، قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبدَ الإله! فأجيبه، فأتحدث معه، حتَّى إذا كان يومَ بدرٍ؛ مررتُ به؛ وهو واقفٌ مع ابنه عليٍّ، عليّ بن أميَّة، اخذٌ بيده، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها، فأنا أحملُها، فلـمَّا راني؛ قال لي: يا عبدَ عمرو، فلم أجبْه، فقال: يا عبدَ الإله! فقلتُ: نعم، قال: هل لك فيَّ؛ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع الَّتي معك؟ قال: قلت: نعم ها الله ذا[1]! قال: فطرحتُ الأدراعَ من يدي، وأخذت بيده، ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطُّ، أما لكم حاجةٌ في اللَّبن؟ (قال): ثمَّ خرجت أمشـي بهما، قال ابن هشام: يريد باللَّبن: أنَّ من أسرني؛ افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللَّبن. [ابن هشام (283/2 – 284)] .

ونلحظ من الرِّوايات السَّابقة:

1 – ما جرى من بلالٍ رضي الله عنه، حينما رأى عدوَّه اللَّدود أميَّةَ بن خلفٍ؛ الَّذي كان يسومه أقسى، وأعنف أنواع العذاب في مكَّة في يد عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه أسيراً؛ صرخ بأعلى صوته: (لا نجوت؛ إن نجا!).

إنَّه موقف من مواقف التَّشـفِّي من أعداء الله، والتَّشـفِّي من كبار الكفرة الفجَّار في الحياة الدُّنيا، نعمةٌ يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين، الَّذين ذاقوا الذُّلَّ، والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطُّغاة، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُـدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14 – 15] .

---

[1] كذا في شرح السِّيرة والرَّوض ، قال السُّهيلي: «ها: تنبيه ، وذا: إشارة إلى نفسه ، وقال بعضهم: إلى القسم ، أي: هذا قسمي ، وأراها إشارة إلى المقسم ، وخفض اسم الله بحرف القسم أضمره ، وقام التَّنبيه مقامه ، كما يقوم الاستفهام مقامه ، فكأنَّه قال: ها أنذا مقسِمٌ ، وفصل بالاسم المقسم به بين (ها) و(ذا) ، فعلم أنَّه هو المقسم ، فاستغنى عن أنا ، ومثله قول أبي بكرٍ: لا ها اللهِ! في صحيح مسلمٍ (1751)».

2 - إنَّ فيما جرى لأُميَّةَ بن خلفٍ من قتلٍ مفزعٍ درســـاً بليغاً للطُّغاة المتجبِّرين، وعبرةً للمعتبرين؛ الَّذين يغترُّون بقوَّتهم، وينخدعون بجاههم، ومكانتهم، فيعتدون على الضُّـــعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، فمالهم إلى عاقبةٍ سيِّئةٍ، ووخيمةٍ في الآخرة، وقد يمكِّن الله للضُّعفاء منهم في الدُّنيا قبل الآخرة؛ كما حدث لأُمَية بن خلف، وأضرابه من طغاة الكفر[1]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: 5] .

3 - وفي قول عبــد الرَّحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً! ذهبــتْ أدْراعي، وفجعني بأسيريَّ»[2]، مع ما جرى من بلالٍ من معارضةٍ وانتزاع الأسيرين من يده بقوَّة الأنصار الَّذين استنجد بهم، دليلٌ على قوَّة الرِّباط الأخوي بين الصَّحابة الكرام[3].

4 - موقف لأمِّ صـــفوان بن أميَّة (زوجة أُميَّةَ بن خَلف): قيل لأمِّ صـــفوان بن أميَّة بعد إســلامها، وقد نظرت إلى الحُبَاب بن المنذر بمكَّة: هذا الذي قَطَعَ رِجْلَ عليِّ بن أميَّة يوم بدرٍ، قالت: دَعُونا من ذكْرِ مَنْ قُتِل على الشِّـرك! قد أهان الله عليّاً بضـربة الحُبَاب بن المنذر، وأكرم اللهُ الحُبَابَ بضــربه عليّاً، قد كان على الإســلام حين خرج من هاهنا، فقُتِلَ على غير ذلك[4]، وهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمانها، ورســوخ يقينها؛ حيث اتَّضـــحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحبُّ المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها(1).

وقولها عن ابنها عليّ: «قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقُتل على غير ذلك» تعني: أنَّه كان ممَّن عُرف عنهم الإسلام بمكَّة، وخرجوا مع قومهم يوم بدرٍ مُكْرَهين فلـــمَّا التقى الصَّـــفَّان؛ فُتِنوا حينما رأوا قلَّة المســـلمين، فقالوا: قد غَرَّ هؤلاء دينُهم[5]، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الآنفال: 49] .

---

[1] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميدي (152/4 ، 153).

[2] انظر: سيرة ابن هشام (244/2).

[3] انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميدي (153/4).

[4] المصدر السابق نفسه (154/4).

[5] انظر: تفسير الطَّبري (21/10).

ج – مصرع عُبَيْدَة بن سعيد بن العاص على يد الزُّبير رضي الله عنه:

«قال الزُّبير بن العوَّام رضـــي الله عنه: لقيتُ يوم بدرٍ عُبَيْدَةَ بن ســـعيد بن العاص، وهو مُـدَجَّجٌ[1] لا يُرى منـه إلا عينـاه، وهو يُكْنَى أبا ذات الكَرِش، فقـال: أنا أبو ذات الكَرِش، فحملت عليه بالْعَنَزَةِ[2]، فطعنته في عينه، فمات، قال هشـــامٌ: فأُخْبِرْتُ: أنَّ الزُّبيرَ قال: لقد وضعتُ رجلي عليه، ثمَّ تمطَّأتُ، فكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرفاها[3].

قال عُروْة: فسأله إيَّاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه، فلـــمَّا قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أخذها، ثمَّ طلبها أبو بكر، فأعطاه، فلمَّا قُبض أبو بكر، سأله إيَّاها عمر، فأعطاه إيَّاها، فلــمَّا قُبض عمر أخذها، ثمَّ طلبها عثمان منه، فأعطاه إيَّاها، فلــمَّا قُتل عثمان وقعت عند ال عليٍّ، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتَّى قُتل» [البخاري (3998)] .

«هذا الخبر يصـوِّر لنا دقَّة الزُّبير بن العوَّام رضـي الله عنه في إصـابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضـــع الحربة في عين ذلك الرَّجل، مع ضـــيق ذلك المكان، وكونه قد وزَّع طاقته بين الهجوم والدِّفاع، فلقد كانت إصـــابة ذلك الرَّجل بعيدةً جداً؛ لكونه قد حمى جســـمه بالحديد الواقي؛ لكنَّ الزُّبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق؛ ممَّا يدلُّ على قوَّة الزُّبير الجسديَّة، إضافةً إلى دقَّته، ومهارته في إصابة الهدف»[4].

د – مصرع الأسْود المخْزُوميِّ:

قال ابن إســحاق: وقد خرج الأَسْـود المخْزُوميُّ، وكان رجلاً شـرسـاً سَـيِّءَ الخُلق، فقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتنَّ دونه! فلـــمَّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلـمَّا التقيا ضربه حمزةُ فأَطنَّ[5] قَدَمَهُ بِنصْف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تَشْـخُب[6] رجله دماً نحو أصـحابه، ثمَّ حبا إلى الحوض حتَّى اقتحم فيه، يريد أن يُبِرَّ يمينه،

---

[1] مُدَجَّجٌ: بجيمين الأولى ثقيلةٌ ومفتوحةٌ. وقد تكسر. أي: مغطًّى بالسِّلاح؛ ولا يظهر منه شيء.
[2] العَنَزة: شبيه العُكازة لها زُجٌّ من أسفلها يُطْعَنُ به.
[3] انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (154/4).
[4] المصدر السابق نفسه ، (163/4).
[5] أطَنَّ: أطار.
[6] تَشْخُب: تسيل بصوتٍ.

وأتبعه حمزة فضربه؛ حتَّى قتله في الحوض[1].

وقد سأل أميَّةُ بن خلف عبد الرحمن بن عوف، عن الرَّجل المعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟ فأجابه عبد الرَّحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أميَّةُ: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[2]، وهذه شهادةٌ من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني: أنَّه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً، وتشريداً[3].

وكان هذا أوَّل من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللَّئيم الشَّرِس يتحدَّى المسلمين، فتصدَّى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه، ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبِّرين درساً في الصَّميم[4].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ - استشهاد حارثة بن سُراقة رضي الله عنه:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أُصيب حارثةُ يومٍ بدرٍ، وهو غلامٌ، فجاءت أمُّه إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلةَ حارثةَ منِّي، فإن يكن في الجنَّة؛ أصبرْ، وأحتسبْ، وإن تكن الأخرى، ترَ ما أصنعُ؟ فقال: «ويحكِ! أَوَهَبِلْتِ! أَوجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنَّها جنانٌ كثيرةٌ، وإنَّه في جنة الفردوس» [البخاري (3982)] وفي روايةٍ: «يا أمَّ حارثةَ! إنَّها جنان في الجنَّة، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[5].

ب - استشهاد عوف بن الحارث رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أنَّ عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء[6]، قال: يا رسول الله! ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: «غمسُهُ يده في العدوِّ

---

[1] انظر: سيرة ابن هشام (237/2).
[2] انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (151/4)، وسيرة ابن هشام (مقتل أميَّة بن خلف).
[3] المصدر السابق نفسه، (152/4).
[4] المصدر السَّابق نفسه، (121/4).
[5] الأساس في السُّنَّة وفقهها، السِّيرة النَّبويَّة، لسعيد حوَّى (475/1).
[6] عفراء: بنت عبيد بن ثعلبة النَّجَّاريَّة، شارك أولادها السَّبعة في غزوة بدرٍ.

حاسراً[1]» فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثمَّ أخذ سيفه، فقاتل القوم حتَّى قُتل[2].

وهذا الخبر يدلُّ على قوَّة ارتباط الصَّحابة الكرام بالآخرة، وحرصهم على رضوان الله تعالى، ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضـــي الله عنه كالسَّــــهم، وهو حاســـرٌ غير متدرّعٍ يثخن في الأعداء، حتَّى أكرمه الله بالشـــــهادة، لقد تغيَّرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلَّق أفراده بالآخرة، وأصـــبحوا حريصـــين على مرضـــاته، بعد أن كان جُلَّ همِّهم أن تتحدث النســـاءُ عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتُنشد الأشعار في شجاعتهم[3].

ج - استشهاد سعد بن خيثمة، ثمَّ أبيه رضي الله عنهما:

قال الحافظ بن حجر: قال موســى بن عقبة، عن ابن شــهاب: اســتهم يوم بدر ســعد بن خيثمة، وأبوه، فخرج سهم سعدٍ، فقال له أبوه: يا بُنيَّ! اثرني اليوم، فقال سعد: يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة؛ فعلت، فخرج سعدٌ إلى بدرٍ، فقُتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أُحُدٍ[4].

وهذا الخبر يُعطي صورةً مشرقةً عن بيوتات الصَّحابة في تنافسهم، وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى؛ فهذا سعد بن خيثمة، ووالده لا يستطيعان الخروج معاً؛ لاحتياج أسرتهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبةً في نيل الشَّـــهادة، حتَّى اضـــطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعدٍ رضي الله عنهما ، وكان الابن في غاية الأدب مع والده ؛ ولكنَّه كان مشـــتـاقاً إلى الجنَّة ، فأجاب بهذا الجواب البليغ: «يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة فعلتُ»[5].

د - دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة:

عن عائشـــة رضـــي الله عنها في حديثها عن طرح قتلى قريش في القَلِيب بعد معركة بدرٍ، قالت: فلـــمَّا أمر بهم، فسُحبوا؛ عُرِفَ في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يُسحب إلى القَليب، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أبا حذيفة! والله لكأنَّه ساءك ما كان في

---

(1) حاسراً: غير لابس الدِّرع.

(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 245 ، وانظر: الإصابة لابن حجر ، ترجمة عوف بن الحارث ، برقم (6107).

(3) انظر: التَّربية القياديَّة (31/2).

(4) الإصابة (23/2 ، 24) رقم (3118).

(5) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (87/4).

أبيك؟» فقال: والله يا رسـول الله! ما شـككت في الله، وفي رسـول الله، ولكن إن كان حليماً سديداً ذا رأيٍ، فكنت أرجو ألا يموتَ حتَّى يهديه الله - عزَّ وجلَّ - إلى الإسلام، فلـمَّا رأيت: أنَّه قد فات ذلك، ووقع حيث وقع؛ أحزنني ذلك! قال: فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير. [الحاكم (224/3)] .

إنَّ هذا الموقف يبيِّن قوة التَّجاذب بين الإيمان في ذِرْوَةَ اليقين، والعاطفة البشـــرَّية في قمَّة الوفاء النَّبويِّ؛ فالإيمان لا يُميت المشاعر البشريَّة؛ ولكنَّه يهذِّبها، فيحوِّلها من عصبيةٍ جاهليَّةٍ، إلى وفاءٍ لا ينكره المنهج الرَّبَّانيُّ في تطبيقه العمليِّ؛ فإيمان أبي حذيفة رضـــي الله عنه إيمانٌ لا تهزُّه زلازل الأحداث، فهو إذ يرى أباه يُقتل في أشـــراف قريشٍ كافراً، ويُلقى معهم في قَلِيب بدرٍ؛ يأخذه أسـف العاطفة البشـريَّة وفاءً لهذا الأب، ويظلُّ أبو حذيفة مُزَمَّلاً بإيمانه الرَّاسـخ رسـوخ الأَطْوَاد[1] الشَّـــامخات، فلا يزيد على أن يعتريه الاكتئاب على ما فات أباه من خيرٍ يرجوه له بالهداية إلى الإسلام[2]؛ ولهذا المقصد النَّبيل الَّذي آثار حزن أبي حذيفة، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيرٍ[3].

هـ ـ عُمَيْر بن أبي وقَّاص: لـمَّا سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدرٍ، وعُرض عليه جيش بدرٍ؛ ردَّ عُمَيْر ابن أبي وقَّاص، فبكى عميرٌ، فأجازه، فعقد عليه حمائل سـيفه، ولقد كان عُمَيْر يتوارى حتَّى لا يراه رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم ، فقال سـعد: رأيت أخي عُمَيْر بن أبي وقَّاص قبل أن يعرضـنا رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ ! قال: إنِّي أخاف أن يراني رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فيسـتصـغرَني، ويردَّني، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشَّهادة[4]. وقد استُشهد بالفعل.

* * *

---

(1) الأطْوَادُ: جمع طَوْد ، وهو الجبل العظيم.

(2) انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم(446/3).

(3) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (174/4).

(4) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 317 ، نقلاً عن صفة الصفوة (294/1) ، والمستدرك (188/3) والإصابة (35/3).

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النَّبيِّ(ﷺ) ، فشهدت معه بدراً، فالتقى النَّاس، فهزم الله – تبارك وتعالى – العدوَّ، فانطَلَقَتْ طائفةٌ في آثارهم يَهْزِمون ويقتلون، وأكبَّت طائفةٌ على العسكر يَحْوُونه، ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله(ﷺ) ؛ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً؛ حتَّى إذا كان اللَّيل، وفَاءَ[1] النَّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ.

قال الَّذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْناها، وجمعناها؛ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ، وقال الَّذين خرجوا في طلب العدوِّ: لستم بأحقَّ بها منَّا؛ نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ، وهزمناهم، وقال الَّذين أحدقوا برسول الله(ﷺ) : لستم بأحقَّ بها مِنَّا؛ نحن أحدقنا برسول الله(ﷺ) ، وخِفنا أن يصيب العدوُّ منه غرَّةً، واشتغلنا به؛ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **[الأنفال: 1]**؛ فقسمها رسول الله(ﷺ) على فُوَاقٍ بين المسلمين **[أحمد (324/5)]**.

وفي روايةٍ: قال عبادة بن الصَّامت عن الأنفال حين سُئِلَ عن سورة الأنفال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النَّفل[2]، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله – تبارك وتعالى – من أيدينا، فجعله إلى رسول الله(ﷺ) ، فقسمه رسول الله(ﷺ) فينا عن بواءٍ. يقول: على السَّواء. **[أحمد (322/5)]**.

---

(1) فَاءَ فَيْئاً: رَجَعَ.

(2) النَّفَل: الغنيمة ، والجمع: أنفال.

لقد خلَّد الله – سبحانه وتعالى – ذكرى غزوة بدرٍ في سورة الأنفال، وجاءت مفصلةً عن أحداثها وأسـبابها، ونتائجها، وتعرَّضـت الآيات الكريمة لعلاج النَّفس البشـريَّة، وتربيتها على معاني الإيمان العميق، والتَّكوين الدَّقيق، فبدأت السُّورة بتبيان حكم أثـرٍ من آثار القتال، وهو الغنائـم، فبيَّنت: أنَّ هـذه الغنائـم لله، والرَّسول فالله هو مالـك كلِّ شيءٍ، ورسوله(ﷺ) هو خليفتهُ، ثمَّ أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر:

بالتَّقوى، وإصـلاح ذات البين، والطَّاعة لله والرَّسـول(ﷺ) ، وهي أوامر مهمَّة جدّاً في موضـوع الجهاد؛ فالجهاد إذا لم ينشـأ عن تقوى فليس جهاداً، والجهاد يحتاج إلى وحدة صـفٍّ، ومن ثَمَّ فلابدَّ من إصـلاح ذات البين، والانضـباط هو الأسـاس في الجهاد؛ إذ لا جهاد بلا انضباط، ثمَّ بيَّن الله – عزَّ وجلَّ –: أنَّ الطَّاعة لله ولرسوله(ﷺ) علامةُ الإيمان.

وحدَّد الله – عزَّ وجلَّ – صـفات المؤمنين الحقيقيين، وهذا الوصـف، والتَّحديد مهمَّان في موضوع الجهاد الإسلاميِّ؛ لأنَّ الإيمان الحقيقي هو الَّذي يقوم به الجهاد الإسلاميُّ. لقد حدَّد الله – عزَّ وجلَّ – صـفات المؤمنين؛ بأنَّهم إذا ذكر الله؛ فزعت قلوبهم، وخافت، وفرقت، وإذا قرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم، ونما.

والصِّـفة الثَّالثة هي: التوكُّل على الله، فلا يرجون سـواه، ولا يقصـدون إلا إيَّاه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون: أنَّ (ما شـاء الله؛ كان، وما لم يشأ؛ لم يكن)، وأنَّه المتصرِّف في الخلق وحده لا شريك له، ولا معقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب.

والصِّـفة الرَّابعة: إقامة الصَّـلاة، والمحافظة على مواقيتها، ووضـوئها، وركوعها، وسـجودها، ومن ذلك إسباغ الطَّهور فيها، وتمام ركوعها، وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهُّد، والصَّلاة على النَّبيِّ(ﷺ) .

والصفة الخامسة: الإنفاق ممَّا رزقهم الله، وذلك يشمل إخراج الزَّكاة، وسائر الحقوق للعباد

من واجبٍ، ومســـتحبٍّ، والخلق كلُّهم عباد الله؛ فأحبُّهم إليه أنفعهم لخلقه، ثمَّ بيَّن الله – عزَّ وجلَّ – أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان، وأنَّ لهم عند الله منازلَ، ومقامات، ودرجات في الجنَّات، وأنَّ الله يغفر لهم السَّيِّئات، ويشكر الحسنات، وبهذا تنتهي مقدِّمة السُّورة بعد أن رفعت الهمم لكلِّ لوازم الجهاد، ونَفَتْ كلَّ عوامل الخذلان؛ من اختلافٍ على غنائم، أو خلافٍ بسبب شيءٍ، داعيةً إلى الطَّاعة، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[1].

قال تعالى: ﴿يَسْـــأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُـــولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْـــلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَئِـكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّـا لَهُمْ دَرَجَـاتٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ **[الأنفال: 1-4]**.

يقول الأســـتاذ محمَّد أمين المصـــري: لم تذكر الآيات شـــيئاً من أعمال المؤمنين في بدرٍ، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً، يَحْمِلُ المؤمنين على الرُّجوع إلى أنفسهم، والاستحياء من ربِّهم، وهناك نقاطٌ أرسـلت الآيات النُّقاط عليها، وبيَّنت نواحي الضَّـعف فيه بياناً جليّاً قويّاً بتصـوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً، تشاهد العين فيه الحركات والخلجات.

وكلُّ ذلك من شـأنه أن ينبه ضـمير المؤمن؛ ليلمس المسـافة بينه وبين درجات الإيمان؛ الَّتي يهفو قلبُه للوصـــول إليها، ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم، ويشـــعر الذَّوق السَّـــليم هاهنا روعة الأسـلوب في عرض العتاب بغير عتاب؛ ولكنَّه تصـوير مافي النُّفوس تصـويراً يوقن معه العادي من النَّاس: أنَّه ما كان لمؤمنٍ صحيح الإيمان أن يتَّصف بها، ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصـائص الإيمان العالية، وميِّزاته الرَّفيعة، الَّتي تصـوِّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أيِّ إسـفاف: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

(1) انظر: الأساس في التَّفسير (2113/4 . 2114).

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2 – 4].

ما ذكرت الآيات عتاباً، ولكنَّها ذكرت واقعاً، وكان ذكر الواقع أبلغ من كلِّ عتـاب، قال تعالى: وفحوى الخطـاب: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ كان لهم أن يسألوا هذا السُّؤال، وقد بيَّن – سبحانه وتعالى – حقيقة خروجهم من المدينة، قال تعالى: وهذا وصفٌ بالغ الغاية في تصوير ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾، والرُّعب، صورة أناسٍ يساقون إلى الموت سوقاً لا مفرَّ منه، وهم يَرَوْن الموت بأمِّ أعينهم؛ وقال تعالى: وهذا تصـويرٌ لضـعفٍ في النُّفوس.... إلى أن يقول: دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أيَّ شـعور ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، وصـرفت عن أنفسهم كلَّ معنىً من معاني الغرور، وبسطت أمامهم نفوسهم، أو نفوس فريقٍ منهم، وما بينها وبين الإيمان الصَّحيح من درجاتٍ، وإذا جاء ذكر الثَّناء مصوَّراً بصورة المنِّ والفضل بما أنعم الله ليس ثناءً مسـتقلاً، الثناء عليهم: أنَّ الله منَّ عليهم، فاسـتجاب دعاءهم، ونزَّل عليهم الماء، ليطهِّرهم، وأنزل الملائكة؛ لتثبيتهم، وجمع بينهم وبين عدوِّهم لأمرٍ كبير دبَّره الله، وقدَّره(1).

بدأت السُّورة بموضوع الأنفال، واختلافهم في قسمتها، وسؤالهم عنها، فساقت في ذلك أربع آياتٍ عالجت بها نفوس المؤمنين، وطهَّرتها من الاختلاف الَّذي ينشـأ عن حبِّ المال، والتَّطلُّع إلى المادة(2).

ولأهمِّيَّة هذا الموضـوع في حياة المؤمنين بدأت به السُّـورة – وإنْ كان اختلافهم في قسـمة الأنفال متأخِّراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدرٍ، وقتال الأعداء – ومن سـنَّة الله في كتابه: أنَّه في ذكر القصص والواقع لا يعرض لها مُرَتَّبةً حسب وقوعها(3).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وأوَّل الطَّاعة هنا طاعته في حكمه الَّذي قضاه في الأنفال ، فقد

(1) من هدي سورة الأنفال ، د. محمد المصري ، ص 95 . 96.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 67.
(3) المصدر السابق نفسه ، ص 67 . 68.

خرجت من أن تكون لأحدٍ من الغزاة على الإطلاق، وارتدَّت ملكيتها ابتداءً لله، والرَّسول(ﷺ) ، فانتهى حقُّ التَّصرُّف فيها إلى الله ورسوله(ﷺ) ، فما على الذين امنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله، وقَسْم رسول الله(ﷺ) طيبةً قلوبُهم، راضيةً نفوسُهم، وإلا أن يصلحوا علائقهم، ومشاعرهم، ويصفُّوا قلوبهم بعضهم لبعضٍ[1].

وهذا العرض الرَّبَّانيُّ يؤكِّد حقيقةً أكبر من النَّصر على المشركين، يؤكِّد: أنَّ صلاح ذات البين، والانتصار الحقيقيَّ على مسارب النُّفوس، ومشارب القلوب هو الأكبر في ميزان الله، وهو الأعظم في ميزان الله، ولا جدوى من نصرٍ يعقبه صراعٌ في الصَّفِّ واختلافٌ في القلوب.

وتبيِّن الآيات: أنَّ قضيَّة التَّقوى، والإيمان، تدخل في شؤون حياة المسلم كافَّةً، وبها ينبع تحرُّكه في الحياة، وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى[2].

لقد استجاب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم لهذا التَّوجيه الرَّبانيِّ، ونزلت الآيات تبيِّن لرسول الله(ﷺ) كيف يتصرَّف في الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم لله ولرسوله(ﷺ) بيَّن المولى - عزَّ وجلَّ - كيف توزَّع هذه الغنائم.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ **[الأنفال: 41]**.

وهذا بعدما طَهُرَتْ قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علاَّم الغيوب في الطَّاعة، وتمثَّلت الآيات، فتحقَّقت بمعنى العبودية الخالصة لله، وهذا الحكم صريحٌ في أنَّ أربعة أخماس ما غنموه مقسومٌ بينهم، والخمس لله، ولرسوله(ﷺ) ، وهذا الخمس نفسه مردودٌ فيهم أيضاً، وموزَّع على الجهات المذكورة - كما ثبت بالسُّنَّة -. إنَّ التَّوجيه التَّربويَّ في إرجاء إنزال جواب السُّؤال عن

---

(1) في ظلال القران الكريم (1473/3 . 1474).

(2) المنهج التَّربويُّ للسِّيرة النَّبوية . التَّربية الجهادية ، للغضبان (52/1).

الغنائم، يشير إلى أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة ينبغي أن يهيَّأ لها الجوُّ النَّفسيُّ الرُّوحيُّ المناسب؛ لتحتلَّ مكانها اللائق في العقل، والضَّمير، فتثبت، وتتمكَّن،

وتؤتي أطيب النتائج؛ إذ يتجلَّى فيها أكمل الحلول، وهكذا صرف المولى - جلَّ شأنُه - عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير أوَّلاً، وبالغنائم ثانياً؛ ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلـمَّا تفرَّغوا للخالق، وأخلصوا في الجهاد؛ أكرمهم بالنَّصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر ممَّا كانوا يودُّون[1]، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله(ﷺ) يوم بدر في ثلاثمئة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم» ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتَسَوْا وشبعوا. **[أبو داود (2747)، والبيهقي في السنن الكبرى (57/9)، والحاكم (132/2 - 133، 145)]**.

ومن عدل النَّبيِّ(ﷺ) في تقسيم الغنائم، إعطاؤه من هذه الغنيمة مَنْ تخلَّف بأمر رسول الله(ﷺ) لمهامٍ أَوْكَلَها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة، وبأجرهم، فكانوا كمن حضرها[2]، فكان(ﷺ) يراعي ظروف الجنود؛ الَّتي تمنعهم من المشاركة في القتال؛ لأنَّ الله تعالى لم يكلِّف عباده شيئاً فوق طاقتهم، قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ **[البقرة: 286]**.

ولذلك كان رسول الله(ﷺ) لا يكلِّف المسلمين فوق طاقتهم، سواءٌ أكان ذلك في السِّلم، أم الحرب، وفي غزوة بدرٍ أعفى النَّبيُّ(ﷺ) بعض الصَّحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلَّب منهم القيام عليها، ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من الخروج يوم بدرٍ؛ لأنَّ زوجته رقيَّة كانت مريضةً، وبحاجةٍ إلى من يرعى شؤونها، روى البخاريُّ في صحيحه: أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيُّب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر، فقال رضي

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 61 . 62.
(2) انظر: من معين السِّيرة، ص 210.

الله عنه: وأمَّا تَغَيُّبُهُ عن بدرٍ، فإنَّه كانت تحته بنتُ رسـولِ الله(ﷺ) ، وكانت مريضـةً، فقال له رسول الله(ﷺ) : «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهد بدراً، وسَهْمَهُ» **[البخاري (3699)]**.

وأمر(ﷺ) أبا أمامة بالبقاء عند أمِّه؛ حيث كانت مريضةً، وهي بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رضـي الله عنه: أنَّ رسـول الله(ﷺ) أخبرهم بالخروج إلى بدرٍ، وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار: أقِمْ على أمِّك يابن أختيَ! فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك. فـذكر ذلـك للنَّبيِّ(ﷺ) ، فـأمر أبا أمـامـة بالمقـام على أمِّـه، وخرج بأبي بردة، فقـدم النَّبيُّ(ﷺ) وقد توفِّيت فصلَّى عليها. **[الطبراني في الكبير (792)، والهيثمي في مجمع الزوائد (3/31-32)]**.

إنَّ هذه الأخلاق الرَّفيعة، ومراعـــاة شعـــور الجنود، وأحوالهم العائليَّة تولِّد قـــوَّة ترابطٍ بين القيادة والجنود، وتدخل تحت مفهوم فقه التَّمكين، وقد مارسه الرَّسول(ﷺ) في أعلى صوره.

ومن الصَّـــحابة الَّذين كانت لهم مهمَّاتٌ خاصَّـــةٌ، أو أُصـــيبوا أثناء الطَّريق، فردَّهم الرَّسول(ﷺ) :

1 - أبو لبابة: استخلفه(ﷺ) على المدينة.

2 - عاصم بن عديٍّ: أرسله(ﷺ) في مهمَّة لأهل العالية في المدينة.

3 - الحارث بن حاطب: أرسله(ﷺ) في مهمَّةٍ إلى بني عمرو بن عوف.

4 - الحارث بن الصِّمَّة: وقع أثناء الطَّريق فكسر، فرُدَّ.

5 - خوَّات بن جُبير: أصابه في الطَّريق حجرٌ في ساقه، فردَّه من الصفراء[1].

وكذلك أعطى لورثة الشُّهداء، وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَّبق في تكريم الشُّهداء، ورعاية أبنائهم، وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً[2].

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 215.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (2/176).

ثانياً: الأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلـمَّا أسروا الأُسارى، قال رسول الله(ﷺ) لأبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأُسارى؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ، والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً، فتكون لنا قوّةً على الكفَّار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله(ﷺ) : «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكِّن عليّاً من عَقِيلٍ، فيضرب عنقه، وتمكنِّي من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر، وصناديدها، فهوي رسولُ الله(ﷺ) ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلـمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسولُ الله(ﷺ) ، وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت، وإن لم أجد بكاء؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله(ﷺ) : «أبكي لِلَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرةِ» - شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله(ﷺ) -.

وأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم.**[(1/30 - 31)، ومسلم (1763)، وأبو داود (2690)، والترمذي (3081)]**.

وفي رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لـمَّا كان يوم بدرٍ؛ قال رسول الله(ﷺ) :

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومُك، وأهلُك، اسْتَبْقِهِم، واسْتَأْنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك، وكذَّبوك؛ فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثمَّ أضرم عليهم ناراً، فقال العبَّاس: قطعت رحمك! فدخل رسول الله(ﷺ) ولم يردَّ عليهم شيئاً، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكرٍ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله

بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله(ﷺ) فقال: «إنَّ الله ليُلِيِّن قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون ألين من اللَّبن، وإنَّ الله لَيَشُدُّ قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر! كمثل إبراهيم عليه السـلام، إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]، ومثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الأنفال: 118]، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ؛ إذ قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26].

وإنَّ مثلك يا عمر! كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

ثمَّ قال(ﷺ) : «أنتم عالة، فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداءٍ، أو ضربة عنقٍ».

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله! إلا سُهيل بن بيضاء؛ فإنِّي قد سمعته يذكر الإسـلام، قال: فسـكت، قال: فما رأيتُني في يومٍ أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء في ذلك اليوم؛ حتَّى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية. [(383/1 – 384)، وأبو يعلى (5187)، والترمذي (1714 و3085)، والحاكم (21/3 – 22)].

وهذه الآية تضـع قاعدةً هامَّةً في بناء الدَّولة حينما تكون في مرحلة التَّكوين، والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهرَ بمظهر اللِّين؛ حتَّى تُرْهَب من قِبَلِ أعدائها، وفي سـبيل هذه الكلِّيَّة يُطرح الاهتمام بالجزئيَّات – حتَّى ولو كانت الحاجة ملحةً إليها –[1].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لـمَّا شرع الصَّحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسـولُ الله(ﷺ) الكراهية في وجه سـعدٍ لما يصـنع النَّاس؛ فقال له رسـول الله(ﷺ) : «والله! لكأنَّك يا سعدُ! تكره ما يصنعُ القوم!» قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 209.

الله بأهل الشِّـرك، فكان الإثخان بالقتل أحبَّ إليَّ من اسـتبقاء الرَّجل. **[ابن هشـام (280/2 – 281)]**[1].

كانت معاملة النَّبيِّ(ﷺ) للأسـرى تحفُّها الرَّحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدَّعوية؛ ولذلك تعدَّدت أسـاليبه، وتنوَّعت طرق تعامله(ﷺ) ، فهناك من قتله، وبعضـهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منَّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم.

أ – حفظ رسول الله(ﷺ) لجِوار المُطْعِم بن عديٍّ:

قال رسـول الله(ﷺ) في أُسـارى بدر: «لو كان مُطْعِمُ بن عديٍّ حيّاً، ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لأطلقتُهم له» **[البخاري (4024)، وأبو داود (2689)]**.

وهذا الحديث تعبيرٌ عن الوفاء، والاعتراف بالجميل، فقد كان للمُطعم مواقفُ تُذكَر بخيرٍ، فهو الَّذي دخل الرَّسـول(ﷺ) في جواره حينما عاد من الطَّائف، كما كان من أشـدِّ القائمين على نقض الصَّحيفة يوم حُصِر المسلمون، وبنو هاشم[2].

وهذا يدلُّ على قمَّة الوفاء لمواقف الرِّجال – ولو كانوا مشركين –[3].

ب – مقتل عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ والنَّضر بن الحارث:

وإذا كان هذا الوفاء لرجلٍ مثل المطعم بن عديٍّ، فلابدَّ من الحزم مع مجرمي الحرب، ورؤوس الفتنة؛ من أمثال: عُقبة بن أبي مُعَيْط، والنَّضر بن الحارث، فقد كانا من أكبر دُعاة الحرب ضدَّ الإسلام، والمتربِّصين بالمسلمين الدَّوائر، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدرَ خطرٍ كبيرٍ على الإسلام، ولاسيَّما في تلك الظُّروف الحاسمة، الَّتي تمرُّ بها الدَّعوة الإسـلاميَّة، فلو أُطلِق سـراحُهُمَا؛ لما تورَّعا عن

---

(1) انظر: التَّربية الجهاديَّة، للغضبان (141/1).

(2) انظر: من معين السِّيرة، ص 208.

(3) انظر: التَّربية القياديَّة (54/3).

سلوك أيِّ طريقٍ فيه كيدٌ للإسلام، وأهله، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظَّرف ضرورةٌ تقتضيها المصلحة العامَّة لدعوة الإسلام الفتيَّة[1]؛ ولذلك أمر رسول الله(ﷺ) بِقَتْلِهما عندما وصل إلى الصَّفراء[2] أثناء رجوعه للمدينة، فلمَّا سمع عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ بأمر قَتْلِهِ، قال: يا ويلي! علام أُقْتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟! فقال رسول الله(ﷺ) : «لعداوتك للهِ ولرسوله» قال: يا محمد! مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجلٍ من قومي، إنْ قتلتَهم؛ قَتَلْتَني، وإن مَنَنْتَ عليهم؛ مَنَنْتَ عَلَيَّ، وإن أخذتَ منهم الفداء كنتُ كأحدِهم، يا محمد! من للصبيَة؟ قال رسول الله(ﷺ) : «النَّارُ، قدِّمْه يا عاصم! فاضربْ عُنُقَه» **[الحاكم (124/2)، ومجمع الزوائد (89/6)]**؛ فقدَّمه عاصمٌ، فضرَبَ عُنُقَهُ[3].

وأمَّا النَّضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريشٍ، وممَّن يؤذي رسول الله(ﷺ) ، وينصِبُ له العداوة، وكان قد قدِم الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله(ﷺ) مجلساً، فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم مِنْ نِقْمَةِ الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام، ثمَّ قال: أنا والله يا معشر قريش! أحسنُ حديثاً منه، فهلُمُّوا إليَّ، فأنا أحدِّثكم أحسن مِنْ حديثه، ثمَّ يحدِّثُهم عن ملوك فارس، ورستم واسفنديار، ثمَّ يقول: بماذا محمَّد أحسنُ حديثاً منِّي؟![4].

إنَّ هذا الرَّجل المتعالي على الله، والمتألِّي عليه، والَّذي يزعم: أنَّه سينزل أحسن ممَّا أنزل الله، والَّذي يزعم: أنَّه أحسنُ حديثاً من محمَّد، لابدَّ لمثل مَنْ يمثِّل هذا التَّيار - وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين - لابدَّ أن يُثأرَ لله، ولرسوله(ﷺ) منه، ومن أجل هذا لم يُدْخِلْهُ رسول الله(ﷺ) ضمن نطاق الاستشارة[5]، وأمر رسول الله(ﷺ) بقتله، فقتله عليُّ بن أبي طالبٍ رضي

---

(1) انظر: غزوة بدر الكبرى، لمحمَّد أحمد باشميل، ص 162.

(2) الصَّفراء: وادٍ كثير النَّخل، والزَّرع، والخير.

(3) انظر: التَّربية القياديَّة (60/3).

(4) انظر: السّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (439/1، 440).

(5) انظر: التَّربية القياديَّة (57/3).

الله عنه[1].

وبمقتل هَذَيْنِ المجرمَيْنِ تعلَّم المسلمون: أنَّ بعض الطُّغاة العُتاة المعادين لا مجال للتَّساهل معهم، فهم زعماءُ الشَّرِّ، وقادة الضَّلال، فلا هوادة[2] معهم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّ العفو، والصَّفح[3] بأعمالهم الشَّنيعة، فقد كان هذان الرَّجلان مِنْ شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسداً، وهجاءً للإسلام وأهله[4].

ج - الوصيَّةُ بإكرام الأسرى جانبٌ من المنهج النَّبويِّ الكريم:

ولـمَّا رجع(ﷺ) إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»[5]؛ وبهذه التَّوصيَة النَّبويَّة الكريمة، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ **[الإنسان: 8]**.

فهذا أبو عزيز بن عُمَيْر أخو مُصعب بن عمير، يحدِّثنا عمَّا رأى، قال: كنتُ في الأسرى يوم بدرٍ، فقال رسول الله(ﷺ) : «استوصوا بالأُسارى خيراً»، وكنتُ في نفرٍ من الأنصار، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم، وعشاءهم، أكلوا التَّمر، وأطعموني البُرَّ[6]؛ لوصيَّة رسول الله(ﷺ) . **[الطبراني في الصغير (401)، وفي الكبير (393/22)، والطبري في تاريخه (460/2)، ومجمع الزوائد (86/6)]**.

وهذا أبو العاص بن الرَّبيع يحدِّثنا، قال: كنت في رَهْطٍ من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنَّا إذا تعشَّينا، أو تغدَّينا، اثروني بالخُبْزِ، وأكلوا التَّمْرَ، والخبزُ معهم قليلٌ، والتَّمْرُ زادُهم، حتَّى إنَّ الرَّجل لتقع في يده كِسْرَةٌ فيدفعها إليَّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثلَ ذلك، ويزيد: «وكانوا يحملوننا، ويمشون»[7].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (255/2).
(2) الهَوَادة: اللِّينُ والرِّفق.
(3) انظر: التَّربية القياديَّة (60/3).
(4) انظر: البداية والنِّهاية (306/3).
(5) المصدر السابق (307/3).
(6) البُرُّ: حَبُّ القمح.
(7) انظر: المغازي ، للواقديّ (119/1).

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الَّذي وضـع أسـاسـه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكَّر به النَّبيُّ(ﷺ) أصـحابَه؛ فاتَّخذوه خُلقاً، وكان لهم طبيعةً، قد أثر في إسـراع مجموعة مِنْ أشـراف الأسرى، وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عُقَيْبَ بدرٍ، بُعيْد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وصيَّة رسول الله(ﷺ) ، وأسلم معه السَّائب بن عبيدٍ[1] بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسـلام إلى قلوبهم، وطهَّرت نفوسَـهم، وعاد الأسـرى إلى بلادِهم وأهليهم، يتحدَّثون عن محمَّدٍ(ﷺ) ، ومكارم أخلاقه، وعن محبَّته، وسماحته، وعن دعوته، وما فيها من البِرِّ والتَّقوى، والإصلاح والخير[2].

إنَّ هذه المعاملة الكريمة للأسرى، شاهدٌ على سموِّ الإسلام في المجال الأخلاقيِّ، حيث نال أعداءُ الإسـلام من معاملة الصَّـحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق؛ الَّتي تتمثَّل في خُلُق الإيثار[3].

د - فداء العباس عمِّ النَّبيِّ(ﷺ) :

بعثت قريش إلى رسـول الله(ﷺ) في فداء أسـراهم، ففدى كلُّ قوم أسـيرهم بما رضـوا، وقال العبَّاس: يا رسول الله! قد كنتُ مسلماً، فقال رسول الله(ﷺ) : «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك، وأمَّا ظاهرك، فقد كان علينا، فافتدِ نفسَـك، وابني أخويك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطَّلب، وحليفَك عتبةَ بن عمرٍو أخي ابن الحارث بن فهرٍ» قال: ما ذاك عندي يا رسـول الله! قال: «فأين المال الَّذي دفنته أنت وأمُّ الفَضْـل، فقلتَ لها: إن أُصِـبْتُ في سـفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنتُه لبني الفَضْـل، وعبد الله، وقُثَم؟!» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضـل، فاحسـب لي يا رسـول الله! ما أصـبتم منِّي عشـرين أوقيَّة من مالٍ

---

(1) انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (474/3).
(2) انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (474/3).
(3) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (175/4 . 176).

كان معي. فقال رسـول الله(ﷺ) : «ذاك شـيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسـه، وابني أخويه، وحليفه؛ فأنزل الله – عزَّ وجلَّ – فيه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 70 – 71]**.

قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيَّةً في الإسلام عشرين عبداً، كلُّهم في يده مالٌ يَضْـرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله – عزَّ وجلَّ – **[البيهقي في الدلائل (142/3 – 143)، وبنحوه أحمد (353/1)]**[1].

هذا، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصـوص السَّـبب، فهذه الآية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

استأذن بعضُ الأنصار رسولَ الله(ﷺ) ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العبَّاس فداءه. فقال: «والله! لا تذرون منه درهماً» **[البخاري (2537/1 و3048 و4018)، والبيهقي في دلائل النبوة (142/3)]**[2]، أي: لا تتركوا للعبَّاس من الفداء شيئاً.

ويظهر أدب صار مع رسول الله(ﷺ) في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[3]، لتكون المنَّة عليهم في إطلاقه، بخلاف لو قالوا: عمَّك؛ لكانت المنَّة عليه(ﷺ) ، وهذا من قوَّة الذَّكاء وحسـن الأدب في الخطاب، وإنَّما امتنع النَّبيُّ(ﷺ) عن إجابتهم؛ لئلا يكون في الدِّين نوعُ محاباة[4].وهنا يتعلَّم الأسـرى، والمسـلمون أيضـاً درسـاً بليغاً في عدم محاباة ذوي القُربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك؛ فقد أغلى رسولُ الله الفداء على عمِّه العباس[5].

ورجع العبَّاس لمكَّة، وقد دفع فداءه، وفداء ابنيْ أخويه، وأخفى إسـلامه، وأصـبح يقود

(1) انظر شرح الحديث (4018) في فتح الباري.
(2) شرح العسقلاني لصحيح البخاري (321/7) نقلاً عن المستفاد من قصص القران (135/2).
(3) لأنَّ جدَّة العباس أمَّ عبد المطلب من بني النَّجار من يثرب.
(4) انظر: سُبُلَ الهدى والرَّشاد ، للصالحي (135/4).
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (176/2).

جهاز استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة بمكَّة بمهارةٍ فائقةٍ، وقدرةٍ نادرةٍ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكَّة، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ[1].

هـ أبو العاص بنُ الرَّبيع زوجُ زينب رضي الله عنها بنتِ رسول الله(ﷺ) :

قالت عائشة رضي الله عنها: لـمَّا بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم؛ بعثت زينب بنتُ رسول الله(ﷺ) في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ، وبعثت فيه بِقِلادةٍ[2] لها، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[3]، قالت: فلمَّا رآها رسول الله(ﷺ) ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الَّذي لها، فافعلوا» فقالوا: نعم، فأطلقوه، وردُّوا عليها الَّذي لها. **[أبو داود (2692)، وأحمد (276/6)، والبيهقي في الدلائل (154/3)، والطبراني في الكبير (428/22)، ومجمع الزوائد (214/9)]**[4].

وكان رسول الله(ﷺ) أخذ عليه، أو وعده أن يُخَلِّيَ سبيل زينب إليه، وبعث رسولُ الله(ﷺ) زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأْجَج[5]، حتَّى تمرَّ بكما زينبُ، فتصحباها، حتَّى تأتيا بها» **[انظر تخريج الحديث السابق]**.

إنَّ أبا العاص بن الرَّبيع زوجَ زينب رضي الله عنها بنتِ الرَّسول(ﷺ) لم يُعرف عنه قطُّ موقفٌ في مقاومة الدَّعوة بأيِّ لونٍ من ألوانها، وقد كفَّ يده، ولسانه عن أصحاب رسول الله(ﷺ) ، وشغَله مالهُ وتجارتهُ، وحياؤه من رسول الله(ﷺ) عن مواقفِ الشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلى الله، وفي بدرٍ كان أبو العاص صِهْرُ رسول الله(ﷺ) من بين الأسرى؛ الَّذين لم يُسمع لهم في المعركة صوتٌ، ولم يُعرف لهم رأيٌ، ولا شُوهدتْ لهم في قتالٍ جولةٌ، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها؛ أرسلت السَّيدة زينب بنت رسول الله(ﷺ) ، وزوجة أبي العاص

---

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (68/3).

(2) القلادَةُ: ما يُجْعَل في العُنُق من حليٍّ ونحوه.

(3) بَنَى بزوجته وعليها: دخل بها.

(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 261.

(5) اسم مكان على ثمانية أميال من مكَّة.

بمالٍ تفديه به، ومع المال قلادةٌ كانت أمُّها السَّـــيدة خديجة رضـــي الله عنها، أهدتها إليها، فأدخلتها بها على زوجها لتتحَلَّى بها، فلمَّا رأى رسول الله(ﷺ) قِلادَةَ ابنته؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً، إذ كانت هذه القلادةُ الكريمة مبعثَ ذكرياتٍ أبَويَّةٍ عنده(ﷺ) ، وذكرياتٍ زوجيَّةٍ، وذكرياتٍ أُسريَّةٍ، وذكريات عاطفيَّةٍ؛ فالنَّبيُّ(ﷺ) أبٌ، له من عواطف الأبوَّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسـانيَّة، وأشـرفُها في فضـائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسـه الكريمة المكرَّمة أسمى مشـاعر الرَّحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطفُ الحنان، والحنين، فتوجَّه إلى أصحابه رضي الله عنهم متلطِّفاً، يطلب إليهم في رجاء الأعزِّ الأكرم، رجاءً يدفعهم إلى العطاء، ولا يسـلبهم حقَّهم في الفداء؛ لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحقِّ؛ وهو في أيديهم، يملكون التَّصـرُّف فيه، فقال لهم: «إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الَّذي هو لها».

وهذا أسلوبٌ من أبلغ، وألطف ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة، فيطوِّعها إلى الاستجابة الرَّاغبة الرَّاضية، رضاءً يَنمُّ عن الغِبْطَة، والبَهْجَة[1].

إنَّ هذا الموقف، وما يظهر منه من مظاهر الرَّحمة، والعطف منه(ﷺ) على ابنته، يحمل في طيَّاته مقصـداً آخر، وهو أنَّه كان يتألَّف صِـهْرَه للإسـلام بذلك؛ لِمَا عَـرَفَ عنه من العقل السَّديد، والرَّأي الرَّشيد، فقد كان(ﷺ) يُثني عليه، وهو على شِرْكِهِ بحسن المعاملة[2].

و - أبو عزَّة عمرُو بن عبد الله الجُمَحِيُّ بين الرَّحمة، والحزم النَّبويِّ:

كان محتاجاً ذا بناتٍ، قال: يا رســول الله! لقد عرفت ما لي مِنْ مالٍ، وإنِّي لذو حاجةٍ، وذو عيالٍ، فامنُنْ عليَّ! فمنَّ عليه رســولُ الله(ﷺ) ، وأخذ عليه ألا يُظاهرَ عليه أحداً، فقال أبو عزَّةَ يمدح رسول الله(ﷺ) على ذلك:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الرَّسُــوْلَ مُحَمَّداً   بأنَّـكَ حَقٌّ والمِلِيْـكُ حَمِيْـدُ

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (3/480 . 487).

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (4/183).

وأَنْتَ امْرُؤٌ بُوِّئْتَ فِيْنَا مبَاءَةً[1] لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصُعودُ
فإنَّكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارَبٌ شَقِيٌّ ومَنْ سالمْتَهُ لَسَعِيدُ
ولَكِنْ إِذَا ذُكِّرْتُ بَدْراً وأَهْلَهُ تأوَّبَ مَا بِي حَسْرَةً وَقُعُوْدُ

قال ابن كثير: ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذا نقض ما كان عاهد الرَّسول(ﷺ) عليه، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم، فلـمَّا كان يومَ أحدٍ؛ أُسر أيضاً، فسأل النَّبيَّ(ﷺ) أن يَمُنَّ عليه أيضاً، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «لا أدعك تمسح عارِضَيْكَ بمكَّةَ، وتقولُ: خدعتُ محمَّداً مرَّتين» ثُمَّ أَمَرَ به، فَضُرِبَتْ عنقهُ. [البيهقي في الدلائل (3/280 – 281)، وابن هشام (3/110)][2].

فكان النَّبي(ﷺ) به رحيماً، وعفا عنه، وأطلق سراحه بدون فداءٍ لـمَّا ذكر أبو عزَّة فقره، وما لديه مِنْ بناتٍ يعولهنَّ؛ ولكنَّه لم يفِ لرسول الله(ﷺ) بما عاهده عليه مِنْ لزوم السِّلم، وعدم إثارة الحرب ضدَّه، فوقع أسيراً في معركة أُحدٍ، فكان موقفُ النَّبيِّ(ﷺ) منه الحزم، فأمر بضرْب عنُقِه.

ز – سهيلُ بن عمرٍو، ووقوعُه في الأسر، وماذا قالت سودةُ رضي الله عنها:

قال عبد الرَّحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه: قُدِم بالأُسارى حين قُدِم بهم المدينة؛ وسودةُ بنت زمعة زوج النَّبيِّ(ﷺ) عند آل عفراء في مناحتهم على عَوْفٍ، ومعوِّذ ابني عفراء – وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب –، قالت سودة: فوالله إنِّي لَعِنْدهم؛ إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأُسارى قد أُتِيَ بهم، فرجعتُ إلى بيتي؛ ورسول الله(ﷺ) فيه؛ فإذا أبو يزيد سهيلُ بنُ عمرٍو في ناحية الحُجْرَة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيدٍ كذلك أن قُلتُ: أبا يزيد! أعطيتُم بأيديكم؟ ألا مُتُّم كراماً؟! فما انتبهت إلا بقول رسول الله(ﷺ) من البيت: «يا سودةُ! أعَلَى الله ورسوله تُحَرِّضين؟!» فقلت: يا رسول الله! والَّذي بعثك بالحقِّ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلتُ. [البيهقي في

(1) مباءةٌ: مكانةٌ رفيعةٌ.
(2) انظر: البداية والنِّهاية (3/313).

الكبرى (89/9)، والحاكم (22/3)، وابن أبي شـــيبة في المصـــنف (369/14 – 370)، والطبري في تاريخه (460/2)][1].

وقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأخْيَف في فداء سـهيل بن عمرو، فلـــمَّا فاوض المسـلمين، وانتهى إلـــى رضائهم، قالوا: هاتِ الَّذي لنـــا، قال لهم مِكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلُّوا سبيله حتَّى يَبعث إليكم بفدائه، فخلُّوا سبيل سُهيل، وحبسوا مِكْرزاً عندهم، وجاء في حديثٍ مُرْسَـلٍ: أنَّ عمر بن الخطاب رضـي الله عنه قال لرسـول الله(ﷺ) : دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرٍو، يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ آخر ! فقال رسول الله(ﷺ): «لا أمثِّل به، فيمثِّل الله بي؛ وإن كنتُ نبيًّا» **[ابن أبي شيبة في المصنف (387/14)]**[2]. ثمَّ قال رسول الله(ﷺ) لعمر: «إنَّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»[3].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الَّذي قامه ســـهيل بمكَّة حين مات رســـول الله(ﷺ) وارتدَّ العرب، ونجم النِّفـاق بالمـدينـة وغيرهـا، فقـام بمكَّـة، فخطـب في النَّـاس، وثبَّتهم على الـدِّين الحنيف[4]، فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش! لا تكونوا آخر النَّاس إسلاماً، وأوَّلهم ردَّةً، مَنْ رَابنَا ضربنا عنُقَه»[5].

فقد أبى رســول الله(ﷺ) أن ينزع ثنيَّة سُــهيلٍ، ورأى: أنَّ ذلك من باب التَّمثيل وتشــويه خلقة الإنسـان، وقال لعمر: «لا أمثِّل به، فيمثِّل الله بي! وإن كنت نبيّاً» وهذا نموذجٌ من منهج رسالته(ﷺ) ، وضعه؛ ليكون نبراساً لأمَّته في انتصاراتها على أعدائها[6].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني (200/2).
(2) انظر: البداية والنِّهاية (311/3). وقال ابن كثيرٍ: مرسلٌ؛ بل معضل.
(3) انظر: البداية والنِّهاية (311/3).
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (181/4).
(6) انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (474/3).

ح – التَّعليم مقابل الفداء:

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: كان ناسٌ من الأُسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ، فجعل رسولُ الله(ﷺ) فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصــار الكتابة[1]، وبذلك شــرع الأسـرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة، والكتابة، وكلُّ مَنْ يُعَلِّم عشَــرةً من الغلمان يفدي نفســه[2]، وقَبول النَّبيّ(ﷺ) تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الَّذي كانوا فيه في أشـدِّ الحاجة إلى المال، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم، والمعرفة، وإزالة الأميَّة، وليس هذا بعجيبٍ مِنْ دينٍ كان أوَّل ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ **[العلق: 1 – 4]**. واسـتفاضـت فيه نصـوصُ القرآن، والسُّـنَّة في التَّرغيب في العلم، وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبيُّ(ﷺ) أوَّل من وضع حجر الأساس في إزالة الأمِّيَّة، وإشاعة القراءة، والكتابة، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام[3].

ط – حكم الأسرى:

إنَّ حكم الأســرى في الإســلام مفوَّضٌ إلى رأي الإمام؛ ليختار حُكْماً من أربعةٍ، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامَّة؛ والأحكام الأربعة هي:

1 – القتلُ: وقد قتل رسول الله(ﷺ) عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ، والنَّضْر بن الحارث.

2 – المنُّ: وهو إطلاق الأســير بدون مقابلٍ، وهذا ما فعله رســول الله(ﷺ) مع أبي عَزَّةَ الجُمَحِيّ.

3 – الفداءُ: إطلاق ســراح الأســير مقابل مبلغٍ من المال، وهذا ما حدث مع العبَّاس عمِّ النَّبيّ(ﷺ) ، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالبٍ، وغيرهم.

4 – الاســترقاق: وقد حكم ســعدُ بن معاذ رضــي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل المحارَبون، وتقسم الأموالُ، وتُسْبَى الذَّراري والنِّساء[4].

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 261.

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (74/3).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (164/2. 165).

(4) انظر: غزوة بدر الكبرى ، ص 101.

المبحث السَّادس

نتائج غزوة بدرٍ ومحاولة اغتيال النَّبيِّ(ﷺ)

أولاً: نتائج غزوة بدرٍ:

1 - كان من نتائج غزوة بدرٍ أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة، وما جاورها، وأصبح مَنْ يريد أن يغزو المدينة، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكِّر، ويفكِّر قبل أن يُقدِم على فَعْلته، وتعزَّزت مكانة الرَّسول(ﷺ) في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشكِّكون في الدَّعوة الجديدة، والمشركون في المدينة يتجرَّؤون على إظهار كفرهم، وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النِّفاق، والمكر، والخداع، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النَّبيِّ(ﷺ) ، وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطناً، فظلُّوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم، وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ **[النساء: 143]**.

ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّع الله عليهم، وسمَّع بهم في كثيرٍ من آياته، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ **[النساء: 145]**.

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله - سبحانه وتعالى -، وبرسوله الكريم(ﷺ)، واشتداد ساعدهم، وقوَّتهم، ودخول عددٍ كبيرٍ من مشركي قريشٍ في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الَّذين كانوا لا يزالون في مكَّة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنَّت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب، فازدادوا إيماناً على إيمانهم، وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارةً عسكريَّةً، وأساليبَ جديدةً في الحرب، وشهرةً واسعةً داخل الجزيرة العربيَّة، وخارجها؛ إذ أصبحوا قوَّةً يحسب لها حسابُها في بلاد العرب، فلا تهدِّد زعامة قريش وحدَها، بل زعامةَ جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف الأَصْقَاع[1] والأماكن، كما أصبح للدَّولة الجديدة مصدرٌ للدَّخل من غنائم الجهاد، وبذلك انتعش حال المسلمين المادِّيِّ والاقتصاديِّ بما أفاء الله عليهم من غنائم، بعد بؤسٍ، وفقرٍ شديدين، داما تسعةَ عَشَرَ شهراً[2].

2 - أمَّا قريش، فكانت خسارتها فادحةً، فإضافةً إلى أنَّ مقتل أبي جهل بن هشام، وأميَّة بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وغيرِهم من زعماء الكفر؛ الَّذين كانوا من أشد القرشيِّين شجاعةً، وقوةً، وبأساً لم يكن خسارةً حربيَّةً لقريشٍ فحسب، بل كان خسارةً معنويَّةً أيضاً؛ ذلك: أنَّ المدينة لم تعد تُهَدِّدُ تجارتَها فقط، بل أصبحت تهدِّد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كلِّه[3].

كان خبر الهزيمة على أهل مكَّة كالصَّاعقة، ولم يصدِّقوا ذلك في بداية الأمر، قال ابن إسحاق - رحمه الله -: «وكان أوَّل من قدِم مكَّةَ بمصابِ قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قُتِل عُتبةُ بن ربيعة، وشيبةُ بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأميَّة بن خلف، وزَمعةُ بن الأسود، ونُبيه، ومنبِّه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتريِّ بن هشام، فلـمَّا جعل يُعَدِّد أشراف قريش، قال صفوان بن أميَّة: والله إن يعقل هذا! فسلوه عنِّي!

فقالوا: ما فعل صفوان بن أميَّة؟

قال: هو ذاك جالسٌ في الحِجْر، قد والله! رأيت أباه، وأخاه حين قُتِلا»[4].

---

(1) الصُّقْعُ: النَّاحية ، والجمع: أصْقَاع.

(2) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص 274 . 275.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص 375 . 376.

(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 257، وانظر: سيرة ابن هشام (بلوغ مصاب قريشٍ إلى مكَّة).

وهذا أبـو رافعٍ مولى رسول الله(ﷺ) ، يـقصُّ علينا أثر خبر هزيمـة قريشٍ على أبي لهبٍ – لعنه الله –، حيث قال: كنت غلاماً للعبَّاس بن عبد المطَّلب، وكان الإسـلام قد دخلنا أهل البيت، وأسـلمتْ أمُّ الفضـل، وأسـلمتُ، وكان العبَّاس يهاب قومَه، ويكره أن يخالفَهم، وكان يكتم إسـلامه، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرِّق في قومه، وكان أبو لهب – عدوُّ الله – قد تخلَّف عن بدرٍ، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلـمَّا جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش: كَبَتَهُ[1]الله، وأخزاه، ووجدْنا في أنفسنا قوَّة وعزّاً.

قال: كنت رجلاً ضـعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، وأنْحَتُها في حُجْرة زمزم ، فوالله! إنِّي لجالس فيها أنحَت القداح، وعندي أمُّ الفضـل (زوجة العبَّاس بن عبد المطلب) جالسـةً، وقد سـرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ أقبل الفاسـق أبو لهب يجرُّ رجليه بشَـرٍّ، حتَّى جلس على طُنُبِ[2] الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس؛ إذ قال النَّاس: هذا أبو سـفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ، فعندك لعمري الخبرُ! قال: فجلس إليه، والناسُ قيامٌ عليه، فقال: يابن أخي! أخبرني كيف كان أمر النَّاس؟ قال: والله! ما هو إلا أن لقينا القوم فَمَنَحْناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايْمُ الله! مع ذلك ما لُمتُ النَّاس؛ لقينا رجالاً بيضـاً على خيلٍ بُلْق[3] بين السَّـماء والأرض، والله! ما تُلِيق[4] شـيئاً، ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي، ثمَّ قلت: تلك والله الملائكة!

قال: فرفع أبو لهب يده، فضـرب بها وجهي ضـربةً شـديدةً، قال: وثاوَرْتُه[5]، فاحتملني، وضرب بي الأرض، ثمَّ برك عليَّ يضربني – وكنت رجلاً ضعيفاً –، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُدِ الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة فَلَعَتْ[6] في رأسه شَجَّةً منكرةً، وقالت: أستَضعفْتَه

---

(1) كبته: أذله.

(2) طُنُب الحجرة: طرفُها.

(3) بَلِقَ: بَلقاً وبُلْقَة: كان فيه سوادٌ ، وبياض ، فهو أَبْلَق ، وهي بَلْقَاءُ ، والجمع: بُلْق.

(4) تُلِيق: تُبْقي.

(5) ثاوَرْتُه: وثبتُ إليه.

(6) فَلَعَتْ: شقت.

أن غاب عنه سيِّدُه؟ فقام مُولِّيَاً ذليلاً، ثمَّ مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة[1]، فقتلته[2].

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكَّة المشركين، كمداً، وأحزاناً، وآلاماً بسبب هزيمتهم، ومن فُقدوا، وأُسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بِعِلَّة، ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له، وأُسِر له ابنٌ آخر، وما من بيتٍ من بيوت مكَّةَ إلا وفيه مناحةٌ؛ على قتل عزيز، أو قريب، أو أَسْر أسيرٍ، فلا عجب أن كانوا صمَّموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتَّى إن بعضهم حرَّم على نفسه الاغتسال[3]، حتى يأخذ بالثَّأر ممَّن أذلُّوهم، وقتلوا أشرافهم، وصناديدهم، وانتظروا يترقَّبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم، فكان ذلك في أُحدٍ[4].

3 - أمَّا اليهود ؛ فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدرٍ ، وأن تقوى شوكتُهم فيها ، وأن يَعِزَّ الإسلام، ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله(ﷺ) دونهم الحُظوةُ، والمكانة، فصمَّموا على نقض العهد الَّذي عاهدوا عليه النَّبيَّ(ﷺ) عندما قدِم المدينة، وأظهروا عداوتهم الَّتي كانت كامنةً في نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القول، ويُعلنون، ثمَّ راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله(ﷺ) ، ويعملون للقضاء عليه بكلِّ الوسائل المتاحة لديهم[5]، وبدؤوا يتحرَّشون بالنَّبيّ(ﷺ) ، والمسلمين، وما كان النَّبيُّ(ﷺ) ليخفى عليه شيءٌ من ذلك، فقد كان يراقبهم عن حذرٍ، ويقظةٍ؛ حتَّى استخفُّوا بالمقرَّرات الخُلُقيَّة، والحرمات الَّتي يعتزُّ بها المسلمون، واستعلنوا بالعداوة، فلم يكن بدٌّ من حربهم، وإجلائهم عن المدينة - كما سنفصِّل ذلك فيما بعد إن شاء الله -[6].

---

(1) العَدَسَةُ: قرحةٌ قاتلةٌ كالطَّاعون ، وقد عدس الرَّجل: إذا أصابه ذلك ، وهي تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطَّاعون ، وتقتل صاحبها غالباً.

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (258/2).

(3) هو أبو سفيان بن حرب؛ نذر ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (171/2).

(5) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 274.

(6) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (171/2).

ثانياً: محاولة اغتيال النَّبِيّ(ﷺ) وإسلام عُمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزُّبير: جلس عُمير بن وهب الجُمَحيُّ مع صـــفوان بن أميَّة في الحِجْر، بعد مصــاب أهل بدرٍ بيســير، وكان عمير بن وهب شــيطاناً من شــياطين قريش، وممَّن كان يؤذي رســـولَ الله(ﷺ) ، وأصـــحابه، ويلقون منه عناءً[1]، وهو بمكَّة، وكان ابنه وهب بن عُمير في أُسارى بدر، فذكر أصحاب القَلِيب، ومُصابهم، فقال صفوان: واللهِ! إنْ في العيش بعدهم خيرٌ.

قال له عُمَيْرٌ: صدقتَ! أما والله ! لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيعة[2] بعدي؛ لركبتُ إلى محمَّدٍ حتَّى أقتلَه، فإنَّ لي فيهم عِلَّة[3]؛ ابني أسيرٌ في أيديهم.

قال: فاغتنمها صــفوان بن أميَّة، فقال: عليَّ دينُك، أنا أقضِــهِ عنك، وعيالُك مع عيالي أُواسيهم[4] ما بَقُوا، لا يسعني شيءٌ، ويعجِز عنهم، فقال له عُمَيْرٌ: فاكتم شأني، وشأنك. قال: أَفعَلُ.

قال: ثمَّ أمر عُمَيْرٌ بسـيفه، فشُـحِذ له، وسُـمَّ، ثمَّ انطلق حتَّى قدم المدينة، فبينما عمرُ بن الخطاب في نفرٍ من المســلمين يتحدَّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوِّهم؛ إذ نظر عمرُ إلى عُمَيْرِ بن وهبٍ، وقد أناخ راحلتَه على باب المسـجد متوشِّـحاً سـيفه فقال: هذا الكلب عدوُّ الله عُمَيْرُ بنُ وهبٍ، والله! ما جاء إلا لشــرٍّ، وهو الَّذي حرَّش[5] بيننا، وحزَرنا[6] للقوم يوم بدرٍ.

ثم دخل عمر على رسول الله(ﷺ) فقال: يا نبيَّ الله! هذا عدوُّ الله عُمَيْرُ بن وهبٍ قد جاء متوشِّحاً سيفه.

---

(1) عناء: تعباً.

(2) الضَّيعة: الضَّياع والتشتت.

(3) العلَّة: السبب.

(4) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

(5) حرَّش: أفسد ، وأغرى بعضهم ببعضٍ.

(6) حَزَرَ الشيء حَزْراً: قَدَّره بالتَّخمين.

قال: «فأَدْخله عليّ»، قال: فأقبل عمر حتَّى أخذ بحِمَالَةِ[1] سـيفه في عنقه فَلَبَّبَهُ[2] بها، وقال لرجالٍ ممَّن كانوا معه من الأنصار: ادْخُلُوا على رسول الله(ﷺ) فاجلسوا عنده، واحذورا عليه من هذا الخبيث، فإنَّه غير مأمونٍ.

ثمَّ دخل به على رسول الله(ﷺ) ، فلـمَّا رآه رسول الله(ﷺ) وعمر آخذٌ بحِمَالَة سيفه في عنقه، قال: «أرسله يا عمر! ادْنُ يا عُمَيْرُ!».

فدنا، ثمَّ قال: انعموا صباحاً - وكانت تحيَّة أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله(ﷺ) : «أكرمنا الله بتحيَّةٍ خيرٍ من تحيَّتك يا عمير! بالسَّلام تحية أهل الجنَّة»[3].

فقال: أما والله يا محمد! إن كنتُ بها لحديث عهدٍ.

فقال: «فما جاء بك يا عُمَيْرُ؟!» قال: جئت لهذا الأسير الَّذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بالُ السَّيف في عنقك؟» قال: قَبَّحَها اللهُ من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟!

قال: «اصْدُقْني، ما الَّذي جئتَ له؟» قال: ما جئتُ إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوانُ بنُ أميَّة في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريشٍ، ثمُ قُلْتَ: لولا دَيْنٌ عليّ، وعيالٌ عندي، لخرجت حتَّى أقتل محمَّداً، فتحمَّل لك صـفوان بن أميَّة بدَيْنك، وعيالك على أن تقتلني له، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عُمَيْرُ: أشهد: أنَّك رسولُ الله، قد كنَّا يا رسول الله! نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السَّماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضرْه إلا أنا وصفوان، فوالله! إنِّي لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الَّذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثمَّ شهد شهادة الحقِّ.

---

(1) حمَّالة السَّيف: ما يربط به السَّيف على الجسم.

(2) لَبَّبَهُ: أخذ بتلابيبه ، أي: جمع ثيابه عند نحره ، وصدره ثمَّ جرَّه.

(3) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 259.

فقال رسول الله(ﷺ) : «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرِئُوه القرآن، وأَطْلِقُوا له أسيره»، ففعلوا.

ثمَّ قال: يا رسولَ الله! إنِّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله - عزَّ وجلَّ - وأنا أحبُّ أن تأذن لي، فأقدم مكَّة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله(ﷺ) ، وإلى الإسلام، لعلَّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم ما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله(ﷺ) ، فلحق بمكَّة، وكان صفوان بن أميَّة حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيَّامٍ، تُنْسيكم وقعة بدرٍ، وكان صفوان يسأل عنه الرُّكبان، حتَّى قدم راكبٌ فأخبره بإسلامه، فحلف ألاَّ يكلِّمه أبداً، ولا ينفعه بنفعٍ أبداً. [الطبراني في الكبير (58/17)، ومجمع الزوائد (286/8)، والإصابة (37/3)][1].

وفي هذه القصَّة دروسٌ وعبر؛ منها:

1 - حِرْص المشركين على التَّصفية الجسديَّة للدُّعاة؛ فهذا صفوان بن أميَّة، وعُمَيْر بن وهب، يتَّفقان على قتل النَّبيِّ(ﷺ) ، وهذا يرشدنا إلى أنَّ أعداء الدَّعوة قد لا يكتفون برفض الدَّعوة، والتَّشويش عليها، وصدِّ النَّاس عنها؛ بل يحاولون اغتيال الدُّعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين؛ لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[2]، وقد يستغلُّ الأغنياء المتْرفون من أعداء الدَّعوة حاجة الفقراء، وفقرهم، فيوجِّهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة ماربهم، وإنْ أدَّى ذلك إلى هلاكهم، فهاهو صفوان قد استغل فقر عُمَيْرٍ، وقلَّة ذات يده، ودَيْنَهُ؛ ليرسله إلى هلاكه[3].

2 - ظهور الحسِّ الأمنيِّ الرَّفيع الَّذي تميَّز به الصَّحابة رضي الله عنهم، فقد انتبه عمر بن الخطَّاب لمجيء عمير بن وهبٍ، وحذَّر منه، وأعلن أنَّه شيطانٌ ما جاء إلا لشرٍّ، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر، فقد كان يؤذي المسلمين في مكَّة، وهو الذي حرَّض على قتال المسلمين في

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 260 ، وسيرة ابن هشام (إسلام عُمَيْر بن وهب).
(2) انظر: المستفاد من قصص القران (159/2) ، والخَسِيسُ: القليلُ التَّافِهُ.
(3) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص 82.

بدرٍ، وعمل على جمع معلوماتٍ عن عددهم؛ ولذلك شــــرع عمر في أخذ الأســــباب لحماية الرَّسـول(ﷺ) ، فمن جهته فقد أمسـك بحِمَالة سـيف عمير الَّذي في عنقه بشـدَّةٍ، فعطَّله عن إمكانية استخدامه سيفه للاعتداء على الرَّسول(ﷺ) ، وأمر نفراً من الصَّحابة بحراسة النَّبيّ(ﷺ)

3 - الاعتزاز بتعاليم هذا الدِّين، فقد رفض(ﷺ) أن يتعامل بتحيَّة الجاهليَّة، ولم يردَّ على تحيَّة عُمَيْرٍ حين قال له: انعموا صـباحاً، وأخبره بأنَّه لا يُحيِّي بتحيَّة أهل الجاهلية؛ لأنَّ الله تعالى أكرم المسلمين بتحيَّة أهل الجنَّة.

4 - سموُّ أخلاق النَّبيّ(ﷺ) ، فقد أحسن إلى عُمَيْرٍ، وتجاوز عنه، وعفا عنه؛ مع أنَّه جاء؛ ليقتله[1]؛ بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عُمَيْرٌ، وقال لأصحابه: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأَطْلِقُوا له أسيره»[2].

5 - قــوَّة إيمان عُمَيْرٍ، فقد قــرَّر أن يواجه مكَّــة كلَّها بالإسلام، وقد أذن لــه رسول الله(ﷺ)، وفعل، وواجه، وتحدَّى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأســـلم على يديه ناسٌ كثير، وكان حين تُعَدُّ الرِّجال يطرحه عمر رضـي الله عنه ممَّن يزن عنده ألف رجلٍ، وكان أحد الأربعة الَّذين أمـدَّ بهم أميرُ المؤمنين عُمَرُ عمرَو بن العاص رضـــي الله عنهم، الَّذين كان كلُّ واحدٍ منهم بألفٍ[3].

(1) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص 83.
(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 260.
(3) انظر: التَّربية القياديَّة (73/3).

المبحث السَّابع

بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى، فقد بيَّن - سبحانه وتعالى -: أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ **[آل عمران: 126]**.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 10]**.

في هاتين الايتين تأكيدٌ على أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله - عزَّ وجلَّ - والمعنى: ليس النَّصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزَّة؛ التي لا تُرام(1)، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفَّار مع القدرة على تدميرهم، وإهلاكهم بحَوْلِه، وقوَّته - سبحانه وتعالى -(2).

ويستفاد من هاتين الايتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه، مع التَّأكيد على أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة، أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون؛ لكن يجب ألاَّ يغترُّوا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب، حتى يمدَّهم اللهُ بنصره، وتوفيقه، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأنَّ النَّصر الَّذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النَّبيِّ(ﷺ) المشركين بالتُّراب يوم بدرٍ؛ إنما كان

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (411/1).

(2) انظر: تفسير ابن كثير (303/2) نقلاً عن حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(97/1 . 105).

في الحقيقة بتوفيق الله أوّلاً، وبفضله ومعونته.

وبهذه الآية الكريمة، يربّي القرآن المسلمين، ويعلّمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 17].

ولما بيّن – سبحانه وتعالى –: أنَّ النَّصر كان من عنده؛ وضّح بعض الحِكَم من ذلك النَّصر. قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ۝ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 127 – 128].

وأمر – سبحانه وتعالى – المؤمنين، بأن يتذكّروا دائماً تلك النِّعمة العظيمة، نعمة النَّصر في بدرٍ، ولا ينسوا كيف كانت حالتُهم قبل النَّصر، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمِّيَ يومُ بدرٍ يومَ الفرقان، ولهذه التَّسمية أهمِّيَّةٌ عظيمةٌ في حياة المسلمين، وقد تحدَّث الأستاذ سيّد قطب، عن وصف الله تعالى ليوم بدرٍ بأنه يوم الفرقان، في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

فقال: لقد كانت غزوة بدر – الَّتي بدأت، وانتهت بتدبير الله، وتوجيهه، وقيادته، ومدده – فرقاناً ... فرقاناً بين الحقّ والباطل – كما يقول المفسرون إجمالاً – وفرقاناً بمعنى أشمل، وأدق، وأوسع، وأعمق كثيراً.

كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل فعلاً، ولكنَّه الحقُّ الأصيل، الَّذي قامت عليه السَّموات،

والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء، والأشياء، الحقُّ الَّذي يتمثَّل في تفرُّد اللهِ سبحانه بالألوهيَّة، والسُّلطان، والتَّدبير، والتَّقدير، وفي عبودية الكون كلِّه؛ سمائه، وأرضه، أشيائه، وأحيائه، لهذه الألوهية المتفرِّدة، ولهذا السُّلطان المتوحِّد، ولهذا التدبير، وهذا التَّقدير بلا معقِّبٍ، ولا شريك، والباطل الزَّائف الطَّارئ، الَّذي كان يعمُّ وجه الأرض إذ ذاك، ويُغْشِي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيتَ تتصرَّف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواءَ تُصَرِّفُ أمر الحياة، والأحياء.

فهذا الفرقان الكبير الَّذي تَمَّ يوم بدرٍ، حيث فرَّق بين ذلك الحقِّ الكبير، وهذا الباطل الطَّاغي، وزَيَّل[1] بينهما، فلم يعودا يلتبسانِ.

لقد كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل بهذا المدلول الشَّامل الواسع، الدَّقيق، العميق على أبعادٍ وامادٍ، كانت فرقاناً بين هذا الحقِّ ، وهذا الباطل في أعماق الضَّمير ، فرقاناً بين الوحدانيَّة المجرَّدة المطْلَقَةِ بكلِّ شُعَبِها ؛ في الضَّمير والشُّعور، وفي الخُلُق والسُّلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشِّرك في كلِّ صوره؛ الَّتي تشمل عبودية الضَّمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء، والقِيَم، والأوضاع والتَّقاليد والعادات، وكانت فرقاناً بين هذا الحقِّ، وهذا الباطل في الواقع الظَّاهر كذلك، فرقاناً بين العبودية الواقعيَّة للأشخاص، والأهواء، وللقِيَم والأوضاع، وللشَّرائع والقوانين، وللتَّقاليد والعادات، وبين الرُّجوع في هذا كله لله الواحد الَّذي لا إله غيره، ولا حاكم دونه، ولا مشرِّع إلا إيَّاه، فارتفعت الهامات، لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس، فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحرَّرت القطعان البشريَّة؛ الَّتي كانت مستعبدةً للطُّغاة.

وكانت فرقاناً بين عهدٍ في تاريخ الحركة الإسلاميَّة، عهد المصابرة والصَّبر، والتَّجمُّع والانتظار، وعهد القوَّة، والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانيِّ، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدَّولة، بوصفه

---

(1) زَيَّل: فرَّق. زَايَلَهُ: فارَقَهُ.

إعلاناً عامّاً لتحرير الإنسان في الأرض؛ بتقرير ألوهيَّة الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطَّواغيب، الَّتي تغتصب ألوهيته[1].

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحقّ والباطل بمدلولٍ آخر، ذلك المدلول الَّذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ **[الأنفال: 7 – 8]**.

لقد كان الَّذين خرجوا للمعركة من المسلمين؛ إنَّما خرجوا يريدون عِيرَ أبي سفيان، واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا؛ أراد لهم أن تُفلِتَ منهم قافلةُ أبي سفيان (غير ذات الشَّوكة)، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشَّوكة)، وأن تكون معركةً، وقتالاً، وقتلاً، وأسراً، ولا تكون قافلةً، وغنيمةً، ورِحْلةً مريحةً، وقد قال الله – سبحانه –: إنَّه صنع هذا؛ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾، وكانت هذه إشارةٌ لتقرير حقيقةٍ كبيرةٍ...

إنَّ الحقَّ لا يحقُّ، وإنَّ الباطل لا يبطلُ – في المجتمع الإنسانيِّ – بمجرَّد البيان النَّظريِّ للحقِّ والباطل، ولا بمجرَّد الاعتقاد النظريّ بأنَّ هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ، إنَّ الحقَّ لا يحقُّ، وإنَّ الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا النَّاس، إلا بأن يتحطَّم سلطان الباطل، ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتمُّ إلا بأن يغلب جند الحقِّ، ويظهروا، ويهزم جند الباطل، ويندحروا.. فهذا الدِّين منهجٌ حركيٌّ واقعيٌّ، لا مجرَّد نظريةٍ للمعرفة، والجدل، أو لمجرد الاعتقاد السَّلبيّ!

ولقد حقَّ الحقُّ وبطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النَّصر العمليُّ فرقاناً واقعيّاً بين الحقّ والباطل بهذا الاعتبار، الَّذي أشار إليه قولُ الله تعالى في معرض بيان إرادته – سبحانه – من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرَّسول(ﷺ) من بيته بالحقّ، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشَّوكة)، ولقاء الفئة (ذات الشَّوكة).

---

(1) انظر: في ظلال القران (3/1521. 1522).

ولقد كان هذا كلُّه فرقاناً بين منهج هذا الدِّين ذاته، تتَّضح به طبيعة هذا المنهج، وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم، وإنَّه لفرقان ندرك اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدِّين من تَميُّعٍ في نفوس من يسمُّون أنفسهم مسلمين!، حتى ليصل هذا التميُّع إلى مفهومات بعض مَنْ يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: 41] بهذه المدلولات المنوَّعة، الشَّاملة، العميقة.

وفي هذا اليوم مَثَلٌ من قدرته على كلِّ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾، مثلٌ لا يجادِل فيه مجادلٌ، ولا يُماري فيه مُمارٍ[1]، مثلٌ من الواقع المشهود؛ الَّذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[2].

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمَّة صوراً مشرقةً في الولاء، والبراء، وجعلت خطّاً فاصلاً بين الحقِّ، والباطل، فكانت الفرقان النَّفسيَّ، والماديَّ، والمفاصلة التامَّة بين الإسلام، والكفر، وفيها تجسَّدت هذه المعاني، فعاشها الصَّحابة واقعاً مادِّياً، وحقيقةً نفسيَّةً، وفيها تهاوت القيم الجاهليَّة، فالتقى الابن بأبيه، والأخ بأخيه:

1 - كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صفِّ المسلمين، وكان أبوه عُتبة، وأخوه الوليد، وعمُّه شيبة في صفِّ المشركين، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

2 - كان أبو بكر الصِّدِّيق في صفِّ المسلمين، وكان ابنه عبد الرَّحمن في صفِّ المشركين.

3 - كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفِّ المشركين، ثمَّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاريِّ: شُدَّ يدك به؛ فإنَّ أمَّه ذاتُ متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي! هذه وصيَّتك بي؟! فقال مصعب: إنَّه أخي دونك، تلك

---

(1) امْتَرى في الشَّيء: شكَّ فيه، ومَارَاهُ مِرَاءً ومُمَارَاةً: ناظره، وجَادَلَهُ.

(2) انظر: في ظلال القران (3/1523 . 1524).

كانت حقائق، وليس مجرَّد كلمات: إنَّه أخي دونك[1]!. إنَّها القيم المطروحة لتقوم الإنسـانيَّة على أساسها، فإذا العقيدة هي اصرةُ النَّسب والقرابة، وهي الرِّباط الاجتماعيُّ[2].

4 - كان شعار المسلمين في بدرٍ: (أحَد... أحَد) وهذا يعني: أنَّ القتال في سبيل عقيدةٍ تتمثَّل بالعبوديَّة للإله الواحد، فلا العصبيَّة، ولا القبلية، ولا الأحقاد، ولا الضَّغائن، ولا الثأر، هو الباعث والمحرِّك؛ ولكنَّه الإيمان بالله وحدَه.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر، واحدةً في مضمونها[3].

وللإيمان فقهٌ عظيمٌ، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسـول الله(ﷺ) إلى المدينة، هاجر إليها كلُّ من استطاع ذلك من المسلمين في مكَّة، وحُبِس من كان مضطهداً، ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صفِّ المشركين؛ منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسـود، وأبو قيس بن الفاكِه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعليُّ بن أميَّة بن خلف، والعاصُ بن مُنبِّه.

فأما عبد الله بن سـهيل بن عمرو؛ فقد انحاز من صـف المشـركين إلى رسـول الله(ﷺ) ، فشهد المعركةَ، وكان أحدَ الصَّحابة الذين نالوا هذا الشَّرف العظيم[4].

وأمَّا الآخرون؛ فلم يفعلوا ذلك، وشـهدوا المعركة في صـفِّ المشـركين، وقد أُصـيبوا جميعاً[5]، فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقِّهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ **[النساء: 97]**، **[البخاري (4596)]**.

(1) انظر: البداية والنِّهاية (307/3).
(2) انظر: من مَعِين السِّيرة ، ص 213.
(3) انظر: من معين السِّيرة ، ص 213.
(4) المصدر السابق نفسه ، ص 217.
(5) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (253/2).

قال ابن عباس: كان قومٌ من المسلمين أقاموا بمكَّة – وكانوا يَسْتَخْفُون بالإسلام – كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأُكرهوا على الخروج، فنزلت: . إنَّهم لم يُعْذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صفِّ المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصَّفين، ولن يُعدموا – لو أرادوا – الفرصة في الانتقال إلى رسول الله(ﷺ) كما فعل عبد الله بن سهيل[1].

إنَّ للإيمان مستلزمات تعبِّر عن صدقه، وقوَّته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كلِّ القيم ممَّا سواه، فإذا كان كذلك، كان لصاحبه الأثرُ الفعَّال، والقوَّة الفاعلة في بناء الحقِّ والخير؛ الَّذي أراده الله، إنَّ الإيمان يصبُغ السُّلوك، فإذا به يشعُّ من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة، والابتسامة، ومن خلال السَّمْتِ[2]، والانفعال، ولذا لم يُعذَرِ الَّذين كانوا في صفِّ المشركين؛ لأنَّ الإيمان الَّذي ادَّعوه لم توجد له مستلزماتٌ، فلم يُؤتِ ثمارَه[3].

وبهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم في بدرٍ مُثُلاً عليا لصدق الإيمان، الَّتي تدل على أنَّهم اثروا رضاء الله ورسوله(ﷺ) على حبِّ الوالد، والولد، والأهل، والعشيرة، فلا يعجبُ المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصَّادقة في قوله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ **[المجادلة: 22]**.

رابعاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها:

من المعجزات الَّتي ظهرت على يَدَيْ رسول الله(ﷺ) في بدرٍ إخبارُه عن بعض المغيَّبات،

---

(1) انظر: من معين السيرة ، ص 217.

(2) السَّمْت: الهيئة.

(3) انظر: من معين السيرة ، ص 218.

ومن المعلوم: أنَّ علم الغيب مختصٌّ بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آية من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: 65].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

ومن المعلوم: أنَّ الأنبياء – عليهم الصَّلاة والسَّلام – لا يعلمون الغيب، ولا اطِّلاع لهم على شيءٍ منه، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50].

وكما جاءت الأدلَّة تدلُّ على أنَّ الله – تبارك وتعالى – قد اختصَّ نفسه بمعرفة علم الغيب، وأنَّه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلَّةٌ تفيد: أنَّ الله تعالى استثنى من خلقه مَن ارتضاه من الرُّسل، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم، ودلالةً صادقةً على نبوَّتهم.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: 26 – 27] فنخلص من ذلك إلى أنَّ ما وقع على لسان رسول الله(ﷺ) من الإخبار بالمغيَّبات؛ فبوحيٍ من الله تعالى، وهو إعلام الله – عزَّ وجلَّ – لرسوله(ﷺ) للدَّلالة على ثبوت نبوَّته، وصحَّة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره(ﷺ)

بإطلاع الله له على المغيَّبات[1]، وكان لأحداث غزوة بدرٍ نصـــيبٌ من تلك المعجزات الغيبيَّة؛ منها:

أ – قتل أميَّة بن خلف:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضـي الله عنه قال: انطلق سعدُ بن مُعاذ معتمراً، قال: فنزل على أميَّةَ بن خلف أبي صفوان، وكان أميَّة إذا انطلق إلى الشَّام، فمرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ، فقال أميَّة لسعدٍ: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النَّهارُ، وغفل النَّاسُ انطلقت فطفتَ! فبينا سعدٌ يطوف إذا أبو جهل، فقال: مَنْ هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سـعدٌ: أنا سـعدٌ، فقال أبو جهل: تطوفُ بالكعبة امناً، وقد اويتم محمَّداً، وأصـــحابه؟ فقال: نعم، فَتَلاَحيَا[2] بينهما، فقال أميَّة لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك على أبي الحكم، فإنه سيِّد أهل الوادي، ثمَّ قال سعدٌ: والله! لئن منعتني أن أطوفَ بالبيت لأقطعنَّ متجركَ بالشَّـام، قال: فجعل أميَّةُ يقول لسـعدٍ: لا ترفعْ صـوتك، وجعل يمسـكه، فغضـب سـعد، فقال: دعنا عنك؛ فإنِّي سمعت محمداً(ﷺ) يزعم: أنَّه قاتلُك، قال: إيَّايَ؟ قال: نعم! قال: والله! ما يكذب محمَّدٌ إذا حدَّث، فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربيُّ؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم: أنَّه سمع محمَّداً يزعم: أنَّه قاتلي. قالت: فوالله! ما يكذب محمَّدٌ.

قال: فلـــمَّا خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصَّريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ قال: فأراد ألاَّ يخرجَ، فقال له أبو جهل: إنَّك مِنْ أشراف الوادي، فسِرْ يوماً، أو يومين، فسار معهم، يومين، فقتله الله. **[البخاري (3632)]**.

ب – مصارع الطُّغاة:

عن أنس بن مالكٍ رضـــي الله عنه قال: كنَّا مع عمرَ بين مكَّة، والمدينة، فتراءينا الهلالَ،

---

(1) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (453/1).

(2) تلاحيا: تلاوما ، وتنازعا.

وكنتُ رجلاً حديدَ البصر[1]، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم: أنَّه رآه غيري، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أمَا ترآه؟ فجعل يقول: لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه، وأنا مُسْتَلْقٍ على فراشي، ثمَّ أنشأ يحدِّثنا عن أهل بدرٍ، فقال: إنَّ رسول الله(ﷺ) كان يرينا مصارع أهل بدرٍ بالأمس، يقول: «هذا مصرعُ فلانٍ غداً؛ إن شاء الله» قال: فقال عمر: فو الَّذي بعثه بالحقِّ، ما أخطؤوا الحدودَ التي حَدَّ رسولُ الله(ﷺ) . [مسلم (2873)].

جـ إخبار العباس بن عبد المطَّلب بالمال الَّذي دفنه، وإعلام عُمير بن وهب بالحديث الَّذي حَدَثَ بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لـمَّا طلب رسول الله(ﷺ) من عمِّه دفع الفداء، وأجابه العبَّاس: ما ذاك عندي يا رسولَ الله! فقال له: «أين المالُ الذي دفنته أنت، وأمُّ الفضل، فقلتَ لها: إن أُصبت في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وقُثم؟» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله؛ إنَّ هذا الأمر ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضل.

وما حدَّث به عمير بن وهب لـمَّا جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النَّبيِّ(ﷺ) باتِّفاقٍ مع صفوان بن أميَّة، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه، وصدق إيمانه. [سبق تخريجه][2].

ومن المعجزات أيضاً:

ما ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد: أنَّ سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ، فأعطاه النَّبيُّ(ﷺ) جِذْلاً من حطبٍ، فقال: (دونك هذا)، فلـمَّا أخذه عُكَّاشة، وهزَّه؛ عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيضَ، فلم يزل عنده يقاتل به حتَّى قُتِل في حروب الردَّة أيام أبي بكرٍ[3].

وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهمٍ يوم بدرٍ، ففُقِئت عيني، فبصق فيها رسول الله(ﷺ) ودعا لي،

---

(1) حديد البصر: أي: نافذ.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (178/2).

(3) انظر: زاد المعاد (186/3). وذكر المحقِّق أنَّ ابن إسحاق ذكرها من غير سندٍ.

فما اذاني منها شيءٌ[1].

قال الدُّكتور أبو شهبة: وما ينبغي لأحدٍ أن يزعم: أنَّ المعجزات الحسِّيَّة لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحةً جليَّةً في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات: أنَّه نبيٌّ يُوحَى إليه، فقد أخبر بمغيَّبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنَّه خبر السَّماء، وغير خفيٍّ ما يحدثه من انقلاب عودٍ، أو عُرْجُونٍ[2] في يد صاحبه سيفاً بتَّاراً في إيمانه، وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التَّردُّد، أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيفٍ خرقت به العادة، وصار مثلاً، وذكرى في الأوَّلين، والآخرين[3].

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدرٍ، وفي الأحداث الَّتي سبقتها، أراد مشركٌ أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النَّبيِّ(ﷺ) الموافقة على قبوله معهم، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه، فقال(ﷺ) : «ارجع، فلن أستعين بمشرك». **[أحمد (149/6)، ومسلم (1817)، وأبو داود (2732)، والترمذي (1558)، وابن ماجه (2832)]**.

فالحديث يبيِّن: أنَّ القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامَّة، ولهذه القاعدة استثناءٌ، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معيَّنةٍ، وهي: تحقُّق المصلحة، أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألاَّ يكون ذلك على حساب الدَّعوة ومعانيها، وأن يتحقَّق الوثوق الكافي بمن يُستعان به، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلاميَّة، لا متبوعاً، ومقوداً فيها لا قائداً لها، وألاَّ تكون هذه الاستعانة مثارَ شبهةٍ لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقيَّةٌ لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحقَّقت هذه الشُّروط؛ جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقَّق؛ لم تَجُزِ الاستعانة، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسولُ الله(ﷺ) اشتراك المشرك مع

(1) انظر: زاد المعاد (186/3). والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.
(2) العُرْجُون: العِذْقُ ، وهو من النَّخل كالعنقود من العنب ، والجمع: عرَاجينُ.
(3) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (178/2).

المسلمين في مسيرهم إلى عِيرِ قريش؛ إذ لا حاجة به أصلاً.

وفي ضوء الاستثناء، وتحقُّق شروطه استعان النَّبيُّ(ﷺ) بالمشرك عبد الله بن أريقط؛ الَّذي استأجره النَّبيُّ(ﷺ) ، وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة، ليدلَّهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء، وتحقُّق شروطه قَبِل(ﷺ) حماية عمِّه أبي طالب له، كما قَبِل جوار، أو إجارة المطْعِم بن عديٍّ له عند رجوعه(ﷺ) من الطَّائف، وكذلك قبول الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جوار من أجارهم مِنَ المشركين؛ ليدفع هؤلاء الأذى عمَّن أجاروهم[1]، وضبْطُ هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقهٍ دقيقٍ، وإيمانٍ عميقٍ.

سادساً: حذيفة بن اليمان، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

أ – حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أنِّي وأبي أقبلنا نريد رسول الله(ﷺ) ، فأخذنا كفَّار قريش، فقالوا: إنَّكم تريدون محمَّداً، فقلنا: ما نريده؛ إنَّما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرُنَّ إلى المدينة، ولا تقاتلوا مع محمَّدٍ(ﷺ) ، فلمَّا جاوزناهم أتينا رسول الله(ﷺ) ، فذكرنا له ما قالوا، وما قلنا لهم؛ فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم، ونفي بعهدهم»، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الَّذي منعنا أن نشهد بدراً. **[الحاكم (201/3 – 202)]**.

هذه صورةٌ مشرقةٌ في حرص النَّبيِّ(ﷺ) لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرَّفيعة، وإن كان في ذلك إجحافٌ بالمسلمين، ومفوِّتٌ لهم جُهْدَ بعض أفراد المجاهدين.

ب – أُسيد بن الحضير:

عندما رجع رسولُ الله(ﷺ) إلى المدينة قادماً من بدرٍ؛ لقي بالرَّوْحاء رؤوس النَّاس يهنِّئونه

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (144/2 . 145).

بما فتح الله عليه، فقال أُسَيْدُ بن الحضير: يا رسول الله! الحمد لله الَّذي أظفرك، وأقرَّ عينك، والله يا رسول الله! ما كان تخلُّفي عن بدرٍ، وأنا أظنُّ أنَّك تلقى عدوّاً، ولكن ظننت أنَّها عيرٌ، ولو ظننت: أنَّه عدوٌّ؛ ما تخلفت، فقال رسول الله(ﷺ) : «صَدَقْتَ» [البيهقي في الدلائل (133/3)][1].

سابعاً: الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ:

قال حسَّان رضي الله عنه:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللهِ قَوْماً ... وَإِنْ كَثُرُوا وأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ
إِذَا ما ألبسُوا جَمْعاً عَلَيْنَا ... كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبٌّ رَؤُوفُ
سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بالعَوَالي ... سِرَاعاً ما تُضَعْضِعُنا الحُتُوفُ[2]
فَلَمْ تُرَ عُصْبَةٌ في النَّاسِ أَنْكَى ... لِمَنْ عادَوْا إِذَا لَقِحَتْ كُشُوفُ
ولكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا ... مَاثِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ
لَقِيْنَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا ... ونَحْنُ عِصَابَةٌ[3]وَهُمُ أُلُوفُ[4]

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

وما حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ولا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ
وَرَدْنَاهُ بِنُوْرِ الله يَجْلُو ... دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا والغِطاءِ
رَسُولُ الله يَقْدُمُنَا بأَمْرٍ ... مِن اَمْرِ الله أُحْكِمَ بالقَضَاءِ
فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... وما رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بالسَّوَاءِ
فلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ من كَدَاءِ

---

(1) انظر: البداية والنّهاية (305/3).
(2) انظر: السّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (26/3)، الحتوف: جمع حتف، وهو الموت.
(3) العِصَابَةُ: الجماعة من الناس.
(4) هذا محمولٌ على المبالغة؛ لأنَّ جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

بِنَصْــــرِ اللهِ رُوْحُ القُدْسِ فِيْهَا وَمِيْكَالٌ، فَيَا طِيْبَ المِلاءِ[1] [2]

كان النَّبيُّ(ﷺ) يحثُّ شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدِّفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بِشِـعْرِهِمْ، فقد كان الشِّـعر يمثِّل الحملات الإعلاميَّة المؤثِّرة في دنيا العرب، فيرفع أقواماً، ويخفض آخرين، ويُشْعِل الحروب، ويُطْفِئها[3].

كانت بوادر الحرب الإعلاميَّة قد اندلعت منذ الهجرة، غير أنَّ ظهورها أكثرُ بدءاً مع حركة السَّـرايا قُبيل بـــــدر، لكنَّها انفجرت انفجاراً ضـخماً بعد بدرٍ؛ لأنَّ الجانب الإعلاميَّ للقبائل المجاورة كان هدفاً مُهمّاً من أهداف الفريقين، ويظهر: أنَّ القصائد سَرعان[4]ما تطيـر بها الرُّكبان بين يثربَ، ومكَّـةَ، فيأتي الـردُّ من الطَّرف الآخر، فعند النَّصر تكثر أشعار الفريق المنتصر، بينما تكثر المراثـي عند الفريق الثَّانـي، وكان الصَّفُّ الإسلاميُّ يضمُّ شعراء متخصِّصين؛ أمثال: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكان أشدَّهم على الكفَّار حسانُ[5].

* * *

(1) أي: ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (30/3).

(3) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميديِّ (199/4).

(4) سرعان ـ بضم السِّين أو فتحها أو كسرها ـ: تقولها للتَّعجُّب من السُّرعة.

(5) انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبويَّة ، ص 354 ـ 355.

المبحث الثَّامن

أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ، وأحد[1]

في أعقاب غزوة بدرٍ أخذت الهيبة العسكريَّة للمسلمين مداها الكبير، في دائرةٍ واسعةٍ في الجزيرة العربيَّة، وأحسَّ ضعفاء المشركين بالخطر، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام، وبدأت النُّفوس تتطلَّع إلى الإيمان؛ فتوسَّعت دائرة الدُّخول في الإسلام، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً، أو خديعةً؛ وبهذا كلِّه أصبحت الدَّولة الجديدة أمام أوضاعٍ جديدةٍ من المكر، والتَّألُّب، والتَّحالفات؛ ولكنَّ تأييد الله تعالى، ثمَّ جهاز أمن الدَّولة المتيقِّظ أفشل مخطَّطاتِ أعداء الإسلام[2].

أولاً: الغزوات الَّتي قادها رسول الله(ﷺ) بعد بدرٍ، وقبل أُحدٍ:

1 – ماء الكُدْر[3] في بني سُليم:

غزا النَّبيُّ(ﷺ) بعد سبع ليالٍ من عودته إلى المدينة من غزوة بدرٍ، وبلغ ماء الكُدْر في ديار بني سُلَيم، الَّذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنَّه لَمْ يلقَ حرباً؛ فأقام ثلاث ليالٍ على الماء، ثمَّ رجع إلى المدينة[4]، وكان سبب تلك الغزوة، تجمُّع أفراد بني سُلَيم لمقاتلة المسلمين، والاعتداء عليهم بعد معركة بدرٍ مباشرة، ولكنَّ رسول الله(ﷺ) فاجأهم بهجومٍ سريعٍ غير متوقَّعٍ، فهرب بنو سليم، وتفرَّقوا على رؤوس الجبال، وبقيت إبلهم مع راعٍ لها يُدعى يساراً، فاستاق رسولُ الله(ﷺ) الإبلَ مع راعيها، وعند موضع صرار على ثلاثة أميال من المدينة قسَّم النَّبيُّ(ﷺ) الإبل – الَّتي كان عددها خمسمئة بعير – على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال

---

(1) ينظر الشكل (1) في الصفحة (745).

(2) انظر: الأساس في السُّنَّة، وفقهها، السِّيرة النَّبوية (512/1).

(3) الكُدْر: ماء من مياه بني سُليم يقع في نجد.

(4) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (296/1).

النَّبيُّ(ﷺ) خُمْسَها، وكان يسار من نصيبه، ولكنَّه أعتقه بعد ذلك[1].

2 – غزوة السَّويق:

قدم أبو سفيان بمئتي فارسٍ من مكَّة، وسلك طريق النَّجديَّة؛ حتَّى نزلوا حيَّ بني النضير ليلاً، واستقبلهم سلاَّم بن مِشْكَم سيِّدُ بني النَّضير، فأطعمهم، وسقاهم، وكشف لهم عن أسرار المسلمين، وتدارس معهم إحدى الطُّرق لإيقاع الأذى بالمسلمين، ثمَّ قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُرَيْض – وادٍ بالمدينة في طرف حَرَّةِ وَاقِم – فقتل رجلين، وأحرق نخلاً، وفرَّ عائداً إلى مكَّة، فتعقَّبه رسول الله(ﷺ) في مئتي رجلٍ من المهاجرين، والأنصار، ولكنَّه لم يتمكن من إدراكهم؛ لأنَّ أبا سفيان ورجاله قد جدُّوا في الهرب، وجعلوا يتخفَّفون من أثقالهم، ويُلْقون السَّويق[2] التي كانوا يحملونها لغدائهم، وكان المسلمون يمرُّون بهذه الجُرب، فيأخذونها؛ حتَّى رجعوا بسَوِيقٍ كثيرٍ، لذا سمِّيت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق، وعاد رسول الله(ﷺ) إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً[3].

3 – غزوة ذي أمر:

جاءت الأخبار من قِبَلِ رجال الاستخبارات الإسلاميَّة، تفيد بأنَّ رجال قبيلتي ثعلبة، ومحارب تجمَّعوا بذي أمر، بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربِيّ، يريدون حرب رسول الله(ﷺ) ، والإغارة على المدينة، فاستعمل النَّبيُّ(ﷺ) على المدينة عثمان بن عفَّان، وخرج في أربعمئة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ، وراجلٍ، فأصابوا رجلاً بذي القَصَّة يقال له: جُبَار من بني ثعلبة، كان يحمل أخباراً عن قومه، أسرَّ بها إلى رسول الله(ﷺ) ، وقد دخل في الإسلام، وانضمَّ إلى بلال ليتفقَّه في الدين[4].

---

(1) انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، ص 277.

(2) السَّويقُ: هو أن تحمَّص الحنطة ، أو الشَّعير ، أو نحو ذلك ، ثمَّ تطحن ، ثمَّ يسافر بها ، وقد تمزج باللَّبن ، والعسل ، والسَّمن ، وتلتُّ ، فإن لم يكن شيء من ذلك؛ مزجت بالماء ، والجمع: أَسْوِقَةٌ.

(3) انظر: السِّيرة النبوية لابن هشام (51/3)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 278 ، 279.

(4) انظر: البداية والنِّهاية (3/4) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 279.

أمَّا المشــركون من بني ثعلبة، ومحارب ما لبثوا أن فرُّوا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمســير المسلمين، وبقي رسولُ الله(ﷺ) في نجد مدةً تقارب الشَّـهر دون أن يلقى كيداً من أَحَدٍ، وعاد بعدها إلى المدينة[1].

وفي هذه الغزوة أسلم دُعثور بن الحارث الَّذي كان سيِّداً مطاعاً، بعد أن حدثت له معجزة على يديْ رســول الله(ﷺ) ؛ فقد أصــاب المســلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ، فابتلَّت ثياب رسـول الله(ﷺ) ، فنزل تحت شـجرة، ونشـر ثيابه لتجفَّ، واسـتطاع دُعثور أن ينفرد برسـول الله(ﷺ) بسـيفه، فقال: يا محمد ! من يمنعك منِّي اليوم ؟ قال: الله. ودفع جبريل صـدره، فوقع السَّيف من يده، فأخذه رسول الله(ﷺ) ، فقال: من يمنعك منِّي؟ قال: لا أحد! وأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رســول الله، واللهِ لا أكثرُ عليك جمعاً أبداً ! فأعطاه رســول الله(ﷺ) سيفه، فلمَّا رجع إلى أصحابه؛ قالوا: ويلك ! ما لك؟ فقال:

نظرت إلى رجلٍ طويلٍ، فدفع صــدري، فوقعت لظهري، فعرفت: أنَّه مَلَكٌ، وشــهدت أنَّ محمَّداً رســول الله، واللهِ لا أكثر عليه جمعاً: وجعل يدعو قومه إلى الإســلام. **[البيهقي في الدلائل (168/3 – 169)]**[2].

ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ **[المائدة: 11]**.

4 – غزوة بَحْران[3]:

كانت هذه الغزوة في شهر جُمادى الأولى من السَّنة الثالثة للهجرة، وقد خرج النَّبيُّ(ﷺ) في ثلاثمئةٍ من المســلمين؛ حتَّى بلغ بَحْرَانَ بين مكَّة، والمدينة، يريد قتال بني سُــلَيم، فوجدهم قد

(1) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 279.
(2) انظر: البداية والنِّهاية (3/4) ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية وسبب ورودها.
(3) بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) ، وبعضهم بضمها (بُحْران).

تفرَّقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عَشْرَ ليالٍ[1].

ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلاميَّة على رصد تحرُّكات العدوِّ، ومعرفة قوَّته، وخططه، ومدده؛ لكي تحطِّم هذه التَّجمُّعات المناوئة للدَّولة الإسلاميَّة الفتيَّة قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصَّحراء المترامية الأطراف كانت دوراتٍ تدريبيةً تربويَّةً للصَّحابة الكرام، وسعدت سرايا الصَّحابة بقيادة النَّبيِّ(ﷺ) لها، فقد كانت تلك الدَّورات العمليَّة التَّدريبيَّة القتاليَّة التَّربويَّة مستمرةً، وتمتدُّ من خمسة أيام إلى شهر، تتمُّ فيها الحياة الجماعيَّة، ويتربَّى جنود الإسلام، على السَّمع، والطَّاعة، والتَّدريب المتقن، ويكتسبون خبراتٍ جديدةً تساعدهم على تحطيم الباطل، وتقوية الحقِّ.

لقد كان المنهاج النَّبويُّ الكريم يهتمُّ بتربية الصَّحابة في ميادين النِّزال، ولا يَغْفُلُ عن المسجد النَّبويِّ ودوره في صقل النُّفوس، وتنوير العقول، وتهذيب الأخلاق من خلال وجود المربِّي العظيم(ﷺ) ، الَّذي أصبحت تعاليمُه تشعُّ في أوساط المجتمع من خلال القُدوة، والعبادة الخاشعة للهِ - عزَّ وجلَّ - ؛ فالمنهاج النبويُّ الكريم جمع بين الدَّورات المسجديَّة التَّربويَّة، والدَّورات العسكريَّة التَّربويَّة المكثَّفة؛ لكي يَقْوَى المجتمع الجديد، وتُرَصُّ صفوفُه، ويكسب الخبرات؛ لكي يقوم بنشر الإسلام في الآفاق[2].

5 - سرية زيد بن حارثة إلى القَرْدَة:

أصبح مشركو مكَّة بعد هزيمتهم في بدرٍ يبحثون عن طريقٍ أخرى لتجارتهم للشَّام، فأشار بعضهم إلى طريق نجدٍ العراق، وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تُجَّار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أميَّة، وحويطب بن عبد العُزَّى، ومعهم فضَّةٌ، وبضائع كثيرةٌ، بما قيمته مئة

---

(1) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص 61، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري، ص 280.

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (118/3. 119).

ألف درهمٍ، فبلغ ذلك رسول الله(ﷺ) بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلاميّ، يُدعى سليط بن النُّعمان رضـــي الله عنه[1]، فبعث زيدَ بن حارثة في مئة راكبٍ لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماءٍ يقال له: القَرْدَة، وهو ماء من مياه نجدٍ، ففرَّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العِيرَ وما عليها، وأسروا دليلَها فُرات بن حَيَّان؛ الَّذي أسلم بين يدي النَّبيّ(ﷺ) ، وعادوا إلى المدينة، فخَمَّسَهَا رسولُ الله(ﷺ) ، ووزَّع الباقي بين أفراد السَّرِيَّة[2].

ثانياً: غزوة بني قَيْنُقَاع [3]:

ذكر الزُّهريُّ: أنَّها وقعت في السَّـنة الثَّانية للهجرة، وذكر الواقديُّ، وابن سـعدٍ: أنها وقعت يوم السَّـبت للنِّصـف من شـوال من السَّـنة الثَّانية[4]، واتَّفق معظم من كَتَبَ في مغازي رسـول الله(ﷺ) ، وســيرته على أنَّها وقعت بعد معركة بدرٍ؛ إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة الَّتي أبرمها الرَّسول(ﷺ) معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم الَّتي حدَّدتها، ووقفوا من الرَّسول(ﷺ) والمسلمين مواقفَ عدائيَّةً، فأظهروا الغضـب، والحسـد عندما انتصـر المسـلمون في بدرٍ، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[5].

وقد جمعهم النَّبيُّ(ﷺ) في سـوقهم بالمدينة، ونصـحهم، ودعاهم إلى الإسـلام، وحذَّرهم أن يصـيبهم ما أصـاب قريشـاً في بدرٍ[6]؛ غير أنَّهم واجهوا النَّبيَّ(ﷺ) بالتَّحدِّي، والتَّهديد، رغم ما يُفترض أن يلتزموا به من الطَّاعة، والمتابعة لبنود المعاهدة الَّتي جعلتهم تحت رئاسـته، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنَّك من نفســـك أنَّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً، لا يعرفون القتال، إنَّك لو قاتلتنا لعرفت: أنَّا نحن النَّاس، وأنَّك لم تلقَ مثلنا»[7].

---

(1) المصدر السابق نفسه (132/3).
(2) انظر: سيرة ابن هشام (56/3).
(3) ينظر الشكل (2) في الصفحة (746).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (299/1).
(5) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (269/1).
(6) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (276/1).
(7) المصدر السَّابق نفسه.

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل؛ إذ لم يكن في جوابهم ما يشـــير إلى الالتزام ، والاحترام ؛ بل على العكس؛ فإنَّهم قد أظهروا رُوحاً عدائيَّةً، وتحدِّياً، واستعلاءً، واستعداداً للقتال، فأنزل الله - سـبحانه وتعالى - فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَـتُغْلَبُونَ وَتُحْشَـرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْـرِهِ مَنْ يَشَـاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَـارِ﴾ [آل عمران: 12 - 13].

1 - الأسباب المباشرة للغزوة:

لـمَّا انتصر المسلمون في بدرٍ، وقال رسول الله(ﷺ) لليهود ما قال؛ أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الَّذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحيَّنون الفرصة السَّانحة لمناوشة المسلمين، حتَّى جاءتهم فرصتُهم الحقيرة الدَّنيئة؛ عندما جاءت امرأةٌ من العرب بِجَلَبٍ[1] لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغٍ يهوديٍّ، فجعلوا يُريدونها على كَشْف وجهها، فأبت، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلـمَّا قامت انكشفت سَوْءَتُها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصَّائغ فقتله - وكان يهوديّاً - وشدَّت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشَّرُّ بينهم، وبين بني قينقاع[2].

فحين علم رسول الله(ﷺ) بذلك، سار إليهم على رأس جيشٍ من المهاجرين، والأنصار، وذلك يوم السَّبت للنِّصف من شوَّال من السَّنة الثَّانية للهجرة[3]، وكان الَّذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، واستخلف(ﷺ) على المدينة أبا لُبَابَةَ بن

---

(1) الجَلَبُ: كلُّ ما يجلب للأسواق؛ ليُباع فيها.
(2) انظر: سيرة ابن هشام (54/3).
(3) انظر: المغازي، للواقديِّ (176/1)، والطَّبقات، لابن سعد (28/2 . 29).

عبد المنذر العمريّ[1]، واسمه: بشـير[2]. وحين سـار إليهم رسـول الله(ﷺ) ؛ نبذ إليهم العهد، كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَـوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: 58].

2 – ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدَمه(ﷺ) ؛ تحصَّنوا في حصـونهم، فحاصـرهم النَّبيُّ(ﷺ) خمسَ عَشْـرَةَ ليلةً – كما ذكر ابن هشـام –[3]، واسـتمرَّ الحصـار حتَّى قذف الله في قلوبهم الرُّعب، واضـطروا للنُّزول على حكمه صـلى الله عليه وسـلم، فقد فاجأهم(ﷺ) بأسـلوب الحصـار، فأربكهم، وأوقعهم في حيرةٍ من أمرهم؛ بعد أن قطع عنهم كلَّ مددٍ، وجمَّد حركتهم، فعاشـوا في سـجنٍ؛ ممَّا جعلهم في النِّهاية ييأسون من المقاومة، والصَّبر، فبعد أن كانوا يهدِّدون رسول الله(ﷺ) ، وبأنَّهم قوم يختلفون بأسـاً، وشـدَّةً عن مشـركي قريش، إذا بهم يضـطرون للنُّزول على حكم رسـول الله(ﷺ) [4]، فأمر بهم، فرُبطوا، فكانوا يكتَّفون أكتافاً، واسـتعمل رسـول الله(ﷺ) على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلميَّ الأوسيَّ[5].

3 – مصير يهود بني قينقاع:

حـاول ابن سـلول زعيم المنـافقين أن يحلَّ حلفاءه مِنْ وثَاقِهِم، فعندما مرَّ عليهم قـال: حُلُّوهم، فقال المنذر: أتحلُّون قوماً ربطهم رسـول الله(ﷺ) ؟! والله لا يحلُّهم رجلٌ إلا ضَـرَبْتُ عنقَه[6]، فاضطر عبد الله بن أُبيّ بن سلول أن يتراجع عن أمره، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النَّبيّ(ﷺ) بفكِّ أسـرهم[7]، فأتى رسـولَ الله(ﷺ) ، فقال: يا محمد! أَحْسِـنْ في مواليَّ – وكانوا

---

(1) انظر: تاريخ الطَّبريّ (481/2).
(2) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (279/1).
(3) انظر: سيرة ابن هشام (55/3).
(4) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (144/1).
(5) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (280/1).
(6) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (32/5 . 33).
(7) المصدر السَّابق نفسه.

حلفاء الخزرج -، قال: فأبطأ عليه رسـول الله(ﷺ) ، فقال: يا محمد! أحسـن في مواليَّ، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أُبيٍّ يده في جيبِ درعِ رسـولِ الله(ﷺ) ، فقال له رسـول الله(ﷺ) : «أرسـلني» وغضـب رسـول الله(ﷺ) ، حتَّى رأوا لوجهه ظُللاً[1]، ثمَّ قال: «ويحك! أرسـلني»، قال: لا والله، لا أرسلك حتَّى تُحسِن في مواليَّ؛ أربعمئـة حاسرٍ[2]، وثلاثمئـة دارعٍ، قد منعونـي من الأحمر، والأسـود، تحصدهم في غـداة واحدة؟ إنِّي والله امرؤ أخشى الدَّوائر! فقال رسول الله(ﷺ) : «هم لك» **[الطبراني في تاريخه (480/2)، والواقدي في مغازيه (177/1 – 178)، والبيهقي في الدلائل (174/3)، وابن هشام (51/3 – 52)]**[3].

فخلَّى رسولُ الله(ﷺ) سبيلَهم، ثمَّ أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله(ﷺ) والمسلمون ما كان لديهم من مالٍ، وقد تولَّى جمع أموالهم، وإحصـاءها محمَّد بن مسـلمة رضـي الله عنه[4]، وحاول ابن أُبي بن سلول أن يحدِّث رسولَ الله(ﷺ) في يهود بني قينقاع؛ لكي يُقرَّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله(ﷺ) عُويم بن ساعدة الأنصاريَّ الأوسيَّ، فردَّه عويم، وقال: لا تدخل حتَّى يأذن رسـول الله(ﷺ) لـك، فدفعه ابن أُبيٍّ، فغلَّظ عليه عويم، حتَّى جَحَش[5] وجهَ ابن أُبيٍّ الجدارُ، فسال الدَّم[6].

ويظهر في هذا الخبر، فقه النَّبيِّ(ﷺ) السِّياسـيُّ في تعامله مع ابن سـلول، حيث لبَّى طلبه، فلعلَّ هذا الموقف يغسـل قلبه، ويزيل الغشـاوة عنه، فتتمُّ هدايته، فقال له: «هم لك»، ولعلَّ الَّذين يسيرون وراء زعامة ابنُ بيٍّ يَصْلُحون بصلاحه، فيتماسك الصَّفُّ، ويلتحم؛ فلا يتأثر مِنْ كيد أعداء الإسلام[7].

---

(1) ظللاً: جمع ظلَّة ، وهي السَّحابة ، وهي كناية عن تغيُّر وجه النَّبي صلى الله عليه وسلم.
(2) حاسر: لا درع له.
(3) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (281/1).
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) جَحَش: خَدَش.
(6) انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (30/5).
(7) انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص 247.

وهناك بُعدٌ آخر؛ حيث حرص(ﷺ) أن يتفادى حدوث فتنةٍ في مجتمع المؤمنين؛ حيث إنَّ بعض الأنصـــار حديثو عهدٍ بالإســـلام، ويُخشـــى أن يؤثِّر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ لسمعته الكبيرة فيهم[1]؛ ولذلك سلك(ﷺ) معه أسلوب المداراة، والصَّبر عليه، وعلى إساءاته؛ تجنُّباً للفتنة، وإظهاراً لحقيقة الرَّجل من خلال تصـــرُّفاته، ومواقفه عند مَنْ يجهلها، ومِنْ ثَمَّ يفرُّ النَّاس مِنْ حوله، ولا يتعاطفون معه، وقد حقَّق هذا الأســلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن ســـلولٍ لجميع النَّاس؛ حتَّى أقرب النَّاس إليه، ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلَّم؛ أسكتوه، وتضايقوا من كلامه[2]، بل أرادوا قتله – كما سيأتي بإذن الله تعالى –.

4 – تبرُّؤ عبادة بن الصَّامت منهم:

لـــــمَّا نقضت العهدَ بنو قينقاع، سار عُبادة بن الصَّامت أحد بني عوف – لهم من حلف بني قينقاع مثل الَّذي لهم من عبد الله بن أُبيٍّ – لرسول الله(ﷺ) ، وخلعهم إليه، وتبرَّأ إلى الله – عزَّ وجلَّ – وإلى رســـوله(ﷺ) من حلفهم، وقال: يا رســـول الله! أتولَّى الله ورســـولَه(ﷺ) ، والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار، وولايتهم[3].

ولـــمَّا تقرَّر جلاء بني قينقاع، أمر رسولُ الله(ﷺ) عُبادة بن الصَّامت أن يُجليَهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد! من بين الأوس والخزرج – ونحن مواليك – فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لـــــمَّا حاربتم جئتُ رسولَ الله(ﷺ) ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنِّي أبرأ إليك منهم، ومن حلفهم، وكان ابن أُبيٍّ، وعبادة بن الصَّـــامت منهم بمنزلةٍ واحدةٍ في الحلف، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: تبرَّأتَ من حلف مواليك؟! ما هذا بيدهم عندك ، فذكَّره مواطن قد أبْلَوْا فيها ، فقال عبادة: يا أبا الحُبَاب! تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله! إنك لمعْصِمٌ بأمرٍ سنرى غيَّه غداً، فقالت قينقاع: يا محمد! إنَّ لنا دَيْناً في النَّاس، قال النَّبيُّ(ﷺ) : «تعجَّلوا، وضـــعوا»

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (32/5).
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (148/1).
(3) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (282/1 . 283).

وأخذهم عبادة بالرَّحيل، والإجلاء، وطلبوا التنفُّس، فقال لهم: ولا ســـاعةً من نهارٍ، لكم ثلاث لا أزيد عليها، هذا أمر رسول الله(ﷺ) ، ولو كنت أنا ما نفَّستكم، فلــمَّا مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتَّى سلكوا إلى الشَّام، وهو يقول: الشَّرف الأبعد، الأقصى، فالأقصى، وبلغ خلف الذُّباب ثمَّ رجع، ولحقوا بأذرعاتٍ[1].

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صـــاغرين، قد ألقَوا ســـلاحَهم، وتركوا أموالهم غنيمةً للمسلمين، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة، وأشدِّهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعُـــدَّةً ؛ ولذلك لاذت القبائل اليهوديَّـــة بالصَّمت، والهدوء، فترةً من الزَّمن بعد هـــذا العقاب الرَّادع، وسيطـــر الرُّعب على قلوبها، وخُضِدَتْ شوكتُها[2].

5 – الآيات الَّتي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود، وبراءة عُبادة بن الصَّامت منهم:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَـــارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُـــهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَـــارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَـــى أَنْ تُصِـــيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَـــى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِـرِينَ ۝ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَـــوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّـلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ **[المائدة: 51 – 56]**.

قال ابن عطيَّة في هذه الآيات: لـــمَّا انقضت بدرٌ، وشجر أمر بني قينقاع؛ أراد رسول

---

(1) المصدر السابق نفسه ، (284/1 . 285).

(2) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (149/1).

الله(ﷺ) قتلهم، فقام دونهم عبدُ الله بن أبيّ بن سـلول – وكان حليفاً لهم – وكان لعبادة بن الصَّامت من حلفهم مثل ما لعبد الله، فلـمَّا رأى عُبادة منزع رسول الله(ﷺ) ، وما سلكتْه اليهود من المشاقَّة لله، ولرسوله(ﷺ) ؛ جاء إلى النَّبيّ(ﷺ) ، فقال: يا رسول الله! إنِّي أبرأُ إلى الله من حلف يهود، وولائهم، ولا أُوالي إلا الله، ورسولَه، وقال عبدُ الله بن أُبيّ: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود، فإنِّي لابدَّ لي منهم، إنِّي رجلٌ أخاف الدَّوائر[1].

إنَّ الفرق واضحٌ بين ابن سلول الَّذي انغمس في النِّفاق، وبين عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه الَّذي تربَّى على المنهاج النَّبويِّ، فَصَفَتْ نفسه، وتطهَّر قلبُه، وقوي إيمانه، وتنوَّر عقله، فتخلَّص من آثار العصبية الجاهليَّة، والأهواء، والمصالح الذَّاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كلِّ مصلحةٍ، فكان مثلاً حيّاً للمسلم الصَّادق المخلص لعقيدته[2].

ثالثاً: تصفية المُحَرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة، ومقتل كعب بن الأشرف:

إنَّ خطر المحرِّضين على الفتنة لا يقلُّ عن خطر الَّذين يشهَرون السُّيوف لقتال المسلمين؛ إذ لولا هؤلاء المحرِّضون لما قامت الفتنة؛ لذلك أخذ رسولُ الله(ﷺ) يتتبَّع هؤلاء المحرِّضين، ويقتُلهم؛ إطفاءً لنار الفتنة، وتمكيناً للحقِّ، وقد قَتل منهم خلقاً بعد موقعة بدرٍ[3]، ومنهم:

أ – عصماء بنت مَرْوان:

الَّتي كانت تحرِّض على النَّبيِّ(ﷺ) ، وتعيب الإسلام، فقد أقدم عُمَيْرُ بنُ عديٍّ الخُطميُّ رضي الله عنه على قتلها، وحين سأل النَّبيَّصلى الله عليه وسلم بعد ذلك عمَّا إذا كان عليه شيء ؟ قال له النَّبيُّ(ﷺ) : «نصرت الله ورسوله يا عمير!»، ثمَّ قال: «لا ينتطح فيها عنزان»

---

(1) انظر: المحرر الوجيز ، لابن عطيَّة (477/1 . 478).
(2) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (302/1).
(3) انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص 138.

[الخطيب البغدادي في تاريخه (99/13)، وكشف الخفاء (3137)]، وقد أسلم نتيجة ذلك عددٌ من بني خَطَمَةَ، وجهر بالإسلام منهم مَنْ كان يستخفي[1].

ب – مقتل أبي عفكٍ اليهوديّ:

كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف، وكان يهوديّاً، يُحرّض على رسول الله(ﷺ) ويقول الشِّعر، فقال رسول الله(ﷺ) : «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصَّحابيُّ سالم بن عُمَيْرٍ، فقتله[2].

وأهمُّ حدثٍ في تصفية المحرِّضين على الدَّولة ما بين بدرٍ، وأُحدٍ هو مقتل كعب بن الأشرف.

ج مقتل كعب بن الأشرف:

ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نَبْهان من قبيلة طيِّء، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهليَّة، فقدم المدينة، وحالف يهود بني النَّضير، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعباً[3]، وكان شاعراً، ناصب الإسلام العداء، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريشٍ في معركة بدرٍ، فسافر إلى مكَّةَ يهجو النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، ويحرِّض قريشاً على الثأر لقتلاهم، الَّذين كان ينوح عليهم، ويبكيهم في شعره، ويدعو إلى القضاء على الرَّسول(ﷺ) ، والمسلمين[4]، وممَّا قاله من الشِّعر في قتلى بدرٍ من المشركين:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمُهْلَكِ أَهْلِهِ وَلِمثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ

قُتِلَتْ سُرَاةُ الناس حَوْلَ حِيَاضِهِمْ لا تَبْعَدُوا إِنَّ الملُوكَ تُصَرَّعُ

كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهَا من ابْيَضَ ذِي بَهْجَةٍ تأْوِي إِلَيْهِ الضُّيَّعُ

---

(1) انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (295/1).

(2) المصدر السابق نفسه (296/1).

(3) انظر: السّيرة ، لابن هشام (58/3).

(4) انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (298/1).

ويَقُولُ أَقْوَامٌ أُذَلُّ[1] بِسُـــخْطِهِمْ إنَّ ابنَ الأشْـــرَف ظَلَّ كَعْباً يَجْزَعُ
صَـدَقُوا فَلَيْتَ الأَرْضَ سَـاعَةَ قُتِّلُوا ظَلَّتْ تَسُـــوْخُ بأَهْلِهَا وتَصَـــدَّعُ
نُبِّئْـتُ أَنَّ بَنِي كِنَـانَـةَ كُلَّـهُـمْ خَشَـعُوا لِقَوْلِ أَبِي الوليْدِ وَجُدِّعُوا[2]

واســتمرَّ كعب بن الأشــرف في أذيَّة رســول الله(ﷺ) بالهجاء، وتشــجيع قريشٍ لمحاربة المسلمين، واستغواهم على رسول الله(ﷺ) ، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله، أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمَّدٍ، وأصـــحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم ســـبيلاً[3]، ثمَّ خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله(ﷺ) ، معلناً بعداوته وهجائه[4].

ولـــــمَّا قدم المدينة؛ أعلن معاداة النَّبيِّ(ﷺ) ، وشـــرع في هجائه، وبلغت به الوقاحة والصَّلَفُ[5] أن يمتدَّ لسانه إلى نساء المسلمين، وشَبَّب بأمِّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العبَّاس عمِّ النَّبي(ﷺ) ، فقال فيها:

أَذَاهِـبٌ أَنْـتَ لَمْ تَحْلُـلْ بِمَنْقَبَـةٍ وتَارِكٌ أَنْتَ أمَّ الفَضْـــلِ بالحَرَمِ
صَفْرَاءُ رَادِعَةٌ لَوْ تُعْصَرُ انْعَصَرتْ مِنْ ذِي القَوارِيْرِ والحِنَّاء والكَتَمِ[6]
إحْدَى بَنِي عَامِرٍ هَامَ الفؤادُ بها وَلَوْ تَشَاءُ شَفَتْ كَعْباً مِنَ السَّقَمِ
لَمْ أَرَ شَمْسَـــاً بِلَيْلٍ قَبْلَهَا طَلَعَتْ حَتَّى تَـبَدَّتْ لَـنَا فِي لَيْلَةِ الظُّلَمِ[7]

1 – حسَّان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسولُ الله(ﷺ) يحثُّ حسَّاناً للتصدِّي لكعب بن الأشرف، فكان(ﷺ) يُعْلِم حسَّاناً أين نزل ابن الأشـــرف في مكَّة؟ فعندما نزل على المطَّلب بن أبي وَدَاعة بن ضـــبيرة السَّـــهمي

(1) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص 158.
(2) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص 158 ، والسيرة النبويَّة لابن هشام (57/3).
(3) المصدر السَّابق نفسه.
(4) المصدر السَّابق نفسه.
(5) الصَّلَفُ: التكبُّر والتَّفاخر.
(6) رادعة: أي: يفوح منها أثر الطِّيب والزَّعفران ، والكتم: نبتٌ يخلط بالحنَّاء ، فيخضَّب به الشَّعر ، فيبقى لونه.
(7) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص 159 . 160 ، قسم المغازي.

وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فأبلغ(ﷺ) حسَّان بن ثابت بذلك، فهجاهم لإيوائهم ابن الأشـرف، فلــــمَّا بلغ عاتكة بنت أسـيد هِجَاءُ حسـان، نبذت رحل اليهوديِّ كعب بن الأشرف، وقالت لزوجها: مالنا ولهذا اليهوديِّ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسَّان؟![1]

وتحوَّل كعب إلى أناسٍ آخرين، وكان كلَّما تحوَّل إلى قومٍ، دعا رســولُ الله(ﷺ) حســاناً، وأخبره أين نزل ابن الأشــرف، فيهجو مَنْ نزل عندهم، فيطردونه، وظلَّ يلاحقه حتَّى لفظه كلُّ بيتٍ هناك، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السُّبل ينتظر مصيره المحتوم، وجزاءه الَّذي يستحقُّه[2].

كانت الحرب الإعلاميَّة التي شَنَّها حسَّـان ضـدَّ كعب بن الأشـرف، قد حققت أهدافها؛ وهذه بعض الأبيات الَّتي قالها حسَّان بن ثابت رضي الله عنه في الردِّ على كعب بن الأشرف:

أبَــكَى لِكَعْبٍ ثُمَّ عُلَّ[3] بِعَبْرَةٍ ... مِنْهُ وَعَاشَ مُجَدَّعَاً لاَ يَسْـمَعُ؟
وَلَقَـدْ رأَيْـتُ بِبَطْنِ بَـدْرٍ مِنْهُمُ ... قَتْلَى تَسُـحُّ لَهَا العُيُونُ وتَدْمَعُ
فَابْكِ فَقَدْ أَبْكَيْتَ عَبْدَاً رَاضِعاً ... شِبْهَ الكُلَيْبِ إِلَى الكُلَيْبةِ يَتْبَعُ
وَلَقد شَـفَى الرَّحْمنَ مِنَّا سَـيِّداً ... وأَهَانَ قَوْماً قَاتَلُوهُ وَصُــرِّعُوا
وَنَجـا وأفْلَـتَ مِنْهُمُ مَنْ قَلْبُـه ... شَغِفٌ يَظَلُّ لِخَوْفِهِ يَتَصَـدَّعُ[4]

2 – جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهوديُّ ابن الأشـرف بجرائمَ كثيرةٍ، وخياناتٍ عديدةٍ، وإسـاءاتٍ متعدِّدةٍ لرسـول الله(ﷺ) ، وللمسلمين، والمسلمات القانتات العابدات، وكلُّ جريمة من هذه الجرائم تُعَدُّ نقضاً للعهـد، تســتوجب عقوبة القتـل، فكيف إذا اجتمعت هـذه الجرائم كلُّها في هـذا اليهوديِّ

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (111/1).
(2) المصدر السَّابق نفسه.
(3) عُلَّ: من العَلَل ، وهو الشُّرب بعد الشُّرب ، يريد البكاء بعد البكاء.
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (59/3).

الشِّرِّير؟![1].

إنَّ ابن الأشرف بهجائه للنَّبيِّ(ﷺ) ، وإظهاره التَّعاطُفَ مع أعداء المسلمين، ورثاءِ قتلاهم، وتحريضِهم على المسلمين، يكون قد نقض العهد، وصار محارباً مهدورَ الدَّم؛ ولذلك[2] أمر النَّبيُّ(ﷺ) بقتله، وقد فَصَّلَ البخاريُّ خبر مقتله، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال رسول الله(ﷺ) : «مَنْ لكعب بن الأشرف؛ فإنَّه قد اذى الله ورسوله؟»، فقام محمَّد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله! أتحبُّ أن أقتله؟

قال: «نعم».

قال: فائذن لي أن أقول شيئاً.

قال: «قل».

فأتاه محمَّد بن مسلمة[3] فقال: إنَّ هذا الرَّجل قد سألنا صدقةً، وإنَّه قد عَنَّانا[4]، وإنِّي قد أتيتك أستسلفُك، قال: وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّهُ! قال: إنَّا قد اتَّبعناه، فلا نحبُّ أن ندعه حتَّى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً، أو وَسْقَين.

فقال: نعم، أرهنوني.

قالوا: أيُّ شيءٍ تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنُك نساءنا، وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (111/1).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (304/1).

(3) الَّذي كُتِب في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ الَّذي جاء كعبَ بن الأشرف أبو نائلة ، واسمه سِلْكان بن سلامة.

(4) عَنَّانا: من العناء ، وهو التعب.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيُسَبُّ أحدُهم، فيقال: رُهن بِوَسْقٍ، أو وَسْقَيْنِ! هذا عارٌ علينا، ولكن نرهنك الّلأْمَةَ، قال سفيان: يعني: السِّلاح.

فواعده أن يأتيه، فجاء ليلاً، ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرَّضاعة، فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه السَّاعة؟

فقال: إنما هو محمَّد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتاً كأنَّه يقطر منه الدَّم.

قال: إنَّما هو أخي محمَّد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ، لأجاب.

وجاء محمَّد بن مسلمة برجلين(1)، وقال: إذا ما جاء فإنِّي قائلٌ (أي اخذٌ) بِشَعْرِهِ فأشمُّه، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه، فدونكُم، فاضربوه، فنزل منهم متوشحاً، وهو يَنْفُحُ منه ريح الطِّيب.

قال: ما رأيت كاليوم ريحاً - أي: أطيب -؛ أتأذن لي أن أشمَّ رأسك؟

قال: نعم! فشمَّه، ثمَّ أشمَّ أصحابه، ثمَّ قال: أتأذن لي؟

قال: نعم، فلمَّا استمكن منه، قال: دونكم؛ فقتلوه، ثم أتوا النَّبيَّ(ﷺ) ، فأخبروه. **[البخاري (4037)، ومسلم (1801)]**.

وجاء في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ محمَّد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف، لا يأكل، ولا يشرب إلاَّ ما يُعْلِقُ به نفسَه، فذُكِرَ ذلك لرسول الله(ﷺ) ، فدعاه، فقال له: «لِمَ تركت الطَّعام والشَّراب؟».

---

(1) وفي كتب السِّيرة: أنَّ الَّذين قاموا بقتله خمسةُ نفرٍ ، هم: محمَّد بن مسلمة ، وسِلْكَان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة ، أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرَّضاعة ، وعبَّاد بن بشر بن وقش ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جبر ، أحد بني حارثة ، هؤلاء قدَّموا أبا نائلة؛ ليحدِّث كعب بن الأشرف.

فقال: يا رسول الله! قلت لك قولاً لا أدري: هل أَفِيَنَّ لك به، أم لا؟!

فقال رسول الله(ﷺ) : «إنَّما عليك الجَهْد».

فقال: لابدَّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [ابن هشام 58/3)].

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة عن ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ النبي(ﷺ) مشى معهم إلى بقيع الغرقد، ثمَّ وجَّههم، فقال: «انطلقوا على اسم الله، اللَّهم أَعِنْهم!» [ابن هشام (59/3)].

دروسٌ وعبرٌ:

- إنَّ في مقتل كعب بن الأشرف، دروساً، وعبراً، وفوائد في فقه النَّبيّ(ﷺ) في تعامله مع خصوم الإسلام، والدَّولة الإسلاميَّة، فقد اتَّضح أنَّ عقوبة النَّاقض للعهد القتل، وهذا ما حكم به النَّبيُّ(ﷺ) ، وعقوبة المعَاهَدِ الَّذي يَشْتُمُ الرَّسولَ(ﷺ) ، ويؤذيه بهجاءٍ، أو غيره هي القتل، وهذا ما كان لابن الأشرف، ويؤخذ من هذا: أنَّ شاتم الرَّسول(ﷺ) سواءٌ أكان معاهداً، أو غيره، تُضْرب عنقه عقوبةً له، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيميَّة في تفصيل هذه الأحكام، في كتابه القيِّم: «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول(ﷺ) ».
- يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرَّسول(ﷺ) باليهوديّ ابن الأشرف: أنَّ الحُكْمَ قد تقتضي المصلحة العامَّة للمسلمين أن يُنَفَّذ سرّاً، ويتأكَّد هذا؛ إن كان يترتَّب على تنفيذه بغير هذه الصُّورة السِّرِّيَّة، فتنةٌ، أو خطرٌ قد يكلِّف المسلمين باهظاً[1]. وقد بيَّنت هذه الصُّورة: أنَّ مواجهة الكفَّار أعداء الإسلام، ومحاربي الدَّولة الإسلاميَّة، لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى كلِّ عملٍ تحصل به النِّكاية بالأعداء؛ ما لم يكن إثماً، وقد يوفِّر القضاء على رجلٍ له دوره البارز في حرب

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (115/1).

المسلمين جهوداً كبيرة، وخسائر فادحةً يتكبَّدها المسلمون.

وهذا مشروطٌ بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكةٌ، وقوَّةٌ، ودولةٌ، بحيث لا يترتَّب على نوعيَّة هذا العمل فتكٌ بالمسلمين، واجتثاث الدُّعاة من بلدانهم، وإفسادٌ في مجتمعاتهم[1]، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلاميّ، وتعجَّل الصِّدام المسلَّح، واستدلُّوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة، ولا حجَّة لهم فيها؛ لأنَّ ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين شوكةٌ، ودولةٌ، أمَّا هم فليس لهم دولةٌ، ولا شوكةٌ، ثمَّ إنَّ ذلك كان إعزازاً للدِّين، وإرهاباً للكافرين، وكانت كلُّها مصالح لا مفسدة معها، أمَّا ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث، فإنَّها يعقبها من الشَّرِّ، والفساد، واستباحة دماء المسلمين، وأعراضهم، وأموالهم ما لا يخفى على بصيرٍ[2].

إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) لم يقم بمحاولة تصفيةٍ لأيِّ أحدٍ من المشركين في مكَّة؛ مع القدرة على قتل زعماء الشِّرك كأبي جهلٍ، وأميَّة بن خلف، وعتبة، ولو أشار إلى حمزةَ، أو عمرَ بذلك، أو غيرهم من الصَّحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكنَّ الهدي النَّبويَّ الكريم، يعلِّمنا: أنَّ فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكةٍ، وقوَّةٍ، كما أنَّ هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحةٍ من أهلها، واستيعاب فقه المصالح، والمفاسد، وهذا يحتاج إلى علماءَ راسخين؛ حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرَّأي العام دوره الكبير في قرارات الدُّول، وحيث احتمالات توسُّع الأضرار[3].

- ونلحظ قيمة الكلمة عند الصَّحابة رضي الله عنهم، في موقف محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه، بعد أن أعطى كلمة لرسول الله(ﷺ) ، يتعهَّد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف، ثمَّ إبطاؤه في ذلك؛ أعيته الحيلة بقيام صعوباتٍ في سبيل تحقيق ما وعد، حيث امتنع عن الطَّعام، والشَّراب، وأصابه الغمُّ، والحزن، لأنَّه قال قولاً يخشى ألاَّ

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (54/5).
(2) انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص 205.
(3) انظر: الأساس في السُّنة وفقهها السِّيرة النَّبوية (537/2).

يستطيع الوفاء به. ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة: أنَّ كثيراً من النَّاس يعطون عهوداً، ومواثيق، ولا يقدِّرون قيمتها، ويخفِرون ذمَّتهم، ويتراجعون عن عهودهم، ومواثيقهم، وتبقى حِبْراً على ورقٍ، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادئ، ومواقف يُبْتَغَى بها وجه الله؛ بل هم أصحاب مصالح، ومنافع، يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله.

إنَّ أصحاب الدَّعوات، يؤثِرون أن تندقَّ أعناقهم، وأن تَضْوَى[1] أجسامُهم، وتَزْهَق أرواحهم؛ على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم؛ يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم[2].

- في قول رسول الله(ﷺ) : «إنَّما عليك الجَهْدُ» **[سبق تخريجه]**[3] توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ، وهو أنَّ النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجَهْدِ، والصَّبر عند الابتلاء، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[هود: 49]**.

وعلى المسلم أن يُفَرّغ كلَّ ما في وُسْعِهِ؛ من جهدٍ فكريٍّ، وطاقةٍ جسميَّةٍ في سبيل تحقيق ما وعد، ثمَّ يتوكَّل على الله بعد ذلك في النتائج[4].

- وفي قوله(ﷺ) : «قولوا ما بدا لكم» **[سبق تخريجه]**[5] فقهٌ نبويٌّ كريمٌ، فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العاديَّة كفرٌ، ومِنْ هنا تعرفُ: أنَّه مِنْ أجل تحقيق المهامّ العسكريَّة، فلا حدود للكلام الَّذي يقال؛ ولكن تأتي هنا مسألةٌ أخرى، وهي ما إذا كان النَّجاح في المهامّ العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز، أو يقتضي ترك فرائض؛ فما العمل؟ المعروف: أنَّه ليس هناك من الذُّنوب أعظم من الكفر، والشرك، فإذا جاز التَّظاهر بالكفر لذلك،

---

(1) ضَوِيَ ضَوى: ضَعُفَ ، وهُزِلَ ، أو دَقَّ.
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (119/1).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (61/3).
(4) انظر: الصراع مع اليهود (120/1).
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (61/3).

فمن باب أولى جواز غيره، على أن يتأكَّد طريقاً للوصــول إلى الهدف، أو يغلب الظَّنُّ على ذلك، على أن يقتصر فيه على الحدِّ الَّذي لابدَّ منه، سواءٌ أكانت الوسيلة تأخير فريضــةٍ، أم ارتكاب محظورٍ؛ على أنَّ هذا، وهذا مقيَّدانِ بالفتوى، فهناك محظوراتٌ لا يصحُّ فعلُها بحالٍ، كالزّنى، واللِّواط[1].

هناك بعض القضــايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهَّلين لأن يفتوا فيها، خصــوصــاً في الظُّروف الاســتثنائيَّة، والحالات الاضــطراريَّة، وفي المحكات السِّــياســيَّة، والعســكريَّة؛ لأنَّها تحتاج إلى الموازنات، والفتاوى الاســتثنائيَّة؛ الَّتي لا يســتطيعها كلُّ إنســانٍ، فالأحكام الأصــليَّة ليســت مجهولةً، وإنَّما الأحكام الاســتثنائيَّة الَّتي تقتضــيها الظُّروف الاســتثنائيَّة تحتاج إلى علماءَ ربانيّين، وفقهاءَ راسخين، لهم القدرة على فهم مقاصد الشَّريعة، وواقعهم الَّذي يعيشون فيه[2].

- وفي قوله(ﷺ) : «قولوا ما بدا لكم» فقهٌ عظيمٌ يوضِّحه قوله(ﷺ) : «الحرب خَدْعَةٌ» **[البخاري (3029)، ومسلم (1740)]**[3].
- قوله(ﷺ) : «انطلقوا على اســـم الله، اللهم أَعِنْهم!» **[ســـبق تخريجه]** كان لهذا التَّذكير بالإخلاص في الجهاد: «انطلقوا على اســـم الله» والدُّعاء لهم بالتَّوفيق، والعون: «اللَّهم أعنهم!» كـلُّ ذلـك كـان حـافزاً على الثَّبـات ورافعاً للمعنويَّات، فلم يعبؤوا بقوَّة ابن الأشرف، ومَنْ حوله من النَّاس؛ لأنَّهم استشعروا معيَّة الله لهم، ودعاء الرَّسول(ﷺ) ربَّه بإعانتهم، وتحقيق مسعاهم.

ونلحظ في الهدي النَّبويِّ الأخذ بجميع الأســباب المادِّيَّة، والتَّخطيط السَّــديد، ولا يُنســى جانب الدُّعاء النَّبويِّ الكريم، فإنهم لم يغفلوا الأســباب الموصــلة بهم إلى نجاح مقصــودهم؛ لأنَّ

---

(1) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها السِّيرة النَّبوية (537/2 . 538).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) خَدعَةٌ: فيها ثلاث لغات مشهورات ، أفصحهن: فتح الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّانية: ضم الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّالثة: ضمُّ الخاء ، وفتح الدَّال.

المسلم مأمورٌ بالجمع بين التوكُّل على الله تعالى، والأخذ بالأسباب الَّتي شرعها الله سبحانه[1]؛ ولذلك كانت خطَّة محمَّد بن مسلمة مع إخوانه محكمةً، وأتقنوا فقه سنَّة الأخذ بالأسباب، فقد كانت الأسباب الَّتي ساعدت على نجاح الخطَّة، كالتالي:

- إنَّ أبا نائلةَ كان أخاه من الرَّضاعة، وهو يطمئنُّ إليه، ولا يتوجَّس منه خيفةً.

- وفي بعض الرِّوايات: طمأن أبو نائلة كعبَ بن الأشرف، وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشِّعر قبل أن يحدِّثه عن حاجته.

- ولم يحدِّثه عن حاجته حتى أخرج كعباً من حصنه، وظلُّوا يتحدَّثون ساعةً، حتَّى اطمأنَّ إليهم، وكان ذلك من سبل التَّوفيق، ولو بقي أولئك هناك لربما كشف الأمر؛ فحديثُهم معه على انفرادٍ كان في غاية التوفيق.

- تظاهرهم بالنَّيل، والتَّبرُّم، والتَّظلُّم من الرَّسول(ﷺ) طمأن كعب بن الأشرف.

- فكرة رهن السِّلاح كانت في غاية التَّوفيق، حتَّى يكون اصطحابهم للسِّلاح غيرَ مريبٍ، ولا يبعث على

الرِّيبة؛ ذلك لأنَّهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السِّلاح في أي وقت التقوا به فيه.

- أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطَّة؛ بحيث يتسنَّى لهم في أيِّ وقتٍ من اللَّيل أن يأتوه، ويطرقوا عليه الباب؛ دون أن يشكَّ فيهم، وفي نيَّتهم.

- اطمئنانُ ابن الأشرف إلى أبي نائلة، ومحمَّد بن مسلمة جعله يخرج في وقتٍ لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً؛ تحسُّباً لقتال عدوٍّ على حين غِرَّة، وغفلةٍ[2].

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديّ (56/5).

(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (122/1).

- إن خطَّة إبعاد ابن الأشرف عن بيته، إلى مكانٍ يخلو به فيه دون رقيبٍ، أو نصيرٍ كانت موفَّقةً.

- استدراج أبي نائلة لابن الأشرف، وشمُّه طيب رأسه، وإمساكُه بشَعْرِهِ ليشمَّه، كان موفقاً، وتَقْدِمَةً ليمسك بهذا الرَّأس الخبيث، ويتمكَّن منه، لتكون الفرصةُ سانحةً لتنفيذ حكم الله في هذا اليهوديِّ اللَّعين[1].

- وتظهر قدرة الصَّحابة الفائقة في الحفاظ على السِّرِّيَّة، وذلك في كتمان هذه الخطَّة مع كثرة مَنْ في المدينة من اليهود، والمنافقين، ومع تأخُّر تنفيذها، وكون النَّبيِّ(ﷺ) عرض هذا الأمر في مشهدٍ من الصحابة، وجرت فيه مشورةٌ، وهذا دليلٌ على قوة إيمان هؤلاء الصَّحابة، وإخلاصهم لدينهم[2].

وقام هؤلاء المغاوير[3] بتنفيذ أدوار الخطَّة المحكمة، الَّتي اتَّفقوا عليها، وأدركوا مقصودهم الأسمى، ورسول الله(ﷺ) معهم بإحساسه الكبير، ومشاعره الفيَّاضة، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العمليَّة بعقولهم، وأجسامهم، ورسولُ الله(ﷺ) يتولَّى قيادتها العليا بالاتِّصال بالله تعالى، ودعائه لهم بالنَّصر والإعانة[4].

3 - أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله(ﷺ) يشتكون ويحتجُّون على ما فعله أصحابه، فلم يَحْفَلِ النَّبيُّ(ﷺ) بهم ؛ بل أكَّد مقتله، الَّذي كان نتيجةً حتميَّةً لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرُّعب في نفوس اليهود جميعهم ، فلم يعد أحدٌ من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه، كما لم يعد أحدٌ من يهود المدينة إلا ويخاف على

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (122/1).
(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديّ (56/5).
(3) المِغْوار من الرِّجال: المقاتلُ الكثيرُ الغارات على أعدائه.
(4) المصدر السابق نفسه (57/5).

نفســه من المســلمين[1]، واضــطرَّ اليهود لتجديد المعاهدة، وكان لمقتل كعب بن الأشــرف أثرٌ عميقٌ في نفوســهم، فمضــوا يكيدون للإســلام - كما ســيتبيَّن من الأحداث - وَمِنَ الجدير بالـذِّكر أنَّ الرسول(ﷺ) لم يؤاخـذ بني النَّضيـر بجَرِيرَةِ[2] كعب بـن الأشرف، واكتفى بقتله جزاءَ غدره، وجدَّد المعاهدة معهم[3]. ومن الفقه النَّبويِّ في معاملة اليهود نســتفيد أنَّ العلاج الأمثل لليهود هو زجرهم، وإرهابهم، وقتل أهل الفتن فيهم، ومطاردتهم؛ لأنَّهم أهل شرورٍ، لا يتخلَّصون منها، ولا يتوقَّفون عنها[4].

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة:

أ - زواج النَّبيِّ(ﷺ) بحفصةَ بنت عمر:

قال عمر رضي الله عنه حين تأيَّمت[5] حفصةُ بنتُ عُمرَ من خُنَيس بن حُذافة السَّهميِّ - وكان من أصحاب رسول الله(ﷺ) ، فتوفي بالمدينة -: «أتيتُ عثمانَ بن عفَّان، فعرضت عليه حفصــةَ بنتَ عمر، فقال: ســأنظر في أمري، فلبثتُ لياليَ، ثمَّ لقيني فقال: قد بدا لي ألاَّ أتزوجَ يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصِّدِّيقَ، فقلتُ: إن شئتَ زوجتُك حفصةَ بنت عمرَ، فصمت أبو بكرٍ الصِّدِّيق، فلم يرجع إليَّ شيئاً، وكنت أوجدَ عليه منِّي على عثمان.

فلبثتُ لياليَ، ثمَّ خطبها رســولُ الله(ﷺ) ، فأنكحتُها إيَّاه، فلقيني أبو بكرٍ، فقال: لعلَّك وجدت عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمرُ: قلتُ: نعم، قال أبو بكر: فإنَّه لم يمنعْني أن أَرْجِعَ إليك فيما عرضــتَ عليَّ، إلا

(1) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص 188.
(2) الجَرِيرةُ: الجناية ، والذَّنبُ.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (304/1).
(4) انظر: الصِّراع مع اليهود (126/1).
(5) تأيَّمت: مات عنها زوجُها.

أنِّي كنتُ علمتُ: أنَّ رسولَ الله(ﷺ) قد ذكرها، فلم أكن لأفشيَ سرَّ رسولِ الله(ﷺ) ، ولو تركها رسولُ الله(ﷺ) ؛ قبلتُها» [البخاري (5122)، والبيهقي في الدلائل (3/158)].

ب – زواج عليٍّ رضي الله عنه بفاطمةَ رضي الله عنها:

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : خُطِبَتْ فَاطِمَةُ إلى رسول الله(ﷺ) ، فقالت مولاةٌ لي : هل علمت: أنَّ فاطمة قد خُطِبَتْ إلى رســـول الله(ﷺ) ؟ قلت: لا! قالت: فقد خُطِبَتْ فما يمنعك أن تأتيَ رسـولَ الله(ﷺ) ، فيزوجَك، فقلت: وعندي شـيءٌ أتزوَّج به! فقالت: إنَّك إن جئت رسول الله(ﷺ) ؛ زَوَّجَكَ.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتَّى دخلتُ على رسول الله(ﷺ) ، فلـمَّا أن قعدتُ بين يديه؛ أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلَّم جلالةً وهيبةً.

فقال رســـول الله(ﷺ) : «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فســـكتُّ، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم! فقال: «وهل عندك من شـيءٍ تستحلُّها به؟» فقلت: لا والله يا رســـول الله! فقال: «ما فعلت دِرْعٌ سَـــلَّحْتُكَها؟ فوالذي نفس عليٍّ بيده! إنَّها لَحُطَمِيَّةٌ[1] ما قيمتُها أربعة دراهم»، فقلت: عندي، فقال: «قد زوجتُكها، فابعث إليها بها، فاســـتحلَّها بها» فإنَّها كانت لَصَداقُ فاطمةَ بنتِ رسول الله(ﷺ) [البيهقي في الدلائل (3/160)][2] وقد جهَّز رسول الله(ﷺ) فاطمة في خَمِيلٍ[3]، وقِرْبَة، ووسادة أَدَمٍ[4]، حشوها إذخرٌ[5] رضي الله عنها[6].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البســـاطة بعيدةً عن التعقيد، وهي إلى شـــظف العيش أقرب

---

(1) الحُطَمِيَّةُ من الدُّروع: الثقيلة العريضة ، الَّتي تكسر السُّيوف.
(2) إسناده حسن.
(3) خميل: قطيفة.
(4) الأدم: الجلد.
(5) إذخر: نبات له رائحةٌ عطرية.
(6) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 267.

منها إلى رغده[1]، والقصَّــة التالية تصــور لنا حال السَّــيدة فاطمة، وتعبها، وموقف رســول الله(ﷺ) منها عندما طلبت إليه أن يعطيها خادماً من السَّبْي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال عليٌّ لفاطمةَ ذات يومٍ: والله! لقد سَنَوْتُ[2] حتى لقد اشتكيتُ صدري، قال: وجاء الله أباك بسبيٍ، فاذهبي، فاستخدميه[3]، فقالت: أنا والله قد طحَنْتُ حتَّى مجلت يدي[4]. فأتيت النَّبيَّ(ﷺ) فقال: «ما جاء بك أيْ بُنَيَّة؟!» قالت: جئت لأسلِّم عليك، واسْتَحْيَتْ أن تسأله، ورجعت، فقال: ما فعلتِ؟ قالت: اسْتَحْيَيْتُ أن أسأله، فأتينا جميعاً، فقال عليٌّ: يا رسول الله! والله! لقد سنوتُ حتَّى اشتكيتُ صدري، وقالت فاطمة: قد طحنتُ حتَّى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبيٍ، وسعةٍ، فأخدمنا، فقال رسول الله(ﷺ) : «والله! لا أُعْطيكما، وأدعُ أهلَ الصُّفة تطوى[5] بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكنِّي أبيعهم، وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا، فأتاهما النَّبيُّ(ﷺ) ؛ وقد دخلا في قطيفتهما، إذا غطت رؤوسهما، تكشفت أقدامُهما، وإذا غطَّيا أقدامهما؛ تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثمَّ قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى! فقال: «كلماتٌ علَّمنيهنَّ جبريلُ عليه السلام، فقال: «تُسَبِّحَانِ في دبر كلِّ صلاةٍ عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبِّرا أربعاً وثلاثين» **[أحمد (1/106 – 107)]**[6].

وهكذا كان الهدي النَّبويُّ في تربية أهل بيته، وأقربائه، فلقد أخفقت مساعي السَّيدة فاطمة، وعليٍّ رضي الله عنهما للحصول على خادم؛ لأنَّ السَّبْيَ يريد – عليه الصَّلاة والسلام – أن يبيعه، وينفق ثمنه على أهل الصُّفَّة؛ الَّذين يتلوَّون من الجوع، فهم أيضاً من خاصَّة رسول

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 255.
(2) سنوت: استقيت.
(3) أي: اسأليه خادماً.
(4) مجلت يدي: ثخن جلدُها ، وتعجر.
(5) تطوى: طوى من الجوع فهو طاوٍ ، أي: خالي البطن ، جائع ، لم يأكل.
(6) الفتح الرَّباني ، رقم (90) ، وأصل هذا الحديث في البخاريِّ ، كتاب فرض الخمس ، رقم (3113).

الله(ﷺ) مثل عليٍ، وفاطمة، والطَّعام مقدَّم على الخدمة[1]، ولقد تأثر عليٌّ رضـي الله عنه بهذه التَّربية النَّبويَّة، ويمرُّ الزَّمن بالفتى عليّ، فيصبح خليفةَ المسلمين، فإذا به من آثار هذه التربية يترفَّع عن الدُّنيا وزخارفها، وبيده كنوز الأرض، وخيراتها؛ لأن ذكر الله يملأ قلبه، ويغمر وجوده، ولقد حافظ على وصـــيَّة رســـول الله(ﷺ) له، وقد حدَّثنا عن ذلك، فقال: فوالله ما تركتهُنَّ منذ علَّمنيهنَّ، فسأله أحد أصحابه: ولا ليلة صفين؟! فقال: ولا ليلة صفِّين[2]!

وكان كما وصفــه ضرار بــن ضمرة في مجلس معاويــة: «... يستوحش من الدُّنيا، وزهرتها، ويســتأنس باللَّيل، وظلمته، كان والله! غزيرَ العَبْرَة، طويل الفكرة، يقلِّب كفَّه، ويخاطب نفســه، يُعجبُه من اللباس ما قصر، ومن الطَّعام ما جَشِبَ[3]....»[4].

* * *

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (100/3).

(2) انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة (159/8).

(3) الجَشَبُ: ما غَلُظَ مأكله ، وخَشُنَ.

(4) انظر: صفة الصفوة ، لابن الجوزي (84/1).

الفصل التَّاسع

غزوة أُحدٍ[1]

المبحث الأوَّل

أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحدٍ متعددةً؛ منها: الدِّينيُّ، والاجتماعيُّ، والاقتصاديُّ، والسِّياسيُّ.

1 - السَّبب الدِّينيُّ:

قد أخبر المولى - عزَّ وجلَّ -: أنَّ المشركين ينفقون أموالهم في الصدِّ عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدَّعوة الإسلاميَّة، ومَنْعِ النَّاس من الدُّخول في الإسلام، والسَّعي للقضاء على الإسلام، والمسلمين، ودولتهم الناشئة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ **[الأنفال: 36]**.

قال الطَّبريُّ: «يصرفون أموالهم، وينفقونها؛ ليمنعوا النَّاس عن الدُّخول في الإسلام»[2].

وقال ابن كثيرٍ: «أخبر تعالى: أنَّ الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ»[3].

---

(1) ينظر الشكل (3) في الصفحة (747).

(2) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص 71.

(3) انظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.

وقال الشَّوكانيُّ: «والمعنى: أنَّ غرض هؤلاء الكفـــار في إنفاق أموالهم، هو الصَّدُّ عن سبيل الحقّ، بمحاربة رسول الله(ﷺ) ، وجمع الجيوش لذلك»[1].

من هذا يظهر: أنَّ أهم أســباب غزوة أحدٍ، هو السَّـــبب الدِّينيُّ؛ الَّذي كان من أهداف قريشٍ للصَّـدِّ عن ســبيل الله واتِّباع طريق الحقّ، ومنع النَّاس من الدُّخول في الإســلام، ومحاربة الرَّسول(ﷺ)، والقضاء على الدَّعوة الإسلاميَّة [2].

2 - السَّبب الاجتماعيُّ:

كان للهزيمة الكبيرة في بدرٍ، وقتل السَّـــادة، والأشـــراف من قريشٍ، وَقْعٌ كبيرٌ من الخزي، والعار الَّذي لحق بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلَّة، والهزيمة؛ ولذلك بذلوا قُصَارَى جهدهم في غسل هذه الذِّلَّة، والمهانة، الَّتي لصـقت بهم؛ ولذلك شـرعوا في جمع المال لحرب رسـول الله(ﷺ) فور عودتهم من بدرٍ.

قال ابـن إسحاق: «لما أُصيب يوم بـدرٍ من كفـار قريش أصحابُ القَليب، ورجع فَلُّهُم إلى مكَّةَ، ورجع أبو سفيان بِعِيرِهِ، فأوقفها بدار النَّدوة - وكذلك كانوا يصنعون -، فلم يحرِّكها، ولا فرَّقها، فطابت أنــفس أشرافهم أن يجهِّزوا منها جيشاً لقتال رسول الله(ﷺ) ، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعة، وعكرمةُ بن أبي جهل، والحارث بن هشـــام، وحويطب بن عبد العزَّى، وصــفوان بن أميَّة في رجالٍ من قريش ممَّن أصيب اباؤهم، وأبناؤهم، وإخوانهم يوم بدرٍ، فكلَّموا أبا سفيان بن حربٍ، ومن كانت لــه في تلــك العير من قريـــش تجارةٌ، فقالوا: يا معشرَ قريش! إنَّ محمَّداً قد وتَرَكُمْ[3]، وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصـــاب منا، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك»[4].

---

(1) انظر: تفسير فتح القدير لهذه الآية.

(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 71.

(3) وَتَرَ فلاناً: قتَلَ حَمِيمَهُ ، وأدركه بمكروهٍ.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (68/3).

ودعا جُبَيْرُ بـن مُطْعم غلاماً له حبشيّاً، يقال له: وَحْشيٌّ، يقذف بحربة لـه قَذْفَ الحبشة، قلَّما يخطئ بها، فقال لـه: اخرج مع النَّاس، فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمَّد بعمِّي طُعَيْمةَ بن عديٍّ، فأنت عتيقٌ(1).

3 – السَّبب الاقتصاديُّ:

كانت حركة السَّرايا الَّتي تقوم بها الدَّولة الإسلاميَّة، قد أثَّرت على اقتصاد قريشٍ، وفرضت عليهم حصاراً اقتصاديّاً قويّاً، وكان الاقتصاد المكِّيُّ قائماً على رحلتي الشِّتاء، والصَّيف؛ رحلة الشِّتاء إلى اليمن، وتُحمل إليها بضائعُ الشَّام، ومحاصيلُها، ورحلة الصَّيف إلى الشَّام، تحمل إليها محاصيل اليمن، وبضائعها، وقَطْعُ أحدِ جناحي هاتين الرِّحلتين ضرٌّ للجناح الآخر؛ لأنَّ تجارتَهم إلى الشَّام قائمةٌ على سلع اليمن، وتجارتهم إلى اليمن قائمةٌ على سلع الشَّام(2).

قال تعالى: ﴿لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ﴾ **[قريش: 1 – 4]** .

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أميَّة: «إنَّ محمداً، وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون السَّاحل، قد وادعهم(3)، ودخل عامَّتُهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنَّما نزلناها على التِّجارة إلى الشَّام في الصيف، وفي الشِّتاء إلى الحبشة»(4).

4 – السَّبب السِّياسيُّ:

أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدرٍ، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمةً لها، فلا بدَّ من ردِّ الاعتبار، والحفاظ على زعامتها؛ مهما كلَّفها الأمر من جهودٍ، ومالٍ

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (79/3).
(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة، ص 74.
(3) وادعهم: أي: صالحهم، وسالمهم.
(4) انظر: المغازي، للواقديّ (195/1، 196).

وضحايا.

هذه أهمُّ الأسباب الَّتي جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكريَّة ضدَّ الدَّولة الإسلاميَّة بالمدينة[1].

ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السَّبت، لسبع خلون من شوال، من السَّنة الثَّالثة من الهجرة[2]، وعَبَّأَتْ جيشها المكوَّن من ثلاثة الاف مقاتل، مستصحبين معهم النِّساء، والعبيد، ومَنْ تبعها من القبائل العربيَّة المجاورة، فخرجت قريشٌ بحدِّها، وحديدها وأحابيشها[3]، ومن تبعها من كنانةَ وأهل تهامة، وخرجوا بالظُّعُن[4]، التماسَ الحفيظة؛ لئلا يفرُّوا.

فخرج أبو سفيان - وهو قائد النَّاس - بهندٍ بنت عُتبة بن ربيعةَ[5]، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف ببَرْزَةَ بنت مسعودٍ الثَّقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمِّ حكيمٍ بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمةَ بنت الوليد بن المغيرة[6]، فأقبلوا حتَّى نزلوا ببطن السَّبخة من قناة، على شفير الوادي ممَّا يلي المدينة[7].

كانت التَّعبئة القرشيَّة قد سبقتها حملةٌ إعلاميَّة ضخمةٌ، تولَّى كِبْرَهَا أبو عزَّة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيُّ، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزوميُّ، وابن الزِّبعرى، وقد حقَّقت نتائج كبيرةً[8]، وبلغت النَّفقات الحربيَّة لجيش قريش خمسين ألف دينارٍ ذهباً[9].

---

(1) انظر: غزوة أحد؛ دراسة دعويَّة، ص 75.
(2) البداية والنهاية (11/4)، والمغازي، للواقديّ (199/1).
(3) الأحابيش: مَنِ اجتمع إلى العرب، وانضمَّ إليهم.
(4) الظُّعُن: النِّساء، واحدتها ظعينة، والظَّعينة: المرأة في الهودج.
(5) انظر: الإصابة (346/8)، رقم (11860).
(6) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (70/3).
(7) انظر: غزوة أحد، دراسة دعويَّة، ص 78.
(8) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس، ص 17.
(9) المصدر السابق نفسه، ص 16.

ثالثاً: الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوّ:

كان العبَّاس بن عبد المطلب، يرقب حركات قريش، واستعداداتها العسكريَّة، فلــمَّا تحرك هذا الجيش؛ بعث العباسُ رسالةً عاجلةً إلى النَّبيّ(ﷺ) ، ضمَّنها جميع تفصيلات الجيش، وأسرع رسـولُ العبَّاس بإبلاغ الرِّسـالة، وجَدَّ في السَّـير؛ حتَّى إنَّه قطع الطريق بين مكَّة والمدينة - الَّتي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً - في ثلاثة أيام، وسَلَّمَ الرِّسالة إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، وهو في مسجد قُباء[1].

كان النَّبيُّ(ﷺ) يتابع أخبار قريش بدقَّةٍ بواســطة عمِّه العبَّاس. قال ابن عبد البرّ: «وكان رضـي الله عنه يكتب أخبار المشـركين إلى رسـول الله(ﷺ) ، وكان المسـلمون يتقوَّون به بمكَّة، وكان يحبُّ أن يقدم على رسـول الله(ﷺ) ، فكتب إليه رسـول الله(ﷺ) : أنَّ مقامك في مكَّة خيرٌ»[2].

كانت المعلومات الَّتي قدَّمها العبَّاس لرســول الله(ﷺ) دقيقةً؛ فقد جاء في رســالته: «إنَّ قريشاً قد أجمعت المسيرَ إليك، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه، وقد توجَّهوا إليك، وهم ثلاثـة الاف، وقـادوا مئتي فرس، وفيهم ســبعمئـة دارع، وثلاثـة الاف بعيرٍ، وأوعبوا[3] من السِّلاح»[4].

وقد احتوت هذه الرِّسالة على أمورٍ مهمَّة؛ منها:

1 - معلومات مؤكَّدة عن تحرُّك قوَّات المشركين نحو المدينة.

2 - حجم الجيش، وقدراته القتاليَّة، وهذا يعين على وضــع خطَّةٍ تواجه هذه القوَّات

---

(1) انظر: الرَّحيق المختوم، للمباركفوري، ص 250.
(2) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (812/2).
(3) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السِّلاح.
(4) انظر: مغازي الواقديّ (204/1).

الزَّاحفة.

لم يكتفِ النَّبيُّ(ﷺ) بمعلومات المخابرات المكيَّة؛ بل حَرَصَ على أن تكون معلوماتُه عن هذا العدوِّ متجددةً مع تلاحق الزَّمن، وفي هذا إرشادٌ لقادة المسلمين، بأهمِّيَّة متابعة الأخبار الَّتي يتولَّد عنها وضع خططٍ، واستراتيجيَّات نافعةٍ؛ ولذلك أرسل(ﷺ) الحُبَابَ بن المنذر بن الجموح إلى قريشٍ يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكَّة، وحزَرَ[1] عَدَدَهُ، وعُدَدَهُ، ورجع، فسأله رسول الله(ﷺ) : «ما رأيتَ؟» قال: رأيتُ يا رسول الله! عدداً، حزرتهم ثلاثة الاف يزيدون قليلاً، أو ينقصون قليلاً، والخيل مئتا فرسٍ، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمئة درعٍ، قال: «هل رأيتَ ظُعُناً؟» قال: رأيتُ النِّساء معهنَّ الدِّفاف، والأكبار[2]، فقال رسول الله(ﷺ): «أَرَدْنَ أن يحرِّضْنَ القوم، ويُذَكِّرْنَهُمْ قتلى بدرٍ، هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا اللهُ ونعم الوكيلُ، اللَّهم! بك أجولُ، وبك أصولُ»[3].

كما أرسل(ﷺ) أنساً، ومؤنساً ابني فَضالة يَتَنَصَّتان[4] أخبار قريشٍ، فَأَلْفَياهَا[5]قد قاربت المدينة، وأرسلت خَيْلَها، وإبلَها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا، فأخبراه بخبر القوم[6].

وبعد أن تأكَّد من المعلومات حَرَصَ(ﷺ) على حصر تلك المعلومات على المستوى القياديِّ؛ خوفاً من أن يؤثِّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العُدَّة؛ ولذلك حين قرأ أُبيُّ بن كعب رسالة العبَّاس؛ أمره(ﷺ) بكتمان الأمر، وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرَّأي مع قادة المهاجرين، والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان(ﷺ) قد أطلع سيِّد الأنصار سعدَ بن الرَّبيع على خبر رسالة العبَّاس فقال: والله! إنِّي لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إيَّاه؛ فلمَّا

(1) حَزَرَ الشَّيء: قدَّره بالتَّخمين.
(2) الأكبار: جمع: كَبر ، والكَبر: هو الطَّبل؛ الَّذي له وجهٌ واحد.
(3) انظر: مغازي الواقدي (207/1 . 208).
(4) تَنَصَّتَ: تَسَمَّعَ.
(5) ألفاهُ: وجَدَهُ ، وصادفه.
(6) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (187/2).

خرج رسـول الله(ﷺ) من عند سـعدٍ؛ قالت له امرأته: ما قال لك رسـول الله؟ فقال لها: لا أمَّ لكِ! أنت وذاك. فقالت: قد سمعتُ ما قال لك! فأخْبَرَتْهُ بما أسَرَّ به الرَّسـول(ﷺ) ، فاسـترجع سعدٌ، وقال: يا رسول الله! إنِّي خفت أن يفشو الخبر، فترى أنِّي أنا المفشي له؛ وقد اسْتَكْتَمْتَني إيَّاه، فقال رسول الله(ﷺ) : «خلِّ عنها»[1].

وفي هذه الحادثة، درسٌ بالغٌ للعسـكريِّين، وتحذيرٌ لهم من إطلاع زوجاتهم على أسـرارهم العسكريَّة،

وخططهم، وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار؛ لأنَّ إفشاءها يهدِّد الأمَّة، ومستقبلها بكارثةٍ كبرى.

إنَّ تاريخ الأمم والشُّـعوب في القديم، والحديث يحدِّثنا: أنَّ كثيراً من الهزائمِ، والماسـي، والالام، قد حَلَّت بكثيرٍ من الأمم نتيجة لتسـرُّب أسـرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجةٍ خائنةٍ، أو خائنٍ في ثوب صديقٍ، أو قريبٍ في الظَّاهر عدوّ في الحقيقة، والواقع[2].

رابعاً: مشاورته(ﷺ) لأصحابه رضي الله عنهم:

بعد أن جمع(ﷺ) المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ، جمع أصحابه رضي الله عنهم، وشـاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّـن فيها، أو الخروج لملاقاة المشـركين، وكان رأي النَّبيِّ(ﷺ) البقاء في المدينة، وقال: «إنَّا في جُنَّة حصـينةٍ، فإن رأيتم أن تقيموا، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا؛ أقاموا بشـرِّ مُقامٍ، وإن دخلوا علينا؛ قاتلناهم فيها»[3] وكان رأيُ عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مع رأي رسول الله(ﷺ) [4]، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدرٌ قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا.

---

(1) انظر: السِّيرة الحلبية (489/2).
(2) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص 22.
(3) انظر: تاريخ الطَّبري (60/2).
(4) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 82.

قال ابن كثير: «وأبى كثيرٌ من النَّاس إلا الخروج إلى العدوِّ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله(ﷺ) ، ورأيه، ولو رضُوا بالَّذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامَّة مَنْ أشار عليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدراً، قد علموا الَّذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»[1].

وقال ابن إسحاق: فلم يزلِ النَّاسُ برسول الله(ﷺ) الَّذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم، حتَّى دخل رسولُ الله(ﷺ) بيته، فلبس لأمَتَهُ[2]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبيُّ الله(ﷺ) بأمرٍ، وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة! فقل لنبيِّ الله(ﷺ) : «أمرنا لأمرك تَبَعٌ»، فأتى حمزةُ، فقال له: يا نبيَّ الله! إنَّ القوم تلاوموا، فقالوا: أمرُنا لأمرك تبع، فقال رسول الله(ﷺ) : «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها؛ حتَّى يقاتل» **[أحمد (351/3) ، وعبد الرزاق في المصنف (364/5ـ 365) ، وابن سعد (38/2) ، والبيهقي في الدلائل (208/3)، ومجمع الزوائد (107/6)]**[3].

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيّاً على أمورٍ؛ منها:

1 ـ أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثَّانية، على نصرة الرَّسول(ﷺ) ، فكان أغلبُهم يرى: أنَّ المكوث داخل المدينة، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد.

2 ـ أنَّ الأقليَّة من المهاجرين، كانت ترى: أنَّها أحقُّ من الأنصار بالدِّفاع عن المدينة، ومهاجمة قريش، وصدِّها عن زروع الأنصار.

3 ـ أنَّ الَّذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرَّقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله.

4 ـ أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ: أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة، ظفراً يجب ألا تَحْلُم به، كما توقَّعوا: أنَّ وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهدَّدين بقطع المؤن عنهم[4].

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (14/4).

(2) لأمة الحرب: عدَّتها.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (71/3).

(4) انظر: غزوة أحد ، لأحمد عز الدِّين ، ص 51 . 52.

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنيٌّ على التَّخطيط الحربيّ الآتي:

1 - إنَّ جيش مكَّةَ لم يكن موحَّدَ العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً؛ إذ لابدَّ من ظهور الخلاف بينهم. إن عاجلاً، أو اجلاً.

2 - إنَّ مهاجمة المدن المصمَّمة على الدِّفاع عن حياضها، وقلاعها، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً.

3 - إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أبنائهم، وحماية نسائهم، وبناتهم، وأعراضهم.

4 - مشاركة النِّساء، والأبناء في القتال، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

5 - استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم(1).

من الواضح: أنَّ الرَّسول(ﷺ) ، عوّد أصحابه على التَّصريح بارائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة، ومعالجة مشكلات الأمَّة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرَّأي، ولم يحدث أن لام الرَّسولُ(ﷺ) أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده، ولم يوفَّق في رأيه، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلْزِمٌ للإمام، فلابدَّ أن يُطبِّق الرَّسول(ﷺ) التَّوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ **[آل عمران: 159]** لتعتاد الأمَّة على ممارسة الشُّورى ، وهنا يظهر الوعي السِّياسيُّ عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، فرغم أنَّ لهم إبداءَ الرَّأي، إلا أنَّه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم، ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه

---

(1) انظر: القيادة العسكريَّة ، للرَّشيد ، ص 374.

من الاراء، فلـمَّا رأوا أنَّهم ألحوا في الخروج، وأنَّ الرسول(ﷺ) عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرَّســول الكريم(ﷺ) علَّمهم درســاً آخر هو من صــفات القيادة النَّاجحة، وهو عدم التردُّد بعد العزيمة والشُّــروع في التنفيذ، فإنَّ ذلك يزعزع الثِّقة بها، ويغرس الفوضى بين الأتباع[1].

كـان النَّبيُّ(ﷺ) قـد عزم على الخروج، وقـد أعلن حـالـة الطَّوارئ العـامَّـة، وتجهَّز الجميع للقتال، وأَمْضَـوْا ليلتهم في حذرٍ؛ كلٌّ يصـحب سـلاحه، ولا يفارقه حتَّى عند نومه، وأمر(ﷺ) بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشدَّاء المسلمين، ومحاربيهم بقيادة محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه، واهتمَّ الصحابة بحراسة رسول الله(ﷺ) ، فبات سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حضير، وسعد بن عبادة، في عدَّةٍ من الصَّــحابة رضــي الله عنهم ليلة الجمعة، مُدَجَّجِينَ بالسِّــلاح على باب المسجد، يحرسون رسول الله(ﷺ) [2] .

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ:

أ - من الأســـباب المهمَّة الَّتي اتَّخذها(ﷺ) لملاقاة أعدائه اختيارُه لوقت التحرُّك، والطَّريق التي تناســب خطَّته، فقد تحرَّك بعد منتصـف اللَّيل، حيث يكون الجوُّ هادئاً، والحركة قليلةٌ، وفي هذا الوقت بالذَّات يكون الأعداء - غالباً - في نومٍ عميق؛ لأنَّ الإعياء، ومشــقَّة السَّــفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً.

ومن المعروف: أنَّ مَنْ نام بعد تعبٍ يكون ثقيلَ النَّوم، فلا يشعر بالأصوات العالية، والحركة الثَّقيلة. قال الواقديُّ - رحمه الله -: ونام رسـول الله(ﷺ) حتى أدلج، فلـــمَّا كان في السَّـحَر؛ قال: «أين الأدلاَّءُ؟[3]»[4].

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (380/2).
(2) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص 34 . 35.
(3) الدَّليل: المرشد. والجمع: أدلاَّء.
(4) انظر: المغازي ، للواقدي (217/1).

ثمَّ إنَّه (صلى الله عليه وسلم) اختار الطَّريق المناسب الَّذي يسلكه حتَّى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفةً ينبغي أن تتوافر في هذا الطَّريق، وهي السِّرِّيَّة، حتَّى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه: «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على القوم مِنْ كَثَبٍ[1] من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟»، فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسولَ الله! فنفذ به في حَرَّةِ بني حارثة وبين أموالهم، حتَّى سلك به في مالٍ لربعي بن قَيْظيٍّ – وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قَيظيٍّ –، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فلمَّا أحس برسول الله(ﷺ) ومن معه من المسلمين،قام يحثي في وجوههم التُّراب، وهو يقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا أُحلُّ لك أن تدخل حائطي.

وقد ذُكر: أنَّه أخذ حفنةً من ترابٍ بيده، ثمَّ قال: والله! لو أعلم: أنِّي لا أصيب بها غيرك يا محمد! لضربتُ بها وجهك، فابتدره القوم: ليقتلوه، فقال(ﷺ) : لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر، وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زيدٍ أخو بني عبد الأشهل[2] قبل نهي رسول الله(ﷺ) عنه، فضربه بالقوس في رأسه، فشجَّه. **[الواقدي في المغازي (218/1)، والطبري في تاريخه (506/2)، وابن هشام (69/3)].**

ولا شك في أنَّ مروره (صلى الله عليه وسلم) بين الأشجار، والبساتين، يدلُّنا على حرصه (صلى الله عليه وسلم) على الأخذ بالاحتياطات الأمنيَّة المناسبة في أثناء السَّير؛ لأنَّ الطُّرق العامَّة تكشف للأعداء عن مقدار قوَّات المسلمين، وهذا أمرٌ محذورٌ، فالرَّسول(ﷺ) علَّم الأمَّة الأخذ بالسِّرِّيَّة من حيث المكان، ومن حيث الزَّمان؛ لئلا يستطيع الأعداء معرفة قوَّاتهم، فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة، وإعدادهم لجيوشهم في مهبِّ الرِّياح.

وفي هذا الخبر تطبيقٌ عمليٌّ لتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة، إذا تعارضت المصلحتان؛ فالرَّسول(ﷺ) حينما مرَّ بالجيش في أرض المنافق مربع بن قَيْظيٍّ، وترتَّب على ذلك

---

(1) الكثب: يقال: رماه من كثبٍ: قُربٍ ، وتمكُّنٍ.

(2) بنو عبد الأشهل: حيٌّ من الأنصار.

إفســـاد المزرعة؛ مرَّ ولم يعبأ بذلك؛ لأنَّ في ذلك مصـــلحة الجيش باختصـــار الطَّريق إلى أُحدٍ، فبيَّن(صـلى الله عليه وسـلم) أنَّ ما يكون به مصـلحةٌ للدِّين مقدَّمٌ على ما سـواه من المصـالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان: مصلحةٌ عامَّةٌ، ومصلحةٌ خاصَّة، ومصلحة الدِّين في هذا الموقف مصلحةٌ عامَّةٌ، وهي مقدَّمة على المصلحة الخاصَّة، وهي مصلحة المال[1].

وقد رتَّب الشَّـــارع الحكيم مقاصـــد الشَّـــرع في تحقيق المنافع لعباده؛ مِنْ حفظ دينهم، ونفوســهم، وعقولهم، ونســلهم، وأموالهم، طبقَ ترتيبٍ معيَّنٍ فيما بينها[2]، فإذا نظرنا إلى كلّيات الدِّين الخمس، وأهمِّيتها، وجدنا: أنَّ هذه الكلّيات متدرِّجةٌ حســـب الأهمِّيَّة: الدِّين، والنَّفس، والعقل، والنَّســـل، والمال، فما يكون به حفظ الدِّين مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ النَّفس عند تعارضـــهما، وما يكون به حفظ النَّفس مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ العقل، وما يكون به حفظ النَّســـل مقدَّم على ما يكون به حفظ المال، والتَّرتيب بهذا الشَّـــكل من هذه الكلّيات يحظى باتفاق العلماء[3].

إنَّ العلماء المتعمِّقين في دراســة السِّــيرة النَّبويَّة، والهدي النَّبويِّ الكريم قد اســتنبطوا قواعدَ مهمَّة في تقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة؛ ومنهم: الشَّاطبيُّ، والعزُّ بن عبد السَّلام، فقد قال الشَّـاطبيُّ: «الضَّابط في ذلك: التَّوازن بين المصلحة والمفسـدة، فما رُجِّح منها؛ غُلِّب، وإن استويا؛ كان محلَّ إشكال. وخلافٌ بين العلماء قائم من مسألة انخرام المناسبة تلزم راجحةً أو مساويةً»[4].

وقال العزُّ بن عبد السَّـلام: «وتقديم المصـالح الرَّاجحة على المرجوحة محمودٌ حســنٌ، ودرء المفاســد الرَّاجحة على المفاســد المرجوحة محمودٌ حســنٌ، اتَّفق الحكماء على ذلك، وكذلك

---

(1) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ص 168.

(2) انظر: ضوابط المصلحة ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، ص 23.

(3) انظر: المقاصد العامة للشَّريعة ، ليوسف حامد العالم ، ص 166.

(4) انظر: الموافقات ، للشَّاطبي (651/2).

الشَّرائع، فإن تساوت الرُّتب؛ تخيِّر، وإن تفاوتت الرُّتب؛ استعمل التَّرجيح عند عرفانه»[1].

وقال في موضع آخر: «والضَّابط: أنه مهما ظهرت المصلحة الخالية عن المفاسد؛ يسعى في تحصيلها، ومهما ظهرت المفاسد الخالية عن المصالح؛ يسعى في درئها»[2].

ب – انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشَّوْط[3]، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمئة من المنافقين، بحجَّة: أنَّه لن يقع قتالٌ مع المشركين، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: أطاع الولدان، ومن لا رأي له، أطاعهم، وعصاني، علام نقتلُ أنفسنا؟![4] وكان هدفه الرَّئيس من هذا التَّمرُّد، أن يحدث بلبلةً، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ، لتنهار معنوياتُه، ويتشجَّع العدوُّ، وتعلو همَّته، وعمله هذا ينطوي على خيانةٍ عظمى، وبُغْضٍ للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحِّص الله الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطَّيِّب؛ حتَّى لا يختلطَ المخلص بالمغْرض، والمؤمن بالمنافق[5].

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ **[آل عمران: 179]**.

فالجبن، والنُّكوص هما اللَّذان كشفا عن طوية المنافقين، فافتضحُوا أمام أنفسهم وأمام النَّاس قبل أن يفضَحهم القرآن[6].

ج – موقف عبد الله بن عمرو بن حَرَام من المخذال المنافقين:

حاول عبد الله بن حرام رضي الله عنه إقناع المنافقين بالعودة، فأبوا، فقال: يا قوم! أذكِّركم

---

(1) انظر: قواعد الأحكام (1/6 ـ 7).
(2) المصدر السابق نفسه (1/47).
(3) الشَّوط: اسم حائط ـ أي: بستان ـ بين المدينة ، وأحدٍ.
(4) انظر: البداية والنِّهاية (4/14).
(5) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 84.
(6) انظر: مرويات غزوة أحد ، لحسين أحمد ، ص 71.

الله ألا تخذلوا قومكم، ونبيَّكم عندما حضــــر من عدوِّهم؛ فقالوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون؛ لما أسلمناكم، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتالٌ، فلـمَّا استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عنهم؛ قال: أبعدكم اللهُ أعداءَ الله، فسيغني الله عنكم نبيَّه[1].

وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَــــابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَــــبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 166 -167].

د - بنو سلمة، وبنو حارثة:

ولـمَّا رجع ابن أُبي بن سلول، وأصحابه؛ همَّت بنو سلمةَ، وبنو حارثة أن ترجعا، ولكنَّ الله ثبَّتهما، وعصــمهما، وفي ذلك نزل قوله ســبحانه: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَــلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122] قال جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فينا - بني ســــلمة، وبني حارثة، وما أحبُّ أنَّها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: 122]. [البخاري (4051)].

لقد أثَّر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المســــلمين، ففكروا في العودة إلى المدينة، ولكنَّهم غالبوا الضَّــعف الذي ألَمَّ بهم، وانتصــروا على أنفســهم بعد أن تولاَّهم الله تعالى، فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصَّحابة تجاه موقف ابن سلول:

الأوَّل: يرى قتل المنافقين الَّذين خذلوا المسلمين بعودتهم، وانشقاقهم عن الجيش.

الثَّاني: لا يرى قتلهم.

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص 277.

وقد بين القرآن الكريم موقف الفريقين[1] في هذه الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: 88].

هـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله(ﷺ) إلى مكان يُدعى الشَّيخين، رأى كتيبةً لها صوتٌ وجَلَبَةٌ، فقال: ما هذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي بن سلول من يهود، فقال(ﷺ) : «لا نستنصر بأهل الشِّرك على أهل الشِّرك»[2] وهذا أصلٌ وضعه النَّبيُّ(ﷺ) في عدم الرُّكون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[3].

و – رَدُّ النَّبيِّ(ﷺ) بعض الصَّحابة لصغر سنِّهم:

ردَّ النبيُّ(ﷺ) في معسكره بالشَّيخين جماعةً من الفتيان لصغر أعمارهم؛ إذ كانوا في سن الرَّابعة عشرة، أو دون ذلك؛ منهم: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري؛ بلغ عددهم أربعة عشر صبيّاً، وقد ثبت أنَّ ابن عمر كان منهم[4]، وأجاز منهم رافع بن خديج لـمَّا قيل له: إنَّه رامٍ، فبلغ ذلك سَمُرَةَ بن جُنْدب، فذهب إلى زوج أمِّه مرّي بن سنان بن ثعلبة – عمِّ أبي سعيد الخدريِّ، وهو الذي ربَّى سَمُرَة في حِجْرِه – يبكي ويقول له: يا أبتِ! أجاز رسولُ الله(ﷺ) رافعاً، وردَّني، وأنا أصرع رافعاً، فذهب زوج أمِّه إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، وأخبره بذلك، فالتفت النَّبيُّ(ﷺ) إلى رافع، وسَمُرَةَ، فقال لهما: تصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه كما أجاز رافعاً، وجعلهما من جنده، وعسكر كتائبه، ولكلٍّ منهما مجالُه، واختصاصُه[5].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (3/382).
(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 278.
(3) انظر: محمَّد رسول الله ، محمَّد عرجون (3/561).
(4) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (2/383).
(5) انظر: محمد رسول الله (3/571 . 572).

ونلحظ: أنَّ رسـول الله(ﷺ) أجاز رافعاً، وسَمرة لامتيازٍ عسكريٍّ امتازوا به على أقرآنهما، وردَّ صغار السِّنِّ خشية ألاَّ يكون لهم صبرٌ على ضرب السُّيوف، ورمي السِّهام، وطعن الرِّماح، فيفرُّوا من المعركة إذا حمي الوطيس[1]، فيُحْدِث فرارُهم خلخلةً في صفوف المسلمين[2].

ونلحظ: أنَّ المجتمع الإسلاميَّ يضجُّ بالحركة، ويسعى للشَّهادة، شيوخاً، وشباباً؛ حتَّى الصبيانُ يُقبلون على الموت ببسالةٍ، ورغبةٍ في الشَّهادة، تبعث على الدَّهشة، دون أن يجبرهم قانون التَّجنيد، أو تدفع بهم قيادةٌ إلى ميدان القتال، وهذا يدلُّ على أثر المنهج النَّبويِّ الكريم، في تربية شرائح الأمَّة المتعدِّدة، على حبِّ الآخرة، والترفُّع عن أمور الدُّنيا.

سادساً: خطَّة الرَّسول(ﷺ) لمواجهة كفار مكَّة:

أ - وَضَعَ الرَّسول(ﷺ) خطَّةً محكمةً لمواجهة المشركين من قريشٍ؛ حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب مَنْ يصلح للقتال، وردَّ من لم يكن صالحاً، واختار خمسين منهم للرِّماية، وشدَّد الوصيَّة عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللِّواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

1 - كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها مصعب بن عميرٍ رضي الله عنه.

2 - كتيبة الأوس من الأنصار: وأعطى لواءها أُسيد بن حضيرٍ رضي الله عنه.

3 - كتيبة الخزرج من الأنصار: وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه[3].

ب - وكان من هديه(ﷺ) أن يُحرِّض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثَّهم على التَّحلِّي بالصَّبر في ميادين القتال، لكي تتقوى رُوحهم المعنويَّة، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم، ومن ذلك ما فعله يوم أُحدٍ، وفي ذلك يقول الواقديُّ: «ثمَّ قام رسولُ الله(ﷺ) ، فخطب النَّاس:

---

(1) حمي الوطيس: اشتدت الحرب.

(2) انظر: محمَّد رسول الله (571/3 . 572).

(3) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 89.

«يا أيها الناس! أُوصيكم بما أوصاني الله في كتابه؛ من العمل بطاعته، والتَّناهي عن محارمه، ثمَّ إنَّكم اليوم بمنزل أجرٍ، وذُخْرٍ؛ لمن ذكر الَّذي عليه، ثمَّ وطَّن نفسه له على الصَّبر، واليقين، والجدِّ، والنَّشاط، فإنَّ جهاد العدو شديدٌ كربُه، قليلٌ من يصبر عليه إلا من عزم الله رشدَه، فإنَّ الله مع مَنْ أطاعه، وإنَّ الشَّيطان مع مَنْ عصاه، فافتتحُوا أعمالكم بالصَّبر على الجهاد، والتمِسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالَّذي امركم؛ فإنِّي حريصٌ على رشدكم، فإنَّ الاختلاف، والتَّنازع، والتَّثبيط، من أمر العجز، والضَّعف، ممَّا لا يحبُّ الله، ولا يعطي عليه النَّصر، ولا الظَّفر»[1].

ويتَّضح من هذه الخُطبة عدَّةُ أهدافٍ؛ منها:

1 - الحثُّ على الجدِّ، والنَّشاط في ميدان الجهاد.

2 - الحثُّ على الصَّبر عند قتال الأعداء.

3 - بيان مساوئ الاختلاف، والتَّنازع[2].

إنَّ هذا الهدي المبارك الَّذي سَنَّهُ (صلى الله عليه وسلم) يعلِّمنا حقائق ثابتةً، وهي: أنَّ الجيوش مهما عظم تسليحها، وتنظيمها، فإنَّ ذلك لا يغني شيئاً إلا إذا حملته نفوسٌ قويَّةٌ، تحرص على الموت أشدَّ مِنْ حرصها على الحياة، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتَّوجيه، وغرس حبِّ الجهاد، والشَّهادة في نفوسهم.

ج - أدرك الرَّسول(ﷺ) أهمِّية جبل أحد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد؛ جعل الرَّسولُ(ﷺ) ظهورَهم إلى الجبل، ووجوههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرُّماة تحت إمرة عبد الله بن جُبَيْرٍ[3]، ووضعهم فوق جبل عَينين المقابل لجبل أحد،

---

(1) انظر: مغازي الواقديّ (221/1 . 222).

(2) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 469.

(3) انظر: الإصابة (278/2).

وذلك حتَّى يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «إن رأيْتُمونا تَخطَفُنا الطَّيرُ؛ فلا تَبرحُوا مكانَكم هذا حتَّى أُرسـل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ، وأوطَأْنَاهُم فلا تَبْرحُوا حتَّى أُرْسلَ إليكم» **[البخاري (3039)، وأحمد (293/4)، وأبو داود (2662)]**.

وقال رسول الله(ﷺ) للجيش: «لا تبرحوا حتَّى أوذنكم»، وقال: «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى امره بالقتال».

وقال لأمير الرُّماة: «انضحِ الخيلَ عنا بالنَّبْل؛ لا يأتونا مِنْ خَلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا، أو علينا» **[الطبري في تاريخه (507/2)، والواقدي في المغازي (225/1)، والبيهقي في الدلائل (227/3)، وابن هشـام (70/3)]**. وقال للرُّماة: «الزموا مكانكم، لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نَهْزِمُهُمْ حتَّى ندخل عسكرهم؛ فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل؛ فلا تغيثونا، ولا تدفعوا عنَّا، وارشقوهم بالنَّبْل؛ فإنَّ الخيل لا تقدم على النَّبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللّهمَّ إنّي أُشهدك عليهم»[1].

سيطر المسلمون على المرتفعات، وتركوا الوادي لجيش مكَّة ليواجه أُحداً، وظهره إلى المدينة، وأصبحت مهمَّة الرُّماة في النقاط التالية: احتلال الموقع، حماية المسلمين من الخلف، صدُّ الخيل عن المسلمين[2].

د - تسوية الصُّفوف، وتنظيم الجيش؛ تقدَّم رسولُ الله(ﷺ) أصحابه، وصفَّهم على هيئة صفوف الصَّلاة ، وجعل رسولُ الله(ﷺ) يمشي على رجليه، يُسوّي تلك الصُّفوف ، ويبوّئ أصحابه للقتال، يقول: تقدَّم يا فلان! وتأخر يا فلان! فهو يقوّمهم... حتَّى استوت الصُّفوف[3]، فوضع (صلى الله عليه وسلم) في مقدِّمة الصُّفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطَّريق

(1) انظر: السيرة الحلبية (496/2) ، وانظر: سيرة ابن هشام (نزول الرسول (ص) بالشعب ، وتعبيته للقتال) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (4043) ، والرَّحيق المختوم (خطة الدفاع) ، وتاريخ الطَّبريّ (507/2).
(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 90.
(3) انظر: المغازي ، للواقدي (219/1).

لمن خلفهم، وقد أخذ الرَّسول(ﷺ) بهذا الأسلوب؛ لأنَّه أبلغ في قتال الأعداء[1].

هـ - عدم القتال إلا بأمرٍ من القائد: قال الطَّبريُّ: «فجعل ظهره، وعسكره إلى أحدٍ، وقال: لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى نأمره بالقتال»[2].

وفي هذا التَّوجيه فائدةٌ مهمَّةٌ، وهي توحيد القيادة والمسؤوليَّة؛ لأنَّه(ﷺ) أدرى بالمصلحة.

(1) انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لمحمد فرج ، ص 355 . 356.

(2) انظر: تاريخ الطَّبريِّ (507/2).

المبحث الثَّاني

في قلب المعركة[1]

أولاً: بدء القتال واشتداده، وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال، حاول أبو سفيان أن يُوجِدَ شرخاً، وتصدُّعاً في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: «خَلُّوا بيننا وبين ابن عمِّنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم» فردُّوا عليه بما يكره[2].

ولـمَّا فشلت المحاولة الأولى؛ لجأت قريش إلى محاولةٍ أخرى، عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الرَّاهب، حيث حاول أبو عامر الرَّاهب أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشرَ الأوس! أنا أبو عامر! قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! فلـمَّا سمع ردَّهم عليه؛ قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثمَّ قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة[3].

وبدأ القتال بمبارزةٍ بين عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وطلحةَ بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحدٍ، يقول صاحب السِّيرة الحلبية: خرج طلحةُ بن عثمان، وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحدٌ، فقال: يا أصحابَ محمد! إنَّكم تزعمون أنَّ الله - تعالى - يُعجلنا بسيوفكم إلى النَّار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة، فهل أحدٌ منكم يعجلني بسيفه إلى النَّار، أو أعجله بسيفي إلى الجنَّة؟ فخرج إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: والَّذي نفسي بيده! لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النَّار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنَّة، فضربه عليٌّ فقطع رِجْلَهُ، فوقع على الأرض، فانكشفت عورتُه،

---

(1) ينظر الشكل (4) في الصفحة (748).

(2) انظر: إمتاع الأسماع، للمقريزي (120/1).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (192/2)، وسيرة ابن هشام (أمر أبي عامر الفاسق).

فقال: يا بن عمّي! أنشــــدك الله، والرَّحم! فرجع عنه، ولم يجهز عليه، فكبَّر رســـولُ الله(ﷺ) . وقال بعض الصَّـــحابة لعليٍّ: أفلا أجهزت عليه؟! قال: إنَّ ابن عمِّي ناشـــدني الرَّحم حين انكشفت عورتُه، فاستحييتُ منه[1].

والتحم الجيشان، واشتدَّ القتال، وشرع رسولُ الله(ﷺ) يشحذ همم أصحابه، ويعمل على رفع معنوياتهم، وأخذ سيفاً، وقال: «مَنْ يأخذُ منِّي هذا؟» فبسطوا أيديهم، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا، أنا. قال: «فمن يأخذه بحقِّه؟» قال: فأحْجَمَ القومُ، فقال سِمَاكُ بنُ خَرَشَـــةَ أبو دُجَانة: وما حقُّه يا رسولَ الله؟! قال: «أن تضرب به العدوَّ حتَّى ينحني»، قال: أنا اخذه بحقِّه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب – أي يمشي مشية المتكبِّر –، وحين رآه رسول الله(ﷺ) يتبختر بين الصَّـفَّين قال: «إنَّها لمشـيَةٌ يُبغضـها الله إلا في مثل هذا الموطن»، وأخذه، وفلق به هامَ المشـــركين **[أحمد (123/3)، ومســـلم (2470)، والحاكم (556/3)، والبيهقي في الدلائل (232/3)]**.

وهذا الزُّبير بن العوَّام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أُحدٍ، قال: وجدت في نفسي حين سألتُ رسول الله(ﷺ) السَّيْفَ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفيَّة عمَّتِه، ومِنْ قريشٍ، وقد قمتُ إليه، وسألته إيَّاه قَبْلَه، فأعطاه أبا دُجانة، وتركني، والله! لأنظرنَّ ما يصنع، فاتبعته، فأخرج عصابةً له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة عِصَابة الموت – وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها –، فخرج؛ وهو يقول:

أنَّا الَّذي عاهَدَني خَلِيْلي ... وَنَحْنُ بالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيْلِ
ألا أقومَ الدَّهرَ في الكَيُّولِ[2] ... أضْرِبْ بِسَيْفِ اللهِ والرَّسُولِ[3]

فجعل لا يَلْقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجلٌ لا يَدعُ لنا جريحاً إلا ذفَّف[4] عليه،

(1) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (497/2 ـ 498) ، وتفسير الطَّبريِّ (218/7) ، والقصَّة بنحوها في ابن هشام.
(2) الكَيُّول: اخر الصُّفوف في الحرب.
(3) البداية والنِّهاية (17/4) ، وسيرة ابن هشام (تمام قصَّة أبي دجانة).
(4) ذفَّف: أجهز عليه.

فجعل كلٌّ واحدٍ منهما يدنو من صـــاحبه، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشركُ أبا دجانة، فاتَّقاه بدَرَقَتِه، فعضَّت بسيفه، وضربه أبو دُجانة فقتله، ثمَّ رأيتُه قد حمل السَّـــيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة، ثمَّ عدل السَّـــيف عنها، فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال ابن إسحاق: قال أبو دُجانة: رأيت إنساناً يَخْمش[1] النَّاس خَمْشاً شديداً، فصمدتُ له[2]، فلـــمَّا حملتُ عليه السَّيفَ؛ وَلْوَلَ، فإذا امرأةٌ، فأكرمتُ سيفَ رسول الله أن أضرب به امرأةً [ابن هشام (73/3)، والبيهقي في الدلائل (233/3)][3].

ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول(ﷺ) :

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين، وكان شعارُهم: أمِتْ.... أمِتْ، واستماتوا في قتالٍ بطوليٍّ ملحميٍّ، سـجَّل فيه أبطال الإسـلام صـوراً رائعةً من البطولة، والشَّـجاعة[4]، وسـجَّل التَّاريخ روائعَ بطولاتِ حمزةَ بن عبد المطلب، ومصـــعب بن عمير، وأبي دُجانةَ، وأبي طلحة الأنصاريِّ، وسعد بن أبي وقَّاص، وأمثالهم كثيرٌ[5]، وحقَّق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[6].

وفي ذلك يقول الله – سـبحانه وتعالى – في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَــدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَــرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152].

ولما رأى الرُّماةُ الهزيمةَ الَّتي حلَّت بقريشٍ، وأحلافها، ورأوا الغنائم في أرض المعركة؛ جذبهم

---

(1) يخمش: يشجع على القتال.
(2) فصمدت له: قصدت نحوه.
(3) البداية والنهاية (17/4).
(4) انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (303/1).
(5) المصدر السَّابق نفسه.
(6) المصدر السَّابق نفسه.

ذلك إلى ترك مواقعهم؛ ظنّاً منهم: أنَّ المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جُبيرٍ: «الغنيمة أي قَوْمِ! الغنيمة! ظهر أصـــحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبَيْرٍ: أنَسِــيتُم ما قال لكم رسولُ الله(ﷺ) ؟ قالوا: واللهِ لنأتينَّ النَّاسَ فلنُصيبَنَّ من الغنيمة» **[البخاري (3039)]**.

ثمَّ انطلقوا يجمعون الغنائم، ولم يعبؤوا بقول أميرهم، ووصـــف ابن عباس رضـــي الله عنهما حالة الرُّماة في ذلك الموقف، فقال: «فلـــمَّا غنم النَّبيُّ(ﷺ) ، وأباحوا عسكر المشركين، أكبَّ الرُّماة جميعاً، فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله(ﷺ) ، فهم هكذا - وشبك بين أصابع يديه -، والتبسوا، فلـــمَّا أخلَّ الرُّماة تلك الخَلَّة الَّتي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبيِّ(ﷺ) ، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير» **[أحمد (1/287 - 288)]**.

ورأى خالد بن الوليد - وكان على خيَّالة المشركين -، الفرصة سانحةً ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولـمَّا رأى المشركون ذلك، عادوا إلى القتال من جديدٍ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المســـلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيطٍ، فأصـــبحوا يقاتلون متفرِّقين، فلا نظام يجمعهم، ولا وحْدَة تشملهم، بل لم يعودوا يميِّزون بعضهم ، فقد قَتَلُوا اليَمانَ - والد حُذيفة بن اليَمان - خطأً **[البخاري (4065)، وابن هشـــام (3/129)]** . وأخذ المســـلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتِّصالهم بالرَّسول(ﷺ) ، وشاع: أنَّه قُتِل[1]، واختلط الحابِلُ بالنَّابل[2] واشتدَّت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كلَّ من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريباً من النَّبيِّ(ﷺ) ، فرموه بحجر كسر أنفه الشَّريف، ورباعيَـــتَـــهُ[3]، وشجَّه[4] في وجهه الكريم، فأثقله تفجَّر الدَّم[5] منه(ﷺ) .

---

(1) انظر: غزوة أحد دراسةٌ دعويَّة ، ص 98.

(2) اختلط الحابلُ بالنَّابل: اضطربت الأمورُ.

(3) الرَّباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنيَّة ، والنَّاب.

(4) شَجَّهُ شَجاً: شقَّ جلد رأسه أو وجهه.

(5) انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص 294.

عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله(ﷺ) كُسِرَتْ رَبَاعيَّتُه يوم أُحدٍ، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه، ويقول: كيف يُفْلح قومٌ شجُّوا نبيَّهم، وكسروا رباعيَّته، وهو يدعوهم إلى الله؟ [البخاري تعليقاً (112/8)، ومسلم (1791)] فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 128].

وحمل ابن قَمِئَةَ على مُصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديدَ الشَّبه برسول الله(ﷺ) ، فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمَّداً[1].

وشاع: أنَّ محمَّداً قد قُتِل، فتفرَّق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق الجبل، واختلطت على الصَّحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[2]، ففرَّ جَمْعٌ من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتالٍ، واثر آخرون الشَّهادة بعد أن ظنُّوا: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد مات؛ ومن هؤلاء أنسُ بن النَّضر، الَّذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً، والَّذي قال في ذلك: «والله! لئن أراني اللهُ مشهداً مع رسول الله(ﷺ) ليرينَّ اللهُ كيف أصنع» وقد صدق في وعده، فقد مرَّ يوم أُحدٍ على قومٍ ممَّن أذهلتهم الشَّائعةُ، وألقوا بسلاحهم، فقال: ما يجلسكم ؟ قالوا: قُتل رسولُ الله(ﷺ) ! فقال: يا قوم ! إن كان محمَّدٌ قد قُتل، فإن ربَّ محمَّد لم يُقتل، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللّهمَّ إنِّي أعتذر إليك ممَّا قال هؤلاء - يعني: المسلمين -، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء - يعني: المشركين -، ثم لقي سعد بن معاذ، فقال: يا سعد! إنِّي لأجد ريح الجنَّة دون أحدٍ، ثمَّ ألقى بنفسه في أَتُونِ المعركة، وما زال يقاتل؛ حتَّى اسْتُشْهِد، فوُجد فيه بضعٌ وثمانون ما بين ضربةٍ بسيفٍ، أو طعنةٍ برمحٍ، أو رميةٍ بسهمٍ، فلم تعرفه إلا أختُه ببنانه [البخاري (4048)، وابن هشام (88/3)][3].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (81/3).

(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 100.

(3) المصدر السابق ، ص 101.

وفي هذا، وأمثاله نزل قولُ الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 23].

أمَّا أولئك النَّفر الَّذين فرُّوا لا يلوون على شيءٍ رغم دعوة النَّبيِّ(ﷺ) لهم بالصُّمود، والثَّبات، فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: 153].

ولقد حكى القرآن الكريم خبرَ فرار هذه المجموعة من الصَّحابة، الَّذين ترخَّصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النَّبيِّ(ﷺ) ، الَّذي شاع في ساحة المعركة، وكان أوَّل مَنْ علم بنجاة الرَّسول(ﷺ) ، وأنَّه حيٌّ هو الصَّحابيُّ كعب بن مالك، الَّذي رفع صوتَه بالبُشرى، فأمره النَّبيُّ(ﷺ) بالسُّكوت حتَّى لا يفطنَ المشركون إلى ذلك [الطبراني في الأوسط (1108)، وفي الكبير (100/19)، ومجمع الزوائد (112/6)][1].

وقد نصَّ القرآن الكريم على أنَّ الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة الَّتي فرَّت.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 155].

ثالثاً: خطَّة الرَّسول(ﷺ) في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين، والهدف الرَّئيس فيه شخص النَّبيِّ(ﷺ) ، لم يتزحزح(ﷺ) من موقفه؛ والصَّحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه، وحُوصرَ رسولُ الله(ﷺ) في قلب المشركين، وليس معه إلا تسعةٌ من أصحابه؛ سبعةٌ منهم من الأنصار. [مسلم (1789)].

وكان الهدف أن يفكَّ هذا الحصار، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل

(1) سيرة ابن هشام ، (أوَّل من عرف الرَّسول صلى الله عليه وسلمبعد الهزيمة).

الأنصار في الدِّفاع عن رسول الله(ﷺ) ، واستشهدوا واحداً بعد الآخر[1]، ثمَّ قاتل عنه طلحةُ بن عبيد الله حتَّى أُثْخِنَ، وأصيب بسهم شَلَّت يمينَه، وأراد النَّبيُّ(ﷺ) أن يصعد صخرةً فلم يستطع، فقعد طلحةُ تحته حتَّى استوى على الصَّخرة قال الزُّبير: فسمعت النَّبيَّ(ﷺ) يقول: «أوجب طلحة» **[أحمد (1/165)، والترمذي (1692)]**[2].

وقاتل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله(ﷺ) ، وكان يناوله النِّبال ويقول له: «ارمِ يا سعد! فداك أبي، وأمِّي!» **[أحمد (1/137)، والبخاري (4055)، ومسلم (2412)]**.

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري؛ الَّذي كان من أمهر الرُّماة، وهو الَّذي قال عنه النَّبيُّ(ﷺ) : «لصوت أبي طلحة في الجيش، أشدُّ على المشركين من فئةٍ» **[أحمد (3/203)، وعبد بن حميد (1384)]**. وقد كان متترِّساً على رسول الله بحَجَفةٍ له، وكان رامياً شديدَ النَّزع، كَسَرَ يومئذٍ قوسين، أو ثلاثاً، وكان الرَّجل يمرُّ معه الجَعْبَةُ[3] من النَّبل، فيقول رسولُ الله(ﷺ) : «انثرها لأبي طلحة»، ثمَّ يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: «يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمي! لا تُشْرِف[4] يصيبك سهمٌ من سِهام القوم، نَحْرِي دون نحرك[5]!» **[البخاري (4064)]**.

ووقفت نُسَيْبة بنت كعب تذبُّ عن رسول الله(ﷺ) بالسَّيف، وترمي بالقوس، وأُصيبت بجراحٍ كبيرةٍ، وترَّس أبو دجانة دون رسول الله(ﷺ) بنفسه؛ يقع النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه حتَّى كثر فيه النَّبْل[6].

والتفَّ حول الرَّسول(ﷺ) في تلك اللَّحظات العصيبة أبو بكرٍ، وأبو عبيدة، وقام أبو

---

(1) انظر: نضرة النَّعيم (1/304).
(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 296 ، وهذه القصَّة رواها ابن هشام (ضعف الرَّسول صلى الله عليه وسلمعن النُّهوض ومعاونة طلحة له) ، والترمذي ، وأحمد ، والحاكم ، وصححها ووافقه الذَّهبي. انظر: الرَّحيق المختوم (طلحة ينهض بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم) وتخريجه لهذا الحديث.
(3) الجعبة: الكنانة الَّتي تجعل فيها السِّهام.
(4) لا تشرف: لا تتطلع.
(5) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السِّهام من نحرك لأصاب بها دونك.
(6) انظر: البداية والنِّهاية (4/35 . 36) ، وسيرة ابن هشام (حديث أم سعد عن نصيبها في الجهاد يوم أحدٍ ، أبو دجانة وابن أبي وقَّاص يدافعان عن الرَّسول صلى الله عليه وسلم) .

عبيدة بنزع السَّهمين من وجه النَّبيِّ(ﷺ) بأسنانه، ثمَّ توارد مجموعةٌ من الأبطال المسلمين؛ حيث بلغوا قرابـة الثَّلاثين، يذودون عـن رسول الله(ﷺ) ؛ منهم: قتـادة، وثابت بن الدَّحداح، وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطَّاب، وعبد الرَّحمن بن عوف، والزُّبير بن العوَّام.

واسـتطاع عمر بن الخطَّاب أن يردَّ هجوماً مضـادّاً، قاده خالد ضـدَّ المسـلمين من عالية الجبل، واستبسل الصَّحابة الَّذين كانوا مع عمر في ردِّ الهجوم العنيف، وعاد المسلمون، فسيطروا على الموقف من جديد[1]، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصرٍ حاسمٍ، وتعبوا من طولها، ومن جَلادة المسلمين، وانسحب النَّبيُّ(ﷺ) بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحَد شعاب جبل أُحدٍ، وكان المسلمون في حالةٍ من الألم، والخوف، والغمّ لما أصاب رسولَ الله(ﷺ) ، وما أصابهم رغم نجاحهم في ردِّ المشركين[2]، فأنزل الله عليهم النُّعاس، فناموا يسيراً، ثمَّ أفاقوا امنين مطمئنين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ **[آل عمران: 154]**.

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الطَّائفة الَّتي قد أهمَّتهم أنفسُهم هم المنافقون[3].

أمَّا قريشٌ فإنَّها يئست من تحقيق نصرٍ حاسمٍ، وأُجْهد رجالُها من طول المعركة، ومن صمود المسـلمين وجَلَدهم، وخاصَّـةً بعد أن اطمأنُّوا، وأنزل الله عليهم الأمنة، والصُّـمود، فالتفُّوا حول النَّبيِّ(ﷺ) ؛ ولذلك كَفُّوا عن مطاردة المسلمين، وعن محاولة اختراق قوَّاتهم[4].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص 468 . 470.
(2) انظر: نضرة النَّعيم (305/1).
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) انظر نضرة النَّعيم (306/1).

رابعاً: من شهداء أُحد:

أ – حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه سيِّد الشُّهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسدُ الله حمزةُ قتالاً ضارياً، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفرٍ من حملة لواء المشركين من بني عبد الدَّار، وبينما هو على هذه الحال من الشَّجاعة، والإقدام، كَمَنَ له وحشيٌّ؛ حتَّى تمكَّن منه، ثمَّ رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، ولندع وحشيّاً يخبرُنا عن هذا المشهد المؤلم. قال وحشيٌّ: إنَّ حمزة قتل طُعَيْمةَ بن عديِّ بن الخيار ببدرٍ، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي؛ فأنت حرٌّ، فلمَّا أنْ خرج النَّاسُ عام عَيْنَين – وعينين جبلٌ بحيال أحدٍ، بينه وبينه وادٍ –، خرجتُ مع النَّاس إلى القتال، فلمَّا اصطفُّوا للقتال؛ خرج سِبَاعٌ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب، فقال: يا سِباعُ! يا بنَ أمِّ أنمارٍ مُقطِّعة البُظور[1]، أتحادُّ الله ورسولَه(ﷺ) ؟ ثمَّ شدَّ عليه، فكان كأمس الذَّاهب، قال: وكَمَنتُ لحمزة تحت صخرةٍ، فلمَّا دنا منِّي رميتُه بحربتي، فأضَعُها في ثُنَّتِهِ[2]حتَّى خَرَجَتْ من بين وَرِكيه، قال: فكان ذاك العهدَ به[3]، فلمَّا رجع النَّاس؛ رجعت معهم، فأقمت بمكَّة حتى فشا فيها الإسلامُ.

ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف، فأرسلوا إلى رسول الله(ﷺ) رُسلاً، فقيل لي: إنَّه لا يَهيج الرُّسُلَ[4]، قال: فخرجتُ معهم حتَّى قدمتُ على رسول الله(ﷺ) ، فلمَّا راني؛ قال: « أنت وحشيٌّ؟ » قلت: نعم، قال: « أنت قتلتَ حمزة؟ » قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك، قال: « فهل تستطيعُ أن تُغيِّبَ وجهك عنِّي؟ » قال: فخرجتُ، فلمَّا قُبض رسولُ الله(ﷺ) ، فخرج مسيلمةُ الكذَّاب، قلت: لأخرجنَّ إلى مسيلمة لَعَلِّي أقتلُه فأكافئ به حمزة، قال:

---

(1) مقطِّعة البظور: كانت أمه ختَّانة بمكَّة تختن النِّساء.

(2) فأضعها في ثُنَّته: أي في عانته ، وقيل: ما بين السُّرَّة والرُّكبة.

(3) ذلك العهد به: كناية عن موته.

(4) لا يهيج الرسل: أي: لا ينالهم منه مكروهٌ.

فخرجت مع النَّاس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائمٌ في ثَلَمةِ جدار[1] كأنَّه جمل أَوْرَقُ[2] ثائر الرأس، قال: فرميتُه بحربتي، فأضعها بين ثدييه حتَّى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجلٌ من الأنصار، فضربه بالسَّيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار: أنَّه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهر بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين! قتله العبدُ الأسود» [البخاري (4072)، والبيهقي في الدلائل (241/3 – 243)، والطبري في تاريخه (516/2 – 517)].

1 – سؤال النَّبيِّ(ﷺ) عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة، سأل رسولُ الله(ﷺ) أصحابه: «مَنْ رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله(ﷺ) حتَّى وقف على حمزة، فرآه وقد شُقَّ بطنُه، وقد مُثِّل به، فقال: يا رسول الله! مُثِّل به والله! [الطبراني في الكبير (82/19)، ومجمع الزوائد (119/6)][3]. وفي روايةٍ: لما بلغ النَّبيَّ(ﷺ) قتلُ حمزة؛ بكى، فلمَّا نظر إليه شهِق، ووقف بين ظهراني القتلى، فقال: «أنا شهيد على هؤلاء، كفِّنوهم في دمائهم، فإنَّه ليس جرحٌ يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدمى؛ لونُه لون الدَّم، وريحُه ريحُ المسك، قدِّموا أكثرهم قرآناً، فاجعلوه في اللَّحد» [البخاري (2079)، وأبو داود (3138)، والترمذي (1036)، والنسائي (1954)، وابن ماجه (1514)].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله(ﷺ) في أُحدٍ تحقَّقت رؤيا رسولِ الله(ﷺ) ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أُحدٍ، فقال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فَلاًّ[4]، فأوَّلْتُه فَلاًّ يكون فيكم (أي: انهزاماً)، ورأيت أنِّي مردفٌ كَبْشاً، فأوَّلْتُه كبش الكتيبة، ورأيت أنِّي في درع حصينةٍ، فأوَّلتها المدينة، ورأيت بقراً تُذبح، فبقرٌ والله خيرٌ! فبقرٌ والله خيرٌ!» فكان الَّذي قال

(1) في ثلمة جدار: أي خلل جدار.
(2) أورق: لونه كالرماد.
(3) سيرة ابن هشام (دفن الشهداء) ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 283.
(4) الفلُّ: الثَّلم في السَّيف.

رسول الله(ﷺ) . [أحمد (271/1)، والترمذي (1561)][1] .

2 – صبر صفيةَ بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: إنَّه لـمَّا كان يوم أُحد؛ أقبلت امرأة تسعى، حتَّى كادت أن تشـــرف على القتلى، قال: فَكَرِهَ النَّبيُّ(ﷺ) أن تراهم، فقال: المرأة ... المرأة! قال الزُّبير: فتوسَّمتُ: أنَّها صفيَّة، قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فَلَدَمَتْ[2] صـــدري، وكانت امرأة جَلْدةً، قالت: إليك عنِّي، لا أرضَ لك! فقلت: إنَّ رســول الله(ﷺ) عزم عليك.

قال: فوقفت، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفِّنوه فيهما. قال: فجئنا بالثَّوبين لنكفِّن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجلٌ من الأنصـار قتيل فُعِلَ به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غضـاضـةً وحياءً أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصـاريُّ لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوبٌ وللأنصاريِّ ثوبٌ، فقدَّرناهما، فكان أحدُهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفَّنا كلَّ واحدٍ منهما في الثَّوب الَّذي صـار له. [أحمد (165/1)، والبزار (1797)، وأبو يعلى (686)، والبيهقي في الدلائل (290/3)، ومجمع الزوائد (118/6)][3].

3 – من شعر صفيَّة في بكاء حمزة:

أَسَـــائِلَةٌ أَصْـــحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً ... بَنَـاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ[4] وخَبيرِ
فَقَالَ الخَبِيْرُ إنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى ... وَزِيْـرُ رَسُـــولِ اللهِ خَـيْرُ وَزِيْـرِ
دَعَاهُ إلهُ الحقِّ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً ... إلَى جنَّـةٍ يَحْيَـا بِهَـا وَسُـــرُوْرِ
فَـذَلِـكَ مَـا كُنَّـا نُرَجِّي وَنَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْـرِ خَيْرَ مَصِـيْرِ

---

(1) انظر شرحه في فتح الباري ، وكذا كتاب المغازي ، باب غزوة أحد (في مقدّمة الباب) ، وسيرة ابن هشام (رؤيا راها رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(2) لدمت: ضربت ، ودفعت.

(3) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 285 ، وانظر: سيرة ابن هشام (صفيَّة وحزنُها على حمزة).

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (185/3).

فَوَاللهِ لاَ أَنْسَــاكَ ما هبَّتِ الصَّــبا   بُكَاءً وَحُزْناً مَحْضَـري وَمَسِـيْرِي
عَلَى أَسَـدِ الله الَّذِيْ كَانَ مِدْرَهاً[1]   يَذُوْدُ عَنِ الإِسْــلاَمِ كلَّ كَفُوْرِ
فَيَا لَيْتَ شِـلْوِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظُمِي   لَدَى أَضْـبُعٍ تَعْتَادُنِي وَنُسُـورِ[2]
أَقُولُ وَقَـدْ أَعْلَى النَّعِيُّ عَشِــيْرَتِي   جَزَى اللهُ خَيْراً مِنْ أَخٍ وَنَصِيْرِ[3]

4 – حمزة لا بواكي له:

لمَّا رجع رسولُ الله(ﷺ) من أُحدٍ؛ سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكيَ له»، فبلغ ذلك نساءَ الأنصار، فبكين حمزة[4]، فنام رسول الله(ﷺ) ، ثمَّ استيقظ، وهنَّ يبكين، فقال: «يا ويحهنَّ! ما زلن يبكين منذ اليوم، فليبكين، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم» [أحمد (40/2، 84، 92)، وابن ماجه (1591)، والطبراني في الكبير (2943)، وأبو يعلى (3576)، ومجمع الزوائد (120/6)]. وبذلك حرِّمت النِّياحة على الميت، وبعد فترة من الزَّمن نزل الوحي يشدِّد على تحريم النِّياحة على الميت، ويجعلها من كبائـر الذُّنوب، وهو بذلـك يتغلغـل داخـل أعماق المؤمنين، والمؤمنات، يتتبَّع آثار الجاهلية؛ لكي يمحوها، ويغرس مكانها تعاليم الإسلام[5]».

قال(ﷺ) : «النِّياحة على الميت من أمر الجاهليَّة، وإن النَّائحة إذا لم تتب قبل أن تموت، فإنَّها تُبْعَثُ يوم القيامة عليها سرابيلُ من قطران، ثمَّ يُعلى عليها بدروعٍ من لهب النَّار» [ابن ماجه (1582)].

وقال(ﷺ) : «اثنتان في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسب، والنِّياحةُ على الميّت» [أحمد (496/2)، ومسلم (67)]. فتوقف النُّواح، ولم تتوقف الدُّموع.

---

(1) مِدْرهاً: الَّذي يدفع عن القوم.
(2) الشِّلو: العضو. تعتادني: تتعاهدني.
(3) انظر: السِّيرة النبويَّة ، لابن هشام (185/3).
(4) سيرة ابن هشام (بكاء نساء الأنصار على حمزة).
(5) انظر: السيرة النبوية ، للصوياني (90/3).

5 - رسول الله(ﷺ) يسمِّي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منَّا غلام، فقالوا: ما نسـمِّيه؟ فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «سمُّوه بأحبِّ الأسماء إليَّ، حمزة بن عبد المطلب» [الحاكم (196/3)]؛ فحمزة مُتَجَذِّرٌ في القلب النَّبويِّ، عالقٌ بالذَّاكرة الكريمـة، ولكن الله سبحانه ينزل على نبيِّه(ﷺ) فيما بعد أحبَّ الأسماء إليـه، فيقولها(ﷺ) لمن حولـه: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبدُ الله، وعبدُ الرَّحمن» [مسلم (2132)، وأبو داود (4949)، والترمذي (2833)، وابن ماجه (3728)].

6 - «فهل تستطيع أن تُغَيِّب وجهَك عنِّي» [البخاري (4072)، وأحمد (5073)]:

في هذا التَّوجيه الكريم لا يوجد فيه شـيءٌ من المؤاخذة والتَّأثيم لوحشـيٍّ؛ وإنَّما هو تذكيرٌ له بأنَّ رؤيته إيَّاه تجلب له شيئاً من المتاعب النَّفسيَّة، وتُحرِّك في نفسه ذكريات حادث القتل، وما تبعه من تمثيلٍ شـنيعٍ بَشـعٍ بعمِّه، فتثير عنده حزازاتٍ بشـريَّة ربما لا يكون من المسـتطاع منعها، ومقاومتها إلا بشـيءٍ من العسر، والعنت الشَّـديد؛ ممَّا قد يُشْـغِلُ النَّبيَّ(ﷺ) ويُقْلِقُه[1]، فأشـار عليه(ﷺ) بأن يغيِّب وجهه حتَّى يفقد مصدر التَّذكير بتلك المصيبة[2]. في روايةٍ صحيحةٍ: قال وحشيٌّ: أتيتُ النَّبيَّ(ﷺ) ، فقال لي: «وحشيٌّ» قلت: نعم، قال: «قتلت حمزة؟»، قلت: نعم، الحمد لله الَّذي أكرمه بيدي، ولم يهنِّي بيده، فقالت له قريش: أتحبُّه؛ وهو قاتل حمزة. فقلت: يا رسـول الله! فاسـتغفر لي، فتفل رسـول الله(ﷺ) في الأرض ثلاثةً، ودفع صـدري ثلاثةً، وقال: «وحشـيٌّ، اخرج فقاتلْ في سـبيل الله، كما قاتلت لِتَصُـدَّ عن سـبيل الله» [الطبراني في الكبير (139/22)، ومجمع الزوائد (127/6)].

فهذا من التَّوجيه الإرشـاديِّ النَّبويِّ إلى مكفِّرات ما سـلف من الكفر، ومحادَّة الله تعالى ورسـوله(ﷺ) ، وذكرُ القتال في سـبيل الله بيانٌ للأمر الأنسـب في التَّكفير، وفيه حضٌّ من النَّبيِّ(ﷺ) لإعلاء راية الجهاد، ولعلَّ مخرجَ وحشـيٍّ إلى اليمامة، وقتله مسيلمةَ الكذَّاب كان أثراً

---

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (603/3).

(2) انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (141/5).

من آثار توجيه النَّبيِّ(ﷺ) إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ[1]الذُّنوب، ويطهِّر الاثام.

وقد أدرك وحشيٌّ ذلك، فقال حين قتل مسيلمةَ الكذَّاب: قتلتُ خير النَّاس - يعني: سيِّد الشُّهداء حمزةَ بنَ عبد المطَّلب -، وقتلتُ شرَّ النَّاس مسيلمةَ الكذَّاب[2].

ب - مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خبَّاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله(ﷺ) ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرُنا على الله؛ فَمِنَّا مَنْ مضى في سبيله، ولم يأكل مِنْ أجره شيئاً، منهم مصعبُ بن عمير قُتل يوم أُحدٍ، ولم يترك إلا نَمِرَةً، فكنَّا إذا غطَّينا رأسه؛ بدت رجلاه، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسُه، فقال رسولُ الله(ﷺ) : «غطُّوا رأسَه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[3]، ومنا من أينعت له ثمرتُه، فهو يَهْدِبُها[4]. [البخاري (1276) و(3897)].

ومن حديث عبد الرَّحمن بن عوف أنَّه أُتي بطعامٍ، وكان صائماً، فقال: قُتل مصعب بن عمير، وكان خيراً منِّي، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ، وقتل حمزة - أو رجلٌ آخر - خيرٌ منِّي، فلم يُوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ، لقد خَشِيتُ أن يكون قد عُجِّلت لنا طيِّباتُنا في حياتنا الدُّنيا، ثمَّ جعل يبكي حتَّى ترك الطَّعام [البخاري (1274)، و(1275)، و(4045)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله(ﷺ) حين انصرف من أُحدٍ، مرَّ على مصعب بن عمير ؛ وهو مقتولٌ على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثمَّ قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 23]، ثمَّ قال رسول الله(ﷺ) : «أشهد: أنَّ هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فائتوهم، وزوروهم، والَّذي نفسي بيده، لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة، إلا

---

(1) يحتُّ: يسقط.

(2) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (602/3) ، والبخاري ، رقم (4072) جملة: «لعلِّي أقتله فأكافأى به حمزة» وشرحها في الفتح.

(3) الإذخر: نوع من العشب.

(4) أينعت: أي نضجت. يهدبها: أي: يجتنيها.

ردُّوا عليه» **[الحاكم (200/3)، والبيهقي في الدلائل (284/3)]**.

ج - سعد بن الرَّبيع رضي الله عنه:

هذا هو الَّذي اسْتَــــكْتَمَهُ رسولُ الله(ﷺ) خبرَ مسير قريشٍ، وكان رسول الله(ﷺ) يحبُّه، فلـــمَّا انتهت معركة أُحدٍ؛ قال رسول الله(ﷺ) : «مَنْ رجلٌ ينظرُ ما فعل سعدُ بن الرَّبيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟» لأنَّ النَّبيَّ(ﷺ) قد رأى الأسِنَّة أشرِعَتْ إليه، فقال أُبيُّ بن كعب رضـــي الله عنه: أنا أنظره لك يا رســـول الله! فقال له: «إن رأيتَ ســـعد بن الرَّبيع، فأقرئه منِّي السَّلام، وقل له: يقول لك رسول الله(ﷺ) : كيف تجدُك؟» فنظر أُبَيٌّ، فوجده جريحاً به رَمَقٌ.

فقال له: إنَّ رســـول الله(ﷺ) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت، أم في الأموات، فقال: قد طُعِنْتُ اثنتي عَشرةَ طعنةً، وقد أنفذت إلى مقاتلي[1]. وفي روايةٍ صحيحةٍ قال: على رسول الله، وعليك السَّـلام، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنَّة، وقل لقومي الأنصـار: لا عذر لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى رســـول الله(ﷺ) ؛ وفيكم عينٌ تطرُف[2]، قال: وفاضـــت نفسُـــه رحمه الله. **[الحاكم (201/3)، والبيهقي في الدلائل (285/3)]**[3]! وهذا نُصْـحٌ لله، ورســولِه(ﷺ) في ســكرات الموت يدلُّ على قوَّة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة، لم يتأثر بالموت ولا الام القروح.

د - عبد الله بن جحشٍ رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: إنَّ عبد الله بن جحشٍ قال له يوم أُحدٍ: ألا تدعو الله، فَخَلَوْا في ناحيةٍ، فدعا سـعدٌ، فقال: يا ربِّ! إذا لقيتُ العدوَّ، فَلَقِّني رجلاً شـديداً بأسُـه، شـديداً حردُه، أقاتلُه، ويقاتلني، ثمَّ ارزقني الظَّفَرَ عليه حتَّى أقتلَه، واخذَ سَـلَبَهُ، فأمَّن عبد الله بن جحشٍ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ ارزقني رجلاً شـــديداً حردُه، شـــديداً بأسُـــه، أقاتله فيك ويقاتلُني، ثمَّ يأخذُني، فَيَجْدَعُ أنفي، وأذني، فإذا لقيتُك غداً، قلتَ: من جَدَعَ أنفَك، وأذنَك؟ فأقول: فيك،

---

(1) انظر: السّيرة الحلبيَّة (532/2).
(2) سيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في اثار المشركين).
(3) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 294.

وفي رسولك، فتقول: صدقتَ. قال سعد: يا بنيَّ، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيتُه آخر النَّهار وإنَّ أنفه، وأذنه لمعلَّقان في خيطٍ[1]. وفي هذا الخبر جواز دعاء الرَّجل أن يُقتل في سبيل الله، وتمنِّيه ذلك، وليس هذا من تمنِّي الموت المنهيِّ عنه[2].

هـ حنظلةُ بن أبي عامرٍ رضي الله عنه (غَسِيل الملائكة):

لـمَّا انكشف المشركون؛ ضرب حنظلةُ فرسَ أبي سفيان بن حربٍ، فوقع على الأرض، فصاح وحنظلةُ يريد ذبحه، فأدركه شدَّاد بن الأسود، ويقال له: ابن شَعوب، فحمل على حنظلةَ بالرُّمح، فأنفذه، ومشى إليه حنظلة بالرُّمح وقد أثبته، ثمَّ ضرب الثَّانية فقتله، فذُكِر ذلك لرسول الله(ﷺ) فقال: «إنِّي رأيت الملائكة تغسِّله بين السَّماء والأرض بماء المزْن، في صِحَافِ الفضَّة» فقال رسول الله(ﷺ) : «فاسألوا أهلَه ما شأنُه؟» فسألوا صاحبته عنه، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[3]، فقال رسول الله(ﷺ) : «فلذلك غَسَّلَتْهُ الملائكة» **[الحاكم (204/3 – 205)، والبيهقي في السنن الكبرى (15/4)، والطبراني الكبير (12094)، ومجمع الزوائد (23/3)]**[4].

وفي رواية الواقديّ: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوَّج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأُدخلت عليه في اللَّيلة الَّتي في صبحها قتال أُحدٍ، وكان قد استأذن رسولَ الله(ﷺ) أن يبيتَ عندها، فأذن له، فلـمَّا صلَّى بالصَّبح غدا يريد رسولَ الله(ﷺ) ، ولزمته جميلةُ فعاد، فكان معها، فأجنب منها، ثمَّ أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعةٍ من قومها فأشهدتهم أنَّه قد دخل بها، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيت كأنَّ السَّماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة، ثمَّ أُطبقت، فقلت: هذه الشَّهادة، فأشهدْتُ عليه: أنَّه قد دخل بي. وتَعْلَقُ بعبد الله بن حنظلة، ثمَّ تزوَّجها ثابت بن قيس بعدُ، فولدت له محمَّد بن ثابت بن قيس[5].

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 293.

(2) انظر: زاد المعاد (212/3).

(3) أي: سمع منادي رسول الله صلى الله عليه وسلميدعو للخروج لملاقاة العدو.

(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 289 ، وسيرة ابن هشام (حنظلة غسيل الملائكة) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (1346).

(5) انظر: المغازي ، للواقديّ (273/1).

وفي هذا الخبر مواقفُ، وعبرٌ؛ منها:

1 - في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أُبي، بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرُّؤيا الَّتي فسَّرتها بالشَّهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتَّى لا تحمل منه، فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب، لكنَّها تعلَّقت به رجاءَ أن تحمل منه، فتلد ولداً ينسب لذلك الشَّهيد، الَّذي بلغ درجاتٍ عليا في الصَّلاح أولاً، ثمَّ بما ترجوه من نيله الشَّهادة. ولقد حصل لها ما أمَّلت به، فحملت منه، وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله، وكان له ذِكْرٌ بعد ذلك، وكان مِنْ أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابنُ غَسِيْلِ الملائكة.

2 - حَرَصَ حنظلةُ القويُّ على مقارعة أعداء الله، الَّذي يتمثَّل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكَّن معه من غسل الجنابة.

3 - شجاعتُه الفائقة الَّتي تظهر في تصدِّيه لقائد المشركين، أبي سفيان بن حرب، والقائد غالباً يكون حوله مَنْ يحميه، وهو فارسٌ، وحنظلة راجلٌ.

4 - تشريفٌ ربانيٌّ كريمٌ، في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه الْمُزْن في صحاف الفضَّة.

5 - معجزةٌ نبويَّةٌ في إخبار الصَّحابة عمَّا قامت به الملائكة مِنْ تغسيلٍ؛ حيث رأى (صلى الله عليه وسلم) الملائكة وهي تغسل، ولم يرَ الصَّحابةُ ذلك[1].

6 - إذا كان الشَّهيد جنباً غُسِّل، كما غسلت الملائكةُ حنظلةَ بن أبي عامر[2].

و - عبد الله بن عمرو بن حَرَامٍ رضي الله عنه:

أصرَّ عبدُ الله بن عمرو بن حرامٍ على الخروج في غزوة أُحدٍ، فخاطب ابنه جابراً بقوله: يا جابرُ! لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتَّى تعلم إلى ما يصيرُ أمرُنا، فإنِّي والله لولا أنِّي أترك

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (129/5 . 130).
(2) انظر: زاد المعاد (214/3).

بنات لي بعدي؛ لأحببتُ أن تُقْتلَ بين يديَّ. [أحمد (397/3 – 398)، ومجمع الزوائد (135/4)].

وقال لابنه أيضـاً: ما أراني إلا مقتولاً في أوّل من يُقْتَلُ من أصـحاب النَّبيّ(ﷺ) ، وإنِّي لا أتركُ بعدي أعَزَّ عليَّ منك؛ غيرَ نفسِ رسـول الله(ﷺ) ، وإنَّ عليَّ ديناً فاقضِ، واسـتوصِ بإخوتك خيراً [البخاري (1351)].

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشَّهادة في سبيل الله، فقد قُتل في معركة أُحدٍ، وهذا جابرُ يحدِّثنا عن ذلك ، حيث يقول: لـمَّا قُتل أبي يوم أحدٍ ، جعلتُ أكشفُ عن وجهه ، وأبكي ، وجعل أصحابُ رسول الله(ﷺ) ينهونني وهو لا ينهاني، وجَعَلَتْ عمَّتي تبكيه، فقال النَّبيُّ(ﷺ): «تبكين، أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتَّى رَفَعْتُموه» [البخاري (1244)، ومسلم (130/2471)].

وقال رسول الله(ﷺ) : «يا جابر! مالي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله، استشهد أبي، وترك عيالاً، ودَيناً. قال(ﷺ) : «أفلا أبشـرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسـول الله! قال(ﷺ) : «ما كَلَّمَ اللهُ أحداً قطُّ إلاَّ من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحاً[1]. يا جابر! أما علمت أنَّ الله أحيا أباك، فقال: يا عبدي! تمنَّ عليَّ أُعطِك. قال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانيةً. فقال الرَّبُّ سبحانه: إنَّه سبق منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعون. قال: يا رب! فأبلغ مَنْ ورائي» [الترمذي (3010)، وابن ماجه (190) و(2800)][2]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169].

وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤيا في منامه قبل أحد؛ قال: رأيت في النَّوم قبل أُحدٍ، مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيامٍ، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنَّة نَسْرَحُ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تُقْتَلْ يوم بدرٍ ؟ قال: بلى! ثمَّ أُحييتُ. فذكر ذلك لرسول الله(ﷺ)،

---

(1) كفاحاً: أي: مواجهةً.

(2) انظر: شرحه في الفتح ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.

فقال: «هـــــذه الشَّـهادة يا أبا جابر» ! **[الحاكم (204/3)، والبيهقي في الدلائل (249/3)]**[1] وقد تحقَّقت تلك الرُّؤيا بفضل الله ومَنِّهِ.

ز. خيثمة أبو سعد رضي الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد – وكان ابنه استشـهد مع رسول الله(ﷺ) يوم بدرٍ –: لقد أخطأتني وقعة بدرٍ، وكنت والله عليها حريصـــاً، حتَّى ســـاهمتُ ابني في الخروج، فخرج سَـــهْمُهُ، فرُزِقَ الشَّـــهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النَّوم في أحســـن صـــورةٍ، يســـرح في ثمار الجنَّة، وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنَّة، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رســـول الله أصبحت مشـتاقاً إلى مرافقته في الجنَّة، وقد كبِرَتْ سِـنِّي، ورَقَّ عظمي، وأحببتُ لقاء ربِّي، فادعُ الله يا رسـول الله! أن يرزقني الشَّـهادة، ومرافقة سـعدٍ في الجنَّة، فدعا له رسـول الله(ﷺ) بذلك، فقُتِل بأُحدٍ شهيداً. **[البيهقي في الدلائل (249/3)]**[2].

ح – وهب المزنيُّ، وابن أخيه رضي الله عنهما:

أقبل وهب بن قابوس المزنيُّ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقبة بن قابوس بغنمٍ لهما من جبل مُزَينة، فوجدا المدينة خلواً، فســـألا: أين النَّاس؟ فقالوا: بأُحدٍ؛ خرج رســـول الله(ﷺ) يقاتل المشـــركين من قريشٍ. فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجا حتَّى أتيا النَّبي(ﷺ) بأُحدٍ، فيجدان القوم يقتتلون، والدَّولة لرســـول الله(ﷺ) وأصـــحابه، فأغارا مع المســـلمين في النَّهْب، وجاءت الخيل مِنْ وراءهم، خـالـد بن الوليد وعكرمـة بن أبي جهـل، فـاختلطوا، فقـاتلا أشـــدَّ القتـال، فانفرقت فرقةٌ من المشركين، فقال رسول الله(ﷺ) : «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله! فقام فرماهم بالنَّبْل حتَّى انصرفوا، ثمَّ رجع.

فانفرقت فرقةٌ ثانيةٌ، فقال رسـول الله(ﷺ) : «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزنيُّ: أنا يا رسـول

---

(1) انظر: زاد المعاد (208/3).
(2) انظر: زاد المعاد (208/3).

الله! فقام فذبَّها بالسَّــــيف حتى ولَّوْا، ثمَّ رجع المزَنيُّ، ثمَّ طلعت كتيبةٌ ثالثة، فقـال: «مَنْ يقوم لهؤلاء؟» فقال المزنيُّ: أنا يا رسـول الله! فقال: «قم، وأبشـر بالجنَّة»، فقام المزنيُّ مسـروراً، يقول: والله لا أقيل، ولا أسـتقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضـرب بالسَّـيف، ورسـول الله(ﷺ) ينظر إلى المسلمين حتَّى خرج من أقصاهم، ورسول الله(ﷺ) يقول: «اللّهم ارحمه!» ثمَّ يرجع فيهم فما زال كذلك، وهم مُحدقون به، حتَّى اشـتملت عليه أسـيافهم، ورماحهم، فقتلوه، فوُجد به يومئذ عشـرون طعنةً برمح، كلُّها قد خلصــت إلى مقتلٍ، ومُثِّلَ به أقبح مُثلةٍ يومئذٍ، ثمَّ قام ابن أخيه، فقاتل قتاله حتَّى قتل، فكان عمر بن الخطَّاب يقول: إنّ أحبَّ ميتةٍ أموت لمِا مات عليها المزنيُّ. [المغازي للواقدي (275/1)].

وكان بلال بن الحارث المزنيُّ يُحدِّث، يقول: شهدنا القادسيَّة مع سعد بن أبي وقَّاص، فلـمَّا فتح اللهُ علينا، وقُســمت بيننا غنائمنا، فأُسْـقِطَ فتىً من ال قابوس من مُزينة[1]، فجئت سـعداً حين فرغ من نومه، فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحباً بك، مَنْ هذا معك؟ قلت: رجلٌ من قومي مِنْ ال قابوس. قال ســـعد: ما أنت يا فتى من المزني الَّذي قُتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً، وأهلاً، وأنْعَمَ الله بك عَيْناً، ذلك الرَّجل شهدتُ منه يوم أُحد مشـهداً ما شـــهدتُه من أحدٍ، لقد رأيتنا وقد أحدق المشــركون بنا من كلِّ ناحيةٍ، ورســولُ الله(ﷺ) وسطنا، والكتائب تطلع من كلِّ ناحيةٍ، وإنَّ رسول الله(ﷺ) ليرمي ببصره في النَّاس يتوسَّمُهم[2] يقول: «من لهذه الكتيبة؟» كلُّ ذلك يقول المزنيُّ: أنا يا رسـول الله! كلُّ ذلك يردُّه، فما أنسـى آخر مرَّةٍ قامها، فقال رسول الله(ﷺ) : «قم وأبشر بالجنَّة!» قال سعد: وقمت على أثره، يعلم الله أنِّي أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشَّــهادة ، فخضـنا حَوْمتهم حتَّى رجعنا فيهم الثَّانية ، وأصـابوه – رحمه الله ! – ووَدِدْتُ والله أنِّي كنت أُصـبتُ يومئذٍ معه، ولكنَّ أجَلِي اسـتأخر، ثمَّ دعا سـعد من سـاعته بسـهمه، فأعطاه، وفضَّـله، وقال: اختر في المقام عندنا، أو الرُّجوع إلى

(1) انظر: المغازي ، للواقديّ (277/1).
(2) المصدر السابق نفسه.

أهلك، فقال بلال: إنَّه يستحبُّ الرُّجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيتُ رسول الله(ﷺ) واقفاً عليه؛ وهو مقتولٌ، وهو يقول: «رضي الله عنك فإنِّي عنك راضٍ»، ثمَّ رأيتُ رسولَ الله(ﷺ) قام على قدميه وقد نال النَّبيَّ(ﷺ) من الجراح ما ناله، وإنِّي لأعلم أنَّ القيام ليشــقُّ عليه على قبره حتى وُضــع في لحده، وعليه بُرْدَةٌ لها أعلام خضــر، فمدَّ رســول الله(ﷺ) البُردة على رأســه، فخمَّره، وأدرجه فيها طولاً، وبلغت نصــف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحَرْمَل، فجعلناه على رجليه؛ وهو في لحده، ثمَّ انصرف. فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزَنيِّ»[1].

وهكذا يفعل الإيمان بأصــــحابه، فهذا وَهْبُ المزنيُّ، وابن أخيه، تركوا الأغنام بالمدينة، والتحقوا بصفوف المسلمين، وحرصوا على نيل الشَّهادة، فأكرمهم الله بها، وقد كانت تلـــك الملحمة الَّتي ســطَّرها المزنيُّ محفورةً في ذاكرة الصَّــحابة، فهذا ســعد بن أبي وقَّاص يتذكَّرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أُحدٍ، لمجرَّد سماع اسم رجل من عشيرة المزنيِّ، ويتمنَّى أن يموت، ويلقى الله على مثل حالة المزنيِّ.

ط – عمرو بن الجَمُوح رضي الله عنه:

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه أعرجَ شديدَ العرج، وكان له بنونَ أربعةٌ مثل الأُسد[2]، يشهدون مع رسول الله(ﷺ) المشاهد، وهم: خلاَّد، ومُعوَّذ، ومُعاذ، وأبو أيمن، فلـــمَّا كان يوم أُحد أرادوا حَبْسَــهُ، وقالوا: إنَّ الله – عزَّ وجلَّ – قد عذرك، فأتى رســولَ الله(ﷺ) ، فقال: إنَّ بَنِيَّ يريدون أن يحبســـوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فو الله! إنِّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنَّة. فقال له رســول الله(ﷺ) : «أمَّا أنت فقد عذرك الله تعالى، فلا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «ما عليكم ألاَّ تمنعوه، لعلَّ الله أن يرزقه الشَّـــهادة» فخرج؛ وهو يقول مســـتقبل

---

(1) انظر: المغازي ، للواقديّ (277/1).

(2) الأُسد: جمع أسد.

القبلة: اللهم! لا تردَّني إلى أهلي خائباً. فقُتل شهيداً رضي الله عنه.

وفي رواية: أتى عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى رسول الله(ﷺ) ، فقال: يا رسولَ الله! أرأيتَ إنْ قاتلت في سبيل الله حتَّى أُقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنَّة - وكانت رجله عرجاء -؟ فقال رسول الله(ﷺ) : «نعم»، فقتلوه يوم أُحد هو، وابـــن أخيه، ومولى لهما، فمرَّ بهم رسـولُ الله(ﷺ) ، فجُعلُوا في قبرٍ واحد **[أحمد (299/5)، والبيهقي في الدلائل (246/3)، والواقدي في المغازي (264/1)، وابن هشام (96/3)، ومجمع الزوائد (315/9)]**.

وفي هذا الخبر، دليلٌ على أنَّ مَنْ عذره الله في التَّخلُّف عن الجهاد لمرضٍ، أو عَرَج يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوح؛ وهو أعرج[1].

وفيه دليلٌ على شجاعة عمرو بن الجَمُوح، ورغبته في نيل الشَّهادة، وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

ي - أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش رضي الله عنهم:

لــــمَّا خرج رسـول الله(ﷺ) إلى أُحدٍ، رُفع حُسَـيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة ابن اليمان، وثابت بن وَقش في الاطام[2]، مع النِّســاء، والصِّـبيان، فقال أحدُهما لصــاحبه - وهما شــيخان كبيران -: لا أبا لك! ما تنتظر؟ فو الله ما بقي لواحدٍ منَّا من عمره إلا ظِمء[3] حمارٍ، إنَّما نحن هامةُ اليوم، أو غد[4]، أفلا نأخذ أسـيافنا، ثمَّ نلحق برسـول الله(ﷺ) ، لعلَّ الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله(ﷺ) ؟!

فأخذا أســيافهما، ثمَّ خرجا حتَّى دخلا في النَّاس ولم يُعلم بهما، فأمَّا ثابت بن وقش؛ فقتله المشـركون، وأمَّا حُسَـيل بن جابرٍ فاختلفت عليه أسـيافُ المسـلمين، فقتلوه، ولا يعرفونه، فقال

---

(1) انظر: زاد المعاد (218/3).
(2) الاطام: الحصون.
(3) ظمء حمار: أي: مقدار ما بين شربتي حمارٍ.
(4) أي: نموت اليوم أو غداً.

حذيفة: أبي! فقالوا: والله إن عرفناه، وصـدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم، وهو أرحم الرَّاحمين، فأراد رسـول الله(ﷺ) أن يَديَهُ، فتصـدَّق حذيفةُ بديته على المسـلمين، فزاده ذلك عند رسـول الله(ﷺ) خيراً. [سبق تخريجه][1].

وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشُّـيوخ الكبار؛ الَّذين عذرهم الله في الجهاد، وكيف ترَكُوا الحصون، وخرجوا إلى ساحات الوَغى طلباً للشَّهادة، وحباً، وشوقاً للقاء الله تعالى، وفيه موقفٌ عظيم لحذيفة؛ حيث تصـدَّق بدية والده على المسـلمين، ودعا لهم بالمغفرة؛ لكونهم قتلوا والده خطأً، وفيه أيضـاً: أنَّ المسـلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنُّونه كافراً؛ فعلى الإمام دِيَتُه من بيت المال؛ لأنَّ رسول الله(ﷺ) أراد أن يَدِيَ اليمان أبا حذيفة، فامتنع من أخذ الدِّية، وتصدَّق بها على المسلمين[2].

ك – الأمور بخواتيمها:

إنَّ الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أُحدٍ ما يحقِّق هذه القاعدة المهمَّة في هذا الدِّين، فقد وقع حادثان يؤكِّدان هذا الأمر، وفيهما عظةٌ، وعبرةٌ لكلِّ مسلمٍ متَّعظٍ، ومعتبرٍ[3]، وهما:

1 – شأن الأُصَيْرِم رضي الله عنه:

واسمه عمرو بن ثابت بن وَقش، عُرض عليه الإسـلام، فلم يُسـلِم، وروى قصَّـته أبو هريرة رضي الله عنه، قال: إنَّ الأُصَيْرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يومٍ ورسولُ الله(ﷺ)، وأصـحابه بأُحدٍ، فقال: أين سـعدُ بن معاذ؟ فقيل: بأُحدٍ، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحدٍ. فسـأل عن قومه، فقيل: بأُحدٍ، فبدا له الإسـلام، فأسـلم، وأخذ سـيفه، ورمحه، وأخذ لأمَتَهُ، وركب فرسه، فعدا حتَّى دخل في عُرْض النَّاس، فلـمَّا رآه المسلمون؛ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إنِّي قد امنت. فقاتل حتَّى أثخنته الجراح، فبينما رجالٌ من بني عبد الأشـهل يلتمسـون

(1) سيرة ابن هشام (مقتل اليمان وابن وقش).
(2) انظر: زاد المعاد (218/3).
(3) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص 117.

قتلاهم في المعركة؛ إذا هم به، فقالوا: والله إنَّ هذا للأُصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنَّــه مُنكرٌ لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك ؟ أحدَبٌ على قومك، أم رغبةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبةً في الإسـلام، امنت بالله تعالى ورسـوله(ﷺ) ، وأسـلمت، ثمَّ أخذت سـيفي فغدوتُ مع رسـول الله(ﷺ) ، ثمَّ قاتلتُ حتَّى أصـابني ما أصـابني، وإن متُّ فأموالي إلى محمَّد يضـعها حيث شـاء، فـذكروه لرســـول الله(ﷺ) فقـال: إنَّه من أهل الجنَّة. [ابن هشـــام (95/3)، والبيهقي في الدلائل (247/3)].

وقيل: مات، فدخل الجنة، وما صــلَّى من صــلاةٍ، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «عَمِلَ يســيراً وأُجرَ كثيراً» [البخاري (2808)، ومسلم (1900)].

وكان أبو هريرة رضــي الله عنه يقول: حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة، ولم يُصــلِّ قطُّ! فإذا لم يعرفه النَّاس؛ سألوه مَنْ هو؟ قال: هو أُصَيرِم بن عبد الأشهل[1].

2 – شأن مُخَيْرِيق:

لـمَّا كانت غزوة أُحدٍ، وخرج رسول الله(ﷺ) يقاتل المشركين، جمع مُخَيْرِيقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشـرَ يهود! والله! لقد علمتم أنَّ نصـر محمدٍ عليكم لحقٌّ. قالوا: إنَّ اليوم يوم السَّبت، قال: لا سبت لكم!

فأخذ سيفه، وعُدَّتَــهُ، وقال: إن أُصِبْتُ فمالي لمحمَّدٍ يَصْنَعُ فيه ما شاء. ثمَّ غدا إلى رسول الله(ﷺ) ، فقاتل معه حتى قُتِل، فقال رســـول الله(ﷺ) : «مُخَيْرِيق خيرُ يهود» [ابن ســـعد (501/1)، وأبو نعيم في الدلائل (ص 18)، والطبري في تاريخه (531/2)، والواقدي في المغازي (263/1)].

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذَّهبيُّ في التَّجريد، وابن حجر في الإصابة عن الواقديّ[2]: أنَّ مخيريق مات مسـلماً. وذكر السُّـهيليُّ في الرَّوض الأُنف: أنَّه مسـلمٌ، وذلك حين قال معقِّباً

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (100/3 . 101) ، وانظر: فتح الباري في شرح حديث رقم (2808).

(2) انظر: تجريد أسماء الصَّحابة (70/2) ، والإصابة (393/3).

على رواية ابن إسحاق عن رسول الله(ﷺ) : أنَّه قال: «مُخَيْرِيق خير يهود» قال: ومُخَيْرِيق مسلمٌ، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النَّصارى، ولا خير اليهود؛ لأنَّ أفعل من كذا إذا أضيف، فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنَّه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنَّهم نُسبوا إلى يهوذا بن عقوب، ثمَّ عربت الذَّال دالاً[1]، وقد حقَّق هذه المسألة الدُّكتور عبد الله الشقاري في كتابه: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» وذهب إلى أنَّ مُخَيْرِيق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدُّق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حبِّ المال، والتَّكالب عليه[2].

ل – إنما الأعمال بالنِّيَّات:

كان ممَّن قاتل مع المسلمين يوم أُحدٍ رجلٌ يدعى قُزْمَان، كان يُعرف بالشَّجاعة، وكان رسول الله(ﷺ) يقول إذا ذُكر له: «إنَّه لمن أهل النار»، فتأخَّر يوم أُحدٍ، فعيَّرته نساء بني ظَفَر، فأتى رسولَ الله(ﷺ) وهو يسوِّي الصفوف، حتَّى انتهى إلى الصفِّ الأوَّل، فكان أوَّل من رمى من المسلمين بسهمٍ، فجعل يرسل نبلاً كأنَّها الرِّماح، ويكتُّ كتيت الجمل، ثمَّ فعل بالسَّيف الأفاعيل، حتَّى قتل سبعةً، أو تسعةً، وأصابته جِرَاحَةٌ، فوقع، فناداه قتادة بن النُّعمان: يا أبا الغَيْداق! هنيئاً لك الشَّهادة! وجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله! لقد أبليتَ اليوم يا قُزْمَان، فأبشر! قال: بماذا؟ فوالله ما قَاتلتُ إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ. فذُكِرَ ذلك لرسول الله(ﷺ) فقال: «إنَّه من أهل النَّار، إنَّ الله تعالى يؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر» **[البخاري (4203)، ومسلم (111، 112)]**[3].

وفي هذا الخبر، بيانٌ لمكان النِّيَّة في الجهاد، وأنَّه مَنْ قاتل حميَّةً عن قومه، أو ليقال: شجاعٌ، ولم تكن أعماله لله تعالى؛ لا يقبل الله منه.

(1) انظر: الرَّوض الأُنف ، للسُّهيليِّ (4/408 . 409).
(2) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (1/306).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (3/99) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 113.

خامساً: من دلائل النُّبوَّة:

1 – عين قتادة بن النُّعمان رضي الله عنه:

أُصيبت عينُ قتادة رضي الله عنه حتَّى سقطت على وَجْنَتِهِ، فردَّها رسولُ الله(ﷺ) بيده، فكانت أحسن عينيه، وأحَدَّهُما. [الحاكم (295/3)، والطبراني في الكبير (8/19)، والبيهقي في الدلائل (251/3 – 252)، ومجمع الزوائد (113/6)]. وأصبحت لا ترْمَد إذا رمدت الأخرى[1]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز – رحمه الله –، فسأله: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنا ابْنُ الَّذي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَيْنُهُ ... فَرُدَّتْ بكَفِّ المصْطَفى أَحْسَنَ الرَّدِّ

فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ أَمْرِهَا ... فَيَا حُسْنَهَا عَيْناً وَيَا حُسْنَ ما رَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تِلْكَ المكَارِمُ لا قَعْبَانِ[2] مِنْ لَبَنٍ ... شِيْبا بمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

ثمَّ وصله، فأحسن جائزته[3].

2 – مقتل أُبيِّ بن خلف:

كان أُبَيُّ بن خلف يَلْقى رسولَ الله(ﷺ) بمكَّة، فيقول: يا محمد! إنَّ عندي العَوْذ؛ فرساً أعْلِفُه كلَّ يوم فَرَقاً[4] من ذُرَةٍ، أقتلك عليه، فيقول رسول الله(ﷺ) : «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلمَّا كان يوم أُحد، وأُسند رسولُ الله(ﷺ) في الشِّعْب؛ أدركه أُبَيُّ بن خلف، وهو يقول: أي محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله! أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟ فقال رسول الله(ﷺ) : «دَعُوه»، فلمَّا دنا، تناول رسولُ الله(ﷺ) الحَرْبَةَ من الحارث بن الصِّمَّة، فلمَّا أخذها رسولُ الله(ﷺ) منه انتفض بها انتفاضة تطايَرنا عنه تطايرَ الشَّعراء[5] عن ظهر البعير إذا

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (388/2)، وسيرة ابن هشام (بلاء قتادة وحديث عينه).

(2) القعب: قدحٌ ضخمٌ غليظٌ.

(3) انظر: البداية والنِّهاية (35/4)، وأسد الغابة (389/4).

(4) الفرق: مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مُدّاً.

(5) الشَّعراء: ذباب له لدغ، واللَّدغ: عَضُّ الحيَّة، والعقرب، والذُّباب.

انتفض بها، ثمَّ استقبله، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ[1] منها عن فرسه مراراً، فلـمَّا رجع إلى قريش وقد خَدَشَـــهُ في عنقه خَدشـــاً غير كبيرٍ، فاحتقَنَ الدَّم، قال: قتلني والله محمدٌ! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك من بأسٍ، قال: إنَّه قد كان قال لي بمكَّة: أنا أقتلُك، فو الله! لو بَصَق عليَّ؛ لقتلني، فمات عدوُّ الله بسَـــرفٍ[2] وهم قافلون به إلى مكَّة. **[الطبري في تاريخه (2/518 – 519)، والواقدي في المغازي (1/251)، وابن سعد (2/46)، والبيهقي في الدلائل (3/211 و258)]**[3].

وفي هذا الخبر مَثَلٌ رفيعٌ على شـــجاعة رســول الله(ﷺ) ، فقد كان أُبي بن خلف مُدَجَّجاً بالسِّــلاح، ومتدرّعاً بالحديد الواقي، ومع ذلك اســتطاع رســولُ الله(ﷺ) أن يطعنه بالرُّمح من فُرْجَةٍ صغيرة في عنقه بين الدّرْع، والبيضة، وهذا يدلُّ على قدرة رسول الله(ﷺ) القتاليَّة، ودقَّته في إصابة الهدف. وفي هذا الخبر معجزةٌ للنَّبيِّ(ﷺ) ، فقد أخبر أُبَيّاً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله، وتمَّ ذلك، وفي الخبر عبرةٌ في إيمان المشـركين بصـدق النَّبيّ(ﷺ) ، وأنه إذا قال شـيئاً؛ وقع، فقد كان أُبيٌّ بن خلف على يقينٍ بأنَّه سـيموت من تلك الطَّعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإســلام لعنادهم، وعبادة أهوائهم[4].

وقد خلَّد حسَّانُ بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لَقَدْ وَرِثَ الضَّـــلاَلَةَ عَنْ أَبِيْهِ ... أُبَيٌّ يَـوْمَ بَارَزَهُ الـرَّسُــــولُ
أتيْـتَ إِلَيْـهِ تَحْمِـلُ رِمَّ عَظْمٍ ... وَتُوْعِـدُهُ وَأَنْـتَ بِـهِ جَهُوْلُ[5]

* * *

(1) تدأدأ: تقلَّب عن فرسه ، فجعل يتدحرج.
(2) سرف: موضع على ستة أميال من مكَّة.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (3/93 ـ 94).
(4) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديّ (5/169). قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ 33].
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (3/94).

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسول(ﷺ) وأصحابه:

قال البَراءُ رضـــي الله عنه: وأشـــرفَ أبو ســـفيان، فقال: أفي القوم محمَّدٌ؟ فقال رســـولُ الله(ﷺ): «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحَافَةَ؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابنُ الخطَّاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء القوم قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا فلم يملك عمرُ رضـــي الله عنه نفسَـــه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ الله! أبقى اللهُ عليك ما يُخزيك. قال أبو ســـفيان: اعْلُ هُبَلُ[1]! فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلُّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى. ولا عُزَّى لكم. فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «اللهُ مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو ســـفيان: يومٌ بيوم بدر، والحرب سِـــجَالٌ، وتجدون مُثلةً لم امُرْ بها، ولم تَسُؤْني. **[البخاري (4043)، والبيهقي في الدلائل (268/3)]**[2] وفي روايةٍ: قال عمر: لا سواء! قتلانا في الجنَّة، وقتلاكم في النَّار». **[أحمد (463/1)(3)، ومجمع الزوائد (110/6)]**.

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله(ﷺ) ، وأبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما دلالةٌ واضـــحةٌ على اهتمام المشـــركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنَّه في علمهم أنَّهم أهل الإســـلام، وبهم قام صَرْحُهُ، وأركان دولته، وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون: أنَّه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السُّـــكوت عن إجابة أبي ســـفيان أوَّلاً؛ تصـــغيراً له، حتَّى إذا انتشـــى، وملأه الكِبْر؛

---

(1) أُعلُ هُبَلُ: ظهر دينُك.

(2) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (392/2).

(3) انظر: السيرة النَّبويَّة الصحيحة (392/2) ، وسيرة ابن هشام (شماتة أبي سفيان بالمسلمين يوم أحد).

أخبروه بحقيقة الأمر، وردُّوا عليه بشجاعةٍ[1].

وفي هذا يقول ابن القيِّم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بالهته، وبشركه؛ تعظيماً للتَّوحيد، وإعلاماً بعزَّة من عَبَدَهُ المسلمون، وقوَّة جانبه، وأنَّه لا يُغْلَبُ، ونحن حزبُه، وجندُه، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمَّد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي: أنَّه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تجيبوه»؛ لأنَّ كلْمَهم لم يكن برد في طلب القوم، ونارُ غيظهم بعدُ متوقِّدةٌ، فلـمَّا قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُموهم؛ حمي عمر بن الخطَّاب، واشتد غضبه، وقال: كذبت يا عدوَّ الله! فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشَّجاعة، وعدم الجبن، والتَّعرُّف إلى العدوِّ في تلك الحال ما يؤذنهم بقوَّة القوم، وبسالتهم، وأنَّهم لم يهِنوا، ولم يَضْعُفُوا، وأنَّه، وقومَه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثَّلاثة وهلةٌ بعد ظنِّه، وظنِّ قومه: أنَّهم قد أُصيبوا من المصلحة، وغيظ العدوِّ، وحزبه، والفتِّ في عَضُده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً، واحداً، فكان سؤاله عنهم، ونعيُهم لقومه آخر سهام العدوِّ، وكيده، فصبر له النَّبيُّ(ﷺ) حتَّى استوفي كيده، ثمَّ انتدب له عمر، فردَّ بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً: فإنَّ في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانةً له، وتصغيراً لشأنه، فلـمَّا مَنَّتْهُ نفسهُ موتهم، وظنَّ: أنهم قد قُتلوا، وحصل له بذلك من الكبر، والأشر[2] ما حصل، كان في جوابه إهانةٌ له، وتحقيرٌ، وإذلالٌ، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النَّبيِّ(ﷺ) : «لا تجيبوه» فإنَّه إنَّما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمَّد؟ أفيكم فلان؟ ولم يَنْهَ عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، وبكلِّ حالٍ، فلا أحسنَ مِنْ ترك إجابته أولاً، ولا أحسنَ مِنْ إجابته ثانياً[3].

---

(1) المصدران السابقان.

(2) أشرَ أشَراً: بطرَ واستكبر ، فهو أشِرٌ.

(3) انظر: زاد المعاد (3/202 . 203).

ثانياً: تفقد الرَّسول(ﷺ) الشُّهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة، ذهب الرَّسول(ﷺ) ليتفقَّد أصحابه رضي الله عنهم، فمرَّ على بعضهم، ومنهم حمزةُ بن عبد المطَّلب، ومُصْعَب بن عُمَيرٍ، وحنظلةُ بن أبي عامرٍ، وسعد بن الرَّبيع، والأُصَيْرِمُ، وبقيَّة الصحابة رضي الله عنهم، فلــــمَّا أشرف عليهم رسول الله(ﷺ) قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما من جَرِيح يُجْرَح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ؛ اللَّونُ لونُ دمٍ، والرِّيح ريح المسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» [سبق تخريجه].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاريّ: إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) كان يجمع بين الرَّجلين من قَتْلَى أُحدٍ في ثوبٍ واحد، ثمَّ يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا أُشِــيرَ له إلى أَحدٍ؛ قدَّمه في اللَّحْدِ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم، ولم يُغَسَّلُوا . [البخاري (4079) ، وأبو داود (3138)، والترمذي (1036)، والنسائي (62/4)، وابن ماجه (1514)].

وأمر رســـولُ الله(ﷺ) أن يدفنوا حيثُ صُــرِعوا، وأُعيد مَنْ أُخذ؛ ليدفن داخل المدينة. [النسائي (79/4)].

ولـــمَّا رأى رسولُ الله(ﷺ) حمزةَ بن عبد المطلب وقد مُثِّل به؛ حزن حزناً شديداً، وبكى حتَّى نشغ[1] من البُكاء[2] وقال(ﷺ) : «لولا أن تحزن صفيَّة، ويكون سنةً من بعدي؛ لتركتُه حتَّى يكون في بطون السِّباع، وحواصل الطَّيـــر، ولئن أظهرني الله على قريشٍ في موطن من المواطن؛ لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم» فلـمَّا رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله(ﷺ) وغيظه على مَنْ فعل بعمِّه ما فعل، قالوا: والله! لئن أظفرنا الله عليهم يوماً من الدَّهر، لنمثلنَّ بهم مُثلَةً لم يُمَثِّلْهَا أحدٌ من العرب. [أحمد (128/3)، وأبو داود (3136)، والترمذي (1016)، والحاكم (196/3)، وابن أبي

---

(1) النَّشغ: الشَّهيق حتَّى يكاد يبلغ به الغشي.

(2) انظر: مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص 331.

شـــيبة (391/14 – 392)][1]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: 126].

لقد ارتكب المشـركون صـوراً من الوحشـيَّة، حيث قاموا بالتَّمثيل بقتلى المسـلمين، فبقروا بطون كثيرٍ من القتلى، وجَدَعُوا أنوفَهم، وقطعوا الاذان، ومذاكير بعضـهم[2]؛ ومع ذلك صَـبَرَ رسولُ الله(ﷺ) وأصحابه، واستجابوا لتوجيه المولى – عزَّ وجلَّ – فعفا، وصبر، وكَفَّر عن يمينه، ونهى عن المثْلَةِ. روى ابن إسحاق بسنده عن سَمُرة بن جُنْدب، قال: ما قام رسولُ الله(ﷺ) في مقامٍ قطُّ ففارقه، حتَّى يأمرنا بالصَّدقة، وينهانا عن المثْلَة. [ابن هشام (102/3)].

ثالثاً: دعاء الرَّسول(ﷺ) يوم أُحدٍ:

صلّى رسولُ الله(ﷺ) بأصحابه الظُّهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه، وصلَّى وراءه المسلمون قعوداً، وتوجَّه النَّبيُّ(ﷺ) بعد الصَّـلاة إلى الله بالدُّعاء، والثَّناء على ما نالهم من الجَهْد، والبلاء، فقال لأصحابه: «استووا حتَّى أُثني على ربِّي – عزَّ وجلَّ»، فصاروا خلفه صفوفاً، ثمَّ دعا بهذه الكلمات الدَّالة على عمق الإيمان[3]، فقال(ﷺ) : «اللَّهمَّ! لك الحمدُ كلُّه، اللَّهُمَّ لا قابضَ لِمَا بَسطتَ، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضلَلْتَ، ولا مُضِلَّ لمنْ هديت، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيتَ، ولا مُقَرِّب لما باعدْتَ، ولا مُبْعِد لما قرَّبْتَ.

اللَّهُمَّ! ابسـطْ علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضـلك، ورزقك. اللّهُمَّ! إنِّي أسـألك النَّعيم المقيم؛ الَّذي لا يَحُول، ولا يزول. اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم يوم الغلبة، والأمنَ يوم الخوف. اللَّهُمَّ! عائذٌ بك من شـرِّ ما أعطيتنا، وشـرِّ ما منعتنا. اللَّهُمَّ! حَبِّبْ إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق، والعصيان، واجعلنا من الرَّاشـدين. اللَّهُمَّ توفَّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصَّالحين غيرَ خزايا، ولا نادمين، ولا مفتونين. اللَّهُمَّ! قاتل الكفرة الَّذين يكذِّبون

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (106/3).

(2) انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص 104.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (210/2).

رُسُلَكَ، ويصدُّون عن سبيلك، واجعلْ عليهم رجزَك، وعذابك. اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الَّذين أوتوا الكتاب، إله الخَلْق» [أحمد (424/3)، والبزار (1800)، والطبراني في المعجم (4549)، والبخاري في الأدب المفرد (699)، ومجمع الزوائد (121/6 – 122)] ثُمَّ ركب فرسه، ورجع إلى المدينة.

وهذا أمرٌ عظيم، شرعه رسول الله(ﷺ) لأمَّته، لكي يطلبوا النَّصر، والتَّوفيق من ربِّ العالمين، وبيَّن لأمَّته: أنَّ الدُّعاء مطلوبٌ في ساعة النَّصر، والفتح، وفي ساعة الهزيمة؛ لأنَّ الدُّعاء مُخُّ العبادة، كما أنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلِّقة بخالقها، فينزل عليها السَّكينة، والثَّبات، والاطمئنان، ويمدُّها بقوَّةٍ رُوحيَّةٍ عظيمةٍ، فترتفع المعنويات نحو المعالي، وتتطلَّع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة، يتَّخذ النَّبيُّ(ﷺ) أُهْبَتَهُ، وينظِّم المسلمين صفوفاً، لكي يُثْنِيَ على ربِّه – عزَّ وجلَّ – إنَّه لموقفٌ عظيمٌ، يُجَلِّي إيماناً عميقاً، ويكشف عن العبودية المطلقة لربِّ العالمين الفعَّال لما يريد، فهو القابض، والباسط، والمعطي، والمانع، لا رادَّ، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه.

إنَّ هذا الموقف من أعظم مواقف العبوديَّة الَّتي تسمو بالعابدين، وتجلُّ المعبود كأعظم ما يكون الإجلال، والإكبار، وأبرز ما يكون الحَمْدُ والثَّناء[1].

رابعاً: معرفة وِجْهَةِ العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسولُ الله(ﷺ) عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتِّجاه العدوِّ، فقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ[2]، وامتطوا الإبل[3] [الواقدي في المغازي (298/1)، والطبري في تاريخه (527/2) ، والبيهقي في الدلائل (282/3)]؛ فإنَّهم يريدون مكَّة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة، والَّذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فيض الله ، ص 132 . 133.

(2) جنَّبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.

(3) امتطى الدَّابة: ركبها.

إليهم فيها، ثمَّ لأناجزنَّهم». قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظرُ ماذا يصـــنعون، فجَنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكَّة[1]، فرجع عليٌّ رضي الله عنه، وأخبر رسول الله(ﷺ) بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدَّة دروسٍ، وعبرٍ؛ منها: يقظة الرَّســـول(ﷺ) ، ومراقبتُه الدَّقيقة لتحرُّكات العدوِّ، وقدرته(ﷺ) على تقدير الأمور، وظهور قوَّته المعنويَّة العالية؛ ويظهر ذلك في اســتعداده لمقاتلة المشـــركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النَّبيِّ(ﷺ) بعليٍّ رضـــي الله عنه، ومعرفته بمعادن الرِّجال، وفيه شجاعة عليٍّ رضي الله عنه؛ لأنَّ هذا الجيش لو أبصره ما تورَّع عن محاولة قتله[2].

ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) أقـام في أرض المعركـة بعـد أن انتهـت؛ تفقَّـد خلالها الجرحى، والشُّهداء، وأمر بدفنهم، ودعا ربَّه، وأثنى عليه سبحانه، وأرسل عليّاً ليتتبَّع خبر القوم؛ كلُّ ذلك من أجل أن يحافظ على النَّصـر الذي أحرزه المســلمون في غزوة أُحُدٍ، وهذا من فقه ســنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد جعل ســبحانه من ســنته في خلقه أن جعل للنَّصـر أســباباً، وللهزيمة أسباباً، فمن أخذ بأسباب النَّصر، وصدق التَّوكُّل على الله – سبحانه وتعالى – حقيقة التوكُّل؛ نال النَّصـر بإذن الله – عزَّ وجل –، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُـــنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: 23].ويتجلَّى فقه النَّبيِّ(ﷺ) في ممارســـة ســـنَّة الأخذ بالأسباب، في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الرِّوايات: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه، حتَّى بعد رجوعهم إلى مكَّة، وبلغه مقالـــة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمَّد، وجنده، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لـــمَّا انصرف أبو سفيان والمشركون من أُحدٍ، وبلغوا الرَّوْحاء[3]، قال أبو سـفيان: لا محمَّداً قتلتُم، ولا الكواعب أردفتُم، شـرٌّ ما صـنعتم! فبلغ

(1) انظر: البداية والنِّهاية (41/4) ، وسيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في اثار القوم).
(2) انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص 95 . 96.
(3) الرَّوحاء: تبعد عن المدينة 73 كيلو متراً ، في طريق مكَّة.

ذلك رســـول الله(ﷺ) [الطبراني في المعجم الكبير (11632)، ومجمع الزوائد (121/6)]. وتفيد هذه الرِّواية خبر اســتطلاع الرَّســول(ﷺ) أعداءه حتَّى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئنَّ على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة، خرج بمن حضره يوم أُحُدٍ من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحُد يوم السَّبت للنِّصف مِنْ شوَّال، فلـــمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلةً مضت من شوَّال؛ أذَّن مؤذنُ رسولِ الله(ﷺ) في النَّاس بطلب العدوِّ، وأذَّن مؤذِّنه ألاَّ يخرجنَّ معنا أحَدٌ إلا مَنْ حضـــر يومنا بالأمس، فاســتأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه، فأذن له، وإنَّما خرج مُرْهِباً للعدوِّ، وليظنُّوا أنَّ الذي أصـــابهم لم يوهنهم عن طلب عدوِّهم. [ابن هشام (107/3)، والبيهقي في الدلائل (314/3)][1]. وقد استجاب أصحاب النَّبيِّ(ﷺ) لنداء الجهاد، حتَّى الَّذين أُصيبوا بالجروح؛ فهذا رجلٌ من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أُحُداً أنا، وأخٌ لي، فرجعنا جريحَين، فلما أذَّن مؤذِّن رســـول الله(ﷺ) بالخروج في طلب العدوِّ؛ قلت لأخي – أو قال لي –: أتفوتُنا غزوةٌ مع رســول الله(ﷺ) ؟ والله ما لنا من دابةٍ نَرْكَبُها، وما منا إلا جريحٌ ثقيلٌ، فخرجنا مع رسـول الله(ﷺ) ، وكنت أيسـرَ جُرْحاً منه، فكان إذا غُلب؛ حملته عُقبةً ومشى عُقبةً (فترةً)، حتَّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[2].

وسار رسول الله(ﷺ) إلى حمراء الأسد، واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدَّى المشـركين، فلم يتشـجَّعوا على لقائه، ونزاله، وكان رسـول الله(ﷺ) قد أمرَ بإشـعال النِّيران، فكانوا يشعلون في وقتٍ واحد خمسمئة نار[3].

وأقبل مَعبدُ بن أبي معبد الخزاعيُّ إلى رسول الله(ﷺ) فأسـلم، فأمره أن يلحق بأبي سـفيان،

(1) انظر: البداية والنِّهاية (50/4).
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس ، ص 144 ، نقلاً عن الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (43/2).

فيخذِّله، فلحقه بالرَّوحاء – ولم يعلم بإســـلامه – فقـال: ما وراءك يا معبد؟! فقـال: محمَّدٌ وأصـــحابه، فقد تحرَّقوا[1] عليكم، وخرجوا في جمعٍ لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصــحابهم. فقال: ما تقول؟! فقال: ما أرى أن ترتحل حتَّى يطلع أوَّل الجيش من وراء هذه الأكمة[2]، فقال أبو سـفيان: والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنسـتأصـلهم. قال معبد: فإنِّي أنهاك عن ذلك، ووالله! لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيه أبياتاً من شعرٍ:

قال: وما قلتَ؟ قال: قلتُ:

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأصْــوَاتِ رَاحِلَتِي ... إذْ سَـالَتِ الأرْضُ بالجُرْدِ[3] الأَبابيْلِ
تَرْدِي[4] بأُسْـــدٍ كِرَامٍ لاَ تَنَابِلَةٍ[5] ... عِنْـدَ اللِّقَـاءِ وَلاَ مِيْـلٍ[6] مَعَـازِيـلِ[7]
فَظَلْـتُ أَعْـدُو أَظُنُّ الأَرْضَ مَـائِلَـةً ... لـــــمَّـا سَمَوْا بِرَئِيْسٍ غَيْرِ مَخْذُوْلِ
فَقُلْـتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمُ ... إذَا تَغَطْمَطَـتِ[8] البَطْـحَـاءُ بِالجِيْـلِ
إِنِّي نَذِيْرٌ لأَهْلِ البَسْـــلِ ضَـــاحِيَةً ... لِكُــلِّ ذِيْ إرْبَــةٍ مِنْـهُـمْ وَمَعْقُـوْلِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لاَ وَخْشٍ[9] تَـنَـابِلَةٌ ... وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالقِيْلِ[10]

فثنى ذلك أبا سـفيان ومن معه، وحاول أبو سـفيان أن يغطِّي انسـحابه هذا بشـنِّ حربٍ نفســيَّة على المســلمين، لعلَّه يُرهبهم، فأرســل مع رَكْبِ عبد القيس – وكانوا يريدون المدينة

---

(1) يتحرَّقون: يلتهبون من الغيظ.
(2) انظر: زاد المعاد (245/3).
(3) الجُرد: جمع أجرد ، وهو الضرسيُّ ، قصير الشَّعر ، والأبابيل: الفِرَق الكثيرة.
(4) تردي: تُسرع.
(5) تنابلة: جمع تنبال ، وهو القصير.
(6) الميل: جمع أميل ، وهو الجبان.
(7) معازيل: جمع معزال ، وهو من لا رُمح معه.
(8) تغطمطت: اضطربت ، وثارت.
(9) وخش: رديء.
(10) انظر: البداية والنِّهاية (51/4) ، وسيرة ابن هشام (46/3).

لْلِمِيْرَة[1] – [البيهقي في الدلائل (3/315 – 317)، وابن هشام (3/108 – 110)] رسالةً إلى رسول الله(ﷺ) ، مفادها: أنَّ أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السَّير إليه، وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود، وواعد أبو سفيان الرَّكبَ أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عُكَاظ، ومرَّ الرَّكبُ برسول الله(ﷺ) وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالَّذي قاله أبو سفيان، فقال هو والمسلمون: حسبنا اللهُ، ونِعْمَ الوكيلُ[2].

واستمرَّ المسلمون في معسكرهم، واثرت قريش السَّلامة، والأوبة[3]، فرجعوا إلى مكَّة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروحٍ قويَّةٍ متوثِّبةٍ، غسلت عَارَ الهزيمة، ومسحت مغبَّةَ[4]الفشل، فدخلوها أعزةً رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزُّوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين، واليهود في المدينة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجَّل ظواهرها[5] بقوله تعالى[6]: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران 172 – 175] ووقع في أسر النَّبيِّ(ﷺ) قبل رجوعه إلى المدينة، أبو عزَّة الجُمَحِيُّ الشَّاعر، فقُتِل صبراً؛ لأنَّه أخلف وعده للرَّسول(ﷺ) بألاَّ يقاتل ضدَّه عندما منَّ عليه ببدرٍ، وأطلقه، فعاد فقاتل في أُحدٍ، وقد حاول أبو عزَّة أن يتخلَّص من القتل، وقال: يا رسول الله! أقِلْني[7]، فقال رسول الله(ﷺ) : «لا والله! لا تمسح عارضيك[8] بمكَّة بعدها، وتقول:

---

(1) الميرةُ: الطَّعام يجمع للسَّفر ، ونحوه.
(2) تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، ص 226.
(3) اب أوبَةً: رجع.
(4) المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه واخره.
(5) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 142.
(6) انظر تفسير هذه الايات في ابن كثيرٍ.
(7) أقال اللهُ عَثْرَتَه: صفَح عنه وتجاوز.
(8) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (742/2).

خدعتُ محمَّداً مرَّتين، اضـــرب عنقه يا زُبيرُ!» [ابن ســـعد (43/2)، والبيهقي في الســـنن الكبرى(1) (65/9)، وفي دلائل النبوة (280/3 – 281)]. فضـــرب عُنقَه، فقال النَّبيُّ(ﷺ) حينئذٍ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين» [البخاري (6133)، ومسلم (2998)][2]، فصار هذا الحديث مثلاً، ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السِّياسة الشَّرعية؛ لأنَّ هذا الشَّاعر من المفسدين في الأرض، الدَّاعين إلى الفتنة، ولأنَّ في المنِّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤْسَرْ من المشركين سوى أبي عزَّةَ الجُمَحيِّ[3].

وأمَّا عدد القتلى من المسلمين في أُحدٍ؛ فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين، ويؤيِّد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَـــمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 165] أنَّها نزلت تسـلية للمؤمنين عمَّن أُصيب منهم يوم أُحدٍ. قال ابن عطيَّة – رحمه الله –: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين، وأسروا سبعين[4].أمَّا عدد الَّذين قُتلوا يوم أُحدٍ من المشركين، فكان اثنين وعشرين قتيلاً[5].

كان خروج رسـول الله(ﷺ) لملاحقة المشـركين في غزوة حمراء الأسـد، يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد المهمَّة؛ منها:

1 – ألاَّ يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الَّذين خرجوا يوم أُحدٍ هو الشُّعور بالهزيمة.

2 – إعلامهم: أنَّ لهم الكرَّة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضَّعف، والفشل، واستجابوا

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (116/3).
(2) انظر شرحه وسببه في الفتح.
(3) انظر: البداية والنِّهاية (53/4).
(4) المحرر الوجيز ، لابن عطية (411/3).
(5) مرويات غزوة أحد ، للباكري ، ص 367. 369.

لدعوة الله، ورسوله(ﷺ) .

3 - تجرئة الصَّحابة على قتال أعدائهم.

4 - إعلامُهم: أنَّ ما أصـــابهم في ذلك اليوم، إنَّما هو منحةٌ، وابتلاءٌ اقتضـــتها إرادة الله، وحكمتُه، وأنَّهم أقوياء، وأنَّ خصومهم الغالبين في الظَّاهر ضعفاء[1].

كما أنَّ في خروج النَّبيِّ(ﷺ) إلى حمراء الأسـد إشـارةً نبويَّـــةً إلى أهمِّيَّة اسـتعمال الحرب النَّفسيَّة للتأثير على معنويات الخصوم؛ حيث خرج(ﷺ) بجنوده إلى حمراء الأسد، ومكث فيها ثلاثة أيَّامٍ، وأمر بإيقاد النِّيران، فكانت تُشـاهدُ من مكانٍ بعيدٍ، وملأت الأرجاء بأنوارها، حتَّى خُيِّل لقريش: أنَّ جيش المســـلمين ذو عددٍ كبير لا طاقة لهم به، فانصـــرفوا؛ وقد ملأ الرُّعب أفئدتهم[2].

قال ابن سـعد: «ومضـى رسـولُ الله(ﷺ) بأصـحابه حتَّى عسـكروا بحمراء الأسـد، وكان المســـلمون يوقِدون تلك اللَّيالي خمســـمئة نارٍ حتَّى تُرى من المكان البعيد، وذهب صـــوت معسكرهم، نيرانهم في كلِّ وجهٍ؛ فكبَتَ اللهُ تعالى بذلك عدوَّهم»[3].

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحدٍ:

كانت غزوة أحدٍ أوَّل معركة في الإسلام تشارك فيها نساءُ المسلمين، وقد ظهرت بطولاتُ الـنِّساء، وصدق إيمانهنَّ في هذه المعركـة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى، ويداوين الجرحى، ومنهنَّ مَنْ قامت بردِّ ضـربات المشـركين الموَجَّهة للرَّسـول(ﷺ) ، وممَّن شـاركن في غزوة أحدٍ: أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وأمُّ عمارة، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ الأسديَّة، وأمُّ سَلِيط، وأمُّ سُلَيْم، ونسوةٌ من الأنصار. **[مسلم (1809 و1810 و1811)]**.

---

(1) انظر: في ظلال القران (519/1).
(2) انظر: غزوة أُحدٍ ، لأبي فارس ، ص 51.
(3) انظر: الطَّبقات ، لابن سعدٍ (49/2).

قال ثعلبة بن أبي مالكٍ رضي الله عنه: إنَّ عمر بن الخطاب قَسَمَ مُرُوطاً بين نساءٍ من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرطٌ جيّدٌ، فقال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا بنت رسول الله الَّتي عندك – يريدون أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ – فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحقُّ به. وأمُّ سليط من نساء الأنصار مِمَّن بايع رسولَ الله(ﷺ) . قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ[1] لنا القِرَبَ يوم أُحدٍ. [البخاري (2881، 4071)].

أ – سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لـمَّا كان يوم أُحدٍ، انهزمَ النَّاسُ عن النَّبيّ(ﷺ) ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكرٍ، وأمَّ سُلَيم، وإنَّهما لمشمِّرتان، أرى خَدَمَ سُوقِهنَّ تَنْقُزَانِ[2] القِرَبَ – وقال غيره: تنقلان القربَ – على متونهما، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أفواه القوم، ثمَّ ترجعان، فتملانها، ثمَّ تجيئان، فتُفرغَانه في أفواه القوم» [البخاري (2880)].

وقال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه: «رأيتُ أمَّ سُلَيم بنت ملحان، وعائشة، على ظهورهما القِرَبُ، يحملانها يوم أُحدٍ، وكانت حَمْنَةُ بنت جحشٍ تسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وكانت أمُّ أيمن تسقي الجرحى».

ب – مداواة الجرحى، ومواساة المصابين:

عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله(ﷺ) يغزو بأمِّ سُليم، ونسوةٍ من الأنصار معه؛ إذا غزا، فيسقين الماءَ، ويداوين الجرحى. [مسلم (1810)].

وأخرج عبد الرَّزاق عن الزُّهريّ: كان النِّساء يشهدن مع النَّبيِّ(ﷺ) المشاهد، ويسقين المقاتلة، ويداوين الجرحى[3]. وعن الرُّبيّع بنت مُعَوِّذٍ، قالت: كنَّا مع النَّبيِّ(ﷺ) نسقي القوم،

---

(1) تزفِرُ: تحمل القرب مملوءةً بالماء.

(2) تَنْقُزَانِ: أي: تحملان ، وتقفزان بها وثباً.

(3) فتح الباري ، شرح حديث رقم (2880).

ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة. [البخاري (2882)]. وفي روايةٍ: كنَّا نغزو مع النَّبيِّ(ﷺ) ، فنسقي القوم، ونخدمُهم، ونردُّ الجرحى، والقتلى إلى المدينة. [البخاري (2883)].

وعن أبي حازمٍ: أنَّه سمع سهل بن سعدٍ رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله(ﷺ) ، فقال: أما والله! إنِّي لأعرفُ مَنْ كان يغسلُ جُرحَ رسول الله(ﷺ) ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِيَ. قال: كانت فاطمةُ رضي الله عنها بنتُ رسول الله(ﷺ) تغسلُه، وعليٌّ يسكب الماء بالمِجنِّ، فلـمَّا رأت فاطمة: أنَّ الماء لا يزيدُ الدَّم إلا كثرةً؛ أخذت قطعةً من حصيرٍ، فأحرقتها، وألصقتها، فاستمسك الدَّم. [البخاري (4075)، ومسلم (1790)].

ج – الدِّفاع عن الإسلام ورسوله(ﷺ) بالسَّيف:

لم تقاتل المشركين يوم أُحدٍ إلا أمُّ عُمارة نُسَيبة المازنيَّة رضي الله عنها، وهذا ضَمْرَةُ بن سعيدٍ يحدث عن جدَّته، وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء، قالت: سمعت النَّبيَّ(ﷺ) يقول: لَمُقَامُ نُسَيْبة بنتِ كعبٍ اليوم خيرٌ من مُقام فلانٍ، وفلان، وكان يراها تُقاتل يومئذٍ أشدَّ القتال، وإنَّها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها، حتَّى جُرِحَتْ ثلاثة عشرَ جرحاً، فلـمَّا حضرتها الوفاة كنت فيمن غسَّلها، فعددت جراحها جُرْحاً جُرْحاً، فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إنِّي لأنظرُ إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها – وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنةً – ثم نَادَى منادي النَّبيِّ(ﷺ) : إلى حمراء الأسد! فشدَّت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدَّم، ولقد مكثنا ليلنا نكمِّد الجراح حتَّى أصبحنا، فلمَّا رجع رسول الله(ﷺ) من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتَّى أرسل إليها عبدَ الله بن كعبٍ المازني(1) – أخا أمِّ عُمارة – يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسُرَّ النَّبيُّ(ﷺ) بذلك(2).

وقد علَّق الأستاذ حسين الباكريُّ على مشاركة نُسَيبة بنت كعب في القتال، فقال:

(1) انظر: سير أعلام النُّبلاء ، للذَّهبي (278/2).
(2)]المغازي ، للواقديّ (269/1 . 270).

«وخروج المرأة للقتال مع الرِّجال لم يثبت في ذلك منه شيءٌ غيرُ قصَّة نُسَيبة؛ وقتال نسيبة إنَّما كان اضطراريّـاً؛ حين رأت: أنَّ رسول الله(ﷺ) أصبح في خطرٍ حين انكشف عنه النَّاس، فأمُّ عُمارة إذاً كانت في موقفٍ أصبح حَمْلُ السِّلاح فيه واجباً على مَنْ يقدر على حمله؛ رجلاً كان، أو امرأةً»[1].

وعلَّق الدُّكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدَّالة على مشاركة النِّساء في أحدٍ بقوله: «وهذه الآثار تدلُّ على جواز الانتفاع بالنِّساء عند الضَّرورة، لمداواة الجرحى، وخدمتهم؛ إذا أُمِنَتْ فتنتهُنَّ مع لزومهنَّ السِّتر، والصِّيانة، ولهنَّ أن يُدافعْنَ عن أنفسهن بالقتال؛ إذا تعرَّض لهنَّ الأعداء، مع أنَّ الجهاد فرضٌ على الرِّجال وحدهم، إلا إذا داهم العدوُّ ديار المسلمين، فيجب قتاله من الجميع رجالاً، ونساء»[2].

وأمَّا الأستاذ محمَّد أحمد باشميل؛ فقد قال: «وقد كانت معركة أُحدٍ أوَّل معركةٍ في الإسلام قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين، ومن الثَّابت: أنَّ امرأةً واحدةً فقط اشتركت في هذه المعركة، وهي تدافع عن رسول الله(ﷺ) ، كما أنَّه من الثَّابت أيضاً: أنَّ المرأة الَّتي اشتركت في معركة أحدٍ لم تخرج بقصد القتال، فهي لم تكن مجنَّدةً فيها كالرِّجال؛ وإنَّما خرجت لتنظر ما يصنع النَّاس لتقوم بأيَّة مساعدةٍ يمكنها القيام بها للمسلمين؛ كإغاثة الجرحى بالماء، وما شابه ذلك، يضاف إلى هذا أنَّ هذه المرأة الَّتي خاضت معركة أُحدٍ، هي امرأةٌ قد تخطَّت سِنَّ الشَّباب، كما أنَّها لم تخرج إلى المعركة إلاَّ مع زوجها، وابنيها، الَّذين كانوا من الجند الَّذين قاتلوا في المعركة، يضاف إلى هذا الرَّصيد الهائل؛ الَّذي لديها من المناعة الخُلقيَّة والتَّربية الدِّينيَّة، فلا يقاس على هذه الصَّحابية الجليلة، مجنَّدات هذا الزَّمان، الَّلائي يرتدين لباس الميدان، وعنصر الإغراء، والفتنة هو أهمُّ عنصرٍ يتميَّزن به، ويحرصن على إظهاره للرِّجال؛ فأين الثَّرَى مِنَ الثُّرَيَّا؟!

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحدٌ من رجال هذا الزَّمان، من ناحية الشَّهامة،

---

(1) انظر: مرويات غزوة أحدٍ ، ص 254.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (391/2).

والاســـتقامة، والعفَّة والرُّجولة، فكلُّ المحاربين الَّذين اشـــتركت معهم المرأة في معركة أُحدٍ، كانوا صفوة الأمَّة الإسلاميَّة، ورمز نبلها، وشهامتها، وعنوان رجولتها، واستقامتها، فلا يصحُّ مطلقاً جعل اشـــتراك تلك المرأة في معركة أُحدٍ قاعدةً تقاس عليها (من النَّاحية الشَّـــرعيَّة) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر، لتقاتل بجانب الرَّجل (كعنصر أساسٍ من عناصر الجيش) فالقياس في هذه الحالة قياسٌ مع الفارق، وهو قياسٌ باطلٌ قطعاً»[1].

سابعاً: دروس في الصَّبر تقدِّمها صحابيَّاتٌ للأمَّة:

أ - صفية بنت عبد المطَّلب رضي الله عنها:

لـمَّا استُشهد أخوها حمزةُ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه في أُحدٍ، وجاءت لتنظر إليه؛ وقد مَثَّلَ به المشـــركون، فجدعوا أنفه، وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه، ومذاكيره، فقال رســـول الله(ﷺ) لابنها الزُّبير بن العوَّام: «الْقَها، فأَرْجعها؛ لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أُمَّه! إنَّ رســـول الله(ﷺ) يأمرك أن ترجعي، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني: أنَّه قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ، ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلـــمَّا جاء الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه إلى رسول الله(ﷺ) فأخبره بذلك، قال: «خَلِّ سبيلها» فأتته، فنظرت إليه، فصلَّت عليه، واسترجعت[2]، واستغفرت له. [سبق تخريجه][3].

ب - حَمْنَةُ بنت جحش رضي الله عنها:

لـــمَّا فرغ رسول الله(ﷺ) من دفن أصحابه رضي الله عنهم، ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحشٍ، فقال لها رســـول الله(ﷺ) : يا حمنةُ! احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: أخاك عبدَ الله بن جحشٍ، فاسترجعت، واستغفرت

---

(1) انظر: غزوة أحدٍ، لمحمَّد باشميل، ص 171 . 173.
(2) استرْجَعَتْ: أي قالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (108/3).

له، ثمَّ قال لها رسولُ الله(ﷺ) : احتسبي! فقالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: خالك حمزة بن عبد المطَّلب، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشـهادة. ثمَّ قال لها: احتسـبي ! قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: زوجُك مصعب بن عُمَيْرٍ، قالت: واحزناه !

وصـاحت، وولْوَلَتْ. فقال رسـول الله(ﷺ) : «إنَّ زوج المرأة منها لبمكانٍ»؛ لِما رأى من تَثَبُّتِها عند أخيها، وخالها، وصياحها على زوجها. [ابن ماجه (1590)، والطبري في تاريخه (532/2)، والبيهقي في الدلائل (301/3)، وابن هشام (104/3)]. ثمَّ قال لها: ولِمَ قلتِ هذا؟ قالت: يا رسول الله! ذكرت يُتْمَ بنيه، فراعني، فدعا لها رسـول الله(ﷺ) ، ولوَلدِها أن يحسـن الله تعالى عليهم من الخَلَفِ[1]، فتزوَّجت طلحةَ بن عبيد الله، فولدت منه محمَّداً، وعمران[2]، وكان محمَّد بن طلحة أوصل النَّاس لولدها[3].

ج – المرأة الدِّينارية رضي الله عنها:

قال سـعد بن أبي وقَّاصٍ رضـي الله عنه: مرَّ رسـول الله(ﷺ) بامرأةٍ من بني دينار، وقد أُصيب زوجُها، وأخوها، وأبوها مع رسول الله(ﷺ) بأُحدٍ، فلمَّا نُعُوا لها؛ قالت: فما فعل رسولُ الله(ﷺ) ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان! هو بحمد الله كما تحبِّين، قالت: أَرُونيه حتَّى أنظرَ إليه، فأُشير لها إليه، حتَّى إذا رأته؛ قالت: كلُّ مصـيبةٍ بعدَك جَلَلٌ[4]. [الواقدي في المغازي (292/1)، والطبري في تاريخه (533/2)، والبيهقي في الدلائل (302/2)، وابن هشام (105/3)].

. تريد: صغيرةٌ –. وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين!

د – أمُّ سعد بن مُعاذٍ، وهي كبشةُ بنت عبيد الخزرجيَّة رضي الله عنها:

خرجت أمُّ سعد بن معاذ تعدو نحو رسولِ الله(ﷺ) ، ورسولُ الله(ﷺ) واقفٌ على فرسه،

(1) انظر: البداية والنِّهاية (47/4) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 236.
(2) انظر: الإصابة (88/8) ، رقم (11060).
(3) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص 109.
(4) انظر: البداية والنِّهاية (48/4) ، وسيرة ابن هشام (شأن المرأة الدِّينارية).

وسعد بن معاذ اخذٌ بعنَانِ[1] فرسه، فقال سعد: يا رسول الله! أمِّي! فقال رسول الله(ﷺ) : مرحباً بها، فدنت حتَّى تأمَّلت رسولَ الله، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً؛ فقد أشوت[2] المصيبة، فعزَّاها رسول الله(ﷺ) بعمرو بن معاذٍ ابنها، ثمَّ قال: يا أمَّ سعد! أبشري، وبشِّري أهليهم: أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّة جميعاً - وهم اثنا عشر رجلاً - وقد شُفِّعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟! ثمَّ قالت: ادعُ يا رسولَ الله! لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله(ﷺ) : « اللّهُمَّ أذهب حُــزن قلوبهم، واجْبُــرْ مصيبتهم، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا». [مغازي الواقدي (315/1 - 316)].

* * *

---

(1) العِنَانُ: سَيرُ اللجام الذي تُمْسَكُ به الدابةُ.

(2) أشوَت: صارت صغيرةً خفيفة.

المبحث الرَّابع

بعض الدُّروس، والعبر، والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أُحدٍ وصفاً دقيقاً، وكان التَّصويرُ القرآنيُّ للغزوة أقوى حيويَّة، ووضوحاً من الرِّوايات الَّتي جاءت في الغزوة، كما أنَّ أسلوب الآيات المطمئنة، المبشِّرة، واللاَّئمة، والمسكِّنة، والواعظة كان رائعاً، وقويّاً، فبيَّن القرآن الكريم نفوس جيش النَّبيِّ(ﷺ) ، وهذا تميُّزٌ لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عمَّا جاء في كتب السِّيرة، فسلَّط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب؛ الَّتي ما كان المسلمون أنفسُهم يعرفون وجودها في قلوبهم، والنَّاظر عموماً في منهج القرآن في التَّعقيب على غزوة أُحدٍ يجد الدِّقَّة، والعمق، والشُّمول. يقول سيِّد قطب: «الدِّقَّة في تناول كلِّ موقفٍ، وكلِّ حركةٍ، وكلِّ خالجةٍ، والعمق في التَّدسُّس إلى أغوار النَّفس، ومشاعرها الدَّفينة، والشُّمول لجوانب النَّفس، وجوانب الحادث.

كما نجد الحيويَّة في التَّصوير، والإيقاع، والإيحاء، بحيث تتماوجُ المشاعر مع التَّعبير، والتَّصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً، ولا تملك أن تقف جامدةً أمام الوصف والتَّعقيب؛ فهو وصفٌ حيٌّ، يستحضر المشاهِدَ كما لو كانت تتحرَّك، ويشيع حولها النَّشاط المؤثِّر، والإشعاع النَّافذ، والإيحاء المثِيْر»(1).

إنَّ حركة النَّبيِّ(ﷺ) في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة، والتَّمكين لدين الله، يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم، الَّتي سيطرت على مشاعره، وأفكاره، وأحاسيسه(ﷺ) ، ولذلك نجد أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) في علاجه لأثر الهزيمة في أُحدٍ تابعٌ للمنهج القرآنيِّ الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النُّقاط المهمَّة في هذا المنهج:

---

(1) في ظلال القرآن (532/1).

أولاً: تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوّ الإيماني:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:-137-139].

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يجد: أنَّ الله - سبحانه وتعالى - لم يترك المسلمين لوساوس الشَّيطان في محنة غزوة أحدٍ، بل خاطبهم بهذه الآيات؛ الَّتي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقوِّيهم، ويثبِّتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم، ويخفِّف عنهم الامهم(1).

قال القرطبيُّ: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين(2).

ففي الآيات السَّابقة دعوةٌ للتأمُّل في مصير الأمم السَّابقة؛ الَّتي كذَّبت دعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنَّته على حسب عادته، وهي الإهلاك، والدَّمار؛ بسبب كفرهم، وظلمهم، وفسوقهم عن أمره.

وجاء التَّعبير بلفظ: «كيف» الدَّال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذِّبين؛ الَّتي تدعو إلى التعجُّب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتِّعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأنَّ هؤلاء المكذِّبين مكَّن الله لهم في الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنَّهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طُغيانهم(3).

وفي قوله تعالى: دعاهم إلى ترك ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، ومحاربة الجبن، والتَّخلُّص من الوهن، وعدم الحزن، لأنَّهم هم الأعْلَوْن بسبب إيمانهم.

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(190/1).
(2) انظر: تفسير القرطبيِّ (216/4).
(3) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(191/1).

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحدٍ:

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝ مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ **[آل عمران: 140 – 143]**.

بيَّن لهم: أنَّ الجروح، والقتلى يجب ألاَّ تؤثِّر في جدِّهم، واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك؛ فقد أصاب عدوَّهم مِثْلُه من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم، وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبِأنْ لا يلحقُكم الفتورُ مع حسن العاقبة، والتمسُّك بالحقِّ أولى[1]. وقال صاحب الكشَّاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أُحدٍ؛ فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدرٍ، ثمَّ لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم، ولم يثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى ألاَّ تضعفوا[2].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّه كان يوم أُحد بيوم بدرٍ، قُتل المؤمنون يوم أُحدٍ، واتَّخذ اللهُ منهم شهداءَ، وغلب رسولُ الله(ﷺ) يوم بدرٍ المشركين، فجعل الدَّولة عليهم[3].

وجواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...﴾ إلخ محذوفٌ، والتَّقدير: إن يمسكم قرح؛ فاصبروا عليه، واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم، فقد مسَّهم قرحٌ مثلُه قبل ذلك.

وعبَّر عمَّا أصاب المسلمين في أُحدٍ بصيغة المضارع «يمسسكم» لقربه من زمن الحال، وعمَّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبُعْدِهِ؛ لأنَّ ما أصابهم كان في غزوة بدرٍ.

---

(1) انظر: تفسير الرَّازي (14/9).
(2) انظر: تفسير الكشَّاف (465/1).
(3) انظر: تفسير الرَّازي (105/4).

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بيانٌ لسـنَّة الله الجارية في كونه، وتسـليةٌ للمؤمنين عمَّا أصابهم في أُحدٍ[1].

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: قال القرطبيُّ: معناه: وإنَّما كانت هذه المداولة؛ ليَرى المؤمن مِنَ المنافق، فيميزَ بعضَهم من بعضٍ[2].

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُـهَدَاءَ﴾: قال ابن كثير: يعني: يُقْتَلُون في سبيله، ويَبْذلون مُهَجَهُمْ في مرضاته[3].

ثمَّ ختم سـبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ثمَّ ذكر – سـبحانه – حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحدٍ، فقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾، وقوله: من ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾، بمعنى التَّنقية والتَّخليص، أو من التَّمحيص، بمعنى الابتلاء، والاختبار.

وقوله: من ﴿وَيَمْحَقَ﴾، وهو محو الشَّـيء، والذَّهاب به. قال الطَّبريُّ: والمعنى: وليختبر الله الَّذين صـدقوا الله ورسـوله، فيبتليهم بإزالة المشـركين منهم، حتَّى يتبيَّن المؤمن منهم المخلص الصَّحيح الإيمان من المنافق[4].

وقال ابن كثير: قوله: أي: يكفِّر عنهم من ذنوبهم ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن كانت لهم ذنوب –، وإلاَّ رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أُصيبوا به.

وقوله: أي: فإنَّهم إذا ظفروا؛ ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾، وبطروا، فيكون ذلك سـبب دمارهم، وهلاكهم، ومحقهم، وفنائهم[5]، والمعنى: ولقد فعل – سـبحانه – ما فعل في غزوة أحدٍ، لكي

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(195/1).
(2) انظر: تفسير القرطبيِّ (218/4).
(3) انظر: تفسير ابن كثيرٍ (408/1).
(4) انظر: تفسير الطَّبريِّ (107/4).
(5) انظر: تفسير ابن كثيرٍ (408/1).

يطهِّر المؤمنين، ويصـفِّيهم من الذُّنوب، ويخلِّصـهم من المنافقين المندسِّـين بينهم، ولكي يُهلك الكافرين، ويمحقهم؛ بسبب بغيهم، وبطرهم.

وقد ذكر الله تعالى أربع حكمٍ لما حدث للمؤمنين في غزوة أُحدٍ، وهي: تحقُّق علم الله تعالى، وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشَّهادة الَّتي توصل صاحبها إلى أعلى الدَّرجات، وتطهير المؤمنين، وتخليصـهم من ذنوبهم، ومن المنافقين، ومحق الكافرين، واستئصالهم رويداً، رويداً[1].

ثمَّ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: 142] والمعنى: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد! أن تدخلوا الجنَّة كما دخل الَّذين قُتلوا، وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم؟! لا؛ حتَّى ﴿ يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: علم شهادةٍ؛ حتَّى يقع عليه الجزاء ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [2] وقال ابن كثيرٍ: أي: لا يحصل لكم دخول الجنَّة؛ حتَّى تُبْتَلوا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصَّابرين على مقاومة الأعداء[(466)].

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [آل عمران: 143].

قال ابن كثيرٍ: قد كنتم – أيَّها المؤمنون ! – قبل هذا اليوم، تتمنَّون لقاء العدوِّ ، وتحترقون عليه ، وتودُّون مناجزتهم، ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الَّذي تمنَّيتموه، وطلبتُموه، فدونكم، فقاتلوا، وصابروا[3].

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

تَرَفَّقَ القرآن الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ)، على عكس ما نزل في

---

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(199/1).
(2) انظر: تفسير القرطبي (220/4).
(3) انظر: تفسير ابن كثير (409/1).

بدرٍ من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه، أشدَّ من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ **[الأنفال: 67 – 68]**.

وقال في أُحدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **[آل عمران: 152]** وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ، وتربية قرآنيَّةٌ، يحسن أن يلتزمها أهل التَّربية، والقائمون على التَّوجيه[1].

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السَّابقين:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ **[آل عمران: 146 – 148]**.

قال ابن كثير: عاتب اللهُ بهذه الآيات والَّتي قبلها مَنِ انهزم يوم أُحدٍ، وتركوا القتال لـمَّا سمعوا الصَّائح يصيح بأن محمَّداً قد قُتل، فَعَذَلَهم[2] الله على فرارهم، وتركهم القتال[3].

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السَّابقين، وهم جماعاتٌ كثيرةٌ، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفُوا عن الجهاد بعد الَّذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدوِّ؛ بل ظلُّوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريضٌ بالمسلمين الَّذين أصابهم الوهن، والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله(ﷺ) ، وبضعفهم

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 137.

(3) عَذَلَهُ عَذْلاً: لاَمَهُ.

عند ذلك عن مجاهدة المشـركين، واستـكانتهم لهم، وضـرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الرَّبَّانيّين، وبما قالوه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْـرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147].

وهذا القول – وهو إضافة الذُّنوب، والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربَّانيِّين – هضمٌ لها، واعترافٌ منهم بالتَّقصير، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدوِّ، ليكون طلبُهم إلى ربِّهم النَّصر عن زكاةٍ، وطهارةٍ، وخضوعٍ، وفي هذا تعليمٌ للمسلمين إلى أهمِّيَّة التَّضرُّع، والاستغفار، وتحقيق التَّوبة، وتظهر أهمِّيَّة ذلك في إنزال النَّصر على الأعداء: أي: وبذلك نالوا ثواب الدَّارين: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: 148]، والغنيمة في الدُّنيا، والثَّواب الحسن في الآخرة، جزاءَ إحسانهم في أدب الدُّعاء والتَّوجُّه إلى الله، وإحسـانهم في موقف الجهاد، وكانوا بذلك مثلاً يضـربه الله للمسـلمين المجاهدين، وخصَّ اللهُ تعالى ثواب الآخرة بالحُسْنِ دلالةً على فضـله، وتقدُّمه على ثواب الدُّنيا، وأنَّه هو المعتمدُ عنده[1].

خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرُّماة لأمر النَّبيِّ(ﷺ) ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع الَّذي قَلَبَ الموازين، وأدَّى إلى الخسـائر الفادحة الَّتي لحقت بالمسـلمين، ولكي نعرف أهمِّيَّة الطَّاعة لوليِّ الأمر؛ نلحظ أنَّ انخذال عبد الله بن أُبيٍّ، ومن معه من المنافقين، لم يؤثِّر على المسـلمين، بينما الخطأ الَّذي ارتكبه الرُّماة؛ الَّذين أحسن الرَّسولُ(ﷺ) ترتيبَهُمْ، وأسند لكلِّ واحدٍ منهم عملاً، ثمَّ خالفوا أمره(ﷺ) كان ضـرره على المسـلمين عامَّةً، حيث سـلَّط الله عليهم عدوَّهم، وذلك بسـبب عصـيان الأوامر، ثمَّ اختلطت أمورهم، وتفرَّقت كلمتُهم، وكاد يُقْضـى على الدَّعوة الإسلاميَّة وهي في مهدها.

(1) انظر: تفسير ابن كثير (410/1).

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المســـلمين انتصـــروا في أول الأمر حينما امتثل الرُّماة لأوامر الرَّســـول(ﷺ) ، وانقادوا لتعليمات قائدهم، وأميرهم عبد الله بن جبير رضـــي الله عنـه، بينمـا انهزموا حينمـا خـالفوا أمره(ﷺ) ، ونزل الرُّمـاة من الجبـل لجمع الغنـائم مع بقيَّـة الصَّـحابة رضي الله عنهم[1]. قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ **[آل عمران: 153]**.

يقول الشَّـــيخ محمد بن عثيمين: «ومن آثار عدم الطَّاعة ما حصـــل من معصـــية بعض الصَّـــحابة رضـــي الله عنهم للنبيّ(ﷺ) ؛ وهم يجاهدون في ســـبيل الله لإعلاء كلمة الله، والَّذي حصل: أنَّه لـــمَّا كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرُّماة: أنَّ المشركين انهزموا؛ تركوا الموضع الَّـذي أمرهم النَّبيُّ(ﷺ) ألاَّ يبرحوه، وذهبوا مع النَّـاس، وبهـذا كرَّ العـدوُّ عليهم من الخلف، وحصـل ما حصـل من الابتلاء، والتَّمحيص للمؤمنين، وقد أشـار الله تعالى إلى هذه العلَّة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَـــرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **[آل عمران: 152]**.

هذه المعصـية؛ الَّتي فات بها نصـرٌ انعقدت أسـبابُه، وبدأت أوائله، وهي معصـيةٌ واحدةٌ، والرَّسول(ﷺ) بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟! ولهذا نقول: إنَّ المعاصي من آثارها: أنَّ الله يسلِّط بعض الظالمين على بعضٍ بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النَّصر، والعزَّة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم»[2].

إنَّ طاعة وليّ الأمر أمرٌ ضـــروريٌّ، تأتي بعد طاعة الله ورســـوله. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القران (204/2).

(2) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص 207 . 209.

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: 59].

قال العلماء: «نزلت الآية في الرَّعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا وُلاةَ الأمر، الفاعلين لذلك، في قَسْمهم وحكمهم، ومغازيهم، وغير ذلك»[1].

إنَّ طاعة وليّ الأمر «أصلٌ عظيم من أصول الواجبات الدِّينية، حتَّى أدرجها الأئمَّة في جملة العقائد الإيمانيَّة»[2].

ولها أهمِّيَّة في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة، ويمكن أن نلخِّص أهمِّيَّة الطَّاعة في النقاط الاتية:

1 – الامتثال لأمر الله – عزَّ وجلَّ –، وطاعته فيما أمر. قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: 59].

2 – إنَّ طاعة وليّ الأمر وسيلةٌ وليست غايةً؛ وسيلةٌ لإقامة شرع الله في الأرض ، وإحقاق الحقّ ، وإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لتحقيق خيرية هذه الأمَّة، وإعلاء كلمة التَّوحيد، وإفراد العبوديَّة لله – عزَّ وجلَّ –.

3 – اجتماع كلمة المسلمين؛ لأنَّ في الخلاف فساد أحوالهم، في دينهم، ودنياهم[3].

4 – أن يستعينوا بها على إظهار دينهم، وطاعة ربِّهم.

5 – إنَّ فيها سعادةَ الدُّنيا.

ولهذا كان من أصول مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أننا: «لا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا؛ وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً مِنْ طاعتهم، ونرى طاعتهم مِنْ طاعة الله – عزَّ وجلَّ – وهي فريضةٌ، ما لم يأمروا بمعصيةٍ، وندعوا لهم بالصَّلاح، والمعافاة»[4].

---

(1) انظر: الطَّاعة والمعصية وأثرها في المجتمع ، محمَّد بن العثيمين ، نقلاً عن غزوة أحدٍ ، ص 211.
(2) انظر: مجموع الفتاوى (246/28).
(3) بدائع السَّالك في طبائع الممالك ، لابن الأزرق (77/1).
(4) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 200.

سادساً: خطورة إيثار الدُّنيا على الآخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من آيات، وأحاديث، تبيّن منزلة الدُّنيا عند الله، وتصف زخارفها، وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذِّر من الحرص عليها. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: 33].

وقد حذَّر الرَّسول الكريم(ﷺ) أمَّته من الاغترار بالدُّنيا، والحرص الشَّديد عليها في أكثر من موضعٍ، وذلك لما لهذا الحرص من أثر سيّءٍ على الأمَّة عامَّةً، وعلى مَنْ يحملون لواء الدَّعوة خاصَّةً؛ ومن ذلك:

عن أبي سعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه عن النَّبيّ(ﷺ) قال: «إنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ الله مستخلفُكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء» [مسلم (2742)، وأحمد (22/3)، وابن حبان (3221)] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدُّنيا في غزوة أحدٍ.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لمَّا هزم الله المشركين يوم أُحدٍ، قال الرُّماة: «أدركوا النَّاس؛ ونبيَّ الله؛ لايسبقوكم إلى الغنائم؛ فتكون لهم دونكم». وقال بعضهم: «لا نريم[1] حتَّى يأذن لنا النَّبيُّ(ﷺ) »[2] فنزلت: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

قال الطَّبريُّ: قوله سبحانه: يعني الغنيمة. قال ابن ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله(ﷺ) يريد الدُّنيا حتى نزل فينا يوم أحدٍ[3]: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾

---

(1) انظر: شرح العقيدة الطَّحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق د. عبد الله التُّركي (540/2).
(2) لا نريم: لا نبرح المكان. رام مكانه ريماً: بَرِحَهُ.
(3) انظر: تفسير الطبري (474/3).

إنَّ الَّذي حدث في أُحدٍ، عبرةٌ عظيمةٌ للدُّعاة، وتعليمٌ لهم بأنَّ حبَّ الدُّنيا قد يتسلَّل إلى قلوب أهل الإيمان، ويخفى عليهم، فيؤثرون الدُّنيا، ومتاعها على الآخرة، ومتطلَّبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشَّرع الصَّريحة؛ كما عصى الرُّماة أوامر الرَّسول(ﷺ) الصَّريحة بتأويلٍ ساقطٍ، يرفعه هوى النَّفس، وحبُّ الدُّنيا، فيخالفون الشَّرع، وينسون المحكم من أوامره، كلُّ هذا يحدث، ويقع من المؤمن؛ وهو غافلٌ عن دوافعه الخفيَّة، وعلى رأسها حبُّ الدُّنيا، وإيثارُها على الآخرة، ومتطلَّبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدُّعاة التَّفتيش الدَّائم الدَّقيق في خبايا نفوسهم، واقتلاع حبِّ الدُّنيا منها، حتَّى لا تحولَ بينهم وبين أوامر الشَّرع، ولا تُوقعهم في مخالفته بتأويلاتٍ ملفوفةٍ بهوى النَّفس، وتَلَفُّتها إلى الدُّنيا، ومتاعها[1].

سابعاً: التَّعلُّق والارتباط بالدِّين:

قال ابن كثير: لـمَّا انهزم مَنِ انهزم من المسلمين يوم أُحدٍ، وقُتل مَنْ قُتِل منهم، نادى الشَّيطانُ: ألا إن محمَّداً قد قُتل، ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين، فقال لهم: قتلتُ محمَّداً، وإنَّما كان قد ضرب رسولَ الله(ﷺ) فشجَّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من الناس، واعتقدوا: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد قُتِل، وجوَّزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثيرٍ من الأنبياء - عليهم السَّلام - فحصل ضعفٌ، ووهنٌ، وتأخُّرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ **[آل عمران: 144]** أي: له أُسوةٌ بهم في الرِّسالة، وفي جواز القتل عليه[2].

وقد جاء في تفسير الآية السَّابقة: «إنَّ الرُّسل ليست باقيةً في أقوامها أبداً، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ومهمَّة الرَّسول تبليغ ما أُرسل به؛ وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلودَ لأحدٍ في هذه الدُّنيا ، ثمَّ قال تعالى منكراً على مَنْ حصل له ضعفٌ لموت

---

(1) المصدر السَّابق نفسه.

(2) انظر: المستفاد من قصص القران (197/2).

النَّبيّ(ﷺ) ، أو قتله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى﴾ أي: رجعتم ﴿أَعْقَابِكُمْ﴾، وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني: الإدبار عمَّا كان رسول الله(ﷺ) يقوم به من أمر الجهاد ومتطلَّباته، الَّذين لم ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، أو ظلُّوا ثابتين على دينهم، متَّبعين رسوله حيّاً، أو ميتاً»[1].

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب الَّتي حدثت للمسلمين يوم أُحدٍ: أنَّهم ربطوا إيمانهم، وعقيدتهم، ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته، بشخص رسول الله(ﷺ) ، فهذا الرَّبط بين عقيدة الإيمان بالله ربّاً معبوداً وحدَه، وبين بقاء شخص النَّبيّ(ﷺ) خالداً فيهم خالطه الحبُّ المغلوب بالعاطفة، الرَّبط بين الرِّسالة الخالدة وبين الرَّسول(ﷺ) البشر؛ الَّذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصَّحابةَ رضي الله عنهم من الفوضى، والدَّهشة، والاستغراب، ومتابعة الرَّسول(ﷺ) أساس وجوب التأسِّي به في الصَّبر على المكارِه، والعمل الدَّائب على نشر الرِّسالة، وتبليغ الدَّعوة، ونصرة الحقِّ.

وهذا التَّأسِّي هو الجانب الأغرُّ من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنَّه الدِّعَامَةُ الأولى في بناء مسيرة الدَّعوة لإعلاء كلمة الله، ونشرها في افاق الأرض، وعدم ربط بقاء الدِّين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النَّبيّ(ﷺ) في هذه الدُّنيا، لا يلحقه فناءٌ بموتٍ، أو قتلٍ، وإيجاب متابعة الرَّسول(ﷺ) والتأسِّي به علماً، وعملاً هما الوَشيجةُ العظمى لتماسك المجتمع المسلم، ولا سيَّما الدُّعاة إلى الله من أتباعه[2].

قال ابن القيِّم: «إنَّ غزوة أحدٍ كانت مقدِّمةً، وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله(ﷺ) ، فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم؛ إن مات رسول الله(ﷺ) ، أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه، وتوحيده، ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنَّما يعبدون ربَّ محمَّدٍ، وهو لا يموت، فلو مات محمَّد، أو قُتل، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكلُّ

(1) انظر: تفسير القران العظيم (441/1).

(2) انظر: المستفاد من قصص القران (200/2).

نفسٍ ذائقةُ الموت، وما بُعِثَ محمَّد(ﷺ) ليخلَّد، لا هو، ولا هم، بل ليموتوا على الإســـلام والتَّوحيد، فإنَّ الموت لابدَّ منه، سواءٌ أمات رسول الله(ﷺ) ، أم بقي، ولهذا وبَّخهم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لـمَّا صرخ الشَّيطان: إنَّ محمَّداً قد قُتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـــلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144].

والشَّـــاكرون هم الَّذين عرفوا قدر النِّعمة، فثبتوا عليها؛ حتَّى ماتوا، أو قُتِلُوا، فظهر أثرُ هذا العتاب، وحكمُ هذا الخطاب يوم مات رســـول الله(ﷺ) ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشَّاكرون على دينهم، فنصرهم الله، وأعزَّهم، وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم»[1].

قال القرطبيُّ: « فهذه الآية من تَتِمَّـةِ العتـاب مـع المنهزمين، أي: لـم يكن لهم الانهـزام وإن قُـــتل محمَّد، والنُّبوَّة لا تَدْرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»[2]. وكلامه – رحمه الله – نفيسٌ جدّاً، فالَّذين ظنُّوا مِنْ قبل: أنَّ الإســلام قد انتهى بموت النَّبيّ(ﷺ) ، والَّذين يظنُّون: أنَّ ظهور الإسلام، ودعوته متوقفٌ على شخصٍ بعينه، فهؤلاء، وأولئك قد أخطؤوا، ولم يقدِّروا هذا الدِّين قدره، ولم يوفوه حقَّه؛ لأنَّ ظهور هذا الدِّين، وهيمنته على كلِّ الأديان، هو قدر الله – عزَّ وجلَّ – وســنته، ولن تجد لســنة الله تبديلاً. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 33].

فسبب ظهور هذا الدِّين: أنَّه حقٌّ، وأنَّه هدىً[3].

في غزوة أُحدٍ نزل التَّشـــريع الإلهيُّ بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أُحد، وعند موت الرَّسول(ﷺ) جاء التَّطبيق؛ حيث «لـمَّا تُوفِّي رسولُ الله(ﷺ) أقبل أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على فرسٍ من مَسكنَه بالسُّنْحِ، حتَّى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم الناسَ، حتَّى

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (616/3).
(2) انظر: زاد المعاد (224/3).
(3) انظر: تفسير القرطبي (222/4).

دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمَّمَ[1] رسولَ الله(ﷺ) وهو مُغَشًّى بثوب حَبِرَةٍ[2]، فكشف عن وجهه(ﷺ) ، ثمَّ أكبَّ عليه، فقبَّله، وبكى، ثُمَّ قال: بأبي أنت وأمِّي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك، فقدْ مُتَّها».

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ أبا بكر خرج، وعمرُ يكلِّم النَّاسَ، فقال: اجلس يا عمرُ! فأبى عمرُ أن يجلسَ، فأقبل النَّاسُ إليه، وتركوا عمرَ رضي الله عنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمَّا بعدُ: مَنْ كان منكم يعبد محمَّداً(ﷺ) فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ **[آل عمران: 144]**.

وقال: والله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا: أنَّ الله أنزل هذه الآية حتَّى تلاها أبو بكر، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهم، فما أسمعُ بشراً من النَّاس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيّب: أنَّ عمر رضي الله عنه قال: والله! ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه تلاها، فَعَقِرْتُ[3]؛ حتَّى ما تُقلَّني رجلاي، وحتَّى أهويتُ إلى الأرض، حين سمعتُه تلاها؛ علمت: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) قد مات» **[البخاري (4454)]**.

ثامناً: معاملة النَّبيّ(ﷺ) للرُّماة الَّذين أخطؤوا، والمنافقين الَّذين انخذلوا:

أ – الرُّماة:

إنَّ الرُّماة الَّذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أُحدٍ لم يُخْرِجْهم الرَّسول(ﷺ) خارج الصَّفِّ، ولم يقل لهم: إنَّكم لا تصلحون لشيءٍ من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التَّجربة من النَّقص، والضَّعف، بل قبل ضعفهم هذا في رحمةٍ، وعفوٍ، وفي سماحةٍ، ثمَّ شمل – سبحانه وتعالى –

---

(1) انظر: مرض النبي صلى الله عليه وسلموموفاته ، وأثر ذلك على الأمَّة لخالد أبو صالح ، ص 20 نقلاً عن غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص191.

(2) الحِبَرَةُ: نوعٌ من برود اليمن مخطَّطة غالية الثمن.

(3) عُقرت: أي هلكت ، وفي رواية: فَعقِرت: أي دهشت ، وتحيَّرت ، أو سقطت.

برعايته وعفوه جميع الَّذين اشتركوا في هذه الغزوة، رغم ما وقع مِنْ بعضهم مِنْ أخطاءٍ جسيمةٍ، وما ترتَّب عليه مِنْ خسائرَ فادحةٍ، فعفا - سبحانه وتعالى - عنهم عفواً غسل به خطاياهم، ومحا به آثار تلك الخطايا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 152]**.

وهناك أمرٌ مهمٌّ يتَّصل بهذا العفو، قد يترك أثراً في نفوسهم يعوِّقها بعض الشَّيء، ذلك هو موقف رسول الله(ﷺ) ممَّا حدث منهم؛ إنَّهم يشعرون: أنَّ الرَّسول(ﷺ) هو وحده الَّذي تحمَّل نتيجة تلك الأخطاء، فلابدَّ أن ينالوا منه عفواً؛ تطيب به نفوسهم، وتتمُّ به نعمة الله عليهم؛ لهذا أمر الله - سبحانه وتعالى - نبيَّه(ﷺ) بأن يعفو عنهم، وحثَّهُ على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم، والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم، ومشورتهم[1].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ **[آل عمران: 159]**.

ب - انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمئةٍ من المنافقين، أن يُحدث بلبلةً، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ؛ لتنهار معنويَّاته، ويتشجَّع العدو، وتعلو همَّته. وعملُه هذا ينطوي على استهانةٍ بمستقبل الإسلام، وغدرٍ به في أحلك الظُّروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم

---

(1) انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة، ص218.

من ذلك الانخذال، إلا أنَّهم رفضــوا دعوتَه[1]، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَــابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَــبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ **[آل عمران: 166 – 167]**.

فبالرَّغم من خطورة الموقف، وحاجة المسلمين لهذا العدد لقلَّة جيش المسلمين، وكثرة جيش قريش، إلا أنَّ الرَّسول(ﷺ) ترك هؤلاء المنافقين، وشأنهم، ولم يُعِرْهم أيَّ اهتمامٍ، واكتفى بفضح أمرهم أمام النَّاس[2]، وكان لهذا الأسلوب أثرُه في توبيخ وإهانــة ابن سلولٍ، فعندما رجع رسول الله(ﷺ) من غزوته من حمراء الأســد، أراد ابن ســلول أن يقوم كعادته لحثِّ الناس على طاعة رسول الله(ﷺ) .

قال الإمام الزُّهريُّ: كان عبد الله بن أُبيٍّ له مقامٌ يقومه كلَّ جمعة؛ لا ينكســر له شــرفٌ في نفســه، وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس رسولُ الله(ﷺ) يوم الجمعة وهو يخطب النَّاسُ؛ قام، فقال: أيُّها النَّاسُ، هذا رســولُ الله بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزَّكم به، فانصــروه، وعزِّروه، واسمعوا له، وأطيعوا، ثمَّ يجلس، حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع، ورجع النَّاس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المســلمون بثيابه مِنْ نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدوَّ الله! واللهِ لســتَ لذلك بأهلٍ؛ وقد صــنعتَ ما صــنعتَ! فخرج يتخطَّى رقابَ النَّاس؛ وهو يقول: والله لكأنَّما قلتُ بُجَراً[3]؛ أن قمت أشــدِّد أمره، فلقيه رجالٌ من الأنصــار بباب المســجد، فقالوا: ويلك! ما لك؟ قال: قمت أشــدِّد أمره، فوثب إليَّ رجال من أصــحابه يجبذونني، ويعنفونني، لكأنَّما قلت بُجَراً أن قمت أشدِّد أمره، قالوا: ويلك! ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله. قال: واللهِ! ما

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 219.

(2) انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص220.

(3) بُجَراً: شراً. ويُقال: ذكرَ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ؛ أي: عيوبه ، وأمرَه كلَّه.

أبغي أن يستغفر لي[1].

تاسعاً: «أُحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه»:

عن أنس بن مالكٍ رضـــي الله عنه قال: إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) طَلَعَ لَه أُحُدٌ، فقال: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا، ونُحبُّه» [البخاري (4084) ومسلم (1365)].

وهذا يدلُّ على دقَّة شـــعور النَّبيِّ(ﷺ) ؛ حيث قارن بين ما كســـبه المســـلمون من منعة التحصُّـــن، والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابليَّةٍ لذلك، فعبَّر عن ذلك بأرقى وشـائج الصِّـلة، وهي المحبَّة، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحيُّ، والإحسـاس المرهف مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟!

ألا وإنَّ الَّذي يعترف بفضـل الحجارة الصـمَّاء، ويُضـفي عليها من الأخلاق السَّـامية ما لا يتَّصف به إلا أفاضل العقلاء لجديرٌ به أن يعترف بأدنى فضلٍ يكون من بني الإنسان، وإذا كان وفاؤه(ﷺ) للجماد قد سَمَا حتَّى حاز أرقى العبارات وأرقَّها؛ فأخْلِقْ ببني الإنســـان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم مِنْ ذلك، فضلاً عمّن تجمعه بهم الأخوَّة في الله تعالى![2].

والحديث النَّبويُّ الشَّريف فيـــه كثيرٌ من المعاني ؛ منها ما ذكـــره الحميديُّ، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشَّامي؛ حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها، أو زمانها، وحتَّى لا تنســـحبَ هذه العادة، وتســـتمر بعد أن جاء الإســـلام، كان هذا القول الكريم بياناً للحقِّ، وابتعاداً عن الطِّيرَة، والتَّشـاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السَّـيئة في نفس الإنسـان، ولا شكَّ: أن المسلمين سيقفون على أُحدٍ، يتذكرون تلك المعركة، فحتَّى لا يرتبطَ بفكرهم ذلك المعنى السَّـــيء، بيَّن لهم: أن المكـان، والزَّمـان مخلوقاتٌ لله، لا علاقة لهما، ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنَّما الأمورُ بيد الله تعالى، والاستشـهادُ في سبيل الله كرامةٌ لصاحبه، لا مصيبةٌ، وهكذا

(1) انظر: البداية والنِّهاية (53/4) ، وسيرة ابن هشام (شأن عبد الله بن أُبي بعد ذلك).

(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي (198/5).

تتساوى المفاهيم في إطارها الإيمانيّ، وإذا «أُحُدٌ» يُكرَمُ، ويُحَبُّ انطلاقاً من هــذا القول الكريم، وكيف لا يُكرم وقـــد اختاره الله ليثوي فيه حمزةُ، وأصـحابه، ممَّن اختارهم الله في ذلك اليوم، فجادوا بأنفسهم ابتغاءَ مرضاته؟![1].

عاشراً: الملائكة في أُحدٍ:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: رأيتُ عن يمين رسول الله(ﷺ) وعن شماله يوم أُحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بياضٍ، يقاتلان عنه كأشدِّ القتال، ما رأيتُهما قبلُ، ولابعدُ - يعني: جبريلَ، وميكائيلَ عليهما السَّلام - **[البخاري (4054)، ومسلم (2306)]**.

وهذا خاصٌّ بالدِّفاع عن النَّبيِّ(ﷺ) ؛ لأنَّ الله تكفَّل بعصــمته من النَّاس، ولم يصــحَّ: أنَّ الملائكة قاتلت في أُحدٍ ســوى هذا القتال - وإنْ وعدهم الله تعالى أنْ يمدَّهم -؛ لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاثة أمورٍ: الصَّــبر، والتَّقوى، وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقَّق هذه الأمور، فلم يحصل الإمداد[2].

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَى إِنْ تَصْــبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَــةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ **[آل عمران 124 -125]**.

حادي عشر: قوانين النَّصر والهزيمة من سورة الأنفال، وال عمران:

تحدَّثت سـورة الأنفال عن غزوة بدرٍ بشــيءٍ من التَّفصـيل، وتحدَّثت سـورة ال عمران عن غزوة أُحدٍ، لكي تتعلَّم الأمَّة كثيراً من المفاهيم، تتعلَّق بمفهوم القضــــاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النَّصـر والهزيمة، ومفهوم الرِّبح والخسـارة، ومفهوم الإيمان والنِّفاق، ومفهوم المحنة والمحق... إلخ، ومن المفاهيم الَّتي تعلَّمها الصَّـــحابة رضــي الله عنهم من خلال أحداث بدرٍ،

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 427.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة 391/2.

وأحدٍ، وســـورتي الأنفال، وال عمران قوانينُ النَّصـــر والهزيمة، وهذه القوانين قد بيَّنتها الآيات الكريمة، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – النَّصر ابتداءً وانتهاءً بيد الله – عزَّ وجلَّ – وليس مُلْكاً لأحدٍ من الخلق، يهبه الله لمن يشـاء، ويصـرفه عمَّن يشـاء، مثله مثل الرِّزق، والأجل، والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْـرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: 10].

2 – وحين يقدِّر الله تعالى النَّصـر؛ فلن تسـتطيع قوى الأرض كلُّها الحيلولة دونه، وحين يقدِّر الهزيمة؛ فلن تسـتطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمَّة. قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُـرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُـرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: 160].

3 – ولكنَّ هذا النَّصـر له نواميسُ ثابتةٌ عند الله – عزَّ وجلَّ – نحن بحاجةٍ إلى فقهها، فلابدَّ أن تكون الرَّاية خالصـةً لله سـبحانه عند الَّذين يمثِّلون جنده. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُـرُوا اللَّهَ يَنْصُـرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: 7]، ونصـرُ الله في الاسـتجابة له، والاستقامة على منهجه، والجهاد في سبيله.

4 – ووحدة الصَّفِّ ووحدة الكلمة أساسٌ في النَّصر. وتفريقُ الكلمة، والاختلاف في الرأي دمارٌ وهزيمةٌ. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46].

5 – وطاعة أمرِ الله تعالى، ورسوله(ﷺ) وعدم الخروج عليها أساسٌ في النَّصر، أمَّا المعصية؛ فتقود إلى الهزيمة. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46].

6 – وحب الدُّنيا، والتَّهافت عليها يُفْقدُ الأمَّة عون الله، ونصـره. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ

يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

7 – ونقص العدد والعُدَّة ليس هو سبب الهزيمة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: 123].

8 – ولكن لابدَّ من الإعداد المادِّيِّ، والمعنويِّ لمواجهة العدوِّ[1]. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 60].

9 – والثَّبات عند المواجهة، والصَّبر عند اللِّقاء، من العوامل الرَّئيسية في النَّصر. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: 15].

10 – ولا شيء يعين على الثبات والصَّبر عند اللِّقاء، مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزِّل النَّصر، وطلب العون منه، والتوكُّل عليه، وعدم الاعتماد على العدد، أو العدَّة، أو الذَّات، والتبرُّؤ من الحول، والقوَّة، هو عاملٌ أساسيٌّ من عوامل النَّصر[2]. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45].

ثاني عشر: فضل الشُّهداء وما أعدَّه الله لهم من نعيمٍ مقيمٍ:

قال رسول الله(ﷺ) : لما أُصيب إخوانُكم بأُحدٍ، جعل اللهُ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيبَ مشربهم، ومأكلهم، وحُسْنَ مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلُوا[3] عن الحرب! فقال – عزَّ وجلَّ –: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله

---

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص 461. 462.
(2) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص 463.
(3) نكل عن الأمر نكولاً: نكص.

– عزَّ وجلَّ – على رســـوله(ﷺ) هـذه الآيات. [أحمد (266/1)، وأبو داود (2520)، وأبو يعلى (2331)][1].

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْـتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْـــتَبْشِـــرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْـــلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِـــيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169 – 171].

وقد جاء في تفسير الآيات السَّابقة ما رواه الواحديُّ عن سعيد بن جبير: أنَّه قال: لـــمَّا أُصيب حمزةُ بن عبد المطَّلب، ومصعب بن عمير يوم أُحدٍ، ورأوا ما رزقوا من الخير؛ قالوا: ليت إخوانَنا يعلمون ما أصـــابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبةً، فقال الله تعالى: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَـــبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِـــيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وروى مسـلمٌ بسـنده عن مسـروقٍ، قال: سـألنا عبدَ الله بن مسـعودٍ عن هذه الآية: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169].

قال: أمَا إنَّا قد سـألْنا عن ذلك، فقال: «أرواحُهم في جوف طيرٍ خُضْـرٍ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش، تسـرح من الجنَّة حيث شـاءت، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلَعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشـتهون شـيئاً؟ قالوا: أيَّ شـيءٍ نشـتهي؛ ونحن نَسْـرَحُ من الجنَّة حيث شـئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلـــمَّا رأوا: أنهم لن يُتْرَكُوا من أن يُسْألوا، قالوا: يا ربِّ! نريد أن تَـــرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا؛ حتَّى نُقْتَلَ في سبيلك مرَّةً أخرى، فلـــمَّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ؛ تُرِكُوا» [مسلم (1887)].

---

(1) انظر: تفسير الطَّبري (170/4) ، وسيرة ابن هشام (مصير قتلى أُحد).
(2) انظر: أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص 125 ، وتفسير الطَّبريِّ (269/4).

ثالث عشر: الهجوم الإعلاميُّ على المشركين:

كان الإعلام في العهد النَّبويِّ يقوم على الشِّعر، وكان شعراء المشركين في بدرٍ في موقف الدِّفاع والرِّثاء، وفي أُحدٍ حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النَّصر، فجعلوا من الحبة قبَّةً، وأمام هذا الكبرياء المزيَّف انبرى حسَّان بن ثابتٍ، وكعب بن مالكٍ، وعبد الله بن رواحة للردِّ على حملات المشركين الإعلاميَّة؛ الَّتي قادها شعراؤهم؛ كهبيرة ابن أبي وهبٍ، وعبد الله بن الزِّبعرى، وضرار بن الخطَّاب، وعمرو بن العاص[1].

وكانت قصائد حسَّان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملةَ لواءِ المشركين، ويُوبِّخ المشركين، ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم، حتَّى كان في النِّهاية بيد امرأةٍ منهم، وولَّى أشرافُهم، وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكيرٌ للمشركين بمواقف الذُّلِّ، والجبن؛ الَّتي تعرَّضوا لها في بداية المعركة، حتَّى لا يغترُّوا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسَّان من المشركين مقتلاً، حينما عَيَّرَهم بالتخلِّي عن اللِّواء، وإقدام امرأةٍ منهم على حمله، وهذا يتضمَّن وصفهم بالجُبْنِ الشَّديد، حيث أقدمتِ امرأةٌ على ما نَكَلُوا عنه[2].

وممَّا قاله في شأن عَمرة بنت علقمة الحارثيَّة، ورفعها اللِّواء:

إِذَا عَضَلٌ سِيْقَتْ إِلَيْنَا كَأَنَّهَا ... جِدَايةُ شِرْكٍ مُعْلِماتِ الحَواجِبِ[3]

أَقَمْنَا لَهُمْ طَعْناً مُبِيراً مُنَكِّلاً ... وحُزْنَاهمُ بالضَّرْبِ مِنْ كلِّ جَانِبِ[4]

فَلَوْلاَ لِوَاءُ الحَارِثِيَّةِ أصْبَحُوا ... يُباعون في الأسْوَاقِ بَيْعَ الجَلائِبِ[5]

---

(1) انظر: من معين السِّيرة، ص 252 . 253.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي (21/5).

(3) عضل: اسم قبيلة ابن خزيمة. الجداية: الصَّغير من أولاد الظِّباء.

(4) مُبيراً: مهلكاً ومنكلاً: قامعاً لهم ولغيرهم.

(5) الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق؛ ليباع فيها.

وعندما أخذ اللِّواءَ من الحارثيَّة غلامٌ حبشيٌّ لبني أبي طَلْحَةَ – وكان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثيَّة – وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره، فرمى حسان بن ثابتٍ أبياته في هذا الموضوع، فقال:

فَخَرْتُمْ بِاللِّواءِ وَشَــــرُّ فَخْرٍ ... لِــوَاءٌ حِــيْنَ رُدَّ إلى صُــــؤابِ
جَعَلْتُمْ فَخْرَكَمْ فِيْــهِ بِعَبْــدٍ ... وَأَلأَمِ مَــنْ يَــطَـا عَــفَـر الـتُّرَابِ
ظَنَنْتُمْ والسَّـــفِيْـهُ لَـهُ ظُنُونٌ ... وَمَـا إِنْ ذَاكَ مِنْ أَمْرِ الصَّـــوَابِ[1]

وممَّا قاله كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في الردِّ على بعض شعراء قريش:

أبْلِغْ قُرَيْشـــــاً وَخَيْرُ القَوْلِ ... والصِّـدْقُ عِنْدَ ذَوِي الألبابِ مَقْبُولُ[2]
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا سَـــرَاتَكُمْ ... أَهْــلَ اللِّوَاءِ فَفِيْمَــا يَكْثُرُ القِيْــلُ
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَـــــنَا مَدَدٌ ... فِيْــهِ مَعَ النَّصْـــرِ مِيْكَــالٌ وَجِبْرِيْــلُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِيْنُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا ... وَالقَتْـلُ فِي الحَقِّ عِنْـدَ الله تَفْضِــيْـلُ
وَإِنْ تَرَوا أَمْرَنا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهاً ... فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإِسْـلاَمَ تَضْـلِيْلُ[3]

وَمِنْ أعجب ما قرأت في المعركة الإعلاميَّة بين المســـلمين، والمشـــركين محاولةُ ضـــرار بن الخطَّاب قبل إسـلامه أن يفتخر ببدرٍ على اعتبار النَّصـر كان لرسـول الله(ﷺ) والمهاجرين، وفي ذلك قوله:

فَـإِنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْمِ بَـدْرٍ فَـإِنَّمَـا ... بِأَحْمَـدَ أَمْسَـــى جَـدُّكُمْ وَهُوَ ظَـاهِرُ
وَبِالنَّـفَرِ الأَخْيَــارِ هُمْ أَوْلِيَــاؤُهُ ... يُحَامُوْنَ فِي اللأْوَاءِ وَالْمَوْتُ حَـاضِـــرُ
يُعَــدُّ أَبُو بَـكْـرٍ وَحَمْزَةُ فِيْـهِمُ ... وَيُدْ عَنْ عَلِيٍّ وَسْـــطَ مَنْ أَنْتَ ذاكرُ
وَيُدْعَى أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمُ ... وَسَـعْدٌ إِذَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حاضـرُ

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (87/3).

(2) الألباب: العقول.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (164/3).

أُولَئكَ لاَ مَنْ نَــتَّجَت مِنْ دِيَارِها　　　بَنُو الأَوْسِ والنَّجَّارِ حِيْنَ تُـــفَاخِرُ[1]

وهكذا حوَّلها إلى لغة قبليةٍ، تقوم على مفاهيم جاهليَّةٍ، ولقد أجابه كعبٌ رضي الله عنه:

وفينا رســولُ الله والأوْسُ حَوْلَهُ　　　لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيْزٌ وَنَاصِــرُ

وجَمْعُ بَنِي النَّجَّـارِ تَحْـتَ لِوَائِـهِ　　　يُمْسُـونَ فِي المأذَى والنَّقْعُ ثَائِرُ

إلى أن قال:

وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا　　　فَولَّوا وقالُوا: إنَّما أَنْتَ سَــاحِرُ

لأمْرٍ أرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِـهِ　　　ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّـه النَّـارُ زَاجِرُ

كما أجابه بقوله:

وَبِيَوْمِ بَــدْرٍ إِذْ نَرُدُّ وُجُوْهَهُمْ　　　جِبْرِيْـلُ تَحْـتَ لِوَائِنَـا وَمُحَمَّـدُ

وهو أفخرُ بيتٍ قالته العرب – كما قال صاحب العِقد الفريد[2].

* * *

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص252.

(2) المصدر السابق نفسه.

الفصل العاشر

أهمُّ الأحداث ما بين أحدٍ والخندق

المبحث الأوَّل

محاولات المشركين لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة

كانت غزوة أُحدٍ مشجِّعةً لأعداء الدَّولة الإسلاميَّة على مواجهتها، وساد الشُّعورُ لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين، والتَّغلُّب عليهم، واتَّجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة؛ لاستئصال شَأْفَتِهم[1]، وكسر شوكتهم، فطمعت بنو أسد في الدَّولة الإسلاميَّة، وشرع خالد بن سفيان الهُذليُّ لجمع الحشود؛ لكي يهاجم بها المدينة، وتجرَّأت عَضَل وقارَة[2] على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطُّفَيل بقتل القُرَّاء الدُّعاة الامنين، وحاولت يهود بني النَّضير أن تغتال رسولَ الله(ﷺ) ، فتصدَّى لهذه المحاولات الماكرة الحبيبُ المصطفى(ﷺ) بشجاعةٍ فائقةٍ، وسياسةٍ ماهرةٍ، وتخطيطٍ سليمٍ، وتنفيذٍ دقيقٍ.

أولاً: طمع بني أسدٍ في الدَّولة الإسلاميَّة:

بلغت النَّبيَّ(ﷺ) بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربيَّة أخبارُ الاستعدادات الَّتي قام بها بنو أسدِ بن خزيمة بقيادة طُلَيْحة الأسديِّ من أجل غزو المدينة؛ طمعاً في خيراتها، وانتصاراً لشركهم، ومظاهرةً لقريش في عدوانها على المسلمين، فسارع النَّبيُّ(ﷺ) إلى تشكيل سريةٍ من مئةٍ وخمسين

---

(1) استأصل الله شَأْفَتَهُ: أزاله من أصله.

(2) عضل والقارة: بطنان من الهون ، (الهون) بن خزيمة بن مدركة.

رجلاً من المهاجرين، والأنصار، وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد[1]المخزوميَّ، وعقد له لواءً، وقال له: سِـرْ حتَّى تنزلَ أرض بني أسـد، فأغرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعُهم[2]، فسـار إليهم أبو سـلمةَ في المحرَّم[3]، فأغار على أنعامهم ، ففرُّوا مِنْ وجهه؛ فأخذها، ولم يلقَ عناءً في تشتيت أعداء الإسلام، وعاد إلى المدينة مظفَّراً. وأبو سلمةَ يعدُّ من السَّابقين إلى الإيمان، ومن خيرة الرَّعيل الأوَّل، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً؛ إذ نَفَر جرحُه الَّذي أصـابه في (أُحدٍ) فلم يلبث حتَّى مات[4].

ونلحظ في هذه السَّريَّة عدَّة أمورٍ؛ منها: الدِّقَّة في التَّخطيط الحربيّ عند النَّبيّ(ﷺ) ؛ حيث فرَّق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سـريَّة أبي سـلمة؛ وهم يظنُّون: أنَّ المسـلمين قد أضعفتهم وقعة أُحدٍ، وأذهلتْهم عن أنفسهم، فأُصيب المشركون بالرُّعب من المسلمين، ووَهَنتْ عزيمتُهم، وانشـغلوا بأنفسـهم عن مهاجمة المدينة. وتظهر دقَّة المسـلمين في الرَّصـد الحربيّ، واختيارهم التَّوقيت الصَّحيح، والطَّريق المناسبة؛ حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أيَّ شـيءٍ رغم بُعْدِ المسافة، وكان هذا هو أهمُّ عوامل نجاح المسلمين في هذه السَّريَّة، وتركت هذه السَّريَّة في نفوس الأعداء شعوراً مؤثِّراً على معنويَّاتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة، الَّتي تجعلهم يمتلئون رعباً منهم، ويتوقَّعون الإغارة في أيِّ وقتٍ، وهذا الشُّعور حملهم على الاعتراف بقوَّة المسلمين، ومسالمتهم[5].

ثانياً: خالد بن سفيان الهُذليُّ وتصدِّي عبد الله بن أنيسٍ رضي الله عنه له:

قام خالد بن سـفيان الهذليُّ يجمِّع المقاتلة من هُذَيْلٍ وغيرها في عرفات، وكان يتهيَّأ لغزو المسلمين فـي المدينـة ؛ مظاهرةً لقريـشٍ، وتقرُّباً إليها، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة، وطمعاً في

(1) انظر: نضرة النعيم (313/1).
(2) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص 162 . 163.
(3) انظر: زاد المعاد (243/3).
(4) فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص 274.
(5) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديّ (23/6).

خيرات المدينة؛ فأرسل رسولُ الله(ﷺ) الصَّحابيَّ عبدَ الله بن أُنَيْس الجُهَنيَّ إليه بعد أن كلَّفه مهمَّة قتله[1]، وهذا عبد الله بن أنيس يحدِّثنا بنفسه، قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله(ﷺ)، فقال: «إنَّه قد بلغني: أنَّ خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي النَّاس؛ ليغزوني، وهو بعرنة، فائته، فاقتله»، قال: قلت: يا رسولَ الله، انعته حتَّى أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قُشَعريرةً»[2].

قال: فخرجتُ متوشحاً سيفي، حتَّى وقعتُ عليه بعرنة مع ظَعْنٍ يرتاد لهنَّ منزلاً، حين كان وقت العصر، فلمَّا رأيتُه وجدت ما وصف لي رسول الله من القُشَعريرة، فأقبلتُ نحوه، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولةٌ تشغلني عن الصَّلاة، فصلَّيتُ وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الرُّكوع، والسُّجود، فلمَّا انتهيت إليه قال: مَنِ الرَّجلُ؟ قلت: رجلٌ من العرب سمع بك ، وبجمعك لهذا الرَّجل ، فجاءك لهذا ، قال: أجل أنا في ذلك ، قال: فمشيت معه شيئاً، حتَّى إذا أمكنني حملت عليه بالسَّيف حتَّى قتلتُه، ثمَّ خرجت، وتركت ظعائنه مكبَّاتٍ عليه، فلمَّا قدمت على رسول الله(ﷺ) فراني، فقال: «أفلح الوجه»، قال: قلت: قتلتُه يا رسول الله! قال: «صدقت»، قال: ثمَّ قام معي رسول الله فدخل في بيته، فأعطاني عصاً، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أُنَيْس!».

قال: فخرجت بها على النَّاس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله(ﷺ) ، وأمرني أن أمسكَها، قالوا: أوَ لا ترجع إلى رسول الله(ﷺ) فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله(ﷺ) ، فقلت: يا رسول الله! لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقلَّ النَّاس المختصرون[3] يومئذ يوم القيامة» فقرنها عبد الله بسيفه، فلم تزل معه، حتَّى إذا مات أمر بها، فضمَّت معه في كفنه، ثمَّ دُفنا جميعاً. **[أحمد (3/496)، وأبو يعلى (905)، ومجمع الزوائد (6/203)، وأبو داود مختصراً (1249)]**.

---

(1) انظر: نضرة النَّعيم (1/313).

(2) القُشعريرةُ: الرِّعدةُ.

(3) المختصرون ، أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحةٌ يتَّكئون عليها.

وفي هذا الخبر فوائدُ، ودروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 - دقَّة الرَّصد الحربيِّ:

كان رســـول الله(ﷺ) يعطي للجانب الأمنيّ أهمِّيَّته، ولذلك كان يتابع تحرُّكات الأعداء، ويعدُّ بعد ذلك الحلول المناسـبة للمشـكلات، والأزمات في وقتها الملائم، ولذلك لم يمهل خالد بن سـفيان حتَّى يكثر جمعُه، ويشـتدَّ سـاعدُه؛ بل عمل على القضـاء على الفتنة وهي في أيَّامها الأولى بحزمٍ، وبذلك حقَّق للأمَّة مكاســب كبيرةً، وقلَّل الخســائر المتوقَّعة من مجيء خالد بن سفيان بجيشٍ لغزو المدينة، وهذا العمل يحتاج لقدرةٍ في الرَّصد الحربيِّ، وسرعةٍ في اتِّخاذ القرار.

2 - فِراسَةُ[1] النَّبيِّ(ﷺ) في اختيار الرِّجال:

كان(ﷺ) يتمتَّع بِفراسَــةٍ عظيمةٍ في اختيار الرِّجال، ومعرفةٍ كبيرةٍ لذوي الكفاءات من أصــحابه، فكان يختار لكلِّ مهمَّةٍ مَنْ يناســبها، فيختار للقيادة مَنْ يجمع بين ســداد الرَّأي، وحسن التَّصرُّف والشَّـجاعة، ويختار للدَّعوة والتَّعليم مَنْ يجمع بين غزارة العلم، ودَمَاثَةِ[2] الخُلُق والمهارة في اجتذاب النَّاس، ويختار للوِفَادة على الملوك والأمراء مَنْ يجمع بين حُسْــنِ المظهر، وفصاحة اللِّسان، وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائيَّة يختار مَن يجمع بين الشَّجاعة الفائقة، وقوَّة القلب، والمقدرة على التحكُّم في المشـــاعر[3]. وقد كان عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنيُّ قويَّ القلب، ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان[4]، وبجانب هذه الصِّـفات العظيمة التي أهَّلته لهذه المهمَّة، فهناك ســببٌ آخر، فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه «جُهَينة»[5].

---

(1) فرسَ الأمرَ فِرَاسَةً: أدرك باطنَه بالظنِّ الصائب.
(2) دَمُثَ دَمَاثَةً وَدُموثَةً: سَهُلَ خُلُقُهُ.
(3) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (27/6).
(4) انظر: محمد رسول الله، لصادق عرجون (50/4 ـ 51).
(5) انظر: غزوة أحد، لمحمد باشميل، ص 31.

3 – المكافأة على هذا العمل أخروية:

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء، مادِّيةً دنيويَّةً – كما يتمنَّاه الكثير ممَّن يقوم بالمهمات الشَّاقَّة في جيوش العالم قديماً، وحديثاً – بل كانت أسمى من ذلك، وأعظم؛ فهي وسام شرفٍ أخرويّ قليلٌ مَنْ يناله[1]، فقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم وسائرُ المتَّقين لا ينتظرون جزاءً في الدُّنيا – ولو حصلوا على شيءٍ من متاع الدُّنيا فإنَّه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً؛ وإنَّما ينتظرون جزاءهم في الآخرة، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيسٍ تلك العصا؛ الَّتي ستكون علامةً بينه وبين رسول الله(ﷺ) يوم القيامة، وهذا يدلُّ على علوِّ مكانته في الآخرة[2].

4 – بعض الأحكام الفقهيَّة:

تضمَّن هذا الخبر بعض الأحكام، والفوائد؛ منها: (صلاة الطَّالب). قال الخطَّابيُّ: واختلفوا في صلاة الطَّالب، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوباً كان له أن يُصَلِّيَ إيماءً، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً، وصلَّى بالأرض راكعاً، وساجداً[3]، وكذلك قال ابن المنذر(4)، أمَّا الشَّافعيُّ فشرط شرطاً لم يشترطه غيره، قال: إذا قلَّ الطَّالبون عن المطلوبين وانقطع الطَّالبون عن أصحابهم، فيخافون عودة المطلوبين عليهم، فإذا كان هكذا؛ كان لهم أن يصلُّوا يومئون إيماءً.

قال الخطَّابيُّ: وبعض هذه المعاني موجودةٌ في قصَّة عبد الله بن أُنيس[4].

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب، فعند أبي حنيفة إذا كان الرَّجل مطلوباً؛ فلا بأس بصلاته سائراً، وإن كان طالباً؛ فلا، وقال مالكٌ، وجماعةٌ من أصحابه: هما سواءٌ، كلُّ واحدٍ منهما يصلِّي على دابَّته.

---

(1) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص 159 . 160.

(2) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (29/6).

(3) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص 160.

(4) انظر: معالم السُّنن، للخطَّابي (42/2) على سنن أبي داود، حاشية رقم (1).

وقال الأوزاعيُّ، والشَّـافعيُّ في آخرين كقول أبي حنيفة، وهو قول عطاء، والحسـن والثَّوريُّ، وأحمد، وأبي ثور. وعن الشَّافعيِّ: إن خاف الطَّالب فوت المطلوب؛ أومأ، وإلاَّ؛ فلا[1].

5 – جواز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ(ﷺ) :

يجوز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ(ﷺ) ؛ فعبد الله بن أنيس رضـــي الله عنه أدَّاه اجتهاده أن يصـــلِّي هذه الصَّـــلاة، ولم ينكر عليه(ﷺ) ممَّا يدلُّ على جواز الصَّـــلاة عند شـــدَّة الخوف بالإيماء[2].

وهذا الاستدلال صحيحٌ، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ عبد الله بن أُنيس فعل ذلك في حياة النَّبيِّ(ﷺ) ، وذلك زمن الوحي، ومحالٌ: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) لم يطَّلع عليه[3].

6 – مِنْ دلائل النُّبوَّة:

وَصَفَ(ﷺ) خالدَ بن سفيان الهذليَّ لعبد الله بن أُنَيس وصفاً دقيقاً دون أن يراه، حتَّى إنَّ ابن أُنيس عندما ردَّ على رسول الله(ﷺ) متعجباً – كما وقع في رواية الواقديِّ –: يا رسول الله! ما فَرِقْتُ[4] من شيءٍ قطُّ، قال له رسول الله(ﷺ) : «بلى، آية ما بيني وبينه أن تجد له قُشَعريرةً إذا رأيته[5]»، وقد وجد عبد الله بن أُنيس خالدَ الهُذليَّ على الصِّفة؛ الَّتي ذكر رسول الله(ﷺ) ، يقول عبد الله: فلما رأيته؛ هبته، وفَرِقْتُ منه، فقلت: صدق الله، ورسولُه[6].

7 – ما قاله عبد الله بن أُنيس من الشِّعر في قتله لخالد الهُذليِّ:

تَرَكْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كالحُوَارِ وَحَوْلَهُ نَوَائِحُ تَفْرِيْ كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ
تَـنَاوَلْتُهُ والظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ بِأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الحَديْدِ المهَنَّدِ

(1) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (263/6).
(2) انظر: السَّرايا والبعوث ، ص 161.
(3) انظر: عون المعبود ، للعظيم ابادي (129/4).
(4) فَرِقَ فرقاً: جزع واشتدَّ خوفُه ، فهو فَرِقٌ.
(5) انظر: مغازي الواقدي (532/2).
(6) انظر: دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (41/4) من رواية موسى بن عقبة.

أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْجُمُ رَأْسَهُ   أَنَا ابْنُ أُنَيْسٍ فَارِسَاً غَيْرَ قُعْدُدِ
وَقُلْتُ لَهُ خُذْهَا بِضَرْبَةِ مَاجِدٍ   حَنِيْفٍ عَلَى دِيْنِ النَّبِيِّ مُحَمَّـدِ
وَكُنْـتُ إِذَا هَمَّ النَّبِيُّ بِكَـافِرٍ   سَبَقْتُ إِليهِ بِاللِّسَانِ وَباليَدِ[1]

ثالثاً: غدر قبيلتي عَضلُ والقَارَّة، وفاجعة الرَّجيع[2]:

اختلفت مرويات ســـريَّة الرَّجيع فيما بينها كثيراً حول السَّـــبب الَّذي من أجله بعث النَّبيُّ(ﷺ) هذه السَّـــريَّة، وفي الوقت الَّذي يورد البخاريُّ بأنَّه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدوِّ [البخاري (4086)]، فإنَّ مروياتٍ أخرى بأســـانيد صـــحيحةٍ ورد فيها: أنَّه قدِم على رسول الله(ﷺ) رهطٌ من قبيلتي عضل، والقَارَّة المضَرِيَّـتَـيْنِ إلى المدينة وقالوا: «إنَّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصـحابك يفقِّهوننا، ويقرئوننا القرآن ويعلِّمونا شـرائع الإسـلام»[3] ويظهر: أنَّ قبيلة هُذيل قد ســعت للثَّأر من المســلمين لخالدٍ ابن ســفيان الهذليِّ، فلجأت إلى الخديعة والغدر. وقد جزم الواقديُّ[4] بأنَّ السبب هو أن بني لحيان - وهم حيٌّ من هُذَيل - مَشَتْ إلى عَضَـل، والقَارَّة، وجعلت لهم جُعْلاً ليخرجوا إلى رسـول الله(ﷺ) ويطلبوا منه أن يخرج معهم مَنْ يدعوهم إلى الإسلام، ويفقِّههم في الدِّين، فيكمُنوا لهم، ويأسروهم، ويُصيبوا بهم ثمناً في مكَّة[5].

وهكذا بعث الرَّســول(ﷺ) هذه السَّــريَّة الَّتي تتألَّف من عشــرةٍ من الصَّــحابة [البخاري (3989)]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً، حتَّى إذا كانوا بين عُسْفان ومكَّة أغار بنو لحيان - وهم قريبٌ من مئتي مقاتل -، فألجؤوهم إلى تلٍّ مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم الأمان من القتل، ولكن قائد السـرية أعلن رفضـه أن ينزل في ذمَّة كافرٍ[6]،

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (143/4).
(2) الرَّجيع: اسم موضع من بلاد هُذيل. وينظر الشكل (5) في الصفحة (749).
(3) انظر: المغازي، للواقديّ (354/1. 355).
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) انظر: نضرة النَّعيم (314/1).
(6) المصدر السابق نفسه.

وقال عاصم بن ثابت: إنِّي نذرت ألا أقبل جوار مشركٍ أبداً، فجعل عاصم يقاتلهم، وهو يقول:

مَــا عِلَّتي وَأَنَا جَلْــدٌ نَابِــلُ النَّبْــلُ وَالْقَوْسُ لَهَــا بَلابِــلُ[1]

تَزِلُّ عَنْ صَــفْحَتِهَا المِعَابِلُ[2] المِوْتُ حَـقٌّ والحَيَــاةُ بَاطِـلُ

وَكُــلُّ مَــا حَمَّ[3]الإلــهُ نَازِلُ بِالمِــرْءِ والمِـرْءُ إِلَــيْــهِ ائــلُ

إِنْ لَمْ أُقَــاتِلْكُمْ فَــأُمِّي هَــابِـلُ[4]

فرماهم بالنَّبْل؛ حتَّى فنيت نبلُه، ثمَّ طاعنهم بالرُّمح حتَّى كُسِــر رمحُه، وبقي السَّــيف فقال: اللّهمّ حَمَيْتُ دينَك أوَّل نهاري، فاحْمِ لي لحمي آخره! وكانوا يجرِّدون كُلَّ مَنْ قُتِل مِنْ أصــحابه، فكسر غِمْدَ سيفه، ثُمَّ قاتلَ

حتَّى قُتِل، وقد جَرَحَ رجلين وقَتل واحداً، وكان يقول؛ وهو يقاتل:

أَبُو سُــــلَيْمــانَ وَمِثْلِي رَامي وَكَــانَ قَوْمِي مَعْشَــــراً كِرَامــا

ثمَّ شـرعوا فيه الأسـنَّة حتَّى قتلوه، وكانت سُـلافةُ بنت سـعد بن الشُّـهَيْد قد قُتِل زوجُها وبنوها أربعةٌ، قد كان عاصم قتل منهم اثنين: الحارث، ومُسافعاً، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشــرب في قحفِ[5] رأســه الخمرَ، وجعلَتْ لمن جاء برأس عاصــم مئة ناقةٍ، قد علمت بذلك العرب، وعلمته بنو لحيان، فأرادوا أن يحتزُّوا رأس عاصــم؛ ليذهبوا به إلى سُــلافةَ بنت ســعد ليأخذوا منها مئة ناقةٍ، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْرَ[6] فحمتْهُ، فلم يَدْنُ إليه أحدٌ إلا لدغت وجهه، وجاء منها شـــيءٌ كثير لا طاقة لأحدٍ به، فقالوا: دعوه إلى اللَّيل، فإنَّه إذا جاء اللَّيل؛ ذهب عنه الدَّبْر، فلما جاء اللَّيل بعث الله عليه سـيلاً - ولم يكن في السَّـماء سـحابٌ في وجه من الوجوه -، فـاحتمله، فـذهـب بـه؛ فلم يَصِــلُوا إليه. [البيهقي في الدلائل (328/3)، وابن هشــام

(1) بلابل: جمع بلبلة وبلبال ، وهو شدَّة الهم.

(2) المعابل: جمع معبلة ، وهو نصل طويل عريض.

(3) حَمَّ: قدَّر.

(4) انظر: مغازي ، الواقدي (355/1).

(5) القحفُ: الجزء الأعلى من الجمجمة.

(6) الدَّبر: الزَّنابير (جمع الزِّنبار ، وهي حشرةٌ أليمة اللَّسع) ، والنَّحل.

[(180/3)][1].

لقد قُتِلَ عاصمٌ في سبعةٍ من أفراد السَّريَّة بالنَّبْلِ، ثُمَّ أعطى الأعرابُ الأمانَ من جديدٍ للثَّلاثة الباقين، فقبلوا ؛ غير أنَّهم سرعان ما غدروا بهم بعد ما تمكَّنوا منهم، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكَّة، وهما خبيب، وزيد بن الدَّثِنَّة؛ فباعوهما لقريشٍ[2] وكان ذلك في صفر سنة 4 هـ[3].

فأما خُبَيْب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيبٌ قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها، فأعارته، وغفلت عن صبيٍّ لها، فدرج فجلس على فَخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه، فقال خبيبٌ: أتخشينَ أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خبيب؛ لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقٌ رَزَقَهُ الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين، ثمَّ انصرف إليهم، فقال: لولا أن تقولوا إنَّ ما بي جَزَعٌ من الموت؛ لزدت، فكان أوَّل مَنْ سنَّ الرَّكعتين عند القتل هو[4]، ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ أحصهم عدداً، واقتلهم بَدداً[5]، ولا تُبْقِ منهم أحداً» **[البخاري (3989)، والبيهقي في الدلائل (324/3 – 325)، وابن هشام (181/3 – 182)]** ثُمَّ قال:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهم مُبْدِي العَدَاوة جَاهِدٌ ... عَلَيَّ لأنِّي فِي وَثَاقٍ بِمَضْيَعِ
وَقَدْ قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيْلٍ مُمَنَّعِ

---

(1) انظر: المغازي، للواقديِّ (356/1).

(2) انظر تفصيل ذلك كلِّه في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوانَ وبئر معونة، وحديث عضل والقَارَّة وعاصم بن ثابت، وخُبيب وأصحابه، رقم (4086) وما بعده.

(3) جوامع السِّيرة، لابن حزم، ص 176.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (399/1).

(5) بدَّدَ الشَّيء: فَرَّقه، بدداً: متفرِّقين في القتل واحداً بعد واحدٍ.

إلى اللهِ أشْـــكُو غُرْبَتِي بَعْـدَ كُرْبَتِيْ　　وَمَا أرْصَـدَ الأحْزَابُ لي عِنْدَ مَصْـرَعِيْ
فذَا العَرْشِ صَـــبِّرْني عَلَى مَا يُرَادُ بِيْ　　فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ[1] مَطْمَعي
وَقَـدْ خَيَّرُوني الكفر والمَوْتُ دُوْنَـه　　فَقَـدْ ذَرَفَـتْ عَيْنَـايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَـا بِيْ حَـذَارِ المَوْتِ إنِّي لَمَيِّتٌ　　وَإنَّ إلى رَبِّي إيَابِي وَمَـرْجِـعِـي
وَلَسْـــتُ أُبَالي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْـلِماً　　عَلَى أَيِّ شِـقٍّ كَانَ فِي الله مَصْـرَعِي
وَذَلِـكَ فِي ذَاتِ الإلـهِ وَإنْ يَشَـأْ　　يُبَـارِكْ عَلَى أَوْصَـالِ شِـلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْـــتُ بِمُبْـدٍ لِلْعَـدُوِّ تَخَشُّـعاً　　وَلاَ جَـزَعـاً إِنِّي إلى الله مَـرْجِـعـي[2]

فقال له أبو سـفيان: أيسُـرُّك: أنَّ محمَّداً عندنا يُضـربُ عنقُه؛ وأنَّك في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرُّني أنِّي في أهلي، وأنَّ محمَّداً في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه[3]. ثُمَّ قُتِل، وصلبوه، ووكَّلوا به مَنْ يحرُس جُثَّتَه، فجاء عَمْرُو بنُ أميَّة الضَّمْرِيُّ، فاحتمله بجذعه ليلاً، فذهب به، ودفنه[4] وأمَّا زيد بن الدَّثِنَّة، فاشـتراه صـفوان بن أميَّة وقتله بأبيه أميَّة بن خلف الَّذي قُتل ببدر، وقد سـأله أبو سـفيان قبل قتله: أنشـدك الله يا زيد! أتحبُّ أنَّ محمداً الآن عندنا مكانك تضـــربُ عنقُه؛ وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصـيبه شـوكةٌ تؤذيه وإنِّي جالسٌ في أهلي. فقال أبو سـفيان: ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً؛ كحبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً[5]. وقد عُرِفت هذه الحادثة المفجعة بالرَّجيع، نسبةً إلى ماء الرَّجِيع الَّذي حصلت عنده.

---

(1) ياس: لغة في يئس.
(2) انظر: زاد المعاد (245/3) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم 4086) ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع).
(3) المصدر السابق نفسه (245/3 ـ 246).
(4) المصدر السَّابق نفسه.
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (400/2) ، وسيرة ابن هشام (مقتل ابن الدَّثنَّة ومثلٌ من وفائه للرَّسول صلى الله عليه وسلم).

وفي هذه الحادثة دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد؛ منها:

1 – فوائد ذكَرها ابن حجر:

«وفي الحديث: أنَّ للأسـير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّنَ من نفسـه؛ ولو قُتل؛ أنَفَةً من أن يجري عليه حكم كافرٍ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشِّـدَّة، فإن أراد الأخذ بالرُّخصـة؛ فله أن يسـتأمن. قال الحسـن البصـريُّ: لا بأس بذلك، وقال سـفيان الثَّوريُّ: أكره ذلك. وفيه الوفاء للمشـــركين بالعهد، والتورُّع عن قتل أولادهم، والتلطُّف بمن أريد قتلُه، وإثبات كرامة الأولياء، والدُّعاء على المشركين بالتَّعميم، والصَّـلاة عند القتل، وفيه إنشـاء الشِّـعر، وإنشـاده عند القتل، ودلالة على قوَّة يقين خبيب، وشدَّته في دينه.

وفيه: أنَّ الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه، ليثيبه، ولو شاء ربُّك ما فعلوه، وفيه اسـتجابة دعاء المسـلم، وإكرامه حيّاً وميتاً، وغير ذلك من الفوائد ممَّا يظهر بالتأمُّل. وإنَّما استجاب الله له مِنْ حماية لحمه من المشركين، ولم يمنعهم من قتله؛ لما أراد من إكرامه بالشَّـهادة، ومن كرامته حمايته مِنْ هتك حرمته بقطع لحمه»[1].

2 – بين التَّسليم، والقتال حتَّى الموت:

يسـتدلُّ ممَّا سـبق أنَّ للأسـير في يد العدوِّ أن يمتنع مِنْ قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسـه؛ ولو قُتل؛ ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافرٍ، كما فعل عاصـــمٌ، فإن أراد التَّرخُّص؛ فله أن يسـتأمن، مترقباً الفرصـة مؤمِّلاً الخلاص، كما فعل خبيبٌ، وزيدٌ؛ ولكن لو قدر الأسـير على الهرب؛ لزمه ذلك في الأصـح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأنَّ الأسـير في يد الكفار مقهورٌ مهانٌ، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه مِنْ هوان الأسر، ورقِّه[2].

وهـذا الحـدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التَّعامل مع الأحداث؛ في اختيارهم الأسر

(1) فتح الباري ، شرح حديث رقم (4086) ، فقرة: «فلم يقدروا منه على شيءٍ».
(2) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 188 . 189.

إذا طُلبوا مظلومين، أو اختيارهم القتال حتَّى الموت؛ ما دام الطَّالب لا يطلبهم بعدلٍ، وما دامت السُّلطة غير إسلاميَّة[1].

3 – تعظيم سنَّة النَّبيِّ(ﷺ) :

وفي الحديث يظهر تعظيم الصَّحابة لسنَّة النَّبيِّ(ﷺ) ، وكيف أن خُبَيْباً مع أنَّه في أسر المشركين، ويعلم:

أنَّه سيُقتل بين عشيَّةٍ، أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصاً على سنَّة الاستحداد، واستعار السِّكِّين لذلك، وفي هذا تذكيرٌ لِمَنْ يستهين بكثيرٍ من السُّنن، بل والواجبات؛ بحجَّة: أنَّه لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظُّروف الَّتي تمرُّ بها الأمَّة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السُّنَّة والدُّخول في شرائع الإسلام كافَّةً[2].

4 – الإسلام ينتزع الغدر، والأحقاد:

عندما استعار خبيب مُوسى مِنْ بعض بنات الحارث؛ ليستحدَّ بها، فأعارته؛ قالت المرأة: فغفلتُ عن صبيٍّ لي، دَرَجَ إليه حتَّى أتاه، فوضعه على فخذه فلما رأيتُه؛ فَزِعْتُ منه فزعةً عرف ذلك منِّي، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله. **[البخاري (4086)]**[3].

إنَّه موقفٌ رائعٌ يدلُّ على سموِّ الرُّوح، وصفاء النَّفس، والالتزام بالمنهج الإسلاميِّ، فقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ **[الإسراء: 15]**.إنَّه الوفاء يتعلَّمُه النَّاس ممَّن غدر بهم؛ فإنَّ الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرَّخاء، والشِّدَّة[4].

وفي قول خبيبٍ رضي الله عنه: (ما كنت لأفعل؛ إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في

---

(1) انظر: الأساس في السُّنَّة، لسعيد حوَّى (622/2).
(2) انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة، لأحمد فريد، ص 234.
(3) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 320.
(4) انظر: من معين السِّيرة، ص 259.

البيان العربيّ إلى أنَّ هذا الفعل غير واردٍ، ولا متصـــوَّرٍ، ولا هو في الحســـبان، في هذا الظَّرف الحاسم، الَّذي قد يتعلَّق فيه الاستثناء لموقع الضَّرورة، وإنقاذ المهَجِ، لكنَّ المبدأ الأصليَّ الوفاءُ، والكفُّ عن البُراء لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة[1]، وهذا مثلٌ من عظمة الصَّحابة رضي الله عنهم حين يطبِّقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم – وإن كانوا قد ظلموهم –، وهذا دليلٌ على وعيهم، وكمال إيمانهم[2].

5 – حبُّ النَّبِيّ(ﷺ) عند الصَّحابة:

إنَّ حظَّ الصَّـــحابة من حبِّه(ﷺ) كان أتمَّ، وأوفرَ، ذلك: أنَّ المحبَّة ثمرةُ المعرفة، وهم بقدره(ﷺ) ، ومنزلته أعلمُ، وأعرفُ مِنْ غيرهم، فبالتَّالي كان حبُّهم له(ﷺ) أشدَّ، وأكبر[3].

في حادثة الرَّجيع يظهر هذا الحبُّ في الحوار الهادئ بين أبي ســـفيان، وبين زيدٍ ابن الدثنَّة؛ إذ قال له أبو سفيان: أتحبُّ أنَّ محمَّداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقُه، وأنَّك في أهلك؟ فقال زيد: والله! ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصـــيبه شـــوكةٌ؛ وإنِّي جالسٌ في أهلي[4]. وهذا الحبُّ من الإيمان، فقد قال(ﷺ) : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورســولُه أحبَّ إليه ممَّا ســواهما، ومَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا لله، ومَنْ يكرهُ أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النَّار» **[البخاري (21)، ومسلم (43)]**.

6 – ممَّا قاله حسَّان في ذمِّ بني لِحْيَان:

تأثَّر المسلمون بمقتل أصحاب الرَّجيع تأثُّراً بالغاً، وكان حسَّان رضي الله عنه بشعره يعبِّر عن حال المسلمين، فمن يستحقُّ الهجاء، هجاه، ومَنْ يستحقُّ المدح؛ مدحه، فقال في هجاء بني لِحْيان:

---

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص 153.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (38/6).

(3) انظر: حقوق النَّبي صلى الله عليه وسلمعلى أمَّته ، د. محمَّد التَّميمي (314/1).

(4) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 154.

إنْ سرَّكَ الغَدْرُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَهُ ... فَائْتِ الرَّجِيْعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ
قَوْمٌ تَوَاصَــوا بِأَكْلِ الجَارِ بَيْنَهُمُ ... فَالكَلْبُ والقِرْدُ والإنْسَــانُ مِثْلانِ
لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْمــاً قَــامَ ... وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيْهِمْ وَذَا شَـانِ[1]

رابعاً: طمع عامر بن الطُّفَيْل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (4هـ):

عامر بن الطُّفيل زعيمٌ من زعماء بني عامرٍ، كان متكبِّراً متغطرســاً، طامعاً في الملك، وكان يرى: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) ســوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربيَّة؛ ولذلك جاء هذا المشــرك إلى النَّبيّ(ﷺ) ، وقال له: أُخيِّرك بين ثلاث خصالٍ: أن يكون لك أهلُ السَّهل، ولي أهلُ المدَرِ، أو أكونَ خليفَتَك، أو أغزوك بأهل غَطَفَان بألف أشــقر وألف شــقراء **[البخاري (4091)]**، فرفض(ﷺ) تلك المطالب الجاهليَّة، وجاء إلى المدينة مُلاعِبُ الأسـنَّة سـيِّد بني عامر عمُّ عامر بن الطُّفيْل، وقدَّم إلى النَّبيِّ(ﷺ) هَدِيَّةً، فعرض عليه النَّبيُّ(ﷺ) الإســلام، فلم يُسْــلِم، ولم يَبْعُدْ من الإسلام، وقال: يا محمد! لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ، رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال رسـول الله(ﷺ) : إنِّي أخشـى عليهم أهل نجدٍ، قال مُلاعِبُ الأسـنَّة (أبو براء): أنا لهم جارٌ، فابعث إلى أهل نجدٍ مَنْ شــئت. فبعث إليهم بقومٍ فيهم المنذرُ بن عمرو، وهو الَّذي يقال له: الْمُعْنِق لِيَمُوت[2]، أو أعنق الموت، فاســتجاش[3] عليهم عامر بن الطُّفيل بني عامر، فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا مُلاعِبَ الأسنَّة، فاستجاش عليهم بني سُلَيم، فأطاعوه، فأتبعهم بقريب من مئة رجل رامٍ، فأدركهم ببئر مَعُونة، فقتلوهم إلا عمرو بن أميَّة[4].

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (70/4).

(2) المعنق ليموت: أي: المسرع ، وإنما لُقِّبَ بذلك؛ لأنَّه أسرعَ إلى الشَّهادة.

(3) استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.

(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 322 ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع) ، والبخاري (الأحاديث من 4086 إلى 4096) ، وانظر شرحها في الفتح ، ففيها تفصيلاتٌ وفوائد كثيرةٌ ، وكذا مسلم (كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، رقم 677).

ومن حديث أنسٍ رضـــي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلِّمونا القرآن، والسُّـنَّة. فبعث إليهم سـبعين رجلاً من الأنصــار، يقال لهم القُرَّاء، فيهم خالي حَرَام، يقرؤون القرآن، ويتدارسون باللَّيل يتعلَّمون، وكانوا بالنَّهار يجيئون بالماء فيضعونه في المســجد، ويحتطبون، فيبيعونه، ويشــترون به الطَّعام لأهل الصُّـفَّة، وللفقراء، فبعثهم النَّبيُّ(ﷺ) إليهم، فعَرَضُوا لهم، فَقَتَلُوهم، قبل أن يَـبْـلُغُوا المكانَ، فقالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا: أنَّا قد لَقِيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنَّا.

قال: وأتى رجلٌ حراماً خال أنسٍ مِنْ خلفه، فطعنه بِرُمْحٍ حتَّى أَنْفَذَهُ، فقال حرام: فُزْتُ وربِّ الكعبة، فقال رســول الله(ﷺ) لأصــحابه: «إنَّ إخوانكم قد قُتلوا، وإنَّهم قالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك، فرضـينا عنك، ورضـيت عنَّا» [أحمد (416/1)، ومسلم (677)، والبيهقي في الدلائل (344/3)].

وفي هذه الحادثة المؤلمة، والفاجعة المفجعة دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد؛ منها:

1 – لابدَّ للدَّعوة من تضحيات:

رأينا كيف غَدَرَ حلفاء هُذَيْل بأصــحاب الرَّجيع من القُـــــرَّاء، الَّذين أرسـلهم النَّبيُّ(ﷺ) معلِّمين، ومفقِّهين في غزوة الرَّجيع، وها هنا عـامر بن الطُّفيل يغدر بالسَّـــبعين القرَّاء، الَّذين استنفروا للدَّعوة إلى الله، والتَّفقيه في دين الله، في مجزرة رهيبةٍ دنيئةٍ، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركتْ هذه المصــائب في نفس رســول الله(ﷺ) آثاراً غائرةً، بعيدة الأعماق، حتَّى إنَّه لبث شـهراً يَقْنُت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيْم؛ الَّتي عَصَتِ اللهَ، ورسولَه(ﷺ) [(1)] ؛ فعن ابن عباسٍ رضـي الله عنهما قال: قنت رسـول الله(ﷺ) شـهراً متتابعاً في الظُّهر، والعصـر، والمغرب، والعشاء، وصلاة الصُّبح، في دبر كلِّ صلاة، إذا قال: «سمع اللّهُ لمن حمده» من الرَّكعة الأخيرة، يدعو على أحياءٍ من بني سُـلَيم؛ على رِعْلٍ وذَكْوَانَ وعُصَـــيَّةَ ويؤمِّنُ مَنْ خلفه. [أحمد (301/1 – 302)، وأبو داود (443)، وابن خزيمة (618)].

---

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 151.

قال أنسُ بن مالكٍ رضـي الله عنه: وذلك بدء القنوت، وما كنَّا نَقنُتُ، وسـأل رجلٌ أنسـاً عن القنوت: أبعد الرُّكوع، أو عند فراغٍ من القراءة، قال: لا، بل عند فراغٍ من القراءة. [البخاري (4088)][1].

لكن ذلك لم يفتَّ في عَضُدِ المسلمين، ولا فتَّر من حميَّتهم في الدَّعوة إلى الله، ولا كسر من عزمهم في مواصـلة الدَّعوة، وخدمة دين الله، لأنَّ مصـلحة الدَّعوة فوق الأنفس والدِّماء؛ بل إنَّ الدعوة لا يكتب لها النَّصـر؛ إذا لم تُبْذَلْ في سـبيلها الأرواحُ، ولا شـيء يمكِّن للدَّعوة في الأرض مثل الصَّلابة في مواجهة الأحداث، والأزمات، واسترخاص التَّضحيات من أجلها.

إنَّ الدَّعوات بدون قوى، أو تضـحيات، يوشـك أن تكون بمثابة فلسـفات، وأخيلةٍ، تلفُّها الكتب، وترويها الأساطير، ثمَّ تُطْوَى مع الزَّمن.

إن حادثتي الرَّجيع وبئر مَعُونة، تُبَصِّـراننا بالمسـؤولية الضَّـخمة عن دين الله، والدَّعوة إليه، وضـعت نُصْبَ أعيننا[2] نماذج من التَّضـحيات العظيمة الَّتي قدَّمها الصَّـحابة الكرام رضـي الله عنهم، من أجل عقيدتهم، ودينهم، ومرضاة ربِّهم.

إنَّ للسَّـعادة ثمناً، وإنَّ للرَّاحة ثمناً، وإنَّ للمجد والسُّـلطان ثمناً، وثمن هذه الدَّعوة دمٌ زكيٌّ يُراق في سبيل الله، من أجل تحقيق شرع الله ونظامه، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة[3].

2 – فزت وربِّ الكعبة:

صـاحب الكلمة حرام بن مِلْحانَ رضـي الله عنه، فعندما اخترق الرُّمْحُ ظهرَه حتَّى خرج من صـدره، وأصبح يتلقَّى الدَّم بيديه، ويمسـح به وجهه، ورأسـه، وقال: فزت وربِّ الكعبة. [البخاري (4092)].

---

(1) وحاصل المسألة: أنَّ القنوت للحاجة بعد الرُّكوع ، وأمَّا لغير الحاجة فالصَّحيح أنه قبل الركوع ، وقد اختلف عمل الصَّحابة في ذلك ، والظَّاهر: أنَّه من الاختلاف المباح.

(2) نُصْبَ أعْيُننا: أي أمامنا.

(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 152.

إنَّ هذا المشـهد يجعل أقسى القلوب، وأعظمها تحجُّراً يتأثَّر، ويسـتصـغر نفسـه أمام هؤلاء العظماء الَّذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعاً من الموت، وإنما يعلوها البِشْرُ والسُّرور، وتغشاها السَّكينة والطُّمأْنينة[1].

وهذا المنظر البديع الرَّائع الَّذي لا يتصـوَّره العقل البشـريُّ المجرَّد عن الإيمان جعل جَبَّار بن سـلمى، وهو الَّذي طعن حرام بن ملحان يتسـاءل عن قول حرام: «فزت وربِّ الكعبة» وهذا جبَّار يحدِّثنا بنفسـه، فيقول: إنَّ ممَّا دعاني إلى الإسـلام: أنِّي طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه، فنظرت إلى سِـنَان الرُّمح حين خرج من صـدره، فسـمعته يقول: «فزت وربِّ الكعبة!» فقلت في نفسـي: ما فاز، ألسـت قد قتلت الرَّجل؟! حتَّى سـألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشَّهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله! فكان سبباً لإسلامه. **[البيهقي في الدلائل (353/3)]**[2].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتَّساؤل: هل يتعرض الشَّهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشَّـافية من رسـول الله(ﷺ) الَّذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشَّـهيد من مسِّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصـةَ» **[الترمذي (1668)، والنسـائي (36/6)، وابن ماجه (2802)]**.

فللشـهيد منزلةٌ خاصَّـة عند الله، فجزاء الثَّمن الباهظ الَّذي يدفعه، وهو روحه رخيصـةً في سـبيل الله – عزَّ وجلَّ –، لم يبخسـه الحكم العدل حقَّه، فكافأه مكافأةً بسـتِّ جوائز، كلُّ واحدةٍ منها تعدل الدُّنيا وما فيها، فعن المقدام بن معد يكرب رضـي الله عنه قال: قال رسـول الله(ﷺ): «للشَّـهيد عند الله سِـتُّ خصـالٍ: يُغفَر له في أوَّل دفعةٍ من دمه، ويَرى مقعده من الجنَّة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُحَلَّى حُلَّة الإيمان، ويزوَّج من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» **[الترمذي (1663)، وابن ماجه (2799)]**[3].

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (50/6).
(2) انظر: سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم 4091 ، 4092) ففيه فوائد كثيرة.
(3) الجامع لأحكام القران (تفسير الآية 171 من سورة ال عمران).

هذا بالإضـــافة إلى الوســـام المميَّز المشـــرَّف؛ الَّذي يأتي به يوم القيامة: وجُرْحُهُ كهيئته يوم جُرِح: «اللَّون لون الدَّم، والرِّيح ريح المسك» [الترمذي (1656)].

كما أنَّ حياة الشُّهداء لا تنتهي بمجرَّد موتهم، بل هم أحياء يرزقون، ويتنعمون عند ربِّهم[1]. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَـــبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

3 – عدم معرفة النَّبيِّ(ﷺ) للغيب:

إنَّ حادثتي بئر مَعُونة والرَّجيع، وغيرهما تدلاَّن على أنَّ الرَّســـول(ﷺ) لا يعلم الغيب، كما دلَّت على ذلك أدلَّةٌ أخرى منها قوله – عزَّ وجلَّ –: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِـي نَفْعًا وَلاَ ضَـرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188].

فالله – عزَّ وجلَّ – وحده عالم الغيب، والرُّســـل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علَّمهم ربُّهم – عزَّ وجلَّ[2]: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَـــى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 26 – 27].

4 – الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ رضي الله عنه أسيراً في بئر مَعُونة، ولـمَّا علم عامرُ بن الطُّفَيل: أنَّه من مُضر أطلقه، وجزَّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنَّها كانت على أمِّه، فلـــمَّا خرج عمرو قاصـــداً المدينة، نزل في طريقه في ظلٍّ، والتقى برجلين من بني عامر – وكان معهما عقدٌ من رسول الله، وجوار، لم يعلم به عمرو بن أميَّة – وقد سألهما حين نزلا: ممَّن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما، حتَّى إذا ناما، عدا عليهما، فقتلهما، وهو يرى أنَّه قد أصاب بهما ثُؤْرةً[3] من

(1) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص245.
(2) انظر وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص 237.
(3) الثؤرة: الثأر ، وهو الطَّلب بالدم.

بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله(ﷺ) ، فلـمَّا قدم عمرو بن أميَّة على رسول الله، فأخبره الخبر، قال رسول الله(ﷺ) : لقد قتلت قتيلين؛ لأدِينَّهما[1].

وهذا موقفٌ رفيعٌ، فقد وَدَى(ﷺ) ذينك الرَّجلين العامريين اللَّذينِ قتلهما عمرو بن أميَّة الضَّـــمريُّ؛ لكونهما يحملان عقداً منه(ﷺ) ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثِّل منتهى القمَّة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النَّبيِّ(ﷺ) أن يعتبر عمل عمرو بن أميَّة جزءاً من الانتقام الَّذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون، ولكنْ ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين مِنْ قومهم؟!

إنَّ التَّوجيهات الإسلاميَّة الرَّفيعة دفعت بالمسلمين، ونبيِّهم(ﷺ) إلى الرُّقيِّ الأخلاقي، الَّذي لا نظير له في دنيا النَّاس[2].

5 – الصَّحابيُّ الجليل عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه:

«لما قُتل الَّذين ببئر مَعُونة وأُسِرَ عمرُو بن أُميَّة الضَّمري، قال له عامر بن الطُّفَيْل: من هذا – وأشـار إلى قتيل –؟ فقال له عمرُو بن أميَّة: هذا عامرُ بن فُهَيرة. فقال: لقد رأيتُه بعدما قُتل رُفِع إلى السَّماء، حتَّى إنِّي لأنظرُ إلى السَّماء بينه وبين الأرض، ثمَّ وُضع» **[البخاري (4096)]**[3].

6 – حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يحرِّض على قتل عامر بن الطُّفَيْل:

كان حسَّـان رضـي الله عنه من رجالات المؤسَّسـة الإعلاميَّة، فكان يشـنُّ الحرب النَّفسيَّة على الأعداء، وكان بجانبه كعبُ بن مالكٍ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، فلم يتركوا حدثاً من أحداث السِّـيرة إلا قالوا فيه شـعراً، وكلُّ قصـيدةٍ للكافرين يردُّون عليها بقصـائدَ، وقد عَلِمنا ما أحدثه شعر حسَّان في طرد كعب بن الأشرف اليهوديِّ، وكان(ﷺ) يتعهَّد شعراء الدَّولـــة

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (206/3).

(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديّ (50/6).

(3) سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة).

الإسلاميَّة ويشجِّعهم على خوض هذا البـــاب من الجهـــاد، فعلى المسلمين المعاصرين قـــادةً، وزعمـــاء، وعلماء، وفقهاء، وجماعات. أن يرعـــوا شعراءهم، ويشجِّعوهم لـــخوض هذا الجهاد العظيم[1].

ولـــمَّا بلغ حسَّاناً خبرُ أصحاب بئر مَعُونة، نَظَمَ أبياتاً تناقلتها الرُّكبان، يحثُّ فيها ربيعةَ بن عامر بن مالك مُلاعبِ الأسِنَّة، ويحرِّضه بعامر بن الطُّفيل بإخفاره ذمَّة أبيه أبي براء:

أَلا مَـنْ مُـبْلِغٌ عَـنِّي رَبِـيْعـاً ... بِمَا أَحْدَثَتْ فِي الحِدْثَانِ بَعْدِي

أَبُـوْكَ أَبُـو الفِعَــال أَبُـو بَـرَاءٍ ... وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ

بَـنِي أُمِّ الـبَـنِـيْنَ أَلَمْ يَـرُعْـكُـمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِـبِ أَهْـلِ نَجْـدِ

تَحَـكُّـمُ عَـامِـرٍ بأَبِي بَـرَاءٍ ... لِيَخْفِرَهُ وَمَـا خَطَـأٌ كَعَمْـدِ[2]

فلـــمَّا بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشِّعْرُ، وكان الشِّعر عندهم أوجع مِنْ رشق النَّبْل، وقطْع السُّـــيوف للرِّقاب، وطعن النُّحور بالرِّماح: قام ربيعةُ بأخذ ثأر أبيه، فضـــرب عامرَ بنَ الطُّفيل ضَرْبةً أشواه بها – أي: لَمْ تصب منه مقتلاً – فوثب عليه قومُه، وقالوا لعامرٍ: اقتصَّ! فقال: قد عفوت، وإن عِشْتُ فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ[3].

وممَّا قاله حسَّان وهو يبكي قتلى بئر مَعُونة، ويخصُّ المنذرَ بن عمرو رضي الله عنه:

عَلَى قَتْلَى مَعُوْنَةَ فَاسْـــتَهِلِّي ... بِدَمْعِ العَيْنِ سَـحّاً غَيْرَ نَزْرِ[4]

عَلَى خَيْلِ الرَّسُـولِ غَدَاةَ لاَقَوا ... مَنَــايَاهُـمْ وَلاَ قَـتْـهُـم بقَــدْرِ

أَصَـــابَهُمُ الفَنَـاءُ بِعَقْـدِ قَوْمٍ ... تُخُوِّن عَقْـدُ حَبْلِهِمُ بغَـدْرِ[5]

فيــا لهفي لِمُنْــذِرٍ إذْ تَوَلَّى ... وَأَعْنَقِ فِي مَنِيَّتِـه بِصَـــبْرِ[6]

---

(1) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها (656/2).

(2) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (64/4).

(3) انظر القصة في فتح الباري شرح حديث (4096).

(4) استهلِّي: أسبلي دمعك. السّح: الصَّبُّ الكثير المتتابع. والنَّزر: القليل.

(5) تُخُوِّن: انتُقص. (بالبناء للمجهول).

(6) أعنق: أسرع. والعنقُ: ضَرْبٌ من السَّير فسيحٌ سريعٌ للإبل والخيل. ابن هشام (209/3).

7 – مصير عامر بن الطُّفيل العامريُّ:

استجاب الله لدعاء نبيِّه(ﷺ) ، فقد دعا(ﷺ) على عامر بن الطُّفَيْل، فقال: «اللّهُمَّ اكفني عامراً!» [الطبراني في الكبير (5724)، ومجمع الزوائد (6/125 – 126)] [1]، فأُصـيب الطَّاغيةُ بمرضٍ عُضَال[2]، وصفه(ﷺ) بقوله: «غدةٌ كغدَّة البعير»[3]، وسمَّاه(ﷺ) بـ (الطَّاعون)، وهو وصفٌ دقيقٌ للطَّاعون الدُّبلي، الَّذي يتميَّز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضـخم العقد الليمفاوية في منطقة الإرب، وتحت الإبط، وكذا تضخُّم الطِّحال)[4]، وهو ما أُصيب به عامر بن الطُّفَيل حتَّى أصبح حبيساً في بيت امرأةٍ من قومه.

لقد أُصيب عامرُ بن الطُّفَيْل، وتلاشت أحلامُه بالتَّملُّك على أهل المدن في الجزيرة العربيَّة، أو خلافة النَّبيِّ(ﷺ) ، وأمَّا تلك الجيوشُ الَّتي هدَّد النَّبيَّ(ﷺ) بها، فقد تحوَّلت إلى الام تحبسـه في بيت امرأةٍ، قد ولَّى عنه النَّاس، ونفروا منه خشـيةَ العدوى، ففقدَ صـوابَه، وصـرخ بمن بقي حوله، فقال: «غُدَّةٌ كغُدَّة البكر في بيت امرأةٍ من بني ال فلان، ائتوني بفرسـي، فمات على ظَهر فَرَسِه» [البخاري (4091)][5] ؛ هلك ذلك الجبَّار العنيد كالمجنون، بعد أن تطاير النَّاسُ من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى[6].

* * *

(1) البداية والنِّهاية (وفد بني عامر وقصَّة عامر بن الطفيل) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم (409) فقرة: في بيت امرأة من بني فلان).
(2) العُضَال: الشَّديد المعجز. ويقال: داء عضال: أي: لا طبَّ له.
(3) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني ، ص 130.
(4) انظر: تعليق الدَّكتور قلعجي على الدَّلائل (3/346).
(5) انظر السِّيرة النَّبويَّة، للصَّوياني ، ص 131.
(6) المصدر السابق نفسه.

المبحث الثَّاني

زواج النَّبي(ﷺ) بأِمّ المساكين، وأمِّ سلمة، وأحداثٌ متفرِّقةٌ

أولاً: زينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خُزَيْمة بن الحارث الهلاليَّة، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمَّى في الجاهليَّة أمَّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوَّجها رسول الله(ﷺ) في رمضان على رأس واحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتُوُفِّيَتْ في حياته(ﷺ) في آخر ربيعٍ الأوَّل على رأس تسعة وثلاثين شهراً، ودفنت في مدينة رسول الله(ﷺ)[(1)] .

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب، الَّذي قُتل في معركة أُحدٍ شهيداً في سبيل الله تعالى، فتزوَّجها(ﷺ) إكراماً لها بعد أن فُجِعَتْ بقتل زوجها في معركة أُحدٍ، ولم يتركها أرملةً وحيدةً، فكأنَّه(ﷺ) كافأها على فضائلها بعد مصاب زوجها[(2)].

ثانياً: زواج النَّبيِّ(ﷺ) بأمِّ سلمةَ رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أميَّة حُذافة بن المغيرة القرشيَّة المخزومية، كانت زوجة ابن عمِّها أبي عبد الله بن عبد الأسد، وزوجها هذا هو ابن عمَّة الرَّسول(ﷺ) برَّة بنت عبد المطلب، وهو أيضاً أخو رسول الله(ﷺ) من الرَّضاعة، وقد هاجرت أمُّ سلمة رضي الله عنها وزوجُها أبو سلمةَ إلى الحبشة فراراً بدينهما من المشركين، ثمَّ رجعا إلى مكَّة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله(ﷺ) والمسلمون[(3)].

---

(1) انظر: تفسير القرطبيّ (166/14).

(2) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (469/11).

(3) انظر: سير أعلام النُّبلاء (202/2).

1 – حديث أمِّ سلمةَ لأبي سلمةَ رضي الله عنهما:

قالت أُمُّ سلمة لأبي سلمة: بلغني: أنه ليس امرأةٌ يموت زوجها؛ وهو من أهل الجنَّة، ثمَّ لم تتزوَّج بعده، إلا جمع الله بينهما في الجنَّة؛ فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي، ولا أتزوَّج بعدك! قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا متُّ تزوَّجي، اللّهم! ارزق أمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منّي، لا يحزنها، ولا يُؤذيها. فلمَّا مات؛ قلتُ: مَنْ خيرٌ من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسولُ الله(ﷺ) ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنها، فقالت: أردُّ على رسول الله(ﷺ) ، أو أتقدَّم عليه بعيالي، ثمَّ جاء الغد، فخطب[1].

2 – دعاءُ أمِّ سلمة لمَّا توفِّي زوجُها:

لمَّا تُوفي زوجُها أبو سلمة من أثر جراحاتٍ أصابته في قتاله للمشركين، وكانت تحبُّه، وتجلُّه، جاءت للنَّبيِّ(ﷺ) ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أبا سلمةَ قد مات! قال(ﷺ) «قولي: اللَّهم! اغفر لي، وله، وأعقبني[2] منه عُقْبَى حَسَنَةً». قالت: فقلت، فأعْقَبَني اللهُ مَنْ هو خَيْرٌ لي منه محمَّداً(ﷺ) . [أحمد (291/6 و306)، ومسلم (919)، وأبو داود (3115)، والنسائي (4/4)، وابن ماجه (1447)].

3 – حوار رسول الله(ﷺ) لأمِّ سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: إنَّ أمَّ سلمة لما انقضت عدَّتها، خطبها أبو بكر، فردَّته، ثمَّ خطبها عمر، فردَّته، فبعث إليها رسول الله(ﷺ) ، فقالت مرحباً: أخبِرْ رسولَ الله: أنِّي غَيْرَى[3]، وأنِّي مُصْبِيةٌ[4] وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أمَّا قولك: إنِّي مصبيةٌ فإنَّ الله سيكفيك صبيانك. وأمَّا قولُك: إنِّي غيرى، فسأدعو الله أن يُذْهِبَ غيرتك. وأمَّا الأولياء، فليس أحدٌ منهم إلا سيرضى بي» [أحمد (313/6)

---

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (203/2). وقال المحقِّق: أخرجه ابن سعد ، ورجاله ثقاتٌ.

(2) وأعقبني: أي: بدِّلني وعوِّضني منه ، أي: في مقابلته. عقبى حسنة: أي: بدلاً صالحاً.

(3) غيرى: كثيرة الغيرة.

(4) مُصبية: أي: ذات صبيان ، وأولاد صغار.

– 314)، والنسائي (81/6 – 82)][1] وفي روايةٍ: إنِّي امرأة قد أدبر من سنِّي. فكانت إجابة رسول الله(ﷺ) لها: «وأمَّا السِّنُّ؛ فأنا أكبر منك» [طبقات ابن سعد (90/8)] وهكذا أحسن إليها(ﷺ) الجواب، وما كان إلا محسناً[2].

قالت أمُّ سلمة: يا عمر «أي ابنها»! قم فزوِّجْ رسولَ الله(ﷺ) . [انظر الحديث قبل السابق].

قال ابن كثير في تعليقه على قول أمِّ سلمة: قم يا عمر فزوِّج النَّبيِّ(ﷺ) : تعني: قد رضيت، وأذنت، فتوهَّم بعضُ العلماء: أنَّها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثلُه العقد، وقد جمعتُ في ذلك جزءاً مفرداً بيَّنت فيه الصَّواب في ذلك، ولله الحمد والمنَّة، وإنَّ الذي ولي عقدها عليه ابنُها سلمة بن أبي سلمة، وهو أكبر ولدها[3].

4 – تأثيث رسول الله(ﷺ) لبيت أمِّ سَلمةَ، ومعاملته لها:

فلـمَّا وافقت على الزَّواج؛ قال لها رسولُ الله(ﷺ) : «أما إنِّي لا أُنقصكِ ممَّا أَعْطَيْت فلانة؛ رحيين، وجرَّتين، ووسادةً من أدَمٍ حشوها ليفٌ» [انظر الحديث قبل السابق].

وكانت أمُّ سلمة قد ولدت طفلةً من زوجها أبي سلمة بعد موته، فعندما تزوَّجها(ﷺ) ؛ جعل يأْتيها، فإذا جاء؛ أخذت زينبَ، فوضعتها في حجرها لترضعها، وكان(ﷺ) حييّاً كريماً يستحيي؛ فيرجع، ففعل ذلك مراراً[4]، ففطن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه وهو أخٌ لأم سلمة من أمِّها «سميَّة» الشَّهيدة التي قتلها أبو جهل، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أمِّ سلمة، فأخذ ابنةَ أختِه ليسترضعها في بيته، أو عند أحد النِّساء، فجاء رسول الله(ﷺ) فقال: «أين زناب؟»، فقالت قريبة ابن أبي أميَّة – ووافقها عندها[5] –: أخذها عمَّار بن ياسر. فقال(ﷺ): «إني آتيكم اللَّيلة».

---

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (203/2 . 204) وإسناده صحيحٌ.
(2) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (470/11).
(3) انظر: البداية والنِّهاية (92/4).
(4) المصدر السابق نفسه (204/2).
(5) أي: توافق مجيءُ النَّبي صلى الله عليه وسلممع زيارة تلك المرأة لأمِّ سلمة.

قالت أمُّ سلمة: فقمتُ، فوضعتُ ثِفَالي[1]، وأخرجتُ حبَّاتٍ من شعيرٍ كانت في جَرَّتي، وأخرجتُ شحماً، فعصدته، ثمَّ بات، ثمَّ أصبح، وقال حين أصبح: «إنَّ بك على أهلك[2] كرامةً، فإن شئت؛ سبَّعت[3] لك، وإن أسبعْ لكِ أسبعْ لنسائي **[مسلم (41/1460 و43)، وأبو داود (2122)]**، وإن شئت ثَلَّثْتُ، ثمَّ دُرْتُ!» قالت: ثَلِّثْ[4]؛ فأقام النَّبيُّ(ﷺ) ثلاثة أيام عند أمِّ سلمة، ثمَّ قال(ﷺ) : «للبكر سبعٌ، وللثَّيب ثلاثٌ» **[مسلم (42/1460)]**، وهذه المدَّة هي مدة إقامة المتزوِّجِ عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام(ﷺ) عند أمِّ سلمة رضي الله عنها ثلاثة أيام سعيدةً، ثمَّ رتَّب لها يوماً كبقيَّة زوجاته.

5 – تغيير اسم بَرَّة بنت أبي سلمة:

تقول تلك الطِّفلةُ اليتيمة رضي الله عنها: إن النبي(ﷺ) دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي بَرَّة، فسمعها تدعوني بَرَّة، فقال: «لا تزكُّوا أنفسكم؛ فإنَّ الله هو أعلم بالبَرَّة منكنَّ، والفاجرة، سمِّيها زينب»، فقالت أمُّ سلمة: فهي زينب. **[مسلم (19/2142)، والبخاري في الأدب المفرد (821)]**.

وهذا من هدي النَّبيِّ(ﷺ) ، فقد كان يحبُّ الأسماء الجميلة، ولم يكن(ﷺ) يغيِّر أسماء الأطفال فقط، بل كان للرِّجال، والنِّساء، والعجائز نصيبٌ من ذلك الذَّوق النَّبويِّ الرَّفيع، فقد ذُكِرَ عند رسول الله(ﷺ) رجلٌ يقال له: شِهَاب، فقال رسول الله(ﷺ) : «بل أنت هشام» **[البخاري في الأدب المفرد (825)، وأحمد (75/6)، ومجمع الزوائد (51/8)]**.

و(كان(ﷺ) إذا أتاه الرَّجل، وله اسم لا يحبُّه؛ حوَّله) **[الطبراني في المعجم الكبير (119/17)، ومجمع الزوائد (51/8)]**، إلى اسم أجمل، وألطف، وكان(ﷺ) يفعل ذلك مع العجائز؛ فهذه

---

(1) الثِّفَالُ: هو ما يُبْسَطُ تحت الرَّحَى عند الطَّحن من جِلْدٍ ، وغيره؛ ليسقط عليه الدَّقيقُ.

(2) على أهلك: يقصد نفسه صلى الله عليه وسلم.

(3) أي: أقمتُ عندك سبعة أيام.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة كما جاءت من الأحاديث الصَّحيحة ، للصوياني (136/3).

عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا؛ حيث تقول: جاءت عجوزٌ إلى النَّبيِّ(ﷺ) وهو عندي، فقال لها رسول الله(ﷺ) : «من أنت؟» قالت: جَثَّامة الْمُزَنِيَّة.

فقال: «بل أنت حَسَّانة المزنيَّة! كيف أنتم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله!

فقُرِّب إليه لحمٌ، فجعل يناولها، فقلتُ: يا رسولَ الله! لا تغمر يدك. فلـمَّا خَرَجَتْ قلتْ: يا رسول الله! تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «إنَّها كانت تأتينا زَمَن خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان» **[البيهقي في شعب الإيمان (9122)، والحاكم (16/1)، والألباني في الصحيحة (216)]**.

6 – الحكمة في زواج أمِّ سلمة:

والحكمة في هذا الزَّواج – كما يقول صاحب تفسير المنار –: ليس لأجل التَّمتُّع المباح له؛ وإنَّما كان لفضلها؛ الذي يعرفه المتأمِّل بجودة رأيها يوم الحديبية، ولتعزيتها – أي: بوفاة زوجها[1] – ولا ننسى كذلك: أنَّ أم سلمة من بني مخزوم أعزِّ بطون قريشٍ، وهي الَّتي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة ضدَّ رسول الله(ﷺ) ، ووراء هذا الزَّواج تفتيت حقد هذه القبيلة، وتقريب قلوب أبنائها، وتوطئةٌ، وتحبُّبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهارَ رسول الله(ﷺ)[2] .

وفي هذا الزَّواج فقه النَّبيِّ(ﷺ) في البناء الدَّاخليِّ للأمَّة، وتأدية حقِّ الشُّهداء في زوجاتهنَّ، وحقُّ هؤلاء الزَّوجات من أن يَنْهَلْنَ من نور النُّبوَّة ما يشاء الله أن ينهلْنَ لكي يُبَلِّغْنَ عن رسول الله[3].

وكانت أمُّ سلمة آخر مَنْ مات من أمَّهات المؤمنين، وكانت وفاتُها سنةَ إحدى وستين،

---

(1) انظر: تفسير المنار (372/4).

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (356/3).

(3) المصدر السابق نفسه (357/3).

وقد رَوَتْ عن رسـول الله أحاديث، يبلغ مسـندها ثلاثمئة وثمانية وثمانين حديثاً؛ واتَّفق البخاريُّ، ومسلمٌ على ثلاثة عشرة، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ، ومسلمٌ بثلاثة عشر[1]. لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسـول الله(ﷺ) ، وبموتها انطفأ آخر مصـباحٍ من مصـابيح أمَّهات المؤمنين طالما شَعَّ النُّورَ، والهُدى، والعلم؛ فرضي الله عنها، وأرضاها![2].

ثالثاً: مولد الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما:

قال الإمام القرطبيُّ – رحمه الله –: وُلد الحسنُ في شعبان من السَّنة الرَّابعة، وعلى هذا ولد الحسين قبل تمام السَّنة من ولادة الحسـن، ويؤيّده ما ذكره الواقديُّ: أنَّ فاطمة علقَتْ بالحسين بعد مولد الحسـن بخمسـين ليلةً، وجزم النَّواويُّ في التَّهذيب أنَّ الحسـن وُلِد لخمسٍ خلونَ من شعبان سنة أربعٍ من الهجرة[3].

يقول عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لـمَّا ولد الحسن سمَّيتُه حرباً، فجاء رسولُ الله(ﷺ) فقال: أروني ابني! ما سمَّيتموه؟ قلت: حرباً! قال(ﷺ) : بل هو حسـنٌ. **[أحمد (98/1 و118)، وابن حبان (6958)، والبخاري في الأدب المفرد (823)، والطبراني في الكبير (2773)، والحاكم (180/3)، والبزار (1997)، ومجمع الزوائد (52/8)]**.

وهكذا غيَّر(ﷺ) ذلك الاسمَ الحادَّ باسمٍ جميلٍ، يُدخل السُّرور، والفرحة على القلوب.

فحمل المولودُ الجديدُ اسمه الجميلَ، وحمله(ﷺ) بين يديه، وقَبَّلَه، وهذا أبو رافع يخبرنا عن فعل رسـول الله(ﷺ) ؛ يقول: رأيتُ النَّبيَّ(ﷺ) أذَّن في أُذُنَي الحسـن – حين ولدته فاطمةُ – بالصَّلاة. **[أحمد (9/6 و392)، وأبو داود (5105)، والترمذي (1514)]**.

وحدَّثنا أبو رافع عن عقيقة الحسـن، فقال: لما وَلَدَتْ فاطمةُ حسـناً؛ قالت: ألا أعقُّ[4] عن

---

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (210/2).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (248/2. 249).
(3) انظر: شذرات الذَّهب ، لابن العماد الحنبلي (10/1).
(4) عقَّ عن ولده عقاً: ذبح ذبيحةً يوم سُبُوعه. العقيقة: الذَّبيحة التي تُذبح عن المولود يوم سبوعه عند حَلْقِ شعره ، والجمع عَقَائِقُ.

ابني بدمٍ (بكبشين)؟ قال(ﷺ) : «لا، ولكن احلقي رأسه، وتصدَّقي بوزن شعره من فضَّةٍ على المساكين، والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله(ﷺ) محتاجين في المسجد، أو الصُّفة. ففعلتُ ذلك. [أحمد (390 و391)].

وأحبَّ(ﷺ) أن يقدِّم عقيقة الحسن، فعقَّ عنه كبشين. [النسائي (166/7)][1].

وقد قال(ﷺ) في العقيقة: «كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقته؛ يُذبح عنه يوم سابعه، ويُحْلَقُ رأسُه، ويُسَمَّى». [أحمد (7/5 و8 و12 و17 و22)، وأبو داود (2837 و2838)، والترمذي (1522)، والنسائي (166/7)، وابن ماجه (3165)].

رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (4هـ):

وفي هذه السَّنة تعلَّم زيدُ بن ثابت كتابة اليهود، فعن خارجةَ بن زيد بن ثابتٍ عن زيد بن ثابتٍ: أنَّ رسول الله(ﷺ) أمره أن يتعلَّم كتابَ اليهود؛ ليقرأه للنَّبيِّ(ﷺ) إذا كتبوا إليه [البخاري (7195)]، فتعلَّمه في خمسة عشرَ يوماً، وفي روايةٍ أخرى: أنَّ رسول الله(ﷺ) لـمَّا قدم المدينة، ذُهب بزيد إلى رسول الله(ﷺ) ، وقالوا: يا رسولَ الله، هذا غلامٌ من بني النَّجار، معه ممَّا أنزل اللهُ عليك بضعَ عشرةَ سورةً، فأعْجبَ ذلك رسولَ الله(ﷺ) ، وقال: «يا زيد! تعلَّمْ لي كتاب يهود، فإنِّي والله ما امن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلَّمت له كتابَهم، ما مرَّت خمس عشرة ليلةً حتى حذقْتُه، وكنت أقرأ له كتبهم؛ إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب. [أحمد (186/5)، وأبو داود (3645)، والترمذي (2715)][2].

وبهذا الخبر يتَّضح: أنَّ للتّرجمان مكانةٌ رفيعةُ في الدَّولة؛ إذ هو الَّذي يَطَّلع على أسرار الدَّولة وما يأتيها من مراسلاتٍ، أو ما ترسله من مُخاطباتٍ؛ إذ لا يصحُّ أن يطَّلع كلُّ إنسان على تلك الكتب الصَّادرة، والواردة؛ لئلا تختلَّ الدَّولة، وتُكشَفَ أسرارُها؛ ولذلك أمر النَّبيُّ(ﷺ)

---

(1) انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصّوياني (106/3).
(2) انظر: سير أعلام النبلاء (429/2).

زيدَ بن ثابت أن يتعلَّم لغة اليهود(1).

وتَعَلُّمُ زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدلُّ على ذكاءٍ مُفْرِطٍ، وقوَّةِ حافظةٍ، وقد كان رضي الله عنه ممَّن حفظ القرآن كلَّه على عهد رسول الله(ﷺ) ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه، وهو الَّذي تولَّى كتابة القرآن وحده في الصُّحف في عهد الصِّدِّيق، وكان أحدَ كاتبي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه، وأمْرُ رسولِ الله(ﷺ) زيداً بتعلُّم لغة اليهود، وكتابتهم يدلُّ على أنَّ الإسلام يحبِّب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرَّف على علومهم، ومعارفهم؛ ولا سيَّما إذا دعت لذلك ضرورةٌ(2).

* * *

(1) انظر: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القران ، لصفوان داودي ، ص 80 . 81.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (249/2).

المبحث الثَّالث

إجلاء يهود بني النَّضير[1]

أصابَ يهودَ المدينة الخوفُ، والرُّعبُ طيلةَ الفترة الَّتي تفصلُ بين مقتل كعب بن الأشرف، وبين معركة أُحدٍ؛ الَّتي جرت في شوال عام (3 هـ)؛ ولكن الهزيمة الَّتي حَلَّتْ بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشـركين والمنافقين الأمل مِنْ جديدٍ بتحقيق مطامعهم، وأغراضـهم، وأزالت من قلوب اليهود الهَلَعَ[2] على المصـير، وممَّا سـاهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتلُ أصحاب الرَّجيع، وبئر مَعُونة، وبذلك لم يَدُمْ خوفُ اليهود طويلاً، وعادوا إلى أساليب الدَّسِّ، والمكر، والخداع، وشرعوا في حشد حصونهم بالسِّلاح، والعتاد للانقضاض على المسلمين، ودولتهم، ثمَّ صمَّموا على قتل النَّبيِّ(ﷺ) ، والغدر به[3].

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ - تاريخ الغزوة:

يرى المحقِّقون من المؤرِّخين: أنَّ غزوة بني النَّضير، كانت بعد أُحدٍ في ربيع الأوَّل من السَّنة الرَّابعة من الهجرة، وقد ردَّ ابنُ القيِّم على من زعم: أنَّ غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ **[البخاري تعليقاً (418/7)]** بقوله: «وزعم محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ: أن غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ، وهذا وَهْمٌ منه، أو غلطٌ عليه، بل الَّذي لا شكَّ فيه: أنَّها بعد أُحدٍ، والَّذي كانت بعد بدر بستة أشهرٍ هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد

---

(1) ينظر الشكلان (6 و7) في الصفحتين (750 و751).

(2) هَلَع هلعاً: جزع جزعاً شديداً.

(3) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ، ص 188 . 189.

الحديبية»[1].

وقال ابن العربيِّ: والصَّحيح أنَّها بعد أُحد[2]، وإلى هذا الرَّأي ذهب ابن كثيرٍ[3].

ب – أسباب الغزوة:

هناك مجموعةٌ من الأسباب حملت النَّبيَّ(ﷺ) على غزو بني النَّضير، وإجلائهم؛ من أهمها:

1 – نَقضُ بني النَّضــير عهودَهم؛ الَّتي تحتِّم عليهم ألا يؤووا عدوّاً للمســلمين ولم يكتفوا بهذا النَّقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضَّعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السَّويق[4]؛ حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكَّة – بعد غزوة بدرٍ – نذراً؛ ألا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتَّى يغزوَ المدينة، فلــمَّا خرج في مئتي راكبٍ قاصداً المدينة؛ قام سيد بني النَّضير سلاَّم بن مِشْكَم بالوقوف معه، وضيافته، وأبطن له خبر النَّاسِ، ولم تكن مخابرات المدينة غافلةً عن ذلك[5].

قال موســى بن عقبة – صــاحب المغازي –: «كانت بنو النَّضــير قد دسُّــوا إلى قريشٍ، وحضُّوهم على قتال رسول الله(ﷺ) ، ودلُّوهم على العورة»[6].

2 – محاولة اغتيال النَّبيِّ(ﷺ) :

خرج النَّبيُّ(ﷺ) في نفر من أصحابه عن طريق قُباء إلى ديار بني النَّضير، يستعينهم في دية القتيلين العامريَّين اللَّذين ذهبا ضحيةَ جهل عمرو بن أميَّة الضَّمري بجوار رسول الله(ﷺ) لهما، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النَّبيِّ(ﷺ) وبين بني النَّضـــير حول أداء الدِّيات، وإقراراً لما

---

(1) انظر: زاد المعاد (249/3).
(2) انظر: أحكام القران ، لابن العربي (1765/4).
(3) انظر: حديث القران عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم(254/1).
(4) غزوة السَّويق كانت بعد بدر وقد تحدَّثت عنها في المبحث الثامن من الفصل الثامن من هذا الكتاب.
(5) انظر: تاريخ الطَّبري (284/2).
(6) انظر: فتح الباري ، كتاب المغازي ، باب حديث بني النَّضير (332/7).

كان يقوم بين بني النَّضير وبين بني عامر من عقودٍ، وأحلاف.

استقبل بنو النَّضير النَّبيَّ(ﷺ) بكثيرٍ من البشاشة، والكياسة، ثمَّ خلا بعضهم إلى بعضٍ يتشاورون في قتله، والغدر به، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على إلقاء صخرةٍ عليه(ﷺ) من فوق جدارٍ كان يجلس بالقرب منه، ولكنَّ الرسول(ﷺ) – الَّذي كان برعاية الله وحفظه – أدرك مقاصد بني النَّضير؛ إذ جاءه الخبر من السَّماء بما عزموا عليه مِنْ شَرٍّ، فنهض، وانطلق بسرعةٍ إلى المدينة، ثمَّ تبعه أصحابه بعد قليلٍ(1).

لم تكن مؤامرةُ بني النَّضير؛ الَّتي أفشلها الله – سبحانه وتعالى – تستهدف شخص النَّبيِّ(ﷺ) فحسب؛ بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة، والدَّعوة الإسلاميَّة برُمَّتها، لذا صمَّم محمَّد(ﷺ) على محاربة بني النَّضير؛ الَّذين نقضوا العهد، والمواثيق معه، وأمر أصحابه بالتَّهيُّؤ لقتالهم، والسَّير إليهم(2).

هذه الأسباب وغيرها أدَّت إلى غزوة بني النَّضير، وقد ذكَّر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النِّعمة الجليلة، وكيف نجى اللهُ نبيَّه(ﷺ) من مكر يهود بني النَّضير قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: 11].

وقد أورد المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة رواياتٍ؛ منها:

أخرج الطَّبريُّ عن أبي زيادٍ قال: جاء رسولُ الله(ﷺ) بني النَّضير ليستعينهم في عقل(3) أصحابه، ومعه أبو بكر، وعمر، وعلي، فقال: أعينوني في عقل أصحابي، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! قد ان لك أن تأتينا، وتسألنا حاجةً، اجلس حتَّى نطعمك، ونعطيك الَّذي تسألنا، فجلس رسول الله(ﷺ) ، وأصحابه ينتظرون، وجاء رأسُ القوم، وهو الَّذي قال لرسول الله(ﷺ)

---

(1) انظر: الواقدي (365/1) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 190.

(2) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص 190.

(3) عقل عن فلان: حمل عنه العاقلة ، وهي الدِّيةُ.

ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارةً، فاقتلوه، ولا ترون شراً أبداً.

فجاؤوا إلى رحى لهم عظيمةٍ؛ ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه مِنْ ثَمَّ، فأنزل الله – عز وجل –: فأخبر الله نبيَّه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ما أرادوا به. **[ابن جرير في تفسيره (6/144 – 145)]**.

وذكر محمَّد بن إسحاق ومجاهد، وعكرمة، وغير واحدٍ[1]: أنَّها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله(ﷺ) الرَّحَى، لـمَّا جاءهم يستعينهم في دية العامريَّين، ووكَّلوا عمرو بن جِحاش بذلك: إن جلس النَّبيُّ(ﷺ) تحت الجدار، واجتمعوا عنده؛ أن يلقي الرَّحى مِنْ فوقه، فأطلع الله النَّبيَّ(ﷺ) على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية[2].

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النَّضير من كيدٍ، وسوءٍ للنَّبيِّ(ﷺ) ، وأصحابه، فقال: «وأولى الأقوال بالصِّحَّة في تأويل ذلك قول مَنْ قال: عنى اللهُ بالنِّعمة الَّتي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله الَّتي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيَّهم(ﷺ) ممَّا كانت يهود بني النَّضير همَّت به مِنْ قتله، وقتل مَنْ معه يوم سار إليهم في الدِّيَة الَّتي تحمَّلها عن قتيلي عمرو بن أميَّة. وإنَّما قلنا: أولى بالصِّحَّة في تأويل ذلك؛ لأنَّ الله عقَّب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها، وقبيح فِعَالها، وخيانتها ربَّها، وأنبياءها»[3].

وقد وافق الدُّكتور محمد ال عابد ترجيح الطَّبريِّ، وقال: لا مانع أن تكون الآية الكريمة

(1) هذه الاثار وإن كان فيها ضعفٌ يمكن أن تعضد؛ لتصبح بمجموعها صالحةً للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة ، ص 145.
(2) تفسير ابن كثير (2/31).
(3) انظر: تفسير الطَّبري (6/144 . 145).

نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعةً، فقد تعدَّدت الحوادث، والمنزل واحدٌ كما قال العلماء[1].

ومعنى الآية الكريمة: أي: اذكروا نعمة الله عليكم، الَّتي من أكبر مظاهرها كفُّه عنكم أيدي اليهود ؛ الَّذين همُّوا أن يمدُّوا أيديهم بالسُّوء إلى نبيِّكم، وشارَفُوا أن ينفِّذوا مؤامرتهم الخبيثة، ولكنَّ الله أحبط مكرَهم، ونجَّى نبيَّكم(ﷺ) من شرورهم.

ثمَّ أمر – سبحانه – بتقواه والتوكُّل عليه، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: اتقوا الله – أيُّها المؤمنون – في رعاية حقوق نعمته، ولا تُخلُّوا بشكرها، فقد أراكم قدرته، وتوكَّلوا عليه وحدَه، فقد أراكم عنايته بكم، وعلى الله وحدَه فليتوكَّل المؤمنون[2].

ثانياً: إنذار بني النَّضير بالجلاء وحصارهم:

أ – إنذار بني النَّضير:

سجَّلت معظمُ كتب السِّيرة النَّبويَّة، خبرَ إنذار النَّبيِّ(ﷺ) لبني النَّضير بالجلاء خلال عشرة أيام، وقد أرسل(ﷺ) محمَّدَ بن مسلمة رضي الله عنه إليهم، وقال له: اذهبْ إلى يهود بني النَّضير، وقل لهم: إنَّ رسولَ الله(ﷺ) أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتُم العهد الَّذي جعلت لكم ممَّا هممتم به من الغدْر، وقد أجَّلتُكم عشراً، فمن رُئي بعدُ منكم ضربتُ عنقَه[3]. ولم يجدوا جواباً يردُّون به سوى أن قالوا لمحمَّد بن مسلمة: يا محمد! ما كنَّا نظن أن يجيئنا بهذا رجلٌ من الأوس! فقال محمَّد: تغيَّرت القلوب، ومحا الإسلامُ العهود. فقالوا: نتحمَّل؛ فمكثوا أياماً يُعِدُّون العدَّة للرَّحيل[4].

وفي تلك المدَّة أرسل إليهم عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مَنْ يقول لهم: اثبتُوا، وتَمَنَّعُوا؛ فإنَّا لن

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(251/1).
(2) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(252/1).
(3) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (57/2) ، والمغازي ، للواقديّ (363/1 . 370).
(4) انظر: تاريخ الطَّبري (552/2).

نُسْـــلِمَكم، وإن قُوتلتم؛ قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم[1]، ولا تخرجوا فإنَّ معي من العرب، وممَّن انضـــوى إلى قومي ألفين، فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصـــونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يَصِلُوا إليكم[2].

فعادت لليهود بعضُ ثقتهم، وتشـــجَّعَ كبيرُهم (حُيي بن أخطب) وأرســـل إلى النَّبيِّ(ﷺ) جُدَي بن أخطب يقول له: إنَّا لن نريمَ - أي: لن نبرح - دارنا، فاصـــنعْ ما بدا لك! فكبر رسولُ الله(ﷺ) ، وكبَّر المسلمون معه، وقال: حاربت يهود[3].

ب - ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة، ولم يخرجوا من ديارهم، فتحرَّكت جيوشُ المسلمين صوبهم، وضربت عليهم الحصارَ لمدَّة خمس عشْرَة ليلةً.

وأمر(ﷺ) بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلُّقهم بأموالهم، وزروعهم، وضعفت حماســـتُهم للقتال، وجَزِعوا، وتصـــايحوا: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفســـاد، وتعيبه على مَنْ يفعله؛ فما بالُ قطع النَّخيل، وتخريبها؟!

وألقى اللهُ في قلوبهم الرُّعْبَ، وأدرك بنو النَّضير ألاَّ مفرَّ من جلائهم، ودبَّ اليأس في قلوبهم، وخاصَّةً بعد أن أخلف ابن أُبَيّ وعده بنصرهم، وعجِز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً، أو يدفعوا عنهم شـــراً؛ فأرســـلوا إلى النَّبيِّ(ﷺ) يلتمســـون منه أن يؤمّنهم حتَّى يخرجوا من ديارهم، فوافقهم النَّبيّ(ﷺ) على ذلك، وقال لهم: «اخرجوا منها، ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل إلا الحَلَقة - وهي الدُّروع، والسِّلاح -»؛ فرضوا بذلك[4].

ونقض اليهود سُقُفَ بيوتهم، وعَمُدَها، وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام (212/3).

(2) انظر: تاريخ الطَّبري (553/2).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (146/3).

(4) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(257/1).

وحملوا معهم كمياتٍ كبيرةً من الذَّهب، والفضَّـة، حتَّى إن سـلاَّم بن أبي الحُقَيْق وحده حمل جلدَ ثورٍ مملوءً ذهباً، وفضَّـةً، وكان يقول: هذا الَّذي أعددناه لرفع الأرض، وخفضـها، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل[1].

وحملوا أمتعتهم على سـتمئة بعيرٍ، وخرجوا ومعهم الدُّفوف، والمزامير، والقيان يعزفن من خلفهم حتَّى لا يشـمت بهم المسـلمون، فقصـد بعضـهم خيبر، وسـار آخرون إلى أذرعات الشَّام[2].

وقد تولَّى عمليَّة إخراجهم من المدينة محمَّد بن مسلمة بأمرٍ من رسول الله(ﷺ) [3].

وكان من أشرافهم الَّذين ساروا إلى خيبر: سَلاَّم بن أبي الحُقَيْق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحُقَيْق، فلمَّا نزلوها دان لهم أهلُها[4].

ثالثاً: الدُّروس، والعِبَرُ في هذه الغزوة:

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة بني النَّضير في سورةٍ كاملة، هي سورة الحشر، وقد سَمَّى حَبْرُ الأمَّة عبد الله بن عبَّاسٍ رضـي الله عنهما سـورة الحشـر بسـورة بني النَّضـير، ففي البخاريِّ عن سـعيد بن جُبَيْر، قال: قلتُ لابن عباسٍ رضـي الله عنهما: سـورة الحشـر، قال: قلْ سـورة بني النَّضِير. [البخاري (4029)].

وقد بينت هذه السُّورة ملابسـات هذه الغزوة، وفصَّلت القول فيها، وبيَّنت أحكام الفيء، ومن هم المسـتحقون له، وأوضـحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشـفت عن حقائق نفسـيَّات اليهود، وضـربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وَجَّه سبحانه خطابه إلى المؤمنين، وأمرهم بتقواه، وحذَّرهم من معصيته، ثمَّ تحدث سبحانه عن القرآن

(1) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (566/2).
(2) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (565/2)، حديث القران الكريم (257/1).
(3) انظر: المغازي، للواقديِّ (374/1)، واليهود في السُّنة المطهَّرة (321/1).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (212/3).

الكريم، وعلوِّ منزلته، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به سبحانه، وهكذا كان المجتمع المسلم يتربَّى بالأحداث على التَّوحيد وتعظيم منهج الله، والاستعداد ليوم القيامة، وبالتأمُّل في السُّورة يمكننا استخراج بعض الدُّروس، والعبر؛ من أهمها:

1 – الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السُّورة بالثَّناء على الله، وأن الكون كلَّه بجميع ما فيه من مخلوقاتٍ؛ من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونباتٍ، وجمادٍ، ينزِّه الله، ويمجِّده، ويشهد بوحدانيته، وقدرته، وجلاله، وناطقٌ بعظمته، وسلطانه[1]. قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 1].

كان استفتاح هذه السُّورة بالإخبار أنَّ جميع ما في السَّموات، والأرض، يسبّح بحمد ربه، وينزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله، ويعبده، ويخضع لعظمته؛ لأنَّه العزيز، الَّذي قهر كلَّ شيءٍ، فلا يمتنع عليه شيءٌ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ.

الحكيم في خلقه، وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يُشرّع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مُقتضى حكمته؛ ومن ذلك نصره لرسوله(ﷺ) على الَّذين كفروا من أهل الكتاب، من بني النَّضير، حين غدروا برسوله(ﷺ) ، فأخرجهم مِنْ ديارهم، وأوطانهم الَّتي ألفوها، وأحبُّوها[2].

2 – الرُّعب جنديٌّ من جنود الله:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ۝ وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(327/1).

(2) انظر: تفسير السَّعدي، تفسير الايات من (1 . 7) من سورة الحشر.

وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: 2 – 4].

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يتبيَّن له: أنَّ الله هو الَّذي أخرج يهود بني النَّضير من ديارهم إلى الشَّام حيث أول الحشر، في حين أنَّ كلَّ الأسباب المادِّيَّة معهم؛ حتى إنَّهم اعتقدوا: أنَّه لا أحدَ يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها، وقوَّتها.

لكنَّ الله خالق الأسباب، والمسبَّبات، جاءهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم الَّتي لم يتوقَّعوا: أنَّهم يهزمون بها، فقذف فيها الرُّعب، فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم، وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآنيُّ الفريد يربِّي الأمَّة بالأحداث، والوقائع، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السِّير، ويمتاز بأنَّه يكشف الحقائق، ويوضِّح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقيِّ، وهو ربُّ العالمين، ومن ذلك أنَّها بيَّنت: أنَّ الذي أخرج بني النَّضير هو الله جلَّ جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبيِّن: أنَّ يهود بني النَّضير حسبوا كلَّ شيءٍ، وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضيَّة؛ لكن جاءتهم الهزيمة من مكانٍ اطمأنوا إليه، وهو أنفسهم، فإذا الرُّعب يأتي من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظةٍ، لذلك يجب على كل إنسانٍ عاقلٍ أن يعتبر بهذه الغزوة، وأن يعرف: أنَّ الله هو المتصرِّف في الأمور، وأنَّه لا تقف أمام قدرته العظيمة الأسباب، ولا المسبَّبات، فهو القادر على كلِّ شيءٍ؛ فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى، ويصلحوا أمرهم، فإذا اتَّبعوا أمر الله، أصلح الله لهم كلَّ شيءٍ، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إنَّ هذه الغزوة درسٌ للأمَّة في جميع عصورها، تذكِّرهم أنَّ طريق النَّصر قريبٌ، وهو الرُّجوع إلى الله والاعتماد عليه، والتَّسليم لشريعته، وتقديره حقَّ قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون، نصرهم الله، ولو كان عدوُّهم قويّاً، وكثيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء، وأقرب شاهدٍ واقعيٍّ لذلك هو إجلاء بني النَّضير، وهي عبرةٌ، فليُعتبر بها، والسَّعيدُ مَنِ اعتبر بغيره!

ثمَّ أوضح سبحانه: أنَّه لو لم يعاقبهم بالجلاء؛ لعذَّبهم في الدُّنيا بالقتل، أما في الآخرة، فلهم

عذابُ النَّار[1].

3 – تخريب ممتلكات الأعداء:

لـــمَّا نزل رسول الله(ﷺ) بجيشه، وحاصر بني النَّضير تحصَّنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله(ﷺ) بقطع النَّخل، والتَّحريق فيها، فنادوه يا محمد! قد كنتَ تنهى عن الفساد، وتعيبه على مَنْ صـــنعه، فما بال قطع النَّخل، وتحريقها؟[2]، فأنزل الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ **[الحشر: 5]**[3][4].

وقد توسَّع الشَّيخ محمَّد أبو زهرة في شرح هذه الآية، فقال ما ملخَّصه بعد أن ساق اراءَ الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنِّسبة لما يكون في الحرب مِنْ هدمٍ، وتحريقٍ، وتخريبٍ: أنه يُستفاد من مصادر الشَّريعة، وأعمال النَّبيِّ(ﷺ) في حروبه:

1 – أنَّ الأصل هو عدم قطع الشَّجر، وعدم تخريب البناء؛ لأنَّ الهدف من الحرب لــيس إيذاءَ الرَّعية، ولكن دفع أذى الرَّاعي الظالم، وبذلك وردت الآثار.

2 – أنَّه إذا تبيَّن: أنَّ قطع الشَّجر، وهدم البناء توجبه ضرورةٌ حربيَّة لا مناص منها؛ كأن يستتر العدوُّ به، ويتَّخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين؛ فإنَّه لا مناصَ من قطع الأشجار، وهدم البناء؛ على أنَّه ضرورةٌ من ضرورات القتال، كما فعل النَّبيُّ(ﷺ) هنا، وفي حصن ثَقِيف.

3 – أنَّ كلام الفقهاء الَّذين أجازوا الهدم، والقلع يجب أن يُخرَّج على أســاس هذه الضَّرورات، لا على أساس إيذاء العدوِّ، والإفساد المجرَّد، فالعدوُّ ليس الشَّعب، إنَّما العدوُّ هم الَّذين يحملون السِّلاح؛ ليقاتلوا[5].

---

(1) انظر: حديث القران الكريم (270/1 . 271).
(2) انظر: حديث القران الكريم (274/1).
(3) انظر: تفسير الطَّبريِّ (34/28).
(4) اللِّين: كلُّ أنواع النَّخل ، والواحدة: لِينة.
(5) انظر: خاتم النبيّين ، للشَّيخ محمد أبو زهرة (265/2 . 269).

4 – تطوير السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة:

بيَّن – سبحانه وتعالى – حكم الأموال الَّتي أخذها المسلمون من بني النَّضير بعد أن تمَّ إجلاؤهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: 6].

وبيَّن – سبحانه وتعالى –: أن الأموال الَّتي عادت إلى المسلمين من بني النَّضير، قد تفضَّل بها عليهم بدون قتالٍ شديدٍ، وذلك لأنَّ المسلمين مَشَوْا إلى أعدائهم، ولم يركبوا خيلاً، ولا إبلاً، وافتتحها(ﷺ) صلحاً، وأجلاهم، وأخذ أموالهم، ووضعها حيث أمره الله؛ فقد «كانت أموال بني النَّضير ممَّا أفاء الله على رسوله ممَّا لم يُوجف عليه المسلمون بخيلٍ، ولا ركابٍ، فكانت للنَّبيّ(ﷺ) خاصَّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ، وما بقي يجعله في الكُرَاعِ والسِّلاح عُدَّةً في سبيلِ الله» [البخاري (4033)، ومسلم (1757)][1].

ثمَّ بيَّن المولى – عزَّ وجل – أحكام الفيء في قرى الكفار عامَّة، فقال الله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: 7].

وكان فيء بني النَّضير خالصاً لرسول الله(ﷺ) ، ولهذا تصرَّف فيه – أي: الفيء – كما يشاء، فردَّه على المسلمين في وجوه البرِّ، والمصالح الَّتي ذكرها الله – عزَّ وجلَّ – في هذه الآيات.

ولـمَّا غنم(ﷺ) أموال بني النَّضير؛ دعا ثابت بن قيس، فقال: «ادعُ لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال(ﷺ) : «الأنصارُ كلُّها» فدعا له الأوس، والخزرج، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثمَّ ذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إيَّاهم في منازلهم، وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم، ثمَّ قال: «إن أحببتُم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني

---

(1) الكُراع: الخيل ، ينفق على أهله نفقة سنة: يعزل لهم نفقة سنة ، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السَّنة في وجوه الخير ، فلا تتمُّ عليه السنة؛ ولهذا تُوفي صلى الله عليه وسلمودرعُهُ مرهونةٌ على شعير استدانه لأهله ، ولم يشبع ثلاثة أيام تِبَاعاً ، وقد تظاهرت الأحاديث النبوية بكثرة جوعه ، وجوع عياله.

النَّضــير – وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّــكنى في منازلكم، وأموالكم – وإن أحببتم أعطيتُهم، وخرجوا من دوركم». [الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري (422/7 – 423)].

فقال سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ: يا رسولَ الله! بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا، كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله!

وقســم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعطِ أحداً من الأنصــار شــيئاً، غير أبي دُجَانة، وسَــهْل بن حُنَيفُ لحاجتهما [ابن هشـام (202/201/3)][1]، ومع أنَّه(ﷺ) يعلم: أنَّ الفيء كان خاصَّاً له، إلا أنَّه جمع الأنصار، وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم، وهذا من الهدي النَّبويِّ الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغايةُ من هذا التَّوزيع، تخفيفَ العبء عن الأنصـــار، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دُورِ بني النَّضـير، وأُعيدت دُورُ الأنصــار إلى أصــحابها، واســتغنى بعض المهاجرين ممَّا يمكن أن يقال فيه: إنَّ الأزمة قد بدأت بالانفراج[2].

إنَّ قســمة أموال بني النَّضـير، أوجد تطوُّراً كبيراً في السِّـياسـة الماليَّة للدَّولة الإسـلاميَّة؛ فقد كانت الغنائم الحربيَّة قبل هذه الغزوة، تقســـم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدَّولةُ الإســـلاميَّةُ خُمْسَـها؛ لتصرف في مصـارف معينةٍ حدَّدها القرآن الكريم[3]، وبعد غزوة بني النَّضير، أصبحت هناك سـياسـةٌ ماليَّةٌ جديدةٌ فيما يتعلَّق بالغنائم، وخلاصــتها: أنَّ الغنائم الحربيَّة أصــبحت – حسب السِّياسة الجديدة – على نوعين:

1 – غنائم استولى عليها المجاهدون بحدِّ سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدَّولة خُمْسَها؛ لتصرفه في مصارفه الخاصَّة.

---

(1) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (86/2).

(2) تفسير القرطبيّ للآية (9) من سورة الحشر ، وفتح الباري (شرح حديث رقم 4030) ، وسيرة ابن هشام (أمر إجلاء بني النَّضير) ، والرَّحيق المختوم (غزوة بني النَّضير).

(3) الآية (41) من سورة الأنفال ، والآية (7) من سورة الحشر ، وانظر تفسيرهما في: ابن كثيرٍ ، والقرطبيِّ ، والسَّعديِّ.

2 – غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتالٍ؛ وهذا النَّوع يختصُّ رئيس الدَّولة الإسلاميَّة، بالتَّصرُّف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصاديَّة في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحاً، أو يبني به مدينةً، أو يصلح به طرقاً... إلخ، وهذا يعني: أنَّه قد أصبح لرئيس الدَّولة الإسلاميَّة ميزانيَّة خاصَّةً يتصرَّف فيها تصرُّفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة[1].

وقد ذكر – سبحانه وتعالى – في الآيتين الَّلتين أوضحتا سياسته – عليه الصَّلاة والسلام – في تقسيم فيء بني النَّضير إذا اختصَّ به أناساً دون آخرين؛ العلَّةَ في ذلك في قوله تعالى: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7] أي: لكي لا يكونَ تداولُ المالِ محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط، والتَّعليلُ لهذه الغاية يؤذِن بأنَّ سياسة الشَّريعة الإسلاميَّة في شؤون المال قائمةٌ في جملتها على تحقيق هذا المبدأ، وأنَّ كلَّ ما تفيض به كتب الشَّريعة الإسلاميَّة من الأحكام المتعلِّقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبغى من ورائه إقامة مجتمعٍ عادلٍ تتقارب فيه طبقاتُ النَّاس، وفئاتهم، ويُقضى فيه على أسباب الثَّغرات الَّتي قد تظهر فيما بينها، والَّتي قد تؤثِّر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وأنظمتها الخاصَّة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزَّكاة، ومنع للرِّبا، وقضاءٍ على مختلف مظاهر الاحتكارات؛ لعاش النَّاسُ كلُّهم في بُحْبُوحَةٍ[2]من العيش، قد يتفاوتون في الرِّزق، ولكنَّهم جميعاً مكتفون، وليس فيهم كَلٌّ[3] على آخر – وإن كانوا جميعاً يتعاونون [4]وبعد بيان العلَّة في توزيع أموال الفيء، عَقَّبَ سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرَّسول(ﷺ) ، وأن ينتهوا عمَّا نهاهم عنه، وأنَّ هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتَّقوى، فإنَّ عقابه شديدٌ، وأليمٌ للعُصاة، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

---

(1) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص 169.

(2) بَحْبَحَ في الشَّيء: توسَّع. البُحْبُوحَة من كلِّ شيء: وسطه ، وخياره.

(3) الكَلُّ: مَنْ يكونُ عبئاً على غيره.

(4) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 194.

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: 7].

أي: ما أمركم به الرَّسول(ﷺ) فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه؛ فإنَّه إنَّما يأمركم بكلِّ خيرٍ، وصلاحٍ، وينهى عن كلِّ شرٍّ وفسادٍ.

وقوله: أي: خافوا ربَّكم بامتثال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾: أي: فإنَّ عقابه أليم، وعذابه شديدٌ لمن عصاه، وخالف ما أمره بـــــه، قال المفسِّـرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنَّها عامَّةٌ في كلِّ ما أمر به النَّبيُّ(ﷺ) ، أو نهى عنه من واجبٍ أو مندوبٍ، أو مســـتحبٍّ، أو محرَّمٍ، فيدخل فيها الفيءُ، وغيره[1]، وقد جـاءت آيات كثيرةٌ تربِّي الأمَّةَ على وجوب الانقيـاد لحكم الله تعـالى، ولحكم رسوله(ﷺ) وذلك من كلِّ الأمور، قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

وقال(ﷺ) : «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فافعلوا منهم ما اســـتطعتُم؛ فإنَّما أهْلَكَ الَّذين من قبلكم كثرةُ مســـائِلهم، واختلافُهم على أنبيائهم» [أحمد (247/2)، ومســـلم (130/1337 و131)، والترمذي (2679)، والنسائي (110/5 – 111)، وابن ماجه (1 و2)].

5 – فَضْلُ المهاجرين والأنصار، والتَّابعين لهم بإحسان:

فَضْلُ المهاجرين:

بيَّنت الآيات الكريمةُ في سورة الحشر، فضلَ المهاجرين على غيرهم، فهم لهم الدَّرجة الأولى، فقد اشـتملت الآيات على أوصـافهم الجميلة، وشـهد الله لهم بالصِّـدق، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْـــلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْـــوَاناً وَيَنْصُـــرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: 8].

(1) انظر: تفسير الرَّازي (28/29) ، وصفوة التَّفاسير (351/3).

فَضْلُ الأنصار:

وَضَّحَت الآيات فضلَ الأنصار، وقد وصفهم الله بهذه الصفات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

فَضْلُ التَّابعين لهم بإحسان:

وهم المتتبِّعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الدَّاعون في السِّرِّ، والعلانية لإخوانهم الَّذين سبقوهم بالإيمان[1].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وهكذا تحدَّثت السُّورة الكريمة عن صورٍ مشرقةٍ للمهاجرين، والأنصار، والتَّابعين لهم بإحسان.

6 - موقف المنافقين في المدينة:

بيَّنتِ الآيات الكريمة حالَ المنافقين، ووضَّحتْ موقفَهم، وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين، وموقف اليهود ونفسيَّاتهم[2].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ

---

(1) انظر: حديث القران الكريم (291/1).

(2) المصدر السابق نفسه (264/1).

۝ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الحشر: 11 – 17].

يخبرنا المولى – عزَّ وجلَّ – عن المنافقين ؛ كعبد الله بن أُبيّ وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النَّضير يَعِدُونَهم بمناصرتهم، وقوله: ﴿لإِخْوَانِهِمُ﴾ أي: الَّذين بينهم وبينهم أُخوَّة الكفر، وهم يهود بني النَّضير، وجعلَهم إخواناً لهم؛ لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوانٌ في الكفر. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي: والله! لئن أخرجتم من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من ديارنا في صحبتكم ﴿ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في شأنكم، ومن أجلكم، ﴿أَحَدًا﴾ ممَّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن طال الزَّمان، ثمَّ لـمَّا وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنُّصرة لهم، فقالوا: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ ﴾ أي: وإن قاتلكم المسلمون ﴿ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي: على المسلمين؛ الَّذين، يقاتلونكم ثمَّ كذَّبهم الله تعالى، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنَّصر لهم ولما أجمل – سبحانه وتعالى – كَذِبَ المنافقين فيما وعدوا به بني النضير؛ فصَّل ما كذبوا فيه[1]، وزاد في تأكيد الرَّدِّ عليهم، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أَخْرَجَ المسلمون اليهودَ؛ فإنَّ المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ﴾ أي: ولئن قاتل المسلمون اليهود؛ فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ ﴾. أي: ولئن نصر المنافقون اليهود – على سبيل الفرض –، فإنَّ نصرهم لن يضرَّ المسلمين شيئاً؛ بل إنَّ الفريقين سيولُّون

(1) انظر: المستفاد من قصص القران (282/2).

الأدبار أمام المسلمين، ثمَّ لا ينصر الله بني النَّضير.

ثمَّ قرر القرآن الكريم حقيقةً قائمةً في نفوس اليهود، والمنافقين، قال تعالى: ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي: لأنتم يا معشر المسلمين! أشدُّ خوفاً، وخشيةً في صدور اليهود، والمنافقين من الله تعالى، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى، وهذه الحال منهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي: لا يعلمون الله، وعظمته؛ حتَّى يخشوه حقَّ خشيته[1].

ثمَّ أكَّد - سبحانه وتعالى - هذه الحقيقة بصفاتٍ أخرى فيهم، فقال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ﴾فقد كشف - سبحانه وتعالى - عن حقائق نفسيَّة اليهود، فهم جبناء، لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطنَ مكشوفةٍ؛ بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصَّنة بالخنادق، وجدرانهم، وحوائطهم الَّتي يتستَّرون مِنْ خلفها.

ثمَّ كشف القرآن عن بعض أسباب ضعفهم، وخورهم، فقال تعالى: ﴿بأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾

فهؤلاء اليهود في الظَّاهر تراهم مجتمعين صفّاً واحداً ضدَّ المسلمين، لكنَّ الآية تبين: أنَّهم عكس ذلك في الحقيقة، فهم ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم بعضهم لبعضٍ شديدةٌ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: تظنُّهم مجتمعين على أمر، ورأيٍ ولكنَّهم في الحقيقة ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي:متفرقة

وقوله سبحانه ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: بسبب أنَّهم قومٌ لا يعقلون الحقَّ، ولا يدورون معه، وإنَّما يدورون في ركاب الباطل[2].

وفي الآية تجسيرٌ للمؤمنين، وتشجيعٌ لقلوبهم على قتال اليهود؛ لأنَّهم عرفوا من ربِّ العالمين،

---

(1) المصدر السابق نفسه ، (283/2).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم (293/1 . 294).

بأنَّ اليهود جبناء، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ ما نزل ببني النَّضير من بلاءٍ بسبب غدرهم، قد نزل ما يشبهه بإخوانهم من بني قينقاع، فذاقوا جزاءَ خيانتهم، وغرورهم. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثمَّ ضرب الله مثلاً آخر للمنافقين، الَّذين أَغْرَوْا بني النَّضير بالمقاومة ثمَّ خذلوهم عند المحنة، فقال تعالى: يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالَّذين وعدوهم النَّصر من ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾، وقول المنافقين لهم: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾

ثمَّ لـمَّا حقَّت الحقائق، ووقع عليهم الحصار، والقتال، تخلَّوا عنهم، وأسلموهم للتَّهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سَوَّل للإنسان - والعياذ بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرَّأ منه، وتنصَّل، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقوله: أي: فكان عاقبة الامر ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾، وهو الشَّيطان، والفاعل له، وهو المستجيب للشَّيطان: أنَّهما في النار خالدين فيها أبد الابدين ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: جزاء كلِّ ظالمٍ[1].

7 - **وعظُ المؤمنين، وتذكيرهم باليوم الآخر**، وبيانُ الفرق الشَّاسع بين أصحاب الجنَّة، وأصحاب النار:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ **[الحشر: 18 - 20]**.

(1) انظر: المستفاد من قصص القران (284/2).

وهذه الآيات الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسه، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها.

ومع الانتصارات العظيمة الَّتي حقَّقها المسلمون بالقضاء على يهود بني النَّضير، والتَّوسُّع الاقتصاديُّ الَّذي حدث للصَّحابة، مع توسُّع موارد الدَّولة بدخول مصدر الفيء يأتي القرآن الكريم في هذه الحادثة؛ ليؤكِّد على معاني العقيدة، وأصولها، والتَّذكير باليوم الآخر، والاستعداد له، فيأمر المولى - عزَّ وجلَّ - أفراد المجتمع المسلم بما يوجبه الإيمان، ويقتضيه من لزوم التَّقوى سرّاً وعلانيةً، ومراعاة ما أمرهم الله به من أوامره، وحدوده، وينظروا ما لهم، وما عليهم، وماذا قدموا من الأعمال، وهل تنفعهم، أو تضرُّهم يوم القيامة؟

وطلب منهم المولى - عزَّ وجلَّ - أن يجعلوا الآخرة نُصْبَ أعينهم، وقبلةَ قلوبهم، وأن يهتمُّوا بشأنها، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الَّتي توصلهم إلى رضا الله - عزَّ وجلَّ - وأن يتغلَّبوا على القواطع، ويزيلوا العوائق الَّتي توقفهم عن السَّير نحو مرضاة الله - سبحانه وتعالى -[1].

وجاء التعبير القرآنيُّ بقوله يريد يوم ﴿لِغَدٍ﴾، فقرَّب الله تعالى القيامة حتَّى جعلها غداً، وذلك لأنَّها اتيةٌ لا محالة، وكلُّ اتٍ قريبٌ[2].

وأعلمهم - سبحانه وتعالى -: أنَّه خبير بما يعملون، ولا تخفى عليه أعمالُهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ لكي يَجِدُّوا، ويجتهدوا[3].

وحذَّرهم من أن يكونوا كالَّذين غفلوا عن ذكر الله، فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم، فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

ثمَّ نفى - سبحانه وتعالى - المساواة بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار، وبيَّن : أنَّ أصحاب الجنَّة هم الفائزون بالنَّعيم الخالد، النَّاجون من عذاب الله، أمَّا أصحاب النَّار؛ فهم

(1) انظر: تفسير السَّعدي (340/7).
(2) انظر: المحرر الوجيز (390/14).
(3) تفسير السَّعدي (342/4).

الخاسرون[1].

وهذا التَّفصـــيل، والتَّذكير، والوعظ، وتقريب الآخرة من الأذهان، والقلوب موجبٌ لأهل الإيمان إلى المبادرة والمشاركة في الخيرات.

8 – عظمة القرآن الكريم، وعلوُّ منزلته، وبعض صـــفات الله الجليلة الَّتي تليق به – سبحانه وتعالى –:-

1 – قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِـعًا مُتَصَـدِّعًا مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

ومعنى الآية: لو جعلنا في الجبل عقلاً، كما جعلنا فيكم أيُّها الناس! ثمَّ أنزلنا عليه القرآن، لخشع هذا الجبل، وخضع، وتشقَّق من خشية الله، وهذا تمثيل لعلوِّ شأن القرآن، وقوَّة تأثير ما فيه من المواعظ، والزَّواجر، وفيه توبيخٌ للإنسان على قسوة قلبه، وقلَّة تخشُّعه حين قراءة القرآن، وتدبُّر ما فيه من القوارع الَّتي تذلُّ لها الجبال الرَّاســيات[2]، ثمَّ بيَّن – ســبحانه وتعالى – أنَّه يضـرب للنَّاس الأمثال، ويوضِّـح لعباده الحلال، والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في آياته، ويتدبَّروها؛ لأن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيِّن له طريق الخير، والشَّـــرِّ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن، والتدبُّر لمعانيه[3].

2 – وفي نهاية سورة الحشر تحدَّثت الآيات الكريمة عن بعض أسماء الله الحسنى، وأوصافه العلا. قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـــهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـــلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي

(1) تفسير السَّعدي (342/3) ، وانظر: حديث القران الكريم.
(2) انظر: تفسير المراغي (57/28) بتصرفٍ يسيرٍ.
(3) انظر: تفسير السَّعدي (344/7).

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: 22 – 24].

وهكذا خُتِمتِ السُّورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفاتٍ جليلةٍ، لكي يتربَّى المجتمع المسلم على تحقيق العبودية لله، ويتعرَّف إليه من خلال أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشَّامل، وتدبيره العامِّ، وكلُّ إله غيره فإنَّه باطلٌ، لا يستحق من العبادة مثقال ذرَّةٍ، لأنَّه فقيرٌ، عاجزٌ، ناقصٌ، لا يملك لنفسه، ولا لغيره شيئاً.

ثمَّ وصف نفسه بعموم العلم الشَّامل، لما غاب عن الخلق، وما يشاهدونه، وبعموم رحمته؛ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ، ووصلت إلى كلِّ حيٍّ، ثمَّ كرَّر ذكر عموم ألوهيته، وانفراده بها، وأنَّه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلويُّ، والسُّفليُّ، وأهله؛ الجميع مماليك للهِ، فقراء مُدَبَّرُون.

﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ أي: المقدَّس السَّالم من كلِّ، ونقص، المعظَّم، الممَجَّد؛ لأنَّ القدُّوس يدلُّ على التَّنزيه من كلِّ نقصٍ، والتَّعظيم لله في أوصافه، وجلاله.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق، وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الَّذي يغالَب، ولا يمانَع، بل قد قهر كلَّ شيءٍ، وخضع له كلُّ شيءٍ.

﴿الْجَبَّارُ﴾ الَّذي قهر جميع، وأذعن له سائر الخلق؛ الَّذي يجبر الكسير، ويغني الفقير.

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الَّذي له الكبرياء، المتنزِّه عن جميع العيوب، والظُّلم، والجور.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾وهذا تنزيهٌ عامٌّ عن كل وصفه به مَنْ أشرك به، وعانده.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ لجميع المخلوقات.

﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروءات.

﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصوِّرات.

وهذه الأسماء متعلقةٌ بالخلق، والتَّدبير، والتَّقدير، وأنَّ ذلك كلَّه قد انفرد الله به، لم يشاركه

فيه مشاركٌ.

﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جدّاً، الَّتي يحصيها، ولا يعلمها أحدٌ إلا هو، ومع ذلك فكلُّها حُسنى؛ أي: صفات كمالٍ، بل تدلُّ على أكمل الصِّفات، وأعظمها، لا نقص في شيءٍ منها بوجهٍ من الوجوه.

ومن حسنها: أنَّ الله يحبُّها، ويحب مَنْ يحبُّها، ويحبُّ من عباده أن يدعوه، ويسألوه بها.

ومن كماله، وأنَّ له الأسماء الحسنى، والصِّفات العليا: أنَّ جميع من في السَّموات؛ والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام، يسبِّحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله، وكرمه، ما تقتضيه رحمتُه، وحكمته.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الَّذي يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكوِّن شيئاً إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ[1].

إنَّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، تتضمَّن أنواع التَّوحيد الثلاثة: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الإلهيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات، ولذلك تربَّى الصَّحابة على معرفتها، والعمل بها، فأنواع التَّوحيد هي رُوح الإيمان، ورَوْحُه، وأصله، وغايته، فكلَّما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله، وصفاته؛ ازداد إيمانه، وقوي يقينه، فهذا العلم رسخ في قلوب الصَّحابة، فأوجب لهم خشية الله، ومعرفته حقَّ المعرفة، فعملوا بموجبها[2].

9 - تحريم الخمر:

حرِّمت الخمر ليالي حصار بني النَّضير[3] في ربيع الأوَّل، من السَّنة الرَّابعة من الهجرة[4]، وقد خضع تحريم الخمر لِسُنَّة التَّدَرُّج، وكان ذلك التَّحريم على مراحل معروفةٍ في تاريخ التَّشريع

---

(1) انظر: تفسير السَّعدي (346/7 . 347).
(2) انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، للصَّلابي ، ص 228.
(3) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(253/1).
(4) انظر: تفسير القرطبي (10/18).

الإسلاميّ، حتَّى نزلت الآيات الحاسمة في النَّهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: 91] قال المؤمنون في قوَّةٍ، وتصميمٍ: قد انتهينا يا رب![1].

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

يقول سيِّد قطب – رحمه الله –: «وهذا النَّصُّ الَّذي بين أيدينا كان أوَّلَ خُطوةٍ من خطوات التَّحريم، فالأشياء، والأعمال قد لا تكون شرّاً خالصاً، فالخير يلتبس بالشَّرِّ، والشَّرُّ يلتبس بالخير في هذه الأرض، ولكنَّ مدار الحلّ والحُرْمة هو غلبة الخير أو غلبة الشَّرِّ، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النَّفع، فتلك علَّة تحريمٍ، ومنعٍ وإن لم يصرَّح هنا بالتَّحريم، والمنع.

هنا يبدو لنا طرفٌ من منهج التَّربية الإسلاميَّة القرآنيَّة الرَّبانيَّة الحكيمة، وهو المنهج الَّذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه، وفرائضه، وتوجيهاته؛ ونحن نشير إلى قاعدةٍ من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر، والميسر، عندما يتعلَّق الأمر، أو النَّهي بقاعدةٍ من قواعد التَّصوُّر الإيمانيِّ – أي: بمسألةٍ اعتقاديَّةٍ – فإنَّ الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللَّحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلَّق الأمر، أو النَّهي بعبادةٍ، وتقليدٍ، أو بوضعٍ اجتماعيٍّ مُعَقَّد، فإنَّ الإسلام يتريَّث به، ويأخذ المسألة باليسر، والتدرُّج، ويهيِّئ الظُّروف الواقعة الَّتي تُيَسِّرُ التَّنفيذ والطَّاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التَّوحيد، أو الشِّرك؛ أمضى أمره منذ اللَّحظة الأولى في ضربةٍ حازمةٍ جازمةٍ، لا تردُّد فيها، ولا تَلَفُّت، ولا مجاملة فيها، ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطَّريق؛ لأنَّ المسألة هنا مسألةٌ أساسيَّةٌ للتَّصوُّر، لا يصلح بدونها إيمانٌ، ولا يقام إسلامٌ.

---

(1) انظر: الخصائص العامَّة للإسلام، للقرضاويِّ، ص 181.

فأمَّا الخمر، والميســـر؛ فقد كان الأمر أمر عادةٍ، وألفة، والعادة تحتاج إلى علاجٍ، فبدأ بتحريك الوجدان الدِّيني المنطقيّ التَّشريعيّ في نفوس المسلمين بأنَّ الإثم في الخمر، والميسر أكبرُ من النَّفع، وفي هذا إيحاءٌ بأنَّ تركهما هو الأولى، ثمَّ جاءت الخطوة الثَّانية بآية ســـورة النِّســـاء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43].

والصَّلاة في خمسة أوقات، معظمها متقاربٌ، لا يكفي ما بينها للسُّكر، والإفاقة! وفي هذا تضييقٌ لفرص المزاولة العمليَّة لعادة الشُّرب، وكسرٌ لعادة الإدمان الَّتي تتعلَّق بمواعيد التَّعاطي؛ إذ المعروف: أنَّ المدمن يشـعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه(1) من مسـكرٍ، أو مُخَدِّرٍ في الموعد؛ الَّذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرَّر هذا التَّجاوز فترةَ حدِّ العادة؛ أمكن التغلُّب عليها، حتَّى إذا تمَّت هاتان الخطوتان؛ جاء النَّهي الجازم الأخير لتحريم الخمر، والميســـر ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة: 91 – 92](2).

10 – لا يحيق المكر السَّيئ إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتامرهم على حياة الرَّســـول(ﷺ) والدَّولة الإســـلاميَّة، في غاية الخسَّـــة، والوَضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم، وغدرهم عِزَّةً، ورفعةً، ومجداً، وغلبةً، لكنَّ الله سَخِرَ منهم، ونَجَّى رسولَه(ﷺ) والمسلمين مِنْ مكرهم، وأذلَّهم، وأخزاهم، فزال مجدُهم، وكسر غلبتهم، وخرَّب بيوتهم، ورحَّلهم عن ديارهم، ولم يكلِّف ذلك المســـلمين اصـطداماً مسـلَّحاً، ولا قتالاً ضـارياً، ولكنَّ الله قـذف في قلوبهم الرُّعـب، والفزع، فطلبوا النَّجـاة بأرواحهم في ذلَّـةٍ، وخزيٍ، مُخَلِّفين وراءهم ثروةً، وملكاً حازه المســـلمون غنيمةً باردةً، وقد قال تعالى في شـأنهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْـرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ

(1)]أَدْمَنَ الشراب: أدامه ، ولم يقلع عنه ، ويقال: أدمن الأمرَ ، وعليه: واظب.

(2) انظر: في ظلال القران (229/1).

حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: 2].

هذه عاقبة المكر السَّــيئ، والغدر المشِــين، وانظر بعد ذلك كيف أشــار القرآن الكريم إلى مواطنِ العبرة في هذه الموقعة، وإلى هذا التَّهديد الَّذي أعلنه لكلِّ مَنْ يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبدِّ[1]، وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: 2].

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوهٍ:

1 - أنَّ الَّذي يقفُ في وجه الحقِّ، ويصــدُّ النَّاسَ عنه، ويطارد دعاة الحقِّ منهزمٌ لا محالة، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 12].

2 - الصِّــراع بين الحقِّ، والباطل لا يتوقَّف، وباق حتَّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، وستكون للباطل جولاتٌ، وللحقِّ جولاتٌ؛ ولكنَّ العاقبة لأهل الحقِّ في نهاية المطاف.

3 - الاعتبار يكون بتجنُّب ما ارتكبه اليهود من خيانةٍ وغدرٍ، حتَّى لا يحدُث نفسُ المصير الَّذي حدث لهم من الهزيمة، والذُّلِّ والهوان[2].

11 - لا إكراه في الدِّين:

كان في بني النَّضــير أناسٌ من أبناء الأنصــار قد تهوَّدُوا بسـبب تربيتهم بين ظهراني اليهود، فأراد أهلوهم المســلمون منعهم من الرَّحيل معهم فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْــدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْــتَمْسَــكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 256].

---

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص 167، 168.

(2) انظر: الصِّراع مع اليهود، لأبي فارس، ص 179.

روى أبو داود في ســـننه عن عبد الله بن عباسٍ رضـــي الله عنهما، قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتَ[1]، فتجعل على نفسها: إن عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَهُ، فلمَّا أُجليت بنو النَّضير، كان فيهم من أبناء الأنصـــار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـــدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ **[البقرة: 256]. [أبو داود (2682)، والنســـائي في الســـنن الكبرى (10982 و10983)].**

* * *

(1) المِقْلاتُ: المرأة التي لا يعيش لها ولدٌ

المبحث الرَّابع

غزوة ذات الرِّقاع

أولاً: تاريخها، وأسبابها، ولماذا سُمِّيت بذات الرِّقاع[1]:

اختلفَ أهلُ المغازي والسِّـــيَر في تاريخ هـذه الغزوة، وقـد ذهـب البُخاريُّ **[البخاري تعليقاً (530/7)]** إلى أنَّها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق[2] إلى أنَّها بعد غزوة بني النَّضير، وقيل: بعد الخندق سـنة أربع، وعند الواقديّ[3]، وابن سـعدٍ[4] أنَّها كانت في المحرم سـنة خمسٍ، ورجَّح ابن عمر ما ذهب إليه البخاريُّ[5]؛ لأنَّ أبا موسـى الأشـعريَّ شـهدها وقد قدم من الحبشـة بعد فتح خيبر مباشرةً، وشـهدها أبو هريرة، وقد أسـلم حين فتح خيبر، وصلَّى فيها رسولُ اللهِ(ﷺ) صلاةَ الخوف، ولم تكن شُرِعت في الخندق؛ بل شرعت في عسفان أيَّام الحديبية، والحديبية سنةَ ستٍّ.

أمَّا الدُّكتور البوطي[6]؛ فقد جزم؛ أنَّها قبل الخندق، واحتجَّ في ذلك بما ثبت في الصَّـــحيح من أنَّ جابراً رضـــي الله عنه اســـتأذن الرَّســـولَ(ﷺ) في غزوة الخندق، وأخبر امرأتَهُ بما رأى من جوعِ رســـول الله(ﷺ) ، وفيه قصَّـــة الطَّعام الَّذي دعا إليه النَّبيّ(ﷺ) ، ومجيء كلِّ الجيش، ومعجزة الرَّسـول(ﷺ) في تكثير طعام جابرٍ، وفيه قول الرَّسـول(ﷺ) لزوجة جابر: «كلي هذا، وأهدي؛ فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعةٌ» **[البخاري (4101)]**.

وما ثبت في الصَّحيحين **[البخاري (2097)، ومسلم (73/715)، وأحمد (375/3 – 376)]** أيضاً

---

(1) انظر: شرح ذلك كلِّه في فتح الباري. وينظر الشكل (8) في الصفحة (752).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (225/3).
(3) انظر: المغازي ، للواقدي (395/1).
(4) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (61/2).
(5) فتح الباري: شرح الأحاديث المتقدِّمة.
(6) انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص 210.

من أنَّ الرَّسول(ﷺ) سأل جابراً في غزوة ذات الرِّقاع إن كان قد تزوَّج بعدُ ، فأجاب بنعم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول(ﷺ) لم يكن علم شيئاً عن زواجه، وأخذ البوطي في ردِّ أدلَّة ابن حجر في كونها بعد خيبر، فقال: أمَّا ما استدل به الحافظُ ابن حجر من أنَّه(ﷺ) لم يصلِّ صلاةَ الخوف في الأحزاب، وصلاَّها قضاءً، فيجاب عنه بأنَّه ربَّما كان سبب تأخير الرَّسول(ﷺ) لها إذ ذاك استمرارَ الرَّمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالاً للانصراف إلى الصَّلاة، وربَّما كان العدوُّ في جهة القبلة، أو ربَّما أخرها لبيان مشروعيَّة قضاء الفائتة كيفما كانت. كما يجاب عن استدلاله بحديث أبي موسى الأشعريِّ بما ذكره كثيرٌ من علماء السِّيَر، والمغازي من أنَّ أبا موسى إنَّما قصد بها غزوةً أخرى سُمِّيت هي أيضاً بذات الرِّقَاع، بدليل أنَّه قال عنها: خرجنا مع رسول الله(ﷺ) في غزاةٍ ونحن في ستة نفرٍ بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ **[البخاري (4128)، ومسلم (1816)]**[1] ... إلخ، وغزوة ذات الرِّقاع الَّتي نتحدَّث عنها كان العدد أكثر من ذلك[2].

ومال الدُّكتور الحكمي[3]، والدُّكتور العمري[4]، إلى ما ذهب إليه البخاريُّ وابن حجر، ومال الدُّكتور مهدي رزق الله أحمد إلى ما ذهب إليه البوطيُّ[5]، وقال بأنَّ حجةَ الدُّكتور البوطي بزواج جابر قبل الخندق لا تُدْفَع، وهي في الصَّحيحين؛ إضافةً إلى أنَّ البخاريَّ قد ذكر رأيه مُعَلَّقاً، وحجَّته فقط مجيء أبي موسى بعد خيبر، وهي حجَّةٌ دفعها البوطيُّ بترجيح تعدُّد الغزوة[6]، وقد ذكر البوطيُّ: أنَّ تاريخ الغزوة كان في السَّنة الرَّابعة للهجرة بعد مرور شهرٍ ونصفٍ تقريباً على إجلاء بني النَّضير، وقال بأن هذا الرَّأي ذهب إليه أكثر علماء السِّيَر، والمغازي[7] وإليه ذهبتُ.

---

(1) بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُه: أي: نركبه عقبةً ، وهو أن يركبَ هذا قليلاً ، ثم ينزل ، فيركب الاخر بالنَّوبة؛ حتَّى يأتي على سائرهم.
(2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 425.
(3) انظر: مرويات الحديبية ، ص 73 . 86.
(4) انظر: المجتمع المدني ، ص 130.
(5) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 425.
(6) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 425.
(7) انظر: فقه السيرة النبوية ، ص 194.

وأمَّا سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثيرٍ من قبائل نجدٍ بالمسلمين، ذلك الغدر الَّذي تجلَّى في مقتل أولئك الدُّعاة السبعين الَّذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج(ﷺ) قاصداً قبائل مُحَارِب، وبني ثَعْلبة[1]، وقد ذكر الدُّكتور محمَّد أبو فارس: أنَّ قادماً قدم المدينةَ، فأخبر المسلمين: أن بني مُحَارِب، وبني ثَعْلبة من غَطَفَان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله(ﷺ)، فما كان منه(ﷺ) إلا أن سار إليهم في عُقْر دارهم، على رأس أربعمئة مقاتلٍ، وقيل: سبعمئة مقاتلٍ، ولـمَّا وصل رسول الله(ﷺ) إلى ديارهم؛ خافوا، وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم، وأطفالَهم، وأموالَهم، وحضرت الصَّلاةُ، فخاف المسلمون أن يُغيروا عليهم، فصلَّى رسولُ الله(ﷺ) صلاة الخوف، وعاد رسول الله(ﷺ) إلى المدينة[2].

وقد حقَّقت هذه الحملةُ العسكريَّةُ أغراضَها، وتمكَّنت من تشتيت الحشد الَّذي قامت به غَطَفَان لغزو المدينة، فأرهب(ﷺ) تلك القبائل، وألقى عليها درساً بأنَّ المسلمين ليسوا قادرين فقط على سَحْق مَنْ تحدِّثه نفسُه بالاقتراب من المدينة؛ بل قادرون على نقل المعركة إلى أرض العدوِّ نفسه، وضربه في عُقْر داره[3].

وسُمِّيت بذات الرِّقاع؛ لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَقَ، والرِّقاع اتِّقاءَ الحرِّ، وقيل: لأنَّهم رقَّعوا راياتهم، وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرِّقاع[4]، وقيل: لأنَّ المسلمين نزلوا في أرضٍ كان فيها بقعٌ بيض، وسودٌ مختلفةٌ، فسمِّيت لذلك[5]، والصَّحيح: لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم مِنَ الخرق؛ فقد روى الشَّيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: خرجنا مع النَّبيِّ(ﷺ) في غزاةٍ ونحن في ستَّة نفرٍ، بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَت[6] أقدامُنا، ونَقِبَت قدماي، وسَقَطَتْ أظفاري، وكنَّا نلُفُّ على أرجلنا الخِرَق، فسُمِّيت غزوةَ ذات الرِّقاع لما كنا نُعَصِّبُ

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 194 ، 195.

(2) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص 14.

(3) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص 77 . 78.

(4) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم(309/1).

(5) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص 170.

(6) نَقِبتْ أقدامُنا: قرحت من الحفاء.

بالخِرَق على أرجلنا. [البخاري (4128)، ومسلم (1816)].

ثانياً: صلاة الخوف، وحراسة الثُّغور:

1 – صلاة الخوف:

أنزل اللهُ تعالى على نبيّه(ﷺ) صلاةَ الخوف في هذه الغزوة، وبيَّن القرآن الكريمُ صفةَ الصَّلاة ساعةَ مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً﴾ [النساء: 102].

فقد صلَّى المسلمون صلاة الخوف، وصفةُ هذه الصَّلاة: أنَّ طائفةً صَفَّتْ معه، وطائفة وِجَاهَ العدوِّ، فصلَّى بالَّذين معه ركعةً ، ثمَّ ثَبَتَ قائماً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ انصرفوا فَصَفُّوا وِجَاهَ العدوِّ، وجاءت الطائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعة؛ الَّتي بَقِيَتْ في صلاته، ثمَّ ثَبتَ جالساً، وأتمُّوا لأنفسهم، ثمَّ سَلَّمَ بهم. [البخاري (4129)، ومسلم (842)][1].

وفي روايةٍ: «فصلَّى بطائفةٍ ركعتين، ثمَّ تأخَّروا، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله(ﷺ) أربع ركعاتٍ، وللقوم ركعتانِ» [البخاري (4136) تعليقاً، ومسلم (311/843)، وأحمد (364/3)] قال الدُّكتور البوطيُّ: ووجه التَّوفيق بين الحديثين: أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صلَّى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرَّة، فصلاَّها مرَّةً على النَّحو الأوَّل، وصلاَّها مرَّةً أخرى على النَّحو التالي.

وكانت هذه الصَّلاة بمنطقة نخلٍ الَّتي تبعد عن المدينة بيومين[2]، ودلَّ تشريع صلاة الخوف

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 425.

(2) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 207.

على أهمِّية الصَّـلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التَّسـاهل فيها، ولا يمكن التَّنازل عنها، مهما كانت الظروف، وبذلك تندمج الصَّـــلاة والعبادة بالجهاد وَفْقَ المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة؛ الَّذي استُمِدَّ من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أيُّ انفصالٍ، أو انفصامٍ بين العبادة، والجهاد[1].

2 – حراسة الثُّغُور:

عندما رجع الجيشُ الإسـلاميُّ من غزوة ذات الرِّقاع؛ سَبَوْا امرأةً من المشـركين، فنذر زوجُها ألاَّ يرجع حتَّى يُهْرِيق دماً في أصـحاب محمَّد(ﷺ) ، فجاء ليلاً وقد جعل الرَّسـولُ(ﷺ) رجلين على الحراسـة أثناء نومهم، وهما عبَّاد بن بِشْـر، وعَمَّار بن ياسـر، فضرب عَبَّاداً بسـهم وهو قائمٌ يُصلِّي، فنزعه، ولم يقطعْ صلاتَه، حتَّى رشقه بثلاث سهام، فلم ينصرفْ منها حتَّى سلَّم، فأيقظ صـاحبَه، فقال: سـبحان الله! هلاَّ نبَّهتني، فقال: كنتُ في سـورة أقرؤها، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتَّى أُنْفِذَها، فلـــمَّا تابع عليَّ الرَّميَ ركعتُ، فاذنتك، وايم الله! لولا أن أضيّع ثغراً أمرني رسول الله(ﷺ) بحفظه، لَقَطَعُ نفســي قبل أن أقطعها، أو أنفذَها. [أحمد (343/3 – 344 و359)، وأبو داود (198)، وابن خزيمة (36)][2]، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً، وعبراً؛ منها:

أ – اهتمام النَّبيِّ(ﷺ) بأمن الجنود: ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خِيَار الصَّـــحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب – تقسـيم الحراسـة: ونلاحظ أنَّ الرَّجلين الَّذين أنيطت بهما حراسـة الجيش قد اقتسـما الليلَ نصفين، نصفاً للرَّاحة ونصفاً للحراسة؛ إذ لابدَّ من راحة جسم الجنديِّ بعض الوقت.

ج – التَّعلُّق بالقرآن الكريم، وحبُّ تلاوته: فقد كان حبُّه للتِّلاوة قد أنسـاه الامَ السِّـهام؛ الَّتي كانت تنغرس في جسمه، وتثجُّ[3] الدَّم منه بغزارةٍ[4].

---

(1) انظر: التربية القياديَّة (303/3 . 304).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 427.

(3) ثَجَّ الماء ثُجوجاً: سالَ وانصبَّ. الثَّجَّاجُ: الشديدُ الانصباب.

(4) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص 30 ، 31.

د – الشعور بمسؤوليَّة الحراسة: فلم يقطع عبَّاد صلاته لألمٍ يشعر به، وإنَّما قطعها استشعاراً بمسؤوليَّة الحراسة الَّتي كُلِّفَ بها، وهذا درسٌ بليغ في مفهوم العبادة، والجهاد[1].

هـ مكان الحراسة استراتيجيٌّ: اختار النَّبيُّ(ﷺ) فَمَ الشِّعْبِ مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التَّوفيق؛ لأنَّه المكان الذي يُتَوَقَّع العدوُّ منه لمهاجمة المعسكر.

و – قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكَّن من إيقاظ أخيه، وبالتَّالي يحدث ما لا تُحْمَدُ عقباه[2].

ثالثاً: شجاعة الرَّسول(ﷺ) ، ومعاملته لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

1 – شجاعة الرَّسول(ﷺ) :

عندما قَفَل[3] رسولُ الله(ﷺ) من غزوة ذات الرِّقاع أدركته القائلةُ في وادٍ كثير العِضَاهِ[4]، فنزل رسولُ الله(ﷺ) ، وتفرَّق النَّاسُ يستظلُّون الشَّجرَ، ونزل رسول الله(ﷺ) تحت شجرةٍ علَّق بها سيفه، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «فنمنا نومةً، فإذا رسول الله(ﷺ) يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ، فقال رسولُ الله(ﷺ) : إنَّ هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت، وهو في يده صَلْتاً[5]، فقال لي: من يمنعك منِّي؟ فقلت له: الله! فها هو ذا جالسٌ، لم يعاقبْه رسولُ الله، واسم الأعرابي: غَوْرَثُ بن الحارث» **[رواه البخاري (2910 و2913 و4135 و4136)، ومسلم (843)، وأحمد (3/311)]**.

وقد عاهد غَوْرثُ رسول الله(ﷺ) ألاَّ يقاتلَه، ولا يكون مع قومٍ يقاتلونه، فخلَّى(ﷺ) سبيله، فجاء إلى أصحابه، فقال: «جئتكم من عند خير النَّاس»[6].

---

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 428.
(2) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص 32.
(3) قَفَل فُلانٌ من السَّفَر قَفْلاً وقُفولاً: رجع.
(4) العِضَاهُ: كلُّ شجرٍ له شوكٌ ، صغُر أو كَبُر ، الواحدة: عِضَاهَةٌ.
(5) صَلْتاً: مجرداً عن غمده.
(6) فتح الباري ، شرح حديث رقم (4136).

وفي هذه القصَّــة دليل على نبوَّة محمَّد(ﷺ) ، وفَرْط شــجاعته، وقوَّة يقينه، وصــبره على الأذى، وحِلْمه على الجُهَّال، وفيها جواز تفرُّق العسكر في النُّزول، ونومهم؛ إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[1].

إنَّ هذه القصَّــة ثابتةٌ، وصــحيحةٌ، وهي تكشــف عن مدى رعاية الباري - جلَّ جلاله - وحفظه لنبيّه(ﷺ)، ثمَّ هي تزيدك يقيناً بالخوارق الَّتي أخضــعها الله - جلَّ جلاله - له(ﷺ) ، ممَّا يزيدك تبصراً، ويقيناً بشخصيته النَّبويَّة، فقد كان من السَّهل الطَّبيعيّ بالنِّسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السَّــيف ورفعه فوق النَّبيّ(ﷺ) ، وهو أعزلُ غارقٌ في النَّوم أن يهويَ به عليه، فيقتله، وإنَّك لتلمس من ذلك المشــرك هذا الاعتزاز بنفســه، والزُّهو بالفرصــة الذَّهبيَّة الَّتي أمكنته من رسول الله(ﷺ) في قوله: مَنْ يمنعك منّي؟ فما الَّذي طرأ بعد ذلك حتَّى عاقه عن القتل[2]؟!

ليس لهذا تفســيرٌ إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي الَّذي يتخطَّى العادات والسُّــنن، ويتجاوز قوى النَّاس لنصــرة نبيّه، والذَّود عن دعوته[3]، فقد كانت العناية الإلهيَّة كافيةً لأن تملأ قلب هذا المشرك بالرُّعب، وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرَّجفة، فيسقط من يده السَّيف، ثم يجلس متأدِّباً مُطْرِقاً بين يدي رسول الله(ﷺ)، وما حدث مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَــالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِــمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ **[المائدة: 67]**، فليســـت العصـــمة المقصـــودة في الآية؛ ألا يتعرَّض الرَّســولُ(ﷺ) لأذىً، أو محنةٍ من قومه؛ إذ تلك هي ســنَّة الله في عباده كما قد علمت، وإنَّما المراد من العصـمة ألاَّ تصـل إليه أيُّ يدٍ تحاول اغتياله، وقتله، لتُغتال فيه الدَّعوة الإسـلاميَّة التي بُعِثَ لتبليغها[4].

---

(1) المصدر السَّابق نفسه.

(2) انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص 200.

(3) انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 178.

(4) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 200.

2 – معاملته(ﷺ) لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: خرجتُ مع رسول الله(ﷺ) إلى غزوة ذات الرِّقاع من نخلٍ، على جملٍ لي ضعيفٍ فلـــمَّا قَفَلَ رسول الله(ﷺ) ؛ قال: جعلت الرِّفاق تمضي، وجعلتُ أتخلَّف، حتَّى أدركني رسـولُ الله(ﷺ) ، فقال: «ما لك يا جابر؟!» قال: قلت: يا رسـولَ الله! أبطأ بي جملي هذا، قال: «أَنِخْهُ» فأنختُه، وأناخ رسـولُ الله(ﷺ) ، ثمَّ قال: «أعطني هذه العصـا مِنْ يدك، أو: اقطع لي عصـاً من شـجرةٍ» قال: ففعلت، قال: فأخذها رسـولُ الله فنَخَسَـه بها نخســاتٍ، ثمَّ قال: «اركبْ»، فركبتُ، فخرج – والَّذي بعثه بالحقِّ – يُوَاهق ناقتَه مُوَاهقةً؛ (أي: يسابقها، ويعارضها في المشي لسرعته).

قال: وتحدَّثت مع رسول الله(ﷺ) ، فقال لي: «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟!».

قال: قلت: يا رسـولَ الله! بل أهبه لك، قال: «لا، ولكن بِعْنِيه»، قال: قلت: فَسُـمْنِيه يا رســـول الله! قـال: «قد أخذته بـدرهم»، قـال: قلت: لا، إذاً تغبنني يا رســـولُ الله! قـال: «فبدرهمين»، قال: قلت: لا، قال: فلم يزلْ يرفعُ لي رســـولُ الله(ﷺ) في ثمنه، حتَّى بلغَ الأُوقِيَّة، قال: فقلت: أفقد رضيتَ يا رسولَ الله! قال: «نعم»، قلت: فهو لك، قال: «قد أخذته».

قال: ثمَّ قال: «يا جابر! هل تزوَّجت بعد؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: «أثيِّباً، أم بكراً؟» قال: قلت: لا، بل ثَيِّباً، قال: «أفلا جارية تُلاعبُها وتلاعبُك؟!».

قال: قلت: يـا رسولَ الله ! إنَّ أبي أُصِيب يـومٍ أُحدٍ، وترك بناتٍ لـه سَبْعاً، فنكحت امرأةً جامعةً، تجمع رؤوســهنَّ، وتقوم عليهنَّ، قال: «أصــبت – إن شــاء الله –، أما إنَّا لو قد جئنا صِرَاراً[1] أَمَرْنا بجَزُور فنُحِرَت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا، فَــنَــفَضَتْ نمارقها[2]» قال:

(1) موضع على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ من المدينة.

(2) نمارقها: وسائدها.

قلت: والله يا رســـولَ الله! ما لنا من نَمَارق، قال: «إنَّها ســـتكون، فإذا قدمت؛ فاعملْ عملاً كيِّساً»(1).

قال: فلما جئنا صِرَاراً، أمر رسولُ الله(ﷺ) بجَزُور، فنُحِرت، وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلـمَّا أمســـى رســـولُ الله(ﷺ) ، دخل، ودخلنا، قال: فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ، وما قال لي رســـول الله(ﷺ) ، قالت: فدونك، فسمعاً، وطاعةً، قال: فلمَّا أصبحتُ؛ أخذتُ برأس الجمل، فأقبلتُ به، حتَّى أنختُه على باب رسول الله(ﷺ) ، قال: ثمَّ جلسـتُ في المسـجد قريباً منه، قال: وخرج رسولُ الله(ﷺ) ، فرأى الجملَ، فقال: «ما هذا؟» قالوا: يا رسولَ الله! هذا جملٌ جاء به جابرٌ، قال: «فأين جابر؟».

قال: فدُعيتُ له، قال: فقال: «يا بن أخي، خذ برأس جملك؛ فهو لك» ودعا بلالاً، فقال له: «اذهب بجابرٍ، فأعطه أُوقيَّةً» قال: فذهبتُ معه، فأعطاني أوقيَّةً، وزادني شـيئاً يسـيراً، قال: فوالله ما زال يَنْمِي عندي، ويُرى مكانُه مِنْ بيتنا. **[البخاري (2097)، ومســـلم (1599 م/110)، وأحمد (3/375 – 376)].**

في هذه القصَّـة صـورةٌ جميلةٌ، ورفيعةٌ لخلق رسـول الله(ﷺ) مع أصـحابه؛ من حيث لطف الحديث، والتَّواضـع الرَّفيع، ورقَّة الحديث، وفكاهة المحاورة، ومحبَّةٍ شـديدةٍ لأصـحابه، والوقوف على أحوالهم، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعيَّة مادِّيَّاً، ومعنويَّاً، فقد شعر الرَّسول(ﷺ) : أنَّ سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله؛ الَّذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إنَّ والده مات شـهيداً في أُحدٍ، وترك له مجموعةً من البنات، والأولاد ليرعاهم، وهو مُقِلٌّ في الرِّزق، فأراد

(1) فاعملْ عملاً كَيْساً أو الكَيْسَ.. الكَيْسَ: في تفسيرها قولان:
. الكَيْس: أي: العقل ، كأنَّه طلب الولد عقلاً.
. الكَيْسَ: الجماع ، أي فعليك بالجماع ، ويؤيده رواية محمد بن إسحاق ، «قال جابر: فدخلنا حين أمسينا ، فقلت للمرأة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلمأمرني أن أعمل عملاً كَيْساً! قالت: سمعاً وطاعة ، فدونك ، قال: فبتُّ معها حتى أصبحتُ» وهذا الكلام موجودٌ بمعناه في هذه الرِّواية التي بين أيدينا.
انظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (5246) ، وشرح النَّووي حديث رقم (1466).

الرَّسول(ﷺ) أن ينتهز هذه الفرصة ليواسِيَه، ويقدِّم له ما يستطيع من مالٍ مباركٍ[1].

أيُّ لطف هذا! وأيَّة مواســاةٍ هذه! وأيَّة طمأنةٍ، وإحســان صــحبةٍ! في أوبة من غزوة، بلا تكلُّف، ولاتهيُّؤ، ولا اســتعدادٍ ســابقٍ: أبرأ جمله، وقوَّاه له، بلمســةٍ خارقةٍ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ، ثمَّ وهبه إيَّاه بعد أن نقده ثمنه، ثمَّ احتفى به، فأمر فنحر القوم الجزور لتستعدَّ عروسه لاستقباله، ثمَّ طمأنه عن نعيمٍ منظور، وغنىً مذخورٍ في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النَّبويَّة؛ الَّتي تحلَّى بها رسـولُ الله(ﷺ) ، والَّتي حلاَّه بها ربُّه؛ الَّذي بعثه، ليتمَّ به مكارم الأخلاق، وبهذا الأســـلوب الهادئ الرَّائع، الرَّفيق الرَّقيق، يتعلَّم الرَّبَّانيُّون حسن الصُّحبة، وصدق الأخوة، وبرَّ الخلَّة، والمصاحبة[2].

* * *

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ص 212 . 213 ، وانظر: السِّيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 429.

(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص 181.

المبحث الخامس

غزوة بدر الموعد ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الَّذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحدٍ، والتزام الرَّسول(ﷺ) بذلك، فقد خرج النَّبيُّ(ﷺ) من المدينة على رأس جيشٍ من أصــحابه قوامه ألف وخمســمئة مقاتلٍ، بينهم عشرةٌ من الخيَّالة، وذلك في ذي القعدة سنة (4 هـــ) وحمل لواء الجيش عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فوصلوا بدراً، فأقاموا فيها ثمانية أيَّامٍ في انتظار وصول قوَّات المشركين من قريشٍ بقيادة أبي سفيان حسب الموعد بين الطَّرفين، غير أنَّ أحداً من المشركين لم يصل إلى بدرٍ، وكان أبو ســفيان قد جمَّع قوات قريش، وحلفاءها؛ الَّتي تألَّفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً، فلـمَّا وصلوا إلى مرِّ الظَّهران؛ نزلوا على مياه مجَنَّة على بُعْد أربعين ميلاً من مكَّة، ثمَّ عاد بهم أبو سفيان إلى مكَّة[1]بعد أن خطب فيهم، وقال: يا معشر قريش! إنَّه لا يصلحكم إلا عامٌ خصــيبٌ ترعون فيه الشَّــجر، وتشــربون فيه اللَّبن، وإنَّ عامكم هذا عامٌ جدبٌ، وإنِّي راجعٌ، فارجعوا[2].

وأقبل مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمريُّ، وهو الذي وادع رسول الله(ﷺ) على بني ضمرة في غزوة ودَّان، فالتقى برســول الله(ﷺ) في بدرٍ، وقال: يا محمد! أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة! وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثمَّ جالدناك حتَّى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد! ما لنا بذلك منك مِنْ حاجةٍ. **[ابن هشــام (220/3)]**.

---

(1) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (318/1، 319).

(2) انظر: غزوة الأحزاب، لمحمَّد أحمد باشميل، ص 88.

ففي هذا اللِّقاء أكَّد رسـول الله(ﷺ) على معنىً كبيرٍ في إظهار قوَّة المسـلمين، وأنَّ العقد الَّذي كان بين الفريقين يستمرُّ بعامل قوَّة المسلمين، لا بعامل ضعفهم؛ وبناءً على طلب الطَّرف الثَّاني، وفي هذا ما فيه من القوَّة للمسـلمين ، وإلقاء الرُّعب في قلوب أعدائهم[1]، لقد كانت تحرُّكاتُ الجيش الإسـلاميّ من المدينة حتَّى بدرٍ مناورةً رائعةً ناجحةً، أثبت بها وجوده، وأعطى الدَّليل القاطع لأعـداء الإسلام داخل المدينة، وخارجها: أنَّه أصبح أقوى قوَّةٍ مرهوبةٍ في الجزيرة العربيَّة كلِّها، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ جيش مكَّة – وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد، وقوَّة التَّنظيم وجودة التَّسلُّح – قد هاب الجيش الإسلاميَّ، ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعادٍ سابقٍ حدَّده في (أُحُد) قائد عام جيش مكَّة[2].

إنَّ الحملة الإعلاميَّة الَّتي قام بها المشـركون لإثبات انتصـارهم في أحدٍ، وتفوُّقهم الحربيِّ قد انتكست على رؤوسهم، وأصبحوا مثار السُّخرية عند العرب، وثبت للنَّاس: أنَّ ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحدٍ وسـقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم، ولا ضـعفهم العسـكريَّ[3]، فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السُّمعة العسكريَّة للمسلمين[4]، وكسبوا انتصاراً معنويّاً عظيماً على أعدائهم بدون قتال، وشـاركوا في الموسـم التِّجاري ببدرٍ، وربحوا في تجارتهم ربحاً طيباً[5].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثرٌ في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[6].

ثانياً: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضـمن حركة تثبيت أركان الدَّولة الإسـلاميَّة، فبعد غزوة بدر

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص 264 ، 265.
(2) انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص 88 ، 89.
(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (66/6).
(4) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (67/6).
(5) انظر: المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوة ، للعمري ، ص 91.
(6) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص 144.

الموعد، تحرَّكت القوات الإسـلاميَّة بقيادة رسـول الله(ﷺ) نحو قضـاعة؛ الَّتي كانت تنزل شمال قبائل أسـد، وغطفان، وفي حدود الغسـاسـنة الموالين للدَّولة الرُّوميَّة (بيزنطة)، ولها إشـراف على سوق (دومة الجندل) الشَّهير (على بعد (450) كيلو متراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أوَّل مَنْ احتكَّ بها المسـلمون، فغزاها رسـول الله(ﷺ) تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول 5 هـ/ أغسطس 626 م)[1]، فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمُّع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل الَّتي تمرُّ بهم، والتَّعرُّض لمن في القافلة بالأذى، والظُّلم، كما وردت الأنباء بأنَّهم يفكِّرون في القرب من المدينة، لعَجْمِ عودها[2].

إنَّ دومة الجندل تُعَدُّ بلداً نائياً بالنِّسـبة للمدينة المنوَّرة، لأنَّها تقع على الحدود بين الحجاز، والشَّـام، وفي منتصف الطَّريق بين البحر الأحمر، والخليج العربيِّ، وهي على مسيرة ست عشـرة ليلةً من المدينة، ولو أنَّ المسـلمين أغفلوا أمرها، وسـكتوا عن وجود هذا التَّجمُّع فيها ما لامهم أحدٌ، ولا ضـرَّهم هذا التجمُّع في شـيءٍ على المدى القريب، ولكنَّ النَّظرة السِّـياسـيَّة البعيدة، والعقليَّة العسكريَّة الفذَّة أوجبت على المسلمين أن يتحرَّكوا لفضِّ هذا التَّجمُّع[3] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنُه للأسباب الاتية وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

1 - لأنَّ السُّكوت عن هذا التجمُّع، وما شاكله يؤدِّي بلا شكٍّ إلى تطوُّره واستفحاله، ثمَّ يؤدي بعد ذلك إلى إضـعاف قوَّة المسـلمين، وإسـقاط هيبتهم، وهو الأمر الَّذي يجاهدون من أجل استرداده.

2 - وجود مثل هذا التَّجمُّع في الطَّريق إلى الشَّـام قد يؤثِّر على الوضـع الاقتصـاديِّ للمسلمين، فلو أنَّ المسلمين سكتوا عن هذا التَّجمُّع؛ لتعرَّضت قوافلُهم، أو قوافل القبائل الَّتي تحتمي بهم للسَّلب، والنَّهب، ممَّا يُضعف الاقتصاد، ويؤدِّي إلى حالةٍ من التذمُّر، والاضطراب.

---

(1) انظر: التربية القياديَّة (463/3).

(2) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الوكيل، ص 169.

(3) المصدر السابق نفسه.

3 – وهناك أمرٌ أهمُّ من الأمرين السَّــابقين، وهو فرض نفوذ المســلمين على هذه المنطقة كلِّها، وإشــعارُ ســكَّانها بأنَّهم في حمايتهم، وتحت مســؤوليَّتهم، لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطُّرق، ويحمون لهم تجارتهم، ويحاربون كلَّ إرهابٍ من شأنه أن يزعجهم، أو يُعرِّضهم للخطر(1).

4 – حرمان قريش من أيِّ حليفٍ تجاريٍّ قد يمدُّها بما تحتاج إليه من التِّجارة، وصــرف أنظارهم عن هذه المنطقة التِّجاريــة المهمَّة ؛ لأنَّ ظهور الدَّولة الإسلاميَّة بهذه القوة يؤثِّر على نفسية قريشٍ (العدوِّ الأوَّل للدَّولة الإسلاميَّة) ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها(2).

5 – الحرص على إزالة الرَّهبة النَّفسيَّة الموجودة عند العرب؛ الَّذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الرُّوم، والتَّأكيد عمليّاً للمســلمين بأنَّ رســالتهم عالميَّةٌ(3) وليســت مقصــورةً على العرب. ورأى بعض المؤرِّخين كالذَّهبيِّ، والواقديِّ، ومحمَّد أحمد باشميل، وغيرهم: أنَّ من أهداف تلك الغزوة إرهابُ الرُّوم؛ الَّذين تقع المنطقة الَّتي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة مُلكهم الثَّانية دمشق(4).

لهذا ندب رســول الله(ﷺ) المســلمين للخروج، وخرج في ألفٍ من أصــحابه، وكان يســير الليل، ويكمن النهار حتَّى يُخفي مســيره(5)، ولا تشــيع أخبارُه، وتُنقل أســراره، وتتعقَّبه عيون الأعداء(6).

واتَّخذ له دليلاً من بني عذرة يســمَّى مذكوراً، وســار حتَّى دنا من القوم، عندئذٍ تفرَّقوا، ولم يلقَ رســـولُ الله(ﷺ) منهم أحداً، فقد ولَّوا مدبرين، وتركوا أنعامهم، وماشــيتهم، غنيمةً باردةً للمسلمين، وأسر المسلمون رجلاً منهم، وأحضروه إلى الرَّسول(ﷺ) ، فسأله عنهم، فقال: هربوا

---

(1) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الوكيل ، ص 169.

(2) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص 144 ، 145.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص 144.

(4) انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص 93 ، وتاريخ المغازي ، للذَّهبيِّ ، ص 258.

(5) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 170.

(6) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارسٍ ، ص 40.

لـمَّا سمعوا بأنَّك أخذت أنعامهم، فعرض عليه رسول الله(ﷺ) الإسلام، فأسلم، وأقام بساحتهم أياماً، وبعث البعوث، وبثَّ السرايا، وفرَّق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرَّسول عيينة بن حصنٍ الفَزاريَّ، واستأذن عيينةُ رسول الله(ﷺ) في أن ترعى إبلُه، وغنمُه في أرضٍ قريبة من المدينة على ستةٍ وثلاثين ميلاً منها.

إنَّ وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة، وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله، وغنمه في أرضٍ بينها وبين المدينة ستَّةٌ وثلاثون ميلاً – أي: ما يقرب من خمسة وستين كيلو متراً – لدليل قاطعٌ على ما وصلت إليه قوَّة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للنَّاس في هذه المنطقة، وأنَّ هذه المناطق النَّائية كانت ضمن الدَّولة الإسلاميَّة، وأنَّ الدَّولة أصبحت منيعةً، ليس في مقدور أحدٍ أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحدٍ؛ لكان هو عيينة بن حصن الَّذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتىً(1).

كانت غزوة دومة الجندل بعيدةً عن المدينة من جهة الشَّام؛ إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليالٍ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكَّان البوادي الشَّمالية، وأطراف الشَّام الجنوبيَّة، وأحسُّوا بقوَّة الإسلام، وسطوته، كما كانت لقيصر، وجنده كما أنَّ سير الجيش الإسلاميِّ هذه المسافات الطَّويلة قد كان فيه تدريبٌ له على السَّير إلى الجهات النائية، وفي أرضٍ لم يعهدوها من قبلُ، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلاميَّة للفتوحات العظيمة في بلاد اسية، وإفريقية فيما بعد(2).

كانت خطَّة الرَّسول(ﷺ) في هذه الغزوة ترمي إلى أهدافٍ عديدةٍ، فهي غزوةٌ، وحربٌ استطلاعيَّةٌ تمسح الجزيرة العربيَّة، وتتعرَّف مراكز القوى فيها، وهي حربٌ إعلاميَّةٌ تأتي على أعقاب بدرٍ الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حربٌ عسكريَّةٌ تريد أن تصدَّ هجوماً محتملاً على

(1) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 170.
(2) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة ، (2/251 ، 252).

المســـلمين؛ حيث انضـــوى إليها قومٌ من العرب كثيرٌ يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حربٌ ســياســيَّة تريد أن تُجْهِض من تحرُّكات القبائل المحتمل أن تتحرَّك بعد أنباء غزوة أحد لتقصــد المدينة، وتستبيحها[1].

كانت هذه الغزوة دورةً تربويَّةً رائعةً، وقاسـيةً، وشـاملةً يقودها رسـول الله(ﷺ) وبين يديه ألفٌ من أصحابه، فيتلقَّون فيها كلَّ لحظةٍ دروساً في الطَّاعة، والانضباط، ودروساً في التَّدريب الجسميّ، والعسكريِّ، والتَّحمُّل لمشاقِّ الحياة، وصعوباتها، وأحكاماً، وفقهاً في الحلال، والحرام، وعمليات صهرٍ وتذويبٍ لقواعد الجيش الإسلاميِّ في بوتقةٍ واحدةٍ خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تَفِدُ إلى المدينة عناصـر كثيرةٌ من أبناء القبائل المجاورة، والتَّخلِّي عن الأطر القبليَّة، وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمَّة الواحدة الَّتي تجعل الولاء لله ورسوله.

وفوق هذا كلِّه تتيح الفرصة لجيل بدرٍ الرَّائد أن يقوم بمهمة التَّربية للوافدين الجدُد، وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النُّفوس، ومن له صلةٌ بمعسكر النِّفاق من خلال مراقبة تصرُّفاته، وسلوكه. إنَّها ليست ساعاتٍ محدودةً أو أياماً معدودةً؛ بل هي دورةٌ قرابة شهرٍ، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كلُّ الطَّبائع، وكلُّ النَّوازع، فيتلقَّاها عليه الصَّلاة والسَّلام ليصوغها على ضوء الإسلام، ويعلِّم الجيل الرَّائد فنَّ القيادة، وعظمة السِّياسة.

كانت معركةً صـــامتةً، وتربيةً هادئةً، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصَّـــحراء يتربَّى، ويتثقَّف، ويتدرَّب، ويُمتحن، ويقوَّم ليكون هذا اســـتعداداً لمعارك قادمةٍ[2]، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيَّن(ﷺ) سـباع بن عرفطةَ الغفاريَّ والياً على المدينة في تجربةٍ جديدةٍ، فهو ليس أوسـيّاً، ولا خزرجيّاً، ولا قرشـيّاً، بل من غفار الَّتي كانت تعتبر من سـرَّاق الحجيج عند العرب، فلابدَّ لهذا الجيل أن يتربَّى على الطَّاعة، والانضـباط للأمير أيّاً كان

(1) انظر: التَّربية القيادية (372/3).

(2) المصدر السابق نفسه (373/3).

شأن هذا الأمير.

وهذا يدلُّ على عظمة المنهج النَّبويِّ في تربية الأمَّة، والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النَّبيّ(ﷺ) ، وفراســته في أتباعه، وثقته فيهم، ومعرفته لمواهبهم، فهو(ﷺ) على معرفةٍ بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاريِّ، وعبقريته، وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان(ﷺ) يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج ربِّ العالمين على المســلمين، ويصــنع منها أمةً واحدةً، تسمع، وتطيع لكتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها(ﷺ) [1] .

* * *

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (374/3).

المبحث السَّادسِ

غزوة بني المُصْطَلِق[1]

أوَّلاً: مَنْ هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟

1 - بنو المصطلق:

هم بطنٌ[2] من خزاعة، والمصطلق[3] جدُّهم، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السَّماء[4].

واختلفوا في خُزاعة[5]، فمنهم من قال: إنَّها قبيلةٌ عدنانيَّـــةٌ، ومنهم من ذهب إلى أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّة يمنيَّةٌ، والرَّاجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّةٌ يمنيَّةٌ[6].

2 - تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوالٍ، فَمِنْ قائلٍ: إنَّها سنة ستٍّ، قال بذلك ابن إســــحاق إمام المغازي، وتبعه على ذلك خليفةُ بن خيَّاط، وابن جرير الطَّبريُّ، وابن حزمٍ، وابن عبد البَرِّ، وابن العربيِّ، وابن الأثير، وابن خلدون، فقد صرَّح كلٌّ منهم بأنَّ غزوة بني المصطلق كانت فيشعبان من السَّنة السَّادسة للهجرة[7].

وهناكَ مَنْ قال بأنَّها في شـعبان من العام الرَّابع للهجرة، وذهب إلى هذا القول المسـعوديُّ،

---

(1) ينظر الشكل (9) في الصفحة (753).

(2) فرع.

(3) المصْطلِق: بضمِّ الميم ، وسكون الصَّاد ، وفتح الطَّاء ، وكسر الَّلام.

(4) انظر : حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(311/1).

(5) خزاعة من التَّخزُّع ، وهو التَّأخر ، والمفارقة ، وذلك أنَّ خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشَّام ، فنزلت بمرِّ الظهران ، وأقامت بها؟!

(6) انظر : مرويات غزوة بني المصطلق ، من ص 45 إلى 51.

(7) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 329 ، وحديث القران الكريم (312/1 ، 313).

وابن العربيّ المالكيُّ، وغيرهم.

وذهبت طائفةٌ إلى أنّها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء كلٌّ من: موسى بن عقبة وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذّهبيُّ، وابن القيّم، وابن حجر العسقلانيُّ، وابن كثيرٍ رحمهم الله! ومن المحْدَثِينَ: الخضري بك، والغزاليُّ، والبوطيُّ، وأبو شهبة، والشّيخ السّاعاتيُّ، ومحمّد أبو زهرة، وسيّد قطب، وحسن مشّاط، ومحمّد علي الصّابوني، ومحمّد بكر ال عابد، ومهدي رزق الله أحمد[1]، ويبدو لي أنَّ هذا الرأي أقربُ للصّواب، لأسبابٍ؛ منها:

أ - أنَّ هذا القول هو ما ذهب إليه جمهور أصحاب السِّير والمغازي، كما أنَّ عدداً كبيراً ممَّن كتب في السِّيرة من المعاصرين سار عليه.

ب - أنَّ في شعبان سنة أربعٍ من الهجرة كانت غزوة بدرٍ الموعد فيتعيَّن أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

ج - أنَّ هذا القول يؤيّده وجود سعد بن معاذ رضي الله عنه في الغزوة، فقد جاء ذكره في حديث الإفك الَّذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق، والَّذي أخرجه الإمام البخاريُّ: «فقام سعد بن معاذ الأنصاريُّ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه؛ إن كان من الأوس؛ ضربْتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك.... الحديث» **[البخاري (4750)، ومسلم (2770)]**.

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السَّنة الخامسة على القول الرَّاجح، فيتعيَّن أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[2].

3 - أسباب هذه الغزوة:

(1) انظر: حديث القران الكريم (312/1).

(2) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق ، ص 97.

من أهمِّ الأسباب لهذه الغزوة:

أ – تأييد هذه القبيلة لقريشٍ، واشتراكها معها في معركة أُحُدٍ ضدَّ المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش الَّتي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب – سيطرة هذه القبيلة على الخطِّ الرَّئيسيِّ المؤدِّي إلى مكَّة، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكَّة[1].

ج – أنَّ الرَّسول(ﷺ) بلغه أنَّ بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدُهم الحارث بن أبي ضرار ينظِّم جموعهم فلـمَّا سمع بهم خرج إليهم، حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قُدَيْد إلى السَّاحل فهزمهم شرَّ هزيمة[2].

4 – أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله(ﷺ) بحركة بني المصطلق المريبة؛ أرسل بريدة بن الحصيب الأسلميَّ، للتأكُّد من نيَّتهم، وأظهر لهم بريدة: أنَّه جاء لعونهم، فتأكَّد من قصدهم، فأخبر الرَّسول(ﷺ) بذلك.

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السَّنة الخامسة للهجرة خرج الرَّسول(ﷺ) من المدينة في سبعمئة مقاتلٍ[3]، وثلاثين فارساً[4] متوجِّهاً إلى بني المصطلق، ولـمَّا كان بنو المصطلق ممَّن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفَّار في غزوة أُحُدٍ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاريُّ [(2541)]، ومسلمٌ [(1730)]: أنَّ رسول الله(ﷺ) أغار عليهم، وهم غارُّون – أي: غافلون – وأنعامهم تُسْقَى على الماء، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم،

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص 332.
(2) حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(315/1).
(3) انظر: تاريخ الإسلام، والمغازي، للذَّهبي، ص 259.
(4) انظر: الواقدي (405/1).

وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[1].

ثانياً: زواج رسول الله(ﷺ) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسَّم رسول الله(ﷺ) سبايا بني المصطلق، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث، وكانت بركةً على قومها، ولنعرف قصَّتها من السَّيدة عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: لما قسم رسول الله(ﷺ) سبايا بني المصطلق؛ وقعت جويرية بنت الحارث في سهمٍ لثابت بن قيس بن شمَّاس، أو لابن عمٍّ له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلوةً مُلاَّحة[2]، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله(ﷺ) لتستعينه في كتابتها، قالت: فوالله! ما هو أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنَّه سيرى منها ما رأيت، فدخَلَتْ عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السَّهم لثابت بن قيس بن شمَّاس، أو لابن عمٍّ له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟!

قال: «أقضي عنك كتابك، وأتزوَّجُك». قالت: نعم يا رسول الله! قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى النَّاس: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد تزوَّج جويرية بنت الحارث.

فقال النَّاس: أصهار رسول الله(ﷺ) فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أُعْتِقَ بزواجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها لها. **[أحمد (277/6)، وأبو داود (3931)، وابن حبان (4054 و4055)، وابن هشام (307/3 – 308)]**[3].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 433.

(2) الملأَّحة: الشَّديدة الملاحة، أي: الفائقة الجمال.

(3) انظر: البداية والنهاية (160/4، 161)، الإصابة، لابن حجر (كتاب النساء).

وجاء الحارث بن أبي ضــــرار – بعد الوقعة – بفداء ابنته إلى المدينة، فدعاه النَّبيُّ(ﷺ) إلى الإسلام فأسلم[1].

تُعَدُّ غزوة بني المصطلق من الغزوات الفريدة المباركة؛ الَّتي أسلمت عقبها قبيلةٌ بأسرها، وكان الحدث الَّذي أسلمت القبيلة من أجله هو أنَّ الصحابة حرَّروا، وردُّوا الأسرى الَّذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملَّكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملَّكوا أصهار نبيِّهم(ﷺ) ، وحيال هذا العتق الجماعيِّ، وإزاء هذه الأريحيَّة الفذَّة؛ دخلت القبيلة كلُّها في دين الله.

إنَّ مردَّ هذا الحدث التَّاريخيِّ، وسببه البعيد هو حبُّ الصَّحابة للنَّبيِّ(ﷺ) ، وتكريمُهم إيَّاه، وإكبارُهم شــخصــه العظيم، وكذلك يؤتي الحبُّ النَّبويُّ هذه الثِّمار الطَّيبة، ويصــنع هذه الماثر الفريدة في التَّاريخ.

لقد كان زواج رســـول الله(ﷺ) من جويرية بنت الحارث له أبعاده، وتحقَّقت تلك الأبعاد بإســلام قومها، فقد كان الزَّواج منها من أهدافه الطَّمع في إســلام قومها، وبذلك يكثر ســواد المسـلمين، ويعزُّ الإسـلام، وهذه مصـلحةٌ إسـلاميَّةٌ بعيدة، يسَّـر الله هذا الزَّواج، وباركه، وحقَّق الأمل البعيد المنشـود من ورائه، فأسـلمت القبيلة كلُّها بإسـلام جويرية، وإسـلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزَّواج على المســـلمين بالبركة والقوَّة، والدَّعم المادِّيِّ والأدبيِّ معاً للإســـلام، والمسلمين[2].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجةً لسيِّد المرسلين، وأمّاً للمؤمنين، فكانت رضي الله عنها عالمةً بما تسمع، وعاملةً بما تعلم، فقيهةً، عابدةً، تقيَّةً، ورعةً، نقيَّة الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الرُّوح، تحبُّ الله ورسولَه، وتحبُّ الخير للمسلمين.

---

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(317/1).

(2) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 199 ، 200.

وكانت رضـي الله عنها تروي من حديث رسـول الله(ﷺ)، ناقلة لحقائق الدِّين من خزائنها عند من تنزَّلت عليه(ﷺ) ، يرويه عنها سـدنة العلم من علماء الصَّحابة رضـي الله عنهم؛ لينشـروه في المجتمع المسـلم علماً، وعملاً، وفي المجتمع الإسـلاميّ عامَّةً دعوةً وهدايةً[1]، فقد حدَّث عنها: ابنُ عبَّاس، وعبيدُ بن السـبَّاق، وكريبُ مولى ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، وأبو أيوب يحيى بن مالكٍ الأزديُّ، وبلغ مسـندها في كتاب بقي بن مخلد سـبعة أحاديث[2]، منها أربعةٌ في الكتب السِّتَّة، عند البخاريِّ حديثٌ، وعند مسـلمٍ حديثان، وقد تضـمَّنت مرويَّاتها أحاديث في الصَّـوم؛ في عدم تخصـيص يوم الجمعة بالصَّـوم، وحديث في الدَّعوات في ثواب التَّسـبيح، وفي الزَّكاة في إباحة الهديَّة للنَّبيِّ(ﷺ) وإن كان المهدي ملكها بطريق الصَّـدقة، كما روت في العتق، وبسـبعة أحاديث شـريفةٍ خلَّدت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضـي الله عنها اسمها في عالم الرِّواية؛ لتضـيف إلى شـرف صـحبتها للنَّبيِّ(ﷺ) ، وأمومتها للمسـلمين؛ تبليغَها الأمَّة سـننَ المصطفى(ﷺ) ما تيسَّر لها ذلك[3].

وكانت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضـي الله عنها من الذَّاكرين الله كثيراً، والذَّاكرات، القانتات، الصَّـابرات في مجال مناجاة الله تعالى، وتحميده، وتقديسـه، وتسـبيحه[4]، فهذه أمُّ المؤمنين جويرية تحدِّثنا عن ذلك، فتقول: إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) خرج من عندها بُكْرَةً حين صـلَّى الصُّبح، وهي في مسجدها[5] ثمَّ رجع بعد أن أضحى؛ وهي جالسةٌ. فقال: ما زلت على الحال الَّتي فارقتُك عليها؟ قالت: نعم. قال النَّبيُّ(ﷺ) : «لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ، ثـلاث مراتٍ لو وُزِنت بما قلت منذ اليوم؛ لوزنتهنَّ، سـبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضـا نفسـه، وَزِنَـةَ عرشه، ومداد كلماته» [أحمد (258/1)، ومسلم (2726)، وأبو داود (1503)، والنسائي في السنن الكبرى (9912 و1277)].

وقد تُوفِّيت رضي الله عنها سنة خمسين، وقيل: ستٍّ وخمسين[6].

---

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد صادق عرجون (250/4).
(2) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، لامال قرداش ، ص 88.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 88 ، 89.
(4) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (250/4).
(5) مسجدها: المكان الَّذي تصلِّي فيه في بيتها.
(6) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (121/8) ، وخليفة بن خياط ، تاريخه ، ص 234.

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة آثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصـــطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المســـلمين، وكان يغلب عليهم التَّخلُّف في الغزوات السَّـابقة، لكنَّهم لـــمَّا رأوا اطراد النَّصـر للمسـلمين؛ خرجوا طمعاً في الغنيمة(1).

وعند ماء الْمُرَيْسِيع كشف المنافقون عن الحِقْدِ الَّذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلَّما كسب الإسلام نصراً جديداً؛ ازدادوا غيظاً على غيظهم، وقلوبُهم تتطلَّع إلى اليوم الَّذي يُهزم فيه المسلمون، لتشفى من الغلِّ، فلـمَّا انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى آثارة العصبيَّة بين المهاجرين، والأنصار، فلـــمَّا أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرَّسول(ﷺ) في نفسه، وأهل بيته، فشـنوا حرباً نفسيَّة مريرةً من خلال حادثة الإفك الَّتي اختلقوها، ولنترك الصَّـحابيَّ زيد بنَ أرقم، وهو شـاهد عيان، ومشـاركٌ في الحادث الأوَّل يحكي خبر ذلك(2)، قال: كنت في غزاةٍ(3) فسـمعتُ عبد الله بن أُبَيٍّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فذكرت ذلك لعمِّي(4)، فذكره للنَّبيِّ(ﷺ) فدعاني فحدثته، فأرسل رسولُ الله(ﷺ) إلى عبد الله بن أبيٍّ، وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله(ﷺ) ، وصـدَّقه، فأصـابني هَمٌّ لم يصـبني مثلُه قطُّ، فجلسـت في البيت، فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك رســـولُ الله(ﷺ) ومقَتَك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ **[المنافقين: 1]**.

فبعث إليَّ رســول الله(ﷺ) فقرأ، فقال: «إنَّ الله قد صــدَّقك يا زيد!» **[البخاري (4900)، ومسلم (2772)]**(5).

---

(1) انظر: حديث القران الكريم (318/1).

(2) انظر: السِّيرة الصَّحيحة ، للعمري (408/2).

(3) غزاة: صرحت الرِّوايات الأخرى بأنَّها غزوة بني المصطلق.

(4) يريد بعمِّه سعد بن عبادة ، وهو رأس الخزرج ، وليس عمّه حقيقة.

(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (408/2).

ويحكي شـاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصـاريُّ ما حدث عند ماء المريسـيع، وأدَّى إلى كلام المنافقين لآثارة العصـبية، وتمزيق وحدة المسلمين، قال: «كنَّا في غزاةٍ فكسـع[1] رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصـار، فقال الأنصـاريُّ: يا للأنصـار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين؟ فسمع ذلك رسول الله(ﷺ) ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله! كسـع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصـار، فقال: «دعوها فإنها منتنة»، فسـمع بذلك عبد الله بن أبيٍّ، فقـال: فعلوهـا؟ أما والله لئن رجعنـا إلى المـدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فبلغ النَّبيَّ(ﷺ) ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق، فقال النَّبيُّ : «دعه، لا يتحدَّث الناسُ: أنَّ محمداً يقتل أصحابه». **[البخاري (3518)، ومسلم (63/2584)]**[2].

وفي روايةٍ قال عمر بن الخطَّاب: مُرْ به عبَّاد بن بشـر؛ فليقتله، فقال له رسـول الله(ﷺ) : «فكيف يا عمر! إذا تحدَّث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟! لا. ولكن أذِّن بالرَّحيل»، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول الله(ﷺ) يرتحل فيها، فارتحل النَّاس. **[الطبري في تفسيره (28/115 – 116)، وابن هشام (3/303)]**.

وقد مشـى عبد الله بن أبيٍّ ابن سـلول إلى رسـول الله(ﷺ) حين بلغه: أنَّ زيد بن أرقم قد بَلَّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال: ولا تكلَّمت به! فقال من حضـر رسـول الله(ﷺ) من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلـمَّا سار رسول الله(ﷺ) ، لقيه أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، فحيَّاه بتحيَّة النُّبوَّة، وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبي الله! لقد رحتَ في ساعةٍ منكرةٍ، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله(ﷺ): «أوبلغك ما قال صاحبُكم؟».

قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟

---

(1) كسع: ضربه برجله.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (2/409).

قال: «عبد الله بن أبيٍّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة؛ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسول الله! تخرجه منها ؛ إن شئت، هو الذَّليل، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رســـول الله ! ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوِّجوه، فإنَّه يرى: أنك استلبت مُلْكَهُ.

ثمَّ مشــى رسـولُ الله(ﷺ) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمســى، وليلتهم حتَّى أصـبح، وصـدر يومهم ذلك حتَّى اذتهم الشَّمس، ثمَّ نزل بالنَّاس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً.

وإنَّما فعل ذلك رسول الله(ﷺ) ليشغل النَّاس عن الحديث الَّذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبيٍّ، ونزلت السُّـــورة الَّتي ذُكِرَ فيها المنافقون في ابن أبيٍّ، ومن كان على مثل أمره، فلــــمَّا نزلت؛ أخذ رســول الله(ﷺ) بأذن زيد بن أرقم، ثمَّ قال: «هذا الَّذي أوفى لله بأذُنه». [الطبري في تفسيره (116/28)، وابن هشام (305/3)][1].

إنَّ هذه الحادثة من السِّيرة النَّبويَّة العطرة مليئةٌ بالدُّروس، والعبر.

فَمِنْ أهمِّ تلك الدُّروس:

1 – الحفاظ على السُّمعة السِّياسيَّة ووحدة الصَّفِّ الدَّاخلية:

وهـذا الدَّرس يظهر في قوله(ﷺ) : «فكيف يا عمر! إذا تحدث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟!» [سبق تخريجه][2].

إنَّها المحافظة التَّامَّة على السُّــمعة السِّــياســيَّة، والفرق كبير جدّاً بين أن يتحدَّث النَّاس عن

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، (4) غزوة بني المصطلق.

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (409/2).

حبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً، ويؤكِّدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمَّد محمَّداً[1]، وبين أن يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه، ولا شكَّ: أنَّ وراء ذلك محاولاتٍ ضخمةً ستتمُّ في محاولة الدُّخول إلى الصَّفِّ الدَّاخليِّ في المدينة من العدوِّ، بينما هم يائسون الآن مِنْ قدرتهم على شيءٍ أمام ذلك الحبِّ، وتلك التَّضحيات[2].

ولم يقف النَّبيُّ(ﷺ) موقفاً سلبيّاً حيال تلك المؤامرة، الَّتي تزعَّمها ابنُ سلولٍ لتصديع الصَّفِّ المسلم، وإحياء نعرات الجاهليَّة في وسطه؛ بل اتَّخذ إزاءها الخطواتِ الإيجابيَّة التَّالية:

أ - سار رسول الله(ﷺ) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى، وليلتهم حتَّى أصبح، وصدْرَ يومهم الثَّاني حتَّى اذتهم الشَّمس، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً[3]. وبهذا التَّصرُّف البالغ الغاية في السِّياسة الرَّشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابنُ أُبيٍّ.

ب - لم يواجه النَّبيُّ(ﷺ) ابن سلولٍ، ومؤامراته المدبَّرة بالقوَّة، واستعمال السِّلاح، حرصاً على وحدة الصَّفِّ المسلم؛ وذلك لأنَّ لابن أُبَيٍّ أتباعاً، وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به؛ لأرعدت له أنوفٌ، وغضب له رجالٌ متحمِّسون له، وقد يدفعهم تحمُّسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أيُّ مصلحةٍ للمسلمين، ولا للإسلام، وإنَّها لسياسةٌ شرعيَّةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ في معالجة المواقف العصبية في حزمٍ، وقوَّة أعصابٍ، وبُعْد نظرٍ[4]، وهذه البراعة في الحكمة، والسِّياسة، وتدبير الأمور متفرعةٌ عن كونه(ﷺ) نبيّاً ورسولاً إلى النَّاس[5]؛ لكي تقتدي به الأمَّة في تصرُّفاته العظيمة.

---

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (463/3).

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (463/3).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (255/2).

(4) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 202.

(5) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص 409.

وقد كان لتسامح الرَّسول(ﷺ) مع رأس المنافقين أبعدُ الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أُبيٍّ بن سلول كلَّما أحدث حدثاً كان قومه هم الَّذين يُعاتبونه، و يأخذونه، ويعنِّفونه، ويعرضون قتله على النَّبيّ(ﷺ) ، والرَّسول(ﷺ) يأبى، ويصفح، فأراد رسول الله(ﷺ) أن يكشف لسيف الحقِّ عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟! أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي؛ لأرعدت له أنوفٌ، لو أمرتها اليوم؛ لقتلته!!» فقال عمر: قد – والله – علمتُ لأَمْرُ رَسُولِ الله(ﷺ) أعظمُ بركةً مِنْ أمري. [الطبري في تفسيره (28/116 – 117)(1)، وابن هشام (3/305)].

2 – (بل نترفَّق به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبيٍّ بن سلول ولدٌ مؤمنٌ مخلصٌ، يسمَّى عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ بن سلول، فلمَّا علم بالأحداث، ونزول السُّورة، أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله ! بلغني: أنَّك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً؛ فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج، ما كان بها من رجلٍ أبرُّ بوالده منِّي، وإنِّي لأخشى أن تأمر به غيري، فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين النَّاس، فأقتلُه، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخلُ النَّار، فقال رسولُ الله(ﷺ) : «بل نترفَّق به، ونحسن صحبتَه ما بقي معنا». [الطبري في تفسيره (28/116)، وابن هشام (3/305)، والبزار (2708)، والطبراني في الأوسط (231)، ومجمع الزوائد (9/318)].

ولمَّا وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدَّى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبيٍّ، وقال له: قف، فوالله لا تدخلها حتَّى يأذن رسول الله(ﷺ) في ذلك، فلمَّا جاء رسولُ الله(ﷺ) ؛ استأذنه في ذلك، فأذن له[2].

3 – مثلٌ أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله،

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (2/257).
(2) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، للقحطانيِّ، ص 209، والبداية والنِّهاية (غزوة بني المصطلق من خزاعة، تفسير ابن كثير، المنافقون).

ولرسوله، وتقديم محبَّتهما، ومراضيهما على محبَّة، ومراضي الأبوَّة[1]، لقد ضرب الابن أروع مثلٍ في الإيمان، والتَّضــحية بعاطفة الأبوَّة، فقابله(ﷺ) صــاحب القلب الكبير، والخلق العظيم بمثلٍ رفيعٍ في العفو والرَّحمة، وحسن الصُّحبة «بل نترفَّق بـه، ونحسن صحبتـه ما بقي معنا» يا لروعـة العفو! ويا لجلال العظمة النَّبويَّة[2]! فقد تلطَّف النَّبيُّ(ﷺ) بهذا الصَّـــحابيِّ الجليل وهدَّأ من رَوْعِه، وأذهب هواجِسَه[3].

4 – محاربة العصبيَّة الجاهليَّة:

إنَّ العصبيَّة الممقوتة والَّتي نَصِفُها بالجاهليَّة غير مقصورةٍ على العصبيَّة القبليَّة؛ أي: الاشتراك في النَّسـب الواحد، نسـب القبيلة الَّتي ينتمون إليها، وإنَّما الاشـتراك في معنىً، أو وصـفٍ معيَّنٍ يجعل المشركين فيه يتعاونون، ويتناصرون فيما بينهم بالحقِّ، وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أســاس هذا المعنى، أو الوصــف المشــترك، فعندما كســع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصـار، قال الأنصـاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك النَّبيُّ(ﷺ) فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجلٌ من المهاجرين كســع رجلاً من الأنصــار. فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «دعوها؛ فإنَّها منتنة» **[سبق تخريجه]**[4].

ووجه الدَّلالة بهذا الخبر: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) أنكر هذه المناداة؛ لما تشعره من معنى العصبية، مع أنَّ المنادي استـعمل اسماً استـعمله القرآن، وهو (المهاجرين) و(الأنصـار)؛ فالمهاجريُّ استـنصـر بالمهاجرين مع أنَّه هو الَّذي كســع، فكأنَّه بندائه هذا يريد عونهم، لاشـــتراكه وإيَّاهم في معنىً واحدٍ، وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصـاريُّ استـنصـر بالأنصـار؛ لأنَّه منهم، ويشـترك وإيَّاهم في وصـفٍ واحدٍ ومعنىً واحدٍ وهو مدلول كلمة (الأنصـار)؛ وكان حقَّ الاثنين – إذا كان لابدَّ من

(1) انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمد الصَّادق عرجون (163/3).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (257/2).
(3) انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمد الصَّادق عرجون (162/3).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (209/2).

الاستنصار بالغير - أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً، وعلى هذا فالمطلوب من الدُّعاة التَّأكيد على نبذ العصبيَّة بجميع أنواعها، سواءٌ كانت عصبيةً تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أيِّ أساسٍ آخر، من بلدٍ، أو مذهبٍ، أو حزبٍ، أو عِرْقٍ، أو لونٍ، أو دمٍ، أو جنسٍ، وأن يكون الولاء، والتَّناصر على أساس الاشتراك بالأخوَّة الإسلاميَّة الَّتي أقامها، وأثبتها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وأن يكون التَّناصر فيما بينهم تناصراً على الحقِّ لا على الباطل، بمعنى أن ينصروا المحقَّ، وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[1].

لقد أوضح الرَّسول(ﷺ) : أنَّ العصبيات هي من دعاوى الجاهليَّة وقال: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً» فقال رجلٌ لرسول الله(ﷺ) : أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: «تحجزه - أو تمنعه - من الظُّلم، فإنَّ ذلك نصره»، **[البخاري (6952)، والترمذي (2255)، وأحمد(201/3)**

فجعل التناصر في طلب الحقِّ، والإنصاف، وأبطل المفهوم الجاهليَّ: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً»[2].

إنَّ مهمَّة الدُّعاة، وطلابِ العلم، والعلماء، والفقهاء هي التَّخلُّص من العصبيَّة، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله(ﷺ) ، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ، ولكنَّها ليست مستحيلةً، ولأهمِّيتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا؛ لقلعها من النُّفوس[3].

رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلاميِّ في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام التِّرمذيِّ: «فلـمَّا أصبحنا؛ قرأ رسول الله(ﷺ) سورة المنافقون» **[الترمذي (3313)]**.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (301/2 ، 302).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (209/2).
(3) انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (302/2).

فقد تحدَّثت السُّورة بإسهابٍ عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث، والأقوال، الَّتي وقعت منهم، ورُويت عنهم، وفضحت أكاذيبهم، إلا أنَّها في الختام حذَّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا، ومتاعها، وحثَّت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السُّورة أن يلاحظ عدَّة محاور مهمَّةٍ، منها:

1 – تحدثت السُّورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم، ووصفت حالهم[1]، فابتدأت هذه السُّورة بإيراد صفات المنافقين الَّتي من أهمِّها الكذبُ في ادِّعاء الإيمان، وحلفُ الأيمان الكاذبة، وجبنُهم، وضعفُهم، وتامرُهم، على النَّبيّ(ﷺ) وعلى المؤمنين، وصدُّهم النَّاس عن دين الله[2].

قال الله – عز وجل –: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ **[المنافقون: 1 – 4]**.

2 – ثمَّ بينت الآيات عنادهم، وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحقِّ، وبيَّنت مقالاتِهم الشَّنيعة بالتَّفصيل، خاصَّةً ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنَّهم سيطردون الرَّسول(ﷺ) والمؤمنين من المدينة،وأنَّ العزَّة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرّسول صلى الله عليه وسلم (327/1).
(2) انظر: التَّفسير المنير ، د. وهبة الزُّحيلي (213/28).
(3) انظر: حديث القران الكريم (327/1).

خَزَائِنُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ **[المنافقون: 5 – 8]**.

3 – ثمَّ خُتمت السُّورة بتحذير الَّذين امنوا من الانشغال بزينـــة الدُّنيا، وعـــدم التَّشبُّه بالمنافقين، وحثَّهم على الصَّـــدقة – الَّتي هي برهانٌ على الإيمان باليوم الآخر – قبل فوات الأوان[1]، فقد كانت الآيات تحثُّ المجتمع المســـلم على الاشـــتغال بطاعة الله تعالى، وقراءة القرآن، وإدامة الذِّكر، وأداء الصَّـــلوات، والقيام بجميع الفرائض، وحذَّرتهم من أن ينشـــغلوا بالأموال، والاهتمام بشـــؤون الأولاد عن أداء حقوق الله، كما فعل المنافقون ؛ إذ قالوا بســـبب الشُّحِّ بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله(ﷺ) ، ومن يشتغل بالمال، والولـد عن طاعـة ربّه فأولئك هم الخاسرون[2].

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ **[المنافقون: 9 – 11]**.

كانت خاتمة السُّورة الكريمة تحذيراً للمؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا التي هي من أخلاق المنافقين[3].

وهكذا كان المجتمع المدنيُّ يتربَّى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه، وتعليمه، ورسول الله(ﷺ) يقوم بالإشراف على ذلك.

---

(1) انظر: حديث القران الكريم (327/1).
(2) انظر: التَّفسير المنير (230/28 ، 231).
(3) انظر: حديث القران الكريم (243/1).

خامساً: محاولة المنافقين الطَّعن في عِرْض النَّبِيّ(ﷺ) بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدُهم في المحاولة الأولى لآثارة النَّعرة الجاهليَّة، فقد ألمتْ بالبيت النَّبويِّ هذه النازلة الشَّديدة، والمحنة العظيمة الَّتي كان القصد منها النَّيل من النَّبيِّ(ﷺ) ومن أهل بيته الأطهار.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسِّير[1] على أنَّ حادثة الإفك كانَت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسِّرون[2]، والمحدِّثون[3].

وقد أخرج البخاريُّ، ومسلمٌ حديث الإفك في صحيحيهما. [البخاري (4141)، ومسلم (2770)]، وهذا سياق القصَّة من صحيح البخاريِّ:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله(ﷺ) إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه؛ فأيتهنَّ خرج سهمها، خرج بها رسول الله(ﷺ) معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها[4] فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله(ﷺ) بعدما نزل الحجاب فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي[5] وأنزل فيه.

فسرنا حتَّى إذا فرغ رسول الله(ﷺ) من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، اذن ليلةً بالرَّحيل، فقمت حين اذنوا بالرَّحيل، فمشيت حتَّى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قضيت شأني، أقبلت إلى رحلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ[6] قد انقطع، فالتمست عِقْدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهط[7] الَّذين كانوا يُرَحِّلوني، فاحتملوا هَوْدَجي، فَرَحَّلُوه على بعيري الَّذي كنت

---

(1) كالواقديِّ ، والذَّهبيِّ ، والطَّبري ، وابن سعدٍ ، وابن حزم.
(2) كابن كثيرٍ ، والرَّازي ، والطَّبري ، وغيرهم.
(3) كابن حجر ، والنَّووي.
(4) هي غزوة بني المصطلق.
(5) الهودج: محمل له قبَّة تُستر بالثياب يوضع على ظهر البعير ، تركب فيه النساء.
(6) جزع ظفار: هو خرزٌ معروفٌ ، في سواده بياضٌ كالعروق ، وهي مدينة باليمن.
(7) الرَّهط: الجماعة.

أركب عليه، وهم يحسبون أنِّي فيه، وكان النِّساء، إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللَّحم إنَّما نأكل العُلقة[1] من الطَّعام، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه، وكنت جاريةً حديثة السِّنِّ، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عِقْدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعٍ، ولا مجيب فتيمَّمت منزلي الَّذي كنت فيه، وظننت: أنَّهم سيفقدوني، فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي[2] ثم الذَّكوانيّ من وراء الجيش، فادَّلج[3]، فأصبح ند منزلي، فرأى سواد إنسان نائمٍ، فأتاني، فعرفني حين راني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني فخمَّرتُ[5] وجهي بجلبابي، وواللهِ ما كلَّمني كلمةً، ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتَّى أناخ راحلته، فوطئ على يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الرَّاحلة حتَّى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[6]، في نحر الظَّهيرة[7] وهم نزول قالت: فهلك مَنْ هلك، وكان الَّذي تولى كِبْرَ الإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول.

1 – انتشار الدِّعاية بالمدينة:

وقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً والنَّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يريبني[8] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله(ﷺ) اللُّطف الَّذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله(ﷺ) فيسلِّم، ثمَّ يقول: «كيف تِيكُمْ»[9] ثمَّ ينصرف، فذلك الَّذي يريبني، ولا أشعر بالشَّرِّ، حتَّى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، فَخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المناصِع[10] وهو متبرَّزنا، وكنَّا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك

---

(1) العلقة: البُلغة من الطَّعام.
(2) صحابيٌّ جليلٌ كان صاحب ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته.
(3) فادَّلج (بالتَّشديد): سار اخر الليل.
(4) أي: بقوله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
(5) فخمَّرت: أي: غطيت.
(6) موغرين: الوغرة: شدة الحرِّ.
(7) نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدَّة الحر.
(8) يريبني: يشككني.
(9) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل: ذاكم للمذكر.
(10) المناصع: المواضع الَّتي يُتخلَّى فيها لقضاء الحاجة.

قبل أن نتَّخذ الكُنُف[1] قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأوَل في التَّبَرُّز قِبَل الغائط، فكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخذها عنـد بيوتنـا، فانطلقت أنا، وأمُّ مِسْطَح، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد منافٍ، وأمُّها بنت صـخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّـدِّيق، وابنُها مسْـطَحُ بنأُثاثة[2]، فأقبلت أنا، وأم مِسْـطَحٍ قِبَل بيتي حين فرغنا مِنْ شـأننا، فعثرت أم مِسْـطَح في مِرْطها[3]فقالت: تَعِسَ مِسْطَح، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنَتَاه[4]! أولم تسمعي ما قال؟! قلت: وما قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك، فازدَدْت مرضاً على مرضي، قالت: فلـمَّا رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسولُ الله(ﷺ) – تعني: فسلَّم – ثمَّ قال: «كيف تِيكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن اتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر مِنْ قِبَلِهما، قالت: فأذن لي رســول الله(ﷺ) ، فجئت أبويَّ ، فقلت لأمِّي: يا أمتاه ! ما يتحدَّث النَّاس؟ قالت: يا بنيَّة ! هوِّني عليك، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضـــيئةٌ[5] عند رجلٍ يحبُّها، ولها ضـــرائر إلاَّ أكثرن عليها[6].

قالت: فقلت: سبحان الله! لقد تحدث النَّاس بهذا؟! فبكيت تلك اللَّيلة حتَّى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ[7]، ولا أكتحل بنومٍ حتَّى أصبحت أبكي.

2 – استشارة رسول الله(ﷺ) بعض أصحابه عند تأخُّر نزول الوحي:

ودعا رســـول الله(ﷺ) عليَّ بن أبي طالبٍ، وأســـامة بن زيدٍ رضـــي الله عنهما حين استلبث[8]الوحي، يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأمَّا أسامة؛ فأشار على رسول الله بالَّذي

(1) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.
(2) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ، توفي في خلافة عثمان.
(3) فعثرت في مرطها: أي: وطئته برجلها ، فسقطت.
(4) هنتاه: يا بلهاء ، كأنها نسبت إلى قلَّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.
(5) وضيئة: الوضاءة: الحسن والجمال.
(6) إلا أكثرن عليها: أي: أكثرن القول في عيبها.
(7) لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ، ولا ينكف.
(8) استلبث: وهو الإبطاء ، والتأخُّر.

يعلم من براءة أهله، وبالَّذي يعلم لهم من الودِّ، فقال: يا رســول الله! أهلُك، وما نعلم إلا خيراً، وأمَّا عليُّ بن أبي طالب، فقال: يا رسـول الله! لم يضـيِّق الله عليك، والنِّسـاء سـواها كثيرٌ، وإن تسأل الجارية؛ تصدقك.

قالت: فدعا رسـول الله(ﷺ) بريرة، فقال: «أي بريرة! هل رأيت من شـيءٍ يريبك؟» قالت بريرة: لا والَّذي بعثك بالحقِّ إنْ رأيت عليها أمراً أغمصُـــه[1] عليها أكثر من أنَّها جاريةٌ حديثة السِّنِّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجن[2] فتأكله، فقام رسول الله(ﷺ) فاستعذر[3] يومئذٍ من عبد الله بن أبيِّ بن ســـلول، قالت: فقال رســـول الله(ﷺ) وهو على المنبر: «يا معشـــر المســـلمين! من يَعْذِرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً[4] ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه إن كان من الأوس؛ ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج؛ أمرتنا ففعلنا أمرك.

3 – آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام ســـعد بن عبادة وهو ســـيِّد الخزرج – وكان قبل ذلك رجلاً صـــالحاً، ولكن احتملته الحميَّة[5] – فقال لسـعد: كذبت لَعَمْرُ الله! لا تقتُله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضـير، وهو ابن عمِّ سعدٍ، فقال لسعد بن عبادة: لنقتلنَّه فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان[6]: الأوسُ، والخزرج؛ حتَّى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله(ﷺ) قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله(ﷺ) يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا، وسكت.

---

(1) أغمصه عليها: أي: أعيبها به ، وأطعن عليها به.

(2) الدَّاجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.

(3) فاستعذر: أي: قال: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه؟

(4) هو صفوان بن المعطَّل السلمي.

(5) احتملته الحمية: أي: حملته الأنفة ، والغضب على الجهل.

(6) فثارالحيَّان: أي: تناهضوا للنزاع والعصبية.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين، ويوماً، لا أكتحل بنومٍ، ولا يرقأ لي دمعٌ يظنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عنـــدي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله(ﷺ) فسلَّم، ثمَّ جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

4 – مفاتحة الرَّسول(ﷺ) لعائشة، وجوابها له:

وقد لبـث الوحي شهـراً[1] لا يوحى إليـه في شـأني بشيءٍ، قالت: فتشهَّد رسول الله(ﷺ) حين جلس، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: يا عائشـــة! فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا[2]، فإن كنت بريئةً فسـيبرِّئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ؛ فاسـتغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه، ثمَّ تاب إلى الله، تاب الله عليه» فلــمَّا قضى رسول الله(ﷺ) مقالته؛ قلص دمعي[3]؛ حتَّى ما أحسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجب رســول الله(ﷺ) عنِّي فيما قال، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله(ﷺ) ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله(ﷺ) ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله(ﷺ) .

قالت: فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السِّــنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنِّي والله! لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتَّى استقرَّ في أنفسكم، وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أنِّي بريئةٌ؛ لا تصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أنِّي منه بريئةٌ لتصدقُنِّي، والله! ما أجد لي، ولكم مثلاً إلا قول أبي يوســف[4]، قال: ﴿فَصَــبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْـتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: 18] قالت: ثمَّ تحولت، فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم

---

(1) التقيُّد بالشَّهر ، فهو المدَّة الَّتي أوَّلها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.

(2) كناية عمَّا رميت به من الإفك.

(3) قلص دمعي: أي: ارتفع وذهب.

(4) هو يعقوب عليه السَّلام.

أنِّي بريئةٌ، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شـــأني وحياً يُتلى، وَلَشَـأْنِي في نفسـي كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسـول الله(ﷺ) في النَّوم رؤيا يبرِّئني الله بها.

5 – نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله! ما رام[1] رسـول الله(ﷺ) ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتَّى أنزل عليــــه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[2] حتَّى إنَّه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان[3]، وهو يومٌ شاتٍ من ثقل القول الَّذي ينزل عليه.

قالت: فلـمَّا سُرِّي[4] عن رسول الله(ﷺ) ، وهو يضحك، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها: يا عائشـة! أمَّا الله – عزَّ وجلَّ – فقد برَّأك، فقالت أمِّي: قومي إليه، قالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله – عزَّ وجلَّ –.

وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْـبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَـبُوهُ شَـرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَـــبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِـــهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ۝ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُـهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّـهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝ وَلَوْلاَ فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّـــكُمْ فِي مَا أَفَضْـــتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِـــنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُـــبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَـدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ إِنَّ الَّـذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ

(1) ما رام: ما برح ، وما فارق مجلسه.

(2) البرحاء: شدَّة الكرب من ثقل الوحي.

(3) الجمان: حبات اللؤلؤ الصَّغيرة ، وقيل: حبٌّ يتَّخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.

(4) سُرِّي: انكشف عنه ما يجده من الهم ، والثقل.

تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: 11 – 20].

6 – موقف أبي بكر الصِّدِيق ممَّن تكلَّم في عائشة رضي الله عنها:

فلـــمَّا أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصـدِّيق رضـي الله عنه – وكان ينفق على مسـطح بن أُثاثة لقرابته منه، وفقره –: والله! لا أنفق على مسـطح شـيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: 22 – 23].

قال أبو بكر: بلى والله! إنِّي أحبُّ أن يغفر الله لي، فأَرْجَعَ إلى مسـطح النَّفقة الَّتي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشـة: وكان رسـول الله(ﷺ) يسـأل زينب بنت جحش[1] عن أمري، فقال: «يا زينب! ماذا علمت، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي[2] سمعي، وبصري، وما علمت إلا خيراً، قالت: وهي الَّتي كانت تساميني[3] من أزواج رسول الله(ﷺ) ، فعصمها الله[4] بالورع[5]، وطفقت[6] أختها حمنة[7] تحارب لها، فهلكت ممَّن هلك من أصحاب الإفك. [سبق تخريجه].

كانت قصَّة الإفك حلقةً من سلسلة فنون الإيذاء، والمحن الَّتي لقيها رسول الله(ﷺ) من

---

(1) هي زينب بنت جحش أمُّ المؤمنين رضي الله عنها ، وهي بنتُ عمَّته صلى الله عليه وسلم.
(2) أحمي سمعي ، وبصري: أي: أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
(3) تساميني: أي: تعاليني ، وتفاخرني: أي: تطاولني عنده صلى الله عليه وسلم.
(4) عصمها: حفظها ، ومنعها.
(5) الورع: الكفُّ عن المحارم والتَّحرُّج منها.
(6) طفقت: شرعت.
(7) حمنة بنت جحش بنت عمَّته صلى الله عليه وسلم، وهي أخت زينب رضي الله عنها.

أعداء الدِّين، وكان من لطف الله تعالى بنبيِّه وبالمؤمنين أن كشـــف الله زيفها، وبطلانها، وقد سجَّل التَّاريخ بروايات صحيحةٍ مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لاسيما موقف أبي أيوبٍ، وأم أيوبٍ، وهي مواقف يتأسَّى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفِرْية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدُّروس، لتكون عبرةً، وعظةً للأجيال إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها[1].

سادساً: أهمُّ الاداب والأحكام الَّتي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات الَّتي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً، وآداباً، من أهمِّها ما يأتي:

1 - تبرئـــة السَّيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآن يُتْلَى إلى آخر الزَّمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.[النور: 11]

2 - أنَّ حكمة الله - تعالى - اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشَّرِّ، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكرٍ الصِّـدِّيق رضـي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم، حيث كُتِب لهم الأجر العظيم على صبرهم، وقوَّة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.[النور: 11]

3 - الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حســن الظَّنِّ فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾.[النور: 12]

4 - تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُـــهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾[النور: 13]

5 - بيان فضــل الله على المؤمنين، ورأفته بهم: ﴿وَلَوْلاَ فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[النور: 14]

6 - وجوب التَّثبُّت من الأقوال قبل نشـرها، والتَّأكُّد من صـحَّتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ

(1) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 440.

سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾[النور: 16]

7 – النَّهي عن اقتراف مثل هذا الذَّنب العظيم، أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النور: 17-18]

8 – النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النور: 19]

9 – بيان فضل الله – سبحانه – على عباده المؤمنين، ورأفته بهم، وكرَّر ذلك تأكيداً له، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[النور: 20]

10 – النَّهي عن تتبُّع خطوات الشَّيطان الَّتي تؤدِّي للهلاك قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21]

11 – الحثُّ على النَّفقة على الأقارب وإن أساؤوا[1] قال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[النور: 22]

12 – غيرة الله – تعالى – على عباده المؤمنين الصَّادقين، ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللَّعن في الدُّنيا، والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[النور: 23-25] قال صاحب الكشَّاف عند تفسيره لهذه الآيات: ولو فلَّيت القرآن كلَّه، وفتَّشت عمَّا أوعد به العُصاة؛ لم ترَ الله تعالى قد غلَّظ في شيءٍ تغليظَه في إفك عائشة رضوانُ

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(385/1 ، 386).

الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشـــحونة بالوعيد الشَّــديد، والعتاب البليغ، والزَّجر العنيف، واستعظام ما ارتُكِبَ من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرقٍ مختلفةٍ، وأســاليب مفتنةٍ، كلُّ واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثَّلاث لكفى بها؛ حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدَّارين جميعاً، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنَّ ألسـنتهم، وأيديهم، وأرجلهم تشـهد عليهم بما أفكوا، وبهتوا، وأنَّه يوفِّيهم جزاءهم الحقَّ الواجب الَّذي هم أهلُه[1].

13 - بيان سنَّةٍ من سنن الله الجارية في الكون، وهي أنَّ الطَّيبين يجعلهم الله من نصيب الطَّيبات، والطَّيبات يجعلهنَّ من نصـيب الطَّيبين. قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ **[النور: 26]**

14 - والنَّاس عندما رُمِيَت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[2]:

قال فضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد - عند تعليقه على حديثٍ يتعلَّق بقصَّة الإفك -: إنَّ النَّاس عندما رُمِيَتِ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسـمٌ - وهو أكثر النَّاس - حموا أسماعهم، وألسـنتهم، فسـكتوا، ولم ينطقوا إلا بخيرٍ ولم يصدِّقوا، ولم يكذِّبوا. وقسمٌ سارع إلى التَّكذيب، وهم: أبو أيوبٍ الأنصاريُّ، وأم أيوبٍ رضي الله عنهما، فقد وصفوه عند سماعه بأنَّه إفك، وبرَّؤوا عائشة ممَّا نسب إليها في الحال.

أمَّا القسم الثالث؛ فكانوا جملةً من المسلمين، لم يصدِّقوا، ولم يكذِّبوا، ولم ينفوا، ولكنَّهم يتحدَّثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون: أنَّ الكلام بذلك أمرٌ هيِّنٌ لا يُعرِّضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافرٍ، وحاكي الإفك ليس بقاذفٍ، ومن هؤلاء: حمنة بنت جحش،

---

(1) المصدر السابق نفسه ، (386/1) نقلاً عن تفسير الكشاف (223/3).

(2) انظر: حديث القران الكريم (387/1).

وحسَّان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أمَّا القســم الرَّابع فهم الذين جاؤوا بالإفك، وعلى رأس هؤلاء عدوُّ الله عبد الله ابن أُبَيّ بن سلول، رأسُ المنافقين، لعنه الله، وهو الَّذي تولَّى كبره.

وقد أشــار الله – عزَّ وجلَّ – إلى فضــل القســم الثاني من هذه الأقســام، وأنَّه كان ينبغي لجميع المســـلمين أن يقفوا هـذا الموقف، فقـال: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[النور: 12]

أمَّا القسم الثَّالث؛ فقد أشـار الله – عزَّ وجلَّ – إلى أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يتحدَّثوا بمثل هذا الحديث، حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِـــنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَـــبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[النور: 16].

وقد أثبت الله – عزَّ وجلَّ – لأهل هذا القسم فضائلهم الَّتي عملوها، حيث أثبت لمسطح هجرته، وإيمانه عندما حلف أبو بكر: أنه لن ينفق على مســطح ولن يتصــدَّق عليه، وهو من ذوي قرابته، فقال – عزَّ وجلَّ –: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْــلِ مِنْكُمْ وَالسَّــعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَـاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْـفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور: 22].

أمَّا القســـم الرَّابع وهو جماعة عبد الله بن أُبَيّ الَّذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب؛ فقد أشـــار الله إلى موتهم على الكفر، وأنَّه لن يقبل منهم توبةً، وأنَّه أنزل عليهم لعنته في الدُّنيا، والآخرة[1]؛ حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَـــنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[النور: 23-25].

---

(1) انظر: فقه الإسلام شرح بلوغ المرام ، لفضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد (5/9).

سابعاً: فوائد، وأحكامٌ، ودروسٌ من حادثة الإفك، وغزوة بني المصطلق:

1 - بشريَّة الرَّسول(ﷺ) :

جاءت محنة الإفك منطويةً على حكمةٍ إلهيَّةٍ استهدفت إبراز شخصيَّة النَّبيّ(ﷺ) ، وإظهارها صافيةً مميَّزةً عن كلِّ ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمراً ذاتيّاً غير منفصلٍ عن شخصيَّة الرَّسول(ﷺ) ؛ لما عاش الرَّسول(ﷺ) تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهراً كاملاً، ولكن الحقيقة الَّتي تجلَّت للنَّاس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرَّسول(ﷺ) ونبوَّته، فعندما حسم الوحي اللَّغط الَّذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرَّسول(ﷺ) ، وفرح الجميع بهذه النَّتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدلَّ ذلك على حقيقة الوحي، وأنَّ الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى؛ لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله(ﷺ) بصفةٍ خاصَّةٍ، ولانعكس ذلك على تصرُّفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوَّة محمَّدٍ(ﷺ) [1] .

2 - حدُّ القذف، وأهمِّيته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلاميُّ يتربَّى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى - عزَّ وجلَّ - أن يشرّع بعض الأحكام الَّتي تسهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النُّور، الَّتي تحدَّثت عن حكم الزَّاني والزَّانية، وعن قبح فاحشة الزِّنى، وعمَّا يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزَّوجين صاحبه، وعن العقوبة الَّتي أوجبها الله على الَّذين يرمون المحصنات، ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء، إلى غير ذلك من الأحكام[2].

إنَّ الإسلام حرم الزِّنى، وأوجب العقوبة على فاعله، وقد حرَّم أيضاً كل الأسباب المسبِّبة له، وكلَّ الطُّرق الموصلة إليه؛ ومنها إشاعة الفاحشة، والقذف بها؛ لتنزيه المجتمع من أن تسري

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 441.

(2) انظر: حديث القران الكريم (357/1).

فيه ألفاظ الفاحشة، والحديث عنها؛ لأنَّ كثرة الحديث عن فاحشة الزِّنى وسهولة قولها في كلِّ وقتٍ يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرِّئ ضعفاء النُّفوس على ارتكابها، لهذا حرَّمت الشَّريعة الإسلاميَّة القذف بالزِّنى، وأوجبت على من قذف عفيفاً، أو عفيفةً، طاهراً، أو طاهرةً، بريئاً، أو بريئةً من الزِّنى، حدَّ القذف، وهو الجلد ثمانون جلدةً، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبةً صادقةً نصوحاً[1].

هذا وقد أقام رسول الله(ﷺ) حدَّ القذف على مِسْطحٍ، وحسَّانَ، وحمنةَ، وروى محمَّد بن إسحاق، وغيره: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) جلد في الإفك رجلين، وامرأة: مسطحاً، وحسَّاناً، وحمنة. وذكره التِّرمذيُّ. [الترمذي (3181)، ولم يُصرِّح بذكر الأسماء، وقد صرَّح بها أبو داود (4475)].

قال القرطبيُّ[2]: والمشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء: أن الَّذي حُدَّ حسانُ، ومسطحٌ، وحمنةُ، ولم يُسْمَع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيّ[3]، وقد وردت آثار ضعيفةٌ تدل على أنَّ عبد الله بن أُبَيّ أقيم عليه الحدُّ، ولكنَّها كلَّها ضعيفةٌ لا تقوم بها حجَّة[4].

وقد ذكر ابن القيِّم وجه الحكمة في عدم حدِّ عبد الله بن أبيٍّ، فقال:

أ - قيل: لأنَّ الحدود تخفيفٌ عن أهلها، وكفارةٌ، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، ويكفيه عن الحدِّ.

ب - وقيل: كان يستوشي الحديث، ويجمعه، ويحكيه، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

جـ - وقيل: الحدُّ لا يثبت إلا ببيِّنةٍ، أو إقرارٍ، وهو لم يقرَّ بالقذف، ولا شهد به عليه أحدٌ، فإنَّه كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

(1) انظر: اثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد الزَّاحم ، ص 117.
(2) انظر: تفسير القرطبي (197/12).
(3) انظر: تفسير القرطبي (201/12).
(4) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق ، ص 242.

د – وقيل: بل ترك حدَّه لمصلحةٍ هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وتكلُّمه بما يوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه، وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثمَّ قال – في ختام كلامه –: ولعلَّه ترك لهذه الوجوه كلِّها[1].

3 – اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بيَّنت الرِّوايات: أنَّ من خاض في الإفك قد تاب – ما عدا ابن أبيٍّ – وقد اعتذر حسَّان رضي الله عنه عمَّا كان منه، وقال يمدح عائشة رضي الله عنها بما هي أهلٌ له[2]:

رَأيتُكِ وَلْيَغْفِرْ لَكِ اللهُ حُرَّةً ... مِنَ المحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ ... وَتُصْبِحَ غَرْثَى مِنْ لُحُوْمِ الغَوَافِلِ
وَإِنّ الَّذي قَدْ قِيْلَ لَيْسَ بِلائِقٍ ... بِكِ الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ مُتَناحِلِ
فَإِنْ كُنْتُ أَهْجُوكُمْ كَمَا بلَّغُوكُمُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِليَّ أَنَامِلِي
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيْتُ وَنُصْرَتِي ... لآلِ رَسُوْلِ اللهِ زَيْنُ المحَافِلِ
وَإِنَّ لَهُمْ عِزّاً يَرَى النَّاسُ دُوْنَهُ ... قِصَاراً، وَطَالَ العِزُّ كلَّ التَّطاوُلِ[3]

4 – من الأحكام المستنبطة في غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على مَنْ بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذارٍ. ومنها: صحَّة جعل العتق صداقاً، كما فعل(ﷺ) مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة. ومنها: مشروعية القرعة بين النِّساء عند إرادة السَّفر ببعضهن. ومنها: جواز استرقاق العرب، كما حدث في الغزوة، وهو قول جمهور العلماء[4].

---

(1) انظر: زاد المعاد (263/3، 264).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (263/2).
(3) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، المغازي، ص 281.
(4) انظر: كتاب الأم، للشَّافعي (186/4).

وقد أجمع العلماء قاطبةً على أنَّ من سبَّ عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءةً قطعيَّة بنصِّ القرآن، ورماها بما اتُّهمت به؛ فإنه كافرٌ ؛ لأنه معاندٌ للقرآن[1]، ومن الأحكام الَّتي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النِّساء، حيث سأل الصَّحابة الرَّسول(ﷺ) عنه، فأذن به، وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمةٍ كائنةٍ إلى يوم القيامة إلا وهي كائنةٌ» **[البخاري (5210)، ومسلم (125/1438)، وأحمد (68/3 و72)**[2]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزَّوجة الحرَّة بإذنها[3]، ونزلت آية التَّيمُّم في هذه الغزوة؛ تنويهاً بشأن الصَّلاة، وتنبيهاً على عظيم شأنها، وأنَّه لا يحول دون أدائها فقدُ الماء، وهو وسيلةُ الطَّهارة الَّتي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف، وفقدُ الأمن من إقامتها[4].

* * *

(1) شرح صحيح مسلم ، للنووي (643/5).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (415/2).
(3) انظر: نيل الأوطار ، للشَّوكاني (222/6 . 224).
(4) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 210 ، 211.

الفصل الحادي عشر

غزوة الأحزاب (5 هـ)

المبحث الأوَّل

تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة، وأسبابها:

1 - تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السِّير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوَّال من السَّنة الخامسة[1]، وقال الواقديُّ[2]: إنَّها وقعت في يوم الثلاثاء الثَّامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجريِّ، وقال ابن سعدٍ[3]: إنَّ الله استجاب لدعاء الرَّسول(ﷺ) ، فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمسٍ من مهاجره(ﷺ) . ونقل عن الزُّهريِّ، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة: أنَّها وقعت سنة أربعٍ هجريَّة[4].

ويرى العلماء: أنَّ القائلين بأنَّها وقعت سنة أربع كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الَّذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر الَّتي قبل ذلك إلى ربيع الأوَّل وهو مخالف لما عليه الجمهور من

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 443. وينظر الشكل (9) في الصفحة (754).
(2) انظر: المغازي (440/2) بدون إسناد.
(3) انظر: الطَّبقات (65/2 ، 73) بإسنادٍ متصل.
(4) انظر: البداية والنِّهاية (105/4).

جعل التَّاريخ من المحرَّم سنة الهجرة[1]، وجزم ابن حزمٍ[2]: أنَّها وقعت سنة أربعٍ لقول ابن عمر: أنَّ الرسول(ﷺ) ردَّه يوم أحدٍ – وهي في السَّنة الثَّالثة باتِّفاق – وهو ابن أربع عشرة سنة **[البخاري (4097)، ومسلم (1868)]**[3] ولكنَّ البيهقيَّ **[دلائل النبوة (296/2)]** وابن حجر[4]، وغيرهما فسَّروا ذلك بأنَّ ابن عمر كان يوم أحدٍ في بداية الرَّابعة عشرة، ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[5].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور – وهو الرَّاجح لديَّ – مال ابن القيِّم، حيث قال: وكانت سنة خمسٍ من الهجرة في شوال على أصحِّ القولين؛ إذ لا خلاف: أنَّ أُحداً كانت في شوَّال سنة ثلاثٍ، وواعد المشركون رسول الله(ﷺ) في العام المقبل، وهو سنة أربعٍ، ثمَّ أخلفوه من أجل جدب تلك السَّنة، فرجعوا، فلمَّا كانت سنة خمس جاؤوا لحربه[6].

2 – أسبابها:

إنَّ يهود بني النَّضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما إن استقرُّوا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتَّفقت كلمتُهم على التَّوجُّه إلى القبائل العربيَّة المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكوَّن من سلام ابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبي عمَّار[7].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمَّته، حيث وافقت قريش الَّتي شعرت بمرارة الحصار الاقتصاديِّ المضروب عليها من قِبَل المسلمين، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة، وفي

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص 443.
(2) انظر: جوامع السِّير، ص 185.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص 444.
(4) انظر: الفتح (396/3).
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 444.
(6) انظر: زاد المعاد (288/2).
(7) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (237/3).

السَّلب، والنَّهب، وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشـركي مكَّة: إنَّ دينكم خيرٌ من دين محمَّدٍ، وأنتم أولى بالحقِّ منه[1]. وعن ذلـك يقول الله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـذِينَ أُوتُوا نَصِـيبًا مِنَ الْكِتَـابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَـبِيلاً ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ [النساء 51-52].

وحول هذه المقالة أشـار الأسـتاذ ولفنسـون إلى الخطأ الكبير الَّذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضـيلهم دين قريشٍ الوثنيَّ على دين الإسـلام الَّذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد ، فقال: «والَّذي يؤلم كلَّ مؤمن بإلهٍ واحدٍ من اليهود، والمسـلمين على السَّـواء، إنَّما هو تلك المحادثة الَّتي جرت بين نفرٍ من اليهود، وبين قريشٍ الوثنيِّين، حيث فضَّـل هؤلاء النَّفر من اليهود أديان قريشٍ على دين صاحب الرِّسالة الإسلاميَّة»[2].

ولا ريب أن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدحٍ لدينها، فازدادت حماساً، وأصبحت أكثر تصـميماً على حرب المسـلمين، ثمَّ أعلنت موافقتها على هذه الدَّعوة، والاشـتراك في الحملة الَّتي ستهاجم المدينة، وضربت لها موعداً[3].

وقد أبرم الوفد اليهوديُّ مع زعماء أعراب غطفان اتفاقيَّة الاتحاد العربيِّ الوثنيِّ اليهوديِّ العسكريِّ ضدَّ المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ - أن تكون قوَّة غطفان في جيش الاتِّحاد هذا ستَّةَ الاف مقاتلٍ.

ب - أن يدفع اليهود لقبائل غطفان «مقابل ذلك» كلَّ تمر خيبر لسنةٍ واحدةٍ[4].

لقد اسـتطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشـرةُ الاف مقاتلٍ؛ أربعة

---

(1) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص 310.
(2) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ولفنسون ، ص 142.
(3) المصدر السابق نفسه ، ص 310.
(4) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص 141.

الاف من قريشٍ، وأحلافها، وستَّةُ الافٍ من غطفان، وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدَّولة الإســـلاميَّة على حذرٍ تام من أعدائه؛ لذا فقد كان يتتبَّع أخبار الأحزاب، ويرصـد تحرُّكاتهم، ويتابع حركة الوفد اليهوديّ منذ خرج من خيبر في اتِّجاه مكَّة، وكان على علمٍ تامٍّ بكـلِّ مـا يجري بين الوفـد اليهوديِّ، وبين قريش أوَّلاً، ثمَّ غطفـان ثانيـاً، وبمجرَّد حصـول المدينة على هذه المعلومات عن العدوِّ شـرع الرَّسـول(ﷺ) في اتخاذ الإجراءات الدِّفاعية اللاَّزمة، ودعا إلى اجتماعٍ عاجلٍ، حضـره كبار قادة جيش المسـلمين من المهاجرين، والأنصـار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير النَّاجم عن مساعي اليهود الخبيثة[1]، فأدلى سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه برأيه الَّذي يتضـمَّن حفر خندقٍ كبيرٍ لصـدِّ عدوان الأحزاب، فأُعْجِبَ النَّبيُّ(ﷺ) بذلك، قال الواقديُّ رحمه الله: فقال ســلمان: يا رســول الله! إنَّا إذا كنا بأرض فارس، وتخوَّفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين[2].

وعندما اســتقرَّ الرَّأي - بعد المشــاورة - على حفر الخندق، ذهب النَّبيُّ(ﷺ) هو وبعض أصـــحابه لتحديد مكانه، واختار للمســـلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسـول الله(ﷺ) ركب فرسـاً له، ومعه نفرٌ من أصـحابه من المهاجرين، والأنصـار، فارتاد موضــعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَـلْعاً خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب[3] إلى راتج[4]، وقد استفاد(ﷺ) من مناعة جبل سَلْع[5] في حماية ظهور الصَّحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفَّقاً؛ لأنَّ شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدوِّ، والَّذي

---

(1) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص 144 ، 145.

(2) انظر: مغازي الواقدي (444/2) ، والطَّبقات الكبرى (6/2) ، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم: لمحمَّد رضا (حفر الخندق).

(3) ذباب: أكمةٌ صغيرة في المدينة ، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

(4) راتج: حصنٌ من حصون المدينة لأناسٍ من اليهود.

(5) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. انظر: معجم البلدان (236/3).

يستطيع منه دخول المدينة، وتهديدها، أمَّا الجوانب الأخرى فهي حصينةٌ منيعةٌ، تقف عقبةً أمام أيِّ هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدُّور من ناحية الجنوب متلاصقةً عاليةً كالسُّور المنيع، وكانت حرَّة واقم[1] من جهة الشَّرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصنٍ طبيعيّ، وكانت اطام بني قريظة في الجنوب الشَّرقي كفيلةً بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرَّسول(ﷺ) وبني قريظة عهدٌ ألاَّ يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدوّاً ضدَّه[2].

ويستفاد من بحث الرَّسول(ﷺ) عن مكانٍ ملائمٍ لنزول الجند أهمِّيةُ الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنَّه ينبغي أن يتوافر فيه شرطٌ أساسيٌّ، وهو الحماية التامَّة للجند؛ لأنَّ ذلك له أثرٌ واضحٌ على سير المعركة، ونتائجها[3].

لقد كانت خطَّة الرَّسول(ﷺ) في الخندق متطورةً، ومتقدِّمةً، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم؛ بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم، وبهذا يكون الرَّسول(ﷺ) هو أوَّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مُذهلةً لأعداء الإسلام، وأبطل خطَّتهم الَّتي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيعٍ لسرّية الخطَّة، وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثرٌ في إضعاف معنويات الأحزاب، وتشتيت قواتهم.

ثالثاً: اهتمام النبي(ﷺ) بالجبهة الدَّاخلية:

1 - لـمَّا علم النَّبيُّ(ﷺ) بقدوم جيش الأحزاب ، وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ، ونسائهم، وصبيانهم في حصن بني حارثة؛ حتَّى يكونوا في مأمنٍ من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك(ﷺ)؛ لأنَّ حماية الذَّراري، والنِّساء، والصِّبيان لها أثرٌ فعَّالٌ على

(1) هي حرَّة المدينة الشَّرقية. انظر: معجم معالم الحجاز (283/2 ، 285).
(2) انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 442.
(3) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 426.

معنويات المقاتلين؛ لأنَّ الجندي إذا اطمأنَّ على زوجه، وأبنائه يكون مرتاح الضَّمير، هادئ الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمرٌ من أمور الحياة، يُسخِّر كل إمكاناته، وقدراته العقليَّة، والجسديَّة للإبداع في القتال، أمَّا إذا كان الأمر بعكس ذلك؛ فإنَّ أمر الجندي يضطرب، ومعنوياتُه تضعُف ويستولي عليه القلق، ممَّا يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع[1].

2 - ومن الأمور الَّتي أسهمت في قوية، وتماسك الجبهة الدَّاخلية مشاركةُ النبي(ﷺ) جنده أعباء العمل، فقد شارك الرَّسول(ﷺ) الصَّحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشَّريفة في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق، قال: سمعت البراء يحدِّث قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله(ﷺ) ؛ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتَّى وارى عني التُّرابُ جِلدَة بطنِه، وكان كثير الشَّعر. **[البخاري (4106)، ومسلم (1803)]**.

فعمل رسول الله(ﷺ) مع الصَّحابة بهمَّةٍ عاليةٍ لا تعرف الكلل، فأعطى القدرة الحسنة لأصحابه حتَّى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

3 - وكان(ﷺ) يشارك الصَّحابة رضي الله عنهم في آلامهم، وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمَّة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد: أنَّه(ﷺ) كان يعاني ألم الجوع كغيره، بل أشدَّ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشَّريف من شدَّة الجوع[2]، ثمَّ إنَّه(ﷺ) شاركهم في اما لهم، فحين وجد ما يسدُّ رمقه بعد هذا الجوع الَّذي استمر ثلاثاً، لم يستأثر بذلك دونهم، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

4 - رفع معنويات الجنود وإدخال السُّرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوباتٍ جمَّة، فقد كان الجو بارداً، والرِّيح شديدةً، والحالة المعيشية صعبةً، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو

---

(1) انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور محمد عبد القادر أبو فارس ، ص 98.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 116 ، 117.

الَّذي يتوقَّعونه في كلِّ لحظةٍ، ويضــاف إلى ذلك العمل المضــني حيث كان الصَّــحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولاشكَّ في أن هذا الظرف – بطبيعة الحال – يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم، والجدِّ، ولكنَّ النَّبيَّ(ﷺ) لم ينسَ في هذا الظَّرف: أنَّ هؤلاء الجند إنَّما هم بشـــرٌ كغيرهم، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الرَّاحة من عناء العمل، كما أنَّها بحاجةٍ إلى مَنْ يدخل السُّرور عليها؛ حتَّى تَنسى تلك الالام الَّتي تعانيها فوق معاناة العمل الرَّئيسي، ولهذا نجد: أنَّ النَّبيّ(ﷺ) كان يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل التُّراب:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا ... ولا تَصَــدَّقْنَا ولا صَــلَّيْنَا
فـأَنْزِلَنْ سَــكِيْنَـةً عَلَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَيْنَـا
إنَّ الأُلَى قَـدْ بَغَوْا عَلَيْنَـا ... وإِنْ أَرَادُوا فِـتْـنَـةً أَبَـيْـنَـا

ثُمَّ يَمُدُّ صوته بآخرها. [البخاري (4106)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ أصحاب محمَّدٍ(ﷺ) كانوا يقولون يوم الخندق:

نَحْنُ الَّـذِيْنَ بَايَعُوا مُحَمَّـداً ... عَلَى الإِسْــلامِ مَا بَقِيْنَا أَبَداً

أو قال على الجهاد، والنَّبيُّ(ﷺ) يقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الآخره ... فـاغْفِرْ لِلأَنْصَــارِ والمهَـاجِره

[البخاري (2834)، ومسلم (130/1805)].

لقد كان لهذا التَّبسُّــط، والمرح في ذلك الوقت أثرُه في التَّخفيف عن الصَّــحابة ممَّا يعانونه نتيجةً للظُّروف الصَّعبة، الَّتي يعيشونها، وكما كان له أثرُهُ في بعث الهِمَّة، والنَّشاط، بإنجاز العمل الَّذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوِّهم[1].

5 – تقدير ظروف الجند، والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصَّحابة رضي الله عنهم على قدرٍ كبير من الأدب مع النَّبيِّ(ﷺ) ، فكانوا يســتأذنونه في الانصــراف إذا عرضــت لهم

(1) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 482.

ضـــرورةٌ، فيذهبون لقضـــاء حوائجهم، ثمَّ يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبةً في الخير، واحتســاباً له، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُــولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْــتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْــتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُــولِهِ فَإِذَا اسْــتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَــأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِــئْتَ مِنْهُمْ وَاسْــتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[النور: 62]**.

ومعنى الآية الكريمة: إذا اســـتأذنك يا محمَّد! الَّذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضـــاء بعض حاجاتهم؛ الَّتي تعرض لهم فائذن لمن شـــئت منهم في الانصـــراف عنك لقضــائها، واســتغفر لهم[1]، فكان النَّبيُّ(ﷺ) بالخيار، إن شــاء؛ أذن له؛ إذا رأى ذلك ضــرورة للمستأذن، ولم ير فيه مضـرَّة على الجماعة، فكان يأذن، أو يمنع حسـب ما تقتضـيه المصـلحة، ويقتضيه مقام الحال[2].

6 – تقســيم الصَّــحابة إلى دورياتٍ للحراســة: قســم النَّبيُّ(ﷺ) أصــحابه إلى مجموعاتٍ للحراسـة، ومقاومة كلِّ مَنْ يريد أن يخترق الخندق، وقام المسـلمون بواجبهم في حراسـة الخندق، وحراسـة نبيِّهم(ﷺ) ، واستطاعوا أن يصـدُّوا كلَّ هجومٍ حاول المشـركون شنَّه، وكانوا على أهبة الاســتعداد جنوداً، وقيادةً، حتَّى إنَّهم اســتمرُّوا ذات يوم من السَّــحَر إلى جوف اللَّيل في اليوم الثَّاني، ويفوت المسـلمين الصَّـلواتُ الأربع، ويقضـونها لعجزهم عن التوقُّف لحظةً واحدةً في أثناء الاشـتباك المباشـر للقتال، واسـتطاع عليُّ بن أبي طالب مع مجموعة من الصَّـحابة أن يصـدُّوا محاولة عكرمة بن أبي جهلٍ، بل تصـــدَّى عليٌّ لبطل قريش عمرو بن عبد ودٍّ، وقتله[3]، وكانت هناك مجموعةٌ من الأنصـار تقوم بحراسة النَّبيِّ(ﷺ) في كلِّ ليلةٍ على رأسـهم عبَّاد بن بشـرٍ رضـي

(1) انظر: صفوة التفاسير ، للصَّابوني (351/2).

(2) أحكام القران ، لابن العربيِّ (1410/3).

(3) انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص 504.

وانظر: البداية والنِّهاية (فصل: نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق) ، وانظر: السِّيرة النبوية لابن هشام (غزوة الخندق) من حاول عبور الخندق من المشركين ، وراجع: الإصابة في معرفة الصَّحابة لابن حجر.

الله عنه، فالنَّبيُّ(ﷺ) هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة، فهو الَّذي يرسم الخطط، ويراقب تنفيذها، فهو الَّذي:

أ – أمر بحفر الخندق، بعد أن تمَّت المشاورة في ذلك، فاختار مكاناً مناسباً لذلك، وهي السُّهول الواقعة شمال المدينة؛ إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب – قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصَّحابة، كلَّ أربعين ذراعاً لعشرة من الصَّحابة، ووكَّل بكلِّ جانبٍ جماعةً يحفرون فيه.

ج – سيطر على العمل، فلا يستطيع أحدٌ ترك عمله إلا بإذنٍ منه(ﷺ) .

د – قسم(ﷺ) واجبات احتلال المواضع بنفسه بحيث تستمرُّ الحراسة على كلِّ شبرٍ من الخندق ليلاً، ونهاراً، ثمَّ إنَّه(ﷺ) كان يقوم بمهمَّة الإشراف العامِّ على الجند بتشجيعهم، ورفع معنوياتهم.

هـ استطاع(ﷺ) – لما يتمتَّع به من حنكةٍ، وبراعةٍ سياسيَّةٍ مستمدَّةٍ من شخصيته النَّبويَّة – أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الَّذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدِّد المدينة، وما حولها[1]، فقد توحَّدت قيادة المسلمين تحت زعامته(ﷺ) ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة، والفوز بها.

* * *

(1) انظر: القيادة العسكريَّة في عصر الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 11.

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أنَّ المســـلمين أخذوا بالاحتياطات كافَّةً في تأمين جبهتهم الدَّاخليَّة، ومحاولة الدِّفاع عن الإسـلام، والمدينة من جيش الأحزاب الزَّاحف، إلا أنَّ سـنَّة الله الماضـية لا نصـر إلا بعد شـدَّة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلَّما اقترب النَّصــر زاد البلاء، والامتحان، وقد ازدادت محنة المســلمين في الخندق عندما:

أولاً: نَقْضُ اليهود من بني قريظة العهدَ، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المســـلمون يخشـــون غدر يهود بني قريظة الَّذين يســـكنون في جنوب المدينة، فيقع المســـلمون حينئذٍ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهوديُّ زعيم بني النَّضير في استدراج كعب بن أسـد زعيم بني قريظة لينضمَّ مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسـرت الشَّـائعات بين المسـلمين بأنَّ قريظة قد نقضـت عهدها معهم، وكان الرَّسـول(ﷺ) يخشـــى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأنَّ اليهود قوم لا عهد لهم، ولا ذمَّة، ولذلك انتدب النَّبيُّ(ﷺ) الزبير بن العوَّام «رجل المهمَّات الصَّـعبة» ليأتيه من أخبارهم، فذهب الزُّبير، فنظر ثمَّ رجع، فقال: يا رسـول الله! رأيتهم يصـلحون حصـونهم، ويُدرِّبون[1] طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم[2].

وبعد أن كثرت القرائن الدَّالة على نقض بني قريظة للعهد؛ أرسل رسول الله(ﷺ) سعد بن

---

(1) يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السَّير إلى المسلمين.

(2) انظر: مغازي الواقدي (457/2).

معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخَوَّات بن جبير رضي الله عنهم، وقال لهم: انطلقوا حتَّى تنظروا: أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم، أم لا؟ فإن كان حقّاً؛ فالحنوا لي لحناً[1] أعرفه، ولا تَفُتُّوا في أَعْضَاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم؛ فاجهروا به للنَّاس. **[ابن هشام (232/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (429/3)]**[2].

فخرجوا حتَّى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد، فرجعوا، فسلَّموا على النَّبيِّ(ﷺ) ، وقالوا: عضَلٌ والقارَّة[3]، فعرف النَّبيُّ(ﷺ) مرادهم[4].

واستقبل النَّبيُّ(ﷺ) غدر بني قريظة بالثَّبات، والحزم، واستخدم كلَّ الوسائل الَّتي مِنْ شأنها أن تقوِّي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النَّبيُّ(ﷺ) في الوقت نفسه «سلمة بن أسلم» في مئتي رجلٍ، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدَّت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محمَّلةً تمراً، وشعيراً، وتيناً؛ لتمدَّهم بها، وتقوِّيهم على البقاء، إلا أنَّها أصبحت غنيمةً للمسلمين الَّذين استطاعوا مصادرتها، وأتوا بها إلى النَّبيِّ(ﷺ)[5].

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين، وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتدَّ الكرب على المسلمين، وتأزَّم الموقف، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن حالة الحرج، والتَّدهور، الَّتي أصابت المسلمين، ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزعٍ، وخوفٍ، وفزعٍ في تلك المحنة الرَّهيبة أصدقَ وصفٍ، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ

(1) لحناً: أي: كلاماً لا يفهمه أحدٌ سواي.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (199/3) ، والقرطبي ، تفسير آية (9) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (فصل: في نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق).
(3) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلمفي ذات الرَّجيع.
(4) انظر: البداية والنِّهاية (95/4) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (غزوة الخندق).
(5) انظر: السِّيرة الحلبيّة (323/2).

وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَـــارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ **[الأحزاب: 10، 11]**.

وكان ظنُّ المسلمين بالله قويّاً، وقد سجَّله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَـمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْـلِيمًا ﴾ **[الأحزاب: 22]**.

وأمَّا المنافقون؛ فقد انســحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتَّى قال مُعَتِّب بن قُشـير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى، وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرُّجوع إلى بيوتهم بحجَّة أنَّها عورة ، فقد كان موقفهم يتَّســم بالجبن ، والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت رواياتٌ ضـــعيفةٌ تحكي أقوالهم في السُّخرية، والإرجاف، والتَّخذيل[1].

ولكن القرآن الكريم يتكفَّل بتصوير ذلك أدقَّ تصوير[2]، والآيات هي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْـــتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ۝ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُـــئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً ۝ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِـــيرًا ۝ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَـلَقُوكُمْ بِأَلْسِـنَةٍ حِدَادٍ أَشِـحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ

(1) انظر: المعجم الكبير للطبراني (376/11) ، ومجمع الزوائد (131/6).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (424/2).

أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ **[الأحزاب: 13 -20]**.

إنَّ الآيات السَّابقة أشارت إلى النِّفاق، وما تولَّد عنه من القلق في النُّفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثِّقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللُّجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد؛ بل يتبعه العمل المخَذِّل المرْجِف، فهم يستأذنون الرَّسول(ﷺ) للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحججٍ واهيةٍ زاعمين: أن بيوتهم مكشوفةٌ للأعداء، وإنَّما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم، وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثُّون الآخرين على ترك موقعهم، والرُّجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان، وعهود الإسلام[1].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعدادٍ كبيرةٍ كلَّ ليلةٍ حول الخندق حتَّى الصَّباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعةٍ من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحيةٍ ضيِّقةٍ منه، ويأخذهم على حين غِرَّةٍ، لكنَّ أُسَيْدَ بن حضير في مئتين من الصَّحابة يراقبون تحرُّكاتهم، وقد حصلت مناوشاتٌ استشهد فيها الطُّفَيْل بن النُّعمان، والَّذي قتله وحشيٌّ – قاتل حمزة يوم أحدٍ – رماه بحربةٍ عبر الخندق، فأصابت منه مقتلاً[2]، واستطاع حبَّان بن العَرِقَة، من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله[3]، وقال: خذها وأنا ابن العرقة.

وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللَّهُمَّ! إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً؛ فأبقني لها، فإنَّه لا قومَ أحبُّ إليَّ من أن أجاهد من قومٍ اذوا رسولك، وكذَّبوه، وأخرجوه.

اللَّهُمَّ! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها شهادةً، ولا تميتني حتَّى تقرَّ عيني

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (425/2).

(2) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(424/2).

(3) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة ، إذا قطع لم يرقأ الدم.

من بني قريظة. [أحمد (141/6 - 142)، وابن حبان (7028)].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصَّالح وهو الَّذي سيحكم فيهم، ثمَّ وجَّه المشركون كتيبة غليظةً نحو مقرِّ رسول الله(ﷺ) فقاتلهم المسلمون يوماً إلى اللَّيل، فلـــمَّا حانت صلاة العصر؛ دنت الكتيبة، فلم يقدر النَّبيُّ(ﷺ) ، ولا أحدٌ من أصحابه الَّذين كانوا معه أن يصلُّوا، وشُغِلَ بهمُ النَّبيُّ(ﷺ) ، فلم يصلِّ العصر، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع اللَّيل، فقال رسول الله(ﷺ) : «ملأ الله عليهم بيوتهم، وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى؛ حتَّى غابت الشمس» [البخاري (2931)، ومسلم (627)].

ثالثاً: محاولة النَّبيِّ(ﷺ) تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان، وبثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء:

1 - سياسة النَّبيِّ(ﷺ) في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته(ﷺ) وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذَّات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته، وترجع إلى بلادها، فهو يعلم(ﷺ) : أنَّ غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشـــتراك في هذا الغزو أيَّ هدفٍ سياسيٍّ يريدون تحقيقه أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته، وإنَّما كان هدفهم الأوَّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها، ولهذا لم يحاول الرَّسول(ﷺ) الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الرَّبيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأنَّ هدف أولئك الرَّئيسي لم يكن المال، وإنَّما كان هدفهم هدفاً سياسيّاً، وعقائديّاً يتوقَّف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلاميِّ من الأساس، لذا فقد كان اتصاله «فقط» بقادة غطفان، الَّذين «فعلاً» لم يتردَّدوا في قبول العرض الَّذي عرضه عليهم النَّبيُّ(ﷺ) [1]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النَّبيِّ(ﷺ) ، وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقرِّ

---

(1) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص 201.

قيادة النَّبيّ(ﷺ) ، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحدٌ، وشرع رسول الله(ﷺ) في مفاوضتهم، وكانت تدور حول عرضٍ تقدَّم به رسول الله(ﷺ) يدعو فيه إلى عقد صلحٍ منفردٍ بينه، وبين غطفان، وأهمُّ البنود الَّتي جاءت في هذه الاتفاقيَّة المقترحة:

أ – عقد صلحٍ منفردٍ بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

ب – توادع غطفان المسلمين، وتتوقف عن القيام بأيِّ عملٍ حربيٍّ ضدَّهم (وخاصَّة في هذه الفترة).

ج – تفكُّ غطفان الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها عائدةً إلى بلادها.

د – يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلِّها من مختلف الأنواع، ويظهر: أنَّ ذلك لسنةٍ واحدةٍ[1]، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسول الله(ﷺ) قال لقائدي غطفان: أرأيت إن جعلت لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم، وتخذِّلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف ثمر المدينة، فأبى رسول الله(ﷺ) أن يزيدهما على الثُّلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[2].

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله(ﷺ) من الوجهة العسكريَّة وضوح الهدف الَّذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء، ويحرِّكها في جبهة القتال، ولاشكَّ في أنَّ اختفاء هذا الدَّافع يعني: أنَّ المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال، وبذلك تضعف عنده الرُّوح المعنوية الَّتي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه، وبذلك استطاع(ﷺ) أن يُفتِّت، ويضعف من قوَّة جبهة الأحزاب[3].

وقد أبرز(ﷺ) في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النُّبوة في التَّحرك لفكِّ الأزمات

---

(1) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد باشميل ، ص 201 ، 202.

(2) انظر: المغازي ، للواقدي (477/2) ، والجامع لأحكام القرآن ، للقرطبيّ (آية: 61).

(3) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ص 413.

عند استحكامها، وتأزُّمها؛ لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربويّاً من دروس التَّربية المنهجيَّة عند اشتداد البلاء[1]، وقبل عقد الصُّلح مع غطفان شاور رسولُ الله(ﷺ) الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيُهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة، وقال السَّعدان: سعدُ بن معاذ، وسعدُ بن عبادة: يا رسول الله! أمراً تحبُّه، فنصنعُه، أم شيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعُه لنا؟ فقال: «بل شيءٌ أصنعه لكم، والله! ما أصنع ذلك إلا لأنِّي رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم – أي: اشتدوا عليكم – من كلِّ جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنَّا وهؤلاء على الشِّرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرىً – أي: الطَّعام الَّذي يُصنع للضَّيف – أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزَّنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نعطيهم إلا السَّيف، حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثمَّ قال: ليَجْهدوا علينا. **[ابن هشام (234/3)]**[2].

كان رد زعيمي الأنصار: سعدُ بن معاذ، وسعدُ بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى، والأدب مع النَّبي(ﷺ) وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى، فلا مجال لإبداء الرَّأي بل لابدَّ من التَّسليم، والرِّضا.

والثَّاني: أن يكون شيئاً يحبُّه رسول الله(ﷺ) ، باعتباره رأيه الخاصّ، فرأيه مقدَّمٌ، وله الطَّاعة في ذلك.

الثَّالث: أن يكون شيئاً عمله الرَّسول(ﷺ) لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا

---

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (176/4).

(2) انظر: البداية والنِّهاية (106/4).

هو الَّذي يكون مجالاً للرَّأي.

ولـــمَّا تبيَّن للسَّعدين من جواب الرَّسول(ﷺ) : أنَّه أراد القسم الثَّالث: أجاب سعدُ بن معاذ بجوابٍ قويٍّ، كبت به زعيمي غطفان، حيث بيَّن أنَّ الأنصــار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهليَّة؛ فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسـلام؟! وقد أُعجب النَّبيُّ(ﷺ) بجواب سـعدٍ، وتبيَّن له منه ارتفاع معنويَّة الأنصار، واحتفاظهم بالرُّوح المعنويَّة العالية، فألغى بذلك ما بدأ من الصُّلح مع غطفان[1].

وفي قوله(ﷺ) : «إنِّي قد علمت: أنَّ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ» **[الطبراني في الكبير (5409)، وابن هشام (234/3)، ومجمع الزوائد (131/6)]**[2].

دليلٌ على أنَّ رســـول الله(ﷺ) كان يســـتهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صـــفّاً واحداً، وهذا يرشد المسلمين إلى عدَّة أمورٍ، منها:

- أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.
- أن يكون الهدف الاستراتيجيُّ للقيادة المسلمة تحييد مَنْ تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى، والشُّورى، والمصلحة الانيَّة، والمستقبليَّة للإسلام[3].

وفي اسـتشـارة رسـول الله(ﷺ) للصَّـحابة يتبيَّن لنا أسـلوبه في القيادة، وحرصـه على فرض الشُّـورى في كلِّ أمرٍ عسـكريٍّ يتَّصـل بالجماعة، فالأمر شـورى، ولا ينفرد به فردٌ حتَّى ولو كان هذا الفرد رسول الله(ﷺ) ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد، ولم ينزل به وحيٌ[4].

إن قبول الرسول(ﷺ) رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الـذي يربط بينـه وبين جنـده رباط الثقـة؛ حيـث يعرف قـدرهم ويـدركون قـدره، ويحترم رأيهم

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (125/6).
(2) انظر: البداية والنِّهاية (106/4).
(3) انظر: الأساس في السُّنَّة (687/2).
(4) انظر: العبقريَّة العسكرية في غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 414.

ويحترمون رأيه، ومصـــالحة النبي(ﷺ) مع قائدي غطفان تعد من باب الســـياســـة الشـــرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[1].

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ – أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب – أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله(ﷺ) وبالإسلام.

ج – أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المســـــلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه[2].

2 – اهتمام الرسول(ﷺ) ببث الإشاعات في صفوف الأعداء:

استخدم النَّبي(ﷺ) سـلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضـامن، فلقد كان يعلم(ﷺ) أن هناك تصـدعاً خفيفاً بين صـفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسـع شـقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن سـاق المولى – عز وجل – نُعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسـول الله(ﷺ) ليعلن إسـلامه ويقول له: يا رسـول الله، إن قومي لم يعلموا بإســلامي فمرني بما شــئت. فقال له رســول الله(ﷺ) : إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن اسـتطعت، فإن الحرب خدعة. **[ابن هشـام (240/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (445/3-)]**[3].

فقام نُعيم بزرع الشـــك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رســـول الله(ﷺ) ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصـرف عن الحصـار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب

---

(1) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 414.

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلمص 415 ، 416.

(3) انظر: البداية والنهاية (113/4).

الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية؛ فالحرب خدعة[1].

وقد نجحت دعاية نُعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتثبيط عزمهم، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ – أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نُصح.

ب – أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصَّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول(ﷺ) ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج – أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[2].

* * *

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (430/2).

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 477.

المبحث الثَّالث

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول(ﷺ) ونزول النَّصر:

كان رسول الله(ﷺ) كثير التَّضرُّع والدُّعاء، والاستعانة بالله، وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتدَّ الكرب على المسلمين أكثر ممَّا سبق حتَّى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً، فما كان من المسلمين إلا أن توجَّهوا إلى الرَّسول(ﷺ) وقالوا: يا رسول الله! هل من شيءٍ نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: «نعم، اللَّهمَّ!! استر عوراتنا وامن روعاتنا» [أحمد (3/3)، والبزار (3119)، ومجمع الزوائد (136/10)].

وجاء في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى، قال: دعا رسول الله(ﷺ) على الأحزاب، فقال: «اللَّهمَّ! منزلَ الكتاب، سريعَ الحساب، هازم الأحزاب، اللَّهمَّ! اهزمهم، وزلزلهم». [البخاري (2933)، ومسلم (1742/ 20 و21)].

فاستجاب الله – سبحانه – دعاء نبيِّه(ﷺ) فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوَّته، وزلزل أبدانهم، وقلوبهم، وشتِّت جمعهم بالخلاف، ثمَّ أرسل عليهم الرِّيح الباردة الشَّديدة، وألقى الرُّعب في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

قال القرطبيُّ – رحمه الله -: وكانت هذه الرِّيح معجزةً للنَّبيِّ(ﷺ) ؛ لأنَّ النَّبيَّ(ﷺ) ، والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا

خبر عندهم بها...، بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفسـاطيط[1]، وأطفأت النِّيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضُها في بعضٍ، وأرسل الله عليهم الرُّعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر؛ حتَّى كان سيِّد كلِّ خباءٍ يقول: يا بني فلان! هلمَّ إليَّ، فإذا اجتمعوا؛ قال لهم: النَّجاءَ، النَّجاءَ! لما بعث الله عليهم الرُّعب[2].

وحرَص الرَّسول(ﷺ) أن يؤكِّـد لصحبـه، ثمَّ للمسلمين في الأرض: أنَّ هذه الأحزاب الَّتي تجاوزت عشـرة الاف مقاتلٍ لم تُهزم بالقتال من المسـلمين - رغم تضـحياتهم - ولم تهزم بعبقرية المواجهة، إنَّما هُزمت بالله وحده ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ **[الأحزاب: 9]**.

وعن أبي هريرة رضـي الله عنه: أنَّ رسـول الله(ﷺ) كان يقول: «لا إله إلا الله وحدَه، أعزَّ جنده، ونصـر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شـيءَ بعدَه». **[البخاري (4114)، ومسـلم (2724)]**.

ودعاء رسـول الله(ﷺ) ربَّه، واعتماده عليه وحدَه، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسـباب البشريَّة للنَّصر، فقد تعامل(ﷺ) في هذه الغزوة مع سنَّة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصَار، وغير ذلك من الأمور الَّتي ذكرناها[3].

إنَّ رسـول الله(ﷺ) يعلِّمنا سـنَّة الأخذ بالأسـباب، وضـرورة الالتجاء إلى الله، وإخلاص العبوديَّة له؛ لأنَّه لا تجدي وسـائل القوَّة كلُّها إذا لم تتوفر وسـيلةُ التَّضـرع إلى الله، والإكثار من الإقبال عليه بالدُّعاء، والاستغاثة، فقد كان الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله من الأعمال المتكرِّرة الدَّائمة الَّتي فزع إليها رسولُ الله(ﷺ) في حياته كلِّها[4].

---

(1) الفساطيط: جمع فسطاط نوعٌ من الأبنية في السَّفر ، وهو دون السرادق.
(2) انظر: تفسير القرطبيِّ (144/14) ، وجامع البيان للطَّبريِّ (تفسير سورة الأحزاب).
(3) انظر: فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص 503.
(4) انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص 222.

ثانياً: تحرِّي انصراف الأحزاب:

كان رسول الله(ﷺ) يتابع أمر الأحزاب، ويحبُّ أن يتحرَّى عمَّا حدث عن قربٍ فقال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» [مسلم (1788]، فاستعمل(ﷺ) أسلوب التَّرغيب، وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم، والحزم في الأمر، فعيَّن واحداً بنفسه، فقال: «قم يا حذيفة! فائتنا بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهُم عليَّ» [مسلم (1788)].

وفي هذا معنىً تربويٌّ وهو أنَّ القيادة النَّاجحة هي الَّتي توجِّه جنودها إلى أهدافها عن طريق التَّرغيب، والتَّشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر، والحزم إلا عند الضَّرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنَّما أمشي في حَمَّامٍ، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنَّار - أي: يدفئه، ويدنيه منها - فوضعت سهماً في كبد القوس، وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله(ﷺ) : «لا تَذْعَرْهُمْ عليَّ»، ولو رميتُه لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام، فأتيت رسول الله(ﷺ) ، وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله(ﷺ) ، وألبسني فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها، فلم أَزَلْ نائماً حتَّى أصبحت، فلمَّا أصبحت، قال رسول الله(ﷺ) : «قم يا نومان!». [مسلم (1788)].

ويؤخذ من قصَّة حذيفة دروسٌ، وعبرٌ منها:

1 - معرفة رسول الله(ﷺ) بمعادن الرِّجال؛ حيث اختار حذيفة؛ ليقوم بمهمَّة التَّجسس على الأحزاب، وأنَّ معدن حذيفة معدنٌ ثمينٌ، فهو شجاعٌ، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعةٍ نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبقٌ ذكيٌّ خفيف الحركة، سريع التخلُّص من المازق الحرجة.

2 - الانضباط العسكريُّ الَّذي كان يتحلَّى به حذيفة؛ فلقد مرَّت به فُرصةٌ سانحةٌ يستطيع أن يقتل فيها قائد الأحزاب، وهَمَّ بذلك، ولكنَّه ذكر أمر الرَّسول(ﷺ) ألا يَذْعَرَهُمْ،

وأنَّ مهمَّته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه(1).

3 – كرامات الأولياء: إنَّ ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جوٍّ باردٍ ماطرٍ شديد الرِّيح وإذا به لا يشعر بهذا الجوِّ البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمَّامٍ، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتَّى عودته إلى معسكر المسلمين، لاشك هذه كرامةٌ يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين(2).

4 – لطف النَّبيِّ(ﷺ) مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان(ﷺ) يترفَّق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة اللَّيل، وحلاوة المناجاة من التلطُّف بحذيفة الَّذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمِّها، فشمله بكسائه الَّذي يصلِّي فيه؛ ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتَّى أتمَّ صلاته، بل حتَّى بعد أن أفضى إليه بالمهمَّة، فلـمَّا وجبت المكتوبة؛ أيقظه بلطفٍ، وخفَّةٍ، ودُعابةٍ، قائلاً: «قم يا نومان!» دُعابة تقطر حلاوةً، وتفيض بالحنان، وتسيل رقَّةً، إنَّها صورةٌ نموذجيَّةٌ للرَّأفة، والرَّحمة، اللَّتين تحلَّى بهما فؤاد الرَّسول(ﷺ) ، وتطبيقٌ فريدٌ رفيعٌ لهما في أصحابه الكرام(3) وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

5 – وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصَّحابيِّ الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزُّرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الَّذي على يميني، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثمَّ ضربت بيدي على يد الَّذي عن شمالي، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص....(4).

وهكذا بَدَرَهُم بالمسألة حتَّى لا يتيح لهم فرصةً ليسألوه، وبهذا تخلَّص من هذا المأزِق الحرج الَّذي ربما أودى بحياته(5).

---

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبوية، للغضبان، ص 505، السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 367.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 367.
(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 246.
(4) انظر: شرح الزُّرقاني (120/2).
(5) انظر: من معين السِّيرة، ص 293.

ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب، ونتائجها:

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب، وردَّ الأمر كلَّه لله سبحانه، وقد سجَّل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب، وبني قريظة، والقرآن كعهدنا به يُسَجِّل الخالدات الَّتي تسع الزَّمان، والمكان، فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم، في عواصم بلدانهم، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً، فإذا كان القرآن قد سجل حادثتي الأحزاب، وبني قريظة، فذلك من سمة التَّكرار على مدى العصور[1]؛ لكي يستفيد المسلمون من الدُّروس والعبر من الحوادث السَّابقة الَّتي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص، والَّذي يتدبَّر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمورٍ، من أهمِّها ما يلي:

1 - تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ **[الأحزاب: 9]**.

2 - التَّصوير البديع لما أصاب المسلمين من همٍّ بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ **[الأحزاب: 10]**.

3 - الكشف عن نوايا المنافقين السَّيئة، وأخلاقهم الذَّميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة، ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ **[الأحزاب: 12]**.

4 - حضُّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ على التأسِّي برسول الله(ﷺ) ، في أقواله، وأفعاله، وجهاده، وكلِّ أحواله، استجابةً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ **[الأحزاب: 21]**.

---

(1) انظر: الأساس في السُّنَّة (662/2).

5 – مدح المؤمنين على مواقفهم النَّبيلة، وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمانٍ صادقٍ، ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 23].

6 – بيان سنَّةٍ من سنن الله الَّتي لا تتخلَّف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: 25].

7 – امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين؛ حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتالٍ يُذْكَر، حيث ألقى – سبحانه – الرُّعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله، ورسوله(ﷺ) [1]، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: 26 – 27].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات المهمَّة الَّتي خاضها المسلمون ضدَّ أعدائهم وحقَّقوا فيها نتائج مهمَّةً منها:

- انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم، وتفرُّقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم، قد خابت أمانيهم، واماالهم.
- غيُّر الموقف لصالح المسلمين؛ فانقلبوا من موقف الدِّفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ(ﷺ) حيث قال: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم». [البخاري (4110)، وأحمد (262/4، و394/6)].
- كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة، وحقدهم على المسلمين، وتربُّص الدَّوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النَّبيّ(ﷺ) في أحلك الظُّروف، وأصعبها.

(1) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(490/2 ، 491).

❖ كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين، وحقيقة المنافقين، وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين، وإظهاراً لحقيقة المنافقين، واليهود.

❖ كانت غزوة بني قريظة نتيجةً من نتائج غزوة الأحزاب؛ حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الَّذين نقضوا العهد مع النَّبيِّ(ﷺ) في أحلك الظُّروف، وأقساها[1].

رابعاً: التَّخلُّص من بني قريظة:

بعد عودة النَّبيِّ(ﷺ) من الخندق، ووضعِه السِّلاح أمر الله تعالى نبيَّه(ﷺ) بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب(ﷺ) أصحابه بالتوجُّه إليهم، وقد أعلمهم بأنَّ الله تعالى قد أرسل جبريل؛ ليزلزل حصونهم، ويقذف في قلوبهم الرُّعب، وأوصاهم بأن «لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» **[البخاري (4119)، ومسلم (1770)]**.

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلةً[2]، ولـمَّا اشتدَّ الحصار، وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام، والنُّزول على أن يحكِّم الرَّسول(ﷺ) فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، ونزلوا على حكمه، ورأوا: أنَّه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعدٍ محمولاً؛ لأنَّه كان قد أصابه سهمٌ في ذراعه يوم الخندق، فقضى أن تُقتل المقاتِلة، وأن تُسبى النِّساء والذُّرِّيَّة، وأن تُقسم أموالهم، فأقرَّه رسول الله(ﷺ) وقال: «قضيت بحكم الله» **[البخاري (3043 و4122)، ومسلم (64/1768)]**.

ونفَّذ حكم الإعدام في أربعمئةٍ في سوق المدينة، حيث حفرت أخاديد، وقتلوا فيها بشكل مجموعاتٍ، وقد نجت مجموعةٌ قليلةٌ جدّاً بسبب وفائها للعهد، ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالُهم، وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاءٌ عادلٌ نزل بمن أراد الغدر، وتبرَّأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس

---

(1) المصدر السابق نفسه (442/2).

(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 373.

عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنَّهب، ونساءهم، وذراريهم للسَّبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً[1].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدةٌ، ونترك السَّيدة عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا عنها قالت السَّيدة عائشة: لم يُقتل مِنْ نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت: والله! إنَّها لعندي، تتحدث معي، تضحك ظهراً، وبطناً[2]؛ ورسولُ الله(ﷺ) يقتل رجالها بالسُّوق؛ إذ هتف هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله! قالت: قلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أقتل. قلت: ولِمَ؟ قالت: لحدثٍ أحدثتُه[3]. قالت: فانطلق بها، فضُربت عنقها، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله! ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عَرَفَتْ: أنَّها تُقتل. [أحمد (277/6)، وأبو داود (2671)][4].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهوديّ، وصارت خالصةً للمسلمين، وخلت الجبهة الدَّاخلية من عنصرٍ خطرٍ، لديه القدرة على المؤامرة، والكيد، والمكر، واضمحل حلم قريش؛ لأنَّها كانت تعوِّل، وتؤمِّل في يهود بأن يكون لهم موقف ضدَّ المسلمين، وابتعد خطر اليهود الَّذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التَّحريض والقوَّة[5].

إنَّ حماية الجبهة الدَّاخليَّة للدَّولة الإسلاميَّة من العابثين منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، رسمه الحبيب المصطفى(ﷺ) للأمَّة المسلمة.

* * *

(1) انظر: السَّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (315/1، 316، 317).
(2) ظهراً وبطناً: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.
(3) طرحت الرَّحا على خلاَّد بن سويد رضي الله عنه، فقتلها رسول الله صلى الله عليه وسلمبه.
(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 377، ومختصر سيرة ابن هشام (30/2)، والبداية والنِّهاية لابن كثير (فصل: في غزوة بني قريظة).
(5) انظر: سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، دروزة (76/2) نقلاً عن دراسات في عهد النَّبوة، للشجاع، ص 153.

المبحث الرَّابع

فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ

أولاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله(ﷺ) :

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزاتٌ حسِّيَّة للنَّبيِّ(ﷺ) ، منها تكثير الطَّعام؛ الَّذي أعدَّه جابر بن عبد الله، فعن جابرٍ رضي الله عنه قال: إنَّا يوم الخندق مُحفر[1]، فعرضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ، فجاؤوا النَّبيَّ(ﷺ)، فقالوا: هذه كديةٌ عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازلٌ» ثمَّ قام، وبطنه معصوبٌ بحجرٍ، ولبثنا ثلاثة أيَّامٍ لا نذوق ذواقاً، فأخذ النَّبيُّ(ﷺ) المِعْوَل، فضرب في الكُدْيَةِ، فعادت كثيباً أهيل[2] أو أهيم[3].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنَّبيِّ(ﷺ) شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ؛ فعندك شيءٌ؟ فقالت: عندي شعير، وعَناقٌ[4] فذبحتُ العَناق، وطحنتُ الشَّعير، حتى جعلنا اللَّحم بالبُرمة[5]، ثمَّ جئت النَّبيَّ(ﷺ) والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافِيّ[6]، قد كادت أن تنضجَ، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله! ورجل، أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثيرٌ طيِّب» قال: «قل لها: لا تنزع البُرمة، ولا الخبز من التَّنُّور حتَّى آتي».

فقال: قوموا، فقام المهاجرون، والأنصار، فلـمَّا دخل على امرأته، قال: ويحك! جاء النَّبيُّ(ﷺ) بالمهاجرين، والأنصار، ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، قال: «ادخلوا،

---

(1) محفر: اسم فاعل من حفَّر.
(2) أهيل: رملاً سائلاً ، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (289/5).
(3) أهيم: الرَّمل الَّذي لا يتمالك ، وانظر: لسان العرب (858/3).
(4) العناق: الأنثى من أولاد الماعز ، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (310/3).
(5) البرمة: هي القدر مطلقاً ، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (121/1).
(6) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها ، وانظر: القاموس المحيط (120/3).

ولا تضاغطوا»[1]، فجعل يَكْسِر الخبز، ويجعل عليه اللَّحم ، ويخمِّر البُرمة والتَّنُّور إذا أخذ منه ، ويقرِّب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يَكْسِر الخبز، ويغرف حتَّى شبعوا، وبقي بقيَّةٌ، قال: «كلي هذا، وأهدي؛ فإنَّ الناس أصابتهم مجاعةٌ». [البخاري (4101)، والبيهقي في دلائل النبوة (423/3)].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمِّي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنةً من تمرٍ في ثوبي، ثمَّ قالت: أيْ بُنَيَّة! اذهبي إلى أبيك، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتُها، فانطلقت بها فمررت برسول الله(ﷺ) وأنا ألتمس أبي، وخالي، فقال: «تعالَيْ يا بنية! ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله! هذا تمرٌ بعثتني به أمِّي إلى أبي بشير بن سعدٍ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذَّيانه. قال: «هاتيه!» قالت: فصببته في كفَّيْ رسول الله(ﷺ) فما ملأتهما، ثمَّ أمر بثوبٍ، فبُسط له، ثمَّ دعا بالتَّمر عليه، فتبدَّد فوق الثوب، ثمَّ قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق: أن هلمَّ إلى الغذاء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنَّه ليسقط من أطراف الثَّوب. [ابن هشام (228/3 – 229)، والبيهقي في دلائل النبوة (427/3)].

ففي هذين الخبرين معجزاتٌ حسِّيَّة ظاهرة للرسول(ﷺ) ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقلَّ عنهم القوت، وأصاب النَّاس جوعٌ، وحرمانٌ، حتَّى كان رسول الله(ﷺ) والمسلمون معه يشدُّون على بطونهم الحجارة من شدَّة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطَّعام[2].

ومن دلائل النُّبوة في أثناء حفر الخندق، إخباره(ﷺ) عمَّار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأنَّه ستقتله الفئة الباغية [البخاري (447)، ومسلم (2915)]؛ فقتل في صفِّين وكان في

(1) ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا ، وانظر: لسان العرب (537/2).
(2) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص 175.

جيش عليٍّ[1].

وعندما اعترضت صخرةٌ الصَّحابة وهم يحفرون، ضربها الرَّسول(ﷺ) ثلاث ضربات، فتفتَّتت، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشَّام، والله! إنِّي لأبصر قصورها الحمراء السَّاعة». ثمَّ ضربها الثانية، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، والله! إنِّي لأبصر قصر المدائن أبيض» ثمَّ ضرب الثَّالثة، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله! إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه السَّاعة». [أحمد (303/4)، وأبو يعلى (1685)، والبيهقي في دلائل النبوة (421/3)، ومجمع الزوائد (130/6)][2].

وقد تحقَّقت هذه البشارة الَّتي أخبرت عن اتِّساع الفتوحات الإسلاميَّة، والإخبار عنها في وقتٍ كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاقَّ، والخوف، والجوع، والبرد القارس[3].

ثانياً: بين التَّصوُّر، والواقع:

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله! أرأيتم رسول الله، وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخي! قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنَّا نجهد، قال: فقال: والله! لو أدركناه، ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يابن أخي! والله لقد رأيتُنا مع رسول الله(ﷺ) ، بالخندق[4]... ثمَّ ذكر حديث تكليفه بمهمَّة الذَّهاب إلى معسكر المشركين. [سبق تخريجه].

هذا تابعيٌ يلتقي بالصَّحابيِّ حذيفة، ويتخيَّل: أنَّه لو وجد مع رسول الله(ﷺ) ؛ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصَّحابة الكرام، والخيال شيءٌ، والواقع شيءٌ آخر، والصَّحابة رضي الله

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 448.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 449.
(3) انظر: نضرة النَّعيم (325/1).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (255/3).

عنهم بشـرٌ، لهم طاقات البشـر، وقدراتهم، وقد قدَّموا كلَّ ما يسـتطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس، فضـلاً عن المال والجهد، وقد وضـع(ﷺ) الأمور في نصـابها بقوله: «خير القرون قرني» [البخاري (6429)، ومسلم (2533)] فبيَّن: أن عملهم لا يعدله عملٌ.

إنَّ الذين جاؤوا من بعدُ، فوجدوا سـلطان الإسـلام ممتدّاً، وعاشـوا في ظلِّ الأمن، والرَّخاء، والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجةٍ إلى نقلةٍ بعيدةٍ يسـتشـعرون من خلالها أجواء الماضي بكلِّ ما فيه من جهالاتٍ، وضلالاتٍ، وكفرٍ... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصَّحابة حتَّى قام الإسلام في الأرض[1].

ثالثاً: سلمان منا أهل البيت[2]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سـلمان منَّا، وقالت الأنصـار: سـلمان منَّا، فقال رسـول الله(ﷺ) : «سـلمان منَّا أهل البيت» [الحاكم (598/3)، والطبراني في المعجم الكبير (261/6)، وابن هشـام (235/3) ومجمع الزوائد (130/6)]، وهذا الوسـام النَّبويُّ الخالد لسـلمان يشـعر بأنَّ سـلمان من المهاجرين؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين[3].

رابعاً: الصَّلاة الوسطى:

قال(ﷺ) : «ملأ الله عليهم بيوتهم، وقبورهم ناراً، كما شـغلونا عن الصَّـلاة الوسـطى حتَّى غابت الشَّمس» [سبق تخريجه].

وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الحديث على كون الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصـوصٌ عليه، وألزم القاضـي الماورديُّ مذهب الشَّـافعي بهذا لصـحَّة الحديث، وقد اسـتدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الصَّـنيع على جواز تأخير الصَّـلاة لعذر القتال، كما هو مذهب

(1) انظر: من معين السِّيرة، للشَّامي، ص 291.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (247/3).
(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (108/6).

مكحولٍ، والأوزاعيّ[1].

قال الدُّكتور البوطي: لقد فاتت النَّبيّ(ﷺ) صلاةُ العصر، كما رأيت في هذه الموقعة؛ لشدَّة انشغاله، حتَّى صلاَّها قضاءً بعدما غربت الشَّمس، وفي رواياتٍ أخرى غير الصَّحيحين: أنَّ الذي فاته أكثرُ من صلاةٍ واحدةٍ، صلاَّها تباعاً بعدما خرج وقتُها، وفرغ لأدائها، وهذا يدلُّ على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدَّلالة ما ذهب إليه البعض من أنَّ تأخير الصَّلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك، ثمَّ نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً، وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين؛ إذ النَّسخ على فرض صحَّته ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنَّما هو وارد على صحَّة تأخير الصَّلاة بسبب الانشغال، أي: أنَّ نسخ صحَّة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً، بل هي مسكوتٌ عنها، فتبقى على مشروعيَّتها السَّابقة[2].

خامساً: الحلال والحرام:

عَرَضَتْ قريشٌ فداءً مقابل جثَّة عمرو بن عبد ودٍّ، فقال(ﷺ) : «ادفعوا إليهم جيفته فإنَّه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية، فلم يقبل منهم شيئاً». **[أحمد (248/1)، وابن هشام (265/3)]**.

حدث هذا والمسلمون في ضنكٍ من العيش، ومع ذلك فالحلال حلالٌ والحرام حرامٌ، إنَّها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من النَّاس المحسوبين على المسلمين الَّذين يحاولون إيجاد المبرّرات لأكل الرِّبا، وما شابهه؟![3].

---

(1) انظر: الأساس في السُّنَّة (682/2).
(2) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص 223.
(3) انظر: من معين السِّيرة ، ص 294.

سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّة الرَّسول(ﷺ) :

كان(ﷺ) قد وضع النِّساء، والأطفال في حصن فارعٍ، وهو حصنٌ قويٌّ؛ حمايةً لهم، لأنَّ المسلمين في شغلٍ عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب ، فعندما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله(ﷺ)

أرسلت يهوديّاً ليستطلع وضع الحصن الَّذي فيه نساء المسلمين ، وأطفالهم، فأبصرته صفيَّة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله(ﷺ) ، فأخذت عموداً، ونزلت من الحصن، فضربته بالعمود، فقتلته، فكان هذا الفعل من صفيَّة رادعاً لليهود من التَّحرُّش بهذا الحصن الَّذي ليس فيه إلا النِّساء، والأطفال، حيث ظنَّت يهود بني قريظة: أنَّه محميٌّ من قبل الجيش الإسلاميِّ، أو أنَّ فيه على الأقلِّ مَنْ يدافع عنه من الرِّجال[1]، ففي هذا الخبر دليلٌ للمرأة في الدِّفاع عن نفسها؛ إن لم تجد مَنْ يدافع عنها[2].

سابعاً: عدم صحَّة ما يروى عن جبن حسَّان رضي الله عنه:

وفي قصَّة صفيَّة عمَّة رسول الله(ﷺ) وقتْلِها لليهوديّ جاءت روايةٌ سندها ضعيفٌ[3]؛ أنَّ صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابتٍ: إنَّ هذا اليهودي يُطِيف بالحصن، كما ترى، ولا امنه أن يدلَّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شُغِل عنَّا رسولُ الله(ﷺ) وأصحابه، فانزِلْ إليه، فاقتُلْه. فقال: يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب! والله! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا؟ قالت صفيَّة رضي الله عنها: فلـمَّا قال ذلك، احتجزت عموداً ثمَّ نزلت من الحصن إليه، فضربتُه بالعمود حتَّى قتلتُه، ثم رجعت الحصن، فقالت: يا حسان! انزل فاستلِبْه، فإنَّه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنَّه رجلٌ، فقال: ما لي بسلبه من حاجةٍ يا بنت عبد المطلب! **[ابن هشام (239/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (442/3 – 443)]**[4].

(1) انظر: الرَّحيق المختوم ، ص 283 ، 284.
(2) انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (246/2).
(3) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 365.
(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 365.

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

1 - من حيث الإسناد، فالخبر ليس مسنداً، وهو ساقطٌ لا يصحُّ، ولا يجوز أن يروى، فيساء إلى صحابيٍّ من صحابة رسول الله(ﷺ) ، كان ينافح عن الدَّعوة، وعن رسول الله(ﷺ) عُمُرَهُ كلَّه.

2 - لو كان حسّان بن ثابت رضي الله عنه معروفاً بالجبن؛ الَّذي ذكر عنه؛ لهجاه أعداؤه، ومبغضوه بهذه الخصلة الذَّميمة، لاسيَّما الَّذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحدٌ من زعماء الجاهليَّة، والرَّسول(ﷺ) كان يؤيّده، ويدعو له، ويشجِّعه على هجاء زعماء المشركين[1].

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرَّسول صلوات الله وسلامُه عليه خيمةً في مسجده الشَّريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر(ﷺ) أن تكون رُفَيْدة الأسلميَّة الأنصاريَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبويِّ الحربيِّ، وبذلك أصبحت أوَّل ممرِّضةٍ عسكريَّةٍ في الإسلام[2]، وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: وكان(ﷺ) قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ به ضيعةٌ من المسلمين، وكان(ﷺ) قد قال لقومه حين أصابه السَّهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتَّى أعوده من قريب...» **[ابن هشام (250/3)، والطبري في تفسيره (152/21)]**.

ويفهم من النَّص السَّابق أنَّ مَنْ أصيب من المسلمين، إن كان له أهلٌ؛ اعتنى به أهلُه، وإن لم يكن له أهلٌ؛ جيء به إلى المسجد؛ حيث ضُربت خيمةٌ فيه لمن كانت به ضيعةٌ من المسلمين، وسعدُ بن معاذ الأوسيُّ ليس به ضيعةٌ، ولكن لـمَّا أراد الرَّسول(ﷺ) الاطمئنان عليه

---

(1) انظر: غزوة الأحزاب، للدُّكتور أبو فارس.

(2) انظر: المستشفيات الإسلاميَّة، للدُّكتور عبد الله السَّعيد، ص 43.ك

باستمرارٍ، جعله في تلك الخيمة الَّتي أعدَّت لمن به ضيعةٌ، وليس له أهل؛ ذلك: أنَّ هؤلاء هم في رعاية رسول الله(ﷺ) ، وإلا فلِمَ ضُربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أيّ مكانٍ آخر!

إنَّ سعد بن معاذ يكرَّم لماثره، وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التَّكريم أن يجعل في خيمةٍ أعدَّت لمن به ضيعةٌ، وهكذا حينما يرتفع السَّادة يجعلون مع المغمورين الَّذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى، فاستحقُّوا أن يكونوا في رعاية رسول الله(ﷺ) [1]، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزَّمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر - وكانوا حلفاءه - فاستشاروه في النُّزول على حكم رسول الله(ﷺ) ، فأشار إلى حلقه - يعني الذَّبح - ثمَّ ندم فتوجَّه إلى مسجد النَّبيّ(ﷺ) ، فارتبط به حتَّى تاب الله عليه، وقد ظلَّ مرتبطاً بالجذع في المسجد ستَّ ليالٍ تأتيه امرأتُه في وقت كلِّ صلاةٍ فتحلُّه للصَّلاة، ثمَّ يعود، فيرتبط في الجِذْع[2].

وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتَّى يتوب الله عليَّ ممَّا صنعتُ. قالت أمُّ سلمة: فسمعت رسول الله(ﷺ) من السَّحر وهو يضحك، فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله؟! أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك، قال: «تِيبَ على أبي لبابة» قالت: قلت: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟! قال: بلى؛ إن شئتِ، فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب عليهنَّ الحجاب - فقالت: يا أبا لبابة؟ أبشر فقد تاب الله عليك!

قالت: فثار النَّاس؛ ليطلقوه، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله(ﷺ) هو الَّذي يُطلقني بيده. فلمَّا مرَّ عليه رسول الله(ﷺ) خارجاً إلى صلاة الصُّبح؛ أطلقه[3] عنه [ابن هشام (247/3

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 294.

(2) انظر: المستفاد من قصص القران (286/2).

(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (165/6).

– 248)، والبيهقي في دلائل النبوة (16/4 – 17)]، وذلك في الاعتراف بالذَّنب، والتَّوبة النَّصــــوح، وإنَّ موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصـــرُّف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزَّلَّة الَّتي أفشــى بها ســرّاً حربيّاً خطيراً، فأبو لبابة لم يحاول التَّكتُّم على ما بدر منه، والظُّهور أمام رســول الله(ﷺ) والمســـلمين بمظهر الرَّجل الذي أدى مهمَّته بنجاحٍ، وأنَّه لم يحصـــل منه شـــيءٌ من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر، حيث لم يطَّلع عليه أحد من المســـلمين، وأن يســتكتم اليهود أمره، ولكنَّه تذكَّر رقابة الله عليه، وعلمه بما يُسِــرُّ، ويُعلن، وتذكَّر حقَّ رســول الله(ﷺ) العظيم عليه، وهو الَّذي ائتمنه على ذلك السِّرِّ، ففزع لهذه الزَّلَّة فزعاً عظيماً(1)، وأقرَّ بذنبه، واعترف به، وبادر إلى العقوبة الذَّاتيَّة التلقائيَّة، دون انتظار التَّحقيق، وتوقيع العقوبة الواجبة: إنَّها صــورةٌ تطبيقيَّةٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّــوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 17].

إنَّها صــورةٌ فريدةٌ لتوقيع العقوبة من الإنســان نفسِــه على نفسِــه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا مِنْ آثار الإيمان العميق الرَّاسـخ، الَّذي لا يرضـى لصـاحبه أن يخالطه إثمٌ، أو فسوقٌ.

وقد فرح الصَّـحابة، وفرح النَّبيُّ(ﷺ) نفســه بتوبة الله على أبي لبابة، وتســابقوا إلى تهنئته، حتَّى كانت أمُّ ســـلمة زوج النَّبيِّ(ﷺ) هي الَّتي بادرت بالتهنئة بعد الإذن، فبشَّـــرته بقبول الله توبته[1].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُــولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 27].

ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 102][2].

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويّ في المدينة ، ص 261.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (262/3).

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرةٌ، تدلُّ على فضله، ومنزلته عند الله ورسوله(ﷺ) ؛ منها:

- اســـتجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللَّهمَّ إنَّك تعلم: أنَّه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قومٍ كذَّبوا رســـولك(ﷺ) ، وأخرجوه، اللَّهم! فإن بقي من حرب قريش شــيءٌ؛ فأبقني له حتَّى أجاهدهم فيك) وقد اســتُجيب دعاؤه فتحجَّر جرحُه، وتماثل للشِّـفاء[1] حتَّى كانت غزوة بني قريظة، وجعل رســـولُ الله(ﷺ) الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحقِّ، ولم تأخذه في الله لومةُ لائم، وهذا دليلٌ على تجرُّد قلبه للهِ تعالى[2].

ومن إكرام رسول الله(ﷺ) له قوله للأنصار عندما جاء سعدٌ للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم». **[البخاري (3043 و4122)، ومسلم (64/1768)]**[3].

وهذا تكريمٌ لسعدٍ، وتقديرٌ لشجاعته، حيث سمَّاه سيِّداً، وأمر بالقيام له[4].

وعندما نفَّذ حكم الله في يهود بني قريظة؛ رفع سعدٌ يده يدعو الله ثانيةً، يقول: اللَّهمَّ! فإنِّي أظنُّ أنَّك قد وضــعت الحرب بيننا وبينهم - يعني قريشــاً والمشــركين - فإنْ كنت قد وضــعت الحرب بيننا وبينهم فافجر جرحي، واجعل موتتي فيها **[ســبق تخريجه]**[5]، وقد اســـتُجيب دعاؤه، فانفجر جرحُه تلك اللَّيلة، ومات رحمه الله[6]!

ومن خلال دعـائـه الأوَّل، والثَّـاني نلحظ هـذا الـدُّعـاء العجيـب، دعـاء العظمـاء، الَّـذين يعرفون: أنَّ رسـالتهم في الحياة ليسـت الاستشـهاد فقط؛ بل متابعة الجهاد إلى اللَّحظة الأخيرة،

---

(1) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص 228.
(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (170/6).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (263/3).
(4) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 265.
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (275/3).
(6) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص 228.

فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه، وأمَّته[1].

ونرى من سيرته: أنَّه لو أقسم على الله؛ لأبرَّه، فهو وجيهٌ في السَّموات، والأرض، فقد شاءت إرادة المولى – تعالى – أن يعيد الأمر في بني قريظة كلَّه إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحُكْمُ فيهم لسعدِ بن معاذٍ رضي الله عنه.

إنَّه لا يحرص كثيراً على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسؤوليَّة، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من النَّاس، فإذا انتهت الحرب، ووُضِعت بين المسلمين، وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدأ قطف الثِّمار للإسلام، فلا ثمرة أشهى عنده من الشَّهادة (فافجر جرحي، واجعل موتتي فيه)[2].

وقد تحقَّقت اماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وهاهو جرحُه ينفجر[3].

وعندما انفجر جرحه نقله قومُه، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله(ﷺ) فقال: «انطلقوا»، فخرج وخرج معه الصَّحابة، وأسرع حتى تقطَّعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم، فشكا إليه أصحابه ذلك، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «إنِّي أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة»، فانتهى إلى البيت، وهو يُغسل، وأمُّه تبكيه، وتقول:

وَيْلُ أمِّ سَعْدٍ سَعْدا ... حَزَامَةً وَجَدّا

فقال: كلُّ نائحةٍ تكذب إلا أمَّ سعدٍ»، ثمَّ خرج به قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله! ميتاً أخف علينا منه! قال: «وما يمنعه أن يخفَّ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، ولم يهبطوا قطُّ قبل يومهم قد حملوه معكم». **[ابن هشام (264/3)، والألباني في الصحيحة (1158)]**[4].

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (70/3).
(2) انظر: التَّربية القياديَّة (71/4).
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) انظر: سير أعلام النُّبلاء (287/1).

وقد جاء في النَّسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عددُ الملائكة الَّذين شاركوا في تشييع جنازة سعد، فقد قال(ﷺ) : «هذا العبد الصَّالح الَّذي تحرَّك له العرش، وفُتحت له أبواب السَّماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّة، ثمَّ أفرج عنه» [النسائي (101/4)][1] يعني: سعداً.

وها هو رسول الله(ﷺ) يودِّع سعداً كما رَوَى عبد الله بن شدَّاد: دخل رسول الله(ﷺ) وهو يكيد نفسه، فقال: «جزاك الله خيراً من سيِّد قومٍ، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك. [ابن أبي شيبة (322/5) و(145/12)][2].

لقد أثنى النَّبيُّ(ﷺ) على هذا العبد الصَّالح بعد موته كثيراً أمام الصَّحابة ؛ ليتعرَّف النَّاس على أعماله الصَّالحة، فيتأسَّوا به[3]، فقد قال(ﷺ) : «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموت سعد بن معاذ» [البخاري (3803)، ومسلم (2466/123 و124)].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أُهْدِيَتْ لرسول الله(ﷺ) حلَّةُ حريرٍ، فجعل أصحابه يلمسونه، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خيرٌ منها، وألين». [البخاري (3802)، ومسلم (126/2468)].

ومع كلِّ هذه الماثر، والمحاسن، والأعمال الجليلة الَّتي قدَّمها لخدمة دين الله، فقد تعرَّض لضمَّة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعدٍ رضي الله عنه نزل فيه أربعةٌ: الحارث بن أوس، وأُسَيْد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله(ﷺ) واقفٌ، فلمَّا وضع في قبره تغيَّر وجه رسول الله(ﷺ) ، وسبَّح ثلاثاً، فسبَّح المسلمون؛ حتَّى ارتجَّ البقيع، ثمَّ كبَّر ثلاثاً، وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر، وضمَّ ضمَّةً لو نجا منها

---

(1) انظر: سير أعلام النُّبلاء (295/1) وإسناده صحيحٌ.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (288/1) ورجاله ثقات.

(3) انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (171/6).

أحدٌ؛ لنجا هو، ثمَّ فرَّج الله عنه». [سبق تخريجه][1].

إنَّ هذا الصَّحابيَّ الجليل قد استُشْهِدَ وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السَّابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته، وهذا يعني أنَّه قاد قومه إلى الإســـلام، وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السِّيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنَّما تتفجَّر الطَّاقات الكامنة، والمواهب بعد سنِّ الأربعين، الَّتي هي غاية الأَشُدِّ.

قــال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: 15].

فأيُّ طرازٍ هذا الَّذي حفل تاريخه بهذه الماثر، واستبشر أهل السَّمواتِ بقدومه، واهتزَّ عرش الرَّحمن فرحاً لوفاته من دون خلق الله أجمعين![2] كان سعد بن معاذ رجلاً أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللِّحية[3] رحمة الله عليه، ورضي عنه، وأعلى ذكره في المصلحين.

حادي عشر: مقتل حيي بن أخطب، وكعب بن أسد:

1 – مقتل حيي بن أخطب النَّضْرِيِّ:

روى عبد الرزَّاق في مصنَّفه بالسَّند إلى سعيد بن المسيِّب.... فذكر بعض خبر الأحزاب، وقريظة... إلى

أن قال: فلمَّا فضَّ الله جموع الأحزاب؛ انطلق – يعني: حيي – حتَّى إذا كان بالرَّوحاء ذكر العهد، والميثاق الَّذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلــــمَّا أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (77/4) نقلاً عن مسند الإمام أحمد (141/6).
(2) انظر: القيادة الرَّبانيَّة (87/4).
(3) انظر: سير أعلام النُّبلاء (290/1).

بعدُ، فقال حُيَيٌّ للنَّبيّ(ﷺ) : أما والله ما لمت نفسـي في عداوتك، ولكنَّه من يَخْذِلِ اللهُ يُخْذَل، فأمر به النَّبيُّ(ﷺ) ، فَضُـرِبَتْ عنقُه. [عبد الرزاق في المصنف (9737)، وابن هشـام (252/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (23/4)][1].

ثمَّ إنَّه أقبل على النَّاس قبل تنفيذ حكم الإعدام، وقال لهم: أيُّها النَّاس! إنَّه لابأس بأمر الله، كتابٌ وقَدَرٌ، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل، ثمَّ جلس، فضربت عنقُه[2].

وفي مقتل حييّ بن أخطب دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

أ – لا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله:

فقد ألَّب القبائل العربيَّة، واليهوديَّة على محاربة الإســلام، ونبيّه(ﷺ) ، وأقنع بني قريظة بضـرورة نقض العهد مع الرَّسـول(ﷺ) وطعنه من الخلف، فجعل اللهُ كيدَه في نحره، وكبته، وفي النِّهاية قادته محاولاتُه إلى حتفه.

إنَّ الله لا يُهمِل الظَّالمين، ولكن يُمهِلُهم ويَسـتدرِجُهم، حتَّى إذا أخذهم؛ أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر، فكان أخذه أليماً شـديداً، قال(ﷺ) : «إنَّ الله ليملي للظَّالِم حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» [البخاري (4686)][3] ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: 102].

ب – التَّجلُّد في مواطن الشِّدَّة:

لقد تجلَّد حييٌّ وتقدَّم لتضـرب عنقه؛ حتَّى لا يشـمت فيه شـامتٌ، وهو يعرف: أنَّه على باطلٍ، ظالمٌ لنفسـه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزَّة بالإثم تأخذه إلى جهنَّم وبئس المصـير؛ لأنَّه يعبد هواه، ولم يعبد ربَّه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

---

(1) القرطبي آية (9) من سورة الأحزاب ، والطَّبري ، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (265/3) ، والقرطبي آية (9) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة ، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد رضا.

(3) انظر: الصِّراع مع اليهود لأبي فارس (112/2).

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 23].

ج – مَنْ يَخْذُلِ اللهَ يُخذَل:

إنَّ الله تعالى إذا خذل أحداً؛ فليس له نصيرٌ يمنعه، أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

كما أنَّ عداوة حُيَيٍّ للرَّسول(ﷺ) باعثها الحسد والحقد، ولذلك عبر حُيَّيٌّ صراحةً: أنَّ الله لم يكن معه يوماً من الأيام، بل كان حُيَيٌّ في شقِّ الشَّيطان عدوّاً لأولياء الرَّحمن، يشاقق الله، فالله خاذلُه، ومُسْلِمُه لكلّ ما يؤذيه، ويُتعبه، ولا توجد قوَّةٌ في الأرض، ولا في السَّماء تنصره، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأنَّ إرادة الله هي النَّافذة، وقدَره هو الكائن، لا رادَّ لقضائه، لا يعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السَّماء[1]؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: 17].

2 – مقتل كعب بن أسد القرظيِّ:

وجيء برئيس بني قريظة، كعب بن أسد، وقبل أن يَضْرِب رسول الله(ﷺ) عنقه جرى بينه وبين كعبٍ الحوار التَّالي:

قال رسول الله(ﷺ) : «كعبُ بن أسدٍ؟».

قال كعبُ بن أسدٍ: نعم يا أبا القاسم!

قال رسول الله(ﷺ) : «ما انتفعتم بنصح ابن خراشٍ لكم، وكان مصدِّقاً بي، أما أمركُم باتِّباعي، وإنْ رأيتمُوني تقرئوني منه السَّلام؟».

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (113/2، 114).

قال كعب: بلى، والتَّوراةِ يا أبا القاسـم! ولولا أن تعيِّرني يهود بالجزع من السَّـيف لاتَّبعتُك، ولكنِّي على دين يهود.

فأمر رسول الله(ﷺ) بضرب عنقه، فضربت[1].

وممَّا ترويه كتب السِّـــيرة النَّبويَّة عن يهود بني قريظة: أنَّهم كانوا يرســـلون طائفةً تلو طائفةٍ؛ لتضـرب أعناقهم، وقد سـألوا زعيمهم كعب بن أسـد، فقالوا: يا كعب! ما تراه يُصنع بنا؟ قال: أفي كـلِّ موطنٍ لا تعقلون؟ ألا ترون الـدَّاعي لا يَنْزِع، وأنَّه مَنْ ذهـب بـه منكم لا يَرْجِع؟ هو والله! القتل. [ابن هشام (252/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (23/4)][2].

ونلحظ في خبر مقتل كعب بن أســدٍ: أنَّه كان متعصِّــباً ليهوديته، وهو يعلم بُطلانها، وأنَّه على علمٍ بصــدق رســالة رســولنا(ﷺ)، ولكنَّه لم يؤمن، ولم يدخل الإســلام خوفاً من أن تعيِّره يهود بأنَّه جزع من السَّيف فعدم إيمانه، وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبِّه للثناء، وخوفه من ذمِّه، وتعييره، وهذا دليلٌ على السَّفه، والحُمْقِ، وخذلان الله لهذا اليهوديِّ المخادِع[3].

ثاني عشــر: شـفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا، وسـلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءل:

1 - شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شمَّاس إلى رســـول الله(ﷺ) ، فقال: هب لي الزَّبير اليهوديَّ أَجْزِهِ فقد كانت له عندي يدٌ يوم بعاثٍ، فأعطاه إيَّاه، فأقبل ثابتٌ حتَّى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل يُنْكِرُ الرَّجل أخاه؟! قال ثابت: أردت أن أجْزِيكَ اليوم بيدٍ لك عندي يوم بُعاث، قال: فافعل؛ فإنَّ الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد ســـألت رســـول

(1) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (368/1).
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: الصِّراع مع اليهود (115/2).

الله(ﷺ) ، فوهبك لي، فأطلق عنك إســـاره، فقال الزَّبير: ليس لي قائدٌ، وقد أخذتم امرأتي، وابني، فرجع ثابتٌ إلى رســـول الله(ﷺ) فاســـتوهبه امرأته، وبنيه، فوهبهم له، فرجع ثابتٌ إلى الزَّبير، فقال: ردَّ إليك رسـول الله(ﷺ) امرأتك وبنيك، فقال الزَّبير: حائط لي فيه أعذق، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله(ﷺ) ، فوهبه لـه، فرجع ثابت إلى الزَّبير، فقال: قد ردَّ إليك رسول الله(ﷺ) أهلك، ومالك، فأسلِم؛ تسلَمْ، قال: ما فعل الجليسان[1]؟ وذكر رجال قومه، قال ثابتٌ: قد قُتِلوا، وفُرِغ منهم، ولعلَّ الله – تبارك وتعالى – أن يكون أبقاك لخير، قال الزَّبير: أســـألك بالله يا ثابت! وبيدي التي عندك يوم بُعاثٍ إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خيرٌ بعدهم، فذكر ثابت ذلك لرسـول الله(ﷺ) فأمر بالزَّبير، فقُتِل. [ابن هشـام (253/3 – 254)، والبيهقي في دلائل النبوة (23/4 – 24)][2].

2 – شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءَلٍ القرظيّ:

كانت سلمى بنت قيس، وكنيتها أمُّ المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله(ﷺ) ، قد صلَّت معه القبلتين، وبايعتْه بيعة النِّساء، سألته رفاعة بن سَمَوْءَل القرظيَّ، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمِّي! هب لي رفاعة، فإنَّه قد زعم أنَّه ســيصــلِّي، ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاسْــتَحْيَتْهُ. [ابن هشــام (255/3)][3].

وفي هذا الخبر دليلٌ على أنَّ الإسلام يكرم المرأة، ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدِّين، إنَّه يكرمها، ويساعدُها، ويشجِّعها على فعل الخير[4].

ثالث عشر: من أدب الخلاف:

---

(1) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (372/1).
(2) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (373/1) ، والسِّيرة لابن هشام ، غزوة بني قريظة في سنة خمس قصَّة الزَّبير بن باطا.
(3) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (373/1).
(4) انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص 226.

في اختلاف الصَّحابة في فهم كلام رسول الله(ﷺ) : «ألاَ لاَ يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [سبق تخريجه][1] فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال، فصَّلى العصر لـمَّا دخل وقتُه، وبعضهم أخذ بالظَّاهر، فلم يصلِّ إلا في بني قريظة؛ ولم يعنِّف النَّبيُّ(ﷺ) أحداً منهم، أو عاتبه، ففي ذلك دلالةٌ مهمَّةٌ على أصلٍ من الأصول الشَّرعية الكبرى، وهو تقدير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كلٍّ من المتخالفين، معذوراً، ومثاباً، كما أنَّ فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائل الفروع الَّتي تنبع من دلالاتٍ ظنِّيَّةٍ أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر أو يتم[1].

إنَّ السَّعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندةٌ للحكمة الرَّبَّانيَّة، والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنَّه ضربٌ من العبث الباطل؛ إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنِّيّاً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتمَّ في عصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله(ﷺ) ، ولكان أولى النَّاس بألا يختلفوا هم أصحابُه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت[2] في الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصصه، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين، لا إثم على المخطئ؛ فقد قال(ﷺ) : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (7352)، ومسلم (1716)].

وحاصل ما وقع: أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت - وقت الصَّلاة - توجيهاً لهذا النَّهي الخاصِّ على النَّهي العامِّ عن تأخير الصَّلاة عن وقتها[3].

وقد علَّق الحافظ ابن حجر على هذه القصَّة، فقال: ثمَّ الاستدلال بهذه القصَّة على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ على الإطلاق ليس بواضحٍ، وإنَّما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه، واجتهد،

---

(1) انظر: الصّراع مع اليهود (116/2).
(2) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 226.
(3) انظر: المستفاد من قصص القران (286/2).

فيســتفاد منه عدم تأثيمه، وحاصــل ما وقع في القصَّــة: أنَّ بعض الصَّــحابة حملوا النَّصَّ على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنَّهي الثَّاني على النَّهي الأوَّل، وهو ترك تأخير الصَّـلاة عن وقتها، واستدلُّوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النَّهي على غير الحقيقة، وأنَّه كنايةٌ على الحثِّ، والاستعجال، والإسراع إلى بني قريظة، وقد اســـتدلَّ به الجمهور على عدم تأثيمِ من اجتهد، لأنَّه(ﷺ) لم يعنِّف أحداً من الطَّائفتين، فلو كان هناك إثمٌ؛ لعنَّف مَنْ أَثِمَ[1].

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة، وإسلام ريحانة بنت عمرو:

1 - توزيع غنائم بني قريظة: جمع صـحابة رسـول الله(ﷺ) الغنائم الَّتي خلَّفها بنو قريظة، فكانت كما يلي: من السُّيوف ألفاً وخمسمئة سيفٍ، ومن الرِّماح ألفي رمحٍ، ومن الدُّروع ثلاثمئة درعٍ، ومن التُّروس ألفاً وخمسمئة ترساً، وجحفةً، كما تركوا عدداً كبيراً من الشِّياه، والإبل، وأثاثاً كثيراً، وانيةً كثيرةً، ووجد المســـلمون دناناً من الخمر، فوزعت الغنائم، وهي الأموال المنقولة، كالسِّــلاح، والأثاث، وغيرها بين المحاربين من أنصــارٍ، ومهاجرين ممَّن شــهدوا الغزوة، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم؛ إذ جعل للفَرَسِ سـهمين، وللرَّاجل سـهماً، فالفارس يأخذ ثلاثة أسـهم له ولفرســه، وغير الفارس يأخذ سـهماً واحداً له، والخمس المتبقِّي هو سـهم الله ورسـولِه(ﷺ) المقرَّر في كتابه تعالى[2].

وأما ما وجده رسول الله(ﷺ) والمسلمون من الخمر عند بني قريظة؛ فقد أراقوه، ولم يأخذوا منه شـيئاً، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسـهم رسـول الله(ﷺ) لسـويد بن خلاَّد الَّذي قتلته المرأة اليهودية بالرَّحى، وأعطى سـهمه لورثته[3]، ولصـحابيٍّ آخر مات في أثناء حصـار بني قريظة[4]،

---

(1) اختصاراً من فتح الباري (473/7) في شرح الحديث رقم (4119).
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (96/2 ، 97).
(3) المصدر السابق نفسه (97/2).
(4) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (375/1).

كما استجاب رسول الله(ﷺ) للنِّساء اللَّواتي حضرن، ولم يسهم لهنَّ، منهنَّ: صفية بنت عبد المطلب، وأمُّ عمارة، وأمُّ سليط، وأمُّ العلاء، والسُّميراء بنت قيس، وأمُّ سعد بن معاذ(3). وأمَّا الأموال غير المنقولة كالأراضي، والدِّيار؛ فقد أعطاها رسول الله(ﷺ) للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردُّوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيلٍ وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[1]، قال تعالى عن تلك الأراضي والدِّيار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ **[الأحزاب: 27]**.

قال الأستاذ محمَّد دَرْوَزَة: أمَّا عبارة فقد قال المفسرون: إنَّها أرض ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا﴾، وإنَّ الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أنَّ الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا : أنَّها أرض لبني قريظة بعيدةٌ عن مساكنهم، الت إلى المسلمين دون حربٍ، أو حصارٍ، ونتيجةً للمصير الذي صار إليه أصحابُها[2].

هذا وقد أرسل رسول الله(ﷺ) سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذُّرِّيَّة، والنِّساء إلى الشَّام فباعها، واشترى بالثَّمن سلاحاً، وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجدٍ سعد بن زيد، فباع سبياً، واشترى سلاحاً[3].

2 – إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السَّبي ريحانةُ بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة، قد أراد الرَّسول(ﷺ) أن يتزوَّجها بعد أن تسلم، فتردَّدت، وبقيت وقتاً على دينها، ثمَّ شرح الله صدرها للإسلام، فأسلمت، فبعثها إلى بيت أمِّ منذر بنت قيس حتَّى حاضت ثمَّ طهرت، فجاءها، وخيَّرها: أيعتقها، ويتزوجها، أو تكون في ملكه(ﷺ) ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها[4].

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (2/98).

(2) انظر: سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لعزَّة دروزة (2/202).

(3) انظر: الصِّراع مع اليهود (2/98).

(4) المصدر السابق نفسه (2/99) ، والبداية والنِّهاية (فصل: في غزوة بني قريظة) ، والسِّيرة النَّبوية لابن هشام غزوة بني قريظة (إسلام ريحانة).

خامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصَّحابة بدورهم الجهاديّ، فقالوا قصائد رائعةً، وضَّحُوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب، نقتطف أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد، فَمِنْ ذلك قول كعب بن مالكٍ أخي بني سلمة:

وَسَـــائِلَةٍ تُسَـــائِلُ مَا لَقِيْنَا ... وَلَوْ شَـهِدَتْ رأَتْنَا صَـابِرِيْنَا

صَـــبَرْنَا لاَ نَرى للهِ عِـدْلاً ... عَلَى مَـا نَابَنَـا مُتَوَكِّلِينَـا

وكان لَــنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ ... بِـهِ نَعْلُو البَرِيَّـةَ أَجْمَعِيْنَـا

نُقَاتِلُ مَعْشَــراً ظَلَمُوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِـدِيْنَا[1]

نُعَـالِجُهُمْ إِذَا نَهَضُـوا إِلَيْنَـا ... بِضَـرْبٍ يُعْجِلُ المتَسَـرِّعِيْنَا

تَرَانَا في فَضَـافِضَ سَـابِغَاتٍ ... كَغُدْرَانِ الملا مُتَسَـرْبِلِيْنَا[2]

إلى أن قال:

لِنَنْصُـرَ أَحْمَـداً واللهَ حتَّى ... نَكُوْنَ عِبَادَ صِـدْقٍ مُخْلِصِـيْنَا

ويَعْلَم أَهْلُ مَكَّةَ حِيْنَ سَـارُوا ... وأَحْـزَابٌ أَتَـوا مُـتَـحَـزِّبِـيْـنَـا

بأَنَّ الله لَيْسَ لَـهُ شَـرِيْـكٌ ... وأَنَّ اللهَ مَـوْلَى المؤْمِـنِـيْـنَـا

فإِمَّا تَقْتُلوا سَـعْداً سَـفَاهاً ... فـإِنَّ الله خَـيْرُ الـقَـادِرِيْـنَـا

سَـيُدْخِلُه جِناناً طَيِّبَاتٍ ... تَكُوْنُ مُقَامَـةً للصَّـالِحِيْنَا

كَمَا قَدْ رَدَّكم فَلاًّ شَـرِيْداً ... بِغَيْظِكُمْ خَزَايَا خَائِـبِـيْنَا

خَـزَايا لَمْ تـنَـالُوا ثَمَّ خَـيْراً ... وَكِـدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِيْنَـا

بِرِيْحٍ عَاصِـفٍ هَبَّت عَلَيْكُمْ ... فَكُنْتُمْ تَحْتَهَـا مُتكمِّهِيْنَـا[3]

وقال كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في قصيدةٍ طويلةٍ يردُّ فيها على عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

---

(1) المرصد: المعدُّ للأمر عدَّته.

(2) متسربلينا: لابسين الدُّروع.

(3) متكمِّهينا: عُمياً لا تبصرون.

ومَوَاعِظَ مِنْ رَبِّنـا نُهْـدَى بهـا   بِلِسَـــانِ أَزْهَرَ طَيِّـبِ الأَثْوَابِ
عُرِضَـتْ عَلَيْنَا فاشْـتَهَيْنَا ذِكْرَها   مِنْ بَعْــدِ ما عُرِضَـتْ عَـــلَى
حِكَمـاً يَرَاهَـا المجْرِمُون بِزَعْمِهِمْ   حَرَجـاً[1] وَيَفْهَمُهَـا ذَوُو الألبـابِ
جاءتْ سَـخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا   فَـلَـيُـغْـلَـبَنَّ مُـغَـالِـبُ الـغَـلاَّبِ

قال ابن هشام: حدَّثني مَنْ أثق به، قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، قال: لمَّا قال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه:

جَاءَتْ سَـــخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ   فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَـالِـبُ الغَلاَّبِ

قال له رسول الله(ﷺ) : «لقد شكرك الله يا كعب! على قولك هذا». **[ابن هشام (273/3)]**.

* * *

(1) حرجاً: حراماً.

الفصل الثَّاني عشر

ما بين غزوة الأحزاب، والحديبية مِنْ أحداثٍ مهمَّة

المبحث الأوَّل

زواج النَّبي(ﷺ) بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السَّرايا، وبناء الدَّولة، وبسط هيبتها في الجزيرة العربيَّة، كانت حركة البناء التَّشـريعيِّ، والاجتماعيِّ للأمَّة الإسـلاميَّة تتكامل، فنظام التَّبنِّي يُهدَم، والحجاب يُفرض، وأدب الولائم يقرَّر، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكَّد على وجوبها، وتُحارَب الأعراف الَّتي تعارض شـرع الله تعالى، ففي زواج رسـول الله(ﷺ) بالسَّـيدة زينب بنت جحش حكمٌ، ودروسٌ، وعبرٌ بقيت خالدةً على مرِّ العصـور، وكرِّ الدُّهور، وتوالي الأزمان، وهذه قصَّـة أمِّ المؤمنين زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها:

أولاً: اسمها، ونسبها:

هي زينت بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسديَّة، أخت عبد الله بن جحش، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم.

أمُّها: أميمةُ بنت عبد المطَّلب بن هاشـم بن عبد مناف بن قصـيٍّ عمَّة رسـول الله(ﷺ) ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[1].

يقال: كان اسمها: برَّة، فسمَّاها النَّبيُّ(ﷺ) زينب، وكانت تكنى أمَّ الحكم[2].

---

(1) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (372/1).

(2) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (1849/4).

وكانت زينب رضـــي الله عنها من المهاجرات الأول، ورعةً صـــوَّامة قوَّامة، كثيرة الخير والصَّدقة، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله(ﷺ) : «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً». قالت: فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنَّها كانت تعمل بيدها، وتصدَّق». [البخاري (1420) ومسلم (2452)].

وقد مدحتها السَّيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً، وقالت في حقِّها: لم أر امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينب، وأتقى للهِ، وأصـدق حديثاً، وأوصـل للرَّحم، وأعظم صـدقةً، وأشـد ابتذالاً لنفسها في العمل الَّذي تَصَدَّقُ به، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرةً من حِدَّةٍ كانت فيها تُسْرِعُ منها الفيئةَ[1]. [مسلم (2442)، والنسائي (7/64 – 66)].

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرَّســول(ﷺ) أن يحطِّم تلك الفوارق الطَّبقيَّة الموروثة في الأمَّة المســلمة من عادات الجاهليَّة؛ ليكون النَّاس سواسيةً كأسنان المشط، لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتَّقوى، وكان الموالي – وهم الذين جرى عليهم الرِّقُّ، ثمَّ تحرَّروا – طبقةً أدنى من طبقة السَّــادة، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله(ﷺ) الَّذي أعتقه، ثمَّ تبناه، فرأى رسول الله(ﷺ) أن يزوِّج زيداً من شريفةٍ من بني أسد، وهي ابنة عمَّته زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ ليبطل تلك الفوارق الطبقيَّة بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق، والعنف بحيث لا يحطِّمها إلا فعلٌ واقعيٌّ من رسول الله(ﷺ) ؛ لتتَّخذ منه الأمَّةُ المسلمة أسوةً، وقدوةً، وتسير البشرية على هداه في هذا الطَّريق، وأيضاً لعلَّ من الحكمة في هذا الزَّواج: أنَّه كان مقدمةً لتشريعٍ آخر، لا يقلُّ أهمِّيَّةً في حفظ توازن المجتمع، وحماية الأسرة عن الأوَّل، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر[1].

انطلق رسول الله(ﷺ) ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب

---

(1) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات ، لحفصة بنت عثمان الخليفي ، ص 205.

بنت جحش الأسديَّة رضي الله عنها، فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله(ﷺ): «بلى! فانكحيه»، قالت: يا رسول الله ! أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾ [الأحزاب: 36].

فقالت: يا رسول الله! قد رضيتَه لي زوجاً؟ قال: «نعم» قالت: لا أعصي رسول الله(ﷺ)، وقد زوَّجتُه نفسي. [الطبري في تفسيره (11/22)، والدر المنثور (609/5)].

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يُدعى زيد بن محمَّد، فتزوَّجها زيد، وأصدقها في هذا الزَّواج عشرة دنانير، وستين درهماً، وخماراً، وملحفةً، ودرعاً، وخمسين مدّاً من طعامٍ، وعشرة أمدادٍ من تمرٍ[1].

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى ألا يتوافق زيدٌ، وزينب في زواجهما، وأصبحت حياة الزَّوجين لا تطاق، وصمَّم زيدٌ على فراق زوجه زينب، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله(ﷺ) من عدم استطاعته البقاء مع زينب، ورسول الله(ﷺ) يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها، حتَّى أذن الله بالطَّلاق، فطلَّقها زيدٌ، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنةٍ، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنةٍ، أو فوقها، ثمَّ وقع بينهما (يعني: الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله(ﷺ) ، فجعل رسول الله(ﷺ) يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتَّق الله». [أحمد (150/3)، والترمذي (3212)].

لم يبقَ لزيد رغبةٌ في إبقاء العلاقة الزَّوجيَّة معها؛ لأنَّه كان كريم النَّفس، لا يريد أن يبني سعادته، وراحته على شقاء الآخرين، وتعاستهم، والإضرار بهم، ولهذا صمَّم على الفراق، وعدم الإضرار بها؛ لأنَّها كانت تعيش في قلقٍ، واضطرابٍ، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه

(1) انظر: تفسير ابن كثير (489/3).

بزينب بنت جحش على هذا الوضـــع دون أيِّ تدخُّلٍ خارجيٍّ بينهما، ووقع ذلك الطَّلاق بمحض اختياره، وإرادته، وقد كان رسول الله(ﷺ) ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله، وإمساك زوجته[1]، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الســـبب: «ذكر ابن أبي حاتم، وابن جريرٍ آثاراً عن بعض السَّلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحَّتها، فلا نوردها»[2].

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله(ﷺ) من زينب رضي الله عنها:

كانت عادة التَّبنِّي متغلغلةً في نفوس النَّاس، ومشـاعرهم، وليس من السَّـهل التغلُّب عليها، وإلغاء الآثار المترتِّبة عليها، كانت هذه العادة في صــدر الإســلام في مكَّة، وفي أوَّل الهجرة إلى المدينة، ثمَّ شاء الله تعالى، فنزلت الآيات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادَّعاهم في الحقيقة، وإنَّما ذلك حسب دعوى المدَّعي فقط، وذلك لا يغيِّر من الواقع شيئاً، فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ **[الأحزاب: 4]**.

ثمَّ أمر - تبارك وتعالى - بردِّ نســـبهم إلى آبائهم في الحقيقة، فهذا من العدل، والقســـط، والبرِّ، فقال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَـــطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ **[الأحزاب: 5]**.

فعن عبد الله بن عمر رضــي الله عنهما قال: إنَّ زيد بن حارثة رضــي الله عنه مولى رســول الله(ﷺ) ما كنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد، حتَّى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَـــطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ **[(4782)]**.

ولم يجعل الله تعالى عدم معرفتهم لابائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنّيهم لهم، بل حرم التَّبني في

---

(1) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص 209.

(2) انظر: تفسير القران العظيم (491/3).

هذه الحالة، وأخبر أنَّهم حينئذٍ إخوانهم، ومواليهم، فقال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5].

أي: فإن لم تعرفوا اباءهم، فليس بينكم وبينهم إلا الأخوَّة في الدِّين، والموالاة، وذلك عوضاً عمَّا فاتهم من النَّسب، فيقال: فلانٌ مولى فلان، أو مولى بني فلان[1].

وهذه الأخوَّة في الدِّين، والموالاة لها أهمِّيَّة كبرى، فهي ثابتةٌ حتَّى للذين عُرِف اباؤهم، ولهذا قال رسول الله(ﷺ) لزيد بن حارثة رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» [أحمد (98/1 و115) عن علي، والبخاري (2699) عن البراء]، أي: أخونا في الإسلام، والولاية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10].

وجاءت نصوصٌ أخرى تعالج هذا الأمر من جهةٍ أخرى، وهي جهة الابن، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقيِّ - والمنتسب يعلم ذلك - تحريماً قاطعاً، لا شبهة فيه[2]قال(ﷺ): «مَنِ ادَّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله، والملائكة، والنَّاس أجمعين، لا يقبل الله تعالى منه صَرْفاً ولا عَدْلاً[3]». [البخاري (1870)، ومسلم (1370)].

وقد جعل الشَّارع لنشوء النَّسب سبباً واضحاً هو الاتِّصال بالمرأة عن طريق الزَّواج، أو ملك اليمين، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهليَّة من إلحاق الأولاد عن طريق العُهْرِ والزِّنى، قال(ﷺ) : «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» [البخاري (6818)، ومسلم (1458)]، ومعناه: أنَّ من يجيء من الأولاد ثمرة لفراشٍ صحيحٍ قائمٍ على عقد الزَّواج، أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه، وأنَّ العُهْرَ والزِّنى لا يصلح أن يكون سبباً للنَّسب، وإنَّما يكون سبباً لشيءٍ آخر هو

---

(1) انظر: تفسير السَّعدي (136/4).

(2) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص 189.

(3) صرفاً: توبةً، وقيل: نافلة، عدلاً: أي: فدية، وقيل: فريضة.

الرَّجم، والحجارة[1].

ثمَّ إنَّ الله – سبحانه وتعالى – بعد أن منع، وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبنَّاه، وأمر بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقيّ إن عرف، أو إلى الأخوة في الدِّين والموالاة، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ، أو تعمَّد مخالفة هذا التَّشريع الإلهي، قال الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ **[الأحزاب 5]**.

فقد نفى الله – سبحانه وتعالى – الجُناح (الإثم) عمَّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة، وذلك بعد الاجتهاد، واستفراغ الوسع، أو نسي، فنسب الابن إلى غير أبيه بجريان لسانه بذلك، وأثبت الحرج، والإثم لمن تعمَّد الباطل، وهو دعوة الرَّجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك[2].

كانت عادة التَّبنِّي مستحكمةً في نفوس النَّاس، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزَّمن، فكان زواج النَّبيِّ(ﷺ) بالسَّيدة زينب إلغاءً عمليّاً، وليس إلغاء ذهنيّاً فحسب[3].

إنَّ الحكمة في زواج رسول الله(ﷺ) من السَّيدة زينب حكمةٌ واضحةٌ وظاهرةٌ، وقد بيَّنها الله تعالى بقوله – عزَّ وجلَّ –: ﴿لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ **[الأحزاب: 37]**.

وقد ذكر المبطلون من الكفار، وفروخُهم، ومقلِّدوهم بما يَنعِقون به، ويردُّده الجهَّال متعلِّقين بروايات مكذوبةٍ، خلاصتُها كما يفترون: أنَّ النبي(ﷺ) قد هوي زينب بنت جحش، بعد أن تزوَّجت بزيد بن حارثة، فلمَّا علم زيدٌ بذلك؛ أراد طلاقها ليتزوَّجها النَّبيُّ(ﷺ) [4]، فهذا قولٌ باطلٌ.

---

(1) انظر: علاقة الاباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلاميَّة، د. سعاد الصَّانع، ص 52، 53.
(2) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص 191، 192.
(3) انظر: من معين السِّيرة، ص 311.
(4) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة، لعبد الكريم زيدان (474/11، 475).

وقد نسف الإمام ابن العربيّ هذا القول من جذوره، فقال: فأمَّا قولكم: إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) رآها – أي: رأى زينب بنت جحشٍ – فوقعت في قلبه ؛ فباطلٌ، فإنَّه(ﷺ) كان معها في كلِّ وقتٍ، وموضعٍ، ولم يكن حينئذٍ حجابٌ، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كلِّ ساعةٍ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوجٌ؟! حاشـا لذلك القلب المطهَّر من هذه العلاقة الفاسـدة، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131] والنِّسـاء أفتن الزَّهرات، فيخالف هذا في المطلَّقات، فكيف في المنكوحات؟ ثمَّ إنَّ قوله تعالى: يعني: من نكاحك ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِـكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهو الذي أبداه لا سواه، أقول: فلو كان الَّذي أخفاه رسول اللهِ(ﷺ) هو حبُّه لها؛ لأبداه الله تعالى، وأظهره، فتيقَّنَّا: أنَّ الَّذي أخفاه رسول الله(ﷺ) من أمر زينب هو نكاحُه إيَّاها، وليس ما تخيَّله المبطلون من حبِّه لها[1].

إن الشـرع أراد تأكيد إبطال نظام التَّبنِّي، وإبطال كلِّ نتائجه، وتعميق هذا الإبطال في النُّفوس، وتأكيده بالتَّطبيق العمليِّ، والقدوة، والتأسِّي بمن يُـقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة النَّاسـخة، وهذا ما فعله رسـولُ الله(ﷺ) بزواجه بزينب بأمرٍ من الله تعالى العزيز الحكيم[2].

خامساً: قصَّة زواج رسول الله(ﷺ) من زينب، وما فيها من دروسٍ، وعبر:

لـمَّا انقضت عدَّة زينب؛ قال رسول الله(ﷺ) لزيد: اذهب فاذكرها عليَّ، فانطلق زيد؛ حتَّى أتاها، وهي تخمِّر عجينها، قال: فلما رأيتُها عَظُمَتْ في صَدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها: أنَّ رسـول الله(ﷺ) ذكرها، فولَّيْتُها ظهري، ونكصْـتُ على عَقِبي، فقلت: يا زينب أبشري!! أرسل رسول الله(ﷺ) يذكرك، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامَر ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسولُ الله(ﷺ) ، فدخل عليها بغير إذنٍ. [أحمد (3/195)، ومسلم

(1) انظر: أحكام القرآن لابن العربيّ (3/1531 ، 1532).
(2) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (11/476).

(1428/ 87م)، والنسائي (79/6)]، وأصدقها أربعمئة درهم، وكان زواجه(ﷺ) بزينب في السَّنة الخامسة على المشهور، وقال الحافظ البيهقيُّ: تزوَّجها بعد بني قريظة[1].

وأولم الرَّسول(ﷺ) في عرس زينب وليمةً كبيرةً، فأولم بشاةٍ، وقد دُعِي إلى الوليمة كلُّ من لقيه أنس رضي الله عنه بناءً على أمر الرَّسول(ﷺ) ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله(ﷺ) أولم على امرأةٍ من نسائه ما أولم على زينب، أَوْلَمَ بشاةٍ. [البخاري (5168)، ومسلم (1428/ 90)].

وهكذا تزوَّج رسولُ الله(ﷺ) – بأمر رَبِّه – زينب بنت جحش رضي الله عنها، بعد طلاق زيدٍ لها، وانقضاء عدَّتها، وفي زواجه(ﷺ) بزينب، وما نزل فيه من القرآن وما واكبه من أحداث – عظاتٌ، وعبرٌ[2]، وقفنا عند بعضها، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدُّروس، والعبر الَّتي لم نقف عليها، منها:

1 – كان خاطب زينب للنَّبيِّ(ﷺ) هو زوجها الأوَّل زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولعلَّ اختيار رسول الله(ﷺ) لزيدٍ مقصودٌ لذاته؛ ليقطع بذلك ألسنة المتقوِّلين، وما قد يزعمونه من أنَّ طلاقها وقع بغير اختيارٍ منه، وأنَّه قد بقي في نفسه من الرَّغبة فيها شيءٌ، وفي هذا يقول ابن حجر: «هذا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الَّذي كان زوجَها هو الخاطبُ؛ لئلا يظنَّ أحدٌ: أنَّ ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها: هل بقي منه شيءٌ، أم لا؟»[3].

وفي هذا من الحكمة أيضاً: أن ما يقع بين الزَّوجين من نفرةٍ، وخلافٍ، ثمَّ طلاقٍ لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحد الزَّوجين للآخر، وأن يراعي فيه حقوق الأخوَّة الإيمانيَّة، فهذا زيد برغم ما وقع بينه وبين زينب، ورغم: أنَّ هذا كان بسببها، فإنَّه ذهب يخطبُها لرسول الله(ﷺ) ، بل ويقول لها: يا زينب! أبشري!.

(1) انظر: البداية والنهاية (147/4).
(2) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص 312.
(3) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (524/8).

2 – في الآية الَّتي نزلت بشأن هذا الزَّواج عتابٌ للنَّبيِّ(ﷺ) من ربّه؛ إذ كان حين يأتيه زيدٌ يشكو زينب، ومعاملتها له، ورغبته في طلاقها يقول(ﷺ) : «أمسك عليك زوجك واتَّق الله» [سبق تخريجه]، أي: اتَّق الله، وَدَعْ طلاقها، أو: اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها؛ ورسول الله(ﷺ) يخفي في نفسه ما أبلغه الله به: أن زيداً سيطلِّقها، وأنَّها ستكون زوجةً له، ويخشى متى وقع هذا من كلام النَّاس في قولهم: تزوَّج مطلقة مَنْ تبنَّاه، وهو زيد بن حارثة!

روى أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل رسول الله(ﷺ) يقول: «اتَّق الله، وأمسك عليك زوجك»: قال أنس: لو كان رسول الله(ﷺ) كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الآية. [البخاري (7420)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمَّدٌ(ﷺ) كاتماً شيئاً ممَّا أُنزل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: 37]. [أحمد (241/6)، ومسلم (288/177)، والترمذي (3208)].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعديُّ في تفسيره للآية: : «أي: أنعم الله عليه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، وأنعمت عليه بالعتق، والإرشاد، والتَّعليم، حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له – ناصحاً له، ومخبراً بمصلحته، مقدماً لها على رغبتك –: أمسك عليك زوجك، ولا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، واتَّق الله في أمورك عامَّة، وفي أمر زوجك خاصَّة؛ فإن التَّقوى تحثُّ على الصَّبر، وتأمر به. الَّذي أخفاه: أنه لو طلقها زيد؛ ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ »[(1)].

قال سيّد قطب: الَّذي أخفاه النَّبيُّ(ﷺ) في نفسه وهو يعلم أنَّ الله مبديه، وهو ما أعلمه الله: أنَّه سيفعله، ولم يكن أمراً صريحاً من الله، وإلا ما تردَّد فيه، ولا أخَّره، ولا حاول تأجيله،

(1) تفسير السَّعدي (154/3).

ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب؛ الَّتي يتوقَّعها من إعلانه، ولكنَّه(ﷺ) كان أمام ما أعلمه الله، يتوجَّس في الوقت ذاته من مواجهته، ومواجهة النَّاس به، حتَّى أذن الله بكونه، فطلَّق زيدٌ زوجه في النِّهاية، وهو لا يفكر، لا هو، ولا زينب فيما سيكون بعد؛ لأنَّ العرف السَّائد كان يعدُّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمَّد، لا تحلُّ له[1].

3 - في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب: 37]، منقبةٌ عظيمةٌ لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فقد انفرد بهذا؛ إذ لم يُسَمِّ القرآن أحداً من الصَّحابة غيره، قال السُّهيلي: «كان يقال: زيد بن محمَّد حتَّى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمَّد، فلما نُزع عنه هذا الشَّرف، وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرَّفه بخصيصةٍ لم يكن يَخُصُّ بها أحداً من أصحاب النَّبيِّ(ﷺ) ، وهي: أنَّه سمَّاه في القرآن، فقال تعالى: يعني: من ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم؛ حتَّى صار اسمه قرآنا يُتلى في المحاريب، نوَّه به غاية التَّنويه، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعوضٌ من الفخر بأبوَّة محمَّد(ﷺ) له، ألا ترى إلى قول أبيِّ بن كعب حين قال له النَّبيُّ(ﷺ) : «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا» [البخاري (3809)، ومسلم (799)] فبكى، وقال: أوذكرتُ هنالك؟.

وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر: أنَّ الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مخلَّداً لا يبيد، يتلوه أهل الدُّنيا؛ إذا قرؤوا القرآن، وأهل الجنَّة أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القرآن كلام الله القويم، وهو باقٍ لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصُّحف المكرَّمة، المرفوعة المطهَّرة، تذكره في التِّلاوة السَّفرةُ الكرامُ البررة، وليس

(1) انظر: في ظلال القران (2869/5).

ذلك لاســـم من أسماء المؤمنين إلا لنبيٍّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضـــاً من الله تعالى له بسبب ما نُزِع منه(1).

4 - زواج النَّبيّ(ﷺ) بزينب بنت جحش رضـــي الله عنها كان بأمر ربّه، وهو الّذي زوَّجه إيّاها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَـــمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَـوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ **[الأحزاب: 37]**.

وفي هذا شـرفٌ عظيمٌ، ومنقبةٌ جليلةٌ لزينب رضـي الله عنها، كانت تفاخر بها - وحقَّ لها ذلك - فعن أنسٍ رضـــي الله عنه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النَّبيّ(ﷺ) تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات، وفي روايةٍ أخرى: كانت تفخر على نساء النَّبيّ(ﷺ) ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السَّماء. **[البخاري (7420 و7421)]**.

ولعلَّ هذه المنقبة، وهذا الشَّـــرف لزينب رضـــي الله عنها كان جزاءً لها حين أذعنت، وخضـــعت لأمر رســـول الله(ﷺ) حين أمرها بالزَّواج من مولاه زيد بن حارثة، وكانت لذلك كارهةً، ثمَّ لـمَّا علمت: أنَّ رسول الله(ﷺ) يأمرها بذلك قبلت الزَّواج منه(2).

5 - في وليمته(ﷺ) على زينب علامةٌ من علامات نبوَّته، ودلالةٌ من دلائلها، وهي تكثير الطَّعام بدعوته، وفي هذه الوليمة أيضـاً كان نزول آية حجاب نسـاء النَّبيّ(ﷺ) ، وما شـرع من آداب الضِّيافة(3).

فعن أنس بن مالكٍ رضـــي الله عنه قال: تزوَّج رســـول الله(ﷺ) ، فدخل بأهله، قال:

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (194/14).

(2) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص 218.

(3) المصدر السابق نفسه.

فصـنعت أمِّي أمُّ سـليم حيسـاً، فجعلته في تَوْرٍ[1]، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسـول الله(ﷺ) ، فقل: بعثت بهذا إليك أمِّي، وهي تقرئك السَّـلام، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله(ﷺ) ، فقلت: إنَّ أمِّي تقرئك السَّلام، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسـول الله! فقال: ضـعه، ثمَّ قال: اذهب، فادْعُ لي فلاناً، وفلاناً، ومن لقيت، وسمَّى رجالاً، قال: فدعوت من سمَّى، ومن لقيت، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمئة.

وقال لي رسـول الله(ﷺ) : «يا أنس! هات التَّوْر، قال: فدخلوا حتَّى امتلأت الصُّـفَّة، والحُجرة، فقال رسول الله(ﷺ) : ليتحلَّق عشرةٌ عشرةٌ، وليأكل كلُّ إنسان ممَّا يليه، قال: فأكلوا حتَّى شبعوا، قال: فخرجتْ طائفةٌ، ودخلت طائفةٌ، حتَّى أكلوا كلُّهم، فقال لي: يا أنس! ارفع، قال: فرفعت فما أدري حين وضـعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله(ﷺ) ، ورسول الله(ﷺ) جالسٌ، وزوجته مولّيةٌ وجهها إلى الحائط، فَـثَـقُلُوا على رسول الله(ﷺ) ، فخرج رسول الله(ﷺ) على نسائه، ثمَّ رجع، فلـمَّا رأوا رسول الله(ﷺ) قد رجع؛ ظنُّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه. [البخاري (5163)، ومسلم (94/1428 و95)، والنسائي (136/6)] قال: فابتدروا الباب، فخرجوا كلُّهم، وجاء رسـول الله(ﷺ) حتَّى أرخى السِّـتر، ودخل، وأنا جالس في الحُجرة، فلم يلبث إلا يسـيراً حتَّى خرج عليَّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله(ﷺ) وقرأها على النَّاس: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

---

(1) تور: الإناء.

قال الجعد[1]: قال أنس بن مالكٍ رضـــي الله عنه: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عهداً بهذه الآيات، وحُجِبْنَ نساءُ النَّبيّ(ﷺ) . [مسلم (94/1428)، والترمذي (3218)].

وقد حَجَبَ رسول الله(ﷺ) نساءه لنزول آية الحجاب التي قال المولى – عز وجل – فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِـــرُوا وَلاَ مُسْـــتَأْنِسِـــينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِنْ تُبْدُوا شَـــيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 53 – 54].

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضـي الله عنه، روى البخاريُّ في صـحيحه عن أنسٍ، قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! يدخل عليك البرُّ، والفاجر، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب! فأنزل الله آية الحجاب. [البخاري (4790)].

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنِّسبة لأزواج النَّبيّ(ﷺ) ، والمراد عدم إبداء شيءٍ من أجسامهنَّ للأجانب عنهنَّ، وعدم محادثتهنَّ، أو طلب شيءٍ منهن إلا من وراء حجاب، أي: سِـترٍ يكون بينهنَّ، وبين غيرهنَّ، ولـــمَّا نزلت قال الآباء، والأبناء، والأقارب لرسول الله(ﷺ) : ونحن أيضاً نكلمهنَّ من وراء حجاب؟

فـأنزل الله تعـالى قولـه: ﴿لاَ جُنَـاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَـائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَـاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَـــائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [الأحزاب: 55].

ونزل أيضـاً في شـأن نسـاء النَّبيّ في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى: ﴿يَانِسَـاءَ

(1) الجعد بن دينار ، أبو عثمان اليشكريُّ ، البصريُّ ، من أصحاب أنس.

النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ **[الأحزاب: 32 – 33]**.

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية وإن كانت خطاباً لأزواج النَّبيّ(ﷺ) فحكمها لجميع نساء الأمَّة، وإنَّما خصَّ نساء النَّبيِّ لمنزلتهنَّ، وعظم فضلهنَّ، ومكانتهنَّ من النَّبي(ﷺ) [1]، وقد قال الإمام القرطبيُّ في تفسيره: «معنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النَّبيّ(ﷺ) فقد دخل غيرهنَّ فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليلٌ يخصُّ جميع النِّساء، كيف والشَّريعة طافحةٌ بلزوم النِّساء بيوتهنَّ، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورةٍ على ما تقدَّم من غير موضعٍ؟!»[2].

وقد فصَّل – سبحانه وتعالى – في كتابه الكريم ما يتعلَّق بالنِّساء المسلمات: من غضِّ البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزِّينة من عنقٍ، وساقٍ، وعضُدٍ، وساعدٍ، وشعرٍ، ونحوها من العورة الظَّاهرة إلا للمحارم[3]، وقد جاء ذلك في سورة النُّور، وقد بينت السُّنَّة النَّبويَّة كل ما يتعلَّق بالنِّساء من احتجاب، وتصوُّنٍ، وتعفُّفٍ، وعدم السُّفور، والخلاعة، والابتذال بما لا مزيد عليه[2].

هذه بعض الدُّروس، والعبر استُخرجت من قصَّة زواج رسول الله(ﷺ) من زينب بنت جحش، وما واكب ذلك الزَّواج من نزول آيات بيِّناتٍ في أحكام الحجاب، وما شرع من اداب الضِّيافة.

هذا وقد توفِّيت زينت بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة، وعمرها ثلاث

(1) انظر: السنّة النبوية ، لأبي شهبة (312/2).
(2) انظر: تفسير القرطبيّ (179/14).
(3) انظر: السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (312/2).

وخمســـون ســـنة، وكانت كما أخبر النَّبيُّ(ﷺ) أوَّل نســـائه لحاقاً به. [البخاري (1420)، ومســلم (2452)][1]، وقد بلغت مرويَّاتها عن النَّبيِّ(ﷺ) - وفق كتاب بقي بن مخلد - أحد عشـــر حديثاً[2]، ولها في الكتب السِّتَّـــة خمسةُ أحاديث[3]، اتُّـــفق لها في البخاريِّ، ومسلمٍ على حديثين[4]، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة[5].

* * *

(1) انظر: الطبقات الكبرى (115/8).
(2) انظر: تلقيح الفهوم، لابن الجوزي، ص 370.
(3) انظر: تحفة الأشراف، للمزِّي (321/11. 323).
(4) انظر: سير أعلام النُّبلاء (121/2).
(5) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، ص 85.

المبحث الثاني

«الآن نغزوهم، ولا يغزوننا»

[البخاري (4110)، وأحمد (262/4)].

كان(ﷺ) يعمل حساب كلِّ القوى المجاورة، ولا يغفل عن أيِّ قوَّة منها، وقد صرَّح بعد غزوة الخندق بأنَّ الخطَّة القادمة هي غزو قريش؛ فقد تغيرت موازين القوى، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر مِنْ قبل، فسعى(ﷺ) لبسط سيادة الدَّولة على ما تبقَّى من قوى حول المدينة؛ لأنَّ ذلك له صِلةٌ بالإعداد لغزو قريش في مرحلةٍ لا حقةٍ، فقد قام(ﷺ) خلال عامٍ واحدٍ – العام السَّادس – بغزوتين، وأرسل أربع عشرة سريَّةً، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري، وهذه الأعمال والتَّحرُّكات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كلِّ ما يمدُّها بالقوَّة من حلفائها[1] فقد استثمر رسول الله(ﷺ) ، وأصحابه ما حقَّقوه من نجاح في صدِّ الأحزاب، وإفشال خططهم، وردِّهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطاً واسع النِّطاق ضدَّ خصومهم على الجبهات كافة، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصاديَّ على قريشٍ من جديدٍ، كما نفَّذوا العديد من السَّرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهةٍ، أو للثأر من القبائل الَّتي كانت قد غدرت بالدُّعاة، أو ناصبت الإسلام العداء، وقد تمثَّل النشاط العسكريُّ الإسلاميُّ خلال هذه الفترة فيما يلي:

أولاً: سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العشائر النَّجديَّة من أجرأ العناصر البدويَّة الوثنيَّة على المسلمين؛ لأن النَّجديين أهل قوَّةٍ، وبأسٍ، وعددٍ غامرٍ، وقد رأينا كيف أنَّ العمود الفقريَّ لقوَّات الأحزاب الضَّاربة كان من هذه القبائل النَّجديَّة؛ حيث كان رجال هذه القبائل الشَّرسة يشكِّلون الأغلبيَّة السَّاحقة من تلك القوَّة الضَّاربة، ستة الاف مقاتل من غطفان، وأشجع، وأسلم، وفزارة، وأسد، كانت ضمن

(1) انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص 139.

الجيوش الَّتي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصرهم أهل المدينة.

ولهذا فإنَّ أوَّل حملةٍ عسكريَّةٍ وجَّهها النَّبيُّ(ﷺ) لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك الحملة الَّتي جرَّدها على القبائل النَّجديَّة من بني بكر بن كلاب؛ الَّذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية[1] على مسافة سبع ليالٍ من المدينة، ففي أوائل شهر المحرَّم عام خمس للهجرة، وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجَّه(ﷺ) [2] سريَّةً من ثلاثين من أصحابه عليهم محمَّد بن مسلمة لشنِّ الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرَّم سنة (6 هـ)[3]، وقد داهموهم على حين غِرَّةٍ، فقتلوا منهم عشرةً، وفرَّ الباقون، وغنم المسلمون إبلَهم، وماشيتهم، وفي طريق عودتهم أسروا ثُمامةَ بن أثال الحنفيَّ سيِّد بني حنيفة، وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة، وربطوه بساريةٍ من سواري المسجد، فخرَج إليه النَّبيُّ(ﷺ) ، فقال: «ماذا عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي خيرٌ يا محمد! إن تقتلني، تقتل ذا دمٍ، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكرٍ، وإن كنت تريد المال؛ فسل منه ما شئت . فتركه حتَّى كان الغد، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك: إنْ تُنعم؛ تنعم على شاكرٍ.

فتركه حتَّى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثُمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل، ثمَّ دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّداً رسولُ الله، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله! ما كان دينٌ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ، والله! ما كان بلدٌ أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة، فماذا ترى ؟ فبشَّره رسولُ الله(ﷺ) ، وأمره أن يعتمر.

---

(1) قريةٌ عامرةٌ قديمةٌ على وجه الدَّهر في طريق مكَّة من البصرة من نجدٍ.

(2) انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص 24.

(3) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص 351.

فلـــمَّا قدم مكَّة؛ قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا والله! ولكنِّي أسلمت مع محمَّدٍ رسول الله(ﷺ) ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطةٍ حتَّى يأذن فيها النَّبيُّ(ﷺ) [البخاري (462)، ومسلم (59/1764)][1].

وقد برَّ بقسمه ممَّا دفع وجوه مكَّة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله(ﷺ) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمامة ليخلِّيَ لهم حمل الطَّعام[2]، فاستجاب النَّبيُّ(ﷺ) لرجاء قومه بالرَّغم من أنه في حالة حربٍ معهم، وكتب إلى سيِّد بني حنيفة ثُمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم». فامتثل ثُمامة أمر نبيِّه، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكَّة، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[3].

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 - جواز ربط الكافر في المسجد.

2 - جواز المنِّ على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأنَّ ثُمامة أقسم: أنَّ بغضه انقلب حبّاً في ساعةٍ واحدةٍ، لما أسداه النَّبيُّ(ﷺ) إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل.

3 - الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثُمامة حين أسلم.

4 - الإحسان يُزيل البُغض، ويُنبت الحُبَّ.

5 - يشرع للكافر إذا أراد عمل خيرٍ ثمَّ أسلم أن يستمرَّ في عمل ذلك الخير.

6 - الملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى، إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام، ولاسيَّما مَنْ يتبعُه على إسلامه العددُ الكثيرُ مِنْ قومه[4].

---

(1) انظر: نضرة النعيم (330/1).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (298/2) ، والاستيعاب ، لابن عبد البرِّ: ترجمة ثُمَامَة بن أَثَال الحنفيّ.

(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 386 ، 387.

7 – الإسلام يُغيِّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين، كما فعل ثُمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكَّة إلا بإذنٍ من الرَّسول(ﷺ) .

8 – ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كلَّ علاقاته السَّابقة، ثمَّ يلتزم بأوامر ربِّ العالمين بعد إيمانه[1].

ثانياً: سَرِيَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سيف البحر:

تعتبر سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر استمراراً لسياسة النَّبيِّ(ﷺ) العسكريَّة لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصادياً على المدى الطَّويل، فقد بعث(ﷺ) أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمئة راكبٍ قِبَل السَّاحل؛ ليرصدوا عيراً لقريش، وعندما كانوا ببعض الطَّريق فني الزَّاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجُمع، فكان قَدْرَ مِزْوَدِ تمرٍ، يقوتهم منه كلَّ يوم قليلاً قليلاً، حتَّى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرةً واحدةً، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف، فتقبَّلوا هذا الإجراء بصدورٍ رَحْبَةٍ دون تذمُّرٍ، أو ضجرٍ، بل إنَّهم ساهموا في خطَّة قائدهم التَّقشُّفيَّة، فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقتٍ ممكنٍ[2]، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه السَّرِيَّة: (كنَّا نمصُّها كما يمصُّ الصَّبيُّ، ثمَّ نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى اللَّيل)[3]، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه: ما تغني عنكم تمرةٌ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ. **[البخاري (4360)، ومسلم (18/1935)].**

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشَّجر، قال جابر رضي الله عنه: وكنَّا نضرب بعصيِّنا الخَبَط[4]، ثمَّ نبلُّه بالماء، فنأكله[5]، «فسمِّي ذلك الجيش جيش الخَبَط»[6]، وقد أثَّر

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 387.
(2) انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص 118.
(3) مسلم شرح النووي (84/13) ، باب: إباحة ميتات البحر ، وأبو داود (كتاب الأطعمة) ، باب: (في دواب البحر).
(4) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليناثر ورقها ، واسم الورق الساقط: خَبَط.
(5) شرح النووي (84/31).
(6) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، رقم (4361).

هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السَّريَّة الشُّجاعة، وهو رجلٌ من أهل بيت اشـــتُهر بالكرم، فنحر للجيش ثلاث جزائر[1]، ثمَّ نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثمَّ إنَّ أبا عبيدة نهاه. [البخاري (4361)، ومسلم (19/1935)].

فبينما هم كذلك من الجوع، والجهد الشَّـــديدين، إذ زفر البحر زفرةً أخرج الله فيها حوتاً ضخماً، فألقـــاه على الشَّاطئ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هـــذا الحوت العجيب، فيقول: وانطلقنـــا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضَّـــخم[2]، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر[3]، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ، ثمَّ قال: لا، بل نحن رسل رسول الله(ﷺ) وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلُوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمئة حتَّى سَمِنّا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب[4] عينيه بالقِلال[5] الدُّهنَ، ونقتطع منه الفِدرَ[6] كالثَّور، أو قدر الثَّور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعاً من أضلاعـــه فأقامها، ثمَّ رحَّل أعظمَ بعيرٍ منـــا، فمرَّ من تحتها[7]وتزوَّدنا من لحمه وشائق، فلـمَّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله(ﷺ) [8]، فقال: «ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا لـه من أمر الدَّابة[9]، فقـال: «هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ، فتطعمونا» قال: فأرسلنا إلى رسول الله(ﷺ) منه، فأكله. [البخاري (4362)، ومسلم (17/1435)][10].

كانت هذه السَّـريَّة على الأرجح قبل صـلح الحديبية، وليس في رجب سـنة ثمانٍ كما ذكر

(1) جمع جزور ، والجزور: البعير ، أو خاص بالناقة.
(2) الكثيب: التل من الرمل.
(3) العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.
(4) الوقب: النُّقرة التي تكون فيها العين.
(5) القلال: جمع قُلَّة ، وهي الجرَّة العظيمة.
(6) الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللَّحم.
(7) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 121.
(8) انظر: شرح النَّووي (85/13 . 87).
(9) صحيح سنن النسائي ، للألباني رحمه الله (910/3).
(10) شرح النَّووي (87/13).

ابنُ سعدٍ[1]، وذلك لسببين: السَّبب الأول: أنَّ الرَّسول(ﷺ) لم يغزُ، ولم يبعث سَرِيَّةً في الشَّهر الحرام، والثَّاني: أنَّ رجب سنة ثمانٍ هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية[2].

وذكر ابن سعدٍ، والواقديُّ[3]: أنَّ النبي(ﷺ) بعثهم إلى حيٍّ من جهينة، وقال ابن حجر[4]: إنَّ هذا لا يغاير ظاهره مافي الصَّحيح؛ لأنَّه يمكن الجمع بين كونهم يتلقَّون عيراً لقريشٍ، ويقصدون حيّاً من جُهينة، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم، بل لحفظهم من جهينة، ويقوِّي هذا الجمع ما عند مسلمٍ، أنَّ البعث كان إلى أرض جُهينة [مسلم (21/1935)][5].

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 – حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد، وسوَّى بين المجاهدين في التوزيع؛ ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درسٌ تعلَّمه من رسول الله(ﷺ) عمليّاً أكثر من مرَّةٍ.

2 – كرمُ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفِّف عن الناس، ففي رواية الواقديّ: أنَّ قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النُّوق من رجلٍ جُهَنِيّ، وأنَّ أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمَّتك، ولا مال لك[6]، فأراد أبو عبيدة الرِّفق به[7].

وقد بدأ قيس بن سعد ينحر، وينحر حتَّى نهاه أبو عبيدة، فقال له قيس بن سعد: يا أبا عبيدة! أترى أنَّ أبا ثابتٍ يقضي ديون النَّاس، ويحمل الكلَّ، ويطعم في المجاعة، لا يقضي عنّي

---

(1) انظر: الطبقات، لابن سعدٍ (132/2)، والمغازي، للذَّهبي، ص 519.
(2) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص 125.
(3) انظر: المغازي (774/2)، والسِّيرة النَّبويَّة على ضوء مصادرها الأصليَّة، ص 480.
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص 480.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) انظر: من معين السِّيرة، ص 323، والسرايا والبعوث النَّبويَّة، ص 119.
(7) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص 119.

تمر القوم مجاهدين في ســـبيل الله[1]، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة لأنَّه قد اتَّفق مع رجلٍ من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة، وقد وافق الجهنيُّ على تلك الصَّفقة.

عندما علم ســـعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجَّة: أنَّه لا مال له، وإنَّما المال لأبيه؛ وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجَذُّ منه خمسون وَسْقاً[2].

3 – الحلال والحرام:

إنَّ المسلمين في هذه السَّريَّة بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التَّمرة الواحدةُ طعامَ الرَّجل طوال يومٍ كامل في ســـفرٍ، ومشـــقَّةٍ، ويمرُّون وهم على تلك الحال من فقد التَّمر، وأكل الخبط على الجهنيّ – الَّذي اشـــترى منه قيس – أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهليَّة؛ لأنَّهم اليوم ينطلقون بدين الله الَّذي جاء ليحفظ على النَّاس أموالهم – في جملة ما حفظ – وهم اليوم يفرِّقون بين الحلال، والحرام الَّذي تعلَّموه من منهج ربِّ العالمين[3].

4 – جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصَّـة على جواز أكل ميتة البحر، وأنَّها لم تدخل في قوله – عزَّ وجلَّ –: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3].

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 323 نقلاً عن الزُّرقاني في شرحه (282/2).
(2) المصدر السَّابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه ، ص 324.

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: 96].

وقد صحَّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعبد الله بن عباسٍ، وجماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم: (أنَّ صيد البحر ما صيد منه، وطعامهُ ما مات فيه).

وفي السُّنن عن ابن عمر مرفوعاً، وموقوفاً: (أُحلَّت لنا ميتتان، ودمان: فأمَّا الميتتان؛ فالسَّمك، والجراد، وأمَّا الدَّمان؛ فالكبِد، والطِّحال) [أحمد (97/2)، وابن ماجه (3218)، والدارقطني (271/4 و272)].

حديثٌ حسنٌ، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنَّ قول الصَّحابي: (أُحِلَّ لنا كذا، وحُرِّم علينا) ينصرف إلى إحلال النَّبيّ(ﷺ) وتحريمه[1]، كما أنَّ في أكل الرَّسول(ﷺ) من لحم الحوت الَّذي تغذَّى منه المسلمون مدَّةً دليلاً على مشروعية أكل ميتة البحر[2]، كما يستحبُّ للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات الَّتي يشكُّ فيها المستفتي؛ إذا لم يكن فيه مشقَّةٌ على المفتي، وكان فيه طمأنينةٌ للمستفتي، قاله النَّوويُّ[3].

5 – بعض الأحكام الَّتي ذكرها الإمام النَّوويُّ:

قال النَّوويُّ: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب، واغتيالهم، والخروج لأخذ مالهم، واغتنامه، وأنَّ الجيوش لابدَّ لها من أميرٍ يضبطها، وينقادون لأمره، ونهيه، وأنَّه ينبغي أن يكون الأمير أفضلَهم، أو مِنْ أفضلِهم، قالوا: ويستحبُّ للرُّفقة من النَّاس، وإن قلُّوا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرُّفقة من المسافرين خلط أزوادهم، ليكون أبركَ، وأحسنَ في العشرة وألاَّ يختص بعضهم بأكلٍ دون بعضٍ، والله أعلم[4].

---

(1) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص 123.
(2) انظر: السِّيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص 480.
(3) شرح النَّوويِّ على مسلمٍ (86/13).
(4) المصدر السابق نفسه (86/13).

ثالثاً: سرية عبد الرَّحمن بن عوفٍ إلى دومة الجندل:

كانت هذه السَّريَّة قد وجهت إلى أبعد مدىً وصلت إليه الجيوش النَّبويَّة في الجزيرة العربيَّة، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشَّام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصَّحراء العربيَّة واسطة الصِّلة بين الرُّوم في أرض الشَّام، والعرب في الجزيرة، وسكَّانها من قبيلة كلبٍ الكبرى، وقد دخلوا في النَّصرانية نتيجة جوارهم، وتأثُّرهم بجوار الرُّوم النَّصارى، وهذه السَّرِيَّة تدخل ضمن مخطَّط النَّبيِّ(ﷺ) في احتكاكه مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

وأمَّا أمير السَّرِيَّة فهو عبد الرَّحمن بن عوف أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، ومن رجال الرَّعيل الأوَّل، فقد كان أحد الدَّعائم الكبرى للدَّعوة الإسلاميَّة منذ دخوله فيها على يد الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ومهمَّة هذه السَّرية ذات جانبين: مهمَّةٌ دعويَّةٌ، ومهمَّةٌ حربيَّةٌ؛ لذلك انتدب لها عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي تربَّى على محض الإسلام منذ أيَّامه الأولى[1].

وعن هذه السَّريَّة حدَّثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: دعا رسول الله(ﷺ) عبد الرحمن بن عوف، فقال: «تجهَّز فإنِّي باعثك في سرِيَّةٍ في يومك هذا، أو من غدٍ إن شاء الله»، قال ابن عمر: فسمعت ذلك، فقلت: لأدخلنَّ، فلأُصلِّينَّ مع النَّبيِّ الغداة، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرَّحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ، فصلَّيت، فإذا أبو بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما، وناسٌ من المهاجرين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف، وإذا رسول الله(ﷺ) قد كان أمَره أن يسير من اللَّيل إلى دومة الجندل، فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله(ﷺ) لعبد الرَّحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السَّحر، فهم معسكرون بالجُرُف، وكانوا سبعمئة رجلٍ، فقال:

---

(1) التَّربية القياديَّة (4/167 ، 168).

أحببت يا رسول الله! أن يكون آخر عهدي بك، وعليّ ثياب سفري.

قال: وعلى عبد الرَّحمن بن عوفٍ عمامةٌ قد لفَّها على رأســـه، قال ابن عمر: فدعاه النَّبيُّ(ﷺ) فأقعده بين يديه، فنقض عمامته بيده، ثمَّ عمَّمه بعمامةٍ ســـوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثمَّ قال: «هكذا فاعتم يا بن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السَّيف مُتوشِّحـــه، ثمَّ قال رسول الله(ﷺ) : «اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلَّ، ولا تغدر، ولا تقتُل وليداً». قال ابن عمر رضي الله عنهما: ثمَّ بسط يده، فقال: «يا أيها النَّاس! اتقوا خمساً قبل أن يُحلّ بكم: ما نقص مكيالُ قومٍ إلا أخذهم الله بالسِّـــنين، ونقصٍ من الثَّمرات لعلَّهم يرجعون، وما نكث قومٌ عهدهم إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، وما منع قوم الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السَّـماء، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا، وما ظهرت الفاحشــة في قومٍ إلا سـلط الله عليهم الطَّاعون، وما حكم قوم بغير اي القرآن إلا ألبسهم الله شيعاً، وأذاق بعضهم بأس بعض»[1].

قال: فخرج عبد الرَّحمن حتى لحق أصحابه، فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلـــمَّا حلَّ بها، دعاهم إلى الإســـلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإســـلام، وقد كانوا أوَّل ما قدم لا يعطونه إلا السَّيف، فلـمَّا كان اليوم الثَّالث أسلم الأصبغ بن عمروٍ الكلبيُّ، وكان نصرانيّاً، وكان رأســـهم، فكتب عبد الرحمن إلى النَّبيِّ(ﷺ) يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جُهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النَّبي(ﷺ) : أنَّه أراد أن يتزوَّج فيهم، فكتب إليه النَّبيّ(ﷺ) أن يتزوَّج بنت الأصــبغ تماضــر، فتزوَّجها عبد الرحمن، وبنى بها، ثمَّ أقبل بها، وهي أمُّ أبي ســلمة بن عبد الرَّحمن بن عوف، وذكر الواقديُّ: أنَّ هذه السَّـريَّة في شـعبان سـنة سـتٍّ. **[البيهقي في دلائل النبوة (85/4)]**[2].

---

(1) نصب الرَّاية للزيلعي (كتاب الصُّلح) ، وكنز العمال للمتَّقي الهندي (بعث عبد الرحمن).

(2) انظر: مغازي الواقدي (560/2 . 561).

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ، منها:

1 - تواضــع النَّبيّ(ﷺ) لأصــحابه، وشــفقته عليهم، حيث ألبس عبد الرَّحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التَّواضع منه(ﷺ) يرفع من معنويات الصَّحابة رضي الله عنهم، ويدفعهم إلى بـذل المزيد من الطَّاقة في سبيل خدمـة هـذا الدِّين؛ لأنَّ التَّلاحم والمودَّة بين القائـد وجنوده من أهمِّ عوامل نجاح العمل، وتحقيق الأهداف[1].

2 - كان جيش عبد الرَّحمن جيش مبادئ، وعقيدةٍ، فتحرَّك ضــــارباً في هذه الصَّـــحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدي رسوله إلى أمَّته، مستوعباً لمقاصد الجهاد، وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمَّد(ﷺ) ، فهو عبد الله، ورسوله، ولا مكان لزعيمٍ، أو أمَّه، أو قبيلةٍ، أو رايةٍ، أو وطنٍ، أو جيشٍ، أو قوميَّةٍ بجوار هذه الرَّاية الخفَّاقة في هذا الوجود؛ راية الله تعالى. «اغزُ باســم الله» فحزب الله تعالى هو الَّذي يحيي هذه الصَّــحراء الظَّمئ بغيث العقيدة الخالصــة؛ عقيدة التَّوحيد[2]، وهدفهم من هذا التحرُّك في ســبيل الله وحدَه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَـلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[الأنعام: 162 - 163]**.

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهليّ:

وأحيـاناً عَلَى بَكْرٍ أَخِيْنَـا إِذَا مَـا لَمْ نَجِـدْ إلاَّ أخَـانَا

أمَّا هذا الجيش القويُّ الفتي، فهو يمضي في الأرض قُدُماً؛ ليقاتل من كفر بالله[3].

3 - ثمَّ نهى رسول الله(ﷺ) عبد الرَّحمن بن عوفٍ عن الغُلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسـمتها، ونهاه عن الغَدْر في العهود، وعن قتل الوِلْدان، وتلك نماذج من الأدب الإسـلاميّ في الجهاد، فالقتال نوعٌ من العنف، والقســوة، ولكنَّه بالنســبة للمســلمين؛ الَّذين طهَّر الله تعالى

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديّ (184/6).
(2) انظر: التَّربية القياديَّة (171/4).
(3) المصدر السابق نفسه (172/4).

قلوبهم من الغلِّ، والحسد أمرٌ عارضٌ لإحقاق الحقِّ، وإزهاق الباطل، وحماية المحقِّين من المبطلين، وليس متأصِّلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفاً بالاداب السَّامية الَّتي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوَّة، والبطش، ومنتهى الرَّحمة، والعطف[1].

4 - كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيِّداً من سادات هذه الأمَّة، وواحداً من أكبر دُعاتها، فهو يملك من الحلم، والحكمة، والثَّقافة، والتَّجربة، والعبقريَّة، والقِدَم في الإسلام، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره، ولهذا بذل كلَّ طاقاته لتحقيق الهدف الرَّئيسيِّ الأوَّل، وهو الدُّخول في الإسلام، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنُّفوس والقلوب، فشحن كلَّ الإمكانات الفكريَّة، والحركيَّة لإنجاح هذه المهمَّة العظمى، وتكلَّل عمله بفضل الله تعالى بالنَّجاح الكبير، وخاصَّة: أنَّ الجهد انصبَّ على إقناع الرَّئيس، حسب توجيهات المصطفى(ﷺ) .

5 - إنَّ إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرَّحمن بن عوف، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الَّذي أسلم على يديه النَّجاشي ملك الحبشة، ومصعب بن عمير بالمدينة حيث استجاب له سادات الأوس، والخزرج وزعامتُهم للإسلام، وهذه الشَّخصيَّات العُظمى الثلاثة هم من الرُّوَّاد الأوائل، ومن المؤسِّسين في المدرسة الإسلاميَّة الأولى بمكَّة المكرَّمة.

هذا عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي أصيب بواحدٍ وعشرين جرحاً (أي: في غزوة أحدٍ) أدَّت بعضها إلى أن يكون عنده عرجٌ من شدَّتها؛ يصنع ركائز العقيدة الإسلاميَّة بجيشه المظفَّر شمال الجزيرة العربيَّة وينضمُّ الكثيرون إلى الإسلام؛ لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلاميَّة، في هذه الأطراف النائية، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب، والرُّوم المناوئين للإسلام[2].

---

(1) انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (184/6).

(2) انظر: التربية القيادية (174/4).

وهذه أوَّل مرَّةٍ يحكم الإســـلام خارج حدوده، ويتعايش المســـلمون، والنَّصـــارى في دولةٍ واحدةٍ، فالَّذين أسـلموا تُطبَّق عليهم أحكام الإسـلام، والَّذين بقوا على نصـرانيتهم تؤخذ منهم الجزية، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصَّـحابة على المجتمعات الجديدة الَّتي سـينتقلون إليها فيما بعد، وينسـاحون في العراق، والشَّـام، وفي قلب فارس، والرُّوم؛ ليعلِّموا النَّاس: أنَّ العقيدة تنبني من خلال الحوار، لا من خلال السَّـيف، وأنَّ مبادئ الإسـلام لها قوَّتها الذَّاتية الَّتي تشـعُّ أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظَّلام البهيم(1).

6 - إنَّ زواج عبد الرَّحمن بن عوف من ابنة ســـيد بني كلب زعيم دومة الجندل يقوِّي الرّوابط بين الزَّعيم المسـلم الجديد بدومة الجندل، وبين دولة الإسـلام في المدينة، ويربط مصـيره بمصـير دولة الإسـلام، ومصـير الإسـلام نفسـه حين يشـعر: أنَّ فلذة كبده مقيمةٌ في العرين الإسلاميِّ الَّذي أصبح يحنُّ له حنينه لأرضه، وبلده(1).

وقد كان(ﷺ) يحرص على أن يتزوَّج هو وقادتُه ببنات سادة القبائل؛ لأنَّ ذلك كسبٌ كبيرٌ لدعوة الإسلام، حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب، وامتصاص أسباب العداء، ثمَّ الدُّخول في الإسلام(2).

رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وغيرهما:

1 - بعد رحيل الأحزاب انتقل المســـلمون من دور الدِّفاع إلى دور الهجوم، وأصـــبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وحان الوقت لتأديب بني لحيان - الَّذين غدروا بِخُبيب، وأصحابه يوم الرَّجيع - وأَخْذِ ثأر الشُّـــهداء، فخرج إليهم في مئتي صـــحابيٍّ، في ربيعٍ الأوَّل، أو جمادى الأولى سنة ستٍّ من الهجرة(3).

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (174/4).

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ، للحميديّ (186/6).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص 468.

أ – تضليل العدوِّ:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال، وهي مسافةٌ بعيدة، يلاقي مشاقاً كبيرة كلُّ مَنْ يريد قطعها، ولكنَّ النَّبيَّ(ﷺ) كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الَّذين استُشْهدوا (غَدْراً) على يد هذه القبائل الهمجيَّة الَّتي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النَّبيِّ(ﷺ) في تضليل العدوِّ الَّذي يريد مهاجمته، اتَّجه بجيشه نحو الشَّمال، بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النَّبيُّ(ﷺ) قبل تحرُّكه نحو الشَّمال: أنَّه يريد الإغارة على الشَّام، وحتَّى أصحابه لم يعلموا: أنَّه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتَّجه بهم متوغِّلاً نحو الشَّمال حوالي عشرين ميلاً... في حركةٍ تمويهيَّةٍ – على العدوِّ – بارعةٍ.

وكان تغيير خطِّ سيره من الشَّمال إلى الجنوب عند مكانٍ يقال له: (البتراء)، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتَّى استقام على الجادة مُنصبّاً نحو الجنوب[1].

ب – فرار اللِّحيانيّين قبل وصول النَّبيِّ(ﷺ) :

كانت بنو لحيان على غاية التَّيقُّظ، والانتباه، فقد بثَّت الأرصاد، والجواسيس في الطُّرق ليتحسَّسُوا لها، ويتجسَّسُوا لذلك، فما كاد النَّبيُّ(ﷺ) يقترب بجيشه من منازلهم حتَّى انسحبوا منها فارِّين، وهربوا إلى رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونُهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولـمَّا وصل النَّبيُّ(ﷺ) بجيشه عسكر في ديارهم، ثمَّ بثَّ السَّرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه، واستمرَّت السَّرايا النَّبويَّة في البحث والمطاردة يومين

(1) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 34، 35.

كاملين، إلا أنَّها لم تجد أيَّ أثرٍ لهذه القبائل الَّتي تمنَّعت في رؤوس تلك الجبال الشَّاهقة، وأقام(ﷺ) في ديارهم يومين لإرهابهم، وتحدِّيهم، وليظهر للأعداء مدى قوَّة المسلمين، وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة، حتَّى إلى قلب ديار العدوِّ متى شاؤوا[1].

ج – إرهاب المشركين بمكَّة:

رأى النَّبيُّ(ﷺ) أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكَّة، فقرَّر أن يقوم بمناورةٍ عسكريَّةٍ يرهبُ بها المشركين في مكَّة، فتحرَّك بجيشه حتَّى نزل به وادي عُسفَان[2]، وهناك استدعى أبا بكر الصِّدِّيق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه، وأمره بأن يتحرَّك بهم نحو مكَّة ليبثَّ الذُّعر، والفزع في نفوسهم، فاتَّجه الصِّدِّيق بالفرسان العشرة نحو مكَّة حتَّى وصل بهم كُراع الغميم[3]، وهو مكانٌ قريب جداً من مكَّة، فسمعت قريش بذلك، فظنَّت: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) ينوي غزوها، فانتابها الخوف، والفزع، والرُّعب، وساد صفوفها الذُّعر، هذا هو الَّذي هدف إليه النَّبيُّ(ﷺ) بهذه الحركة الَّتي كلَّف الصِّدِّيق أن يقوم بها.

أمَّا الصِّدِّيق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم، وعلموا أنَّهم قد أحدثوا الذُّعر، والفزع في نفوس أهل مكَّة عادوا سالمين إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، فتحرَّك بجيشه عائداً إلى المدينة. **[الواقدي (2/535 – 536)، وابن سعد (2/78 – 80)، والطبري في تاريخه (2/595)]**[4].

د – التَّرحُّم على الشُّهداء:

عندما وصل النَّبيُّ(ﷺ) إلى بطن (غُرَان)[5]، حيث لقي الشُّهداءُ من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة مِنْ هُذَيل؛ تَرَحَّم على هؤلاء الشُّهداء، ودعا لهم[6].

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 36.
(2) عسفان: قرية بين مكَّة والمدينة على نحو يومين من مكَّة.
(3) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكَّة والمدينة ، وهو وادٍ.
(4) انظر: صلح الحديبية ، ص 37.
(5) غُران: بضمِّ أوله: واد بين ساية ، ومكَّة.
(6) انظر: صلح الحديبية ، ص 38.

2 – غزوة الغابة[1]:

لم تكد تمضي ليالٍ قلائلُ على عودة رسول الله(ﷺ) من غزوته لبني لحيان، حتَّى أغار عيينة بن حصـــن الفزاري في خيلٍ لغطفان، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسـول الله(ﷺ) بالغابة، وقتلوا ذرَّ بن أبي ذرٍّ الغفاري، وأسـروا زوجته ليلى، واسـتاقوا الإبل الَّتي كان عددها عشـرين، ولـــمَّا علم الرَّسـول(ﷺ) بخبر عُيَيْنَة؛ خرج في خمسـمئةٍ من أصحابه في إثره، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمئة من قومه، يحرسون المدينة[2].

وعند جبلٍ من ذي قَرَد[3]، أدرك رســولُ الله(ﷺ) العدوَّ، فقتل بعضَ أفراده، واســـتنقذ الإبل[4].

وقد أبدى سلمةُ بن الأكوع في هذه المعركة بطولةً نادرةً، وخاصَّة قبل وصول كتيبة الفرسان النَّبويَّة؛ حيث كان من ضـــمن الرُّعاة في منطقة الغابة، وظلَّ بمفرده يشـــاغل المغيرين، ويراميهم بالنَّبل، وكان من أعظم الرُّماة في عصـــره، وقد اســـتخلص مجموعةً من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان[5].

أمَّا المرأة التي أســرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذرٍّ الَّذي قتله المشــركون أثناء الغارة في الغابة، فقد عادت ســالمة إلى المدينة بعد أن تمكَّنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقةٍ تابعةٍ لرسول الله(ﷺ) ، وقد نذرت إن نجَّاها الله – عزَّ وجلَّ – لتنحرنَّ تلك النَّاقة، فلـــمَّا أخبرت النَّبيَّ(ﷺ) عن نذرها؛ تبسَّم، وقال: «بئسما جزيتيها» أي: أنَّها حملتك، ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النَّحر؟! ثمَّ قال لها(ﷺ) : لا نذر في معصـــية الله، ولا فيما لا تملكين. **[أحمد (4/430)، ومسلم (1641)، وأبو داود (3316)]**[6].

---

(1) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشَّام فيه أموالٌ لأهل المدينة.

(2) انظر: عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (2/72 ، 73).

(3) ذو قرد: ماء على نحو بريدٍ من المدينة ممَّا يلي غطفان.

(4) انظر: التاريخ السِّياسي العسكريّ ، ص 327.

(5) انظر: صلح الحديبية ، ص43.

(6) انظر: المصدر السابق نفسه ، ص45.

وقد عاد رسول الله(ﷺ) إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها[1].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبيَّة الَّتي قادها رسول الله(ﷺ) بنفسه ضدَّ أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب، وبني قريظة، وقبل غزوة خيبر[2]. وتتابعت سرايا رسول الله(ﷺ) بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين، فنجحت بعض هذه السَّرايا، وتعثر بعضُها الآخر، وكان أبرزها سرية عكَّاشة بن محصن الأسديّ؛ التي عُرفت بسريَّة الغَمْر[3]، وقد بعثها رسولُ الله(ﷺ) في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة، إلى بني أسد، فوصلت إلى موضعٍ يقال له: الغَمْر، فوجدت القوم قد هربوا، وتفرَّقوا في الجبال القريبة، فأغار عكَّاشة، وأصحابه على نعمٍ لهم، فغنموا مئتي بعير، وعادوا إلى المدينة[4].

ومن أبرزها أيضاً سريَّة محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ إلى ذي القَصَّة[5] لإرهاب بني ثعلبة، وعُوال، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة، وفي شهر ربيع الثَّاني سنة ستٍّ من الهجرة خرج محمَّد بن مسلمة في عشرةٍ من المسلمين حتَّى وردوا عليهم ليلاً، فأحدق بهم القوم وهم مئة رجل، فتراموا ساعةً من الليل، ثمَّ حملت عليهم الأعراب بالرِّماح فقتلوهم، ووقع محمَّد بن مسلمة جريحاً، ولم يتمكَّن من العودة إلا بعد أن مرَّ به رجلٌ من المسلمين، فحمله حتَّى ورد به المدينة[6].

وعلى الأثر بعث رسول الله(ﷺ) أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم، فلم يجدوا أحداً، ولكنَّهم غنموا بعض نعمهم، فساقوها، وعادوا بها إلى المدينة[7].

---

(1) انظر: التَّاريخ السِّياسي ، والعسكري ، ص 327.

(2) انظر: صلح الحديبية ، ص 45.

(3) الغمر: ماء لبني أسدٍ على ليلتين من فيد الَّذي هو قلعةٌ بطريق مكَّة.

(4) انظر: تاريخ الطَّبري (640/2).

(5) ذو القصَّة ، موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرَّبذة.

(6) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص 328.

(7) انظر: الواقديُّ (551/1).

وفي شهر جُمادى الأولى من السَّنة نفسها كانت سريَّة زيد بن حارثة الثَّانية إلى العيص[1] في سبعين ومئة راكب؛ لاعتراض قافلةٍ لقريش كانت مقبلةً من الشَّام، فأدركها، وأخذها، وما فيها، وأسـر بعض أفرادها، كان منهم أبو العاص بن الرَّبيع زوج زينب بنت رسـول الله(ﷺ) ، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسـول الله(ﷺ) ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص[2].
وفي شعبان سنة ستٍّ من الهجرة خرجت سريَّةٌ بقيادة عليِّ بن أبي طالبٍ لتأديب بني سعد بن بكر الَّذين جمعوا النَّاس لإمداد يهود خيبر، وقد بعثه رسـول الله(ﷺ) في مئةٍ من المسـلمين، فأغار عليهم، وغنم بعض نَعَمِهم، وعاد بها إلى المدينة[3].

كانت هذه السَّريَّة تأديباً لكلِّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع، حيث علمت تلك القبائل: أنَّ عين المدينة يقظة لكلِّ ما يدور حولها، وأنَّ جميع التَّحرُّكات كانت تحت المراقبة[4]، فقد تميزت الدَّولة الإسـلاميَّة بدقَّة رصـدها لأعدائها، وهكذا يكون التَّخطيط الحربيُّ السَّليم، وذلك بقطع الطَّريق على تجمُّع الأعداد الكبيرة حتَّى بالإمدادات الصَّغيرة[5].

إنَّ حركة السَّرايا، والبعوث الَّتي كان يقودها رسول الله(ﷺ) ترشد المسلمين إلى أهمِّية متابعة أخبار الأعداء، وجمع المعلومات عنهم، فقد كانت المعلومات تتجمَّع عند رسـول الله(ﷺ) من مصادر متعدِّدة: سراياه الاستطلاعيَّة، المسلمين المتخـفِّين المتعاطفين مع المسلمين، المعاهدين، الفراسة واستكشاف ما وراء السُّطور، المهم: أنَّ رسول الله(ﷺ) ما كان يفاجأ بتامرٍ داخليٍّ، أو تهديدٍ خارجيٍّ، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضيَّةٍ يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضَّوابط الشَّرعية[6].

---

(1) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليالٍ.
(2) انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمَّد رضا ، ص 245 ، 246.
(3) انظر: التاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 330.
(4) انظر: تفسير القران العظيم (491/3).
(5) انظر: تفسير السَّعدي (136/4).
(6) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص 189.

خامساً: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرنيّين:

قدِم على رسول الله(ﷺ) جماعةٌ من عُكَل[1] وعُرينة[2]، في شوال من العام السَّادس الهجري[3]، وتكلَّموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله! إنَّا كنَّا أهل ضرعٍ، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله(ﷺ) بذودٍ[4]، وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها، ويتمسَّحوا بأبوالها، فانطلقوا حتَّى إذا كانوا ناحية الحَرَّة؛ كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعيَ النَّبيِّ(ﷺ) ، واستاقوا الذَّود، فبلغ النَّبيَّ(ﷺ) خبرُهم، فبعث الطَّلب في آثارهم[5]، فقبضوا عليهم، فأمر بهم، فسملوا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وأرجلهم، وتُركوا في ناحية الحرَّة حتَّى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث: بلغنا: أنَّ النبي(ﷺ) بعد ذلك كان يحثُّ على الصَّدقة، وينهى عن المثْلَة. [البخاري (4192)][6].

وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قومٌ سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسولَه(ﷺ) »[7].

قال الجمهور: إنَّ الآية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: 33]، قد نزلت في هؤلاء العُرنيّين[8]، وقيلت أسباب أخرى في نزولها[9].

وعلى كلِّ حالٍ فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باقٍ حتَّى يومنا

---

(1) عكل: قبيلة من تيم الرباب.

(2) عرينة: حيٌّ من بُجيلة.

(3) من رواية الواقدي (568/2) معلقة ، وابن سعد (93/2) معلقة.

(4) الذَّود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل: ما بين الثنتين إلى التِّسعة.

(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 478.

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص 478.

(8) انظر: سبل الهدى والرَّشاد ، للشَّامي (181/6 . 190) فيها تفصيل.

(9) انظر: تفسير الطَّبري (242/10 . 244).

هذا، وأدلُّ دليلٍ على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام، سواء كانت الآية نزلت في الكفَّار، أم في المسلمين، وهذه الآية نازلةٌ في المشركين، كما في البخاريِّ، فدلَّ ذلك على أنَّ العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المِثْلَة منسوخةً، أو منهياً عنها، وأنَّ النَّبيَّ(ﷺ) سمل أعين العُرنيّين لا يستدلُّ به في هذه القضيَّة ؛ لكون العُرنيّين سملوا أعين الرُّعاة، فصار سمل النَّبيِّ(ﷺ) لهم قصاصاً لا مُثْلَةً[1].

إنَّ حادثة العُرَنيِّين ترتَّب عليها تنفيذ حكم الحرابة، ونزول آيات بيناتٍ في هذا الحكم، فقد حصر المولى – عزَّ وجلَّ – جزاء المحاربين في أربعة أمورٍ، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر، ثمَّ إنَّه وصف هؤلاء المحاربين بأوصافٍ يشمئزُّ منها كلُّ عاقل، ذلك أنَّه وصفهم بأنهم حاربوا الله تعالى، ورسوله(ﷺ) ، وأنَّهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكَّانها، وتقتيلهم، وسلبهم، ونهب ممتلكاتهم ظلماً، وجوراً لا مستند لهم، ولا باعث إلا الإفساد، والطُّغيان، فكانت رحمةُ الله تعالى الرَّحيم بهم وبغيرهم مِنْ خلقه مقتضيةً الحكم عليهم بواحدٍ من أمورٍ أربعةٍ، وهي: القتل، أو الصَّلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو الإبعاد عن مخالطة العامَّة وعزلهم عنها بالنَّفي والتَّغريب؛ حتَّى لا تتكرَّر منهم تلك الجرائم الشَّنيعة، وحتى يرتدع غيرُهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشَّنيع، ولكي يطهِّرَهم ما يوقع بهم من عقابٍ من الذُّنوب، والاثام؛ إن هم تابوا، ورجعوا إلى رشدهم، وصوابهم.

ثمَّ إنَّ هؤلاء لهم ذِلَّةٌ، ومهانةٌ في الحياة الدُّنيا لأذيَّتهم المسلمين، وقد علَّل تعالى لحوق تلك الرَّذيلة بهم مدَّة الحياة الدُّنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقيةٌ معهم إلى يوم القيامة؛ لكون الرَّب جلَّ وعلا أعدَّ لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً.

ثمَّ استثنى جلَّ وعلا من هؤلاء مَنْ أناب إليه، ورجع في أسلوبٍ حكيم مؤثِّرٍ داعٍ إلى رجوعهم، وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاؤوا تائبين قبل القدرة عليهم؛ لكون تلك التَّوبة مظنَّةً لصدقهم في توبتهم، ورجوعهم عن غيِّهم؛ لأنَّهم رجعوا قبل القدرة عليهم.

---

(1) انظر: علاج القران الكريم للجريمة ، د. عبد الله الشنقيطي ، ص 297 ، 298.

وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم: أنَّهم إن قدر عليهم قبل التَّوبة؛ لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم ، وهذا نوعٌ من العلاج في غاية الدقَّة ، والإنصـــاف ، وفيه من الحفز على التَّقليل من هذه الجريمة، وتركها ما لا يخفى على ذي عقلٍ لبيب.

وكذلك الشَّأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجيَّة، كلُّها توافق الذَّوق السَّليم، والعقل الرَّاجح المتَّزن المتمتِّع بصفاء الفطرة السَّليمة.

ثمَّ ختم تعالى الايتين الكريمتين بأنَّه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب منهم، وأصلح، فلا يقنط أحدٌ من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربِّه، ومغفرته عظيمُ ذنبه، وجسيم خطئه، ما لم يقارف شِرْكاً. وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنيَّة الحرابة في المجتمع الإسلاميّ علاجاً لا مزيد عليه، وذلك واضحٌ ممَّا يلي:

1 – وصف المحارِب بأنَّه محاربٌ لله تعالى، ولرسوله(ﷺ) .

2 – عظم الجزاء المترتِّب على الحَرابة أيَّاً كان هو.

3 – مكانتُه الدَّنيئة في الدُّنيا، والآخرة؛ إن لم يتب.

4 – يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشَّـــنعاء بفتحه باب التَّوبة لمتعاطيها على مصـــراعيه؛ حتَّى لا يكون ســـدُّه في وجهه حافزاً له على التَّمادي في جرمه، والاســـتمرار في عتُوِّه[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 33 – 34].

وهكـذا كانت حركـة بنـاء المجتمـع، وإقامـة الدَّولـة متشابكـةً فـي قضاياهـا العسكريَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والأخلاقيَّة، والاقتصاديَّة.

---

(1) انظر: علاج القران الكريم للجريمة ، ص 313 ، 314 ، 315.

المبحث الثَّالث

تصفية المحرِّضين على الدَّولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلاَّم بن أبي الحُقيْق:

كان أبو رافع سـلاَّم بن أبي الحُقَيْق من يهود بني النَّضـير كثير التَّحريض على الدَّولة الإسـلاميَّة، حتَّى إنَّه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشـركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسـول الله(ﷺ) ، وشـاع أمر أبي رافعٍ، وانتشـر، وكان ممَّن ألَّب الأحزاب على رسـول الله(ﷺ) ، وأصبح تحريضه على دولة الإسـلام من الأخطار الَّتي يجب أن يوضع لها الحدُّ(1).

1 – توجُّه السَّرية إلى خيبر، ودخولها:

فبعث رسـول الله(ﷺ) إلى أبي رافعٍ اليهوديِّ رجالاً من الأنصـار، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع في حصنٍ له، فلـمَّا دنوا منه، وقد غربت الشَّمس وراح النَّاس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصـحابه: اجلسـوا مكانكم فإِنِّي منطلقٌ، ومتلطِّفٌ للبوَّاب لعلِّي أن أدخل، فأقبل حتَّى دنا من الباب، ثمَّ تقنَّع بثوبه كأنه يقضي حاجةً، وقد دخل النَّاس، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل؛ فادخل فإِنِّي أريد أن أغلق الباب، فدخلتُ، فكمنتُ، فلـمَّا دخل الناس أغلق الباب، ثمَّ عَلَّقَ الأغاليق (أي: المفاتيح) على ودٍّ (أي: وتد)، قال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد (المفاتيح) فأخذتُها، ففتحت الباب(2).

2 – تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع:

ولـمَّا دخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريَّته إلى داخل الحصن؛ أخذوا

---

(1) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد قلعجي ، ص 212.

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 465 ، والبخاري كتاب المغازي ، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.

ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهوديِّ الخبيث أبي رافعٍ.

وقد جاء في البخاريِّ: أنَّ عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصـــحاب أبي رافعٍ يســـمرون عنده، وكان في علالي له (أي: غرفة)، فكمنت (أي: اختبأت) حتَّى ذهب عنه أهلُ سَمَرِه، ولـمَّا ذهبوا صـــعِد إليه. وكلَّما دخلَ باباً أغلقَه عليه من الدَّاخل حتى لا يحول أحدٌ بينه وبين تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع، فانتهى إلى أبي رافع فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وســط عياله لا يدري أين هو من البيت، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويتُ نحو الصَّوت فأضربه ضربةً بالسَّيف؛ وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً (أي: لم أقتله).

وصاح، فخرجت من البيت، فأمكثُ غير بعيدٍ ثمَّ دخلتُ إليه.

فقلت: ما هذا الصَّوت يا أبا رافع؟!

قال: لأمِّك الويلُ! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قَبْلُ بالسَّيف.

قلت: فأضـربه ضـربةً أثخنته، ولم أقتله، ثمَّ وضـعت ضـبيب السَّـيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنِّي قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتَّى انتهيت إلى درجةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أنِّي قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعتُ في ليلةٍ مقمرةٍ، فانكســرتْ ســاقي، فعصـبتُها بعمامةٍ، ثمَّ انطلقت حتَّى جلســت على الباب، فقلت: لا أخرج اللَّيلة حتَّى أعلم أقتلته؟ فلـــمَّا صـاح الدِّيك قام النَّاعي على السُّــور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصــحابي، فقلت: النَّجاءَ، فقد قتل الله أبا رافعٍ، فانتهيت إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، فحدَّثته، فقال لي: «ابســـط رجلك». فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنَّها لم أشتكها قطُّ. **[البخاري (4039)]**.

وفي روايةٍ أخرى للبخاريِّ قال عبد الله بن عتيك: قلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟ قال:

فعمدت نحو الصَّوت، فأضربه، وصاح فلم تُغْنِ شيئاً، ثمَّ جئت كأنِّي أغيثه.

فقلت: مالك يا أبا رافع؟! وغيَّرت صـــوتي، فقال: ألا أعجبك، لأمِّك الويلُ! دخل عليَّ رجلٌ فضـربني بالسَّـيف. قال: فعمدت له أيضـاً فأضـربه أخرى، فلم تُغْنِ شـيئاً، فصـاح، وقام أهله، ثمَّ جئتُ وغيَّرتُ صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلقٍ على ظهره، فأضع السَّيف في بطنه ثمَّ أنكفئ عليه، حتَّى سمعتُ صوت العَظْمِ.. [البخاري (4040)].

وقد ذكرت كتب السِّيرة: أنَّ امرأة أبي رافع حينما ضُرِب بالسَّيف صاحت؛ فأراد قتلها، ثمَّ كف عن ذلك؛ لأنَّ رسـول الله(ﷺ) قد نهاهم عن قتل النِّسـاء، والصِّـبيان[1]، وأنَّ ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود، وأنَّه استخدمها مع زوجة أبي رافعٍ اليهوديِّ، وأهل بيته.

ويذكر كُتَّاب السِّـيرة: أنَّ سـرية ابن عتيك كلَّها شـاركت في ضـرب أبي رافع، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم ادَّعى: أنَّ ضـــربته كانت هي القاضـــية على أبي رافعٍ، فقال رســـول الله(ﷺ) : «عجِّلوا بأسـيافكم»، فأتوا بأسـيافهم، فنظر إليها، ثمَّ قال: «هذا قتله»، وهو سـيف عبد الله بن أُنيس، هذا أثر الطَّعام في سـيف عبد الله بن أُنيس. [البخاري (4039 و4040)، وابن سعد (2/91 – 92)، والبيهقي في السنن الكبرى (9/10 – 81)، وعبد الرزاق في المصنف (5/407 – 410)، وابن هشام (3/286 – 288)].

وقد يتوهَّم القارئ الكريم أنَّ هناك تناقضـاً بين رواية البخاريِّ، ورواية كتب السِّـيرة الأخرى؛ الَّتي تقول: إنَّ الضـربة القاضـية كانت من عبد الله بن أُنيس، والحقُّ: أنَّه ليس كذلك؛ ذلك لأنَّ عبد الله بن عتيك يخبر عن نفســه وأنَّه غلب على ظنِّه: أنَّه هو القاتل، وأنَّه قد حكى عن دوره في ضــرب اليهوديِّ أبي رافعٍ، ولا يعني هذا أنَّ غيره لم يشــارك في قتله؛ إذ لم ينفِ هو مشــاركة غيره له في قتل أبي رافع، والرِّوايات يفسِّر بعضها بعضاً، ويشرح بعضُها بعضاً، والرِّوايات تذكر: أنَّ كلَّ واحد من أفراد السَّريَّة كان يدَّعي أنَّ ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافعٍ.

---

(1) انظر: شرح المواهب اللدنية (2/168).

وقد نظر رسـول الله(ﷺ) في دعواهم، وفحص سـيوفهم، وحكم بعد ذلك بأنَّ الضَّـربة القاضـية كانت بسـيف عبد الله بن أُنيس رضـي الله عنه؛ لظهور أثر الطَّعام عليه، أي: أنَّ هذا السَّيف قد دخل جوف أبي رافع ومزَّق أحشاءه، وقطَّع أمعاءه، وخلط غذاءه في جوفه(1).

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سريَّة عبد الله بن عتيك، وهم: مسعودُ بن سنان، وعبدُ الله بن أُنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخُزاعي بن أسود(2).

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

1 - أنَّ كلَّ أعضاء هذه السَّريَّة كانوا من الخزرج، فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الَّذين قتلوا كعب بن الأشرف، فقد كانوا كفرسي رهانٍ في المسابقة في الخيرات، فهم لا يتنافسـون على اغتنام مظاهر الحياة الدُّنيا من المال، والمناصـب، وإنَّما يتسـابقون إلى الفوز بمرضاة النَّبيِّ(ﷺ) الَّتي مالها رضوانُ الله تعالى، والسَّعادة الأخرويَّة(3).

قال كعب بن مالك: وكان ممَّا صـنع الله تعالى به لرسـوله(ﷺ) : أنَّ هذين الحيين من الأنصار: الأوس، والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله(ﷺ) تصاول الفحلين - يعني: يتسابقان في خدمته - لا يصـنع الأوس شـيئاً فيه عن رسـول الله(ﷺ) غناءً إلا قالت الخزرج: والله! لا تذهبون بهذه فضـلاً علينا عند رسـول الله(ﷺ)، وفي الإسـلام، قال: فلا ينتهون حتَّى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً؛ قالت الأوس مثل ذلك. **[ابن هشام (286/3)].**

2 - فائدةُ تعلُّم لغةِ العدوِّ: فقد اسـتطاع عبد الله بن عتيك أن يصـعد إلى حصـن أبي رافع، وأن يخاطب امرأته، وأن يدخل بيته مطمئناً؛ لأنَّه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك اسـتحباب تعلُّم لغة غير المسـلمين لا سـيَّما الأعداء منهم، وخاصَّـة لأولئك العسـكريين الَّذين يذهبون لمهمَّات اسـتطلاعيَّة تجمع أخبار العدو، وتزوِّد القيادة بها، والقيادة

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (189/1).
(2) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 91.
(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي (177/6).

ترسم[1].

3 – عناصر نجاح خطَّة ابن عتيك في قتل أبي رافعٍ اليهوديّ: ذهابُه وحدَه، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن، ويحاول أن يدخله، ومن ثَمَّ يفتِّش عن طريقة يُدخل بها أفراد سريَّته، وتصرُّفه العادي الَّذي لم يلفت انتباه أحدٍ من الحرَّاس، وقدرته على التَّمويه على الحارس، وإيهامه: أنَّه يقضي حاجته، وهذا منع الحارس من النَّظر إليه، وتفحُّصه، وتفرُّسه في وجهه، ومراقبة حركة الحارس الدَّقيقة بعد دخول الحصن، وإغلاقه، فقد كمن في مكانٍ لم يشعر به الحارس، وراقب الحارس حتَّى وضع مفتاح الحصن في مكانٍ معيَّن، وتابعه حتَّى انصرف، وأخذ المفتاح، وأصبح يستخدمه كيفما يشاء، وفي أيِّ وقتٍ شاء[2].

4 – عناية الله – عزَّ وجلَّ – بأوليائه المؤمنين، فهذا الصَّحابيُّ الجليل استمرَّ بعونٍ من الله تعالى يمشي، ويبذل طاقته حتَّى بعد أن أصيبت رجله، وكأنَّه لا يشكو من علَّةٍ، حتَّى إذا انتهت مهمَّته تماماً، وأصبح غير محتاجٍ لبذل الجهد؛ عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلمَّا حدَّث النَّبيَّ(ﷺ) خبره؛ قال له: «ابسُطْ رجلك» قال: فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنَّها لم أشتَكِهَا قطُّ. **[البخاري (4039)]**.

5 – فوائد من القصَّة استخرجها ابن حجر، حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الَّذي بلغته الدَّعوة، وأصرَّ، وقتل من أعان على رسول الله(ﷺ) بيده، أو ماله، أو لسانه. وجواز التَّجسُّس على أهل الحرب، وتطلُّب غرَّتهم، والأخذ بالشدَّة في محاربة المشركين، وجواز إبهام القول للمصلحة، وتعرُّض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، والحكم بالدَّليل، والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته، واعتماده على صوت النَّاعي بموته، والله أعلم[3].

---

(1) انظر: الصّراع مع اليهود (191/1).
(2) انظر: الصراع مع اليهود (192/1، 193).
(3) فتح الباري (400/7) في شرح حديث (4039، 4040).

6 – وجود عبد الله بن أُنيس جندياً في هذه السَّـــريَّة، وليس أميراً فيها له دلالتُه الكبرى في عملية التَّربية والتَّعليم، فهو العقبيُّ، البدريُّ، المصـلِّي للقبلتين؛ فهو من السَّـابقين الأوَّلين من الأنصار، وليس عبد الله بن أُنيس نكرةً في مجال الجهاد والبطولات، فلا بدَّ أن نذكر: أنَّه السَّريَّة وحده الَّذي ابتعثه رسول الله(ﷺ) لاغتيال سفيان بن خالد الهُذلي في أطراف مكَّة، وهو الَّذي كان يعدُّ العدَّة لغزو المدينة، وهو الَّذي نجح نجاحاً باهراً في مهمَّته تلك، وقتله في فراشـــــه، وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصـــراً مظفَّراً، فهو مليءٌ بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنَّما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التَّاريخ المشرق في سـجلاته عند ربِّه – عزَّ وجلَّ – قبل أن يكون عند النَّاس.

وهو درسٌ تربويٌّ خالدٌ قد استوعبه أصحاب النَّبيِّ(ﷺ) ، وهذا النَّوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالَّذي يحكم في الجيوش تســـلســـل الرُّتب، حتى إنَّ الرتبة الواحدة يحكم بها المتقـدِّمُ المستجدَّ، وعلـى المستجـدِّ السَّمع، والطَّاعة للمتقدِّم؛ ولو بأشهرٍ، وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدَّم على عبد الله بن أُنيسٍ أحدٌ، ولكنَّها التَّربية النَّبويَّة العظيمة الَّتي خطَّها النَّبيُّ(ﷺ) في أكثر من موقعٍ؛ لتجعل هذا الجيل يتعلَّم من ســـابقه، ويتدرَّب على يديه، فطالما أرســـل(ﷺ) سرايا فيها أبو بكرٍ، وعمر جنديين عاديين في غمار الجنود[1].

ثانياً: سريَّة عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهوديِّ:

بلغ رسـول الله(ﷺ) أنَّ اليسـير بن رِزام أمير اليهود بخيبر بعد سـلام بن أبي الحُقَيق أخذ في جمع يهود الشَّـمال، وتحريضـهم على رسـول الله(ﷺ) ، ولم يكتفِ بذلك، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان، وجمعها لقتال رســـول الله(ﷺ) ، وحين علم رســـول الله(ﷺ) ما يبيِّته اليهود له من الخديعة، والمكر، رأى(ﷺ) أن يتأكَّد من ذلك قبل أن يقدم على أمرٍ ما، فأرســـل عبد الله بن رواحة في نفرٍ من المســـلمين، رواداً يكتشـــفون ما تخبئه يهود، ومن لَفَّ لفَّها من مشـــركي

---

(1) انظر: التربية القياديَّة (148/4).

العرب[1].

وقد تأكَّدت المخابرات النَّبويَّة من أمر اليُسَــيْر بن رِزَام، وكان هذا كافياً لقيام النَّبيّ(ﷺ) ببعث سـريَّةٍ في ثلاثين راكباً، عليهم عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أُنيس، فأتوه، فقالوا: أرسـلنا إليك رسـول الله(ﷺ) ليسـتعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتَّى تبعهم في ثلاثين رجلاً، مع كلِّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسـلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره، حتَّى إذا كانوا بَقرقَرة ثيار على سـتَّة أميالٍ من خيبر، ندم اليُسَـيْر على مسـيره إلى رسـول الله(ﷺ) ، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أُنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثمَّ ضربه بالسَّيف، فقطع رجله، وضـربه اليُسَـير بِمِخْرَشٍ[2] في يده مِنْ شـواحط[3]، فضـرب به وجه عبد الله فأمَّه[4]، ومال كلُّ رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه، فلـمَّا قدِم ابن أُنيس على رسـول الله(ﷺ) ؛ تفل على شـجَّته، فلم تَقِحْ، ولم تؤذه. **[ابن هشام (3/266 – 267)]**[5].

وكانت هذه السَّريَّة في شوال سنة ستٍّ من الهجرة[6].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 – كانت الخطَّة النَّبويَّة هي محاولة إيقاف نهر الدَّم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أنَّ الحقد اليهوديَّ الَّذي أشرب قلوبهم، والسُّمَّ الَّذي ينفثونه على المســلمين، هو الَّذي غلب آخر الأمر، وأفســد الخطَّة كلَّها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين، فوقعت الدَّائرة عليهم.

---

(1) انظر: اليهود في السنّة المطهَّرة (1/388 ، 389).
(2) المخرش: شبه المقرعة يضرب به ، وهي معوجَّة الرأس.
(3) الشَّواحط: شجر ابن النبع ، من أشجار الجبال الَّتي يُتَّخذ منها القسي.
(4) فأمَّه: أي: جرحه في رأسه ، والشَّجة المأمومة هي التي تبلغ أمَّ الرأس.
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص477 ، والبداية والنِّهاية (سنة 11 هـ).
(6) المصدر السابق نفسه ، ص 477.

2 - إنَّ البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً، وشـــديداً؛ فلن يحســم المواجهة مع العدوِّ، وسـيجعل الحرب تفني كلَّ شـيء، وتأكل كلَّ شـيءٍ، فلا بدَّ من بثِّ الرَّهبة، والرُّعب في قلب العدوِّ، ولا بدَّ من الشِّـدَّة معه حين لا يجدي الحوار، أو المناقشـة، ولا بدَّ من الغلظة الَّتي تشـعر العدوَّ: أنَّ مَنْ يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

3 - شـهد العامُ السَّـادس من الهجرة تصـعيداً عنيفاً في عمليَّات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمرُّ شـهرٌ دون سـريَّةٍ، أو سـريَّتين تضـرب في الصَّـحراء، وتفضُّ جمعاً، أو تحطِّم عدوّاً، أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» [سبق تخريجه]، فقد كان حزب الله ينطلق في الافاق باسـم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافَّةً، ويزيح كلَّ طاغوتٍ يحول دون وصـول هذه المبادئ، ونشـهد حزب الله في أفراده جميعاً، والَّذين تلقوا أعلى مسـتويات التَّربية الخلقية، والفكريَّة، والعسـكريَّة، والسـياسـيَّة كيف ينفِّذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعُهم ترجمةً عمليَّةً وحيَّةً لمبادئهم، وكيف يتقدَّمون ليتصـدَّروا مرحلةً جديدةً تبدأ معالمها، وملامحها مع صلح الحديبية[1].

* * *

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (4/189 إلى 192).

الفصل الثَّالث عشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)[1]

المبحث الأوَّل

تاريخه، وأسبابه، ومخرج رسول الله(ﷺ) إلى مكَّة

أولاً: تاريخه، وأسبابه:

في يوم الإثنين الأوَّل من ذي القعدة سنة (6 هـ)[2]، خرج الرَّسول(ﷺ) من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكَّة ؛ لأداء العمرة[3]. وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله(ﷺ) رأى رؤيا في منامه – وهو في المدينة –، وتتلخَّص هذه الرُّؤيا في أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) رأى: أنَّه قد دخل مكَّة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدِّياً للعمرة، وقد ساق الهدي معظِّماً للبيت مقدِّساً له، فبشر النَّبي(ﷺ) أصحابه، ففرحوا بها[4] فرحاً عظيماً، فقد طال عهدُهم بمكَّة، والكعبة؛ الَّتي رضعوا حبَّها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها، وشوقاً إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطَّواف حولها، وتطلَّعت إليه تطلُّعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدَّهم حنيناً إلى مكَّة، فقد ولدوا، ونشؤوا فيها، وأحبُّوها حبّاً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلـمَّا أخبرهم رسول الله(ﷺ) بذلك تهيَّؤوا لتلك الزيارة العظيمة[5]، واستنفر(ﷺ) أهل البوادي والأعراب؛ ليخرجوا معه؛ لأنَّه كان يخشى أن تصدَّه قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التَّحالف

---

[1] [البخاري (2731 و2732)، وأحمد (4/324 ـ 326)، والطبراني في المعجم الكبير (16/20) برقم (14)، وابن هشام (3/321 ـ 333)، والبيهقي في الدلائل (4/99 ـ 108)].

(2) أجمع أهل العلم على تاريخها دون خلاف ، وانظر: المجموع ، للنووي (7/78).

(3) انظر: نضرة النعيم (1/334).

(4) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم(2/495).

(5) انظر: السيرة النبوية ، للندوي ، ص 273.

العســـكريِّ الَّذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنوَّرة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التَّحالف جعل الدولة الإســـلاميَّة بين طرفي الكماشـــة، ثمَّ إطباق فكَّيها عليها، وإنهاء الوجود الإسـلامي فيها، فقد حان الوقت لكسـر ذلك التَّحالف سياسـيّاً، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبةً ليســت ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حقِّ قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء، وتجيز مَنْ تشاء، فإذاً من حقِّ محمَّد(ﷺ) وأصحابه زيارةُ الكعبة[1].

وانتشـر خبر خروج رسـول الله(ﷺ) بين قبائل العرب، وكان انتشـار الخبر له أثرٌ في الرأي العامِّ، وخصـوصـاً بعدما أكَّد رسـول الله(ﷺ) : أنَّه لا يريد حرباً، وإنَّما يريد أن يعتمر، ويعظِّم شـــعائر الله، وحقَّق هذا الفعل الكريم مكاســـب إعلاميَّةً رفيعة المســـتوى، وقد كان هدف النَّبيِّ(ﷺ) معلناً: ألا وهو زيارة بيت الله الحرام؛ لأداء العمرة، فتجرَّد هو وأصـحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلَّد الهدي، وأشعره[2].

وقد كان(ﷺ) على جانبٍ كبير من الحيطة، والحذر، فقد أرسـل بشـر بن سـفيان الخزاعيَّ عيناً له[3]، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافيَّةً مكوَّنةً من عشرين رجلاً، وفي ذلك يقول الواقديُّ: «دعا رسول الله(ﷺ) عبَّاد بن بِشر فقدَّمه أمامه طليعةً في خيل المسلمين عشرين فارساً، وكان فيها رجالٌ من المهاجرين، والأنصـار»[4]، وكان هدفه(ﷺ) من ذلك الاسـتعداد للطوارئ الَّتي يمكن أن يفاجأ بها، - وأيضاً - فقد كانت مهمَّة هذه الطليعة استكشاف خبر العدوِّ[5].

وأخذ(ﷺ) بمشـورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسـول الله! تدخل على قومٍ هم لك أهل حربٍ بغير ســـلاحٍ، ولا كراعٍ؟ فبعث النَّبيُّ(ﷺ) إلى المدينة من يحمل له الكراع،

---

(1) قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، ص 213 ، 214.

(2) أشعره: إشعار البدن أن يشقَّ أحد جنبي سنام البدنة حتَّى يسيل دمها ، انظر: مرويات الحديبية ، ص 55.

(3) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 58 ، 59.

(4) انظر: مغازي الواقدي (974/2).

(5) انظر: صلح الحديبية ، لمحمد باشميل ، ص 309.

والسِّـلاح[1]وكان قصـده(ﷺ) من ذلك الاسـتعداد لهؤلاء الأعداء؛ الَّذين يملكون من السِّـلاح، والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين، والنَّيل منهم[2]، وهذا التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأســـباب من هديه الكريم الَّذي جعله لأمَّته لتقتدي به من بعده(ﷺ) ؛ لما في ذلك من المصالح الكثيرة، ولما فيه من درء مكايد الأعداء؛ الَّذين يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر[3].

ثانياً: وصول النَّبي(ﷺ) إلى عُسْفَان:

لــــمَّا وصل رسول الله(ﷺ) إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبيُّ الخزاعيُّ، فقال: يا رســول الله! هذه قريش قد سمعت بمســيرك؛ ومعها العُوذُ المطَافِيلُ[3]، قد لبســوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً، فقال رســـول الله(ﷺ) : «يا ويح[4] قريش! لقد أكلتهُم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر النَّاس؟ فإن أصابوني؛ كان الَّذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسـلام؛ وهم وافرون[5]، وإن لم يفعلوا؛ قاتلوا وبهم قوَّة، فماذا تظن قريش؟ والله! إني لا أزال أجاهدهم على الَّذي بعثني الله له، أو تنفرد هذه السَّالفة[6]».

وقد استشار(ﷺ) أصحابه لــــمَّا بلغه خبر استعداد قريش لصدِّه عن دخول البيت الحرام، وعرض(ﷺ) على الصَّــحابة رضــي الله عنهم المشــورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم، والتَّصميم:

1 - الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الَّذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المســـلمين وصدِّهم عن البيت.

2 - قصــد البيت الحرام فمن صــدَّه عنه قاتله حتَّى يتمكن من تحقيق هدفه[7]. ولــــمَّا

(1) تاريخ الطبري (622/2).
(2) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص489.
(3) المراد: خرجوا ومعهم النِّساء ، والأولاد لئلا يفرُّوا عنهم وهو على الاستعارة.
(4) يا ويح: كلمة ترحُّم ، وتوجُّع ، انظر: لسان العرب (996/3).
(5) وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء ، انظر: لسان العرب (958/3).
(6) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم، لمحمد رضا.
(7)]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم، ص 489.

عرض(ﷺ) المشـــورة في هذا الأمر على الصَّـــحابة؛ تقدَّم أبو بكر الصِّـــدِّيق برأيه الَّذي تدعمه الحجَّة الواضحة، حيث أشار على رسول الله(ﷺ) بترك قتالهم، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة؛ حتَّى يكون بدء القتال منهم، فاســـتحســـن النَّبيُّ(ﷺ) هذا الرَّأي، وأخذ به، وأمر النَّاس أن يمضوا في هذا السَّبيل[1]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النَّبيُّ(ﷺ) بأصحابه صلاة الخوف بِعُسْفَان.

ثالثاً: الرَّسول(ﷺ) يغيِّر الطَّريق، وينزل بالحديبية:

ولـــــمَّا بلغ رسـول الله(ﷺ) : أنَّ قريشــاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصـب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرِّر المصادمة، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصِّـــدام مع المشـــركين، فقال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم؛ الَّتي هم بها؟ فقال رجلٌ مِنْ أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شَـقَّ على المسلمين السَّـير فيه، حتَّى خرجوا إلى أرضٍ سـهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسـول الله(ﷺ) للناس: «قولوا: نستغفر الله، ونتوب إليه». فقالوا ذلك.

فقال: «والله إنَّها الحطَّة الَّتي عُرِضت على بني إسرائيل، فلم يقولوها[2]».

فأمر رسول الله(ﷺ) النَّاس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحَمْشِ في طريق تخرجه إلى ثنية المرار، فهبط الحديبية من أسفل مكَّة، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفَّة ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالدٌ إلا وقَــتَرَةُ (غبرة) جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكَّة يُحذِّر أهلها، ويأمرهم بالاســتعداد لهذا الحدث المفاجئ[3] وقد أصـــاب الذُّعر المشـــركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية، حيث تعرَّضت مكَّة للخطر، وأصبحت مهدَّدة من

(1) انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، للشَّيخ عدنان النَّحوي ، ص 160.
(2) انظر: السّيرة النبوية ، لابن هشام (338/3) ، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد رضا.
(3) غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص 39.

المسلمين تهديداً مباشراً[1].

يقول اللواء محمود شـيت خطَّاب في هذا الدَّرس الرائع: لم تكن حركة المسـلمين على هذا الطريق خوفاً من قوَّات الجيش، فالَّذي يخاف من عدوِّه لا يقترب من قاعدته(2) الأصليَّة، وهي مركز قوَّاته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصـليَّة؛ حتَّى يُطيل خط مواصـلات العدوِّ، وبذلك يزيد من صـعوباته، ومشـاكله، ويجعل فرصـة النَّصـر أمامه أقلَّ من حالة الاقتراب من قاعدته الأصليَّة[2].

وقد جاء في كتاب (اقتباس النِّظام العسـكريِّ في عهد الرَّسـول(ﷺ)) ما يُبيِّن الحكمة من تغيير الطُّرق ما نصُّـه: ويؤخذ من اتِّخاذ الأدلَّة والتَّحوُّل إلى الطُّرق الامنة: أنَّ القيادة الواعية البصـيرة تسـلك في سـيرها بالجيش طرقاً بعيدةً عن المخاطر، والمهالك، وتتجنَّب الدُّروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرُّفات العدوِّ، وهجماته[3].

رابعاً: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكنْ حبسها حابسُ الفيل»:

وعندما اقترب الرَّسـول(ﷺ) من الحديبية بركت ناقتُه القصـواء، فقال الصَّـحابة رضـي الله عنهم: خلأتِ القصـواء[4] ، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «ما خلأت القصـواء، وما ذاك لها بِخُلُقٍ، ولكن حبسـها حابس الفيل». ثمَّ قال: «والَّذي نفسي بيده! لا يسألونني خطَّةً يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إيَّاها[5]». ثمَّ زجرها، فوثبت، ثمَّ عدل عن دخول مكَّة، وسار حتَّى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ – بئر – قليل الماء، وما لبثوا أن نزحوه، ثمَّ اشـتكوا إلى رسـول الله(ﷺ) العطش، فانتزع سـهماً من كنانته، ثمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالرِّيِّ، فارتووا جميعاً [6]،

---

(1) انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي فارس ، ص 374.

(2) انظر: الرَّسول القائد صلى الله عليه وسلم، لمحمود شيت خطاب ، ص 186 . 187.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 374 نقلاً عن اقتباس النُّظم العسكريَّة ، ص 258.

(4) بركت من غير علةٍ ظاهرة ، فلم تبرح مكانها.

(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 484.

(6) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 484.

وفي روايةٍ: أنه جلس على شفة البئر، فدعا بماءٍ، فمضمض، ومجَّ في البئر[1]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا، كما ذكر ابن حجر[2] ويؤيّده ما ذكره الواقديُّ[3]، وعروة[4] من أنَّ الرَّسول(ﷺ) تمضمض في دلوٍ، وصبَّه في البئر، ونزع سهماً من كنانته، فألقاه فيها، ودعا، ففارت[5].

وفي بروك ناقة رسول الله(ﷺ) ، وقَسَمِه بعد ذلك دروسٌ، وعبرٌ، منها:

1 - كلُّ شيءٍ في هذا الكون يسير بأمر الله، ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته، وإرادته، فتأمَّل في ناقة رسول الله(ﷺ) أين بركت، وكيف كره الصَّحابة بروكها، وحاولوا إنهاضها لتستمرَّ في سيرها، فيستمرُّوا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النَّتائج، ولكنَّ الله - سبحانه وتعالى - أراد غير ذلك[6].

2 - وقد استنبط ابن حجرٍ العسقلانيُّ - رحمه الله - فائدةً جليلةً من قوله(ﷺ) : «حبسها حابس الفيل»[7]؛ فقال: وفي هذه القصَّة جواز التشبيه من الجهة العامَّة، وإن اختلفت الجهة الخاصَّة؛ لأنَّ أصحاب الفيل كانوا على باطلٍ محضٍ، وأصحاب هذه النَّاقة كانوا على حقّ محضٍ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً، أمَّا مِنْ أهل الباطل ؛ فواضحٌ، وأمَّا مِنْ أهل الحقِّ فللمعنى الَّذي تقدَّم ذكره[8].

3 - ومن الفوائد: أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبُغاة، والظَّلمة إذا طلبوا أمراً يعظِّمون فيه حرمةً من حرمات الله تعالى؛ أُجيبوا إليه، وأُعْطُوه، وأُعِينوا عليه؛ وإن مُنعوا غيره،

---

(1) الفتح (758/4) رقم (3577).
(2) الفتح (164/11) رقم (2731 ، 2732).
(3) المغازي (588/2).
(4) من رواية أبي الأسود عنه ،كمَّا ذكر ابن حجر في الفتح (164/11).
(5) انظر: السّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 484.
(6) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص 43.
(7) انظر: فتح الباري ، لابن حجر (260/6).
(8) انظر: فتح الباري ، لابن حجر (61/6).

فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون ممَّا سوى ذلك، فكلُّ من التمس المعاونة على محبوبٍ مُرْضٍ له أجيب إلى ذلك كائناً مَنْ كان، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ للهِ أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضيع، وأصعبها، وأشقِّها على النُّفوس[1].

4 - إنَّ الله - سبحانه وتعالى -، جلَّت قدرتُه، وعزَّت عظمتُه قضى ألا يكون قتالٌ بين المسلمين، والمشركين من أهل مكَّة في هذه الغزوة بالذَّات لحِكَمٍ ظهرت فيما بعدُ؛ منها:

أ - إنَّ دخول المسلمين بالقوَّة يعني: أن تحدث مذابح، وتَزْهَقَ أرواحٌ كثيرةٌ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ من الطَّرفين، وهذا أمرٌ لم يُرِدْه البارئ سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين: المؤمنين، والمشركين.

ب - إنَّ من المحتمل أن ينال الأذى، والقتل، والتَّشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكَّة؛ الَّذين يُخفون إسلامهم خوفاً من قومهم، وهذا فيه ما فيه من المعرَّة الَّتي لا يليق بمسلمٍ أن يقع فيها.

قال سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25].

ج - لقد سبق في علم الله - عزَّ وجلَّ -: أنَّ هؤلاء الَّذين يقفون اليوم صادِّين رسول الله(ﷺ)، وأصحابه رضي الله عنهم عن المسجد الحرام هم الَّذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرةً، حين يحملون هذه الرِّسالة للنَّاس، وينيرون ظلمة الطَّريق للمُدْلجين[2].

---

(1) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص 47.

(2) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص 45.

خامساً: السَّفارة بين الرَّسول(ﷺ) ، وقريش:

بذل رسـول الله(ﷺ) ما في وُسْـعِه؛ لإفهام قريش: أنَّه لا يريد حرباً معهم، وإنَّما يريد زيارة البيت الحرام، وتعظيمه، وهو حقٌّ للمسـلمين، كما هو حقٌّ لغيرهم، وعندما تأكَّدت قريش من ذلك أرسـلت إليه مَنْ يفاوضـه، ويتعرَّف على قوَّة المسـلمين، ومدى عزمهم على القتال؛ إذا أُلجئوا إليه، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطُّرق السِّلميَّة من جهةٍ ثالثةٍ[1].

1 – رَكْبٌ من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:

جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَةَ[2] نُصْـح رسـول الله(ﷺ) من أهل تهامة، وبيَّنوا: أنَّ قريشـاً تعتزم صـدَّ المسـلمين عن دخول مكة، فأوضـح لهم الرَّسـول(ﷺ) سبب مجيئه، وذكر لهم الضَّرر الَّذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنةٌ إلى وقتٍ معلومٍ حتَّى يتَّضح لهم الأمر، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب، ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريشٍ، وقالوا لهم: يا معشـر قريش! إنَّكم تعجَلون على محمَّدٍ، إنَّ محمداً لم يأتِ لقتال، وإنَّما جاء زائراً هذا البيت. فاتَّهموهم، وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنَّما جاء لذلك؛ فلا والله! لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً، ولا تتحدَّث بذلك العرب[3]. وقد ظهرت براعة النَّبيِّ(ﷺ) السِّـياسيَّة في عرضـه على مشـركي مكَّة الهدنة، والصُّـلح؛ لأنَّ في ذلك فوائدَ كثيرةً، منها:

أ – بالهدنة يضـمن حياد قريش، ويعزلها عن أيِّ صـراعٍ يحدث في الجزيرة العربيَّة، سـواءٌ كان هذا الصِّـراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللَّئيم الغادر؛ الَّذي يتربَّص بالمسلمين الدَّوائر.

ب – حرص الرَّسـول(ﷺ) على أن يبقى باب الاتِّصـال مفتوحاً بينه، وبين قريشٍ، ليسـمع

---

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 485.

(2) أي: خاصَّته ، وأصحاب سرِّه.

(3) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (340/3) ، والبداية والنِّهاية (غزوة الحديبية).

منهم، ويسمعوا منه بواسطة الرُّسل، والسُّفراء، وفي هذا تقريبٌ للنُّفوس وتبريدٌ لجوِّ الحرب، وإضعافٌ لحماسهم نحو القتال.

ج - حرصُه(ﷺ) على أن تُدْرِك خزاعةُ بقيادة بُديلٍ، والرَّكبُ الَّذي معه: أن حليفهم قويٌّ، فتزداد ثقتُهم به، وحلفهم له، ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي، ولم يُلْغَ، وتأكَّد في صلح الحديبية.

د - إنَّ العقلاء الَّذين يفكِّرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرَّسول(ﷺ) ، وأنَّه جاء معظماً للبيت؛ والمشركون يردُّونه، وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه، ويتعاطفون معه، فيقوى مركزُه، ويضعُف مركز قريشٍ الإعلاميُّ، والدِّينيُّ في نفوس النَّاس.

هـ - إنَّ مشركي مكَّة لم يطمئنُّوا إلى كلام بُديلٍ الَّذي نقله إليهم؛ ذلك لأنَّهم يعلمون: أنَّ خُزاعة كانت عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله(ﷺ) ، ويشعرون بودِّ خُزاعة للرَّسول(ﷺ) ، والمسلمين[1].

و - ويؤخذ من جواب رسول الله(ﷺ) لبُديل بن ورقاء حسنُ التلطُّف للوصول إلى الطَّاعات، وإن كانت غير واجبةٍ ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأنَّ النَّبيَّ(ﷺ) أجاب المشركين لـمَّا طلبوا منه، ولم يُظهر لهم ما في النُّفوس من البغض، والكراهية لهم لطفاً منه - عليه الصَّلاة والسَّلام - فيما يؤمِّل مِنَ البلوغ إلى الطَّاعة؛ الَّتي خرج من أجلها[2].

2 - سفارة عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ:

لم تقبل قريش ما نقله بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخُزاعيُّ عن رسول الله(ﷺ) ؛ من أنَّه جاء زائراً للبيت، ولم يأتِ مقاتلاً، واتَّهمتهم، بل وأسمعتهم ما يكرهون، فاقترح عليهم عروةُ بن مسعودٍ الثَّقفي أن يقابل الرَّسول(ﷺ) ، ويسمع منه، ثمَّ يأتيهم بالخبر اليقين [3]، وقد ذكر ذلك

(1) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص 67.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 68.
(3) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس، ص 68.

البخاريُّ في صحيحه، فقال: ... فقام عروةُ بن مسعودٍ فقال: أيْ قومِ، ألستم بالوالدِ؟ قالوا: بلى! قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى! قال: فهل تتَّهموني؟ قالوا: لا! قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ[1]، فلما بَلَّحُوا[2] عليَّ جئتكم بأهلي، وولدي، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها، ودعوني اتِهِ، قالوا: ائته. فأتاه، فجعل يكلِّم النَّبي(ﷺ) ، فقال النَّبيُّ(ﷺ) نَحْواً من قوله لبُدَيْلٍ، فقال عُرْوَةُ عند ذلك: أيْ مُحَمَّدُ! أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنِّي والله لا أرى وجوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً[3] من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ[4] الَّلاتِ، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده! لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها؛ لأجبتُك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً نفسيَّة حتَّى يهزمهم معنويَّاً، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوَّة قريشٍ العسكريَّة، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريشٍ لا محالة، وذلك جدير بحدوث الفتنة، والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثِّقة بين القائد، وجنوده، عندما قال للنَّبي(ﷺ) : فإنِّي والله! لا أرى وجوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويدعوك.

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين ، ولخدمة أهداف قريشٍ العسكريَّة ، والإعلاميَّة ، وحاول - أيضاً - أن يفتعل أزمةً عسكريَّة كبيرةً بين النَّبيِّ(ﷺ) وجنوده من أجل التَّأثير على معنوياتهم، وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النَّفسية الَّتي استخدمت ضدَّ المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرُّعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوَّة قريش الَّتي لا تقهر، وتصوير المعركة بأنَّها في غير صالحهم. لقد مارس عروةُ بن مسعودٍ

---

(1) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطَّائف يعقد كلَّ عام.

(2) بلَّحوا عليَّ: أبَوا ، كأنَّهم أعيوا عن الخروج معه ، وإعانته (أي: امتنعوا).

(3) أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتَّى.

(4) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

في مفاوضاته عناصر الحرب النفسيَّة من إشاعةٍ، وافتعال الأزمات، وآثارة الرُّعب[1]، إلا أنَّ تلك العناصر تحطَّمت أمام الإيمان العميق، والتَّكوين الدَّقيق، والصَّفِّ الإسلاميِّ المرصوص.

ومن المفارقات الرَّائعة الَّتي حصـــلت أثناء المفاوضـــات مع عروة بن مســـعود، وهي من عجائب الأحداث الَّتي يســـتشـــفُّ منها الدَّليل القاطع على قوة الإيمان الَّتي كان يتمتَّع بها أصـحاب النَّبيِّ(ﷺ) ، وعلى قدرة هذا الدِّين من تحويل الإنسـان من شـيطانٍ مريدٍ إلى إنسـان فاضلٍ نبيلٍ، حيث كان أحد الذين يتولَّون حراسة النَّبيِّ(ﷺ) أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثَّقفي في الحديبية هو المغيرة بن شُـعبة[2]، ابن أخي عروة بن مسـعود نفسـه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابّاً فاتكاً سكِّيراً، قاطعاً للطَّريق، غير أنَّ دخوله للإسلام حوَّله إلى إنسانٍ آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصَّفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النَّبيِّ(ﷺ) في ذلك الجو الملبَّد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهليَّـة في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الَّذي يراه ندّاً له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسـك بلحية رسـول الله(ﷺ) أثناء المناقشـة، الأمر الَّذي أغضـب المغيرة بن شـعبة؛ الَّذي كان قائماً على رأس رســول الله(ﷺ) بالسَّـيف يحرســه، وعلى وجهه المغفر، فانتهر عمَّه، وقرع يده بقائم السَّـيف قائلاً له: اكفف يدك عن مسِّ لحية رسـول الله(ﷺ) قبل ألا تصـلَ إليك، وكان النَّبيُّ(ﷺ) يبتسم لِلَّذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن.

ولـــمَّا كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربيِّ متوشحاً سيفه، ودرعه، وعلى وجهه المغفر؛ فإنَّ عمَّه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنَّبيِّ(ﷺ) وهو في أشدِّ الغضـب: ليت شعري من أنت يا محمَّد مِنْ هذا الَّذي أرى من بين أصـــحابك؟ فقال له رســول الله(ﷺ) : هذا ابن أخيك المغيرة بن شـعبة، فقال له عمُّه: وأنت بذلك يا غُدَر؟! لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد

(1) انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، ص 131 ، 132.

(2) أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان ، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم ، انظر: الإصابة (452/3).

الدَّهر، والله ما غسـلت غدرتك إلا بالأمس، كان المغيرة صـحب قوماً في الجاهليَّة، فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثمَّ جاء، فأسلم، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : أمَّا الإسلام فأقبل، وأمَّا المال فلست منه في شيءٍ.

لقد فشل عروة في مفاوضاته، ورجع محذِّراً قريشاً من أن تدخل في صراعٍ مسلَّحٍ مع النَّبيّ(ﷺ) ، وأصحابه، وقال لهم: ... يا قوم! إنِّي قد وفدت على الملوك: على كسرى، وهرقل، والنَّجاشي، وإنِّي والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمَّد، وأصحابه، والله! ما يشدُّون إليه النَّظر، وما يرفعون عنده الصَّوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمرٍ، فيفعل، وما يتنخَّمُ، وما يبصق إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم يمسح بها جلده، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُّهُم يظفر منه بشيءٍ.

وقد حزرت القوم، واعلموا أنَّكم إن أردتم السَّيف؛ بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم؛ إذا منعوا صاحبهم. والله! لقد رأيت نسيات معه، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حالٍ، فَرَوا رأيكم، وإيَّاكم وإضجاع[1] الرَّأي، فمادُّوه يا قوم، اقبلوا ما عرض، فإنِّي لكم ناصحٌ مع أنِّي أخاف ألا تُنْصَروا عليه؛ رجلٌ أتى هذا البيت معظِّماً له، معه الهدي، ينحره، وينصرف! فقالت قريش: لا تكلَّم بهذا يا أبا يعفور[2]! لو غيرك تكلَّم بهذا؛ لَلُمْنَاهُ، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا، ويرجع قابل[3].

لقد انتقلت الحرب النَّفسيَّة وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريشٍ، وفي نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقاً، حيث بيَّن لقريشٍ وضع المسلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيِّهم الكريم، وحبِّهم له، وتفانيهم بالدِّفاع عنه، وبما يتمتَّعون به من معنوياتٍ عاليةٍ جدّاً، واستعدادٍ عسكريٍّ، ونفسيٍّ يفوق الوصف، فكان ذلك بمثابة التَّحذير الفعليِّ لقريش

---

(1) إضجاع الرأي: أي: الوهن في الرأي.

(2) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثَّقفي.

(3) انظر: مغازي الواقدي (598/2).

بعدم التَّعجُّل، والدُّخول في حربٍ مع النَّبيّ(ﷺ) ، وأصـــحابه، ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الَّذي أُسقِطَ في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور.

لقد كان وَقْعُ كلِّ كلمةٍ قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان(ﷺ) موفقاً من قبل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في معســكر قريش، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوَّة الحقِّ الصَّــامدة، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضدَّ النَّبيّ(ﷺ) .

لقد نجح النَّبيُّ(ﷺ) بحكمته، وذكائه نجاحاً عظيماً باســتخدام الأســاليب الإعلاميَّة، والدبلوماسيَّة المتعدِّدة للحصول على الغاية المنشودة، وهي تفتيت جبهة قريش الدَّاخلية، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم، وإبعاد حلفائهم عنهم، وإنَّ هذه النتيجة لتعدُّ بحقٍّ نصراً ساحقاً حقَّقه رسول الله(ﷺ) على الجبهات السِّياسيَّة، والإعلاميَّة، والعسكريَّة[1].

3 – سفارة الحُلَيْسِ بن علقمة:

ثمَّ بعثوا الحُلَيْسَ بن علقمة الكِنانيَّ سيِّد الأحابيش، فلــمَّا رآه رسول الله(ﷺ) قال: «إنَّ هذا من قومٍ يتألَّهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتَّى يراه»، وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية، فلمَّا رأى الحُلَيْسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريشٍ قبل أن يصل إلى رسول الله(ﷺ) ، وذلك إعظاماً لما رأى[2]، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه، ولا مرعى، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس عن مَحِلّه، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية، وهم في زيِّ الإحرام، وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم... ولذلك استنكر تصرُّف قريشٍ بشدَّةٍ، وانصرف سيِّــد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النَّبيَّ(ﷺ) بشيءٍ،

---

(1) انظر: منهج الإعلام الإسلاميّ في صلح الحديبية ، ص 145.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 488.

أو أن يفاوضـــه، كما كان مقرَّراً من قبل، واعتبر عمل قريش عدوانيّاً ضـــدَّ زوَّار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحدٍ أن يؤيِّدها، أو أن يناصرها على ذلك[1]، فرجع محتجّاً على قريـــشٍ الَّتي أعلنت غضبها لصراحة الحُلَيْس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الَّذي يهـدِّد بانقسامٍ خطير في جبهـة قريشٍ العسكريَّة، ونسف الحلف المعقـــود بين قريش، والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابـــيش: إنَّما كلُّ ما رأيت هو مكيدةٌ من محمَّـدٍ، وأصحابـه، فاكفـف عنَّـا حتَّى نأخـذ لأنفسنا ما نرضى به[2].

لقد كان النَّبيُّ(ﷺ) عالماً، ومســـتوعباً لشـــخصـــية الحُلَيْسِ، ونفســـيَّته، ويظهر ذلك في قوله(ﷺ) : «هذا من قومٍ يتألَّهون»، فالواضـح من هذه المعلومة: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) كان على معرفةٍ تامَّةٍ بهذا الرَّجل، وبحكم هذه المعرفة قد درس شـخصيته دراسـةً موضـوعيَّةً، وذلك بما كان عنده من حبٍّ شـــديدٍ من التعظيم للحرمات، والمقدَّســـات والعمل على الاســـتفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة، وعلى هذا الأساس فقد قام(ﷺ) بوضع خطَّةٍ مُحْكَمةٍ مناسبةٍ تقضي بوضع الحقائق كاملةً أمام هذا الرَّجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع.

والجدير بالذِّكر: أنَّ الحُلَيْسَ كان يتمتَّع بســـمعةٍ طيِّبةٍ بين العرب جميعاً؛ وذلك لما يتميَّز به من رجاحة العقل، ولما يتمتَّع به من مركزٍ ممتازٍ بوصفـــــه زعيماً، وقائداً لقوات الأحابيش، كما كان يتمتَّع باحترامٍ وتقديرٍ من جانب النَّبيِّ(ﷺ) وقريشٍ على حدٍّ ســـواء، لهذا فإنَّه إذا ما تبيَّن له أنَّ الحقَّ، والعدل في جانب المسلمين؛ فإنَّه يستطيع أن يقوم بدورٍ مهمٍّ في إحلال السَّلام بين الطَّرفين المتنازعين، والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائيِّ ضـــــدَّ المسلمين، وصدِّهم عن المسجد الحرام. ومن هنا فقد كانت الدِّراسة النَّفسيَّة التي قام بها رسول الله(ﷺ) لشـــخصـــيَّة الحُلَيْس تتناســـب كلِّيّاً مع المبادئ الَّتي يُؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت

(1) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص 108.

(2) الواقدي ، المغازي (600/2).

درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العمليَّة إيجابيةً تماماً[1]، ومرضيةً.

وهكذا اســـتطاع(ﷺ) أن يؤثِّر على عروة بن مســـعود، والحُلَيْس بن علقمة ممَّا جعل الانشـقاق يدبُّ في صـفوف مشـركي مكَّة. يقول الأسـتاذ العقَّاد عن قدرة الرَّسـول(ﷺ) في توظيف الطَّاقات، وإدارة الصِّـراع: كان رســول الله(ﷺ) الخبير بتجنيد بعوث الحرب، وبعوث الاسـتطلاع، خبيراً كذلك بتجنيد كلِّ قوَّةٍ في يده متى وجب القتال، إن كانت قوَّة رأيٍ، أو قوَّة لسـانٍ، أو قوَّة نفوذٍ، فما نعرف أنَّ أحداً وجَّه قوَّة الدَّعوة توجيهاً أشـدَّ، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه(ﷺ) . ثمَّ يضـيف الكاتب قائلاً: والدَّعوة في الحرب –كما لا يخفى – لها غرضـان أصيلان من بين أغراضها العديدة:

أحدهما: إقناع خصمك والنَّاس بحقِّك.

وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه، وإيقاع الشَّتات بين صفوفه. ثمَّ يقول: وربما بلغ النَّبيُّ(ﷺ) برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدُّول بالفِرَق المنظَّمة[2].

4 – سفارة مِكْرَز بن حَفْصٍ:

وكان من ســـفراء قريش يوم الحديبية مِكْرَزُ بن حفصٍ، وقد روى البخاريُّ ذلك فقال:... فقام رجلٌ منهم، يقال له: مِكْرَز بن حفصٍ، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : هذا مكرَز، وهو رجلٌ فاجر، فجعل يُكَلِّمُ النَّبيَّ(ﷺ) ، فبينما هو يكلِّمه إذ جاء سُـهَيْلُ بن عمرو، قال مَعْمَر: فأخبرني أيُّوب عن عكرمة: أنَّه لما جاء ســهيل بن عمرو، قال النَّبيُّ(ﷺ) : «قد سَــهُلَ لكم من أمركم» ولنا حديثٌ مع سهيلٍ بإذن الله تعالى.

سادساً: الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النَّبيُّ(ﷺ) أنَّ من الضَّــرورة إرســال مبعوثٍ خاصٍّ من جانبه إلى قريشٍ يبلِّغهم فيها

---

(1) انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص 111.

(2) انظر: عبقرية محمَّد صلى الله عليه وسلم، ص 49.

نواياه السِّلميَّة بعدم الرَّغبة في القتال، واحترام المقدَّسات، ومن ثَمَّ أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرَّسول(ﷺ) إلى قريش (خِراشَ بن أُميَّة الخُزاعيَّ)، وحمله على جملٍ يقال له: (الثَّعلب)، فلمَّا دخل مكَّة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خِرَاش، فمنعهم الأحابيش، فعاد خِراش بن أميَّة إلى رسول الله(ﷺ)، وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله(ﷺ) أن يرسل سفيراً آخر لتبليغ قريشٍ رسالة رسول الله(ﷺ)، ووقع اختيار الرَّسول(ﷺ) في بداية الأمر على عمر بن الخطَّاب[1]، فاعتذر لرسول الله(ﷺ) عن الذَّهاب إليهم، وأشار على رسول الله(ﷺ) أن يبعث عثمان مكانه[2]، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معزَّزاً بالحجَّة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء؛ وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحقِّقاً بالنِّسبة لعمر رضي الله عنه؛ فقد أشار على النَّبيِّ(ﷺ) بعثمان رضي الله عنه؛ لأنَّ له قبيلةً تحميه من أذى المشركين حتَّى يبلِّغ رسالة رسول الله(ﷺ) (2)، وقال لرسول الله(ﷺ) : إِنِّي أخاف قريشاً على نفسي، قد عرفَتْ عداوتي لها، وليس بها من بني عديٍّ مَنْ يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله! دخلت عليهم(2)، فلم يقل رسول الله(ﷺ) شيئاً. قال عمر: ولكن أدلُّك يا رسول الله! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة منِّي، وأكثر عشيرةً، وأمنع: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله(ﷺ) عثمان رضي الله عنه، فقال: اذهب إلى قريشٍ فخبرهم، أنَّا لم نأتِ لقتال أحدٍ، وإنما جئنا زوَّاراً لهذا البيت، معظِّمين لحرمته، معنا الهديُ، ننحرُه، وننصرف، فخرج عثمان بن عفَّان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح[3]، فوجد قريشاً هنالك، فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله(ﷺ) إليكم، يدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، تدخلون في الدِّين كافَّةً، فإنَّ الله مظهرٌ دينه، ومعزٌّ نبيه، وأخرى: تكفُّون، ويلي هذا منه غيرُكم، فإن ظفروا بمحمَّدٍ؛ فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمَّدٌ؛ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النَّاس، أو تقاتلوا؛ وأنتم

---

(1) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص 83.

(2) انظر: المغازي ، للواقديّ (600/2).

(3)]مكانٌ قريبٌ من مكَّة.

وافرون جامُّون، إنَّ الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم ..... فجعل عثمان يكلِّمهم، فيأتيهم بما لا يريدون، ويقولون: قد سمعنا ما تقول، ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عَنْوَةً، فارجع إلى صاحبك، فأخبره أنَّه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحَّب به، وأجاره، وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه، فحمل عثمان على السَّرج، وردفه وراءه، فدخل عثمان مكَّة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً: أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أميَّة، وغيرهما، منهم من لقي ببلدح، ومنهم من لقي بمكَّة، فجعلوا يردُّون عليه: إن محمَّداً لا يدخلها علينا أبداً[1].

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت، فأبى[2]، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله(ﷺ) إلى المستضعفين بمكَّة وبشَّرهم بقرب الفرج، والمخرج[3]، وأخذ منهم رسالةً شفهيَّة إلى رسول الله(ﷺ) جاء فيها: اقرأ على رسول الله(ﷺ) منا السَّلام، إنَّ الَّذي أنزله بالحديبية لقادرٌ على أن يدخله بطن مكَّة[4].

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصُّلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركةٌ، وتراموا بالنَّبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كلُّ واحدٍ من الفريقين بمن فيهم[5]، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: 24]. وقد روى مسلم سبب نزول الآية السابقة: أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكَّة هبطوا على رسول الله(ﷺ) من جبل التَّنعيم متسلِّحين، يريدون غِرَّة[6] النَّبيِّ(ﷺ) وأصحابه، فأخذهم

---

(1) زاد المعاد (290/3) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (344/3).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (344/3).
(3) انظر: زاد المعاد (290/3).
(4) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص 85.
(5) انظر: زاد المعاد (291/3).
(6)](غِرَّة) الغرَّة: هي الغفلة: أي: يريدون غفلته. (شرح النَّووي 187/12).

سِــــلْماً[1]، فاســـتحياهم[2]، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - الآية المذكورة. **[مســـلم (1808)، وأحمد (122/3)، وأبو داود (2688)، والترمذي (3264)]**.

وهذا سلمة بن الأكوع يحدِّثنا عمَّا حدث قال: ثمَّ إنَّ المشركين راسلونا الصُّلح، حتَّى مشى بعضنا في بعضٍ، واصطلحنا، قال: وكنت تبيعاً[3] لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسُّه[4]، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلمَّا اصطلحنا نحن وأهل مكَّة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرةً فكسحت شوكها[5]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكَّة، فجعلوا يقعون في رسول الله(ﷺ) ، فأبغضتُهم، فتحوَّلت إلى شجرةٍ أخرى، وعلَّقوا سلاحهم، واضطجعوا، فبينما هم كذلك؛ إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زُنَيْمٍ! قال: فاخترطت سيفي[6] ثمَّ شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضِغْثاً[7] في يدي. قال: ثمَّ قلت: والَّذي كرَّم وجه محمَّد! ما يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربت الَّذي فيه عيناه[8]، قال: ثمَّ جئت بهم أسوقهم إلى رســـول الله(ﷺ) . قال: وجاء عمِّي عامرٌ برجلٍ من العَبْلاتِ[9] يقال له: مِكْرَزٌ، يقوده إلى رسول الله(ﷺ) على فرسٍ مُجَفَّفٍ[10] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله(ﷺ) فقال: «دعوهم، يكن لهم بدء الفُجُور وثِناه»[11] فعفا عنهم رسول الله(ﷺ) ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ **[الفتح: 24] [مسلم (1807)]**.

---

(1) سلماً: المراد به الاستسلام والإذعان. (شرح النَّووي 187/12).
(2) فاستحياهم: فاستبقاهم. (المفردات للراغب ، ص 140).
(3) تبيعاً: خادماً أتبعه. (شرح النووي 176/12).
(4) وأحسه: أي احك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار، وانظر: (شرح مسلم، النووي 176/12).
(5) فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك، وانظر: (شرح مسلم ، النووي 176/12).
(6) فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم ، النووي 176/12).
(7) ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم ، النووي 176/12).
(8) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
(9) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد. (شرح مسلم النووي ، 177/12).
(10) مجفَّف: أي: عليه تجفاف ، وهو ثوب كالجلِّ يلبسه الفرس ليقيه من السِّلاح.
(11)](وثناه): أي: عودة ثانية (شرح مسلم ، للنَّوويِّ 176/12).

قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفَّ أيدي المشـــركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوءٌ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صـــان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صـــلحاً فيه خيرٌ للمؤمنين، وعافيةٌ في الدُّنيا، والآخرة[1].

والكفُّ: منع الفاعل من فعلٍ أراده، أو شـــرع فيه، وهو مشـــتقٌّ من اســـم الكفِّ الَّتي هي اليد؛ لأنَّ أصـــل المنع أن يكون دفعاً باليد، ويقال: كفَّ يده عن كذا: إذا منعه من تناوله بيده[2].

وقوله: قال الرَّاغب: البطن خلاف الظَّهر في كلِّ ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، ويقال للجهة السُّـــفلى: بطنٌ، وللجهة العُليا: ظهرٌ[3].

وجمهور المفسِّـــرين حملوا بطن مكَّة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أســـفل المكان، والحديبية قريبةٌ من مكَّة وهي إلى مكَّة أقرب، وهي من الحلِّ، وبعض أرضـــها من الحرم، وهي على الطَّريق بين مكَّة وجُدَّة، وهي إلى مكَّة أقرب[4].

وختم الآية ســـبحانه بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـــيرًا ﴾ [الفتح: 24] هذه إشارةٌ إلى أنَّ كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين؛ إذ منُّوا على العدوِّ بعد التمكُّن منه[5].

---

(1) تفسير ابن كثير (192/4).
(2) انظر: التَّحرير والتنوير (178/26).
(3) انظر: المفردات ، للرَّاغب ، ص 51.
(4) انظر: التَّحرير والتَّنوير (184/26).
(5) انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(230/2).

سابعاً: بيعة الرِّضوان:

لـمَّا بلغ النَّبيّ(ﷺ) : أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قُتِل دعا رسولُ الله(ﷺ) أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركيـن، ومناجزتهم، فاستجـاب الصَّحابـة، وبايعوه على الموت **[البخاري (4169)، ومسـلم (1860)]**، سـوى الجَدِّ بن قَيس، وذلك لنفاقه[1]. وفي روايةٍ: أنَّ البيعة كانت على الصَّبر[2]. وفي روايةٍ على عدم الفرار **[مسلم (1856)، وأحمد (396/3)، والترمذي (1594)، والنسائي (140/7 و141)]** ولا تعارض في ذلك؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني: الصَّبر، وعدم الفرار[3].

وكان أوَّل مَنْ بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسديُّ[4]، فخرج النَّاس بعده يبايعون على بيعته[5]، وبايعه سـلمة بن الأكوع ثلاث مرَّاتٍ، في أوَّل النَّاس، وأوسـطهم، وآخرهم[6]، وقال النَّبيُّ(ﷺ) بيده اليمنى: «هذه عن عثمان» فضـرب بها على يده. **[البخاري (3698)، والترمذي (3706)، وأحمد (101/1 و120)]**.

وكان عددُ الصَّحابة الَّذين أخذ منهم الرَّسول(ﷺ) المبايعة تحت الشـجرة ألفاً وأربعمئة صحابيٍّ[7]، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرِّضوان، وورد فضلُهم في نصوصٍ كثيرةٍ من الآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة؛ منها:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ **[الفتح: 10]**.

وهذه الآية فيها ثنـاءٌ، ومدحٌ عظيمٌ لأهل بيعـة الرِّضوان ؛ فقـد جعل الله مبايعتهم

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 486.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) انظر: زاد المعاد (291/3).
(6)]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 404.
(7) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 482.

لرسوله(ﷺ) مبايعةً له، وفي هذا غاية التّشريف، والتّكريم لهم رضي الله عنهم[1].

قال ابن القيّم: وتأمّل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10] فلمّا كانوا يبايعون رسول الله(ﷺ) بأيديهم، ويضرب بيده على أيديهم، وكان رسول الله(ﷺ) هو السّفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه، وفوق الخلائق كلّهم كانت يده فوق أيديهم، كما أنَّه سبحانه فوقهم[2].

ومعنى قوله في الآية: أي: ثواباً جزيلاً وهو ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وما يكون فيها ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ[3].

2 - وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح 18-19].

فقد أخبر الله تعالى أنَّه رضي عن أولئك الصَّفوة الأخيار من أهل بيعة الرِّضوان، ومَنْ رضي الله عنه لا يسخط عليه أبداً، فَلِلَّهِ ما أعظم هذا التكريم الذي ناله أهل بيعة الرضوان، وما أعلاه من مَنْقَبَةٍ! ومعنى الآية: لقد رضي الله ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ محمد! عن المؤمنين يعني: بيعة أصحاب ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الله(ﷺ) بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريشٍ الحرب، وعلى ألاَّ يفرُّوا، ولا يولُّوهم الأدبار تحت الشَّجرة، وكانت بيعتهم إيَّاه هنالك تحت شجرة السَّمُرة أي: فعلم ربك ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ محمد! ما في قلوب المؤمنين من أصحابك؛ إذ يبايعونك تحت الشَّجرة من صدق النِّيَّة، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فأنزل الطمأنينة والثَّبات على ما هم عليه من دينهم، وحسن بصيرتهم بالحقّ الَّذي

---

(1) انظر: عقيدة أهل السنّة في الصَّحابة، د. ناصر حسن الشَّيخ (205/1).
(2) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (172/2).
(3) انظر: روح المعاني، للآلوسي (97/26).

هداهم الله له وهو فتح ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي: وأثاب الله هؤلاء الَّذين بايعوا رسول الله(ﷺ) تحت الشَّجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السَّكينة عليهم، وإثابته إيَّاهم فتحاً قريباً، وهو ما أجرى الله – عزَّ وجلَّ – على أيديهم من الصُّلح بينهم، وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتَّصل بفتح خيبر، وفتح مكَّة، ثمَّ فتح سائر البلاد، والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العزِّ، والنَّصر، والرِّفعة في الدُّنيا، والآخرة[1]، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

3 – أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرِّضوان: أنَّه ألزمهم كلمة التَّقوى، الَّتي هي كلمة التَّوحيد، وأنَّهم كانوا أحقَّ بها وأهلها. قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ **[الفتح 26]**.

فلقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية: أنَّه ألزم الصَّحابة رضي الله عنهم كلمة التَّقوى، وأكثر المفسرين على أنَّ المراد بكلمة التَّقوى هي: (لا إله إلا الله)، وبيَّن أنَّهم أحقُّ بها من كفَّار قريش، وأنَّهم كانوا أهلها في علم الله؛ لأنَّ الله تعالى اختار لدينه، وصحبة نبيِّه(ﷺ) أهل الخير[2]. ذلك هو الثَّناء في القرآن على الصَّحابة الَّذين بايعوا النَّبيَّ(ﷺ) بيعة الرِّضوان بالحديبية، وقد ورد الثَّناء عليهم في السُّنَّة المطَّهرة في أحاديث كثيرةٍ، ومن ذلك ما يلي:

أ – مِنْ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسولُ الله(ﷺ) يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهل الأرض»، وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنت أبصر؛ لأريتكم موضع الشَّجرة. **[البخاري (4154)، ومسلم (71/1856)]**.

هذا الحديث صريحٌ في فضل أصحاب الشَّجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعةٌ

---

(1) انظر: تفسير الطبري (85/26 . 86) ، وتفسير القرطبي (178/16).
(2) انظر: تفسير الطبري (103/26 . 106).

بمكَّة، وبالمدينة، وبغيرهما، وتمسَّك به بعض الشِّيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان؛ لأنَّ عليّاً كان من جملة من خوطب بذلك، وممَّن بايع تحت الشَّجرة، وكان عثمان حينئذٍ غائباً، وهذا التمسُّك باطلٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ(ﷺ) بايع عنه، فاستوى معهم عثمان في الخيريَّة المذكورة، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعضٍ[1].

ب - وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أخبرتني أمُّ مبشِّر: أنَّها سمعت النَّبيَّ(ﷺ) يقول عند حفصة: «لا يدخل النَّار - إن شاء الله - من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: فقال النَّبيُّ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ «قد قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 71 - 72]». [أحمد (285/6)، ومسلم (2496)، وابن ماجه (4281)].

قال النَّوويُّ - رحمه الله تعالى -: قوله(ﷺ) : «لا يدخل النَّار - إن شاء الله - من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها». قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحدٌ منهم قطعاً.... وإنَّما قال: إن شاء الله للتبرُّك، لا للشكِّ. وأمَّا قول حفصة: بلى! وانتهار النَّبيِّ(ﷺ) لها، فقالت: فقال النَّبيُّ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ : «وقد قال: » فيه دليلٌ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصودُ حفصة لا أنَّها أرادت ردَّ مقالته(ﷺ) . والصَّحيح: أنَّ المراد بالورود في الآية: المرور على الصِّراط، وهو جسرٌ منصوبٌ على جهنَّم، فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون[2].

ج - وروى الإمامُ مسلم بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله(ﷺ) : «من يصعد الثَّنيَّةَ ثنيةَ المرَارِ[3]، فإنَّه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل». قال: فكان أوَّل مَنْ صعدها

---

(1) فتح الباري (443/7).

(2) شرح النَّووي على صحيح مسلم (85/16).

(3) ثنية المرَار: مهبط الحديبية والمرار.

خيلنا؛ خيلُ بني الخزرج، ثمَّ تتامَّ النَّاس، فقال رسـول الله(ﷺ) : «كلُّكم مغفورٌ له إلا صـاحب الجمل الأحمر». فأتيناه، فقلنا له: تعال يسـتغفر لك رسـول الله(ﷺ) ، فقال: والله! لأن أجد ضـالَّتي أحبُّ إليَّ من أن يسـتغفر لي صـاحبُكم، قال: وكان رجلاً ينشـد ضـالةً له. [مسـلم (12/2780)].

وهذا الحديث تضـمَّن فضـيلةً عظيمةً لأصـحاب الحديبية رضـي الله عنهم، وتلك الفضـيلة مغفرةُ الله لهم، وأكرمْ بها مِنْ فضـيلة منحهم إيَّاها الرَّبُّ - جل وعلا - لإخلاصـهم في طاعتهم واستجابتهم لله، والرَّسول(ﷺ) بالسَّمع، والطَّاعة![1].

إنَّ جيل الحديبية له سماتٌ كما في النُّصـوص الصَّـحيحة، فهم خير أهل الأرض، وغفر الله لهم، ولا يدخل منهم أحدٌ النَّار، وهذا الجيل مكوَّنٌ من السَّـــابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار من أهل بدرٍ، ومن صلَّى القبلتين، ومن التحق بهم من الَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ.

وحين نُمعن النَّظر في هذا الجيل الفريد مقارنةً مع أهل بدرٍ؛ نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النِّصـــف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين في بدرٍ إلى ثمانمئة، كان معظمه من القبائل العربيَّة المجاورة، وهي قبائل صـغيرةٌ؛ إذا قيسـت بالقبائل الكبرى، لكنَّ شبابها كانوا يغدون إلى المدينة، ينضوون تحت لواء رسول الله(ﷺ) ، ويتلقَّون التَّربية اليوميَّة في المســجد، والتَّربيَّة العملية في المعارك، والغزوات، فيتدرَّبون على الجنديَّة الخالصـــة، ويفقهون دينهم مباشـرةً من رسـول ربِّ العالمين(ﷺ) ، وينشـؤون في ظلال القدوة العُليا لهم من السَّـابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصــار، ويتنافســون في الطَّاعة، والامتثال لأمر الله، ورســوله، فنالت قبائلهم بذلك شـرفاً ربا على القبائل الكُبرى؛ الَّتي تخاذلت في الانضمام للإسـلام، فقبيلة أسـلم، وغفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضــــل - بعد الله - في ذلك إلى الرَّعيل الأوَّل منهم، واللبنات الأولى الَّتي انضــمَّت إلى الدَّعوة، إلى أبي ذرٍّ الغفاريِّ، الَّذي كان من السَّــابقين

---

(1) انظر: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (212/1).

في إسلامه بمكَّـــة، ومضى داعياً في قومه حتَّى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤمُّ بهم المدينة بعد أحدٍ، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلميّ، الَّذي تلقَّى رسولَ الله(ﷺ) قبل دخوله المدينة، فأسلم، ومعه سبعون من قومه كذلك[1].

أمَّا القبـائل الأخرى من مُزينـة، وجُهينـةَ، وأَشْجَـع، وخُزاعـةَ؛ فقد بـدأ شبابُها يفدون إلى المدينـة، لكن بأعدادٍ ضئيلـةٍ، وبقي كيان القبيـلة على الشِّرك، وبقـي أعرابيّاً بعيـداً عن محضن التَّربية العظيم داخل المدينة، فلم يُتَح له هذا الفضل، والاغتراف من رحيق النُّبوَّة، ولهذا كانت الآيات الَّتي نزلت في المخلَّفين من الأعراب كالصَّـواعق على رؤوسـهم؛ لتخلُّفهم عن الانضـمام إلى الجيش الإسلاميّ الماضي إلى الحديبية[2].

* * *

(1) انظر: التربية القياديَّة (214/4).

(2) التربية القيادية (216/4).

المبحث الثّاني

صلح الحديبية[1] وما ترتَّب عليه مِنْ أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله(ﷺ) :

لـمَّا بلغ قريشاً أمر بيعة الرِّضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرَّسول(ﷺ) على القتال؛ أوفدوا سهيل بن عمرو في نفرٍ من رجالهم لمفاوضة النَّبيّ(ﷺ) [2]، ولـمَّا رأى رسول الله(ﷺ) سهيلاً؛ قال: لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرَّجل[3].

كان سهيل بن عمرٍو أحدَ زعماء قريشٍ البارزين الَّذين كانوا يُعْرَفون بالحنكة السِّياسيَّة، والدَّهاء، فهو خطيبٌ ماهرٌ، ذو عقلٍ راجحٍ، ورزانةٍ، وأصالةٍ في الرَّأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وقد استعرض الفريقان النُّقاط الَّتي يجب أن تتضمَّنها معاهدة الصُّلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا الَّتي كانت تشكِّل مثار الخلاف بينهما، هذا وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النُّقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث، والجدل، والأخذ والرَّدُّ حول هذه البنود، وبعد المراجعات، والمفاوضات تقاربت وجهات النَّظر بين الفريقين.

وعند الشُّروع في وضع الصِّيغة النِّهائية للمعاهدة، وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميّاً حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقيَّة، فعندما شرع النَّبيُّ(ﷺ) في إملاء صيغة المعاهدة المتَّفق عليها؛ أمر الكاتب، وهو الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ

---

(1) ينظر الشكل (11) في الصفحة (755).

(2) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، ص 339، 340.

(3) انظر: مغازي الواقديّ (602/2، 604، 605).

بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: «بسـم الله الرَّحمن الرَّحيم»، وهنا اعترض رئيس الوفدِ القرشـيِّ سـهيلُ بن عمروٍ قائلاً: لا أعرف الرَّحمن! اكتب: «باسمك اللَّهُمَّ»، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرَّحمن، ولا نكتب إلا الرَّحمن، ولكنَّ النَّبيَّ(ﷺ) تمشياً مع سياسة الحكمة، والمرونة، والحلم، قال للكاتب: «اكتب: باسمك اللَّهُمَّ»[1]، واستمرَّ في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب: «هذا ما اصطلح عليه رسول الله»، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشـيِّ على كلمة (رسـول الله) قائلاً: لو أعلم أنَّك رسـولُ الله ما خالفتُك، واتَّبعتُك، أفترغب عن اسمك، واسم أبيك محمَّد بن عبد الله؟! اكتب اسمك، واسم أبيك[1].

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله(ﷺ) بحكمته، وتسامحه، وبُعْدِ نظره حسم الخلاف، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة، فالتزم الصَّحابة الصَّمت، والهدوء.

إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) وافق المشركين على ترك كتابة «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» وكتابة « باسمك اللَّهم» بدلاً عنها، وكذا وافقهم على كتابة «محمَّد بن عبد الله» وترك كتابة «رسول الله(ﷺ)»، وكذا وافقهم على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمَّة الحاصلة بالصُّلح، مع أنَّه لا مفسدة في هذه الأمور، أمَّا البسملة، وباسمك اللَّهمَّ فمعناهما واحدٌ، وكذا قوله «محمَّد بن عبد الله» هو أيضاً رسولُ الله(ﷺ) ، وليس في ترك وصف الله - سبحانه وتعالى - في هذا الموضع بالرَّحمن الرَّحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النَّبي(ﷺ) بالرِّسالة ما ينفيها، فلا ضرر، ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلُّ من تعظيم آلهتهم، ونحو ذلك.

وأمَّا شرط ردِّ مَنْ جاء منهم، وعدم ردِّ من ذهب إليهم، فقد بيَّن النَّبيُّ(ﷺ) تعليل ذلك، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: «مَنْ ذهب منَّا إليهم فأبعده الله! ومن جاءنا منهم سيجعل

---

(1) انظر: مغازي الواقدي (610/2).

الله له فرجاً، ومخرجاً»، ثمَّ كان كما قال(ﷺ) . **[سبق تخريجه]**[1].

وتمَّ عقد هذه المعاهدة، وكانت صياغتُها من عشرة بنود جاءت على الشَّكل التَّالي:

1 - باسمك اللّهم.

2 - هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

3 - واصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين، يأمن فيهنَّ النَّاس، ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ.

4 - على أنَّه مَنْ قدم مكَّة من أصحاب محمَّد حاجاً، أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله؛ فهو آمنٌ على دمه، وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر، أو إلى الشَّام، يبتغي من فضل الله؛ فهو آمنٌ على دمه، وماله.

5 - على أنَّه مَنْ أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه؛ ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمَّد، لم يردُّوه عليه.

6 - وأنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً، وأنَّه لا إسلال، ولا إغلال[2].

7 - وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عَقْدِ محمَّدٍ، وعهده دخله، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريشٍ، وعهدهم دخل فيه. (فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمَّد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريشٍ، وعهدهم).

8 - وأنت ترجع عنَّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكَّة، وأنَّه إذا كان عام قابلٍ خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاحُ الرَّاكب، السُّيوف في القُرُب، ولا

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (342/2).

(2) العيبة هنا مثلٌ: والمعنى: أنَّ بيننا صدوراً سليمةً في المحافظة على العهد؛ الَّذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره بالعيبة التي هي وعاءٌ من جلدٍ تُصان فيه الثياب. وقوله: لا إسلال ، ولا إغلال: تعني: الإسلال من السَّلَّة ، وهي السَّرقة ، والإغلال أي: الخيانة والمعنى العام: أن بعضنا يأمن بعضاً على نفسه ، وماله ، فلا يتعرَّض لدمه ، ولا لماله.

تدخلها بغيرها.

9 - وعلى أنَّ هذا الهَدْيَ وما جئتنا به؛ فلا تقدمه علينا.

10 - وشهد على الصُّلح رجالٌ من المسلمين، ورجالٌ من المشركين:

فمن المسلمين: أبو بكر الصِّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب، وعبد الرَّحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقَّاص، ومحمَّد بن مسلمة، وعليُّ بن أبي طالبٍ كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين: مِكْرزَ بن حفص، وسهيل بن عمرو[1].

تُعَدُّ هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلاميَّة، وأنموذجاً فريداً للمعاهدات الدَّوليَّة بما سبقها من مفاوضاتٍ، وما حوته مِنْ شروطٍ، وما تمثَّل بها من خلق النَّبيِّ(ﷺ) في النُّزول عند رضا الطَّرف الآخر، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام. هذه المعاهدة سبقها مفاوضاتٌ من قبل المشركين، والمسلمين، وفشل بعض الممثِّلين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاوراتٌ شتَّى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتَّى توصل الفريقان إلى اتفاقٍ عن طريق ممثِّل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله(ﷺ) على ملأ المسلمين.

عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الَّذي كان فيه المسلمون بمركز القوَّة، لا الضَّعف، وكان باستطاعتهم ألاَّ يقبلوا شروطها الَّتي اغتاظ منها كثيرٌ من الصَّحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله(ﷺ) الَّذي لا ينطق عن الهوى، وقد تمادى رسول قريشٍ على رسول الله(ﷺ) في مفاوضته، وكان فرداً بين جيش المسلمين، فلم ينله أذىً، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل؛ «لأنَّ السُّفراء لا تُقتل»، ولكنَّ رسول الله(ﷺ) يرضيه، ويسعه بالحلم، واللِّين، حتَّى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي حقن الدِّماء، وإحلال السَّلام، ورجاء أن يعقل

(1) انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي، د. محمد الدِّيك ، ص 270، 271.

القوم الحقَّ، وأن يراجعوا المواقف، ويسـمعوا كلام الله[1]، وتدخل الدَّعوة الإسـلاميَّة طوراً جديداً بصــورٍ أخرى في الانتشــار والاتِّصــال بالنَّاس، وعندما نتأمَّل نصــوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي:

1 – أنَّ ديباجة المعاهدات الإســلاميَّة كانت تبدأ باســم الله، أو باسمك اللّهمَّ، والقانون الدَّولي في صياغة المعاهدات يقول: «تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتَّفق عليها طرفا التَّعاقد».

والَّذي يجب أن نلاحظه: أنَّ المعاهدات في الإسـلام تستند إلى الله تعالى؛ الَّذي تبدأ باسمه سبحانه، حيث هو الرَّقيب، والحسيب على ما في النَّوايا والقلوب، واسم الله مقدَّسٌ في كلِّ قلبٍ يؤمن به، حتَّى أولئك الذين فسـدت عقائدُهم، فإنَّهم لا ينكرون الله، ولكنَّهم أفسـدوا تصـوُّرهم لذات الله، وقد جرت أعراف بعض الَّذين يسـتهوون قلوب العامَّة بالشِّـعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله: باسم الشَّعب، أو باسم الأمَّة، باعتبار قدسيَّة ما يبدؤون به كما يزعمون، ولكنَّ الَّذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده، ولذلك كانت البداية «باسمك اللّهُمَّ».

2 – ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الدِّيباجة) كما يســمِّيها القانون الدَّوليُّ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام من أنَّه يذكر بعد الدِّيباجة أسماء الممثِّلين، أو الدُّول الَّتي هي أطراف في عقد المعاهدة.

3 – بواعث المعاهدة: فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّــلح لأجل وضــع الحرب عن النَّاس عشــر ســنين، يأمن فيهنَّ النَّاس، ويكفُّ بعضــهم عن بعضٍ، وهذا ما عليه القانون الدَّولي العام كذلك.

4 – الدُّخول في صلب المعاهدة، وشروطها، حيث ذكر رسول الله(ﷺ) في هذه المعاهدة الشُّروط المتَّفق عليها بين الطَّرفين، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام.

5 – في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدَّولة الإسـلاميَّة) بطلب صلح

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 268 ، 269.

العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقَّف ذلك على أن يكون ابتداء الطَّلب منهم[1].

6 – أنَّ مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزٌ للمصلحة الرَّاجحة، ودفع ما هو شرٌّ منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[2].

7 – أنَّ صلح الحديبية سمَّاه الله فتحاً؛ لأنَّ الفتح في اللُّغة هو فتح المغلق، والصُّلح الَّذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله، والصُّلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطَّرف الآخر.

لقد كانت الصُّورة الظَّاهرة في شروط الحديبية فيها ضيمٌ للمسلمين، وهي في باطنها عزٌّ، وفتحٌ، ونصرٌ، حيث كان رسول الله(ﷺ) ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء سترٍ رقيقٍ، وكان يعطي المشركين كلَّ ما سألوه من الشُّروط الَّتي لم يحتملها أكثر أصحابه، ورؤوسهم، وهو(ﷺ) يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوبٍ[3].

8 – إنَّ المعاهدة قد تكون مفتوحةً لمن يحبُّ أن يدخل فيها من الأطراف، أو الدُّول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ؛ حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحةً لمن يحبُّ الدُّخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة، وكنانة في الصُّلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والَّتي امتدَّت سنواتٍ عديدةً[4].

9 – إنَّ المعاهدة لابدَّ لها من توقيع الأطراف، والإشهاد عليها، وتوقيع رسول الله(ﷺ) وإشهاد أصحابه إنَّما هو بمثابة التَّوقيع على المعاهدة، والتَّصديق عليها، كما هو في القانون الدَّوليِّ العامِّ.

10 – إنَّ المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً، أو طرفاً يقرِّب بين وجهات

---

(1) انظر: زاد المعاد ، لابن القيِّم (306/3).

(2) المصدر السابق نفسه (306/3).

(3) انظر المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص 272.

(4) انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص 280.

النَّظر، كوساطة سيد الأحابيش (الحُلَيْس بن عَلْقَمَة) حليف قريش الأكبر، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين، وكان الحُلَيْسُ ذا عقلٍ راجحٍ، وبصيرةٍ نافذةٍ، وكان سيِّداً مطاعاً، وكان رسول الله(ﷺ) يعرفه، ويعرف فيه التألُّه الشَّديد، والتَّعظيم للحرم.

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب، ولما يتمتَّع به من تقديرٍ لدى النَّبيِّ(ﷺ) تأثيرٌ على الرَّسول(ﷺ) وأصحابه[1].

وهذا ما يقرُّه القانون الدَّوليُّ؛ حيث إنَّ المعاهدة قد تعقد بوساطة دولةٍ أخرى ليست طرفاً في النِّزاع، أو أحد المبعوثين الَّذين لا علاقة لهم، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد.

11 - إن المعاهدة تُعَدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة، وشروطها، حتَّى لو لم تكتب، ولو لم يوقِّع عليها الطَّرفان، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الَّذي ردَّه الرَّسول(ﷺ) بموجب قبوله عليه السَّلام بالبند الخامس من المعاهدة، والَّذي يقول: «على أنَّه من أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم...»، فمنذ أعلن رسول الله(ﷺ) التزامه بهذا الشَّرط أجراه، ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد، ولم يوقِّع عليها الطرفان.

12 - إنَّ المعاهدة تُكتب من نسختين، ويأخذ كلُّ طرفٍ نسخةً طِبْقَ الأصل من المعاهدة؛ حيث إنَّه بعد أن تمَّت إجراءات الصُّلح النِّهائية في الحديبية؛ أخذ كلٌّ من الفريقين نسخةً من وثيقة الصُّلح التَّاريخيَّة، وانصرف الوفد القرشيُّ راجعاً إلى مكَّة[2].

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إنَّ من أبلغ دروس صلح الحديبية درسَ الوفاء بالعهد، والتَّقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات؛ الَّتي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله(ﷺ) بنفسه أعلى مثلٍ في التَّاريخ القديم، والحديث لاحترام كلمةٍ لم تكتب، واحترام كلمةٍ تكتب كذلك، وفي الجدِّ في

---

(1) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 199 . 200.

(2) انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة، ص 273.

عهوده، وحبِّه للصَّـــراحة، والواقعيَّة، وبغضـــه التَّحايل، والالتواء، والكيد، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال، وقد فرَّ من مشركي مكَّة، وكان أبوه يتفاوض مع الرَّسول(ﷺ) ، وكان هذا الابن ممَّن آمنوا بالإسلام وجاء مستصرخاً بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشركين.

فلـــمَّا رأى سـهيلٌ ابنه؛ قام إليه وأخذه بتلابيبه، وقال: يا محمد! لقد لجَّت القضـيَّةُ بيني وبينك – أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا – فقال رسـول الله(ﷺ) : صـدقت، فقال أبو جندل: يا معشـر المسـلمين! أُرَدُّ إلى المشـركين يفتنونني في ديني؟! فلم يغنِ عنه ذلك شـيئاً، وردَّه رسول الله(ﷺ) ، وقال لأبي جندل: إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهداً، وإنَّا لا نغدر بهم. غير أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) إزاء هذه المأســاة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له، ولمن على شـاكلته من المسـلمين، وقال له – وهو يواسـيه –: «يا أبا جندل! اصـبر، واحتسب، فإنَّ الله جاعلٌ لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً، ومخرجاً» **[سبق تخريجه]**[1].

وفي هذه الكلمات النَّبويَّة المشرقة العظيمة دلالةٌ ليس فوقها دلالةٌ على مقدار حرص رسول الله(ﷺ) ، وتمسُّكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه، وعواقبه فيما يبدو للنَّاس[2].

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً، ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرَّسول(ﷺ) والمســلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم، وحبس مشــاعرهم، وقد صــبروا لمنظر أخيهم أبي جندل، وتأثَّروا من ذلك المشــهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدِّماء تنزف منه؛ ممَّا زاد في إيلامهم، حتَّى إنَّ الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشــفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشـرك وهو يسـحبُه بفظاظة الوثنيِّ الجلف، ليعود به مرَّة أخرى إلى سـجنه

---

(1) انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (347/3).

(2) انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (275/4).

الرَّهيب في مكَّة.

وقد صبر أبو جندل، واحتسب لمصابه في سبيل دينه، وعقيدته، وتحقَّق فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ **[الطلاق: 2 – 3]**.

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتَّى تمكَّن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكَّة من الإفلات من سجون مكَّة، وأصبحوا قوَّةً صار كفار مكَّة يخشونها بعد أن انضمُّوا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشَّام[1]. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

ثالثاً: احترام المعارضة النَّزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصُّلح، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضةٌ شديدةٌ، وقويَّةٌ لهذه الاتفاقيَّة، وخاصَّةً في البندين اللَّذين يلتزم النَّبيُّ(ﷺ) بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريشٌ بردِّ مَنْ جاءها من المسلمين مرتدَّاً، والبند الَّذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكَّة ذلك العام، وقد كان أشدَّ النَّاس معارضة لهذه الاتفاقيَّة، وانتقاداً لها عمر بن الخطَّاب، وأُسيد بن حضير سيِّد الأوس، وسعد بن عُبادة سيِّد الخزرج.

وقد ذكر المؤرِّخون: أنَّ عمر بن الخطَّاب أتى رسول الله(ﷺ) مُعلناً معارضته لهذه الاتفاقيَّة، وقال لرسول الله(ﷺ) : ألست برسول الله؟ قال: «بلى!» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى!» قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى!» قال: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟! قال: «إنِّي رسولُ الله، ولستُ أعصيه[2]».

---

(1) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 322 إلى 325.

(2) انظر: من معين السِّيرة ص 333.

وفي روايةٍ: «أنا عبد الله، ورســوله، لن أخالف أمره، ولن يُضــيِّعني[1]» قلت: أوليس كنت تحدِّثنا أنا ســـنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا. قال: «فإنَّك آتيه، ومطوِّفٌ به». قال عمر: فأتيت أبا بكرٍ، فقلت له: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قلت: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر - ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة -: الزم غرزه - أي: أمره -، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله، وأنَّ الحقَّ ما أمر به، ولن يخالف أمر الله، ولن يضيِّعه الله. [سبق تخريجه][2].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثِّرة عاد الصَّــحابة إلى تجديد المعارضــة للصُّــلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسـول الله(ﷺ) بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته، وإعلان معارضـتهم، إلا أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) بما أعطاه الله من صــبرٍ، وحكمةٍ، وحلمٍ، وقوَّة حجَّةٍ اســتطاع أن يقنع المعارضــين بوجاهة الصُّلح، وأنَّه في صالح المسلمين، وأنَّه نصرٌ لهم[3]، وأنَّ الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً، ومخرجاً، وقد تحقَّق ما أخبر به(ﷺ) .

وبهذا يتبيَّن: أنَّ الرَّسول(ﷺ) وضع قاعدة احترام المعارضة النَّزيهة، حيث قرَّر ذلك بقوله، وفعله، وهو - والله أعلم - إنَّما أراد بهذا الفعل إرشـــاد القادة من بعده إلى احترام المعارضـــة النَّزيهة؛ الَّتي تصـدر من أتباعهم، وذلك بتشـجيع الأتباع على إبداء الآراء السَّـليمة؛ الَّتي تخدم المصلحة العامَّة[4].

وهذا الهدي النَّبويُّ الكريم بيَّن: أنَّ حرِّيَّة الرأي مكفولةٌ في المجتمع الإسـلاميِّ، وأنَّ للفرد في المجتمع المســلم الحرِّيَّة في التَّعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرَّأي نقداً لموقف حاكم من الحكَّام، أو خليفةٍ من الخلفاء، فمن حقِّ الفرد المســلم أن يبيِّن وجهة نظره في جوٍّ من الأمن، والأمان دون

---

(1) انظر: تاريخ الطَّبري (634/2).

(2) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (346/3).

(3) انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص 270.

(4) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد رسول الله (ص) ، ص 495.

إرهابٍ، أو تسلُّط يخنق حرِّية الكلمة، والفكر.ونفهم من معارضة عمر لرسول الله(ﷺ) : أنَّ المعارضة لرئيس الدَّولة في رأيٍ من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمةً تستوجب العقاب، ويُغَيَّب صاحبها في غياهب السُّجون[1].

رابعاً: التَّحلُّل من العمرة ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله(ﷺ) من قضية كتابة الصُّلح قال لأصحابه: «قوموا، فانحروا، ثمَّ احلقوا...» حتَّى قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ، فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ؛ دخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي مِنَ النَّاس، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج، ثمَّ لا تُكلِّم أحداً منهم كلمةً؛ حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج، فلم يكلِّم أحداً منهم حتَّى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه، فلمَّا رأوا ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتَّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. [سبق تخريجه].

وقد حلق رجالٌ يوم الحديبية، وقصَّر آخرون، فقال رسول الله(ﷺ) : «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: «والمقصرين». [البخاري (1727)، ومسلم (1201)، عن ابن عمر، وأحمد (216/1) عن ابن عباس][2].

وكان في هدي النَّبيِّ(ﷺ) في الحديبية جملٌ لأبي جهلٍ في رأسه بُرَةٌ[3] من فضَّةٍ، يغيظ بذلك المشركين. [أحمد (234/1)، وأبو داود (1749)، وابن ماجه (3076)، والطبراني في المعجم الكبير (11147 و11148)][4].

---

(1) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 134، 135.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (348/3)، والإصابة في معرفة الصَّحابة.
(3) البَرَة: حلقةٌ تُجعل في أنف البعير ليذلَّ، ويرتاض.
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (349/3)، وتحفة الأحوذي، للمباركفوري (كتاب الحج).

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمورٌ فيها دروسٌ، وعبرٌ منها:

1 – كان رأي أمّ سلمة سديداً، ومباركاً؛ حيث فهمت رضي الله عنها عن الصَّحابة: أنَّه وقع في أنفسهم أن يكون النَّبيُّ(ﷺ) أمرهم بالتَّحلُّل أخذاً بالرُّخصة في حقِّهم، وأنَّه يستمرُّ على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حقِّ نفســـه، فأشـــارت على النَّبيِّ(ﷺ) أن يتحلَّل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النَّبيُّ(ﷺ) صواب ما أشارت به، ففعله، فلمَّا رأى الصَّحابة ذلك؛ بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غايةٌ تُنتظر، فكان ذلك رأياً سديداً، ومشورةً مباركةً، وفي ذلك دليلٌ على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرةٍ صائبةٍ، ورأيٍ سديدٍ[1]، كما أنَّه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجلٍ، أو امرأةٍ ما دامت مشورةً صائبةً، وهذا عين التَّكريم للمرأة الَّتي يزعم أعداء الإســـلام: أنَّه غمطها حقَّها، وتجاهل وجودها، وهل هناك اعترافٌ واحترامٌ لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبيٍّ مرسلٍ، ويعمل النَّبيُّ(ﷺ) بمشورتها لحلِّ مشكلة اصطدم بها، وأغضبته؟![2].

2 – أهمِّيَّة القدوة العملية: فقد دعا رسول الله(ﷺ) إلى أمر وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ، وفيهم كبار الصَّحابة، وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحدٌ لدعوته، فلـــمَّا قدم رسول الله(ﷺ) على الخطوة العمليَّة؛ الَّتي أشـــارت بها أمُّ ســـلمة تحقَّق المراد، فالقدوة العمليَّة في مثل هذه المواقف أجدى، وأنفع[3].

3 – حكم الإحصار في العمرة والحجِّ: دلَّ عمل الرَّسول(ﷺ) بعد الفراغ من أمر الصُّلح من التحلُّل، والنَّحر، والحلق على أنَّ المحصـــر يجوز له أن يتحلَّل، وذلك بأن يذبح شـــاةً حيث أحصـــر، أو ما يقوم مقامها، ويحلق، ثمَّ ينوي التَّحلُّل ممَّا كان قد أهلَّ به، ســـواءٌ كان حجّاً، أو عمرةً، كما دلَّ على أنَّ المتحلِّل لا يُلزم بقضـــاء الحجِّ، أو العمرة إذا كان متطوِّعاً، وخالف

---

(1) انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة، ص 161

(2) انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة، ص 273.

(3) انظر: تأمُّلات في السِّيرة النَّبويَّة، لمحمَّد السَّيِّد الوكيل، ص 211.

الحنفيَّة، فرأوا: أنَّ القضاء بعد المباشرة واجبٌ؛ بدليل أنَّ جميع الَّذين خرجوا معه(ﷺ) في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا مَنْ توفي، أو استشهد منهم في غزوة خيبر[1].

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثمَّ انصرف رسول الله(ﷺ) من الحديبية قاصداً المدينة، حتَّى إذا كان بين مكَّة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: 11] .

وقد عبَّر رسول الله(ﷺ) عن عظيم فرحته بنزولها، وقال: أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس [البخاري (4177)، عن أسلم، ومسلم (1786) عن أنس]، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً﴾، فقال أصحاب رسول الله(ﷺ) : هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله:

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 5] [البخاري (4172) عن أنس].

وقد أسرع النَّاس إلى رسول الله(ﷺ) وهو واقفٌ على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: فقال رجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً﴾ رسول الله! أفتحٌ هو؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده! إنَّه لفتح» [أبو داود (2736)، والحاكم (131/2)] فانقلبت كابة المسلمين، وحزنُهم إلى فرحٍ غامرٍ، وأدركوا: أنَّهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنَّتائج، وأنَّ التَّسليم لأمر الله، ورسوله فيه كلُّ الخير لهم، ولدعوة الإسلام[2].

كان حديث القرآن الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح، وكان القرآن الكريم له منهجُه الخاصُّ في عرضه لغزوة الحديبية، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة: أنَّه سمى الصُّلح الذي

---

(1) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص243.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (449/2).

وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً.

إنّنا بالتّأمُّل في أسباب النُّزول نجد: أنَّ سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النّبيّ(ﷺ) من الصُّلح، وهو عائدٌ إلى المدينة النّبويّة، وبعد أن خاض النّبيُّ(ﷺ) ، والمؤمنون تلك التّجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشـركين، إلى بيعة الرِّضـوان، إلى الصُّـلح الّذي لم يكن بعض الصَّحابة راضين عنه، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرةٌ حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القرآن الكريم ويبيّن للمسـلمين: أنَّ هذا الصُّـلح هو فتحٌ مبين، ويؤكِّد: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) كان على صوابٍ في قبول الصُّلح؛ لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله(ﷺ) حين يبشّره الله على الملأ من الدُّنيا بأنَّ الله تعالى فتح بالصُّـلح ليغفر له ما تقدَّم من ذنبه، وما تأخّر كرامةً منه سـبحانه لرسـوله، ليزداد المسـلمون ثقةً، واطمئناناً بأنّهم على الصَّـواب، وأن ما فعلوه هو الحقُّ، وماله السَّـعادة، ثمَّ بيَّن سـبحانه أنَّ توفيق الله كان مع المؤمنين؛ فهو الّذي وفَّقهم للصَّـبر مع رسـوله، وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصُّـلح، وأنَّ ذلك كان بسـبب إنزال السَّـكينة في قلوبهم، حتَّى على قلوب من أنكر بعض شـروط الصُّـلح، واسـتسـلم للأمر على مضـضٍ، فلم يحصـل رفضٌ لهذا الصُّـلح، بل كلُّهم نزلوا على أمر رسـوله(ﷺ) بفضـل السَّـكينة؛ الّتي أنزلها عليهم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّـكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ **[الفتح: 4]**.

فالقرآن الكريم يبيّن: أنَّ الله هو الّذي أنزل السَّـكينة عليهم ليتذكَّروا فضـله، ويداوموا على شـكره، وهذا الإعلام بإنزال السَّـكينة ممَّا يتميَّز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة؛ إذ السَّـكينة أمرٌ معنويٌّ لا يعلم نزوله إلا الله، وأشـار القرآن الكريم إلى بيعة الرِّضـوان، وهي مبايعة الصَّحابة للنّبيّ على الموت، فأثنى الله – سبحانه وتعالى – على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن، وقرَّر أنَّها مبايعةٌ لله – عزَّ وجلَّ –، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِـهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَـيُؤْتِيهِ

أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: 10].

وبهذا نرى ما يتميَّز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات، فهو يبيِّن الحقائق ويصـــحِّح العقائد، ويربِّي النُّفوس، ويفضح المنافقين، ويبشر المسلمين بغنائم قريبةٍ تحقَّقت في خيبر، وبين أصحاب الأعذار، فليس كلُّ مَنْ تخلَّف عن الجهاد يُعاتب، وإنَّما هناك استثناء، وهذا من كمال رحمته الإلهيَّة، ثمَّ لما تمَّ صــلح الحديبية، وعاد المســلمون إلى المدينة، ولم يتحقَّق ما قصــدوه من دخول مكَّة؛ أشــار - ســبحانه وتعالى - إلى الرُّؤيا الَّتي ســبق أن راها النَّبيُّ(ﷺ) وبشَّــر بها أصحابه، وبيَّن أنَّها رؤيا صِدْقٍ، وأنَّها ستتحقَّق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْـجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَـكُمْ وَمُقَصِّـرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: 27].

ثمَّ خُتمتِ السُّورة الجليلةُ بصفات مدحٍ للنَّبيِّ(ﷺ) ولأصحابه الكرام(1).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَـهِيدًا ۝ مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِـدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُـجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَاناً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّـجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: 28-29].

هذه الآيات الكريمة وصـفت أصـحاب محمَّدٍ في أحلى، وأجمل صـورةٍ، إنَّها صـورةٌ عجيبةٌ يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صـورةٌ مؤلَّفةٌ من عدَّة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظَّاهرة، والمضمرة.

فلقطةٌ: تُصـوِّر حالتهم مع الكفَّار، ومع أنفسـهم: ﴿أَشِـدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أشـــدَّاء على الكفار، وفيهم اباؤهم، وإخوتهم، وذوو قرابتهم، وصـــحابتهم، ولكنَّهم قطعوا هذه

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (548/2 إلى 555).

الوشائج جميعاً وهم فقط إخوة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، فهي الشدَّة لله، والرَّحمة لله.

اللَّقطة الثَّانية: والتَّعبير يوحي كأنَّما هذه هي هيئتهم الدَّائمة؛ الَّتي يراها الرَّائي حين ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، ذلك: أنَّ هيئة الرُّكوع والسُّجود تمثِّل حالة العبادة، وهي الحالة الأصليَّة في حقيقة نفوسهم، فعبَّر عنها تعبيراً يثبِّتها كذلك في زمانهم، حتَّى لكأنهم يقضون زمانهم كلَّه رُكَّعاً سجداً.

واللَّقطة الثَّالثة: مثلها، ولكنَّها لقطةٌ لبواطن نفوسهم، وأعماق سرائرهم فهذه هي صورة مشاعرهم الدَّائمة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾، كلُّ ما يشغَل بَالَهُم، كلُّ ما تتطلَّع إليه أشواقهم، هو فضلُ الله، ورضوانُه، ولا شيء وراء الفضل والرِّضوان يتطلَّعون إليه، ويشتغلون به.

واللَّقطة الرَّابعة: تثبت أثر العبادة الظَّاهرة، والتَّطلُّع المضمر في ملامحهم، ونضجها على سماتهم سيماهم في ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ من الإشراق، والوضاءة، والصَّفاء، والشَّفافية، وليست هذه السِّيما هي النُّكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذِّهن عند سماع قوله: فالمقصود بأثر السُّجود هو أثر ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، واختار لفظ السُّجود؛ لأنَّه يمثِّل حالة الخشوع، والخضوع والعبوديَّة لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء، والكبرياء، والفراهة، ويحلُّ مكانها التَّواضع النَّبيل، والشَّفافية الصَّافية، والوضاءة الهادئة، والذُّبول الخفيف؛ الَّذي يزيد وجه المؤمن وضاءةً، وصباحةً، ونُبلاً.

وهذه الصُّورة الوضيئة الَّتي تمثِّلها هذه اللَّقطات ليست مستحدثةً، إنَّما هي ثابتةٌ لهم في لوحة القدر، ومِنْ ثمَّ فهي قديمةٌ جاء ذكرها في التَّوراة: وصفتهم الَّتي عرفهم الله بها في كتاب ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، وبشَّر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها وصفهم في بشارته بمحمَّد ومن معه أنَّهم فهو زرعٌ تامٌّ قويٌّ يخرج فرخه من ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، وخصوبته، ولكنَّ هذا الفرخ لا يُضعف العود بل يشدُّه: وأنَّ العود آزر ﴿فَآزَرَهُ﴾، فشدَّه ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾، وضخمت ساقه، وامتلأت ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ معوجّاً، ولا منحنياً، ولكن مستقيماً قويّاً سويّاً.

هذه صــورته في ذاته، فأمَّا وقعه في نفوس أهل الخبرة، والزَّرع، والعارفين، منه النَّامي المثمر، ومنه البائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: وهم ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ الله وأصـــحابُه، وأمَّا وقعه في نفوس الكفَّار؛ فعلى العكس، فهو وقع الغيظ والكَمَد ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأنَّ هذه الزِّراعة زرعةُ الله أو زرعة رسولِه، وأنَّهم ستارٌ لِقَدره، وأداةٌ لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابتٌ في الإنجيل في بشارته بمحمَّدٍ(ﷺ) ومَنْ معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة – صحابة رسول الله – فتثبُت في صلب الوجود كلِّه، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى أنموذجاً للأجيال تحاول أن تحقِّقها ليتحقَّق معنى الإيمان في أعلى الدَّرجات.

وفوق هذا التكريم كلِّه وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: وهو وعدٌ يجيء في هذه الصِّـــيغة العامَّة بعدما تقدَّم من صــــفتهم الَّتي تجعلهم أوَّل الدَّاخلين في هذه الصِّـــيغة العامَّة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾، وذلك التكريم وحده حسبُهم، وذلك الرِّضا وحدَه أجرٌ عظيمٌ، ولكنَّه الفيض الإلهيُّ بلا حدودٍ ولا قيود، والعطاء الإلهيُّ عطاءٌ غير مجذوذ(1).

يقول سيِّد قطب رحمه الله: «... ومرةً أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرِّجال السُّـــعداء، وقلوبهم؛ وهم يتلقَّون هذا الفيض الإلهيَّ من الرِّضـــا، والتَّكريم، والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وانظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السُّورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشـون فيها بأرواحهم، وقلوبهم، ومشـــاعرهم، وسماتهم، وينظر بعضـــهم في وجوه بعضٍ، فيرى أثر النِّعمة الَّتي يُحِسُّـــها وهو في كيانه»(2). لقد أيقن الصَّـحابة الكرام أنّ الدَّعوة قد دخلت في طورٍ جديد، وفتح أكيد، وافاق

(1) انظر: التربية القيادية (290/4 ، 291 ، 292).

(2) انظر: في ظلال القرآن (3333/26/6).

أوســـع، وامتدادٍ أرحب، وأنَّ من طبيعة هذا الدِّين أن ينمو، وينتعش في أجواء السِّـــلم، والأمن أكثر منه وقت الحرب، ولمسوا مع الأيام **نتائج صلح الحديبية الَّتي كان من أهمِّها:**

1 – اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدَّولة المســـلمة، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثِّرة بموقف قريشٍ الجحوديّ؛ حيث كانوا يرون: أنَّها الإمام والقدوة.

2 – دخلت المهابة في قلوب المشركين، والمنافقين، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثيرٍ من صناديد قريش إلى الإسلام؛ مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، كما تجلَّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلُّفهم.

3 – أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف النَّاس به، ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه، يقول الإمام الزُّهري: «فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس، فلـــمَّا كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث، والمنازعة، فلم يكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السَّنتين مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك»[1].

وعقَّب عليه ابن هشـــامٍ بقوله: والدَّليل على قول الزُّهريّ: أنَّ رســـول الله(ﷺ) خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئةٍ في قول جابر بن عبد الله, ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[2].

4 – أمن المسلمون جانب قريش, فحوَّلوا ثقلهم على اليهود, ومَنْ كان يناوئهم من القبائل الأخرى, فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

5 – مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين, ويميلون إليه, فهذا

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (351/3).

(2) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص 329.

الحُلَيْسُ بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون؛ رجع إلى أصحابه, قال: لقد رأيت البُدْن قد قُلّدَتْ, وأُشْعِرت, فما رأى أن يُصَدُّوا عن البيت.

6 - مكَّن صلح الحديبية النَّبيَّ(ﷺ) من تجهيز غزوة مؤتة, فكانت خطوةً جديدةً لنقل الدَّعوة الإسلاميَّة بأسلوبٍ آخر خارج الجزيرة العربيَّة.

7 - ساعد صلح الحديبيَّة النَّبيَّ(ﷺ) على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس, والرُّوم, والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

8 - كان صلح الحديبيَّة سبباً ومقدِّمةً لفتحِ مكَّة, ويقول ابن القيِّم: «كانت الهدنةُ مقدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم, الَّذي أعزَّ الله به رسوله, وجنده, ودخل النَّاسُ به في دين الله أفواجاً, فكانت هذه الهدنة باباً له, ومفتاحاً, ومؤذناً بين يديه, وهذه سُنَّةُ الله - سبحانه - في الأمور العظام الَّتي يقضيها قدراً, وشرعاً أن يوطِّئَ لها بين يديها مقدِّماتٍ, وتوطئاتٍ تُؤذنُ بها, وتدُلُّ عليها»[1].

سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرةً استطاع أبو بصير عُتْبَةُ بن أُسَيْدٍ أن يفرَّ بدينه من سجون الشِّرك في مكَّة المكرَّمة, وأن يلتحق برسول الله(ﷺ) في المدينة, فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله(ﷺ) ليرجعا به, تنفيذاً لشروط المعاهدة, فقال رسول الله(ﷺ) لابي بصير: «يا أبا بصير! إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت, ولا يصلح لنا في ديننا الغدر, وإنَّ الله جاعلٌ لك, ولمن معك من المستضعفين فرجاً, ومخرجاً, فانطلق إلى قومك» فقال أبو بصير: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير, انطلق؛ فإن الله سيجعل لك, ولمن معك من المستضعفين فرجاً, ومخرجاً» **[أحمد (325/4), وابن هشام (331/3)]**.

---

(1) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (353/3).

فانطلق معهما, وقد شــقَّ ذلك على المســـلمين وهم ينظرون بحزنٍ إلى أخيهم في العقيدة, وهو يعود إلى سجنه بمكَّة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريشٍ، ولكنَّ رسول الله(ﷺ) كان يهتمُّ بالوفاء بالعهود، والمواثيق، ولم يكن عنده مجرَّد نظريةٍ مكتوبةٍ على الورق، ولكنَّه كان سلوكاً عملياً في حياته، وفي علاقته الدَّولية، فقد أوصـــى الله - ســـبحانه وتعالى - بالوفاء بالعهود، وحذَّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنيَّة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُـــوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 34].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسـلمين قاعدةً أصـوليَّة من قواعد الدِّين الإسـلاميّ، الَّتي يجب على كلِّ مسلمٍ أن يلتزم بها[(36)].

لقد التزم رسول الله(ﷺ) بعهده مع قريش، وسلَّم أبا بصير إليهما، وانطلق معهما، فلـــمَّا كان بذي الحُليفة؛ قال لأحد صاحبيه: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر؛ إن شئت، فاستلَّه أبو بصير، ثم علاه به حتَّى قتله، ففرَّ الآخر إلى رسول الله(ﷺ) فقال: قتل صاحبُكم صاحبي، فما لبث أبو بصير أن حضر، متوشحاً السَّيف، وقال: يا رســول الله! وفَت ذمَّتك، وأدَّى الله عنك، أســلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه، أو يُعْبَث بي[(37)]. فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «ويل أمِّه! مسْــعَرُ[1] حربٍ. لو كان له أحدٌ!». [أحمد (4/331)، والبخاري (2732)، وأبو داود (2765)].

فلـــــمَّا سمع ذلك عرف: أنَّه ســـيردُّه إليهم، فخرج حتَّى أتى ســـيف البحر، وقد فهم المستـضـعفون بمكَّة من عبارة الرَّسـول(ﷺ) أنَّ أبا بصـير بحاجةٍ إلى الرِّجال، فأخذوا يفرُّون من مكة إلى أبي بصــير في ســيف البحر، فلحق به أبو جندل بن ســهيل بن عمرٍو، وغيره، حتَّى

(1) مِسْعَر: موقد حربٍ ومهيجها.

اجتمع عند أبي بصـير عصـبةٌ قويَّةٌ، فما يسـمعون بعيرٍ لقريشٍ خرجت إلى الشَّـام إلا اعترضـوا طريقها، وقتلوا مَنْ فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتَّجرون بها، فأرسل المشـركون إلى النَّبيّ(ﷺ) يناشـدونه الله، والرَّحم لما أرسـل إلى أبي بصـيرٍ، ومن معه، ومن أتاه منهم، فهو آمن، وتخلَّوا في ذلك عن أقسـى شـروطهم الَّتي صـبُّوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلَّت قريشٌ من حيث طلبت العزَّ[1].فأرسـل إليهم النَّبيُّ(ﷺ) وهم بناحية العيص، فقدموا عليه، وكانوا قريباً من السِّـتِّين، أو السَّـبعين[2] فاوى النَّبيُّ(ﷺ) تلك العصـبة المؤمنة الَّتي أقضَّـت مضـاجع قريشٍ، وأرغمتها على إسقاط شرطها التَّعسُّفيَّ، فزادت بهم قوَّة المسلمين، وقويت بهم شوكتُهم، واشتدَّ بأسهم، غير أنَّ أبا بصيرٍ، رأس تلك العصابة، ومؤسِّسها لم يقدَّر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النَّبيّ(ﷺ) بالعودة إلى المدينة وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسـه حيث كان في الثَّغر، وهواه في قلب المجتمع النَّبويّ في المدينة[3].

إنَّ قصَّـة أبي جندلٍ، وأبي بصـيرٍ، وما احتملاه في سـبيل العقيدة، وما أبدياه من الثَّبات، والإخلاص، والعزيمـة، والجهـاد؛ حتَّى مرَّغوا رؤوس المشـركين بالتُّراب، وجعلوهم يتوسَّـلون للمسـلمين لترك ما اشـترطوه عليهم في الحديبية، هذه القصَّـة نموذجٌ يُقتدى به في الثَّبات على العقيدة، وبذل الجهد في نصرتها، وفيها ما يشير إلى مبدأ: «قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة»، فقد ألحق أبو بصـير، وجماعتُه الضَّـرر بالمشـركين في وقتٍ كانت فيه دولة الإسـلام لا تسـتطيع ذلك وفاءً بالصُّلح، لكنَّ أبا بصير، وأصحابَه خارجُ سلطة الدَّولة - ولو في ظاهر الحال - ولم يكن ما قام به أبو بصـير، والمسـتضـعفون بمكَّة مجرَّد اجتهادٍ فرديٍّ لم يحظَ بإقرار الرَّسـول(ﷺ) حيث لم يأمر أبا بصـير بالكفِّ عن قوافل المشـركين ابتداءً، أو بالعودة إلى مكَّة، إنَّ ذلك لم يحدث، فكان إقراراً له؛ إذ كان موقف أبي بصير، وأصحابه في غاية الحكمة، حيث لم يستكينوا

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (281/4).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (451/2).
(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص 296.

لطغاة مكَّة يفتنونهم عن دينهم، ويمنعونهم من اللَّحاق بالمدينة، فاختاروا موقفاً فيه خلاصُهم، وإسناد دولتهم بأعمالٍ تُضعِف اقتصاد مكَّة، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصُّلح، بل يمكن القول بأن اتِّخاذ هذا الموقف كان بإشارةٍ، وتشجيعٍ من النَّبيِّ(ﷺ) حين وصف أبا بصير[1] بأنَّه: «مِسْعَرُ حربٍ. لو كان معه أحدٌ!» [سبق تخريجه].

إنَّ المتأمِّل في هذه الأحداث يرى رعاية الله الَّتي أولاها لهؤلاء الصَّحابة الكرام، ولا شكَّ: أنَّ هناك أسباباً بذلوها، فأهَّلتهم لتلك الرِّعاية من الله سبحانه، فقد بيَّن سبحانه في كتابه المؤهِّلات لرعايته وعنايته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 128].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: 2]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69].

فهذه الصِّفات قد توافرت في الصَّحابة رضي الله عنهم، فنالوا تلك الرِّعاية والعناية من الله، ومتى توافرت في شخصٍ، أو أمَّةٍ في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ فإنَّ رعاية الله سوف تنزل عليهم؛ لأنَّ الله قد وعد بذلك، ووعده الحقُّ[2].

سابعاً: امتناع النَّبيِّ(ﷺ) عن ردِّ المهاجرات:

صمَّمت مجموعةٌ من النِّساء المستضعفات في مكَّة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدِّمة هؤلاء النِّساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط، فقد هاجرت إلى رسول الله(ﷺ) بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكَّة أن يردُّوهن؛ فأنزل الله تعالى في حقِّهنَّ: ﴿يَاأَيُّهَا

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (452/2).

(2) انظر: غزوة الحديبية، للحكمي، ص 320.

الَّـذِينَ آمَنُوا إِذَا جَـاءَكُمُ الْمُؤْمِنَـاتُ مُهَـاجِرَاتٍ فَـامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـانِهِنَّ فَـإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِـكُوا بِعِصَـمِ الْكَوَافِرِ وَاسْـأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْـأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 10]. [خبر رفض رسول الله(ﷺ) إرجاع أم كلثوم؛ رواه ابن سعد (230/8 – 231)، والبيهقي في السنن الكبرى (229/9)، ومجمع الزوائد (123/7)].

ومعنى الآيات الكريمة: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، قال ابن عباس: كان امتحانهنَّ أن يشـهدن أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبد الله ورسولُه، وقوله تعالى: هذه الاية هي الَّتي حرَّمت المسلمات على ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، قال القرطبيُّ: هذا أوَّل دليلٍ على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتُها(1).

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

أي: أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الَّذي غرموه عليهنَّ من الأصدقة.

وقوله: قال ابن كثيرٍ: يعني: إذا ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أصدقتهنَّ؛ فانكحوهنَّ؛ أي: تزوَّجوهنَّ بشرط: انقضاء العدَّة، والوليّ، وغير ذلك(2).

وفي قوله: العصم: جمع العصمة؛ وأصل العصمة: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، وكلُّ ما أمسـك شـيئاً فقد عصـمه، والمراد بالعصـمة هنا: النِّكاح، الكوافر: جمع كافرة، والمعنى: أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر، وأمرهم بفراقهنَّ، وقد طلَّق عمر بن الخطَّاب امرأتين كانتا له في الشِّرك لـمَّا نزلت هذه الآية. [البخاري (3732)].

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (63/18).
(2) انظر: تفسير ابن كثير (351/4).

وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10]

قال المفسِّرون: كان مَنْ ذهب من المسلمات مرتدَّاتٍ إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحدٌ من الكافرات مسلمةً مهاجرةً: ردُّوا إلى الكفار مهرها. وكان ذلك نصفاً، وعدلاً في الحالتين، وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزَّمان في تلك النَّازلة خاصَّةً بإجماع الأمَّة قاله ابن العربيّ[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[الممتحنة: 11]

يعني: إن لحقت امرأةٌ مؤمنةٌ بكفَّار أهل مكَّة، وليس بينكم، وبينهم عهدٌ، ولها زوجٌ مسلمٌ قِبَلكُم، فغنمتم، فأعطوا هذا الزَّوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمَّس[2]. وقال الزُّهريُّ: يُعطى من مال الفيء، وعنه: يعطى من صداق مَنْ لحق بنا[3].

وقال مجاهد: أصبتم غنيمةً ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قريشٍ، أو غيرهم[4].

قال أبو السُّعود: أي: فجاءت عقبتكم؛ أي: نوبتكم من أداء ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾، شبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارةً، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه، كما يتعاقب في الرُّكوب، وغيره[5].

وقوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[الممتحنة: 11]

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (68/18) ، وحديث القرآن الكريم (545/2).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (545/2).

(3) انظر: تفسير ابن كثير (352/4).

(4) انظر: تفسير ابن كثير (252/4).

(5) انظر: تفسير أبي السعود (240/8).

قال ابن كثير: فلو أنّها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشـــركين؛ ردَّ المؤمنون إلى زوجها النَّفقة، الَّتي أنفق عليها من العَقِب الَّذي بأيديهم؛ الذي أمروا أن يردُّوه على المشركين من نفقاتهم الَّتي أنفقوا على أزواجهم الَّلاتي آمن، وهاجرن، ثمَّ رَدُّوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم[1].

وختم الآية الكريمة بقوله: أي احذروا أن تعتدوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أمرتم به.

قال الزُّهريُّ: وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدَّت بعد إيمانها **[البخاري (2733)]**، وقال ابن حجر: أراد الزُّهريُّ بذلك الإشـــارة إلى أنَّ المعاقبة المذكورة بالنِّســبة إلى الجانبين إنَّما وقعت في الجانب الواحد؛ لأنَّه لم يُعرف أحدٌ من المؤمنات فرَّت من المســلمين إلى المشـــركين بخلاف عكسه[2].

لقد حدث خلافٌ في فهم البند القائل: من أتى محمَّداً(ﷺ) من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، فالمشــركون يرون: أنَّ النَّص يشــمل الرِّجال، والنِّســاء، والرَّســول(ﷺ) يرى: أنَّ النَّص للرِّجال دون النِّســاء؛ إذ النَّصُّ جاء بصـيغة المذكَّر، ولقد أيَّد الله رسـوله(ﷺ) فيما ذهب إليه، فلم يُرجع مســلمةً هاجرت إلى المدينة فراراً بدينها، بل امتحنها، وقبلها بناءً على أمر ربِّه – سبحانه وتعالى –[3].

يقول الأســتاذ محمد عزة دروزة تعقيباً على آية الامتحان: والآية تفهم مع الاســتئناس بالرِّوايات المنسقة إجمالاً معها: أنَّ بعض المؤمنات الَّلاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصُّلح اغتنمن فرصةً فهاجرن خِلْسةً، وأنَّ ذويهنَّ جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصُّلح، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهنَّ، وتأمر بالتَّعويض على أزواجهنَّ، وقد تعدَّدت الأقوال في حقيقة نصِّ وثيقة الصُّلح، ومنها أنَّه كان مطلقاً، وبصيغة التَّذكير، فرأى المكِّيُّون: أنَّه شـاملٌ للرِّجال،

(1) انظر: تفسير ابن كثير (352/4).
(2) المصدر السابق نفسه ، شرح الحديث السابق (415/5).
(3) انظر: غزوة الحديبية ، ص 178.

والنســاء معاً، فجاؤوا يطالبون بالإعادة، ورأى النَّبيُّ(ﷺ) : أنَّه لا يشــمل النِّســاء، فنزلت الآية حاسمةً للأمر، وهذا هو المعقول[1].

وقال الأستاذ الغزاليُّ: «وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردُّوا النِّسوة المهاجرات بدينهنَّ إلى أوليائهنَّ، إمَّا لأنَّهم فهموا: أنَّ المعاهدة خاصَّــةٌ بالرِّجال فحســب، أو لأنَّهم خشــوا على النِّســاء الَّلاتي أســلمن أن يضــعفن أمام التَّعذيب والإهانة، وهنَّ لا يســتطعن ضــرباً في الأرض، وردّاً للكيد، كما فعل أبو جندل، وأبو بصير، وأضرابهما، وأيّاً كان الأمر؛ فإنَّ احتجاز مَنْ أسلم من النِّساء تمَّ بتعليم القرآن»[2].

* * *

(1) انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لدروزة (354/2).

(2) انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص 367.

المبحث الثَّالث

دروسٌ, وعبرٌ, وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنيَّة بالدُّروس العقائديَّة, والفقهيَّة, والأصـــوليَّة, والتَّربويَّة... إلخ, وسوف أذكر منها بعض الدُّروس على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: أحكام تتعلَّق بالعقيدة:

1 – حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

في قيام المغيرة بن شـعبة على رأس النَّبيِّ(ﷺ) بالسَّـيف – ولم يكن من عادته أن يقام على رأســه وهو قاعد – ســنةٌ يقتدى بها عند قدوم رســل العدوِّ من إظهار العزِّ, والفخر, وتعظيم الإمام, وطاعته, ووقايته بالنُّفوس, وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رســـل المؤمنين على الكافرين, وقدوم رســـل الكافرين على المؤمنين, وليس هذا النَّوع الَّذي ذمَّه النَّبيُّ(ﷺ) بقوله: «مَنْ أحبَّ أن يتمثَّل له الرِّجال قياماً؛ فليتبوأ مقعده من النَّار». [أبو داود (5229), والترمذي (2755)].

كما أنَّ الفخر والخيلاء في الحرب ليسـا من هذا النَّوع المذموم في غيره[(38)], ويشـبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحدٍ, فكلُّ ما يدلُّ على التكبُّر، أو التجبُّر في المشـي ممنوع شـرعاً، ولكنَّه جائزٌ في حالة الحرب بخصـوصـها, بدليل قوله(ﷺ) عن مشـية أبي دُجانة: «إنَّها مشـيةٌ يكرهـها الله إلا في هـذا الموضـــع». [الطبراني في المعجم الكبير (65085), ومجمع الزوائد (109/6)][(39)].

2 – استحباب الفأل, وأنَّه مغاير للطِّيرة:

لــمَّا جاء سُهيل بن عمروٍ لمفاوضة رسول الله(ﷺ) ؛ قال رسول الله «سهَّل أمركم». [سبق تخريجه] [(40)]. ففي الحديث استحباب التفاؤل, وأنَّه ليس من الطِّيرة المكروهة[(41)].

وقد جـاءت أحاديث عن النَّبيِّ(ﷺ) تبيِّن معنى الفـأل، قـال رسول الله(ﷺ) : «لا طيرة، وخيرُها[1] الفأل». قالوا: وما الفأل يا رسـول الله؟! قال: «الكلمة الصَّـالحة يسـمعُها أحدُكم» **[البخاري (5754 و5755)، ومسلم (2223/110)]**.

والفرق بين الفأل، والطِّيرة: أنَّ الفأل من طريق حســـن الظَّنِّ بالله، والطِّيرة لا تكون إلا في السُّوء، فلذلك كُرِهَتْ[2].

وقد ذُكِرَتِ الطِّيرة عند النَّبيِّ(ﷺ) فقال: «أحسنها الفأل، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحســنات إلا أنت، ولا يدفع السَّـيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوَّة إلا بك». **[أبو داود (3919)، والبيهقي في السنن الكبرى (8/139)]**.

3 – بيان كفر من اعتقد: أنَّ للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالدٌ الجهنيُّ رضـي الله عنه: صـلَّى لنا – أي: من أجلنا، أو بنا – رسـولُ الله(ﷺ) صلاة الصُّبح بالحديبية – على أثر سماءٍ[3] كانت من اللَّيلة – فلـمَّا انصرف؛ أقبل على النَّاس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله، ورسـوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرنا بفضـل الله، ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَنْ قال: بِنَوْءِ[4] كذا، وكذا؛ فذلك كافرٌ بي، ومؤمنٌ بالكوكب». **[البخاري (846)، ومسلم (71)]**.

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقاديِّ، أو كفر النِّعمة بحسب حال القائل.

فمن قال: مُطرنا بنوء كذا معتقداً: أنَّ للكوكب فاعلية، وتأثيراً في إيجاد المطر فهو كافرٌ كفراً مخرجاً من الملَّة، قال الشَّـافعيُّ: مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا، وكذا على ما كان أهل الجاهليَّة يعنون

---

(1) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ، ص 303.
(2) فتح الباري (10/225).
(3) أثر سماء: المقصود: المطر.
(4) الأنواء: ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.

من إضـــافة المطر إلى أنَّه بنوء كذا، فذلك كفرٌ، كما قال رســـول الله(ﷺ) ؛ لأنَّ النَّوء وقتٌ، والوقت مخلوقٌ لا يملك لنفســه ولا لغيره شــيئاً، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا على معنى مُطرنا في وقت كذا؛ فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه[1].فالشـــافعي يقصـــد هنا الكفر الاعتقاديَّ[2].

4 – هل يجوز التبرُّك بفضلات الصَّالحين، واثارهم؟

ففي حديث عروة بن مسعودٍ وهو يصف أصحاب رسول الله(ﷺ) حوله؛ قال: فو الله ما تنخّم رســـول الله(ﷺ) نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلدَه... وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه. [سبق تخريجه].

وقد علق الشَّــاطبيُّ على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظَّاهر في مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعاً في حقِّ مَنْ ثبتت ولايتُه، واتِّباعه لسنَّة رسول الله(ﷺ) وأن يُتبرَّك بفضل وضوئه، ويُتدلَّك بنخامته، ويُستشفى باثاره كلِّها، إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصلٌ مقطوعٌ به في متنه مشكلٌ في تنزيله، وهو أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحدٍ منهم في شيءٍ من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفَه؛ إذ لم يترك النَّبيُّ(ﷺ) بعد موته، أفضل من أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه، فهو كان خليفتُه، ولم يُفعل به شيءٌ من ذلك، ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمَّة بعده، ثمَّ كذلك عثمان، ثمَّ عليٌّ، ثمَّ سائر الصحابة الَّذين لا أحد أفضل منهم في الأمَّة، ثمَّ لم يثبت لواحدٍ منهم من طريقٍ صحيحٍ معروفٍ أنَّ متبرِّكاً تبرك به على أحد تلك الوجوه، أو نحوها؛ بل اقتصـــروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسِّـــير الَّتي اتَّبعوا فيها النَّبيَّ(ﷺ) ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[3].

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شـــهابٍ؛ قال: حدَّثني

---

(1) الأم (252/1).

(2) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 304.

(3) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 305.

رجلٌ[1] من الأنصار: أنَّ رسول الله(ﷺ) كان إذا توضَّأ، أو تنخَّم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه، ونخامته، فشربوه، ومسحوا به جلودهم، فلـمَّا راهم يصنعون ذلك؛ سألهم: «لم تفعلون هذا؟» قالوا: نلتمس الطَّهور، والبركة بذلك. فقال رسول الله(ﷺ) : «من كان منكم يحبُّ أن يحبَّه الله، ورسولُه؛ فَلْيَصْدُقِ الحديث، ولْيُؤَدِّ الأمانة، ولا يؤذِ جاره». [عبد الرزاق في المصنف (19748)، وذكره الألباني في الصحيحة (2998)].

وهذا الحديث أفاد أنَّ الأَوْلى ترك التبرُّك مع رسول الله(ﷺ) ، ولعلَّ سكوت النَّبيِّ(ﷺ) عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروةُ بن مسعود رسولُ قريشٍ مدى تعلُّق الصَّحابة رضي الله عنهم بالنَّبي(ﷺ) وحبِّهم له، لا سيَّما وقد قال للنَّبيِّ(ﷺ) : إنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويدعوك [سبق تخريجه]. هذه بعض المسائل العقائديَّة.

ثانياً: أحكام فقهيَّة وأصوليَّة:

1 - قصَّة كعب بن عجرة، ونزول آية الفدية:

قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: وقف عليَّ رسول الله(ﷺ) بالحديبية، ورأسي يتهافت[2] قملاً، فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟»[3] قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: 196] فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «صم ثلاثة أيامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستَّةٍ، أو انْسُكْ[4] بما تيسَّر» [البخاري (1815)، ومسلم (82/1201)].

وفي رواية مسلمٍ: «أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) مرَّ به؛ وهو بالحديبية، قبل أن يدخل مكَّة، وهو مُحْرِمٌ، وهو يُوقِدُ تحت قِدْرٍ، والقملُ يتهافتُ على وجهه، فقال: «أيؤذيك هوامُّك هذه؟» قال: نعم.

---

(1) هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه ، الترغيب والتَّرهيب (589/3).
(2) يتهافت: يتساقط. النهاية (266/5).
(3) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش ، والمراد القمل.
(4) انسك: اذبح. النهاية (48/5).

قال: «فاحْلِقْ رأسَك، وأطْعِمْ فَرَقاً بين سِتَّةِ مساكينَ - والفَرق: ثلاثةُ اصُعٍ - أو صُمْ ثلاثة أيامٍ، أو انسُكْ نسيكة» [مسلم (83/1201)، والترمذي (2974)]. واية البقرة المذكورة تبيّن حكم مَنْ كان محرماً وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عُجرة خاصَّة، وأصبح لكلِّ مسلمٍ يمرُّ بالحالة نفسِها.

2 - مشروعية الصَّلاة في الرِّحال:

روى ابن ماجه عن أبي المليح بن أسامة؛ قال: خرجت إلى المسجد في ليلةٍ مطيرةٍ تماماً، فلـمَّا رجعت استفتحتُ، فقال أبي[1]: مَنْ هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله(ﷺ) يوم الحديبية وأصابتنا سماءٌ لم تبلَّ أسافل نعالنا، فنادى منادي رسول الله(ﷺ) : «صلُّوا في رحالكم» [أبو داود (1059)، والنسائي (111/2)، وابن ماجه (936)]. وهذا الحديث صحيحٌ، فسنده متَّصلٌ برواية الثِّقات، وقد صحَّحه ابن حجر[2].

3 - انصراف المسلمين من الحديبية، ونومهم عن صلاة الصُّبح:

كانت مدَّة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال: عشرين ليلةً على قول الواقديِّ[3]، وابن سعدٍ[4].

وعن ابن عائذٍ: أنَّ رسول الله(ﷺ) أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً[5].

والَّذي يبدو: أنَّ الواقديَّ، وابن سعدٍ أرادا تحديد مدَّة إقامته(ﷺ) في الحديبية، أما ابن عائذٍ فقصد الزَّمن الَّذي استغرقته غيبة النَّبيِّ(ﷺ) منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلَّل المسلمون من عمرتهم تلك؛ قفلوا راجعين إلى المدينة، فلـمَّا كان من اللَّيل

---

(1) أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابيٌّ تفرَّد ولده عنه.
(2) فتح الباري (184/2) ، غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 221.
(3) انظر: مغازي الواقدي (616/2).
(4) انظر: الطَّبقات الكبرى (98/2).
(5) انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (210/2).

عدلوا عن الطَّريق للنَّوم، ووكَّلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلالٌ، ولم يوقظهم إلا حرُّ الشَّمس[1]، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه؛ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله(ﷺ) زمن الحديبية، فقال رسول الله(ﷺ) : «من يكلؤنا؟»[2]. فقال بلالٌ: أنا. فناموا حتَّى طلعت الشَّمس، واستيقظ النَّبيُّ(ﷺ) ، فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون». قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» **[أبو داود (447)، والنسائي في السنن الكبرى (8802)، وأحمد (386/1 و391)]**.

وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أنَّ قصَّة نومهم عن صلاة الصُّبح وقعت في غير الحديبية، وحاول بعض العلماء التَّوفيق بين هذه النُّصوص، وذهب الدُّكتور حافظ الحكمي إلى أنَّ ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصَّة الحديبية وغيره محمولٌ على تعدُّد القصَّة، كما رجَّح ذلك النَّوويُّ[3]، وجنح إليه ابنُ كثيرٍ[4]، وابن حجرٍ[5]، والزُّرقانيُّ، بل قال السُّيوطيُّ: لا يجمع إلا بتعدُّد القصَّة[6].

4 - مشروعية الهدنة بين المسلمين، وأعدائهم، ومقدار المدَّة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلَّ العلماء، والأئمَّة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنةٍ بين المسلمين، وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدَّةٍ معلومةٍ، سواءٌ أكان ذلك بعوضٍ يأخذونه منهم، أم بغير عوضٍ، أمَّا بدون عوض فلأنَّ هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوضٍ فبقياس الأولى؛ لأنَّها إذا جازت بدون عوضٍ، فلأن تجوز بعوض أقرب، وأوجه.

وأمَّا إذا كانت المصالحة على مالٍ يبذله المسلمون، فهو غير جائزٍ عند جمهور المسلمين، لما

---

(1) انظر: غزوة الحديبية ، ص 251.
(2) يكلؤنا: يحرسنا.
(3) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (181/5 . 182) وغزوة الحديبية ، ص 258.
(4) انظر: البداية والنهاية (213/4).
(5) فتح الباري (449/1) ، وشرح الزرقاني على الموطأ (47/1).
(6) انظر: تنوير الحوالك (33/1).

فيه من الصَّغَار لهم؛ ولأنَّه لم يثبت دليلٌ من الكتاب، أو السُّنَّة على جواز ذلك، قالوا: إلا إنْ دعت إليه ضرورةٌ لا محيص عنها، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك، أو الأسر؛ فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشَّافعيُّ وأحمد رحمهم الله وكثير من الأئمَّة إلى أنَّ الصُّلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدَّةٍ معلومةٍ، وأنَّه لا يجوز أن تزيد المدَّة على عشر سنواتٍ مهما طالت؛ لأنَّها هي المدَّة الَّتي صالح النَّبيُّ(ﷺ) قريشاً عليها عام الحديبية[1].

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة، وهو قول أبي حنيفة[2].

والتَّحقيق: أنَّ القول الأول هو الرَّاجح لظاهر الحديث، وإنْ وُجِدت مصلحةٌ في الزيادة على العشر جدَّد العقد، كما قال الشَّافعي[3].

وقال بعض المتأخِّرين[4]: يجوز عقد صلحٍ مؤبَّد غير مؤقَّتٍ بمدَّةٍ معيَّنةٍ، واستدل بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ **[النساء: 90]**.

وهذا قولٌ مبنيٌّ على أنَّ الأصل في علاقة المسلمين بالكفَّار هي السَّلم، لا الحرب[5]، وأنَّ الجهاد إنَّما شرع لمجرد الدِّفاع عن المسلمين، فحسب[5].

وهذا القول مردودٌ لما يلي:

---

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 242.
(2) انظر: فتح القدير (546/5)، وغزوة الحديبية، ص 294.
(3) انظر: غزوة الحديبية، ص 295.
(4) اثار الحرب في الفقه الإسلاميّ، للدكتور وهبة الزُّحيلي، ص 680.
(5) انظر: اثار الحرب في الفقه الإسلاميّ، للزُّحيلي، ص 675.

أ – أنَّ صـــاحب هذا القول قد خرق الاتِّفاق بعد أن حكاه بنفســـه؛ حيث قال: اتَّفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدوِّ لابدَّ من أن يكون مقدوراً بمدَّة معيَّنةٍ، فلا تصح المهادنة مطلقةً إلى الأبد من غير تقديرٍ بمدَّة[1].

ب – الآية الَّتي اسـتدل بها منســوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَـلَخَ الأَشْـهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[التوبة: 5]**.

فقد نقل ذلك ابن جرير[2] عن عكرمة، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وحكاه القرطبيُّ[3] عن مجاهدٍ. ثمَّ قال: وهو أصحُّ شيءٍ في معنى الآية.

ج – الأصـــل الَّذي انبنى عليه هذا القول مردودٌ بآية براءة السَّـــابقة، وبواقع ســـيرة الرَّسول(ﷺ)، وخلفائه مع أعدائهم.

د – أمَّا فكرة: أنَّ الجهاد إنَّما شـرع للدِّفاع عن المسـلمين، فهي فكرةٌ دخيلةٌ، وقد تصـدَّى لها ســـيِّد قطب[4] رحمه الله، ففنَّدها، وبيَّن: أنَّ ســـبب نشـــوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحليَّة الدَّعوة[5].

5 – المُطْلَق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ يؤيِّدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد: أنَّه قال: إنَّ بعض من كان مع رسـول الله(ﷺ) قال له لـــمَّا قدم المدينة: ألم تقل يا رسـول الله! إنَّك تدخل مكَّة آمناً؟ قال: «بلى! أفقلتُ لكم من عامي هذا؟» قالوا: لا، قال: «فهو كما قال لي جبريلُ عليه السـلام». **[ابن هشام (341/3)]**[6].

(1) انظر اثار الحرب في الفقه الإسلامي ، للزحيلي ، ص 675.
(2) انظر: تفسير الطَّبري (24/9 . 26).
(3) انظر: تفسير القرطبي (308/5).
(4) انظر: في ظلال القرآن (1433/3) وما بعدها.
(5) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 296.
(6) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 297.

وفي هذا الأثر تبشـــير المؤمنين بفتح مكَّة في المســـتقبل، وإيماءٌ بالوحي الصَّـــادق إلى ذلك النَّصر، ولفتٌ لهم إلى وجوب التَّسليم لأمره بإطلاقٍ كلَّما ورد مطلقاً دون تحميله زياداتٍ وقيوداً تصرفه عن إطلاقه[1].

6 – وجوب طاعته(ﷺ) ، والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهر ذلك القياس، أو كرهته النُّفوس:

جاء في قصَّـة الحديبية: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضـي الله عنه، وبعضَ الصَّـحابة رضـي الله عنهم كرهوا الصُّلح مع قريش[1]؛ لما رأوا في شـروطها من الظُّلم، والإجحاف في حقِّهم، لكنَّهم ندموا بعد ذلـــك على صنيعهم، ورأوا: أنَّهم وقعوا في حرجٍ؛ إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله(ﷺ) ! وظلَّت تلك الحادثة درسـاً لهم فيما اسـتقبلوا من حياتهم، وكانوا يحذِّرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرَّأي[2]، فكان عمر بن الخطَّاب رضـي الله عنه يقول: (أيها النَّاس! اتهموا الرَّأي على الدِّين، فلقد رأيتُني أردُّ أمر رســـول الله(ﷺ) برأيي اجتهاداً، فو الله! ما الو عن الحقِّ، وذلك يوم أبي جندل) **[البزار (1813)، ومجمع الزوائد (6/145 – 146)]**.

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتَّهموا رأيكم؛ رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله(ﷺ) ؛ لرَدَدْتُه[3].

ولقد بقي عمر بن الخطَّاب رضـــي الله عنه برهةً من الزَّمن متخوفاً أن يُنزل الله به عقاباً لِلَّذي صـــنع يوم الحديبية، فكان رضـــي الله عنه يتحدَّث عن قصَّـــته تلك، ويقول: فما زلت أصـوم، وأتصـدَّق، وأعتق مِنَ الَّذي صـنعت مخافة كلامي الَّذي تكلَّمت به يومئذٍ؛ حتَّى رجوت أن يكون خيراً. **[ابن هشام (3/331)]**[4].

---

(1) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 313.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (2/622).

قال ابن الديبع الشَّيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصَّة من وجوب طاعته(ﷺ) والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهرُ ذلك مقتضى القياس، أو كَرِهَتْهُ النُّفوس، فيجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعتقد: أنَّ الخير فيما أمر به، وأنَّه عين الصَّلاح المتضمِّن لسعادة الدُّنيا والآخرة، وأنَّه جاء على أتمِّ الوجوه وأكملها، غير أنَّ أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته، وعاقبة أمره[1].

ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة:

في قول رسول الله(ﷺ) : «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنيَّة ثَنيَّة المِرَارِ؛ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل؟» [سبق تخريجه].

يظهر في هذا الحديث جانبٌ عظيمٌ من جوانب التَّربية النَّبويَّة يستحقُّ التأمُّل والتَّدبُّر، فرسول الله(ﷺ) يشجِّع أصحابه على صعود الثَّنيَّة، ثمَّ يخبرهم: أنَّ الذي يجتازها سينال مغفرةً من الله تعالى، وحين نتأمَّل هذا الحديث تبرز لنا معانٍ عظيمةٌ منها:

1 - أنَّ رسول الله(ﷺ) يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتهم.

2 - أنَّه يريد لفت أنظارهم إلى أنَّ كلَّ حركةٍ يتحرَّكونها، وكلَّ عملٍ يقومون به - حتَّى ما يرون: أنه من العادات أو من دواعي الغريزة - يجب استغلاله للتَّزوُّد لذلك اليوم، وكان(ﷺ) يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصَّحابة، فنراه يقول في موطنٍ اخر: «وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته؛ ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرامٍ؛ أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال؛ كان له أجرٌ». [أحمد (167/5 و168)، ومسلم (1006)، وأبو داود (5243) و(5244)].

---

(1) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، ص 315.

ويقول في موطنٍ ثالث: «وإنَّك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنَّها صدقةٌ، حتَّى اللُّقمة الَّتي ترفعُها إلى في امْرَأتك». [البخاري (2742)، ومسلم (1628)].

إنَّ تلك المعاني – إذا تمكَّنت في قلب المسلم – لكَفِيْلةٌ بأن تصبُغَ حياته كلَّها بصبغة العبودية لله وحده، وإذا شملت العبادة كلَّ نواحي حياة المسلم؛ فإنَّ لهذا الشُّمول اثاراً مباركةً سوف يشعر بها الفرد في نفسه، ثم يلمسها فيمن حوله[1].

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

أ – أن يصبُغ حياة المسلم وأعماله بالصِّبغة الرَّبَّانيَّة، ويجعله مشدوداً إلى الله في كلِّ ما يؤدِّيه، فهو يقوم به بنيَّة العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كلِّ عملٍ نافعٍ، وكلِّ إنتاجٍ صالحٍ، وكلِّ ما ييسِّر له، ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإنَّ ذلك يزيد رصيده من الحسنات، والقربات عند الله تعالى، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدُّنيويِّ، وتجويده، وإتقانه، ما دام يقدِّمه إلى ربِّه سبحانه ابتغاء رضوانه، وحسنِ مثوبته.

ب – أنَّه يمنح المسلم وحدة الوُجهة، ووحدة الغاية في حياته كلِّها، فهو يرضى رباً واحداً في كلِّ ما يأتي، ويدع، ويتَّجه إلى هذا الرَّبِّ بسعيه كلِّه الدِّينيِّ والدُّنيويِّ، لا انقسام، ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته، ولا في حياته[2].

ولقد عاش الصَّحابة الكرام تلك المعاني، وحوَّلوها إلى حقائق ملموسةٍ في حياتهم كلِّها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتديَ بهم في حياتنا، وتكونَ حجَّةً على كلِّ مَنْ جاء بعدهم[3].

---

(1) انظر: مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، ص 315.

(2) انظر: العبادة في الإسلام، للقرضاويّ، ص 66.

(3) انظر: مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، ص 316، لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، وصلح الحديبية، لباشميل، وغزوة الحديبية، لأبي فارس، وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل، كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

الفصل الرَّابع عشر

أهم الأحداث ما بين الحديبية، وفتح مكة

المبحث الأوَّل

غزوة خيبر

أولاً: تاريخها، وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق[1]: أنَّها كانت في المحرَّم من السَّنة السَّابعة للهجرة، وذكر الواقديُّ[2] أنَّها كانت في صفر، أو ربيع الأول من السَّنة السَّابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعدٍ[3] إلى أنَّها في جمادى الأولى سنة سبعٍ، وقال الإمامان: الزُّهريُّ، ومالكٌ: إنَّها في محرَّم من السَّنة السَّادسة[4]، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق، والواقديِّ يسيرٌ، وهو نحو الشَّهرين، وكذلك فإنَّ الخلاف بينهما، وبين الإمامين الزُّهري، ومالكٍ مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السَّنة الهجريَّة الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك، وقد رجَّح ابن حجر[5] قول ابن إسحاق على قول الواقديِّ[6].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتَّى نزل فيهم زعماء بني النَّضير؛ الَّذين حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النِّساء ، والأبناء ، والأموال، وخلفهم القيان يضربن الدُّفوف، والمزامير بزهاءٍ، وفخرٍ ما رئي مثله في حيٍّ من النَّاس في زمانهم[7].

---

(1) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (455/3) . معلقاً. وينظر الشكل (12) في الصفحة (756).
(2) انظر: المغازي (634/2).
(3) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (106/2).
(4) انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (33/1).
(5) انظر: الفتح (41/16) ، والسِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 500.
(6) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 500.
(7) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (319/1).

وكان من أبرز زعماء بني النَّضــير الذين نزلوا في خيبر ســلاَّم بن أبي الحُقَيق، وكِنانة بن أبي الحُقيق، وحُيَيُّ بن أخطب، فلمَّا نزلوا دان لهم أهلُها[1].

وكان تَزَعُّمُ هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرِّها إلى الصِّراع، والتَّصدِّي، والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقدٌ دفينٌ، ورغبةٌ قويَّةٌ في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أوَّل تحرُّكٍ قويٍّ ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسـها زعماء بني النَّضـير دورٌ كبيرٌ في حشد قريش، والأعراب ضدَّ المسلمين، وتسخير أموالهم في ذلك، ثمَّ سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر، والتَّعاون مع الأحزاب[2]، بل إنَّهم أنفقوا أموالهم، واسـتغلُّوا علاقاتهم مع يهود بني قُريظة من أجل نُصـرة الأحزاب وطَعْنِ المسـلمين في ظهورهم[2]، وهكذا أصـبحت خيبر مصـدر خطرٍ كبيرٍ على المسلمين، ودولتهم النَّامية.

تفرَّغ المســلمون بعد صــلح الحديبية لتصــفية خطر يهود خيبر الَّذي أصــبح يهدِّد أمن المســلمين، ولقد تضــمَّنت ســورة الفتح الَّتي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر، وحيازة أموالها غنيمةً[3].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِــيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّــجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِــرَاطًا مُسْــتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ **[الفتح: 18 – 21]**.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: نضرة النَّعيم (349/1).

ثانياً: مسير الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ، على الرَّغم من علمهم بمنعة حصون خيبر، وشدَّة بأس رجالها، وعتادها الحربيّ، وكانوا يكبّرون، ويهلّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ، فطلب منهم النَّبيُّ(ﷺ) أن يرفُقوا بأنفسهم قائلاً: «أيّها النّاس! اربَعُوا على أنفسكم، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [البخاري (6384)، ومسلم (2704)].

وكان سيره(ﷺ) بالجنود ليلاً، فقد قال سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النَّبي(ﷺ) إلى خيبر، فسرنا ليلاً، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم، ويقول:

اللّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... ولاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اتَّقَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنَا ... إِنَّا إِذَا صِيْحَ بِنَا أتينا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فقال رسول الله(ﷺ) : «مَنْ هذا السَّائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله!».

قال رجلٌ - هو عمر بن الخطَّاب -[1] مِنَ القومِ: وَجَبَت يا نبيَّ الله! لولا أمتعتنا به. [البخاري (4196)، ومسلم (1802)].

وعندما وصل الجيش الإسلاميُّ بالصَّهباء - وهي من أدنى خيبر - صلَّى العصر، ثمَّ دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السَّويق، فأمر به فثري، فأكل، وأكل معه الصَّحابة، ثمَّ قام إلى المغرب، فمضمض ثمَّ صلَّى بالصَّحابة، ولم يتوضَّأ. [البخاري (4195)، والبيهقي في الدلائل (200/4)][2].

وكان(ﷺ) قد بعث عبَّاد بن بِشْرٍ رضي الله عنه في سريَّةٍ استطلاعيَّة يتلقَّط أخبار العدوِّ،

(1) انظر: فتح الباري (530/7).
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (30/2).

ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطَّريق عيناً لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغٍ أبتغي أبعرة ضلَّت لي، أنا على إثرها. قال عبَّاد: ألك علمٌ بخيبر؟ قال: عهدي بها حديثٌ، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحُقيق، وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غَطَفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنةً، فجاؤوا مُعَدِّين، مؤيَّدين بالكُراع والسِّلاح، يقودهم عتبة بن بدرٍ، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة الاف مقاتلٍ، وهم أهل الحصون الَّتي لا ترام، وسلاحٌ، وطعامٌ كثيرٌ، لو حُصِرُوا لسنين؛ لكفاهم، وماءٌ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة، فرفع عبَّاد بن بشرٍ السَّوط، فضربه ضرباتٍ، وقال: ما أنت إلا عينٌ لهم، اصدقني، وإلا ضربتُ عنقك! فقال الأعرابيُّ: القوم مرعوبون منكم، خائفون، وَجِلون؛ لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطَّريق، فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادنُ منهم كالسَّائل لهم ما تقوى به، ثمَّ ألقِ إليهم كثرة عددنا، ومددنا، فإنَّهم لن يدعوا سؤلك، وعجِّل الرَّجعة إلينا بخبرهم[1].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله(ﷺ) لأصحابه: «قفوا». ثمَّ قال: «اللّهُمَّ ربَّ السَّموات، وما أظْلَلْنَ، وربَّ الأرضين، وما أَقْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطين، وما أَضْلَلْنَ، وربَّ الرِّياح، وما ذَرَيْن، فإنَّا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّها، وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها، اقدموا باسم الله» **[ابن حبان (2709)، والحاكم (100/2 – 101)، والنسائي في اليوم والليلة (543)، والبيهقي في السنن الكبرى (252/5)، وابن خزيمة (565)، والطبراني في الكبير (7299)]**. وكان يقولها لكلِّ قرية دخلها.

ولما أدرك رسول الله(ﷺ) اللَّيل أمر الجيش بالنَّوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم، ومعسكرهم بوادي الرَّجيع، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان؛ حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان[2].

---

(1) انظر: المغازي ، للواقدي (610/2 . 641).

(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (45/2).

ولـمَّا أصبح الصُّبح خرجت اليهود بمساحيهم[1]، ومكاتلهم[2]، فلـمَّا رأوا جيش المسلمين قالوا: محمدٌ والله! محمدٌ والخَميس، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «الله أكبر! الله أكبر! خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ، فساء صباحُ المنذرين» [البخاري (610)، ومسلم (120/1365)].

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم، وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر، وكان أوَّل ما سقط من حصونهم ناعمٌ، والصَّعب بمنطقة النَّطاة، وأبو النِّزار بمنطقة الشِّقِّ، وكانت هاتان المنطقتان في الشَّمال الشَّرقي من خيبر، ثمَّ حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحُقَيْق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطيح، والسَّلالم[3].

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعمٍ؛ الَّذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاريُّ، حيث ألقى عليه مرحبُ رحىً مِنْ أعلى الحصن[4]، والَّذي استغرق فتحه عشرة أيام[5]، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصِّدِّيق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهَد النَّاس، قال رسول الله(ﷺ) : إنَّه سيدفع اللِّواء غداً إلى رجلٍ يحبُّه الله ورسوله، ويحبُّ الله ورسولَه، لا يرجع حتَّى يُفْتَح له، فطابت نفوس المسلمين، فلمَّا صلَّى فجر اليوم الثَّالث دعا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ودفع إليه اللِّواء، فحمله، فتمَّ فتح الحصن على يديه. [الحاكم (37/3)].

وكان عليٌّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيه عندما دعاه الرَّسول(ﷺ) ، فبصق رسول الله(ﷺ) في عينيه، ودعا له، فبَرَأَ. [البخاري (4210)، ومسلم (2406)].

ولقد أوصى الرَّسول(ﷺ) علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له:

---

(1) المساحي: جمع ، ومفردها: مسحاة ، والمسحاة: المجرفة من الحديد.
(2) المكاتل: جمع مكتل ، وهو المقطف الكبير.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 501.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) انظر: الواقدي (657/2).

«فو الله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَمِ». **[البخاري (3009)، ومسلم (2406)]**.

وعندما سأله عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءهم، وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله». **[مسلم (2405)، والبيهقي في دلائل النبوة (260/4)]**.

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيِّده، وبطلُهم مِرْحَبٌ، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثمَّ بارزه عليٌّ فقتله[1]، وقيل: قتله محمَّد بن مسلمة، ممَّا أثر سلبياً في معنويات اليهود، ومِنْ ثَمَّ هزيمتهم[2].

ووردت مجموعةٌ من روايات تخبر بأن علياً رضي الله عنه تترَّس بباب عظيمٍ، كان عند حصنِ ناعمٍ، بعد أن أسقط يهوديٌّ ترسه مِنْ يده. وكلُّها رواياتٌ ضعيفةٌ **[أحمد (8/6)، والطبري في تاريخه (94/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (212/4)، ومجمع الزوائد (152/6)]**[3]، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوَّة عليٍّ، وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك، وهو كثيرٌ[4].

توجَّه المسلمون إلى حصن الصَّعب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعمٍ، وأبلى حامل رايتهم الحُباب بن المنذر بلاءً حسناً، حتَّى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطَّعام والمتاع يوم كانوا في ضائقةٍ من قلَّة الطَّعام، ثمَّ توجَّهوا بعده إلى حصن قلعة الزُّبير - الَّذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعمٍ، والصَّعبِ، وبقيَّةِ ما فتح من حصون يهود - فحاصروه، وقطعوا عنه مجرى الماء الَّذي يغذِّيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيَّامٍ، وبذلك تمَّت السَّيطرة على اخر حصون منطقة النَّطاة؛ الَّتي كان فيها أشدُّ اليهود، ثمَّ توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق وبدؤوا بحصن أُبَيٍّ، فاقتحموه، وأفلت بعضُ مقاتلته إلى حصن نزار، وتوجَّه إليهم

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، 502.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (324/1).
(4) المصدر السابق نفسه.

المسلمون فحاصروهم ، ثمَّ افتتحوا الحصن ، وفرَّ بقيَّة أهل الشِّقِّ من حصونهم ، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع، وحصن الوَطِيح، وحصن السَّلالم، فحاصرهم المسلمون لمدَّة أربعة عشر يوماً حتَّى طلبوا الصُّلح[1].

وهكذا فُتحت خيبر عَنْوةً[2]؛ استناداً إلى النَّظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاريُّ[3]، ومسلمٌ [(120/1365)]، وأبو داود [(3009)][4] من أنَّ رسول الله(ﷺ) غزا خيبر، وافتتحها عَنْوةً[5].

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فَدَك في شمال خيبر إلى طلب الصُّلح، وطلبوا منه أن يحقن دماءهم، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [مسلم (1551)، وأحمد (451/2)، وأبو داود (3006)، والبيهقي في السنن الكبرى (137/9 – 138)][6] فكانت فدك خالصةً لرسول الله(ﷺ) ؛ لأنَّه لم يوجف عليها بخيلٍ، ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعةُ قرى بين خيبر، وتيماء ليالي[7]، ثمَّ استسلمت، فغنم المسلمون أموالاً كثيرةً، وتركوا الأرض والنَّخل بيد اليهود، وعاملهم عليها مثل خيبر، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر، ووادي القرى[8].

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهوديَّة أمام قوَّات المسلمين، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثةً وتسعين رجلاً[9]، وسبيت النِّساء والذَّراري، منهنَّ صفيَّةُ بنت حُيَيِّ بن أخطب، فأعتقها رسولُ الله(ﷺ) ، وتزوَّجها. [البخاري (371)، ومسلم (1365)].

---

(1) انظر: الواقدي (658/2 . 671).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص 504.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) انظر: مغازي الواقديِّ (699/2).
(7) انظر: تاريخ خليفة ، ص 85 نقلاً عن ابن إسحاق.
(8) زاد المعاد (354/3 . 355).
(9) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 504.

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[1]، وخمسة عشرَ فيما ذكر الواقديُّ[2].

رابعاً: الأعرابيُّ الشَّهيد، والرَّاعي الأسود، وبطلٌ إلى النَّار:

1 – الأعرابيُّ الشَّهيد:

جاء رجلٌ من الأعراب إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، فآمن به، واتَّبعه، فقال: أهاجر معك. فأوصى به بعض أصحابه فلـمَّا كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله(ﷺ) شيئاً، فقسمه، وقسم للأعرابيِّ، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلـمَّا جاء؛ دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسولُ الله(ﷺ) ، فأخذه فجاء به للنَّبيِّ(ﷺ) ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «قَسْمٌ قسمتُه لك». قال: ما على هذا اتبعتُك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا – وأشار إلى حلقه – بسهمٍ فأموتَ، فأدخلَ الجنَّة، فقال: «إن تَصْدُقِ الله؛ يَصْدُقْكَ» ثم نهض إلى قتال العدوِّ، فأُتي به إلى النَّبيِّ(ﷺ) ؛ وهو مقتولٌ، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم.قال: «صَدَقَ اللهَ، فَصَدَقَهُ».فكفَّنه النَّبيُّ(ﷺ) في جُبَّته، ثمَّ قدَّمه، فصلَّى عليه، وكان من دعائه له: «اللَّهُمَّ هذا عبدُك خرج مهاجراً في سبيلك، قُتِل شهيداً، وأنا عليه شهيدٌ». **[النسائي (4/60 – 61)، والحاكم (3/595 – 596)، والبيهقي في الدلائل (4/222)، وفي السنن الكبرى (4/15 – 16)].**

2 – الرَّاعي الأسود:

وجاء عبدٌ أسودُ حبشيٌّ من أهل خيبر، كان في غنمٍ لسيده، فلمَّا رأى أهل خيبر قد أخذوا السِّلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الَّذي يزعم: أنَّه نبيٌّ. فوقع في نفسه ذكر النَّبيِّ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله(ﷺ) فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، وألا تعبد إلا الله». قال العبد: فما لي إن شهدت،

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (1/327).

(2) انظر: المغازي (2/700).

وآمنت بالله – عزَّ وجلَّ –، قال: «لك الجنَّة إنْ مِتَّ على ذلك. فأسلم، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هذه الغنم عندي أمانةٌ، فقال رسول الله(ﷺ) : «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء)؛ فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمانتك». ففعل، فرجعت الغنم إلى سيِّدها، فعلم اليهوديُّ: أنَّ غلامه قد أسلم، فقام رسول الله(ﷺ) في النَّاس، فوعظهم، وحضَّهم على الجهاد، فلمَّا التقى المسلمون واليهود؛ قُتِلَ – فيمن قُتِلَ – العبدُ الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأُدخل في الفسطاط، فزعموا: أنَّ رسول الله(ﷺ) اطَّلع في الفُسطاط، ثمَّ أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يُصَلِّ لله سجدةً قطُّ». **[الحاكم (136/2)، والبيهقي في الكبرى (143/9)، وفي الدلائل (219/4 – 220)]**[1].

3 – بطل لكنَّه إلى النَّار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجلٌ لا يدع للمشركين شاذَّةً، ولا فاذَّةً[2] إلا اتَّبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله(ﷺ) : «أما إنَّه من أهل النَّار». فقالوا: أيُّنا من أهل الجنَّة إن كان من أهل النَّار؟! فقال رجلٌ: والله لا يموت على هذه الحال أبداً، فاتَّبعه حتَّى جرح، فاشتدَّت جراحتُه، واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثمَّ تحامل عليه، فقتل نفسه، فجاء رجلٌ إلى رسول الله(ﷺ) فقال: أشهد إنَّك رسول الله! قال: «وما ذاك؟» فأخبره، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «إنَّ الرَّجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس، وإنَّه من أهل النَّار، وإنَّه ليعمل بعمل أهل النَّار فيما يبدو للنَّاس، وإنَّه لمن أهل الجنَّة». **[البخاري (4202 و4207)، والبيهقي في دلائل النبوة (252/4)]**.

خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالبٍ، ومَنْ معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالبٍ، وصحبُه من مهاجري الحبشة على رسول الله(ﷺ) يوم فتح خيبر، فقبَّلهُ رسول الله(ﷺ) بين عينيه، والتزمه، وقال: «ما أدري بأيِّهما أنا أَسَرُّ بفتح خيبر، أم

---

(1) انظر: زاد المعاد (323/3، 324) والسِّيرة الحلبيَّة (39/3)، وابن كثير في البداية والنِّهاية.

(2) الشَّاذ: الَّذي يفارق الجماعة ، الفاذُّ: الَّذي لم يختلط بالجماعة.

بقدوم جعفر؟!» [الطبراني في الصغير (30)، وفي الأوسط (2024)، وفي الكبير (1470)، وابن سعد (35/4)، والحاكم (408/3 – 409)، والبيهقي في الكبرى (101/8)، ومجمع الزوائد (271/9 – 272)].

وكان(ﷺ) قد أرسل في طلبهم من النَّجاشيِّ عمرو بن أميَّة الضَّمريَّ، فحملهم في سفينتين، ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفراً في قدومه أبو موسى الأشعريُّ، ومن كان بصحبته من الأشعريّين[1].

فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: بلغنا مَخْرَجُ النَّبيِّ(ﷺ) ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا، وأخوان لي، أنا أصغرهم، أحدُهم أبو بُرْدَةَ، والآخر أبو رُهْمٍ، إمَّا قال: في بضعٍ، وإمَّا قال: في ثلاثةٍ وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النَّجاشيِّ بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ فأقمنا جميعاً، فوافقنا النَّبيَّ(ﷺ) حين افتتح خيبر. [البخاري (4230)، ومسلم (2502)].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً، نزل خلالها قرآن كثيرٌ، ودارت معارك شتَّى مع الكفَّار، وتقلَّب المسلمون قبل الهجرة العامَّة وبعدها في أطوارٍ متباينةٍ، حتَّى ظنَّ البعض أنَّ مهاجري الحبشة – وقد فاتهم هذا كلُّه – أقلُّ قدراً من غيرهم[2].

فعن أبي موسى: «.. كان أناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عُمَيْسٍ على حفصة زوج النَّبيِّ زائرةً – وكانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر – فدخل عمر على حفصة؛ وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عُميس. قال عمر: الحبشيَّة هذه؟ البحريَّة هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله منكم! فغضبت، وقالت: كلاَّ والله! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم، ويعظُ جاهلكم، وكنَّا في أرض البُعَدَاء البُغضَاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وايْمُ الله! لا أطعَم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله(ﷺ) ، وأسأله، والله! لا أكذب، ولا أزيغ، ولا

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 353.
(2) انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص 350.

أزيد عليه. فلـــــمَّا جاءت النَّبيّ(ﷺ) ؛ قالت: كذا وكذا، قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله، ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم – أهل السَّفينة – هجرتان». [سبق تخريجه].

فأخذت أسماء هذا الوســام، ووزَّعته على جميع أعضــاء الوفد؛ حيث كانوا[1] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظم في نفوسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ(ﷺ) . [سبق تخريجه].

وقد أشركهم النَّبيُّ(ﷺ) في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصَّحابة رضي الله عنهم الَّذين شاركوا في فتحها[2].

سادساً: تقسيم الغنائم:

1 – كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرَّسول(ﷺ) غنيمةً من حيث الأراضي، والنَّخيل، والثِّياب، والأطعمة، وغير ذلك، ومن خلال وصــف كتب السِّــيرة نلاحظ: أنَّ الغنائم كانت تتكوَّن من:

أ – الطَّعام: فقد غنم المســلمون كثيراً من الأطعمة من حصــون خيبر، فقد وجدوا فيها الشَّــحم، والزَّيت، والعســل، والسَّــمن وغير ذلك، فأباح رســول الله(ﷺ) الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمِّسها[3].

ب – الثِّياب، والأثاث، والإبلُ، والبقر، والغنم: لقد أخذ رسـول الله(ﷺ) خمسـها ووضـعه فيما وضعه الله فيه، ووزَّع أربعة أخماسها على المجاهدين.

ج – السَّبي: لقد سبى رسولُ الله(ﷺ) كثيراً من نساء اليهود، ووزَّع السَّبي على المسلمين، فهو غنيمةٌ، و يأخذ حكم الغنيمة.

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص 535.
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (96/3).
(3) المصدر السابق نفسه (140/3).

د – أمَّا الأراضي، والنَّخيل: فقد قسمها النَّبيُّ(ﷺ) إلى ستَّةٍ وثلاثين سهماً، جمع كلُّ سهم مئة سهم، فكانت ثلاثة الاف وستمئة سهم، فكان لرسول الله(ﷺ) لنوائبه، وما ينزل به من أمور المسلمين وللمسلمين النِّصف من ذلك، وهو ألفٌ وثمانمئة سهم، ووزَّع النِّصف الآخر، وهو ألف وثمانمئة سهم[1].

هـ – وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدَّة صحفٍ من التَّوراة، فطلب اليهود ردَّها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع(ﷺ) ما صنع الرُّومان حينما فتحوا أورشليم، وأحرقوا الكتب المقدَّسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النَّصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التَّوراة[2].

وقد أبقى رسولُ الله(ﷺ) يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها، وينفقوا عليها من أموالهم، ولهم نصف ثمارها، على أنَّ للمسلمين حقَّ إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النَّبيِّ(ﷺ) ، وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم، فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها. **[أبو داود (3410)، وابن ماجه (1820)]**[3].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعةٌ سياسيَّةٌ جديدةٌ في عقد الشُّروط؛ فإنَّ بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفِّر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ اليهود هم أصحاب الأرض، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرةً أكثر، وأجود، وبخاصَّةٍ: أنَّهم لن يأخذوا أجراً، ولكنَّهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض، قلَّ، أو كثر.

وقد ضمن الرَّسول(ﷺ) – بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون – إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنَّهم يعلمون: أنَّهم إذا فعلوا شيئاً يضرُّ بالمسلمين سيطردونهم منها، ولا يعودون إليها

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (141/3 . 142).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (419/2).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (328/1).

أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر، ففدعوا[1] يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرَّسول(ﷺ) اعتدوا على عبد الله بن سهل، فقتلوه، فلـمَّا تحقَّق عمر من غدرهم، وخيانتهم؛ أمر بإجلائهم[2]. وحاول يهود خيبر أن يُخفوا الفضَّة، والذَّهب، وغيبوا مَسْكاً[3] لحُيَيّ بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة، وكان احتمله معه يوم بني النَّضير حين أجليت بنو النَّضير، فسأل رسول الله(ﷺ) سَعْيَةَ عمَّ حُيَيِّ بن أخطب: «أين مَسْكُ حُيَيِّ بن أخطب؟» قال: أذهبته الحروب، والنَّفقات[4]. فقال رسولُ الله(ﷺ) : العهد قريبٌ، والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسولُ الله(ﷺ) إلى الزُّبير بن العوَّام، فمسَّه بعذابٍ، وقد كان حُيي قبل ذلك دخل خربة، فقال عمُّه: قد رأيت حُيياً يطوف في خربةٍ ها هنا، فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة[5].

وبعد الاتِّفاق الَّذي تمَّ بين رسول الله(ﷺ) ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسولُ الله(ﷺ) عبد الله بن رواحة يأتيهم كلَّ عامٍ، فيخرصُها عليهم، ثم يضمِّنهم الشَّطر. فشكوا إلى رسول الله(ﷺ) شدَّة خَرْصِه[6]، وأرادوا أن يَرْشُوه فقال: يا أعداء الله! تطعمونِي السُّحت؟ والله! لقد جئتكم من عند أحبِّ النَّاس إليَّ، ولأنتم أبغضُ النَّاس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضـي إيَّاكم وحبِّي إيَّاه على ألاَّ أعدل عليكم! فقالوا: بهذا قامت السَّموات، والأرض[7].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين، وصارت مورداً مهمّاً لهم، قال ابن عمر رضي الله

---

(1) الفَدَعُ: عوجٌ في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها.

(2) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص 228 ، 229.

(3) المِسْك: الجلد عامَّة ، أو جلد السَّخلة خاصَّة (السَّخلة: ولد الشاة).

(4) انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (326/1) ، ونصب الرَّاية للزَّيلعي (كتاب السِّيَر) فصل: باب الغنائم وقسمتها.

(5) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ، وتاريخ الإسلام ، للذهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص424.

(6) الخرص: الحَزْرُ ، والحدْس ، والتَّخمين. وخرَّص العدد: أي قدَّره تقديراً بظنٍّ لا إحاطةٍ.

(7) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص 424.

عنه: «ما شبعنا حتَّى فُتِحَتْ خيبر» [البخاري (4243)]، وقد تحسَّن الوضع الاقتصاديُّ بعد خيبر، وردَّ المهاجرون المنائح الَّتي أعطاهم إيَّاها الأنصار من النَّخل[1].

سابعاً: زواج رسول الله(ﷺ) من صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب:

لـمَّا فتح المسلمون القَمُوص - حصن بني أبي الحُقيق - كانت صفيَّة في السَّبي، فأعطاها لدحية الكلبي، فجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ(ﷺ) فقال: يا رسول الله! أعطيت دحية صفيَّة بنت حُيَيٍّ سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النَّبيُّ(ﷺ) ما أشار به الرَّجل، وقال لدحية: خذ جاريةً من السَّبي غيرها، ثمَّ أخذها رسولُ الله(ﷺ) وأعتقها، وجعل عتقها صداقها. [سبق تخريجه]، ثمَّ تزوجها بعد أن طَهُرت من حَيْضَتها[2] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النَّبيُّ(ﷺ) من خيبر حتَّى طهرت صفيَّة من حيضها، فحملها وراءه، فلـمَّا صار إلى منزلٍ على ستة أميالٍ من خيبر؛ مال يريد أن يعرِّس بها، فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلـمَّا كان بالصَّهباء نزل بها هناك، فمشطتها أمُّ سليم، وعطَّرتها، وزفَّتها إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، وبنى بها، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النُّزول أوَّلاً؟» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسولُ الله(ﷺ) بالصَّهباء ثلاثة أيام، وأوْلَمَ عليها، ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحمٍ، وإنَّما التَّمر، والأقِطُ، والسَّمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو ما ملكت يمينُه لها، فلمَّا ارتحل وطَّأ لها خلفه ومدَّ عليها الحجاب، فأيقنوا أنَّها إحدى أمَّهات المؤمنين. [سبق تخريجه][3].

وقد كانت أم المؤمنين صفيَّة بنت حُيَيٍّ قد رأت رؤيا، فقد روى البيهقيُّ - رحمه الله - بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديثٍ طويلٍ قال: ورأى رسول الله(ﷺ) بعين صفيَّة خضرةً، فقال: يا صفيَّة! ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن حُقَيْقٍ، وأنا

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 352.
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (101/3).
(3) انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (384/2).

نائمةٌ، فرأيت كأنَّ قمراً وقع في حجري، فأخبرتُه بذلك فلطمني، وقال: تمَنَّيْنَ ملك يثرب. **[البيهقي في الكبرى (138/9)]**.

وهكذا صدَّق الله رؤيا صفيَّة رضي الله عنها، وأكرمها بالزَّواج من رسوله(ﷺ) ، وأعتقها من النَّار، وجعلها أماً للمؤمنين، وزوجاً في الجنَّة لخاتم الأنبياء والمرسلين[1]، وقد أكرمها رسول الله(ﷺ) غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفيةُ رجلها على ركبته حتَّى تركب، وقد بلغ من أدبها: أنَّها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته، وتركب. **[البخاري (2235)]**.

وهذه صفيَّة رضي الله عنها تحدِّثنا عن خلق رسول الله(ﷺ) ، فتقول: ما رأيت أحداً قطُّ أحسن خلقاً من رسول الله(ﷺ) ؛ لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرَّحل، فيَمسُّني بيده، ويقول: «يا هذه! مهلاً» **[أبو يعلى (7120)، ومجمع الزوائد (252/9)]**[2]. وعن صفيَّة رضي الله عنها: أنَّها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله(ﷺ) من صفيَّة، نحن أزواجه وبنات عمِّه، فدخل عليها(ﷺ) فأخبرته، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منِّي؛ وزوجي محمَّد، وأبي هارون، وعمِّي موسى؟!». **[الترمذي (3892)، والحاكم (29/4)]**.

لقد تأثَّرت صفيَّة بأخلاق رسول الله(ﷺ) ، وأصبح(ﷺ) أحبَّ إليها من أبيها، وزوجها السَّابق، والنَّاس أجمعين، بل أصبح أحبَّ إليها من نفسها، تفديه بكلِّ ما تملك حتَّى نفسها، وإذا ألَمَّ به مرضٌ؛ تمنَّت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله(ﷺ) سليماً معافىً، فقد أخرج ابن سعد رحمه الله بإسنادٍ حسنٍ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه، قال: اجتمع نساؤه(ﷺ) في مرضه الَّذي تُوفِّي فيه، فقالت صفيَّة رضي الله عنها: إنِّي والله يا نبيَّ الله لوددت أنَّ الَّذي بك بي! فغمز بها أزواجُه، فأبصرهنَّ رسول الله(ﷺ) فقال: «مَضْمِضْنَ» فقلن: من أيِّ شيء؟ فقال:

---

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (122/3).

(2) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (45/3).

«من تغامزكنَّ بها، والله إنَّها لصادقة[1]!».

وممَّا له صلةٌ بزواج رسول الله(ﷺ) بصفيَّة بنت حُيَيٍّ حراسة أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه لرسول الله(ﷺ) يوم أن دخل بصفيَّة، فعن ابن إسحاق: أنَّه قال: ولـــمَّا أعرس رسول الله(ﷺ) بصفيَّة بخيبر، أو ببعض الطَّريق، فبات بها رسول الله(ﷺ) في قبَّةٍ له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النَّجار متوشِّحاً سيفه، يحرس رسول الله(ﷺ) ، ويَطيف بالقُبَّة؛ حتَّى أصبح رسولُ الله(ﷺ) ، فلـــمَّا رأى مكانه؛ قال: «ما لك يا أبا أيوب؟!» قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأةً قد قتَلْتَ أباها، وزوجها، وقومها، وكانت حديثة عهدٍ بكفرٍ، فخفتُها عليك[2]، فسُـــرَّ رســـول الله(ﷺ) بعمله الَّذي ينبئ عن غاية الحبِّ، والإيمان، وقال: «اللَّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحرُسني!». **[ابن هشام (354/3 – 355)]**[3].

وكان زواجُ رسول الله(ﷺ) بصفية فيه حكمةٌ عظيمةٌ، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوةٍ، أو إشـــباعاً للغريزة كما يزعم الأفَّاكون، وإنما أراد إعزازها، وتكريمها، وصـــيانتها من أن تفترش لرجلٍ لا يعرف لها شرفها، ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها؛ فقد قُتل أبوها من قبلُ، وزوجُها، وكثيرٌ من قومها، ولم يكن هناك أجمل ممَّا صنعه الرَّسول(ﷺ) معها، كما أنَّ فيه رباط المصاهرة بين النَّبيِّ(ﷺ) واليهود؛ عسى أن يكون في هذا ما يخفِّف من عدائهم للإسلام، والانضواء تحت لوائه، والحدِّ من مكرهم، وسعيهم بالفساد[4].

وكانت أمُّ المؤمنين صفيَّة رضي الله عنها عاقلةً، وحليمةً، وصادقةً، يروى: أنَّ جاريةً لها أتت عمر بن الخطَّاب رضـي الله عنه فقالت: إنَّ صـفية تحبُّ السَّـبت، وتصـل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أمَّا السَّبت فإنِّي لم أحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإنَّ لي

---

(1) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (233/2) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة (كتاب النساء).

(2) انظر: زاد المعاد (328/3) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة لابن هشام (بناء النَّبيِّ (ص) بصفيَّة ، وحراسة أبي أيوب للقُبَّة) ، وكنز العمال (للمتَّقي الهندي).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (385/2).

(4) المصدر السابق نفسه.

فيهم رحماً فأنا أصــلُها، فقبل منها، ثمَّ قالت للجارية: ما حملك على هذا ؟ قالت: الشَّـيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرَّة.

وكانت وفاتها في رمضـان سـنة خمسـين للهجرة في زمن معاوية، وقيل: سـنة اثنتين وخمسـين رضي الله عنها، وأرضاها[1].

ثامناً: محاولةٌ أثيمةٌ لليهود: الشَّاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لـــمَّا فُتحت خيبر؛ أهديت لرسول الله(ﷺ) شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال رسـول الله(ﷺ) : «اجمعوا لي مَنْ كان ها هنا من اليهود». فَجُمِعُوا له، فقال لهم رسـول الله(ﷺ) : «إنِّي سائلُكُم عن شيءٍ؛ فهل أنتم صَادِقيَّ عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم!

فقال لهم رسول الله(ﷺ) : «مَنْ أبوكم؟».

قالوا: فلان.

فقال رسول الله(ﷺ) : «كذبتم، بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت.

فقال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم! وإن كذبنا؛ عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

قال لهم رسول الله(ﷺ) : «مَنْ أهل النَّار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثمَّ تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله(ﷺ) : «اخسؤوا فيها، والله! لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً».

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (385/2).

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشَّاة سُماً؟».

فقالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: إن كنت كاذباً؛ نَسْـتَرِحْ منك، وإن كنت نبيّاً لم يضـرَّك. [البخاري (3169)، وأحمد (451/2)].

قال: صـاحب بلوغ الأماني عن الشَّـاة المسـمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهوديَّة امرأة سلاَّم بن مشكم، وكانت سألت: أيُّ عضوٍ من الشَّاة أحبُّ إليه؟ فقيل: الذِّراع، فأكثرت فيها من السُّمِّ، فلـمَّا تناول الذِّراع؛ لاك منها مضغةً، ولم يَسُغْها، وأكل منها معه بِشْرُ بن البراء، فأساغ لقمةً، ومات منها[1].

وفي مغازي عروة: فتناول الذِّراع، فانتهش منها، وتناول بِشـرُ عظماً اخر، فانتهش منه، فلـمَّا أرغم رسولُ الله(ﷺ) ، أرغم بشرٌ ما في فيه، فقال رسول الله(ﷺ) : «ارفعوا أيديكم، فإنَّ كتف الشَّـاة تخبرني أنِّي قد بغيت فيها » فقال بِشْـرُ بن البراء : والَّذي أكرمك! لقد وجدت ذلك في أكلتي؛ الَّتي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظَها إلا أنِّي كرهت أن أنغِّص طعامك، فلـمَّا أَكَلْتَ ما في فيك؛ لم أرغبْ بنفسـي عن نفسـك، ورجوتُ ألاَّ تكون رغمتها، وفيها بغي. [الطبراني في الكبير (1204)، ومجمع الزوائد (153/6)][2].

وقال ابن القيِّم: وجيء بالمرأة إلى رسـول الله(ﷺ) ، فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله لِيُسَـلِّطَكِ عليَّ». قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» [مسـلم (2190)] . ولم يتعرَّض لها، ولم

---

(1) البخاري ، كتاب الجزية والموادعة ، حديث رقم (3169).

(2) انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (123/21).

يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر مَنْ أكل منها فاحتجم، فمات بعضُهم[1].

وقد اختُلف في قتل المرأة، والصَّحيح: أنَّه لما مات بشر؛ قتلها[2]. ولقد كان السُّمُّ الذي وضعته اليهودية قويّاً جدّاً؛ إذ مات بشر بن البراء فوراً، وبقي رسول الله(ﷺ) يعاوده ألم السُّمِّ حتَّى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وتركها على المحجَّة البيضاء، ليلُها كنهارها[3]. وقد روى الإمام البخاريُّ - رحمه الله - في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النَّبيُّ(ﷺ) يقول في مرض موته الَّذي مات فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الَّذي أكلت بخيبر، فهذا أوانُ وجَدْتُ انقطاعَ أَبْهَرِي[4] من ذلك السُّمِّ». [البخاري (4428)][5].

تاسعاً: الحجَّاج بن عِلاط السُّلَمِيُّ، وإرجاعُ أمواله من مكَّة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله(ﷺ) خيبر قال الحجَّاج بن عِلاَط: يا رسول الله ! إنَّ لي بمكَّة مالاً، وإنَّ لي بها أهلاً، وإنِّي أريد أن أكتبهم، فأنا في حلٍّ إن أنا نلت منك، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله(ﷺ) أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإنِّي أريد أن أشتري من غنائم محمَّد وأصحابه، فإنَّهم قد استبيحوا، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكَّة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً، وسروراً، قال: وبلغ الخبر العبَّاس رضي الله عنه فعَقِر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزريُّ عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله(ﷺ) يقال له: قُثَم، فاستلقى، فوضعه على صدره، وهو يقول:

حُبِّي قُثَم حُبِّي قُثَم   شَبِيْهُ ذِي الأَنْفِ الأَشَم

(1)]انظر: مغازي رسول الله (ص) ، لعروة بن الزبير، ص198 ، والبداية والنهاية ، وكتاب المغازي والسير (باب غزوة خيبر).
(2) زاد المعاد (336/3).
(3) انظر: الصّراع مع اليهود (121/3).
(4) أبهري: عرق مستبطن بالظَّهر متَّصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(5) فتح الباري ، شرح حديث رقم (5777) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، وزيادة الجامع الصَّغير للسُّيوطي.

نَـبِيٌّ رَبِّ ذِي الـنِّـعَـمْ بِـرَغْـمِ أَنْـفِ مَـن رَغِـم

قال ثابت بن أنسٍ: ثمَّ أرسل غلاماً له إلى الحجَّاج، فقال له: ويلك! ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيرٌ ممَّا جئت به، قال: فقال الحجَّاج بن عِلاَط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السَّلام، وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوته لاتيه، فإنَّ الخبر على ما يسرُّه، فجاءه غلامُه، فلمَّا بلغ باب الدَّار قال: أبشر يا أبا الفضل! قال: فوثب العبَّاس فَرِحاً، حتَّى قبَّل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجَّاج، فأعتقه، قال: ثمَّ جاء الحجَّاج فأخبره: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله(ﷺ) صفيَّة بنت حُيَيٍّ، فأخذها لنفسه، وخيَّرها أن يعتقها، وتكون زوجته[1]، ولكنِّي جئت لمالي، وإنِّي استأذنت النَّبيَّ(ﷺ) ، فأذن لي، فأخفِ عليَّ يا أبا الفضل ثلاثاً، ثمَّ اذكُر ما شئت[2]، فجمعت امرأته ما كان عندها من حليٍّ، ومتاع، فجمعه، فَدَفَعَتْهُ إليه، ثمَّ انشمر به، فلما كان بعد ثلاثٍ أتى العباس امرأة الحجَّاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته: أنَّه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل! لقد شقَّ علينا الَّذي بلغك، قال: أجل، لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله(ﷺ) ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله(ﷺ) صفيَّة بنت حُيَيٍّ لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنُّك والله صادقاً، قال: فإنِّي صادقٌ، الأمر على ما أخبرتك، فقال: ثمَّ ذهب حتَّى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبك إلا خيرٌ يا أبا الفضل! قال لهم: لم يصبني إلا خيرٌ بحمد الله، قد أخبرني الحجَّاج بن عِلاَط أنَّ خيبر قد فتحها الله على رسوله(ﷺ) ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفيَّة لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنَّما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيءٍ ها هنا، ثمَّ يذهب. قال: فرد الله الكابة الَّتي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتَّى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون، وردَّ الله

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 459.

(2) انظر: تاريخ الذَّهبي، والمغازي، ص 439.

– تبارك وتعالى – ما كان من كآبةٍ، أو غيظٍ، أو حزنٍ على المشـــركين. [أحمد (3/138 – 139)، والبزار (1816)، وأبو يعلى (3479)، والطبراني في الكبير (3196)، والبيهقي في الكبرى (9/151)، وعبد الرزاق في المصنف (5/466 – 469)].

وفي هذا الخبر فقهٌ غزيرٌ؛ منه: جواز كذب الإنسان على نفسه، وعلى غيره؛ إذا لم يتضمَّن ضـــرر ذلك الغير إذا كان يُتوصـــل بالكذب إلى حقِّه، كما كذب الحجَّاج بن عِلاَط على المسـلمين، حتى أخذ ماله من مكَّة من غير مضـرَّة لحقت المسـلمين من ذلك الكذب، وأمَّا ما نال مَنْ بمكَّة من المسلمين من الأذى، والحزن بمفسدة؛ فيسيرٌ في جنب المصلحة الَّتي حصلت بالكذب، ولا سيما تكميل الفرح والسُّرور، وزيادة الإيمان الَّذي حصل بالخبر الصَّادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الرَّاجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكامٌ شرعيَّةٌ كثيرةٌ؛ منها:

1 – تحريم أكل لحوم الحُمُرِ الأهليَّة:

عن ابن عمر رضـي الله عنهما: أنَّ رسـول الله(ﷺ) نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليَّة. [البخاري (4218)، ومسلم (561)][1].

2 – حرمة وطء السَّبايا الحوامل:

قال رســـول الله(ﷺ) : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَسْـــقِ ماءه زَرْعَ غيره». [أبو داود (2158)، والترمذي (1131)][2].

3 – حرمة وطء السَّبايا غير الحوامل قبل استبراء الرَّحم:

قال رسول الله(ﷺ) : «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأةٍ من السَّبي

(1) انظر: زاد المعاد (4/122 . 123).
(2) انظر: الطبقات (2/113).

حتَّى يستبرئها». [أحمد (108/4)، وأبو داود (2158) و(2159)، والبيهقي في الكبرى (124/9)][1].

والاستبراء إنَّما يكون بأن تطهر من حيضةٍ واحدةٍ فقط، ولا تجب عليها العدَّة؛ وإن كانت متزوِّجة من كافرٍ، سواءٌ مات، أو بقي حيّاً؛ لأنَّ العدَّة وفاءٌ للزَّوج الميّت، وحداد عليه، ولا يُحَدُّ على الكافر كما علمت[2].

4 - حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيدٍ الخدريّ، وأبي هريرة رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله(ﷺ) استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ، فقال رسول الله(ﷺ) : «كلُّ تمرِ خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله! إنَّا لنأخذ الصَّاع من هذا بالصَّاعين، والثلاثة. فقال: «لا تفعل! بعِ الجمع بالدَّراهم، ثمَّ ابتع بالدَّراهم جنيباً». [البخاري (4244)، ومسلم (1593)].

فالتَّفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل؛ إذا اشترى صاعاً بأكثر من صاعٍ، فالزِّيادة هنا هي الرِّبا، وهذا محرَّمٌ كما رأيت؛ إذ نهى النَّبيُّ(ﷺ) عن ذلك، وأرشد إلى الحلِّ السَّليم بأن يبيع ما لديه من تمرٍ ثمَّ يشتري بما لديه من نقودٍ ما يشتهي من تمرٍ؛ لأنَّ الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الرِّبا[3].

5 - حرمة بيع الذَّهب بالذَّهب العَيْن، وتبر الفضَّة بالوَرِق العَيْن:

روي عن عبادة بن الصَّامت: أنَّه قال: نهانا رسول الله(ﷺ) يوم خيبر أن نبيع، أو نبتاع تِبْرَ الذَّهب بالذَّهب العَيْن، وتِبْرَ الفِضَّة بالوَرِق العَيْن، وقال: «ابتاعوا تبر الذَّهب بالوَرِق العَيْن، وتبر الفضَّة بالذَّهب العَيْن». [ابن هشام (346/3)].

والمراد من الحديث: أن يباع الذَّهب بالذَّهب مثلاً بمثلٍ، والفضَّة بالفضَّة مثلاً بمثلٍ، بلا

---

(1) انظر: الرَّوض الأنف (41/4).
(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (134/3).
(3) المصدر السابق نفسه.

زيادةٍ، ولا نقصٍ؛ وعندما يُقابل الذَّهب بالفضة لا تشترك المماثلة، كما هو معلومٌ، وثابتٌ في الصِّحاح[1].

6 – مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أعطى النَّبيُّ(ﷺ) خيبر لليهود أن يعملوها، ويزرعوها، ولهم شطرُ ما يخرج منها. [سبق تخريجه].

وقد تساءل بعض الباحثين: لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر؟ وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشَّيخ محمَّد أبو زهرة على هذا، فقال: إنَّ فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنِّسبة للعلاقات الماليَّة الَّتي يجري في ظلِّها التَّبادل الماليُّ، فكانت فيها شرعيَّة المزارعة، والمساقاة، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب[2].

7 – حلُّ أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله(ﷺ) يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخَّص في الخيل. [البخاري (5520)، ومسلم (1941/36 و37)].

8 – تحريم المتعة:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله(ﷺ) نهى عن متعة النِّساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسيَّة. [البخاري (5523)، ومسلم (1407)].

9 – مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أميَّة بنت أبي الصَّلت عن امرأةٍ من بني غفار؛ قالت: أتيت رسول الله(ﷺ) في نسوةٍ من بني غفار، فقلن: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرجَ معك إلى وجهك هذا – وهو السَّير إلى

---

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 321.

(2) انظر: خاتم النبيين (1104/2) ، والصراع مع اليهود (136/3).

خيبر – فنداويَ الجرحى، ونعينَ المسلمين بما استطعنا. فقال: «على بركة الله». قالت: فخرجنا معه، قالت: فو الله لنَزَلَ رسـولُ الله(ﷺ) إلى الصُّـبح، ونزلتُ عن حقيبة رَحْلِهِ، قالت: وإذا بها دم منّي – وكانت أوَّل حيضةٍ حضتها – قالت: فتقبَّضْتُ إلى النَّاقة، واستحييت. فلـــمَّا رأى رسـول الله(ﷺ) ما بي، ورأى الدَّم قال: «ما لك؟ لعلَّك نُفِسْـتِ؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نَفْسِك، ثمَّ خذي إناءً من ماءٍ، فاطْرَحي فيه ملحاً، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدَّم، ثم عودي لِمَرْكَبِكِ» قالت: فلـــمَّا فتح الله خيبر؛ رضـخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة الَّتي تَرَيْنَ في عنقي، فأعطانيها، وعلَّقها بيده في عنقي، فو الله لا تفارقني أبداً[1]، وكانت في عنقها حتَّى ماتت، ثمَّ أوصـــت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضـــها، إلا جعلت في طهرها ملحاً، وأوصـت به أن يجعل في غُسْـلها حين ماتت. **[أحمد (380/6)، والبيهقي في الكبرى (407/2)، وابن سعد (214/8)، وابن كثير في البداية والنهاية (204/4)، وابن هشام (357/3)].**

وهي صـــورةٌ حيَّةٌ أمام كلِّ فتاةٍ مســـلمةٍ، تحرص على أن تشـــارك في أجر الجهاد مع المسلمين[2].

وهكذا كانت حياة الرَّســـول(ﷺ) تعليماً، وتربيةً للأمَّة في السِّـــلم، والحرب على معاني العقيدة، وحقيقة العبادة، وهذا غيضٌ من فيضٍ، وجزءٌ من كلٍّ.

هذا وقد أحدث فتحُ خيبر، وَفَدَك، ووادي القرى، وتيماء دويّاً هائلاً في الجزيرة العربيَّة بين مختلف القبائل، وقد أصـــيبت قريش بالغيظ، والكابة؛ إذ لم تكن تتوقَّع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم، ووفرة سلاحهم، ومؤونتهم، ومتاعهم[3].

أمَّا القبائل العربيَّة الأخرى المناصـــرة لقريش؛ فقد أدهشـــها خبر هزيمة يهود خيبر، وخذلها انتصـــار المســـلمين السَّـــاحق، ولذلك فإنَّها جنحت إلى مســـالمة المســـلمين، وموادعتهم بعد أن

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (205/4).
(2) انظر: فقه السِّيرة، لمنير الغضبان، ص 534.
(3) انظر: نضرة النَّعيم (353/1).

أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، ممَّا فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربيَّة، بعد أن تعزَّزت مكانة المســـلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقَّق لهم مِنْ خيرٍ، وتعزيزٍ لوضعهم الاقتصاديّ[1].

واستمرَّت حركة السَّرايا بعد خيبر، وكانت كثيرةً، وأمَّرَ عليها(ﷺ) كبار الصَّحابة، وكان في بعضها قتالٌ، ولم يكن في بعضها قتال[2].

* * *

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 221.

المبحث الثَّاني

دعوة الملوك والأمراء[1]

أولاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميّ:

فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربيَّة، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيَّة، فمنذ أن عقد الرَّسول(ﷺ) صلح الحديبية مع قريشٍ، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر، ووادي القرى، وتيماء، وفَدَك إلى سيادة الإسلام؛ فإنَّ الرَّسول(ﷺ) لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّة، وقد عبَّر(ﷺ) عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرُّسل، والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربيَّة، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربيَّة.

وتُعَدُّ هذه الخُطوة نقطة تحوُّلٍ مهمَّةٍ في تاريخ العرب، والإسلام، ليس لأنَّ الرَّسول(ﷺ) سوف يوحِّد عرب الجزيرة العربيَّة تحت راية الإسلام، فحسب، ولكن لأنَّ هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام، وتمثَّلوا رسالة السَّماء أنيط بهم حمل الدَّعوة الإسلاميَّة إلى البشريَّة كافَّةً[2].

ويشير المنهج النَّبويُّ في دعوة الزُّعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدَّعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء، والشُّعوب اختار الرَّسول(ﷺ) أسلوباً جديداً من أساليب الدَّعوة، وهو مراسلة الملوك، ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرَّسائل إلى الملوك، والأمراء أثرٌ بارزٌ في دخول بعضهم الإسلام، وإظهار الودِّ من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرَّسائل مواقف بعض الملوك، والأمراء من الدَّعوة الإسلامية، ودولتها في المدينة، وبذلك حقَّقت هذه الرَّسائل نتائج كثيرةً، واستطاعت الدَّولة الإسلاميَّة من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرَّسائل أن

---

(1) ينظر الشكلان (13 و14) في الصفحتين (757 و758).

(2) انظر: السَّفارات النَّبويَّة، د. محمَّد العقيلي، ص 15.

تنتهج نهجاً سياسيّاً، وعسكريّاً واضحاً، ومتميّزاً[1]، وإليك أهم هذه الرّسائل:

1 - فقد وردت روايةٌ صـــحيحةٌ، تضـــمَّنت نصَّ كتاب النّبيّ(ﷺ) الَّذي بعثه مع دحيةَ الكلبيّ إلى هرقل عظيم الرُّوم[2] وذلك في مدة هدنة الحديبية، وهو كما يلي:

«بسـم الله الرَّحمن الرَّحيم، من محمَّد بن عبد الله ورسـوله إلى هرقل عظيم الرُّوم، سـلامٌ على من اتَّبع الهُدى: أمَّا بعد: فإنِّي أدعوك بدعاية الإسـلام، أسـلمْ؛ تسـلم، يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإنْ تولَّيت؛ فعليك إثم الأَرِيسـيّين ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْـرِكَ بِهِ شَـيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُـنَا بَعْضًـا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ **[آل عمران: 64]**. **[البخاري (4553)، ومسلم (1773)]**.

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النَّبيّ(ﷺ) ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطَّويل المشـهور بين أبي سـفيان وهرقل المرويّ في الصَّـحيحين حين سـأله عن أحوال النَّبي(ﷺ) ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم: أنَّه خارج، ولم أكن أظنُّه منكم، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه ؛ لتجشـــمت لقاءه، ولو كنت عنده؛ لغســـلت عن قدميه). **[انظر تخريج الحديث السابق]**.

2 - أرسـل النَّبيُّ(ﷺ) بكتابٍ إلى كسـرى ملك الإمبراطورية الفارسـيَّة، مع عبد الله بن حُذافة السَّهميّ، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[3]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلـمَّا قرأه؛ مزَّقه، فدعا عليهم رسـول الله(ﷺ) أن يُمزَّقوا كُلَّ ممزَّق» **[أحمد (243/1)، والبخاري (4424)، والبيهقي في دلائل النبوة (387/4)]**[4]، ونصُّ الرِّسـالة كما أوردها الطَّبريُّ كالتَّالي: «بسـم الله الرَّحمن الرَّحيم، من محمَّد رسـول الله، إلى كسـرى عظيم فارس، سـلامٌ على مَنِ اتَّبع الهُدى، وآمن بالله،

---

(1) انظر: العلاقات الخارجيَّة للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد المهجر ، ص 112.
(2) انظر: نضرة النَّعيم (344/1) ، وقد اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرَّسائل.
(3) شرح المواهب اللَّدنية (341/3).
(4) كانت الرسالة في محرم سنة 7 هـ كما في زاد المعاد.

ورسـوله، وشـهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسـول الله إلى النَّاس كافَّةً؛ لينذر من كان حيّاً، أسـلم؛ تسلم، فإن أبيت؛ فعليك إثمُ المجوس». [تاريخ الطبري (654/2 – 655)].

3 – أمّا كتاب النَّبيّ(ﷺ) إلى النَّجاشـيِّ ملك الحبشـة، فقد أرسـله مع عمرو بن أميَّة الضَّمْريِّ، وقد جاء في الكتاب:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من محمَّدٍ رسـول الله، إلى النَّجاشـيِّ ملك الحبشـة، أسـلم أنت، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو الملكُ، القدُّوس، السَّـلامُ، المؤمنُ، المهيمنُ، وأشـهد أنَّ عيسى ابنَ مريم روحُ الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطَّيِّبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق ادم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شـريك له، والموالاة في طاعته، وأن تتَّبعني، وتؤمن بالَّذي جاءني، فإنِّي رسول الله، وإنِّي أدعوك، وجنودَك إلى الله – عزَّ وجلَّ – وقد بلَّغتُ، ونصـحتُ، فاقبلوا نصـيحتي، والسَّـلام على من اتَّبع الهُدى». [نصب الراية للزيلعي (421/4)].

4 – أمّا كتاب النَّبيّ(ﷺ) إلى المقوقس حاكمِ مصـر[1]، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[2]؛ فلم يثبت من طرقٍ صـحيحةٍ، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أنَّ ذلك لا يعني الطَّعن بصحة النُّصوص من النَّاحية التاريخيَّة، فربما تكون صحيحةً من حيث الشَّكل، والمضمون، غير أنَّها لا يمكن أن يحتجَّ بها في السِّياسـة الشَّـرعيَّة[3]، فلقد أورد محمَّد بن سعد في طبقاته[4]: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) بعث إلى المقوقس، جُريج بن مينا ملك الإسكندريّة وعظيم القبط، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللَّخميِّ، وأنَّه قال خيراً، وقارب الأمر، غير أنَّه لم يسـلم، وأهدى إلى النَّبيّ(ﷺ) عدَّة هدايا كان بينها مارية القبطيَّة، وأنَّه لما ورد جواب المقوقس إلى النَّبيّ(ﷺ) قال: «ضَـنَّ

---

(1) انظر: نضرة النَّعيم (346/1).
(2) المصدر السَّابق نفسه.
(3) انظر: السّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (459/2).
(4) انظر: الطَّبقات الكبرى (260/1 ـ 261).

الخبيث بمُلْكِه، ولا بقاء لِمُلْكِه». [الزيلعي في نصب الراية (422/4)][1].

5 – وبعث رسول الله(ﷺ) شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خُزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني صاحب دمشق[2]، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمَّن نصُّ الرِّسالة قوله: «سلامٌ على من اتَّبع الهُدى، وآمن به، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له، يُبْقي لك ملكك». [الزيلعي في نصب الراية (424/4)، والطبري في تاريخه (652/2)].

6 – وأرسل رسول الله(ﷺ) سُلَيطَ بن عمرٍو العامريَّ بكتابٍ إلى هَوْذَةَ بن عليٍّ الحنفي[3] عند مقدمه من الحديبية، وقد اشترط هَوْذَةُ الحنفيُّ على الرسول(ﷺ) بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النَّبيُّ(ﷺ) أن يقبل ذلك. [الزيلعي في نصب الراية (425/4)، وابن طولون في إعلام السائلين (105، 107)].

7 – وأرسل(ﷺ) أبا العلاء الحضرميَّ[4] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التَّاريخيَّة: أنَّ المنذر قد استجاب لكتاب النَّبيِّ(ﷺ) ، فأسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأمَّا أهل البلاد من اليهود، والمجوس فإنَّهم صالحوا العلاء، والمنذر على الجزية من كلِّ حالمٍ دينار [الزيلعي في نصب الراية (420/4)] (أي: على كلِّ بالغٍ دينار) ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي(ﷺ) إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزُّبير، وجاء فيه:

«سلام أنت، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد فإنَّ مَنْ صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الَّذي له ذمَّة الله، وذمَّة الرَّسول، فمن أحبَّ ذلك من المجوس؛ فإنَّه آمن، ومن أبى؛ فإن الجزية عليه». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص 30 برقم 50)].

---

(1) البداية والنّهاية (340/5).
(2) انظر: تاريخ الطَّبري (652/2).
(3) كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل.
(4) انظر: صبح الأعشى ، للقلقشندي (368/6).

وفي ذي القعدة سنة (8 هـ) بعث النَّبيُّ(ﷺ) عمرو بن العاص بكتابه إلى جَيفر وعبدٍ ابني الجُلُنْدَى الأزديَّين بِعُمَان[1]، وقد جاء فيه: «من محمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله لعباد الله الأزديِّين ملوك عُمان، وأسد عمان، ومن كان منهم بالبحرين؛ إنَّهم إن آمنوا، وأقاموا الصَّلاة، واتوا الزَّكاة، وأطاعوا الله، ورسوله، وأعطَوا حقَّ النَّبيِّ(ﷺ) ، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنَّهم آمنون وأنَّ لهم ما أسلموا عليه، غير أنَّ مال بيت النَّار ثُنْياً لله ورسولِه، وأنَّ عشور التَّمْرِ صدقةٌ، ونصفُ عشور الحبِّ، وأنَّ للمسلمين نصرهم، ونصحَهم، وأنَّ لهم على المسلمين مثل ذلك، وأنَّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا». **[أبو عبيد في كتاب الأموال (ص 30 – 31 برقم 52)]**.

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من النَّاحية الحديثيَّة[2].

ثانياً: مواصفاتُ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة:

قام اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرَّسائل، وتحدَّث عن الرُّسل في كتابه الفريد «سفراء النَّبيِّ(ﷺ) » استنبط من خلالها شروطَ ومواصفاتِ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة، ومن أهم تلك الشُّروط، والمواصفات:

1 – الإسلام، والدَّعوة إليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **[يوسف: 108]**.

وإذا كان المسلمون كلُّهم دعاةً إلى الله تعالى؛ فرسل النَّبيِّ(ﷺ) إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[3].

---

(1) انظر: صبح الأعشى (376/6).
(2) انظر: نضرة النَّعيم (348/1).
(3) انظر: سفراء الرَّسول (ص) لمحمود شيت خطاب (258/2).

2 – الفصاحة والوضوح:

الفصاحة، وجزالة اللَّفظ، والدقَّة في توصيل المعاني إلى السَّامعين شرطٌ أساسيٌّ في الرَّجل الَّذي يتصدَّى للمهمَّة الدِّبلوماسيَّة، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ۝ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه: 29 – 31] وقد اختار الرَّسول(ﷺ) كلَّ سفرائه، ومبعوثيه من العرب الَّذين تربَّوا في الجزيرة العربيَّة ومع البدو أحياناً، فقد كانوا أصحاب نقاوةٍ، لم تتكدَّر باختلاط الأعاجم بعد، فقد كانوا على قدرٍ كبيرٍ من الفصاحة، والوضوح.

3 – حسن الخلق:

أخلاق السَّفير النَّبويّ هي أخلاق الإسلام الَّتي بيَّنها الله – سبحانه وتعالى – في القرآن الكريم، وفصَّلها رسول الله(ﷺ) في سنَّته، وأهمُّها في السَّفير: الصِّدقُ، والتَّواضع[1].

4 – العلم:

لا نريد هنا أن نبيِّن منزلة العلم؛ لأنَّ الكلام على هذه المسألة طويلٌ، ولكنَّنا نؤكِّد هنا: أنَّ العلم بالشَّيء هو وسيلة نقل الفكرة، والمبدأ، لذا عندما تنظر إلى جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو يحاور النَّجاشيَّ، ثم يقرأ عليه سورة: تتيقَّن من دقَّة الاختيار ﴿كهيعص ﴾، ونصاعة خطاب العالِم، ودقَّة اختياره للألفاظ، والعبارات[2].

5 – الصَّبر:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: 35] والحقيقة: أن الصبر هو عدَّة الدَّاعية، وزاده المستمر، ولو تصفَّحت سيرة الرَّسول(ﷺ) وسيرة

---

(1) المصدر السابق نفسه (278/2).
(2) الفقه السِّياسيُّ للوثائق النَّبويَّة ، لخالد الفهداوي ، ص 114.

صحابته الأجلاَّء؛ لوجدتها حافلةً بالصَّبر على الدَّعوة، وموقفُ الطَّائف شاهدٌ على ذلك.

6 – الشَّجاعة:

وقد تحدَّث التَّاريخ الإسلاميُّ عن شجاعة السُّفراء، والَّذين أرسلهم الرَّسول(ﷺ) إلى الملوك، وأنَّهم كانوا لا يخافون لومة لائم.

7 – الحكمة:

وقد كان سفراء الرَّسول(ﷺ) يتَّصفون بالحكمة، فهذا عمرو بن العاص كان مُسدَّداً في أقواله، وأفعاله، قيل لعمرو: ما العاقل؟ قال: (الإصابة بالظَّنِّ، ومعرفة ما يكون بما قد كان ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرِّ، إنَّما العاقل الذي يعرف خير الشَّرَّيْنِ[1].

8 – سعة الحيلة:

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السِّياسيَّة، متأنِّياً كتوماً. وسعةُ الحيلة الَّتي ترتكز أوَّلاً، وقبل كلِّ شيءٍ على الذَّكاء من أهم سمات السَّفير، وقد كان سفراء الرَّسول(ﷺ) يتَّصفون بالذَّكاء، والدَّهاء، وتوقُّع الأحداث، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث، وهذه مقوِّمات سعة الحيلة.

9 – المظهر:

تميَّز سفراء النَّبيِّ(ﷺ) بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر، وقد حرص النَّبيُّ(ﷺ) على اختيار سفرائه من بين أصحابه الَّذين تتوافر فيهم صفاتٌ شكليَّة جميلةٌ إلى جانب سماتهم العقليَّة، والنفسيَّة سالفة الذِّكر[2].

هذه أهم الصِّفات الَّتي استخلصها اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطاب من خلال دراسته

---

(1) انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، وقد نقل عن سفراء الرَّسول (ص) (301/2).

(2) انظر: مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، ص 60.

القيِّمة لسـفراء النَّبيِّ(ﷺ) والَّتي ينبغي للسَّـفير المسـلم أن يتحلَّى بها، وتكون للدَّولة الإسـلاميَّة مقياساً في اختيار مَنْ ترشِّحه لهذا المنصب الخطير.

ثالثاً: دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 – الأَرِيْسِيُّون:

وردت كلمة (الأَرِيْسـيِّين) أو (اليَرِيْسِـيِّين) – على اختلاف الرِّوايات – في الكتاب الَّذي وُجِّه إلى (هرقل) وحدَه ، ولم ترد في كتابٍ من الكتب الَّتي أرسـلت إلى غيره ، واختلف علماء الحديث واللُّغة في مدلول هذه الكلمة، فالقول المشـهور: أن (الأريسـيِّين) جمع (أريسـي) وهم الخول، والخدم، والأكَّارون[1].

وذهب العلامة أبو الحسن النَّدويُّ إلى أنَّ المراد بالأريسيِّين هم أتباع (أريوس) المصري، وهو مؤسِّـس فرقةٍ مسـيحيَّةٍ كان لها دورٌ كبير في تاريخ العقائد المسـيحيَّة والإصـلاح الدِّيني، وقد شـغلت الدَّولة البيزنطيَّة، والكنيسـة المسـيحيَّة زمناً طويلاً، و(أريوس) هو الَّذي نادى بالتَّوحيد، والتَّمييز بين الخالق، والمخلوق، والأب، والابن – على حدِّ تعبير المسيحيين – لعدَّة قرون[2].

ودامت عقيدة (أريوس) ودعوته تصارعان الدَّعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح، وتسويته بالإله الواحد الصَّـمد، وكانت الحرب سـجالاً، وقد دان بهذه العقيدة عددٌ كبيرٌ من النَّصـارى في الولايات الشَّـرقية من المملكة البيزنطيَّة إلى أن عقد تيوسـورس الكبير مَجْمعاً مسـيحيّاً في القسـطنطينية، قضـى بألوهيَّة المسـيح، وإبنيَّته، وقضـى هذا الإعلان على العقيدة الَّتي دعا إليها (أريوس) واختفت، ولكنَّها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفةٌ من النَّصارى، اشتهرت بالفرقة الأريسـيَّة، أو الأريسـيِّين، فَمِنَ المرجَّح المعقول: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) إنَّما عنى هذه الفرقة بقوله: «فإن تولَّيت، فإنَّما عليك إثم الأَرِيْسـيِّين» فإنَّها هي القائمة بالتَّوحيد النِّسـبي في العالم المسيحي الَّذي

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 304.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 305.

تتزعمُه الدولة البيزنطيَّة العظمى، الَّتي كان على رأسها (هرقل)[1].

وقد تحدَّث الإمام أبو جعفر الطَّحاويُّ عن هذه الفرقة، فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني: أنَّ في رهط هرقل فرقةً تعرف بالأروسية، توحِّد الله، وتعترف بعبودية المسيح لله – عزَّ وجلَّ –، ولا تقول شيئاً ممَّا يقول النَّصارى في ربوبيته، وتؤمن بنبوَّته، فإنَّها تُمسك بدين المسيح مؤمنةً، بما في إنجيله، جاحدةً لما يقوله النَّصارى سوى ذلك، وإذا كان ذلك كذلك؛ جاز أن يقال لهذه الفرقة (الأريسيُّون) في الرَّفع و(الأريسيين) في النَّصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث[2].

2 – اعتبارات حكيمة خاصَّة بالملوك:

في رسائل رسول الله(ﷺ) للملوك فوارقُ دقيقةٌ مؤسَّسةٌ على حكمة الدَّعوة، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد الَّتي يدينون بها، و(الخلفيَّات) الَّتي يمتازون بها، فلمّا كان هرقل، والمقوقس يدينان بألوهيَّة المسيح كلِّيّاً، أو جزئيّاً، وكونه ابنُ الله، جاءت في الكتابَيْن اللَّذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النَّبيِّ(ﷺ) صاحب هاتين الرِّسالتين، فيبتدئ الكتابان بعد التَّسمية بقوله: «من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم» وبقوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القِبْط» بخلاف ما جاء في كتابه(ﷺ) إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: «من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس» وجاءت كذلك آية: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 64]** في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز؛ لأنَّ الآية تخاطب أهل الكتاب؛ الَّذين دانوا بألوهيَّة

---

(1) وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة النَّدويُّ الدُّكتور معروف الدَّواليبي في الأريسيين يؤيِّد ما قاله النَّدوي: أنَّ النَّبيَّ (ص) إنَّما عنى بقوله: «فإن توليت فإنَّ عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرقة المسيحيَّة الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النَّافية لألوهيته ، وقد جاء هذا البحث القيِّم في رسالة: نظرات إسلاميَّة ، ص 68 . 83 ، وانظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص 307.

(2) انظر: مشكل الاثار (399/3).

المســـيح، واتَّخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمســـيح ابن مريم، وقد كان هرقل إمبراطور الدَّولة البيزنطيَّة، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيَّين، وزعيمين دينيَّين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلافٍ يسيرٍ في الاعتقاد في المسيح: «هل له طبيعةٌ أم طبيعتان؟»[1].

ولما كان كسـرى أبرويز وقومُه يعبدون الشَّـمس والنَّار، ويدينون بوجود إلهين: أحدهما يمثِّل الخير، وهو: يزدان، والثَّاني يمثِّل الشَّـرَّ وهو: إهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوَّة، والتَّصـوُّر الصَّحيح للرِّسالة السَّماوية، جاءت في الكتاب الَّذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً لينذر من كان حيّاً»[2].

وقد كان تلقِّي الملوك لهذه الرَّســائل يختلف: فأمَّا هرقل، والنَّجاشـيُّ، والمقوقس؛ فتأدَّبوا، وتلطَّفوا في جوابهم، وأكرم النّجاشيُّ، والمقوقس رُسُلَ رسولِ الله(ﷺ) ، وأرسل المقوقس هدايا؛ منها جاريتان كانت أحدَاهما ماريةُ أمُّ إبراهيم (ابن رســول الله)، وأمَّا كسـرى أبرويز؛ فلما قُرِئَ عليه الكتاب مزَّقه، وقال: «يكتب إليَّ هذا؛ وهو عبدي؟!» فبلغ ذلك رســول الله(ﷺ) فقال: «مزَّق الله ملكه!» **[سبق تخريجه]**.

وأمر كســرى باذان – وهو حاكمه على اليمن – بإحضــاره، فأرســل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله(ﷺ) بأنَّ الله سلَّط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله[3].

وقد تحقَّق ما أنبا به رسول الله(ﷺ) بكلِّ دقَّة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقُتِل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعازٍ منه سنة (628 م)، وقد تمزَّق ملكُه بعد وفاته، وأصبح لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شـرويه) إلا سـتَّة أشـهرٍ، وتوالى على عرشـه في مدَّة أربع سنوات عشرة ملوكٍ، واضطرب حبل الدَّولة إلى أن اجتمع النَّاس على (يزدجرد) وهو

(1) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للنَّدوي، ص 38 . 39.
(2) انظر: السّيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص 290.
(3) انظر: تاريخ الطبَّري (3/90 . 91)، والإصابة في معرفة الصَّحابة.

اخر ملوك بني ســاســان، وهو الَّذي واجه الزَّحف الإســلاميّ؛ الَّذي أدَّى إلى انقراض الدَّولة السَّــاســانيَّة؛ الَّتي دامت، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضــاً كلِّيًّا، وكان ذلك في ســنة (637 م)، وهكذا تحقَّقت هذه النُّبوءة في ظرف ثماني سنين[1].

3 – الوصف العام لرسائل الرَّسول(ﷺ) :

ويلاحظ الباحث: أنَّ الوصــف العام لكتب الرَّســول(ﷺ) إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التَّالية:

أ – نلاحظ أنَّ جميع كتب الرَّسـول(ﷺ) الَّتي أرسـلها إلى الملوك، والرُّؤسـاء يفتتحها(ﷺ) بالبســملة، والبســملة آية من كتاب الله – تبارك وتعالى – وفي تصــدير الكتاب بها أمورٌ مهمَّةٌ؛ كاستحباب بدء الكتب بــــ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» اقتداءً برسولنا محمَّد(ﷺ) ، فقد واظب عليها في كتبه(ﷺ) ، كما أنَّ فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية، أو أكثر من القرآن الكريم؛ لأنَّ كتب رسـول الله(ﷺ) تضـمَّنت البسـملة، وغيرها، وفيها جواز قراءة الجنب لآية، أو أكثر من القرآن الكريم؛ لأنَّ هذا الكافر الَّذي أرسـلت إليه الرِّسـالة، وتضـمَّنت البسـملة وغيرها لا يحترز من الجنابة، والنَّجاسة، فيقرأ الرِّسالة؛ التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم؛ وهو جنبٌ.

ب – ونستنبط من رسائل رسول الله(ﷺ) إلى الملوك والأمراء الآتي:

- مشـروعيَّة إرسـال السُّـفراء المسـلمين إلى زعماء الكفر؛ لأنَّ كلَّ كتابٍ كان يكتبه الرَّسول(ﷺ) يكلِّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل إليه.
- مشروعية الكتابة إلى الكفَّار في أمر الدِّين، والدُّنيا.
- ينبغي أن يكتب في الكتاب اسـم المرْسِـل، والمرْسَـل إليه، وموضـوع الكتاب، وهو واحدٌ في جميع الكتب، ويتلخَّص في دعوتهم إلى الإسلام.

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 300.

- عدم بدء الكافر بتحيَّة الإسلام، وهي السَّلام عليكم، ورحمة الله وبركاته؛ ذلك لأنَّ النَّبيَّ(ﷺ) لم يطرح السَّـــلام في كتبه على ملكٍ من ملوك الكفر، بل كان يصــدِّر كتبه بقوله: السَّلام على من اتَّبع الهدى، أي: آمن بالإسلام. ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحيَّة الإسلام.
- اتخاذ الخاتم: فقد كان رســول الله(ﷺ) يختم رســائله بعد كتابتها بخاتمه، وقد كُتب عليه ثلاث كلمات:

محمَّد رسولُ الله

[البخاري (65)، ومسلم (2092)][1].

فعن أنسٍ رضــي الله عنه قال: لـــمَّا أراد النَّبيُّ(ﷺ) أن يكتب إلى الرُّوم؛ قيل له: إنَّهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتَّخَذَ خاتماً مِنْ فضَّة، فكأنِّي أنظر إلى بَيَاضِه في يده، ونقش فيه محمَّدٌ رسول الله. [البخاري (2938)].

4 – تقدير الرِّجال:

لــمَّا أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله(ﷺ) ، بل أبقاه أميراً عليها بعد إســـلامه، حين رأى فيه الإداريَّ النَّاجح، والحاكم المناســب، ممَّا يُدلِّل على أنَّ الرَّســول(ﷺ) يقدِّر الكفاءات في الرِّجال، ويضــع الرَّجل المناســب في المكان المناسـب، ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ الرَّســول(ﷺ) قد ولَّى ولده – أي: ولد باذان – شــهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[2].

5 – جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم اســتخرج من كتاب النَّبي(ﷺ) الَّذي أرســله إلى المنذر بن ســاوى يحدِّد فيه

---

(1) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 239، 240.

(2) غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 242، ونصب الراية، للزيلعي.

الموقف من اليهود، والمجوس؛ إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديَّته، أو مجوسيَّته؛ فعليه الجزية»(1).

وقد ذهب ابن القيِّم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كلِّ إنســـان يبذلُها، ســـواءٌ أكان كتابيّاً أم غير كتابيٍّ؛ كعبدة الأوثان من العرب، وغيرهم، فقد جاء في زاد المعاد: «وقد قالت طائفةٌ في الأمم كلِّها إذا بذلوا الجزية؛ قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسُّنَّة، ومن عداهم ملحقٌ بهم؛ لأنَّ المجوس أهل شـركٍ لا كتاب لهم، فأخذُها منهم دليلٌ على أخذها من جميع المشركين، وإنَّما لم يأخذها(ﷺ) من عبدة الأوثان من العرب؛ لأنَّهم أسلموا قبل نزول آية الجزية، فإنَّها نزلت بعد تبوك»(2).

6 – جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر – وهو كافرٌ – مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هديةً تشتمل على جاريتين، وكسوةٍ للرَّسول(ﷺ) ، وبغلةٍ يركبها، فقبلها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإحدى هاتين الجاريتين ماريةُ القبطيَّة(3).

7 – من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرَّسول(ﷺ) في سياسته الخارجيَّة درايةً سياسيَّةً فاقت التَّصوُّر، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر(ﷺ) قوَّةً، وشـجاعةً فائقتين، فلو كان غير رسـول الله(ﷺ) ؛ لخشي عاقبة ذلك الأمر، لا سيَّما وأنَّ بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوكٍ أقوياء على تخوم بلاده؛ كهرقل، وكســرى، والمقوقس، ولكنَّ حرص رســول الله(ﷺ) ، وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله – سبحانه وتعالى –، كلُّ ذلك دفعه لأن يُقْدِم على ما أقدم عليه، وقد حقَّقت هذه السِّياسة النتائج الآتية:

---

(1) المصدر السَّابق نفسه.
(2) انظر: زاد المعاد (91/5).
(3) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص 243.

أ – وطَّد الرَّسول(ﷺ) بهذه السِّياسة أسلوباً جديداً في التَّعامل الدَّوليّ لم تكن تعرفه البشريَّة من قبلُ.

ب – أصــبحت الدَّولة الإســلاميَّة لها مكانَتُها، وقوَّتُها، وفرضــت وجودها على الخريطة الدَّوليَّة لذلك الزَّمان.

ج – كشفت للرَّسول(ﷺ) نوايا الملوك، والأمراء، وسياستهم نحوه، وحكمهم على دعوته.

د – كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدَّعوة الإســـلاميَّة، تلك العالميَّة الَّتي أوضــحتْها آيات نزلت في العهد المكِّي، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَــلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ **[الأنبياء: 107]**.

وهكذا، فإنَّ رســائل النَّبيِّ(ﷺ) إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تُعَدُّ نقطة تحوُّلٍ في سياسة دولة الرَّسول الخارجيَّة، فعظم شأنُها، وأصبحت لها مكانةٌ دينيَّةٌ، وسياسيَّةٌ بين الدُّول، وذلك قبل فتح مكة، كما أنَّ هذه الســياســة مهَّدت لتوحيد الرَّســول(ﷺ) لســائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود(1).

* * *

(1) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة، ص 351.

المبحث الثَّالث

عمرة القضاء[1]

وفي ذي القعدة في السَّنة السَّابعة من الهجرة خرج الرَّسول(ﷺ) إلى مكَّة قاصداً العمرة، كما اتَّفق مع قريشٍ في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النِّساء، والصِّبيان، ولم يتخلَّف من أهل الحديبية إلا مَنِ استُشْهِدَ في خيبر، أو مات قبل عمرة القضاء[2].

وقد اتَّجه رسولُ الله(ﷺ) وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكَّة المكرَّمة في موكبٍ مهيبٍ يشقُّ طريقه عبر القرى، والبوادي، وكان كلَّما مرَّ الموكب النَّبويُّ بمنازل قومٍ من الذين يسكنون على جانبي الطَّريق بين مكَّة والمدينة؛ خرجوا، وشاهدوا منظراً لم يألفوه مِنْ قبلُ، حيث كان المسلمون بزيٍّ واحدٍ من الإحرام، وهم يرفعون أصواتهم بالتَّلبية، ويسوقون هديهم في علاماته، وقلائده، في مظهرٍ بهيٍّ لم تشهد المنطقة له مثيلاً[3].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النَّبيُّ(ﷺ) معه السِّلاح الكامل، ولم يقتصر على السُّيوف، تحسُّباً لكلِّ طارئ قد يقع، خاصَّةً وأنَّ المشركين في الغالب لا يحافظون على عهدٍ قطعوه، ولا عَقْدٍ عقدوه[4].

وما إن وصل خبر مسير النَّبيِّ(ﷺ) ، ومعه هذا العدد الضَّخم، وهذه الأسلحة المتنوِّعة، وفي مقدِّمة القافلة مئتا فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة، حتَّى أرسلت قريش إلى رسول الله(ﷺ) مكرز بن حفص في نفرٍ من قريش؛ ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجُج[5] بمرّ

---

(1) ينظر الشكل (15) في الصفحة (759).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، ص 464.
(3) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص 310.
(4) صلح الحديبية، لأبي فارس، ص 267.
(5) موضع قرب مكَّة على ثمانية أميالٍ منها.

الظَّهران فقالوا له: يا محمد! والله ما عرفناك صــغيراً ، ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسِّــلاح الحرم على قومك ، وقد شــرطت ألا تدخل إلا على العهد، وأنَّه لن يدخل الحرم غير السُّــيوف في أغمادها، فقال رسول الله(ﷺ) : «لا ندخلها إلا كذلك» ثمَّ رجع مكْرَزُ مسرعاً بأصحابه إلى مكَّة، فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشَّرط؛ الَّذي شرط لكم. **[البيهقي في دلائل النبوة (321/4)، والواقدي في المغازي (734/3)، وابن سعد في الطبقات (121/2)]**.

ووضع رسول الله(ﷺ) السِّلاح خارج الحرم قريباً منه تحسُّباً لكلِّ طارئ، وأبقى عنده مئتي فارسٍ بقيادة محمَّد بن مســلمة يحرســونه، وينتظرون أمر الرَّســول(ﷺ) ليتحرَّكوا في أيِّ جهةٍ، وينفِّذوا أيَّ أمرٍ، ويقاتلوا متى دعتِ الضَّرورة لذلك[1].

إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) لم يأمن غـــدر مشركي قريش، وخيانتهم، فقد تُسوِّل لهم أنفسُهم أن ينصبوا كميناً، أو أكثر للمسلمين، ويشنُّوا عليهم هجوماً مباغتاً، ولذلك احتاط، وأخذ الحـــذر، ووفَّى بعهده، ووعــده لقريش، وعلَّم الأمَّة لكي تحذر من أعدائها[2]، وفي بقاء كوكبةٍ من الصَّحابة في حراســـة الأســـلحة، والعتاد؛ لكي يراقبوا الموقف بدقَّةٍ، وتحفُّزٍ معنىً من معاني العبادة في هذا الدِّين[3].

ثانياً: دخول مكَّة، والطَّواف، والسَّعي:

ومن بطن يأجج تابع رســولُ الله(ﷺ) ســيره نحو مكَّة على راحلته القصــواء، فدخلها من الثَّنيَّة الَّتي تطلعه على الحجون، والمسلمون حوله متوشِّحون سيوفهم، محدقون به من كلِّ جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيءٍ، وأصواتهم تعجُّ بالتَّلبية لله العليِّ الكبير[4].

هذه التَّلبية الجماعيَّة الَّتي تعجُّ أصـــوات المســـلمين بها، والَّتي لم تنقطع منذ أن أحرموا،

---

(1) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص 268.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 275.
(3) المصدر السَّابق نفسه ، ص 277.
(4) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص 353.

واســتمرَّت حتَّى دخلوا مكَّة، فقد كان للتَّلبية مغزىً ومعنىً، فهي تعلن التَّوحيد، وترفع شــعاره، وتعني إبطال الشِّــرك، وإســقاط رايته، وتعلن الحمد، والثَّناء على الله الَّذي مكَّنهم من أداء هذا النُّسك[1]. فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللّهُمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد، والنِّعمة لكَ والملك، لا شريك لك.

وكان عبد الله بن رواحة اخذاً بزمام راحلته، وهو يرتجز بشعره:

خَلُّوا بَنِي الكُفّارِ عَنْ سَــبِيْلِهِ ... خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ في رَسُــوْلِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مـؤمـنٌ بِقِـيْـلِـهِ ... أَعْـرِفُ حـقَّ اللهِ في قَـبُـوْلِـهِ
ضَــرْباً يُزِيْلُ الهَامَ عَنْ مَقِيْلِهِ ... وَيُـذْهِـلُ الخَلِيْـلَ عَنْ خَلِيْلِـهِ

[البيهقي في دلائل النبوة (323/4)، والترمذي (2847)، والنسائي (202/5)][2].

وكان مظهراً دعويّاً مؤثِّراً عندما بدأ الموكب النَّبويُّ الكريم يقترب من بيوت مكَّة المكرَّمة، وأبنيتها، شــاقّاً طريقه باتِّجاه الكعبة المشــرَّفة، وهم في مظهرهم المهيْب، وأصــواتُهم تشــقُّ عَنان السَّــماء بالتَّلبية، فقد ذكرت معظم كتب السِّــير، والمغازي: أنَّ قسـماً من أهالي مكَّة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المســـلمين من الأماكن العالية، والقســـم الأكبر وقف عند دار النَّدوة المجاورة للكعبة الشَّـريفة انذاك؛ ليشـاهدوا رسـول الله(ﷺ) ، وأصـحابه الكرام أثناء دخولهم مكَّة المكرَّمة، وبيت الله الحرام[3].

وكان المشـركون قد أطلقوا شـائعةً ضـدَّ المسـلمين مفادها: أنَّهم وهنتهم[4] حُمَّى يثرب، فأمر النَّبيُّ(ﷺ) أصـحابه أن يرمُلوا في الأشـواط الثَّلاثة، وأن يمشـوا ما بين الرُّكنين **[البخاري (4256)، ومسلم (1266)]** ؛ لكي يرى المشركون قوَّتهم، ودخل رسـول الله(ﷺ) البيت الحرام، واضـطبع[5]

(1) انظر: صلح الحديبية ، ص 277.
(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 481.
(3) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص 314.
(4) أضعفتهم.
(5) الاضطباع: هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمين ، ويجعل طرفه على منكبه.

بردائه فأخرج عضـــده اليُمنى وشـــرع في الطَّواف، وأصــــحابه يتابعونه، ويقتدون به، ولما رأى المشـــركون ذلك؛ قالوا: هؤلاء الَّذين زعمتم أنَّ الحمَّى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد مِنْ كذا، وكذا! **[مسلم (1266)]**[1].

وقد قصـــد رســـول الله(ﷺ) بهذه الطَّريقة الَّتي فعلها عند دخوله المســـجد الحرام، وهي الاضـطباع، والهرولة، ورفع الأصـوات بالتَّلبية أن يُرهِب قريشـاً، وأن يُظهر لها قوَّة المسـلمين، وعزيمتهم، وتمسُّكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم.

وقد أثَّر هذا الأســلوب في نفوس المشـــركين[2] وبهذا الأســـلوب النَّبويّ الكريم أغاظ الرَّســـول(ﷺ) المشـــركين، وكايدهم، فقد كان(ﷺ) يتقرَّب إلى الله بمكايدتهم، وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن(ﷺ) لأبي دُجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزَّة المؤمن؛ ولأنَّ ذلك يَغِيْظُ المشـــركين، وزيادةً في إغاظتهم كان يلبس العصـــابة الحمراء دون أن ينكر الرَّســـول(ﷺ) ذلك. وفي غزوة الحديبية ســاق رســول الله(ﷺ) في الهدي جمل أبي جهل الَّذي غنمه في بدرٍ؛ ليراه المشركون، فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم، وذلَّ أسراهم، وها هو ذا(ﷺ) يأمر المســـلمين في عمرة القضـــاء بإظهار التَّجلُّد، والهرولة؛ لإغاظتهم، ومكايدتهم، وردِّ كيدهم في نحورهم[3]، وقد ذكر ابن القيِّم: «أنَّ رسول الله(ﷺ) كان يكيد المشركين بكلِّ ما يستطيع»[4].

فهذه حربٌ نفسـيَّةٌ شـنَّها رسـول الله(ﷺ) على المشـركين، وقد اتت أكُلَها، ولقد أقام الرَّسـول(ﷺ) في مكَّة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التَّوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان، ويقيمون الصَّـلاة، ويصـلِّي بهم رسـول الله(ﷺ) الصَّـلوات الخمس في جماعة، وكان بلالُ بن رباح رضي الله عنه بصـوته النَّديِّ يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة، فكان وقعه

---

(1) صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 481.
(2) انظر: منهج الإعلام الإسلاميّ ، ص 315.
(3) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص 282.
(4) انظر: زاد المعاد (371/3).

على المشركين كالصَّاعقة[1].

ولم ينسَ(ﷺ) مجموعة الحراسة الَّتي كانت تحرس الأسلحة، والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمَّتهم ممَّن طاف، وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدُّوا النُّسك، فقد كان(ﷺ) يتعامل مع نفوسٍ يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وما جاءت للمرَّة الثانية، وقطعت هذه المسافة الشَّاسعة إلا لتنال هذا الشَّرف، وتَبُلَّ هذا الظَّمأ، فتطوف مع الطَّائفين، وتسعى مع السَّاعين، فعمل(ﷺ) على مراعاة النُّفوس، وساعدها ولبَّى مطالبها من أجل إصلاحها والرُّقيِّ بها؛ إنَّه من منهج النُّبوَّة في التَّربية[2].

ثالثاً: زواجه من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة أختُ أمِّ الفضل زوجةِ العبَّاس بن عبد المطلب فتاةً في السَّادسة والعشرين، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبي رُهْم بن عبد العزَّى إلى أختِها أمِّ الفضل، فجعلته أمُّ الفضل إلى زوجها العبَّاس، فزوَّجها العباس من ابن أخيه النَّبيِّ(ﷺ) ، وأصدقها عنه أربعمئة درهم [3]، وهي خالة عبد الله بن عبَّاس، وخالد بن الوليد، ولـمَّا انقضت الثَّلاثة أيَّام؛ الَّتي نصَّ عليها عهد الحديبية؛ أراد النَّبيُّ(ﷺ) أن يتَّخذ من زواجه من ميمونة وسيلةً لزيادة التَّفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزَّى مُوْفَدَين من نفرٍ من قريشٍ، فقالوا: إنَّه قد انقضى أجلُك، فاخرج عنَّا، فقال النَّبيُّ(ﷺ) كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً، فحضرتموه؟!». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا. فخرج، وخلَّف أبا رافعٍ مولاه على ميمونة حتَّى أتاه بها بِسَرِفٍ (موضع قرب التَّنعيم) فبنى بها هناك **[ابن هشام (4/14)، والبيهقي في دلائل النبوة (4/330)]**، وهي آخر مَنْ تزوَّج الرَّسول(ﷺ) من نسائه، واخر من مات من نسائه بعده، وأنَّها ماتت، ودفنت بِسَرِفٍ،

(1) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارسٍ، ص 270.
(2) المصدر السابق نفسه، ص277.
(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص 326.

فمكان عرسها هو مكان دفنها رضي الله عنها، وأرضاها[1].

وفـــي زواج رسول الله(ﷺ) بميمونـــة مسألةٌ فقهيَّـــةٌ اختلف الفقهاء فيها، وهي: هل تزوَّج(ﷺ) بميمونة وهو محرمٌ «عقد نكاحه عليها فقط» أو عقد عليها بعد التَّحلُّـــل؟[2] وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها.

رابعاً: التحاق بنتِ حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين:

لقد تغيَّرت النُّفوس، والعقول بتأثير الإســلام تغيُّراً عظيماً، فعادت البنت - التي كان يتعيَّر بها أشراف العرب، وجرت عـــادة وأدها في بعض القبائل فـــراراً من العار، وزهداً في البنات - حبيبةً يتنافس في تربيتها المسلمون، وكانوا سواسيةً، لا يرجع بعضُهم على بعضٍ إلا بفضلٍ، أو حقٍّ[3]، فلـمَّا أراد النَّبيُّ(ﷺ) الخروج من مكَّة، تبعتـه ابنـة حمزة تنادي يا عمّ ! يا عمّ ! فتناولها عليٌّ رضي الله عنـــه فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السَّلام: دونك ابنةَ عمِّك، فاختصم فيها عليٌّ، وزيدٌ، وجعفرٌ.

قال علي: أنا أخذتُها، وهي بنت عمِّي. وقال جعفر: هي ابنة عمِّي، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضـــى بها النَّبيّ(ﷺ) لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعليّ: «أنت منِّي، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي، وخُلُقي». وقال لزيد: «أنت أخونا، ومولانا» **[البخاري (2700) و(4251)، والترمذي (1904)]**.

وقال عليٌّ رضي الله عنه للنَّبيِّ(ﷺ) : ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال(ﷺ) : «إنَّها ابنة أخي من الرَّضاعة». **[البخاري (4251) من حديث البراء، ومسلم (1446) عن علي]**.

---

(1) انظر: هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ ، للجزائريّ ، ص 375.

(2) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص 258.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 321.

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ، وأحكامٌ، وفوائد؛ منها:

1 – الخالة بمنزلة الأمِّ.

2 – الخالة تُقدَّم على غيرها في الحضانة؛ إذا لم يوجد الأبوان.

3 – تزكية رسول الله(ﷺ) لجعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، ووصفه له بقوله: «أشبهت خلقي، وخُلقي».

4 – منقبة عليٍّ رضي الله عنه: تأمَّل قوله(ﷺ) : «أنت منِّي وأنا منك» والمعنى: أنت منِّي وأنا منك في النَّسب والصِّهر، والسَّابقة، والمحبَّة.

5 – منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرَّسول(ﷺ) : «أنت أخونا، ومولانا» لأنَّه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب، فقد اخى الرَّسول(ﷺ) بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشَّقيق من واجباتٍ، والواجب هنا أن يكون وليّاً على بنت حمزة رضي الله عنه.

6 – الخالة تُقدَّم على العمَّة في الحضانة: لقد حكم النَّبيُّ(ﷺ) لزوجة جعفر بالحضانة؛ وعمَّتها صفيَّة بنت عبد المطلب حيَّةٌ موجودةٌ.

7 – زواج المرأة لا يُسقط حقَّها في الحضانة: فقد حكم الرَّسول(ﷺ) بالحضانة لخالة بنت حمزة؛ وهي متزوِّجة من جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

8 – لابدَّ من موافقة الزَّوج على حضانة زوجته لابنة أختها؛ لأنَّ الزَّوجة محتبَسةٌ لمصلحته، ومنفعته، والحضانة قد تفوِّت هذه المصلحة جزئيّاً، فلابدَّ من استئذانه، ونلاحظ هنا أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ قد طالب بحضانة بنت عمِّه حمزة لخالتها وهي زوجةٌ له، فدلَّ على رضاه بذلك.

9 – إنَّ الطِّفل إذا رضع مع عمِّه يصبح أخاً له في الرَّضاعة، وتصبح بناتُه كلُّهن بنات أخيه من الرَّضاعة، فيحرم عليه نكاحهنَّ[1].

---

(1) انظر: زاد المعاد، وفيه تفصيل كثير (374/3، 375)، وصلح الحديبية، لأبي فارس، ص 286، 287.

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة، وإسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريشٍ، وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً، فقد حملت في مضمونها، مهمَّةً دعويَّةً عظيمةً، ولقد تأثر أهل مكَّة من هذه العمرة السِّلميَّة.

يقول اللِّواء محمود شيت خطَّاب: أثَّرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريشٍ تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار النَّدوة بمكَّة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرَّسول(ﷺ) وأصحابه، فلمَّا دخل رسول الله(ﷺ) المسجد؛ اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليُمنى، ثمَّ قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّةً» [سبق تخريجه]. ثمَّ استلم الرُّكن، وأخذ يهرول، وأصحابه معه، فلم يكد يترك الرَّسول(ﷺ) مكَّة حتَّى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكلِّ ذي عقلٍ: أنَّ محمَّداً ليس بساحرٍ، ولا شاعرٍ، وأنَّ كلامه من كلام ربِّ العالمين، فحقَّ لكلِّ ذي لُبٍّ أن يتَّبعه. وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد، فبعث في طلبه، وسأله عن صحَّة ما سمع، فأكَّد له خالدٌ صحَّته، فاندفع أبو سفيان إلى خالدٍ في غضبه، فحجزه عنه عكرمة، وكان حاضراً، وقال: مهلاً يا أبا سفيان! فو الله! خِفْتُ لِلَّذي خِفْتُ أن أقول مثل ما قال خالد، وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ راه، وهذه قريش كلُّها تبايعت عليه، والله! لقد خفت ألا يحول الحول حتَّى يتَّبعه أهل مكَّة كلُّهم. وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كلِّ بيت من قريش سراً وعلانيةً، وبهذه النتيجة الطَّيبة يمكننا القول بأنَّ عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكَّة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكَّة نفسها[1].

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «وحسبُك: أنَّ عمرة القضاء هذه قد جمعت في اثارها

---

(1) انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص 209 ، 210.

من أسباب الإقناع بالدَّعوة المحمَّدية ما أقنع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة العقل، والخُلُق مثلان متكافئان، يُحتذى بهما»[1].

1 – إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه:

ونترك عمرو بن العاص يحدِّثنا عن إسلامه؛ حيث قال: لـمَّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش؛ كانوا يرون رأيي، ويسمعون منِّي، فقلت لهم: تعلمون والله! أنِّي أرى أمر محمَّدٍ يعلو الأمور علواً منكراً، وإنِّي قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنَّجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمَّدٌ على قومنا؛ كنَّا عند النَّجاشيِّ، فإنَّا أن نكون تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يَدَيْ محمَّدٍ، وإن ظهر قومنا، فنحن مَنْ قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إنَّ هذا الرَّأي! قلت: فأجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحبَّ ما يهدى إليه من أرضنا الأدم[2]، فجمعنا له أدماً كثيراً، ثمَّ خرجنا حتَّى قدمنا عليه، فو الله إنَّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أميَّة الضَّمْرِيُّ، وكان رسول الله(ﷺ) قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه، ثمَّ خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ، لو دخلت على النَّجاشيِّ، وسألته إيَّاه، فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنِّي أجزأت عنها[3]؛ حيث قتلت رسول محمَّدٍ. قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً صديقي، أهديت إلي من بلادك شيئاً ؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك! قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثمَّ قربته إليه فأعجبه، واشتهاه، ثمَّ قلت له: أيُّها الملك! إنِّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجلٍ عدوٍّ لنا، فأعطنيه لأقتله؛ فإنَّه قد أصاب من أشرافنا، وخيارنا، قال: فغضب، ثمَّ مدَّ يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنَّه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض؛ لدخلت فيها فَرَقاً منه، ثمَّ قلت له: أيها الملك! والله! لو ظننت

---

(1) انظر: عبقرية محمَّد (ص) ، ص 69.

(2) الأدم: الجلد.

(3) أجزأت عنها: كفيتها.

أنك تكره هذا ما سـألتُكَهُ، قال: أتسـألني أن أعطيك رسـول رجل يأتيه النَّاموس الأكبر الَّذي كان يأتي موســى لِقَتْلِهِ؟! قال: قلت: أيُّها الملك! أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتَّبعه، فإنَّه والله لعلى الحقِّ، وليَظْهَـــرَنَّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإســلام؟ قال: نعم ، فبســط يده، فبايعته على الإســلام، ثمَّ خرجت إلى أصـــحابي، وقد حال رأيي عمَّا كان عليه، وكتمت على أصـــحابي إســلامي، ثمَّ خرجت عامداً إلى رسـول الله؛ لأسـلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبلٌ من مكَّة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟! قال: والله لقد استقام المَنْسِمُ[1]، وإن الرَّجل لنبيٌّ، أذهب والله! فأســلم، فحتَّى متى؟! قال: قلت: والله! ما جئت إلا لأســلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله(ﷺ) ، فتقدَّم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثمَّ دنوت، فقلت: يا رسول الله ! إنِّي أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدَّم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخَّر. قال: فقال رســول الله(ﷺ) : «يا عمرو! بايع؛ فإنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله، وإنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها» قال: فبايعته، ثمَّ انصــرفت. **[أحمد (4/198 – 199)، والبيهقي في الدلائل (4/343 – 348)، وابن هشـام (3/289 – 291)]**[2].

وفي روايةٍ قال: (... فلمَّا جعل الله الإسلام في قلبي؛ أتيت النَّبيَّ(ﷺ) فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبســط يمينه، قال: فقبضـت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفرَ لي. قال: «أما علمت: أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله؟»). **[مســلم (121)، وأحمد (4/205)، وابن خزيمة (2515)]**.

2 – إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدِّثنا عن قصَّة إسلامه، فيقول: ... لــــمَّا أراد الله بي من الخير ما

---

(1) استقام المنسم: تبين الطَّريق ، ووضح.

(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 494.

أراد؛ قذف في قلبي حُبَّ الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّدٍ، فليس موطنٌ أشهده إلاَّ أنصرف، وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ، وأنَّ محمَّداً سيظهر، فلـمَّا خرج رسول الله(ﷺ) إلى الحديبية؛ خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله(ﷺ) في أصحابه بعُسْفان، فقمت بإزائه، وتعرَّضت له، فصلَّى بأصحابه الظُّهر آمناً منا، فهمَمْنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم، فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منِّي موقعاً، وقلت: الرَّجل ممنوعٌ! وافترقنا، وعدل عن سَنن خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلـمَّا صالح قريشاً بالحديبية، ودافعته قريش بالرَّواح؛ قلت في نفسي: أيُّ شيءٍ بقي؟ أين المذهب؟ إلى النَّجاشيّ! فقد اتَّبع محمداً، وأصحابُه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانيَّةٍ، أو يهوديَّةٍ، فأقيم مع عجم تابعاً، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك؛ إذ دخل رسول الله(ﷺ) عُمرة القضيَّة، فتغيَّبتُ، فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النَّبيِّ(ﷺ) في عُمرة القضية، فطلبني، فلم يجدني، فكتب إليَّ كتاباً، فإذا فيه: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، أمَّا بعد: فإنِّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعَقْلُك عَقْلُك! ومثلُ الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله(ﷺ) عنك، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به! فقال: «ما مِثْلَهُ جَهِلَ الإسلامَ! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له، ولقدَّمناه على غيره» فاستدرك يا أخي! ما فاتك، فقد فاتتك مواطنُ صالحةٌ.

قال: فلـمَّا جاءني كتابه؛ نَشِطْتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام، وسرَّتني مقالةُ رسول الله(ﷺ) . قال خالد: وأرى في النَّوم كأني في بلادٍ ضيِّقةٍ جديبةٍ، فخرجت إلى بلدٍ أخضرَ واسعٍ، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا، فلـمَّا قدمت المدينة؛ قلت: لأذكرنَّها لأبي بكرٍ، قال: فذكرتها، فقال: هو مخرجُك الَّذي هداك الله للإسلام، والضِّيق الَّذي كنت فيه من الشِّرك، فلـمَّا أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أميَّة، فقلت: يا

أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنَّما نحن أكلَةُ رأس[1]، وقد ظهر محمَّدٌ على العرب، والعجم، فلو قدمنا على محمَّدٍ فاتَّبعناه؛ فإنَّ شرف محمَّدٍ على العرب.

فأبى أشدَّ الإباء، وقال: لو لم يبقَ غيري من قريشٍ ما اتَّبعته أبداً! فافترقنا، وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وِتْراً، قد قُتل أبوه، وأخوه ببدرٍ. فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل الَّذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطوِ ما ذكرت مَنْ قُتل من ابائه، فكرهتُ أذكِّره، ثمَّ قلت: وما عليَّ وأنِّي راحلٌ من ساعتي، فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنَّما نحن بمنزلة ثعلب في جُحرٍ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[2] من ماءٍ؛ لخرج.

قال: وقلت له نحواً ممَّا قلت لصاحبيه، فأسرع في الإجابة، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بضحٍّ مُنَاخةٌ. قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجج، إن سبقني؛ أقام، وإن سبقته؛ أقمت عليه.

قال: فادَّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتَّى التقينا بيأجج، فغدونا حتَّى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها، فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدُّخول في الإسلام، واتِّباع محمَّد(ﷺ) . قال: وذلك الَّذي أقدمني.

قال: فاصطحبنا جميعاً حتَّى قدمنا المدينة، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركابنا، فأُخبر بنا رسول الله(ﷺ) فَسُرَّ بنا، فَلبِسْتُ من صالح ثيابي، ثمَّ عمدت إلى رسول الله(ﷺ) ، فلقيني أخي، فقال: أسرع فإنَّ رسول الله(ﷺ) قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعت المشي، فطلعت عليه، فما زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفتُ عليه، فسلمت عليه بالنُّبوَّة، فرد عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ، فقلت: إنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله. فقال: «الحمد لله الَّذي هداك!

(1) أي: هم قليل ، يشبعهم رأسٌ واحدٌ ، وهو جمع اكل.
(2) الذَّنوب: الدلو العظيمة.

قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير». قلت: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقِّ، فادع الله أن يغفرها لي! فقال رسول الله(ﷺ) : «الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله». قلت: يا رسول الله! على ذلك؟ فقال: «اللَّهم! اغفر لخالدٍ كلَّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك». قال خالد: وتقدَّم عمرو، وعثمانُ، فبايعا رسول الله(ﷺ) ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ، فو الله! ما كان رسول الله(ﷺ) من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه. **[البيهقي في دلائل النبوة (4/349 – 352)]**[1].

وفي إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروسٌ، ولطائف، وعبرٌ، منها:

أ – غضبة النَّجاشيِّ تدلُّ على صدق إيمانه، وحبِّه لرسول الله(ﷺ) ، وحبُّه للمسلمين، وصِدْق النَّجاشيِّ كان له أثرٌ في إيمان عمرو بن العاص، ودخوله في الإسلام، وبذلك نال النَّجاشيُّ أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[2].

ب – كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام، والمسلمين، فلقد سخَّر عقله الكبير، ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارةً كبيرةً؛ لأنَّهم كانوا يُعِدُّونه لعظائم الأمور؛ الَّتي تحتاج إلى دهاءٍ، ومقدرةٍ على التأثير، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بعدائهم مع المسلمين[3].

ج – أدرك خالد بن الوليد: أنَّ العاقبة لرسول الله(ﷺ) ، وتأمَّل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّد، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف؛ وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ، وأن محمَّداً سيظهر[4]. وفي هذا عبرةٌ لكلِّ الَّذين يحاربون الإسلام[5].

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (4/239 ، 240) ، والتَّاريخ الإسلامي (7/95).
(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي (7/90).
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص 263.
(5) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (7/95).

د - الاهتمام بالبشـر طريقٌ من طرق التأثير عليهم، وكسـبهم إلى الصَّـفِّ المؤمن، ولذلك قال رســول الله(ﷺ) للوليد بن الوليد: «ما مِثْل خالدٍ يجهل الإســلام، ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له، ولقدَّمناه على غيره»[1]. فكان لهذه الكلمات البليغة أعظمُ الأثر في تحوُّل قلب خالدٍ، وتوجُّهه نحو الإسـلام، وقد كان رسـول الله(ﷺ) عليماً في مخاطبة النُّفوس، والتَّأثير عليها، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة، والزَّعامة، فوعد بتمكينه من ذلك، وتقديمه على غيره في هذا المضـمار، ومدح(ﷺ) سـداد رأيه، ورجاحة عقله، ونُضْـجَ فكره، فانتزع(ﷺ) بهذه الكلمات كلَّ الجوانب الَّتي تجعل خالداً يظلُّ على الشِّـرك الَّذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادةٍ وتصدُّرٍ، فلمَّا كان ما هيَّأه له المشركون سيحصل له؛ إذا دخل في الإسـلام، واطمأنَّ بأنَّه لو أسلم؛ لن يكون في اخر القائمة، ولن يكون مهملاً، شــجَّعه ذلك على التغلُّب على وســاوس إبليس، ورجَّح ما اطمأنت إليه نفســه من الميل إلى الإسلام، فعزم على الدُّخول فيه.

لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوَّةً للإسلام، وضعفاً للشِّرك، وكتب الله على أيديهما صـفحاتٍ مشـرقةً من تاريخ المسـلمين الجهاديِّ أصـبحت باقيةً في ذاكرة الأمَّة، وتاريخها المجيد على مرِّ الدُّهور، وكرِّ العصور، وتوالي الأزمان[2].

* * *

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (95/7).

(2) المصدر السابق نفسه ، (96/7).

المبحث الرابع

سريَّة مؤتة (8 هـ)[1]

أولاً: أسبابها، وتاريخها:

أشـعل عرب الشَّـام فتيل الصِّـراع بين المسـلمين والبيزنطيّين، فقد دأبت قبيلة كلب من قُضاعة؛ الَّتي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصاديِّ عن طريق إيذائها للتُّجار الَّذين كانوا يحملون السِّلع الضَّرورية من الشَّام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول الله(ﷺ) قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (5 هـ)، لكنَّه وجدهم قد تفرَّقوا، كما أنَّ رجالاً من جُذام، ولخْم قطعوا الطَّريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحِسْـمَى بعد إنجازه لمهمَّةٍ أناطها به رسـول الله(ﷺ) واسـتلبوا كلَّ ما معه، فكانت سَريَّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في سنة (6 هـ)، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتا مذحج، وقُضاعة من اعتداءٍ على زيد بن حارثة، وصحبه في العام المذكور (6 هـ)، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثةٍ بغرض الدَّعوة إلى الله.

وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسـلك العدوانيُّ يأخذ منحنىً أكثر خطورةً[2]، بعد مقتل الحارث بن عُميرٍ الأزدي رسول رسول الله(ﷺ) إلى حاكم (بُصرى) التَّابع لحاكم الرُّوم، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغسَّاني بضرب عنق رسولِ رسولِ الله، ولم تجر العادة بقتل الرُّسل والسُّفراء، كما أنَّ الحارث بن أبي شمر الغسَّاني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله، وهدَّد بإعلان الحرب على المدينة.

ثمَّ حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري؛ ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات أطلاح)، فلم يستجب أهل المنطقة إلى

---

(1) ينظر الشكل (16) في الصفحة (760).

(2) انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة، لعبد الرحمن أحمد سالم، ص 87.

الإســـلام، وأحاطوا بالدُّعاة من كلِّ مكانٍ، وقاتلوهم حتَّى قتلوهم جميعاً، إلا أميرهم كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة، فأخبر رسول الله(ﷺ) [1] .

وقد قام نصارى الشَّام بزعامة الإمبراطورية الرومانيَّة بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام، أو يفكِّر في ذلك، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أســلم، وقتل والي الشَّــام من أســلم من عرب الشَّام[2].

كانت هذه الأحداث المؤلمة – وبخاصَّــةٍ مقتل ســفير رســول الله(ﷺ) الحارث بن عُمير الأزدي – محركةً لنفوس المسلمين، وباعثاً لهم ليضعوا حدّاً لهذه التصرُّفات النَّصرانيَّة العدوانيَّة، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة، الذين سُـفِكَت دماؤهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ونبيُّنا محمَّد رسـول الله[3]، كما أنَّ تأديب عرب الشـام التابعين للدَّولة الرُّومانيَّة، والَّذين دأبوا على اسـتفزاز المسـلمين، وتحدِّيهم، وارتكاب الجرائم ضـدَّ دعاتهم أصـبح هدفاً مهمّاً؛ لأنَّ تحقيق هذا الهدف معناه: فرض هيبة الدَّولة الإســـلاميَّة في تلك المناطق، بحيث لا تتكرَّر مثل هذه الجرائم في المســتقبل، وبحيث يأمن الدُّعاة المســلمون على أنفســهم، ويأمن التُّجار المتردِّدون بين الشَّــام والمدينة من كلِّ أذىً يحول دون وصول السِّلع الضَّرورية إلى المدينة[4].

وفي سنة (8 هــ) أمر رسول الله(ﷺ) المسلمين بالتَّجهُّز للقتال، فاستجابوا للأمر النَّبويِّ، وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السَّريَّة ثلاثة الاف مقاتل، واختار النَّبيُّ(ﷺ) للقيادة ثلاثة أمراء على التَّوالي: زيد بن حارثة، ثمَّ جعفر بن أبي طالب، ثمَّ عبد الله بن رواحة[5]، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب

---

(1) انظر: تاريخ الطَّبري (103/3) ، والإصابة ، لابن حجر ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد (ص) ، لمحمد رضا (ما قبل سرية مؤتة من الحوادث).

(2) انظر: خاتم النَّبيِّين (ص) (1139/2) نقلاً عن الصِّراع مع الصَّليبيين ، لأبي فارس ، ص 20.

(3) انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص 20.

(4) انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، ص 89.

(5) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 20.

رضي الله عنهما قال: أمَّر رسول الله(ﷺ) في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله(ﷺ) : إن قُتل زيدٌ؛ فجعفرٌ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة. [البخاري (4261)].

وقد أمر رسول الله(ﷺ) الجيش الإسلاميَّ أن يأتوا المكان الَّذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزديُّ رضي الله عنه، وأن يَدْعوا من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا؛ فبها، ونعمت، وإن أبوا؛ استعينوا بالله عليهم، وقاتلوهم[1]. وقد زوَّد الرَّسول(ﷺ) الجيش في هذه السَّريَّة، وغيرها من السَّرايا بوصايا تتضمَّن اداب القتال في الإسلام[2]، فقد أوصى رسول الله(ﷺ) أصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزو باسم الله في سبيل الله مَنْ كفر بالله، لا تغدِروا ، ولا تقتُلوا وليداً، ولا امرأةً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعةٍ، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإمَّا الإسلام، وإمَّا الجزية، وإمَّا الحرب»[3].

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي:

لـمَّا تجهز الجيش الإسلاميُّ، وأتمَّ استعداده؛ توجَّه رسول الله(ﷺ) والمسلمون يودِّعون الجيش، ويرفعون أكفَّ الضَّراعة لله - عزَّ وجلَّ - أن ينصر إخوانهم المجاهدين، لقد سلَّموا عليهم، وودَّعوهم بهذا الدُّعاء: دفع الله عنكم، وردَّكم صالحين غانمين[4]! ولما ودَّع النَّاس عبد الله بن رواحة، وسلَّموا عليه، بكى، وانهمرت الدُّموع من عينيه ساخنةً غزيرةً، فتعجَّب النَّاس من ذلك، وقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟! فقال: والله ما بي حبُّ الدُّنيا، ولا صَبَابَةٌ بكم، ولكنِّي سمعت رسول الله(ﷺ) يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النَّار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم: 71]، فلست أدري كيف بي بالصَّدرِ بعد الوُرود؟! فقال لهم

---

(1) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (787/2).

(2) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 21.

(3) انظر: المغازي (757/2. 758).

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (21/4).

المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين! فقال عبد الله بن رواحة:

لَكنَّني أَسْـــأَلُ الرَّحْمنَ مَغْفِرَةً وَضْرَبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَـةً بِيَـدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَـاءَ والْكَبِدَا
حَـتَّى يُـقَـالَ إِذَا مَرُّوا عَـلَى أَرْشَدَهُ الله مِنْ غازٍ وَقَدْ رَشَدَا

[ابن هشام (15/4 – 16)، والبيهقي في الدلائل (359/4)].

وودَّع رسولُ الله(ﷺ) عبد الله بن رواحة، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله(ﷺ) :

يُثْبِتُ الله ما اتاكَ مِنْ حَسَـنٍ تَثْبِيْتَ مُوْسَى وَنَصْراً كالَّذِي نُصِرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْــتُ فِيْكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً فِرَاسَـــةً خَـالَفْتُهُم فِي الَّذي نَظَرُوا
أَنْتَ الرَّسُـولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ والوَجْهُ مِنْهُ فَقَـدْ أَزْرَى بِـهِ القَـدَرُ

[البيهقي في الدلائل (359/4 – 360)، وابن هشام (16/4)][1].

ثالثاً: الجيش يصل إلى مَعَان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لما وصـل الجيش الإسـلاميُّ إلى مَعَان من أرض الشَّـام – وهي الان محافظةٌ من محافظات الأردن – بلغه: أنَّ النَّصارى الصَّليبيّين مِنْ عربٍ، وعجمٍ قد حشدوا حشوداً ضخمةً لقتالهم؛ إذ حشدت القبائل العربيَّة مئة ألف

صليبي من لَـخْمٍ، وجُذَام وبَهرَاء وبَلِيٍّ، وعيَّنت لهم قائداً، هو مالك بن رافلة، وحشد هرقل مئة ألف نصـرانيٍّ صـليبيٍّ من الرُّوم، فبلغ جيشـهم مئتي ألف مقاتلٍ، مزوَّدين بالسِّـلاح الكافي، يرفلون في الدِّيباج لينبهر المسلمون بهم، وبقوَّتهم[2]، ولقد قام المسلمون في مَعَان يومين يتشاورون في التَّصـدِّي لهذا الحشـد الضَّـخم، فقال بعضـهم: نرسـل إلى رسـول الله(ﷺ) في المدينة نخبره بحشـود العدوِّ، فإن شـاء أمدَّنا بالمدد، وإن شـاء أمرنا بالقتال[3]، وقال بعضُـهم لزيد بن حارثة

---

(1) انظر: مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، ص 204 . 205.
(2) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (271/2).
(3) انظر: زاد المعاد (382/3).

قائد الجيش: وقد وطئت البلاد، وأخفت أهلها، فانصــــرف، فإنَّه لا يعدل العافية شـــيءٌ[1]، ولكن عبد الله بن رواحة حســــم الموقف بقوله: يا قوم! والله إنَّ الذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون الشَّـــهادة! وما نقاتل النَّاس بعددٍ، ولا قوَّةٍ، ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإنَّما هي إحدى الحسـنيين: إمَّا ظهورٌ، وإمَّا شـــهادةٌ! فألهبت كلماتُه مشـاعر المجاهدين، واندفع زيد بن حارثة بالنَّاس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسـير حيث اثر الاصـــطدام بالرُّوم هناك، فكانت ملحمةٌ ســـجَّل فيها القادة الثلاثة بطولةً عظيمةً انتهت باستشـهادهم[2]، فقد استبسـل زيد بن حارثة رضـي الله عنه، وتوغَّل في صـفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله(ﷺ) حتَّى شاط (أي: سال دمه) في رماح القوم. **[الطبراني في الكبير (4655)، وابن هشام (19/4)، ومجمع الزوائد (159/6)]**.

ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر، وانبرى يتصـدَّى لجموع المشـركين الصَّـليبيِّين، فكثَّفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السِّـوار بالمعصـم، فلم تلن له قناةٌ، ولم تهن له عزيمةٌ؛ بل اسـتمرَّ في القتال وزيادةً في الإقدام نزل عن فرسه، وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حَبَّـذا الجَنَّـةُ واقْـتِرَابُهَـا   طَـيِّـبَـةً وَبَارِداً شَـــرَابُهَـا
والرُّومُ رُوْمٌ قَـدْ دَنَا عَـذَابُهَـا   كَـافِرَةٌ بَعِيْـدَةٌ أَنْسَـــابُهَـا
عَلَيَّ إذ لاقَيْتُهَـا ضِـــرَابُهَـا

[انظر تخريج الحديث السابق].

لقد أخذ رضـي الله عنه اللِّواء بيده اليمنى، فقطعت، فأخذه بشـماله، فقطعت، فاحتضـنه بعضـديه، وانحنى عليه حتَّى اسـتُشْـهِد وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سـنةً، ولقد أُثْخِنَ رضـي الله عنه بالجراح؛ إذ بلغ عدد جراحه تسـعين بين طعنةٍ برمحٍ، أو ضـربةٍ بسـيفٍ، أو رميةٍ بسـهمٍ، وليس

(1) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (396/1).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (468/2).

من بينهما جرح في ظهره، بل كلُّها في صدره[1].

روى الإمام البُخاريُّ – رحمه الله – في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ، أو رميةٍ. **[البخاري (4261)، والبيهقي في الدلائل (361/4)].**

ولقد عوَّض الله – تبارك وتعالى – جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأكرمه على شجاعته، وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنَّة حيث يشاء، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عامرٍ؛ قال: كان ابن عمر إذا حَيّا ابن جعفر؛ قال: السَّلام عليك يا بن ذي الجناحين. **[البخاري (4264)، والبيهقي في الدلائل (372/4)].**

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تسلَّم الرَّاية عبد الله بن رواحة الأنصاريُّ رضي الله عنه وامتطى جواده، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إِنْ أَجْلَبَ[2] النَّاسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ[3] ... مَالِيْ أَرَاكِ تَكْرَهِيْنَ الْجَنَّهْ
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إِلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ
يَا نَفْسُ إِلا تُقْتَلِيْ تَمُوْتِي ... هَذا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ
ومَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيْتِ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

[البيهقي في الدلائل (363/4 – 364)، وابن هشام (21/4)، والهيثمي في مجمع الزوائد (159/6)].

ويُذكر: أنَّ ابن عمٍّ لعبد الله بن رواحة قد قدَّم له قطعةً من لحمٍ، وقال له: شدَّ بهذا صُلبك، فإنَّك لقيت في أيَّامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثمَّ انتهش منه نهشةً، ثمَّ سمع جلبةً،

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين، ص 58.
(2) إن أجْلبَ القوم: صاحوا، واجتمعوا
(3) الرَّنة: صوت ترجيع شبه البكاء.

وزخاماً في جبهة القتال، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدُّنيا! ثمَّ ألقى قطعة اللَّحم من يده، وتقدَّم يقاتل العدو حتَّى استُشْهِد رضي الله عنه وكان ذلك في اخر النَّهار[1].

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولـمَّا استُشْهِد عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه، وسقطت الرَّاية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة

بن عديّ بن العجلان البلويُّ الأنصاريُّ وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجلٍ منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل! فاصطلح النَّاس على خالد بن الوليد[2]، وجاء في (إمتاع الأسماع): أنَّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد، فقال: خذ اللِّواء يا أبا سليمان! فقال: لا اخذه، أنت أحقُّ به، أنت رجلٌ لك سنٌّ، فقد شهدت بدراً، فقال ثابت: خذه أيُّها الرَّجل، فو الله ما أخذته إلا لك!

فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه[3]، وأصبحت الخطَّة الأساسيَّة المنوطة بخالدٍ في تلك السَّاعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعيّ، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة تقديراً دقيقاً، ودرس ظروف المعركة دراسةً وافيةً، وتوقَّع نتائجها اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقلّ خسارةٍ ممكنةٍ هو الحلُّ الأفضل، فقوَّة العدوِّ تبلغ (66) ضعفاً لقوة المسلمين، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظَّم، وعلى هذا الأساس وضع خالدٌ الخطَّة التالية:

أ - الحؤول بين جيش الرُّوم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب - لبلوغ هذا الهدف لابدَّ من تضليل العدوِّ بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين، ص 61.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (27/4).

(3) انظر: إمتاع الأسماع (348/1. 349).

المسلمين، فيخفِّف من ضغطه، وهجماته، ويتمكَّن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالدٌ حتَّى المساء عملاً بهذه الخطَّة، وغيَّر في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدِّمة القلب بالمؤخِّرة، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجَّة صاخبةً، وجلبةً قويَّةً، ثمَّ حمل على العدوِّ، عند الفجر، بهجماتٍ سريعةٍ متتالية، وقويَّة؛ ليُدخل في رُوعِهِ: أنَّ إمدادات كثيرةً وصلت إلى المسلمين[1].

ونجحت الخطَّة؛ إذ بدا للعدوِّ صباحاً: أنَّ الوجوه والرَّايات الَّتي تواجهه جديدةٌ لم يرها من قبل، وأنَّ المسلمين يقومون بهجماتٍ عنيفةٍ، فأيقن: أنَّهم تلقَّوا إمدادات، وأنَّ جيشاً جديداً نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الَّذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الرُّوم، وحلفائهم، فأدركوا أنَّ إحراز نصرٍ حاسمٍ ونهائيٍّ على المسلمين أمرٌ مستحيلٌ، فتخاذلوا، وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخفَّ الضَّغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالدٌ الفرصة، فباشر الانسحاب، وكانت عملية التَّراجع الَّتي قام بها خالدٌ في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليَّات في التاريخ العسكريِّ مهارةً ونجاحاً، بل إنَّها تتَّفق وتتلاءم مع التَّكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولـمَّا أصبح الجناحان بمنئ عن العدوِّ وفي مأمنٍ عنه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكَّن، وضمن سلامة الانسحاب كُلِّيّاً[2]، ويقول المؤرِّخون: إنَّ خسارة المسلمين لم تتعدَّ الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة، وإنَّ خالداً قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيَّة». **[البخاري (4265)، والبيهقي في الدلائل (373/4)]**.

ويمكن القول بأنَّ خالداً بخطَّته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ، وقتلٍ محقَّقٍ، وأنَّ انسحابه كان قمَّة النَّصر بالنِّسبة لظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في

---

(1) البداية والنِّهاية (247/4) ، والواقدي (764/2).

(2) انظر: معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، ص 173.

ظروفٍ مماثلةٍ أصعب حركات القتال، بل أجداها، وأنفعها[1].

خامساً: معجزةُ الرَّسول(ﷺ) ، وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزةٌ للرَّسول(ﷺ) في أمر هذه السَّريَّة، فقد نعى إلى المسلمين في المدينة زيداً، وجعفراً، وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله(ﷺ) لما وقع للسَّريَّة، وذرفت عيناه الدُّموع، ثمَّ أخبرهم بتسلُّم خالدٍ للرَّاية، وبشَّرهم بالفتح على يديه، وأسماه: سيفَ الله[2]، وبعد ذلك قدِم من أخبرهم بأخبار السَّريَّة، ولم يزد عمَّا أخبرهم به النَّبيُّ(ﷺ) [3] .

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقَّاهم رسول الله(ﷺ) ، والمسلمون، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون، ورسولُ الله(ﷺ) مقبلٌ مع القوم على دابةٍ، فقال: خذوا الصِّبيان، واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأتي بعبد الله، فأخذه، فحمله على يديه، وجعل النَّاس يحثون على الجيش التُّراب، ويقولون: يا فُرَّار! أفررتم من سبيل الله! ويقول رسول الله(ﷺ) : «ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى». **[البيهقي في الدلائل (374/4)، وابن هشام (24/4)]**[4].

وإنَّ الإنسان ليعجب من هذه التَّربية النَّبويَّة الَّتي صنعت من الأطفال الصِّغار، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادةٍ في سبيل الله فراراً من سبيل الله، لا يكافَؤُون عليه إلا بحثوِ التُّراب في وجوههم، فأين شبابنا المتسكِّعون في الشَّوارع، من هذه النماذج الرَّفيعة من الرجولة الفذَّة المبكِّرة؟! ولن تستطيع الأمَّة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النَّبيلة، والقِمم الشَّوامخ إلا بالتَّربية الإسلاميَّة الجادَّة القائمة على المنهاج النَّبويِّ الكريم[5].

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 175.

(2) انظر: نضرة النَّعيم (360/1).

(3) انظر: البداية والنِّهاية (255/4).

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 328 ، وتاريخ الذهبي ، ص 491 ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.

(5) انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص 358.

سادساً: دروس، وعبر، وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروسٌ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

1 - أهمِّيَّة هذه المعركة:

تُعَدُّ هذه المعركة من أهمِّ المعارك الَّتي وقعت بين المسلمين والنَّصارى الصَّليبيّين من عربٍ، وعجمٍ؛ لأنَّها أوَّل صدامٍ مسلَّحٍ ذي بالٍ بين الفريقين، وأثَّرت تلك المعركة على مستقبل الدَّولة الرُّومانيَّة، فقد كانت مقدمةً لفتح بلاد الشَّام، وتحريرها من الرُّومان، ونستطيع أن نقول: إنَّ تلك الغزوة هي خطوةٌ عمليَّةٌ قام بها النَّبيُّ(ﷺ) للقضاء على دولة الرُّوم المتجبِّرة في بلاد الشَّام، فقد هزَّ هيبتها في قلوب العرب، وأعطت فكرة عن الرُّوح المعنويَّة العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الرُّوح المعنوية في القتال عند الجنديِّ الصَّليبيِّ النَّصرانيّ[1]، وأعطت فرصةً للمسلمين للتَّعرُّف على حقيقة قوات الرُّوم، ومعرفة أساليبهم في القتال.

2 - حبُّ الشَّهادة باعثٌ للتَّضحية:

إنَّ الصَّبر، والثَّبات، والتَّضحية الَّتي تجلَّت من كلِّ واحدٍ من الأمراء الثَّلاثة، وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين، والرَّغبة في نيل الشَّهادة؛ لكي يكرمهم الله برفقة النَّبيّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين، ويدخلوا جنَّات الله الواسعة، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

3 - تميُّز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة الَّتي جاء خبرها من السَّماء؛ إذ نعى النَّبيُّ(ﷺ) استشهاد الأبطال الثَّلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل وأخبر النَّبيُّ(ﷺ) عن أحداثها، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنَّها الوقعة الوحيدة الَّتي اختار النَّبيُّ(ﷺ) لها ثلاثة أمراء على التَّرتيب هم: زيد بن حارثة، وجعفر بن

(1) انظر: الصِّراع مع الصليبيّين، ص 64.

أبي طالبٍ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم[1].

4 – إكرام النَّبيِّ(ﷺ) لآل جعفر:

لـــــمَّا أصـيب جعفر دخل رســول الله(ﷺ) على أسماء بنت عُمَيْسٍ فقال: «ائتني ببني جعفرٍ»، فـأتت بهم، فشـــمَّهم، وقبَّلهم، وذرفت عيناه، فقـالـت أسماء: أبلغك عن جعفر، وأصحابه شـيءٌ؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم!» فجعلت تصيح، وتولول، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «لا تغفُلوا عن ال جعفر أن تصـــنعوا لهم طعاماً، فإنَّهم قد شُـــغلوا بأمر صـــاحبهم». [أحمد (380/6)، وابن ماجه (1611)، ومجمع الزوائد (161/6)، والبيهقي في الدلائل (370/4)، وابن هشـــام (22/4)]، ونلحظ في هذا الخبر عدَّة أمورٍ؛ منها:

أ – جواز بكاء المرأة على زوجها المُتَوَفَّى:

أُخِذ هذا مِنْ فعل أسماء بنت عُمَيْسٍ رضـــي الله عنها حينما نعى النَّبيُّ(ﷺ) زوجها، ومن معه، فبكت، وصـــاحت، فلم ينكر عليها النَّبيُّ(ﷺ) ، ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعاً؛ لنهاها عن ذلك، والبكاء الَّذي نهى عنه الإســـلام هو ما كان ســـائداً عند أهل الجاهليَّة من النُّواح، واللَّطم، وشقِّ الجيوب، والتَّبرُّم بقضاء الله، وقدَرِه، وما إلى ذلك ممَّا يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

ب – استحباب صنع الطَّعام لأهل الميت:

وقد ندب الرَّسول(ﷺ) النَّاس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر، وهذا فيه مواساةٌ لأهل المتَوَفَّى، وتخفيفُ مُصـــابهم، وفي الوقت نفســـه تكافلٌ بينهم، وهذه السُّـــنَّة خالفتها بعض الشُّـــعوب الإســـلاميَّة، وأصـــبح أهل الميت يصـــنعون الطَّعام للقادمين، وهذا أمر قبيحٌ ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون[2].

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 66.

(2) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيّين ، ص 68.

هذا وقد نهى رسـولُ الله(ﷺ) عن البكاء بعد ثلاثٍ، فقد دخل على أسماء، وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعو لي بني أخي»، فجيء بهم كأنَّهم أَفْرُخ فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسـهم [أحمد (204/1)، وأبو داود (4192)، والنسائي (182/8)]، ثمَّ قال: أمَّا محمَّد فشـبيه عمِّنا أبي طالب، وأما عبد الله فشـبيه خَلْقِي، وخُلُقِي، ثمَّ أخذ بيمين عبد الله، وقال: «اللَّهُمَّ! اخلُف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صـفقة يمينه» قالها ثلاثاً[1]. ولـمَّا ذَكَرَتْ له أمُّهم يُتْمَهم، وضعفهم؛ قال لها: «العَيْلَةَ تخافين عليهم؛ وأنا وليُّهم في الدُّنيا والآخرة؟!» [أحمد (204/1)][2].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ خطَّه رسـولُ الله(ﷺ) لرعاية، وتكريم أبناء الشُّـهداء؛ لكي تسـير الأمَّة على نهجه الميمون[3].

ج - زواج أبي بكرٍ الصِّدِّيق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضـــت عدَّة أسماء بنتِ عُمَيْسٍ، خطبها أبو بكر الصِّـــدِّيق رضـــي الله عنه، فتزوَّجها، وولدت له محمَّد بن أبي بكرٍ، وبعدما توفي الصِّـدِّيق تزوَّجها بعده عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وولدت له أولاداً رضي الله عنه، وعنهم أجمعين[4].

وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ أسماء بنتَ عُمَيْسٍ رَثَتْ زوجها جعفر بن أبي طالب بقصـيدةٍ تقول فيها:

فَآلَيْتُ لاَ تَنْفَكُّ نَفْسِي حَزِيْنَةً ... عَلَيْكَ وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِي أَغْبَرَا

فَلِلَّـهِ عَيْنـا مَنْ رأَى مِثْلَـهُ فَتَىً ... أَكَرَّ وأَحْمَرَ فِي الهِيَاجِ وأَصْبَرَا[5]

(1) انظر: البداية والنِّهاية (252/4).
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (430/2).
(4) انظر: البداية والنِّهاية (353/4).
(5) المصدر السابق نفسه.

5 – مِنْ فقه القيادة:

إنَّه درسٌ عظيمٌ يقدِّمه لنا الصَّـــحابيُّ الجليل ثابت بنُ أقرم العجلانيُّ عندما أخذ اللِّواء بعد استشـــهاد عبد الله بن رواحة رضـــي الله عنه اخرِ الأمراء، وذلك أداءً منه للواجب؛ لأنَّ وقوع الرَّاية معناه: هزيمةُ الجيش، ثمَّ نادى المســـلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعلٍ، فاصطلح النَّاس على خالدٍ.

وفي روايةٍ: أنَّ ثابتاً مشـــى باللِّواء إلى خالدٍ، فقال خالدٌ: لا اخذه منك، أنت أحقُّ به، فقال: والله! ما أخذته إلا لك.

إنَّ مضـــمون كلتا الرِّوايتين واحدٌ، وهو أنَّ ثابتاً جمع المســـلمين أوَّلاً، وأعطى القوس باريها، فأعطى الرَّاية أبا ســـليمان خالد بن الوليد[1]، ولم يقبل قول المســـلمين: أنت أميرنا؛ ذلك: أنَّه يرى فيهم مَنْ هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولَّى العمل مَنْ ليس له بأهلٍ، فإنَّ الفســـاد متوقَّعٌ، والعمل حينما يكون للهِ تعالى، لا يكون فيه أثرٌ لحبِّ الشُّهرة، أو حظِّ النَّفس.

إنَّ ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسـلمين – وهو ممَّن حضـر بدراً – ولكنَّه رأى من الظُّلم أن يتولَّى عملاً وفي المســـلمين من هو أجدر به منه، حتَّى ولو لم يمضِ على إســـلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأنَّ الغاية هي السَّعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن، والطريقة المثْلَى[2].

إنَّ كثيراً ممَّن يتزعَّمون قيادة الدَّعوة الإسلاميَّة اليوم يضعون العراقيل أمام الطَّاقات الجديدة، والقُدرات الفذَّة، خوفاً على مكانتهم القياديَّة، وامتيازاتهم الشَّخصية، وأطماعهم الدُّنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدَّرس البليغ لمن كان له قلب، أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

6 – درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالكٍ الأشـجعيُّ رضـي الله عنه: خرجت مع مَنْ خرج مع زيد بن حارثة في

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (124/7).

(2) انظر: من معين السيرة، للشَّامي، ص 376.

غزوة مؤتة، ورافقني مَدَدِيٌّ من اليمن[1].... ومضـــينا، فلقينا جموع الرُّوم، فيهم رجلٌ على فرسٍ له أشـقر، عليه سـرجٌ مذهَّب، وله سـلاحٌ مذهَّب، فجعل الرُّومي يضـرب المسـلمين، فقعد له المِدَدِيُّ خلف صـخرةٍ، فمرَّ به الرُّومي فعرقب فرسـه بسـيفه، وفر الرُّومي، فعلاه بسـيفه، فقتله، وحاز فرسـه، وسـلاحه، فلـــمَّا فتح الله للمسـلمين؛ بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السَّلب، قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت: أنَّ رسـول الله(ﷺ) قضـى بالسَّـلب للقاتل؟ قال: بلى! ولكني اسـتكثرتُه، قلت: لتردَّنها إليه، أو لأعرفنكها عند رسـول الله(ﷺ) ، فأبى أن يردَّ عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسـول الله، فقصـصـت عليه قصَّـة المدديّ وما فعل خالدٌ، فقال رسـول الله(ﷺ) : «يا خالد! ما حملك على ما صـنعت؟» قال: اسـتكثرته، فقال: «ردَّ عليه الَّذي أخذتَ منه».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد! ألم أوف لك؟ فقال رسـول الله(ﷺ) : «وما ذلك؟» فأخبرتُه، قال: فغضـــب رســـول الله(ﷺ) ، وقال: «يا خالد لا تردَّ عليه، هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟ لكم صَـــفْوَةُ أمرهم، وعليهم كَدَرُه». **[أحمد (27/6)، ومســـلم (1753)، وأبو داود (2719 و2720)].**

هذا موقفٌ عظيمٌ من النَّبيِّ(ﷺ) في حماية القادة، والأمراء من أن يتعرَّضـوا للإهانة بسـبب الأخطاء الَّتي قد تقع منهم، فهم بشر معرَّضون للخطأ، فينبغي السَّعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّصٍ، ولا إهانةٍ، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه، وإنَّما اجتهد، فغلَّب جانب المصلحة العامَّة؛ حيث استكثر ذلك السَّلَب على فردٍ واحد، ورأى: أنَّه إذا دخل في الغنيمة العامَّة؛ نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالكٍ أدَّى مهمَّته في الإنكار على خالدٍ، ثمَّ رفع الأمر إلى رســـول الله(ﷺ) حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون

(1) مدَديٌّ أي: جاء مدداً ، وفي رواية: رجل من حمير.

مهمَّته قد انتهت بذلك؛ لأنَّه – والحال هذه – قد دخل في أمرٍ من أوامر الإصـــلاح، وقد تمَّ الإصلاح على يده، ولكنَّه تجاوز هذه المهمَّة حيث حوَّل القضيَّة من قضيةٍ إصلاحيَّةٍ إلى قضيَّةٍ شـخصـيَّةٍ، فأظهر شـيئاً من التَّشـفِّي من خالدٍ، ولم يقرَّه النَّبيُّ(ﷺ) على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً، وبيَّن حقَّ الولاة على جنودهم، وكون النَّبيِّ(ﷺ) أمر خالداً بعدم ردِّ السَّلب على صـاحبه لا يعني أنَّ حقَّ ذلك المجاهد قد ضـاع؛ لأنَّه لا يمكن أن يأخذ رسـول الله(ﷺ) إنسـاناً بجريرة غيره، فلابدَّ: أنَّ ذلك المجاهد قد حصـل منه الرِّضـا، إمَّا بتعويضٍ عن ذلك السَّـلَب، أو بتنازلٍ منه، أو غير ذلك فيما لم يُذكر تفصيلُه في الخبر[1].

إنَّ الأمَّة الَّتي لا تقدِّر رجالها، ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظامٌ، إنَّ التَّربية النَّبويَّة استطاعت بناء هذه الأمَّة بناءً سليماً، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسانٍ في مكانه، وأن يُحترم، ويُقدَّر بمقدار ما يقدِّم لهذا الدِّين! ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العامِّ الَّذي وصف الله به المؤمنين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ **[المائدة: 54]**.

وفي قوله(ﷺ) : «هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟!» وسـامٌ اخرُ يُضـاف إلى خالدٍ رضـي الله عنه، حيث عُدَّ من أمراء الرَّسول(ﷺ) ، وهذا من المنهاج النَّبويِّ الكريم في تقدير الرِّجال[2].

7 – مقاييس الإيمان، وأثرها في المعارك:

توقَّف الجيشُ الإســـلاميُّ في مَعَان يناقش كثرة جيش العدوِّ، وكانت المقاييس المادِّيَّة لا تشـجعهم على خوض المعركة، ومع ذلك تابعوا طريقهم، ودخلوا بمقاييس إيمانيَّة، فهم قد خرجوا يطلبون الشَّهادة، فلماذا إذاً يفرُّون ممَّا خرجوا لطلبه؟!

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (130/7).

(2) انظر: من معين السيرة ، ص 378

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رَحْلِهِ، فوالله: إنَّه ليسير ليلةً؛ إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وَجَاءَ المسْلِمُونَ وَغَادَرُونِيْ بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى الثَّوَاءِ

فلـــــمَّا سمعتُها منه بَكَيْتُ، قال: فخفقني بالدِّرَّةِ، وقال: وما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشَّهادة، وترجعَ بين شُعْبَتَي الرَّحل![1].

إنَّ التأمُّل بعمقٍ في غزوة مؤتة يســـاعدنا في معالجة الهزيمة النَّفســـيَّة والرُّوحيَّة؛ الَّتي تمرُّ بها الأمَّة، وإقامة الحجَّة على القائلين بأنَّ ســـبب هزيمتنا التفوُّق التِّكنولوجي لدى الأعداء، لقد سـجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة، وقال: «.... هذا عظيمٌ جدّاً أن يتقاتل جيشـان متعاديان في الدِّين؛ أحدُهما، وهو الفئة الَّتي تقاتل في سـبيل الله، عدَّتها ثلاثةُ الافٍ، وأخرى كافرةٌ وعدَّتها مئتا ألف مقاتلٍ، من الرَّوم مئة ألف، ومن نصـارى العرب مئة ألفٍ، يتبارزون، ويتصـاولون، ثمَّ مع هذا كله لا يقتل من المسـلمين إلاَّ اثنا عشـر رجلاً، وقد قتل من المشـركين خلقٌ كثيرٌ، هذا خالدٌ وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ، فما بقي في يدي إلا صـفيحةٌ يمانيةٌ، فيا ترى كم قتل بهذه الأسياف كلِّها؟! دع غيره من الأبطال والشُّجعان من حملة القرآن، وقد تحكَّموا في عبدة الصُّلبان عليهم لعائن الله في ذلك الزَّمان، وفي كلِّ أوان»[2].

8 – من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

فِيْ لَيْلَـةٍ ورَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُهَـا طَوْراً أحِـنُّ[3] وتَارَةً أَتَمَلْمَـلُ[4]
واعْتَادَنِي حُزنٌ فَبِتُّ كأَنَّـــــنِي بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسِّـــمَاكِ مُوَكَّلُ[5]

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (24/4، 25).
(2) انظر: البداية والنِّهاية (259/4).
(3) أحنُّ: من الحنين، وفي رواية: أخنُّ: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
(4) أتململ: أتقلب متبرماً بمضجعي.
(5) يريد: أنَّه بات يرعى النُّجوم طول ليله من طول السُّهاد.

وكأنَّمَا بَيْنَ الجَوَانِحِ والحَشَـــى مِمَّا تأوَّبَنِي شِـــهَابٌ مُـدْخَـلُ[1]

وَجْداً عَلى النَّفَرِ الَّذِين تَتَابَعُوا يَوْمَـاً بِمُؤْتَـةَ أُسْـــنِـدُوا لَمْ يُنْقَلُوا

صَـــلَّى الإله عَلَيْهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ وَسَقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المسْبِلُ[2]

صَـــبَرُوا بِمُؤْتَةَ للإِلهِ نُفُوسَـــهُمْ حَـذَرَ الرَّدى ومَخَافَةً أن يَنْكُلُوا[3]

فَمَضَـوْا أمَامَ المسْـلِمِيْنَ كأَنَّهُمْ فُنُقٌ[4] عَلَيْهِنَّ الحَـدِيْـدُ المرْفَـلُ[5]

إِذْ يَـهْتَـدُوْنَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَائِـهِ قُـدَّامَ أَوَّلِهِـمْ فَـنِـعْـمَ الأَوَّلُ

حَتَّى تَفَرَّجَـتِ الصُّـــفُوفُ حَيْث الْتَقَى وَعْثُ الصُّـــفُوفِ

فَتغَيَّر القَـمَرُ المنِيْرُ لِفَقْـدِهِ والشَّـــمْسُ قَدْ كَسَــفَتْ وَكَادَتْ

هذه بعض الأبيات التي بكى بها مالك بن كعب شـــهداء مؤتة، ولم يتغيَّب حسَّـــانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة، وبكاء جعفر بن أبي طالبٍ، وزيدِ بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، فقد كانت المؤسَّسـة الإعلاميَّة تقوم بدورها بتفوُّقٍ وجدارةٍ، وتتعبَّد المولى – عزَّ وجلَّ – بما خصَّها به من مَلَكَاتٍ ومواهبَ شعريَّةٍ فذَّةٍ.

* * *

(1) المدخل: النافذ إلى الدَّاخل.

(2) المسبل: الممطر.

(3) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون ، ينكلوا: يرجعوا خائبين.

(4) فُنُق: الفحول من الإبل.

(5) المرْفَل: الَّذي تنجرُّ أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابغة.

(6) تأفِلُ: تغيب ، انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (33/4 ، 34).

المبحث الخامس

سريَّة ذات السَّلاسل

لَمْ تَمضِ ســـوى أيَّامٍ على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتَّى جهَّز النَّبيُّ(ﷺ) جيشـــاً بقيـــادة عمرو بـــن العاص إلى ذات السَّلاسل؛ وذلك لتأديب قُضاعة التي غرَّها ما حدث في مؤتة، والَّتي اشـــتركت فيها إلى جانب الرُّوم، فتجمَّعت تريد الدُّنوَّ من المدينة، فتقدَّم عمرو بن العاص في ديارها، ومعه ثلاثمئةٍ من المهاجرين والأنصـــار، ولما وصـــل إلى مكان تجمُّع الأعداء بلغه: أنَّ لهم جموعاً كثيرة، فأرســـل إلى رســـول الله(ﷺ) يطلب المدد، فجاءه مددٌ بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح[1]، وقاتل المســـلمون الكفَّار، وتوغَّل عمرو في ديار قُضـــاعة الَّتي هربت، وتفرقت، وانهزمت، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإســـلام لأطراف الشَّـــام، وإرجاع أحلاف المسـلمين لصـداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى في حلف المسـلمين وإسـلام الكثيرين من بني عبس، وبني مُرَّة، وبني ذبيان، وكذلك فزارة وسـيِّدها عيينة بن حصـن في حلفٍ مع المسـلمين، وتبعها بنو سُلَيم، وعلى رأسهم العبَّاس بن مرداس، وبنو أشـجع، وأصبح المسـلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب؛ وإن لم يكن في بلاد العرب جميعِها[2].

دروسٌ، وعبرٌ، وحكَمٌ:

وفي هذه السرية دروس وعبر وحكم منها:

1 - إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله(ﷺ) فقال: «خُذْ عليك ثيابك، وسلاحَك، ثمَّ ائتني» فأتيتُه، وهو يتوضَّـــأ، فصـــعَّد فيَّ النَّظر، ثمَّ طأطأ، فقال: «إنِّي أريد أن أبعثك على

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (471/2).

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (433/2).

جيشٍ[1]، فيسلِّمك الله، ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبةً صالحة»، قال: قلت: يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال، ولكنِّي أسلمتُ رغبةً في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله(ﷺ) ، فقال رسول الله(ﷺ) : «يا عمرو! نعم المال الصَّالح للمرء الصَّالح». [أحمد (197/4)، والبخاري في الأدب المفرد (299)، وابن حبان (3211)، والحاكم (2/2) و(236/2)].

فهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمان، وصدق، وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله(ﷺ) ، وقد بيَّن له رسولُ الله(ﷺ) : أنَّ المال الحلال نعمةٌ إذا وقع بيد الرَّجل الصَّالح؛ لأنه يبتغي به وجه الله، ويصرفه في وجوه الخير، ويَعِفُّ به نفسه، وأسرته[2].

2 – الاتِّحاد قوَّةٌ، والتَّنازع ضعفٌ:

عندما وصل المدد الَّذي بعثه رسول الله(ﷺ) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السَّلاسل، أراد أبو عبيدة أن يؤمَّ النَّاس، ويتقدَّم عَمْراً، فقال له عمرو: إنَّما قَدِمْتَ عليَّ مدداً لي، وليس لك أن تؤمَّني، وأنا الأمير، وإنَّما أرسلك النَّبيُّ(ﷺ) إليَّ مدداً، فقال المهاجرون: كلاَّ، بل أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه، فقال عمرو: لا، بل أنتم مددٌ لنا، فلمَّا رأى أبو عبيدة الاختلاف – وكان حَسَنَ الخلق، ليِّن الطَّبع – قال: لتطمئنَّ يا عمرو! ولتعلمنَّ: أنَّ اخر ما عهد إليَّ رسول الله(ﷺ) أن قال: «إذا قدمت على صاحبك، فتطاوعا، ولا تختلفا»، وإنَّك والله إن عصيتني؛ لأطيعنَّك، فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلِّي بالنَّاس[3].

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أنَّ أيَّ اختلافٍ بين المسلمين في سريَّة ذات السَّلاسل يؤدِّي إلى الفشل، ومِنْ ثَمَّ تغلُّب العدو عليهم، ولهذا سارع إلى قطع النِّزاع، وانضمَّ جنديّاً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرَّسول(ﷺ) : «لا تختلفا»[4].

---

(1) جيش سريَّة ذات السَّلاسل.
(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ، للحميديّ (133/7).
(3) انظر: مغازي رسول الله (ص) لعروة، ص 207، وأسانيدها ضعيفةٌ، والبداية والنِّهاية لابن كثير غزوة ذات السَّلاسل.
(4) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 209.

3 – حرص عمرو بن العاص على سلامة قوَّاته:

ظهرت عبقرية عمرو العسكريَّة في ذات السَّلاسل في حرصه على وحدة الصَّفِّ، وفي حرصه على سلامة قوّته، ويتجلَّى ذلك في عدَّة صورٍ؛ منها:

أ – أنَّه كان يسير ليلاً، ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره، وبُعْد نظره: أنَّ العدوَّ يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما، فيستعدَّ للقاء جيش المسلمين، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السَّير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قوَّاته، وحقَّق بذلك أمرين مُهَمَّين:

- إخفاء تحرُّكاته عن عدوِّه، وبذلك يضمن سلامة قوَّاته.
- حماية الجند من شدَّة الحرِّ، وحتَّى يبقى لهم نشاطُهم، فيَصِلُون إلى مكان المواجهة؛ وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

ب – عدم السَّماح للجند بإيقاد النَّار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النَّار لحاجتهم الماسَّة إلى التَّدفئة؛ منعهم من ذلك؛ معتمداً في ذلك على خبرته الحربيَّة، وعمق فكره العسكريِّ، وخوفاً من وقوع مفسدةٍ أعظم من تلك المصلحة، وهي أن يمتدَّ الضَّوء، فيكشف المسلمين – وهم قلَّة – لأعدائهم، فيهجموا عليهم، ويتجلَّى هذا الفقه في حزمه الشديد مع أصحابه عندما كلَّمه أبو بكر في ذلك، فقال: لا يوقد أحدٌ منهم ناراً إلا قذفته فيها، فلمَّا رجعوا إلى المدينة، ذكروا ذلك لرسول الله(ﷺ) ، فسأله رسول الله(ﷺ) ، فقال: كرهت أن اذن لهم أن يوقدوا ناراً، فيرى عدوُّهم قلَّتهم[1]. فأقرَّه النَّبيُّ(ﷺ) على فعله.

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 509.

ج – منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعداءهم؛ طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم، وتتبُّع فلولهم، ولكنَّ قائد السَّريَّة منع جنده من ذلك؛ لئلا يترتَّب على هذه المطاردة مفسدةٌ أعظم منها، وهي أن يقع المسلمون في كمين، ويتجلَّى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرَّسول(ﷺ) : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد[1]، فأقرَّه النَّبيُّ(ﷺ) على هذا التَّصرُّف الحكيم؛ الَّذي حقَّق للجيش الأمن والحماية[2].

4 – من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلةٍ باردةٍ في غزوة ذات السَّلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمَّمت، ثمَّ صلَّيت بأصحابي الصُّبح، فذكروا ذلك للنَّبيّ(ﷺ) فقال: يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالَّذي منعني من الاغتسال، وقلت: إنِّي سمعت الله يقول: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: 29]، فضحك رسول الله(ﷺ) ولم يقل شيئاً. [أحمد (4/203 – 204) وأبو داود (334)][3].

وقد استنبط بعض الأحكام من هذه القصَّة:

أ – التَّيمُّم يقوم مقام الغُسل بالنِّسبة للجُنُبِ مع وجود الماء؛ إذا خشي أن يؤدِّي استخدامُ الماء إلى الضَّرر فلقد تيمَّم عمرو بن العاص لـمَّا أصبح جنباً مع وجود الماء عنده، وصلَّى وأقرَّه الرَّسول(ﷺ) ، ولم ينكر عليه.

ب – يجوز الاجتهاد في عهده(ﷺ) : فقد اجتهد عمرو بن العاص، فتوضَّأ، واغتسل،

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص)، ص 540.

(3) انظر: صحيح السيرة النَّبوية، ص 509، وقال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح.

وصلّى، وقد احتلم في تلك اللَّيلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: 29] فلم ينكر عليه الرَّسول(ﷺ) اجتهاده؛ بل أقرَّه على أمرين: الأوَّل: جواز الاجتهاد. والثَّاني: تصحيح اجتهاده.

ج – من الأسباب المبيحة للتَّيمُّم تعذُّر استخدام الماء – وإنْ وجد – للبرد الشَّديد.

د – تجوز إمامة المتيمِّم بالمتوضِّئ: فقد صلى عمرو بن العاص؛ وهو مُتيَمِّمٌ إماماً بخمسمئة صحابي قد توضَّؤوا، وأقرَّه الرَّسول(ﷺ) على ذلك ولم ينكر عليه.

هـ – اجتهاد عمرو بن العاص يدلُّ على فقهه، ووفور عقله، ودقَّة استنباطه الحكم من دليله[1]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرِّعون عليها الأحكام، فإنَّ الَّذي يستوقفنا[2]في السِّيرة منها تلك السُّرعة في أخذ عمرو للقرآن، وصلته به؛ حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات، وهو لم يمضِ على إسلامه أربعة أشهر، إنَّه الحرص على الفقه في دين الله، وقد يكون عمرو – وهذا احتمال واردٌ – على صلةٍ بالقرآن قبل إسلامه يتتبَّع ما يستطيع الوصول إليه، وحينئذٍ نكون أمام مثالٍ اخر من عظمة هذا القرآن الَّذي لوى أعناق الكافرين، وجعلهم وهم في أشدِّ حالات العداوة لهذا الدِّين يحاولون استماع هذا القرآن، كما رأينا ذلك في العهد المكِّيِّ، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النَّجاشيِّ أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام[3].

5 – من نتائج سرايا رسول الله(ﷺ) في الشَّمال:

اتَّجهت حملات المسلمين العسكريَّة بعد صلح الحديبية نحو الشَّمال، وأصبح غرب الجزيرة وجنوبُها الغربيُّ حيث تقبع مكَّة آمنةً في ظلال الصُّلح[4]، وحقَّقت سرايا رسول الله(ﷺ) ،

(1) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 210.
(2) القائل هو: صالح أحمد الشَّامي، صاحب (من معين السِّيرة)، ص 381.
(3) انظر: من معين السِّيرة، ص 381.
(4) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص 170.

أهدافها، ومقاصــــدها في شمال الجزيرة، فوصـــلت إلى حدود الرُّوم، فأمَّنت حدود الدَّولة الإسـلاميَّة، وبسـطت هيبتها، وأفشـلت محاولات الإغارة على المدينة، وبذلك حقَّقت سـياسـة النَّبيِّ(ﷺ) في حركة السَّرايا هدفين عظيمين هما:

1 - تأمين حماية الدِّين الإسلاميِّ في الدَّاخل.

2 - حمايته في الخارج[1].

وما مِنْ شــكٍّ في أنَّ المتتبِّع لأحداث السِّــيرة النَّبويَّة الشَّــريفة، والمطَّلع على تفاصــيلها، ودقائقها بإمعانٍ يجد بحقٍّ أنَّ صـلح الحديبية هو من أهم المكاسـب السِّـياسـيَّة، والعسـكرية، والإعلاميَّة، بل هو حصـيلة كسـبٍ لأعظم معركةٍ دارت بين الإسـلام والوثنية في العهد النبوي، من حيث النتائج الإيجابيَّة التي رسَّــخت دعائم الإســلام من جهةٍ؛ وصــدَّعت بفعلها قواعد الشِّــرك، والوثنيَّة من جهةٍ أخرى، وما حدث في خيبر من فتوحٍ، وفي مؤتة من نصــرٍ، وفي ذات السَّلاسـل من توسيع هيبة الدولة الإسـلاميَّة إلا نتائج تابعةٌ لصلح الحديبية[2]، وبسـبب القدرة الفائقة في تعامل النَّبيِّ(ﷺ) مع سنن الله في المجتمعات، والشُّعوب، وبناء الدُّول.

* * *

(1) الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، ص 173.

(2) انظر: منهج الإعلام الإسلامي ، ص 337.

الفصل الخامس عشر

غزوة فتح مكَّة (8 هـ)[1]

المبحث الأوَّل

أسبابها، والاستعداد للخروج والشُّروع فيه

أوَّلاً: أسبابها:

1 - ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكرٍ على خُزاعة حليفة المسلمين بالخيل، والسِّلاح، والرِّجال، وهجم بنو بكرٍ، وحلفاؤهم على قبيلة خُزاعة عند ماءٍ يقال له: الوَتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[2]، ولـمَّا لجأت خُزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهِّزةً للقتال، لتمنع بني بكرٍ منه؛ قالت لقائدهم: يا نوفل! إنَّا قد دخلنا الحرم، إلهك، إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر! أصيبوا ثأركم[3]، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ في أربعين من خُزاعة، حتَّى قدموا على رسول الله(ﷺ) في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكرٍ، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله(ﷺ) وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني النَّاس، فقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِــدٌ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أَبِيْنَا وأَبِيْهِ الأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُم وُلْداً، وَكُنَّا وَالِدا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يدا[4]
فانْصُرْ هَدَاكَ الله نَصْراً أَعْتَدَا ... وادْعُ عِبَادَ الله يأْتُوا مَدَدَا
فِيْهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا ... إِنْ سِيْمَ خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا

---

(1) ينظر الشكل (17) في الصفحة (761).
(2) انظر: الواقدي (781/2 . 784).
(3) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (39/4)، والبداية والنِّهاية، لابن كثير
(4) يريد: أنَّ أم عبد مناف، وأمَّ قصير خزاعيتان.

فِيْ فَيْلَقٍ كـالبَحْرِ يَجْرِي مُزبِدَا إنَّ قُرَيْشـــاً أَخْلَفُوكَ المَوْعِـدَا
ونقَضُـــوا مِيْثَـاقَـكَ المؤَكَّـدا وجَعَلُوا لي في (كَـدَاءٍ) رُصَّـــدا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْـتُ أدْعُو أحدَا وَهُـــمْ أَذَلُّ وأَقَـلُّ عَـدَدَا
هُمْ بَــيَّـــتُونَا بالوَتِيْرِ هُجَّدَا وقَـتَـلُـونَا رُكَّـعـاً وسُـــجَّـدَا

فقال النبي(ﷺ) : «نُصرتَ يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب!» ولـمَّا عرَض السَّحاب مِنَ السَّماء؛ قال: «إنَّ هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعبٍ». **[البيهقي في الكبرى (233/9 – 234)، وفي الدلائل (6/5 – 7)، وابن هشام (36/4 – 37)، وابن كثير في البداية والنهاية (278/4)]**.

وجاء في روايةٍ: أنَّ رسول الله(ﷺ) بعد أن سمع، وتأكَّد من الخبر؛ أرسل إلى قريش، فقال لهم: «أما بعد: فإنَّكم إنْ تبرؤوا من حلف بني بكرٍ، أتُدوا خُزاعة[1]، وإلا أوذنكم بحربٍ، فقال قرظة بن عبد عمروٍ بن نوفل بن عبد منافٍ صهر معاوية: إنَّ بني بكرٍ قومٌ مشائيم، فلا ندري ما قتلوا لنا سبَدَ، ولا لَبَد[2]، ولا نبرأ من حلفهم، فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم، ولكن نؤذنه بحربٍ[3].

وفي هذا دليل على أن رسول الله(ﷺ) لم يفاجئ قريشاً بالحرب، وإنَّما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[4].

2 – أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصُّلح، وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة، ودخل على رسول الله(ﷺ) يعرض حاجته؛ أعرض عنه النَّبيُّ(ﷺ) ، ولم يجبه، فاستعان بكبار الصَّحابة أمثال أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ؛ حتَّى يتوسطوا بينه وبين رسول الله(ﷺ) ،

---

(1) أي: تدفعوا دية قتلاهم.
(2) السَّبد: الشَّعر ، واللَّبد: الصُّوف ، يعني: إن فعلنا ذلك؛ لم يبق لنا شيء.
(3) انظر: المطالب العالية (243/4) رقم 4361 ، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.
(4) انظر: التَّاريخ الإسلامي (164/7).

فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلى مكَّة من غير أن يحظى بأيِّ اتفاقٍ، أو عهدٍ[1]، وممَّا يذكر عند نزوله في المدينة أنَّه لـــمَّا دخل على ابنته أمِّ حبيبة – أمِّ المؤمنين – وأراد أن يجلس على فراش رسـول الله(ﷺ) ؛ طوته عنه، فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنِّي؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله(ﷺ) ، وأنت مشركٌ نجس! قال: والله! لقد أصابك بعدي شرٌّ[2].

وهذا الموقف لا يســتغرب من أمِّ حبيبة، فهي ممَّن هاجر الهجرتين، وقد قطعت صِـــلاتها بالجاهليَّة منذ أمدٍ بعيد، إنَّها لم ترَ أباها منذ ستَّ عشرة سنة، فلـــمَّا رأته لم تر فيه الوالد الَّذي ينبغي أن يُقـدَّر، ويُحترم، وإنَّما رأت فيه رأس الكفر الَّذي وقف في وجه الإســـلام، وحارب رسوله(ﷺ) تلك السَّنوات الطَّويلة[3]، وهذا ما كان يتَّصف به الصَّحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء، والبراء، وإعزاز الإسلام، والمسلمين.

وفي مخاطبة أمِّ حبيبة لأبيها بهذا الأســلوب – مع كونه أباها، ومع مكانته العالية في قومه، وعند العرب – دليلٌ على قوَّة إيمانها، ورســوخ يقينها، لقد كان في ســلوك أمِّ حبيبة مظهرٌ من اجتهاد الصَّحابة البالغ في إظهار أمرٍ له أهمِّيَّته البالغة في المحافظة على شخصيَّة المسلم، ودفع معنويَّته إلى النَّماء، والحيويَّة[4].

وأمام نقض قريشٍ للعهود والمواثيق مع المسلمين، فقد عزم رسولُ الله(ﷺ) على فتح مكَّة، وتأديب كفَّارها، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدَّة أسبابٍ؛ منها:

أ – قوَّة جبهة المسلمين الدَّاخليَّة في المدينة، وتماسكها، فقد تخلَّصت الدَّولة الإسلامية من غدر اليهود، وتمَّ القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النَّضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

---

(1) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص 365.

(2) انظر: البداية والنِّهاية (479/4) ، والإصابة ، لابن حجر ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا (غزوة فتح مكة).

(3) انظر: من معين السِّيرة ، ص 395.

(4) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (170/7 ، 171).

ب – ضـــعف جبهة الأعداء في الدَّاخل؛ وفي مقدَّمة هؤلاء: المنافقون؛ الَّذين فقدوا الركن الرَّكين لهم، وهو يهود المدينة، فهم أساتذتهم الَّذين يوجِّهونهم، ويشيرون عليهم.

ج – اهتمَّ رسول الله(ﷺ) بتطوير القوَّة العسكريَّة، وإرسال السَّرايا في فترة الصُّلح، وبذلك أصبحت متفوّقِةً على قوَّة مشركي قريش، حيث العدد والعُدَّة، والرُّوح المعنويَّة.

د – كانت الغزوة بعد أن ضـــعفت قريش اقتصـــاديّاً، وبعد أن قويت الدَّولة الإســـلاميَّة اقتصاديّاً، فقد فتح المسلمون خيبر، وغنموا منها أموالاً كثيرةً.

هـ – انتشـــار الإســـلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتَّخذ قرارها العسكري بنقل قوَّاتها، ومهاجمة أعدائها.

و – قيام الســـبب الجوهريِّ، والقانونيّ لغزو مكَّة، وهو نقض قريش للعهد، والعقد[1]، ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) لم يضـــيّع قانون الفرصـــة، وتعامَلَ معه بحكمةٍ بالغةٍ، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صـــلح الحديبية، والان تُتاح فرصـــةٌ أخرى بعد أن نقضـــت قريش عهدها، وتغيَّرت موازين القوى في المنطقة، فكان لابدَّ من الاستفادة من المعْطيات الجديدة، فأعدَّ(ﷺ) جيشاً لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلتْ عدَّته إلى عشرة الاف رجلٍ[2].

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إنَّ حركة النَّبيِّ(ﷺ) في بناء الدَّولة، وتربية المجتمع، وإرســـال السَّـــرايا، وخروجه في الغزوات تعلِّمنا كيفيَّة التَّعامل مع سـنَّة الأخذ بالأسـباب، سـواءً كانت تلك الأسـباب مادِّيَّة أو معنويَّةً، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السُّـــنَّة واضـــحةً في هديه(ﷺ) ، فعندما قرَّر(ﷺ) السَّـــير لفتح مكة؛ حرص على كتمان هذا الأمر حتَّى لا يصـل الخبر إلى قريش، فتعد العدَّة لمجابهته، وتصـدُّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه، وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

---

(1) انظر: السِّيرة ، لأبي فارس ، ص 401.

(2) انظر: الكامل في التاريخ (244/2) ، والتَّاريخ السياسي والعسكري ، ص 366.

1 – أنَّه كتم أمره حتَّى على أقرب النَّاس إليه:

فقد أخذ النَّبيُّ(ﷺ) بمبدأ السِّـــرِّيَّة المطلقة، والكتمان الشَّـــديد حتَّى عن أقرب النَّاس إليه، وهو أبو بكر رضـــي الله عنه أقربُ أصـــحابه إلى نفســـه، وزوجتُه عائشـــة رضـــي الله عنها أحبُّ نســـائه إليه، فلم يعرف أحدٌ شـــيئاً عن أهدافه الحقيقية، ولا اتِّجاه حركته، ولا العدوِّ الَّذي ينوي قتاله، بدليل أنَّ أبا بكر الصِّـــدِّيق رضـــي الله عنه عندما ســـأل ابنته عائشـــة رضـــي الله عنها عن مَقْصَـدِ الرسـول(ﷺ) قالت له: ما سمَّى لنا شـيئاً، وكانت أحياناً تصـمت، وكلا الأمرين يدلاَّن على أنَّها لم تعلم شيئاً عن مقاصده(ﷺ) [1].

ويســتنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنَّه ينبغي للقادة العســكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهنَّ ربما يُذِعْنَ شـيئاً من هذه الأسـرار عن حسـن نيَّةٍ، فتتناقلها الألسـن حتَّى تصـير سبباً في حدوث كارثةٍ عظيمةٍ[2].

2 – أنه بعث سريَّةً بقيادة أبي قتادة إلى بطن إِضَم:

بعث النَّبيُّ(ﷺ) قبل مسيره إلى مكَّة سَرِيَّةً مكوَّنةً من ثمانية رجال، وذلك لإسدال السِّتار على نياته الحقيقيَّة، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لـــمَّا همَّ رسول الله(ﷺ) بغزو أهل مكَّة بعث أبا قتادة بن ربْعِي في ثمانية نفرٍ سَـرِيَّةً إلى بطن إِضَـم[3]، لِيَظُنَّ الظَّانُّ: أنَّ رسـول الله(ﷺ) توجَّه إلى تلك النَّاحية، فمضـوا، ولم يلقوا جمعاً، فانصـرفوا حتَّى انتهوا إلى ذي خُشُـب[4]، فبلغهم: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد توجَّه إلى مكَّة، فأخذوا على (بيبن) حتَّى لقُوا النَّبيَّ(ﷺ) بالسُّقيا[5]»[6].

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر، وسلوك ما يمكن

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (282/4)، والرَّسول القائد (ص)، لمحمود شيت خطاب، ص 333، 334.
(2) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص)، ص 395، 396.
(3) بطن إضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان، وقناة، والعقيق.
(4) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشَّام يبعد عن المدينة 35 ميلاً.
(5) السُّقيا: موضع يقع في وادي القرى، معجم البلدان (288/3).
(6) انظر: الطَّبقات الكبرى، لابن سعد (132/2).

من أســاليب التَّضــليل على الأعداء والإيهام، الَّتي من شــأنها صــرف أنظار النَّاس عن معرفة مقاصـد الجيوش الإسـلاميَّة الَّتي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله، حتى تُحقِّق أهدافها، وتَسْلَم من كيد أعدائها[1].

3 – أنَّه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بثَّ(ﷺ) رجال اســـتخبارات الدَّولة الإســـلاميَّة داخل المدينة، وخارجها؛ حتَّى لا تنتقلَ أخبارُه إلى قريشٍ، وأخذ رســول الله(ﷺ) بالأنقاب[2]، فكان عمر بن الخطَّاب رضــي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم، فيقول: لا تَـدَعُوا أحـداً يمرُّ بكم تنكرونـه إلا رددتموه، إلا مَنْ سلك إلى مكَّة فإنَّه يُتَحفَّظ به، ويُسأل عنه، أو ناحية مكَّة[3].

إنَّ جَمْعَ المعلومات ســلاحٌ ذو حدَّين، وقد اســتفاد الرَّســول(ﷺ) من حدِّه النافع لصــالح المسـلمين، وأبطل مفعول الحدِّ الآخر باتباعه السِّـرِّيَّة، واتخاذها أسـاسـاً لتحرُّكاته، واسـتعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصـــول على المعلومات الَّتي تفيده في الاســـتعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوَّة المناسبة[4].

4 – دعاؤه(ﷺ) بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسـول الله(ﷺ) بالأسـباب البشـريَّة الَّتي في اسـتطاعته؛ توجَّه إلى الله – عزَّ وجلَّ – بالدُّعاء والتَّضـرُّع قائلاً: «اللَّهُمَّ! خذ على أسماعهم، وأبصـارهم فلا يَرَوننا إلا بغتةً، ولا يسمعون بنا إلا فجأة». **[البيهقي في الدلائل (11/5)]**[5].

وهذا شـأن النَّبيِّ(ﷺ) في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشريَّة، ولا ينسى التَّضرُّع، والدُّعاء

---

(1) انظر: القيادة العسكرية ، ص 498.
(2) الأنقاب: جمع نقب ، وهو كالعريف على القوم.
(3) التحفظ: هو الاحتراز والتَّيقُّظ ، مغازي الواقدي (796/2) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.
(4) انظر: القيادة العسكرية ، ص 365.
(5) انظر: البداية والنِّهاية (282/4) ، ومحمَّد (ص) (غزوة فتح مكة) ، لمحمَّد رضا.

لربِّ البريَّة؛ ليستمدَّ منه التَّوفيق والسَّداد.

5 – إحباط محاولة تجسُّس حاطبٍ لصالح قريش:

عندما أكمل النَّبيُّ(ﷺ) اســتعداده للســير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكَّة يخبرهم فيه نبأ تحرك النَّبيّ(ﷺ) إليهم، ولكنّ الله – ســبحانه وتعالى – أطلع نبيَّه(ﷺ) عن طريق الوحي على هذه الرِّسـالة، فقضـى(ﷺ) على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النَّبيُّ(ﷺ) عليّاً، والزُّبير، والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخٍ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهدَّدوها أن يفتِّشوها إن لم تُخرِج الكتاب؛ فسلَّمته لهم، ثمَّ استدعى حاطباً رضي الله عنه للتَّحقيق، فقال: يا رســول الله! لا تعجل عليَّ، إنِّي كنت امرأً مُلصَــقاً في قريشٍ – يقول: كنت حليفاً – ولم أكن من أنفُسِــها، وكان مَنْ معك من المهاجرين مَنْ لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضــاً بالكفر بعد الإســلام، فقال رســول الله(ﷺ) : «أما إنَّه قد صدقكم».

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق! فقال(ﷺ) : «إنَّه قد شــهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على مَنْ شــهد بدراً، فقال: اعملوا ما شــئتم؛ فقد غفرت لكم[1]». [أحمد (79/1 – 80)، والبخاري (3983)، ومسلم (2494)].

فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُــولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَــبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَــاتِي تُسِــرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1].

إنَّ الآية السَّــابقة رسمت منهجاً للمســلمين في تعاملهم مع الكافرين، فمعنى قوله تعالى:

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (52/18).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

قال القرطبيُّ: السُّورة أصلٌ في النَّهي عن موالاة الكفار[1]، والمراد بهم: المشركون، والكفَّار الذين هم محاربون لله، ولرسوله، وللمؤمنين الَّذين شرع الله عداوتهم، ومصارمتهم، ونهى أن يُتَّخذوا أولياء، وأصدقاء[1].

وقوله تعالى: أي: تخبرونهم بسرائر ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾، وتنصحون لهم، وهم كافرون بنبيِّكم، وبقرآنكم الَّذي أنزله الله عليكم بالحقِّ الواضح.

وقوله تعالى: قال ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ كثير: هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم؛ لأنَّهم أخرجوا الرَّسول(ﷺ) وأصحابه من بين أظهركم كراهةً لما هم عليه من التَّوحيد، وإخلاص العبادة لله وحدَه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنبٌ إلا إيمانكم بالله ربِّ العالمين[2].

وقوله تعالى: أي: إن كنتم كذلك فلا تتَّخذوهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم؛ فلا توالوا أعدائي، وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم، وأموالكم حَنَقاً عليكم، وسُخطاً لدينكم[3].

وقوله تعالى: أي: تُسِرُّون إليهم ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾

قال ابن كثير: أي: تفعلون ذلك ؛ وأنا العالم بالسَّرائر، والضَّمائر، والظواهر[4].

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بقوله: أي: مَنْ يُسِرُّ لهم ويكاتِبُهم منكم فقد أخطأ قَصْدَ الطريق[5].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (346/4).

(2) المصدر السابق (347/4).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) انظر: تفسير القرطبي (54/18).

يقول أستاذي، وشيخي الدكتور محمَّد بن بكر ال عابد: هذه الآية الكريمة نجدها تمهيداً بين يدي فتح مكَّة حيث حثَّ الله المسلمين على عدم موالاة الكفار، حتى لا يتأثَّر المهاجرون بروابط الرَّحم، والقربى، والمصلحة المادِّيَّة التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكَّة[1].

ويقول الأستاذ سيِّد قطب: على الرَّغم من كلِّ ما ذاق المهاجرون من العنت، والأذى من قريش؛ فقد ظلَّت بعض النُّفوس تودُّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكَّة المحاسنة، والمودَّة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية الَّتي تكلِّفهم قتال أهليهم، وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم، وبينهم من صلاتٍ، وكأنَّ الله يريد استقصاء هذه النُّفوس، واستخلاصها من كلِّ هذه الوشائج، وتجريدها لدينه، وعقيدته، ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه النَّاجع البالغ؛ بالأحداث، وبالتَّعقيب على الأحداث؛ ليكون العلاج على مسرح الأحداث، وليكون الطَّرْقُ؛ والحديدُ ساخنٌ[2].

إنَّ ما قام به حاطبٌ أمرٌ عظيمٌ، ولذلك نزل القرآن الكريم يوجِّه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعلُه نحو أعداء دينهم، كما أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) عامل حاطباً معاملةً رحيمةً تدلُّ على حرصه الشَّديد على الوفاء لأصحابه، وإقالة عثرات ذوي السَّوابق الحسنة منهم، لقد جعل(ﷺ) من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه.

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ، فلم ينظر النَّبيُّ(ﷺ) إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب، وإن كانت كبيرةً، وإنَّما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى، وإعزاز دينه، فوجد: أنَّه قد شهد بدراً، وفي هذا توجيهٌ للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرةً متكاملةً، وذلك بأن ينظروا فيما قدَّموه لأمَّتهم من أعمالٍ صالحةٍ في مجال الدَّعوة، والجهاد، والعلم، والتَّربية، فإنَّ الَّذي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمَّة يستحقُّ التَّقدير، والاحترام، وإن بدرت منه بعض الأخطاء، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأً محضاً،

---

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (568/2 ، 569).

(2) انظر: في ظلال القرآن (358/6).

وزلَّة قدمٍ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأياً علميّاً ناتجاً عن الاجتهاد؛ وهم أهلٌ لذلك؟!

إنَّ بعض طلاَّب العلم في عصـــرنا هذا يتســـرَّعون في نقد العلماء، والدُّعاة بســـبب آراء اجتهاديَّةٍ يرى بعض العلماء أنَّهم أخطؤوا فيها، وقد يصـل النَّقد إلى حدِّ السُّـخريَّة، والاسـتهزاء بهم، وترى هؤلاء الطُّلاب يُجسِّـمون أخطاء هؤلاء الكبار، ويبرزونها بشــكلٍ يوحي للسَّــامعين، والقرَّاء: أنَّ أولئك الَّذين تعرَّض إنتاجهم للنَّقد ليس لهم أيُّ رصيدٍ في خدمة الإسلام والمسلمين، والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسـنات هؤلاء أوَّلاً، ويعرَّف المسـلمون بجهادهم، وبلائهم في الإســلام، وجهودهم في مجال العلم، والدَّعوة، ثمَّ تُذكر الأمور، الَّتي يراها المنتقدون أخطاء، وما يرونه من الصَّــواب في ذلك من لزوم الأدب في النَّقد العلميّ، والبعد عن أســلوب السُّــخرية، والتَّنقيص، هذا شـــيءٌ مما يرشـــدنا له أســلوب النَّبيِّ(ﷺ) في مواجهة هذا الخطأ الكبير الَّذي ارتكبه حاطبُ بن أبي بلتعة رضـــي الله عنه، إنَّ تاريخ حاطب الكبير في الجهاد في ســـبيل الله شـفع له عند رسـول الله(ﷺ) ، ولذلك لم يتعرَّض للإدانة، أو للعقوبة، بل كان مانعاً له ممَّا هو أقلُّ من ذلك، حيث لم يُســـمَع من مســـلمٍ كلمةٌ واحدةٌ في نقده، والإســـاءة إليه بعد قول النَّبيِّ(ﷺ) : «ولا تقولوا له إلا خيراً». **[سبق تخريجه]**[1].

ومن الحوار الَّذي تمَّ بين الرَّســـول(ﷺ) ، وعُمر بن الخطَّاب في شـــأن حاطبٍ يمكن أن نستخرج بعض الدُّروس، والعبر:

1 - حكم الجاسوس القتل: فقد أخبر عمر بذلك، ولم ينكر عليه الرَّسول(ﷺ) ولكن منع مِنْ إيقاع العقوبة كونُه بدريّاً.

2 - شـــدَّة عمر في الحقِّ: لقد ظهرت هذه الشـــدة في الحقِّ، وغيرتُه على الدِّين حينما طالب بضرب عنق حاطبٍ.

3 - الكبيرة لا تسلُبُ الإيمان: إنَّ ما ارتكبه حاطبٌ كبيرةٌ، وهي التجسُّس؛ ومع هذا ظلَّ

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (176/7).

مؤمناً.

4 – لقد أطلق عمر على حاطبٍ صفة النِّفاق بالمعنى اللُّغويِّ لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده رضي الله عنه؛ إذ النِّفاق: إبطانُ الكفر، والتَّظاهر بالإسلام، وإنَّما الَّذي أراده عمر: أنَّه أبطن خلاف ما أظهر؛ إذ أرسل كتابه الَّذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله، ويبذل دمه في سبيله[1].

5 – تأثَّر عمر من ردِّ الرَّسول(ﷺ) ، فتحوَّل في لحظاتٍ من رجلٍ غاضبٍ ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطبٍ إلى رجلٍ يبكي من الخشية، والتأثير، ويقول: الله، ورسولُه أعلم؛ ذلك لأنَّ غضبه كان لله، ولرسوله، فلـمَّا تبيَّن له أنَّ الَّذي يُرْضي الله تعالى، ورسوله(ﷺ) هو غضُّ النَّظر عن ذلك الخطأ، ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد؛ استجاب لذلك[2].

6 – لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطبٍ؛ ذهب لهذا الرأي الدُّكتور عبد الكريم زيدان؛ حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطبٍ في العفو عمَّن يعمل عمله؛ لأن العفو عنه كان لِعِلَّةٍ لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصَّحابة وهو كونه شهد بدراً، فعلى الجَمَاعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك؛ إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطبٌ، أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقُّه[3]. وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيِّم، وذكر أقوال الأئمَّة الأربعة، ثم قال: والصَّحيح: أنَّ قتله راجعٌ إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحةً للمسلمين؛ قتله، وإن كان استبقاؤه أصلحَ؛ استبقاه[4].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 404.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (176/7 ، 177).

(3) المستفاد من قصص القرآن (402/2).

(4) انظر: زاد المعاد (443/3).

ثالثاً: الشُّروع في الخروج، وأحداثٌ في الطَّريق:

1 - خرج رســول الله(ﷺ) قاصــداً مكَّة في العاشــر من رمضــان من العام الثامن للهجرة[1]،

واســتخلف على المدينة أبا رُهْمٍ، كلثوم بن حُصَــيْن بن عُتبة بن خلف الغفاريَّ[2]، وكان عدد الجيش عشرة الاف، فيهم المهاجرون، والأنصار الَّذين لم يتخلَّف منهم أحدٌ، فلــمَّا وصل الجيش الكُدَيْدَ - الماء الذي بين قديد وعُســفان - أفطر رســول الله(ﷺ) وأفطر النَّاس معه. [البخاري (4275)، ومسلم (1113)].

وفي الجحفة لقيه العبَّاس بن عبد المطلب عمُّه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسُرَّ(ﷺ) [3]، وفي خروج العبَّاس بأهله، وأولاده من مكَّة وكان بها بمثابة المراسل العسكريِّ، أو مدير الاستخبارات هناك يشــير إلى أنَّ مهمَّته فيها قد انتهت، وخاصَّــةً إذا لاحظنا أنَّ بقاءه في مكَّة كان بأمر الرَّسول(ﷺ) [4] .

2 - إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أمية:

خرج أبو ســفيان بن الحارث، وعبد الله بن أميَّة بن المغيرة من مكَّة، فلقيا رســول الله(ﷺ) بثنية العقاب فيما بين مكَّة والمدينة، فالتمسا الدُّخول عليه، فكلَّمته أمُّ سلمة، فقالت: يا رسول الله! ابن عمِّك، وابن عمَّتك، وصــــهرُك، فقال: «لا حاجة لي فيهما، أمَّا ابن عمِّي؛ فهتك عرضــي، وأما ابن عمَّتي، وصــهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال». فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي ســفيان بن الحارث ابنٌ له، فقال: واللهِ! ليأذننَّ رســولُ الله(ﷺ) ، أو لاخذنَّ بيد ابني هذا، ثمَّ لنذهبنَّ في الأرض حتَّى نموت عطشــاً، أو جوعاً، فلــــمَّا بلغ ذلك رســول

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 560، 561.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 561.
(3) انظر: البداية والنِّهاية (286/4)، والسِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 406.
(4) انظر: تأملات في السِّيرة النَّبوية، لمحمَّد السيد الوكيل، ص 254.

الله(ﷺ) رقَّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه، واعتذاره ممَّا كان مضى فيه، فقال:

لَعَمْرُكَ إنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً ... لِتَغلِبَ خَيْلُ الَّلاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكَالمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... فَهَذا أَوَانُ الحَقِّ أُهْدَى وأَهْتَدِي
فَقُلْ لِثَقِيْفٍ لاَ أُرِيْدُ قِتَالَكُمْ ... وَقُلْ لِثَقِيفٍ تِلْكَ عِنْدِي فأَوْعِدِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلَّنِي ... عَلَى اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ
أَفِرُّ سَرِيْعاً جَاهِداً عَنْ مُحَمَّدٍ ... وأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ لِمُحَمَّدِ
هُمُ عُصْبَةٌ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَوَاهُمُ ... وإِن كَانَ ذا رأْيٍ يُلَمْ ويُفَنَّدِ
أُرِيْدُ لأَرْضِيَهُمْ وَلَسْتُ بِلائِطٍ ... مَعَ القَوْمِ مَا لَمْ أُهْدَ فِي كُلِّ مَقْعَدِ
فَمَا كُنْتُ فِي الجَيْشِ الَّذي نَالَ عَامِراً ... ومَا كَانَ عَنْ غَيْرِ لِسَانِي ولاَ يَدِي
قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلاَدٍ بَعِيْدَةٍ ... تَوَابِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ
وإِنَّ الَّذي أَخْرَجْتُمُ وَشَتَمْتُمُ ... سَيَسْعَى لَكُمْ سَعْيَ امْرِئٍ غَيْرَ

قال: فلمَّا أنشد رسولَ اللهِ(ﷺ) : على الله مَنْ طَرَّدْتَ كُلَّ مُطَرَّدٍ، ضرب رسول الله(ﷺ) في صدره، فقال: «أنت طَرَّدْتَنِي كلَّ مُطَرَّد». **[ابن سعد (49/4 – 50)، والطبراني في الكبير (7264)، والطبري في تاريخه (114/3 – 115)، والبيهقي في الدلائل (27/5 – 28)، وابن هشام (43/4 – 44)، ومجمع الزوائد (165/6)].**

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله(ﷺ) كثيراً، وأمَّا عبد الله بن أميَّة ؛ فقد قال لرسول الله(ﷺ) : فوالله ! لا أؤمِنُ بك حتَّى تتَّخذَ إلى السَّماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتَّى تأتيها، ثمَّ تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك، كما تقول، ثمَّ وايم الله! لو فعلتَ ذلك ما ظننت أنِّي أصدِّقك(2).

ومع فداحة جرمهما فإنَّ النَّبيَّ(ﷺ) عفا عنهما، وقبل عذرهما، وهذا مثالٌ عالٍ في الرَّحمة،

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 517.
(2) انظر: ابن هشام (295/1. 300).

والعفو، والتّسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السَّابقة بهذه القصيدة البليغة الَّتي قالها في مدح النَّبيّ(ﷺ) وبيان اهتدائه به، ولقد حسُن إسلامه، وكان له موقفٌ مشرِّفٌ في الجهاد مع رسول الله(ﷺ) في معركة حُنَين[1].

3 – النُّزول بمرِّ الظَّهران وإسلام أبي سفيان بن حربٍ سيِّد قريش:

وتابع رسول الله(ﷺ) سيره حتى أتى مَرَّ الظَّهْران[2]، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النِّيران، فأُوقِدَت عشرةُ الاف نارٍ، وجعل رسولُ الله(ﷺ) على الحرس عمرَ بن الخطَّاب[3].

قال العبَّاس: فقلت: واصباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله(ﷺ) مكَّة عَنْوَةً قبل أن يأتوه، فيستأمنوه: إنَّه لهلاك قريش إلى اخر الدَّهر! وركب بغلة رسول الله(ﷺ) ، وخرج يلتمس مَنْ يوصل الخبر إلى مكَّة؛ ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عَنْوَةً، وكان أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبُدَيْل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلمَّا رأوا النِّيران؛ قال أبو سفيان: ما رأيت كاللَّيلة نيراناً قطُّ، ولا عسكراً، فقال بُدَيْل: هذه والله خُزاعة حَمَشَتْها[4] الحربُ، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلُّ، وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها،وعسكرها! وسمع العباس أصواتهم، فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: مَالَك؟ فداك أبي وأمي! قال العبَّاس: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسولُ الله(ﷺ) في النَّاس واصباح قريشٍ واللهِ! قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتَّى اتي بك رسول الله، فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه، فجئت به، كلَّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله(ﷺ) وأنا عليها؛ قالوا: عمُّ رسولِ الله على بغلته، حتَّى مررت بنار عمر بن الخطَّاب فقال: مَنْ هذا؟

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (182/7).

(2) مرِّ الظَّهران : واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ 22 ك . م.

(3) انظر: من معين السيرة ص 387، والطبقات لابن سعد (135/2).

(4) حمشتها الحرب: أحرقتها.

وقام إليَّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدَّابة قال: أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ، ثمَّ خرج يشــتدُّ نحو رســول الله(ﷺ) ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله! هذا أبـــو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي قد أجرته.

فلما أكثر عمر في شـــأنه؛ قلت: مهلاً يا عمر! فوالله! أن لو كان من بني عديٍّ ما قلت هذا، ولكنَّك قد عرفت أنَّه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس ! فوالله لإسلامُك يوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم، وما بي إلا أنِّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رســول الله(ﷺ) من إســلام الخطَّاب لو أســلم، فقال(ﷺ) : «اذهب به يا عباس! إلى رحلك، فإذا أصبحت؛ فائتني به».

فلمَّا أصبح؛ غدوت به، فلمَّا راه رسولُ الله(ﷺ) ، قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنَّه لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمَك، وأوصــلَك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنِّي بعد. قال: «ويحك يا أبا سـفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسولُ الله ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمَك، وأوصلَك ! أمَّا هذه والله! فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الان شـيئاً. فقال له العبَّاس: ويحك! أسـلم قبل أن تُضْـرَب عنقُك، قال: فشـهد شـهادة الحقِّ، فأسلم.

قال العبَّاس: قلت: يا رسـول الله! إنَّ أبا سـفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سـفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسـجد فهو آمن» فلــمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله(ﷺ) : «يا عباس! احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل، حتَّى تمرَّ به جنود الله، فيراها».

قال: فخرجت حتَّى حبستُـه حيث أمرنـي رسول الله(ﷺ) ومرَّت القبائل على راياتها، كلَّما

مرَّت قبيلــةٌ ؛ قال: يا عباس! مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي، ولسُليم! ثمَّ تمرُّ به القبيلة، فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: مالي ولمزينة!... حتَّى مرَّ به رسول الله(ﷺ) في كتيبته الخضـــراء، فيها المهاجرون، والأنصـــار، لا يُرى منهم إلا الْحَدَقُ من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله(ﷺ) في المهاجرين، والأنصار.

قـال: ما لأحـدٍ بهؤلاء قِبَـلٌ، ولا طاقـةٌ ! ثمَّ قال: والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قال: قلت: يا أبا ســـفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً، قال: قلت: النَّجاءَ إلى قومك. **[البخاري (4280) وعبد الرزاق في المصنف (374/5 – 378)، وابن سعد (134/2 – 137)، والبيهقي في الدلائل (32/5 – 35)، والمطالب العالية (244/4 – 246)، ومجمع الزوائد (164/6 – 167)، وابن هشام (44/4 – 47)]**[1].

إنَّ في هذه القصَّــة دروســاً، وعبراً، وحِكَماً في كيفيَّة معاملة رســول الله(ﷺ) للنُّفوس البشريَّة، ومن أهم هذه الدُّروس:

1 – عندما أصبح أبو سفيان رهينةً بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النَّبيِّ(ﷺ) ، وَهَمَّ به عمر، وأجاره العبَّاس، ثمَّ جاء في صبيحة اليوم الثاني لِيَمْثُلَ بين يدي رسول الله(ﷺ) ، وكانت المفاجأة الصَّـــاعقة له بدل التَّوبيخ، والتَّهديد، والإذلال أن يُدْعى إلى الإســـلام، فتأثَّر بهذا الموقف، واهتزَّ كيانُـــه، فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمِّي يا محمد! ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصـلَك! إنَّه يفدي رســول الله(ﷺ) بأبيه وأمِّه، ويُثني عليه الخير كلَّه: ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصـــلَك[2]! وعندما قال العبَّاس للنَّبيِّ(ﷺ) : إنَّ أبا ســـفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن..» ففي تخصيص بيت أبي سـفيان شـيءُ يُشْـبع ما تتطلَّع إليه نفس أبي سـفيان، وفي هذا تثبيتٌ له على الإسـلام، وتقويةٌ

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 518 ، 519 ، 520.
(2) انظر: السَّابق ، وانظر: فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص 564.

لإيمانه[1]، وكان هذا الأسلوب النَّبويُّ الكريم عاملاً على امتصاص الحِقْدِ من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأنَّ المكانة الَّتي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام؛ إنْ هو أخلص له، وبذل في سبيله[2]، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ على العلماء، والدُّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع النَّاس.

2 - وفي قول رسول الله(ﷺ) لعمِّه العبَّاس عن أبي سفيان: «احبِسْه بمضيق الوادي، حتَّى تمرَّ به جنود الله، فيراها[3]» ففعل العبَّاس، وكان(ﷺ) يريد أن يشنَّ حرباً نفسيَّةً للتَّأثير على معنويَّات قريش، حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكَّة، وحتَّى يرى أبو سفيان بِعَيْنَيْ رأسه مدى قوَّة ما وصل إليه الجيش الإسلاميُّ من تسليحٍ، وتنظيمٍ، وحسن طاعةٍ، وانضباطٍ، وبذلك تتحطَّم أيُّ فكرةٍ في نفوس المكِّيِّين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكَّة لتحريرها من براثن الشِّرك، والوثنيَّة[4]، وبالفعل تمَّ ما رسمه رسولُ الله(ﷺ) ، وأدرك أبو سفيان قوَّة المسلمين، وأنَّه لا قِبَل لقريشٍ بهم، حتَّى إذا مرَّت به كتيبة المهاجرين، والأنصار؛ قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله(ﷺ) في المهاجرين، والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ، ولا طاقةٌ! والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً...»[5].

إنَّها النُّبوَّة، تلك هي الكلمة الَّتي أدارتها الحكمة الإلهيَّة على لسان العبَّاس، حتَّى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كلِّ مَنْ يتوهَّم، أو يوهم أنَّ دعوة النَّبيِّ(ﷺ) إنَّما كانت ابتغاء ملكٍ، أو زعامةٍ، أو إحياء قوميَّةٍ، أو عصبيَّةٍ، وهي كلمةٌ جاءت عنواناً لحياة رسول الله(ﷺ) من أوَّلها

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (403/2).

(2) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد رواس ، ص 245.

(3) انظر: سيرة ابن هشام (52/4).

(4) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص 447.

(5) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (52/4) ، وسبق تخريجه.

إلى اخرها، فقد كانت ساعاتُ عمره، ومراحلُها كلُّها دليلاً ناطقاً على أنَّه بُعِث لتبليغ رسالة الله إلى النَّاس، لا لإشادة ملكٍ لنفسه في الأرض[1].

لقد تعمَّد النَّبيُّ(ﷺ) شنَّ الحرب النَّفسيَّة على أعدائه أثناء سيره لفتح مكَّة، حيث أمر رسولُ الله(ﷺ) بإيقاد النِّيران، فأوقدوا عشرة الاف نارٍ في ليلةٍ واحدةٍ حتَّى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظرٌ مهيبٌ، كادت تنخلع قلوب القرشيِّين من شدَّة هوله[2]، وقد قصد النَّبيُّ(ﷺ) من ذلك تحطيم نفسيَّات أعدائه، والقضاء على معنويَّاتهم حتَّى لا يفكروا في أيَّة مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام؛ لكي يتمَّ له تحقيق هدفه دون إراقة دماءٍ، وبتطبيق هذا الأسلوب تمَّ له(ﷺ) ما أراد، ولقد كان اهتمامُ النَّبيِّ(ﷺ) بمعنويات المقاتل ونفسيَّته سبقاً عسكريّاً، بدليل أنَّ المدارس العسكريَّة الَّتي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية، والاهتمام من النَّاحية العسكريَّة[3].

(1) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 275.

(2) انظر: الطبقات، لابن سعد (135/2).

(3) انظر: العبقرية العسكريَّة، وغزوات الرَّسول (ص)، تأليف اللِّواء محمَّد فرج، ص 565.

المبحث الثَّاني

خُطَّة النَّبِيّ(ﷺ) لدخول مكَّة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصَّحابة:

عندما وصل النَّبيُّ(ﷺ) إلى ذي طُوى[1]؛ وزَّع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجَنَّبة اليُمنى، وجعل الزُّبير على المجَنَّبة اليُسرى، وجعل أبا عبيدة على البَيَاذِقَةِ[2]، وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة! ادعُ لي الأنصار» فدعاهم، فجاؤوا يهرولون، فقال: يا معشر الأنصار! هل ترون أوباش قريش؟! قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً، وأخفى بيده، ووضع يمينه على شماله، وقال: «موعدكم الصَّفا». **[مسلم (1780)]**.

وبعث رسول الله(ﷺ) الزُّبير بن العوَّام على المهاجرين، وخيلهم، وأمره أن يدخل من كَداء مِنْ أعلى مكَّة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتَّى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة، وسليم، وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكَّة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدِّمة رسول الله(ﷺ) ، وأمرهم أن يكفُّوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم[3]، وبهذا كانت المسؤوليَّات واضحةً، وكلٌّ قد عرف ما أُسنِدِ إليه من مهام، والطَّريق الذي ينبغي أن يسير فيه[4].

ودخلت قوَّات المسلمين مكَّة من جهاتها الأربع في انٍ واحدٍ، ولم تلقَ تلك القوات مقاومةً، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربةٌ قاضيةٌ لفلول المشركين؛ حيث عجزت عن التَّجمُّع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربيَّة الحكيمة الَّتي لجأ إليها رسول الله(ﷺ) عندما أصبح في مركز القوَّة في العدد والعتاد، ونجحت خطَّة الرَّسول(ﷺ) فلم يستطع

---

(1) انظر: من معين السيرة ، ص 389.

(2) البياذقة: الرَّجالة.

(3) انظر: من معين السِّيرة ، ص 390.

(4) المصدر السابق نفسه.

المشركون المقاومة، ولا الصُّمود أمام الجيش الزَّاحف، إلى أمِّ القُرى، فاحتلَّ كلُّ فيلقٍ منطقته الَّتي وُجِّه إليها، في سلمٍ، واستسلامٍ؛ إلا ما كان من المنطقة الَّتي توجَّه إليها خالد(1)، فقد تجمَّع متطرفو قريشٍ؛ ومنهم: صفوان بن أميَّة، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وغيرهم، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخَنْدَمَة)، وتصدَّوا للقوَّات المتقدِّمة بالسِّهام، وصمَّموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتَّى قضى على تلك القوَّة الضَّعيفة، وشتَّت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السَّيطرة على مكَّة المكرَّمة(2)، وقد حدَّثتنا كتب السِّيرة، والتَّاريخ عن قصَّة حِمَاس بن قيس بن خالدٍ من قبيلة بني بكرٍ، فقد أعدَّ سلاحاً لمقاتلة المسلمين، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه، ويتعهَّدُه، تسأله: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمَّد، وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله! ما أرى أنَّه يقوم لمحمَّدٍ وصحبه شيءٌ! فقال: إنِّي والله لأرجو أن أُخْدِمَكِ بعضهم، ثمُّ قال:

إن يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِيْ عِلَّةٌ ... هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وأَلَّةٌ(3)

وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّة

فلمَّا جاء يوم الفتح ناوش حِمَاسٌ هذا شيئاً من قتالٍ مع رجال عكرمة، ثمَّ أحس بالمشركين يتطايرون مِنْ حوله أمام جيش خالدٍ، فخرج منهزماً حتَّى بلغ بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب.

فقالت المرأة لفارسها: فأين ما كنت تقول؟!

فقال يعتذر لها:

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ ... إِذْ فرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

أبُو يَزِيْدَ قَائِمٌ كالمؤتَمَهْ(4) ... واسْتَقْبَلَتْهُمْ بالسُّيُوفِ المسْلِمَهْ

---

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص 397.

(2) انظر: قيادة الرسول (ص) السياسية والعسكرية ، ص 122 ، 123.

(3) الأَلَّة: الحربة لها سنان طويل ، وذو غرارين: سيف ذو حدين.

(4) المؤتمة: المرأة التي مات زوجها ، وترك لها أيتاماً ، وأبو زيد: سهيل بن عمرو.

يقْطَعْنَ كُلَّ سَــاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ضَـــرْباً فَلاَ يُسْـــمَعُ إِلاَّ غَمْغَمَــهْ
لَهُمْ نَهِيـتٌ[1] خَلفَنَـا وَهَمْهَمَـهْ لا تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَـهْ[2]

لقد أُعْلِنَ في مكَّة قُبيل دخول جيش المســلمين أســلوبَ منع التجوُّل؛ لكي يتمكَّنوا من دخول مكَّة بأقلِّ قدرٍ من الاشـتباكات، والاسـتفزازات، وإراقة الدِّماء، وكان الشـعار المرفوع: «من دخل دار أبي سـفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسـجد فهو آمن»، وجعل(ﷺ) لدار أبي سـفيان مكانةً خاصَّـةً كي يكون أبو سـفيان سـاعده في إقناع المكيِّين بالسِّلم، والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمانٍ يفتتح أمامه الطَّريق إلى مكَّة دون إراقة دماء، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر؛ الَّتي يحبُّها أبو سفيان، حتَّى يتمكَّن الإيمان في قلبه[3].

لقد دخل أبو سفيان إلى مكَّة مسرعاً، ونادى بأعلى صوته:

يا معشــر قريش! هذا محمَّدٌ جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي ســفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشــاربه، فقالت: اقتلوا الحَمِيْتَ الدَّسِـمَ الأحْمَس – تشبِّهه بالزِّقِّ لسمنه – قُبِّحَ مِنْ طليعة قومٍ! قال: ويلكم! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه مِنْ أنفسكم، فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فَمَنْ دخل دار أبي ســفيان فهو آمن قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المســـجد فهو آمن. وتفرَّق النَّاس إلى دورهم، وإلى المسجد[4].

وحرص النَّبيُّ(ﷺ) أن يدخل الكَدَاء الَّتي بأعلى مكَّة[5] تحقيقاً لقول صاحبه الشَّاعر المبدع حسَّان بن ثابت حين هجا قريشاً، وأخبرهم بأنَّ خيل الله تعالى ستدخل من كَدَاء، وتُعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسَّان؛ حيث قال:

(1) النَّهيت: صوت الصَّدر.
(2) انظر: البداية والنِّهاية (295/4).
(3) انظر: دراسة في السِّيرة ، د. عماد الدين خليل ، ص 245.
(4) انظر: البداية والنهاية (290/4).
(5) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 524.

عَـدِمْنَـا خَيْلَنَـا إنْ لَمْ تَرَوْهَـا ... تُثِيْرُ النَّقْعَ[1] مَوْعِـدُهَـا كَـدَاءُ

يُنَـازِعْنَ الأَعِنَّـةَ مُصْـغِيَـاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَـلُ الظِّمَاءُ

تَظَـلُّ جِيَـادُنَا مُتَمَـطِّرَاتٍ ... يُلَطِّمُـهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَـاءُ

فـإمَّـا تُعْرِضُـوا عَنَّـا اعْتَمَرْنا ... وكـانَ الفَتْحُ وانْكَشَـفَ الغِطَاءُ

وإلا فـاصْـبِرُوا لجَلاَدِ يَومٍ ... يُعِزُّ[2] اللهُ فِيْـهِ مَنْ يَشَـاءُ

وَجِبْرِيْـلُ رسُـولُ الله فِيْنَـا ... وَرُوْحُ القُـدْسِ لَيْسَ لَـهُ كِفَـاءُ

وَقَالَ الله قَدْ أَرْسَـلْتُ عَبْدَاً ... يَـقُـوْلُ الحَـقَّ فِي ذَاكَ البَـلاَءُ

شَـهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَـدِّقُوهُ ... فَـقُـلْتُم لا نَـقُـوْمُ وَلاَ نَشَـاءُ

وقـال اللهُ قَدْ سَـيَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ الأَنْصَـارُ عُرْضَـتُهَا اللِّقاءُ

لَـنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِـبَـابٌ أَوْ قِتَـالٌ أَوْ هِجَـاءُ

فَنُحْكِمُ بالقَوَافِي مَنْ هَجَـانَا ... وَنَضْـرِبُ حِيْنَ تَخْتَلِطُ الـدِّمَـاءُ

أَلاَ بَلِّغْ أَبَا سُـفْيَـانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَـةً[3] فقـد بَرِحَ الخَفَـاءُ

بأنَّ سُـيُوفَـنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً ... وَعَبْدُ الـدَّارِ سَـادَتُهَا الإِمَـاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فأجبْتُ عَنْهُ ... وَعِـنْـدَ اللهِ فِي ذاكَ الجَـزَاءُ

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْـتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَـرُّكُمَـا لِخَيْرِكُمَـا الفِـدَاءُ

هَجْوتَ مُبَـارَكـاً بَرّاً حَنِيْفـاً ... أَمِـيْنَ اللهِ شِـيمَـتُـهُ الـوَفَـاءُ

أَمَنْ يَهْجُو رَسُـولَ اللهِ مِنْكُمْ ... ويَمْـدَحُـهُ ويَـنْصُـرُه سَـوَاءُ

فـإنَّ أَبِي وَوَالِـدَهُ وَعِرْضِـي ... لِعِرْضِ مُحَمَّـدٍ مِـنْـكُـمْ وِقَـاءُ

لسَـانِيْ صَـارِمٌ لا عَيْبَ فِيْهِ ... وبَحْـرِي لاَ تُـكَـدِّرُهُ الـدِّلاَءُ[4]

ومِمَّا يؤيِّد حرص النَّبيِّ(ﷺ) على دخوله من كَدَاء ما جاء عن ابن عمر رضي الله

---

(1) النَّقع: موضع قرب مكَّة ، أو الغبار.

(2) انظر: البداية والنِّهاية (309/4).

(3) مغلغلة: رسالة محمولة من بلدٍ إلى بلد.

(4) انظر: البداية والنِّهاية (309/4).

عنهما قال: لـمَّا دخل رسول الله(ﷺ) عام الفتح رأى النِّساء يَلْطِمْنَ وجوه الخَيْلِ بالخُمُر[1]، فتبسَّم إلى أبي بكرٍ، فقال: يا أبا بكر! كيف قال حسَّان ؟ فأنشده قوله:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ[2]

ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ:

دخل رسول الله(ﷺ) يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءُ بغير إحرامٍ، [أحمد (363/1) ومسلم (1358)، وأبو داود (4076)، والترمذي (1735)، والنسائي (201/5)، وابن ماجه (2822)]، وهو واضعٌ رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتَّى إنَّ ذقنه ليكاد يَمَسُّ واسطة الرَّحل. [البيهقي في الدلائل (68/5)، والحاكم (47/3)، وأبو يعلى (3393)، ومجمع الزوائد (169/6)]. ودخل وهو يقرأ سورة الفتح. [البخاري (4281)، ومسلم (238/794)] مستشعراً نعمة الفتح، وغفران الذُّنوب، وإفاضة النَّصر العزيز[3]، وعندما دخل مكَّة فاتحاً - وهي قلبُ جزيرة العرب، ومركزُها الرُّوحيُّ، والسِّياسيُّ - رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائر العدل والمساواة، والتَّواضع، والخضوع، فأردف أسامة بن زيدٍ، [البخاري (4289)]؛ وهو ابن مولى رسول الله(ﷺ) ، ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم، وأبناء أشراف قريشٍ، وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلةٍ خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة[4].

يقول محمَّد الغزالي في وصف دخول النَّبيِّ(ﷺ) لمكَّة:

على حين كان الجيش الزَّاحف يتقدَّم، ورسول الله(ﷺ) على ناقته تُتَوِّج هامته عمامةٌ سوداء، ورأسُه خفيض من شدَّة التَّخشُّع لله، لقد انحنى على رحله، وبدا عليه التَّواضع الجمُّ، إنَّ الموكب الفخم المهيب الَّذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدَّارع الَّذي يحفُّ به ينتظر إشارةً منه فلا يبقى بمكَّة شيءٌ آمن، إنَّ هذا الفتح المبين ليذكِّره بماضٍ طويل الفصول

---

(1) الخُمُر: جمع خمار ، مأخوذ من الخمر ، وهو السِّتر؛ وهو ما تستر به النِّساء رؤوسهنَّ.

(2) انظر: مغازي الواقدي (831/2).

(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص 396.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدوي ، ص 337.

كيف خرج مطارَداً؟ وكيف يعود اليوم منصــــوراً مؤيَّداً، وأيّ كرامةٍ عظمى حقَّه الله بها هذا الصَّباح الميمون، وكلَّما استشعر هذه النَّعماء، ازداد للهِ على راحلته خشوعاً وانحناءً[1].

هذا وقد حرص النَّبيُّ(ﷺ) على تأمين الجبهة الدَّاخلية في مكَّة عند دخوله يوم الفتح، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الكعبة، قال(ﷺ) : «هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة» **[البخاري (4280)، والبيهقي في الدلائل (38/5)، والطبري في تاريخه (118/3)]**. وأخذ الراية من ســـعد بن عبادة، وســـلَّمها لابنه قيس بن ســـعدٍ، وبهذا التَّصـــرُّف الحكيم حال دون أيِّ احتمالٍ لمعركةٍ جانبيَّةٍ هُمْ في غنىً عنها، وفي الوقت نفسه لم يُثِرْه، ولا اثَار الأنصارَ، فهو لم يأخذ الرَّاية من أنصاري ويسلِّمها لمهاجرٍ؛ بل أخذها من أنصاريٍّ وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألاَّ يرضى الإنسان بأن يكون أحدٌ أفضَل منه إلا ابنه[2].

ولمَّا نزل رسولُ الله(ﷺ) بمكَّة، واطمأن النَّاس، خرج حتَّى جاء البيت، فطاف به، وفي يده قوسٌ، وحول البيت وعليه ثلاثمئةٍ وســتون صــنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ **[الإســـراء: 81]**، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ **[سبأ: 49]**، والأصـنام تتسـاقط على وجوهها[3]، وإنَّه لمظهر رائعٌ لنصـر الله، وعظيم تأييده لرسوله(ﷺ) ؛ إذ كان يطعن تلك الالهة الزَّائفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه، حتَّى ينكفئ على وجهــه، أو ينقلب على ظهــره جُذاذاً[4]، ورأى في الكعبة الصُّــور، والتَّماثيل؛ فأمر بالصُّــور، وبالتَّماثيل فكســرت[5]، وأبَى أن يدخل جوف الكعبة حتَّى أخرجت الصُّور، وكان فيها صورةٌ يزعمون: أنَّها صورة إبراهيم، وإسماعيل، وفي أيديهما من

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص 379 ، 380.

(2) انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسيَّة والعسكريَّة ، ص 196.

(3)]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص 339.

(4) انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص 282.

(5) انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص 339.

الأزلام، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قـــطُّ». **[أحمد (365/1)، والبخاري (4288)]**.

ثم دخل البيت، وكبَّر في نواحيه، ثمَّ صـلَّى، فقد روى ابن عمر: أنَّ رسـول الله(ﷺ) دخل الكعبة هو، وأسـامة، وبلال، وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه، ثم مكث فيها، قال ابن عمر: فسـألت بلالاً حين خرج: ما صـنع رسـول الله؟ قال: جعل عمودين عن يسـاره، وعموداً عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه – وكان البيت يومئذٍ على سـتَّة أعمدة – ثمَّ صـلَّى. **[مسلم (1329)، وأبو داود (2023)، والنسائي (63/2)، وبنحوه البخاري (505)]**[(1)].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم، فأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السِّـــقاية، لكن النَّبي(ﷺ) دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة، وردَّه إليه قائلاً: «اليوم يوم برٍّ ووفاء» **[الطبراني في الكبير (8395)، وعبد الرزاق في المصنف (83/5 – 84)، ومجمع الزوائد (177/6)]**[(2)]، وكـان(ﷺ) قد طلب من عثمـان بن طلحة المفتاح قبل أن يهـاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول، ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان! لعلَّك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضـــعه حيث شـــئت». فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ، وذلَّت، فقال: «بل عَمَرَتْ، وعزَّتْ يومئذٍ» ووقعت كلمتُه من عثمان بن طلحة موقعاً، وظنَّ: أنَّ الأمر ســـيصـــير إلى ما قال[(3)]، ولقد أعطى له رســـول الله(ﷺ) مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء» **[ســـبق تخريجه]**[(4)]، «خذوها خـالدةً، تالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ[(5)]». وهكذا لم يشأ النَّبيُّ(ﷺ) أن يستبدَّ بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحدٍ من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجالٌ منهم، لما في ذلك من الإثارة أوَّلاً، ولما به من مظاهر السَّيطرة، وبسط

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (61/4، 62).
(2) المصدر السابق نفسه (61/4) والبداية والنِّهاية، لابن كثير.
(3) انظر: المغازي (838/2).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (62/4).
(5) انظر: المغازي (838/2).

النُّفوذ، وليســت هذه من مهام النُّبوَّة بإطلاق،... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شــرعة رســول الله(ﷺ) ؛ البرُّ، والوفاء حتَّى للذين غدروا، ومكروا، وتطاولوا[1].

هذا وقد أمر النَّبي(ﷺ) بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤذِّن بالصَّلاة، فصعد بلال، وأذَّن بالصَّلاة، وأنصت أهل مكَّـــة للنِّداء الجديد على اذانهم كأنَّهم في حُلْمٍ، إنَّ هذه الكلمات تقصف في الجوِّ فتقذف بالرُّعب في أفئدة الشَّياطين، فلا يملكون أمام دويّهـا إلا أن يولُّوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر[2].

ذلك الصَّــوت الَّذي كان يهمس يوماً ما تحت أســواط العذاب: أَحَد! أحَد! أحَد! هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله، محمَّدٌ رسولُ الله!؛ والكلُّ خاشعٌ مُنْصِتٌ خاضع[3].

ثالثاً: إعلان العفو العام:

1 - نال أهل مكَّة عفواً عامّاً برغم أنواع الأذى الَّتي ألحقوها بالرَّســول(ﷺ) ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإســـــلاميّ على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة، ينتظرون حكم الرَّســول(ﷺ) فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟!» فقالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، فقـال: «لا تثريـب عليكم اليوم، يغفر الله لكم!». **[البيهقي في الكبرى (118/9)، وفي الدلائل (58/5)، وابن سعد (141/2 - 142)]**[4].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل، أو السَّبي، وإبقاء الأموال المنقولة، والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تُعامل مكَّة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً لقدسـيَّتها، وحرمتها؛ فإنَّها دار النُّســك، ومتعبَّد الخلق، وحرم الرَّبِّ تعالى، لذلك

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 401.
(2) انظر: فقه السِّيرة للغزاليّ ، ص 383.
(3) انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص 269.
(4) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص 179.

ذهب جمهور الأئمَّة من السَّــلف، والخلف إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضــي مكَّة، ولا إجارة بيوتها، فهي مناخٌ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجَّاج، والمعتمرين، والعبَّاد القاصـدين. وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضـي مكَّة، وإجارة بيوتها، وأدلَّتهم قويَّةٌ في حين أنَّ أدلة المانعين مرسلةٌ، وموقوفةٌ[1].

2 – إهدار النَّبيّ(ﷺ) لبعض الدِّماء:

إلى جانب ذلك الصَّفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الَّذي لابدَّ أن تتَّصف به القيادة الحكيمة الرَّشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشَّامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم – وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة –؛ لأنَّه عظمت جرائمُهم في حقِّ الله ورسوله، وحقِّ الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين النَّاس بعد الفتح[2].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جَمَعْت أسماءهم مِنْ متفرِّقات الأخبار، وهم: عبد العُزَّى بن خَطَل، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وعِكْرِمَة بن أبي جهل، والحويرث بن نُقَيْدٍ – مصغراً –، ومِقْيَس بن صُبَابة، وهَبَّار بن الأسود، وقينتان لابن خطل «فَرْتَنَى، وقُرَيْبَة» كانتا تغنيان بهجو النَّبي(ﷺ) ، وســارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشــر فيمن أهدر دمه الحارثَ بن طُلاَطِل الخزاعيَّ، وذكر الحاكم: أنَّ فيمن أُهْدِرَ دمه كعبَ بن زُهَيْرٍ، ووحشــيَّ بْنَ حَرْبٍ، وَهِنْدَ بنتَ عُتْبَة[3].

وَمِنْ هؤلاء مَنْ قُتِل، ومنهم مَنْ جاء مســلماً تائباً، فعفا عنه الرَّســول(ﷺ) ، وحسن إسلامُه[4].

---

(1) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص 180.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (451/2) ، وتأمُّلات في السيرة ، ص 262.

(3) فتح الباري: في شرح حديث رقم (4280).

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (451/2).

3 – خطبةُ النَّبيّ(ﷺ) غداة الفتح، وإسلامُ أهل مكَّة:

وفي غداة الفتح بلغ النَّبيَّ(ﷺ) : أنَّ خزاعة حلفاءه عدت على رجلٍ من هذيلٍ، فقتلوه، وهو مشركٌ برجلٍ قتل في الجاهليَّة، فغضب، وقام بين النَّاس خطيباً، فقال: «يا أيُّها النَّاس! إنَّ الله قد حرم مكَّة يوم خلق السَّموات، والأرض، فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يَعْضِدَ – يقطع – فيها شجراً، لم تَحلَّ لأحدٍ كان قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلا هذه السَّاعة غضباً على أهلها، ثمَّ قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله(ﷺ) قد قاتل فيها، فقولوا: إنَّ الله قد أحلَّها لرسوله، ولم يُحِلَّها لكم».

«يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر القَتْلُ إنْ نفع، لقد قتلتُم قتيلاً لأدِينَّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النَّظرين، إن شاؤوا فَدَمُ قاتله، وإن شاؤوا فَعَقْلُه». [أبو داود (4504)، والترمذي (1406)، والبيهقي في الدلائل (5/83 – 84)][1].

كان من أثر عفو النَّبيّ(ﷺ) الشَّامل عن أهل مكَّة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهلُ مكَّة رجالاً، ونساءً، وأحراراً، وموالي في دين الله طواعيةً، واختياراً، وبدخول مكَّة تحت راية الإسلام دخل النَّاس في دين الله أفواجاً، وتمَّت النِّعمة ووجب الشُّكر[2]، وبايع رسول الله(ﷺ) النَّاس جميعاً، الرِّجالَ، والنِّسَاءَ، والكبارَ، والصِّغار، وبدأ بمبايعة الرِّجال، فقد جلس لهم على الصَّفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام، والسَّمع، والطَّاعة لله، ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مُجَاشِعٌ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح، فقال لرسول الله(ﷺ) : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال(ﷺ) : «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال: على أيِّ شيءٍ تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد». [أحمد (3/469)، والبخاري (4305 و4306)، ومسلم (1863)].

---

(1) المصدر السابق نفسه ، وعقله: أي ديته. والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، صفة دخوله (ص) مكَّة.

(2) المصدر السابق نفسه (2/456).

وقد روى البخاريُّ: أنَّ رسول الله(ﷺ) قال يوم الفتح: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنْفِرْتم، فانفروا» [البخاري (1834)، ومسلم (1353)]، والمراد: أنَّ الهجرة الَّتي كانت واجبةً من مكَّة قد انتهت بفتح مكة، فقد عزَّ الإسلامُ، وثبتت أركانُه ودعائمهُ، ودخل النَّاس فيه أفواجاً، أمَّا الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلدٍ لا يَقْدِرُ أن يقيم فيه دينَه، ويظهر شعائرَه إلى بلدٍ يتمكَّن فيه من ذلك، فهي باقيةٌ إلى يوم القيامة، ولكن هذه دون تلك، فقد تكون واجبةً، وقد تكون غير واجبةٍ، كما أنَّ الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروعٌ وباقٍ إلى يوم القيامة، ولكنَّه ليس كالإنفاق، ولا الجهاد قبل فتح مكَّة.

قال عزَّ شأنه(1): ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: 10].

ولما فرغ رسول الله(ﷺ) من بيعة الرِّجال؛ بايع النِّساء - وفيهنَّ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ متنكِّرةً، خوفاً من رسول الله(ﷺ) أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة - على ألاَّ يشركن بالله شيئاً، ولا يَسْرِقْنَ، ولا يَزْنِيْنَ، ولا يقتلن أولادهنَّ، ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ، وأرجلهنَّ، ولا يعصين في معروفٍ، ولما قال النَّبيُّ(ﷺ) : «ولا يَسْرِقْنَ» قالت هند: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بنيَّ، فهل عليَّ مِنْ حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها(ﷺ) : «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف»، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرَّة؟! ولـمَّا عرفها رسولُ الله(ﷺ) قال لها: «وإنك لهند بنت عُتْبَة؟» قالت: نعم، فاعف عمَّا سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله(ﷺ) من غير مصافحةٍ، فقد كان لا يصافح النِّساء، ولا يَمَسُّ يد امرأةٍ إلا امرأةً أحلَّها الله له، أو ذات محرمٍ منه، وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (2/257).

قالت: لا والله! ما مسَّت يد رسول الله يد امرأةٍ قطُّ. [البخاري (5288)، ومسلم (1866)] وفي رواية: ما كان يبايعهنَّ إلا كلاماً، ويقول: «إنَّما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمئة امرأةٍ»[1].

رابعاً: بَعْثُ خالدِ بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ:

بعث رسول الله(ﷺ) خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ داعياً إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوَّال من السَّنة الثَّامنة للهجرة[2] قَبْلَ حنين، ومعه جنودٌ من بني سُلَيْم، ومُدْلَج، والأنصار، والمهاجرين، كان تعدادُهم حوالي ثلاثمئةٍ وخمسين رجلاً، فلمَّا رأى بنو جَذِيْمَةَ الجيش بقيادة خالدٍ، أخذوا السِّلاح، فقال لهم خالدٌ: ضعوا السِّلاح فإنَّ النَّاس قد أسلموا، فقام رجلٌ منهم يسمَّى جحدراً، فقال: ويلكم يا بني جَذِيْمَةَ! إنَّه خالد؛ والله! ما بعد وضع السِّلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله! لا أضع سلاحي أبداً، فلم يزالوا به حتَّى وضع سلاحه، فلمَّا وضع السِّلاح أمر بهم خالد فكُتِّفُوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً، وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالدٌ أن يقتل كلُّ واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر، وامتنع معه آخرون من قَتْلِ أسراهم، فلمَّا قَدِموا على رسول الله(ﷺ) ، أخبروه، فغضب، ورفع يديه إلى السَّماء قائلاً: اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إليك ممَّا صنع خالدٌ. [أحمد (150/2 – 151)، والبخاري (4339)، والنسائي (237/8)، وابن سعد (147/2 – 148)][3].

ودار كلام بين خالدٍ، وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتَّى كان بينهم شرٌّ، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالدٍ ثأراً لعمِّه الفاكه بن المغيرة الَّذي قتله جَذِيْمَةُ في الجاهليَّة، ولعلَّ هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المرويُّ عند مسلمٍ، وغيره: كان

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (319/4) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا (البيعة).
(2) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 248.
(3) انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (464/2).

بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شـيءٌ، فسبَّه خالدٌ، فقال رسـول الله(ﷺ) : «لا تسـبوا أحداً من أصـحابي، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً؛ ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصـيفه» **[البخاري (3673)، ومسلم (2541)]**[1].

وبعث رسولُ الله(ﷺ) عليّـاً، فودى لهم قتلاهم، وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم، وبراءةً من دمائهم[2]، وبهذا التَّصرُّف النَّبويِّ الحكيم واسى النَّبيُّ(ﷺ) بني جَذِيْمَة، وأزال ما في نفوسهم مِنْ أسـى، وحزن[3]، وكان قتل خالد لبني جَذِيْمَـة تأوُّلاً منه، واجتهاداً خاطئاً، وذلك بدليل أنَّ الرَّسول(ﷺ) لم يعاقبه على فعله[4].

خامساً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طُهِّرَ البيتُ الحرامُ من الأوثان الَّتي كانت فيه، كان لابدَّ من هدم البيوت الَّتي أقيمت للأوثان، فكانت معالم للجاهليَّة ردحاً طويلاً من الزَّمن[5]، فكانت سـرايا رسـول الله تترى؛ لتطهير الجزيرة؛ منها:

1 – سرية خالد بن الوليد إلى العزَّى:

توجَّهت سـريةٌ قوَّتها ثلاثون فارسـاً، بقيادة خالد بن الوليد إلى الطَّاغوت الأعظم منزلةً، ومكانةً عند قريش وسـائر العرب (العُزَّى) لإزالته من الوجود نهائيّاً، وعندما وصلت السَّـريَّة إلى العزَّى بمنطقة نخلة قام إليها خالدٌ: فقطع السَّمُرَاتِ، وهدم البيت الَّذي كان عليه[6]، وهو يردِّد:

كفرانـك لا سـبحـانـك   إنِّي رأيـتُ الله قـد أهـانـك

[الطبراني في الكبير (3811)، ومجمع الزوائد (176/6)][7].

---

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 579.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (465/2).
(4) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 579.
(5)]انظر: من معين السِّيرة، ص 394.
(6) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية، ص 282.
(7) انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة، ص 282.

ثمَّ رجع خالدٌ وأصـــحابه إلى رســـول الله(ﷺ) وقدَّم تقريره بإنجاز المهمَّة، ولكنَّ النبي(ﷺ) اســـتدرك على قائد السَّـريَّة، وقال له: «هل رأيت شـيئاً؟» قال: لا[1]، فقال: «ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً»[2]، فرجع خالد متغيظاً حَنِقاً على عدم إنهاء مهمَّته على الوجه المطلوب، فلـــمَّا وصـــل إليها، ونظرت السَّـــدنة إليه، عرفوا: أنَّه جاء هذه المرَّة ليكمل ما فاته في المرَّة السَّـــابقة، فهربوا إلى الجبل، وهم يصـــيحون: يا عزَّى خَبِّليه، يا عزَّى عوِّريه، فأتاه خالد، فإذا امرأةٌ عُرْيانةٌ ناشـرةٌ شـعرها تحثو التُّراب على رأسـها، فتقدَّم إليها خالدٌ رضـي الله عنه بشـجاعته المعروفة، وضـــربها بالسَّـــيف حتَّى قتلها، ثمَّ رجع إلى رســـول الله(ﷺ) فأخبره بذلك، فقال: «تلك هي العزَّى». **[أبو يعلى (902)، والبيهقي في الدلائل (77/5)، ومجمع الزوائد (176/6)]**[3].

2 – سرية سعد بن زيدٍ الأشهليِّ إلى مَناة:

مناة اســـم صَـــنَمٍ كانت على ســـاحل البحر الأحمر ممَّا يلي قديداً[4]، في منطقة تُعْرَف بالمشَلَّل[5]، وكانت للأوس، والخزرج، وغسَّان ومن دان بدينهم، يعبدونها ويعظِّمونها في الجاهليَّة، ويهلُّون منها للحجِّ، وقد بلغ من تعظيمهم إيَّاها: أنَّهم كانوا لا يطوفون بين الصَّفا والمروة تحرُّجاً، وتعظيماً لها، حيث كان ذلك سُـنَّةً في ابائهم، مَنْ أحرم لمناة لَمْ يطُفْ بين الصَّـفا والمروة[6]، ولم تزل هذه عادتُهم حتَّى أسلموا، فلـــمَّا قدموا مع النَّبيّ(ﷺ) للحجِّ ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية[7]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّـــفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَـــعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ **[البقرة: 158]**.

وقد كان أول من نصـــبها لهم مؤســـس الشِّـــرك في الجزيرة العربيَّة، ومبتدع الأوثان، محرِّف

---

(1) انظر: المغازي (874/2).
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) ما بين مكَّة والمدينة.
(5) المشَلَّل مِنْ قديد ، وبالمشلَّل كانت مناةُ.
(6) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 286.
(7) شرح النووي على مسلمٍ (22/9).

الحنيفيَّة دين إبراهيم عليه السلام عمرُو بن لحي الخُزاعيُّ[1]، فلـــمَّا فتح الله على المسلمين مكَّة بعث رســـول الله(ﷺ) إلى مناة رجلاً من أهلها ســـابقاً الَّذين كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة، وهو سعد بن زيد الأشهليُّ رضي الله عنه على رأس سِريَّةٍ قوَّتها عشرون فارساً، وكان واجب السَّريَّة هو إزالة مناة من الوجود نهائيّاً(3).

انطلق زيدٌ ومن معه في مسيرٍ اقترابيٍّ سـريعٍ لإنجاز المهمَّة المحدَّدة، حتَّى وصـل إليها، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مَناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأةٌ عُرْيَانةٌ سـوداء ثائرة الرَّأس تدعو بالوَيْل، وتضـرب صَـدْرها[2]، فصـاح بها السَّـادن صيحة الواثق: مَناةُ دُونَك بعضَ عُصَاتك(4)، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرِّياح، فلم يأبه سعدٌ رضي الله عنه بكلِّ ذلك، وضربها ضربةً قاتلةً قضت عليها، ثمَّ أقبل مع أصحابه على الصَّنم (فهدموه، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً، وانصرف راجعاً إلى رسول الله(ﷺ))[3].

3 – سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُـــوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ **[نوح: 23]**.

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنمٍ كان لقوم نوحٍ عليه السَّلام، ثمَّ صار بعد ذلك لقبيلة هُذَيْلٍ المضـــريَّة[4]، وظلَّ هذا الوثن منصـــوباً تعبده هُذيل وتعظِّمه حتَّى إنَّهم كانوا يحجُّون إليه[5]، حتَّى فتحت مكَّة، ودخل هذيلٌ فيمن دخل في دين الله أفواجاً، فبعث رســـول

---

(1) انظر: السرايا والبعوث النَّبوية ، ص 287.

(2) انظر: الطَّبقات (146/2).

(3) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 288 ، قال مؤلف الكتاب الدُّكتور بريكك العمري: الخبر ضعيف من النَّاحية الحديثية ، ويمكن الاستئناس به تاريخيّاً ، حيث ذكر أهل المغازي أنَّ رسول الله (ص) أرسل بعض السَّرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربيَّة ، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك؛ لكونها أحد أكبر الطَّواغيت في الجزيرة ، ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرِّسالة العلميَّة الَّتي أشرف عليها الدُّكتور أكرم العمري.

(4) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 292.

(5) انظر: سبل الرَّشاد ، للشَّامي (303/6).

الله(ﷺ) سـريةً بقيادة عمرو بن العاص رضـي الله عنه لتحطيم سـواع، ويحدِّثنا قائد السَّـريَّة عن مهمَّته، فيقول: «فانتهيت إليه، وعنده السَّادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله(ﷺ) أن أهدمَه، قال: لا تقدر على ذلك، قلتُ: لِمَ؟ قالت: تُمْنَعُ، قلت: حتَّى الان أنت في الباطل، ويحك! هل يسـمع، أو يبصـر؟! قال: فدنوت منه فكسـرتُه، وأمرت أصـحابي، فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا شيئاً، ثمَّ قلت للسَّادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله[1].

ونستفيد من حركة السَّرايا الَّتي أرسلها رسولُ الله(ﷺ) للقضاء على الأصنام، والأوثان: أنَّه لا يجوز إبقاء مواضـع الشِّـرك، والطَّواغيت بعد القدرة على هدمها، وإبطالها يوماً واحداً، فإنَّها شعائر الكفر، والشِّرك، وهي أعظمُ المنكرات، فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القدرة ألبتَّة.

وهذا حكمُ المشَاهدِ الَّتي بُنيت على القبُور الَّتي اتخذت أوثاناً، وطواغيت تُعْبَد من دون الله، والأحجار الَّتي تُقصـد للتَّعظيم، والتَّبرُّك، والنَّذر، والتَّقبيل، لا يجوز إبقاء شـيءٍ منها على وجه الأرض عند القدرة على إزالتها، وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت، والعزَّى، ومناة الثَّالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها، وبها[2].

* * *

(1) انظر: المغازي، للواقدي (870/2)، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد رضا (سرية عمرو بن العاص إلى سُواع).

(2) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 302.

المبحث الثَّالث

دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير سورة النَّصر، وكونُها علامةً على أجَل رسولِ الله(ﷺ) :

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله(ﷺ) يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر مِنْ قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه!» فقال: خبَّرني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي فإذا رأيتُها أكثرت من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 1 – 3]». [مسلم (220/484)].

قال القرطبيُّ: وذلك لـمَّا فُتِحتْ مكَّةُ؛ قالت العرب: أما إذا ظَفِر محمَّد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (أي: طاقة) فكانوا يُسْلمون أفواجاً: أمَّةً أمَّةً[1]، وكان عمرو بن سلمة يقول: كنَّا بماءٍ ممرِّ النَّاس وكان يمرُّ بنا الرُّكبان، فنسألهم: ما للنَّاس؟ ما للنَّاس؟ ما هذا الرَّجل؟ فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله، أُوحي إليه، أو: أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام، وكأنَّما يَقِرُّ في صدري، وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنَّه إن ظهر عليهم؛ فهو نبيٌّ صادق؛ فلـمَّا كانت وقعة أهل مكَّة؛ بادر كلُّ قوم بإسلامهم.

وهذه السُّورة تسمَّى سورة التَّوديع: حيث جاءت مخبرةً بقرب أجل المصطفى(ﷺ) [2]، فعن ابن عباسٍ، قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟!، فقال عمر: إنَّه ممَّن قد علمتم. فدعاني ذات يومٍ، فأدخلني

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (230/20).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (572/2).

معهم، فما رأيت أنَّه دعاني يومئذ إلا ليريهم منِّي! قال: ما تقولون في قوله تعالى: حتَّى ختم السُّورة؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَد ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، ونستغفره إذا نصرنا، وفتح علينا، وسكت بعضُهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يَا بْنَ عباسٍ؟! فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله(ﷺ) ، أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك - فقال عمر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أعلم منها إلا ما تقول. **[البخاري (4394)]**.

ويقول سيّد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السُّورة: في مطلع السُّورة إيحاءٌ معيَّنٌ لإنشاء تصوُّرٍ خاصٍّ عن حقيقة ما يجرى في هذه الكون من أحداثٍ، وما يقع في هذه الحياة من حوادثَ، وعن دور الرَّسول(ﷺ) ، ودور المؤمنين في هذه الدَّعوة، وحدِّهم الَّذي ينتهون إليه في هذا الأمر.... هذا الإيحاء يتمثَّل في قوله: فهو نصرٌ يجيء به الله في الوقت المناسب الَّذي يقدِّره في الصُّورة الَّتي ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، للغاية الَّتي يرسمُها، وليس للنَّبيِّ، ولا لأصحابه من أمره شيءٌ، وليس لهم في هذا النَّصر يدٌ، وليس لأصحابه فيه كسبٌ، وليس لذواتهم منه نصيبٌ، وليس لنفوسهم منه حظٌّ، إنَّما هو أمر الله يحقِّقه بهم، أو بدونهم، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حُرَّاساً، ويجعلهم عليه أمناء، هذا هو كلُّ حظِّهم من النَّصر، والفتح، ومن دخول النَّاس في دين الله أفواجاً[1].

وهذا معنىً إيمانيٌّ عميقٌ، حرص القرآن على تثبيته في نفوس المؤمنين، ألا وهو: أنَّ التَّمكين بيد الله تعالى، فهو الَّذي يختار الزَّمان، والمكان، والأشخاص الَّذين يريد أن يُجرِيَ على أيديهم نصره، وفتحه - سبحانه وتعالى -، وهو كرمٌ وفضلٌ من الله محضٌ خصَّ به الصَّادقين مِنْ عباده.

(1) انظر: في ظلال القرآن (3996/6).

ثانياً: مواقفُ دعويَّةٌ وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس:

1 – إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لـــمَّا دخل رسول الله(ﷺ) مكَّة، وظهر، انقحمت[1]بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن اطْلُبْ لي جواراً من محمَّدٍ، وإنِّي لا آمن مِنْ أن أُقتل، وجعلت أتذكَّر أثري عند محمَّدٍ، وأصـــحابه، فليس أحدٌ أســـوأ أثراً منّي، وأنِّي لقيتُ رسولَ الله(ﷺ) يوم الحديبية بما لم يلحقه أحدٌ، وكنت الذي كاتبتُه، مع حضوري بدراً، وأحداً، وكلَّما تحرَّكتْ قريشٌ؛ كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله! تؤمِّنه؟ فقال: «نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر!» ثمَّ قال رسول الله(ﷺ) لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدَّ النَّظر إليه، فليخرج فلعمري! إنَّ سهيلاً له عقلٌ، وشـــرفٌ، وما مثل ســـهيل جهل الإســـلام، ولقد رأى ما كان يُوضـــع فيه: أنَّه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سُهيل: كان والله برّاً، صغيراً، وكبيراً! فكان سهيل يقبل، ويدبر، وخرج إلى حنين مع النَّبيِّ(ﷺ) وهو على شـــركـه حتَّى أســـلم بالجِعِرَّانة. [الحاكم (281/3)][2].

لقد كانت لهذه الكلمات التَّربويَّة الأثر الكبير على ســـهيل بن عمروٍ؛ حيث أثنى على رسول الله(ﷺ) بالبرِّ طوال عمره، ثمَّ دخل في الإسـلام بعد ذلك، وقد حسُـن إسـلامه، وكان مكثراً من الأعمال الصَّـالحة[3]، يقول الزُّبير بن بكَّار: كان ســهيل بعدُ كثير الصَّـلاة والصَّـوم والصَّدقة، خرج بجماعته إلى الشَّام مجاهداً، ويقال: إنَّه صـام، وتهجَّد حتى شحب لونُه، وتغيَّر، وكان كثير البُكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كُرْدُوسَةٍ[4]يوم اليرموك[5].

---

(1) أي: رميت بنفسي.
(2) انظر: مغازي الواقدي (846/2 . 847).
(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (216/7 ، 217).
(4) الكُرْدُوسَةُ: طائفة عظيمةٌ من الخيل أو الجيش ، (ج) كراديس.
(5) انظر: سير أعلام النبلاء (195/2).

2 – إسلام صفوان بن أميَّة:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: ... وأمَّا صفوان بن أميَّة فهرب حتَّى أتى الشُّعَيبة[1]، وجعل يقول لغلامه يسار – وليس معه غيره –: ويحك! انظر مَنْ ترى، قال: هذا عُمَيرُ بن وهبٍ، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي! قد ظاهر محمداً عليَّ. فلحقه فقال: يا عُمَيْرَ! ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني دَيْنَك وعيالك، ثمَّ جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبرِّ النَّاس، وأوصل النَّاس، وقد كان عُمير قال لرسول الله(ﷺ) : يا رسول الله! سيِّد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي، وأمي! قال رسول الله(ﷺ) : «قد أمنته» فخرج في أثره، فقال: إنَّ رسول الله(ﷺ) قد أمَّنك. فقال صفوان: لا والله! لا أرجع معك حتَّى تأتيني بعلامةٍ أعرفها، فرجع إلى رسول الله(ﷺ) ، فقال: يا رسول الله! جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه، فأخبرته بما أمَّنْتَه فقال: لا أرجع حتَّى تأتي بعلامةٍ أعرفها، فقال رسول الله(ﷺ) : «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البُرْدُ الَّذي دخل فيه رسول الله(ﷺ) يومئذٍ مُعتجراً[2]به، بُرد حَبِرة[3]، فخرج عمير في طلبه ثانيةً حتَّى جاء بالبُرْد، فقال: أبا وهب! جئتك من عند خير النَّاس، وأوصل النَّاس، وأبرِّ الناس، وأحلم النَّاس، مجْده مجْدُك، وعزُّه عزُّك، ومُلكُه مُلكُك، ابن أمِّك وأبيك، اذكرِ الله في نفسك.

قال له: أخاف أن أُقتل، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين، فهو أوفى النَّاس، وأبرُّهم، وقد بعث إليك ببرده الَّذي دخل فيه معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله(ﷺ) يُصلِّي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصَلُّون في اليوم واللَّيلة؟ قال: خمس

---

(1) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكَّة ، ومرسى سفنها قبل جدَّة ، انظر: معجم البلدان (276/5).

(2) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفَّها على رأسه ، ويردَّ طرفها على وجهه ، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية 69/3).

(3) الحَبِرَةُ: ضربٌ من ثياب اليمن.

صلوات، قال: يُصلِّي بهم محمَّد؟ قال: نعم. فلـــمَّا سلَّم؛ صاح صفوان: يا محمد! إنَّ عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم: أنَّك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضـــيت أمراً، وإلاَّ ســـيرتني شـــهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله! حتى تبيِّن لي، قال: بل تُسـيَّر أربعة أشـهر، فنزل صفوان. [البيهقي في الدلائل (46/5)، وابن هشام (60/4)].

وخرج رســول الله(ﷺ) قِبَلَ هوازن، وخرج معه صــفوان، وهو كافرٌ، وأرسـل إليه يسـتعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مئة درعٍ بأداتها، فقال: طوعاً، أو كرهاً؟ قال رسول الله(ﷺ) : «عاريةٌ مُؤَدَّاةٌ» [أحمد (401/3 و465/6)، وأبو داود (3562)، والحاكم (49/3)، والبيهقي في الكبرى (89/6)]، فأعاره، فأمره رســول الله(ﷺ) فحملها إلى حنين، فشـــهد حنُيناً، والطَّائف، ثمَّ رجع رســـول الله(ﷺ) إلى الجِعِرَّانة، فبينما رسول الله(ﷺ) يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أميَّة؛ جعل صفوان ينظر إلى شعْبٍ مُلئ نَعَماً، وشاءً، ورِعَاءً، فأدام إليه النَّظر ورسول الله(ﷺ) يرمقُه فقال: «أبا وهب، يعجِبُك هذا الشِّعب؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه». فقال صـفوان عند ذلك: ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفسُ نبيٍّ، أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، وأسلم مكانه. [الواقدي في المغازي (853/2 – 855)، وكنز العمال (30170)].

ونلاحظ في هذا الخبر أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) حاول أن يتألَّف صــفوان بن أميَّة إلى الإســلام حتَّى أســـلم، وذلك بإعطائه الأمان، ثمَّ بتخييره في الأمر أربعة أشـــهر، ثمَّ بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسانٍ عاديٍّ، فأعطاه أولاً مئةً من الإبل مع عددٍ من زعماء مكَّة، ثمَّ أعطاه ما في أحد الشِّعاب من الإبل، والغنم، فقال: ما طابت نفس أحدٍ بهذا إلا نفس نبيٍّ، ثمَّ أســـلم مكانه(1)، وقد وصـــف لنا صــفوان بن أميَّة عطاء النَّبيّ(ﷺ) فقال: والله! لقد أعطاني رسول الله(ﷺ) ما أعطاني، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [مسلم (2313)].

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (220/7).

3 – إسلام عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ:

قال عبد الله بن الزُّبير رضـي الله عنه: قالت أمُّ حكيمٍ امرأة عكرمة بن أبي جهل رضـي الله عنها: يا رســول الله! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله؛ فأَمِّنْهُ! فقال رســول الله(ﷺ) : «هو آمن» فخرجت أمُّ حكيمٍ في طلبه، ومعها غلامٌ لها روميٌّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تُمَنِّيه حتَّى قدمت على حَيٍّ مِنْ عَكٍّ[1]، فاســتغاثتهم عليه، فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمةَ وقد انتهى إلى ســاحلٍ من ســواحلِ تهامة، فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السَّـفينة يقول له: أخلص! فقال: أيُّ شــيءٍ أقول: قال: قل: لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما هربت إلا مِنْ هذا، فجاءت أمُّ حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلحُّ عليه، وتقول: يا بن عم! جئتك من عند أوصـل النَّاس، وأبرِّ النَّاس، وخير النَّاس، لا تُهلِكْ نَفْسَـكَ! فوقف لها حتَّى أدركته، فقالت: إنِّي قد اسـتأمنت لك محمَّداً رسـول الله(ﷺ) ، قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلَّمتُه، فأمَّنك، فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرُّوميِّ؟ فخبَّرته خبره، فقتله عكرمةُ، وهو يومئذٍ لم يُسلم، فلــمَّا دنا من مكَّة؛ قال رسول الله(ﷺ) لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبُّوا أباه، فإنَّ سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ، ولا يبلغ الميِّت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه، وتقول: إنَّك كافرٌ، وأنا مســـلمةٌ، فيقول: إنَّ أمراً منعك منِّي لأمرٌ كبير، فلـــمَّا رأى النَّبيُّ(ﷺ) عكرمة؛ وثب إليه – وما على النَّبيِّ(ﷺ) رداءٌ – فرحاً بعكرمة، ثمَّ جلس رســولُ الله(ﷺ) فوقف بين يديه، وزوجتُه مُتنقبةٌ، فقال: يا محمد! إن هذه أخبرتني أنَّك أمَّنتني.

فقال رســول الله(ﷺ) : «صَــدَقَتْ، فأنت آمن!» فقال عكرمة: فإلامَ تدعو يا محمد؟! قال: «أدعوك إلى أن تشــهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رســول الله، وأن تقيم الصَّـلاة وتؤتي الزَّكاة، وتفعل، وتفعل»، حتَّى عدَّ خصـال الإسـلام. فقال عكرمة: والله! ما دعوتَ إلا إلى الحقِّ، وأمرٍ

---

(1) عك: مخلاف من مخاليف مكَّة التهاميَّة ، معجم ما استعجم ، ص 223.

حسنٍ جميلٍ، قد كنت والله! فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقُنا حديثاً، وأبرُّنا بِرّاً! ثمَّ قال عكرمة: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، فسُرَّ بذلك رسولُ الله(ﷺ) ، ثمَّ قال: يا رسول الله! علِّمني خيرَ شيءٍ أقوله. قال: «تقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمَّداً عبده ورسوله» قال عكرمة: ثُمَّ ماذا؟ قال رسول الله(ﷺ) : «تقول: أُشْهِدُ الله وأُشْهِد مَنْ حضر أنِّي مسلمٌ مهاجرٌ، ومجاهدٌ». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله(ﷺ) : «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتُكَه» فقال عكرمة: فإنِّي أسألك أن تستغفر لي كلَّ عداوةٍ عاديتُكها، أو مسيرٍ وُضعتُ فيه، أو مقام لقيتُك فيه، أو كلام قلتُه في وجهك، أو وأنت غائبٌ عنه، فقال رسول الله(ﷺ) : «اللَّهمَّ! اغفر له كلَّ عداوةٍ عادانيها، وكلَّ مسير سار فيه إلى موضعٍ يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منِّي مِنْ عرضٍ في وجهي، أو أنا غائبٌ عنه!» فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله! لا أدع نفقةً كنت أنفقُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنتُ أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليتُ ضعفه في سبيل الله، ثمَّ اجتهد في القتال حتَّى قتل شهيداً[1].

وبعد أن أسلم رد رسول الله(ﷺ) امرأته له بذلك النكاح الأول. [ابن هشام (61/4)][2].

كان سلوك النَّبيِّ(ﷺ) في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً، يكفي وحدَه لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له، ورحَّب به، وفي روايةٍ: قال له: «مرحباً بالراكب المهاجر!» [الترمذي (2735)، والطبراني في الكبير (373/7 - 374)، ومجمع الزوائد (385/9)].

فتأثَّر عكرمة من ذلك الموقف، فاهتزَّت مشاعره، وتحرَّكت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام أثرٌ في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول

---

(1) يعني: يوم اليرموك.
(2) انظر: مغازي الواقدي (851/2 . 853).

الله(ﷺ) ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها، امتنعت عنه، وعلَّلت ذلك بأنَّه كافرٌ وهي مسلمةٌ، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنَّه أمام دين عظيمٍ، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التَّفكير في الإسلام، ثمَّ تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله(ﷺ) ، وكان صادقاً في إسلامه، فلم يطلب من رسول الله(ﷺ) دنيا؛ وإنَّما سأله أن يغفر الله تعالى له كلَّ ما وقع فيه من ذنوبٍ ماضية، ثمَّ أقسم أمام النَّبيِّ(ﷺ) بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد بَرَّ بوعده، فكان من أشجع المجاهدين، والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردَّة، ثمَّ في فتوح الشام، حتَّى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه، وماله في سبيل الله[1].

4 – مثلٌ من تواضع النَّبيِّ(ﷺ) : إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنها: لـمَّا دخل رسول الله(ﷺ) مكَّة، ودخل المسجد؛ أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلمَّا راه رسول الله(ﷺ) قال: «هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتَّى أكون أنا اتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثمَّ مسح صدره، ثمَّ قال له: «أسلم»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر، وكأنَّ رأسه ثغامةٌ، فقال رسول الله(ﷺ): «غيِّروا هذا من شعره» **[أحمد (6/349 – 350)، والطبراني في الكبير (24/88 – 89) برقم (236)، وابن حبان (7208)، والحاكم (3/46 – 47)، ومجمع الزوائد (6/173 – 174)]**[2]، ويروى: أنَّ رسول الله(ﷺ) هنَّأ أبا بكرٍ بإسلام أبيه[3].

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه النَّبيُّ(ﷺ) في توقير كبار السِّنِّ واحترامهم، ويؤكِّد ذلك قوله(ﷺ): «ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا» **[أحمد (1/257)، والترمذي (1921)، وابن حبان (459)]**.

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (7/223 ، 224 ، 225).
(2) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (4/54 ، 55).
(3) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 577.

وقوله(ﷺ) : «إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم» **[أبو داود (4843)]**، كما أنَّه(ﷺ) سَنَّ إكرام أقارب ذوي البلاء، والبذل، والعطاء، والسَّبق في الإسلام؛ تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمةٍ للإسلام والمسلمين، ونصر دعوة الله تعالى[1].

5 – مثلٌ من عفو النَّبيِّ(ﷺ) وحلمه: إسلام فضالة بن عُمَيْرٍ:

أراد فُضالة بن عُمَيْر بن الملوح اللَّيثي قتل النَّبيِّ(ﷺ) وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلـمَّا دنا منه، قال رسولُ الله(ﷺ) : «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله! قال: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فَضَحِكَ النبي(ﷺ) ، ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبُه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتَّى ما مِنْ خلق اللهِ شيءٌ أحبَّ إلي منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأةٍ كنت أتحدَّث إليها، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث، فقلت: لا! وانبعث فضالة يقول:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيْثِ فَقُلْتُ ... يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ والإِسْلاَمُ
لَوْ مَا رأيتِ محمَّداً وَقَبِيْلَهُ ... بالفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ
لَرَأَيْتِ دِيْنَ اللهِ أَضْحَى بَيِّنَاً ... والشِّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلاَمُ

[ابن هشام (4/59 – 60)][2].

ثالثاً: أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله؟!

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله(ﷺ) في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونه، قال عروة: فلـمَّا كلَّمه أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله(ﷺ) ، فلـمَّا كان العشيُّ؛ قام رسول الله(ﷺ) خطيباً فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثمَّ قال: «أمَّا بعد، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف؛ تركوه، وإذا سرق فيهم الضَّعيف، أقاموا عليه الحدَّ، والَّذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت؛ لقطعت يدها»، ثمَّ

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (7/195).
(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي (7/213).

أمر رسول الله(ﷺ) بتلك المرأة فقُطِعَتْ يـــدُها، فحسنت توبتُها بعد ذلـــك وتزوَّجت. قالت عائشـــة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله(ﷺ) . [البخاري (4304)، ومسلم (9/1688)].

وهكذا يســـتمرُّ البناء التربويُّ للأمَّة، ونرى العدل في إقامة شـــرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ ســواء، ووجدت قريش نفسـها أمام تشـريعٍ ربَّانيّ لا يفرق بين النَّاس، فهم كلُّهم أمام ربِّ العالمين سواءٌ، وأصبحت معايير الشَّرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الَّذي أثار غضـب رسـول الله الشـديد، واهتمامه الكبير لعبرةٌ للمسـلمين، حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلاميَّة[1].

رابعاً: «أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانئ !»:

قالت أمُّ هانئ بنت أبي طالب: لـــمَّا نزل رسول الله(ﷺ) بأعلى مكَّة؛ فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم - وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزوميِّ - قالت: فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي، فقال: والله! لأقتلنَّهما، فأغلقتُ عليهما باب بيتي، ثمَّ جئت رســـول الله(ﷺ) وهو بأعلى مكَّة، فوجدته يغتسل من جَفنةٍ إنَّ فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلـمَّا اغتسل، أخذ ثوبه، فتوشَّح به، ثمَّ صلى ثماني ركعاتٍ من الضُّحى، ثمَّ انصرف إليَّ، فقال: «مرحباً، وأهلاً يا أم هانئ ! ما جاء بك ؟» فأخبرته خبر الرَّجلين، وخبر عليٍّ؛ فقال: «قد أجرنا مَنْ أجرتِ، وأمَّنَّا مَنْ أمَّنْتِ، فلا يقتلهما». [البخاري (3171)، ومسلم (82/336)][2].

خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين»:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح قد أسلم وكتب الوحيَ ثمَّ ارتد، فلـــمَّا دخل رسول الله(ﷺ) مكَّة، وقد أهدر دمه؛ فرَّ إلى عثمان، وكان أخاه من الرَّضاعة، فلـمَّا جاء به ليستأمنَ

---

(1) انظر: من معين السيرة، ص 402، والتَّاريخ الإسلامي (233/7).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (59/4، 60)، وصحيح السِّيرة، ص 527.

له؛ صمت عنه رسولُ الله(ﷺ) طويلاً، ثم قال: «نعم» فلـــمَّا انصرف مع عثمان؛ قال رسول الله(ﷺ) لمن حوله: «أما كان فيكم رجلٌ رشـيدٌ يقوم إلى هذا حين راني قد صَـمَتُّ، فيقتله؟!» فقالوا: يا رســول الله! هلاَّ أومأت إلينا؟ فقال: «إنَّ النَّبيَّ لا يقتُل بإشــارة» **[الطبراني في الأوسـط (6573)، ومجمع الزوائد (167/6)]**[1].

وفي روايـةٍ: «إنَّـه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون لـه خـائنـةُ أعين» **[أبو داود (2683) و(4359)، والنسائي (105/7 – 106)]**[2].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامُه بعد ذلك، وولاَّه عمر بعض أعماله، ثمَّ ولاه عثمان[3].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجدٌ في صلاة الصُّبح، أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[4].

سادساً: «المحيا محياكم، والمماتُ مماتُكم»:

قال أبو هريرة:.... أتى رســولُ الله(ﷺ) الصَّـفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شـاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصـار تحته، قال: يقول بعضـهم لبعضٍ: أمَّا الرَّجل؛ فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفـــةٌ بعشيرته، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يَخْفَ علينا، فليس أحدٌ من النَّاس يرفع طرفـه إلى رسول الله(ﷺ) حتَّى يقضي، قال: فلـــمَّا قُضِيَ الوحي ؛ رفع رأسه، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصـار! قلتم: أمَّا الرَّجل، فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشـيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسـول الله! قال: «فما اسمي إذاً؟! كلا، إنِّي عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله، وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال: فأقبلُوا إليه يبكون، ويقولون: والله! ما قلنا الَّذي قلنا إلا الظنَّ بالله ورســـوله، قال: فقال رسـول الله(ﷺ) : «فإنَّ الله ورسـولَه ليصـدِّقانكم، ويعذرانكم». **[أحمد (538/2 – 539)، ومسلم (1780)]**[5]

---

(1) انظر: البداية والنهاية (296/4).

(2) انظر: صحيح السيرة النبوية ، ص 528.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (58/4).

(4) انظر: البداية والنِّهاية (296/4).

(5) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 529 ، 530 ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام ، وكنز العمال ، للمتقي الهندي (الأنصار

سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبَعْرى شاعر قريش

لـــــمَّا فُتِحَتْ مكَّةُ فرَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهميُّ إلى نجران، فلحقته قوافي حسَّان، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيِّره بالجُبْن، والفِرار، فقال له:

لاَ تَعْـدِمَنْ رَجُلاً أَحَلَّـك بُغضُـــهُ   نَجْـرَانَ في عَـيْـشٍ أَحـذَّ لَـئِـيْـمِ[1]

أي: فَلْيُبْقِ الله لنا محمَّداً(ﷺ) هذا الرَّجل العظيم الَّذي أحلَّك بغضُه ديارَ نجران، وليُدِمِ الله عليك ابن الزِّبعرى عيشاً مهيناً أشأم.

ثمَّ راح حسَّان يستنزل غضب اللهِ ومَقْتَه على ابن الزِّبعرى وعلى نجله، ويسأل الله تعالى أن يخلِّده في سوء العذاب، وأليمه[2]:

غَضِـــبَ الإلَـهُ عَـلَـى الـزِّبَـعْـرَى   وعَـذَابُ سُـــوءٍ في الحَـيَـاةِ مُـقِـيْـمُ

فتطايرت تلك الأبيات، ووصلت إلى ابن الزِّبَعْرَى، فقام، وقعد، وقلب أموره، ثمَّ أراد الله به الخير، فعزم على الدُّخول في الإسلام، ثمَّ توَّجه إلى مكَّة، وقصد رسول الله(ﷺ) وأعلن إسلامه، وطلب مِنْ رسول الله(ﷺ) أن يستغفر له كلَّ عداوةٍ له، وللإسلام، فقال له رسول الله(ﷺ) : «إن الإســلام يجبُّ ما قبله [3]»، ثمَّ أدناه رسـول الله(ﷺ) منه، وانسـه، ثمَّ خلع عليه حلَّةً [4]، وقد أجمع الرُّواة أنَّ ابن الزِّبَعْرَى رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رســـول الله(ﷺ) [5]، قال ابن عبد البرِّ – رحمه الله –: وله – أي: لابن الزِّبَعْرى – في مدح النَّبي(ﷺ) أشعارٌ كثيرةٌ، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كُفْرِه[6].

رضي الله عنهم).

(1) انظر: البداية والنِّهاية (307/4)

(2) الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى ، محمَّد كاتبي ، ص 92.

(3) المغازي (848/2).

(4) الأعلام ، للزركلي (87/4) ، والإصابة ، لابن حجر (308/2) نقلاً عن المرجع الذي بعده.

(5) انظر: الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى ، ص 97.

(6) انظر: الاستيعاب ، لابن عبد البرّ (310/2).

وكذا نصَّ ابنُ حجرٍ في الإصابة: ثمَّ أسلم، ومدح النَّبيَّ(ﷺ) ، فأمر له بِحُلَّةٍ[1].

وقال القرطبي: «وكان شاعراً مُجيداً، وله في مدح النَّبيّ(ﷺ) أشعارٌ كثيرةٌ، ينسخ بها ما قد مضى في كفره»[2]، وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام، وَمِنَ الشُّعراء الَّذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثمَّ منَّ اللهُ عليه بالتَّوبة والإنابة، والرُّجوع إلى الإسلام، والقيام بنصره والذَّبِّ عنه[3] .

ومن القصائد الرَّائعة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ(ﷺ) ، وندمه على محاربة الإسلام، وتأخُّره في الدُّخول فيه:

مَـنَـعَ الـرُّقَـادَ بَـلابِـلٌ وهُمُـومُ ... واللَّيْلُ مُعْتَلِجُ[4] الرِّوَاقِ[5] بَهِيْمُ[6]
مِمَّـا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَـدَ لامَـنِيْ ... فِيْـهِ فَـبِـتُّ كـأَنَّـنِي مَحْـمُـوْمُ
يا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَى أَوْصَـالِهَا ... عَيْرَانةٌ[7] سُـرُحُ الْيَدَيْنِ غَشُـوْمُ[8]
إِنِّي لَمُعْتَـذِرٌ إِلَيْـكَ مِنَ الَّـذيْ ... أَسْـدَيْتُ إذ أَنَا في الضَّـلالِ أَهِيْمُ
أَيَّامَ تأْمُـرُنِي بأَغْـوَى خُـطَّـةٍ ... سَـهْـمٌ وتأْمُـرُنِي بِهَـا مَخْـزُوْمُ
وأمـدُّ أَسْـبَـابَ الرَّدَى ويَقُودُنِي ... أَمْـرُ الـغُـوَاةِ وأَمْـرُهُـمْ مَشْـؤومُ
فـالْـيَـوْمَ آمـن بالـنَّـبِيِّ مُحَـمَّـدٍ ... قَـلْـبِي وَمُخْـطِـئ هَـذِهِ مَحْـرُوْمُ
مَضَـتِ العَداوَةُ وانْقَضَـتْ أَسْبَابُهَا ... ودَعَـتْ أَوَاصِـرُ بَيْنَنَـا وَحُلوْمُ
فـاغْفِرْ فِـدىً لـكَ والِـدَيَّ كِلاَهُمَـا ... زَلَـلِـيْ فـإِنَّـكَ رَاحِـمٌ مَـرْحُـوْمُ
وعَلَيْـكَ مِنْ عِلْمِ المِلِيْـكِ عَلامَـةٌ ... نُـوْرٌ أَغَـرُّ وخـاتَمٌ مَخْـتُـومُ

(1) انظر: الإصابة (308/2).
(2) انظر: تفسير القرطبيّ (407/6).
(3) انظر: البداية والنِّهاية (308/4)
(4) معتلج: ملتطم.
(5) الرِّواق: مقدم اللَّيل.
(6) بهيم: لا ضوء فيه إلى الصَّباح.
(7) عيرانة: راحلة.
(8) غشومُ: شجاعٌ ، لا يثنيه أمرٌ عن عزمه.

أعْطَـاكَ بَعْـدَ مَحَبَّـةٍ بُرْهَـانَـهُ شَـــرَفـاً وبُرْهَـانُ الإلـهِ عَظِيْمُ
وَلَقَدْ شَـهِدْتُ بأنَّ دِيْنَك صَـادِقٌ حَقٌّ وأنَّـكَ في الْعِبَـادِ جَسِـيْمُ
واللهُ يَشْـهَدُ أنَّ أَحْمَدَ مُصْـطَفى مُسْـتَقْبَلٌ في الصَّـالِحِيْنَ كَرِيْمُ
قَرْمٌ عَلاَ بُنْيَـانُـهُ مِنْ هَـاشِـمٍ فَـرْعٌ تَمَـكَّـنَ في الـذُّرا وأُرُوْمُ[1]

ثامناً: من الأحكام الشَّرعيَّة الَّتي تؤخذ من الغزوة، ومكانُ نزول الرَّسول(ﷺ) بمكَّة:

1 - اتَّضحت كثير من الأحكام الشَّرعيَّة خلال فتح مكَّة؛ منها:

أ - جواز الصَّوم، والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصيةٍ؛ حيث صام الرَّسول(ﷺ) في مسيرة الجيش من المدينة حتَّى بلغ كُدَيْداً، فأفطر[2].

ب - صلَّى النَّبيُّ(ﷺ) صلاة الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ خفيفةً، واستدلَّ قوم بهذا على أنَّها سنَّةٌ مؤكَّدةٌ(1).

ج - قصر الصَّلاة الرُّباعية للمسافر، فقد أقام النَّبيُّ(ﷺ) بمكَّة تسعةَ عَشَرَ يوماً يقصر الصَّلاة[3].

د - تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدَّة ثلاثة أيام[4]، ويرى الإمام النَّوويُّ[5]: أنَّه وقع تحريمه، وإباحته مرَّتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحُرِّم يومها، ثمَّ أبيح يوم الفتح، ثمَّ حُرِّم للمرة الثَّانية إلى الأبد. ويرى ابن القيِّم[6]: أن المتعة لم تُحرَّم يوم خيبر، وإنَّما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشةٌ طويلةٌ عند كلامه عن الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (307/4، 308)، أروم: أصل.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص 574.
(3) انظر: المجتمع المدني، ص 185.
(4) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 575.
(5) النَّوويُّ على شرح مسلم (181/9)، وقد اعتمدت في فقه الأحكام على ما استخرجه الدُّكتور العمري في المجتمع المدني، والدُّكتور مهدي رزق الله في السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة.
(6) انظر: زاد المعاد (343/3. 345. 459. 464).

غزوة خيبر، وغزوة الفتح. والمتَّفق عليه: أنَّها حرِّمت إلى الأبد بعد الفتح[1].

هـ قرَّر الرَّسول(ﷺ) : أنَّ الولد للفراش، وللعاهر الحجر. [سبق تخريجه]. كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة، فقد تنازع فيه سعدُ بن أبي وقَّاص وعبد بن زمعة، فقضى فيه رسول الله(ﷺ) لعبد بن زمعة؛ لأنَّه ولد على فراش أبيه. [سبق تخريجه].

و – عدم جواز الوصيَّة بأكثر من ثلث المال، كما في قصَّة سعد بن أبي وقَّاص حين مرض بمكَّة، واستشار الرَّسول(ﷺ) في أن يوصيَ بأكثر من الثُّلث[2].

هذه بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث الغزوة، والفتح العظيم.

2 – مكان نزول الرَّسول(ﷺ) بمكَّة:

نزل رسولُ الله(ﷺ) بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع، أو دور؟!» [البخاري (1588)، ومسلم (1351)] مبيناً: أنَّه لا يرث المسلم الكافر [البخاري (6764)، ومسلم (1614)][3]، وكان عقيل قد ورث أبا طالب، هو وطالب أخوه، وباع الدُّورَ كلَّها، وأمَّا عليٌّ، وجعفرٌ فلم يرثاه لأنَّهما مسلمان، وأبو طالب مات كافراً[4].

تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة:

كان لفتح مكَّة نتائجُ كثيرةٌ؛ منها:

1 – دخلت مكَّة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشِّرك في حنين، والطائف، ومن ثَمَّ في العالم أجمع.

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 575.
(2) المجتمع المدني، للعمري، ص 186.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة، للعمري (482/2).
(4) المصدر السابق نفسه.

2 – أصـــبح المســـلمون قوةً عظمى في جزيرة العرب، وبعد فتح مكَّة تحقَّقت أمنية الرَّســول(ﷺ) بدخول قريش في الإســلام، وبرزت قوَّةٌ كبرى في الجزيرة العربيَّة لا يســتطيع أيُّ تجمُّعٍ قبليٍّ الوقوف في وجهها، وهي مؤهَّلةٌ لتوحيد العرب تحت راية الإســلام، ثمَّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم، والطُّغيان، وتأمين الحرِّيَّة لخلق الله؛ لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده دون سواه[1].

3 – كان لهذا الفتح اثارٌ عظيمةٌ دينيَّةٌ، وســـياســـيَّةٌ، واجتماعيَّة، وقد بدأت هذه الاثار بصورة يلمَسُها كلُّ مَنْ يُمعن النَّظر في هذا الفتح المبارك.

فأمَّا الاثار الاجتماعيَّة؛ فتمثَّلت في رفقه(ﷺ) بالنَّاس، وحرصــه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يُعلِّمهم، ويفقِّههم في دينهم فقد أبقى معاذ بن جبل رضـــي الله عنه في مكَّة بعد انصـــرافه عنها ليصـــلِّيَ بالنَّاس، ويفقِّههم في دينهم.

وأمَّا الاثار السِّـياسـيَّة، فقد عيَّن عتَّابَ بْنَ أَسِـيْدٍ أميراً على مكَّة، يحكم بين النَّاس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظَّالم[2].

وأمَّا الاثار الدِّينيَّة؛ فإنَّ فتح مكة، وخضـوعها لسـلطان الإسـلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الِّدين الَّذي ارتضاه الله لعباده، فدخلوا فيه أفواجاً[3].

4 – تحقَّق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصَّادقين، بعدما ضـحَّوا بالغالي، والنَّفيس، وحقَّقوا شروط التَّمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه، كسنَّة الابتلاء، والتَّدافع، والتَّدرُّج، وتغيير النُّفوس، والأخذ بالأسـباب، ولا ننسـى تلك الصُّـورة الرَّائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذِّناً بالصَّـــلاة بعد أن عُذِّبَ في بطحاء مكَّة، وهو يردد: أحد! أَحد! في أغلاله وحديده، هاهو اليوم قد صعد فوق الكعبة ليرفع صوته الجميل بالأذان؛ وهو في نشوة الإيمان.

---

(1) انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسية والعسكريَّة ، لأحمد عرموش ، ص 129.

(2) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص 266.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص 267.

الفصل السَّادس عشر

غزوة حنين، والطَّائف (8 هـ)[1]

المبحث الأوَّل

أسبابها، وأحداث المعركة

لـــــمَّا فتح الله مكَّة على رسـوله، والمؤمنين، وخضـعت له قريشٌ، خافت هوازن، وثقيفٌ، وقالوا: قد فرغ محمَّد لقتالنا، فلنغزُه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولَّوْا عليهم مالكَ بن عوف النَّصْـــريَّ، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبنو هلال، ولم يحضـــرها من هوازن كعبٌ، وكلابٌ، وكان معهم دُرَيْدُ بنُ الصِّـمَّة، وكان معروفاً بشـدَّة البأس في الحرب، وأصـالة الرَّأي، إلا أنَّه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي، والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النِّساء والذَّراري، والأموال حتى لا يفرُّوا، فلمَّا علم بذلك دُرَيْدُ؛ ســـأله: لِمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ أهلَه، ومالَه؛ ليقاتل عنهم، فقال دُرَيْدُ: راعي ضـأنٍ والله، وهل يردُّ المنهزمَ شـيءٌ؟! إنَّها إن كانت لك؛ لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه، ورمحه، وإن كانت عليك؛ فُضِحْتَ في أهلك ومالك!! ولكنَّه لم يستمع لمشورته[2].

أوَّلاً: أهمُّ أحداث غزوة حنين:

تحرَّك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شـوَّال[3]، وقد اسـتخلف الرَّسـول(ﷺ) عَتَّابَ بْنَ أَسِـيْدٍ على مكَّة عند خروجه، وكان عدد جيش المسـلمين اثني عشـر ألفاً من المسـلمين، أمَّا عدد هوازن، وثقيف: فكانوا ضـعف عدد

(1) ينظر الشكلان (18 و19) في الصفحتين (762 و763).

(2) انظر: السّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (467/2)، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (88/4).

(3) انظر: طبقات ابن سعد (150/2).

المســـلمين، أو أكثر، ولما رأى بعض الطُّلقاء جيش المســـلمين؛ قالوا: لن نُغْلَبَ اليوم من قلَّة، ودخل الإعجابُ في النُّفوس[1].

أ – التعبئة الَّتي اتَّخذها مالكُ بن عوف زعيمُ هوازن، وثقيف:

اتَّخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئةً عاليةً، مرَّت بمراحل:

1 – رفع الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشـه، وحثَّهم على الثَّبات، والاسـتبسـال، وممَّا قال في هذا الجمع الحاشـــد: إنَّ محمداً لم يقاتل قطُّ قبل هذه المرَّة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً[2]، لا علم لهم بالحرب فيُنصَرُ عليهم[3].

2 – حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشـد نسـاء المقاتلين، وأطفالهم، وأموالهم خلفهم، وقد قصـد من وراء هذا التَّصرُّف دفع المقاتلين إلى الاستبسال، والثبات أمام أعدائهم؛ لأنَّ المقاتل – من وجهة نظره – إذا شـعر أنَّ أعزَّ ما يملك وراءهُ في المعركة؛ صـعُب عليه أن يلوذ بالفرار مخلِّفاً ما وراءه في ميدان المعركة؛ عن أنس بن مالكٍ رضـي الله عنه، قال: افتتحنا مكَّة، ثمَّ غزونا حنيناً، فجاء المشـركون بأحسن صفوفٍ رأيتُ، قال: فصُفَّتِ الخَيْلُ، ثُمَّ صُفَّت المقاتلة، ثمَّ صُفَّتِ النِّساءُ من وراء ذلك، ثُمَّ صُفَّتِ الغنم، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ. **[مسلم (136/1059)]**.

3 – تجريد السُّيوف، وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسـروا أجفان سـيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التَّصـرُّف يؤذن بإصرار المقاتل على الثَّبات أمام الخصم حتَّى النَّصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (497/2).

(2) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين، وإسكان الميم، وهو الذي لم يجرِّب الأمور.

(3) انظر: مغازي (893/3).

تحقيقاً لهذا، بدليل قولـه: إذا أنتم رأيتم القوم؛ فاكسروا جفون سيوفكم، وشدُّوا شدَّة رجلٍ واحدٍ عليهم. **[الحاكم (48/3 – 49)، ومجمع الزوائد (179/6 – 180)]**.

4 – وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كان عند مالك بن عوف النَّصْـرِيِّ معلوماتٌ وافيةٌ عن الأرض الَّتي سـتدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغلَّ هذه الظُّروف الطَّبيعيَّة لصالح جيشه، فعمل بمشـورة الفارس المحنَّك دُرَيْدُ بن الصِّـمَّة في نصـب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضـي على قوات المسلمين لولا لطفُ الله – سبحانه وتعالى – وعنايتُه.

5 – الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضـمنَ الخطَّة الَّتي رسمها القائد الهوازنيُّ الأخذُ بزمام المبادرة، ومهاجمة المسـلمين؛ لأنَّ النَّصر في الغالب يكون للمهاجم، أمَّا المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضَّعف، ولهذا اتت هذه الخطَّة ثمارها بعض الوقت، ثمَّ انقلبت موازين القوى – بفضـل الله تعالى – ثمَّ بثبات رسـول الله(ﷺ) حيث كسب المسلمون الجولة، وانتصروا على أعدائهم[1].

6 – شن الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين:

كان من ضـمن بنود الخطَّة الحربيَّة الَّتي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازنيُّ، اسـتعمال سلاحٍ معنويٍّ، له تأثيرٌ كبيرٌ في النُّفوس، فقد شنَّ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسـهم، وذلك بأن عمد إلى عشـرات الالاف من الجمال الَّتي صـحبها معه في الميدان، فجعلها وراء جيشه ثمَّ أركب عليها النساء، فكان لذلك المشـهد منظرٌ مهيب يحسب من يراه: أنَّ هذا الجيش مئة ألف مقاتلٍ، وهو ليس كذلك[2].

---

(1) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص)، ص 252.

(2) انظر: غزوة حنين، للشَّيخ محمَّد أحمد باشميل، ص 128 . 131.

ب – خطوات الرَّسول(ﷺ) لصدِّ هذه الحشود:

لـــــــمَّا بلغ النبي(ﷺ) عزم هوازن على حربه بعد أن تمَّ له فتح مكَّة – شـــرَّفها الله – قام بالآتي:

1 – أرسل عبدَ الله بن أبي حَدْرَد الأسْلميَّ حتَّى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب رضي الله عنه، ومكث بينهم يوماً أو يومين، ثم عاد، وأخبر النَّبي(ﷺ) بما رأى[1].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرَّســـول(ﷺ) وعاد على وجه السُّـــرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنَّه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب؛ حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يســـمع، ويرى ما يُدبَّر ضـــدَّ المســـلمين هناك، وكان من أهمِّ ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين الَّتي احتلُّوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن الَّتي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي، حتَّى اســـتطاعوا أن يمطروا المســـلمين بوابل من ســـهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحدَ الأسـباب الرَّئيسـة وراء هزيمة المسـلمين في أوَّل المعركة، وما حدث نتيجةً لهذا الخطأ لا يقدح في العصـمة الثَّابتة لرسـول الله(ﷺ) ؛ لأنَّ هذا الأمر ليس وحياً من الله – سـبحانه وتعالى – وإنَّما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسـكريَّة، وقد بذل النَّبيُّ (ﷺ) جهده في سـبيل الحصـول على أدقِّ المعلومات، وأوفاها؛ لكي يضـع على ضـوئها الخطَّة العسكريَّة المناسبة لمجابهة العدوِّ[2].

2 – عُدَّة الجيش، واستعارة الدُّروع، والرِّماح:

أعدَّ رسول الله(ﷺ) جيشاً قوامه عشرة الاف، وهم مَنْ خرجوا معه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفاً، عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لـمَّا كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن، وغطفان بذراريهم، ونَعَمِهم؛ ومع النَّبِيِّ(ﷺ) يومئذٍ

---

(1) انظر: تاريخ الطَّبري (73/3).

(2) انظر: القيادة العسكريَّة على عهد رسول الله (ص) ، ص 369.

عشــرة الاف، ومعه الطُّلقاء[1]، وهم ألفان [مســلم (135/1059)]، وســعى(ﷺ) لتأمين عُدَّة الجيش فطلب من ابن عمِّه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة الاف رمح إعارةً، وطلب من صفوان بن أميَّة دروعاً، وتكفَّل(ﷺ) بالضَّمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم. عن صــفوان بن يعلى بن أميَّة عن أبيه عن النَّبيِّ(ﷺ) قال: «إذا أتتك رســلي فأعطهم – أو قال: فادفع إليهم – ثلاثين درعاً، وثلاثين بعيراً، أو أقلَّ من ذلك» فقال له: العارية مؤدَّاة يا رسول الله؟! قال: فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «نعم» [أحمد (222/4)، وأبو داود (3566)، والنسائي في السنن الكبرى (5744)].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله(ﷺ) استعار منه يوم حنين دروعاً، فقال: أغصباً يا محمد؟! قال: «لا، بل عاريةٌ مضـمونةٌ». قال: فضـاع بعضـها، فعرض عليه رسـول الله(ﷺ) أن يضـعها له، فقال: أنا اليوم يا رســول الله في الإســلام أرغب. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يســلم، ثمَّ أسلم. [أحمد (465/6)، وأبو داود (3562)، والحاكم (49/3)، والبيهقي في السنن الكبرى (89/6)].

3 – ثباته(ﷺ) وأثره في كسب المعركة:

ســبقت هوازن المســلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثُّوا كتائبهم في شــعابه، ومنعطفاته، وأشـجاره، وكانت خطَّتهم تتمثَّل في مباغتة المسـلمين بالسِّـهام في أثناء تقدُّمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشـركون المسـلمين، وأمطروهم من جميع الجهات، فاضـطربت صـفوفهم، وماج بعضــهم في بعضٍ، ونتيجةً لهول هـذا الموقف انهزم معظم الجيش، ولاذوا بالفرار، كلٌّ يطلب النَّجاة لنفسـه، وبقي الرَّسـول(ﷺ) ، ونفرٌ قليل في الميدان يتصـدَّوْن لهجمات المشـركين، ونترك العباس عمَّ الرسـول(ﷺ) يصـف لنا ذلك المشـهد المهيب، حيث يقول: شـهدت مع رسـول الله(ﷺ) يوم حنين، فلزمتُ أنا، وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله(ﷺ) ، فلم نفارقه ، ورسول

(1) الطُّلقاء: هم الذين أطلقهم النَّبيُّ (ص) بعد فتح مكة ، وخلَّى سبيلهم.

الله(ﷺ) على بغلةٍ لـه بيضاء، فلـمَّا التقى المسلمون والكفـار ؛ وَلَّى المسلمون مدبريـن، فطفق رســول الله(ﷺ) يَرْكُضُ بغلته قِبَلَ الكفار، قال العباس: وأنا اخذ بلجام بغلة رســول الله(ﷺ) أَكُفُّها إرادة ألاَّ تسرع، فقال رسول الله(ﷺ) : «أي عباس ! نادِ أصحاب السَّمُرَة».

فقال العباس – وكان رجلاً صَـيِّتَاً – فقلت: بأعلى صـوتي: أين أصـحاب السَّـمُرة؟ قال: فوالله! لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صـــوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفَّارَ، والدَّعوةُ في الأنصـار، يقولون: يا معشـر الأنصـار! يا معشـر الأنصـار! قال: ثمَّ قُصِـــرتِ الدَّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رســـول الله(ﷺ) وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله(ﷺ) : «هذا حينَ حميَ الوطيسُ». **[مسلم (1775)، وعبد الرزاق في المصنف (379/5 – 380)، وابن هشام (87/4)]**.

لقد أيّد الله نبيّه(ﷺ) يوم حنينٍ بأمورٍ، منها:

- نزول الملائكة من السَّماء.
- سلاح الرُّعب[1].
- تأثير قبضتي الحصى والتُّراب في أعين الأعداء.

من الأسـلحة المادِّية الَّتي أيَّد الله بها رسـولَه(ﷺ) يوم حنين تأثير قبضـتي الحصـى والتُّراب اللَّتين رمى بهما وجوه المشـركين، حيث دخل في أعينهم كلِّهم من ذلك الحصى والتُّراب، فصـار كلُّ واحد يجد لها في عينيه أثراً، فكان من أسـباب هزيمتهم[2]، قال العبَّاس رضـي الله عنه: ثمَّ أخذ رسـول الله(ﷺ) حصـياتٍ، فرمى بهنَّ وجوه الكفَّار. ثمَّ قال: «انهزَموا وربِّ محمَّد!» قال: فذهبت أنظر فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى، قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصـياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً، وأمرهم مُدْبراً. **[سبق تخريجه]**.

---

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية ، ص 559.

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص) ، ص 259.

ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس، والطَّائف:

أ – قال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه:

لــــــمَّا فرغ النَّبيُّ(ﷺ) من حنين؛ بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصِّمَّة، فَقُتِل دُرَيْدُ، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في رُكبته، رماه جُشـميٌّ بسـهمٍ فأثبته في رُكبته، فانتهيت إليه، فقلت: يا عمُّ! مَنْ رماك ؟ فأشـار إلى أبي موســى ، فقال : ذاك قاتلي الَّذي رماني ، فقصــدت له، فلحقته، فلما راني وَلَّى، فاتَّبَعْتُهُ، وجعلت أقول له: ألا تســتحي، ألا تثبت، فكفَّ. فاختلفنا ضــربتين بالسَّــيف فقتلتُه، ثمَّ قلت لأبي عامرٍ، قتل الله صاحبك. قال: فانْزِع هذا السَّهم، فنزعتُه، فنزل منه الماء.

قال: يابن أخي! أقرئ النَّبيَّ(ﷺ) السَّلام، وقل له: استغفر لي، واسْتَخْلَفَني أبو عامرٍ على النَّاس، فمكث يسـيراً ثمَّ مات. فرجعتُ، فدخلت على النَّبيِّ(ﷺ) في بيته على سـريرٍ مُرْمَلٍ[1]، وعليه فراش قد أثَّر رمالُ السَّــرير بظهره، وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر، وقوله: قل له: استغفر لي، فدعا بماء، فتوضَّأ، ثمَّ رفع يديه فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعُبيد أبي عامر». ورأيت بياضَ إبطيـه. ثمَّ قـال: «اللَّهُمَّ! اجعلـه يوم القيـامـة فوق كثيرٍ من خلقـك من النَّـاس» فقلـت: ولي فاستغفر، فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعبد الله بن قيس ذنبَه، وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً».

قال أبو بردة[2]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موســـى. [البخاري (2884)، ومســلم (2498)].

ب – محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصــر رســول الله(ﷺ) أهل الطَّائف واســتخدم أســاليب متنوعةً في القتال، والحصــار، ومارس الشُّـورى، واختار المكان المناسـب عند الحصـار، واسـتخدم الحرب النَّفسـيَّة، والدِّعاية في

(1) أي: معمول بالرِّمال ، وهي حبال الحصر الَّتي تضفر بها الأسرَّة.

(2) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.

صفوف الأعداء، ومن هذه الأساليب:

1 – استخدم(ﷺ) أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النَّبيُّ(ﷺ) في حصاره للطَّائف أسلحةً جديدةً لم يسبق له أن استعملها من قبلُ، وهذه الأسلحة هي:

. المنجنيق:

فقد ثبت: أنَّ الرَّسول(ﷺ) استعمل هذا السِّلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطَّائف، فعن مكحولٍ – رضي الله عنه – أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) نصب المنجنيق على أهل الطَّائف. **[أبو داود في المراسيل (335)، والترمذي في نهاية الحديث (2762)].**

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثَّقيلة ذات التأثير الفعَّال على من وُجِّهَت إليه، فبحجارته تُهدَّم الحصون والأبراج، وبقنابله تُحَرَّق الدُّور والمعسكرات، وهذا النَّوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته، واستخدامه عند القتال[1].

. الدَّبابة:

ومن أسلحة الحصار الثَّقيلة الَّتي استعملها الرَّسول(ﷺ) لأوَّل مرَّةٍ في حصار الطائف: الدَّبابة، والدَّبابة على شكل بيت صغير تُعمل من الخشب، وتُتَّخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرَّمي[2].

. الحسَك الشَّائِك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرَّسول(ﷺ) في حصاره لأهل الطائف الحسَّك الشَّائك، وهو من وسائل الدِّفاع الثابتة، ويُعمل من خشبتين تُسمَّران على هيئة الصليب، حتَّى

---

(1) انظر: المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، للواء محمد فرج ، ص 407.

(2) انظر: القيادة في عهد الرَّسول (ص) ، ص 405.

تتألَّف منها أربعةُ شـــعبٍ مدبَّبة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شـــعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل، والمشاة، فتتعطَّل حركة السَّير السَّريعة المطلوبة في ميدان القتال[1].

وقد ذكر أصـحاب المغازي، والسِّـير: أنَّ الرَّسـول(ﷺ) اسـتعمل هذا السِّـلاح في حصـاره لأهل الطَّائف، حيث أمر جنده بنشـر الحسك الشَّائك حول حصـن ثقيف[2] وفي هذا إشـارة لقادة الأمَّة خصـوصـاً، والمسـلمين عموماً ألاَّ يعطِّلوا عقولهم، وتفكيرهم من أجل الاسـتفادة من النَّافع، والجديد الَّذي يُحَقِّق للأمَّة مصلحة الدَّارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

2 – اختيار رسول الله(ﷺ) مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكانٍ مكشـــوف قريبٍ من الحصـــن، وما كاد الجند يضـــعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السِّـهام؛ فأصيب من جرَّاء ذلك ناسٌ كثيرون، وحينئذٍ عرض الحُبَابُ بنُ المنذر على الرَّســـول(ﷺ) فكرة التَّحوُّل من هذا الموقع إلى مكانٍ آمن من ســـهام أهل الطَّائف، فقبل(ﷺ) هذه المشـورة، وكلَّف الحُبَاب؛ لكونه من ذوي الخبرات الحربيَّة الواسـعة في هذا المجال بالبحث عن موقعٍ ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه ثمَّ حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النَّبيَّ(ﷺ) بذلك، فأمر النَّبيُّ(ﷺ) جيشه بالتَّحوُّل إلى المكان الجديد.

وهذا شـاهد عيان يحدِّثنا عَمَّا رأى، قال عمرو بن أميَّة الضَّـمريُّ رضـي الله عنه: لقد اطلع علينا مِنْ نبلهم ساعة نَزَلْنا شيءٌ الله به عليم، كأنَّه رَجْلُ جرادٍ، وترَّسنا لهم حتَّى أصيب ناسٌ من المســـلمين بجراحةٍ، ودعا رســـول الله(ﷺ) الحُبَاب، فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مســـتأخراً عن القوم» فخرج الحُبَاب حتَّى انتهى إلى موضـــع مســـجد الطَّائف[3] خارج القرية، فجاء إلى النَّبيّ(ﷺ) فأخبره، فأمر النَّبيُّ(ﷺ) أن يتحوَّلوا[4].

---

(1) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام ، للواء عبد الرؤوف عون ، ص 195.

(2) انظر: الطَّبقات الكبرى (214/2).

(3) مسجد الطَّائف: هو المسجد المعروف الان بمسجد ابن عبَّاس.

(4) انظر: مغازي الواقدي (416/1).

3 – استخدام الحرب النَّفسيَّة والدِّعاية:

لما اشـــتدَّت مقاومة أهل الطائف، وقتلوا مجموعةً من المســـلمين؛ أمر النَّبيُّ(ﷺ) بتحريق بساتين العنب، والنَّخل في ضواحي الطَّائف للضغط على ثقيفٍ، ثمَّ أوقف هذا العمل بعد أثَرِهِ في معنوياتهم وإضـعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشـدته ثقيف بالله وبالرَّحم أن يترك هذا العمل، ووجَّه النَّبيُّ(ﷺ) نداءً لِعَبِيدِ الطَّائف أنَّ من ينزل من الحصـــن، ويخرج إلى المســـلمين فهو حرٌّ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثَّقفي، فأسلموا، فأعتقهم، ولم يعدهم إلى ثقيفٍ بعد إسلامهم[1].

4 – الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله(ﷺ) في رفع الحصار واضحةً، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعةً لها، بل صـارت ضـمن سـيادة الدَّولة الإسـلاميَّة، ولم تعد تسـتمدُّ قوَّتها إلا من امتناع حصـونها، فحصـارها ورفعه سـواء أمام القائد المحنَّك، وقد استشـار رسـول الله(ﷺ) مَنْ حوله في عمليَّة الحصـار[2]، فقال نوفل بن معاوية الدَّيليُّ: ثعلب في حجرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضـرَّك! فأمر رســول الله(ﷺ) ابن الخطَّاب فأذَّن في النَّاس بالرَّحيل، فضـج النَّاس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يُفتح علينا الطَّائف؟! فقال رسـول الله(ﷺ) : «فاغدوا على القتال»، فغدوا فأُصيب المسـلمون بجراحاتٍ، فقال رسـول الله(ﷺ) : «إنا قافلون غداً إن شـاء الله»، فسُرُّوا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسولُ الله(ﷺ) يضحك. **[البخاري (4325)، ومسلم (1778)]**. فلـــمَّا ارتحلوا، واستقلُّوا، قال: «قولوا: ايبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون» **[أحمد (21/2)، والبخاري (1797)، ومسلم (1344)]**[3]، وقيل: يا رسـول الله! ادعُ الله على ثقيفٍ، فقال: «اللَّهمَّ اهدِ ثقيفاً، وائتِ بهم». **[أحمد (343/3)، والترمذي (2942)، وابن أبي شـيبة في المصـنف (201/12)، وانظره في مشكاة المصابيح (5986)]**[4].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (510/2).

(2) انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة، للشجاع، ص 206.

(3) انظر: زاد المعاد (497/3).

(4) المصدر السابق نفسه، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 566.

المبحث الثاني

فقه الرَّسول(ﷺ) في التَّعامل مع النُّفوس

ويظهر هذا الفقه في عدَّة مواقف من هذه الغزوة، منها:

أ – لا رجعة لِلوَثَنِيَّة:

خرج مع رسـول الله(ﷺ) إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهليَّة، وكانت لبعض القبائل شـجرةٌ عظيمةٌ خضـراء يقال لها: ذاتُ أنواطٍ، يأتونها كلَّ سـنةٍ، فيعلِّقون أسـلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وبينما هم يسيرون مع رسول الله(ﷺ) إذ وقع بصرهم على الشَّجرة، فتحلَّبَتْ أفواههم على أعياد الجاهليَّة الَّتي هجروها، ومشاهدها الَّتي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسـول الله! اجعل لنا «ذاتَ أنواطٍ» كما لهم «ذاتُ أنواطٍ»، فقال رسـول الله(ﷺ) : «الله أكبر! قلتُم والذي نفس محمد بيده! كما قال قوم موسى لموسى: لَـتَـرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم. ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: 138] ، [(218/5)، والترمذي (2180)، والبيهقي في الدلائل (125/5)][1].

وهذا يعبِّر عن عدم وضـوح تصـوُّرهم للتَّوحيد الخالص رغم إسـلامهم، ولكن النَّبيَّ(ﷺ) أوضح لهم ما في طلبهم من معانـي الشِّرك، وحذَّرهم من ذلـك، ولم يعاقبهم، أو يعنِّفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسـلام[2]، وقد سمح لهم الرَّسـول(ﷺ) بالمشـاركة في الجهاد، لأنَّه لا يشـترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صـحَّح اعتقاده تماماً من غبش الجاهليَّة، وإنَّما الجهاد عمل صـالح يثاب عليه فاعله، وإن قصـر في بعض أمور الدِّين الأخرى، بل الجهاد مدرسـةٌ تربويَّةٌ تعليميَّةٌ يتعلَّم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد، والأحكام، والأخلاق، وذلك لما يتضـمَّنه من السَّفر، وكثرة اللِّقاءات الَّتي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار[3].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص 349.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (497/2).

(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (62/8).

ب – الإعجابُ بالكثرة يحجبُ نصر الله:

الإعجابُ بالكثرة حجب عن المسلمين النَّصر في بداية المعركة، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ **[التوبة: 25]**.

وقد نبَّه إلى هذا رسول الله(ﷺ) حينما أوضح: أنَّه «لا حول، ولا قوَّة إلا بالله» فيقول: «اللَّهُمَّ بك أجُول، وبك أَصُولُ، وبك أُقَاتِلُ» **[أحمد (3/332 و333)، وابن حبان (1975)، والنسائي في اليوم والليلة (614)، والدارمي (2485)]**.

وهكذا أخذ الرَّسول(ﷺ) يراقب المسلمين، ويقوِّم ما يظهر من انحرافاتٍ في التَّصوُّر والسُّلوك حتَّى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العُتاة[1].

وعلى الرَّغم من الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين، وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنَّهم فوجئوا بما لم يتوقَّعوه، فإنَّ رسول الله(ﷺ) لم يعنِّف أحداً ممَّن فرَّ عنه؛ حتَّى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطُّلَقَاء لأنَّهم فرُّوا، ولم يوافق على هذا[2].

ج – الغنائم وسيلةٌ لتأليف القلوب:

رأى(ﷺ) أن يتألَّف الطُّلقاء، والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم؛ لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش، وغطفان، وتميم عطاءً عظيماً، إذ كانت عطيَّة الواحد منهم مئةً من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أميَّة، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية، ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس بن

(1) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة، للعمري، ص 199.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 204، 205.

عديٍّ[1]، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدُّنيا إلى حبِّ الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريد إلا الدُّنيا، فما يسلمُ حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عليها [سبق تخريجه].

وعبَّر عن هذا صفوان بن أميَّة فقال: لقد أعطاني رسولُ الله(ﷺ) ما أعطاني، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [سبق تخريجه].

وقد تأثَّر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشريَّة، وتردَّدت بينهم قالةٌ، فراعى(ﷺ) هذا الاعتراض، وعمل على إزالة التوتُّر، وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانيّاً، عقليّاً، عاطفيّاً، وجدانيّاً، ما يملك القارئ المسلم على مر الدُّهور، وكر العصور، وتوالي الزَّمان إلا البكاء عندما يمرُّ بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله(ﷺ) ، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء؛ الذي أصبت، قسمت في قومك؛ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا مِنْ قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم.

فلمَّا اجتمعوا؛ أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله(ﷺ) ، فحمِد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم اتكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وعالةً، فأغناكم الله بي، وأعداءً، فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسولُه أمنُّ، وأفضل، ثمَّ قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ، والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم؛ لقلتم، فلصدقتم، ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً، فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فاويناك،

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 421.

وعائلاً فاسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدُّنيا تألَّفت بها قوماً؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب النَّاس بالشَّاء[(1)]، والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمدٍ بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك النَّاس شِعباً، وادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً، وادياً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار، وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاس دثار[(2)]، اللَّهُمَّ! ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله(ﷺ) قَسْماً وحظّاً، ثمَّ انصرف رسول الله(ﷺ) وتفرَّقوا. **[أحمد (76/3 – 77)، ومجمع الزوائد (32/10)]**[(3)]، وفي رواية: «إنَّكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض» **[البخاري (4330)، ومسلم (1061)]**.

وممَّا يجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنَّ هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلِّهم، وإنَّما قالها حديثو السِّنِّ منهم، بدليل ما ورد في الصَّحيحين عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله(ﷺ) يعطي رجالاً من قريش المئة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركُنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله(ﷺ) مِنْ قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبَّةٍ من أَدَمٍ، فلمَّا اجتمعوا؛ جاءهم رسول الله(ﷺ) فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً، وأمَّا أُناسٌ منَّا حديثةٌ أسنانُهم؛ قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله(ﷺ) : «فإني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألَّفهم». **[البخاري (4331)، ومسلم (1059)]**.

---

(1) بالشَّاء: أي: الشِّياه ، وهي الأغنام.
(2) دثار: هو الثَّوب الذي يكون فوق الشِّعار.
(3) انظر: زاد المعاد (474/3).

ويرى الإمام ابن القيِّم - اســـتدلالاً بهذه الحادثة -: أنَّه قد يتعيَّن على الإمام أن يتألَّف أعداءه لاســـتجلابهم إليه، ودفع شـــرِّهم عن المســـلمين، فيقول: الإمام نائبٌ عن المســـلمين، يتصرَّف لمصالحهم وقيام الدِّين، فإن تعيَّن ذلك - أي: التَّأليف - للدَّفع عن الإسلام، والذَّبِّ عن حوزته، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه، ليأمن المسلمون شرَّهم، ساغ له ذلك، بل تعيَّن عليه، فإنَّه وإن كان في الحرمان مفسدةٌ، فالمفسدة المتوقَّعة من فوات تأليف هذا العدوِّ أعظم، ومبنى الشَّريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدُّنيا، والدِّين على هذين الأصلين[1].

والتَّأليف لهذه الطَّائفة إنَّما هو من قبيل الإغراء، والتَّشجيع في أوَّل الأمر، حتَّى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوَّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمَّد الغزالي - رحمه الله - حقيقة هذا الأمر في مثالٍ محسوسٍ، فيقول: «إنَّ في الدُّنيا أقواماً كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تُهدى الدَّواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظلُّ تَمُدُّ إليها فمها، حتَّى تدخل حظيرتها آمنةً، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتَّى تستأنس بالإيمان، وتهشَّ له»[2].

إنَّ النَّبيَّ(ﷺ) ضرب للأنصار صورةً مؤثِّرةً: قومٌ يبشَّرون بالإيمان يقابلهم قومٌ يبشَّرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشَّاء، والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصُّور، وأدركوا أنَّهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء، وماقيهم بالدُّموع، وألسنتهم بالرِّضا، وبذلك طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النَّبيِّ(ﷺ) الحكيمة في مخاطبة الأنصار[3].

---

(1) انظر: زاد المعاد (486/3).

(2) انظر: فقه السِّيرة ، ص 427.

(3) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، ص 219.

د – الصَّبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسـول الله(ﷺ) الكثير من الصَّبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصـــهم على المكاســب، فكان مثالاً للمربِّي الَّذي يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتُهم، وطبيعةُ حياتهم من القســـاوة، والفظاظة، والرُّوح الفرديَّة، فكان يبيِّن لهم خُلُقَه، ويطمئنهم على مصـــالحهم، ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربّياً، ومصـــلحاً، فلم يســلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم؛ الَّذين كانوا ينحنون أمامهم، أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خـاطبوهم؛ التزموا بعبـارات التَّعظيم، والإجلال كمـا يفعـل العبـد مع ربِّـه، أمَّـا الرَّســـول(ﷺ) فكان كأحدِهم يخاطبونه، ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قطُّ، وكان الصَّـــحابة رضـوان الله عليهم يراعون التأدُّب بحضـرته، ويخاطبونه بصـوتٍ خفيضٍ، ويَكِنُّون له في أنفسـهم المحبَّة العظيمة، وأمَّا جفاة الأعراب؛ فقد عنفهم القرآن على ســـوء أدبهم، وجفائهم، وارتفاع أصـواتهم، وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسـول(ﷺ) [1]، وهذه مواقف تدلُّ على حسـن معاملة رسول الله(ﷺ) للأعراب:

1 – الأعرابيُّ الذي رفض البُشْرَى:

قال أبو موسـى الأشـعري: كنت عند النَّبيِّ(ﷺ) – وهو نازلٌ بالجِعْرَانَةِ بين مكَّة والمدينة – ومعه بلالٌ، فأتى النَّبيَّ(ﷺ) أعرابيٌّ فقال: ألا تنجزُ لي ما وعدتني؟ فقال له: «أَبْشِـــر!» فقال: قد أكثرتَ عليَّ مِنْ (أبشر). فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رَدَّ البُشْرَى، فاقبلا أنتما» قالا: قَبِلْنا. ثمَّ دعا بقدح فيه ماءٌ، فغســـل يديه، ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: «اشْـربَا منه، وأفرغا على وجوهكما، ونحوركما، وأبشـرا» فأخذا القدح، ففعلا، فنادت أمُّ سـلمة من وراء السِّتر: أن أفضلا لأمِّكما. فأفضلا لها منه طائفةً. **[البخاري (4328)، ومسلم (2497)]**.

---

(1) المصدر السابق نفسه

2 – مقولة الأعرابِيّ: (ما أريد بهذه القسمة وجه الله!):

قال عبد الله بن مسعودٍ رضـي الله عنه: «لَّما كان يومُ حنينٍ اثر رسـولُ الله(ﷺ) ناسـاً في القِسْمَة، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ مِئَـــةً من الإبل، وأعطى عُيَيْنَة مِثْلَ ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، واثرهم يومئذ في القِسْمَة، فقال رجلٌ: والله! إنَّ هذه القِسْمَة ما عُدِلَ فيها، وما أُرِيدَ فيها وجهُ الله! قال: فقلتُ: والله لأخبرنَّ رســولَ الله(ﷺ) ، قال: فأتيتُه، فأخبرتُه بما قال، قال: فتغيَّر وجْهُهُ حتَّى كان كالصِّرْفِ. ثمَّ قال: «فمْن يعدلُ إن لم يعدلِ اللهُ ورسولُه؟!» قال: ثمَّ قال: «يرحم الله موســى! قد أُوذي بأكثرَ من هذا، فَصَــبَرَ». قال: قلت: لا جرمَ لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً. **[البخاري (4336)، ومسلم (1062)]**.

3 – تعامله مع هوازن لـمَّا أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله(ﷺ) بالجِعْرَانَــــةِ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله! إنَّا أصلٌ وعشـــيرةٌ، وقد أصـــابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد، فقال: يا رسول الله! إنَّما في الحظائر من السَّبايا خالاتُك، وحواضنُك اللاَّتي كن يكفلنك، ولو أنَّا مَلَحْنَا لابن أبي شمر أو النُّعمان بن المنذر[1] ثُمَّ أصـــابنا منها مثل الَّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما، وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثمَّ أنشأ يقول:

أُمنُنْ عَلَيْنَــا رسُـــولَ اللهِ في كرمٍ فـإنَّـكَ المرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ[2]

إلى أن قال:

امْنُنْ عَلَى نِسْـوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَـعُهَا إِذْ فوْكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِـهَا دَرَرُ

امْنُنْ عَلَى نِسْـوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَـعُهَا وإِذْ يَزِيْنُـكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَـذَرُ

فكان هذا ســـبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضـــله عليه السَّـــلام عليهم قديماً

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (352/4).

(2) المصدر السابق نفسه (352/4).

وحديثاً، وخصوصاً، وعموماً[1].

فلما سمع رسول الله(ﷺ) من الوفد قال لهم: «نساؤكم، وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله! خيَّرتنا بين أحسابنا، وأموالنا؟ بل أبناؤنا، ونساؤنا أحبُّ إلينا، فقال رسول الله(ﷺ) : «أمَّا ما كان لي، ولبني عبد المطلب، فهو لكم، وإذا أنا صـــليت بالنَّاس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله(ﷺ) إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله(ﷺ) في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم » فلـمَّا صلَّى رسول الله(ﷺ) بالنَّاس الظُّهر ؛ قاموا ؛ فقالوا ما أمرهم به رســـول الله(ﷺ) ، فقال: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله(ﷺ) . وقال الأقرع بن حابس: أمَّا أنا وبنو تميم ؛ فلا، وقال عُيَيْنةُ: أمَّا أنا وبنو فزارة؛ فلا، وقال العبَّاس بن مرداس السُّلَمِيُّ: أما أنـــا، وبنو سليم، فلا، فقالت بنو سُليم: بل ما كان لنا فهو لرســول الله(ﷺ) ، قال عبَّاس بن مرداس لبني سـليم: وهنتموني؟ فقال رســول الله(ﷺ) : «من أمسك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسان سِتُّ فرائض من أوَّل فيءٍ نصيبـــــه» فردّوا إلى النَّاس نســاءهم، وأبناءهم. **[أحمد (184/2)، والطبراني في الكبير (5304)، والطبري في تاريخه (135/3)، والبيهقي في الدلائل (194/5 – 195)، ومجمع الزوائد (187/6 – 188)][(539)]**.

وفي روايةٍ: ... فخطب رســـول الله(ﷺ) في المؤمنين، فقال: «إنَّ إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإِنّي أردت أن أردَّ إليهم سبيهم، فَمن أحبَّ منكم أن يطيِّبَ ذلك؛ فليفعلْ، ومن أحبَّ أن يكون على حظِّه حتَّى نعطيه إيَّاه من أوَّل ما يفيء الله علينا، فليفعلْ» فقال الناس: طيّبْنا يا رسول الله! لهم، فقـال لهم: «إنَّا لا ندري من أَذِنَ منكم فيه ممَّن لم يأذن، فارجعوا حتَّى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم». فرجع النَّاس فكلمهم عرفاؤهم، ثمَّ رجعوا إلى النَّبيِّ(ﷺ) فأخبروه: أنَّهم طيَّبوا، وأذنوا. **[البخاري (4318 و4319)، والبيهقي في الدلائل (192/5)]**[2].

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (363/4 ، 364).

(2) انظر: البداية والنهاية (352/4 ، 353).

وقد سُـرَّ الرَّسـول(ﷺ) بإسـلام هوازن، وسـألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النَّصـريّ، فأخبروه: أنَّه في الطَّائف مع ثقيفٍ، فوعدهم بردِّ أهله، وأمواله عليه، وإكرامه بمئةٍ من الإبل إن قدم عليه مسـلماً، فجاء مالكٌ مسـلماً، فأكرمه وأمَّره على قومه، وبعض القبائل المجاورة، ولقد تأثَّر مالك بن عوف، وجادت قريحته لمدح النَّبيّ(ﷺ) فقال:

مَـا إِنْ رأَيْـتُ ولاَ سَمِعْـتُ بِمِثْلِـهِ ... فِي النَّـاسِ كُـلِّهِـمِ بِمِـثْـلِ مُحَـمَّـدِ
أَوْفَى وأَعْـطَـى لِـلْـجَـزِيْـلِ إِذَا ... وَمَتى تَشَـأْ يُخْبِرْكَ عَمَّـا في غَـدِ
وإذا الكَتِيْبَـةُ عَرَّدَتْ[1] أَنْيَـابُهَـا ... بالسَّـمْهرِيِّ وَضَـرْبِ كُـلِّ مُهَنَّـدِ
فكـأنَّـهُ لَيْـثٌ عَلَى أَشْـبَـالِـهِ ... وَسْطَ الهَبَاءَةِ[2] خَادِرٌ[3] في مرْصَدِ[4]

لقد كانت سـياسـته(ﷺ) مع خصـومه مرنةً إلى أبعد الحدود، وبهذه السِّـياسـة الحكيمة اسـتطاع(ﷺ) أن يكسـب هوازن، وحلفاءها إلى صـفِّ الإسـلام، واتَّخذ من هذه القبيلة القويَّة رأس حربةٍ يضـرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الَّذي قاتل ثقيفاً في الطَّائـف حتَّى ضـيَّق عليهم، وقد فكَّر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسـلام بالطَّائف من كلِّ مكان، فلا تسـتطيع تحرُّكاً، ولا تجارةً، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام؛ مثل عروة بن مسعودٍ الثَّقفيّ، الَّذي سارع إلى اللَّحاق برسول الله(ﷺ) وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين، واعتمر من الجِعْرَانَةِ، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة،

وأعلن إسـلامه، وعاد إلى الطَّائف، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسـلام، وأذَّن في أعلى منزله، فرماه بعضُـهم بسـهامٍ، فأصـابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطَّائف[5].

---

(1) عرَّدت: اشتدت وضربت ، القاموس المحيط (313/1).

(2) البخاري ، كتاب المغازي ، رقم 4319.

(3) الخادر: المقيم في عرينه ، والخدر سترٌ يُمَدُّ للجارية من ناحية البيت.

(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (144/4).

(5) المصدر السابق نفسه ، (192/4).

إنَّ الإنسـان ليعجب من فقه النَّبيِّ(ﷺ) في معاملة النُّفوس، وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد اســـتطاع(ﷺ) أن يزيل معالم الوثنيَّة، وبيوتات العبادة الكفريَّة من مكَّة، وما حولها، ورتَّب(ﷺ) الأمور التنظيمية للأراضـي الَّتي أضـيفت للدَّولة الإسـلاميَّة، فعيَّن عَتَّاب بن أَسِـــيد أميراً على مكَّة، وجعل معاذ بن جبل مرشـــداً، وموجِّهاً ومعلِّماً، ومربِّياً[1]، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً، ومجاهداً، ثمَّ اعتمر، ورجع إلى المدينة(ﷺ) .

* * *

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (153/4).

المبحث الثَّالث

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

أولاً: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 25 – 27].

في الآيات السَّابقة تصويرٌ بيانيٌّ بديعٌ لحال المسلمين، فيه تنقُّلٌ بالسَّامع من صورةٍ إلى صورة: من صورة المسلمين؛ وهم معجبون بكثرتهم، مسرورون بها، إلى صورة فشلهم، وهزيمتهم مع هذه الكثرة، فلم تنفعهم، إلى صورة الخوف الَّذي أصابهم حتَّى لم تعد الأرض تسعهم، وأقفلت منافذها في وجوههم إلى الصُّورة الحسِّيَّة لهذا الفشل في الفرار، والنُّكوص، وتولية الأدبار حتَّى لم يبقَ حول النَّبي(ﷺ) إلا القليل، وبعد الخوف الشَّديد الَّذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله؛ الَّذي عبَّر عنه – سبحانه – بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

السَّكينة: الطُّمأنينة، والرَّحمة، والأمنة، وهي من السُّكون، وهو ثبوت الشَّيء بعد التَّحرُّك، أو من السَّكن، وهو كل ما سكنت إليه، واطمأنت به من أهلٍ، وغيرهم[1].

وقوله تعالى: قال القاسميُّ: أي: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ تسكنون، وتثبتون به من رحمته، ونصره، وانهزام الكفار، واطمئنان قلوبهم للكرِّ بعد الفرِّ أي: الَّذين ﴿عَلَى رَسُولِهِ

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (598/2).

وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإعادة الجارِّ للتنبيه على اختلاف حاليهما، أو الَّذين ثبتوا مع رسول الله(ﷺ) ولم يفرّوا، أو على الكلِّ؛ وهو الأنسب[1].

وقوله تعالى: : قال الطَّبريُّ: هي الملائكة

وقوله: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

أي: وعذَّب الذين كفروا بالقتل، والسَّبي، والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدُّنيا ما داموا يستحبُّون الكفر على الإيمان، ويعادون أهله، ويقاتلونهم عليه[2].

ثمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أي: ويتوب الله من بعد هذا التَّعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدُّخول في الإسلام، والله غفورٌ رحيمٌ لمن تاب، وآمن، فرحمتُه وسعت كلَّ شيءٍ[3].

قال سيّد قطب: «فبابُ المغفرة دائماً مفتوحٌ لمن يخطئ، ثمَّ يتوب، إنَّ معركة حُنين الَّتي يذكرها السِّياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوَّةٍ غير قوَّته لِتَكْشِفُ لنا حقيقةً أخرى ضمنيَّةً، حقيقة القوى الَّتي تعتمد عليها كلُّ عقيدة. إنَّ الكثرة العدديَّة ليست بشيءٍ، إنَّما هي القلَّة العارفة، المتَّصلة، الثَّابتة، المتجرِّدة للعقيدة، ..... لقد قامت كلُّ عقيدةٍ بالصَّفوة المختارة، لا بالزَّبد الَّذي يذهب جُفاءً، ولا بالهشيم الَّذي تذروه الرِّياح»[4].

إنَّ غزوة حنين سُجِّلت في القرآن الكريم؛ لكي تبقى درساً للأمَّة في كلِّ زمانٍ، ومكان، ولقد عُرِضَتْ في القرآن الكريم على منهجيَّة ربانيَّة كان من أهم معالمها الآتي[5]:

أ - بيَّن القرآن الكريم، أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ

(1) انظر: تفسير القاسمي (151/8).
(2) انظر: تفسير الطَّبري (103/10 ، 104).
(3) انظر: تفسير المراغي (87/4).
(4) انظر: حديث القرآن الكريم (599/2).
(5) انظر: في ظلال القرآن (1618/3).

حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ثم بيَّن القرآن أنَّ هذه الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾

ب – بيَّن القرآن الكريم: أنَّ المسلمين انهزموا، وهربوا ما عدا النَّبيّ(ﷺ)، ونفرٌ يسيرٌ من أصحابه. قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾

ج – بيَّن القرآن الكريم: أنَّ الله نصر رسوله(ﷺ) في هذه المعركة، وأكرمه بإنزال السَّكينة عليه، وعلى المؤمنين. فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

د – بيَّن القرآن الكريم: أنَّ الله أمدَّ نبيَّه محمَّداً(ﷺ) بالملائكة في حنين. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

وأكَّد – سبحانه – على أنَّه يقبل التَّوبة من عباده، ويوفِّق مَنْ شاء إليها. قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثانياً: أسباب الهزيمة، وعوامل النَّصر في حُنين:

أ – أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى عدَّة أسباب، منها:

1 – أنَّ شيئاً من العُجْبِ تسرب إلى قلوب المسلمين، لـمَّا رأوا عددهم، فقد قال رجلٌ منهم: لن نُغلب اليوم من قلَّة، فشقَّ ذلك على النَّبيِّ(ﷺ)، فكانت الهزيمة.

2 – خروج شبَّانٍ ليس لديهم سلاحٌ، أو سلاحٌ كافٍ، وإنَّما عندهم حماسٌ وتسرُّعٌ.

3 – أنَّ عدد المشركين كان كثيراً، بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

4 – أنَّ مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حُنَيْن، فتهيَّأ هنالك، ووضع الكمائن والرُّماة في مضايق الوادي، وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنِّبال، وبالهجوم المباغت.

5 – كان العدو مهيَّأً، ومنظَّماً، ومستعدّاً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء

المشركون بأحسن صفوفٍ رُئيت: صفِّ الخيل، ثمَّ المقاتلة، ثمَّ النِّساء من وراء ذلك، ثمَّ الغنم، ثمَّ النَّعَم.

6 – وجود ضـــعاف الإيمان الَّذين أســـلموا حديثاً في مكَّة، ففرُّوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل، وهزيمة غيرهم[1].

ب – عوامل النَّصر:

كانت عوامل النَّصر في حنين عدَّة أسباب منها:

1 – ثبات الرَّســول(ﷺ) في القتال، وعدم تراجعه، ممَّا جعل الجنود يثبتون، ويســتجيبون لنداء القائد الثَّابت.

2 – شجاعة القائد: فالرَّسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب؛ بل تقدَّم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يَرْكُضُ ببغلته قِبَل الكفار، والعبَّاس اخذٌ بلجام البغلة يكفُّها ألاَّ تسرع.

3 – ثبات قلَّةٍ من المسـلمين معه، وحوله حتَّى جاء الَّذين تولَّوا، وأكملوا المسـيرة، مسـيرة الثَّبات، والبرِّ، والقتال حتَّى النَّصر.

4 – سرعة استجابة الفارِّين، والتحاقهم بالقتال.

5 – وقوع الجيش المعادي في خطأٍ عسكريٍّ قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلاميِّ بعد فراره، ممَّا أعطى فرصةً ثمينةً للجيش الإسلاميِّ ليلتقط أنفاسه، ويعود إلى ساحة القتال، ويستأنف القتال من جديدٍ بقيادة القائد الثابت الشُّجاع رسول الله(ﷺ) .

6 – رَمْيَةُ الحصى: فقد أخذ النَّبي(ﷺ) حصياتٍ فرمى بهنَّ وجوه الكفار ثمَّ قال: «انهزموا وربِّ محمدا!» [سبق تخريجه] .

7 – الاستعانة، والاستغاثة بالله – عز وجلَّ –: فقد كان الرسـول(ﷺ) يلحُّ على الله في

---

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (602/2 ، 603).

الدُّعاء بالنَّصر على الأعداء.

8 – إنزال الملائكة في الغزوة، ومشاركتها فيها، وقد سجَّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التَّوبة[1]: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين، والطَّائف:

1 – نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ **[النساء: 24]** في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوِّجات، وقد فرَّق السَّبي بَيْنَهُنَّ وبين أزواجهنَّ، فأوضحت الآية جواز وطئهنَّ؛ إذا انقضت عدَّتهنَّ؛ لأنَّ الفرقة تقع بينهنَّ وبين أزواجهن الكفار بالسَّبي، وتنقضي العدَّة بالوضع للحامل، وبالحيض لغير الحامل[2].

2 – منع المخنثين خلقة من الدُّخول على النِّساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنَّث بالنِّساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاريُّ عن زينب بنت أبي سلمة عن أمِّها أمِّ سلمة: دخل عليَّ النبيُّ(ﷺ) وعندي مخنَّثٌ، فسمعتُه يقول لعبد الله بن أبي أميَّة: يا عبد الله! أرأيت إن فتح الله عليكم الطَّائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنَّها تُقبل بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «لا يدخلَنَّ هؤلاء عليكم». **[البخاري (4324)]**.

وفي هذا المنع حرص النَّبيِّ(ﷺ) على سلامة أخلاق المجتمع الإسلاميِّ.

3 – النَّهي عن قصد قتل النِّساء، والأطفال، والشُّيوخ، وكذلك الأجراء ممَّن لا يشتركون في القتال ضدَّ المسلمين: وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ رسول الله(ﷺ) مرَّ يوم حنين بامرأةٍ قتلها خالدُ بن الوليد؛ والنَّاس متقصِّفون[3] عليها، فقال رسول الله(ﷺ) : «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً، فقل له: لا يقتلن ذريةً، ولا عسيفاً» وفي روايةٍ: فقال له: إنَّ رسول

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (409/2).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 423.

(3) متقصِّفون: متجمعون.

الله(ﷺ) ينهاك أن تقتل وليداً، او امرأة، أو عسيفاً. **[أحمد (488/3)، وأبو داود (2669)، وابن ماجه (2842)، والنسائي في الكبرى (8571 و8572 و8573)، وابن حبان (4791)]**.

4 – تشريع العمرة من الجِعْرَانَةِ:

أحرم النَّبيُّ(ﷺ) بعمرة من الجِعْرَانَةِ وكان داخلاً إلى مكَّة، وهذه هي السُّـنة لمن دخلها من طريق الطَّائف، وما يليه، وأمَّا ما يفعله كثيرٌ مما لا علم عندهم من الخروج من مكَّة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرةٍ ثمَّ يرجع إليها؛ فهذا لم يفعله رسـول الله(ﷺ) ، ولا اسـتحبَّه أحدٌ من أهل العلم، وإنَّما يفعله عوامُّ النَّاس، زعموا أنَّه اقتداء بالنَّبيِّ(ﷺ) ، وغلطوا، فإنَّه إنَّما أحرم منها داخلاً إلى مكَّة، ولم يخرج منها إلى الجِعْرَانةِ؛ ليحرم منها[1].

5 – إرشاده(ﷺ) للأعرابِيِّ بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحجِّ:

قال يعلى بن منيِّه: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، وهو بالجِعْرَانَةِ وعليه جبَّةٌ، وعليها خلوقٌ[2]، أو قال: أثر صـفرةٍ، فقال: كيف تأمرني أصـنع في عمرتي؟ قال: وأُنزِل على النَّبيِّ(ﷺ) الوحيُ، فَسُـتِرَ بثوبٍ، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النَّبيَّ(ﷺ) ، وقد أُنْزِل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثَّوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيطٌ. قال: فلـمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسـل عنك الصُّـفرة – أو قال –: أثر الخلوق، واخلَعْ عنك جبَّتك، واصـنعْ في عمرتك ما أنت صانع في حجَّتك». **[البخاري (1536)، ومسلم (1180)]**.

6 – مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه:

قال أبو قتادة: لـمَّا كان يوم حنين نظرتُ إلى رجلٍ من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، واخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الَّذي يَخْتِله، فرفع ليضربني، فضربت يده فقطعتُها، ثمَّ أخذني، فضمَّني ضمّاً شديداً حتَّى تخوَّفْتُ، ثمَّ برك فتحلَّل، ودفعته، ثمَّ قتلته، وانهزم

---

(1) انظر: زاد المعاد (504/3).

(2) خلوقٌ: طِيْبٌ.

المسلمون، وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطَّاب في النَّاس، فقلت له: ما شأنُ النَّاس؟ قال: أمرُ الله، ثمَّ تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله(ﷺ) : «من أقام بينة على قتيلٍ قتله؛ فله سلبه» فقمت لألتمس بينةً على قتيلي، فلم أرَ أحداً يشهد لي، فجلست، ثمَّ بدا لي فذكرتُ أمره لرسول الله(ﷺ) فقال رجلٌ من جلسائه: سلاح هذا القتيل الَّذي يذكر عندي، فأرضهِ منه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا لا يعطه أصيبغ[1] من قريشٍ، ويدع[2] أسداً من أُسْدِ الله يقاتل عن الله، ورسوله(ﷺ) ، قال: فقام رسول الله(ﷺ) فأدَّاه إلي فاشتريت منه خرافاً[3]، فكان أوَّل مالٍ تأثَّلتُهُ في الإسلام. **[البخاري (4321)، ومسلم (1751)]**.

ونلحظ في هذا الخبر: أنَّ أبا قتادة الأنصاريَّ رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهدٍ عظيم، كما أنَّ موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه فيه دلالةٌ على حرصه على إحقاق الحقِّ، والدِّفاع عنه، ودليلٌ على رسوخ إيمانه، وعمق يقينه، وتقديره لرابطة الأخوَّة الإسلاميَّة، وأنَّها بمنزلةٍ رفيعةٍ بالنسبة له[4].

7 - النهي عن الغلول:

أخذ النَّبيُّ(ﷺ) يوم حنين وَبَرَةً من سنام بعيرٍ من الغنائم، فجعلها بين أصبعيه، ثمَّ قال: «أيُّها النَّاس! إنَّه لا يحلُّ لي ممَّا أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردودٌ عليكم، فأدُّوا الخياط، والمخيط، وإيَّاكم، والغلول، فإنَّ الغلول عارٌ، ونارٌ، وشنارٌ على أهله في الدُّنيا، والآخرة»[5].

ولـمَّا سمع النَّاس هذا الزَّجر بما فيه من وعيد من رسول الله(ﷺ) ، أشفقوا على أنفسهم، وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاريٌّ بكبَّة خيطٍ من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله! أخذت

---

(1) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله (ص) . وقوله أصيبغ: نوع من الطُّيور شبه به؛ لعجزه، وضعفه.
(2) يدع: يترك.
(3) خرافاً: أي: بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.
(4) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (26/8).
(5) انظر: البداية والنِّهاية (353/4) ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (تقسيم الفيء).

هذه الوبرة لأخيط بها بَرذَعَةَ بعيرٍ لي دَبِر، فقال له(ﷺ) : «أمَّا حقّي منها، وما كان لبني عبد المطَّلب فهو لك». فقال الأنصاريُّ: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها مِنْ يده. **[أحمد (184/2)، وأبو داود (2694)، والنسائي (263/6 – 264)]**.

وأمَّا عقيل بن أبي طالب؛ فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطَّخٌ دماً، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليردَّه، حتَّى الخياط، والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم[1].

وهذا التَّشديد في النَّهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصُّورة الشَّائهة المرعبة، ولو كان في شيءٍ تافهٍ لا يُلتفت إليه، يمثِّل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبويّ في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العمليَّة؛ إيماناً، وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التَّوجيه يتطهَّر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة؛ لأنَّ التَّساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانيَّة التي لا تليق بالمجتمع المسلم[2].

8 – وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لـمَّا قفلنا من حنين سأل عمرُ النَّبيَّ(ﷺ) عن نَذْرٍ كان نذره في الجاهليَّة اعتكافاً، فأمره النَّبيُّ(ﷺ) بوفائه. **[البخاري (4320)، ومسلم (1656)]**.

رابعاً: مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيات:

1 – أنس بن أبي مرثدٍ الغنويُّ، وحراسة المسلمين:

قال رسول الله(ﷺ) قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا اللَّيلة؟» فقال أنسُ بن أبي مرثدٍ: أنا يا رسول الله! قال(ﷺ) : «فاركب»، فركب ابن أبي مرثد فرساً له، وجاء إلى رسول

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (145/4).
(2) انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (387/4 ، 388).

الله(ﷺ) فقال له(ﷺ) : «اســـتقبل هذا الشِّـــعْب حتَّى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيلة».

قال سهيل بن الحنظليَّة: فلـمَّا أصبحنا؛ خرج رسول الله(ﷺ) إلى مُصَلاَّه، فركع ركعتين، ثمَّ قال: «هل أحسـنتم فارسكم؟» قالوا: ما أحسنَّاه، فثوَّب بالصَّلاة، فجعل(ﷺ) يصلِّي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتَّى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا! فقد جاءكم فارسكُم»، فجعل ينظر إلى خلال الشَّـجر في الشِّـعب، فإذا هو قد جاء حتَّى وقف عليه، فقال: إنِّي انطلقت حتَّى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني(ﷺ) ، فلمَّا أصبحت طلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت، فلم أرَ أحداً، فقال(ﷺ) : «هل نزلت اللَّيلة؟»، فقال: لا، إلا مصـــلِّياً، أو قاضـــي حاجةٍ، فقال له(ﷺ) : «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها» **[أبو داود (2501)، والنســـائي في الكبرى (8819)]**[1].

وفي هـذا الخبر يظهر لنـا المنهج النَّبويُّ الكريم في الاهتمـام بالأفراد، فقـد ظهر اهتمـام النَّبيّ(ﷺ) بطليعة القوم حتَّى جعل يلتفت في صـلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمرٍ مهمٍّ، ثمَّ إنَّه(ﷺ) قال: «أبشـروا ! فقد جاء فارسـكم» إنَّها الكلمة الَّتي يسـتعملها(ﷺ) في إخبارهم بما يسـرُّهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمِّية الفرد في المجتمع الإسـلاميّ، إنَّه ليس كمَّاً مهملاً، ولا رقماً في سـجلٍ، ولا بزالاً في الةٍ، يستغنى عنه عند الضَّـرورة ليؤتى بغيره، إنَّها بعض التَّفسير للمنهج الإلهيّ[2] في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ **[الإسراء: 70]**.

كما أنَّ في هذه القصَّـــة مَعْلَماً من معالم المنهج النَّبويِّ الكريم في وجوب اليقظة، وتعرُّف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوَّة عدداً وعدَّةً، وما رسمه من خططٍ

---

(1) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 550، وابن حجر ، وابن كثير ، في البداية والنِّهاية ، وابن هشام ، في السِّيرة النبويَّة.
(2) انظر: معين السِّيرة ، ص 429.

حربيَّةٍ، وهي سياسةٌ مهمَّةٌ بالنسبة للقادة الَّذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض[1].

وأمَّا قول الرَّسول(ﷺ) : «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها»، فهذا محمول على النَّوافل الَّتي يكفِّر الله بها السيئات، ويرفع بها الدَّرجات، والمقصود: أنَّه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه مِنْ سيئاتٍ في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنَّة، وليس المقصود: أنَّ هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[2].

2 – شجاعة أمِّ سُلَيْمٍ يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إنَّ أمَّ سُلَيْمٍ اتخذت يوم حنين خِنْجَراً[3]، فكان معها، فراها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ، فقال لها رسول الله(ﷺ): «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتَّخذته إن دنا مني أحد من المشركين؛ بقرت به بطنه، فجعل رسول الله(ﷺ) يضحك، قالت: يا رسول الله! اقتلْ مَنْ بعدنا[4] من الطُّلقاء[5]، انهزموا بك[6]، فقال رسول الله: «يا أمَّ سُلَيْمٍ! إنَّ الله قد كفى، وأحسن». [مسلم (1809)].

3 – الشَّيماء بنت الحارث أخت النَّبيّ(ﷺ) من الرَّضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله(ﷺ) الشَّيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السَّعدية، أخت رسول الله(ﷺ) من الرَّضاعة، وعنَّفوا عليها في السَّوق، وهم لا يدرون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله! أنِّي لأختُ صاحبكم من الرَّضاعة، فلم يصدِّقوها حتَّى أتوا بها رسولَ الله(ﷺ)، ولما انتهت الشَّيماء إلى رسول الله(ﷺ) قالت: يا رسول الله! إنِّي أختك من الرَّضاعة، قال: «ما علامة ذلك ؟» قالت: عَضَّةٌ عَضَضْتَنِيهَا في ظهري ، وأنَّا مُتَوَرِّكَتُك[7]،

---

(1) انظر: محمد رسول الله ، لصادق عرجون (366/4).
(2) انظر: التاريخ الإسلامي (14/8).
(3) خنجراً: سكيناً كبيرة ذات حدين.
(4) من بعدنا: من سوانا.
(5) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.
(6) انهزموا بك: انهزموا عنك.
(7) متوركتُك: يعني: حاملتك على وركي.

وعرف رسـولُ الله(ﷺ) العلامة، وبسـط لها رداءه، وأجلسـها عليه وخيَّرها، وقال: «إن أحببت؛ فعندي مُحَبَّةً مُكْرَمَةً، وإن أحببت أن أُمَتِّعَكِ، وترجعي إلى قومك؛ فعلتُ» فقالت: بل تمتِّعني، وتردُّني إلى قومي[1]، ومتَّعها رسـول الله(ﷺ) فأسـلمت، وأعطاها رسـول الله(ﷺ) ثلاثة أَعْبُدٍ، وجاريةً، ونعماً، وشـاء. **[الطبري في تاريخه (3/131 –132)، وابن هشـام (4/100 – 101)، والبيهقي في الدلائل (5/199 – 200)، وعبد الرزاق في المصنف (7/479) برقم (13958)]**[2].

خامساً: إسلام كعب بن زهير – الشَّاعر – والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة:

لـمَّا قدم رسول الله(ﷺ) من الطَّائف؛ جاءه كعب بن زهير – الشَّاعر ابن الشَّاعر – وكان قد هجا رسـول الله(ﷺ) ، ثمَّ ضـاقت به الأرض، وضـاقت عليه نفسـه، وحثَّه أخوه (بُجَيْر) على أن يأتي رسـول الله(ﷺ) تائباً مسـلماً، وحذَّره من سـوء العاقبة؛ إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته الَّتي يمدح فيها رسول الله(ﷺ) ، والتي اشـتهرت بقصيدة (بانت سـعاد) فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله(ﷺ) حين صلَّى الصُّبح، ثمَّ جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله(ﷺ) لا يعرفه، فقال لرسول الله(ﷺ) : «إنَّ كعب بن زهير جاء يستأمنُك تائباً مسلماً، فهل أنت قابلٌ منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصـار، فقال: يا رسـول الله! دعني وعدوَّ الله أضـرب عنقه، فقال رسـول الله(ﷺ) : «دعه عنك، فقد جاء تائباً نازعاً» وأنشـد كعب قصـيدته اللاَّمية الَّتي قال فيها:

بَانَتْ سُـعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[3]
ومَا سُعَادُ غَدَاةَ الطَّرْفِ إِذْ رَحَلُوا ... إلاَّ أغنُّ قَرِيْرُ العَيْنِ مَكْحُولُ[4]

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (4/363) ، والسِّيْرة النَّبوية الصَّحيحة (2/506).
(2) انظر: السِّيْرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص 358.
(3) متبول: مغرم ، مكبول: مقيد.
(4) أغنُّ: صفة للغزال الَّذي في صوته غنَّة.

ومنها:

إنَّ الرَّسُوْلَ لَـــنُوْرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُـيُوفِ اللهِ مَسْـلُولُ

فِيْ عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَـــمَّا أَسْلَمُوا زُوْلُوا

شُـــمُّ العَرَانِيْنِ أبْطَالٌ لَبُوسُـــهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

[الحاكم (579/3 – 583)، والطبراني في الكبير (176/19 – 179)، برقم (403)، والبيهقي في الدلائل (207/5 – 211)، والهيثمي في مجمع الزوائد (393/9 – 394)][1].

ويقال: إنَّه لما أنشد رسول الله قصيدته؛ أعطاه بردته، وهي الَّتي صارت إلى الخلفاء[2]،قال ابن كثيرٍ: هذا من الأمور المشهورة جدّاً، ولكن لم أرَ ذلك في شيءٍ من هذه الكتب المشهورة بإسنادٍ أرتضيه، فالله أعلم[3].

ويقال: إنَّ الرَّسول(ﷺ) قال له بعد ذلك: لولا ذكرت الأنصار بخيرٍ، فإن الأنصار لذلك أهلٌ[4]، فقال:

مَنْ سَـــرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلاْ يَزَلْ ... فِيْ مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الأَنْصَارِ[5]

وَرِثُوا المكَـارِمَ كَـابِراً عَنْ كَـابِرٍ ... إنَّ الخِيَـارَ هُـمُ بَنُـو الأَخْيَـارِ

المكْرَهِـيْنَ السَّـــمْـهَرِيَّ بِأذْرُعٍ ... كسَـوَالِفِ الهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَـارِ[6]

والـنَّـاظِـرِيْـنَ بأعْـيُنٍ مُحْـمَـرَةٍ ... كـالجَمْرِ غَيْرَ كَلِيْلَةِ الأَبْصَـــارِ

والبَائِعِيْنَ نُـــفُوْسَـهُمْ لِنَبِيِّهِمْ ... لِـلْـمَـوْتِ يَـوْمَ تَـعَـانُـقٍ وكِـرَارِ

والقَـائِدِيْنَ[7] النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ ... بالمشْـــرِفِيِّ وبالقَنَـا الخَطَّـارِ[8]

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (369/4، 370، 371).

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (487/2).

(3) انظر: البداية والنِّهاية (373/4).

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) مِقْنَب: جماعة.

(6) السَّمْهَرِيُّ: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السَّيف.

(7) القائدين: المانعين النَّاس.

(8) المشرفيُّ: السَّيف، والقنا: الرِّماح جمع: قناة، والخطَّار: المهتز.

يَتَطهَّرُوْنَ يَرَوْنَـه نُسُـــكَـاً لَهُمْ   بـدِمَـاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّـارِ

إلى أن قال:

لَوْ يَعْلَمُ الأَقْوَامُ عِلْمِيَ كُلَّـهُ   فِيْهِمْ لَصَـــدَّقَنِي الَّذِيْنَ أُمَارِي[1]

قَوْمٌ إِذَا خَوتِ النُّجُومُ فـإِنَّهُمْ   لِلطَّـارِقِيْنَ[2] النَّـازِلِيْنَ مَقَـارِي[3]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأنَّ الشُّعراء المعارضين للدَّعوة الإسلاميَّة قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطَّاب، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشـــام، والعبَّاس بن مرداس، وتحوَّلوا إلى الصَّـفِّ الإسـلاميّ، واسـتظلوا بلوائه عن قناعةٍ، وإيمانٍ، ولم يكتفِ بعضـهم بأن تكون كلمتُه في الدِّفاع عن الإسـلام؛ بل كان سـيفُه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكَّة[4].

سادساً: من نتائج غزوة حنينٍ، والطائف:

1 – انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن، وثقيف في هذه الغزوة.

2 – كانت غزوة حنين والطَّائف اخر غزوات النَّبيّ(ﷺ) لمشركي العرب.

3 – رجوع كثيرٍ من أهل مكَّة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإســـلام، وحصول الأنصار على وسامٍ عظيم، وهو شهادةُ رسولِ الله(ﷺ) لهم بالإيمان، والدُّعـــاء لـــهم ولأبنائهم، وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله(ﷺ) إلى المدينة.

4 – انضمام كوكبةٍ مباركةٍ من قيادة أهل مكَّة وهوازن إلى الإسلام، وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان، والأصــنام، والمعابد الجاهليَّة في الجزيرة العربيَّة، كما كان لقبيلة هوازن دورٌ كبيرٌ في

---

(1) أماري: أجادل.

(2) خوت النُّجوم: أي: سقطت ، الطَّارقون: الذين يأتون بالليل.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (167/4 ، 168).

(4) انظر: من معين السِّيرة ، ص 431 ، 432 ، 433.

مجاهدة أهل الطَّائف، والتَّضييق عليهم حتَّى أسلموا.

5 - توسَّعت الدَّولة الإسلاميَّة وامتدَّ نفوذها، وأصبح لرسول الله(ﷺ) أمراء بمكَّة، وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية؛ التي عاصمتها المدينة النَّبويَّة، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسولُ الله(ﷺ) بعوثاً دعويَّةً بدون خوفٍ، أو وجلٍ مِنْ أحدٍ، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السَّرايا تستهدف الأوثان، والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظَّم رسولُ الله(ﷺ) فريضة الزَّكاة، فكلَّف مَنْ يقوم على جمعها من القبائل التَّابعة للدَّولة[1].

* * *

(1) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها في السِّيرة النَّبويَّة (961/2).

المبحث الرَّابع

أهمُّ الأحداث ما بين حُنَيْنٍ وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات:

شــرع رســول الله(ﷺ) بعد عودته إلى المدينة - في أواخر ذي القعدة - في تنظيم الإدارة، والجباية، وكان(ﷺ) قد اســـتخلف عَتَّابَ بن أَسِـــيْدٍ على مكَّة حين انتهى من أداء العمرة، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه النَّاس، ويعلِّمهم القرآن، وكان هدي النَّبيُّ(ﷺ) عندما تدخل القبائل في الإسـلام الحرصَ على تعليمها، وتربيتها، ويُعَيّن مَنْ يُشـرف على ذلك؛ لأنَّ النُّفوس تحتاج إلى العناية، والاهتمام، وغرس العقائد الصَّحيحة، والتَّصوُّرات السَّليمة فيها.

وفي مطلع المحرم من العام التَّاســع وجَّه الرَّســول(ﷺ) عُمَّالَه إلى المناطق المختلفة، فبعث بُريدة بن الحصـيب إلى أسـلم، وغِفار، وعبَّاد بن بشـر الأشـهلي إلى سُـليم، ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضَّـحاكَ بن شـعبان الكلابيَّ إلى بني كلاب، وبسـر بن سـفيان الكعبي إلى بني كعبٍ، وابن اللُّتبيَّة الأزديَّ إلى بني ذبيان، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم[1]، والمهاجر بن أبي أميَّة إلى صــــنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضـــــرموت، والزبرقان بن بدرٍ، وقيس بن عاصـم إلى بني سعدٍ، والعلاءَ بن الحضـرميّ إلى البحرين، وعليَّ بن أبي طالبٍ إلى نجران؛ ليجمع صدقاتهم، ويَقْدَم عليه بجزيتهم[1].

وكان(ﷺ) يستوفي الحساب على العُمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللُّتْبِيَّة من الأزد، حيث حاسبه عندما قال الرَّجل[2]: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام رســـول الله(ﷺ) على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثُه، فيقول:

---

(1) انظر: نضرة النعيم (384/1).

(2) انظر: الدولة العربية الإسلامية، لمنصور الحرابي، ص 43.

هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه، أو بيت أمِّه حتَّى ينظر أيُهدى إليه أم لا؟!، والَّذي نفس محمد بيده ! لا ينال أحدٌ منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له رُغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تَيْعَرُ» ثمَّ رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَتَيْ إبطيه ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ هل بلغتُ؟ مرَّتين» [البخاري (6979)، ومسلم (1832)]. وكان يقول أيضاً: «أيما عاملٍ استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه؛ فهو غلول». [أبو داود (2943)][1].

ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة:

أ – سريَّة الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النَّبيُّ(ﷺ) قد بعث الطُّفيل بن عمروٍ من مقرِّه في حُنَيْنٍ، وقبل أن يسير إلى الطَّائف، أمره بأن يهدم (ذا الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسيِّ، ثمَّ يستمدُّ قومه، ويوافيه مع المدد إلى الطَّائف، وقد نَّفذ الطُّفيل بن عمروٍ أوامر النَّبيِّ(ﷺ) ، فهدم (ذا الكفلين) وحرَّقه، وقاد أربعمئةٍ من قومه، ومعهم دبابةٌ، ومنجنيق مدداً لرسول الله(ﷺ) ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطَّائف بأربعة أيام[2].

ب – سريَّة عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ، ويُقال: إنَّها سريَّة الأنصار:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ: بعث النَّبيُّ(ﷺ) سريَّةً فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النَّبيُّ(ﷺ) أن تطيعوني؟ قالوا: بلى! قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النَّبيِّ(ﷺ) من النَّار، فما زالوا حتَّى خمدت النَّار، فسكن غضبُه، فبلغ النَّبيَّ(ﷺ) فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطَّاعة في المعروف». [البخاري (4340)، ومسلم (1840)].

---

(1) انظر: التراتيب الإدارية ، للكتاني (265/1).

(2) انظر: نضرة النَّعيم (385/1).

ج – سريَّة عليّ بن أبي طالب لهدم صنم الفُلْس في بلاد طَيِّئ:

وفي ربيع الآخر خرجت سـريَّة عليّ بن أبي طالب إلى الفُلْس – صـنم لِطيِّئ – ليهدمه، وكان تعدادها خمسين ومئة رجلٍ من الأنصار، على مئة بعير، وخمسين فرساً، ومعه رايةٌ سوداء، ولواءٌ أبيض، فشـنُّوا الغارة على محلَّة ال حاتم – حاتم الطَّائيّ الَّذي ضُـرب المثل بجوده – مع الفجر، فهدموا الفُلْس، وخرَّبوه، وملؤوا أيديهم من السَّـبي، والنَّعَم، والشَّـاء، وفي السَّـبي أخت عديِّ بن حاتم، وهرب عديٌّ إلى الشَّام[1].

د – سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسـول الله(ﷺ) : «ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَـة؟»، فقلت: بلى! فانطلقت في خمسين ومئـة فارس من أحمَس، وكـانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنَّبيّ(ﷺ) ، فضـرب يده على صـدري، حتَّى رأيت أثر يده في صـدري، وقال: «اللَّهم! ثَـبِّـتْـهُ واجعله هادياً مهديّاً» قال: فما وقعت عن فرسٍ بعدُ، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخَثْعَمَ، وبجيلة، فيه نُصُبٌ يقال له: الكعبـة، قال: فأتاها فحرَّقها بالنَّـار، وكسرها، قال: ولـمَّا قدم جرير اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنَّ رَسُولَ رَسُولِ الله(ﷺ) هاهنا، فإن قدر عليك ضـرب عنقك! قال: فبينما هو يضـرب بها؛ إذ وقف عليه جرير، فقال: لَتَكْسِرَنَّها ولتَشْهَدنَّ أن لا إله إلا الله، أو لأضربن عنقك! قال: فكسرها، وشهد، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمَس يُكنى أبا أرطأة إلى النَّبيّ(ﷺ) يبشِّره بذلك، فلـمَّا أتى النَّبيَّ(ﷺ) قال: يا رسـول الله! والذي بعثك بالحقِّ ما جئت حتَّى تركتُها كأنَّها جملٌ أجرب، قال: فبرَّك النَّبيُّ(ﷺ) على خيل أحمَس، ورجالها خمس مرَّاتٍ. **[البخاري (4357)، ومسـلم (2476)، وأحمد (362/4)، وأبو داود (2772)، والنسائي في الكبرى (8245)]**.

---

(1) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص 624.

ثالثاً: إسلام عديٍّ بن حاتم:

عندما وقعت أخت عديّ بن حاتم في أسـر المسـلمين؛ عاملها رسـول الله(ﷺ) معاملةً كريمة، وبقيت معزَّزة مكرَّمةً، ثمّ كسـاها النَّبيُّ(ﷺ) ، وأعطاها ما تتبلّغ به في سـفرها، وعندما وصلت إلى أخيها في الشَّام شـجَّعته على الذَّهاب لرسول الله(ﷺ) ، فتأثَّر بنصيحتها، وقدم على المدينة[1]، ونترك أبا عبيدة بن حذيفة يحدِّثنا عن قصَّـة إسـلام عديٍّ، قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أُحَدَّثُ عن عديّ بن حاتمٍ، فقلت: هذا عديٌّ في ناحية الكوفة، فلو أتيتُه، فكنت أنا الذي أسمع منه، فأتيتُه فقلت: إنّي كنت أُحدَّث عنك حديثاً، فأردت أن أكون أنا الَّذي أسمعه منك. قال: لـمَّا بعث الله – عزَّ وجلَّ – النَّبيَّ(ﷺ) فررت منه حتَّى كنت في أقصى أرض المسلمين ممَّا يلي الرُّوم.

قال: فكرهت مكاني الَّذي أنا فيه حتَّى كنت له أشدَّ كراهيةً له منّي من حيث جئت، قال: قلت: لاتينَّ هذا الرَّجل، فوالله! إن كان صادقاً، فلأسمعنَّ منه، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيتُه، واسـتشـرفني النَّاس، وقالوا: عديُّ بن حاتمٍ، عديُّ بن حاتمٍ، قال: أظنُّه قال ثلاث مرارٍ، قال: فقال لي: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم». قال: قلت: إنّي من أهل دينٍ، قال: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسـلم؛ تسـلم» قال: قلت: إنّي من أهل دينٍ، قالها ثلاثاً، قال: «أنا أعلم بدينك منك» قال: قلت: أنت أعلم بديني منّي؟! قال: «نعم» قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى! قال: فذكر محمَّدٌ الرَّكوسِيَّة[2] قال: كلمة التمسـها يقيمها، فتركها، قال: «فإنَّه لا يحلُّ في دينك المرباع[3]».

قال: فلمَّا قالها؛ تواضعتُ لها، قال: «وإنّي قد أرى أنَّ ممَّا يمنعك خصاصةً تراها ممَّن حولي، وأن النَّاس علينا إلباً واحداً، هل تعرف مكان الحِيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها، ولم اتها. قال:

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (81/8).

(2) قومٌ لهم دين بين النَّصارى والصَّابئة ، النهاية (259/2).

(3) المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيّد القوم قبل القسمة.

«لتوشكنَّ الظَّعينة أن تخرج منها بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز تُفتح» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز - ثلاث مرات -، وليوشكنَّ أن يبتغي مَنْ يقبل ماله منه صدقةً فلا يجد» قال: فلقد رأيت اثنتين: قد رأيت الظَّعينة تخرج من الحيرة بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل الَّتي أغارت على المدائن، وايم الله! لتكونن الثَّالثة إنَّه لحديث رسول الله(ﷺ) حدَّثنيه. [البخاري (3595)، وأحمد (257/4)][1].

وفي روايةٍ جاء فيه: «... فخرجت حتى أقدم على رسول الله(ﷺ) المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلَّمت عليه، فقال: «من الرَّجل؟» فقلت: عديُّ بن حاتمٍ، فقام رسول الله(ﷺ) ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله! إنَّه لعامدٌ بي إليه؛ إذ لقيته امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بِمَلِكٍ، قال: ثمَّ مضى بي رسول الله(ﷺ) حتَّى إذا دخل بي بيته تناول وسادةً من أَدَمٍ[2]، محشوةً ليفاً، فقذفها إليَّ، فقال: «اجلس على هذه» قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت» فجلست عليها، وجلس رسول الله(ﷺ) بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بأمر مَلِكٍ»[3].

وفي هذه القصَّة دروس، وعبرٌ كثيرةٌ منها:

1 - كان عديٌّ وهو مقبلٌ على رسول الله(ﷺ) يحمل في تصوُّره أنَّه أحد رجلين: إمَّا نبيٌّ أو مَلِكٌ، فلمَّا رأى وقوف رسول الله(ﷺ) مع المرأة الضَّعيفة الكبيرة مدَّةً طويلةً شعر بِخُلُق التَّواضع، وانسلخ مِنْ ذهنه عامل المِلِك، واستقرَّ في تصوُّره عامل النُّبوَّة.

2 - كان النَّبيُّ(ﷺ) موفقاً حينما انتقد عَدِيّاً في مخالفته للدِّين الَّذي يعتنقُه، حين حصل لعدي اليقين بنبوَّة رسول الله(ﷺ) ، الَّذي يعلم من دينه ما لا يعلمه النَّاس مِنْ حوله.

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 580.

(2) أدم: هو بفتحتين: الجلد.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (236/4) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير (قصة عدي بن حاتم الطائي).

3 - لمَّا ظهر للنَّبيِّ(ﷺ) أنَّ عديّاً قد أيقن بنبوَّته؛ تحدَّث عن العوائق الَّتي تحول بين بعض الناس واتِّباع الحقِّ حتَّى مع معرفتهم بأنَّه حقٌّ، ومنها: ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وما هم فيه من الفقر، فأبان له النَّبيُّ(ﷺ) بأنَّ الأمن سيشمل البلاد حتَّى تخرج المرأة من العراق إلى مكَّة من غير أن تحتاج إلى حماية أحدٍ، وأنَّ دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأنَّ المال سيفيض حتَّى لا يقبله أحدٌ، فلمَّا زالت عن عديٍّ هذه المعوِّقات؛ أسلم.

4 - كان النَّبيُّ(ﷺ) موفقاً في دعوته، حيث كان خبيراً بأدواء النُّفوس، ودوائها، ومواطن الضَّعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كلَّ إنسانٍ بما يلائم علمه وفكره، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، ولذلك أثَّر في زعماء القبائل، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً[1].

5 - وجد عديٌّ سماتِ النُّبوَّة الصَّادقة في مظهر معيشته(ﷺ) وحياته، ووجد هذه السِّمات أيضاً في لون حديثه، وكلامه، ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزَّمن، والتَّاريخ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه، وانخلاعه عن زخارف الحياة الدُّنيا ومظاهر الأبَّهة، والتَّرف الَّتي كان قد أسبغها عليه قومُه[2].

رابعاً: أحداث متفرِّقة في سنة ثمانٍ:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: «... وفي هذه السَّنة بعث رسولُ الله(ﷺ) عمرو بن العاص إلى جيفر، وعمرو ابني الجلندى من الأزد، وأُخِذَتِ الجزية من مجوس بلدها، ومَنْ حولها من الأعراب، وفيها تزوَّج رسول الله(ﷺ) فاطمة بنت الضَّحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة، فاستعاذت منه عليه السَّلام، ففارقها، وفي ذي الحجَّة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطيَّة، فاشتدَّت غيرة أمَّهات المؤمنين منها حين رُزِقت ولداً ذكراً[3].

وفي عام (8 هـ) توفِّيت السَّيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الرَّبيع، وقد

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (58/8، 86).
(2) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص 321.
(3) انظر: البداية والنِّهاية (374/4).

ولدت قبل المبعث بعشـــر ســـنين، وكانت أكبر بناته(ﷺ) ، تليها رقيَّة، ثمَّ أمُّ كلثوم، ثمَّ فاطمة رضـي الله عنهنَّ، كان رسـول الله محبّاً لها، أسـلمت قديماً، ثمَّ هاجرت قبل إسـلام زوجها بسـتِّ سـنين، وكانت قد أجهضـت في هجرتها ثمَّ نزفت، وصـار المرض يعاودها حتَّى توفيت، ولـــمَّا ماتت؛ قال رســول الله(ﷺ) : «اغْسِــلْنها وِتْراً؛ ثلاثاً، أو خمســاً، واجعلْن في الآخرة كافوراً». **[البخاري (1352)، ومسلم (939)]**[1].

---

(1) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (490/2) والكافور: نبت طيب الرَّائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ، ويجعله صلباً متماسكاً ، ويمنع إسراع الفساد إليه.

الفصل السَّابع عشر

غزوة تبوك (9 هـ) وهي غزوة العُسْرَة[1]

المبحث الأوَّل

تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها

أوَّلاً: تاريخها، وأسماؤها:

خرج رســول الله(ﷺ) لهذه الغزوة في رجب من العام التَّاســع الهجريِّ[2]، بعد العودة من حصار الطَّائف بنحو ستَّة أشهرٍ[3].

واشــتهرت هذه الغزوة باســم غزوة تبوك، نســبة إلى مكانٍ، هو عين تبوك؛ الَّتي انتهى إليها الجيش الإسلاميُّ، وأصل هذه التَّسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ: أنَّ رسول الله(ﷺ) قال: «ستأتون غداً - إن شاء الله - عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتَّى يضحى النَّهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شــيئاً حتَّى اتي». **[أحمد (5/237 - 238)، ومسلم (10/706)، وأبو داود (1206)، والترمذي (553)، والنسائي (1/285)، وابن ماجه (1070)]**.

وللغزوة اســمٌ اخر، وهو غزوة العُسْـرَة، وقد ورد هذا الاســم في القرآن الكريم حينما تحدَّث عن هذه الغزوة في ســورة التَّوبة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَــارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَــاعَةِ الْعُسْــرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ

---

(1) ينظر الشكل (20) في الصفحة (764).

(2) انظر: تفسير الطَّبري (14/540 . 542)، والسِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 614.

(3) انظر: فتح الباري (16/237).

رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117].

وقد روى البخاريُّ بسنده إلى أبي موسى الأشعريِّ: قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله(ﷺ) أسأله الحُملانَ لهم؛ إذ هم معه في جيش العُسْرَة، وهي غزوة تبوك...، وعَنْوَنَ البخاريُّ لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك، وهي غزوة العُسْرة». [البخاري تعليقاً (138/8)].

لقد سمّيت بهذا الاسم لشدَّة ما لاقى المسلمون فيها من الضَّنْكِ، فقد كان الجوُّ شديدَ الحرارة، والمسافة بعيدةً، والسَّفر شاقّاً لقلَّة المؤونة وقلَّة الدَّوابِّ الَّتي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلَّة الماء في هذا السَّفر الطَّويل، والحرِّ الشَّديد، وكذلك قلَّة المال الذي يُجَهَّز به الجيش، وينفق عليه[1]، ففي تفسير عبد الرَّزَّاق عن معمر، عن ابن عقيل؛ قال: (خرجوا في قلَّةٍ من الظَّهْر، وفي حرٍّ شديدٍ حتَّى كانوا ينحرون البعير، فيشربون ما في كَرْشِهِ من الماء، فكان ذلك عُسْرَةً من الماء)[2]، وهذا الفاروق عمر بن الخطَّاب يحدِّثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين، فيقول: خرجنا مع رسول الله(ﷺ) إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ، حتَّى ظننَّا أنَّ رقابنا ستنقطع حتَّى إن كان أحدُنا يذهب يلتمس الخلاء، فلا يرجع حتَّى يظنَّ أنَّ رقبته تنقطع، وحتى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه؛ فيشربه، ويضع ما بقي على بَطْنِه. [البزار (1841)، والهيثمي في مجمع الزوائد (194/6)].

وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة؛ ذكره الزُّرقانيُّ - رحمه الله - في كتابه (شرح المواهب اللَّدنية)[3]، وسمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّ هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائيَّة الماكرة، وأحقادهم الدَّفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحقِّ رسول الله(ﷺ) ، والمسلمين[4].

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص 83.

(2) فتح الباري في شرح حديث رقم (4415)، ومحمَّد (ص) (غزوة تبوك أو العسرة)، لمحمَّد رضا.

(3) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (62/3).

(4) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 84.

وأمَّا موقع تبوك فيقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة 778 ميلاً حســـب الطَّريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الرُّوم انذاك[1].

ثانياً: أسبابها:

ذكر المؤرِّخون أســـباب هذه الغزوة، فقالوا: وصـــلت الأنباء للنَّبيِّ(ﷺ) من الأنباط الَّذين يأتون بالزَّيت مِنَ الشَّام إلى المدينة: أنَّ الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخمُ، وجُذَامُ، وغيرُهم من متنصِّـــرة العرب، وجاءت في مقدِّمتهم إلى البلقاء[2]، فأراد النَّبيُّ(ﷺ) أن يغزوهم قبل أن يغزوه[3].

ويرى ابن كثير: أنَّ سـبب الغزوة هو اسـتجابةٌ طبيعيَّةٌ لفريضـة الجهاد، ولذلك عزم رسـول الله(ﷺ) على قتـال الرُّوم؛ لأنَّهم أقرب النَّـاس إليـه، وأولى النَّـاس بالـدَّعوة إلى الحقّ لقربهم إلى الإسـلام، وأهله، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ **[التوبة: 123]**.

والَّذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصَّــواب؛ إضــافةً إلى أنَّ الأمر الَّذي اسـتقرَّ عليه حكم الجهاد هو قتال المشـــركين كافَّةً بِمَنْ فيهم أهل الكتاب الَّذين وقفوا في طريق الدَّعوة، وظهر تحرُّشهم بالمسلمين، كما روى أهل السِّير[4].

ولا يمنع ما ذكره المؤرِّخون بأنَّ ســـبب الخروج هو عزم الرُّوم على غزو المســـلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم؛ لأنَّ أصل الخروج كان وارداً.

لقد كان المسلمون على حذرٍ من مجيء غسَّان إليهم من الشَّام، ويظهر ذلك جليّاً ممَّا وقع لعمر بن الخطَّاب، فقد كان النَّبيُّ(ﷺ) الى من نسـائه شـهراً، فهجرهنَّ، ففي صـحيح البخاريِّ:

---

(1) انظر: المجتمع الإسلامي، للعمري، ص 229.
(2) البلقاء: هي كورةٌ من أعمال دمشق بين الشَّام، ووادي القرى، عاصمتها عمَّان.
(3) انظر: الطَّبقات الكبرى، لابن سعدٍ (165/2).
(4) انظر: البداية والنهاية (3/5).

وكنَّا قد تحدَّثنا: أنَّ ال غسَّان تُنْعِلُ النِّعال لغزونا، فنزل صاحبي الأنصاريُّ يوم نوبته، فرجع إلينا عِشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً، وقال: أنائمٌ هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمرٌ عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسَّان؟ قال: لا! بل أعظم منه، وأهول، طلَّق رسول الله(ﷺ) نساءه.... [البخاري (5191)، ومسلم (1749)].

ثالثاً: الإنفاقُ في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله(ﷺ) الصَّحابة على الإنفاق في هذه الغزوة؛ لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[1]، فهذا عبد الرَّحمن بن خُباب يحدِّثنا عن نفقة عثمان، حيث قال: شهدت النَّبيَّ(ﷺ) وهو يحثُّ على جيش العُسْرَة، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، ثمَّ حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، ثمَّ حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه». [أحمد (75/4)، والترمذي (3700)].

وعن عبد الرَّحمن بن سَمُرَة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفَّان إلى النَّبيِّ(ﷺ) بألف دينارٍ في ثوبه حين جهَّز النَّبيُّ(ﷺ) جيش العُسْرَة، قال: فجعل النَّبيُّ(ﷺ) يقلِّبها بيده، ويقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم! يردِّدها مراراً». [أحمد (63/5)، والترمذي (3701)].

وأمَّا عمر؛ فقد تصدَّق بنصف ماله، وظنَّ أنَّه سيسبق أبا بكرٍ بذلك، وهذا الفاروق يحدِّثنا بنفسه عن ذلك، حيث قال: أمرنا رسول الله(ﷺ) يوماً أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر؛ إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله(ﷺ) : «ما

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 615.

أبقيت لأهلك؟» قلت: مثلَه. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله(ﷺ) : «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسولَه، قلت: لا أسابقك إلى شيءٍ أبداً. [أبو داود (1678)، والترمذي (3675)].

وروي: أنَّ عبد الرَّحمن بن عوفٍ أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العُسْرَة[1].

وكانت لبعض الصَّحابة نفقاتٌ عظيمةٌ، كالعبَّاس بن عبد المطَّلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمَّد بن مَسْلَمة، وعاصم بن عديٍّ رضي الله عنهم[2].

وهكذا يفهم المسلمون: أنَّ المال وسيلةٌ، واستطاع أغنياء الصَّحابة أن يبرهنوا: أنَّ مالهم في خدمة هذا الدِّين، يدفعونه عن طواعيةٍ، ورغبةٍ، وأنَّ تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخٌ مشرِّفٌ؛ لأنَّه تاريخ المال في يد الرِّجال، لا تاريخ الرِّجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنَّفس فكذلك هو بالمال، وإنَّ الَّذين رُبُّوا على أن يقدِّموا أنفسهم، تهون عليهم أموالُهم في سبيل الله تعالى[3].

إنَّ في مسارعة الموسرين من الصَّحابة إلى البذل، والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين؛ من مسارعةٍ إلى فعل الخير، ومقاومةٍ لأهواء النَّفس وغرائزها، ممَّا تحتاج إليه كلُّ أمَّة لضمان النَّصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون، وزعماء النَّهضات هو غرس الدِّين في نفوس النَّاس غرساً كريماً[4].

وقدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النَّفقة على استحياءٍ، ولذلك تعرَّضوا لسُخْرِيَةٍ وغمز، ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عُقَيْلٍ بنصف صاع تمرٍ، وجاء اخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 616.
(2) انظر: مغازي الواقدي (391/3).
(3) انظر: من معين السِّيرة، ص 449.
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ، وعبرٌ، للسِّباعي، ص 161.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّـدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْـخَرُونَ مِنْهُمْ سَـخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79][1].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتَّهمون الأغنياء بالرِّياء، ويســـخرون من صدقة الفقراء[2].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنَّهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ فهذا عُلبَةُ بن زيدٍ أحد البكَّائين صـــلَّى من اللَّيل، وبكى، وقال: اللَّهمَّ! إنَّك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، وإنِّي أتصـدَّق على كلِّ مسـلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصـابتني في جسدٍ، أو عرْضٍ، فأخبره النَّبيُّ(ﷺ) : أنَّه قد غُفِر له[3].

وفي هذه القصَّـة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحبِّ الجهاد لنصـرة دين الله، وبثِّ دعوته في الافاق، وفيها مِنْ لُطف الله بضـــعفاء المؤمنين الَّذين يعيشـــون في حياتهم عيشــــةً عمليَّة[4].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدِّثنا عن قصَّته: (.... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت – وقد خرج أوَّل صــحابة رسـول الله – فطفقت في المدينة أنادي: ألا مَنْ يحمل رجلاً له سهمه! فإذا شيخٌ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحملَه عقبة[5]، وطعامه معنا. فقلت: نعم، قال: فسر على بركـة الله، فخرجت مع خيـر صاحبٍ حتَّى أفـاء الله علينا[6]، فأصـابني قلائصَ[7]، فَسُـقْتُهُنَّ حتَّى أتيتُه، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله،

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 616.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 617.

(3) وردت من طرقٍ ضعيفةٍ، ولها شاهدٌ صحيحٌ، وهي بالجملة تصلح للشَّاهد التَّاريخيِّ، انظر: المجتمع المدنيّ للعمري، ص 235، والإصابة لابن حجر.

(4) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (443/4).

(5)]عقبة: أي: بالتعاقب.

(6) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سريَّة خالد بن الوليد في دومة الجندل.

(7) قلائص: إبل.

ثمَّ قال: سـقهن مدبراتٍ، ثمَّ قال: سـقهن مقبلاتٍ، فقال: ما أرى قلائصـك إلا كراماً إنَّما هي غنيمتُك الَّتي شـــرطتُ لك، قال: خذ قلائصـــك يابن أخي! فغير ســـهمِك أردنا. [أبو داود (2676)][1].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الآخرويَّة، أجراً، وثواباً يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصـــاريُّ عن قســـم كبيرٍ من راحته، ليتعاقب وواثلة على راحلته، ويقدِّم له الطَّعام مقابل سهمٍ اخر، وهو الأجر، والثَّواب.

إنَّها مفاهيم تنبع من المجتمع الَّذي تربَّى على كتاب الله، وســـنَّة رســـوله(ﷺ) ، لها نفس الخاصِّيَّة في الإضاءة، وتحمل نَفْسَ البريق، متمِّمٌ بعضها لبعضها الآخر[2].

وجاء الأشعريُّون يتقدَّمهم أبو موسى الأشعريُّ يطلبون من النَّبيِّ(ﷺ) أن يحملهم على إبلٍ ليتمكَّنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتَّى مضـــى بعضُ الوقت، فحصـــل لهم على ثلاثةٍ من الإبل[3].

وبلغ الأمر بالضُّـــعفاء، والعجزة ممَّن أقعدهم المرض، أو النَّفقة عن الخروج إلى حد البكاء شـوقاً للجهاد، وتحرُّجاً من القعود حتَّى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91 – 92].

إنَّها صـورةٌ مؤثِّرة للرَّغبة الصَّـحيحة في الجهاد على عهد رسـول الله(ﷺ) ، وما كان يحسُّـه صـــادقو الإيمان من ألمٍ إذا ما حالت ظروفهم المادِّية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء

(1) انظر: جامع الأصول رقم (6188) ، ومن معين السيرة ، ص 453 ، يكري دابته على النِّصف ، أو السهم.
(2) انظر: من معين السِّيرة ، ص 453.
(3) انظر: المجتمع المدني ، ص 236.

المعوزون وغيرهم ممَّن عذر الله لمرضٍ، أو كبر سنٍّ، أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[1]، وهم الَّذين عناهم رسول الله(ﷺ) عندما قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر». [البخاري (4423)، وأحمد (103/3)، وأبو داود (2508)، وابن ماجه (2764)، وابن حبان (4731)].

رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرَّسول(ﷺ) النَّفير، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة؛ أخذ المنافقون في تثبيط همم النَّاس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرِّ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 81 – 82].

وقال رسول الله(ﷺ) – وهو في جهازه لتبوك – للجدِّ بن قيس: يا جدُّ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي، ولا تفتني؟ فوالله! لقد عرف قومي: أنَّه ما من رجل أشدُّ عجباً بالنِّساء منِّي، وإنِّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر، فأعرض عنه رسول الله(ﷺ) ، وقال: «قد أذنت لك» [الطبري في تفسيره (148/10 – 149)، والبيهقي في الدلائل (213/5 – 214)، والطبراني في الكبير (2154 و12654)، والهيثمي في مجمع الزوائد (30/7)]، ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49]، وذهب بعضهم إلى النَّبيِّ(ﷺ) مبدين أعذاراً كاذبةً، ليأذن لهم بالتخلُّف، فأذن لهم، فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43].

وبلغ رسول الله(ﷺ) : أنَّ ناساً منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهوديّ يثبِّطون النَّاس عن

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 618.

رسول الله(ﷺ)، فأرسل إليهم مَنْ أحرق عليهم بيت سُوَيْلِم. [ابن هشام (160/4)][1].

وهذا يدلُّ على مراقبة المســـلمين الدَّقيقة، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المســـلمين يقظةً تراقب تحرُّكات اليهود، والمنافقين، واجتماعاتهم، وأوكارهم، بل كانوا يطَّلعون فيها على أدقِّ أســـرارهم، واجتماعاتهم، وما يدور فيها مِنْ حبك المؤامرات، وابتكار أساليب التَّثبيط، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رســـول الله لدعاة الفتنة، وأوكارها حازماً حاسماً؛ إذ أمر بحرق البيت على مَنْ فيه من المنافقين، وأرسل مِنْ أصحابه مَنْ يُنَفِّذه، وَنُفِّذَ بحزمٍ، وهذا منهج نبويٌّ كريمٌ يتعلَّم منه كل مسؤول في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كيف يقف من دعاة الفتنة، ومراكز الإشاعات المضلِّلة الَّتي تُلحق الضَّرر بالأفراد، والمجتمعات، والدُّول؛ لأنَّ التَّردُّد في مثل هذه الأمور يُعَرِّض الأمن، والأمان إلى الخطر، وينذر بزوالها[2].

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة، وفي أثناءها وبعدها، وممَّا جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضـــمَّن اســـتئذانهم، وتخلُّفهم عن الخروج، وكان ممَّن تخلف عبد الله بن أبيّ بن ســـلول وقد تحدَّث القرآن عنهم، فقال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًـا قَرِيبًا وَسَـفَرًا قَاصِـدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّـقَّةُ وَسَـيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 42].

فقد بيَّن – سبحانه وتعالى – موقف المنافقين، وأنَّهم تخلَّفوا بسبب بُعْد المسافة، وشدَّتها، وأنَّه لو كان الَّذي دعوتَهم إليه – يا محمد! – عرضـاً من أعراض الدُّنيا، ونعيمها، وكان السَّـفر سهلاً، لاتَّبعوك في الخروج، ولكنَّهم تخلَّفوا، ولم يخرجوا، فالآية تشرح، وتوضِّح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة، وأسباب هذا الموقف، ثمَّ حكى – سبحانه – ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿وَسَـــيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْـــتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص 618.

(2) انظر: الصِّراع مع الصليبيين، ص 121.

أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾، وكان نزول هذه الآية قبل رجوعه(ﷺ) من تبوك.

والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله – كذباً، وزوراً – قائلين: لو استطعنا أيُّها المؤمنون! أن نخرج معكم للجهاد في تبوك؛ لخرجنا، فإنَّنا لم نتخلَّف عن الخروج معكم إلا مضطرِّين، فقد كانت لنا أعذارُنا القاهرة الَّتي حملتنا على التخلُّف[1].

وقوله – سبحانه –: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

قال ابن عاشور: أي: يحلفون مهلكين أنفسهم؛ أي: موقعينها في الهُلْكِ – والهُلْكُ: الفناء، والموت، ويطلق على الأضرار الجسميَّة، وهو المناسب هنا – أي: يتسبَّبون في ضرِّ أنفسهم بالأيمان الكاذبة، وهو ضرُّ الدُّنيا، وعذاب الآخرة، وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ تعمُّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[2].

ثمَّ عاتب الله تعالى نبيَّنا محمَّداً(ﷺ) بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾

قال مجاهد[3]: نزلت هذه الآية في أُناسٍ قالوا: استأذِنوا رسولَ اللهِ(ﷺ) ، فإن أذن لكم؛ فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم، فاقعدوا. وهؤلاء هم فريقٌ من المنافقين، منهم عبد الله بن أبيِّ بن سلول، والجدُّ بن قيسٍ، ورفاعةُ بن التَّابوت، وكانوا تسعةً وثلاثين، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ[4].

والآية الكريمة عتابٌ لطيفٌ من اللَّطيف الخبير سبحانه لحبيبه(ﷺ) على ترك الأَوْلى، وهو التوقُّف عن الإذن إلى انجلاء الأمر، وانكشاف الحال[5]، ثمَّ قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (647/2).
(2) انظر: تفسير التَّنوير والتَّحرير (209/10).
(3) انظر: تفسير ابن كثير (360/2).
(4) انظر: التَّحرير والتَّنوير (210/10).
(5) انظر: حديث القرآن الكريم.

الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: 44 – 45].

هـذه الآيات أوَّل ما نـزل في التَّفرقـة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[1]، فبيَّن سبحانه: أنَّه ليس من شـأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاسـتئذان، وترك الجهاد في سـبيل الله، وإنَّما هذا من صفات المنافقين الَّذين يستأذنون من غير عذرٍ، وصفهم – سبحانه – بقوله: أي: شكَّت في صـحَّة ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ جئتَهم به، وقوله: أي: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾، يقدمون رِجْلاً، ويؤخِّرون أخرى، وليست لهم قدمٌ ثابتةٌ في شيءٍ[2].

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناســبةً للتَّمييز بين المؤمنين، والمنافقين، وَضَحَتْ فيها الحواجز بين الطَّرفين، ولم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للتَّستُّر على المنافقين، أو مجاملتهم؛ بل أصبحت مجابهتُهم أمراً ملحّاً بعد أن عملوا كلَّ مافي وسعهم لمجابهة الرَّسول(ﷺ) ، والدَّعوة، وتثبيط المسـلمين عن الاسـتجابة للنَّفير، الَّذي أعلنه الله تعالى، ورسـوله(ﷺ) ، والَّذي نزل به القرآن الكريم؛ بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافُهم عند حدِّهم واجباً شرعيّاً[3].

خامساً: إعلان النَّفير، وتعبئة الجيش:

أُعلِن النَّفير العـام للخروج لغزوة تبوك؛ حتَّى بلغ عـدد من خرج مع النَّبيِّ(ﷺ) إلى تبوك ثلاثين ألفاً، وقد عاتب القرآن الكريم الَّذين تباطؤوا بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخرةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخرةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: 38].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً، وشيوخاً، وأغنياء، وفقراء، بقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 41].

---

(1) انظر: تفسير المراغي (127/4).
(2) انظر: تفسير ابن كثير (361/2).
(3) انظر: نضرة النَّعيم (389/1).

لقد استطاع رسول الله(ﷺ) أن يحشد ثلاثين ألف مقاتلٍ[1] من المهاجرين، والأنصار، وأهل مكَّة، والقبائل العربيَّة الأخرى، ولقد أعلن رسول الله(ﷺ) – على غير عادته في غزواته – هدفه، ووجهتَه في القتال؛ إذ أعلن صراحةً: أنَّه يريد قتال بني الأصفر (الرُّوم)، علماً بأنَّ هديه في معظم غزواته أن يورِّي فيها[1]، ولا يصرِّح بهدفِه، ووجهتِه، وقصدِه حفاظاً على سرية الحركة، ومباغتة العدوِّ[1].

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التَّصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره، وقد صرَّح(ﷺ) في هذه الغزوة – على غير العادة – بالجهة التي يريد غزوها، وجلَّى هذا الأمر للمسلمين، لأسبابٍ منها:

1 – بُعْد المسافة، فقد كان رسول الله(ﷺ) يدرك أنَّ السير إلى بلاد الرُّوم يُعدُّ أمراً صعباً؛ لأنَّ التَّحرُّك سيتمُّ في منطقةٍ صحراويَّةٍ ممتَّدة، قليلة الماء، والنَّبات، ولابدَّ حينئذٍ من إكمال المؤونة، ووسائل النَّقل للمجاهدين قبل بدء الحركة حتَّى لا يؤدِّي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

2 – كثرة عدد الرُّوم، بالإضافة إلى أنَّ مواجهتهم تتطلَّب إعداداً خاصّاً، فهم عدوٌّ يختلف في طبيعته عن الأعداء الَّذين واجههم النَّبيُّ(ﷺ) مِنْ قبلُ، فأسلحتهم كثيرةٌ، ودرايتهم بالحرب كبيرةٌ، وقدرتهُم القتاليَّة فائقةٌ[2].

3 – شدَّة الزَّمان، وذلك لكي يقفَ كلُّ امرئ على ظروفه، ويُعِدَّ النَّفقة اللازمة له في هذا السَّفر الطَّويل لمن يعول وراءه[3].

4 – أنَّه لم يعد مجالٌ للكتمان في هذا الوقت؛ حيث لم يبقَ في جزيرة العرب قوَّةٌ معاديةٌ لها خطرها، تستدعي هذا الحشد الضَّخم، سوى الرُّومان، ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيّين، ص 97.

(2) انظر: الرَّسول القائد (ص)، ص 398.

(3) انظر: البداية والنِّهاية (4/5).

تبوك، ودومة الجندل والعقبة[1].

لقد شرع رسول الله(ﷺ) لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربيَّة، ومراعاة المصلحة العامَّة في حالتي الكتمان، والتصريح، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[2].

ولـمَّا علم المسلمون بجهة الغزوة؛ سارعوا إلى الخروج إليها، وحثَّ الرسول(ﷺ) على النَّفقة قائلاً: «من جهَّز جيش العسرة فله الجنَّة». [البخاري تعليقاً (65/7)، والدارقطني (4401)، والبيهقي في الكبرى (167/6)].

واستخلف رسولُ الله(ﷺ) على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري، وخلَّف عليَّ بن أبي طالبٍ على أهله، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً، وتخفُّفاً منه، فأخذ عليٌّ رضي الله عنه سلاحه، ثمَّ خرج حتَّى أتى رسول الله(ﷺ) وهو نازلٌ بالجُرْفِ[3]، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون: أنَّك إنَّما خلَّفتني؛ لأنَّك استثقلتني، وتخفَّفت منِّي، فقال: «كذبوا، ولكنِّي خلَّفتك لِمَا تركتُ ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي، وأهلك، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي» [البخاري (3706)، ومسلم (2404/31 – 32)][4]. فرجع عليٌّ إلى المدينة[5].

وكان استخلاف عليٍّ رضي الله عنه في أهله باعتبار قرابته، ومصاهرته، فكان استخلافه في أمرٍ خاصٍّ، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ في الغزوة نفسها استخلافاً عامّاً، فتعلَّق بعض الناس بأن استخلاف عليٍّ يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحَّة لهذا القول؛ لأنَّ خلافته كانت في أهله خاصَّةً[6].

(1) انظر: غزوة تبوك، ص 57، لمحمد أحمد باشميل.
(2) انظر: القيادة في عهد الرَّسول (ص)، ص 510.
(3) انظر: زاد المعاد (529/3).
(4) انظر: زاد المعاد (530/3).
(5) انظر: صحيح السِّيرة النبوية، ص 589.
(6) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 466، 467.

وعندما تجمَّع المســلمون عند ثِنيَّة الوداع بقيادة رســول الله(ﷺ) ، اختار الأمراء، والقادة، وعقد الألوية، والرَّايات لهم، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصــدِّيق رضــي الله عنه، ورايته العظمى إلى الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه، ودفع راية الأوس إلى أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كلَّ بطنٍ من الأنصــار أن يتَّخذ لواءً[1]، واســتعمل رســول الله(ﷺ) على حراســة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عَبَّادَ بن بِشْــرٍ، فكان رضــي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر[2]، وكان دليلَ رسول الله(ﷺ) في هذه الغزوة علقمةُ بن الفَغْوَاء الخزاعيُّ، فقد كان من أصحاب الخبرة، والكفاءة في معرفة طريق تبوك[3].

وقد انفرد الواقديُّ بالمعلومات عن طريق الجيش، وتوزيع الرَّايات، وهو متروكٌ، ولكنَّــه غزير المعلومات في السِّيرة، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضرُّ[4].

ويلاحظ الباحث التَّطوُّر السَّـريع لعدد المقاتلين بشــكلٍ عامٍّ، ولســلاح الفرســان بشــكل خاصٍّ.

إنَّ الَّذي يدرس تاريخَ الدَّعوة الإسـلاميَّة ، ونشـوءَ الدَّولة الإسـلاميَّة ومؤسَّـسـاتها العامَّة – وفي مقدَّمة هذه المؤسـســات الجيشُ الإســلاميُّ القوَّة الضَّــاربة للدَّولة – يلاحظ أنَّ هناك تطوُّراً ســريعاً جدّاً في مجال القوَّة العســكريَّة؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدرٍ الكبرى ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً، وفي غزوة أحد بلغ سبعمئة مقاتل، تقريباً، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة الاف مقاتلٍ، وفي غزوة فتح مكة عشـرة الافٍ، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشـر ألف مقاتلٍ، وأخيراً بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتلٍ أو يزيد.

وإنَّ الدَّارس يلاحظ هذا التطوُّر السَّريع اللاَّفت للنَّظر في مجال سلاح الفرسان، ففي غزوة

(1) انظر: المغازي (996/3) ، والطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (166/2).
(2) انظر: سبل الهدى والرَّشاد (652/5) ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 99.
(3) انظر: إمتاع الأسماع (451/1) ، وشرح المواهب اللَّدنيَّة (72/3).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (532/2).

بدرٍ كان عدد الفرسان فارسين – في بعض الرِّوايات – وفي غزوة أحدٍ لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدرٍ، ويقفز العدد بعد ستٍّ سنوات فقط إلى عشرة الاف فارس، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربيَّة وبخاصَّةٍ في البادية؛ ذلك لأن أهلها يهتمُّون باقتناء الخيول، وتربيتها أكثر من أبناء المدن[1].

* * *

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين، ص 100.

المبحث الثَّاني

أحداث في الطَّريق، والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش، وتوزيع المهامِّ، والألوية، والرَّايات، توجَّه الجيش الإسلاميُّ بقيادة رسول الله(ﷺ) إلى تبوك، ولم ينتظر أحداً قد تأخَّر، وقد تأخَّر نفرٌ من المسلمين يظنُّ فيهم خيراً، وكلَّما ذُكِرَ لرسول الله(ﷺ) اسم رجل تأخَّر قال(ﷺ) : «دعوه، إن يك فيه خير؛ فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» **[الحاكم (50/3)]**[1].

أولاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ:

قال ابن إسحاق: ثمَّ مضى رسول الله(ﷺ) سائراً، فجعل يتخلَّف عنه الرَّجل، فيقولون: يا رسول الله! تخلَّف فلانٌ، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلَّف أبو ذرٍّ، وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقُه الله بكم، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[2] أبو ذرٍّ على بعيره، فلمَّا أبطأ عليه، أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثمَّ خرج يتبع أثر رسول الله(ﷺ) ماشياً، ونزل رسول الله(ﷺ) في بعض منازله، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الرَّجل يمشي على الطَّريق وحدَه، فقال رسول الله(ﷺ) : «كن أبا ذرٍّ»[3]، فلمَّا تأمَّله القوم؛ قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذرٍّ، فقال رسول الله(ﷺ) : «رحم الله أبا ذرٍّ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه»[4].

---

(1) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله (ص) والثلاثة الخلفاء، للكلاعي (276/2)، والبداية والنِّهاية لابن كثير، فصل: تخلف عبد الله بن أُبَيٍّ وأهل الريب عام تبوك.

(2) تلوَّم على بعيره: تمهل.

(3) كن أبا ذرٍّ: لفظه لفظ الأمر ومعناه الدُّعاء، أي: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(4) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (178/4)، وكنز العمال، للمتقي الهندي، والبداية والنِّهاية لابن كثيرٍ.

ومضى الزَّمان، وجاء عصر عثمان، ثمَّ حدثت بعض الأمور وسُيِّرَ أبو ذرٍّ إلى الرَّبذَة فلـــمَّا حضره الموت، أوصى امرأته، وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني، وكفِّناني، ثمَّ احملاني، فضعاني على قارعة الطَّريق، فأوَّل ركبٍ يمرُّون بكم؛ فقولوا: هذا أبو ذرٍّ! فلـــمَّا مات؛ فعلوا به كذلك، فطلع ركبٌ، فما علموا به؛ حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعودٍ في رهطٍ من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جِنازة أبي ذرٍّ، فاستهل ابن مسعودٍ يبكي، فقال: صدق رسول الله(ﷺ): «يرحم الله أبا ذرٍّ! يمشـي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه» فنزل، فوليه بنفســه حتَّى دفنه. **[الحاكم (50/3 – 51)، والطبري في تاريخه (145/3)، والبيهقي في الدلائل (221/5 – 222)]**[1].

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 – ما تعرَّض له أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضـي الله عنه من الصُّـعوبات، والمخاطر، الَّتي نجَّاه الله منها، وقوَّاه بالصَّبر عليها، لقد بذل أبو ذرٍّ جهداً كبيراً في المشي على قدميه، وهو يحمل متاعه على ظهره، حتَّى لحق بالنَّبيِّ(ﷺ) والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[2].

2 – وفي قوله(ﷺ) : «رحم الله أبا ذر! يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويبعث وحدَه» دلالةٌ واضـحةٌ وضـوح الشَّـمس في رائعة النَّهار على صـدق نبوَّة الرَّسـول(ﷺ) ؛ إذ الإخبار بأمورٍ لم تقع، ثمَّ تقع بعد الإخبار يدلُّ على معجزةٍ، وتكريمٍ من الله لهذا الرَّسول(ﷺ) وهذه الوسيلة من إثبات النُّبوَّة كثيرةٌ في السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفةِ[3].

3 – كما أنَّ في القصَّـة دلالةٌ على علم ابن مسـعودٍ رضـي الله عنه، وقوَّة ذاكرته، وسـرعة استحضاره لما حفِظ؛ حيث تذكَّر بعد سنواتٍ عديدةٍ حديث رسول الله(ﷺ) عمَّا سيؤول إليه أمر أبي ذرٍّ في اخر حياته رضي الله عنه[4].

---

(1) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (178/4).
(2) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّن ، ص 129 ، والتَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (114/8).
(3) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 129.
(4) انظر: التاريخ الإسلامي (114/8).

ثانياً: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: ... ثمَّ إنَّ أبا خَيْثَمَة رجع بعد أن سار رسولُ الله(ﷺ) أياماً إلى أهله في يوم حارٍّ، فوجد امرأتين لـه في عريشين لهما في حائطـه[1]، قـد رشَّت كلُّ واحدةٍ منها عريشها، وبرَّدت له فيه ماءً، وهيَّأت له فيه طعاماً، فلـمَّا دخل؛ قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صـنعتا له، فقال: رسـول الله(ﷺ) في الضِّـحِّ[2]، والرِّيح، والحرِّ، وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ، وطعامٍ مُهيَّأ، وامرأةٍ حسناء، في مالـه مقيمٌ، ما هـذا بالنَّصَف ثـمَّ قال: والله ! لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّى ألحق برسول الله(ﷺ) ، فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثمَّ قدَّم ناضحه[3]، فارتحله، ثمَّ خرج في طلب رسول الله(ﷺ) حتَّى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة عميرُ بن وهبٍ الجُمحيُّ في الطَّريق، يطلب رسـول الله(ﷺ) ، فترافقا، حتَّى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بـن وهبٍ: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تَخَلَّف عنّي، حتَّى اتِيَ رسول الله(ﷺ) ! ففعل حتَّى إذا دنا من رسول الله(ﷺ) وهو نازلٌ بتبوك، قال النَّـاس: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ، فقال رسول الله(ﷺ) : «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! فلمَّا أناخ، أقبل فسلَّم على رسول الله(ﷺ) ، فقال له رسول الله(ﷺ) : «أولى لك يا أبا خيثمة[4]!» ثمَّ أخبر رسولَ الله(ﷺ) الخبر، فقال لـه رسول الله(ﷺ) خيراً، ودعا له بخيرٍ. **[الطبراني في الكبير (5419)، والبيهقي في الدلائل (222/5 – 223)، والمجمع (192/6 – 193)]**[5]

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً، واسمه: مالكُ بن قيسٍ:

لـمَّا رأيتُ الناسَ في الدِّيْنِ نافَقُوا ... أَتَيْـتُ الَّتِي كـانَـتْ أَعَفَّ وأَكْرَمـا

وبَايَعْـتُ باليُمْنَى يَـدِي لِمُحمَّـدٍ ... فَلَمْ أَكْتَسِـبْ إِثْماً وَلَمْ أَغْش مُحْرَمَا

---

(1) حائطه: أي: بستانه.

(2) الضِّحُّ: أي: في الشمس.

(3) ناضحُه: أي: جمله.

(4) أولى لك: أجدرُ بك.

(5) انظر: البداية والنِّهاية (8/5).

تَرَكْتُ خَضِيْباً[1] في العَرِيْشِ وَصِرْمَةً[2] صَـفَايَا[3] كِرَاماً يُسْـرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا[4]
وَكُنْتُ إِذَا شَـــكَّ المُنَافِقُ أَسْمَحَتْ[5] إِلَى الدِّيْنِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْث يَمَّمَا[6]

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ، منها:

1 – المسلم صاحب ضميرٍ حيّ:

فقد رأى أبو خيثمة رضـــي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد، والطَّعام مع الظِّلّ المبرَّد، والإقامة، فتذكر رســولَ الله(ﷺ) وما هو فيه من التَّعرُّض للشَّـــمس ، والرِّيح ، والحرّ ؛ فأبصــر ، وتذكَّر ، وتيقَّظ ضــميره، وحاســب نفســه، ثمَّ عزم على الخروج، وخرج وحدَه يقطع الفيافي، والقفار حتَّى التقى بعمير بن وهب الجمحيّ، ولعلَّه كان قادماً من مكة، فهذه الصُّـــورة تبيِّن لنا مثلاً من سـلوك المتَّقين الَّذين تمرُّ عليهم لحظات ضـعفٍ، يعودون بعدها أقوى إيماناً ممَّا كانوا عليه، إذا تذكَّروا وراجعوا أنفســـهم، وفي بيان ذلك يقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ **[الأعراف: 201]**.

وقد تذكَّر سريعاً، وخرج لعلَّه يدرك ما فاته، وظلَّ يشعر بالذَّنب، حتَّى وصل إلى النَّبيِّ(ﷺ) في تبوك، وحصل على رضاه، وسروره[7].

2 – معرفة الرَّسول(ﷺ) بأصحابه، وبمعادنهم:

إنَّ قول الرَّســول(ﷺ) حينما قال له أصـــحابه: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ: «كن أبا خيثمة» فلــمَّا اقترب، وعرفوه، قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! يدلُّ على معرفة رسول

---

(1) خضيباً: مخضوبةً وهي المرأة.
(2) صرمة: جماعة النَّخل.
(3) صفايا: كثيرة التَّمر.
(4) تحمماً: أخذ في الإرطاب ، فاسودَّ.
(5) أسمحت: انقادت.
(6) انظر: البداية والنِّهاية (8/5).
(7) انظر: التَّاريخ الإسلامي (111/8 ، 112).

الله(ﷺ) بأصـــحابه، وأنَّه أعرفُهم بمعادن رجاله، يعرف المســـتجيب من غيره، ويعرف التَّائب النَّائب إلى ربِّه إذا زل قدمُه بســرعة رجوعه، ومعرفةُ خصــال الرِّجال ومعادِنهم تدلُّ على معرفةٍ واســعةٍ، وخبرةٍ مســتوعبةٍ فاحصــةٍ، نتيجة التَّعامل، والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع يسمع منهم، ويُسمعهم، ويسيرون معه، ويُجاهدون تحت رايته[1].

3 – حزم أبي خيثمة، وصبره، ونفاذ عزيمته:

تأمَّل هذا القرار الَّذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله(ﷺ) وحدَه، في هذه الرِّحلة المضْنِيَة، في هذه الصَّحراء قليلة الماء ذات الحرِّ اللافح، لقد اتَّخذ هذا القرار الحازم، ونفَّذه بدقَّةٍ، فدلَّ على قوَّة عزيمته، وعنفوان إرادته، وعلى جلده، وصبره[2].

4 – عِتَابُ القائد للجنديِّ له أثره:

وصــل أبو خيثمة معترفاً بذنبه، يطرح السَّــلام على رسـول الله(ﷺ) ، فعاتبه(ﷺ) معاتبةً تحمل في طيَّاتها اللَّوم، والتَّأنيب، والتَّهديد؛ إذ قال له رسول الله(ﷺ) : «أولى لك يــــا أبــــا خيثمة!» فهي كلمةٌ فيها معنى التَّهديد، ومعناها: دنوتَ من الهلكة.

إنَّه ممَّا لا شــكَّ فيه: أنَّ هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجنديِّ؛ إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذَّنب.

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في تعليم القادة عدم السُّــــكوت على أخطاء الجنود؛ لأنَّ ذلك يضــرُّهم، ويُلحِق الضَّــرر بغيرهم، بل عليهم أن يســعوا إلى تصــويب الخطأ، ومحاســبة مرتكبه، وتقويمه، وبذلك يكونون معلِّمين، ومرشدين، ومربِّين[3].

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 133.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 133 ، 134.
(3) المصدر السابق نفسه ص 134.

ثالثاً: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النَّبيُّ(ﷺ) لم يجد أثراً للحشود الرُّومانية، ولا القبائل العربيَّة، وبالرَّغم من أنَّ الجيش مكث عشرين ليلةً في تبوك، لم تفكِّر القيادة الرُّومانيَّة مطلقاً في الدُّخول مع المسلمين في قتالٍ، حتَّى القبائل العربيَّة المتنصِّرة اثرت السُّكون، أمَّا حكام المدن في أطراف الشَّام، فقد اثروا الصُّلح، ودفع الجزية، فقد أرسل ملك أيلة للنَّبيّ(ﷺ) هديةً، وهي بغلةٌ بيضاء، وبُرد، فصالحه على الجزية، وأرسل خالدَ بن الوليد رضي الله عنه على رأس سريَّةٍ من الفرسان، بلغ عددها أربعمئةٍ وعشرين فارساً إلى دومة الجندل، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أُكيْدِرَ بن عبد الملك الكنديَّ – ملكَها – وهو في الصَّيْدِ خارجها[1]، فصالحه النَّبيُّ(ﷺ) على الجزية[2]، وقد تعجَّب المسلمون من قَباء كان أُكَيْدِرُ يلبَسُه، فقال الرَّسول(ﷺ) : «أتعجبون من هذا؟ فوالَّذي نفسي بيده! لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مِنْ هذا». [البخاري (3802)، ومسلم (126/2468)][3].

وقد ورد أنَّ غنائم خالد من أُكَيْدِرَ كانت ثمانمئةٍ من السَّبي، وألفَ بعيرٍ، وأربعمئة درعٍ، وأربعمئة رمحٍ[4]، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبيِّ(ﷺ) ، وهي بغلةٌ بيضاء، وبرد، فصالحه على الجزية[5].

وكتب رسول الله(ﷺ) معاهداتٍ لكلٍّ من أهل جرباء، وأذرح[6]، ولأهل مقنا[7]، يؤدِّي بموجبها هؤلاء النَّاس من نصارى العرب الجزية كلَّ عامٍ، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله(ﷺ) بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة، وعقد معها معاهداتٍ، وبذلك أمن حدود

---

(1) انظر: الإصابة (412/1 . 415) من طريق ابن إسحاق بإسنادٍ حسن.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (180/4).
(3) المصدر السابق نفسه (180/4) بإسنادٍ حسنٍ.
(4) انظر: البداية والنِّهاية (17/5) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود ، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة.
(5) انظر: المجتمع المدنيّ للعمريّ ، ص 241.
(6) المغازي (1032/3).
(7) انظر: الوثائق السياسية في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص 119 . 124.

الدَّولة الإسلاميَّة الشَّمالية(1).

وبهذه المعاهدات قصَّ(ﷺ) أجنحة الرُّوم، فقد كانت هذه القبائل تابعةً للرُّوم، ودخلوا في النَّصرانية، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله، والتزامها بالجزية يعتبر قصَّاً لهذه الأجنحة، وبتراً لحبال تبعيَّتهم للرُّوم، وتحريراً لها من هذه التَّبعيَّة؛ الَّتي كانت تذلُّهم، وتخضعهم لسلطان الرُّوم لينالوا مِنْ تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به، وخوفاً من ظلمهم لقوَّتهم الباطشة، وقد وَفَوا بعهد الصُّلح، والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يد وهم صاغرون(2).

وهذه سياسةٌ نبويَّةٌ حكيمةٌ اختطَّها رسولُ الله(ﷺ) في بناء الدَّولة، ودعوة النَّاس لدين الله، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الرُّوم بإماراتٍ تدين للرَّسول(ﷺ) بالطَّاعة، وتخضع لحكم المسلمين، وأصبحت في زمن الخلفاء الرَّاشدين نقاط ارتكازٍ، سهَّلت مهمة الفتح الإسلاميِّ في عهدهم، فمنها انطلقت قوَّات المسلمين إلى الشَّمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم(3).

رابعاً: وصايا رسول الله(ﷺ) للجيش عند مروره بِحِجْر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاريُّ رضي الله عنه: لـمَّا كان في غزوة تبوك تسارع النَّاس إلى أهل الحِجْرِ يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله(ﷺ) ، فنادى في النَّاس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله(ﷺ) وهو ممسكٌ بعيره، وهو يقول: «ما تدخلون على قومٍ غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسدِّدوا، فإنَّ الله – عزَّ وجلَّ – لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» **[أحمد (231/4)، والهيثمي في**

(1) انظر: الصراع مع الصَّليبيّين ، ص 217.
(2) محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (479/4).
(3) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيّين ، ص 221.

مجمع الزوائد (194/6)][1].

وقال ابن عمر رضـــي الله عنهما: إنَّ النَّاس نزلوا مع رســـول الله(ﷺ) أرض ثمودٍ الحجر، واســـتقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رســول الله(ﷺ) أن يهريقوا ما اســتقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبلَ العجينَ، وأمرهم أن يستقوا من البئر الَّتي كانت تردها النَّاقة، وقال رسول الله(ﷺ): «لا تدخلوا مســاكن الَّذين ظلموا أنفســهم، إلا أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصــيبكم مثلُ ما أصابهم» ثمَّ زجر[2]، فأسرع حتَّى خلَّفها. [البخاري (3380)، ومسلم (39/2980)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في توجيه رســـول الله(ﷺ) صـــحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكَّروا بها غضبَ الله على الَّذين كذَّبوا رسوله، وألا يغفُلوا عن مواطن العظة برسومها الدَّارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشـــيءٍ ممَّا في ربوعها، حتَّى الماء؛ لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، والتَّباكي، تحقيقاً للتأثُّر بعذاب الله، ولو أنَّهم مرُّو بها كما نمرُّ نحن باثار السَّـابقين؛ لتعرَّضـوا لسـخط الله، فإن الغابرين شـهدوا المعجزات، ودلائل النُّبوَّات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبُهم، فاستهانوا بها، وحقَّ عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله – عزَّ وجلَّ – ما قصَّ علينا من أنباء الأمم الخالية إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شـهدنا بأعيننا ديارهم، الَّتي نزل فيها سخط المولى – عزَّ وجلَّ – وعذابه الأليم؛ وجب أن تكون الموعظة أشدَّ، والاعتبار أعمقَ، والخوف من سخط المولى – سبحانه – أبلغَ ؛ ولهذا تسجَّى النَّبيُّ – صلوات الله وسلامُـــه عليه – بثوبه لـــمَّا مر بالدِّيار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته[3]، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيـوت الَّذين ظلمـوا أنفسهم إلا وأنتم باكون ؛ خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم». [سبق تخريجه].

---

(1) انظر: الفتح الرَّباني (195/21).

(2) زجر: أي: زجر ناقته ، ومعناه: ساقها سوقاً شديداً ، حتَّى خلَّفها ، أي: جاوز المساكن.

(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص 480.

خامساً: وفاة الصحابي عبد الله (ذو البجادين)[1] رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قمت من جوف اللَّيل، وأنا مع رسول الله(ﷺ) في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر، قال: فاتَّبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله(ﷺ) وأبو بكر، وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنيُّ قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله(ﷺ) في حضرته، وأبو بكر، وعمر يُدَلِّيانه إليه، وهو يقول: «أدْنِيَا إليَّ أخاكما»، فدلَّياه إليه، فلمَّا هيَّأه لِشِقِّه، قال: «اللَّهمَّ ! إنِّي أمسيت راضياً عنه، فارض عنه» قال: (الرَّاوي عن ابن مسعود) قال عبدُ الله بن مسعودٍ: يا ليتني كنت صاحب الحفرة. **[البزار (2736)، وأبو نعيم في الدلائل (2/524 – 526)، ومجمع الزوائد (9/369)]**[2].

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي ذا البجَادين؛ لأنَّه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك، ويضيِّقون عليه، حتَّى تركوه في بِجَادٍ، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله(ﷺ) ، فلمَّا كان قريباً منه، شقَّ بجاده باثنين، فاتَّزر بواحدٍ، واشتمل بالآخر، ثمَّ أتى رسول الله(ﷺ) فقيل له: ذو البِجادَين لذلك[3].

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وحكمٌ، وفوائد؛ منها:

1 – تكريم النَّبيِّ(ﷺ) لجنوده أحياء وأمواتاً:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النَّبي(ﷺ) على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنَّهم قدَّموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، تاركين وراءهم أعزَّ ما يملكون، فكانت تلك الرِّعاية مظهراً من مظاهر تكريمهم في الدُّنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذِّئاب وغيرها من دوابِّ الأرض، لكي يكون هذا التَّكريم من الأسباب الَّتي تدفع غيرهم إلى الاستبسال،

---

(1) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

(2) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص 598 ، والإصابة لابن حجر ، وقال: رواه البغويُّ بطوله من هذا الوجه ، ورجاله ثقات إلا أنَّ فيه انقطاعاً.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (4/182).

والإقدام في ميادين الجهاد.

ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ هذا المبدأ لم يجد مَنْ يدعو إلى تطبيقه إلاَّ في العصر الحديث، وبهذا يمكن أن يقال: إنَّ رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعدُّ سبقاً عسكرياً لم تعرفه النُّظم والدَّساتير الوضعيَّة إلا بعد قرونٍ طويلةٍ مِنْ بزوغ الإسلام[1].

فهذه صورة من البرِّ، والتَّكريم فريدةٌ يتيمةٌ، لن تجد في تاريخ الملوك والحكَّام من يبرُّ، ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسِّد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثمَّ يلتمس له المرضاة من ربِّ العالمين، أمَّا هو فقد أعلن: أنَّه أمسى راضياً عنه[2].

2 – جواز الدفن في اللَّيل، والغبطة مشروعةٌ في الخير:

فقد دفن رسول الله(ﷺ) ذا البجادين ليلاً، والسُّنَّةُ أن يُعَجَّل في دفن الميت، كما أنَّ الغبطة مشروعةٌ في الخير، وهي أن تتمنَّى حصول الخير لك، كما حصل لغيرك من إخوانك، وهذا عكس الحسد؛ إذ الحسد؛ تمنِّي زوال النِّعمة عن غيرك، والحسد كلُّه شرٌّ كما ترى، أمَّا الغبطة؛ فلا تكون إلا في الخير[3]، تأمَّل قول عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حينما سمع رسول الله(ﷺ) يقول في حق ذي البجادين: «اللَّهُمَّ إِنِّي أمسيت عنه راضياً، فارضَ عنه» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يا ليتني كنت صاحب اللَّحد. [سبق تخريجه][4]! إنَّها كلمةُ كلِّ مؤمنٍ آمن بالله، واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك؛ فقد عرفوا أين تكون ميادين التَّنافس[5].

---

(1) انظر: المدخل إلى العقيدة، والاستراتيجية العسكرية الإسلاميَّة، ص 299.
(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 472.
(3) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين، ص 163، 164.
(4) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 598.
(5) انظر: من معين السِّيرة، ص 452.

سادساً: بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة:

ظهرت في غزوة تبوك معجزاتٌ؛ منها:

1 – اللهُ تعالى يرسل السَّحاب لدعاء نبيِّه بالسُّقيا:

لـمَّا جاز النَّبيُّ(ﷺ) حِجْرَ ثمود، أصبح النَّاس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله(ﷺ)، فدعا رسول الله(ﷺ) ربه، واستسقى لمن معــه من المسلمين، فأرسل الله – سبحانه وتعالى – ســحابةً، فأمطرت حتَّى ارتوى النَّاس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدَّث ابن إســحاق عمَّن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النِّفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرَّجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمِّه، وفي عشيرته، ثم يَلْبَسُ بعضُهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجالٌ من قومي، عن رجلٍ من المنافقين معروف نفاقُه، كان يســـير مع رســـول الله(ﷺ) حيث سار، فلمَّا كان من أمر النَّاس بالحِجْرِ ما كان، ودعا رسول الله(ﷺ) حين دعا، فأرسـل الله السَّـحابة، فأمطرت حتى ارتوى النَّاس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء! قال: سحابةٌ مارَّةٌ[1].

2 – خبر ناقة رسول الله(ﷺ) :

لما كان رسـول الله(ﷺ) سـائراً في طريقه إلى تبوك ضـلَّت ناقتُه، فخرج أصـحابه في طلبها، وعند رسـول الله(ﷺ) رجلٌ من أصـحابه، يقال له: عُمارة بن حزم، وكان عقبيّاً بدريّاً، وهم عمُّ بني عمرو بن حزمٍ، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُّصَــيْت؛ وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رســول الله(ﷺ) : أليس محمد يزعم: أنَّه نبيٌّ، ويخبركم عن السَّماء، وهو لا يدري أين ناقتُه؟

فقال رســـول الله(ﷺ) وعُمارة عنده: «إنَّ رجلاً قال: هذا محمَّد يخبركم أنَّه نبيٌّ، ويزعم أنَّه

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (176/4) ، وصور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص 473 ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل: تخلُّف عبد الله بن أبي ، وأهل الريب عام تبوك.

يخبركم بأمر السَّـــماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإنِّي والله! ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شـعب كذا، وكذا، قد حبسـتها شـجرةٌ بزمامها، فانطلقوا حتَّى تأتوني بها»، فذهبوا، فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله! لعجبٌ من شـيء حَدَّثناه رسـولُ الله(ﷺ) انفاً، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا، وكذا، للَّذي قال زيد بن اللُّصَـيْت. فقال رجلٌ ممَّن كان في رحل عمارة، ولم يحضـر رسـول الله(ﷺ) : زيدٌ والله! قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيدٍ، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إنَّ في رحلي لداهيةً؛ وما أشـعر، اخرج، أيْ عدوَّ الله مِنْ رحلي، فلا تصـحبني. **[الطبري في تاريخه (145/3)، والبلاذري في أنساب الأشراف (285/1)، والبيهقي في الدلائل (232/5)]**[1].

قال ابن إســـحاق: فزعم بعض النَّاس أنَّ زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض النَّاس: لم يزل مُتَّهماً بشرٍّ حتَّى هلك[2].

3 – الإخبار بهبوب ريحٍ شديدةٍ، والتَّحذير منها:

أخبر رســولُ الله(ﷺ) أصــحابه في تبوك بأنَّ ريحاً شــديدةً ســتهبُّ، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفســـهم، ودوابِّهم، فلا يخرجوا حتَّى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابَّهم حتَّى لا تؤذى. وتحقَّق ما أخبر به رســول الله(ﷺ) فهبتِ الرِّيح الشَّــديدة، وحملت من قام فيها إلى مكانٍ بعيدٍ[3]، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حُمَيْدٍ، قال: وانطلقنا حتَّى قدمنا تبوك، فقال رسول الله(ﷺ) : «ستهبُّ عليكم اللَّيلـــة ريحٌ شديدةٌ، فلا يقم أحدٌ منكم، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عِقَالَه»، فهبَّت ريحٌ شــديدةٌ، فقام رجلٌ، فحملته الرِّيح حتَّى ألقته بجبل طيِّئ. **[البخاري (1481)، ومسـلم (1392/11 و12)]**.

قال النَّوويُّ في شـرحه على صـحيح مسـلمٍ معقِّباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه

---

(1) انظر: إعلام النُّبوة، للماوردي، ص 100، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام (177/4).
(2) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (177/4).
(3) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّن، ص 141.

المعجزة الظَّاهرة من إخباره(ﷺ) بالمغيب، وخوف الضَّرر من القيام وقت الرِّيح[1].

4 – تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه مِنْ خصبٍ:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله(ﷺ) : «إنَّكم ستأتون غداً – إن شاء الله – عين تبوك، وإنَّكم لن تأتوها حتَّى يَضْحَى النَّهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى اتي»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشِّراك[2]، تَبِضُّ[3] بشيءٍ من ماءٍ، فسألهما رسول الله(ﷺ) : «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبَّهما النَّبيُّ(ﷺ) وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثمَّ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتَّى اجتمع في شيءٍ، وغسل رسول الله(ﷺ) فيه يديه ووجهه، ثمَّ أعاده فيها، فجرت العين بماءٍ منهمرٍ أو غزيرٍ حتَّى استقى النَّاس.

وقد قال رسول الله(ﷺ) لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلئ جناناً». **[أحمد (5/237 – 238)، ومسلم (10/706)، وأبو داود (1260)، والترمذي (553)، والنسائي (1/285)، وابن ماجه (1070)]**.

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الَّذي كانت فيه العين منطقةً جرداء لقلَّة الماء، ولكن الله – عزَّ وجل – أجرى على يد رسوله(ﷺ) بركة تكثير هذا الماء، حتَّى أصبح يسيل بغزارةٍ، ولم يكن هذا اتياً لسدِّ حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله(ﷺ) بأنه سيستمرُّ، وستكون هناك جنانٌ، وبساتين مملوءةٌ بالأشجار المثمرة، ولقد تحقَّق ما أخبر به الرَّسول(ﷺ) بعد فترة قليلةٍ من الزَّمن، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها، وبساتينها، ونخيلها، وتمورها، تنطق بصدق نبوَّة الرَّسول(ﷺ) ، وتشهد بأنَّ الرَّسول(ﷺ) لا يتكلَّم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقّاً، ولا ينبئ بشيءٍ إلا ويتحقَّق[4].

---

(1) شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ (42/15).
(2) الشراك: هو سير النَّعل ، ومعناه: ماءٌ قليلٌ جداً.
(3) تَبضُّ: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ، ومعناه: تسيل.
(4) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيّين ، ص 142.

5 – تكثير الطَّعام:

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: لما كانت غزوة تبوك أصاب النّاسَ مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله! لو أذنت لنا، فنحرنا نواضِحنا[1]، فأكلنا، وادَّهَنَّا، فقال لهم رسول الله(ﷺ) : «افعلوا» فجاء عمر، فقال: يا رسول الله! إنَّهم إن فعلوا؛ قلَّ الظَّهر[2]، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثمَّ ادع لهم بالبركة، لعلَّ الله أن يجعل في ذلك! فدعا رسول الله(ﷺ) : بنطْعٍ[3]، فبسطه، ثمَّ دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرَّجل يجيء بكفِّ الذُّرة، والآخر بكف التَّمْر، والآخر بالكِسْرَة، حتَّى اجتمع على النِّطع في ذلك شيءٌ يسيرٌ، ثمَّ دعا عليه بالبركة، ثمَّ قال لهم: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا في أوعيتهم حتَّى ما تركوا من المعسكر وعاءً إلا ملؤوه، وأكلوا حتَّى شبعوا، وفضَلَتْ منه فَضْلَةٌ، فقال رسول الله(ﷺ) : «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسولُ الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فتحجب عنه الجنَّة». **[أحمد (11/3)، ومسلم (45/27)، والبيهقي في الدلائل (229/5 – 230)، وابن حبان (6530)، وأبو يعلى (1199)].**

هذه بعض المعجزات، والكرامات الَّتي أظهرها الله على يد رسول الله(ﷺ) في غزوة تبوك، تدلُّ على صدق نبوَّته، ورسالته، وتدلُّ على رفعة منزلته، وتكريمه عند ربِّه[4].

سابعاً: حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين في أثناء الغزوة:

أ – قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ يوماً: ما أرى قرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللِّقاء.. فقال رجلٌ في المجلس: كذبت، ولكنَّك منافقٌ، لأخبرنَّ رسول الله(ﷺ) ! فبلغ ذلك رسولَ الله(ﷺ) ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلِّقاً بِحَقَبِ[5]

---

(1) نواضحنا: جمع: ناضح ، وهي الإبل الَّتي يُسقى عليها.
(2) الظَّهر: ما يحمل عليه من الإبل.
(3) النِّطع: بساطٌ من الجلد.
(4) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 141.
(5) الحَقَبُ: حبلٌ يشدُّ به الرَّحل في بطن البعير.

ناقة رســـول الله، والحجارة تنكبُه[1]، وهو يقول: يا رســـول الله! إنَّما كنَّا نخوض، ونلعب، والرَّسول(ﷺ) يقول: «أبالله، وآياته، ورسوله كنتم تستهزئون؟». **[ابن جرير في تفسيره (172/10)، والسيوطي في الدر المنثور (230/4)]**.

وفي رواية قتادة، قال: بينما رســـول الله(ﷺ) في غزوته إلى تبوك، وبين يديه أناسٌ من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرَّجل أن تفتح له قصـــور الشَّـــام وحصـــونُها؟ هيهات! هيهات!! فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فقال نبيُّ الله(ﷺ) : «احبســـوا عليَّ هؤلاء الرَّكب». فأتاهم، فقال: قلتُم كذا، وكذا، فحلفوا ما كنَّا إلا نخوض، ونلعب **[ابن جرير في تفســـيره (172/10)، والســـيوطي في الدر المنثور (230/4)]**. فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُـــورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ **[التوبة: 64 – 65]**.

والاستفهام في قوله: استفهامٌ ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، والمعنى: قل يا محمد! لهؤلاء موبِّخاً، ومنكراً: ألم تجدوا ما تســـتهزئون به في مزاحكم ولعبكم – كما تزعمون – سوى فرائضِ الله، وأحكامه، وآياته، ورسوله الَّذي جاء لهدايتكم، وإخراجكم من الظُّلمات إلى النُّور؟! ثمَّ بيَّن ســبحانه: أنَّ اســتهزاءهم هذا أدَّى بهم إلى الكفر، فقال: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ **[التوبة: 66]**.

ومعنى الآية: أي: لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم؛ لأنَّ الإقدام على الكفر لأجل اللَّعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم، فهو كما يقال: عذرٌ أقبح من ذنبٍ[2].

وقوله: أي: إن نعف عن بعضـــكم؛ ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، وإنابتهم إلى ربِّهم – كمُخَشِّـــن بن حُمَيِّر؛ نعذب بعضـــاً اخر؛ لإجرامهم، وإصـــرارهم عليه[3].

---

(1) الحجارة تنكبُه: تصيبه ، وتؤذيه.

(2) انظر: تفسير المراغي (153/4).

(3) المصدر السابق نفسه ، (153/4).

ب – إيذاء الرَّسول(ﷺ) ، والمؤمنين، ومحاولة اغتيال رسول الله(ﷺ) :

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخرةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: 74].

وقد قال ابن كثيرٍ: إنَّ الضَّحاك قال: إنَّ نفراً من المنافقين همُّوا بالفتك بالنَّبيِّ(ﷺ) وهو في غزوة تبوك في بعض اللَّيالي في حال السَّير، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية[1] وفي رواية الواحديِّ عن الضَّحَّاك: خرج المنافقون مع رسول الله(ﷺ) إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضُهم إلى بعضٍ؛ سبُّوا رسول الله(ﷺ) ، وأصحابَه، وطعنوا في الدين، فنقل ما قالوا حذيفةُ إلى رسول الله(ﷺ) ، فقال لهم رسول الله: «يا أهل النِّفاق! ما هذا الذي بلغني عنكم؟!»، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله هذه الآية إكذاباً لهم[2].

والمعنى الإجماليُّ للآية: «يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة الَّتي نسبت إليهم، والله يكذِّبهم، ويُثبت: أنَّهم قد قالوا كلمة الكفر الَّتي رويت عنهم، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة؛ لأنَّه لا ينبغي ذكرها»[3].

أمَّا همُّهم بما لم ينالوا؛ فهو اغتيال رسول الله(ﷺ) حين كان بالعقبة وهو منصرفٌ مِنْ تبوك. قال ابن كثير: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت اخذاً بخطام ناقة رسول الله(ﷺ) أقود به، وعمَّار يقود النَّاقة، وأنا أسوقُه، وعمَّار يقوده، حتَّى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله(ﷺ) بهم، فصرخ بهم فولَّوا مدبرين، فقال لنا رسولُ الله(ﷺ) : « هل عرفتم القوم؟ » قلنا: لا يا رسول الله؟! قد كانوا ملثَّمين، ولكنَّا قد

---

(1) تفسير ابن كثيرٍ (372/2).

(2) انظر: أسباب النُّزول للواحديِّ، ص 251.

(3) انظر: حديث القرآن الكريم (665/2).

عرفنا الرِّكابَ. قال: «هؤلاء المنافقون إلي يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟»، قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزاحموا رسـول الله(ﷺ) في العقبة، فيلقوه منها». **[البيهقي في الدلائل (5/260 – 261)، والسيوطي في الدر المنثور (4/244)]**.

وقوله: . أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ مِنْ فَضْـلِهِ﴾، وبعثة الرَّسـول(ﷺ) فيهم شـيئاً يقتضـي الكراهة، والهمَّ بالانتقام، إلا أن أغناهم الله تعالى، ورسولُه من فضله بالغنائم الَّتي هي عندهم أحبُّ الأشياء لديهم في هذه الحياة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: فإنْ يتوبوا من النِّفاق، وما يصـــدر عنه من مساوئ الأقوال، والأفعال؛ يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدُّنيا، والآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخرةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾

أي: وإن يُعرضـوا عمَّا دُعوا إليه من التَّوبة، وأصـروا على النِّفاق وما ينشـأ منه من المسـاوئ الخلقيَّة، والنَّفسيَّة، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدُّنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهَلَع[1].

* * *

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (2/666).

المبحث الثَّالث

العودة من تبوك إلى المدينة، وحديث القرآن الكريم في المخلَّفين عن الغزوة، وعن مسجد الضِّرار

عاد النَّبيُّ(ﷺ) إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلةً[1]، وقد أمر النَّبيُّ(ﷺ) بهدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون وهو راجعٌ إلى المدينة، ولـمَّا اقترب من المدينة؛ خرج الصِّبيان إلى ثَنِيَّة الوداع يتلقَّونه، ودخل المدينة، فصلَّى في مسجده ركعتين، ثمَّ جلس للنَّاس، وجاء المخلَّفون لرسول الله(ﷺ) يقدِّمون له الاعتذار، وكانوا أربعة أصنافٍ: فمنهم من له أعذارٌ شرعيَّةٌ، وعذرهم الله – سبحانه وتعالى –، ومنهم مَنْ ليس له أعذارٌ شرعيَّة، وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلَّفون الَّذين لهم أعذار شرعيَّةٌ، وعذرهم الله – سبحانه وتعالى –:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91 – 92].

بيَّنت هذه الآيات الكريمة الَّذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذرٌ شرعيٌّ، بأنَّه ليس عليهم حرجٌ، وليس عليهم إثمٌ في هذا التَّخلُّف؛ ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج، وفي المراد بالضُّعفاء: أنَّهم الزَّمنى، والمشايخ الكبار، وقيل: الصِّغار، وقيل: المجانين، سمُّوا ضعافاً لضعف عقولهم، ذكر القولين الماورديُّ، والصَّحيح: أنَّهم الَّذين يضعفون لزمانةٍ، أو عمىً، أو

(1) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص 603.

سنٍّ، أو ضعفٍ في الجسم. والمرضى: الَّذين بهم أعلالٌ مانعةٌ من الخروج للقتال[1].

وقوله: أي: ليس على الذين ﴿وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ يجدون نفقةً تبلغهم إلى الغزو حرجٌ؛ أي: إثم، أي: إذا عرفوا ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وأحبُّوا أولياءه، وأبغضوا أعداءه[2].

وقوله: قال الطَّبري: يقول تعالى: ليس على مَنْ ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، فنصح لله، ورسوله في تخلُّفه عن رسول الله وعن الجهاد معه، لعذرٍ يُعذر به طريقٌ يتطرَّق عليه، فيعاقب مِنْ قبله يقول تعالى: والله ساترٌ على ذنوب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، يتغمَّدها بعفوه لهم عنها، رحيمٌ بهم أن يعاقبَهم عليها[3].

وقال القرطبيُّ: الآية أصلٌ في سقوط التَّكليف عن العاجز، ولا فرق بين العجز من جهة القوَّة، أو العجز من جهة المال[4].

وقوله: معطوف على ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ قبله، من عطف الخاصّ على العامّ، اعتناءً بشأنهم، وجعلهم كأنَّهم لتميزهم جنسٌ اخر، مع أنَّهم مندرجون مع الَّذين وصفهم الله قبل ذلك أي: ﴿أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ حرج، ولا إثم على الضُّعفاء، ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا ما تخلَّفوا عن الجهاد، وكذلك لا حرج، ولا إثم – أيضاً – على فقراء المؤمنين على الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السَّفر الطَّويل لهم ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ﴾ محمد[5]: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، وقوله: أي: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وأعينهم تسيل بالدُّموع من شدَّة الحزن؛ لأنَّهم لا يجدون المال؛ الَّذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[6]

(1) انظر: زاد المسير (485/4).
(2) انظر: تفسير القرطبيّ (226/8).
(3) انظر: تفسير الطَّبري (211/10).
(4) انظر: تفسير القرطبيّ (226/8).
(5) انظر: حديث القرآن الكريم (672/2).
(6) انظر: حديث القرآن الكريم (673/2).

ثانياً: المخلَّفون الذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ، وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدَّث عن هؤلاء المخلَّفين، وهي:

1 - قوله تعالى: ﴿وَآخرون اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 102].

ومعنى الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء الجماعة تخلَّفوا عن الغزو لغير عذرٍ مسوّغٍ للتخلُّف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، كما اعتذر المنافقون، بل تابوا، واعترفوا بالذَّنب، ورجوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل الصَّالح: ما تقدَّم من إسلامهم، وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السَّيِّئ: هو تخلُّفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السَّيِّئ عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتَّوبة عنه.

وأصل الاعتراف: الإقرار بالشَّيء، ومجرَّد الإقرار لا يكون توبةً إلا إذا اقترن به النَّدم على الماضي، والعزم على تركه في الحال، والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط: أنَّهم خلطوا كلَّ واحد منهما بالآخر؛ كقولك: خلطت الماء باللَّبن، واللبنَ بالماء.

وفي قوله: دليلٌ على أنَّه قد وقع منهم مع الاعتراف ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يفيد التَّوبة، أو مقدِّمة التَّوبة وهي الاعتراف، ويقوم مقام التَّوبة، وحرف التَّرجِّي وهو (عسى) هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقُّق الوقوع ؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ؛ لكونه أكرم الأكرمين، أي: يغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ويتفضَّل على عباده(1).

2 - قوله تعالى: ﴿وَآخرون مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 106].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصَّحيحين: هلال بن أميَّة، وكعب بن مالك، ومُرارة بن

---

(1) انظر: تفسير الشوكاني (399/2).

الرَّبيع، وكانوا قــد تخلَّفوا عن رسول الله(ﷺ) لأمرٍ ما، مع الهمِّ باللَّحاق به(ﷺ) فلم يتيسَّر لهم، ولم يكن تخلُّفهم عن نفاقٍ، وحاشاهم، فقد كانوا من المخلصين، فلــمَّا قدم النَّبيُّ(ﷺ) وكان ما كان من المتخلِّفين؛ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا له(ﷺ) ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السَّــواري[1]، وأمر رســول الله باجتنابهم، وشــدَّد الأمر عليهم، كما ستَعْلَمُه إن شــاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلةً لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[2].

3 – قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَـــاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَـــاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُـــهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ **[التوبة: 118]**.

والمراد بهؤلاء الثَّلاثة هم: هلالُ بنُ أميَّة، وكعب بن مالك، ومُرَارة بن الرَّبيع، وفيهم نزلت هذه الآية[3]، وســوف نتحدَّث عن هذه القصَّــة بإذن الله بنوعٍ من التَّفصــيل، لما فيها من الدُّروس، والعبر، والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلَّفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ **[التوبة: 90]**.

ومعنى الآية: أنَّه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحقٍّ أو باطلٍ على كلا التَّفسيرين ؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله(ﷺ) بالتَّخلُّــف عن الغزوة، وطائفةٌ أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذرٍ، وهم منافقو الأعراب الذين كذَبوا الله ورســوله، ولم يؤمنوا، ولا صــدَّقوا، ثمَّ توعَّدهم الله – ســبحانه – فقال: أي: من ﴿سَـيُصِـيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذَّبوا بالله، ورســوله، أي: كثيرُ ﴿عَذَابٌ

(1) أي: الَّذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة ، وأصحابه.

(2) انظر: تفسير الالوسي (17/11).

(3) انظر: حديث القرآن الكريم (677/2).

أَلِيمٌ﴾، فيصدُق على عذاب الدُّنيا، والآخرة[1].

ونزل فيهم قوله تعالى: والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون! أنَّه يسكن مِنْ حول مدينتكم قومٌ من الأعراب ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ﴾، فاحترسوا منهم[2].

رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ **[التوبة: 81 – 83]**.

وتفسير الآيات السَّابقة كالآتي: المخلَّفون: اسم مفعول مأخوذ من قولهم: خلَّف فلانٌ فلاناً وراءه: إذا تركه خلفه، والمخلَّف: المتروك خلف مَنْ مضى[3]، : بقعودهم ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قال ابن الجوزيّ: فيها قولان:

أحدهما: أنَّ معناه: بعد رسول الله(ﷺ) .

والثاني: أنَّ معناه: مخالفة رسولِ الله(ﷺ) ، فالمعنى بأنَّهم قعدوا لمخالفة رسول الله(ﷺ)[3].

والمعنى: قال ابن كثير: يقول تعالى ذامَّاً للمنافقين المتخلِّفين عن صحابة رسول الله(ﷺ) في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله(ﷺ) : ﴿قل﴾ لهم: ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أشد حَرًا﴾ ممَّا فررتم منه مِنَ

(1) انظر: تفسير الشَّوكاني (391/2).
(2) انظر: حديث القرآن الكريم (681/2).
(3) انظر: زاد المسير (478/3).

الحرِّ[1]﴿لو كانوا يفقهون﴾ تذييل قصد به الزيادة في توبيخهم، وتحقيرهم[2].

وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

والمعنى: أنَّهم فرحوا، وضحكوا طوال أعمارهم في الدُّنيا، فهو قليلٌ بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ، والآخرة باقيةٌ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بالنسبة إلى الدَّائم الباقي. وقوله تعالى: والمراد بقوله: إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الَّذين تخلَّفوا عن الخروج معك إلى ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ﴾، والمراد بقوله: حين لم يخرجوا إلى تبوك والمراد بقوله: . قال الإمام الرَّازي ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ملخَّصُه: ذُكِرَ في تفسير «الخالف» وجوهٌ:

الأول: الخالفون جمعٌ، واحدهم: خالف، وهو مَنْ يخلُف الرَّجل في قومٍ. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرِّجال الَّذين يخلُفون في البيت، فلا يبرحونه.

الثاني: أنَّ الخالفين فسِّر بالمخالفين، يقال: فلانٌ خالفه أهلُ بيته: إذا كان مخالفاً لهم، وقومٌ خالفون، أي: كثيرو الخلاف لغيرهم.

الثالث: أنَّ الخالف هو الفاسد. قال الأصمعيُّ: يقال: خلف عن كلِّ خيرٍ، يخلف، خلوفاً: إذا فسد، وخلف اللَّبنُ: إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثَّلاثة؛ فلا شك: أنَّ اللَّفظ يصلح حمله على كلِّ واحدٍ منها؛ لأنَّ أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصِّفات السَّيئة[3].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرَّسول(ﷺ) في معاملته للمنافقين – عندما اعتذروا له – عن المسلمين الصَّادقين؛ حيث إنَّه(ﷺ) عامل المنافقين باللِّين، والصَّفح، واختار للمسلمين الصَّادقين الشِّدَّة، والعقوبة! ولا شكَّ: أنَّ الشدَّة، والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهرٌ

---

(1) انظر: تفسير ابن كثيرٍ (376/2).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (686/2).

(3) انظر: تفسير الرازي (151/15) بتصرف يسير.

للإكرام، والتَّشـريف، وهو ما لا يسـتحقُّه المنافقون، وكيف يسـتحقُّ المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم – على أيّ حال – إنَّهم كفرةٌ، ولن يَنْشُـلَهم شـيءٌ ممَّا يتظاهرون به في الدُّنيا من الدَّرك الأسـفل في النَّار يوم القيامة، وقد أمر الشَّـارع جلَّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به، ونُجري الأحكام الدُّنيوية حسـب ظواهرهم، ففيم التَّحقيق عن بواطن أعذارهم، وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتُهم في الدُّنيا على ما قد يصـدر عنهم مِنْ كذبٍ؟! ونحن إنَّما نعطيهم الظَّاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يُبدون لنا هم أيضاً الظَّاهر فقط من أحوالهم، وعقائدهم.

قال ابن القيِّم: وهكذا يفعل الربُّ سـبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدِّب عبده المؤمن الَّذي يحبُّه – وهو كريمٌ عنده – بأدنى زلَّة وهفوةٍ، فلا يزال مسـتيقظاً حذراً، وأمَّا مَنْ سـقط من عين الله، وهان عليه؛ فإنَّه يُخَلِّي بينه وبين معاصـيه، وكلَّما أحدث ذنباً؛ أحدث له نعمةً[1].

خامساً: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النَّبي(ﷺ) إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْـجِدًا ضِـرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَـادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْـنَى وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْـجِدٌ أُسِّـسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ **[التوبة: 107 – 108]**.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنَّه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله(ﷺ) إليها رجلٌ من الخزرج، يقال له: أبو عامر الرَّاهب، وكان قد تنصَّـر في الجاهليَّة، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادةٌ في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبيرٌ، فلـمَّا قدِم رسولُ الله(ﷺ) مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسـلمون عليه، وصـارت للإسـلام كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شـرق

---

(1) انظر: زاد المعاد (578/3).

اللَّعين أبو عامرٍ بريقِه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفَّار مكَّة من مشـركي قريشٍ، يمالئهم على حرب رســـول الله(ﷺ) فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحدٍ، فكان من أمر المســـلمين ما كان، وامتحنهم الله – عزَّ وجل –، وكانت العاقبة للمتَّقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين فوقع في إحداهنَّ رسول الله(ﷺ) ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح، وكسرت رباعيَّته اليُمنى، والسُّفلى، وشُجَّ رأسه(ﷺ) .

وتقدَّم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصـــار، فخاطبهم، واســـتمالهم إلى نصـــره وموافقته، فلـــــمَّا عرفوا كلامه؛ قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاســـق! يا عدوَّ الله! ونالوا منه، وسبُّوه، فرجع وهو يقول: والله! لقد أصـاب قومي بعدي شـرٌّ، وكان رسـول الله(ﷺ) قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسـلم، وتمرَّد، فدعا عليه رسـول الله(ﷺ) أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدَّعوة، وذلك: أنَّه لما فرغ النَّاس من أحدٍ، ورأى أمر الرَّســول(ﷺ) في ارتفاع، وظهورٍ؛ ذهب إلى هرقل ملك الرُّوم يســتنصــره على النَّبيّ(ﷺ) ، فوعده، ومنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصـــار من أهل النِّفاق، والرَّيب يعدهم، ويمنِّيهم بجيشٍ يقاتل به رسـول الله(ﷺ) ، ويغلبه، ويردُّه عمَّا هو فيه، وأمرهم أن يتَّخذوا له معقلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصـداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشـرعوا في بناء مسـجدٍ مجاورٍ لمسـجد قُباء، فبنوه، وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسـول الله(ﷺ) إلى تبوك وجاؤوا، فسألوا رسول الله(ﷺ) أن يأتي إليهم، فيصلِّي في مسـجدهم ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره، وإثباته، وذكروا: أنَّهم بنوه للضُّعفاء منهم، وأهل العلَّة في الليلة الشَّـاتية، فعصـمه الله من الصَّـلاة فيه، فقال: «إنَّا على سـفرٍ، ولكن إذا رجعنا إن شـاء الله»، فلـــمَّا قفل عليه السَّـلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبقَ بينه وبينها إلا يومٌ أو بعض يومٍ نزل عليه جبريل بخبر مسـجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر، والتَّفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، ومسـجد قُباء؛ الَّذي أسـس من أوَّل يومٍ على التَّقوى، فبعث رسـول الله(ﷺ) إلى ذلك المسـجد مَنْ هدمه قبل مَقْدَمِهِ المدينة **[ابن جرير في تفسيره (23/11)، والبيهقي في الدلائل (262/5، 263)، وابن هشام (173/4)،**

174)، وابن كثير في تفسيره (388/2)]، هذا ما ذكره ابن كثيرٍ في سبب النُّزول.

أمَّا معنى الآيات الكريمات:

أخبر الله سبحانه أنَّ الباعث لهم على بناء هذا المسجد أربعةُ أمور:

1 - الضِّرار لغيرهم، وهو المضارَّة.

2 - الكفر بالله، والمباهاة لأهل الإسلام؛ لأنَّهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النِّفاق.

3 - التَّفريق بين المؤمنين؛ لأنَّهم أرادوا ألاَّ يحضروا مسجد قُباء، فتقلَّ جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة، وبطلان الأُلفة ما لا يخفى.

4 - الإرصاد لمن حارب الله ورسوله، أي: الإعداد لأجل مَنْ حارب الله ورسوله[1].

وقد خيَّب الله تعالى مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأنْ أمر نبيَّه(ﷺ) بهدمه، وإزالته.

وقوله: ذمٌّ لهم على أيمانهم ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾، وأقوالهم الكاذبة، لذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

ثمَّ نهى الله - تعالى - رسوله والمؤمنين عن الصَّلاة في هذا المسجد نهياً مؤكَّداً، فقال سبحانه: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾

قال ابن عاشور: وقوله (سبحانه): المراد بالقيام الصَّلاة؛ ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أوَّلها قيامٌ، ووجه النَّهي عن الصَّلاة فيه: أنَّ صلاة النَّبي(ﷺ) فيه تُكْسِبه يُمناً، وبركةً فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزيَّةً عليه، ولذلك أمر رسول الله(ﷺ) عمَّار بن ياسر، ومالك بن الدُّخشم مع بعض أصحابه، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظَّالم أهلُه؛ فاهدموه، وحرِّقوه» ففعلوا[2].

---

(1) انظر: تفسير الشَّوكاني (403/2).

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (184/4).

وقوله: احتراسٌ ممَّا يستلزمه النَّهي عن الصَّلاة فيه؛ من إضاعة عبادة في الوقت الَّذي رغبوه للصَّلاة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، فأمر الله بأن يصلِّي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصَّلاة في مسجد الضِّرار أن يصلِّي في مسجده، أو في مسجد قُباء، لئلا يكون لامتناعه من الصَّلاة من حظوظ الشَّيطان أن يكون صرفُه عن صلاةٍ في وقت دعي للصَّلاة فيه، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ[1].

وفيه أيضاً: دفعُ مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرَّسول(ﷺ) ، بأنَّه دعي إلى الصَّلاة في مسجدهم، فامتنع، فقوله: وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة؛ لأنَّ النَّهي عن صلاته في مسجد الضِّرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه أصلاً .

ولعلَّ نكتة الإتيان باسم التَّفضيل: أنَّه تهكُّمٌ على المنافقين؛ لمجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النَّبيَّ(ﷺ) للصَّلاة فيه، بأنَّه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجدٍ أُسِّس على التَّقوى أحقّ منه، فيعرف من وصفه بأنَّه : أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها[2].

وقد رأى ابن عاشور: أنَّ المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى: أنَّه مسجد هذا صفته، لا مسجداً واحداً معيَّناً، فيكون هذا الوصف كلِّيّاً انحصر في فردين: المسجد النَّبويُّ، ومسجد قُباء[3].

قوله تعالى: روى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ماجه: أنَّه لـمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله(ﷺ) : «يا معشر الأنصار! إنَّ الله تعالى قد أثنى عليكم في الطُّهور، فما طُهوركم؟»

قالوا: نتوضأ للصَّلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء. قال: «فهو ذاك، فعليكُمُوه».

[ابن ماجه (355)].

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (661/2).
(2) انظر: التَّحرير والتَّنوير (31/11).
(3) المصدر السابق نفسه.

وفي قصة مسجد الضِّرار دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد؛ منها:

1 – الكفر ملةٌ واحدةٌ:

وقد تبيَّن هذا في موقف أبي عامرٍ الرَّاهب من الإسلام، ومن المسلمين؛ إذ غضب غضباً شديداً، وتألَّم لهزيمة المشركين في بدرٍ، فأعلن عداءه للرَّسول(ﷺ) ، وتوجَّه إلى عاصمة الشِّرك انذاك مكَّة يحثُّ أهلها على قتال المسلمين، وخرج مقاتلاً معهم في أحدٍ، وحاول تفتيت الصَّفِّ الإسلاميّ[1]، وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: 73].

2 – محاولة التَّدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشَّرعية على هذا البناء، وأنَّه مسجدٌ بنوه لأسبابٍ مقنعةٍ في الظَّاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاؤوا يطلبون من الرَّسول(ﷺ) الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله(ﷺ) بالصَّلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقرَّ قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوبٌ ماكرٌ خبيثٌ قد ينطلي على كثيرٍ من النَّاس[2].

3 – فالله خيرٌ حافظاً، وهو أرحم الراحمين:

إنَّ الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهيَّة بالنَّبيِّ(ﷺ) ، فقد أطلعه الله – عزَّ وجلَّ – على أسرار هؤلاء المنافقين، وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله(ﷺ) ؛ لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلَّى في البناء، فأضفى عليه الشَّرعيَّة، وأقبل النَّاس يصلُّون فيه؛ لأنَّ رسول الله(ﷺ) صلَّى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين، وضعاف المسلمين، فينفردون بهم، وقد يؤثِّرون عليهم بالإشاعات[3].

---

(1) انظر: الصراع مع الصَّليبيّين ، ص 179.
(2) المصدر السابق نفسه ، ص 181.
(3) انظر: الصراع مع الصَّليبيّين ، ص 179.

4 – العلاج النَّبويُّ الحاسم:

إنَّ ما قام به الرَّسول(ﷺ) من الأمر بهدم مسجد الضِّرار هو التَّصرُّف الأمثل، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه لقادة الأمَّة في القضاء على أيِّ عملٍ يراد منه الإضرار بالمسلمين، وتفريق كلمتهم، فالدَّاء العُضَالُ لا يُعالَج بتسكينه، والتخفيف منه، وإنَّما يعالج بحسمه، وإزالة اثاره؛ حتَّى لا يتجدَّد ظهوره بصورةٍ أخرى، وإنَّ الثِّمار العمليَّة الَّتي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النَّبويِّ الحازم لتدلُّنا على أنَّ هذه المنهجيَّة؛ التي نهجها رسول الله(ﷺ) مع هذا المكر الخبيث هي الطَّريقة المثلى لقمع حركة النِّفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرُهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً، فشيئاً، حتَّى لم يبقَ منهم بعد لحاق الرَّسول(ﷺ) بالرَّفيق الأعلى إلا عددٌ قليل، ولم يُعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضِّرار أن قاموا بأعمالٍ تخدم الهدف نفسه؛ لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[1].

5 – ما يلحق بحكم مسجد الضِّرار:

ذكر المفسِّرون ما يُلحق بمسجد الضِّرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

أ – قال الزَّمخشري: «... وقيل: كلُّ مسجد بُني مباهاةً، أو رياءً، وسمعةً، أو لغرضٍ سوى ابتغاء وجه الله، أو بمالٍ غير طيّبٍ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضِّرار»[2].

علق الدَّكتور عبد الكريم زيدان على قول الزَّمخشري، فقال: ولكن: هل يلحق بمسجد الضِّرار، فيهدم، كما هدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النَّبيُّ(ﷺ) بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنَّما يمكن أن يقال: إنَّ المسجد الذي بني لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التَّقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى[3].

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (130/8).
(2) انظر: تفسير الزَّمخشري (310/2).
(3) انظر: المستفاد من قصص القرآن (504/1).

ب – قال القرطبيُّ في تفسيره: قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ، أو رياءٍ وسُمعةٍ، فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصَّلاة فيه[1].

ج – وقال سيِّد قطب في تفسيره: هذا المسجد – مسجد الضِّرار – الَّذي اتُّخذ على عهد رسول الله(ﷺ) مكيدةً للإسلام، والمسلمين، هذا المسجد ما يزال يُتَّخذ في صورٍ شتَّى، يُتَّخذ في صورة نشاطٍ ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه، وتُتَّخذ في صورة أوضاعٍ ترفع لافتة الدِّين عليها لِتَتَترَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدِّين، وتُتَّخذ في صورة تشكيلاتٍ، وتنظيماتٍ، وكتبٍ، وبحوثٍ تتحدَّث عن الإسلام؛ لتُخَدِّر القلقين الَّذين يرون الإسلام يُذبح، ويُمحق، فتخدِّرهم هذه التَّشكيلات، وتلك الكتب بما توحيه لهم من أنَّ الإسلام بخيرٍ، وأنَّه لا داعي للخوف، أو القلق عليه[2].

6 – قاعدة لمعرفة ما يلحق بمسجد الضِّرار:

قال الدَّكتور عبد الكريم زيدان: كلُّ ما يُتَّخذ ممَّا هو في ظاهره مشروعٌ، ويريد متَّخذوه تحقيق غرضٍ غير مشروعٍ، فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار؛ لأنَّه يحمل روحَه، وعناصِرَه[3]، وإذا أردنا الإيجاز؛ قلنا في هذه القاعدة: كلُّ ما كان ظاهره مشروعاً ويريد مُتَّخذوه الإضرار بالمؤمنين؛ فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار[4].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضِّرار، وما يلحق به ما ذكره الإمام ابن القيِّم من مشاهد الشِّرك، ومن أماكن المعاصي، والفسوق، كالحانات، وبيوت الخمر، والمنكرات، ونحو ذلك؛ لأنَّ هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به؛ وإن استحقت الإزالة كمسجد الضِّرار، باعتبارها منكراتٍ ظاهراً، وباطناً[5].

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (254/8).
(2) انظر: في ظلال القرآن (1710/3 . 1711).
(3) انظر: المستفاد من قصص القرآن (506/2).
(4) المصدر السابق نفسه (507/2).
(5) انظر: المستفاد من قصص القرآن (506/2).

7 – مساجد الضِّرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين، والملحدين، والمبشرين، والمستعمرين، يقيمون أماكن باسم العبادة، وما هي لها، وإنَّما المراد بها الطَّعن في الإسلام، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم، وادابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدَّرس، والتَّعليم؛ ليتوصَّلوا بها إلى بثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثَّقافة، والغرض منها خلخلة العقيدة السَّليمة في القلوب، والقيم الخلقيَّة في النُّفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحَّة، والخدمة الإنسانيَّة، والغرض منها التأثير على المرضى، والضعفاء، وصرفهم عن دينهم، وقد اتَّخذوا من البيئات الجاهلة، والفقيرة، لاسيَّما في بلاد إفريقية ذريعةً للتَّوصُّل إلى أغراضهم الدَّنيئة، الَّتي لا يقرُّها عقلٌ، ولا شرعٌ، ولا قانونٌ[1].

إنَّ مسجد الضِّرار ليس حادثةً في المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل، وانقضت؛ بل هي فكرةٌ باقيةٌ، يُخَطَّط لها باختيار الأهداف العميقة، وتُختار الوسائل الدَّقيقة لتنفيذها، وخططها تصبُّ في التامر على الإسلام وأهله بالتَّشويه وقلب الحقائق، والتَّشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد النَّاس عن دينهم، وإشغالهم بما يضرُّهم ويدمِّر مصيرهم الآخروي[2].

* * *

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (508/2).

(2) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين، ص 182.

المبحث الرَّابع

قصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا

وردت قصَّـــة الثَّلاثة الَّذين خلِّفوا على لســـان كعب بن مالكٍ رضـــي الله عنه، في كتب السِّـــيرة، والحديث، والتفســـير، برواياتٍ متقاربةٍ في ألفاظها، ولقيت عنايةً فائقةً في الشَّـــرح، والتَّدريس وكان صحيح البُخاريِّ من أكثر الكتب دقَّةً، وتفصيلاً لهذه القصَّة[1].

ونترك كعب بن مالك رضـــي الله عنه يحدِّثنا بنفســـه، حيث قال: «لم أتخلَّف عن رســـول الله(ﷺ) في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تَبُوك، غير أنِّي كنت تخلَّفت في غزوة بدرٍ، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها، إنَّما خرج رســـول الله(ﷺ) يريد عير قريش؛ حتَّى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ، ولقد شـــهدتُ مع رســـول الله(ﷺ) ليلة العقبة[2] حين تواثقنا على الإســـلام، وما أحبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرُ أذكرَ في النَّاس منهـا، كـان من خَبَري أنِّي لم أكن قـــطُّ أقوى، ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزاة، والله! ما اجتمعت عندي قَبلَه راحلتان قطُّ حتَّى جمعتُهما في تلك الغزوة.

ولم يكن رســـول الله(ﷺ) يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها، حتَّى كانت تلك الغزوة غزاها رســـول الله(ﷺ) في حرٍّ شـــديدٍ، واســـتقبل ســـفراً بعيداً، ومفازاً، وعدوّاً كثيراً، فجلَّى للمســـلمين أمرهم؛ ليتأهَّبوا أُهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الَّذي يريد، والمســـلمون مع رســـول الله(ﷺ) كثيرٌ، ولا يجمعهم كتـاب حـافظٍ - يريـد الدِّيوان - قـال كعـب: فمـا رجـلٌ يريـد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رســـول الله(ﷺ) تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ، والظِّلالُ، وتجهَّز رســـول الله(ﷺ)

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص 187.

(2) ليلة العقبة : الليلة التي بايع الرسول (ص) فيها الأنصار على الإسلام.

والمسلمون معه، فطفقت أغدو؛ لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجعُ، ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي؛ حتَّى اشتد بالنَّاس الجِدُّ، فأصبح رسول الله(ﷺ) والمسلمون معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئاً، فقلتُ: أتجهَّز بعده بيومٍ، أو يومين، ثمَّ ألحقُهم، فغدوت بعد أن فَصَلوا؛ لأتجهَّزَ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ثمَّ غدوت، ثُمَّ رجعتُ ولم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتَّى أسرعوا وتفارط الغزو[1]، وهممت أن أرتحل فأُدرِكَهُم – وليتني فعلتُ ! – فلم يقدَّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس – بعد خروج رسول الله(ﷺ) – فطفتُ فيهم أحزنني أنِّي لاأرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء، ولم يَذكرْني رسولُ الله(ﷺ) حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه، والنَّظر في عطفيه[2]، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله(ﷺ) ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً[3] يزول به السَّراب[4]، فقال رسول الله(ﷺ) : كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ، وهو الَّذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه[5] المنافقون.

قال كعب بن مالكٍ: فلـمَّا بلغني: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد توجَّه قافلاً[6] من تبوك؛ حضرني بثِّي[7]، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ، وأقول: بم أخرج مِنْ سخطه غداً؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي. فلـمَّا قيل لي: إنَّ رسولُ الله(ﷺ) قد أظلَّ قادماً[8]، زاح[9] عنِّي الباطل، حتَّى عرفت أنِّي لن أنجو منه بشيءٍ أبداً، فأجمعت صِدْقَه[10].

---

(1) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(2) والنَّظر في عطفيه: أي: جانبيه ، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، ولباسه.

(3) مبيِّضاً: لابس البياض.

(4) يزول به السَّراب: يتحرَّك ، وينهض ، والسَّراب ما يظهر للإنسان

(5) لمزه المنافقون: عابوه ، واحتقروه.

(6) قافلاً: راجعاً.

(7) بثِّي: حزني.

(8) أظلَّ قادماً: أقبل ودنا قدومه ، كأنَّه أبقى على ظلِّه.

(9) زاح: أزال.

(10) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

وأصبح رسول الله(ﷺ) قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثمَّ جلس للنَّاس، فلـــمَّا فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسولُ الله(ﷺ) علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلـمَّا سلمت؛ تبسَّم تبسُّم المغْضَب، ثمَّ قال: «تعالَ»، فجئت أمشي حتَّى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرَك؟» قال: قلت: يا رســـول الله! إنِّي والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سَخَطِه بعذرٍ، ولقد أُعطيت جدلاً[1]، ولكنِّي، والله! لقد علمت، لئن حدَّثتُك اليوم حديث كذبٍ ترضـــى به عنِّي؛ ليوشكنَّ[2] اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه[3] إنِّي لأرجو فيه عُقبى الله[4]. والله! ما كان لي عذر، والله! ما كنت قطُّ أقوى، ولا أَيْسَـــرَ منِّي حين تخلَّفت عنك، قال رسول الله(ﷺ) : «أمَّا هذا؛ فقد صدق، فقم حتَّى يقضي الله فيك».

فقمت، وثار رجالٌ من بني ســـلمة، فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رســـول الله(ﷺ) بما اعتذر به إليه المخلَّفون، فقد كان كافيك ذنبَك اســـتغفارُ رســـول الله(ﷺ) لك، قال: فوالله! ما زالوا يُؤنِّبونني[5] حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله(ﷺ) ، فأُكذِّبَ نفسي.

قال: ثمَّ قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: مَنْ هما؟ قالوا: مُرَارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ، وهلالُ بن أميَّة الواقفيُّ، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً، فيهما أسوةٌ، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله(ﷺ) المسلمين عن كلامنا نحن الثَّلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه.

---

(1) أعطيت جدلاً: فصاحةً ، وقوَّةً في الكلام ، وبراعةً.

(2) ليوشكن: ليسرعنَّ.

(3) تجد عليَّ فيه: تغضب.

(4) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ، ويثيبني عليه.

(5) يؤنبونني: يلومونني أشدَّ اللَّوم.

قال: فاجتَنَبَنا النَّاس، وقال: تغيَّروا لنا حتَّى تنكَّرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض الَّتي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأمَّا صاحباي؛ فاستكانا[1]، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا، فكنت أشبَّ القوم، وأجلَدَهم[2]، فكنت أخرج، فأشهد الصَّلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلِّمني أحدٌ.

وآتي رسول الله(ﷺ) ، فأسلِّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه، وأسارقه النَّظر، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه؛ أعرض عنِّي، حتَّى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين، مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائطِ أبي قتادة، وهو ابن عمِّي، وأحبُّ النَّاس إليَّ، فسلَّمت عليه، فو الله! ما ردَّ عليَّ السَّلام، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدُك بالله[3]! هل تعلم أنِّي أحبُّ الله، ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت، فناشدته، فسكت، فعدت، فناشدته، فقال: اللهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة؛ إذا نبطي من نبط أهل الشَّام[4]، ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أمَّا بعد؛ فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللهُ بدار هوانٍ، ولا مَضْيَعة[5]، فالحقْ بنا؛ نواسِك، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتايممت[6] بها التَّنُّور، فسجرتُها[7] بها؛ حتَّى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين واستلبث الوحي[8]؛ إذا رسولُ رسولِ الله(ﷺ) يأتيني، فقال: إنَّ رسول

---

(1) استكانا: خضعا.
(2) أشبَّ القوم ، وأجلدهم: أي: أصغرهم سنّاً ، وأقواهم.
(3) أنشدك بالله: أسألك بالله .
(4) نبط أهل الشام: فلاحو العجم.
(5) مضيعة: يعني أنَّك لست بأرضٍ يضيع فيها حقُّك.
(6) فتايممت: تيمَّمت: قصدت.
(7) فسجرتُها: أحرقتُها.
(8) استلبث الوحي: أبطأ.

الله(ﷺ) يأمرك أن تعتزل امرأتك! قال: فقلتُ: أطلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعْتَزِلْهَا، فلا تقربنَّها، قال: فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم؛ حتَّى يقضـــي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسـولَ الله(ﷺ) فقالت له: يا رسـول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شـيخٌ ضــائعٌ، ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنَّك» فقالت: إنَّه والله! ما به حركةٌ إلى شــيءٍ، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو اســتأذنت رســول الله(ﷺ) في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه. قال: فقلت: لا أسـتأذن فيها رسـولَ الله(ﷺ) ، وما يدريني ماذا يقول رسـول الله(ﷺ) إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجلٌ شـابٌّ، قال: فلبثت بعد ذلك عشـر ليالٍ، فكمُل لنا خمسـون ليلةً على ظهر بيت من بيوتنا.

فبينما أنا جالس على الحال الَّتي ذكر الله – عزَّ وجل – منَّا، قد ضـــاقت عليَّ نفســـي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ سمعتُ صوت صارخٍ أوفى على سَلَعٍ[1]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: فاذن[2] رسول الله(ﷺ) توبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب النَّاس يبشِّروننا، فذهب قِبَل صاحبيَّ مبشِّرون، وركَض رجلٌ إليَّ فرساً، وسعى ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلِي، وأوفى الجبل، فكان الصَّوت أسرع من الفرس، فلـــمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشِّرني، نزعت له ثوبيَّ، فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ.

واســـتعرتُ ثوبين، فلبســـتهما، فانطلقت أتأمَّم[3] رســـول الله(ﷺ) فيتلقَّاني النَّاس فوجاً، فوجاً[4]، يهنِّئوني بالتَّوبة، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتَّى دخلت المســجد، فإذا رســول

(1) أوفى على سَلَع: صعده ، وارتفع عليه ، وسَلَع: جبلٌ بالمدينة معروفٌ.

(2) فاذن النَّاس: أي: أعلمهم.

(3) أتأمَّم: أي: أقصد.

(4) فوجاً ، فوجاً: الفوج: الجماعة.

الله(ﷺ) جالسٌ في المســـجد، وحوله النَّاس، فقام طلحة بن عُبَيْد الله يُهَرْوِلُ حتَّى صـــافحني، وهنَّأني، والله! ما قام رجلٌ من المهاجرين غيرهُ.

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلـــمَّا سلَّمت على رسول الله(ﷺ) قال: وهو يَـــبْـــرُق وجهُه من السُّرور، ويقول: «أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» قال: قلتُ: أمن عندك يا رســـول الله! أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله» وكان رســـول الله(ﷺ) إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنَّه قطعةُ قمرٍ قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلـمَّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رســول الله! إن من توبتي أن أنخلع[1] من مالي صـــدقةً إلى الله وإلى رســـول الله(ﷺ) ! فقال رسـول الله(ﷺ) : «أمسـك بعضَ مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنِّي أمسـك سـهمي الذي بخيبر، قال: وقلت: يا رسـول الله! إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّـدق، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله! ما علمت أنَّ أحداً من المسلمين أبلاه[2] الله في صــدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسـول الله(ﷺ) إلى يومي هذا أحســن ممَّا أبلاني الله به، وَوَالله! ما تعمَّدت كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله(ﷺ) إلى يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله – عز وجل –: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَـــارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَـــاعَةِ الْعُسْـــرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُـهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ **[التوبة: 117 – 119]**.

قال كعب رضـــي الله عنه: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ، بعد أنْ هداني للإســـلام، أعظم في نفسـي من صـدقي رسـول الله(ﷺ) ألاَّ أكونَ كذبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا،

---

(1) أنخلع من مالي: أتصدَّق به.

(2) أبلاه الله: أنعم عليه.

إنَّ الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شـــرَّ ما قال لأحدٍ، وقال الله: ﴿سَــيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُــوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُــوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِــبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَــوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَــوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَــى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ **[التوبة: 95 – 96]**.

قال كعبٌ رضـــي الله عنه: كنَّا تخلفنا نحن الثَّلاثة عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رســـول الله(ﷺ) حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله(ﷺ) أمرَنا حتَّى قضى الله فيه، فبذلك قال الله – عز وجل –: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَــاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَــاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُــهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ **[التوبة: 118]**، وليس الَّذي ذكر اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا، تخلُّفنا عن الغَزْوَةِ، وإنَّما هو تَخْلِيفه إيَّانا، وإرجاؤُه أمرَنا[1] عمَّن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه. **[البخاري (4418)، ومســـلم (2769)]**.

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ، وفوائدُ كثيرةٌ، نذكر منها:

1 – الأسلوب الجميل، والبيان الرَّائع، والأدب الرَّفيع:

لقد تمَّت صياغة هـــذا الحديث بأسلوبٍ جميلٍ، وبيانٍ رائـــعٍ، وأدبٍ رفيعٍ، وإنَّه ليُعتبر مع أمثالـــه كحديث صلح الحديبيـــة، وحديث الإفـــك نماذجَ عاليـــةً للأدب العربيّ الرَّفيع، وليت القائمين على وضـع المناهج الدِّراسـيَّة يختارون هذه الأحـاديث، وأمثالها لتنمية مدارك الطُّلاَّب، وتكوين الملكة الأدبيَّة، والثروة اللُّغوية العالية، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلـــمَّا قيل: إنَّ رسول الله(ﷺ) قد أظلَّ قادماً؛ زاح عنِّي الباطل، وعرفت أنِّي لن أخرج منه أبداً بشـيءٍ فيه كذبٌ، فأجمعت صِدْقَه[2].

---

(1) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.

(2) انظر: التاريخ الإسلامي (137/8).

2 – الصِّدق سفينة النَّجاة:

لقد أدرك كعبٌ، وهلالٌ، ومُرَارةُ رضي الله عنهم خطورة الكذب، فعزموا على سلوك طريق الصَّراحة، والصِّدق، وإنْ عرَّضهم ذلك للتَّعب، والمضايقات، ولكنْ كان أملُهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتَهُم، ثمَّ يعودون إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ أقوى ممَّا كانوا عليه[1]، وما أجملَ ختمَ ربِّ العالمين توبته على كعبٍ وَمَنْ معه رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ **[التوبة: 119]**.

3 – الهَجْر التَّربويُّ، وأثره في المجتمع:

إنَّ الهجر التَّربويَّ له منافعُه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة، ومنع أفراده من التَّورُّط في المخالفات الَّتي تكون إمَّا بترك شيءٍ من الواجبات، أو فعل شيءٍ من المحرَّمات؛ لأنَّ مَنْ توقَّع أنَّه إذا وقع في شيءٍ من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع، فإنَّه لا يفكِّر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أنَّ تطبيق هذا الحكم يجب أن يتمَّ في الظُّروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النَّبويِّ المدنيِّ، حيث توجد الدَّولة المهيمنة، والمجتمع القويُّ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التَّربويُّ يختلف عن الهجر الَّذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا، فهذا دنيويٌّ، وذاك دينيٌّ، فالهجر الدِّينيُّ مطلبٌ شرعيٌّ يثاب عليه فاعله، أمَّا الهجر الدُّنيويُّ؛ فإنَّه مكروهٌ، إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام؛ فإنَّه يكون محرماً[2]، لقول رسول الله(ﷺ) : «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام» **[البخاري (6237)، ومسلم (2560)]**، ولقوله(ﷺ) : «مَنْ هجر أخاه سنةً فهو كَسَفْكِ دَمِهِ».

---

(1) المصدر السَّابق نفسه.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلامي (139/8).

[أحمد (220/4)، وأبو داود (4915)، والبيهقي في الاداب (280)، والحاكم (163/4)، والبخاري في الأدب المفرد (404)].

4 – تنفيذ المجتمع المسلم كلِّه لأوامر القيادة:

استجاب المجتمع المسلم كلُّه لتنفيذ أمر المقاطعة، والهجر الَّذي صدر من القائد الأعلى(ﷺ) ، وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة، ووصف كعبٌ لنا ذلك، فقال: «... فاجتَنَبَنا النَّاس، وتغيَّروا لنا، حتَّى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف، فأمَّا صاحباي، فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا؛ فكنت أشَبَّ القوم، وأجلدَهم، فكنت أخرج، فأشهدُ الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلِّمني أحدٌ...»[1].

وقد أطلق كعب السَّلام على ابن عمِّه أبي قتادة، فلم يردَّ عليه السَّلام، وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحبُّ الله، ورسولَه؟ فسكت، مع أنَّه من أحبِّ النَّاس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّعَ الفكر بين إجابة رجلٍ حبيب إليه، عزيزٍ عليه، وبين تنفيذ أمر النَّبيِّ(ﷺ) بتطبيق الهجر التَّربويِّ، ولكن ليس هناك تردُّد بين الأمرين، فالَّذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبيِّ(ﷺ) فظهر ذلك على سلوكه[2].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النَّبويِّ في الهجر التَّربويِّ ذروته حين أمر رسولُ الله(ﷺ) الثلاثة الَّذين خُلِّفوا باعتزال زوجاتهم حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فالتزم الجميع بذلك، واستأذنت زوج هلال بن أميَّة – وكان شيخاً طاعناً في السِّنِّ لا يجد من يخدمه – فطلبت من الرَّسول(ﷺ) أن يأذن لها أن تخدمَه، فأذن لها النَّبيُّ(ﷺ) بذلك شريطة ألا يقربها، فالتزمتْ رضي الله عنها[3].

5 – الولاء التَّامُّ لله ورسوله(ﷺ) :

كان العدوُّ الصَّليبيُّ يراقب، ويرصد، ويستغلُّ الفرصة السَّانحة لكي يمزِّق الجبهة الدَّاخلية،

---

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيّين ، ص 195 ، وسبق تخريجه.
(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (140/8).
(3) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيّين ، ص 196.

ويشعل نار الفتنة بين المسلمين، ليوهن البنيان، ويقوِّض الأركان، ولذلك استغلَّ ملكُ غسَّان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالكٍ رضي الله عنه، وعقوبة رسول الله(ﷺ) له بأن يرسل سفيره لكعب برسالةٍ خاصَّةٍ منه إليه يُغريه فيها. تأمَّل قوله: قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ، ولا مَضْيَعَة، فالْحَقْ بنا، نواسِك. [سبق تخريجه]، فكان تعليق كعب على هذه الرِّسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ منِّي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجالٌ من أهل الشِّرك! ثمَّ أحرق الرِّسالة[1].

وهذا الموقف يدلُّ على شدَّة ولاء كعبٍ لله، ورسوله(ﷺ) وقوَّة إيمانه، وعظمة نفسه، فقد أدرك أنَّها محنةٌ جديدةٌ أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسَّلب، أو يرمي بالكتاب، ويمزِّقه، ولكنَّه رمى به في التَّنور، ليصير رماداً، ويصير كلُّ ما به دخاناً يتبدَّد في الهواء، وخرج الرَّجل من محنته، وهو أقوى ما يكون إيماناً، وأصفى ما يكون روحاً، وأكرم ما يكون أخلاقاً، فيا لعظمة هذه النُّفوس المؤمنة الكبيرة![2] لقد مرَّ كعبٌ من فوق هذا الاختبار، والابتلاء عزيزاً، قويّاً بإسلامه، لم يتأثَّر به، ولا انزلق فيه[3].

6 – توبة الله على العبد قِيمَةٌ دينيَّةٌ يتطلَّع إليها الصَّادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة الَّتي بيَّنت توبة الله على هؤلاء الثَّلاثة؛ كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله(ﷺ) ؛ حتَّى استنار كأنَّه قطعة قمرٍ، وظهرت الفرحة على وجوه الصَّحابة رضي الله عنهم؛ حتَّى صاروا يتلقَّون كعباً، وصاحبيه أفواجاً، يهنِّئونهم بما تفضل الله به عليهم من التَّوبة، وجاء كعبٌ إلى النَّبيِّ(ﷺ) ووجهه يَبْرُق من السُّرور، فقال(ﷺ) له: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك!». وهذا يعني مقام التَّوبة، وأنَّها أعظم من الدُّخول في الإسلام.

(1) المغازي (3/1051 . 1052).
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (2/517).
(3) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 307.

إنَّ التَّوبة تعني عودة العبد إلى الدُّخول تحت رضوان الله تعالى الّذي هو أعلى هدفٍ ينشده المسلم، وبالتَّالي فإنَّه يحظى بحفظه جلَّ وعلا في الدُّنيا، وتكريمه في الآخرة، لقد كانت توبة كعبٍ عظيمةً، عبَّر عنها بنزع ثوبيه – اللَّذين لا يملك يومئذٍ غيرهما – وإهدائهما لِمَنْ بشَّره[1]، وعدم نسيان كعبٍ لطلحة بن عبيد الله مصافحته، وتهنئته له[2]، وكذلك كانت فرحةُ صاحبيه عظيمةً؛ غير أنَّ كعباً رضي الله عنه لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له[3]، وقد جاء في رواية الواقديِّ: وكان الَّذي بشَّر هلال بن أميَّة بتوبته سعيدُ بن زيدٍ، قال: وخرجت إلى بني واقفٍ، فبشرته، فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتَّى تخرج نَفْسُه[4].

7 – تشرع أنواعٌ من العبادات شكراً لله عند النِّعمة:

كانت فرحة كعب بن مالكٍ بتوبة الله – سبحانه وتعالى – عليه لا تحدُّها حدودٌ، ولا تصوِّرها مثل، وقد تفنَّن هو رضي الله عنه في التَّعبير عنها بجملةٍ من العبادات، منها:

أ – سجود الشُّكر:

حينما سمع كعبٌ البشارة بتوبة الله عليه؛ خرَّ ساجداً من فوره شكراً لله – تبارك وتعالى – فقد كان من عادة الصَّحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلَّما تجدَّدت لهم نعمةٌ، أو انصرفت عنهم نِقْمَةٌ، وقد تعلَّموا ذلك من رسول الله(ﷺ) [5] .

ب – مكافأة الَّذي يحمل البُشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللَّذين كان يلبَسُهما، فكساهما الَّذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذٍ غيرهما، ثمَّ استعار ثوبين، فلبسهما، ولاشكَّ أنَّ هذا ضربٌ من الهبة المشروعة، فإن

---

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي (141/8).
(2) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (518/2).
(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي (142/8).
(4) المغازي للواقدي (1054/3).
(5) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي ، ص 493.

كان المبشِّـر غنيّاً، كان له هديةً، وإن كان فقيراً؛ كان له صـدقةً، وكلاهما إخراج المال شـكراً لله تعالى على إنزاله الفرج[1].

ج - التَّصدُّق بالمال:

فقد جعل كعبٌ رضـي الله عنه من توبته أن ينخلع من ماله صـدقةً لله تعالى، لكنَّه(ﷺ) وجَّهه إلى عدم التَّصـدُّق بجميع ماله، وقال له: «أمسـك عليك بعض مالك، فهو خيرٌ لك»، وكأنَّه يستشـيره بذلك، فكانت المشـورة بإمسـاك بعض ماله[2]، وقد ثار الخلاف الفقهيُّ فيمن نذر التَّصدُّق بجميع ماله، والصَّدقة مستحبَّة، والنَّذر واجبُ الوفاء، ولم يذهب كعب إلى النَّذر، وإنَّما استشار في الصَّدقة بكلِّ المال، فأشار رسول الله(ﷺ) عليه بإمساك بعض ماله.

* * *

(1) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ، ص 493، والصِّراع مع الصَّليبيِّين، ص 202.

(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ، ص 493.

المبحث الخامس

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

أولاً: معالمُ من المنهج القرآنيّ في الحديث عن غزوة تبوك:

إنَّ الآيات الَّتي أنزلها الله في كتابه المتعلِّقة بغزوة العُسْـــرَة هي أطول ما نزل في قتالٍ بين المسلمين، وخصومهم، وقد بدأت باستنهاض الهمم لردِّ هجوم المسيحيَّة، وإشعارهم بأنَّ الله لا يقبل ذرَّة تفريطٍ في حماية دينه، ونصـــرة نبيّه(ﷺ) ، وإنَّ التراجع أمام الصُّـــعوبات الحائلة دون قتال الرُّوم – يعتبر مزلقةً إلى الردَّة والنِّفاق[1]، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِـــيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخرةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخرةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۝ إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْـتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُـرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 38 – 39].

وعند التَّأمُّل في سورة التَّوبة يلاحظ القارئ: أنَّ لها معالمَ في عرضها لغزوة تبوك، منها:

1 – عاتب القرآن الكريم مَنْ تخلَّف عتاباً شـــديداً، وتميَّزت غزوة تبوك عن ســـائر الغزوات بأنَّ الله حثَّ على الخروج فيها، وعاتب مَنْ تخلَّف عنها، والآيات الكريمة جاءت بذلك كقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

وقد خُتِمَتِ الغزوات النَّبويَّةُ بهذه الغزوة، وقد كان تطبيقاً عمليّاً لوضـــع النَّصِّ القرآني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ...﴾ موضع التَّنفيذ[2].

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص 404.

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (702/2).

2 – ميَّز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها، فسمَّاها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، فقد كانت غزوة عسرةٍ بكلِّ معنى الكلمة.

3 – من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة: أنَّ الله ردَّ على المنافقين لَمْزَهُمْ فقراء الصَّحابة عندما جاء أحدُهم بنصف صاعٍ، وتصدَّق به، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79].

4 – بيَّن القرآن الكريم: أنَّ المؤمنين الَّذين خرجوا مع رسول الله(ﷺ) – وعددُهم يزيد عن الثَّلاثين ألفاً – قد كتب الله لهم الأجر العظيم[1]. قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88]. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120].

ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله(ﷺ) في هذه الغزوة الشُّورى، وَقَبِلَ مشورة الصِّدِّيق، والفاروق في بعض النَّوازل الَّتي حدثت في الغزوة، ومن هذه النَّوازل:

أ – قبول مشورة أبي بكر الصِّدِّيق في الدُّعاء حين تعرَّض الجيش لعطشٍ شديدٍ:

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطشٌ، حتَّى ظننَّا: أنَّ رقابنا ستنقطع؛ حتَّى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره، فيعتصر فَرْثَه، فيشربه، ثمَّ

---

(1) المصدر السابق نفسه (703/2).

يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصِّديق: يا رسول الله! إنَّ الله عوَّدك في الدعاء خيراً، فادعُ الله، قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه، فلم يردَّهما حتَّى حالت السَّماء، فأظلَّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. **[البزار (1841)، وابن حبان (1383)، والبيهقي في الدلائل (231/5)، والحاكم (159/1) والهيثمي في مجمع الزوائد (194/6 – 195)].**

ب – قبول مشورة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعةٌ:

أصابت جيشَ العُسرة مجاعةٌ أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النَّبيَّ(ﷺ) في نحر إبلهم حتَّى يسدُّوا جَوْعَتَهُم، فلمَّا أذن لهم النَّبيُّ(ﷺ) في ذلك؛ جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي:

أنَّ الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلُهم، وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطَّريق الطَّويل، ثمَّ ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المعضلة، وهو: جمع أزواد القوم، ثمَّ الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل(ﷺ) بهذه المشورة حتَّى صدر القوم عن بقيَّةٍ من هذا الطعام، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه، وأكلوا حتَّى شبعوا. **[سبق تخريجه]** (1)

ج – قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشَّام، والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النَّبيُّ(ﷺ) إلى منطقة تبوك، وجد أنَّ الرُّوم فرُّوا خوفاً من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشَّام، فأشار عليه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة، وعلَّل رأيه بقوله: إنَّ للروم جموعاً كثيرةً، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام. ولقد كانت مشورة مباركةً، فإنَّ القتال داخل بلاد الرُّومان يعدُّ أمراً صعباً؛ إذ إنَّه يتطلَّب تكتيكاً خاصّاً؛ لأنَّ الحرب في الصَّحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن،

---

(1) انظر: غزوة تبوك، لباشميل، ص 176، 177.

بالإضافة إلى أنَّ عدد الرُّومان في الشَّام يقرب من مئتين وخمسين ألفاً، ولاشكَّ في أنَّ تجمُّع هذا العدد الكبير في تحصُّنه داخل المدن يعرِّض جيش المسلمين للخطر[1].

إنَّ ممارسة الشُّورى في حياة الأمَّة في جميع شؤونها؛ السِّياسيَّة والعسكريَّة والاجتماعيَّة، منهجٌ تربويٌّ كريمٌ، سار عليه الحبيب المصطفى(ﷺ) في حياته.

ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف:

كان خروج الرَّسول(ﷺ) إلى تبوك بأصحابه فيه فوائدُ كثيرةٌ، منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً، فقطع بهم(ﷺ) مسافةً طويلةً في ظروفٍ جويَّةٍ صعبةٍ، حيث كانت حرارة الصَّيف اللاهب، بالإضافة إلى الظُّروف المعيشيَّة الَّتي كانوا يعانون منها، فقد كان هناك قلَّةٌ في الماء، حتَّى كادوا يهلكون من شدَّة العطش، وأيضاً كان هناك قلَّةٌ في الزَّاد، والظَّهْر، ولاشكَّ في أنَّ هذه الأمور تعدُّ تدريباً عنيفاً؛ لا يتحمَّله إلا الأقوياء من الرِّجال.

وفي هذا الدَّرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز مواقع، وعراقيل صعبةٍ جدّاً، وقطع مسافاتٍ طويلةٍ في ظروفٍ جوِّيَّةٍ مختلفةٍ، وحرمانٍ من الطَّعام، والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمُّل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، ولقد تحمَّل جيش العُسرَة مشقاتٍ لا تقلُّ صعوبةً عن مشقات هذا التَّدريب العنيف، إن لم تكن أصعب منها بكثيرٍ، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها، وقطعوا مسافاتٍ طويلةً شاقَّةً في صحراء الجزيرة العربيَّة صيفاً، وتحمَّلوا الجوع، والعطش مدَّةً طويلةً.

إن غزوة تبوك تدريبٌ عنيفٌ للمسلمين، كان غرض الرَّسول(ﷺ) منه إعدادهم لتحمُّل رسالة حماية حرِّية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيَّة، فقد كانت هذه الغزوة اخر غزوات

الرَّسول(ﷺ) ، فلابدَّ من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلى»[1].

وقد ساعد هذا التَّدريب العمليُّ الصَّحابةَ في عصر الخلفاء، فقاموا بفتح بلاد الشَّام، وبلاد الفرس بقوَّة إيمانهم، وثقتهم بخالقهم، وساعدهم على ذلك لياقتُهم البدنيَّة العالية، ومعرفتُهم العمليَّة لاستخدام السُّيوف والرِّماح، وأنواع الأسلحة في زمانهم.

رابعاً: أهم نتائج الغزوة:

يمكن للباحث أن يلاحظ أهمَّ نتائج هذه الغزوة، وهي:

1 - إسقاط هيبة الرُّوم من نفوس العرب جميعاً: مسلمِهم، وكافرِهم على السَّواء؛ لأن قوَّة الرُّوم كانت في حسِّ العرب لا تُقاوَم، ولا تُغْلَب، ومن ثمَّ فقد فزعوا من ذكر الرُّوم، وغزوهم، ولعلَّ الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكِّدةً على ما ترسَّخ في ذهن العربيّ في جاهليته من أنَّ الرُّوم قوَّةٌ لا تُقهر، فكان لابدَّ من هذا النَّفير العامِّ لإزاحة هذه الهزيمة النَّفسيَّة من نفوس العرب.

2 - إظهار قوَّة الدَّولة الإسلامية كقوَّةٍ وحيدةٍ في المنطقة، قادرةٍ على تحدِّي القِوى العظمى عالميّاً - حينذاك - ليس بدافعٍ عصبيٍّ، أو عرقيٍّ، أو تحقيق أطماع زعاماتٍ معاصرةٍ، وإنَّما بدافعٍ تحريريٍّ، حيث تدعو الإنسانيَّة إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبوديَّة ربِّ العباد، ولقد حقَّقت هذه الغزوة الغرض المرجوَّ منها بالرَّغم من عدم الاشتباك الحربيِّ مع الرُّوم، الَّذين اثروا الفرار شمالاً، فحقَّقوا انتصاراً للمسلمين دون قتالٍ، حيث أخلوا مواقعهم للدَّولة الإسلاميَّة، وترتَّب على ذلك خضوعُ النَّصرانيَّة الَّتي كانت تمتُّ بصلة الولاء لدولة الرُّوم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة أيْلة «مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة» وكتب رسول الله(ﷺ) بينه وبينهم كتاباً يحدِّد ما لهم، وما عليهم[2]، وأصبحت القبائل العربيَّة الشَّاميَّة الأخرى الَّتي لم تخضع للسَّيطرة الإسلاميَّة في تبوك تتعرَّض بشدَّة للتأثير الإسلاميِّ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع

---

(1) انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص 281 ، 282.

(2) انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشُّجاع ، ص 209.

موقفه، ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدَّولة البيزنطيَّة، أو تحويل هذا الولاء إلى الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة، ويعدُّ ما حدث في تبوك نقطةَ البداية العمليَّة للفتح الإسلاميّ لبلاد الشَّام[1]، وإن كانت هناك محاولاتٌ قبلها، ولكنَّها لم تكن في قوَّة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عملياتٍ متواصلةٍ لفتح البلدان، والَّتي واصلها خلفاء رسول الله(ﷺ) من بعده، وممَّا يؤكِّد هذا: أنَّ الرَّسول(ﷺ) قبل موته جهَّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربةٍ موجَّهةٍ صوب الرُّوم، وطليعةً لجيش الفتح، وضمَّ هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله(ﷺ) ، ولكنَّه لم يقم بمهمَّته إلا بعد وفاته(ﷺ) ، ومع هذا فقد حقَّق الهدف المطلوب منه، كما سيأتي[2] بإذن الله عند الحديث عن سيرة الصِّدِّيق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله(ﷺ) الأسس الأولى، والخطوات المثلى لفتح بلاد الشَّام، والفتوحات الإسلاميَّة.

3 - توحيد الجزيرة العربيَّة تحت حكم الرَّسول(ﷺ) : تأثَّر موقف القبائل العربيَّة من الرَّسول(ﷺ) والدَّعوة الإسلاميَّة بمؤثِّراتٍ متداخلةٍ، كفتح مكةَ، وخيبر، وغزوة تبوك، فبادر كلُّ قومٍ بإسلامهم بعدما امتدَّ سلطان المسلمين إلى خطوط التَّماسِّ مع الرُّوم، ثُمَّ مصالحة نجران في الأطراف الجنوبيَّة على أن يدفعوا الجزية، فلم يَعُدْ أمام القبائل العربيَّة إلا المبادرة الشَّاملة إلى اعتناق الإسلام، والالتحاق بركب النُّبوَّة بالسَّمع، والطَّاعة، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربيَّة الَّتي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربيَّة بعد عودة النَّبيِّ(ﷺ) من غزوة تبوك؛ لتعلن إسلامها هي، ومن وراءها، فقد سُمِّيَ العامُ التَّاسع للهجرة في المصادر الإسلاميَّة بـ (عام الوفود)[3].

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النَّبيِّ(ﷺ) الَّتي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة(ﷺ) غنيَّةً بالدُّروس، والعبر، الَّتي تتربَّى عليها أمَّتُه في أجيالها المقبلة، ومليئةً بالدُّروس، والعبر في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة الَّتي تحكم بشرع الله.

---

(1) انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرَّحمن أحمد ، ص 120.

(2) انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشجاع ، ص 209.

(3) انظر: نضرة النَّعيم (395/1 ، 396).

المبحث السَّادس

أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجَّة الوداع[1]

أولاً: وفد ثقيفٍ وإسلامُهم:

لـمَّا انصرف الرَّسول(ﷺ) عن الطَّائف اتَّبع أثره عروة بن مسعود الثَّقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنَّبل، فأصابه سهم فقتله، ثمَّ إنَّهم رأوا: أنَّه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب الَّذين أسلموا، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله(ﷺ) ، فقدم عليه ستَّةٌ منهم، في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تِسْعٍ[2].

وكان الوفد يتكوَّن من ستَّةٍ من كبار بني مالك، والأحلاف، ثلاثةٌ لكلٍّ منهما، وعلى رأسهم جميعاً عبدُ يَالَيْلَ بن عمرو[3]، وتكوين هذا الوفد على هذا النَّحو يدلُّ على فكرٍ سياسيٍّ عميق؛ ذلك لأنَّ ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أميَّة للتوسُّط في إقرار الصُّلح مع الرَّسول(ﷺ) بسبب علاقة بني أميَّة التَّاريخيَّة بالأحلاف[4].

كان الصَّحابة يعرفون اهتمام الرَّسول(ﷺ) بإسلام ثقيفٍ، ولذلك ما إن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة؛ حتَّى تنافس كلٌّ من أبي بكرٍ، والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرَّسول(ﷺ) ، وتنازل المغيرةُ لأبي بكرٍ[5].

واستقبل الرَّسول(ﷺ) الوفد راضياً، وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن، ويروا النَّاس إذا

---

(1) ينظر الشكل (21) في الصفحة (765).
(2) انظر: رسالة الأنبياء، لعمر أحمد عمر، ص 199.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (193/4).
(4) انظر: رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة، د. حسين محمد، ص 76.
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (193/4).

صلَّوا، وكانت ضيافتهم على رسول الله(ﷺ) ، وكانوا يفدون على رسول الله(ﷺ) كلَّ يومٍ، ويخلِّفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم، فكان عثمان كلما رجعوا، وقالُوا بالهاجرة، عمد إلى رسول الله(ﷺ) فسأله عن الدِّين، واستقرأه القرآن، حتى فقه في الدِّين، وعلم، وكان إذا وجد رسول الله(ﷺ) نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله(ﷺ) ، وعجب منه، وأحبَّه[1] ومكث الوفد أياماً يختلفون إلى النَّبيِّ(ﷺ) ، والنَّبيُّ(ﷺ) يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد يَالَيْلَ: هل أنت مقاضينا حتَّى نرجع إلى أهلنا، وقومنا؟ فقال رسول الله(ﷺ) : «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام؛ قاضيتكم، وإلا فلا قضيَّة، ولا صلح بيني وبينكم».

قال عبدُ يَالَيْلَ: أرأيت الزِّنى؟ فإنَّا قوم عُزَّاب بغَرْبٍ[2] لابدَّ لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة، قال: «هو ممَّا حرَّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 32]».

قال: أرأيت الرِّبا؟ قال: «الرِّبا حرام!» قال: فإنَّ أموالنا كلَّها رباً، قال: «لكم رؤوس أموالكم، يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 278]».

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا، لابدَّ لنا منها.

قال: «فإنَّ الله قد حرَّمها!» ثمَّ تلا رسول الله(ﷺ) هذه الآية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90].

فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبدُ يَالَيْلَ: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه

---

(1) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقديّ ، ص 670.
(2) أي: نذهب إلى بلادٍ بعيدةٍ.

الخصال الثَّلاث! والله لا تصبر ثقيفٌ عن الخمر أبداً، ولا عن الزنى أبداً.

قال سفيان بن عبد الله: أيُّها الرَّجل! إنْ يرد الله بها خيراً تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا، وتركوا ما كانوا عليه، مع أنَّا نخاف هذا الرجل، قد أوطأ الأرض غلبةً، ونحن في حصنٍ في ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاشٍ، والله! لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكَّة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله(ﷺ) حتَّى كتبوا الكتاب، وكان خالد هو الَّذي كتبه، وكان رسول الله(ﷺ) يرسل إليهم الطَّعام، فلا يأكلون منه شيئاً حتَّى يأكل منه رسول الله(ﷺ) ؛ حتَّى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة، ما ترى فيها؟ قال: «هَدْمَها».

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا هدمها [1]قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إنَّ الرَّبَّة حجرٌ لا يدري مَنْ عَبَدَهُ ممَّن لا يعبدُه.

قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر! فأسلموا، وكمل الصُّلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلمَّا كمُل الصُّلح، وكتبوه؛ كلَّموا النَّبيَّ(ﷺ) يدع الرَّبَّة ثلاث سنين، لا يهدُمها، فأبى، قالوا: سنتين! فأبى، قالوا: سنة! فأبى، قالوا: شهراً واحداً! فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً، وإنَّما يريدون بترك الرَّبة لما يخافون من سفهائهم، والنِّساء، والصِّبيان، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها، فسألوا النَّبيَّ(ﷺ) أن يعفيهم من هدمها[2]، فوافق رسول الله(ﷺ) على طلبهم ذلك، وسألوا النَّبيّ(ﷺ) أن يعفيهم من الصَّلاة، فقال رسول الله(ﷺ) : «لا خير في دين لا صلاة فيه» **[أحمد (218/4)، وأبو داود (3026)، والطيالسي (939)، والبيهقي في الدلائل (299/5 – 301)]**[3].

(1) أي: أسرعنا السَّير في السَّفر.
(2) انظر: المغازي، للواقدي (968/3)، والبداية والنهاية، لابن كثير.
(3) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ، للحميديّ (50/8)، والمغازي، للواقديّ (968/3)، والسِّيرة، لابن هشام، والمبسوط، للسَّرخسي.

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رســـول الله(ﷺ) من بعض الفرائض، وأن يحلِّل لهم بعض المحرَّمات، إلا أنَّهم فشلوا في طلباتهم، وخضعوا للأمر الواقع[1].

وقد أكرم رسول الله(ﷺ) وِفَادَتَهُم، وأحسن ضيافتهم في قدومهم، وإقامتهم وعند سفرهم، وأمَّرَ(ﷺ) عثمان بن أبي العاص على الطَّائف، فقد كان أحرصَهم على تعلُّم القرآن، والتَّفقُّه في الدِّين، وكان أصـــغرهم ســـنّاً[2]. ولقد تأثَّر الوفد من معاملة النَّبيِّ(ﷺ) ، ومن اختلاطهم بالمسلمين، حتَّى إنَّهم صاموا ما بقي عليهم من شهر، ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً، ثمَّ رجعوا إلى الطَّائف[3]، وبعد رجوعهم جهَّز رسول الله(ﷺ) سريَّةً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومشاركة المغيرة بن شعبة[4] رضي الله عنه، وأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه(4) وبعثهم في أثر الوفد[5].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدُّخول في الإسلام، وأخبروهم بمصير الَّلات، وإذا بالسَّريَّة قد وصلت إلى الطَّائف، ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً يهدمون الرَّبَّة[6]، وكان ذلك تحت حراســةٍ مشــدَّدةٍ من قومه بني مَعَتِّب الَّذين قاموا دونه؛ خشـــية أن يُرمى، أو يُصـــاب كما أصـيب عروة بن مســعود[7]، وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها؛ رجالها، ونساؤها، وصبيانها حتَّى الأبكار من خدورهنَّ، وكانوا لقرب عهدهم بالشِّرك لا ترى عامَّة ثقيف أنَّها مهدومة، ويظنُّون أنَّها ممتنعة[8].

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابةٌ، وظرفٌ، فقال لأصـــحابه: والله لأضـــحكنَّكُم من ثقيف،

---

(1) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة ، ص 221 ، 222 ، 223.

(2) انظر: السِّيرة النبوية الصحيحة (519/2).

(3) المصدر السابق نفسه (519/2 ، 520).

(4) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (195/4).

(5) انظر: دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (303/5 . 304).

(6) المغازي (671/3).

(7) انظر: دلائل النُّبوَّة (304/5).

(8) انظر: السَّرايا والبعوث ، ص 300 ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة).

فضـرب بالفأس، ثمَّ سـقط يركض، فارتج أهل الطَّائف بصـيحةٍ واحدةٍ، وقالوا: أبعد الله المغيرة، فقد قتلته الرَّبَّة، وفرحوا حين رأوه سـاقطاً [1]، وقالوا مخاطبين أفراد السَّـريَّة: مَنْ شـاء منكم فليقترب، وليجتهد على هدمها، فوالله! لا تستطاع أبداً، فوثب المغيرة بن شعبة، وقال: قبَّحكم الله يا معشر ثقيف! إنَّما هي لُكاع[2]؛ حجارةٌ ومَدَرٌ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه[3].

أكمل المغيرة بن شـعبة رضـي الله عنه ومن معه هدم الطَّاغية حتَّى سـوَّوها بالأرض، وكان سـادنها واقفاً على أحرٍّ من الجمر؛ ينتظر نقمة الرَّبَّة، وغضـبها على هؤلاء العُصـاة[4]، فما إن وصلوا إلى أساسها حتَّى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم[5]، فلـمَّا سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السُّخف قال لقائد السَّريَّة: دعني أحفر أساسها، فحفره حتَّى أخرجوا ترابها، وانتزعوا حُلِيَّها، وأخذوا ثيابها، فَبهِتَتْ ثقيفٌ[6]، وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوةٌ على أعينهم[7].

وأقبل الوفد حتَّى دخلوا على رسول الله(ﷺ) بحليّها، وكسوتها، فقسمه رسول الله(ﷺ) من يومه، وحمدوا الله على نصرة نبيّه، وإعزاز دينه[8].

وتمَّ القضـاء على ثاني أكبر طواغيت الشِّـرك في الجزيرة العربيَّة، وحلَّ محلَّها بيتٌ من بيوت الله - عزَّ وجل - يوحَّد فيه الرَّبُّ الَّذي لا إله إلا هو، وذلك بتوجيهٍ كريمٍ من رسـول الله(ﷺ) إلى عثمان بن أبي العاص رضـي الله عنه[9] عامله على الطَّائف حيث أمره «بأن يجعل مسـجد الطَّائف حيث كان طاغيتهم» **[أبو داود (450)، وابن ماجه (743)]**.

---

(1) انظر: السَّرايا والبعوث، ص 300، والبداية والنِّهاية، لابن كثير، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة).

(2) لكاع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق، والذَّم.

(3) البداية والنِّهاية لابن كثير (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة)، ودلائل النُّبوة (303/5).

(4) انظر: السَّرايا والبعوث، ص 300.

(5) انظر: المغازي (972/3)، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

(6) انظر: دلائل النُّبوة (303/5)، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

(7) انظر: السَّرايا والبعوث، ص 301، والبداية والنهاية لابن كثير.

(8) انظر: تاريخ ابن شيبة (507/2) نقلاً عن السَّرايا والبعوث، ص 301.

(9) انظر: السَّرايا والبعوث، ص 301.

ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبيّ بن سلول):

مرض عبد الله بن أبيّ بن سـلول، رأسُ المنافقين، في ليالٍ بَقِين من شـوَّال، ومات في ذي القعدة من السَّنة التاسعة(1).

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله(ﷺ) على عبد الله بن أبيٍّ في مرضه نعوده، فقال له النَّبيُّ(ﷺ) : قد كنت أنهاك عن حبِّ يهود، فقال عبد الله: فقد أبغضـهُم سـعد بن زرارة، فمات.

ولـمَّا توفي عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله(ﷺ) ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثمَّ سأله أن يصلِّيَ عليه، فقام رسول الله(ﷺ) ليصلِّي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله(ﷺ) ، فقال: يا رسول الله! تصلِّي عليه، وقد نهاك ربُّك أن تُصلي عليه، فقال رسول الله(ﷺ) : إنَّما خيَّرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ **[التوبة: 80]**، وسأزيده على السَّبعين، قال: إنَّه منافق، قال: فصلَّى عليه رسولُ الله(ﷺ) ، فأنزل الله – عزَّ وجلَّ – آية: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ **[التوبة: 84]**. **[البخاري (4670)، ومسلم (2400)]**.

وإنَّما صلَّى عليه رسولُ الله(ﷺ) إجراءً له على حكم الظَّاهر، وهو الإسلام، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله – وكان من خيار الصَّحابة، وفضلائهم – وهو الذي عرض على النَّبيّ(ﷺ) أن يقتل أباه لـمَّا قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق، كما بيَّنَّا، ولما فيه من مصلحةٍ شرعيَّة، وهو تأليف قلوب قومه، وتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ من المنافقين، فعسى أن يتأثَّروا، ويرجعوا عن نفاقهم، ويعتبروا، ويخلصوا لله، ولرسوله، ولو لم يُجِبْ ابنه، وترك الصَّلاة عليه قبل ورود النَّهي الصَّريح، لكان سُبَّةً، وعاراً على ابنه، وقومه، فالرَّسول الكريم (ﷺ) اتَّبع أحسن

(1) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، والمغازي، للواقدي، ص 659.

الأمرين في السِّياسة، إلى أن نُهيَ فانتهى[1].

وأمَّا إعطاؤه(ﷺ) القميص؛ فلأنَّ الضَّنَّ به يُخِلُّ بالكرم، وقد كان مِنْ خُلُق رسول الله(ﷺ) ألاَّ يرد طالبَ حاجةٍ قطُّ، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول(ﷺ) قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر، وكان من خلق رسول الله(ﷺ) وال بيته ردُّ الجميل بخير منه[2].

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النِّفاق في المدينة، حتَّى إنَّنا لم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة، ولم يبقَ إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله(ﷺ) حُذيفة بن اليمان[3]، وكان عمر فيما بعد لا يصـــلِّي على جنازة مَنْ جَهِل حالَه حتَّى يصـــلِّي عليه حذيفة بن اليمان؛ لأنَّه كان يعلم أعيان المنافقين، وقد أخبره رسول الله(ﷺ) بهم[4].

كان العام التَّاسع حاسماً لحركة النفاق في المجتمع الإسـلاميِّ، فقد وصـل النِّظام الإسـلاميُّ إلى قوَّته، ومن ثمَّ لابدَّ من تحديد إطار التَّعامل مع كلِّ القِوى بوضـــوح[5]، ولهذا عبَّر الإمام ابن القيِّم عن خطَّة الإســلام أمام المنافقين: «فإنَّه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل ســرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم، والحجَّــة، وأُمِر أن يُعــرض عنهم، ويُغلِـظ عليهم، وأن يبلــغ بالقول البليغ إلى نفوســهم، ونُهيَ أن يصـلِّي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأُخبر: أنَّه إن اسـتغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[6].

وجاءت هذه الخطَّة وفق النُّصـوص القرآنيَّة الَّتي احتوتها سـورة التَّوبة «براءة» «الفاضـحة» حيث يســتغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصــف السُّــورة، فيفضــح نواياهم، وأعمالهم، ووصـــف أحوالهم النَّفســـيَّة والقلبيَّة، وموقفهم في غزوة تبوك، وقبلها، وفي أثنائها، وما تلاها،

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (533/2 ، 534).
(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 621 ، 622 ، والسِّيرة لأبي شهبة (534/2).
(3) انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص 221.
(4) انظر: من معين السِّيرة النبوية ، ص 464.
(5) انظر: دراسات في عهد النَّبوَّة ، ص 219.
(6) زاد المعاد (91/2).

وكشْف حقيقة حيلهم، ومعاذيرهم في التَّخلُّف عن الجهاد، وبثِّ الضعف، والفتنــة، والفرقــة في الصُّفوف، وإيذاء رسول الله(ﷺ) بالقول، والعمل[1].

ومن أهم الأحكام الَّتي برزت في هذه المرحلة ضدَّ المنافقين:

1 – عدم الصَّلاة على مَنْ مات منهم، ودمغُهم بالكفر:

﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ۝ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 84 – 85].

2 – تهديم مسجدهم الَّذي بنوه للإضرار بين المسلمين:

وهو مسجد الضِّرار، وقد تحدَّثت عنه فيما مضى بنوعٍ من التفصيل.

3 – إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين:

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِــيرُ﴾ [التحريم: 9]، وسـواءٌ أكان الجهاد بالقتال، أم في المعاملة، والمواجهة، والكشـف، والفضـح، فإنَّ طريقة التَّعامل مع المنافقين بعد سورة براءة غير المعاملة قبلها.

4 – الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح:

كما جاء في ســورة التَّوبة أيضــاً، فهم الَّذين قالوا تثبيطاً للمســلمين: ﴿لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]، وهم الَّذين يلمزون المطَّوِّعين في الصَّـــدقات، ويؤذون رســـول الله(ﷺ) في القول، والفعل.....إلخ[2]. هذه معالم المنهج النَّبويِّ في التعامل مع حركة النِّفاق في المجتمع الإسلاميِّ في العام التَّاسع الهجريِّ.

---

(1) انظر: المنافقون، لمحمد جميل غازي، ص 92، 93.

(2) انظر: دراسات في عهد النُّبوة، للشُّجاع، ص 220.

ثالثاً: تخيير النَّبيِّ(ﷺ) لزوجاته (دروسٌ من بيوتات الرَّسول(ﷺ)):

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۝ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخرةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 28 – 29].

وقد دلَّت الأحاديث الصَّـــحيحة على أن نزول هاتين الايتين كان بعد اعتزال النَّبيِّ(ﷺ) لنسائه، بعد أن أقسم ألاَّ يدخل عليهنَّ شهراً، فاعتزلهن في مَشْرُبَةٍ له، وهي القصَّة المعروفة بقصَّة إيلائه [1]من نسائه، وكان تاريخ نزول هذه الآيات في العام التاسع للهجرة[2].

وأمَّا سبب نزولها، فهو طلب زوجاته(ﷺ) التَّوسعة عليهنَّ في النَّفقة، فقد أخرج مسلمٌ عن جابرٍ رضـي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يسـتأذن على رسـول الله(ﷺ) فوجد الناس جلوسـاً ببابه، لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأُذِن لأبي بكرٍ فدخل، ثمَّ أقبل عمر، فاســـتأذن، فأُذِن له، فوجد النَّبيَّ(ﷺ) جالسـاً حوله نسـاؤه واجماً[3] سـاكتاً، قال: فقال: لأقولنَّ شـيئاً أُضـحك النَّبيَّ(ﷺ) ، فقال: يا رسـول الله! لو رأيت بنتَ خارجةَ[4] سـألتني النَّفقة فقمتُ إليها، فوجأت عنقَها[5]، فضـحك رسول الله(ﷺ) وقال: «هنَّ حولي كما ترى يسألنني النَّفقة». فقام أبو بكر إلى عائشـة يَجَأُ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: أتسـألن رسـول الله(ﷺ) ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله(ﷺ) شيئاً أبداً ليس عنده، ثمَّ اعتزلهن شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثمَّ نزلت عليه هذه الآية» [مسلم (1478)، وأحمد (328/3)].

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله(ﷺ) تجري على وتيرةٍ واحدةٍ، بالرَّغم من إمكانية التَّوسُّع في بعض الأحيان، ونساء الرَّسول(ﷺ) من البشر، يرغبن ما يرغب فيه النَّاس، ويشتهين

---

(1) الإيلاء: الحلف ، قضايا نساء النَّبي (ص) والمؤمنات ، ص 51.

(2) انظر: قضايا نساء النَّبِيِّ (ص) والمؤمنات ، ص 68.

(3) واجماً: هو الَّذي اشتدَّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام.

(4) بنت زيد ، امرأة عمر ، جميلة بنت ثابت ، نسبها عمر إلى أحد أجدادها.

(5) فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.

ما يشتهيه النَّاس[1]، فقد كانت مساكنهنَّ متواضعةً بسيطةً غاية البساطة، فقد وصفها الدُّكتور أبو شهبة فقال: إنَّ الرَّسول(ﷺ) بنى حُجَراً حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له، ولأهله، ولم تكن الحُجَرُ كبيوت الملوك، والأكاسرة، والقياصرة، بل كانت بيوت مَنْ ترفَّع عن الدُّنيا، وزخرفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبِن، والطِّين، وبعض الحجارة، وسقوفها من جذوع النَّخل والجريد، قريبة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده.

قال الحسن البصريُّ - وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة -: قد كنت أنالُ أطولَ سقف في حُجَرِ النَّبيِّ(ﷺ) بيدي، وكان لكلِّ حُجْرَةٍ بابان: خارجيٌّ، وداخليٌّ من المسجد؛ ليسهلَ دخولُ النَّبيِّ(ﷺ) إليه[2].

وأمَّا الإضاءة: فلم يكن هناك مصباحٌ يستضاء به، يدل على ذلك ما رواه البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله(ﷺ) ورجلاي في قبلته، فإذا سجد؛ غمزني، فقبضت رجليَّ، فإذا قام؛ بسطتُهما، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح. **[البخاري (382)، ومسلم (272/512)]**.

أمَّا الفراش - الَّذي يأوي إليه هذا النَّبيُّ عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم - فهو عبارة عن رُمالِ حصيرٍ، ليس بينه وبينه فراشٌ، قد أثر الرُّمال بجنبه، متكئ على وسادةٍ مِنْ أَدَمٍ، حشوها ليفٌ. **[البخاري (6456)، ومسلم (2082)]**. فقد كانت معيشته(ﷺ) تدلُّ على الشدَّة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أعلم النَّبيَّ(ﷺ) رأى رغيفاً مرقَّقاً[3] حتَّى لحق بالله، ولا رأى شاةً سميطاً[4] بعينه قطُّ. **[البخاري (6457)]**.

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 465.

(2) البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، فصل: (بناء الحجرات لرسول الله (ص) حول مسجده الشريف) ، وانظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء القرآن والسُّنَّة (35/2 . 36).

(3) مرققاً: رقيقاً ، ضدَّ الغليظ.

(4) سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخَّن ، وشوي.

وعن عائشة؛ قالت: إنْ كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله(ﷺ) نارٌ، فقال لها عروة بن الزُّبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التَّمر، والماء. [البخاري (6459)].

هذا؛ وقد فتح الله على المســـلمين بعد خيبر، وفتح مكَّة، وغزوة تبوك، وقد قرأت زوجات النَّبي(ﷺ) آيات في كتاب الله تبيح التَّمتُّع بنعم الله دون إســـراف، فرغبن أن ينالهنّ حظٌّ من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31].

وحضَّ على أكل الطَّيبات من الرِّزق، قال ســـبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَـــةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 32].

ودعا إلى التوسُّـــط في الإنفاق، والاعتدال فيه، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء: 29]، إلا أنَّ هناك جانباً اخر يتعلَّق به(ﷺ) ، ونمطاً من المعيشة اختاره بتوجيهٍ من ربِّه عزَّ وجلَّ، فلم يلتفت لشيءٍ من هذا، كما أدَّبه ربه - ســـبحانه وتعالى - بقوله: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: 88].

وقوله ســـبحانه: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131].

ولذلك جاءت آيات التَّخيير، فوقفت زوجاتُه(ﷺ) من قضيَّة التَّخيير موقفاً حاسماً لا تردَّد فيه، فإنَّهنَّ اخترن الله ورسولَه، والدَّار الآخرة، فقد كنَّ يطلبن منه(ﷺ) التَّوسعة في النَّفقة، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن، فلـــمَّا وصل الأمر إلى وضعهنَّ أمام خيارين: الحياة الدُّنيا، وزينتها، أو الله، ورسوله، والدَّار الآخرة؛ لم يتردَّدن لحظـــةً واحدةً في سلوك الخيار الثَّاني بل قلن

جميعهنَّ بصوتٍ واحد: نريد الله، ورسولَه والدَّار الآخرة[1].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لــمَّا أمر رسول الله(ﷺ) بتخيير أزواجه؛ بدأ بي، فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، فلا عليك ألاَّ تعجلي حتَّى تستأمري أبويك»، قالت: وقد علم أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثمَّ قال: «إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۝ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخرةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ **[الأحزاب: 28 – 29]** قالت: فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبويَّ؟ فإنِّي أريد الله ورسولَه والدَّار الآخرة، قالت: ثمَّ فعل أزواجُ رسول الله(ﷺ) مثلَ ما فعلتُ. **[البخاري (4786)، ومسلم (1457)]**.

وهكذا تتجلَّى في موقفهنَّ رضـــي الله عنهنَّ صـــورةٌ ناصــعةٌ لقوَّة الإيمان، واختبارٌ حقيقيٌّ للإخلاص، والصِّـــدق مع الله تعالى، فإنَّ قوله تعالى في الآية الأولى من ايتي التَّخيير: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ﴾، كالوعد بحصــولهن على مبتغاهنَّ في الحياة الدُّنيا وزينتها – إن اخترن ذلك – ولكنَّهنَّ رفضـن هذا، واخترن الله، ورسـوله، والدَّار الآخرة. وفي قوله تعالى في الآية الثانية: إشـارةٌ إلى أنَّ ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخرةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَنَلْنَه من الأجر سببه كونهنَّ محسناتٍ، ومن ذلك اختيارهنَّ الله، ورسوله، والدَّار الآخرة؛ إذ لا يكفي لحصولهنَّ على هذا الأجر كونهنَّ زوجاتٍ للرَّسول(ﷺ) [2] .

وتنكير الأجر، ثمَّ وَصْـــفُه بأنه عظيم فيه ترغيبٌ لهنَّ بالكفِّ عن التطلُّع إلى الحياة الدُّنيا وزينتها، فهذا الأجر لا يقدِّر قدره إلا الله، وهو شاملٌ لخيري الدُّنيا والآخرة[3].

ولقد اعتبر الخلفاء الرَّاشــدون قصَّــة التَّخيير تلك مَعْلَماً من معالم الإســلام، ومنهجاً نبويّاً كريماً ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمَّة.

---

(1) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ (ص) والمؤمنات في سورة الأحزاب ، ص 77.
(2) المصدر السابق ، ص 79.
(3) انظر: تفسير السَّعدي (148/4).

وإنَّ النَّظرة الفاحصة في التاريخ لَـتُـبَـيِّنُ: أنَّ هذا الجانب يعدُّ معياراً دقيقاً به يُعرف القرب من الاســـتقامة، أو البعدُ عنها، وقد فهم قادة الأمَّة المؤمنون - حينما وُجدوا - على امتداد تاريخ الإســـلام، أهمِّية هذا الجانب، فرعَوْه حقَّ رعايته، وإنَّ الأمثلة العمليَّة من تاريخ الخلافة الرَّاشدة هي من الوفرة، والكثرة بمكانٍ، بحيث لا تُتْعِبُ الباحث في التَّفتيش عنها[1].

إنَّ قيادة الأمَّة تكليفٌ، ومَغْرمٌ، وليست مغنماً، ولابدَّ لِلَّذين يتولَّونها أن يحسبوا أهمية التَّعالي على حطام الدُّنيا، والشَّوق إلى الله، والدَّار الآخرة[2].

رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس:

كانت تربية المجتمع، وبناء الدَّولة في عصر النَّبيِّ(ﷺ) مستمرَّةً في جميع الأصعدة، والمجالات العقائديَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة، والعسكريَّة، والتَّعبديَّة، وكانت فريضة الحجِّ لم تُمارس في السَّنوات الماضية، فحجَّةٌ عام (8 هـ) بعد الفتح كُلِّف بها عَتَّابُ بن أَسِيْدٍ، ولم تكن قد تميَّزت حجَّة المسلمين عن حجَّة المشركين[3]، فلـمَّا حل موسم الحج أراد(ﷺ) الحجَّ، ولكنَّه قال: «إنَّه يحضـــر البيت عُراةٌ مشـــركون يطوفون بالبيت، فلا أحبُّ أن أحجَّ حتَّى لا يكون ذلك»، فأرسـل(ﷺ) الصِّـدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسعٍ، فخرج أبو بكر، ومعه عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة[4]، وساقوا معهم الهدي[5].

فلـمَّا خرج الصِّدِّيق بركب الحجيج؛ نزلت سورة براءة، فدعا النَّبيُّ(ﷺ) عليّاً رضي الله عنه، وأمره أن يلحق بأبي بكرٍ الصِّـــدِّيق، فخرج على ناقة رســـول الله(ﷺ) العضـــباء؛ حتَّى أدرك الصِّدِّيق أبا بكرٍ بذي الحليفة، فلـــمَّا راه الصِّدِّيق، قال له: أميرٌ أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثمَّ ســـارا، فأقام أبو بكرٍ للنَّاس الحجَّ على منازلهم؛ الَّتي كانوا عليها في الجاهليَّة، وكان الحجُّ في هذا

(1) انظر: البداية والنِّهاية (136/7).
(2) انظر: من معين السِّيرة، ص 475.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (536/2)، ودراساتٌ في عهد النُّبوة، ص 222.
(4) انظر: نضرة النَّعيم (398/1)، والطبقات الكبرى (168/2).
(5) انظر: فتح الباري (82/8).

العام في ذي الحجَّة - كما دلَّت على ذلك الرِّوايات الصَّحيحة - لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصِّدِّيق قبل التَّروية، ويوم عرفة، ويوم النَّحر، ويوم النفر الأوَّل، فكان يعرِّف النَّاس مناسكهم: في وقوفهم، وإفاضتهم ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات.... إلخ، وعليٌّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على النَّاس صدر سورة براءة، ثم ينادي في النَّاس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدَّته، ولا يحجُّ بعد العام مشرك. **[أحمد (79/1)، والترمذي (871 و3092)، وأبو يعلى (452)]**[1].

وقد أمر الصِّدِّيق أبا هريرة في رهطٍ اخر من الصَّحابة لمساعدة عليِّ بن أبي طالب في إنجاز مهمَّته[2].

إنَّ نزول صدر سورة براءة يمثِّل مفاصلةً نهائيَّة مع الوثنيَّة، وأتباعها، حيث منعت حجَّهم، وأعلنت الحرب عليهم[3].

قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **[التوبة: 1 - 3]**.

وقد أُمْهِلَ المعاهدون لأجلٍ معلومٍ منهم إلى انتهاء مدَّتهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ

---

(1) البداية والنِّهاية، لابن كثير ، ذكر بعث رسول الله (ص) أبا بكرٍ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسع، ونزول سورة براءة ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص 625.

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (537/2).

(3) انظر: نضرة النَّعيم (399/1).

يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

كما أمهل مَنْ لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حربٍ مع المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5].

وقد كلَّف النَّبيُّ(ﷺ) عليّاً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحجِّ، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود، ونقضها ألاَّ يتولَّى ذلك سيِّد القبيلة، أو رجل مِنْ رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاةٌ للإسلام، فلذلك تدارك النَّبيُّ(ﷺ) الأمر، وأرسل عليّاً بذلك، فهذا هو السَّبب في تكليف عليٍّ بتبليغ صدر سورة براءة، لا ما زعمه بعضهم من أن ذلك للإشارة إلى أنَّ عليّاً أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ، وقد علَّق على ذلك الدُّكتور محمد أبو شهبة، فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصِّدِّيق له: أميرٌ أم مأمور؟[1] وكيف يكون المأمورُ أحقَّ بالخلافة من الأمير[2]؟!

وقد كانت هذه الحجَّة بمثابة التَّوطئة للحجَّة الكبرى، وهي حجَّة الوداع[3]؛ لقد أُعْلِن في حجَّة أبي بكر: أنَّ عهد الأصنام قد انقضى، وأنَّ مرحلةً جديدةً قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الَّذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أنَّ الأمر جَدٌّ، وأنَّ عهد الوثنيَّة قد انقضى فعلاً، فأخذت ترسل وفودها معلنةً إسلامها، ودخولها في التَّوحيد[4].

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 624.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (540/2).
(3) المصدر السابق نفسه (540/2).
(4) انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة، ص 283.

خامساً: عام الوفود (9 هـ)[1]:

لـمَّا افتتح رسول الله(ﷺ) مكَّة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وبايعت، وضرب رسول الله(ﷺ) أمد أربعة أشهرٍ لقبائل العرب المشركين، لكي يقرِّروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتَّخذ الدَّولة الإسلاميَّة منهم موقفاً معيَّناً، ضربت إليه وفود العرب اباط الإبل من كلِّ وجهٍ معلنةً إيمانها، وولاءها[2]، وقد اختلف العلماء في تاريخ مَقْدَمِ الوفود على رسول الله(ﷺ) وفي عددها، حيث أشارت المصادر الحديثيَّة، والتَّاريخيَّة إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخٍ مبكرٍ عن السَّنة التَّاسعة، ولعلَّ ذلك ممَّا أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفداً عند البعض، ويرتفع فيبلغ أكثر من مئة وفدٍ عند آخرين، ولعلَّ البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم[3]، فقد أورد محمَّد بن إسحاق: أنَّه: لـمَّا فتح رسول الله(ﷺ) مكَّة المكرَّمة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه[4].

وقد استقصى ابن سعدٍ في جمع المعلومات عن الوفود، كما فصَّل كثيراً، وقدَّم ترجماتٍ وافيةً عن رجال الوفود، ومن كانت له صحبةٌ منهم، وما ورد عن طريقهم من اثار، ولا تخلو أسانيد ابن سعدٍ - أحياناً - من المطاعن، كما أنَّ فيها أسانيد من الثِّقات أيضاً[5]، ولاشكَّ في أنَّ الأخبار الَّتي أوردها المؤرِّخون ليست ثابتةً بالنَّقل الصَّحيح المعتمد وفق أساليب المحدِّثين، برغم أنَّ عدداً كبيراً من المرويَّات عن تلك الوفود ثابتةٌ، وصحيحةٌ[6]؛ فقد أورد البخاريُّ معلوماتٍ عن وفد قبيلة تميم، وقدومه إلى النَّبي(ﷺ) ، ووفود أخرى مثل: عبد القيس، وبني حنيفة، ووفد نجران، ووفد الأشعريين، وأهل اليمن، ووفد دَوْسٍ **[البخاري (4365 و4368، و4372 و4392)]**، وتعزَّزت أخبار هذه الوفود بمعلوماتٍ إضافيَّةٍ، وردت في مصادر تاريخيَّةٍ إلى جانب ما ورد عنها

---

(1) ينظر الشكل (22) في الصفحة (766).
(2) انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص 284.
(3) انظر: نضرة النَّعيم (396/1).
(4) انظر: البداية والنِّهاية (46/5 . 47).
(5) انظر: نضرة النَّعيم (397/1).
(6) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (542/2).

في كتب السِّيَر والمغازي[1]، وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود المذكورة انفاً[2]، كما أوردت بقيَّة الكتب السِّتَّة معلوماتٍ أوسع، شملت عدداً كبيراً من الوفود[3].

إنَّ قصـــص الوفود، وأخبارها، وكيفيَّة تعامل رســـول الله(ﷺ) معها من الأهميَّة بالمكان الكبير[4]، وتبقى مسـألة الحاجة الماسَّـة إلى نقدٍ تاريخيٍّ لمتون الأخبار المفصَّـلة الَّتي وصـلتنا عن الوفود[5]، فلقد تركت لنا تلك الأخبار، والقصـص منهجاً نبويّاً كريماً في تعامله(ﷺ) مع الوفود، يمكننا الاستفادة من هديه(ﷺ) في تعامله مع النَّفسيَّة البشريَّة، وتربيته، ودقَّته، وتنظيمه، ففيها ثروةٌ هائلةٌ من الفقه الَّذي يدخل في دوائر التَّعليم والتَّربية، والتَّثقيف وبُعْد النَّظر وجمع القلوب على الغاية، وربط أفرادٍ بأعيانهم بالمركز بحيث تبقى في كلِّ الظُّروف، والأحوال مرتكزاتٌ قويَّةٌ إلى الإســـلام، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كلِّ الحقول نفســـيّاً، واجتماعيّاً، واقتصـاديّاً، وإداريّاً وسياسيّاً، وعسكريّاً، تعطي لكلِّ عاملٍ في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه، وتغنيه[6].

هذا وقد تميَّز العام التاســـع بتوافد العرب إلى المدينة، وقد اســـتعدَّت الدَّولة الإســـلاميَّة لاســـتقبالهم، وتهيئة المناخ التَّربويِّ لهم، وقد تمثَّل هذا الاســـتقبال بتهيئة مكان إقامة لهم، وكانت هناك دارٌ للضِّـيافة[7]، ينزل فيها الوافدون، وهناك مسـجدُ رسـول الله(ﷺ) الَّذي كان سـاحةً للاستقبال، ثمَّ كان هناك تطوُّعٌ، أو تكليف رسـول الله(ﷺ) لأحد الصَّـحابة باسـتضـافة بعض القادمين[8].

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (40/5 . 98).
(2) انظر: نضرة النَّعيم (398/1).
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) انظر: الأساس في السُّنَّة ، السِّيرة النَّبويَّة (1014/2).
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (544/2).
(6) انظر: الأساس في السُّنَّة (1014/2).
(7) انظر: المدينة النَّبويَّة ، فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي ، لمحمد شُرَّاب (400/2).
(8) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص 221.

واهتمَّ(ﷺ) بتلك الوفود، وحرَص على تعليمها، وتربيتها، وقــد كانت تلك الوفود حريصةً على فهم الإسلام، وتعلُّم شرائعه، وأحكامه، واداىه، ونظمه في الحياة، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عمليّاً، جعلهم نماذج حيّة لفضائله، وقد كان لكثيرٍ منهم سؤالاتٌ عن أشياء كانت شائعةً بينهم؛ ابتغاء معرفة حلالها، وحرامها، وكان النَّبيُّ(ﷺ) حريصاً أشدَّ الحرص على تفقيههم في الدِّين، وبيان ما سألوه عنه، وكان(ﷺ) يُدني منهم مَنْ يعلم منه زيادة حِرْصٍ على القرآن العظيم، وحفظ آياته تفقُّهاً فيه، ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم»[1].

وكان(صلى الله عليه وسلم) يسأل عمَّن يُعْرَف مِنْ شرفائهم، فإذا رغبوا في الرَّحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحقِّ، وحثَّهم على الاعتصام بالصَّبر، ثمَّ يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوِّي بينهم، فإذا رجعوا إلى أقوامهم؛ رجعوا هُداةً دعاةً، مشرقةً قلوبهم بنور الإيمان، يعلِّمونهم ممَّا عُلِّموا، ويحدِّثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النَّبيِّ، وبرَّه، وبِشْرَه، واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تاخيهم، وتحاببهم، ومواساة بعضهم بعضاً؛ ليثيروا في أنفسهم الشَّوق إلى لقاء رسول الله(ﷺ) ، ولقاء أصحابه، ويحبِّبوا إليهم التأسِّي بهم في سلوكهم، ومكارم أخلاقهم[2]، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيَّتها؛ كوفد نصارى نجران، ووافقت على دفع الجزية، ونحاول أن نتحدَّث عن بعض الوفود؛ لما في ذلك من الفقه، والدُّروس، والعبر؛ كوفد عبد قيس، وبني سعد بن بكر، ووفد نصارى نجران:

أ – وفد عبد القيس:

وقد تحدَّث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن قدومهم، فقال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله(ﷺ) ، فقال رسول الله(ﷺ) : «مَن الوفد؟ – أو: مَنِ القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحباً

(1) انظر: محمَّد رسول الله ، صادق عرجون (520/4).
(2) المصدر السابق نفسه (521/4).

بالقوم[1] – أو: بالوفد – غير خزايا، ولا نَدَامَى[2]». قال: فقالوا: يا رسول الله! إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدةٍ[3]، وإنَّ بيننا وبينك هذا الحيُّ من كفَّار مضر، وإنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهرٍ حرام، فمرنا بأمرٍ فصلٍ[4] نخبر به مَنْ وراءنا، ندخل به الجنَّة، وسألوه عن الأشربة. قال: فأمرهم بأربعٍ، ونهاهم عن أربعٍ، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدُّوا خمساً من المغنم»، ونهاهم عن الدُّباء[5]، والحنتم[6]، والمزَفَّتِ[7]، وربما قال: النَّقير[8]، أو المقَيَّر وقال: «احفظوهنَّ، وأخبروا بهنَّ مَنْ وراءكم» **[البخاري (53)، ومسلم (17)]**.

وفي رواية: أنَّ الأشجَّ بن عبد قيسٍ تخلَّف في الرِّكاب حتَّى أناخها، وجمع متاع القوم، ثمَّ جاء يمشي حتَّى أخذ بيد رسول الله(ﷺ) فقبَّلها، فقال له النَّبيُّ(ﷺ) : «إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله ورسولُه» فقال: جَبْلٌ جُبِلْتُ عليه، أم تَخَلُّقَاً منِّي؟ قال: «بل جَبْلٌ» **[ابن ماجه (4187)]** قال: الحمد لله الَّذي جَبَلَنِي على ما يحبُّ اللهُ ورسولُه. **[أحمد (206/4)، والبخاري في الأدب المفرد (584)]**[9].

وقد انشغل رسول الله(ﷺ) بمقدَمِهم وأخَّر صلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة بعد الظهر وصلاَّها بعد العصر[10].

---

(1) مرحباً بالقوم: صادفت رحباً وسعةً.
(2) غير خزايا ، ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخُّرٌ عن الإسلام ، ولا عنادٌ.
(3) شقة بعيدة: السَّفر البعيد ، أو المسافة البعيدة.
(4) الأمر الفصل: البيِّن الواضح الَّذي ينفصل به المراد.
(5) الدَّباء: القرع اليابس.
(6) الحنتم: أصحُّ الأقوال فيها: الجرار الخضر؛ وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.
(7) المزفَّت: الأوعية الَّتي فيها الزِّفت.
(8) النَّقير: جذع ينقر وسطها ثمَّ ينبذ فيها الرُّطب ، والبُسْرُ.
(9) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 631.
(10) المصدر السابق نفسه ، ص 635.

ب – وفد ضِمَام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكرٍ:

قال أنس بن مالك – رضي الله عنه –: بينما نحن جلوسٌ مع النَّبيّ(ﷺ) في المسجد دخل رجلٌ على جملٍ، فأناخه في المسجد ثمَّ عقله، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ(ﷺ) متكىءٌ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرَّجل الأبيض المتَّكىء، فقال له الرَّجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النَّبي(ﷺ) : «قد أجبتك»، فقال الرَّجل للنَّبيّ(ﷺ) : إنِّي سَائِلُكَ فمشدِّدٌ عليك في المسألة؛ فلا تَجِدْ[1] عليَّ في نفسك، فقال: سل عمَّا بدا لك، فقال: أسألك بربِّك وربِّ مَنْ قبلك! الله أرسلك إلى النَّاس كلِّهم؟ فقال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أَنْشُدُكَ بالله! الله أمرك أن تصلِّيَ الصَّلوات الخمس في اليوم واللَّيلة؟ قال: «اللَّهمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! الله أمرك أن نصوم هذا الشَّهر من السَّنة؟ قال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! الله أمرك أن تأخذ هذه الصَّدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النَّبي(ﷺ) : «اللَّهم نعم!».

فقال الرَّجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَنْ ورائي مِنْ قومي، وأنا ضِمَامُ بن ثَعْلَبَةَ أخو بني سعد بن بكر. **[البخاري (63)، وأبو داود (486)، وابن ماجه (1402)، وأحمد (168/3)، والنسائي (122/4)]**.

وفي رواية ابن عبَّاسٍ: ... حتَّى إذا فرغ؛ قال: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّداً رسول الله (ﷺ) ، وسأؤدِّي هذه الفرائض، وأجتنبُ ما نهيتني عنه، ثمَّ لا أزيد، ولا أنقص.

قال: ثمَّ انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله(ﷺ) حين ولَّى: «إنْ يصدق ذو

---

(1) تجد: تحقد ، وتحمل البغضاء.

الْعَقِيصَتَــيْنِ[1]، يدخل الجنَّة». قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق عِقَاله ثمَّ خرج حتَّى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال: بئست اللاَّتُ، والعزَّى! قالوا: صه يا ضِمَام! اتَّق البَرَص، والجُذام! اتَّق الجنون! قال: ويلكم! إنَّهما والله! لا يضــرَّان، ولا ينفعان، إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممَّا كنتم فيه، وإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وإنِّي قد جئتكم من عنده بما أمركم به، ونهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ، ولا امرأةٌ إلا مسلماً، قال: يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل مِنْ ضِمَامِ بن ثعلبة. **[أحمد (264/1 - 265)، وأبو داود (487)، والدارمي (656)]**[2].

وتدل قصَّة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربيَّة، حتَّى جاء ضِمَام لا ليسأل عنها، ولكن جاء ليستوثق منها، معدِّداً لها الواحدة تلو الأخرى، ممَّا يدلُّ على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرَّسول(ﷺ) [3].

ج - وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله(ﷺ) إلى نجران[4] كتاباً قال فيه: «أمَّا بعد، فإنِّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم؛ فالجزية، فإن أبيتم؛ اذنتكم بحربٍ، والسَّلام[5]».

فلـمَّا أتى الأسقفَ الكتابُ؛ جمع النَّاس، وقرأه عليهم، وسألهم عن الرَّأي فيه، فقرَّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشرَ من أشرافهم، وقيل: ستِّين راكباً منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب - وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم، والَّذي يصدُرون عن رأيه - والسَّيد -

---

(1) الضَّفيرتين من الشَّعر.
(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 630.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 650.
(4) نجران: بلد كبيرٌ على سبع مراحل من مكَّة إلى جهة اليمن.
(5) انظر: البداية والنِّهاية (48/5) ، وهداية الحيارى في الردِّ على اليهود ، والنَّصارى.

وهو صاحب رحلتهم – وأبو الحارث – أسقفُهم، وحبرُهم وصاحب مدراسهم – فقدموا على النَّبيّ(ﷺ) ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذَّهب، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله(ﷺ) : دعوهم، ثمَّ أتوا النَّبيَّ(ﷺ) ، فأعرض عنهم، ولم يكلِّمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زِيِّكُمْ هذا، فانصرفوا يومهم هذا، ثمَّ غدَوا عليه بِزِيِّ الرُّهبان فسلَّموا عليه، فردَّ عليهم، ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، وقالوا: كنَّا مسلمين قبلكم، فقال النَّبيُّ(ﷺ) : «يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصَّليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أنَّ للهِ ولداً»[1]، وكثر الجدال والحجاج بينه، وبينهم، والنَّبيُّ(ﷺ) يتلو عليهم القرآن، ويقرع باطلهم بالحجَّة، وكان ممَّا قالوه لرسول الله(ﷺ) : ما لك تشتم صاحبنا، وتقول: إنَّه عبد الله ؟! فقال: «أجل، إنَّه عبد الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ، فإن كنت صادقاً، فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الردِّ عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: 59 -60].

فكانت حجَّةً دامغةً، شُبِّه فيها الغريب بما هو أغرب منه[2]. فلمَّا لم تُجْدِ معهم المجادلة بالحكمة، والموعظة الحسنة، دعاهم إلى المباهلة[3]، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 61].

وخرج النَّبيُّ(ﷺ) ومعه عليٌّ، والحسن، والحسين، وفاطمة، وقال: «وإذا أنا دعوت فأمِّنوا»[4]. فائتمرُوا فيما بينهم، فخافوا الهلاك؛ لعلمهم: أنَّه نبيٌّ حقاً، وأنَّه ما بَاهَلَ قومٌ نبيّاً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه، وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حُلَّةٍ، ألف في

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (547/2) ، والدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، للسُّيوطي ، وأبا نعيم في الدَّلائل.

(2) انظر: زاد المعاد (633/3) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (547/2).

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (547/2) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل (المباهلة).

(4) المصدر السابق نفسه (547/2) ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ، قوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح.

رجب، وألف في صفر[1]، ولـــمَّا عزموا على الرُّجوع إلى بلادهم، قالوا للنَّبيِّ(ﷺ) : ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصُّـــلح، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله(ﷺ) فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح!» فلـــمَّا قام؛ قال: «هذا أمين هذه الأمة». [البخاري (4382)، وأحمد (184/3)، والترمذي (3791)، وابن ماجه (154 و155)].

سادساً: بعوث رسول الله(ﷺ) لتعليم مبادئ الإسلام، وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها، وتنضوي تحت سيادة الدَّولة الإسلاميَّة، ويتعلَّموا ما شـــاء الله أن يتعلَّموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان(ﷺ) يرســل معهم مَنْ يعلِّمهم دينهم، وشرع(ﷺ) يبعث دعاته في شتَّى الجهات، واهتمَّ بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن؛ لتعليمها مبادئ الإســـلام، وأحكامه، فقد انتشــــر أمر الإســـلام في الجزيرة، ومختلف أطرافها، وأصـــبحت الحاجة داعيةً إلى معلِّمين، ودعاة، ومرشـــدين، يشـــرحون للنَّاس حقائق الإسلام[2]؛ لكي تتطهَّر قلوبهم، وتشفى صدورهم من أمراض الجاهليَّة، وأدرانها الخبيثة، وامتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدُّخول في الإسـلام، فأرسـل إليهم رسـولُ الله(ﷺ) خالداً في سريَّةٍ دعويَّةٍ جهاديَّةٍ.

أ – بَعْثُ خالد إلى بني الحارث بن كعب (10 هـ):

كان بنو الحارث بن كعب يسـكنون بنجران، ولم يقبَل منهم أحدٌ الإسـلام، فبعث رسـول الله(ﷺ) إليهم خالد بن الوليد في شــهر ربيع الآخر، أو جُمادَى سـنَة عشْـرٍ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا؛ قَبِلَ منهم، وإن لم يفعلوا؛ قاتلهم، فخرج خالد حتَّى قدم عليهم، فبعث الرُّكبان في كل وجه يدعون إلى الإســلام، فأســلم النَّاس، ودخلوا فيما دُعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلِّمهم الإســـلام، وكتاب الله، وســـنَّة نبيِّه(ﷺ) كما أمره رســـول

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص 322.

الله(ﷺ) ، ثمَّ كتب خالدٌ إلى رسـول الله(ﷺ) يُعْلِمه بإسـلامهم، وأنَّه مقيمٌ فيهم، حتَّى يكتب إليه رسول الله(ﷺ) ، فجاءه كتاب رسول الله(ﷺ) يأمره بأن يُقْبِل إلى المدينة؛ ومعه وفدٌ منهم، ففعل، فلما قدموا أمَّر عليهم قيس بن الحُصَيْن، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم، ليفقههم في الدِّين، ويعلِّمهم السُّنَّة، ومعالم الإسلام[1].

وفي روايةٍ: أنَّه(ﷺ) أرسـل عليّاً بدلاً من خالدٍ، وعندما وصـل إلى قبائل همدان؛ قرأ عليهم كتاب رسـول الله(ﷺ) ، فأسـلمت همدان جميعاً، فكتب عليٌّ إلى رسـول الله(ﷺ) بإسـلامهم، فلـــمَّا قرأ رسـول الله(ﷺ) الكتاب؛ خرَّ سـاجداً، ثمَّ رفع رأسـه فقال: «السَّـلام على همدان، السَّلام على همدان» **[البيهقي في الدلائل: (396/5)]**.

كان رســول الله(ﷺ) حريصـــاً على الجبهة الجنوبيَّة للدَّولة، وأن تدخل قبائل اليمن في الإســـلام، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة الَّتي حقَّقتها الدَّعوة، في كثرة عدد الوفود التي كانت تنســاب من كلِّ أطراف اليمن متَّجهةً إلى المدينة، ممَّا يدل على أنَّ نشــاط المبعوثين إلى اليمن كان متَّصـلاً، وبعيد المدى، وكانت سـرايا رسـول الله(ﷺ) تسـاند هذا النَّشـاط الدَّعويَّ السِّـــلميَّ، حيث بعث خالد بن الوليد، ثمَّ علي بن أبي طالبٍ رضـــي الله عنهما في هذا السِّياق[2].

إنَّ الوثائق الَّتي عقدها النَّبيُّ(ﷺ) مع قبائل اليمن، وحضـــرموت قد بلغت عدداً كبيراً، ضمَّنها محمَّد حميد الله – رحمه الله – في كتابه: «مجموعة الوثائق السِّياسيَّة»[3].

إنَّ التَّركيز على مفاصـــل القوى، ومراكز التَّأثير في المجتمعات، وبناء الدُّول، منهج نبويٌّ كريمٌ، حرص النَّبيُّ(ﷺ) على ممارسته في حياته.

---

(1) انظر: السِّيرة لابن هشام (250/4).
(2) انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، ص 231.
(3) انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، رقم 111 ، ص 230.

ب – بَعْثُ معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن:

1 – بعث رسـول الله(ﷺ) معاذ بن جبل الأنصـاريَّ – أعلمَ الصَّـحابة في علم الحلال والحرام – إلى اليمن؛ قاضـياً، ومفقّهاً، وأميراً، ومصـدّقاً[1]، وجعله على أحد مِخْلافَيْها[2]، وهو الأعلى. ولـمَّا خرج معاذٌ قاصداً اليمن؛ خرج معه رسول الله(ﷺ) يودّعه، ويوصيه، ومعاذ راكبٌ، ورسول الله(ﷺ) يمشي تحت راحلته، فأوصاه بوصايا كثيرةٍ، ورسم له منهجاً دعويّاً عظيماً، حيث قال له: «إنك ستأتي قوماً من أهل كتاب، فإذا جئتهم؛ فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسـولُ الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم خمس صـلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم صدقةً، تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإيَّاك وكرائمَ أموالهم، واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب». [البخاري (1458)، ومسلم (19)].

وفي هذا الحديث إرشـادٌ من النَّبيّ(ﷺ) للدُّعاة إلى الله بالتَّدرُّج، والبدء بالأهمّ، فالأهمّ، فالدَّعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى، ورسوله إيماناً يثبت في القلوب، ويهيمن على الأفكار، والسُّلوك، ثمَّ تكون الدَّعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العمليَّة الَّتي ترسِّخ هذا الإيمان، وتنمِّيه، ثمَّ يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات، والنَّهي عن المحرَّمات، فيتقبَّل النَّاسُ تكاليف الإسلام الَّتي قد تكون مخالفةً لهوى النفس؛ لأنَّ قلوبهم قد عمرت بالإيمان، واليقين قبل ذلك[3].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ رسمه(صـلى الله عليه وسـلم) لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدي الصَّـحابة الكرام، وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدَّعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النَّبويّ يترسَّمون خطاه، ويستوعبونه فهماً، ووعياً، وتطبيقاً! وحينئذٍ تكون خطاهم في الطَّريق

---

(1) المصدِّق: اخذ الزَّكاة.

(2) المخلاف: الإقليم ، والكورة ، والرستاق.

(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي (187/8).

الصَّحيح[1]. ولــــمَّا فرغ رسول الله(ﷺ) من وصاياه لمعاذ قال له: «يا معاذُ! إنَّك عسى ألاَّ تلقاني بعد عامي هذا، ولعلَّك أن تمرَّ بمســـجدي هذا، وقبري[2]»، فبكى معاذ خَشَــعاً لفراق الرَّسول(ﷺ) ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرَّسول(ﷺ) ، فقد أقام معاذ باليمن، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرَّسول(ﷺ)[3] .

2 – وبعث رســول الله(ﷺ) أبا موســى الأشــعريَّ اليمنيَّ إلى مخلاف اليمن الآخر، وهو الأسفل، قاضياً، ومفقّهاً، وأميراً، ومصدِّقاً، وأوصاه، ومعاذاً، فقال:ءَ «يسِّرا، ولا تعسِّرا، وبشِّرا، ولا تنفِّرا، وتطاوعا، ولا تختلفا». **[البخاري (4342)، ومسلم (1733)]**.

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أرشـد إليه رسـولُ الله(ﷺ) معاذاً، وأبا موسـى بأن يأخذوا بالتَّيسـير على النَّاس، ونهاهما عن التَّعسير عليهم، وأمرهما بالتَّبشير، ونهاهما عن التَّنفير[4].

ج – ترتيب أمور الإدارة والمال:

إن النِّظام جزءٌ من هذا الدِّين، وداخلٌ في كل أموره؛ لأنَّ النِّظام يجمع الأشتات، وتُحقَّق به الأهداف، والغايات، فالنِّظام سمةٌ يتميَّز بها الإســلام منذ اللَّحظة الأولى؛ حيث يدخل في جميع جوانب الإسـلام التَّصوريَّة، والشَّـعائريَّة، والتُعبُّديَّة، وفي الشَّـرائع الحياتيَّة كلِّها، فكان(ﷺ) يضـع من يدير المدينة في حالة غيبته عنها، وكلَّما فتح منطقةً، وضــع عليها أميراً، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله(ﷺ) فيُعيِّن عليها أميراً مِنْ قِبَلِه، ثمَّ يترك لهم مَنْ يعلِّمهم دينهم، ويرسل إليهم مَنْ يجمع صدقاتهم[5].

وكان يختار عمَّاله من الصَّالحين، وأولي العلم، والدِّين، ومن المنظور إليهم من العرب، وذوي الشَّـــخصـــيَّات المؤثِّرة في قبائلهم، فقد كان عامله على مكَّة عتَّاب بن أَسِـــيْدٍ، وعلى الطَّائف

---

(1) انظر: من معين السِّيرة ، ص 486.
(2) انظر: صحيح السِّيرة ، ص 654.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (559/2).
(4) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (186/8).
(5) انظر: دراسات في عهد النُّبوة للشُّجاع ، ص 221.

عثمان بن العاص، وبعث عليّاً، وأبا موســـى إلى اليمن، وأقرَّ الرَّســـول(ﷺ) في بعض الحالات الأمراء، والملوك الَّذين أسـلموا، أو قُبِلت الجزية منهم، ومنهم: باذان بن سـامان ولد بهرام الَّذي أقرَّه الرَّسول(ﷺ) على اليمن بعد إسلامه، ولما بلغه موته قسم عمله على جماعةٍ من الصَّحابة، فولَّى على صنعاء شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعريَّ، وعلى الجند يعلى بن أميَّة، وعلى همذان عامر بن شمر الهمداني، وعلى ما بين نجران، وزمع، وزبيد خالد بن ســـعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزام، وعلى بلاد حضـــرموت زياد بن لبيد البياضـــي، وعلى السَّكاسك والسُّكون عكَّاشة بن ثور[1].

وكان(ﷺ) يســـتوفي الحســـاب على العمَّال، يحاســـبهم على المســـتخرج، والمصـــروف، وحدَّد(ﷺ) لبعض عمَّاله رواتب، منهم عَتَّاب بن أَسِـيْدٍ والي مكَّة، درهماً كلَّ يوم[2]، ولـــمَّا اســـتعمل(ﷺ) قيس بن مالكٍ على قومه همدان خصَّـــص له قطعةً من الأرض يأخذ خراجها، وكانت رواتب عمَّاله تتغيَّر بتغير أحوال المعيشــة، فهي ليســت ثابتةً[3]، قال رســول الله(ﷺ) : «مَنْ ولي لنا ولايةً، ولم يكن له بيتٌ؛ فليتَّخذ بيتاً، أو لم تكن له زوجةٌ؛ فليتَّخذ زوجةً، أو لم تكن له دابَّةٌ، فليتَّخذ دابةً» **[أحمد (229/4)، وأبو داود (2945)، وابن خزيمة (2370)]**[4].

وهذه هي الحاجات الرَّئيســية لوليّ الأمر في ذلك الوقت؛ منعاً لأخذ الرَّشـوة، وهذه قاعدةٌ قانونيَّة جاء بها الإســـلام قبل أن تثبتها القوانين الوضـــعية الحديثة في بنودها، وهي أنَّ الهدية للحاكم رشوةٌ صريحةٌ[5].

* * *

(1) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لابن خلدون (59/2).
(2) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (153/4).
(3) انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، ص 44.
(4) انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص 44 ، والتراتيب الإدارية ، للكتّاني (227/1).
(5) انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص 44.

المبحث السَّابع

حجَّة الوداع (10 هـ)[1]

الحجُّ أحد الأركان الخمسة، وقد فُرض في العام العاشر، وهذا ما ذهب إليه ابن القيّم[2]، واستدلَّ بأدلةٍ قويَّةٍ، وهو الّلائق بهديه(ﷺ) في عدم تأخير ما هو فرض، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: 97]، وقد نزلت عام الوفود، أواخر سنة تِسْعٍ[3].

لم يحجَّ النَّبيُّ(ﷺ) من المدينة غير حجَّته الَّتي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجَّة بحجَّة البلاغ، وحجَّة الإسلام، وحجَّة الوداع؛ لأنَّه(ﷺ) ودَّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها، وحجَّة البلاغ؛ لأنَّه(ﷺ) بلَّغ النَّاس شرع الله في الحجِّ قولاً، وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيَّنه، فلمَّا بيَّن لهم شريعة الحجِّ، ووضَّحه، وشرحه، أنزل الله عليه، وهو واقفٌ بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3]. [البخاري (4407)، ومسلم (3017)].

ولمَّا نزلت هذه الآية؛ بكى بعض الصَّحابة - ومنهم عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه - وكأنَّهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرَّسول(ﷺ) ، ولمَّا قيل لسيّدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان[4]، وكان عدد الَّذين مع رسول الله(ﷺ) أكثر من مئة ألفٍ[5].

---

(1) ينظر الشكل (23) في الصفحتين (767).

(2) انظر: زاد المعاد (595/3).

(3) انظر: السّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 680، وزاد المعاد (595/3).

(4) انظر: السّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (575/2).

(5) انظر: السّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص 386.

أولاً: كيف حجَّ النَّبيُّ(ﷺ) ؟:

[البخاري (1557)، ومسلم (1218)]

عـزم رسول الله(ﷺ) على الحجِّ، وأعلم النَّاس: أنَّـه حاجٌّ، فتجهَّزوا - وذلـك في شهر ذي القعدة ســنة عشـــر - للخروج معه، وسمع بذلك مَنْ حول المدينة، فقدموا يريدون الحجَّ مع الرَّسول(ﷺ) ، ووافاه في الطَّريق خلائق لا يحصون، فكانوا مِنْ بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شمـاله مدَّ البصـــر، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظُّهر لخمسٍ بَقِينَ من ذي القعدة يوم السَّبت، بعد أن صلَّى الظُّهر بها أربعاً[1].

وخطبهم قبل ذلك خطبةً علَّمهم فيها الإحرامَ، وواجباتِه، وســننه، ثمَّ ســار وهو يلبِّي، ويقول: «لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لبَّيك لا شـــريك لك لبيك، إنَّ الحمد، والنِّعمة لك، والملك، لا شريك لك» والنَّاس معه يزيدون، وينقصون، وهو يقرُّهم، ولا ينكر عليهم، ولزم تلبيته، ثمَّ مضى حتَّى نزل بـ (العرج) ثمَّ سار حتَّى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سَرِف) ثمَّ نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى)، فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجَّة، وصلَّى بها الصُّبح، ثمَّ اغتسل من يومه، ونهض إلى مكَّة فدخلها نهاراً من أعلاها، ثمَّ ســار، حتَّى دخل المســجد، وذلك ضـحىً[2]، فاسـتلم الرُّكن(ﷺ) ، فرمل ثلاثاً[3]، ومشــى أربعاً، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم[4] عليه السَّلام. فقرأ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ **[البقرة: 125]**.

فجعـل المقـام بينـه وبين البيـت، وكـان يقرأ في الرَّكعتين: ثمَّ رجع إلى الرُّكن ﴿قُـلْ يَا أَيُّهَـا الْكَافِرُونَ﴾ * ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ثمَّ خرج من الباب إلى الصَّفا، فلـــمَّا دنا من الصَّفا؛ قرأ:

(1)]انظر: صحيح السِّيْرة النَّبويَّة ، ص 664 ، والسِّيْرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 386.
(2) انظر: السِّيْرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 387.
(3) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.
(4) نفذ إلى مقام إبراهيم: أي: بلغه ماضياً في زحام.

﴿إِنَّ الصَّـفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَـعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ **[البقرة: 158]**.

وبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصـفا، فرقي عليه، حتَّى إذا رأى البيت؛ اسـتقبل القبلة، فوحَّد الله، وكبَّره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثمَّ دعا بين ذلك، قال مثل هذه ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ نزل إلى المروة، حتَّى إذا انصبَّتْ[1] قدماه في بطن الوادي؛ سعى، حتَّى إذا صَعِدَتَا[2]؛ مشى، أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصَّفا، حتَّى إذا كان اخر طوافه على المروة؛ قال: «لو أنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عُمْرَةً، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ؛ فليحلَّ، وليجعلها عُمْرَةً».

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ، فقال: يا رسول الله! أَلِعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشبَّك رسول الله(ﷺ) أصـــابعه واحدةً في الأخرى، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ» مرَّتين، «لا بل لأبدٍ أَبَدٍ»[3].

وأقام بمكَّة أربعة أيام: يوم الأحد، والإثنين، والثَّلاثاء، والأربعاء، فلـــمَّا كان يوم الخميس ضُـحىً؛ توجَّه بمن معه من المسـلمين إلى منىً، ونزل بها، وصـلَّى بها الظُّهر، والعصـر، والمغرب، والعشـاء، والفجر، ومكث قليلاً حتَّى طلعت الشَّمس، وأمر بِقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضْرَبُ له بِنَمِرَةَ[4]، فسـار رسـول الله(ﷺ) ولا تَشُـكُّ قريشٌ إلا أنَّه واقفٌ عند المشـعر الحرام[5]، كما كانت قريش تصـنع في الجاهليَّة، فأجاز[6] رسـول الله(ﷺ) حتَّى أتى عرفة، فوجد القُبَّةَ قد ضُـرِبت له بنَمِرَة

(1) انصبت قدماه: انحدرت.

(2) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.

(3) صحيح السيرة النبوية ، ص 659.

(4) نمرة: موضع بجنب عرفات ، وليست من عرفات.

(5) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ، ولكن رسول الله (ص) وقف في عرفات.

(6) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنَّما توجه إلى عرفات.

فنزل بها، حتى إذا زاغت الشَّــمسُ؛ أمَرَ بالقصــواء، فرُحِلَتْ له، فأتى بطن الوادي[1]، فخطب النَّاس، وقال: «إنَّ دماءكم، وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شــــهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ، وإنَّ أوَّل دَمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ، كان مُسْتَــرْضَعاً في بني سعدٍ، فقتلتْه هذيلٌ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ، وأوَّل رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطَّلب، فإنَّه موضوع كلُّه.

فاتَّقوا الله في النِّســاء، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واســتحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشَكم أحداً تكرهونه[2]، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ[3]، ولهنَّ عليكم رزقُهن، وكسوتُهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُونَ عنِّي، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشـهد أنَّك بلغت، وأدَّيت، ونصـحت، فقال بإصبعه السَّبَّابة، يرفعها إلى السَّماء، وينكتها[4] إلى النَّاس: «اللَّهمَّ اشهد! اللَّهُمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات[5].

ثمَّ أذَّن، ثم أقام، فصـلَّى الظُّهر، ثمَّ أقام، فصـلَّى العصـر، ولم يصـلِّ بينهما شـيئاً، ثمَّ ركب رسـولُ الله(ﷺ) ، حتَّى أتى الموقف، فجعل بطنَ ناقتهِ القصـواءِ إلى الصَّـخَرَاتِ[6] وجعل حبل المشـاة بين يديه[7]، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتَّى غربت الشـمس، وذهبت الصُّـفْرَةُ قليلاً حتى غاب القُرْصُ[8].

وذكر أبو الحسن النَّدويُّ: لـــمَّا فرغ رسول الله(ﷺ) من صلاته، والتَّضرُّع، والابتهال إلى

---

(1) بطن الوادي: وادي عُرَنَة ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء ، إلا مالكاً قال: من عرفات.

(2) أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ ، أو بعيدٍ ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها.

(3) الضَّرب المبرح: الشَّديد الشاق.

(4) ينكتها: يقلبها ، ويرددها إلى النَّاس مشيراً إليهم.

(5) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 661.

(6) الصَّخرات: صخرات في أسفل جبل الرَّحمة ، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.

(7) حبل المشاة: مجتمعهم ، وقيل: جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرَّجالة.

(8) حتَّى غاب قرص الشَّمس: حتَّى غابت الشَّمس ، وذهبت الصفرة.

غروب الشَّمس، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، يقول فيه: «اللَّهُمَّ! إنَّك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سرِّي، وعلانيتي، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوَجِل المِشفِق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير، مَنْ خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، وذلَّ جسده، وَرَغِم أنفهُ لك، اللَّهُمَّ! لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيّاً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين»[1]

وهناك أنزلت عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3]، فلمَّا غربت الشَّمس؛ أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، ودفع رسول الله(ﷺ) وقد شَنَقَ للقصواءِ الزِّمَامَ، حتَّى إنَّ رأسها ليُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، وهو يقول: «أيُّها النَّاس! عليكم السَّكينة[2]».

وكان يلبِّي في مسيره ذلك، لا يقطع التَّلبية حتَّى أتى المزدلفة، وأمر المؤذِّن بالأذان فأذَّن، ثمَّ أقام، فصلَّى المغرب قبل حطِّ الرِّحال، وتبريك الجمال، فلمَّا حطُّوا رحالهم؛ أمر، فأقيمت الصَّلاة، ثمَّ صلَّى العشاء، ثمَّ نام، حتَّى أصبح، فلمَّا طلع الفجر صلاَّها في أول الوقت، ثمَّ ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدُّعاء والتَّضرُّع، والتَّكبير، والتَّهليل، والذكر، حتى أَسْفَرَ جِدّاً[3]، وذلك قبل طلوع الشَّمس.

ثمَّ سار من مزدلفة، مردِفاً للفضل بن عباس، وهو يلبِّي في مسيره، وأمر ابن عبَّاسٍ أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصياتٍ، فلمَّا أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ[4]؛ حرَّك ناقته، وأسرع السَّير[5]، فإنَّ هنالك أصاب أصحابَ الفيل العذابُ، حتَّى أتى منىً، فأتى جمرة العقبة، فرماها راكباً بعد

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص 389.

(2) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص 662.

(3) الضمير في (أسفر) يعود على الفجر المذكور، وقوله: (جدّاً) بكسر الجيم؛ أي: إسفاراً بليغاً.

(4) سُمِّيَ بذلك لأن قيل: أصحاب الفيل حُسِرَ فيه.

(5) انظر صحيح السِّيرة النَّبويّة، ص 662، والسِّيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص 389.

طلوع الشَّمس، وقطع التلبية[1].

ثمَّ رجع إلى مِنىً، فخطب الناس خطبةً بليغةً، أعلمهم فيها بحرمة يوم النَّحر، وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكَّة على جميع البلاد، وأمر بالسَّمع، والطَّاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر النَّاس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتَّبليغ عنه[2].

وقد جاء في هذه الخطبة: «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أعلم، فَسكَتَ؛ حتَّى ظننَّا أن سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسولُه أعلم، فَسَكَتَ؛ حتَّى ظننَّا: أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإنَّ دماءكم، وأموالكم – وفي رواية: وأعراضكم – عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»[3].

ثمَّ انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره، ثمَّ أمسك وأمر عليّاً أن ينحر ما بقي من المئة، فلمَّا أكمل(ﷺ) نحره استدعى الحلاق، فحلق رأسه، وقسم شعره بين مَنْ يليه، ثمَّ أفاض إلى مكَّة راكباً، وطاف طواف الإفاضة[4]، فصلَّى بمكَّة الظهر، فأتى بني عبدِ المطلب يَسْقُون على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم النَّاس على سِقَايتكم؛ لنزِعتُ معكم»، فناولوه دلواً، فشرب منه[5].

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص 389.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 390.

(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (550/2)، والسِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (578/2).

(4) انظر: السِّيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص 390.

(5) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 663.

ثمَّ رجع إلى منىً من يومه ذلك، فبات بها، فلـمَّا أصبح؛ انتظر زوال الشَّمس، فلـمَّا زالت مشـى من رحله إلى الجمار، فبدأ بالجمرة الأولى، ثمَّ الوسـطى، ثمَّ الجمرة الثَّالثة – وهي جمرة العقبة – وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النَّحر، وخطبة ثانية في ثاني يوم النَّحر[1]، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النَّحر بمنى.

والواقع أن تكرار الخطب في حَجَّة الوداع كان أمراً لابدَّ منه لحاجة المسـلمين، فهي الحجَّة الوحيدة الَّتي حجَّها الرَّسول(ﷺ) ، وقد عزَّ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النَّافذة في الجزيرة كلِّها، كما كانت الوداع الأخير، فما أشدَّ حاجةَ المسلمين في هذا المشـهد العظيم إلى التَّذكير، والنُّصح، والتَّوصية، وإلى تكرار القول، والتَّأكيد عليه حتَّى يعوه، ويحفظوه، ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرِّسالة، وأداء الأمانة![2].

هذا، وقد تأخَّر رسول الله(ﷺ) حتَّى أكمل رمي أيام التَّشريق الثَّلاثة، ثمَّ نهض إلى مكَّة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر النَّاس بالرَّحيل، وتوجَّه إلى المدينة[3]. وفي طريق العودة من حجَّة الوداع خطب الرَّسول(ﷺ) النَّاس في غدير خُمٍّ قريباً من الجحفة في اليوم الثَّامن عشر من ذي الحجَّة، وقد جاء في هذه الخطبة: «أمَّا بعد: ألا أيُّها النَّاس! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ، أوَّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنُّور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحثَّ على كتاب الله، ورغَّب فيه، ثمَّ قال: «وأهلُ بيتي، أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي، أذكِّرُكُم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي» **[أحمد (14/3 و17)، ومسلم (36/2408 و37)]**.

وفي روايةٍ: ... أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه وقال: «من كنتُ وليُّه، فهذا وليُّه، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه». **[أحمد (118/1)]**[4]، وفي روايةٍ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، ص 390.
(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (579/2) ، والمستفاد من قصص القرآن (515/2).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 390.
(4) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 688.

[أحمد (368/4)، والترمذي (3713)][1].

وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن، وشـهد حجَّة الوداع[2]، وقد اشـتكى بعض الجند عليّاً، وأنَّه اشتدَّ في معاملتهم، وكان قد استرجع منهم حللاً وزَّعها عليهم نائبه، فأوضـح لهم النَّبيُّ(ﷺ) في غدير خُمٍّ مكانةَ عليٍّ، ونبَّه على فضـــله لينتهوا عن الشَّـــكوى[3]، فقد كان الحقُّ مع عليٍّ في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته؛ لأنَّها أموال صدقاتٍ، وخمس[4].

ولما أتى رسولُ الله(ﷺ) ذا الحليفة، بات بها، فلمَّا رأى المدينة؛ كبَّر ثلاث مرَّاتٍ، وقال:

«لا إله إلا الله وحدَه، لا شـــريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شـــيء قديرٌ، ايبون، تائبون، عابدون، ســـاجدون، لربِّنا حامدون، صـــدق الله وعده، ونصـــر عبده، وهزم الأحزاب وحدَه»، ثمَّ دخلها نهاراً. [البخاري (1797)، ومسلم (1344)][5].

ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد:

1 ـ مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة:

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً، فوسَّع(ﷺ) في العام التَّاسع، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر، من خلال اســتقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحجِّ، فأوجد قاعدةً عريضــةً تحمل دعوته، وقد تلقَّت عنه مباشــرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإســلام دائرةً، وإلى الأبد[6]، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله(ﷺ) .

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (550/2).
(2) انظر: البداية والنِّهاية (209/5).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (551/2).
(4) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (581/2).
(5) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويّ ، ص 391 نقلاً عن زاد المعاد (249/1).
(6) انظر: الأساس في السُّنة (1054/2).

2 – تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة، والابتعاد عن الذُّنوب:

أ – فقد أشـار(ﷺ) إلى أهمِّيَّة قطع المسـلم علاقته بالجاهليَّة: أوثانها، وثاراتها، ورِباها، وغير ذلك، ولم يكن حديثُه(ﷺ) مجرَّد توصـــيةٍ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده، وهذه هي صـيغة القرار: «ألا إنَّ كلَّ شـيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضــوعٌ، دماءُ الجاهليَّة موضــوعةٌ... وربا الجاهليَّة موضــوعٌ[1]» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المسلم بعد إسلامه حياةٌ لا صلة لها بِرِجْسِ الماضي، وأدرانه[2].

ب – وقـد حـذَّر(ﷺ) من الـذُّنوب، والخطـايا، والاثام، مـا ظهر منهـا، ومـا بطن؛ لأنَّ الذُّنوب، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه، فهي ســبب مصــائبه في الدُّنيا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ **[الشورى: 30]** فـتُـرْدِيه في نار جهنَّم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف.

وأعلن رسـولُ الله(ﷺ) : أنَّه لا يقصـد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّـرك الظاهر، ولكنَّ الشَّـيطان لا ييئس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا، والذُّنوب، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[3].

3 – تربية المجتمع على مبادئ أساسيَّة:

أ – الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسـلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ **[الحجرات: 10]**، فقد قال(ﷺ) : «أيُّها النَّاس! اسمعوا قولي، واعقلوه، تَعَلَّمُنَّ: أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسـلم، وأنَّ المسـلمين إخوةٌ؛ فلا يحلُّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه، فلا تَظْلِمُنَّ أنفســـكم». وقال: «إنَّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضـــكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، حتَّى تلقَوا ربَّكم فيســـألَكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُـــلاَّلاً

---

(1) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص331.

(2) قراءةٌ سياسيَّةٌ للسِّيرة النَّبويَّة، لمحمد قلعجي، ص 303.

(3) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة، ص 303.

يضرب بعضُكم رقاب بعض». [سبق تخريجه].

ب - الوقوف بجانب الضَّعيف، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيِّ، فأوصى(ﷺ) في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[1]، فقد شدَّد(ﷺ) في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[2]، وأوصى خيراً بالنِّساء، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة، وتثبيت ضمانات حقوقها، وكرامتها الإنسانيَّة، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[3].

ج - التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشيّاً؛ فإنَّ في ذلك الصَّلاحَ، والفلاحَ، والنَّجاةَ في الدُّنيا، والآخرة[4]، فقد بيَّن(ﷺ) العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله(ﷺ) ، فإذا مال عنهما؛ فلا سمع، ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[5].

د - المساواة بين البشر: فقد قال(ﷺ) : «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى. النَّاس من ادم، وادم من تراب» [رواه أحمد (411/5) عن رجل من أصحاب النبيِّ(ﷺ) ، والبزار (2044) عن أبي سعيد، والطبراني في الكبير (12/18 - 13)، وانظره في مجمع الزوائد (272/3)]؛ حيث حدَّد: أن أساس التَّفاضل لا عبرة فيه لجنسٍ، ولا لون، ولا وطن، ولا قوميَّة، ... إلخ، وإنَّما أساس التَّفاضل قيمةٌ خلقيَّةٌ راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ جدّاً[6].

---

(1) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص 304.
(2) انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص 575.
(3) انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص 332.
(4) انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص 576.
(5) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 333.
(6) انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام ، لعرجون (876/2).

هــــ تحديد مصـدر التَّلقِّي: وقد حدَّد(ﷺ) مصـدر التَّلقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشـاكل المســلمين، الَّتي قد تعترض طريقهم، في الرُّجوع إلى مصــدرين لا ثالث لهما، ضـــمن لهم بعدَ الاعتصـام بهما الأمان من كلِّ شـقاءٍ، وضـلالٍ، وهما: كتاب الله، وسـنَّة رسـوله(ﷺ) ، وإنَّك لتجده يتقدَّم بهذا التعهُّد، والضَّـــمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبيِّن للنَّاس أنَّ صلاحية التَّمسُّك بهذين الدَّليلين ليس وقفاً على عصرٍ دون اخر، وأنَّه لا ينبغي أن يكون لأيِّ تطوُّرٍ حضاريٍّ، أو عُرْف زمنيٍّ أيُّ سلطانٍ، أو تغَلُّبٍ عليهما[1].

لقد وصف(ﷺ) الدَّاء، والدَّواء، ووضع العلاج لكلِّ المشكلات بالالتزام التَّامِّ بما جـاء من أحكامٍ في كتاب الله وسنَّة رسوله(ﷺ) : «تركت فيكم ما إن تمسَّكتُم به؛ لن تضلُّوا بعدي أبداً كتابَ الله، وسـنَّتي». **[مالك في الموطأ (2/899)، ومشـكاة المصـابيح (186)، والسـلسـلة الصـحيحة (1761)].**

هذا هو العلاج الدَّائم، وقد كرَّر(ﷺ) نداءه للبشـــريَّة عامَّةً عبر الأزمنة، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب، والسُّـنَّة في حلِّ جميع المشـكلات الَّتي تواجه البشـريَّة؛ فإنَّ الاعتصـام بهما يجنِّب النَّاس الضَّـلال، ويهديهم إلى الَّتي هي أقوم في الحاضـر، والمسـتقبل، لقد اجتازت تعاليم رســول الله(ﷺ) ، وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزَّمن، وأســوار القرون، وظلَّ يتردَّد صــداها حتَّى يوم النَّاس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سـامعيه، فيقول لهم: (أيُّها المؤمنون! أيُّها المســـلمون! أيُّها الحجَّاج)؛ بل كان يقول لهم: (أيُّها النَّاس!)، وقد كرَّر نداءه إلى النَّاس كافَّةً مرَّاتٍ متعدِّدةً دون أن يخصِّـصــه بجنسٍ، أو بزمانٍ، أو مكانٍ، أو لونٍ، فقد بعثه الله للنَّاس كافَّةً، وأرسله رحمةً للعالمين[2].

4 – الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع:

---

(1) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 333.

(2) انظر: الجانب السِّياسي في حياة الرَّسول (ص) لأحمد محمد باشميل ، ص 131.

أ – التَّعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علَّم رسـولُ الله(ﷺ) صـحابته الكرام مناسـك الحجِّ بصـورةٍ عمليَّةٍ، بأن قام بها، وباشـرها فعلاً، ولم يكتفِ بأن يعلِّمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «خذوا عنِّي مناســككم» [رواه مسـلم (1297)، وأبو داود (1970)، والنسـائي (270/5)][1]، وعلى هذا فيُسـتحسـن من الدُّعاة؛ وهم يعلِّمون الناس معاني الإسلام أن يعلِّموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشَّرعية، أو بعضَها في الأقلِّ بصورةٍ عمليَّةٍ كالوضوء، والصَّلاة، وتعليم قراءة القرآن بصورةٍ سليمةٍ[2].

ب – تكرار الخُطَب:

لاحظنا: أنَّ النَّبي(ﷺ) كرر خطبه، فقد خطب في عرفة، وفي منىً مرَّتين، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا برسـول الله(ﷺ) ، فيكرِّروا خطبهم، ويكرِّروا بعض معانيها الَّتي يرون حاجةً لتكرارها؛ حتَّى يستوعبها السَّامعون، ويحفظوها؛ لأنَّ القصد من خُطب الخطيب إفادة السَّـامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصـل، أو لا تتمُّ إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكرِّرها الدَّاعية، ولا يكون حرصـه على أن يأتي بجديدٍ في خطبه، ما دام يرى الحاجة في ترسـيخ معانٍ معيَّنةٍ في أذهان السَّـامعين. إنَّ الدَّاعية همُّه أن يفيد السَّامعين، وليس همُّه أن يُظهر براعته في الخُطَب، وفي تنوُّع معانيها دون نظرٍ، ولا اعتبارٍ إلى ما يحتاج إليه السَّـامعون، ودون اعتبارٍ لفهمهم هذه المعاني، واسـتيعابهم لها[3].

ج – فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائب:

وفي هـذا توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ لكي تعمَّ الفـائـدة أكبر عـددٍ ممكنٍ من النَّـاس، فهـذا من باب التعاون على الخير؛ ولأنَّ الغائب قد يكون أوعى للعلم، وأكثر فهماً له من الحاضـر الَّذي سمع،

(1) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (549/2).
(2) انظر: المستفاد من قَصص القرآن (518/2).
(3) انظر: المستفاد من قَصص القرآن (517/2 ، 518).

وعلى الدُّعاة، والعلماء عندما يُلْقُون درســـاً أو محاضـــرةً لإخوانهم أو لعامَّة النَّاس أن يقولوا للحاضرين: «فليبلِّغِ الحاضرُ منكم الغائبَ بما سمعه». [البخاري (67)].

د – جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النَّبيِّ(ﷺ) الحاضرين عن اسم اليوم الَّذي هم فيه، وكذا عن الشَّهر، والبلد – وهم يعرفونها – ما يجلب انتباههم إلى ما قد عســـى أن يريده بطرح هذه الأســـئلة، فيصغون إليه إصغاءً تامًّا، قال القرطبيُّ: سؤال النَّبيِّ(ﷺ) عن الثلاثة: أي: عن اليوم، والشَّهر، والبلد، وســكوته بعد كلِّ ســؤالٍ منها؛ كان لاســتحضـــار فهومهم، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه... فعلى العلماء، والدُّعاة أن يقدِّموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السَّامعين، ويشدُّهم إلى كلامهم[1].

5 – بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من حجَّة الوداع:

جاءت حجَّة الوداع حافلةً بالأحكام الشَّـرعية، وخاصَّــةً ما يتعلَّق بالحجِّ، وبالوصـــايا، والأحكام الَّتي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتمَّ العلماء بحجَّة الوداع اهتماماً كبيراً، واســتنبطوا منها الكثير من أحكام المناســك، وغيرها ممَّا تحفِل به كتبُ الفقه، وكتبُ شــروح الحديث، وخصَّص بعضُهم مؤلفاتٍ مستقلَّةً في حجَّة الوداع[2].

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصارٍ شديدٍ، فمن هذه الأحكام:

أ – إفطار الحاجِّ يوم عرفة:

قالت ميمونة بنت الحارث رضـــي الله عنها زوج النَّبيِّ(ﷺ) : إنَّ النَّاس شــكُّوا في صــيام رسول الله(ﷺ) يوم عرفة، فأرسلْتُ إليه بحلابٍ[3]، وهو واقفٌ في الموقف، فشرب منه، والنَّاس ينظرون إليه. [البخاري (1989)، ومسلم (110/1123)].

---

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدعاة (518/2).

(2) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (549/2) ، وما ألفه الألباني «حجَّة النَّبي (ص) ».

(3) الإناء الذي يحلب فيه.

ب – كيف يفعل بمن تُوفي مُحْرِماً؟

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بينما رجلٌ واقفٌ مع رسول الله(ﷺ) بعرفة؛ إذْ وقع عن راحلته، فَوَقَصَتْهُ، أو فأَوْقَصَتْهُ[1]، فذُكر ذلك للنَّبيّ(ﷺ) فقال: «اغسلوه بماءٍ وسدْرٍ، وكفِّنوه في ثوبين، ولا تحنِّطوه[2]، ولا تخمِّروا[3] رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبِّياً»[4]. [أحمد (215/1)، ومسلم (1206)، والنسائي (195/5)، وابن ماجه (3084)].

ج – هل يجوز الحجُّ عن الغير؟

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كان الفضل بنُ العبَّاس رديفَ رسول الله(ﷺ) ، فجاءت امرأةٌ من خثعم، فجعل الفضلُ ينظر إليها، وتنظر إليه، وجعل النَّبيُّ(ﷺ) يصرف وجه الفضل إلى الشِّقِّ الآخر، فقالت: يا رسول الله! إنَّ فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يَثْبُتُ على الرَّاحلة، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حَجَّة الوداع. [البخاري (1513)، ومسلم (1334)].

د – منهج التَّيسير (لا حرج! لا حرج!):

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: وقف رسول الله(ﷺ) على راحلته، فطفق ناس يسألونه، فيقول القائل: يا رسول الله! إنِّي لم أكن أشعر: أنَّ الرمي قبل النَّحر، فنحرت قبل الرَّمي؟ فقال رسول الله(ﷺ) : «ارم، ولا حرج!» قال: وطفق اخر يقول: إنِّي لم أشعر أنَّ النَّحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر، فيقول: «انحر، ولا حرج!» قال: فما سمعته يُسأل يومئذٍ عن أمرٍ ممَّا ينسى المرء ويجهل، من تقديم بعض الأمور قبل بعض، وأشباهها، إلا قال رسول الله(ﷺ) : «افعل، ولا حرج!». [البخاري (83)، ومسلم (1306)].

---

(1) فوقصته: قتلته في الحال.

(2) لا تحنِّطوه: لا تضعوا عليه من الطِّيب شيئاً.

(3) لا تخمِّروا رأسه: لا تغطوا رأسه.

(4) ملبِّياً: يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها.

هذه بعض الأحكام المختصـــرة، ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألبانيُّ عن حجَّة الوداع فقد لخص الحَجَّةَ في اثنتين وسبعين مسألة[1]، وكتاب «الوصيَّة النَّبويَّة للأمَّة الإسلاميَّة» للدكتور فاروق حمادة، فقد جمع من المصادر الأدبيَّة، والحديثيَّة، وكتب أهل السِّير ثمانية وثلاثين بنداً، ثمَّ قام بتحليلها، وتخريجها، وتوثيق نصـوصـها بميزان الجرح والتَّعديل؛ الَّذي اعتمده أئمَّة المسـلمين منذ الصَّدر الأول؛ لأنَّ الأمر دينٌ وشرعٌ كما قال، وقد أجاد، وأفاد[2].

6 – فوائد في تسمية أيام الحجِّ:

كان يقال لليوم السَّـابع من ذي الحجة يومُ الزِّينة؛ لأنَّه تُزيَّن فيه البُدن الَّتي تُهدى بالجلال، وغيرها، واليوم الثَّامن يقال له: يوم التَّروية؛ لأنَّهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء، ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف، وما بعده؛ لأنَّ هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذٍ ابارٌ، ولا عيونٌ، أمَّا الان ففيها الماء الكثير والحمد لله! واليوم التَّاسع: يوم عرفة؛ للوقوف فيه بها، واليوم العاشـر: يوم النَّحر، ويوم الأضحى، ويوم الحجِّ الأكبر. واليوم الحادي عشـر: يوم القرِّ؛ لأنَّهم يقرُّون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنَّهم يأكلون فيه رؤوس الأضـاحي، وهو أوَّل أيام التَّشـريق، وثاني أيَّام التَّشـــريق يقال له: يوم النَّفر الأوَّل؛ لجواز الخروج فيه إلى مكَّة لمن يريد التَّعجيل، وثالث أيام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الثَّاني[3].

قال عـــزَّ شأنــه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ **[البقرة: 203]**.

* * *

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 683.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 681.
(3) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (579/2).

المبحث الثَّامن

مرض رسول الله(ﷺ) ووفاتُه

إنَّ الأرواح الشَّـفافة الصَّـافية القويَّة لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حُجُب الغيب بقدرة الله تعالى، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان، والعقول الذَّكيَّة المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات، وتلميحات، ولنبيِّنا محمَّد(ﷺ) من هذه الصِّفات الحظ الأوفر، وهو منها بالمحلِّ الأرفع؛ الذي لا يُسامَى، ولا يُطاوَل(1).

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنيَّة مؤكِّدةً على حقيقة بشرية النَّبيِّ(ﷺ) ، وأنَّه كغيره من البشر سوف يذوق الموت، ويعاني سكراته، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء، ولقد فهم(ﷺ) من بعض الآيات اقترابَ أجله، وقد أشار(ﷺ) في طائفة من الأحاديث الصَّحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صريح الدَّلالة على الوفاة، ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الاحاد من كبار الصَّحابة الأجلاَّء؛ كأبي بكرٍ، والعباس، ومعاذٍ رضي الله عنهم(2).

أولاً: الآيات والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته(ﷺ) :

1 – الآيات:

أ – قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (587/2).

(2) انظر: مرض النَّبيّ (ص) ووفاته ، لخالد أبو صالح ، ص 33.

قال القرطبيُّ: فأعْلَمَ اللهُ تعالى في هذه الآية: أنَّ الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً، وأنه يجب التَّمسُّك بما أتت به الرُّسل؛ وإن فُقِدَ الرَّسولُ بموتٍ، أو قَتْلٍ[1].

ب – قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

قال ابن كثير: هذه الآية من الآيات الَّتي استشهد بها الصِّدِّيق رضي الله عنه عند موت الرَّسول(ﷺ) حتَّى تحقَّق النَّاس موته[2].

ج – قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: 34]، ثمَّ أعقب ذلك ببيان: أنَّ الموت حتمٌ لازمٌ، وقدرٌ سابق، فقال الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]، فهذه الآيات صريحةٌ، ونصَّت على وفاته(ﷺ).

وهناك بعض الآيات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرِّح؛ منها:

— قال تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 4- 5].

– قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27].

– قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

فهذه الآيات تبيِّن: أنَّ جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنَّة الله في موت خلقه، لن يتخلَّف منهم أحدٌ أبداً.

– قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3].

---

(1) انظر: تفسير القرطبيِّ (222/4).
(2) انظر: تفسير ابن كثير (53/4).

وقد بكى عمر بن الخطَّاب حين نزلت الآية، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان!! وكأنه استشعر وفاة النَّبيّ(ﷺ) [1] .

– قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 1 – 3].

فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فقال: أَجَلُ رسول الله(ﷺ) أعَلَمَهُ إيّاه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم [البخاري (4430)].

في رواية الطَّبراني: قال ابن عبَّاس: نُعِيَتْ إلى رسول الله(ﷺ) نفسُه حين نزلت، فأخذ بأشدِّ ما كان قطُّ اجتهاداً في أمر الآخرة. [الطبراني في الكبير (2676)، ومجمع الزوائد (9/26 – 27)، وابن الجوزي في الموضوعات (1/295 – 301)].

3 – أمَّا الأحاديث الَّتي أشارت إلى ذلك:

أ – قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا كنَّا أزواجَ النَّبيّ(ﷺ) عنده جميعاً لم تُغادِر منَّا واحدةٌ، فأقبلت فاطمة عليها السَّلام، ولا والله ما تخفَى مشيتُها من مشية رسول الله(ﷺ) ، فلـمَّا راها؛ رحَّبَ؛ قال: «مرحباً بابنتي». فأقعدها يمينه – أو شماله – ثمَّ سارَّها فبكت، ثمَّ سارَّها، فضحكت، فقلت لها: خصَّك رسول الله بالسِّرار، وأنت تبكين؟! فلـمَّا أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارَّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله(ﷺ) ، فلـمَّا توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحقِّ لما أخبرتيني، قالت: أمَّا الان؛ فنعم، قالت: سارَّني في الأوَّل، قال لي: «إنَّ جبريل كان يعارضني في القرآن كلَّ سنةٍ مرَّةً، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله، واصبري، فنعم السَّلف أنا لك!» فبكيت، ثمَّ سارَّني، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء المؤمنين، أو سيِّدة نساء هذه الأمَّة؟» فضحكتُ. [البخاري (6285 و6286)، ومسلم (2450/ 98 – 99)].

---

(1) انظر: البداية والنِّهاية (5/189).

وفي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى اقتراب أجل رسول الله(ﷺ) ، وأنَّ ساعة الفراق قد باتت قريبةً إلا أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) قد اختصَّ ابنته فاطمة رضـــي الله عنها بعلم ذلك، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله(ﷺ) [1] .

ب – قال جابر رضــــي الله عنه: رأيت النَّبيَّ(ﷺ) يرمي على راحلته يوم النَّحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حجَّتي هذه!». **[سبق تخريجه]**.

قال النَّوويُّ: فيه إشـــارةٌ إلى توديعهم، وإعلامهم بقرب وفاته(ﷺ) ، وحثِّهم على الاعتناء بالأخذ عنه، وانتهاز الفرصة من ملازمته، وتعلُّم أمور الدِّين، وبهذا سمِّيت حجَّة الوداع[2].

وقال ابن رجب: وما زال(ﷺ) يُعرِّض باقتراب أجله في اخر عمره، فإنَّه لما خطب في حجَّة الوداع قال للنَّاس: «خذوا عنِّي مناسككم، فلعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا! فطفق يودِّع النَّاس، فقالوا: هذه حجَّة الوداع[3].

ج – قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: خطب رسول الله(ﷺ) للنَّاس، وقال: «إنَّ الله خيَّر عبداً بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله». قال: فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه، فعجبنا لبكائه أن يخبر رســـول الله(ﷺ) عن عبدٍ خُيِّر ! فكان رســـول الله(ﷺ) هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ أعلمَنا. **[البخاري (466)، ومسلم (2382)]**.

قال الحافظ ابن حجر: وكأنَّ أبا بكر رضي الله عنه فهم الرَّمز الَّذي أشار به النَّبيُّ(ﷺ) من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه: أنَّه أراد نفسه، فلذلك بكى[4].

د – قال العبَّاس بن عبد المطلب رضــــي الله عنه: رأيت في المنام كأنَّ الأرض تنزع إلى

---

(1) انظر: مرض النَّبيّ (ص) ، ووفاته ، ص 35.
(2) انظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (45/9).
(3) انظر: لطائف المعارف ، ص 105.
(4) فتح الباري (16/7).

السَّماء[1] بأشطانٍ[2] شدادٍ، فقصصت ذلك على النَّبيِّ(ﷺ) فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك» **[البزار (844)، ومجمع الزوائد (9/23 – 24)]**.

وفي هذا الحديث إخبار النَّبي(ﷺ) بقرب وفاته، وفيه صدق رؤيا المؤمن، واستشعار بعض الصَّحابة وفاته(ﷺ) [3].

هـ- وعن معاذٍ: أنَّ النَّبي(ﷺ) لـمَّا بعثه إلى اليمن؛ خرج راكباً؛ والنَّبيُّ(ﷺ) يمشي تحت راحلته، فقال: «يا معاذ! إنَّك عَسَى ألا تلقاني بعد عامي هذا، فتمرَّ بقبري، ومسجدي» فبكى معاذٌ لفراقه(ﷺ) ، فقال: «لا تبك يا معاذ! فإنَّ البكاء من الشَّيطان» **[أحمد (5/235)، والطبراني في الكبير (20/121)، وابن حبان (647)، ومجمع الزوائد (9/22)]**. وفي الحديث إخبار النَّبيِّ(ﷺ) معاذ بن جبل باقتراب أجله، وأنَّه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، وفيه شدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ(ﷺ) وبكائهم؛ إذا ذكروا فراقه[4].

ثانياً: مرض الرَّسول(ﷺ)

بدء الشَّكوى:

رجع رسول الله(ﷺ) من حجَّة الوداع في ذي الحجَّة، فأقام بالمدينة بقيَّته، والمحرَّم، وصفراً، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء، وفلسطين، فتجهَّز النَّاس، وفيهم المهاجرون، والأنصار، وكان منهم أبو بكر، وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلَّم البعض في تأميره [5]، وهو مولىً، وصغيرُ السِّنِّ على كبار المهاجرين، والأنصار، فلم يقبل الرَّسول(ﷺ) طعنهم في إمارة أسامة[6]،

---

(1) تنزع إلى السَّماء: أي: تجذب ، وأصل النزع: الجذب ، والقلع.
(2)]بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن ، وهو الحبل.
(3) انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، ص 37.
(4) المصدر السابق نفسه ، ص 38.
(5) ينظر الشكل (24) في الصفحة (768).
(6) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (2/552).

فقال(صــلى الله عليه وســلم) : «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه، وايمُ الله! إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ، وإنَّ ابنه هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بعده». [البخاري (3730)، ومسلم (2426)].

وبينما النَّاس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة؛ ابتدئ رسول الله(ﷺ) بوجعه الَّذي قبضه الله فيه، وقد حدثت حوادثُ ما بين مرضه، ووفاته؛ منها:

أ – النَّبيُّ(ﷺ) في البقيع وزيارته قتلى أحدٍ، وصلاتُه عليهم:

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله(ﷺ) ؛ قال: بعثني رسول الله(ﷺ) في جَوف اللَّيل، فقال: «يا أبا مُوَيْهبَةَ! إنِّي قد أُمِرْت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي». فانطلقت معه، فلـــمَّا وقف بين أظهرهم؛ قال: «السَّـلام عليكم يا أهل المقابر! ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح النَّاس فيه، أقبلت الفتن كقطع اللَّيل المظلم، يتبع اخرُها أوَّلها، والآخرة شـــرٌّ من الأولى»[1]. ثمَّ أقبل عليَّ، فقال: «يا أبا مُوَيْهِبَةَ! إنِّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدُّنيا، والخلد فيها، ثمَّ الجنَّة، فخيِّرت بين ذلك، وبين لقاء ربِّي، والجنَّة». قال: فقلت: بأبي أنت وأمِّي! خذ مفاتيح خزائن الدُّنيا، والخُلد فيها، ثمَّ الجنَّة، قال: «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنَّة». ثمَّ اســتغفر لأهل البقيع، ثمَّ انصــرف، فبدأ برســول الله(ﷺ) وجعه؛ الَّذي قبضــه الله فيه. [أحمد (489/3)، والطبراني في الكبير (346/22 – 347)، والدارمي (79)، والحاكم (56/3)، والهيثمي في مجمع الزوائد (24/9)].

ومن حديث عقبة بن عامر الجهنيِّ رضــي الله عنه، قال: إنَّ رســول الله(ﷺ) صــلَّى على قتلى أحدٍ بعد ثماني ســـنين كالمودِّع للأحياء، والأموات، ثمَّ طلع المنبر، فقال: «إني بين أيديكم فَرَطٌ، وأنا عليكم شـــهيدٌ، وإنَّ موعدكم الحوض، وإنِّي لأنظر إليه؛ وأنا في مقامي هذا، وإنِّي لســت أخشــى عليكم أن تشـركوا، ولكن أخشــى عليكم الدُّنيا أن تنافســوها». فقال عقبة: فكانت اخر نظرةٍ نظرتها إلى رسول الله(ﷺ) . [البخاري (1344)، ومسلم (2296)].

---

(1) أي: الفتن الاخرة.

ب – استئذانه (صلى الله عليه وسلم) أن يُمرَّض في بيت عائشة، وشدَّة المرض الَّذي نزل به:

قالت عائشة رضي الله عنها: لـمَّا ثَـقُلَ رسول الله(ﷺ) واشتدَّ به وجعُه؛ استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي، فأذنَّ له، فخرج وهو بين رجلين، تخطُّ رجلاه في الأرض، بين عبَّاسٍ ورجلٍ اخر[1]، ولـــمَّا دخل بيتي؛ اشتدَّ وجعه. قال: «أهريقوا عليَّ من سبع قربٍ لم تُحْلَلْ أوكيتُهنَّ[2]، لعلِّي أعهد إلى النَّاس» فأجلسناه في مِخْضَبٍ[3] لحفصة، ثمَّ طفقنا نصبُّ عليه من تلك القرب، حتَّى طفق يشـــير إلينا بيده أن قد فعلتُنَّ، ثمَّ خرج إلى النَّاس فصـــلَّى بهم، وخطبهم [البخاري (1198)]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوَجَعُ من رسول الله(ﷺ) . [البخاري (5646)، ومسلم (2571)].

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: دخلت على رسول الله(ﷺ) وهو يُوعَكُ فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله! إنك لَـــتُوعَكُ وعْكاً شديداً، فقال رسول الله(ﷺ) : «أَجَلْ؛ إنِّي أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم». قال: فقلت: ذلك أنَّ لك أجرين، فقال رســول الله(ﷺ) : «أجلْ!»، ثمَّ قال رسول الله(ﷺ): «ما من مسلم يصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلا حَطَّ الله به سيئاتِه، كما تَحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها». [البخاري (5647)، ومسلم (2570)].

ثالثاً: من وصايا رسول الله(ﷺ) في أيَّامه الأخيرة:

1 – وصيته(ﷺ) بالأنصار:

مرَّ العبَّاس رضي الله عنه بقومٍ من الأنصار يبكون حين اشتدَّ برسول الله(ﷺ) وجعُه، فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله(ﷺ) ، فدخل العبَّاس عليه(ﷺ) ، فأخبره،

---

(1) قال ابن عبَّاس: الرجل الاخر هو عليُّ بن أبي طالب.

(2) جمع الوكاء ، وهو ما يشدُّ به رأس القربة.

(3) مخضب: بكسر الميم ، وهي الإجَّانة الَّتي تغسل فيها الثياب.

فعُصِّب بعصابةٍ دسماء[1]، أو قال: بحاشية بُرد، وخرج، وصعِد المنبر – ولم يصعد بعد ذلك اليوم –، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أوصيكم بالأنصار فإنَّهم كَرشي[2]، وعَيْبَتي[3]، وقد قَضوا الَّذي عليهم، وبقي الَّذي لهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». [البخاري (3799)، ومسلم (2510)].

وفي الحديث شدَّة محبَّة الأنصار لرسول الله(ﷺ) ، وبكاؤهم لمرضه، وحرمانهم من مجلسه[4].

2 – إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

لقد ازدادت شدَّة المرض على رسول الله(ﷺ) ، بحيث كان يُغْمَى عليه في اليوم الواحد مرَّاتٍ عديدةً، ومع ذلك كلِّه أحَبَّ(ﷺ) أن يفارق الدُّنيا وهو مطمئنٌّ على أمَّته أن تضلَّ من بعده، فأراد أن يكتب لهم كتاباً مفصَّلاً؛ ليجتمعوا عليه، ولا يتنازعوا، فلمَّا اختلفوا عنده(ﷺ) عدل عن كتابة ذلك الكتاب، وأوصاهم بأمورٍ ثلاثةٍ، ذكر الرَّاوي منها اثنين:

. أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

. وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به. [البخاري (3053)، ومسلم (1637)].

3 – النَّهي عن اتِّخاذ قبره مسجداً:

كان من اخر ما تكلَّم به رسول الله(ﷺ) قوله: «قاتل الله اليهود والنَّصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [البخاري (437)، ومسلم (530)][5].

4 – إحسان الظَّنِّ بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله(ﷺ) يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتنَّ أحدكم

---

(1) بعصابة دسماء: أي: سوداء.
(2) كرشي ، وعيبتي: أراد أنَّهم بطانته ، وموضع سرِّه ، وأمانته ، والَّذين يعتمد عليهم في أموره ، واستعار الكرش ، والعيبة لذلك.
(3) العيبة: ما يحرز فيه الرَّجل نفيس ما عنده.
(4) انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، ص 65.
(5) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 712.

إلا وهو يحسن الظَّنَّ بالله، عزَّ وجلَّ». [أحمد (293/3)، ومسلم (81/2877)، وأبو داود (3113)، وابن ماجه (4167)].

5 – الوصية بالصَّلاة، وما ملكت أيمانكم:

قال أنس رضي الله عنه: كانت وصيَّة رسول الله(ﷺ) حين حضره الموت: «الصَّلاة وما ملكت أيمانُكم!» حتَّى جعل يغرغر بها في صدره، ولا يفيض بها لسانُه. [أحمد (117/3)، وابن ماجه (2697)، وابن حبان (66/5)].

6 – لم يبقَ مِنْ مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا:

قال عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَشَفَ رسول الله(ﷺ) السِّتْرَ، وهو مَعْصُوبٌ في مرضه؛ الَّذي مات فيه، فقال: «اللَّهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟ – ثلاث مرَّات – إنَّه لم يبقَ من مُبَشِّرات النُّبوة إلا الرُّؤيا، يراها العبد الصَّالح، أو ترى له. ألا وإنِّي قد نهيت عن القراءة في الرُّكوع، والسُّجود، فإذا ركعتم؛ فعظِّموا الله، وإذا سجدتم؛ فاجتهدوا في الدُّعاء، فإنَّه قَمِنٌ[1] أن يستجاب لكم». [أحمد (219/1)، ومسلم (479)، وأبو داود (876)، والنسائي (189/2)، وابن ماجه (3899)].

رابعاً: أبو بكر يصلِّي بالمسلمين:

ولـمَّا اشتدَّ المرض بالنَّبيِّ(ﷺ) ، وحضرت الصَّلاة، فأذَّن بلالٌ، قال النَّبيُّ(ﷺ) : «مُروا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ» فقيل: إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ[2]، إذا قام مقامك؛ لم يستطع أن يُصلِّي بالنَّاس. وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثَّالثة، فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسف[3]، مُروا أبا بكر فليصلِّ بالنَّاس!» فخرج أبو بكرٍ، فوجد النَّبيَّ(ﷺ) في نفسه خفَّةً، فخرج يهادى بين رجلين، كأنِّي أنظر إلى رجليه تَخُطَّانِ من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر فأومأ إليه النَّبيُّ(ﷺ) : أنْ مكانك،

(1) قمنٌ: أي: جديرٌ ، وحقيقٌ.
(2) أسيف: من الأسف ، وهو شدَّة الحزن ، والمراد: أنَّه رقيق القلب.
(3) والمراد أنَّهنَّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.

ثمَّ أُتي به حتَّى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النَّبيُّ(ﷺ) يُصـــلِّي، وأبو بكر يصـــلِّي بصلاته، والنَّاس يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ ؟ فقال برأسه: نعم. [البخاري (664)، ومسلم (95/418)].

خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى(ﷺ) :

1 – كان أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين؛ حتَّى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر، كشف النَّبيُّ(ﷺ) سِتْرَ الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته، وجهاده، وكيف نشأت أمَّةٌ تحافظ على الصَّلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبته، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النَّجاح الَّذي لم يُقَدَّر لنبيٍّ، أو داعٍ قبله، واطمأنَّ أنَّ صـــلة هذه الأمَّة بهذا الدِّين، وعبادة الله تعالى صـــلةٌ دائمةٌ، لا تقطعها وفاة نبيِّها، فملئ من السُّرور ما الله به عليم، واستنار وجهه؛ وهو منيرٌ[1].

يقول الصَّحابة رضي الله عنهم: كشف النَّبيُّ(ﷺ) سِتْرَ حجرة عائشة ينظر إلينا؛ وهو قائمٌ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحفٍ، ثمَّ تبسَّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظنَّنا أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) خارجٌ إلى الصَّـــلاة، فأشـــار إلينا أن أتمُّوا صـــلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى السِّـــتْر. [البخاري (4448)]. وانصرف بعض الصَّحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكرٍ على ابنته عائشة، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة – إحدى زوجتيه، وكانت تسكن بالسُّنح[2] – فركب على فرسه، وذهب إلى منزله[3].

2 – في الرَّفيق الأعلى:

واشتدَّت سكرات الموت بالنَّبيِّ(ﷺ) ، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السَّماء، ثم يضعها على أسامة، فعرف أنَّه يدعو له، وأخذت

---

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 401.
(2) السُّنح: موضع خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه ، وبيت.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (593/2).

السَّيدة عائشة رسول الله، وأوسدته إلى صدرها بين سَحْرها، ونحرها[1]، فدخل عبد الرَّحمن بن أبي بكر، وبيده سواكٌ، فجعل رسولُ الله (ﷺ) ينظر إليه، فقالت عائشة: اخذه لك؟ فأشار برأسه: أنْ نعم، فأخذته من أخيها، ثمَّ مضغته، وليَّنته، وناولته إيَّاه، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك، وكلُّ ذلك وهو لا ينفكُّ عن قوله: «في الرَّفيق الأعلى» **[البخاري (4437)، ومسلم (87/2444)]**.

وكان(ﷺ) يُدخل يده في رَكوة ماءٍ، أو علبةٍ فيها ماءٌ، فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إنَّ للموت سكراتٍ!» ثمَّ نصب يده، فجعل يقول: «في الرَّفيق الأعلى» حتَّى قُبِضَ، ومالت يده. **[البخاري (4449)]**.

وفي لفظ: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) كان يقول: «اللّهُمَّ! أعنّي على سكرات الموت». **[أحمد (64/6)، والترمذي (978)، وابن ماجه (1623)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (1093)]**.

وفي روايةٍ: أنَّ عائشة رضي الله عنها سمعت النَّبيَّ(ﷺ) ، وأصغت إليه قبل أن يموت؛ وهو مُسْنِدٌ إلى ظَهْره يقول: «اللّهُمَّ! اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى!». **[البخاري (4440)، ومسلم (85/2444)]**.

وقد ورد: أنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت: واكرب أباه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلمَّا مات؛ قالت: يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه. يا أبتاه! من جنَّة الفردوس مأواه. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه. فلمَّا دُفِن(ﷺ) قالت لأنسٍ: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله(ﷺ) التُّراب؟! **[البخاري (4462)]**.

3 – كيف فارق رسول الله(ﷺ) الدُّنيا؟

فارق رسول الله(ﷺ) الدُّنيا وهو يحكم جزيرة العرب، ويرهبُه ملوك الدُّنيا، ويَفْديه أصحابُه

(1) السَّحْر: الرِّئة ، والنَّحْر: الثغرة التي في أسفل العنق.

بنفوسهم، وأولادهم، وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمةً، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقةً. **[البخاري (4461)]**. وتُوفِّيَ(ﷺ) ؛ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير[1].

وكان ذلك يوم الإثنين 12 ربيع الأوَّل سنة 11 للهجرة بعد الزَّوال[2]، وله(ﷺ) ثلاثٌ وستون سنَّة **[البخاري (3902 و3903)، ومسلم (2351)]**، وكان أشدَّ الأيام سواداً، ووحشةً، ومصاباً على المسلمين، ومحنةً كبرى للبشريَّة، كما كان يومُ ولادَته أسعدَ يومٍ طلعت فيه الشَّمْس[3].

يقول أنسٌ رضي الله عنه: كان اليوم الَّذي قدم فيه رسول الله(ﷺ) المدينة أضاء منها كلُّ شيءٍ،فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ. **[أحمد (221/3)، والترمذي (3618)، وابن ماجه (1631)]**، وبكت أمُّ أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النَّبيّ(ﷺ) ؟ قالت: إِنّي قد علمت: أنَّ رسول الله(ﷺ) سيموت، ولكنْ إنَّما أبكي على الوحي الَّذي رُفِع عنَّا. **[مسلم (2454)، وابن ماجه (1635)]**.

4 – هول الفاجعة، وموقف أبي بكرٍ منها:

قال ابن رجب: ولـمَّا تُوفي رسولُ الله(ﷺ) اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِشَ، فخولط، ومنهم مَنْ أُقْعِد فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانُه، فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلِّيَّة[4].

قال القرطبيُّ مبيِّناً عظم هذه المصيبة، وما ترتَّب عليها من أمور:

من أعظم المصائب: المصيبةُ في الدِّين. قال رسول الله(ﷺ) : «إذا أصاب أحدكم مصيبةٌ؛

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 403.
(2) انظر: البداية والنِّهاية (223/4).
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 404.
(4) انظر: لطائف المعارف ، ص 114.

فليذكر مصـــابه بي، فإنَّها أعظم المصـــائب» [الطبراني في الكبير (6718)، والبيهقي في شُــعَب الإيمان (10152)، والهيثمي في مجمع الزوائد (2/3)].

وصدق رسولُ الله(ﷺ) ؛ لأنَّ المصيبة به أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النُّبوَّة، وكان أوَّل ظهور الشَّـــرِّ بارتداد العرب، وغير ذلك، وكان أوَّل انقطاع الخير، وأول نقصانه[1].

لقد أذهل نبــأُ الوفاة عمرَ رضي الله عنه، فصار يتوعَّــد، وينــذر مَنْ يزعُم: أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) مات، ويقول: ما مات، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً، ثمَّ رجع إليهم. والله! ليرجعنَّ رســولُ الله كما رجع موســى، فليقطِّعنَّ أيدي رجالٍ، وأرجلهم زعموا: أنه مات[2].

ولــمَّا سمع أبو بكرٍ الخبر؛ أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنْح؛ حتَّى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم النَّاس، حتَّى دخل على عائشـــة فتيمَّم رســولَ الله(ﷺ) وهو مُغشَّـــى بثوبٍ حَبِرةٍ، فكشف عن وجهــه، ثمَّ أكبَّ عليه، فقبَّله، وبكى، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين، أمَّا الموتة الَّتي عليك فقد متَّها. [البخاري (4452، 4453)]. وخرج أبو بكرٍ؛ وعمر يتكلَّم، فقال: اجلسْ يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضـــبه، فقام أبو بكر في النَّاس خطيباً بعد أن حمِد الله، وأثنى عليه، قال:أمَّا بعد: فإنَّ مَنْ كان يعبد محمَّداً؛ فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـــلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144].

قال عمر: فو الله! ما إن سمعت أبا بكر تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي،

(1) انظر: تفسير القرطبيِّ (176/2).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (594/2).

وعلمتُ: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد مات. [البخاري (4454)].

قال القرطبيُّ: هذه الآية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصِّدِّيق، وجراءته؛ فإنَّ الشَّجاعة، والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النَّبيِّ(ﷺ) ، فظهرت عنده شجاعتُه، وعلمه، قال النَّاس: لم يمت رسول الله(ﷺ) ، منهم عمر، وخرِسَ عثمان، واستخفى عليٌّ، واضطرب الأمر، فكشفه الصِّدِّيق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح[1].

فرحم الله الصِّدِّيق الأكبر! كم من مصيبةٍ درأها عن الأمَّة! وكم من فتنةٍ كان المخرج على يديه! وكم من مشكلةٍ، ومعضلةٍ كشفها بشهب الأدلَّة من القرآن، والسُّنَّة، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه! فاعرِفوا للصِّدِّيق حقه، واقدروا له قدره، وأحبُّوا حبيب رسول الله(ﷺ)، فحبُّه إيمانٌ، وبغضه نفاقٌ[2].

5 – بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتَّى لا يجد الشَّيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسولُ الله(ﷺ) هذه الدُّنيا؛ وكلمة المسلمين واحدةٌ، وشملُهم منتظمٌ، وعليهم أميرٌ يتولَّى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله(ﷺ)، ودفنه[3].

والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدُّخول في عصر الخلفاء الرَّاشدين إن شاء الله تعالى.

---

(1) انظر تفسير القرطبيِّ (222/4).

(2) انظر: مرض النَّبي (ص) ووفاته ، ص 24.

(3)]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص 406.

6 – غَسْلُ رسول الله(ﷺ) ، وكَفنُه، والصَّلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لـمَّا أرادوا غَسْلَ النَّبيِّ(ﷺ) قالوا: ما ندري: أنجرِّده من ثيابه كما نجرِّد موتانا، أو نغسله؛ وعليه ثيابه؟! فلـمَّا اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النَّوم حتَّى ما منهم رجلٌ إلا وذقنه في صدره فكلَّمهم مكلِّمٌ من ناحية البيت، لا يدرون من هو: أن اغسِلوا رسول الله(ﷺ) وعليه ثيابُه، فغسَّلوه؛ وعليه قميصُه، يصبُّون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص دون أيديهم. قالت عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسَّله إلا نساؤُه. [أبو داود (3141)، وابن ماجه (1464)، والحاكم (3/59 – 60)].

وكُفِّنَ(ﷺ) في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ، من ثياب سَحُول – بلدة باليمن – ليس فيها قميصٌ، ولا عمامةٌ. [البخاري (1271) ومسلم (941)][1] وقد صلَّى عليه المسلمون. قال ابن عباس: لـمَّا مات رسولُ الله(ﷺ) أُدخل الرِّجال، فصلُّوا عليه بغير إمامٍ أرسالاً، حتَّى فرَغوا، ثمَّ أُدخل النِّساء فصلَّين عليه، ثمَّ أُدخل الصِّبيان فصلُّوا عليه، ثمَّ أدخل العبيد، فصلُّوا عليه أرسالاً، لم يؤمَّهم على رسول الله(ﷺ) أحدٌ. [ابن ماجه (1628)].

قال ابن كثير: وهذا الصَّنيع، وهو صلاتُهم عليه فرادى لم يؤمَّهم أحدٌ عليه أمرٌ مجمعٌ عليه، لا خلاف فيه[2].

7 – موقع دفنِه، وصفة قبرِه، ومَنْ باشر دفنَه؟ ومتى دُفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه، فقال بعضهم: يدفن عند المنبر، وقال آخرون: بالبقيع، وقال قائل: في مصلاَّه. [الموطأ (545)، وابن سعد (2/293)]. فجاء أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فحسم مادَّة هذا الخلاف أيضاً بما سمعه من رسول الله(ﷺ) ، قالت عائشة، وابن عباسٍ: لـمَّا قُبض رسول الله(ﷺ) ، وغُسِّل؛ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر: ما نسيتُ ما سمعت من

(1) انظر: مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، ص 37 ، وتهذيب الأسماء للنَّوويِّ ، ص 23.

(2) انظر: البداية والنِّهاية (232/5).

رســول الله(ﷺ) يقول: «ما قبض الله نبيّاً إلا في الموضــع الَّذي يحب أن يدفن فيه»، ادفنوه في موضــع فراشــه[1]. وهذا الحديث وإن كان هناك خلافٌ في صــحّته إلا أنَّ دفن النَّبيّ(ﷺ) في موضعه الَّذي توفّي فيه أمرٌ مجمعٌ عليه[2].

وقال ابن كثيرٍ: قد عُلِمَ بالتَّواتر: أنَّه(ﷺ) دفن في حجرة عائشـــة الَّتي كانت تختصُّ بها، شــرقيَّ مســجده في الزَّاوية الغربيَّة القبلية من الحجرة، ثمَّ دُفن فيها أبو بكرٍ، ثمَّ عمر رضــي الله عنهما[3].

وقد لُحِدَ[4] قبر رســول الله(ﷺ) ، وقد أجمع العلماء على أن اللَّحد، والشَّــق[5] جائزان، لكن إذا كانت الأرض صــلبةً لا ينهار ترابُها؛ فاللَّحد أفضــل، وإن كانت رِخْوَةً تنهار؛ فالشَّــقُّ أفضل[6].

وقد قال الألبانيُّ – رحمه الله! –: يجوز في القبر اللَّحد، والشَّـــقُّ لجريان العمل عليهما في عهد النَّبيّ(ﷺ) ، ولكنَّ الأوَّل أفضل[7]؛ لأنَّ الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل[8]. وأمَّا صفة قبره، فقد كان مُسَنَّماً. **[البخاري (1390)]**، أي: مرتفعاً.

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ المســـتحب في بناء القبور هو التَّســـنيم، وأنَّه أفضـــل من التَّسطيح[9] وفي المسألة خلافٌ طويلٌ ليس هذا محلُّه، وقد قرَّب ابن القيّم رحمه الله بين المذهبين، فقال: وكانت قبور أصــحابه لا مشــرفةً، ولا لاطئةً، وهكذا كان قبرُه الكريم، وقبر صــاحبيه،

---

(1) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص 727.
(2) انظر: مرض النَّبيّ (ص) ، ووفاته ، ص 160.
(3) انظر: البداية والنِّهاية (238/5).
(4) اللَّحد: الشَّقُّ الَّذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.
(5) والشق: أي: يحفر في وسط الأرض.
(6) انظر: المجموع ، للنَّوويّ (287/5).
(7) انظر: أحكام الجنائز ، ص 144.
(8) انظر: مرض النَّبيّ (ص) ووفاته ، (ص 160) وقد استفدتُ من هذا الكتاب فائدةً كبرى في مبحث مرض ووفاة الرَّسول (ص) .
(9) انظر: مرض النبي (ص) ووفاته ، ص 164.

فقبره(ﷺ) مُسَنَّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء، لا مبنيٌّ ولا مطيَّنٌ، وهكذا قبر صاحبيه[1]، وقد كان قبره(ﷺ) مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض[2].

وأمَّا الذين باشروا دفنه(ﷺ) ؛ فقد قال ابن إسحاق: وكان الَّذين نزلوا في قبر رسول الله(ﷺ) : عليُّ بن أبي طالبٍ، والفضل بن عباس، وقُثَم بن عبَّاس، وشُقرآن مولى رسول الله(ﷺ) [3]، وزاد النَّوويُّ[4]، والمقدسيُّ[5]: العباس. قال النَّوويُّ: ويقال: كان أسامة بن زيد، وأوس بن خَوْلِيّ[6] معهم. ودفن في اللَّحد، وبُني عليه(ﷺ) في لحده اللَّبِن، يقال: إنَّها تسع لَبِنَاتٍ، ثمَّ أهالوا التُّراب[7]. وأمَّا وقت دفنه؛ فقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّه دفن ليلة الأربعاء. قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنَّه(ﷺ) توفي يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء[8].

لقد كان لوفاة رسول الله(ﷺ) أثرٌ على الصَّحابة الكرام، فقد قال أنسٌ رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النَّبيّ(ﷺ) الأيدي - وإنَّا لفي دفنه - حتَّى أنْكَرْنَا قلوبنا». **[الترمذي (3618)، وابن ماجه (1631)]**[9].

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول(ﷺ) :

1 - ما قاله حسَّانُ رضي الله عنه في موت رسول الله(ﷺ) :

لقد نافح حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن رسول الله(ﷺ) في حياته، ودافع عن الإسلام

---

(1) انظر: زاد المعاد (524/1).
(2) انظر: تهذيب السُّنن، لابن القيّم (338/4).
(3) انظر: السّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (321/4).
(4) انظر: تهذيب الأسماء، ص 23.
(5) انظر: مختصر السّيرة، ص 35.
(6) انظر: مرض النَّبي (ص) ووفاته، ص 173.
(7) انظر: تهذيب الأسماء للنَّووي، ص 23.
(8) انظر: البداية والنِّهاية (237/5)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص 728.
(9) انظر: صحيح السِّيرة النبوية، ص 729.

والمســـلمين بقصـــائده الرَّائعة؛ الَّتي هزَّت عرب الجزيرة، وفعلت فيهم الأفاعيل، ولقد تأثَّر بموت حبيبنا(ﷺ) ، فرثاه بقصـــائدَ مبكيةٍ حزينةٍ، حفظها لنا التَّاريخ، ولم تمَلْها اللَّيالي، ولم تفصِــلْها عنَّا حواجزُ الزَّمن، ولا أسوارُ القرون، فَمِمَّا قاله يبكي رسولَ الله(ﷺ) :

مَـا بَالُ عَيْنِـكَ لاَ تَنَـامُ كَـأنَّمَـا ... كُحِلَتْ ماقيها[1] بكُحْلِ الأَرْمَدِ[2]

جَزَعاً عَلَى المهْدِيِّ أَصْـبَحَ ثَاوِياً ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئ الحَصَـى لا تَبْعُدِ

وَجْهِيْ يَقِيْـكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِيْ ... غُيِّبْـتُ قَبْلَـكَ فِي بَقِيْعِ الغَرْقَـدِ[3]

بَأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَـهِدْتُ وَفَاتَـهُ ... فِي يَـوْم الاثْـنَـيْنِ النَّـبِيُّ المهْـتَـدِى

فَظَلِلْـتُ بَعْـدَ وَفَـاتِـهِ مُتَبَلِّـداً ... مُـتَـلَـدِّداً[4] يَا لَـيْـتَـنِي لَمْ أُوْلَـدِ

أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بالْمَدِيْنَةِ بَـيْنَهُمْ ... يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ[5] سُـمَّ الأَسْوَدِ[6]

أَوْ حـلَّ أَمْرُ اللهِ فِيْنَـا عَـاجِلاً ... فِي رَوْحَـةٍ مِنْ يَوْمِنَـا أَوْ فِي غَـدِ

فَتَقُوْمُ سَـاعَتُنَا فَنَـلْقَى طيِّباً ... مَحْضَـاً ضَـرَائِبُهُ[7] كَرِيْمُ المحْتِدِ[8]

يَا بِكْرَ آمنـةَ المبَـارَكُ بِكْرُهـا ... ولَدَتْهُ مُحْصـنَةٌ بِسَـعْدِ الأَسْـعَدِ

نُوْراً أضَـاءَ عَلَى البَرِيَّـةِ كُلِّهَـا ... مَنْ يُهْـدَ للنُّورِ المبَـارَكِ يَهْتَـدِي

يا رَبُّ فَـاجْمَعْنَـا مَعـاً ونَبِيَّنَـا ... في جَنَّةٍ تَـثْني[9] عُيُونَ الحُسَّـدِ

فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَا لَـنَا ... يَا ذَا الجَلاَلِ وَذَا العُلاَ والسُّـؤْدَدِ

وَاللهِ أَسْمَعُ مَـا بَقِيْـتُ بِهَـالِـكٍ ... إلاَّ بَكَـيْـتُ عَلَـى النَّـبِيِّ مُحَمَّـدِ

يَا وَيْحَ أَنْصَـارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِـه ... بَعْدَ المغَيَّبِ فِي سَـوَاءِ الملْحَدِ[10]

---

(1) الماقي: جمع مأق ، ومؤق ، وهي مجاري الدَّمع من العين.
(2) الأرمد: الَّذي يشتكي وجع العين.
(3) بقيع الغرقد: المكان الذي يَدْفِن فيه أهل المدينة موتاهم.
(4) متلدِّد: متحيِّر.
(5) صُبِّحْتُ: سُقيت صبحاً.
(6) الأسود: ضرب من الحيَّات.
(7) الضَّرائب: الطَّبائع.
(8) المحتد: الأصل.
(9) تثني عيونَ الحسَّد: تصرفها ، وتدفعها.
(10) سواءُ الملحَدِ: وسطُه.

ضَاقَتْ بِالانْصَارِ البِلاَدُ فَأَصْبَحُوا سُــوداً وجوهُهُمْ كَلَوْنِ الإثْمِـدِ[1]
وَلَـقَـدْ وَلَـدْنَاهُ[2]وَفِـيـنَـا قَـبْرُهُ وَفَضُــولُ نِعْمَتِـه بنـا لَمْ تُجْحَـدِ
واللهُ أكْـرمَـنَـا بِـهِ وهَـدَى بِـهِ أنصَــارَهُ في كُلِّ سَــاعَةِ مَشْــهَدِ
صــلَّى الإلهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِــهِ وَالطَّيِّبُوْنَ عَلَى المبَـارَكِ أَحْمَـدِ[3]

وقال أيضاً:

تَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلاَ وَضَـعَتْ مِثْـلَ الرَّسُــوْلِ نَبِيِّ الأُمَّـةِ الهَـادِي
وَلاَ بَرَى اللهُ خَلْقـاً مِنْ بَرِيَّتِـه أوْفى بـذِمَّـةِ جَـارٍ أَوْ بِمِـيْـعَـادِ
مِنَ الَّذِي كَانَ فِيْنَا يُسْـتَضَـاءُ بِهِ مُبَـارَكُ الأمْرِ ذَا عَـدْلٍ وَإِرْشَــادِ

إلى أنْ قَال:

يَا أَفْضَــلَ النَّاسِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ أَصْــبَحْـتُ مِنْـه كمِثْـلِ المفْرَدِ

2 – وممَّا قاله أبو بكرٍ الصِّدّيق يبكي النَّبيَّ(ﷺ) :

لـــمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَنْدِلاً ضَـــاقَتْ عَليَّ بِعَرْضِـــهِنَّ الدُّورُ
فَـارْتَاعَ قَلْبِي عِنْـدَ ذَاكَ لِمَوْتِـهِ وَالعَظْمُ مِنِّي مَـا حَيِيْـتُ كَسِــيْرُ
أَعتِيْقُ! وَيْحَكَ! إنَّ خِلَّكَ قَدْ ثَوَى وَالصَّـبْرُ عِنْدَكَ مَا بَقِيْتَ يَســيْرُ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلِكَ صَـاحِبِيْ غُيِّبْـتُ فِي لَحْـدٍ عَلَيْـهِ صُــخُورُ
فلَتَحْـدُثَنَّ بَـدَائِعٌ مِنْ بَعْـدِهِ تَعْيَـا لَهُنَّ جَوَانِحٌ وَصُـــدُوْرُ[5]

3 – وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب بن هاشم – رضي الله عنه – يبكي رسولَ الله(ﷺ) :

أَرِقْـتُ فَبَـاتَ لَيْلِي لاَ يَزُوْلُ وَلَيْـلُ أَخِي المصِــيْبَـةِ فِيْـهِ طُوْلُ

---

(1) الإثمد: كحلٌ أسود.
(2) أي: بني النَّجار أخوال النَّبيِّ (ص) من قبل اباثه.
(3) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (328/4).
(4) الصَّادي: العَطش، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (329/4).
(5) انظر: المستطرف للأبشيهي، ص 366، وديوان أبي بكرٍ الصِّديق، طبع حديثاً حقَّقه، وشرحه راجي الأسمر، ص 32، 33.

وَأَسْـــعَـدَنِي الْبُكَـاءُ وَذَاكَ فِيْمَـا أُصِـــيْـبَ المسْـــلِمُوْنَ بِــهِ قَلِيْـلُ
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِـــيْبَتُنَا وَجَلَّتْ عَشِـــيَّةَ قِيْلَ: قَدْ قُبِضَ الرَّسُـــولُ
وَأَضْـــحَتْ أَرْضُـــنَا مِمَّا عَرَاهَا تَـكَـادُ بِـنَـا جَـوَانِـبُـهَـا تَمِـيْـلُ
فَقَـدْنَا الْوَحْيَ والتَّنْزِيْـلَ فِيْنَـا يَـرُوْحُ بِـهِ وَيَـغْـدُو جِـبْرَئِـيـلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَـا سَـــالَـتْ عَلَيـهِ نُفُوْسُ النَّـاسِ أَوْ كَـادَتْ تَسِـــيـلُ
نبِيٌّ كَـانَ يَجْلُو الشَّـــكَّ عَنَّـا بِمَـا يُـوحَـى إِلَـيْـهِ وَمَـا يَـقُـوْلُ
ويَهْـدِيْنَـا فَلاَ نَخْشَـــى مَلاَمـاً عَـلَيْنَـا والـرَّسُـــولُ لَـنَـا دَلِيْـلُ
أَفَـاطِمُ! إِنْ جَزِعْـتِ فَـذَاكَ عُـذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَـهُـوَ السَّـــبِيْـلُ
فَقَبْرُ أَبِيْـكِ سَـــيِّـدُ كُـلِّ قَبْرٍ وَفِيْـهِ سَـــيِّـدُ النَّـاسِ الرَّسُـــولُ[1]

4 – وقالت صفيَّة بنتُ عبد المطَّلب تبكي رسولَ الله(ﷺ) :

ألاَ يَا رَسُـــولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنا وَكُنْـتَ بِنَـا بَرّاً وَلَمْ تَـكُ جَـافِيَـا
وَكُنْـتَ رَحِيْمـاً هَـادِياً وَمُعَلِّمـاً لِيَبْكِ عَلَيْـكَ الْيَوْمَ مَنْ كَـانَ بَاكِيَا
لَعَمْرُكَ مَـا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْـدِهِ وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَـــى مِنَ الْهَرْجِ[2] اتِيَا
كَـأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِـذِكْرِ مُحَمَّـدٍ وَمَـا خَفَـتْ مِنْ بَعْدِ النّبِيِّ المكَـاوِيَا
أَفَـاطِمُ! صَـــلّى اللهُ ربُّ مُحَمَّـدٍ عَلَى جَـدَثٍ أَمْسَـــى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا
فِـدَىً لِرَسُـــولِ اللهِ أُمِّي وَخَـالَتِي وَعَمِّي وَابَائِي وَنَفْسِـــي وَمَـالِيَـا
صَـدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَـالَةَ صَـادِقاً وَمُتَّ صَـــلِيْبَ العُوْدِ أَبْلَجَ صَـــافِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّـاسِ أَبْقَى نَبِيَّنَـا سَـــعِدْنَا وَلكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِـــيَا
عَلَيْـكَ مِنَ اللهِ السَّـــلاَمُ تَحِيَّـةً وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيًا[3]

(1) انظر: الاكتفاء ، للكلاعي (456/2).
(2) الهرج: الفتنة والاختلاط.
(3) انظر: تفسير القرطبيّ (219/4 ، 220).

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسَّره الله لي مِنْ جمعٍ، وترتيبٍ، وتحليلٍ تضـمَّنتها فصـول هذا الكتاب، فيما يتعلَّق (بالسِّـــيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ في تربية الأمَّة وبناء الدَّولة) فما كان فيه من صـــوابٍ فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد، والمنَّة، وما كان فيه من خطأ؛ فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسولُه بريءٌ منه، وحسبي أنِّي كنت حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ، وعسى ألا أُحرَم مِنَ الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المســـلمين، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه في دعائه؛ فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مســتجابةٌ إن شــاء الله تعالى، وأختمُ هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَــبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: 10].

وبقول الشَّاعر:

إلهي أَنْـتَ للإحسَـــانِ أَهْـلٌ ... وَمِنْـكَ الجُوْدُ وَالفَضْـــلُ الجَزِيْـلُ
إلهــي بَاتَ قَـلْـبِي فِيْ هُمُــومٍ ... وَحَـالِي لا يُسَـــرُّ بِـهِ خَلِيْـلُ
إلهي تُـبْ وجُـدْ وَارْحَمْ عُبَيْـداً ... مِنَ الأوزار مَـدْمَعُـهُ يَسِـــيْـلُ
إلهي ثَوْبُ جِسْـــمِي دنَّسَـــتْهُ ... ذُنُـوبٌ حَمْـلُهـا أبَـداً ثَـقِيْـلُ
إلهي جُـدْ بِعَفْـوِكَ لِي فَـإِنِّي ... عَلَى الأَبْوَابِ مَنْكَسِـــرٌ ذَلِيْـلُ
إلهي خَـانَنِي جَلَدي وَصَـــبْري ... وجَـاءَ الشَّـــيْبُ وَاقْتَرَبَ الرَّحِيْلُ
إلهِــي دَاوِني بِـدَوَاءِ عَـفْــوٍ ... بِـهِ يُشْـــفَى فُؤَادِي والغَلِيْـلُ
إلهي ذَابَ قَـلْـبِي مِـنْ ذُنُـوبِي ... وَمِنْ فِعْـلِ القَبِيْحِ أَنَا القَتِيْـلُ
إلهي قُـلْـتَ اُدْعُـونِي أجبْـكُمْ ... فَهَـاكَ العَبْـدُ يَـدْعُو يَا وَكِيْـلُ
إلهي هَـذِهِ الأَوْقَـاتُ تَمْضِـــي ... بِأَعْمَـارٍ لَـــــنَـا وَبِهَا تَزُوْلُ

وبقول الشَّاعر:

اطْلُب العِلْمَ وَلاَ تَكْسَـــلْ فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الكَسَـــلْ
احْتَفِـلْ لِلْفِقْـهِ فِي الـدِّينِ وَلاَ تَشْـــتَغِـلْ عَنْـهُ بِمَـالٍ وَحَوَلْ
واهْجُرِ النَّوْمَ وحَصِّـــلْـهُ فَمَنْ يَعْرِف المِطْلُوبَ يَحْقِرْ مَـا بَـذَلْ
لاَ تَقُـلْ قَـدْ ذَهَبَـتْ أَرْبَابُـهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك.

* * *

المصادر والمراجع

(أ)

1 – آثار الحرب في الفقه الإســـلاميّ، د. وهبة الزُّحيلي، دراســـةٌ مقارنةٌ، دار الفكر، الطَّبعة الثَّالثة، 1401 هـ 1981 م.

2 – آثار تطبيق الشَّريعة، د. محمد عبد الله الزَّاحم، دار المنار، الطَّبعة الأولى، 1412 هـ 1991 م.

3 – آفاتٌ على الطَّريق لمحمد سـيد نوح، دار الوفاء، المنصـورة – مصـر، ط: الخامسـة، 1400 هـ 1990 م.

4 – أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير).

5 – الأمُّ لمحمَّد بن إدريس الشَّافعي سنة 1410 هـ 1990 م، طبعة دار الفكر، بيروت – لبنان.

6 – الإتقان في علوم القرآن لعبد الرَّحمن السُّيوطيِّ، المكتبة الثَّقافية، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

7 – الإدارة الإســـلاميَّة في عصــــر عمر بن الخطَّاب، د. فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي – عمَّان، الطَّبعة الثَّانية 1418 هـ 1998 م.

8 – الإصابة في تمييز الصَّحابة لأحمد بن عليِّ بن حجر العسقلانيِّ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ، دار النَّهضة – مصر.

9 – الاعتصام للإمام الشَّاطبي، دار الفكر، الناشر مكتبة الرِّياض الحديثة بالرِّياض.

10 – الإعلام في صدر الإسلام، د. عبد اللَّطيف حمزة، دار الفكر.

11 – إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء، والأموال، والحفدة، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة، 1941 م.

12 – الأحاديث الواردة في فضـائل المدينة لصـالح الرِّفاعي، دار الخضـيري – المدينة، الطَّبعة الثالثة، 1418 هـ.

13 – أحكام الجنائز وبدعها للألباني، المكتب الإسلاميُّ – بيروت.

14 – أحكام السُّـــوق في الإســـلام لأحمد الدَّرويش، دار عالم الكتب، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

15 – أحكام القرآن لأبي بكرٍ محمَّد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافريِّ الأندلســـيّ، تحقيق: محمَّد عبد القادر عطا، ط1408/1 هـ. دار الكتب العلميَّة – بيروت.

16 – الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق.

17 – الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنيَّة، لمحمود محمَّد الجوهريّ.

18 – إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار الســـبيل، محمد ناصـــر الدين الألباني، إشـــراف زهير الشاويش.

19 – الأسـاس في السُّنَّة، وفقهها – السِّيرة النَّبويَّة لسعيد حوَّى، دار السَّلام بمصر، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

20 – الأساس في السُّنَّة، لسعيد حوَّى، دار السلام – مصر.

21 – أساليب التَّشويق والتَّعزيز في القرآن الكريم، د. الحسين جرنو محمود جلو، مؤسِّسة الرِّسالة، دار العلوم الإنسانيَّة، الطَّبعة الأولى، 1414 هـــ 1994 م. 22 – أسباب النُّزول، لأبي الحسن عليّ بن أحمد الواحديِّ النيســـابوريِّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، الطَّبعة الأولى، 1402 هـ 1982 م.

23 – أسباب هلاك الأمم السَّالفة لسعيد محمَّد بابا سيلا، سلسلة الحكمة البريطانيَّة، الطَّبعة الأولى، 1420 هـ 2000 م.

24 – الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام لعبد الله عليِّ السَّلامة مناصرة، مؤسسة الرِّسالة، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثَّانية، 1412 هـ 1991 م.

25 – الإسلام في خندق، لمصطفى محمود، دار أخبار اليوم، القاهرة – مصر، 1414 هـ 1994 م.

26 – أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّي للتجاني عبد القادر حامد، الطَّبعة الأولى، 1416 هـ 1995 م، عمَّان – الأردن، دار البشير.

27 – أضواء على الهجرة لتوفيق محمَّد سبع، مطبعة الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، 1393 هـ 1973 م.

28 – أعلام النُّبوة، للماورديّ، الكلّيات الأزهريَّة.

29 – إغاثة اللَّهفان عن مصائد الشَّيطان لابن قيِّم الجوزيَّة، دار الكتب العلميَّة – بيروت، طبعة أولى 1408 هـ 1998 م.

30 – الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي الرَّسول والثَّلاثة الخلفاء، تأليف أبي الرَّبيع سليمان بن موسى الكلاعيّ الأندلسيّ، عالم الكتب، الطَّبعة الأولى، 1417 هـ 1997 م.

31 – الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مؤسَّسة ناصر الثَّقافية – بيروت.

32 – الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، عليُّ بن نجيب الزَّهرانيُّ، دار طيبة، الطَّبعة الثَّانية، 1418 هـ 1998 م.

33 – أنساب الأشراف، للبلاذُريِّ، تحقيق: محمَّد حميد الله، دار المعارف.

34 – الأنساب للسَّمعاني، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، حيدر اباد، الهند، 1382 هـ 1962 م.

35 – الأنساب لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد السَّمعاني، تحقيق عبد الرَّحمن المعلمي اليمانيّ، نشر مجلس دائرة المعارف – الهند.

36 – أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة، د. عليُّ العليانيُّ، دار طيبة، الطَّبعة الأولى، 1405 هـ 1985م.

(ب)

37 – البحر الرَّائق في الزُّهد والرَّقائق، لأحمد فريد، دار البخاريِّ – القصيم بالسُّعودية، الطَّبعة الأولى، 1411 هـ 1991 م.

38 – بدائع السَّالك في طبائع الممالك، لأبي عبد الله بن الأزرق، تحقيق، وتعليق علي سامي النَّشار، منشورات وزارة الإعلام – الجمهوريَّة العراقيَّة.

39 – البداية والنِّهاية لأبي الفداء ابن كثيرٍ الدِّمشقيِّ، الطَّبعة الأولى – 1408 هـ 1988 م، دار الرَّيان للتُّراث.

40 – بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمود شكري الالوسي، تحقيق محمَّد بهجة الأثري، دار الكتب العلميَّة – بيروت، الطَّبعة الثَّانية.

41 - بناء المجتمع الإسـلاميّ في عصـر النّبوّة، لمحمَّد توفيق رمضـان، دار ابن كثيرٍ، دمشـق، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

42 - بهجة المحافل، وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات، والسِّير، والشَّمائل، شرح جمال الدِّين محمَّد الأشخر اليمنيّ، دار صادر - بيروت.

(ت)

43 - تأمُّلات في سورة الكهف للشَّيخ أبي الحسن النَّدويّ، دار القلم.

44 - تأمُّلات في سيرة الرَّسول(ﷺ) ، د. محمد السَّيد الوكيل، دار المجتمع، الطَّبعة الأولى، 1408 هـ 1987 م.

45 - تاريخ الإسـلام للذَّهبي، المغازي، تحقيق عمر عبد السَّـلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطَّبعة الثَّانية، 1410 هـ 1990 م.

46 - التَّاريخ الإسلاميُّ - مواقف وعبرٌ، د. عبد العزيز الحميديُّ، دار الدَّعوة - الإسكندريَّة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.

47 - التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ، د. السَّيد عبد العزيز سالم.

48 - التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسول(ﷺ) ، استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة، د. علي معطي، مؤسَّسة المعارف - بيروت، الطَّبعة الأولى، 1419 هـ 1998 م.

49 - تاريخ الطَّبري، لأبي جعفر محمَّد بن جرير، تحقيق محمَّد أبو الفضـل إبراهيم، دار سـويدان - بيروت.

50 - تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون، طبعة القاهرة، 1927 م.

51 - تاريخ خليفة بن خيَّاط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الاداب، النَّجف - 1967 م.

52 - تاريخ دولة الإسـلام الأولى، فايد حمَّاد عاشـور، سـليمان أبو عزب، دار قطريّ بن الفجاءة - الدَّوحة، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

53 - تاريخ صـدر الإسـلام، لعبد الرَّحمن عبد الولي شـجاع، دار الفكر المعاصـر، صـنعاء، الطَّبعة الأولى، 1419 هـ 1999 م.

54 - التَّحالف السِّـياسـيُّ في الإسـلام لمنير محمَّد الغضـبان، دار السَّـلام، الطبعة الثانية، 1408 هـ 1988 م.

55 – التَّحرير والتَّنوير للشَّيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور، دار الكتب الشَّرقيَّة، تونس.

56 – تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي لمحمَّد بن عبد الرَّحمن المباركفوري، مطبعة الاعتماد، نشر محمَّد عبد المحسن الكتبي، تصحيح عبد الرَّحمن محمَّد عثمان.

57 – تحفة الأشراف لجمال الدِّين أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي عبد الرَّحمن المزِّي، الدَّار القيِّمة، سنة الطَّبع: 1384 هـ.

58 – التَّربية القياديَّة لمنير الغضبان، دار الوفاء – المنصورة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1998 م.

59 – تفسير أبي السُّعود، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديِّ الحنفيِّ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، النَّاشر: مكتبة الرِّياض الحديثة – الرِّياض، مطبعة السَّعادة، القاهرة.

60 – تفسير القرآن العظيم، لابن كثيرٍ القرشيِّ، دار الفكر، ودار القلم، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثانية.

61 – تفسير الالوسي، المسمَّى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، للالوسي (محمود الالوسي البغدادي)، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند، بدون ذكر سنة الطَّبع.

62 – تفسير البغويِّ المسمَّى معالم التَّنزيل، للإمام أبي محمَّد الحسين الفرَّاء البغويِّ الشَّافعي، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

63 – تفسير البيضاويِّ المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التَّأويل، تأليف الإمام ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي، سنة الطَّبع: 1402 هـ 1982 م – دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.

64 – تفسير الرَّازي، دار إحياء التُّراث العربي – بيروت، الطَّبعة الثالثة.

65 – تفسير الزمخشري المسمَّى بالكشَّاف، سنة الطبع: 1967 م، دار المعرفة.

66 – تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض، 1977 م.

67 – تفسير القرطبيِّ لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريِّ القرطبيِّ، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت – لبنان، 1965 م.

68 – تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، طبع دار الفكر – بيروت، الطَّبعة الثالثة، 1394 هـ.

69 - تفسير المنار لمحمَّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
70 - التَّفسير المنير، د. وهبة الزُّحيلي، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، 1411هـ 1991م، الطَّبعة الأولى.
71 - تفسـير النَّسـفي المسـمَّى بمدارك التنزيل وحقائق التَّأويل، تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمَّد النَّسفي، المتوفى سنة 710هـ، النَّاشر: دار الكتاب العربيِّ - بيروت.
72 - تفسير ابن عطيَّة المسمَّى المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمَّد عبد الحقِّ بن عطيَّة الأندلسـيِّ، من مطبوعات رئاسـة المحاكم الشَّـرعية والشـؤون الدِّينيَّة بدولة قطر، الطَّبعة الأولى، 1412هـ 1991م.
73 - تفسير سورة فصِّلت، د. محمد صالح علي مصطفى، دار النَّفائس، الطَّبعة الأولى، 1409هـ 1989م.
74 - تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي، مكتبة الاداب - القاهرة، دون ذكر الطَّبعة.
75 - التَّمكين للأمَّة الإسـلاميَّة في ضـوء القرآن الكريم، لمحمَّد السـيد حمد يوسـف، دار السَّـلام - مصر، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1997م.
76 - تنظيمات الرَّسـول الإدارية في المدينة، لصـالح أحمد العلي، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي، المجلَّد السَّابع عشر، بغداد، 1969م.
77 - تنوير الحوالك شـرح موطأ مالك، لجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ السُّـيوطي، دار إحياء الكتب.
78 - تهذيب مدارج السَّـالكين، لابن القيِّم، هذَّبه عبد المنعم صـالح العلي العزِّي، مؤسَّـسة الرِّسـالة، الطَّبعة الثالثة، 1409هـ 1989م.

(ج)

79 - جامع الأصـول لابن الأثير (أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الجزري) المتوفى سـنة 606هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني/سورية، عام 1392هـ.
80 - جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبليِّ، دار الفكر، بيروت.
81 - الجامع لأخلاق الرَّاوي واداب السَّامع للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف بالرِّياض، 1403هـ 1983م.

82 - الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية لمحمد خير هيكل، الطَّبعة الأولى، 1414هـ 1993م، دار البيارق - عمَّان - بيروت.

83 - الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح لأبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم، مطابع المجد.

84 - جوامع السِّير لابن حزمٍ عليّ بن أحمد بن سعيد، المتوفَّى 456هـ، تحقيق الدُّكتور إحسان عبَّاس، والدُّكتور ناصر الدِّين الأسد، طبع دار إحياء السُّنَّة - باكستان، 1368هـ.

85 - جيل النَّصر المنشود، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة. القاهرة - مصر، الطَّبعة السَّادسة، 1405هـ 1985م.

(ح)

86 - حاشية ابن عابدين، مطابع مصطفى البابي، وأولاده.

87 - حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لعبد الرَّحمن بن عليٍّ بن محمَّد الشَّيبانيِّ بن الرَّبيع، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ.

88 - حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الدَّيبع الشَّيبانيّ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ.

89 - حديث القرآن عن غزوات الرَّسول(ﷺ) ، د. محمَّد بكر ال عابد، دار الغرب الإسلاميِّ، الطَّبعة الأولى.

90 - الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام في عهد الرَّسول(ﷺ) في مكَّة، د. عبد الوهاب كحيل، عالم الكتب - بيروت، الطَّبعة الأولى، 1406هـ 1986م.

91 - الحركة السَّنوسيَّة في ليبية، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي، دار البيارق - عمَّان، طبعة أولى، 1999م.

92 - حقوق النَّبيِّ(ﷺ) على أمَّته، د. محمَّد بن خليفة التَّميميُّ، دار أضواء السَّلف، الطَّبعة الأولى، 1418هـ 1997م.

93 - الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي، لعبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطَّبعة الأولى، 1415هـ 1995م.

94 - الحكومة الإسلاميَّة لأبي الأعلى المودودي، ترجمة أحمد إدريس، المختار الإسلامي للطِّباعة والنَّشر - القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1397هـ 1977م.

95 - حلية الأولياء لأبي نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السَّعادة - مصر، 1351 - 1375م.

96 - حوار الرَّسول(ﷺ) مع اليهود، د. محسن النَّاظر، الطَّبعة الثانية، 1412هـ 1992م، دار الوفاء.

(خ)

97 - خاتم النَّبيّين(ﷺ) للشَّيخ محمَّد أبي زهرة، الطَّبعة الأولى، 1972م، دار الفكر - بيروت.

98 - الخصائص العامَّة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة - القاهرة، مصر، ط: الرَّابعة، 1409هـ 1989م.

99 - الخصائص الكُبرى، لعبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي، دار الكتب العلميَّة - بيروت.

(د)

100 - دائرة المعارف الكاثوليكيَّة، مقال التثليث.

101 - الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور للإمام السُّيوطي، النَّاشر محمَّد أمين دمج، بيروت - لبنان.

102 - دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة، د. عماد الدِّين خليل، الطَّبعة الحادية عشرة، 1409هـ 1989م، دار النفائس - بيروت.

103 - دراساتٌ في عهد النُّبوَّة، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع، دار الفكر المعاصر - صنعاء، الطَّبعة الأولى، 1419هـ 1999م.

104 - دراساتٌ قرآنيَّة لمحمَّد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة الخامسة، 1408هـ 1988م.

105 - دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول(ﷺ) ، د. محمد قلعجي، الطَّبعة الأولى، سنة 1408هـ 1988م، دار النَّفائس.

106 - الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ليوسف بن عبد البرِّ، وزارة الأوقاف بمصر، لجنة إحياء التراث، 1414هـ 1994م، القاهرة.

107 - دروسٌ في الكتمان لمحمود شيت خطَّاب، مكتبة النَّهضة - بغداد، الطَّبعة العاشرة، 1988م.

108 - دستورٌ للأمَّة من القرآن والسُّنَّة، د. عبد النَّاصر العطَّار، مؤسَّسة علوم القرآن، الشَّارقة - عجمان، دار ابن كثير - دمشق - بيروت، الطَّبعة الأولى 1414هـ 1993م.

109 - الدَّعوة الإسلاميَّة، لعبد الغفار عزيز.

110 - دعوة الله بين التكوين والتَّمكين، د. علي جريشـــة، مكتبة وهبة - مصـــر، الطَّبعة الأولى، 1406هـ 1986م.

111 - دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صـــاحب الشَّـــريعة للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، الطَّبعة الأولى، 1405هـ، دار الكتب العلميَّة - بيروت.

112 - دور المرأة في خدمة الحديث لامال قرداش، كتاب الأمَّة، الطَّبعة الأولى، 1420هــ، الدَّوحة - قطر.

113 - دولة الرَّســول(ﷺ) من التَّكوين إلى التَّمكين، لكامل ســلامة الدقس، دار عمَّار - عمَّان، الطَّبعة الأولى، 1415هـ 1994م.

114 - الدَّولة العربيَّة الإســلاميَّة لمنصــور الحرابي، الطَّبعة الثانية، 1983م، منشــورات جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة بليبيا.

115 - ديوان أبي بكرٍ الصِّـدِّيق، حقَّقه وشـرحه راجي الأسمر، دار صـادر - بيروت، الطَّبعة الأولى، 1997م.

116 - ديوان شوقي، الأعمال الشِّعرية الكاملة، دار العودة - بيروت، طبعة 1986م.

117 - ديوان عنترة لفاروق الطَّباع، دار القلم، بيروت - لبنان.

(ر)

118 - الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعيَّة، لأسامة عبد القادر.

119 - الرُّؤيا ضـوابطها وتفسـيرها، لهشـام الحمصـي، دار الكلم الطَّيِّب، دمشـق - بيروت، الطَّبعة الثانية، 1417هـ 1996م.

120 - رجال الإدارة في الدَّولة الإســلاميَّة، د. حســين محمَّد ســليمان، دار الإصــلاح - الدَّمام بالسعودية.

121 - الرَّحيق المختوم، لصفيِّ الرَّحمن المباركفوري، الطَّبعة الأولى 1417هــــ 1996م، مؤسَّسة الرِّسالة - لبنان.

122 - رسالة الأنبياء لعمر أحمد عمر، دار الحكمة - دمشق، الطَّبعة الأولى، 1418هـ 1997م.

123 - الرَّسول القائد(ﷺ) ، محمود شيت خطَّاب، الطَّبعة الثَّانية، سنة الطَّبع 1960م، دار مكتبة الحياة، ومكتبة النَّهضة - بغداد.

124 - الرَّسـول(ﷺ) المبلِّغ، د. صـلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشـق، الطَّبعة الأولى، 1418هـ 1997م.
125 - الرَّسول المعلِّم(ﷺ) وأساليبه في التعليم للشيخ عبد الفتاح أبي غدَّة، دار مكتب المطبوعات الإسلاميَّة - حلب، الأولى، 1417هـ 1996م.
126 - روح المعاني (تفسير الالوسي)، لمحمود الالوسي البغدادي، دار الفكر، طبعة 1402هـ.
127 - الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام لأبي القاسم السُّهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة 1387هـ.

(ز)

128 - زاد المسـير في علم التَّفسـير، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشـيِّ البغداديِّ، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1384هـ 1965م.
129 - زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية، حقَّقه: شـعيب الأرناؤوط، وعبد القادر، الطَّبعة الأولى، 1399هـ، دار الرِّسالة.
130 - زاد اليقين للاشـين أبو شـنب، دار البشـير، طنطا - مصـر، الطَّبعة الأولى، 1413 هـ 1993م.
131 - الزُّهد، لأحمد بن حنبل، دار الرَّيان للتُّراث، القاهرة - مصـر، الطبعة الثانية، 1412هـ 1992م.
132 - زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن لصـفوان داودي، دار القلم، دمشـق، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1990م.

(س)

133 - سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصَّالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ، 1394هـ 1974م.
134 - السَّـرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة، د. بريكك محمَّد بريكك، دار ابن الجوزي، الطَّبعة الأولى، 1417هـ 1996م.

135 - السَّــفارات النَّبويَّة، د. محمد العقيلي، دار إحياء العلوم - بيروت، الطَّبعة الأولى، 1406هـ 1986م.

136 - سفراء الرَّسول(ﷺ) ، لمحمود شيت خطاب، مؤسسة الرَّيان، دار الأندلس الخضراء، الطَّبعة الأولى، 1417هـ 1996م.

137 - ســـنن أبي داود للإمام أبي داود ســـليمان السِّـــجســـتانيِّ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس، 1391هـ، سورية.

138 - سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمَّد بن زيد القزوينيِّ، دار الفكر.

139 - سنن التِّرمذي للإمام أبي عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيِّ، دار الفكر، 1398هـ.

140 - ســـنن الدارقطني، علي بن عمر الدار قطني، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي، عالم الكتب، لبنان.

141 - سنن النَّسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائيِّ، مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة، 1964م.

142 - سير أعلام النُّبلاء، لشمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1403هـ.

143 - السِّير والمغازي لابن إسحاق، تحقيق سهيل زكَّار، دار الفكر، طبعة أولى 1978م.

144 - السِّيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدِّين الحلبي، دار المعرفة.

145 - سيرة الرَّسـول(ﷺ) ، صورٌ مقتبسةٌ من القرآن الكريم، تأليف الأستاذ محمد عزَّة دروزة، عني بها الأسـتاذ عبد الله إبراهيم الأنصـاري، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد ال ثاني - حاكم قطر، المؤتمر العالمي للسِّيرة النَّبويَّة، 1400هـ الدَّوحة.

146 - السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويِّ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة - القاهرة.

147 - السِّـــيرة النَّبويَّة دراســـةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فـارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1997م، عمَّان.

148 - السِّيرة النَّبويَّة، للذَّهبي، تحقيق حسام الدِّين القدسي، مكتبة هلال - بيروت.

149 - السِّـيرة النَّبويَّة الصَّـحيحة، د. أكرم العمري، الطَّبعة الأولى 1412هـــ 1992م مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة.

150 - السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ، وبناء دولةٍ، لصالح أحمد الشَّامي، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1412هـ 1992م

151 - السِّـيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ، د. مصـطفى السِّـباعي، المكتب الإسـلامي - بيروت، لبنان، الطبعة التَّاسعة 1406هـ 1986م.

152 - السِّـيرة النَّبويَّة في ضـوء القرآن والسُّـنَّة لمحمد أبو شـهبة، دار القلم - دمشـق، الطَّبعة الثَّالثة، 1417هـ 1996م.

153 - السِّـيرة النَّبويَّة في ضـوء المصـادر الأصـليَّة، د. مهدي رزق الله أحمد، الطَّبعة الأولى 1412هـ 1992م، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة - الرِّياض.

154 - السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستي، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية - بيروت، الطَّبعة الأولى 1407هـ 1987م.

155 - السِّيرة النَّبويَّة، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر، بدون تاريخ.

156 - السِّـيرة النَّبويَّة، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصـطفى عبد الواحد، الطَّبعة الثانية، 1398هـ، دار الفكر بيروت - لبنان.

157 - السِّيرة النَّبويَّة، لمحمد الصَّوياني، مؤسَّسة الرَّيان، الطَّبعة الأولى، 1420هـ 1999م.

(ش)

158 - شذرات الذَّهب لعبد الحيِّ بن العماد الحنبليِّ، دار إحياء التُّراث العربيِّ - بيروت.

159 - شرح السُّنَّة لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغويِّ، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميَّة، الطَّبعة الأولى، 1965م - القاهرة.

160 - شـرح العقيدة الطَّحاويَّة لابن أبي العزِّ الحنفي، تحقيق، وتعليق، وتخريج أحاديث، وتقديم د. عبد الله بن عبد المحسن التُّركي، وشعيب الأرناؤوط، ط4، 1412هـ 1992م، مؤسَّسة الرِّسالة - بيروت.

161 - شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير - دمشق، الطَّبعة الأولى، 1410هـ 1989م.

162 - شرح المواهب اللَّدنية، للقسطلانيِّ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني، دار المعرفة، بيروت.

163 – شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ للإمام النَّوويِّ – أبو زكريا محيي الدِّين يحيى ابن شرف، المتوفى 676هـ طبع المطبعة المصريَّة ومكتبتها – القاهرة، عام 1349هـ.

164 – شرح رسالة التَّعاليم لمحمَّد عبد الله الخطيب، دار الوفاء.

165 – الشِّفا في التَّعريف بحقوق المصطفى، للإمام القاضي عياض، إستانبول، عثمانيَّة.

(ص)

166 – صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشنديِّ، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين، دار الكتب العلميَّة – بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ 1987م.

167 – الصَّحابيُّ الشَّاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى، تأليف محمَّد علي كاتبي، دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ 1999م.

168 – صحيح البخاريِّ لمحمَّد بن إسماعيل البُخاريِّ، دار الفكر، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1991م.

169 – صحيح الجامع الصَّغير وزياداته، لمحمَّد ناصر الدِّين الألباني، الطَّبعة الثَّالثة، 1408هـ 1988م، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان.

170 – صحيح السِّيرة النَّبويَّة للطَّرهوي، لمحمَّد رزق، مكتبة ابن تيميَّة – القاهرة، الطَّبعة الأولى 1414هـ.

171 – صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، دار النفائس، الطَّبعة الثَّالثة، 1408هـ 1998م.

172 – صحيح سنن ابن ماجه لناصر الدِّين الألباني، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج – الرِّياض، الطَّبعة الثالثة، 1408هـ 1988م.

173 – صحيح مسلمٍ بشرح النَّوويّ، المطبعة المصريَّة بالأزهر، الطَّبعة الأولى، 1347هـ 1929م.

174 – صحيح مسلمٍ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثَّانية، 1972م.

175 – الصِّراع مع الصَّليبيِّين لمحمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير – طنطا، طبعة عام 1419هـ 1999م.

176 – الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1990م.

177 – صـــفة الصـــفْوة لابن الجوزيِّ، تحقيق: محمود خوري، ومحمَّد روَّاس قلعجي، دار المعرفة – بيروت، الطَّبعة الثانية، 1399هـ.
178 – صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزيِّ، الطَّبعة الثَّانية، 1412هـ 1991م.
179 – صفوة التَّفاسير للصَّابوني، دار القرآن الكريم – بيروت، الطَّبعة الأولى – عام 1401هـ.
180 – صلاح الدِّين الأيوبي لعبد الله علوان.
181 – صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطَّبعة الثَّالثة، 1973م – 1393هـ.
182 – صـــورٌ من حياة الرَّســـول(ﷺ) لأمين دويدار، الطَّبعة الرَّابعة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
183 – صـــورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، تأليف: د. محمَّد فوزي فيض الله، دار القلم – دمشق، الدَّار الشَّاميَّة – بيروت، الطَّبعة الأولى، 1416هـ 1996م.

(ض)

184 – ضوابط المصلحة، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي، ط4، سنة 1402هـ، مؤسسة الرِّسالة.

(ط)

185 – الطَّاعة، والمعصية، وأثرهما في المجتمع، غزوة أحد، لمحمَّد بن صالح العثيمين.
186 – طبقات الشُّعراء الجاهليِّين، والإسلاميِّين، بدون معلومات نشر، لأبي عبد الله محمَّد بن سلام بن عبد الله الجمحي.
187 – طبقات ابن سعدٍ الكبرى، لمحمَّد بن سعد الزُّهري، دار صادر، ودار بيروت للطِّباعة والنشر 1376هـ 1957م.
188 – طريق النُّبوَّة والرِّسالة، د. حسين مؤنس، دار الرَّشاد، الطَّبعة الثَّانية، 1418هـ 1997م.
189 – الطَّريق إلى المدائن، لعادل كمال، دار النَّفائس، الطَّبعة الخامســة، 1407هـــ 1987م، بيروت – لبنان.
190 – الطَّريق إلى المدينة لمحمد العبده، دار الجوهرة – عمَّان، الطَّبعة الثانية، طبعة 1999م.
191 – الطَّريق إلى جماعة المسـلمين لحسـين بن محسـن بن علي جابر، الطبعة الخامسـة 1413هـ 1992م، دار الوفاء بالمنصورة – مصر.

(ظ)

192 – ظاهرة الإرجاء لسفر الحوالي، مكتبة الطَّيب، الطَّبعة الأولى، 1417هـ، القاهرة – مصر.

(ع)

193 – العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي، مؤسَّسة الرِّسالة – بيروت، الطَّبعة الثانية عشرة 1405هـ 1985م.

194 – عبد الله بن مسعودٍ، لعبد السـتَّار الشَّيخ، دار القلم – دمشق، الطبعة الثانية، 1410هـ 1990م.

195 – العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول(ﷺ) ، لمحمَّد فرج، الطَّبعة الثَّالثة، سنة 1977م، دار الفكر العربيّ – القاهرة.

196 – عقيدة أهل السُّنة في الصَّحابة، د. ناصر حسن الشّيخ، مكتبة الرُّشد، الطَّبعة الأولى، 1413هـ 1993م.

197 – علاج القرآن الكريم للجريمة، د. عبد الله الشَّنقيطي، مكتبة ابن تيميَّة – القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1413هـ.

198 – العلاقات الخارجية للدَّولة الإسلاميَّة، د. سعيد عبد الله حارب المهيري، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1416هـ 1995م.

199 – علاقة الاباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلامية، د. سعاد الصَّالح، الناشر تهامة – جدَّة، الطَّبعة الأولى، 1401هـ.

200 – عمدة القاري، شرح صحيح البخاريّ لبدر الدين العيني.

201 – العهد، والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمري، دار العاصمة، الطَّبعة الأولى 1413هـ.

202 – عون المعبود، شرح سنن أبي داود، تحقيق عبد الرَّحمن محمد عثمان، دار الفكر – بيروت.

203 – عيون الأثر في فنون المغازي، والشَّمائل، والسير، لابن سيِّد النَّاس، دار المعرفة – بيروت.

(غ)

204 – الغرباء الأوَّلون، سلمان العودة، الطَّبعة الثَّالثة، عام 1412هـ 1991م، دار ابن الجوزي، الدَّمام السُّعودية.

205 – غزوة أحدٍ لأحمد عزِّ الدين.

206 – غزوة أحد دراسةٌ دعويَّـــةٌ لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج، دار إشبيليا، الطَّبعة الأولى، 1420هـ 1999م.

207 – غزوة أحدٍ، لمحمد عبد القادر أبو فارس، ط1، 1402هـ 1982م، دار الفرقان، عمَّان – الأردن.

208 – غزوة الأحزاب لمحمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان – عمَّان، الطَّبعة الأولى، 1403هـ 1983م.

209 – غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل، دار الفكر، الطَّبعة الخامسة، 1397هـ 1977م.

210 – غزوة بدر الكبرى الحاسمة لمحمود شيت خطَّاب.

211 – غزوة بدر الكبرى، لمحمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى 1402هـ 1982م.

212 – غزوة بدر الكبرى لمحمد أحمد باشميل، طبع دار الفكر، الطَّبعة السادسة، سنة 1394هـ.

213 – غزوة تبوك لمحمَّد أحمد باشميل، دار الفكر – بيروت.

(ف)

214 – فتح الباري لابن حجر العسقلاَّني، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

215 – الفتح الرَّبَّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الشِّهاب، القاهرة، بدون تاريخ.

216 – الفتح الرَّبَّاني لأحمد عبد الرحمن السَّــاعاتي، في ترتيب مســند الإمام أحمد: أحمد عبد الرحمن الساعاتي، مطبعة الفتح الرَّبَّاني بالقاهرة، الطَّبعة الأولى.

217 – فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفســير: محمد بن علي الشَّــوكاني، دار الفكر.

218 – الفصل في الملل، والنِّحل، والأهواء، لابن حزم، مكتبة السَّلام العالميَّة.

219 – فصول في السِّيرة النَّبويَّة، لعبد المنعم السَّيِّد.

220 – فقه الإســلام، شــرح بلوغ المرام لفضــيلة الشــيخ عبد القادر شــيبة الحمد، مطابع الرَّشــيد – المدينة المنوَّرة، الطَّبعة الأولى، عام 1403 هـ.

221 - فقه الابتلاء لمحمَّد أبو صـــعيليك، دار البيارق، عمَّان - بيروت، الطَّبعة الأولى 1420 هـ 1999 م.

222 - فقه التَّمكين في القرآن الكريم لعليٍّ محمَّد الصَّـــلاَّبي، دار البيارق - عمَّان، الطَّبعة الأولى 1999م.

223 - فقه الدَّعوة إلى الله لعبد الحليم محمود، دار الوفاء، الطَّبعة الأولى 1410 هـ 1990 م.

224 - فقه الدَّعوة الفرديَّة، د. سيد محمَّد نوح، دار اقرأ، صنعاء.

225 - فقه الزَّكاة للقرضاوي، مكتبة وهبة، الطَّبعة الحادية والعشرون، 1414 هـ 1994 م.

226 - الفقه السِّـــياســـي للوثائق النَّبويَّة، خالد الفهداوي، دار عمَّار، الطَّبعة الأولى 1419 هـ 1998 م.

227 - فقه السِّيرة النَّبويَّة، لمنير الغضبان، معهد البحوث العلميَّة، وإحياء التراث - مكَّة المكرَّمة.

228 - فقه السـيرة، لمحمَّد سـعيد رمضـان البوطي، الطَّبعة الحادية عشـرة، 1991 م، دار الفكر، دمشق - سورية.

229 - فقه السِّيرة للغزالي، الطَّبعة الرابعة، 1409 هـ 1989 م، دار القلم، دمشق - سورية.

230 - فلســفة التَّربية الإســلاميَّة لماجد عرســان الكيلاني، مكتبة هادي، مكَّة المكرَّمة، طبعة عام 1409 هـ.

231 - الفوائد لابن القيِّم لمحمَّد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية، ودار الرَّيان للتُّراث، القاهرة - مصــــر، الطَّبعة الأولى 1407 هـ 1987 م.

232 - في السِّــــيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد، الطَّبعة الأولى رجب 1417 هـ، وزارة الأوقاف - بدولة قطر.

233 - في ظلال السِّـــيرة النَّبويَّة، الهجرة النَّبويَّة، الدُّكتور محمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمَّان - الأردن، الطَّبعة الثانية، 1408 هـ 1988 م.

234 - في ظلال القرآن لسيِّد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة التَّاسعة، 1400 هـ 1980 م.

(ق)

235 - القاموس المحيط لمجد الدِّين محمد الفيروز ابادي، مطبعة مصـــطفى البابي وأولاده - بمصــــر، الطَّبعة الثانية 1371 هـ 1952 م.

236 - قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية، لمحمد قلعجي، دار النفائس، الطَّبعة الأولى 1416 هـ 1996 م، بيروت – لبنان.

237 - قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، وأثرها في التُّراث العربيِّ، تأليف د. السيد إبراهيم محمَّد، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1406 هـ 1986 م.

238 - قضايا في المنهج، سلمان العودة، دار مكتبة القدس، الطَّبعة الثَّالثة، 1420 هـ 1999 م.

239 - قضايا نساء النَّبي(ﷺ) والمؤمنات، حفصة بنت عثمان الخليفي، دار المسلم الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.

240 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام: لأبي محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السلمي (ت660 هـ)، المكتبة الحسينية المصريَّة، بجوار الأزهر، الطبّعة الأولى 1353 هـ 1934 م.

241 - القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين، د. محمَّد الطيب النَّجار، دار اللِّواء، الرِّياض، 1401 هـ 1981 م.

242 - قيادة الرسول السِّياسيَّة، والعسكريَّة لأحمد راتب عرموش، دار النَّفائس، الطَّبعة الأولى 1419 هـ 1989 م.

243 - القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول(ﷺ) ، دار القلم، الطَّبعة الأولى، 1410 هـ 1990 م.

(ك)

244 - الكامل في التَّاريخ لابن الأثير، لأبي الحسن علي بن محمَّد، دار صادر – بيروت.

(ل)

245 - لسان العرب، محمَّد بن مكرم بن منظور، دار صادر – بيروت.

246 - لقاء المؤمنين، عدنان النَّحوي، مطابع الفرزدق التِّجارية، الرِّياض – السُّعودية، الطَّبعة الثَّالثة، 1405 هـ 1985 م.

(م)

247 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الحسني النَّدويِّ، الطَّبعة السابعة، 1408 هـ 1988 م، دار المعارف.

248 - المال في القرآن الكريم، سليمان الحصين، دار المعراج الدَّوليَّة، الطَّبعة الأولى، 1415 هـ

1995 م.
249 - مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرّياض، الطَّبعة الثانية، 1416 هـ 1996 م.
250 - مباحث في التَّفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق - سورية.
251 - مباحث في علوم القرآن، منَّاع القطان، مكتبة المعارف - الرِّياض، الطَّبعة الثامنة، 1401 هـ 1981 م.
252 - مبادئ علم الإدارة لمحمَّد نور الدِّين عبد الرزَّاق، مكتبة الخدمات الحديثة، جدَّة - السُّعودية، الطَّبعة الأولى بدون تاريخ.
253 - مبادئ نظام الحكم في الإسلام لعبد الحميد متولِّي، الطَّبعة الأولى، دار المعارف.
254 - المبسوط للسَّرخسيِّ، شمس الدِّين السَّرخسي، مطبعة السَّعادة - مصر، الطَّبعة الأولى.
255 - المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة، د. أكرم العمري، الطَّبعة الأولى 1404 هـ 1984 م.
256 - مجلَّة المجتمع الكويتيَّة، عدد رقم 248، 17 صفر 1399 هـ.
257 - مجمع الزَّوائد، ومنبع الفوائد، نور الدِّين عليُّ بن أبي بكرٍ الهيثميُّ، الطَّبعة الثَّالثة، سنة 1402هـ 1982 م، دار الكتاب العربي - بيروت.
258 - مجموع فتاوى: شيخ الإسلام ابن تيميَّة، جمع عبد الرحمن بن محمَّد قاسم العاصمي النَّجدي، المكتب التعليميُّ السُّعوديُّ بالمغرب.
259 - مجموعة الوثائق السِّياسية لمحمد حميد الله، دار النَّفائس، الطَّبعة الخامسة، 1405 هـ 1985م.
260 - محاسن التَّأويل للقاسمي لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي، دار الفكر، بيروت.
261 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، طبعة 1395 هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب.
262 - محمَّد رسول الله، لمحمَّد الصَّادق عرجون، دار القلم، الطَّبعة الثانية، 1415 هـ 1995 م.
263 - محمد رسول الله، لمحمَّد رشيد رضا، دار الكتب العلميَّة - بيروت، 1975 م.
264 - محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، د. سليمان السّويكت، مكتبة التَّوبة - الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1412 هـ 1992 م.

265 – المختار من كنوز السُّـــنَّة، لمحمَّد عبد الله دراز، دار الأنصـــار – القاهرة، الطَّبعة الثَّانية 1978م.
266 – مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهمية المعطِّلة لابن قيِّم الجوزيَّة، اختصره محمد الموصلي، مكتبة الرِّياض الحديثة.
267 – مختصر سيرة الرَّسول(ﷺ) لمحمَّد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمَّد بن سعود.
268 – مختصر صحيح مسلم، للحافظ زكي عبد العظيم عبد القويِّ بن سلامة المنذري، تحقيق محمد ناصر الألباني – الطَّبعة الثالثة سنة 1397 هـ 1977 م. المكتب الإسلامي – دمشق.
269 – المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة، لمحمَّد جمال الدِّين علي محفوظ، مطابع الهيئة المصريَّة للكتاب بالقاهرة.
270 – مدخل لفهم السِّيرة، د. يحي اليحي، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها.
271 – المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة، لأبي فارس، دار الفرقان، عمَّان.
272 – المدينة النَّبوية، فجر الإسلام، والعصر الرَّاشدي، لمحمد حسن شراب، دار القلم – دمشق، الدّار الشَّامية – بيروت، الطَّبعة الأولى 1415 هـ 1994 م.
273 – المرأة في العهد النَّبويِّ، د. عصـــمة الدِّين كركر، دار الغرب الإســـلاميِّ، الطَّبعة الأولى، 1993م بيروت.
274 – مرض النَّبيِّ(ﷺ) ووفاتُه وأثره على الأمَّة لخالد أبو صـــالح، دار الوطن، الطَّبعة الأولى، 1414هـ.
275 – مرويات غزوة أحدٍ، حسين أحمد الباكري، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلاميَّة، إشراف د. أكرم العمري، عام 1400 هـ 1399 م.
276 – مرويات غزوة الحديبية، د. حافظ الحكمي، دار ابن القيِّم، الطبعة الأولى 1411 هـ 1991م.
277 – مرويات غزوة بدرٍ لأحمد باوزير، مكتبة طيبة، الطَّبعة الأولى 1400 هـ 1980 م.
278 – مرويات غزوة بني المصـــطلق، لإبراهيم القريبي، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإســـلاميَّة – المدينة المنورة، الطَّبعة الأولى، عام 1402 هـ.
279 – مساجد القاهرة ومدارسها، لأحمد فكري، طبعة الإسكندريَّة، 1961 م.

280 - المستدرك على الصَّحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النَّيسابوري، وبذيله التَّلخيص للذَّهبي، ط 1390 هـ 1970 م، دار النَّشر مكتب المطبوعات الإسلاميَّة.
281 - المستشفيات الإسلاميَّة، د. عبد الله عبد الرَّزَّاق مسعود العيد، دار الضِّياء للنَّشر والتَّوزيع، الطَّبعة الأولى 1408 هـ 1987 م، عمَّان - الأردن.
282 - المستَطْرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَظْرَف لشهاب الدِّين الأبشيهي، مكتبة الحياة - بيروت.
283 - المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة لعبد الكريم زيدان، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى 1418 هـ 1997 م.
284 - المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة لعبد الرَّحمن أحمد سالم، دار الفكر العربي، طبعة 1418 هـ 1997 م.
285 - المسند لأحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.
286 - المشروع الإسلامي لنهضة الأمَّة قراءةٌ في فكر حسن البنَّا، لمجموعة من الباحثين، لم تطبع حتَّى كتابة هذا البحث.
287 - مشكاة المصابيح، للخطيب التبريزي، تحقيق: محمَّد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي - دمشق، ط1، 1381 هـ 1961 م.
288 - مصعب بن عمير، الدَّاعية المجاهد، لمحمَّد حسن بريغش، دار القلم - دمشق، الطَّبعة الرَّابعة، 1407 هـ 1987 م
289 - مصنَّف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزَّاق بن همَّام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرَّحمن الأعظمي، الطَّبعة الأولى.
290 - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثَّمانية لأحمد بن علي بن حجر العسقلاَّني، تحقيق: حبيب الرَّحمن الأعظمي.
291 - معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، الطَّبعة الرابعة 1989 م، المؤسَّسة العربيَّة للدراسة والنَّشر.
292 - معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود، د. مصطفى مسلم محمَّد، دار المسلم - الرِّياض، الطبعة الأولى، 1415 هـ 1994 م.
293 - المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي، د. محمد الدِّيك، الطَّبعة الثانية، 1418هـ

1997 م، دار الفرقان للنَّشر والتَّوزيع.
294 – معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، ودار بيروت، 1404 هـ 1984 م.
295 – معجم الطَّبراني، لسليمان بن أحمد الطَّبراني، دار العربيَّة – بغداد، 1398 هـ.
296 – المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبراني، 260 هـــ 360 هـــ، دار مكتبة العلوم والحكم، ط 2، 1406 هـ 1985 م.
297 – معركة الوجود بين القرآن والتُّلمود، لعبد السَّتَّار فتح الله السَّعيد، مكتبة المنار.
298 – المعوِّقون للدَّعوة الإسـلاميَّة في عهد النُّبوَّة، وموقف الإسـلام منهم، للدَّكتور سميرة محمَّد جمجوم، دار المجتمع – جدَّة، الطَّبعة الأولى 1407 هـ 1987 م.
299 – المغازي النبويَّة، للزُّهري، تحقيق سهيل زكَّار، دار الفكر – دمشق 1401 هـ 1981 م.
300 – مغازي رسـول الله(ﷺ) لعروة بن الزُّبير، تحقيق: د. محمد الأعظمي، نشـر مكتب التَّربية العربي لدول الخليج – الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1401 هـ 1981 م.
301 – المغازي للواقديِّ، المتوفى 207 هـــ، تحقيق د. مارسـدن جونس، عالم الكتب – بيروت، الطَّبعة الثالثة 1404 هـ 1984 م.
302 – مفاهيم ينبغي أن تصـحَّح، لمحمَّد قطب، دار الشُّـروق – القاهرة، الطَّبعة الثَّامنة 1413 هـ 1993م.
303 – المفصَّل في أحكام النِّسـاء، لعبد الكريم زيدان، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1413 هـ 1993 م.
304 – مقاصـد الشَّـريعة الإسـلاميَّة، د. محمَّد سـعد اليوبي، دار الهجرة – الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1998 م.
305 – المقاصد العامَّة للشَّريعة الإسلاميَّة، يوسـف حامد العالم، الدَّار العلميَّة للكتاب الإسلاميِّ، ط2، سنة 1415 هـ 1993 م – الرِّياض.
306 – مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقي أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصَّلاح، طبع دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان.
307 – مقدِّمة ابن خلدون، للعلاَّمة عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد بن خلدون، ط المكتبة التِّجارية الكبرى – القاهرة، بدون تاريخ.

308 – مقومات الدَّاعية النَّاجح، د. علي بادحدح، دار الأندلس الخضـــراء – جدَّة الطَّبعة الأولى 1417 هـ 1996 م.

309 – مقوِّمات السُّـفراء في الإسـلام، لحســن فتح الباب، المجلس الأعلى للشُّـؤون الإسـلاميَّة – القاهرة، 1970 م.

310 – مقوِّمات النَّصر، د. أحمد أبو الشَّباب، المكتبة العصريَّة – لبنان، 1420 هـ 1999 م.

311 – مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول(ﷺ) ، للأستاذ أحمد الشَّريف.

312 – ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة، لعدنان النَّحوي، الطَّبعة الثانية.

313 – مِنْ معين السِّـيرة لصـالح أحمد الشَّـامي، المكتب الإسـلامي، الطَّبعة الثانية، 1413 هـ 1992م.

314 – من هدي سورة الأنفال، لمحمَّد أمين المصري، طبع مكتبة دار الأرقم – الكويت.

315 – المنافقون، لمحمَّد جميل غازي، مكتبة المدني ومطبعتها، 1972 م، جدَّة – السُّعودية.

316 – منامات الرَّسـول(ﷺ) ، لعبد القادر الشَّـيخ إبراهيم، دار القلم العربي بحلب، الطَّبعة الأولى 1419 هـ 1999 م.

317 – مناهج واداب الصَّـــحابة في التَّعلُّم والتَّعليم، د. عبد الرحمن البر، دار اليقين – المنصـــورة، الطَّبعة الأولى 1420 هـ 1999 م.

318 – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد ابن الجوزي، دراســة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان.

319 – منهاج السُّنَّــة النَّبويَّــة، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة، مؤسَّسة قرطبة للطِّباعة، والنَّشر، والتَّوزيع، الطَّبعة الأولى 1416 هـ 1986 م.

320 – المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع لعبد السَّتار فتح الله سعيد، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة، الطَّبعة الأولى 1413 هـ 1992 م.

321 – منهج الإعلام الإسـلاميِّ في صـلح الحديبية، لسـليم حجازي، دار المنارة، الطَّبعة الأولى، 1406 هـ 1986 م.

322 – منهج الإســلام في تزكية النَّفس، د. أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، الطَّبعة الثانية 1418 هـ 1997 م.

323 – المنهج التربويُّ للسِّـــيرة النَّبويَّة – التَّربية الجهاديَّة لمنير محمَّد الغضـــبان، مكتبة المنار، الطَّبعة الأولى، 1411 هـ 1991 م.

324 – منهج التَّربية الإسلاميَّة لمحمد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة الخامسة، 1403 هـ 1983 م.

325 – المنهج الحركيُّ للسِّـــيرة النَّبويَّة لمنير محمَّد الغضـــبان، مكتبة المنار – الأردن، الطَّبعة الثالثة 1411هـ 1990 م.

326 – منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه، للسَّيِّد محمَّد نوح، الطَّبعة الأولى، 1411 هـ 1990 م، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة.

327 – الموازنة بين ذوق السَّماع، وذوق الصَّلاة، والقرآن للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد.

328 – الموافقات في أصول الأحكام لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشَّاطبي، دار الفكر، 1341 هـ.

329 – الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمَّد صادق عرجون، ط الثَّانية 1404 هـ 1984 م، الدَّار السُّعودية للنَّشر، والتَّوزيع – جدَّة.

(ن)

330 – نشـأة الدَّولة الإسـلاميَّة، د. عون الشَّـريف قاسـم، دار الكتاب اللُّبناني – بيروت، ط2، 1400هـ 1980 م.

331 – نصب الرَّاية في أحاديث الهداية – بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزَّيلعي، لعبد الله بن يوسف بن محمد الزَّيلعي، المكتب الإسلامي – دمشق 1393 هـ.

332 – نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي، لظافر القاسمي، دار النفائس، الطَّبعة السادسة 1411 هـ 1990 م.

333 – نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى: التَّراتيب الإداريَّة، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني، دار الأرقم، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثَّانية.

334 – النِّظام السِّـــياســـيُّ في الإســـلام، لمحمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الثانية 1407هـ 1986 م.

335 – نظراتٌ في السِّيرة، للإمام حسن البنَّا، مكتبة الاعتصام، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1399 هـ 1979 م، سجَّلها، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور.

336 – نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم، إعداد مجموعة من المختصِّين بإشراف صالح بن حميد، دار الوسيلة، الطَّبعة الأولى 1418 هـ

337 – نفوسٌ ودروسٌ في إطار التَّصوير القرآنيّ لتوفيق محمَّد سبع، مجمع البحوث الإسلاميَّة، القاهرة – مصر، الطَّبعة الأولى، بدون تاريخ.

338 – النُّكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن حبيب الماورديّ، تحقيق خضر محمَّد خضر – نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، والتُّراث الإسلاميّ – بالكويت.

339 – النِّهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزَّاوي، ومحمود محمَّد الطناحي.

340 – نور اليقين، لمحمَّد الخضري، دار القلم، دمشق – سورية.

341 – نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيِّد الأخيار، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني، دار الحديث – القاهرة.

(هـ)

342 – الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، دار طيبة للنَّشر – الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1419 هـ.

343 – هجرة الرَّسول(ﷺ) وصحابتُه في القرآن والسُّنَّة لأحمد عبد الغني النجولي الجمل، دار الوفاء، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

344 – الهجرة النَّبويَّة المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة – مصر، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.

345 – الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرُّشد – الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1417 هـ 1996 م.

346 – هذا الحبيب محمَّد(ﷺ) يا محبُّ لأبي بكر الجزائري، مكتبة لينة.

347 – هذا الدِّين، لسيِّد قطب، دار الشُّروق، القاهرة – مصر، الطَّبعة الرَّابعة، 1412 هـ 1992م.

(و)

348 – واقعنا المعاصر لمحمَّد قطب، مؤسَّسة المدينة للصَّحافة، والطِّباعة، والنَّشر – جدَّة، الطَّبعة الثَّانية 1408 هـ 1987 م.

349 – الوحي والرِّسالة، د. يحيى اليحيى، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.

350 – الوسطية في القرآن الكريم، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي، دار النَّفائس، دار البيارق، الطَّبعة الأولى 1419 هـ 1999 م.

351 – وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة 1326 هـ.

352 – الوفود في العهد المكِّيِّ، وأثره الإعلاميِّ، لعلي رضوان أحمد الأسطل، الطَّبعة الأولى 1404 هـ 1984 م، دار المنار – الأردن، عمَّان.

353 – وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة لأحمد فريد، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الثَّالثة، 1417 هـ 1997 م.

354 – وقفاتٌ تربويَّةٌ من السِّيرة النَّبويَّة، لعبد الحميد البلالي، الطَّبعة الثَّالثة، 1411 هـ 1991 م، المنار، الكويت.

355 – الولاء، والبراء في الإسلام، لمحمَّد سعيد القحطان، دار طيبة – الرِّياض، الطَّبعة السَّادسة 1413 هـ.

356 – ولاية الشُّرطة في الإسلام، لنمر محمَّد الحميداني، دار عالم الكتب، الطَّبعة الثَّانية، 1414 هـ 1994 م.

(ى)

357 – يقظةُ أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار، لصدِّيق حسن.

358 – اليهود في السُّنَّة المطهَّرة، د. عبد الله الشقاري، دار طيبة – الرِّياض، طبعة أولى، 1417 هـ 1996 م.

359 – اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار، د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح – الكويت، الطَّبعة الثَّانية، 1408هـ 1988 م.

فهرس الموضوعات

كتب صدرت للمؤلف:

1 – السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2 – سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3 – سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4 – سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5 – سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6 – سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

7 – الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8 – فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

9 – تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10 – تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11 – عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12 – الوسطية في القران الكريم.

13 – الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14 – معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

15 – عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16 – خلافة عبد الله بن الزبير.

17 – عصر الدولة الزنكية.

18 – عماد الدين زنكي.

19 - نور الدين زنكي.

20 - دولة السلاجقة.

21 - الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22 - الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23 - الشيخ عمر المختار.

24 - عبد الملك بن مروان وبنوه.

25 - فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26 - حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27 - وسطية القران في العقائد.

28 - فتنة مقتل عثمان.

29 - السلطان عبد الحميد الثاني.

30 - دولة المرابطين.

31 - دولة الموحدين.

32 - عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33 - الدولة الفاطمية.

34 - حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35 - صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36 - استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 - الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38 - الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح

الدين.

39 – المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40 – سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 – الشورى في الإسلام.

42 – الإيمان بالله جل جلاله.

43 – الإيمان باليوم الآخر.

44 – الإيمان بالقدر.

45 – الإيمان بالرسل والرسالات.

46 – الإيمان بالملائكة.

47 – الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48 – السلطان محمد الفاتح.

49 – المعجزة الخالدة.

50 – الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51 – البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52 – التداول على السلطة التنفيذية.

53 – الشورى فريضة إسلامية.

54 – الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55 – العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56 – المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57 – العدل في التصور الإسلامي.

58 – كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 – الأمير عبد القادر الجزائري.

60 – كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61 – سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62 – كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63. أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

* السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
* سير الخلفاء الراشدين
* الدولة الحديثة المسلمة
* الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط
* فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح
* وسطية القرآن الكريم في العقائد.
* صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
* تاريخ كفاح الشعب الجزائري
* العدالة والمصالحة الوطنية
* وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".